

تَفْسِيرُ

# الْحَرَامِ الْمَحِيطِ

لمحمد بن يوسف الشهير بابن أبي حيان الأندلسي

المتوفى ٧٤٥ هـ

دراسة وتحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود  
الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الدكتور زكريا عبد المجيد النوي  
الدكتور أحمد النجولي المجل  
أستاذ اللغة العربية بجامعة الأزهر  
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

قرضه

الأستاذ الدكتور عبد المحي الفرماوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين، جامعة الأزهر

المجلد السابع

المحتوى

أول الشعراء - آخر السور



دار الكتب العلمية  
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah  
DKI

أسستها مكتبة كلوت بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان  
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon  
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : **Tafsir al-Bahr al-Muḥīṭ**  
(The exegesis of the Holy Qur'an)

الكتاب : تفسير البحر المحيط

Classification: Exegesis of The Qur'an

التصنيف : تفسير قرآن

Author : Abu Ḥayyān al-ʿAndalusi

المؤلف : أبو حيان الأندلسي

Editor : Al-ṣayḥ ʿĀdil ʿAbdul-Mawjūd

المحقق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

and: Al-ṣayḥ ʿĀli Muʿawwad

والشيخ علي محمد معوض

and: Dr. Zakariyyā al-Nūti

والدكتور زكريا عبدالمجيد النوتي

and: Dr. Aḥmad al-Jamal

والدكتور أحمد النجولي الجمل

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Pages : 4704 (9 volumes)

عدد الصفحات : 4704 (9 أجزاء)

Size : 17\*24

قياس الصفحات : 17\*24

Year : 2010

سنة الطباعة : 2010

Printed in : Lebanon

بلد الطباعة : لبنان

Edition : 3<sup>rd</sup>

الطبعة : الثالثة (لبنان)



**DKI**  
**Dar Al-Kotob**  
**Al-ilmiyah**

Est. by Mohamad Ali Baydoun  
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,  
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.  
Tel : +961 5 804 810/11/12  
Fax: +961 5 804 813  
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,  
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية  
هاتف: +961 5 804 810/11/12  
فاكس: +961 5 804 813  
ص.ب: 11-9424 بيروت-لبنان  
رياض الصلح بيروت 11072290

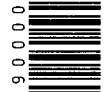
Exclusive rights by © Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah  
Beirut-Lebanon No part of this publication may be  
translated, reproduced, distributed in any form or by any  
means, or stored in a data base or retrieval system, without  
the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah  
Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction  
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation  
préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à  
des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية  
بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تضيد الكتاب  
كاملاً أو مجزأً أو تعجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر  
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

ISBN 978-2-7451-3250-5

ISBN 2-7451-3250-4



9 782745 132505

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ  
 آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا  
 فَسِيئَتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ  
 الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ  
 لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ  
 مُسْتَعْمُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ  
 فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئِثْنَا مِنَّا مِنْ عَمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنَا الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ  
 فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ  
 نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا  
 بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ  
 رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِيَنْ  
 أَخَذتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ  
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ  
 لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا  
 أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْعُثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَلَّى كَيْفَ يَسْحَارُ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ

مَعْلُومٍ ٢٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ تُحْتَمِعُونَ ٢٩ لَعَلْنَا نُنَجِّعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ٣٠ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ  
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ٣١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ٣٢ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا  
أَنْتُمْ مُقْلُونَ ٣٣ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ٣٤ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا  
هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ٣٥ فَأَلْفَى السَّحَرَةُ سُدُجِينَ ٣٦ قَالُوا أَمَنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٧ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ٣٨ قَالَ  
ءَامِنْتُمْ لَمْ قَبُلْ أَنْ ءَادَنْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْجِلُكُمْ مِنْ  
خَلْفِ وَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ٤٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ  
كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ٤١ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ٤٢ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ  
حَاشِرِينَ ٤٣ إِنْ هَتُولَاءِ لِشُرذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٤٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ٤٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ٤٦ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتِ  
وَعَيْوُنٍ ٤٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ٤٨ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٤٩ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ٥٠ فَلَمَّا تَرَاءَى  
الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ٥١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٥٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ  
أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٥٣ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ ٥٤ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى  
وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٥٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٥٦ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٥٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ  
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥٨ وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ٥٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٦٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا  
فَنَنْظِلُ لَهَا عَظْمِينَ ٦١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ٦٢ أَوْ يَبْصُرُونَكَ أَوْ يُضَرُّونَ ٦٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا  
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٦٤ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٦٥ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ٦٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا  
رَبَّ الْعَالَمِينَ ٦٧ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ٦٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ٦٩ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٧٠  
وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ٧١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ٧٢ رَبِّ هَبْ لِي  
حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ ٧٣ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ٧٤ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ٧٥  
وَأَغْفِرْ لَأَيِّئِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ٧٦ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ٧٧ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٧٨ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ  
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٧٩ وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَفِينِ ٨٠ وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٨١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٨٢ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ٨٣ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ٨٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٨٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا  
يَخْتَصِمُونَ ٨٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٨٧ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ٨٨ وَمَا أَصْلَانَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ٨٩

فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾

الشرذمة : الجمع القليل المحتقر ، وشرذمة كل شيء بقيته الخسيمة وأنشد « أبو عبيدة » .

### في شَرَاذِمِ الْبِغَالِ

وقال آخر : جاء الشتاء وقميصي أخلاق شراذم يضحك منه ، وقال « الجوهري » : الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء ، وثوب شراذم : أي قطع انتهى ، وقيل ، السفلة من الناس ، كبكبه : قلب بعضه على بعض ، وحروفه كلها أصول عند جمهور البصريين ، وقال « الزمخشري » الكبكية . تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى ، وقال « ابن عطية » : كبكب مضاعف من كب ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح لأن معناهما واحد والتضعيف في الفعل نحو صَرََّ وصرَّصَرَ انتهى وقول « الزمخشري » و« ابن عطية » هو قول « الزجاج » وهو أنه يزعم أن نحو كبكبه مما يفهم المعنى بسقوط ثالثه هو مما ضعوف فيه الباء ، وذهب « الكوفيون » إلى أن الثالث بدل من مثل الثاني ، فكان أصله : كبب فأبدل من الباء الثانية كاف ، « الحميم » الولي القريب ، وحامة الرجل : خاصته ، وقال « الزمخشري » : الحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهيم ما أهمك ، أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص ﴿ طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسأيتهم أبناء ما كانوا به يستهزئون أولم ير إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم وإذ نادى ربك موسى أن اتت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هرون ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهباً بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ .

هذه السورة كلها مكية في قول « الجمهور » إلا أربع آيات من (والشعراء يتبعهم الغاؤون) إلى آخر السورة<sup>(١)</sup> قاله « ابن عباس » و« عطاء » و« قتادة » ، وقال « مقاتل » (أولم يكن لهم آية) الآية مدنية ، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها أنه قال تعالى : ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ ذكر تلهف رسول الله ﷺ على كونهم لم يؤمنوا ، وكونهم كذبوا بالحق لما جاءهم ، ولما أوعدهم في آخر السورة بقوله (فسوف يكون لزاماً) أوعدهم في أول هذه فقال في إثر إخباره بتكذيبهم (فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون) وتلك إشارة إلى آيات السورة أو آيات القرآن .

وأمال فتحة الطاء « حمزة » و« الكسائي » و« أبو بكر » ، وباقى السبعة : بالفتح و« حمزة » بإظهار نون سين ، وباقى « السبعة » بإدغامها ، و« عيسى » بكسر الميم من « طسم » هنا وفي القصص ، وجاء كذلك عن « نافع » ، وفي مصحف « عبد الله » (ط من م) مقطوع وهي قراءة « أبي جعفر » ، وتكلموا على هذه الحروف بما يشبه اللغز والأحاجي فتركت نقله إذ لا دليل على

شيء مما قالوه، و«الكتاب المبين» هو القرآن هو بَيِّنٌ في نفسه، ومُبَيِّنٌ غيره من الأحكام والشرائع وسائر ما اشتمل عليه، أو مبين إعجازهِ وصحة أنه من عند الله، وتقدم تفسيره (بإصحاح<sup>(١)</sup> نفسك) في أول الكهف (ألا يكونوا) أي لثلاثا يؤمنوا، أو خيفة أن لا يؤمنوا، وقرأ «قتادة» و«زيد بن علي» (بإصحاح نفسك) على الإضافة (إن نشأ نزل) دخلت إن على نشأ (وإن) للممكن أو المحقق المنبهم زمانه، قال «ابن عطية»: ما في الشرط من الإيهام هو في هذه الآية في حيزنا، وأما الله تعالى فقد علم أنه لا ينزل عليهم آية أضراراً، وإنما جعل الله آيات الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ليهتدي من سبق في علمه هداً، ويضل من سبق ضلاله، وليكون للنظرة كسب به يتعلق الثواب والعقاب وآية الاضطراب تدفع جميع هذا إذ لو كانت. انتهى ومعنى (آية) أي ملجئة إلى الإيمان يقهر عليه، وقرأ «أبو عمرو» في رواية «هرون» عنه (إن يشأ ينزل) على الغيبة، أي إن يشأ الله ينزل، وفي بعض المصاحف (لو شئنا لأنزلنا)، وقرأ الجمهور (فظلت) ماضياً بمعنى المستقبل لأنه معطوف على ينزل، وقرأ طلحة (فظلل)، وأعناقهم، قال «الزمخشري»<sup>(٢)</sup>: (فإن قلت) كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق؟، قلت أصل الكلام (فظلوا لها خاضعين) فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخشوع وترك الكلام على أصله كقولهم: ذهب أهل اليمامة، كأن الأهل غير مذكور. انتهى. وقال مجاهد و«ابن زيد» و«الأخفش» جماعتهم يقال جاءني عتق من الناس أي: جماعة<sup>(٣)</sup>، ومنه قول الشاعر.

إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ عَنَقَ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتًا<sup>(٤)</sup>

وقيل أعناق الناس رؤسؤهم ومقدموهم، شبهوا بالأعناق كما قيل :

لَهُمُ الرُّؤْسُ وَالنَّوَاصِي وَالصُّدُورُ، قال الشاعر :

فِي تَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي الْحَيْلِ مَشْهُودٌ<sup>(٥)</sup>.

وقيل : أريد الجارحة، فقال «ابن عيسى» هو على حذف مضاف، أي أصحاب الأعناق، وروعي هذا المحذوف في قوله (خاضعين) حيث جاء جمعاً للمذكر العاقل، أو لا حذف ولكنه اكتسى من إضافته للمذكر العاقل وصفه فأخبر عنه إخباره كما يكسب المذكر التانيث من إضافته إلى المؤنث في نحو :

كَمَا شَرَقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ<sup>(٦)</sup>.

أو لا حذف ولكنه لما وضعت لفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع جمعت جمعه كما جاء (أتينا طائعين)،

(١) بإصحاح : قال الفراء : أي : مخرج نفسك وقاتل نفسك .

لسان العرب (٢٢٢/١)

(٢) انظر الكشاف (٢٩٩/٣) .

(٣) انظر القرطبي (٦٢/١٣) .

(٤) من الكامل أنشده الفراء لرجل يدعو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للذهاب إلى العراق انظر معاني الفراء (٤٠/٢) وفيه (سلام عليك) وعليها لا شاهد الخصائص لابن جني (٢٧٩/١) شرح المفصل (٣٢/٤) اللسان (عتق ، وهيت) .

(٥) عجز بيت من البسيط لأم قبيس الضبية وصدرة (ومشهد قد كفيت الغائبين به ..) وفي اللسان (من نواصي الناس) الكشاف (١١٨/٢) .

(٦) عجز بيت للأعشى وصدرة (وتشرق بالقول الذي قد أذعنه ..) انظر ديوانه (١٨٣) المقتضب (١٩٧/٤) الخصائص (٤١٧/١) شرح

المفصل (١٥١/٧) معاني الفراء (١٨٧/١) (٣٧/٢) .

وقرأ عيسى وابن أبي عبلة (خاضعة)، وعن ابن عباس فنزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل أعناقهم بعد معاوية ويلحقهم هوان بعد عز<sup>(١)</sup>، (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) تقدم تفسيره في الأنبياء، (الا كانوا) جملة حالية أي ألا يكونوا عنها، وكان بدل ذلك أن ديدنهم وعاداتهم الإعراض عن ذكر الله.

قال الزمخشري: فإن قلت كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهو الإعراض؟

(قلت) كان قبل حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به، وحين كذبوا به فقد خف عليهم قدره وصار عرضة الاستهزاء بالسخرية، لأن من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصداقاً به لا محالة ولم يظن به التكذيب، ومن كان مصداقاً به كان موقراً له. انتهى، (فسياتيهم) وعيد بعذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة، ولما كان إعراضهم عن النظر في صنائع الوجود وتكذيب ما جاءهم به رسله من أعظم الكفر وكانوا يجعلون الأصنام آلهة نبه تعالى على قدرته وأنه الخالق المنشئ الذي يستحق العبادة بقوله (أولم يروا إلى الأرض) و«الزوج» النوع، وقيل: الشيء وشكله، وقيل: أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض.

وقال الفراء: الزوج اللون، والكريم الحسن، قاله مجاهد وقتادة. وقيل: ما يأكله الناس والبهائم، وقيل: الكثير المنفعة، وقيل: الكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد، «وجه كريم» مرضي في حسنه وجماله «وكتاب كريم» مرضي في معانيه وفوائده، قال حتى يشق الصفوف من كرمه أي من كونه مرضياً في شجاعته وبأسه، ويراد الأشياء التي بها قوام الأمور والأغذية والنباتات ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن اثنين قال تعالى ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ [نوح: ١٧]، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن صار إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فبضد ذلك، قال الزمخشري. فإن قلت: ما معنى الجمع بين «كم» و«كل» ولو قيل (أنبتنا فيها من كل زوج كريم) (قلت) دل (كل) على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل (وكم) على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع، وبه نبه على كمال قدرته. انتهى.

وأفرد (الآية) وإن كان قد سبق ما دل على الكثرة في الأزواج وهو (كم) وعلى الإحاطة بالعموم في الأزواج لأن المشار إليه واحد وهو الإنبات وإن اختلفت متعلقاته، أو أريد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية، (وما كان أكثرهم مؤمنين) تسجيل على أكثرهم بالكفر. (وإن ربك هو العزيز الرحيم) أي الغالب القاهر، ولما كان الموضوع موضع بيان القدرة قدم صفة العزة على صفة الرحمة، فالرحمة إذا كانت عن قدرة كانت أعظم وقعاً، والمعنى أنه عز في نعمته من الكفار، ورحم مؤمنين كل أمة ولما ذكر تكذيب قريش بما جاءهم من الحق وإعراضهم عنه ذكر قصة موسى عليه السلام وما قاسى مع فرعون وقومه ليكون ذلك مسلاة لما كان يلقاه عليه الصلاة والسلام من كفار قريش، وإذ كانت قريش قد اتخذت آلهة من دون الله، وكان قوم فرعون قد اتخذوه إلهاً، وكان أتباع ملة موسى عليه السلام هم المجاورون من آمن بالرسول ﷺ بدأ بقصة موسى ثم ذكر بعد ذلك ما يأتي ذكره من القصص، والعامل في (إذ) قال الزجاج «اتل» مضمرة أي اتل هذه القصة فيما يتلو إذ نادى ودليل ذلك ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ﴾ [الشعراء ٦٩]، وقيل العامل «اذكر» وهو مثل «واتل» ومعنى (نادى) دعا، وقيل أمر، (وأن) يجوز أن تكون مصدرية، وأن تكون تفسيرية. وسجل عليهم بالظلم لظلم أنفسهم بالكفر، وظلم بني إسرائيل بالاستعباد وذبح الأولاد، (وقوم فرعون)، قيل: بدل من القوم الظالمين، والأجود أن يكون عطف بيان لأنها عبارتان يعتقان على مدلول واحد، إذ كل واحد عطف البيان، وسوغه مستقل بالإسناد ولما كان (القوم الظالمين) يوهم الاشتراك أتى عطف البيان بإزالتة

إذ هو أشهر، وقرأ الجمهور (ألا يتقون) بالياء على الغيبة، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وشقيق بن<sup>(١)</sup> سلمة وحماد بن سلمة وأبو قلابة ببناء الخطاب على طريقة الالتفات إليهم إنكاراً وغضباً عليهم وإن لم يكونوا حاضرين لأنه مبلغهم ذلك ومكافحهم، قال ابن عطية: معناه: قل لهم فجمع في هذه العبارة من المعاني نفي التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: (فإن قلت) بم تعلق قوله (ألا يتقون) (قلت) هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم تعميماً لموسى عليه السلام من حالهم التي سعت في الظلم والعسف<sup>(٣)</sup>، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم، وحذرهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون (ألا يتقون) حالاً من الضمير في الظالمين أي يظلمون غير متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال انتهى وهذا الاحتمال الذي أورده خطأ فاحش، لأنه جعله حالاً من الضمير في (الظالمين) وقد أعرب هو (قوم فرعون) عطف بيان فصار فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي بينهما، لأن (قوم فرعون) معمول لقوله (أئت) والذي زعم أنه حال معمول لقوله (الظالمين) وذلك لا يجوز أيضاً لولم يفصل بينها بقوله (قوم فرعون) لم يجوز أن تكون الجملة حالاً، لأن ما بعد همزة يمتنع أن يكون معمولاً لما قبلها، وقولك «جئت أمسرعاً» على أن يكون «أمسعراً» حالاً من الضمير في «جئت» لا يجوز، فلو أضمرت عاملاً بعد همزة جاز، وقرئ بفتح النون وكسرها، التقدير «أفلا يتَّقُونِي» فحذفت نون الرفع لالتقاء الساكنين وياء المتكلم اكتفاء بالكسرة، وقال الزمخشري<sup>(٤)</sup> في (ألا يتقون) بالياء وكسر النون وجه آخر وهو: أن يكون المعنى «ألا يا ناس اتقون»، كقوله ﴿ألا يسجدوا﴾ [النمل ٢٥] انتهى. يعني وحذف ألف يا خطأ ونطقاً لالتقاء الساكنين، وهذا تخريج بعيد، والظاهر أن ألا للعرض المضمن الحذف على التقوى، وقول من قال إنها للتنبية لا يصح. وكذلك قول الزمخشري إنها للنفي دخلت عليها همزة الإنكار. ولما كان فرعون عظيم النخوة - حتى ادعى الإلهية - كثير المهابة، قد أشربت القلوب الخوف منه خصوصاً من كان من بني إسرائيل قال موسى عليه السلام (إني أخاف أن يكذبون)، وقرأ الجمهور: (وَيُضِيقُ) (وَلَا يَنْطَلِقُ) بالرفع فيها عطفاً على (أخاف) فالمعنى أنه يفيد ثلاث علل: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى وزيد بن علي وأبو حيوة وزائدة عن الأعمش ويعقوب بالنصب فيهما عطفاً على (يكذبون) فيكون التكذيب وما بعده يتعلق بالخوف، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعرج أنه قرأ بنصب (ويضيق) ورفع (ولا ينطلق) وعدم انطلاق اللسان هو بما يحصل من الخوف وضيق الصدر، لأن اللسان إذ ذاك يتلجلج<sup>(٥)</sup> ولا يكاد يبين عن مقصود الإنسان، وقال ابن عطية: وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب لها ألفاظ محررة، فإذا كان هذا في وقت ضيق الصدر لم ينطلق اللسان، (فأرسل إلى هارون) معناه يعينني ويوازرني، وكان هارون عليه السلام فصيحاً واسع الصدر فحذف بعض المراد من القول إذ باقيه دال عليه. انتهى.

(١) شقيق بن أبي سلمة الأسدي أبو وائل الكوفي أحد سادة التابعين مخضرم توفي بعد الجهاجم وقال الواقدي: في خلافة عمر الخلافة (٤٥٣/١).

(٢) انظر الكشف ٣٠١/٣.

(٣) العسف: عسف فلان فلاناً عسفاً: ظلمه، واعتسف وتعسف: ظلم، وهو من ذلك وفي الحديث لا تبلغ شفاعتي إماماً عسوفاً، أي جائرأ ظلوماً. والعسف في الأصل أن يأخذ المسافر على غير طريق ولا جادة ولا علم، فنقل إلى الظلم والجور.

لسان العرب ٤/٤٤٣٢٩

(٤) انظر الكشف (٣٠٢/٣).

(٥) يتلجلج: اللجلجة: ثقل اللسان، ونقص الكلام، وألا يخرج بعضه في أثر بعض، قيل لأعرابي: ما أشد البرد؟ قال: إذا دمعت العينان وقطر المتخران ولجلج اللسان. أنشد: ومنطق بلسان غير لجلج.

لسان العرب (٥/٤٠٠٠)



وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: ومعنى (فأرسل إلى هارون) أرسل إليه جبريل عليه السلام، واجعله نبياً، وآزرني به، واشدد به عضدي، وهذا كلام مختصر، وقد أحسن في الاختصار حيث قال (فأرسل إلى هارون) فجاه بما يتضمن معنى الاستثناء وقوله (إني أخاف) إلى آخره بعد أن أمره الله بأن يأتي القوم الظالمين ليس توقفاً فيما أمره الله تعالى به، ولكنه طلب من الله أن يعضده بأخيه حتى يتعاونوا على إنفاذ أمره تعالى وتبليغ رسالته مهد قبل طلب ذلك عذره ثم طلب، وطلب العون دليل على القبول لا على التوقف والتعلل، ومفعول (أرسل) محذوف، فقيل: جبريل كما تقدم ذكره، وفي الخبر أن الله أرسل موسى إلى هارون، وكان هارون بمصر حين بعث الله موسى نبياً بالشام، قال السدي: سار بأهله إلى مصر فالتقى بهارون وهو لا يعرفه، فقال: أنا موسى، فتعارفا، وأمرهما أن ينطلقا إلى فرعون لأداء الرسالة، فصاحت أمهما لخوفها عليهما، فذهب إليهما، (ولهم عليّ ذنب) أي قبلي قود<sup>(٢)</sup> أذنب أو عقوبة، وهو قتله القبطي الكافر خباز فرعون بالوكزة التي وكزها، أو سمي تبعة الذنب ذنباً كما سمي جزاء السيئة سيئة، وليس قول موسى ذلك تلكاً في أداء الرسالة، بل قال ذلك استدفاعاً لما يتوقعه منهم من القتل وخاف أن يقتل قبل أداء الرسالة، ويدل على ذلك قوله (كلا) وهي كلمة الردع، ثم وعده تعالى بالكلاءة والدفن (وكلام) رد لقوله (إني أخاف) أي لا تخف ذلك فإني قضيت بنصرك وظهورك، وقوله (فاذهب) أمر لها بخطاب لموسى فقط، لأن هارون ليس بمكلم بإجماع، ولكنه قال لموسى (اذهب أنت وأخوك)، قال الزمخشري: جمع الله له الاستجابتين معاً في قوله (كلا فاذهب) لأنه استدفعه بلاهم فوعده الدفع برده عن الخوف والتمس الموازنة بأخيه فأجابته بقوله (اذهب) أي اذهب أنت والذي طلبته هارون (فإن قلت) علام عطف قوله (اذهب) (قلت) على الفعل الذي يدل عليه (كلا) كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون (بآياتنا) يعم جميع ما بعثها الله به، وأعظم ذلك العصا، وبها وقع العجز، قال ابن عطية: ولا خلاف أن موسى هو الذي حمله الله أمر النبوة وكلفها، وأن هارون كان نبياً رسولاً معيناً له ووزيراً. انتهى، و(معكم) قيل من وضع الجمع موضع المثنى أي معكما، وقيل: هو على ظاهره من الجمع، والمراد موسى وهارون ومن أرسلنا إليه، وكان شيخنا الأستاذ «أبو جعفر بن الزبير» يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثنى، والخطاب لموسى وهارون فقط، قال: لأن لفظة (مع) تباين من يكون كافراً فإنه لا يقال الله معه، وعلى أنه أريد بالجمع الثنية حمله سبويه رحمه الله، وكأنها لشرفها عند الله عاملها في الخطاب معاملة الجمع إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته، قال ابن عطية: (مستمعون) اهتبالاً ليس في صيغة «سامعون» وإلا فليس يوصف الله تعالى بطلب الاستماع، وإنما القصد إظهار التهمم ليعظم أنس موسى أو يكون الملائكة بأمر الله إياها تستمع، وقال الزمخشري (معكم مستمعون) من مجاز الكلام يريد أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر وأستمع ما يجري بينكما وبينه فأظهركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه انتهى. ويجوز أن يكون (معهم) متعلقاً بمستمعون وأن يكون خبراً و(مستمعون) خبر ثان، والمعنى هنا مجاز، وكذلك الاستماع لأنه بمعنى الإصغاء ولا يلزم من الاستماع السماع، تقول أسمع إليه فما سمع، واستمع إليه فسمع كما قال «استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا» [الجن: ١] وأفرد (رسول) هنا ولم يثن كما في قوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾ [طه: ٤٧] إما لأنه مصدر بمعنى الرسالة فجاز أن يقع مفرداً خيراً لمفرد فما فوقه، وإما لكونها ذوي شريعة واحدة فكأنها رسول واحد، وأريد بقوله إنا أو كل واحد منا رسول، و(رسول رب العالمين) فيه رد عليه وأنه مرئوب لله تعالى بادهه<sup>(٣)</sup>

(١) انظر الكشاف (٣/٣٠٢).

(٢) قود: القود قتل النفس بالنفس، شاذ كالحوكة والخونة، والقود القصاص، وأقادت القاتل بالقتيل أي: قتله به. وفي الحديث «من قتل عمداً فهو قود».

(٣) لسان العرب (٥/٣٧٧٠)

(٣) تقول: بادهني بادهة أي: باغتني مباغتة يقال: بدهه بالامر يبدده بدأه فجأه.

بنقض ما كان أبرمه من ادعاء الألوهية ولذلك أنكر فقال (وما رب العالمين) والمعنى إليك (وأن أرسل) يجوز أن تكون تفسيرية، لما في رسول من معنى القول، وأن تكون مصدرية (وأرسل) بمعنى أطلق وسرح، كما تقول «أرسلت الحجر من يدي» «وأرسلت الصقر». وكان موسى مبعوثاً إلى فرعون في أمرين: إرسال بني إسرائيل ليزول عنهم العبودية، والإيمان بالله، وبعث بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل وإرسالهم معها كان إلى فلسطين وكانت مسكن موسى وهارون «قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت لها غيبي لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتكم بشيء مبین قال فأتت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين».

ويروى أنها انطلقت إلى باب فرعون ولم يؤذن لها سنة حتى قال البواب: إن هنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال له: ائذن له لعلنا نضحك منه، فأديا إليه الرسالة، فعرف موسى، فقال له (ألم نربك فينا وليداً)<sup>(١)</sup> وفي الكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره: فأتيا فرعون فقالا له ذلك ولما باداه موسى بأنه رسول رب العالمين وأمره بإرسال بني إسرائيل معه أخذ يستحقه، ويضرب عن المرسل، وعما جاء به من عنده، ويذكره بحالة الصغر والمنّ عليه بالترية. «والوليد» الصبي وهو فعيل بمعنى مفعول، أطلق ذلك عليه لقربه من الولادة، وقرأ أبو عمرو في رواية «من عُمرِكَ» بإسكان الميم. وتقدم ذكر الخلاف في كمية هذه السنين في طه، وقرأ الجمهور (فَعَلَّتْكَ) بفتح الفاء إذ كانت وكزة واحدة، والشعبي بكسر الفاء يريد الهيئة، لأن الوكزة نوع من القتل. عدّد عليه نعمة الترية ومبلغه عنده مبلغ الرجال، حيث كان يقتل نظراءه من بني إسرائيل، وذكره ما جرى على يده من قتل القبطي، وعظم ذلك بقوله «وفعلت فعلتك التي فعلت» لأن هذا الإهام بكونه لم يصرح أنها القتل تهويل للواقعة وتعظيم شأن (وأنت من الكافرين) يجوز أن يكون حالاً أي قتلته وأنت إذ ذاك من الكافرين فافتري فرعون بنسبة هذه الحال إليه إذ ذاك، والأنبياء عليهم السلام معصومون، ويجوز أن يكون إخباراً مستأنفاً من فرعون حكم عليه بأنه من الكافرين بالنعمة التي لي عليك من الترية والإحسان. قاله ابن زيد أو من الكافرين بي في أنني إلهك قاله الحسن. أو من الكافرين بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعييه الآن قاله السدي<sup>(٢)</sup>، (قال فعلتها إذاً) إجابة موسى عن كلامه الأخير المتضمن للقتل إذ كان الاعتذار فيه أهم من الجواب في ذكر النعمة بالترية لأنه فيه إزهاق النفس، قال ابن عطية (إذن) صلة في الكلام وكأنها بمعنى حينئذ انتهى. وليس بصلة، بل هي حرف معنى، وقوله وكأنها بمعنى حينئذ ينبغي أن يجعل قوله تفسير معنى إذ لا يذهب أحد إلى أن (أذن) ترادف من حيث الإعراب «حينئذ»، وقال الزمخشري (فإن قلت) إذاً جواب وجزاء معاً والكلام وقع جواباً لفرعون فكيف وقع جزء؟ (قلت) قول فرعون (وفعلت فعلتك) فيه معنى أنك جازيت نعمتي بما فعلت، فقال له موسى: نعم فعلتها مجازياً لك تسليماً لقوله، كأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازي بنحو ذلك الجزاء انتهى. وهذا الذي ذكره من أن (إذاً) جواب وجزاء معاً هو قول سيبويه، لكن الشراح فهموا أنها قد تكون جواباً وجزاء معاً وقد تكون جواباً فقط دون جزاء، فالمعنى اللازم لها هو الجواب، وقد يكون مع ذلك جزاء وحملوا قوله (فعلتها، إذاً) من المواضع التي جاءت فيها جواباً لآخر على أن بعض أئمتنا تكلف هنا كونها جزاء وجواباً، وهذا كله محور

(١) انظر القرطبي (١٣/٦٤).

(٢) انظر القرطبي (١٣/٦٤).

فما كتبناه في إذن في شرح التسهيل، وإنما أردنا أن نذكر أن ما قاله الزمخشري<sup>(١)</sup> ليس هو الصحيح ولا قول الأكثرين<sup>(٢)</sup> (وأنا من الضالين) قال ابن زيد: معناه من الجاهلين بأن وكزتي إياه تأتي على نفسه<sup>(٣)</sup>، وقال أبو عبيدة: من الناسين، ونزع لقوله (أن تضل إحداهما) وفي قراءة عبد الله وابن عباس (وأنا من الجاهلين) ويظهر أنه تفسر للضالين لا قراءة مروية عن الرسول ﷺ، وقال «الزمخشري». من الضالين فعل أولي الجهل، كما قال يوسف لإخوته ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ [يوسف: ٨٩] أو المخلصين، كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل، أو الذاهبين عن تلك الصفة انتهى. وقيل: من الضالين يعني عن النبوة، ولم يأتي عن الله فيه شيء فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ، ومن غريب ما شرح به أن معنى (وأنا من الضالين) أي من المحبين لله، وما قتلت القبطي إلا غيرة لله، قيل: والضلال يطلق ويراد به المحبة كما في قوله ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ [يوسف: ٩٥] أي في محبتك القديمة، وجمع ضمير الخطاب في (منكم) و(خفتكم) بأن كان قد أفرّد في (تمنّها) و(عبدت) لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده وإنما منه ومن ملئه المذكورين قبل (أن اتت القوم الظالمين قوم فرعون) وهم كانوا قوماً يأتمرون بقتله ألا ترى إلى قوله ﴿إن الملائمة يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج﴾ [القصص: ٢٠] وقرأ الجمهور: (لما) حرف وجوب لوجوب على قول سيبويه، وظرفاً بمعنى حين على مذهب الفارسي، وقرأ حمزة في رواية (لما) بكسر اللام وتخفيف الميم أي بخوفكم، وقرأ عيسى (حكماً) بضم الكاف والجمهور بالإسكان، والحكم: النبوة، (وجعلني من المرسلين) درجة ثانية للنبوة، فرب نبي ليس برسول، وقيل: الحكم العلم والفهم (وتلك نعمة تمنّها عليّ) وتلك: إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله (ألم نربك فينا وليداً) وذكر بهذا آخرأ على ما بدأ به فرعون في قوله (ألم نربك)، والظاهر أن هذا الكلام إقرار من موسى عليه السلام بالنعمة، كأنه يقول وتربيتك لي نعمة عليّ من حيث عبّدت غيبي وتركتني واتخذتني ولداً، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي وإلى هذا التأويل ذهب السدي والطبري، وقال قتادة<sup>(٤)</sup>: هذا منه على جهة الإنكار عليه أن تكون نعمة، كأنه يقول أو يصح لك أن تعتد عليّ نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل وقتلتهم، أي ليست بنعمة، لأن الواجب كان أن لا تقتلني ولا تقتلهم ولا تستعبدهم بالقتل والخدمة وغير ذلك، وقرأ الضحاك (وتلك نعمة مالك أن تمنّها) وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وهذا التأويل فيه مخالفة لفرعون ونقض كلامه كله، والقول الأول فيه إنصاف واعتراف، وقال الأخفش والفراء: قبل الواو همزة استفهام يراد به الإنكار وحذفت للدلالة المعنى عليها، ورده النحاس بأنها لا تحذف لأنها حرف يحدث معها معنى إلا إن كان في الكلام «أم»، لا خلاف في ذلك إلا شيئاً قاله الفراء من أنه يجوز حذفها مع أفعال الشك وحكى «ترى زيدا منطلقاً» بمعنى ألا ترى، وكان الأخفش الأصغر يقول: أخذه من ألفاظ العامة، وقال

(١) انظر الكشاف (٣/٣٠٤).

(٢) (إن بعض أئمة تكلف) يقصد بأعليّ الشلوين كما ذكر في التذييل والتكميل. ومعنى كون إذن جواباً وجزاء تقع إذن في كلام يجاب به آخر في الصدر كانت أو في الحشو أو في الآخر ولا تقع في كلام مقتضب ابتداء غير مجاب به شيء آخر ولملابستها سميت حرف جواب:

قال سيبويه: وأما إذن فجواب وجزاء وقد اختلف النحاة في فهم هذه العبارة هل تكون إذن جواباً وجزاء دائماً في كل موضع قال أبو علي الفارسي: ترد إذن لها معاً وهو: الأكثر، وقد تكون للجواب وحده فمعناها اللازم لها الجواب، وأما الجزاء فتارة يوجد فيها، وتارة لا يوجد فالأكثر عنده أن تكون جواباً لأن أوليها ظاهرين، أو مقدرتين نحو (إن زرتني إذن أكرمك)، و(لو تصدقت إذن تناب) فتكون للجواب والجزاء معاً، وهذا الغالب فيها. وتعين للجواب إذا كان المضارع بعدها حالاً نحو (إذن أظنك صادقاً) في جواب أحبك فلا مجازة هنا، لأن ظن المصدق واقع في الحال، والجزاء مستقبل أو ماض، فلا مدخل له في الحال انظر تفصيل ذلك في شرح الكافية ٢/٢٣٦ وحاشية الدسوقي على المغني ١/١١٨ انظر الجني الداني ٣٦٤.

(٣) انظر القرطبي ١٣/٦٥، وابن كثير ٣/٣٢٢.

(٤) انظر الكشاف ٣/٣٠٥.

(٥) انظر المصادر السابقة.

الضحك. الكلام إذا خرج مخرج التبكيت<sup>(١)</sup> يكون باستفهام وبغير استفهام، والمعنى لو لم يقتل بني إسرائيل لرباني أبوي، فأني نعمة لك عليّ فانت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمنّ به، وقيل: اتخذك بني إسرائيل عبيداً أحبط نعمتك التي تمنّ بها، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> وأبي يعني موسى عليه السلام أن يسمي نعمته أن لا نعمة، حيث بين أن حقيقة إنعامه تعبد بني إسرائيل، لأن تعبدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وترتيبه، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيداً يقال: عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً قال الشاعر:

عَلَامٌ يَغْبُنُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاؤُوا وَعِبْدَانُ<sup>(٣)</sup>

(فإن قلت) وتلك إشارة إلى ماذا (وأن عبدت) ما محلها من الإعراب (قلت) تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها، ومحل (أن عبدت) الرفع، عطف بيان لتلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر: ٦٦] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليّ، وقال الزجاج: يجوز أن يكون في موضع نصب، المعنى أنها صارت نعمة عليّ لأن عبدت بني إسرائيل، أي لو لم تفعل لكفني أهلي ولم يلحقوني في اليم. انتهى، وقال (الحويني) أن عبدت بني إسرائيل في موضع نصب مفعول من أجله، وقال أبو البقاء بدل. ولما أخبر موسى فرعون بأنه رسول رب العالمين لم يسأل إذ ذاك فيقول: وما رب العالمين، بل أخذ في المداهاة، وتذكار الترية، والتقيح لما فعله من قتل القبطي، فلما أجابه عن ذلك انقطعت حجته في الترية والقتل، وكان في قوله (رسول رب العالمين) دعاء إلى الإقرار بربوبية الله وإلى طاعة رب العالم، فأخذ فرعون يستفهم عن الذي ذكر موسى أنه رسول من عنده، والظاهر أن سؤاله إنما كان على سبيل المباهة والمكابرة والمرادة، وكان عالماً بالله ويدل عليه ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ [الإسراء: ١٠٢] ولكنه تعامى عن ذلك طلباً للرياسة ودعوى الإلهية، واستفهم «بما» استفهاماً عن مجهول من الأشياء، قال «مكي»: كما يستفهم عن الأجناس، وقد ورد له استفهام بمن في موضع آخر، ويشبه أنها مواطن انتهى. والموضع الآخر قوله ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ [طه ٤٩] ولما سأله فرعون، وكان السؤال بما التي هي سؤال عن الماهية، ولم يمكن الجواب بالماهية أجاب بالصفات التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها، وهي ربوبية السموات والأرض وما بينهما، وقال الزمخشري: وهذا السؤال لا يخلو أن يريد به أي شيء من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها، فأجاب بما يستدل عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء (ليس كمثله شيء) وإما أن يريد أنه شيء على الإطلاق فتفتشاً عن حقيقة الخاصة ما هي، فأجاب بأن الذي سألت عنه ليس إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة بيانه بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك، وأما التفتيش عن حقيقة الخاصة التي هي فوق فطر العقول فتفتيش عما لا سبيل إليه، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق، والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن كون سؤاله إنكاراً لأن يكون للعالمين رب سواه، ألا ترى أنه يعلم حدوثه بعد العدم، وأنه محل للحوادث، وأنه لم يدع الإلهية إلا في محل ملكه مصر وأنه لم يكن ملك الأرض، بل كان فيها ملوك غيره وأنبياء في ذلك الزمان يدعون إلى الله «كشعيب» عليه السلام، وأنه كان مقراً بالله تعالى في باطن أمره. وجاء قوله (وما بينهما) على التثنية والعائد عليه الضمير مجموع اعتباراً للجنسين، وقال أبو عبد الله الرازي: محتمل أن يقال كان عالماً بالله ولكنه قال ما قال طلباً للملك والرياسة، وقد ذكر تعالى في كتابه ما يدل على أنه كان عارفاً بالله وهو قوله (لقد علمت ما أنزل هؤلاء) الآية، ويحتمل أنه كان على

(١) التبكيت: كالترقيع والتعنيف، لسان العرب ١/٣٣٢.

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٠٦.

(٣) أنشده الفراء انظر القرطبي (١٣/٦٦) روح المعاني (١٩/٧٠) والكشاف (٣/٣٠٦).

مذهب الدهرية من أن الأفلاك واجبة الوجود لذواتها، وأن حركاتها أسباب حصول الحوادث بالفاعل المختار، ثم اعتقد أنه بمنزلة إله لأهل إقليمه من حيث استعبدهم وملك زمام أمرهم، ويحتمل أن يقال كان على مذهب الحلولية القائلين بأن ذات الإله تقرر بجسد إنسان معين حتى يكون الإله سبحانه بمنزلة روح كل إنسان بالنسبة إلى جسده، وهذه التقديرات كان يسمي نفسه إلهاً انتهى . ومعنى (ان كنتم موقنين) إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إلى النظر الصحيح فنعمكم هذا الجواب، وإلا لم ينفعكم، أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإثارة دليله . وهذه المحاورة من فرعون تدل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى التوحيد، (قال لمن حوله) هم أشراف قومه، قيل: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصة، (الاستمعون) أي ألا تصغون إلى هذه المقالة، إغراء به وتعجباً إذ كانت عقيدتهم أن فرعون ربهم ومعبودهم، قال ابن عطية: والفراغة قبله كذلك، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إلى اليوم بقية انتهى . يشير إلى ما أدركه في عصره من ملوك العبيديين الذين كان أتباعهم تدعي فيهم الإلهية وأقاموا ملوكاً بمصر من زمان المعز إلى زمان العاضد إلى أن مح الله دولتهم بظهور الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي<sup>(١)</sup> رضي الله عنه، فلقد كانت له مآثر في الإسلام منها: فتح بيت المقدس وبلاد كثيرة من سواحل الشام كان النصارى مستولين عليها فاستنقذها منهم، (قال ربكم ورب آبائكم الأولين) نههم على منشئهم ومنشأ آبائهم، وجاء في قوله (الأولين) دلالة على إمامتهم بعد إيجادهم، وانتقل من الاستدلال بالعام إلى ما يخصهم ليكون أوضح لهم في بيان بطل دعوى فرعون الإلهية، إذ كان آباؤهم الأولون تقدموا فرعون في الوجود فمحال أن يكون وهو في العدم إلهاً لهم، (قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون)، قال أبو عبد الله الرازي: التعريف بهذا الأثر أظهر، فلماذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول إليه إذ كان لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وفي آياته كونهم واجبي الوجود لذواتهم، لأن المشاهدة دلت على وجودهم بعد عدمهم وعدمهم بعد وجودهم، فعند ذلك قال فرعون ما قال، يعني أن المقصود من سؤال ما طلبت الماهية وخصوصية الحقيقة، والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا تفيد تلك الخصوصية، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه فقال موسى عليه السلام (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) فعدل إلى طريق أوضح من الثاني، وذلك أنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، وهذا التقدير المستمر على الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مديب وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه السلام مع عمروذ، فإنه استدل أولاً بالإحياء والإماتة وهو الذي ذكره موسى عليه السلام هنا بقوله (ربكم ورب آبائكم الأولين) فأجابه عمروذ بقوله ﴿أنا أحيى وأميت فقال: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ [البقرة ٢٥٨] وهو الذي ذكره موسى عليه السلام هنا بقوله (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) أي إن كنتم من العقلاء عرفتم أنه لا جواب عن السؤال إلا ما ذكرت انتهى . وفيه بعض تلخيص، وقال ابن عطية: زاده موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تظهر نقص فرعون وتبين أنه في غاية البعد عن القدرة عليها، وهي ربوبية المشرق والمغرب، ولم يكن لفرعون إلا ملك مصر من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية، وقرأ مجاهد وحيد والأعرج (أرسل إليكم) على بناء الفاعل أي أرسله ربه إليكم، وقرأ عبد الله وأصحابه والأعمش (رب المشارق والمغرب) على الجمع فيها، ولما انقطع فرعون في باب الاحتجاج رجع إلى الاستعلاء والغلب، وهذا أبين علامات الانقطاع فتوعد موسى بالسجن حين أعمياه خطابه، (قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين)، وقال الزمخشري لما أجاب موسى بما أجاب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما نثى بتقرير قوله جنته إلى قومه وظنن به حيث ساءه رسولهم، فلما ثلث احتد واحتدم وقال (لئن اتخذت إلهاً غيري) (فإن قلت) كيف قال

(١) يوسف بن أيوب بن شاذي أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الإسلام توفي سنة ٥٨٩ انظر المحاسن

اليوسفية لابن شداد تحقيق الدكتور جمال الشيال وتاريخ الخميس ٣٨٧/٢ وفيات الأعيان ٣٧٦/٢ .

أولاً: (إن كنتم موقنين) وآخراً: (إن كنتم تعقلون) (قلت) لأين أولاً، فلما رأى شدة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشئاً وعارِضاً إن رسولكم لمجنون بقوله (إن كنتم تعقلون) (فإن قلت) ألم يكن «الأسجنتك» أخصر من (لأجعلنك من المسجونين) ومؤدياً مؤذاه؟ (قلت): أما أخصر فنعم، وأما مؤدياً مؤذاه فلا، لأن معناه لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشد من القتل انتهى ولما كان عند موسى عليه السلام من أمر فرعون ما لا يروعه معه توعد فرعون قال له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه. (أولو جئتكم بشيء مبین) أي يوضح لك صدقي أفكنت تسجنني، قال «الزخمشري»<sup>(١)</sup>: أو لو جئتكم او الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بي ذلك ولو جئتكم بشيء مبین انتهى . وتقدم لنا الكلام على هذه الواو الداخلة على «لو» في مثل هذا السياق في قوله: «أولو كان أبأؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» [البقرة: ١٧٠] فأغنى عن إعادته، وقال الحوفي: واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير والمعنى: أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أسجن وأنا متلبس بها، ولما سمع فرعون هذا من موسى طمع أن يجد موضع معارضة فقال له: (فأنت به إن كنت من الصادقين) إن لك رباً بعثك رسولاً إلينا، قال «الزخمشري»<sup>(٢)</sup>: وفي قوله (إن كنت من الصادقين) دليل على أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوة، والحكيم لا يصدق الكاذب، ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه مثل هذا وخفي على ناس من أهل القبلة حيث جوزوا القبيح على الله حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات انتهى . وتقديره «إن كنت من الصادقين فإنت به» حذف الجزء لأن الأمر بالإتيان يدل عليه، وقدره «الزخمشري»<sup>(٣)</sup>: «إن كنت من الصادقين في دعواك أثبت به» جعل الجواب المحذوف فعلاً ماضياً ولا يقدر إلا من جنس الدليل بقولهم «أنت ظالم إن فعلت» تقديره «أنت ظالم إن فعلت فأنت ظالم»، وقال الحوفي: إن حرف شرط يجوز أن يكون ما تقدم جوابه، وجاز تقديم الجواب لأن حذف الشرط لم يعمل في اللفظ شيئاً، ويجوز أن يكون الجواب محذوفاً، تقديره «فأنت به». وقول الزخمشري<sup>(٤)</sup> حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات إشارة إلى إنكار الكرامات التي ذهب أهل السنة إلى إثباتها، والمعجز عندهم هو ما كان خارقاً للعادة، ولا يكون إلا لنبي، أو في زمان نبي إن جرى على يد غيره، فتكون معجزة لذلك النبي، أو على سبيل الإرهاص لنبي، (فألقي عصاه) أي رماها من يده. وتقدم الكلام على عصا موسى عليه السلام، والثعبان أعظم ما يكون من الحيات، ومعنى (مبين) ظاهر الثعبانية، ليست من الأشياء التي تزور بالشعبذة والسحر (ونزع يده) من جيبه (فإذا هي) تلاًلاً كأنها قطعة من الشمس ومعنى (للنظارين) أي بياضها يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة وكان بياضاً نورانياً، روي: أنه لما أبصر أمر العصا قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال: ما هذه؟ قال: يدك فأدخلها في إبطه، ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق «قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال أمتمت له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر

(١) انظر الكشاف ٣/٣٠٩.

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٠٩.

(٣) انظر الكشاف ٣/٣٠٩.

(٤) انظر الكشاف ٤/٣٠٩.

فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبكنم أجمعين قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴿﴾ قال ابن عطية : وانتصب (حوله) على الظرف، وهو في موضع الحال، أي كائنين حوله، فالعامل فيه محذوف، والعامل فيه هو الحال حقيقة، والناصب له (قال) لأنه هو العامل في ذي الحال بواسطة لام الجر نحو «مررت بهند ضاحكة» والكوفيون يجعلون الملام موصولاً فكانه قيل : «قال للذي حوله» فلا موضع للعامل في الظرف لأنه وقع صلة، وقال الزمخشري (فإن قلت) ما العامل في (حوله) (قلت) هو منصوب نصيبين : نصب في اللفظ، ونصب في المحل . فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف، وذلك «استقروا حوله» وهذا يقدر في جميع الظروف، والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال انتهى . وهو تكثير وشقشقة كلام في أمر واضح من أوائل علم العربية، ولما رأى فرعون أمر العصا واليد وما ظهر فيها من الآيات هاله ذلك، ولم يكن له فيه مدفع فزع إلى رميه بالسحر، وطمع لغلبة علم السحر في ذلك الزمان أن يكون ثم من يقاومه، أو كان علم صحة المعجزة وعمى تلك الحجة على قومه برميه بالسحر، وبأنه يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، ليقوي تنفيرهم عنه، وابتغاؤهم الغوائل<sup>(١)</sup> له، وأن لا يقبلوا قوله، إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن الذي نشؤوا فيه، ثم استأمرهم فيها يفعل معه، وذلك لما حل به من التحير والدهش وانحطاطه عن مرتبة ألوهيته إلى أن صار يستشيرهم في أمره فيأمرونه بما يظهر لهم فيه، فصار مأموراً بعد أن كان آمراً، وتقدم الكلام في (ماذا تأمرن) وفي الألفاظ التي وافقت ما في سورة الأعراف فأغنى عن إعادته . ولما قال (إن هذا لساحر عليم) عارضوا بقوله (بكل ساحر) فجاؤوا بكلمة الاستغراق والبناء الذي للمبالغة لينفصوا عنه بعض ما لحقه من الكرب، وقرأ الأعمش وعاصم في رواية (بكل ساحر)، و«اليوم والمعلوم» يوم الزينة وتقدم الكلام عليه في سورة طه . وقوله (هل أنتم مجتمعون) استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم كما يقول الرجل لغلامه «هل أنت منطلق» إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق كما يخيل إليه أن الناس قد انطلقوا وهو واقف، ومنه قول تأبط شراً :

هَلْ أَنْتَ بَاعَتْ دِينَاراً لِحَاجَتِنَا      أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَحَا عَوْنٍ بِنِ مِخْرَاقٍ<sup>(٢)</sup>

يريد «ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطئ به»، وترجوا اتباع السحرة أي في دينهم إن غلبوا موسى عليه السلام ولا يتبعون موسى في دينه، وساقوا الكلام سياق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه السلام، ودخلت (إذاً) هنا بين اسم إن وخبرها وهي جواب وجزاء، و(بعزة فرعون) الظاهر أن الباء للقسم، والذي تتعلق به الباء محذوف، وعدلوا عن الخطاب إلى اسم الغيبة تعظيماً كما يقال للملوك، أمروا رضي الله عنهم بكذا، فيخبر عنه إخبار الغائب وهذا من نوع إيمان الجاهلية، وقد سلك كثير من المسلمين في الإيمان ما هو أشنع من إيمان الجاهلية لا يرضون بالقسم بالله ولا يعتدون به حتى يحلف أحدهم بنعمة السلطان وبرأس المحلف فحينئذ يستوثق منه، وقال ابن عطية : بعد أن ذكر أنه قسم قال : والأجر أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه، إذ كانوا يعبدونه، كما تقول إذا ابتدأت بعمل شيء «بسم الله» وعلى بركة الله ونحو هذا، وبين قوله قال لهم موسى وقوله (لمن المقربين) كلام محذوف، وهو ما ثبت في الأعراف من تخييرهم إياه في البداية من يلقي، قال الزمخشري فإن قلت : فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ (قلت) هو الله عز وجل بما خوهم من التوفيق وإيمانهم، أو بما عاينوا من المعجزة الباهرة، ولك أن لا تقدر فاعلاً، لأن (ألقوا) بمعنى خرّوا وسقطوا انتهى . وهذا القول الآخر ليس بشيء، لا يمكن أن يبني الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله إلا وقد حذف الفاعل فتاب ذلك عنه، أما أنه لا يقدر فاعل فقول ذاهب عن الصواب<sup>(٣)</sup>.

(١) الغوائل : الدواهي، ترتيب القاموس المحيط (٣/٤٣٠).

(٢) وقيل لجرير انظر الكشف وشواهده (٣/٣١١).

(٣) قال في البحر وهذا القول الآخر إلخ عن الصواب

وقال ابن عطية، قرأ البيزي، وابن فليح عن ابن كثير: بشد التاء وفتح اللام وشد القاف، ويلزم على هذه القراءة إذا ابتداء أن يحذف همزة الوصل وهمزة الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة، كما لا تدخل على أسماء الفاعلين انتهى. كأنه يخيل أنه لا يمكن الابتداء بالكلمة إلا باجتلاب همزة الوصل وليس ذلك بلازم، كثيراً ما يكون الوصل مخالفاً للوقف، والوقف مخالفاً للوصل، ومن له تمرن في القرآت عرف ذلك، (قالوا لا ضير) أي لا ضرر علينا في وقوع ما وعدتنا به من قطع الأيدي والأرجل والتصليب، بل لنا فيه المنفعة التامة بالصبر عليه يقال ضاره يضره ضيراً وضاره يضره ضوراً<sup>(١)</sup>، (إنا إلى ربنا) أي إلى عظيم ثوابه، أو لا ضير علينا إذا نقلنا بنا إلى الله بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسبابه، وقال أبو عبد الله الرازي: لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول قومه: لم تؤمن السحرة على كثرتهم إلا عن معرفة بصحة أمر موسى فيؤمنون، فبالغ في التنفير من جهة قوله (أنتم له قبل أن آذن لكم) موهماً أن مسارعتهم للإيمان دليل على ميلهم إليه قبل، ويقول (إنه لكبيركم) صرح بما رمزه أولاً من مواطأتهم وتقصيرهم ليظهر أمر كبيرهم، ويقول (فلسوف تعلمون) حيث أوعدهم وعيداً مطلقاً وبتصريحه بما هدهم به من العذاب، فأجابوا بأن ذلك إن وقع لن يضر وفي قولهم (إنا إلى ربنا منقلبون) نكتة شريفة وهو أنهم آمنوا لا رغبة ولا رهبة، إنما قصدوا محض الوصول إلى مرضات الله والاستغراق في أنوار معرفته. انتهى ملخصاً. ويدفع هذا الأخير قولهم: (إنا نطمع) إلى آخره ولا يكون ذلك إلا من خوف تبعات الخطايا، والظاهر بقاء الطمع على بابه كقوله (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين)، وقيل: يحتمل اليقين، قيل: كقول إبراهيم عليه السلام ﴿والذي أطمع﴾ [المائدة: ٨٤]، وقرأ الجمهور (أن كنا) بفتح الهمزة وفيه الجزم بإيمانهم، وقرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ (إن كنا) بكسر الهمزة، قال صاحب اللوامح: على الشرط وجاز حذف الفاء من الجواب لأنه متقدم، وتقديره: إن كنا أول المؤمنين «فإننا نطمع» وحسن الشرط لأنهم لم يتحققوا ما لهم عند الله من قبول الإيمان انتهى. وهذا التخريج على مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرد، حيث يميزون تقديم جواب الشرط عليه، ومذهب جمهور البصريين أن ذلك لا يجوز، وجواب مثل هذا الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، وقال الزمخشري: هو من الشرط الذي يجيء به المدلول بأمره المتحقق لصحته، وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين، ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله إن كنت عملت فوفني حقي ومنه قوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ [المتحنة: ١] مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك، وقال ابن عطية: بمعنى أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط انتهى. ويحتمل أن تكون «أن» هي المخففة من الثقلية، وجاز حذف اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون، فلا يحتمل النفي، والتقدير «أن كنا لأول المؤمنين»، وجاء في الحديث «أن كان رسول الله ﷺ يحب العسل» أي ليحب، وقال الشاعر:

وَنَحْنُ أَسَاءَةُ الضُّيْمِ مِنْ آلِ مَسَالِكِ وَإِنْ مَالِكُ كَانَتْ كِرَامَ الْمَعَادِنِ<sup>(٢)</sup>

«أي وإن مالك لكانت كرام المعادن»، (وَأول) يعني أول المؤمنين من القبط، أو أول المؤمنين من حاضري ذلك

= مذهب البصريين أن صيغة المبني للمفعول متغيرة من فعل الفاعل وليست بأصل، والكوفيون يرونها أصلاً وليست متغيرة من صيغة الفاعل، فالمبني للمفعول ما حذف فاعله، وهو مذهب البصريين وهو صيغة، وصيغته وضعت للمفعول لم يسم فاعله عند الكوفيين أيضاً أن الأفعال اللازمة للبناء للمفعول مخصوصة بالإسناد إلى المفعول نحو حسن الرجل، وزكم وحم، قال ابن جني ولا تستند إلى الفاعل في اللغة الفصحى ألا تراهم يقولون (نخي زيد) من النخوة، ولا يقولون نخاة كذا، فلهاذا جاء بهذا الباب ليريك أفعالاً خصت بالإسناد إلى المفعول دون الفاعل كما خصت أفعال بالإسناد إلى الفاعل دون المفعول نحو «قام علي» و«قعد عادل»، الخصائص ٢/٢٢٩، وانظر شرح الكافية ٢٧٢، ٢٦٩/٢.

(١) انظر لسان العرب: ٢٦٢٣/٤.

(٢) من الطويل للطرمح انظر ديوانه ٥١٢ والتصريح (٢٣١/١) والمجم (١٤١/١)، الأشموني (٢٨٩/١).



المجمع، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: وكانوا أول جماعة مؤمنين من أهل زمانهم، وهذا لا يصح، لأن بني إسرائيل كانوا مؤمنين قبل إيمان السحرة.

﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجمع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعبون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل فاتبعوهم مشركين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾.

تقدم الخلاف في (أسر) وأنه قرء بوصل الهمزة وبقطعها في سورة هود، وقرأ: «البياني» (أن سير) أمر من ساريسير، أمر الله موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر إلى اتجاه البحر، وأخبره أنهم سيتبعون، فخرج سحراً، جاعلاً طريق الشام على يساره، وتوجه نحو البحر، فيقال له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت فلما أصبح علم فرعون بسري موسى ببني إسرائيل، فخرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر ليلحقه العساكر. وذكروا أعداداً في اتباع فرعون، وفي بني إسرائيل، الله أعلم بصحة ذلك (إن هؤلاء لشرذمة) أي قال إن هؤلاء، وصفهم بالقلّة، ثم جمع القليل، فجعل كل حزب قليلاً جمع السلام الذي هو للقلّة وقد يجمع القليل على أقله وقلل، والظاهر تقليل العدد، قال الزمخشري: ويجوز أن يريد بالقلّة الذلّة والقهارة<sup>(٢)</sup> ولا يريد قلة العدد، والمعنى أنهم لقلتهم لا يبالي بهم، ولا تتوقع غفلتهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم يساره، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لثلاث يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه انتهى، قال أبو حاتم: وقرأ من لا يؤخذ عنه (لشرذمة قليلون) وليست هذه موقوفة انتهى. يعني أن هذه القراءة ليست موقوفة على أحد رواها عن رسول الله ﷺ، وقيل: (لغائظون) أي بخلافهم وأخذهم الأموال حين استعاروها ولم يردوها وخرجوا هارين، وقرأ الكوفيون وابن ذكوان وزيد بن علي (حاذرون) بالالف، وهو الذي قد أخذ يحذر ويجدد حذره، وحذر متعد قال تعالى ﴿يحذر الآخرة﴾ [الزمر ٩]، وقال العباس بن مرداس:

وَإِنِّي حَازِرٌ أَنَّمِي سِلَاحِي إِلَى أَوْصَالِ ذِيَالٍ صَنِيعٍ<sup>(٣)</sup>

وقرأ باقي السبعة بغير ألف، وهو التيقظ، وقال الزجاج: مؤدون أي ذوو أدوات وسلاح أي متسلحين، وقيل: حذرون في الحال (وحاذرون) في المال، وقال الفراء: الحاذر الخائف ما يرى والحذر المخلوق حذراً، وقال أبو عبيدة: رجل حذر وحذر وحاذر بمعنى واحد، وذهب سيبويه إلى أن حذراً يكون للمبالغة وأنه يعمل كما يعمل حاذر، فينصب المفعول به، وأنشد:

حَذِرٌ أُمُوراً لَا تَضِيرُ وَآمِنٌ مَا لَيْسَ مُنْجِيهِ مِنَ الْأَقْدَارِ<sup>(٤)</sup>

(١) انظر الكشاف ٣/٣١٣.

(٢) القهارة: قماً الرجل وغيره: ذل وصغر فصار قميئاً ورجل قميء: أي ذليل.

لسان العرب (٥/٣٧٣٣).

(٣) البيت من الوافر انظر مجاز القرآن (٢/٨٦)، اللسان (ذيل).

(٤) من الكامل ينسب لأبان بن عبد الحميد اللاحي انظر الكتاب (١/١١٣) المتضب (٢/١١٥) شرح المفصل لابن يعيش (٦/١٧١).

الأشعوني (٢/٢٩٨) اللسان (حذر).

وقد نوزع في ذلك بما هو مذكور في كتب النحو، وعن الفراء أيضاً والكسائي: رجل حذر إذا كان الحذر في خلقته فهو متيقظ متنبه، وقرأ سميظ بن عجلان وابن أبي عمير وابن السميع (حاديرون) بالدال المهملة، من قولهم «عين حذرة» أي عظيمة، والحادر المتورم، قال ابن عطية: فالعنى ممتلئون غيظاً وأنفة، وقال ابن خالويه الحادر السمين القوي الشديد يقال «غلام حذر بدر»، وقال صاحب اللوامح حذر الرجل: قوي بأسه يقال منه «رجل بدر» إذا كان شديد البأس في الحرب، ويقال رجل حذر - بضم الدال - للمبالغة مثل يقظ، وقال الشاعر:

أَحِبُّ الصَّيِّ السُّوءِ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ وَأَبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرٌ<sup>(١)</sup>

أي سمين قوي، وقيل مدججون في السلاح<sup>(٢)</sup>، (فأخرجناهم) الضمير عائد على القبط، (من جنات وعميون) بحاقي النيل من أسوان إلى رشيد<sup>(٣)</sup>، قاله ابن عمر وغيره، والجمهور على أنها عيون الماء<sup>(٤)</sup>، وقال ابن جبير المراد عيون الذهب، (وكنوز) هي الأموال التي خربوها، قال مجاهد: سهاها كنوزاً لأنه لم ينفق في طاعة الله قط، وقال الضحاك: الكنوز الأنهار، قال صاحب التحبير: وهذا فيه نظر، لأن العيون تشملها، وقيل: هي كنوز المقطم ومطالبه، قال ابن عطية: هي باقية إلى اليوم انتهى. وأهل مصر في زماننا في غاية الطلب لهذه الكنوز التي زعموا أنها مدفونة في المقطم، فينفقون على حفر هذ المواضع في المقطم الأموال الجزيلة، ويبلغون في العمق إلى أقصى غاية، ولا يظهر لهم إلا التراب أو حجر الكندان الذي المقطم مخلوق منه، وأي مغربي يرد عليهم سأله عن علم المطالب فكثير منهم يضع في ذلك أوراقاً ليأكلوا أموال المصريين بالباطل، ولا يزال الرجل منهم يذهب ماله في ذلك حتى يفتقر وهو لا يزداد إلا طلباً لذلك حتى يموت، وقد أقمت بين ظهرانيهم إلى حين كتابة هذه الأسطر نحواً من خمسة وأربعين عاماً فلم أعلم أن أحداً منهم حصل على شيء غير الفقر، وكذلك رأيهم في تغوير الماء يزعمون أن ثم آباراً، وأنه يكتب أساء في شقفة، فتلقى في البئر فيغور الماء، وينزل إلى باب في البئر يدخل منه إلى قاعة مملوءة ذهباً وفضة وجوهرات ويقوتاً، فهم دائماً يسألون من يرد من المغاربة عنم يحفظ تلك الأساء التي تكتب في الشقفة، فيأخذ شياطين المغاربة منهم مالاً جزيلاً ويستأكلونهم ولا يحصلون على شيء غير ذهاب أموالهم ولهم أشياء من نحو هذه الخرافات يركنون إليها ويقولون بها وإنما أطلت في هذا على سبيل التحذير لمن يعقل، وقوله تعالى: (ومقام كريم)، قال ابن هبة: هو الفيوم، وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك: هو المنابر للخطباء، وقيل: الأسرة في الكلل، وقيل: مجالس الأمراء والأشراف والحكام، وقال «النقاش»: المساكن الحسان، وقيل: مرابط الخيل، حكاها الماوردي، وقرأ «قتادة» و«الأعرج» و«مقام» بضم الميم: من أقام كذلك، قال الزخشي: يحتمل ثلاثة أوجه:

النصب على (أخرجناهم) مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه، والجر على أنه وصف لمقام أي و«مقام كريم» مثل ذلك المقام الذي كان لهم، والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك انتهى.

فالوجه الأول لا يسوغ لأنه يؤول إلى تشبيه الشيء بنفسه وكذلك الوجه الثاني لأن المقام الذي كان لهم هو المقام الكريم، ولا يشبه الشيء بنفسه، والظاهر أن قوله (وأورثناها بني إسرائيل) أنهم ملكوا ديار مصر بعد غرق فرعون وقومه، لأنه اعتقب قوله (وأورثناها) قوله: (وأخرجناهم: ) وقاله الحسن، قال: كما عبروا النهر رجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم، وقيل: ذهبوا إلى الشام وملكوا مصر زمن سليمان، وقرأ الجمهور (فأتبعوهم) أي فلحقوهم، وقرأ الحسن والذماري

(١) البيت من الطويل انظر اللسان (حذر)، شواهد الكشاف ٢/ ١٢٤.

(٢) انظر القرطبي ١٣/ ٦٩، ٧٠ وزاد المسير ٦/ ١٢٥، ١٢٦ وابن كثير ٣/ ٣٣٦.

(٣) انظر القرطبي ١٣/ ٦٩، ٧٠ وزاد المسير ٦/ ١٢٥، ١٢٦ وابن كثير ٣/ ٣٣٦.

(٤) انظر القرطبي ١٣/ ٦٩، ٧٠ وزاد المسير ٦/ ١٢٥، ١٢٦ وابن كثير ٣/ ٣٣٦.

(فاتبعوهم) يوصل الألف وشدّ التاء، (مشرقين) داخليين في وقت الشروق، من شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت كأصبح دخل في وقت الصباح، وأمسى دخل في وقت المساء، وقال أبو عبيدة: فاتبعوهم نحو الشرق كأنجد إذا قصد نحو نجد، والظاهر أن (مشرقين) حال من الفاعل، وقيل (مشرقين) أي في ضياء، وكان فرعون وقومه في ضباب وظلمة تحيروا فيها حتى جاوز بنو إسرائيل البحر، فعلى هذا يكون (مشرقين) حالاً من المفعول، (فلما تراءى الجمعان) أي رأى أحدهما الآخر (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أي ملحقون، قالوا ذلك حين رأوا العدو القويّ وراءهم، والبحر أمامهم، وساءت ظنونهم، وقرأ «الأعمش» و«ابن وثاب» (تراي الجمعان) بغير همز على مذهب التخفيف بين بين، ولا يصح القلب لوقوع الهزمة بين ألفين إحداهما ألف تفاعل الزائدة بعد الفاء، والثانية اللام المعتلة من الفعل، فلو خففت بالقلب لاجتمع ثلاث ألفات متسقة وذلك مما لا يكون أبداً، قاله أبو الفاضل الرازي، وقال ابن عطية، وقرأ حمزة (تريء) بكسر الراء وبمد ثم يميز وروي مثله عن عاصم، وروي عنه أيضاً مفتوحاً ومدوداً، والجمهور يقرؤه ونه مثل «تراعى»، وهذا هو الصواب، لأنه تفاعل، وقال «أبو حاتم». وقراءة حمزة هذا الحرف محال، وحمل عليه قال: وما روي عن ابن وثاب والأعمش خطأ انتهى . وقال الأستاذ أبو جعفر أحمد ابن الأستاذ أبي الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري هو ابن الباذش في كتاب الاقتناع من تأليفه (تراءى الجمعان) في الشعراء إذا وقف عليها حمزة والكسائي أمالا الألف المنقلبة عن لام الفعل، وحمزة يميل ألف تفاعل وصلأ ووقفاً لإمالة الألف المنقلبة، ففي قراءته إمالة الإمالة وفي هذا الفعل وفي راءى إذا استقبله ألف وصل لمن أمال للإمالة حذف السبب وإبقاء المسبب، كما قالوا صعقيّ في النسب إلى الصعق، وقرأ الجمهور (لُذْرُكُونٌ) بإسكان الدال، والأعرج وعبيد بن عمير يفتح الدال مشددة وكسر الراء على وزن مفتعلون، وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال يقال منه: إدرك الشيء بنفسه إذا فني تتابعا، ولذلك كسرت الراء على هذه القراءة نص على كسرها أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح، والزخشي<sup>(١)</sup> في كشافه، وغيرهما، وقال أبو الفضل الرازي: وقد يكون «أدرك» على افتعل بمعنى أفعال متعدياً، فلو كانت القراءة من ذلك لوجب فتح الراء ولم يبلغني ذلك عنهما، يعني عن الأعرج وعبيد بن عمير، قال الزخشي<sup>(٢)</sup>: المعنى «انا لمتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد»، ومنه بيت الحماسة:

أُبْعِدَ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا      أُرْجِي الْحَيَاةَ أُمِّ مِنَ الْمَوْتِ أُجْرَعُ<sup>(٣)</sup>

(قال كلا إن معي ربي سيهدين) زجرهم وردعهم بحرف الردع وهو كلا، والمعنى لن يدركوكم لأن الله وعدكم بالنصر والخلاص منهم (إن معي ربي سيهدين) عن قريب إلى طريق النجاة ويعرفنيه، وقيل: سيكفيني أمرهم. ولما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون وكان بين يدي موسى: أين أمرت وهذا البحر أمامك وقد غشيك<sup>(٤)</sup> آل فرعون؟ قال: أمرت بالبحر، ولا يدري موسى ما يصنع، ورويت هذه المقالة عن يوشع، قالها لموسى عليه السلام فأوحى الله إليه (أن اضرب بعصاك البحر) فخاض يوشع الماء، وضرب موسى بعصاه فصار فيه اثنا عشر طريقاً، لكل سبط طريق، أراد تعالى أن يجعل هذه الآية متصلة بموسى، ومتعلقة بفعل فعله، ولكنه بقدرة الله، إذ ضَرَبَ البحر بالعصا لا يوجب انفلاق البحر بذاته، ولو شاء تعالى لفلقه دون ضربه بالعصا. وتقدّم الخلاف في مكان هذا البحر، (فانفلق) ثم محذوف تقديره «فضرب فانفلق»، وزعم ابن عصفور في مثل هذا التركيب أن المحذوف هو ضرب وفاء انفلق، والفاء في (انفلق) هي فاء «ضرب»،

(١) انظر الكشاف ٣/٣١٤.

(٢) انظر الكشاف ٣/٣١٦.

(٣) ن الطويل للبراء بن ربيعي انظر الكشاف (٢/١٢٤).

(٤) غشيك: غشيه غشياناً: آتاه.



عبدة أصنام، ولكن سألهم ليرى ما كانوا يعبدونه ليس مستحقاً للعبادة لما ترتب على جواهم من أوصاف معبوداتهم التي هي منافية للعبادة. ولما سألهم عن الذي يعبدونه ولم يقتصروا على ذكره فقط بل أجابوا بالفعل ومتعلقه وما عطف عليه من تمام صفتهم مع معبودهم (فقالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين) على سبيل الابتهاج والافتخار فأتوا بقصتهم معهم كاملة ولم يقتصروا على أن يجيبوا بقولهم أصناماً كما جاء ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ [النحل: ٣٠] ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ [البقرة: ٢١٩] ولذلك عطفوا على ذلك الفعل قولهم (فنظّل) قال: كما تقول لرئيس «ما تلبس؟» فقال «البس مطرف الخبز فأجر ذبوله» يريد الجواب وحاله مع ملبوسه، وقالوا (فنظّل) لأنهم كانوا يعبدونهم بالهاردون الليل، ولما أجابوا إبراهيم أخذ يوقفهم على قلة عقولهم باستفهامهم عن أوصاف منسوبة عنهم لا يكون ثبوتها إلا لله تعالى، وقرأ الجمهور (يسمعونكم) من سمع، وسمع إن دخلت على مسموع تعدت إلى واحد نحو «سمعت كلام زيد»، وإن دخلت على غير مسموع فذهب الفارسي أنها تعدى إلى اثنين، وشرط الثاني منها أن يكون مما يسمع نحو «سمعت زيداً يقرأ»، والصحيح: أنها تعدى إلى واحد، وذلك الفعل في موضع الحال، والترجيح بين المذهبين المذكور في النحو، وهنا لم تدخل إلا على واحد ولكنه ليس بمسموع، فتألولوه على حذف مضاف تقديره «هل يسمعونكم تدعون»، وقيل (هل يسمعونكم) بمعنى يجيبونكم، وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر بضم الياء وكسر الميم من أسمع، والمفعول الثاني محذوف تقديره الجواب أو الكلام (إذ) ظرف لما مضى فإما أن يتجاوز فيه فيكون بمعنى «إذا» وإما أن يتجاوز في المضارع فيكون قد وقع موقع الماضي، فيكون التقدير «هل سمعتم إذ دعوتهم»، وقد ذكر أصحابنا أن من قرأ في المضارع إلى الماضي إضافة (إذ) إلى جملة مصدرية بالمضارع ومثلاً بقوله: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي وإذ قلت، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: وجاء مضارعاً مع إيقاعه في (إذ) على حكاية الحال الماضية التي كتبت تدعون فيها وقولوا هل سمعوا أو اسمعوا قط، وهذا أبلغ في التبييت انتهى، وقرئ بإظهار ذال (إذ) وبإدغامها في تاء (تدعون) قال ابن عطية: ويجوز فيه قياس مذكر، ولم يقرأ به أحد، والقياس: أن يكون اللفظ به «إدتدعون» فالذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال الأصلية في الفعل فكثرت المتأثرات انتهى. وهذا الذي ذكر أنه يجوز فيه قياس مذكر لا يجوز، لأن ذلك الإبدال وهو إبدال التاء دالاً لا يكون إلا في «افتعل» مما فاؤه ذال أو زاي أو دال نحو: إذ ذكر، وإذ جرح، وإذ هن، أصله: اذتكر، وإذ تجر، وإذ تنهن أو جيم شذوذاً قالوا «أجتمعت» في «اجتمع»، ومن تاء الضمير بعد الزاي والدال، ومثلاً بتاء الضمير للمتكلم فقالوا في «فرت» «فزد» وفي «جلدت» «جلدت» ومن تاء (تولج) شذوذاً قالوا «دولج» وتاء المضارعة ليست شيئاً مما ذكرنا فلا تبدل تاءه، وقول ابن عطية: والذي منع من هذا اللفظ إلى آخره يدل على أنه لولا ذلك لجاز إبدال تاء المضارعة دالاً، وإدغام الدال فيها، فكنت تقول «إذ تخرج» «إذ خرج» وذلك لا يقوله أحد، بل إذا أدغم مثل هذا أبدل من الدال تاء وأدغم في التاء فتقول «إذ تخرج»، (أو ينفعونكم) بتقربكم إليهم ودعائكم إياهم، (أو يضرؤن) بترك عبادتكم إياهم، فإذا لم ينفعوا ولم يضرؤا فما معنى عبادتكم لها، قالوا (بل وجدنا) هذه حيلة عن جواب الاستفهام، لأنهم لو قالوا يسمعوننا وينفعوننا ويضرؤنا فضعوا أنفسهم بالكذب الذي لا يمتري فيه، ولو قالوا يسمعوننا ولا يضرؤنا لسجلوا على أنفسهم بالخطأ المحض، فعدلوا إلى التقليد البحث لأبائهم في عبادتها من غير برهان ولا حجة، والكاف في موضع نصب يفعلون، أي يفعلون في عبادتهم تلك الأصنام مثل ذلك الفعل الذي يفعله وهو عبادتهم، والحيدة عن الجواب من علامات انقطاع الحجة (بل) هنا إضراب عن جوابه، لما سأل وأخذ في شيء آخر لم يسألهم عنه انقطاعاً وإقراراً بالعجز، (وأباؤكم الأقدمون) وصفهم بالأقدمين دلالة على تقادم عبادة الأصنام فيهم، وإذ كانوا قد عبدوها في زمان نوح عليه السلام فزمان من بعده، و(عدو) يكون للمفرد والجمع كما قال ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ [المنافقون ٤] قيل شبه بالمصدر كالتقبل والولوع، قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: وإنما قال: (عدو لي) تصوراً للمسألة في نفسه على

معنى: أي فكرت في أمري فأريت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً، وبنى عليها تدبير أمره لينظروا ويقولوا: ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه وما أردنا إلا ما أراد لروحه ليكون أدنى لهم إلى القبول، وأبعث على استماع منه. ولو قال «فإنه عدو لكم» لم يكن بتلك المثابة، ولأنه دخل في باب من التعريض، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغ التصريح، لأنه ربما يتأمل فيه فرمما قاده التأميل إلى التقبل، ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله عنه: أن رجلاً واجهه بشيء فقال: لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب وسمع رجل ناساً يتحدثون عن الحجر فقال: ما هو بيتي ولا بيتكم. انتهى. وهو كلام فيه تكثير على عادته، وذهاب من ذهب إلى أن قوله (فإنهم عدو لي) من المقلوب والأصل «فإن عدو لهم» لأن الأصنام لا تعادى لكونها جماداً وإنما هو عاذاها ليس بشيء ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ألا ترى إلى قوله «كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً» [مریم: ٨٢] فهذا معنى العداوة، ولأن المغربي على عداوتها عدو الإنسان وهو الشيطان، وقيل: لأنه تعالى يحكي ما عبده من الأصنام حتى يتربؤوا من عبدتهم ويوبخوهم، وقيل: هو على حذف، أي فإن عبادهم عدو لي. والظاهر إقرار الاستثناء في موضعه من غير تقديم ولا تأخير، وقال الجرجاني: تقديره «أفأرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدو لي»، وإلا «بمعنى» «دون» و«سوى» انتهى. فجعله مستثنى مما بعد (كنتم تعبدون) ولا حاجة إلى هذا التقدير لصحة أن يكون مستثنى من قوله (فإنهم عدو لي) وجعله جماعة منهم الفراء واتبه الزمخشري استثناء منقطعاً، أي لكن رب العالمين، لأنهم فهموا من قوله (ما كنتم تعبدون) أنهم الأصنام، وأجاز الزجاج أن يكون استثناء متصلاً على أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأصنام فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله. وأجازوا في (الذي خلقتني) النصب على الصفة لرب العالمين أو بإضمار أعني، والرفع خبر مبتدأ محذوف، أي هو الذي، وقال الحوفي: ويجوز أن يكون (الذي خلقتني) رفعاً بالابتداء فهو يهدين ابتداء وخبر في موضع الخبر عن الذي، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط انتهى. وليس (الذي) هنا فيه معنى اسم الشرط، لأنه خاص، ولا يتخيل فيه العموم، فليس نظير «الذي يأتيني فله درهم» أيضاً ليس الفعل الذي هو خلق لا يمكن فيه تحدد بالنسبة إلى إبراهيم، وتابع أبو البقاء الحوفي في إعرابه هذا لكنه لم يقل: ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط، فإن كان أراد ذلك فليس بجيد لما ذكرناه وإن لم يرده فلا يجوز ذلك إلا على زيادة الفاء على مذهب الأخفش في نحو «زيد فاضربه».

(الذي خلقتني) بقدرته (فهو يهدين) إلى طاعته. وقيل: إلى جنته وقال الزمخشري: (فهو يهدين) يريد: أنه حين اتهم خلقه، ونفخ فيه الروح عقب هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى ما يصلحه ويعينه، وإلا فمن هدها إلى أن يفتدي بالدم في البطن امتصاصاً، ومن هدها إلى معرفة الثدي عند الولادة، وإلى معرفة مكانه، ومن هدها لكيفية الارتضاع، إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد انتهى. والظاهر أن قوله: (يطعمني ويسقيني) «الطعام»: المعروف «المعهود» و«السقي»: المعهود، وفيه تعديد نعمة الرزق، وقال أبو بكر الوراق: يطعمني بلا طعام، ويسقيني بلا شراب، كما جاء «إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»، ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو، فلم يكن التركيب الذي هو خلقتني، ولما كانت الهداية قد يمكن ادعاؤها والإطعام والسقي كذلك أكد بهو في قوله (فهو يهدين) والذي هو يطعمني وذكر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة ويستمر به نظام الخلق وهو الغذاء والشرب، ولما كان ذلك سبباً لغلبة إحدى الكيفيات على الأخرى بزيادة الغذاء أو نقصانه فيحدث بذلك مرض ذكر نعمته بإزالة ما حدث من السقم، وأضاف المرض إلى نفسه. ولم يأت التركيب «وإذا أمرضني» وإن كان تعالى هو الفاعل لذلك، وإبراهيم عليه السلام عدد نعم الله تعالى عليه، والشفاء محبوب، والمرض مكروه، ولما لم يكن المرض منها لم يصفه إلى الله، وعن جعفر الصادق ولعله لا يصح وإذا مرضت بالذنوب

شفاني بالتوبة، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: وإنما قال (مرضت) دون «أمرضني» لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاركه وغير ذلك، ومن ثم قال الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم؟ لقالوا التخم. ولما كان الشفاء قد يعزى إلى الطبيب وإلى الدواء على سبيل المجاز كما قال ﴿فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩] أكد بقوله (فهو يشفين) أي الذي هو يهدين ويطعمني ويسقين هو الله لا غيره، ولما كانت الإمامة بعد البعث لا يمكن إسنادها إلا إلى الله لم يحتج إلى توكيد، ودعوى نمرود الإمامة والإحياء هي منه على سبيل المخرفة والفتحة<sup>(٢)</sup>، وكذلك لم يحتج إلى تأكيد في (والذي أطعم) وأثبت ابن أبي إسحق ياء المتكلم في (يهديني) وما بعده وهي رواية عن نافع، و«الطعم» عبارة عن الرجاء<sup>(٣)</sup>، وإبراهيم عليه السلام كان جازماً بالمغفرة، فقال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: لم يجزم القول بالمغفرة، وفيه تعليم لأهمهم وليكون لطفاً بهم في اجتناب المعاصي والحذر منها وطلب المغفرة مما يفرط منهم انتهى. ورده الرازي، قال: لأن حاصله يرجع إلى أنه - ونطق بكلمة لا أذكرها - وبعدها على نفسه لأجل تعليم الأمة، وهو باطل قطعاً، وقال الجبائي: أراد به سائر المؤمنين لأنهم الذين يطعمون ولا يقطعون، ورده الرازي بأن جعل كلام الواحد من كلام غيره مما يبطل نظم الكلام، وقال الحسن: المراد بالطعم العاقين، وقال الرازي: لا يستقيم هذا إلا على مذهبنا حيث قلنا: إنه لا يجب على الله شيء، وأنه يحسن منه كل شيء، ولا اعتراض لأحد عليه في فعله، وقال ابن عطية: أوقف عليه الصلاة والسلام نفسه على الطعم في المغفرة، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلته، وقرأ الجمهور: (خطيئتي) على الأفراد، والحسن (خطاياي) على الجمع. وذهب الأكثرون إلى أنها قوله: ﴿إني سقيم﴾ [الأنبياء: ٨٣] و﴿بل فعله كبيرهم﴾ [الصفات: ٨٩] و«هي أختي» في سارة، وقالت فرقة: أراد بالخطيئة اسم الجنس، قدرها في كل أمره من غير تعيين، قال ابن عطية: وهذا أظهر عندي، لأن تلك الثلاث قد خرجها كثير من العلماء على المعارض، وقال الزمخشري<sup>(٥)</sup>: المراد ما يندر منه في بعض الصغائر، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون مختارون على العالمين، وهي قوله: وذكر الثلاثة، ثم قال: وما هي إلا معارضض كلام وتحييات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار (فإن قلت) إذا لم يندر منهم إلا الصغائر، وهي تقع مكفرة، فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطعم أن يغفر له (قلت الجواب) ما سبق أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، وبدل عليه قوله (أطعم) ولم يجزم القول. انتهى، (ويوم الدين) ظرف والعامل فيه (يغفر) والغفران وإن كان في الدنيا فآثره لا يتبين إلا يوم الجزاء، وهو في الدنيا لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى، وضعف أبو عبد الله الرازي حمل الخطيئة على تلك الثلاث، لأن نسبة ما لا يطابق إلى إبراهيم غير جائز، وحمله على سبيل التواضع قال: لأنه إن طابق في هذا الموضوع زال الإشكال، وإن لم يطابق رجح حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزيهه عن المعصية، قال: والجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يسمى خطأ، فإن من باع جوهرة تساوي ألفاً بدينار قيل: أخطأ وترك الأولى على الأنبياء جائز. انتهى. وفيه بعض تلخيص وتبديل ألفاظ للأدب بما يناسب مقام النبوة، وقدم إبراهيم عليه السلام الثناء على الله تعالى، وذكره بالأوصاف الحسنة بين يدي طلبته ومسألته، ثم سأله تعالى فقال (رب هب لي حكماً) فدل على أن تقديم الثناء على المسألة من المهمات والظاهر أن «الحكم» هو الفصل بين الناس بالحق، وقيل: «الحكم» الحكمة والنبوة، لأنها حاصلة لتوطلب النبوة،

(١) انظر الكشاف ٣/٣١٩.

(٢) القح: الجافي من الناس كأنه خالص فيه.

لسان العرب (٥/٣٥٣٥)

(٣) انظر القرطبي ١٣/٧٦.

(٤) انظر الكشاف ٣/٣٢٠.

(٥) انظر الكشاف ٣/٣٢٠.

لأن النبي ذو حكمة وذو حكم بين الناس، وقال أبو عبد الله الرازي: لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة، لأنها حاصله، فلو طلب النبوة لكانت مطلوبة إما عين الحاصلة أو غيرها، والأول محال، لأن تحصيل الحاصل محال، والثاني محال لأنه يمنع أن يكون الشخص الواحد نبياً مرتين، بل المراد من الحكم ما هو كمال النبوة العملية، وذلك بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به انتهى، وقال ابن عطية: وقد فسر الحكم بالحكمة والنبوة، قال ودعاؤه عليه السلام في مثل هذا هو في التثبت والدوام وإلحاقه بالصالحين توفيقه لعمل ينتظمه في جملتهم، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة، وقد أجابه تعالى حيث قال ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [العنكبوت: ٢٨]، قال أبو عبد الله الرازي: وإنما قدم قوله: (هب لي حكماً) على قوله: (وألحقتي بالصالحين) لأن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية، لأنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعمل به، وعكسه غير ممكن، لأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن، وكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أفضل من الإصلاح انتهى، «ولسان الصدق»، قال ابن عطية: هو الثناء وتخليد المكانة بإجماع من المفسرين، وكذلك أجاب الله دعوته، فكل ملة تمسك به وتعظمه وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ، قال مكّي: وقيل معنى سؤال أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق، فأجيب الدعوة في محمد عليه السلام<sup>(١)</sup>، وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ. انتهى. ولما طلب سعادة الدنيا طلب سعادة الآخرة وهي (جنة النعيم) وشبهها بما يورث لأنه الذي يقسم في الدنيا، شبه غنيمة الدنيا بغنيمة الآخرة وقال تعالى ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ [مريم: ٦٣] ولما فرغ من مطالب الدنيا والآخرة لنفسه طلب لأشد الناس التصاقاً به وهو أصله الذي كان ناشئاً عنه وهو أبوه فقال (واغفر لأبي) وطلبه المغفرة مشروط بالإسلام، وطلب المشروط يتضمن طلب الشرط، فحاصله أنه دعا بالإسلام، وكان وعده ذلك يوضحه قوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله﴾ [التوبة: ١١٤] أي الموافاة على الكفر (تبراً منه)، وقيل: كان قال له إنه على دينه باطنياً، وعلى دين غمروذ ظاهراً تقياً وخوفاً، فدعا له لاعتقاده أن الأمر كذلك، فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال في دعائه: (واغفر لأبي انه كان من الضالين) فلولا اعتقاده أنه في الحال ليس بضال ما قال ذلك، (ولا تخزني) إما من الخزي وهو الهوان، وإما من الخزاية وهي الحياء. والضمير في (يبعثون) ضمير العباد لأنه معلوم أو ضمير (الضالين) ويكون من جملة الاستغفار، لأنه يكون المعنى «يوم يبعث الضالون وأتى فيهم» (يوم لا ينفع) بدل من يوم يبعثون، (مال ولا بنون) أي كما ينفع في الدنيا يفديه ماله ويذب عنه بنوه، وقيل: المراد بالبنين: جميع الأعوان<sup>(٢)</sup>، وقيل: المعنى يوم لا ينفع أعلام بالدنيا ومحاسنها، فقصده من ذلك الذكر العظيم والأكثر، لأن المال والبنين هي زينة الحياة الدنيا، والظاهر أن الاستثناء منقطع أي: لكن من أتى الله بقلب سليم ينفعه سلامة قلبه، قال الزمخشري: ولك أن تجعل الاستثناء منقطعاً، ولا بد لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال المراد بها السلامة وليست من جنس المال والبنين حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان وإنما ينفع سلامة القلب، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى انتهى. ولا ضرورة تدعو إلى حذف مضاف كما ذكر إذ قدرناه لكن (من أتى الله بقلب سليم) ينفعه<sup>(٣)</sup> ذلك وقد جعله الزمخشري في أول توجيهه متصلاً بتأويل قال، (إلا من أتى الله) (لا) حال من (أتى الله بقلب سليم) وهو من قوله:

(١) انظر القرطبي ٧٦/١٣.

(٢) انظر القرطبي ٧٧/١٣.

(٣) فاعتراضه قائم على استقامة المعنى بتقدير: لكن من أتى الله بقلب سليم ينفعه ذلك، فهو مبني على إحساس الاستدراك من مجموع الجملة إلى جملة أخرى، قال الرضي في شرح الكافية ٢٢٧/١ وتأويل البصريين يعني تقديرهم المنقطع بلكن المشددة أولى، لأن المستثنى المنقطع يلزم مخالفته لما قبله نفيًا وإثباتًا كما في لكن، وأيضاً معنى لكن الاستدراك، والمراد بالاستدراك رفع توهم المخاطب دخول ما بعدها في حكم ما قبلها مع أنه ليس بداخل فيه، وهذا هو معنى الاستثناء المنقطع بعينه، وانظر التصريح ٣٥٢/١، الصبان ١٤٣/٢.



## تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ (١).

وما ثوابه إلا السيف، ومثاله أن يقال «هل لزيد مال وبنون» فيقول «ماله وبنوه سلامة قلبه»، تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك، وإن شئت حملت الكلام على المعنى، وجعلت المال والبنين في معنى الغنى، كأنه قيل «يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم» لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه انتهى. وجعله بعضهم استثناء مفرغاً ف «من» مفعول والتقدير (لا ينفع مال ولا بنون) أحداً (إلا من أتى الله بقلب سليم) فإنه ينفعه ماله المصروف في وجوه البر وبنوه الصالحاء، إذا كان أنفقه في طاعة الله، وأرشد بنيه إلى الدين وعلمهم الشرائع. وسلامة القلب: خلوصه من الشرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين، وقال سفيان: هو الذي يلقي ربه وليس في قلبه شيء غيره، وهذا يقتضي عموم اللفظ، ولكن «السليم» من الشرك هو الأعم، وقال الجنيد: بقلب لديغ من خشية الله، والسليم: اللديغ، وقال الزمخشري: هو من بدع التفاسير، وصدق، (وأزلقت الجنة) قربت لينظروا إليها ويغتبطوا بحشرهم إليها، (وبرزت الجحيم) أظهرت وكشفت بحيث كانت بمرأى منهم كقوله: ﴿فلما رأوه زلفه سيئت وجوه الذين كفروا﴾ [الملك: ٢٧] (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله) وذلك على سبيل التوبيخ (هل ينفعونكم) بنصرهم إياكم (أو ينتصرون) هم فينفعون أنفسهم بحمايتها، إذ هم وأنتم وقود النار، وقرأ الأعمش (فبرزت) بالفاء جعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة يعقبه، وذلك لأن الواو للجمع، فيمكن أن يكون كل واحد منها ظهوره قبل الآخر وهو من تقديم الرحمة على العذاب، وهو حسن لولا أن رسم المصحف بالواو، وقرأ «مالك بن دينار» (وبرزت) بالفتح والتخفيف. (الجحيم) بالرفع بإسناد الفعل إليها اتساعاً، ولما وبخهم وقرعهم أخبر عن حال يوم القيامة، وحيء في ذلك كله بلفظ الماضي في (أتى) (وأزلقت) (وبرزت)، وقيل: (فكَبَّكَبُوا) لتحقق وقوع ذلك وإن كان لم يقع، والضمير في (فكَبَّكَبُوا) عائد على الأصنام، أجريت مجرى من يعقل، قال الكرمانى: (فكَبَّكَبُوا) قذفوا فيها، وقيل: جمعوا، وقيل: هدروا (٢)، وقيل: نكسوا على رؤوسهم يوج بعضهم في بعض (٣)، وقيل: ألقوا في جهنم ينكبون مرة بعد مرة حتى يستقروا في قعرها (والغاوون) هم الكفرة الذين شملتهم الغواية، وقيل: الضمير يعود على الكفار، (والغاوون): الشياطين (وجنود إبليس) قبيلة وكل من تبعه فهو جند له وعون، وقال السدي: هم مشركو العرب (والغاوون) سائر المشركين، وقيل: هم القادة والسفلة (قالوا): أي عباد الأصنام، والجملة بعده حال، والمقول جملة القسم ومتعلقه والخطاب في (نسويكم) للأصنام على جهة الإقرار والاعتراف بالحق، قال ابن عطية: أقسموا بالله إن كنا إلا ضالين في أن نعبدكم ونجعلكم سواء مع الله تعالى الذي هورب العالمين وخالقهم ومالكهم انتهى. وقوله: إن كنا إلا ضالين إن أراد تفسير المعنى فهو صحيح وإن أراد أن «إن» هنا نافية واللام في (لني) بمعنى إلا فليس مذهب البصريين، وإنما هو مذهب الكوفيين. ومذهب البصريين في مثل هذا أن «إن» هي المخففة من الثقيلة، وأن اللام هي الداخلة للفرق بين «إن» النافية «وإن» التي هي لتأكيد مضمون الجملة (وما أضلنا إلا المجرمون) أي: أصحاب الجرائم والمعاصي العظام والجرأة، وهم ساداتهم ذوو المكانة في الدنيا والاستتباع كقولهم ﴿أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال السدي: هم الأولون الذين اقتدوا بهم، وقيل: المجرمون الشياطين، وقيل: من دعاهم إلى عبادهم الأصنام من الجن والإنس، وقال ابن جريج: إبليس وابن آدم القتاتل، لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصي. وحين رأوا شفاعة الملائكة والأنبياء والعلماء نافعة في أهل الإيمان، وشفاعة الصديق

(١) تقدم.

(٢) انظر ابن كثير ٣/٣٣٩، والقرطبي ١٣/٧٨، ٧٩.

(٣) ابن كثير ٣/٣٣٩، والقرطبي ١٣/٧٨، ٧٩.

في صديقه خاصة قالوا على جهة التلهف والتأسف (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم)، وقال ابن جريج: (شافعين) من الملائكة، وصديق من الناس. ولفظة «الشفيع» تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده، ولفظة «الصديق» تقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو فعيل من صدق الود من أبنية المبالغة، ونفي الشفعاء والصديق يحتمل أن يكون نفياً لوجودهم إذ ذاك وهم موجودون للمؤمنين إذ تشفع الملائكة وتتصدق المؤمنون كما قال: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين﴾ [الزخرف: ٦٧] أو ذلك على حسب اعتقادهم في معبوداتهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وأن لهم أصدقاء من الإنس والشياطين فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع حكمه حكم المعدم، فصار المعنى «فما لنا من نفع من كنا نعتقد أنهم شفعاء وأصدقاء». وجمع «الشفعاء» لكثرتهم في العادة، ألا ترى أنه يشفع فيمن وقع في ورطة من لا يعرفه، وأفرد «الصديق» لقلته وأريد به الجمع إذ يقال «هم صديق» أي أصدقاء، كما يقال «هم عدو» أي أعداء، والظاهر أن «لو» هنا أشربت معنى التمني (فتكون) الجواب كأنه قيل «يا ليت لنا كرامة فنكون»، وقيل: هي الخالصة للدلالة لما كان سيقع لوقوع غيره، فيكون قوله (فتكون) معطوفاً على (كرة) أي فكونا من المؤمنين، وجواب (لو) محذوف أي لكان لنا شفعاء وأصدقاء، أو لخلصنا من العذاب، والظاهر أن هذه الجملة كلها متعلقة بقول إبراهيم، أخبر بما أعلمه الله من أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من حال قومه، وقال ابن عطية: وهذه الآيات من قوله (يوم لا ينفع مال ولا بنون) هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبار من الله عز وجل تعلق بصفة ذلك اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه أن لا يخزي فيه انتهى. وكان ابن عطية قد أعرب (يوم لا ينفع) بدلاً من (يوم مبعوث) وعلى هذا لا يتأتى هذا الذي ذكره من تفكيك الكلام وجعل بعضه من كلام إبراهيم وبعضه من كلام الله، لأن العامل في البدل على مذهب الجمهور فعل آخر من لفظ الأول أو الأول، وعلى كلا التقديرين لا يصح أن يكون من كلام الله، إذ يصير التقدير «ولا تخزني يوم لا ينفع مال ولا بنون»، والإشارة بقوله (إن في ذلك لآية) إلى قصة إبراهيم عليه السلام ومحاورته لقومه، (وما كان أكثرهم) أي أكثر قوم إبراهيم، بين تعالى أن أكثر قومه لم يؤمنوا مع ظهور هذه الدلائل التي استدلت بها إبراهيم عليه السلام، وفي ذلك مسلاة للرسول ﷺ في تكذيب قومه إياه عليه السلام.

كذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتَؤْمِنُ لَكَ  
وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا  
بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ بِنُوحٍ لِتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّ  
قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ  
الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ  
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا  
اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ  
﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا

الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ۖ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتْ وَعُيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُزَكُّونَ فِي مَا هُمْنَا آمَنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٤٧﴾ وَرُزُوعٍ ۖ وَنَحَلٍ طَلَعَهَا هَظِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۖ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ

لَنزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّهُمْ لَفِي زُبُرِ الْأَوْلِيَيْنِ ﴿٢٠٠﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونَا بَلَىٰ إِنَّهُمْ لَأَعْجَمِينَ ﴿٢٠١﴾ ففَرَّامُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٢﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٤﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٥﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٦﴾ أَفِعْدَا إِنَّا سَتَعَجِلُونَ ﴿٢٠٧﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٨﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٩﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢١١﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٢﴾ وَمَا نُنزِّلُ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٣﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٤﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٥﴾ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٦﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٧﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٨﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٩﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٠﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢١﴾ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢٢٢﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٣﴾ هَلْ أَنْشَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢٤﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٥﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿٢٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٨﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٣٠﴾

(المشحون) المملوء بما ينبغي له من قدر ما يحمل يقال: شجنا عليها خيلاً ورجالاً، الرِّيع بكسر الراء وفتحها جمع ربيعة وهو المكان المرتفع، قال ذو الرمة:

طَرَأُ الخَوَافِي مُشْرِقٌ فَوْقَ رَيْعِهِ      بِبَدِي لَيْلَةٍ فِي رَيْعِهِ يَتَرَفَّرِقُ<sup>(١)</sup>

وقال أبو عبيدة: الرِّيع الطريق، قال ابن المسيَّب بن عَلس يصف ظعننا:

فِي الْأَلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا رَيْعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سُحُلُ<sup>(٢)</sup>

«الطلع» الكفري، وهو عنقود التمر قبل أن يخرج من الكم في أول نباته، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: الطلعة هي التي تطلع

(١) من الطويل انظر ديوانه (٤٠٠) مجاز القرآن (٨٨/٢) اللسان (ربيع).

(٢) انظر البيت في القرطبي (٨٣/١٣)، وانظر الكشاف (٣٢٦/٣) والأل هو السراب، وقيل: الأل: ما في طرفي النهار وما في وسطه السراب.

(٣) انظر الكشاف ٣/٣٢٣.

من النخلة كنصل (١) السيف، في جوفه شهايرخ (٢) القنوق (٣)، و«القنوق» اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه (٤)، «الفراهة» جودة منظر الشيء وقوته وكماله في نوعه، وقيل: الكيس والنشاط، القالي: المبعض قلى يقلى ويقلي، ومجئته على يفعل بفتح العين شاذ، «الجبلة»: الخلق المتجسد الغليظ مأخوذ من الجبل، قال الشاعر:

وَالْمَوْتُ أَعْظَمُ حَدِيثٍ مِمَّا يَمُرُّ عَلَى الْجِبِلَّةِ (٥)

ويقال بسكون الباء مثلث الجيم، وقال الهروي: الجبل والجبل والجبل لغات وهو الجمع الكثير العدد من الناس انتهى، «هام» ذهب على وجهه قاله الكسائي، وقال أبو عبيدة: حاد عن القصد «كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجى ومن معي من المؤمنين فأنجيتنا ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم».

«القوم» مؤنث مجازي التأنيث، ويصغر قومية فلذلك جاء (كذبت قوم نوح) ولما كان مدلوله أفراداً ذكوراً عقلاء عاد الضمير عليه كما يعود على جمع المذكر العاقل، وقيل: قوم مذكر، وأنت لأنه في معنى الأمة والجماعة، وتقدم معنى تكذيب قوم نوح المرسلين وإن كان المرسل إليهم واحداً في الفرقان في قوله «وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم» [الفرقان ٣٧]، وإخوة نوح قيل في النسب، وقيل في المجانسة كقوله «يا أخا تميم» تريد يا واحد أمته، وقال الشاعر:

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا (٦)

ومتعلق التقوى محذوف، فقيل: (ألا تتقون) عذاب الله وعقابه على شرككم، وقيل: (ألا تتقون) مخالفة أمر الله فتركوا عبادتكم للأصنام، وأمانته كونه مشهوراً في قومه بذلك، أو مؤتمناً على أداء رسالة الله، ولما عرض عليهم برفق تقوى الله فقال (ألا تتقون) انتقل من العرض إلى الأمر فقال: (فاتقوا الله وأطيعون) في نصحي لكم، وفيها دعوتكم إليه من توحيد الله وإفراده بالعبادة (وما أسألكم عليه) أي على دعائي إلى الله والأمر بتقواه، وقيل الضمير في (عليه) يعود على النصح أو

(١) نصل السيف: هو حديدة السيف ما لم يكن لها مقبض.

لسان العرب ٤٣٥/٦

(٢) شمرخ النخلة: خرط بسرها.

لسان العرب ٢٣٢٣/٤

(٣) القنوق: العلق بما فيه من الرطب.

لسان العرب ٣٧٥٨/٥

(٤) العرجون: قيل العلق عامة، وقيل: هو أصل العلق (السعف) الذي يعوج وتقطع منه الشهايرخ، فيبقى على النخل يابساً.

لسان العرب ٢٨٧١/٤

(٥) البيت من الكامل لم أهدت لقاتله انظر تفسير غريب القرآن (٣٢٠).

(٦) البيت لقريط بن أنيف من قبيلة بلعبر انظر الكشاف مع شواهد (٣٢٣/٣) وانظر تفسير القرطبي (٨١/١٣)، روح المعاني (١٠٧/١٩).

على التبليغ، والمعنى لا أسألكم عليه شيئاً من أموالكم وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوى الله سبب لطاعة نوح عليه السلام، ثم كرر الأمر بالتقوى والطاعة ليؤكد عليهم ويقرر ذلك في نفوسهم وإن اختلف التعليل، جعل الأول معلولاً لأمانته، والثاني لانتفاء أخذ الأجر، ثم لم ينظر وفي أمر رسالته، ولا تفكروا فيما أمرهم به لما جلبوا عليه ونشؤوا حب الرئاسة، وهي التي تطبع على قلوبهم، فشرع أشرفهم في تنقيص متبعيه، وأن الحامل على انتفاء إيمانهم له كونه اتبعه الأردلون وقوله (واتبعك الأردلون) جملة حالية، أي كيف نؤمن وقد اتبعك أراذلنا فتساوى معهم في اتباعك، وكذا فعلت قريش في شأن عمار وصهيب، والضعفاء أكثر استجابة من الرؤساء لأن أذهانهم ليست مملوءة بزخارف الدنيا، فهم أدرك للحق وأقبل له من الرؤساء، وقرأ الجمهور (واتبعك) فعلاً ماضياً، وقرأ «عبد الله» و«ابن عباس» و«الأعمش» و«أبو حيو» و«الضحاك» و«ابن السميع» و«سعيد بن أبي سعد الأنصاري» و«طلحة» و«يعقوب» و«أتابعك» جمع تابع كصاحب وأصحاب، وقيل: جمع تبيع كشريف وأشرف، قيل: والذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكناته وبنو بنيه، فعلى هذا لا تكون الرذالة دناءة المكاسب. وتقدم الكلام في الرذالة في هود في قوله: ﴿إلا الذين هم أراذلنا﴾ [هود: ٢٧] وأرادوا بذلك تنقيص نوح عليه السلام، إذ لم يعلموا أن ضعفاء الناس هم أتباع الرسل، كما ورد في حديث هرقل، وهذا الذي أجابوا به في غاية السخافة، إذ هو مبعوث إلى الخلق كافة، فلا يختلف الحال بسبب الفقر والغنى ولا شرف المكاسب ودنائها، وقال ابن عطية: ويظهر من الآية أن مراد قوم نوح نسبة الرذيلة إلى المؤمنين بتهمين أفعالهم، لا النظر إلى صنائعهم، يدل على ذلك قول نوح (وما علمي) الآية لأن معنى كلامه ليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة، وإنما أقتع بظواهرهم وأجزىء به ثم حسابهم على الله تعالى، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» الحديث بجملة انتهى، وقال الكرماني: لا أطلب العلم بما عملوه وإنما على أن أدعوهم، وقال «الزمخشري»: (وما علمي) وأي شيء علمي، والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم وإطلاعه على سرائرهم، وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا في استرذالهم في إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوىً وبديةً، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿الذين هم أراذلنا باديء الرأي﴾ [هود: ٢٧] ويجوز أن يتعالى لهم نوح عليه السلام فيفسر قولهم (الأردلون) بما هو الرذالة عنده من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم بنى جوابه على ذلك فيقول ما عليّ إلا اعتبار الظاهر دون التفتيش على أسرارهم، والشق عن قلوبهم وإن كان لهم شيء فإله محاسبهم ومجازيهم، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجازٍ (لو تشعرون) ذلك، ولكنكم تجهلون فتساقون مع الجهل حيث سيركم، وقصد بذلك رد اعتقادكم، وإنكار أن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس وأضعفهم نسباً، فإن الغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى انتهى. وهو تكثير، وقال الحوفي: (وما علمي) (ما) أنا فيه والباء متعلقة بعلمي انتهى. وهذا التخريج يحتاج فيه إلى إضمار خبر حتى تصير جملة، ولما كانوا لا يصدقون بالحساب ولا بالبعث أردفه بقوله (لو تشعرون) أي بأن المعاد حق والحساب حق، وقرأ الجمهور (تشعرون) بقاء الخطاب، وقرأ الأعرج وأبو زرعة وعيسى بن عمر الهمداني بياء الغيبة، (وما أنا بطارد المؤمنين) هذا مشعر بأنهم طلبوا منه ذلك فأجابهم بذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء فنزلت ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية أي لا أطردهم عني لاتباع شهواتكم والطمع في إيمانكم (إن أنا إلا نذير مبين) ما جئت به بالبرهان الصحيح الذي يميز به الحق من الباطل، ولما اعتلوا في ترك إيمانهم بإيمان من هو دونهم دل ذلك على أنهم لم تتلج صدورهم للإيمان إذ اتباع الحق لا يأنف منه أحد لوجود الشركة فيه أخذوا في التهديد والوعيد، (قالوا لئن لم تنته يا نوح عن تقبيح ما نحن عليه وادعائك الرسالة من الله (لتكونن من المرجومين) أي بالحجارة، وقيل: بالشم<sup>(١)</sup>

وأيس إذ ذاك من فلاحهم، فنادى ربه - وهو أعلم بحاله - (إن قومي كذبون) فدعائي ليس لأجل أنهم آذوني، ولكن لأجل دينك، (فاتح) أي فاحكم ودعا لنفسه ولمن آمن به بالنجاة، وفي ذلك إشعار بحلول العذاب بقومه، أي ونجني مما يحل بهم، وقيل: ونجني من عملهم لأنه سبب العقوبة، و(الفلك) واحد وجمع، غالب استعماله جمعاً لقوله ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ [النحل: ١٤] و(الفلك التي تجري في البحر) فحيث أتى في غير فاصلة استعمل جمعاً، وحيث كان فاصلة استعمل مفرداً لمراعاة الفواصل كهذا الموضع والذي في سورة يس. وتقدّم الخلاف إذا كان مدلوله جمعاً أم هو جمع تكسير أم اسم جمع، و(المشحون) قال ابن عباس: الموقر، وقال عطاء: المثقل، (ثم أغرقنا بعد) أي بعد نجاة نوح والمؤمنين.

﴿كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾.

كان أخاهم من النسب، وكان تاجراً جليلاً أشبه الخلق بآدم عليه السلام، عاش أربعاً وستين سنة وأربعاً وستين سنة، وبينه وبين ثمود مائة سنة، وكانت منازل عاد ما بين عمان إلى حضرموت أروع البلاد فجعلها الله مفاوز ورمالاً، أمرهم أولاً بما أمر به نوح قومه، ثم نعى عليهم من سوء أعمالهم مع كفرهم فقال: (أتبنون بكل ريع)، قال ابن عباس: هو رأس الزقاق، وقال مجاهد: فج بين جبلين، وقال عطاء: عيون فيها الماء<sup>(١)</sup>، وقال ابن بحر: جبل، وقيل: الثنية الصغيرة<sup>(٢)</sup>، وقرأ الجمهور (ريع) بكسر الراء وابن أبي عبلة بفتحها، قال ابن عباس (آية) علماً، وقال مجاهد: أبراج الحمام، وقال النقاش وغيره: القصور الطوال، وقيل: بيت عشار، وقيل: نادياً للتصلف، وقيل: أعلاماً طوالاً ليهتدوا بها في أسفارهم، عيشوا بها لأنهم كانوا يهتدون بالنجوم، وقيل: علامة يجتمع إليها من يعث بالمار في الطريق، وفي قوله إنكار للبناء على صورة العث كما يفعل المترفون في الدنيا، والمصانع: جمع مَصْنَعَة، قيل: وهي البناء على الماء، وقيل: القصور المشيدة المحكمة، وقيل: الحصون، وقال قتادة: برك الماء، وقيل: بروج الحمام<sup>(٣)</sup>، وقيل: المنازل و«اتخذ» هنا بمعنى عمل أي وتعملون مصانع أي تبنون وقال لبيد:

وَبَقِيَ جِبَالٌ بَعْدَنَا وَمَصَانِعُ<sup>(٤)</sup>.

(لعلكم تخلدون) الظاهر أن لعل على بابها من الرجاء، وكأنه تعليل للبناء والاتخاذ، أي الحامل لكم على ذلك هو الرجاء للخلود ولا خلود، وفي قراءة عبد الله (كي تخلدون) أو يكون المعنى يشبه حالكم حال من يخلد فلذلك بنيتم واتخذتم، وقال ابن زيد: معناه الاستفهام على سبيل التوبيخ والهزء بهم أي «هل أنتم تخلدون» وكون لعل للاستفهام مذهب كوفي، وقال ابن عباس: المعنى كأنكم خالدون، وفي حرف أبي (كأنكم تخلدون) وقرئ (كأنكم خالدون)، وقرأ أبي وعلقمة وأبو العالية مبنياً للمفعول مشدداً كما قال الشاعر:

(١) انظر القرطبي ٨٣/١٣ وزاد المسير ١٣٥/٦، ١٣٦.

(٢) انظر القرطبي ٨٣/١٣ وزاد المسير ١٣٥/٦، ١٣٦.

(٣) انظر القرطبي ٨٣/١٣ وزاد المسير ١٣٥/٦، ١٣٦.

(٤) عجز بيت وصدرة (بلينا وما تبلى النجوم والظوال... ) انظر تفسير القرطبي (٨٣/١٣).

وَهَلْ يَنْعَمَنَ إِلَّا سَعِيدٌ مُّخَلَّدٌ قَلِيلٌ الْهُمُومِ مَا بَيَّيْتُ بِأَوْجَالٍ (١)

(وإذا بطشتم أي أردتم البطش، وحمل على الإرادة لثلاث يتحد الشرط وجوابه، كقوله:

مَتَى تَبَعْتُوها تَبَعْتُوها ذَمِيمَةً

أي متى أردتم بعثها، قال الحسن: بادروا تعذيب الناس من غير تثبيت ولا فكر في العواقب، وقيل: المعنى إنكم كغضب الغضب لكم السطوات المفرطة والبوادر، فبناء الأبنية العالية تدل على حب العلو، واتخاذ المصانع رجاء الخلود يدل على البقاء، والجارية تدل على التفرد بالعلو، وهذه صفات الإلهية وهي ممتعة الحصول للعبد، ودل ذلك على استيلاء حب الدنيا عليهم بحيث خرجوا عن حد العبودية، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، ولما نبههم وويحهم على أفعالهم القبيحة أمرهم ثانياً بتقوى الله وطاعة نبيه، ثم أمرهم ثالثاً بالتقوى تنبيهاً لهم على إحسانه تعالى إليهم وسبوغ نعمته عليهم، وأبرز صلة الذي متعلقة بعلمهم تنبيهاً لهم وتحريضاً على الطاعة والتقوى، إذ شكر المحسن واجب، وطاعته متعينة، ومشيراً إليهم بأن من أمد بالإحسان هو قادر على سلبه وعلى تعذيب من لم يتقه، إذ هذا الإمداد ليس من جهتكم، وإنما هو من تفضله تعالى عليكم بحيث اتبعكم إحسانه شيئاً بعد شيء، ولما أتى بذكر ما أمدهم به مجملاً عمالاً على علمهم أتى به مفصلاً، فبدأ بالأنعام وهي التي تحصل بها الرئاسة في الدنيا والقوة على من عادهم، والغنى هو السبب في حصول الدرية غالباً لوجده، وبحصول القوة أيضاً بالبنين، فلذلك قرنهم بالأنعام، ولأنهم يستعينون بهم في حفظها والقيام عليها، وأتبع ذلك بالبساتين والمياه المطردة، إذ الإمداد بذلك من إتمام النعمة، و(بأنعام) ذهب بعض النحويين إلى أنه بدل من قوله (بما تعلمون) وأعيد العامل كقوله ﴿اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم﴾ [يس: ٢٠، ٢١] والأكثر لا يجعلون مثل هذا بدلاً، وإنما هو عندهم من تكرار الجمل، وإن كان المعنى واحداً ويسمى التثبيح، وإنما يجوز أن يعاد عندهم العامل إذا كان حرف جر دون ما يتعلق به نحو «مررت بزيد بأخيك»، ثم حذرهم عذاب الله، وأبرز ذلك في صورة الخوف لا على سبيل الجزم إذ كان راجياً لإيمانهم، فكان من جوابهم أن (قالوا سواء علينا) وعظك وعدمه، وجعلوا قوله وعظاً إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به وأنه كاذب فيما ادعاه، وقولهم ذلك على سبيل الاستخفاف، وعدم المبالاة بما خوفهم به، وقرأ الجمهور (وعظت) بإظهار الظاء وروي عن أبي عمرو والكسائي وعاصم إدغام الظاء في التاء وبالإدغام قرأ ابن محيصن والأعمش إلا أن الأعمش زاد ضمير المفعول فقرأ (أو عظنتا) وينبغي أن يكون إخفاء، لأن الظاء مجهورة مطبقة والتاء مهموسة منفتحة، فالظاء أقوى من التاء، والإدغام إنما يحسن في المتأثرين أو في المتقاربين إذا كان الأول أنقص من الثاني، وأما إدغام الأقوى في الأضعف فلا يحسن، على أنه قد جاء من ذلك أشياء في القرآن بنقل الثقات فوجب قبولها وإن كان غيرها هو أفصح وأقرب، وعادل (أو عظت) بقوله (أم لم تكن من الواعظين) وإن كان قد يعادله أم لم تعظ كما قال: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ [إبراهيم: ٢١] لأجل الفاصلة كما عادت في قوله: ﴿سواء عليكم أذعوتهم أم أنتم صامتون﴾ [الأعراف: ١٩٣] ولم يأت التركيب «أم صمتم»، وكثيراً ما يحسن مع الفواصل مالا يحسن دونه، وقال الزمخشري: بينها فرق يعني بين ما جاء في الآية وهي أم لم تعظ، قال: لأن المراد «سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته» فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك «أم لم تعظ» ولما لم يبالوا بما أمرهم به وبما ذكرهم من نعم الله وتخويفه الانتقام منهم أجابوه بأن قالوا: (إن هذا إلا خلق الأولين)، وقرأ عبد الله وعلقمة والحسن وأبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير والكسائي (خلق) بفتح الخاء وسكون اللام، فهو يحتمل أن يكون المعنى «إن هذا الذي تقوله وتدعيه إلا اختلاق الأولين من الكذبة



قبلك فانت على مناجهم»، وروى علقمة عن عبد الله (إن هذا إلا اختلاق الأولين) ويحتمل أن يكون المعنى ما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأولون، حياة وموت ولا بعث ولا تعذيب، وقرأ باقي السبعة (خلق) بضمين وأبو قلابة والأصمعي عن نافع بضم الحاء وسكون اللام، وتحتمل هذه القراءة ذنك الاحتمالين اللذين في خلق ﴿كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين أتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعميون وزرور ونخل طلوعها هضيم وتنتحون من الجبال بيوتاً فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فانت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعفرها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾.

(أتركون) يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزولون عنه، وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك مع الأمن والدعة، قاله الزمخشري<sup>(١)</sup>، وقال ابن عطية: تخويف لهم بمعنى أنطمعون، إن كفرتم في النعم على معاصيكم، وقيل: (أتركون) استفهام في معنى التوبيخ، أي: أترككم ربكم فيما ههنا، أي فيما أنتم عليه في الدنيا آمنين لا تخافون بطشه انتهى. (وما) موصولة، وههنا إشارة إلى المكان الحاضر القريب، أي «في الذي استقر في مكانكم هذا من النعيم». (وفي جنات) يدل من (ما ههنا) أجل ثم فصل كما أجل هود عليه السلام في قوله (أمدمكم بما تعلمون) ثم فصل في قوله: ﴿أمدمكم بأنعام وبنين﴾ [الشعراء: ١٣٢، ١٣٣] وكانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل، (والهضيم) قال ابن عباس: إذا أئع وبلغ، وقال الزهري: الرخص اللطيف<sup>(٢)</sup> أول ما يخرج، وقال الزجاج: الذي رطبه بغير نوى، وقال الضحاك: المضد بعضه على بعض، وقيل: الرطب المذنب<sup>(٣)</sup>، وقيل: النضيج من الرطب، وقيل: الرطب المنفتت، وقيل: الحمض الطلع ويقارب قشرته من الجانبين، من قولهم خصر هضيم، وقيل: العذق المتدلي، وقيل: الجمار الرخو، وجاء قوله (ونخل) بعد قوله (في جنات) وإن كانت الجنة تتناول النخل أول شيء ويطلقون الجنة ولا يريدون بها إلا النخل كما قال الشاعر:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ      مِنْ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا<sup>(٤)</sup>

أراد هنا النخل، والسحق جمع سحق وهي التي ذهبت بجردها صعداً فطالت، فأفرد (ونخل) بالذكر بعد اندراجها في لفظ (جنات) تشبيهاً على انفراده عن شجر الجنة بفضله، أو أراد بجنات غير النخل من الشجر، لأن اللفظ صالح لهذه الإرادة، ثم عطف عليه (ونخل) ذكرهم تعالى نعمة في أن وهب لهم أجود النخل وأئعته لأن الإناث ولادة التمر و(طلوعها) فيه لطف، و«الهضيم» اللطيف الضامر، والبرني ألطف من طلع اللون، ويحتمل اللطف في الطلع أن يكون بسبب كثرة الحمل، فإنه متى كثرت لطف فكان هضياً، وإذا قل الحمل جاء التمر فاحراً، ولما كانت نبات النخل جيدة، وكان السقي لها كثيراً، أو سلمت من العاهة كبر الحمل بلطف الحب، وقرأ الجمهور (وتنتحون) بالتاء للخطاب وكسر الحاء وأبو حيوة وعيسى والحسن بفتحها وتقدم ذكره، وعنه بألف بعد الحاء إشباعاً، وعن عبد الرحمن بن محمد عن أبيه: بالياء من أسفل

(١) انظر الكشاف ٣/ ٣٢٦.

(٢) انظر القرطبي ١٣/ ٨٦ وزاد المسير ٦/ ١٣٨.

(٣) انظر القرطبي ١٣/ ٨٦ وزاد المسير ٦/ ١٣٨.

(٤) من البسيط لزهير انظر ديوانه (٣٧) اللسان (سحق، وقتل).

وكسر الحاء، وعن أبي حنيفة والحسن أيضاً: بالياء من أسفل وفتح الحاء، وقرأ عبد الله وابن عباس وزيد بن علي والكوفيون وابن عامر (فارحين) بالفتح، وباقي السبعة بغير ألف ومجاهد (مُتَفَرِّحِينَ) اسم فاعل من تفره، والمعنى نشطين مهتمين. قاله ابن عباس<sup>(١)</sup>، وقال مجاهد: شريين<sup>(٢)</sup>، وقال ابن زيد: أقوياء، وقال ابن عباس أيضاً وأبو عمرو بن العلاء: أشيرين<sup>(٣)</sup> بطرين، وقال عبد الله بن شداد: بمعنى مستفرحين أي مباليين في استجادة المغارات ليحفظوا أموالهم فيها، وقال قتادة: أمنين، وقال الكلبي: متجبرين، وقال خصيف: معجيين، وقال عكرمة: ناعمين، وقال الضحاك: كيسين، وقال أبو صالح: حاذقين، وقال ابن بحر: قادرين، وقال أبو عبيدة: مرحين.

وظاهر هذه الآيات أن الغالب على قوم هود اللذات الخيالية من طلب الاستعلاء، والبقاء، والتفرد، والتجبر. وعليه قوم صالح اللذات الحسية من المأكول، والمشروب، والمسكن الطيبة الحسنة، (ولا تطيعوا) خطاب لجمهور قومه، و«المسرفون» هم كبرائهم وأعلامهم في الكفر والإضلال، وكانوا ﴿تسعة رهط يفسدون في الأرض﴾ [النمل: ٤٨] أي أرض ثمود، وقيل في الأرض كلها لأن بمعاصيهم امتناع الغيث، ولما كانوا (يفسدون) دلالة المطلق أتى بقوله (ولا يصلحون) فنفي عنهم الصلاح، وهو نفي لمطلق الصلاح، فيلزم منه نفي الصلاح كائناً ما كان فلا يحصل منهم صلاح البتة. والمسحر الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله، وقيل: من السحر، وهو الرثة أي أنت بشر لا تصلح للرسالة، ويضعف هذا القول قولهم بعد (ما أنت إلا بشر مثلنا) إذ تكون هذه الجملة تأكيداً لما قبلها والأصل التأسيس، (ومثلنا) أي في الأكل والشرب وغير ذلك من صفات البشر فلا اختصاص لك بالرسالة (فانت بأية) أي بعلامة على صحة دعواك، وفي الكلام حذف تقديره: قال أتى بها، قالوا: ما هي؟ قال: هذه ناقة. روي: أنهم اقترحوا عليه ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة تلد سقياً، ففقد صالح يتفكر، فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين، وسل ربك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة، وبركت بين أيديهم، وتجت سقياً<sup>(٤)</sup> مثلها في العظم. وتقدم في الأعراف طرف من قصة ثمود والناقة. و«الشرب» النصيب المشروب من الماء، نحو السقي، وقرأ ابن أبي عبيدة (شُرِب) بضم الشين فيهما، وظاهر هذا العذاب أنه في الدنيا، وكذا وقع، ووصف «بالعظم» لخلول العذاب فيه، ووصفه به أبلغ من وصف العذاب به لأن الوقت إذا عظم بسبب العذاب كان موقع العذاب من العظم أشد، ونسب العقرب إلى جميعهم لكونهم راضين بذلك، حتى روي أنهم استرضوا المرأة في خدرها، والصبيان، فرضوا جميعاً (فأصبحوا نادمين) لاندم توبة، بل ندم خوف أن يحل بهم العذاب عاجلاً، وذلك عند معاينة العذاب في غير وقت التوبة، أصبحوا وقد تغيرت ألوانهم حسبما كان أخبرهم به صالح عليه السلام، وكان العذاب صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم وصب عليهم حجارة خلال ذلك، وقيل: كانت ندامتهم على ترك عقر الولد وهو قول بعيد و«أل» في (فأخذهم العذاب) للعهد في العذاب السابق عذاب ذلك اليوم العظيم.

﴿كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم

(١) انظر القرطبي ١٣/٨٧ وزاد المسير ٦/١٣٨.

(٢) انظر القرطبي ١٣/٨٧ وزاد المسير ٦/١٣٨.

(٣) أشر: الأشر البطر والمرح. وقيل: أشد البطر.

(٤) سقب: ولد الناقة، وقيل: الذكر من ولد الناقة بالسبين لا غير.

عليه من أجران أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال إني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿

(أتأتون) استفهام إنكار وتقرع وتوبيخ، و(الذكران) جمع ذكر مقابل الأنثى والإتيان كناية عن وطء الرجال، وقد ساء تعالى بالفاحشة فقال: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ [الأعراف: ٨٠] هو مخصوص بذكران بني آدم<sup>(١)</sup>، وقيل: مخصوص بالغرباء، (وتذرون ما خلق) ظاهر في كونهم لا يأتون النساء إما البتة، وإما غلبة، (ما خلق لكم ربكم) يدل على الإباحة بشرطها، (من أزواجكم) أي من الإناث، و(من) إما للتبيين لقوله (ما خلق) وإما للتبعض، أي العضو المخلوق للوطء وهو الفرج، وهو على حذف مضاف، أي «وتذرون إتيان» فإن كان ما خلق لا يراد به العضو فلا بد من تقدير مضاف آخر، أي وتذرون إتيان فروج ما خلق، (بل أنتم قوم عادون) أي متجاوزون الحد في الظلم، وهو إضراب بمعنى الانتقال من شيء إلى شيء، لا أنه يبطل لما سبق من الإنكار عليهم وتبجيل أفعالهم. واعتداؤهم إما في المعاصي التي هذه المعصية من جملتها، أو من حيث ارتكاب هذه الفعلة الشنيعة. وجاء تصدير الجملة بضمير الخطاب تعظيماً لقبح فعلهم، وتنبهاً على أنهم هم مختصون بذلك كما تقول «أنت فعلت كذا» أي لا غيرك، ولما نهاهم عن هذا الفعل القبيح توعدهم بالإخراج وهو النفي من بلده الذي نشأ فيه، أي «لئن لم تنته عن دعواك النبوة وعن الإنكار علينا فيما تأتيه من الذكران لتنفينك كما نفينا من هنا قبلك»، ودل قوله (من المخرجين) على أنه سبق من نهاهم عن ذلك فنفوه بسبب النهي أو (من المخرجين) بسبب غير هذا السبب، كأنه من خالفهم في شيء نفوه، سواء كان الخلاف في هذا الفعل الخاص أم في غيره، (قال إني لعملكم) أي للفاحشة التي أنتم تعملونها، و(لعملكم) يتعلق إما بالقالين، وإن كان فيه آل لأنه يسوغ في المجرورات والظروف ما لا يسوغ في غيرها لاتساع العرب في تقديمها حيث لا يتقدم غيرها، وإما بمحذوف دل عليه (القالين) يدل على أنه يبغض هذا الفعل ناس غيره هو بعضهم، وبه ذلك على أن هذا الفعل موجب للبغض حتى يبغضه الناس و(من) القالين) أبلغ من «قال» لما ذكرنا «من» أن الناس يبغضونه، ولتضمنه أنه معدود ممن يبغضه، ألا ترى أن قولك. زيد من العلماء) أبلغ من «زيد عالم»، لأن في ذلك شهادة بأنه معدود في زمريهم، وقال أبو عبد الله الرازي: القلى: البغض الشديد، كأنه بغض فقلى الفؤاد والكبد. انتهى. ولا يكون قلى بمعنى أبغض وقلا من الطبخ والشيء من مادة واحدة، لاختلاف التركيب، فسادة قلا الشيء من ذوات السواو، تقول «قلوت اللحم» فهو مقلو ومسادة قلى من البغض من ذوات الباء «قليت الرجل» فهو مقلي، قال الشاعر:

وَلَسْتُ بِمَقْلِيَّ الْخُلَّالِ وَلَا قَالَ (٢).

ولما توعدهم بالإخراج أخبرهم ببغض عملهم ثم دعا ربه فقال: (رب نجني وأهلي مما يعملون) أي من عقوبة ما يعملون من المعاصي، ويحتمل أن يكون دعاء لأهله بالعصمة من أن يقع واحد منهم في مثل فعل قومه، ودل دعاؤه بالتنجية لأهله على أنهم كانوا مؤمنين، ولما كانت زوجته مندرجة في الأهل وكان ظاهر دعائه دخولها في التنجية وكانت كافرة استثنيت في قوله (فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين) ودل قوله عجوزاً على أنها قد عسيت في الكفر ودامت فيه إلى أن صارت عجوزاً، (من الغابرين) صفة، أي من الباقيين من لداتها وأهل بيتها، قاله أبو عبيدة.

(١) انظر زاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٢) عجز بيت من الطويل وصدرة (صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . . انظر تفسير القرطبي .

وقال قتادة من الباقيين في العذاب النازل بهم . وتقدّم القول في «عبر» وأنه يستعمل بمعنى بقي وهو المشهور وبمعنى مضى .

ونجاته عليه السلام أن أمره تعالى بالرحلة ليلاً، وكانت امرأته كافرة تعين عليه قومه، فأصابها حجر فهلكت فيمن هلك، قال قتادة: أمطر الله على شذاذ النجوم حجارة من السماء فأهلكهم، وقال قتادة: أتبع الائتفاك (مطراً) من الحجارة . و(ساء) بمعنى بشس، والمخصوص بالذم محذوف أي مطرهم، وقال مقاتل: خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة إلى من كان خارجاً من القرية ولم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجليلة الأولين قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ .

قرأ الحرميان وابن عامر (ليكة) هنا وفي (ص) بغير لام، ممنوع الصرف، وقرأ باقي السبعة (الأيكة) بلام التعريف، فأما قراءة الفتح . فقال أبو عبيد: وجدنا في بعض التفسير أن (ليكة) اسم للقرية و(الأيكة) البلاد كلها، كمكة وبكة، ورأيتها في الإمام مصحف عثمان في الحجر، وق الأيكة، وفي الشعراء وص ليكة، واجتمعت مصاحف الأمصار كلها بعد على ذلك ولم تختلف انتهى . وقد طعن في هذه القراءة المبرد وابن قتيبة والزجاج وأبو عليّ الفارسي والنحاس وتبعهم الزمخشري، وهما القراء، وقالوا: حملهم على ذلك كون الذي كتب في هذين الموضعين على اللفظ، في من نقل حركة الهزمة إلى اللام وأسقطت الهزمة، فتوهم أن اللام من بنية الكلمة ففتح الياء، وكان الصواب أن يميز، ثم مادة (ل ي ك) لم يوجد منها تركيب، فهي مادة مهملة كما أهملوا مادة (خ ذج) منقوطة، وهذه نزعة اعتزالية، يعتقدون أن بعض القراءة بالرأي لا بالرواية، وهذه قراءة متواترة لا يمكن الطعن فيها، ويقرب إنكارها من الردّة والعياذ بالله، أما نافع فقرأ على سبعين من التابعين وهم عرب فصحاء، ثم هي قراءة أهل المدينة قاطبة، وأما ابن كثير فقرأ على سادة التابعين ممن كان بمكة كمجاهد وغيره، وقد قرأ عليه إمام البصرة أبو عمرو بن العلاء، وسأله بعض العلماء أقرأت على ابن كثير؟ قال نعم ختمت على ابن كثير بعدما ختمت على مجاهد، وكان ابن كثير أعلم من مجاهد باللغة . قال أبو عمرو: ولم يكن بين القراءتين كبير، يعني خلافاً، وأما ابن عامر: فهو إمام أهل الشام وهو عربي فح<sup>(١)</sup> قد سبق للحن، أخذ عن عثمان وعن أبي الدرداء، وغيرهما . فهذه أمصار ثلاثة اجتمعت على هذه القراءة الحرمان مكة والمدينة والشام، وأما كون هذه المادة مفقودة في لسان العرب فإن صح ذلك كانت الكلمة عجمية، ومواد كلام العجم مخالفة في كثير مواد كلام العرب، فيكون قد اجتمع على منع صرفها العلمية والعجمة والتأنيث . وتقدم مدلول (الأيكة) في الحجر .

وكان شعيب عليه السلام من أهل مدين، فلذلك جاء (وإلى مدين أخاهم شعيباً) ولم يكن من أهل الأيكة فلذلك قال هنا (إذ قال لهم شعيب) ومن غريب النقل ماروي عن ابن عباس، أن أصحاب الأيكة هم أصحاب مدين وعن غيره أن أصحاب الأيكة هم أهل البادية، وأصحاب مدين هم الحاضرة، وروي في الحديث «أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة أمرهم بإيفاء الكيل وهو الواجب، ونهاهم عن الإخسار وهو التطفيف ولم يذكر الزيادة على الواجب لأن

(١) قح: انظر لسان العرب (٦/٤٤٤٥) .

النفوس قد تشح بذلك فمن فعله فقد أحسن ومن تركه فلا حرج». وتقدم تفسير القسطاس في سورة الإسراء، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: إن كان من «القشط» وهو العدل، وجعلت العين مكررة فوزنه «فعلاء»، وإلا فهو رباعي. انتهى. ولو تكرّر ما يماثل العين في النطق لم يكن عند البصريين إلا رباعياً، وقال ابن عطية: هو مبالغة من القسط. انتهى. والظاهر أن قوله (وزنوا) هو أمر بالوزن، إذ عادل قوله (أوفوا الكيل) فشمّل ما يكال وما يوزن مما هو معتاد فيه ذلك، وقال ابن عباس ومجاهد: معناه عدلوا أموركم كلها بميزان العدل الذي جعله الله لعباده، (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) الجملة والتي تليها تقدم الكلام عليها. ولما تقدم أمره عليه السلام إياهم بتقوى الله، أمرهم ثانياً بتقوى من أوجدهم وأوجد من قبلهم، تنبيهاً على أن من أوجدهم قادر على أن يعذبهم ويهلكهم، وعطف عليهم (والجبلّة) إيذاناً بذلك، فكأنه قيل: يصيركم إلى ما صار إليه أولوكم، فاتقوا الله الذي تصيرون إليه، وقرأ الجمهور (والجبلّة) بكسر الجيم والباء وشد اللام، وقرأ أبو حصين والأعمش والحسن بخلاف عنه بضمها وشد اللام، وقرأ السلمي (والجبلّة) بكسر الجيم وسكون الباء، وفي نسخة عنه فتح الجيم وسكون الباء، وهي من جيلوا على كذا أي خلقوا، قيل: وتشديد اللام في القراءتين في بناءين للمبالغة، وعن ابن عباس (الجبلّة) عشرة آلاف، (وما أنت) جاء هنا بالواو، وفي قصة هود (ما أنت) بغير واو، فقال الزمخشري: إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مخالف للرسالة عندهم: التسخير، والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً، ولا يجوز أن يكون بشراً، وإذا تركت الواو فلم يُقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً انتهى، (وإن نظنك لمن الكاذبين) إن هي المخففة من الثقيلة واللام في (لمن) هي الفارقة خِلافاً للكوفيين ف «إن» عندهم نافية واللام بمعنى إلا، وتقدم الخلاف في نحو ذلك في قوله: ﴿وإن كانت لكبيراً﴾ [البقرة: ١٤٣] في البقرة، ثم طلبوا منه إسقاط كسف<sup>(٢)</sup> من الساء عليهم، وليس له ذلك، فالمعنى: «إن كنت صادقاً فإدع الذي أرسلك أن يسقط علينا كسفاً» أي قطعة، أو قطعاً، على حسب التسكين والتحرير، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: وكلاهما جمع كسفة، نحو قطع وشذر، وقيل: الكسف والكسفة كالربيع والريعة وهي القطعة، وكسفة قطعة، و(الساء) السحاب أو المظلة، ودل طلبهم ذلك على التصميم على الجحود والتكذيب، ولما طلبوا منه ما طلبوا أحال علم ذلك إلى الله تعالى، وأنه هو العالم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب فهو يعاقبكم بما شاء (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة) وهو نحو ما اقترحوا. ولم يذكر الله كيفية عذاب يوم الظلة، حتى إن ابن عباس قال: من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب. وذكر في حديثها تطويلات، فروي: أنه حبس عنهم الريح سبعاً فابتلوا بحرّ عظيم يأخذ بأنفاسهم لا ينعفهم ظل ولا ماء، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة، وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها، فأمرت عليهم ناراً فأحرقتهم. وكرر ما كرر في أوائل هذه القصص تنبيهاً على أن طريقة الأنبياء واحدة لا اختلاف فيها وهي الدعاء إلى توحيد الله وعبادته ورفض ما سواه، وأنهم ورسول الله ﷺ مشتركون في ذلك، وأن ما جاء به ﷺ هو ما جاءت به الرسل قبله، وتلك عادة الأنبياء، قال ابن عطية: وجاءت الألفاظ في دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء واحدة بعينها إذ كان الإيمان المدعو إليه معنى واحداً بعينه، وقال الزمخشري: (فإن قلت كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر قلت كل قصة منها كنتزِيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق إلى أن تفتح ما افتتحت به صاحبها، وإن تحتّم بمثل ذلك مما اختتمت به، ولأن التكرير تقرير للمعاني في النفوس، وتثبيت لها في الصدور، ولأن هذه القصص طرقت بهذا آذان وقر<sup>(٤)</sup> عن الإنصات للحق وقلوب

(١) انظر الكشاف ٣/٣٣٢.

(٢) كسفه: انظر لسان العرب (٥/٣٨٧٧).

(٣) انظر الكشاف ٣/٣٣٣.

(٤) وقر: الوقر تغل في الأذن، وقد وقرت أذنه أي صمت.

غُلْفٌ<sup>(١)</sup> عن تدبره فأوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير.

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وإنه لفي زبر الأولين أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكتنا في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون . فيقولوا هل نحن منظرون أفعذابا يستعجلون أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون وما أهلكتنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين﴾ .

الضمير في (وإنه) عائد على القرآن، أي أنه ليس بكهانة ولا سحر، بل هو من عند الله، وكأنه عاد أيضاً إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر ليتناسب المفتح والمختتم، وقرأ الحرمان وأبو عمرو وحفص (نزل) مخففاً و(الروح الأمين) مرفوعان، وباقي السبعة بالتشديد ونصبها. و(الروح) هنا جبريل عليه السلام، وقد تقدم في سورة مريم لم أطلق عليه الروح، وبه قال ابن عطية في موضع الحال كقوله: ﴿قد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ [المائدة: ٦١] انتهى. والظاهر تعلق (على قلبك) و(لتكون) «بنزل»، وخص القلب والمعنى عليك لأنه محل الوعي والتشيت، وليعلم أن المنزل على قلبه عليه السلام محفوظ لا يجوز عليه التبديل ولا التغيير، وليكون علة في التنزيل أو النزول، اقتصر عليها لأن ذلك أزجر للسامع وإن كان القرآن نزل للإنذار والتبشير، والظاهر تعلق (بلسان) «بنزل» فكان يسمع من جبريل حروفاً عربية، قال ابن عطية: وهو القول الصحيح، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت، وتداخل حروفه، وعجلة مورده، وإغلاظه. ويمكن أن يتعلق بقوله (لتكون) وتمسك بهذا من رأى النبي ﷺ كان يسمع أحياناً مثل صلصلة الجرس يتفهم له منه القرآن. وهو مردود. انتهى، وقال الزخشي (بلسان) إما أن يتعلق «بالمنذرين» فيكون المعنى «لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان» وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد ﷺ وعليهم، وإما أن يتعلق «بنزل» فيكون المعنى «نزله باللسان العربي المبين لتندره» لأنه لو نزله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً، وقالوا: ما نضع بما لا نفهمه، فيتعذر الإنذار به. وفي هذا الوجه أن تنزله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزِيل له على قلبك لأنك تفهمه ويفهمه قومك، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات، فإذا كلم بلغتها التي لقنها أولاً، ونشأ عليها، وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى معاني تلك الكلم يتلقاها بقلبه، ولا يكاد يفتن للألفاظ كيف جرت، وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لتزوله بلسان عربي مبين انتهى. وفيه تطويل، (وإنه) أي القرآن (لفي زبر الأولين) أي مذكور في الكتب المنزلة القديمة، منه عليه، مشار إليه، وقيل: إن معانيه فيها، وبه يحتج لأي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل (وإنه لفي زبر الأولين) لتكون معانيه فيها، وقيل: الضمير عائد على رسول الله ﷺ أي أن ذكره ورسالته في الكتب الإلهية المتقدمة يكون التفاتاً إذ خرج من ضمير الخطاب في قوله (على قلبك لتكون) إلى ضمير الغيبة، وكذلك قيل في (أن يعلمه) أي أن يعلم محمداً ﷺ، وتناسق الضمائر لشيء واحد أوضح، وقرأ الأعمش (لفي زُبر) بسكون الباء، والأصل الضم. ثم احتج عليهم بأنهم كان ينبغي أن يصحح عندهم أمره كون علماء بني إسرائيل يعلمونه، أي أو لم يكن لهم علامة على صحته علم بني إسرائيل به إذ كانت قريش ترجع في كثير من الأمور الثقيلة إلى

(١) غلف: قلب أغلف بين الغلفة، كأنه غشي بغلاف فهو لا يعي شيئاً.

بني إسرائيل ويسألونهم عنها، ويقولون هم أصحاب الكتب الإلهية، وقد تهود كثير من العرب، وتصر كثير لاعتقادهم في صحة دينهم، وذكر الثعلبي عن ابن عباس<sup>(١)</sup>: «أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي ﷺ فقالوا: هذا زمانه، ووصفوا نعته، وخططوا في أمر محمد عليه السلام، فنزلت الآية في ذلك. ويؤيد هذا كون الآية مكية، وقال مقاتل: هي مدنية، وعلماء بني إسرائيل: عبد الله بن سلام<sup>(٢)</sup> ونحوه، قاله ابن عباس ومجاهد، وذلك: أن جماعة منهم أسلموا ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول عليه السلام قال تعالى ﴿وَإِذَا يَتلى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ [القصص ٥٣] الآية<sup>(٣)</sup>، وقيل: علماءهم: من أسلم منهم ومن لم يسلم، وقيل: أنبيأؤهم حيث نبهوا عليه وأحبروا بصفته وزمانه ومكانه، وقرأ الجمهور (أو لم يكن) بالياء من تحت آية بالنصب، وهي قراءة واضحة الإعراب توسط خبر (يكن) (وأن يعلمه) هو الاسم، وقرأ ابن عامر والجدري (تكن) بالتاء من فوق آية بالرفع، قال الزمخشري: جعلت (آية) اسماً (وإن يعلمه) خبراً، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك فقيل: في (تكن) ضمير القصة (آية أن يعلمه) جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز على هذا أن يكون (لهم آية) جملة الشأن (وأن يعلمه) بدلاً من (آية) انتهى. وقرأ ابن عباس (تكن) بالتاء من فوق (آية) بالنصب كقراءة، من قرأ ﴿ثم لم تكن﴾ [الأنعام: ٢٣] بناء التأنيث ﴿فتنتهم﴾ [الأنعام: ٢٣] بالنصب إلا أن قالوا، وكقول لبيد:

فمضى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَدَتْ يُقْرَأُهَا

ودل ذلك إما على تأنيث الاسم لتأنيث الخبر، وإما لتأويل (أن يعلمه) بالمعرفة، وتأويل إلا أن قالوا بالمقالة، وتأويل الإقدام بالإقامة، وقرأ الجحدري (أن تعلمه) بناء التأنيث، كما قال الشاعر:

قَالَتْ بُنُو عَامِرٍ خَالُوا بَنِي أُسَيْدٍ يَا بُؤْسَ لِلْجَهْلِ ضَرَّارًا لِأَقْوَامٍ<sup>(٥)</sup>

وكتب في المصحف (علموا) يواو بين الميم والألف، قيل: على لغة من يميل ألف علموا إلى الواو كما كتبوا «الصلوة» و«الزكوة» و«الربو» على تلك اللفظة، قال الزمخشري: الأعجمي الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجم، والأعجمي مثله إلا أن فيه لزيادة ياء بالنسبة زيادة توكيد، وقال ابن عطية الأعجمون: جمع أعجم<sup>(٦)</sup> وهو الذي لا يفصح وإن كان عربي النسب، يقال له أعجم، وذلك يقال للحيوانات والجمادات، ومنه قول النبي ﷺ «جرح العجاء جبار»<sup>(٧)</sup> وأسند الطبري عن عبد الله بن مطيع أنه قال حين قرأ هذه الآية وهو واقف بعرفة: حملي هذا أعجم فلو أنزل عليه ما كانوا يؤمنون، والعجمي: هو الذي نسبته في العجم وإن كان أفصح الناس. انتهى. وفي التحرير: (الأعجمين) جمع أعجم على التحفيف، ولولا هذا التقدير لم يجوز أن يجمع جمع سلامة، قيل: والمعنى: ولونزلناه بلغة العجم على رجل أعجمي فقرأه على

(١) انظر القرطبي ٩٣/١٣ وزاد المسير ١٤٤/٦، ١٤٥ وابن كثير ٣/٣٤٧.

(٢) انظر القرطبي ٩٣/١٣ وزاد المسير ١٤٤/٦، ١٤٥ وابن كثير ٣/٣٤٧.

(٣) انظر القرطبي ٩٣/١٣ وزاد المسير ١٤٤/٦، ١٤٥ وابن كثير ٣/٣٤٧.

(٤) البيت من الكامل انظر الإنصاف (٧٧٢) شرح السبع الطوال لابن الأنباري (٥٥٠)، الكشاف (١٣٢/٢).

(٥) من السبسط للنايعة الذبياني انظر ديوانه (٨٢) الكتاب (٢٧٨/٢) الإنصاف (٣٣٠) المحاسب (٢٥١/١) الخصائص (١٠٦/٣) الحجاسة البصرية (٨٨/١).

(٦) انظر لسان العرب (٢٨٢٥/٤).

(٧) أخرجه البخاري ٣/٣٦٤ كتاب الزكاة (١٤٩٩) ومسلم ٣/١٣٣٤ كتاب الحدود، (١٧١٠/٤٥).

العرب لم يؤمنوا به، حيث لم يفهموه، واستنكفوا<sup>(١)</sup> من اتباعه، وقيل: ولو نزلنا القرآن على بعض العجم من الدواب فقرأه عليهم لم يؤمنوا لعنادهم لقلبه تعالى ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ [الأنعام: ١١١] الآية، وجمع جمع السلامة لأنه وصف بالإنزال عليه والقراءة وهو فعل العقلاء، وقيل: ولو نزل على بعض البهائم فقرأه عليهم محمد ﷺ لم تؤمن البهائم، كذلك هؤلاء لأنهم كالأنعام، بل هم أصل سبيلاً. انتهى. ولما بين بما تقدم من أن هذا القرآن في كتب الأولين، وأن علماء بني إسرائيل يعلمون ذلك وكان في ذلك دليلاً على صدق نبوة رسول الله ﷺ بين أن هؤلاء الكفار لا تجدي فيهم الدلائل، ألا ترى نزوله على رجل عربي، بلسان عربي، وسمعه، وفهموه، وأدركوا إعجازه، وتصديق كتب الله القديمة له، ومع ذلك جحدوا، وسموه تارة شعراً، وتارة سحراً، ولو نزل على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية لكفروا به وتمحلوا بجحوده، وقال الفراء: (الأعجمين) جمع أعجم أو أعجمي على حذف ياء النسب، كما قالوا الأشعريين، وواحدهم أشعري، وقال ابن الجهم: قال الكميت:

وَلَوْ جَهَّزْتُ قَافِيَةَ شَرُودًا لَقَدْ دَخَلْتُ بُيُوتَ الْأَشْعَرِيْنَ<sup>(٢)</sup>

انتهى، وقرأ الحسن وابن مقسم: الأعجمين بياء النسب جمع أعجمي، والضمير في (سلكناه) الظاهر أنه عائد على ما عادت عليه الضمائر، قيل: وهو القرآن، وقاله الرماني. والمعنى مثل ذلك السلك وهو الإدخال والتمكين والتفهم لمعانيه (سلكناه) أدخلناه ومكانه في قلوب المجرمين، والمعنى: ما ترتب على ذلك السلك من كونهم فهموه وأدركوه ولم يزدهم ذلك إلا عناداً وجحوداً وكفراً به، أي على مثل هذه الحالة وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له كما وضعناه فيها، فكيف ما يرام إيمانهم به لم يتغيروا عما هم عليه من الإنكار والجحود، كما قال ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ [الأنعام: ٧] الآية، وقال الكرمانى: أدخلناه فيها فعرفوا معانيه وعجزهم عن الإتيان بمثله ولم يؤمنوا به، وقال يحيى بن سلام: الضمير في (سلكناه) يعود على التكذيب، فذلك الذي منعهم من الإيمان انتهى. ويقويه قوله (فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين)، وقال الحسن: الضمير يعود على الكفر الذي يتضمنه قوله (ما كانوا به مؤمنين) انتهى. وهو قريب من القول الذي قبله، وقال عكرمة: (سلكناه) أي القسوة، وأسند السلك تعالى إليه لأنه هو موجد الأشياء حقيقة، وهو الهادي، وخالق الضلال، وقال الزمخشري: (فإن قلت) كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته (قلت) أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشد التمكين وأثبت، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه، ألا ترى إلى قولهم «هو محبوب على الشح» يريدون تمكن الشح فيه، لأن الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه: أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه وهو قوله (لا يؤمنون به) انتهى. وهو على طريقة الاعتزال، والتشبيه بين السلكين يقتضي تغاير من حل به، والمعنى مثل ذلك السلك في قلوب قريش سلكناه في قلوب من أجرم، لا اشتراكها في علة السلك وهو الإجماع، قال ابن عطية: أراد بهم مجرمي كل أمة، أي أن هذه عادة الله فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، فلا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم، وهذا على جهة المثال لقريش، أي هؤلاء كذلك، وكشف الغيب بما تضمنته الآية يوم بدر، قال الزمخشري: (فإن قلت) ما موقع (لا يؤمنون به) من قوله (سلكناه في قلوب المجرمين) (قلت): موقعه منه موقع الموضح والملخص، لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم، فأتبع بما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد، ويجوز أن يكون حالاً، أي سلكناه فيها غير مؤمن به انتهى. ورؤيتهم العذاب، قيل: في الدنيا، وقيل: يوم القيامة، وقرأ الجمهور (فيأتيهم) بياء أي العذاب،

(١) نكف الرجل عن الأمر بالكسر واستنكف: أنف وامتنع.

لسان العرب (٦/٤٥٤٣)

(٢) البيت من الوافر للكميت انظر ديوانه (١١٩/٢).



وقرأ الحسن وعيسى بناء التأنيث، أنت على معنى العذاب لانه العقوبة، أي فتأتيهم العقوبة يوم القيامة كما قال أنته كتابي، فلما سئل قال: أوليس بصحيفة، قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: فتأتيهم بالتاء يعني الساعة، وقال أبو الفضل الرازي: أنت العذاب لاشتماله على الساعة فاكتسى منها التأنيث، وذلك لأنهم كانوا يسألون عذاب القيامة تكذيباً بها فلذلك أنت، ولا يكتسى المذكور من المؤنث تأنيثاً إلا إن كان مضافاً إليه نحو «اجتمعت أهل اليامة» و«قطعت بعض أصابعه» و«شرقت صدر القناة» وليس كذلك، وقرأ الحسن (بغثة) بفتح الغين (فتأتيهم) بالتاء من فوق يعني الساعة، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: (فإن قلت) ما معنى التعقيب في قوله (فتأتيهم بغثة) (قلت) ليس المعنى يراد برؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه الوجود وإنما المعنى ترتبها في الشدة، كأنه قيل «لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم العذاب مما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة مما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة» ومثل ذلك أن تقول «إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله» فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على الميء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله، ويرى ثم يقع هذا في هذا الأسلوب فيحل موقعه انتهى. (فيقولوا) أي كل أمة معذبة (هل نحن منظرون) أي مؤخرون، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة. حيث لا تنفع الرغبة، ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك، وقولهم للرسول: أين ما تعدنا به، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: (أبعذابنا يستعجلون) تبيكت<sup>(٤)</sup> لهم بإنكاره وتهكم، ومعناه كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها، ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذ، ويستعجلون هذا على الوجه حكاية حال ماضية. ووجه آخر متصل بما بعده، وذلك أن استعجالهم بالعذاب إما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم متمتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال عز وعلا (أبعذابنا يستعجلون) أشراً وبطراً واستهزاءً واتكلاً على الأمل الطويل، ثم قال: وهب أن الأمر كما يعتقدون من تمتعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معاشهم. انتهى. وقيل: أتبع قوله: (فتأتيهم بغثة) بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة، فيقولوا (هل نحن منظرون) كما يستغيث إليه المرء عند تعذر الخلاص لأنهم يعلمون في الآخرة أن لا ملجأ لكنهم يقولون ذلك استرواحاً، وقيل: يطلبون الرجعة حين يبعثهم عذاب الساعة فلا يجابون إليها<sup>(٥)</sup> (أفرايت إن معناهم سنين) خطاب للرسول عليه السلام بإقامة الحجة عليهم في أن مدة الإرجاء والإمهال والإملاء لا تغني إذا نزل العذاب بعدها، وقال عكرمة سنين عمر الدنيا انتهى<sup>(٦)</sup>. وتقرر في علم العربية أن «أرايت» إذا كانت بمعنى أخبرني تعدت إلى مفعولين، أحدهما: منصوب والآخر جملة استفهامية في الغالب، تقول العرب «أرايت زيدا ما صنع» وما جاء مما ظاهره خلاف ذلك أول. وتقدم الكلام على ذلك مشبعاً في أوائل سورة الأنعام، وتقول هنا مفعول «أرايت» محذوف، لأنه تنازع على (ما يوعدون) أرايت وجاءهم، فأعمل الثاني، فهو مرفوع «بجاءهم» ويجوز أن يكون منصوباً بأرايت على إعمال الأول، وأضمر الفاعل في (جاءهم) والمفعول الثاني هو قوله (ما أغنى عنهم) وما استفهامية أي أي شيء أغنى عنهم تمتعهم في تلك السنين التي تمتعوا، وفي الكلام محذوف يتضمن الضمير العائد على المفعول الأول، أي أي شيء أغنى عنهم تمتعهم حين حل أي الموعود به وهو العذاب، وظاهر ما

(١) انظر الكشاف ٣/٣٣٧.

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٣٧.

(٣) انظر الكشاف ٣/٣٣٨.

(٤) انظر لسان العرب (١/٣٣٢).

(٥) انظر القرطبي ٩٣/١٣ وزاد المسير ١٤٦/٦.

(٦) انظر القرطبي ٩٤/١٣ وزاد المسير ١٤٦/٦.

فسره المفسرون (ما أغنى) أن تكون ما نافية، والاستفهام قد يأتي مضمناً معنى النفي، كقوله: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ [الأحقاف: ٣٥] بعد قوله ﴿أرأيتم﴾ في سورة الأنعام [الآية: ٤٠] أي «ما يهلك إلا القوم الظالمون» وجوز أبو البقاء في (ما) أن تكون استفهاماً، ونافية، وقرى (يتمعون) بإسكان الميم وتخفيف التاء. ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية من القرى إلا وقد أرسل إليها من ينذرها عذاب الله إن هي عصت ولم تؤمن، كما قال تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وجمع منذرون لأن (من قرية) عام في القرى الظالمة، كأنه قيل «وما أهلكتنا القرى الظالمة»، والجملة من قوله (ها منذرون) في موضع الحال من (قرية) والإعراب أن تكون (ها) في موضع الحال، وارتفع (منذرون) بالمرجور إلا كائناً لها منذرون، فيكون من مجيء الحال مفرداً، لا جملة، ومجيء الحال من المنفي - كقولك ما مررت بأحد إلا قائماً - فصيح، وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا، ولم تعزل عنها في قوله ﴿وما أهلكتنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ [الحجر: ٤] [قلت]: الأصل عزل الواو، لأن الجملة صفة لقرية، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف<sup>(١)</sup>، كما في قوله ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ [الكهف: ٢٢] انتهى. ولو قدرنا (ها منذرون) جملة لم يجوز أن تحيء صفة بعد إلا، ومذهب الجمهور: أنه لا تحيء الصفة بعد «إلا» معتمدة على أداة الاستثناء، نحو «ما جاءني أحد إلا راكب» وإذا سمع مثل هذا خرجوه على البديل أي «إلا رجل راكب» ويدل على صحة هذا المذهب أن العرب تقول «ما مررت بأحد إلا قائماً»، ولا يحفظ من كلامها «ما مررت بأحد إلا قائم»، فلو كانت الجملة في موضع الصفة للكرة لورد المفرد بعد «إلا» صفة لها، فإن كانت الصفة غير معتمدة على أداة جاءت الصفة بعد إلا نحو «ما جاءني أحد إلا زيد خير من عمرو»، التقدير: «ما جاءني أحد خير من عمرو إلا زيد»، وأما كون الواو تزايداً لتأكيد وصل الصفة بالموصوف فغير معهود في كلام النحويين، لو قلت: «جاءني رجل وعافل» على أن يكون «عافل» صفة لرجل لم يجوز، وإنما تدخل الواو في الصفات جوازاً إذا عطف بعضها على بعض وتغاير مدلولها نحو: «مررت بزيد الكريم والشجاع والشاعر»، وأما ﴿وثامنهم كلبهم﴾ [الكهف: ٢٢] فتقدم الكلام عليه في موضعه. و(ذكرى) منصوب على الحال عند الكسائي، وعلى المصدر عند الزجاج. فعل الحال إما أن يقدر ذوي ذكرى، أو مذكورين. وعلى المصدر فالعامل (منذرون) لأنه في معنى: يذكرون ذكرى، أي تذكرة. وأجاز الزمخشري في (ذكرى) أن يكون مفعولاً له، قال: على معنى «إنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة»، وأن تكون مرفوعة صفة، بمعنى «منذرون ذوو ذكرى»، أو «جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها» وأجاز هو وابن عطية أن تكون مرفوعة على خبر مبتدأ محذوف بمعنى «هذه ذكرى»، والجملة اعتراضية، قال الزمخشري: ووجه آخر وهو: أن يكون (ذكرى) متعلقة بـ (أهلكتنا) مفعولاً له، والمعنى: «وما أهلكتنا من قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمتهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم لتكون تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم وما كنا ظالمين فنهلك قوماً غير ظالمين»، وهذا الوجه عليه المعول. انتهى. وهذا لا معول عليه، لأن مذهب الجمهور أن ما قبل «إلا» لا يعمل فيها بعدها، إلا أن يكون مستثنى أو مستثنى منه أو تابعاً له غير معتمد على الأداة، نحو: «ما مررت بأحد إلا زيد خير من عمرو» والمفعول له ليس واحداً من هذه الثلاثة، فلا يجوز أن يتعلق بـ (أهلكتنا) ويتخرج جواز ذلك على مذهب الكسائي والأخفش وإن كانا لم ينصا على المفعول له بخصوصيته.

﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله الهاً آخر فتكون من المعذبين وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم هل أنبئكم على من تنزل الشياطين

(١) انظر المجمع ١/٢٣٠ شرح الكافية ١/٢٣٦ الفصل ٢/٩٣ روح المعاني ٢٠/١٣٣.

تنزل على كل أفك أئيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب ينقلبون ﴿١٠٥﴾

كان مشركو قريش يقولون: إن لمحمد تابعاً من الجن يخبره كما يخبر الكهنة فنزلت.

والضمير في (به) يعود على القرآن بل (نزل به الروح الأمين)، وقرأ الحسن (الشياطين)، وتقدمت في البقرة، وقد ردها أبو حاتم والقراء. قال أبو حاتم: هي غلط منه أو عليه، وقال النحاس: هو غلط عند جميع النحويين، وقال المهدي: هو غير جائز في العربية، وقال الفراء: غلط الشيخ، ظن أنها النون التي على «هجائن»، فقال النضر بن شميل: إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤية فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه، يريد محمد بن السميع، مع أنا نعلم أنها لم يقرأ بها إلا وقد سمعنا فيه، وقال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول: دخلت بساتين من ورائها بساتون، فقلت ما أشبه هذا بقراءة الحسن انتهى. ووجهت هذه القراءة بأنه لما كان آخره كآخر «بيرين» و«فلسطين» فكما أجرى إعراب هذا على النون تارة، وعلى ما قبله تارة، فقالوا «بيرين» و«بيرون» و«فلسطين» و«فلسطين» أجرى ذلك في الشياطين تشبيهاً به فقالوا «الشياطين» و«الشياطين»، وقال أبو فيد مؤرج السدوسي: إن كان اشتقاقه من شاط، أي احترق، يشيط شوطه كان لقراءتها وجه، قيل: وجهها أن بناء المبالغة منه شياطين، وجمعه الشياطين، فخفها الباء. وقد روي عنها التشديد، وقرأ به غيرهما. انتهى، وقرأ الأعمش: (الشياطين) كما قرأه الحسن وابن السميع، فهؤلاء الثلاثة من نقلة القرآن، قرؤوا ذلك ولا يمكن أن يقال غلطوا، لأنهم من العلم ونقل القرآن بمكان، وما أحسن ما ترتب نفي هذه الجمل، نفي أولاً بتزليل الشياطين به، والنفي في الغالب يكون في الممكن، وإن كان هنا لا يمكن من الشياطين التنزل بالقرآن، ثم نفي انبغاء ذلك والصلاحية، أي ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلاً له، ثم نفي قدرتهم على ذلك وأنه مستحيل في حقهم التنزل به، فارتقى من نفي الإمكان إلى نفي الصلاحية إلى نفي القدرة والاستطاعة، وذلك مبالغة مترتبة في نفي تنزيلهم به، ثم علل انتفاء ذلك عن استماع كلام أهل السماء مرجومون بالشهب.

ثم قال تعالى (فلا تدع مع الله إلهاً آخر) والخطاب في الحقيقة للسامع، لأنه تعالى قد علم أن ذلك لا يمكن أن يكون من الرسول ﷺ، ولذلك قال المفسرون المعنى: قل يا محمد لمن كفر «لا تدع مع الله إلهاً آخر»، ثم أمره تعالى بإنذار عشيرته والعشيرة تحت الفخذ وفوق الفصيلة، ونبه على العشيرة وإن كان مأموراً بإنذار الناس كافة، كما قال ﴿أن أنذر الناس﴾ [يونس: ٢] لأن في إنذارهم وهم عشيرته عدم محاباة، ولطف بهم، وأنهم والناس في ذلك شرع واحد في التخويف والإنذار، فإذا كانت القرابة قد خوَّفوا وأنذروا مع ما يلحق الإنسان في حقهم من الرأفة كان غيرهم في ذلك أوكد وأدخل، أو لأن البداءة تكون بمن يليه ثم من بعده، كما قال ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة: ١٢٣] وقال عليه الصلاة والسلام حين دخل مكة: «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين فأول ما أضعه ربا العباس» إذ العشيرة مظنة الطوعية، ويمكنه من الغلظة عليهم ما لا يمكنه مع غيرهم، وهم له أشد احتمالاً. وامثل ﷺ ما أمره به ربه من إنذار عشيرته، فنأدى الأقرب فالأقرب فخذاً، وروي عنه في ذلك أحاديث (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) تقدم الكلام على هذه الجمل في آخر الحجر، وهو كناية عن التواضع، وقال بعض الشعراء:

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ فَلَا تَكُ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلًا<sup>(١)</sup>

(١) انظر البيت في روح المعاني (١٩/١٣٥) والكشاف ٣/٣٤١ شبهه بطائر يرق لأفراجه ويخفض إليها جناحه رحمة لها، فاستعار خفض الجناح =

نهاه عن التكبر بعد التواضع، والأجدل<sup>(١)</sup> الصقر و(من المؤمنين) عام في عشيرته وغيرهم. ولما كان الإنذار يترتب عليه إما الطاعة وإما العصيان جاء التقسيم عليها، فكان المعنى أن من اتبعك مؤمناً فتواضع له، فلذلك جاء قسمه (فإن عصوك) فتبرأ منهم ومن أعمالهم، وفي هذا موادة نسختها آية السيف. والظاهر: عود الضمير المرفوع في (عصوك) على أن من أمر بإنذارهم وهم العشيرة والذي يرى منه هو عبادتهم الأصنام واتخاذهم لهاً آخر، وقيل: الضمير يعود على من اتبعه من المؤمنين، أي فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإسلام بعد تصديقك والإيمان بك (فقل إنني بريء مما تعملون) لا منكم، أي أظهر عدم رضاك بعملهم وإنكارك عليهم. ولو أمره بالبراءة منهم ما بقي بعد هذا شفيعاً للعصاة، ثم أمره تعالى بالتوكل، وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وشيبة (فتوكل) بالفاء، وباقي السبعة بالواو، وناسب الوصف بـ (العزيم) وهو الذي لا يغالب، و(الرحيم) وهو الذي يرحمك، وهاتان الصفتان هما اللتان جاءتا في أواخر قصص هذه السورة، فالتوكل على من هو بهذين الوصفين كافيه شر من بغضه من هؤلاء وغيرهم، فهو يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته. والتوكل هو تفويض الأمر إلى من يملك الأمر ويقدر عليه. ثم وصف بأنه (الذي) أنت منه برأى، وذلك من رحمته بك أن أهلك لعبادته وما تفعله من تهجديك، وأكثر المفسرين منهم ابن عباس: على أن المعنى حين تقوم إلى الصلاة، وقرأ الجمهور (وتقلبك) مضارع قلب مشدداً عطفاً على (يراك)، وقال مجاهد وقتادة: (في الساجدين) في المصلين<sup>(٢)</sup>، وقال ابن عباس: في أصلاب آدم ونوح وإبراهيم حتى خرجت، وقال عكرمة: تراك قائماً وساجداً<sup>(٣)</sup> وقيل: معنى تقوم تحلوا بنفسك، وعن مجاهد أيضاً. المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه كما قال «أتموا الركوع والسجود فوالله إنني لأراكم من خلفي» وفي الوجيز لابن عطية: ظاهر الآية أنه يريد قيام الصلاة، ويحتمل أن يريد سائر التصرفات، وهو تأويل مجاهد وقتادة و(في الساجدين) أي صلاتك مع المصلين، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: أراد وتقلبك في المؤمنين، فعبر عنهم بالساجدين، وقال ابن جبير: أراد الأنبياء أي تقلبك كما تقلب غيرك من الأنبياء، وقال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سرائهم، وكيف يعملون لأخرتهم، كما يحكى أنه «حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون بحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير<sup>(٥)</sup> لما سمع من دندنتهم<sup>(٦)</sup> بذكر الله والتلاوة» والمراد بالساجدين: المصلون، وقيل: معناه (يراك حين تقوم) للصلاة بالناس جماعة، وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم لقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة رضي الله عنه هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فتلا هذه الآية. ويحتمل أن لا يخفى على حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين. انتهى، (إنه هو السميع) لما نقوله (العليم) بما تنويه وتعمله. وذهبت الرافضة إلى أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين واستدلوا بقوله تعالى (وتقلبك في الساجدين) قالوا فاحتمل الوجوه التي ذكرت، واحتمل أن

= لذلك على سبيل التمثيل ورشحه بقوله وفلا تك في رفعه أجدلاً أي شبيهاً بالأجدل وهو الصقر في القسوة أو في التكبر.

(١) انظر لسان العرب (٥٦٩/١). والأجدل الصقر، صفة غالبية وأصله من الجد الذي هو الشدة، وهي الإجدال.

(٢) انظر القرطبي ٩٧/١٣ وزاد المسير ١٤٨/٦، ١٤٩ وابن كثير ٣/٣٥٢.

(٣) انظر القرطبي ٩٧/١٣ وزاد المسير ١٤٨/٦، ١٤٩ وابن كثير ٣/٣٥٢.

(٤) انظر الكشاف ٣/٣٤١.

(٥) الزبور والزنبار والزنبورة: ضرب من الذباب لساع ويجمع الزنابير.

لسان العرب ٣/١٨٦٩

(٦) الدندنة: صوت الذباب والزنابير، وهيمنة الكلام.

ترتيب القاموس (٢/٢١٧)

يكون المراد أنه تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن، فإذا احتتم كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة، لأنه لا منافاة ولا رجحان. وبقوله عليه الصلاة والسلام «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» وكل من كان كافراً فهو نجس لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] فأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] فلفظ الأب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له: ﴿عَبُدْ إِلَهَكَ وَإِلَهَ بَنَاتِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٢٣] سموا إسماعيل أباً مع أنه كان عمّاً له (قل هل أنبئكم) أي قل يا محمد: هل أخبركم؟ وهذا استفهام توقيف وتقرير، و(على من) متعلق بـ (تنزل) والجملة المتضمنة معنى الاستفهام في موضع نصب «لأنبئكم» لأنه معلق، لأنه بمعنى أعلمكم، فإن قدرتها متعدية لاثنتين كانت سادة مسد المفعول الثاني، وإن قدرتها متعدية لثلاثة كانت سادة مسد الاثنتين، والاستفهام إذا علق عنه العامل لا يبقى على حقيقة الاستفهام وهو الاستعلام، بل يؤول معناه إلى الخبر، ألا ترى أن قولك «علمت أزيد في الدار أم عمرو»، كان المعنى «علمت أحدهما في الدار» فليس المعنى أنه صدر منه علم، ثم استعلم المخاطب عن تعيين من في الدار من زيد وعمرو، فالعنى هنا: «هل أعلمكم من تنزل الشياطين عليه» لأنه استعلم المخاطبين عن الشخص الذي تنزل الشياطين عليه، ولما كان المعنى هذا جاء الإخبار بعده بقوله: (تنزل على كل أفك أثيم) كأنه لما قال: هل أخبركم بكذا، قيل له أخبر، فقال: (تنزل على كل أفك) وهو الكثير الإفك وهو الكذب (أثيم) كثير الإثم «فأفك أثيم» صيغتا مبالغة، والمراد الكهنة. والضمير في (يلقون) يحتمل أن يعود إلى الشياطين أي ينصتون ويصغون بأساعهم ليسترقوا شيئاً مما يتكلم به الملائكة حتى ينزلوا بها إلى الكهنة أو (يلقون السمع) أي المسموع إلى من ينزلون عليه (وأكثرهم) أي وأكثر الشياطين الملقين (كاذبون) فعلى معنى الإنصات يكون استئناف إخبار، وعلى إلقاء المسموع إلى الكهنة احتتمل الاستئناف، واحتتمل أن يكون حالاً من الشياطين، أي «تنزل على كل أفك أثيم ملقين ما سمعوا»، ويحتمل أن يعود الضمير في (يلقون) على (كل أفك أثيم) وجمع الضمير لأن كل أفك فيه عموم وتحتة أفراد، واحتتمل أن يكون المعنى «يلقون سمعهم إلى الشياطين لينقلوا عنهم ما يقررونه في أساعهم» وأن يكون (يلقون السمع) أي المسموع من الشياطين إلى الناس (وأكثرهم) أي أكثر الكهنة (كاذبون) كما جاء أنهم يتلقون من الشياطين الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء فيخلطون معها مائة كذبة، فإذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها، وعلى كون الضمير عائداً على (كل أفك) احتتمل أن يكون (يلقون) استئناف إخبار عن الأفاكين، واحتتمل أن يكون صفة لكل أفك، ولا تعارض بين قوله: (كل أفك) وبين قوله: (وأكثرهم كاذبون) لأن الأفاك هو الذي يكثر الكذب، ولا يدل ذلك على أنه لا ينطق إلا بالأفك، فالعنى أن الأفاكين من صدق منهم فيما يحكي عن الجنّي فأكثرهم مغتر، قال الزمخشري (فإن قلت) (وأنه لتتزيل رب العالمين)، (وما تنزلت به الشياطين)، (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) لم فرق بينهن وبين اخوان (قلت) أريد التفريق بينهن بآيات ليست في معانها ليرجع إلى المعنى بهن، ويطريه ذكر ما فيهن كربة بعد كربة فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي أسندت كراهة الله لهم، ومثاله أن يحدث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه. انتهى. ولما ذكر الكهنة بإفكهم الكثير، وحالهم المقتضية نفي كلام القرآن إذ كان بعض الكفار قال في القرآن إنه شعر، كما قالوا في الرسول: إنه كاهن، وإن ما أتى به هو من باب الكهانة، كما قال تعالى: (ولا بقول كاهن) وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤١] فقال: (والشعراء يتبعهم الغاؤون)، قيل: هي في أمية بن أبي الصلت، وأبي عزة، ومسافع الجمحي، وهبيرة بن أبي وهب، وأبي سفيان بن الحارث، وابن الزبير، وقد أسلم ابن الزبير وأبو سفيان.

والشعراء عام يدخل فيه كل شاعر والمذموم من يهجو ويمدح شهوة محرمة، ويقذف المحصنات، ويقول الزور وما لا يسوغ شرعاً، وقرأ عيسى (والشعراء) نصباً على الاشتغال، والجمهور رفعاً على الابتداء والخبر، وقرأ السلمي والحسن

بخلاف عنه. ونافع (يتبعهم) مخفياً، وباقي السبعة مشدداً، وسكن العين الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو، وروى هارون نصبها عن بعضهم، وهو مشكل، و(الغاوون): قال ابن عباس: الرواة، وقال أيضاً: المستحسنون لأشعارهم، المصاحبون لهم، وقال عكرمة: الرعاع الذين يتبعون الشاعر، وقال مجاهد وقتادة: الشياطين، وقال عطية: السفهاء المشركون يتبعون شعراءهم (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول، واعتسافهم<sup>(١)</sup>، وقلة مبالاتهم بالعلو في المنطق، ومجاورة حد القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عترة، وأشحهم على حاتم، وبيهتوا البريء، ويفسقوا التقى، وقال ابن عباس: هو تقييهم الحسن، وتحيينهم القبيح، (وأنتهم يقولون ما لا يفعلون) وذلك لغلوهم في أفانين الكلام ولهجهم بالفصاحة والمعاني اللطيفة قد ينسبون لأنفسهم ما لا يقع منهم، وقد درأ الحد في الخمر «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه عن النعمان بن عدي في شعر قاله لزوجته حين احتج عليه بهذه الآية، وكان قد ولاه «بيسان» فعزله، وأراد أن يجده. والفرزدق سليمان بن عبد الملك:

فَبِتْنَنَ كَأَنَّهِنَّ مُصْرَعَاتٍ وَيَبْتُ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ<sup>(٢)</sup>

فقال له سليمان: لقد وجب عليك الحد، فقال: لقد درأ الله عني الحد بقوله: (وأنتهم يقولون ما لا يفعلون) أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة، إذ أمرهم كما ذكر من اتباع الغواة لهم، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمه ونسبة ما لا يقع منهم إليهم، وذلك بخلاف حال النبوة، فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون، ودعوة الأنبياء واحدة وهي الدعاء إلى توحيد الله وعبادته، والترغيب في الآخرة، والصدق، هذا مع أن ما جاؤوا به لا يمكن أن يجيء به غيرهم من ظهور المعجزة. ولما كان ما سبق ذمّاً للشعراء واستثنى منهم من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والإكثار من ذكر الله، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا نظموا شعراً كان في توحيد الله والثناء عليه وعلى رسوله ﷺ وصحبه، والموعظة، والزهد، والأدب الحسنة، وتسهيل علم، وكل ما يسوغ القول فيه شرعاً، فلا يتلطحون في قوله بذب ولا منقصة، والشعر باب من الكلام حسن وقبيح، وقال رجل علوي لعمر بن عبيد: إن صدري ليجيش<sup>(٣)</sup> بالشعر، فقال ما يمنعك منه فيما لا بأس به، وقيل: المراد بالمستثنى «حسان» و«عبد الله بن رواحة» و«كعب بن مالك» و«كعب بن زهير» ومن كان ينافح عن رسول الله ﷺ. وقال عليه السلام لكعب بن مالك: «أهْجُهُمْ فوالذي نفسي بيده هو أشد عليهم من النبل»<sup>(٤)</sup>، وقال حسان: «قل وروح القدس معك»<sup>(٥)</sup> وهذا معنى قوله: (وانتصروا) أي بالقول فيمن ظلمهم، وقال عطاء بن يسار وغيره: لما ذم الشعراء بقوله (والشعراء) الآية شق ذلك على حسان وابن رواحة وكعب بن مالك وذكروا ذلك للرسول عليه الصلاة والسلام فنزلت آية الاستثناء بالمدينة. وخص ابن زيد قوله: (وذكروا الله كثيراً) فقال أي في شعرهم، وقال ابن عباس: صار خلقاً لهم عادة، كما قال «ليبيد» حين طلب منه شعره «إن الله أبدلني بالشعر القرآن خيراً منه» ولما ذكر (وانتصروا من بعد ما ظلموا) توعد الظالمين هذا التوعد العظيم الهائل الصاعد للأكباد وأبهم في قوله: (أي منقلب يتقلبون) ولما عهد أبو بكر لعمر رضي الله عنهما تلا عليه (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب

(١) انظر لسان العرب (٤/٢٩٤٣).

(٢) انظر البيت في روح المعاني (١٩/١٥٢)، الكشاف (٣/٣٤٤)، القرطبي (١٣/١٠٠).

(٣) جاش البحر والقدر وغيرها يجيش جيشاً وجيوشاً وجيشاناً: غلى، والنفس جاشت: غثت، أودارت للغثيان. كنتجشت وارتفعت من حزن أو فزع.

ترتيب القاموس (١/٥٦٧)

(٤) أخرجه البيهقي في السنن ١٠/٢٣٨، وانظر تلخيص الخبير ٤/٢٠٢، شرح السنة ١٠/٢٥.

(٥) أخرجه مسلم ٤/١٩٣٥ كتاب فضائل الصحابة (١٥٧ - ٢٤٩٠).

يتقلبون) وكان السلف الصالح يتواعظون بها ، والمفهوم من الشريعة أن الذين ظلموا هم الكفار، وقال الزمخشري : وتفسير الظلم بالكفر تعليل، وكان ذكر قبل ان الذين ظلموا مطلق وهذا منه على طريق الاعتزال، وقرأ ابن عباس وابن أرقم عن الحسن : (أي منقلت يتفلتون) بفاء وتاءين، معناه ان الذين ظلموا يطمعون أن يفتلتوا من عذاب الله، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو النجاة (وسيعلم) هنا معلقة، (وأي منقلب) استفهام، والناصب له (ويتقلبون) وهو مصدر، والجملة في موضع المفعول (لسيعلم)، وقال أبو البقاء : (أي منقلب) مصدر نعت لمصدر محذوف، والعامل يتقلبون انقلاباً أي منقلب، ولا يعمل فيه «يعلم»، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . انتهى . وهذا تخليط، لأن أياً إذا وصف بها لم تكن استفهاماً، بل (أي) الموصوف بها قسم برأسه فأى تكون شرطية، واستفهامية، وموصولة، ووصفاً على مذهب الأخفش موصوفة بنكرة نحو «مررت بأي معجب لك»، وتكون مناداة، وصلة لنداء ما فيه الألف واللام نحو «يا أيها الرجل» والأخفش يزعم أن التي في النداء موصولة، ومذهب الجمهور أنها قسم برأسه، والصفة تقع حالاً من المعرفة . فهذه أقسام «أي»، فإذا قلت «قد علمت أي ضرب تضرب» فهي استفهامية لا صفة لمصدر محذوف .

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ  
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ  
الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ  
مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغًا مَتَهَا يَخْرُجُ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ فَبِئْسَ لَعَاكُرُ تَصَطَّلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ  
بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاكَ  
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ  
بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ  
وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا  
وَأَسْتَقَفْتَهَا أَنفُسُهُمْ ظَلَمُوا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا  
وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا  
مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ  
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا تَوَّأَ عَلَى وَادٍ النَّعْلُ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا  
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَرَهُمْ صَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ  
بِعِمَّتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ  
الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأَعَذِبَنَّ  
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ يُحِطْ



بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ ﴿٢١﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكُتَيْبٍ هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكُم كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلِنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَأَيْبِكُ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكُمْ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَأَيْبِكُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

«الوزع» (١) أصله الكف والمنع يقال وزعه وزعه يزع، ومنه قول عثمان رضي الله عنه «ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن» وقول الحسن: لا بد للقااضي من وزعة، وقول الشاعر:

وَمَنْ لَمْ يَزْعُهُ لُبُّهُ وَحَيَاؤُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ شَيْبٍ فَوْدِيهِ وَانْعُ (٢)

(١) انظر ترتيب القاموس (٤/٦٥).

(٢) لم أهدد لقائله، وذكره السمين في الدر المنصون.

(النمل) جنس واحد غملة ويقال بضم الميم فيهما، وبضم النون مع ضم الميم، وسمي بذلك لكثرة تنمله وهو حركته «الحطم» الكسر قاله النحاس، «التبسم» ابتداء الضحك وتفعّل فيه بمعنى المجرد وهو تبسم، قال الشاعر:

وَتَبَسُّمٌ عَنِ الْمَسْمِيِّ كَأَنَّ مُنَوَّرًا      تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصُ لَهُ نَدًّا<sup>(١)</sup>

وقال آخر

أُبْدَى نَوَاجِذَهُ لِغَيْرِ تَبَسُّمٍ

«التفقد». طلب ما فقدته وغاب عنك (المهدد) طائر معروف وتصغيره على القياس هديده، وزعم بعضهم أن ياءه أبدلت ألفاً في التصغير، فقيل هداهد، قال الشاعر

كَهَذَا هِدٍ كَسَرَ الرَّمَاةُ جَنَاحَهُ

كما قالوا «دوابة» و«شوابة» يريدون «دوية» و«شوية»، (سبا) هو: سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو يصرف ولا يصرف، إذا صار اسماً للحمي والقبيلة أو البقعة التي تسمى «مأرب» سميت باسم الرجل، (الخبء) الشيء المخبوء، من خبأت الشيء خبأ سترته وسمي المفعول بالمصدر، «المهدية» ما سيق إلى الإنسان مما يتحف به على سبيل التكرمة، «العفريت» والعفر والعفرتة والعفارتة من الرجال: الخبيث المنكر الذي يعرف أفرانه، ومن الشياطين: الخبيث المارد، قال الشاعر:

كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيَةٍ      مُصَيَّبٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٌ<sup>(٢)</sup>

«الصرح» القصر، أو صحن الدار، أو ساحتها، أو البركة، أو البلاط المتخذ من القوارير. أقوال تأتي في التفسير «الساق» معروف يجمع على أسوق في القلعة، وعلى سووق وسوق في الكثرة، وهمزة لغة «الممرد» المملس، ومنه الأمرد، وشجرة مرداء: لا ورق عليها، «القوارير» جمع قارورة.

﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبین هدی وبشرى للمؤمنین الذین یقیمون الصلاة ویؤتون الزکاة وهم بالآخرة هم یوقنون إن الذین لا یؤمنون بالآخرة زینا لهم أعمالهم فهم یعمهون أولئک الذین لهم سوء العذاب وهم فی الآخرة هم الأخسرون وإنک لتلقى القرآن من لدن حکیم علیم إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سأتیکم منها بخبر أو آتیکم بشهاب قبس لعلکم تصطلون فلما جاءها نودی أن بورك من فی النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمین یا موسى إنه أنا الله العزیز الحکیم وألق عصاک فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولی مدبراً ولم یعقب یا موسى لا تخف إني لا یخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحیم وأدخل یدک فی جیبک تخرج بیضاء من غیر سوء فی تسع آیات إلی فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقین فلما جاءتهم آیاتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبین وجحدوا بها واستیقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر کیف کان عاقبة المفسدین﴾.

(١) البيت من الطويل لطرفة من معلقته انظر ديوانه (٢١) شرح السبع الطوال (١٤٣)، شرح القصائد لابن النحاس (١/٥٧).

(٢) البيت لذي الرمة انظر ديوانه (٢٧) مجاز القرآن (٢/٩٥) الكامل (٣/١٠٧).

هذه السورة مكية بلا خلاف<sup>(١)</sup>، ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها واضحة لأنه قال: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ [الشعراء: ٢١٠] وقبله ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٩٢] وقال هنا ﴿طس تلك آيات القرآن﴾ أي الذي هو تنزيل رب العالمين وأضاف الآيات إلى القرآن (والكتاب المبين) على سبيل التفخيم لها والتعظيم، لأن المضاف إلى العظيم عظيم «الكتاب المبين» إما اللوح، وإبائته أن قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين، وإما السورة، وإما القرآن وإبائتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلم والحكم والشرائع وأن إعجازهما ظاهر مكشوف. ونكر (وكتاب مبين) ليهمم بالتنكير فيكون أفخم له كقوله: ﴿في مقعد صدق﴾ [القمر: ٥٥] وإذا أريد به القرآن فعطفه من عطف إحدى الصفتين على الأخرى لتغايرهما في المدلول عليه بالصفة من حيث إن مدلول القرآن الاجتماع، ومدلول كتاب الكتابة، وقيل: القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزل على محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بوصف النكرة فهو الوصف، وقيل: هما يجريان مجرى «العباس» و«عباس»، فهو في الحالين اسم العلم انتهى. وهذا خطأ إذ لو كان حاله نزع منه علماً ما جاز أن يوصف بالنكرة، ألا ترى إلى قوله (وكتاب مبين) ﴿وقرآن مبين﴾ [الحجر: ١] وأنت لا تقول «مررت بعباس قائم» تريد به الوصف، وقرأ ابن أبي عملة (وكتاب مبين) برفعها، التقدير: «آيات كتاب» فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه، وهنا تقدم القرآن على الكتاب، وفي الحجر عكسه، ولا يظهر فرق، وهذا كالتعاطفين في نحو «ما جاء زيد وعمرو» فتارة يظهر ترجيح كقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ [آل عمران: ١٨] وتارة لا يظهر كقوله ﴿وقولوا حطة﴾ [البقرة: ٥٨] (وادخلوا الباب سجداً)، قال يحيى بن سلام: (هدى) إلى الجنة، (وبشرى) بالثواب، وقال الشعبي: (هدى) من الضلال، (وبشرى) بالجنة. و(هدى) و(بشرى) مقصوران، فاحتمل أن يكونا منصوبين على الحال، أي هادية، ومبشرة، قيل: والعامل في الحال ما في تلك من معنى الإشارة، واحتمل أن يكونا مصدرين، واحتملا الرفع على إضمار مبتدأ، أي هي هدى وبشرى، أو على البديل من (آيات)، أو على خبر بعد خبر، أي جمعت بين كونها آيات وهدى وبشرى. ومعنى كونها هدى للمؤمنين: زيادة هداهم، قال تعالى: (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون)، وقيل: (هدى) لجميع الخلق، ويكون الهدى بمعنى الدلالة والإرشاد والتبيين، لا بمعنى تحصيل الهدى الذي هو مقابل الضلال، وبشرى للمؤمنين خاصة. وقيل هدى للمؤمنين، وبشرى للمؤمنين، وخصهم بالذكر لانتفاعهم به، (وهم بالآخرة هم يوقنون) تحتمل هذه الجملة أن تكون معطوفة على صلة (الذين). ولما كان يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلاً، ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت عندهم مستقر الديمومة جاءت الجملة اسمية، وأكدت المسند إليه فيها بتكراره، فقيل (هم يوقنون) وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على الديمومة، واحتمل أن تكون الجملة استئناف إخبار، قال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: ويحتمل أن تتم الصلة عنده، أي عند قوله (وهم) قال: وتكون الجملة اعتراضية، كأنه قيل: «وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة» وهو الوجه، ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية، وكرر فيها المبتدأ الذي هو (هم) حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حتى الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق. انتهى. وقوله: وتكون الجملة اعتراضية<sup>(٤)</sup> هو على غير اصطلاح النحاة في الجملة الاعتراضية، من كونها لا تقع إلا بين شيئين متعلق بعضهما ببعض، كوقوعها بين صلة وموصول، وبين جزأي إسناد، وبين شرط وجزائه، وبين نعت ومنعوت، وبين

(١) انظر القرطبي ١٠٤/١٣ وزاد المسير ١٥٣/٦.

(٢) انظر زاد المسير ١٥٤/٦ والقرطبي ١٠٤/١٣.

(٣) انظر الكشاف ٣٤٧/٣.

(٤) يقصد المصنف رحمه الله به غير الاستئناف، والمراد أن هذه الجملة جيء بها لتأكيد ما وُصف بها المؤمنون من حيث إن الإيقان بالآخرة يستلزم الخوف =

قسم ومقسم عليه . وهنا ليست واقعة بين شيئين مما ذكر . وقوله : إلخ «حتى صار» معناها فيه دسيمة الاعتزال<sup>(١)</sup> ، وقال ابن عطية : والزكاة هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة ، لأن السورة مكية قديمة ، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير ، وقيل : الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص ، وملازمة مكارم الأخلاق . انتهى . ولما ذكر تعالى المؤمنين المؤمنين بالبعث ذكر المنكرين ، والإشارة إلى قرئش ومن جرى مجراهم في إنكار البعث ، والأعمال إما أن تكون أعمال الخير والتوحيد التي كان الواجب عليهم أن تكون أعمالهم فعموا عنها وترددوا وتحيزوا ، وينسب هذا القول إلى «الحسن البصري» . أو أعمال الكفر والضلال ، فيكون تعالى قد حيب ذلك إليهم وزينه بأن خلقه في نفوسهم فأروا تلك الأعمال القبيحة حسنة ، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : (فإن قلت) كيف أسند «تزيين أعمالهم» إلى ذاته وأسنده إلى الشيطان في قوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) (قلت) بين الإسنادين فرق ، وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله تعالى مجاز ، وله طريقان في علم البيان :

أحدهما : أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة .

والثاني : أن يكون من المجاز المحكي . فالطريق الأول أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا إناعام الله عليهم بذلك ، وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرحهم وإيثارهم الترفه ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم وإليه إشارة الملائكة بقولهم ﴿بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ [الفرقان : ١٨] .

والطريق الثاني : أن إمهاله الشيطان وتحليته حتى يزين لهم ملابس ظاهرة للتزيين فأسند إليه لأنه المختار المحكي ببعض الملابس انتهى . وهو تأويل على طريق الاعتزال ، (أولئك) إشارة إلى منكري البعث ، (وسوء العذاب) الظاهر أنه ليس مقيداً بالدنيا ، بل لهم ذلك في الدنيا والآخرة ، وقيل : المعنى في الدنيا ، وفسر بما نالهم يوم بدر من القتل والأسر والنهب ، وقيل : ما ينالونه عند الموت وما بعده من عذاب القبر . (وسوء العذاب) شدته وعظمه . والظاهر أن (الأخسرون) أفعل التفضيل ، وذلك أن الكافر خسر الدنيا والآخرة كما أخبر عنه تعالى ، وهو في الآخرة أكثر خسراناً ، إذ ماله إلى عقاب دائم . وأما في الدنيا فإذا أصابه بلاء فقد يزول عنه وينكشف ، فكثرة الخسران وزيادته إنما ذلك له في الآخرة . وقد ترتب الأكثرية وإن كان المسند إليه واحداً بالنسبة إلى الزمان والمكان أو الهيئة وغير ذلك مما يقبل الزيادة ، وقال الكرماني : أفعل هنا للمبالغة لا للشركة ، كأنه يقول للمؤمن خسران البتة حتى يشركه فيه الكافر ويزيد عليه ، وقد بينا كيفية الاشتراك بالنسبة إلى الدنيا والآخرة ، وقال ابن عطية : (والأخسرون) جمع أخسر لأن أفعل صفة لا يجمع إلا أن يضاف فتقوى رتبته في الأساء وفي هذا نظر انتهى . ولا نظر في كونه يجمع جمع سلامة وجمع تكسير إذا كان بأل بل لا يجوز فيه إلا ذلك إذا كان قبله ما يطابقه في الجمعية ، فيقول «الزيدون هم الأفضلون ، والأفاضل» و«الهندات هن الفضليات ، والفضل» ، وأما قوله لا يجمع إلا أن يضاف فلا يتعين إذ ذلك جمعه ، بل إذا أضيف إلى نكرة فلا يجوز جمعه ، وإن أضيف إلى معرفة جاز فيه الجمع والإفراد على ما قرر ذلك في كتب النحو ، ولما تقدم (تلك آيات القرآن) خاطب نبيه بقوله (وإنك) أي هذا القرآن الذي تلقته هو من عند الله تعالى وهو (الحكيم العليم) لا كما ادعاه المشركون من أنه افك وأساطير وكهانة وشعر وغير ذلك من تقولاتهم ، وبني

=المستلزم لتحمل المشاق التكليفية فلا بد من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وهذا على اصطلاح النحاة يقول ابن هشام : للبيان في الاعتراض اصطلاحات مخالفة لاصطلاح النحويين والزمخشري يستعمل بعضها انظر روح المعاني ١٥٦/١٩ ، المغني ٥٢/١ - ٥٦ .

(١) انظر روح المعاني ١٥٧/١٩ .

(٢) انظر الكشف ٣٤٨/٣ .

الفعل للمفعول وحذف الفاعل وهو جبريل عليه السلام للدلالة عليه في قوله ﴿نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء: ١٩٣] و﴿لقي﴾ يتعدى إلى واحد، والتضعيف فيه للتعدية، فيعدى به إلى اثنين، وكأنه كان غائباً عنه فلقية فتلقيه، قال ابن عطية: ومعناه يعطى كما قال: ﴿وما يلقاه إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت: ٣٥]، وقال الحسن المعنى وإنك لتقبل القرآن، وقيل: معناه تلقن «الحكمة» العلم بالأمر العملية، و«العلم» أعم منه، لأنه يكون عملياً ونظرياً، وكإل العلم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصوناً عن كل التغيرات، ولا يكون ذلك إلا الله تعالى، وهذه الآية تمهيد لما يخبر به من المغيبات وبيان قصص الأمم الخالية مما يدل على تلقيه ذلك من جهة الله، وإعلامه بلطف حكمته دقيق علمه تعالى، قيل: وانتصب (إذ) بذكر مضمرة، أو بعليم، وليس انتصابه بعليم واضحاً، إذ يصير الوصف مقيداً بالمعمول. وقد تقدم طرف من قصة موسى عليه السلام في رحلته بأهله من مدين في سورة طه، وظاهر (أهله) جمع لقوله (سآتيكم) و(تصطلون) وروي أنه لم يكن معه غير امرأته، وقيل: كانت ولدت له وهو عند شعيب ولدأ فكان مع أمه، فإن صح هذا النقل كان من باب خطاب الجمع على سبيل الإكرام والتعظيم، وكان الطريق قد اشتبه عليه، والوقت بارد، والسير في ليل، فتشوقت نفسه إذ رأى النار إلى زوال ما لحق من إضلال الطريق وشدة البرد فقال (سآتيكم منها بخبر) أي من موقدها يخبر يدل على الطريق أو (آتيكم بشهاب قبس) أي إن لم يكن هناك من يخبر فإني استصحب ما تدفؤون به منها وهذا التردد بدأ وظاهر، لأنه كان مطلوبه أولاً أن يلقى على النار من يخبره بالطريق، فإنه مسافر ليس بمقيم، فإن لم يكن أحد فهو مقيم، فيحتاجون لدفع ضرر البرد، وهو أن يأتيهم بما يصطلون. (فليس محتاجاً للشئيين معاً، بل لأحدهما، الخبر إن وجد من يخبره فيرحل، أو الاصطلاء إن لم يجد وأقام. فمقصوده إما هداية الطريق وإما اقتباس النار وهو معنى قوله: ﴿لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾ [طه: ١٠] وجاء هنا (سآتيكم منها بخبر) وهو خبر وفي طه ﴿لعلي آتيكم منها بقبس﴾ [طه: ١٠] وفي القصص ﴿لعلي آتيكم منها بخبر﴾ [القصص: ٢٩] وهو ترج، ومعنى الترجي مخالف لمعنى الخبر، ولكن الرجاء إذا قوي جاز للراجي أن يخبر بذلك، وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع. وأق بسين الاستقبال إما لأن المسافة كانت بعيدة، وإما لأنه قد يمكن أن يطفىء لما قدر أنه قد يعرض له ما ييطئه، و«الشهاب» الشعلة، و«القبس». النار المقبوسة، فَعَل بمعنى مفعول، وهو القطعة من النار في عود أو غيره. وتقدم ذلك في طه، وقرأ الكوفيون (شهاب) منوناً، فقبس بدل، أو صفة، لأنه بمعنى المقبوس، وقرأ باقي السبعة بالإضافة، وهي قراءة الحسن، قال الزمخشري: أضاف «الشهاب» إلى «القبس» لأنه يكون قبساً وغير قبس، واتبع في ذلك «أبا الحسن»، قال «أبو الحسن»: الإضافة أجود وأكثر في القراءة. كما تقول «دار أجر» و«سوار ذهب»، والظاهر أن الضمير في (جاءها) عائد على «النار» وقيل: على الشجرة، وكان قد رآها في شجرة سمر<sup>(١)</sup> خضراء، وقيل: عليق، وهي لا تحرقها كلها قرب منها بعدت، و(نودي) المفعول الذي لم يسم فاعله، الظاهر أنه ضمير عائد على موسى عليه السلام، و(أن) على هذا يجوز أن تكون مفسرة لوجود شرط المفسرة فيها، ويجوز أن تكون مصدرية إما الثنائية التي تنصب المضارع و(بورك) صلة لها، والأصل حرف الجر أي بأن بورك، و(بورك) خبر، وإما المخففة من الثقيلة فأصلها حرف الجر، وقال الزمخشري (فإن قلت) هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وتقديره بأنه بورك، والضمير ضمير الشأن والقصة (قلت) لا، لأنه لا بد من قد (فإن قلت) فعلى إضمارها (قلت) لا يصح، لأنها علامة ولا تحذف. انتهى. ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وبورك فعل دعاء، كما تقول بارك الله فيك، وإذا كان دعاء لم يجر دخول قد عليه فيكون كقوله تعالى: ﴿والخامسة أن غضب الله عليها﴾ [النور: ٩] في قراءة من جعله فعلاً ماضياً، وكقول العرب «إما أن جزاك الله خيراً وإما أن يغفر الله لك»، وكان الزمخشري بنى ذلك على أن (بورك) خبر لا دعاء، فلذلك لم يجر أن تكون مخففة من الثقيلة. وأجاز

(١) السمرة: من شجر الطلع.

الزجاج أن تكون (أن بورك) في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله، وهو على إسقاط الخافض، أي «نودي بأن بورك» كما تقول: نودي بالرخص، ويجوز أن تكون (أن) الثنائية، أو المخففة من الثقيلة، فيكون (بورك) دعاء<sup>(١)</sup>، وقيل: المفعول الذي لم يسم فاعله هو ضمير النداء، أي نودي هو، أي النداء، ثم فسر بما بعده.

(وبورك) معناه قدّس، وطهر، وزيد خيره، ويقال باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وقال الشاعر:

فَبُورِكَتْ مَوْلُوداً وَبُورِكَتْ نَاشِئاً      وَبُورِكَتْ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشَيْبٌ<sup>(٢)</sup>

وقال آخر:

بُورِكَتْ أَلَمِيَّتُ الْغَرِيبِ كَمَا      بُورِكَتْ نَبْعُ الرُّمَّانِ وَالزَّرِيْتُونِ<sup>(٣)</sup>

وقال عبد الله بن الزبير

فَبُورِكَتْ فِي بَنِيكَ وَفِي بَنِيهِمْ      إِذَا ذُكِرُوا وَنَحْنُ لَكَ الْفِدَاءُ<sup>(٤)</sup>

ومن المشهور أنها لمن يعلم، فقال ابن عباس وابن جبير والحسن وغيرهم: أراد تعالى بمن في النار ذاته، وعبر بعضهم بعبارة شنيعة مردودة بالنسبة إلى الله تعالى، وإذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول على حذف، أي «بورك من قدرته وسلطانه في النار»، وقيل لموسى عليه السلام أي «بورك من في المكان أو الجهة التي لاح له فيها النار<sup>(٥)</sup>»، وقال السدي: (من) للملائكة الموكلين بها، وقيل: (من) تقع هنا على ما لا يعقل، فقال ابن عباس: أراد النور<sup>(٦)</sup>، وقيل: الشجرة التي تنقد فيها النار، وقيل: والظاهر في (ومن حولها) أنه لمن يعلم تفسيراً يا موسى، وفسر بالملائكة، ويدل عليه قراءة أبي فيما نقل أبو عمرو الداني وابن عباس ومجاهد وعكرمة (ومن حولها من الملائكة) وتحمل هذه القراءة على التفسير، لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه، وفسر أيضاً بموسى والملائكة عليهم السلام معاً، وقيل: تكون لما لا يعقل، وفسر بالأمكنة التي حول النار، وجدير أن يبارك من فيها ومن حولها إذا حدث أمر عظيم وهو تكليم الله لموسى عليه السلام وتبنيته، وبدؤه بالنداء بالبركة تبشير لموسى، وتأنيس له، ومقدمة لمناجاته. والظاهر أن قوله: (وسبحان الله رب العالمين) داخل تحت قوله (نودي) لما نودي ببركة من ذكر نودي أيضاً بما يدل على التنزيه والبراءة من صفات المحدثين، مما عسى أن يخطر ببال ولا سيما إن حمل من في النار على تفسير ابن عباس أن (من) أريد به الله تعالى، فإن ذلك دال على التحيز، فأتى بما يقتضي التنزيه، وقال السدي: هو من كلام موسى لما سمع النداء قال: «وسبحان الله رب العالمين» تنزيهاً لله تعالى عن سمات المحدثين، وقال ابن شجرة: هو من كلام الله، ومعناه «وبورك من سبح الله» وهذا بعيد من دلالة اللفظ، وقيل: وسبحان الله رب العالمين خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام، وهو اعتراض بين الكلامين، والمقصود به التنزيه. ولما أنسه تعالى ناداه وأقبل عليه

(١) ورفض الزنجشيري أن تكون مخففة قائم على أن (بورك) خبر، وهو الظاهر المتبادر من الآية فهو رفض قائم على نظر ثاقب قوي في معنى الآية من كونها إخباراً عن حصول البركة وتجويز أبي حيان أنها مخففة غير ظاهر مع احتمالها.

(٢) البيت من الطويل لم أهدد لقائله انظر القرطبي (١٠٧/١٣) والشاهد فيه: بناء الفعل برك للمفعول ثلاث مرات في البيت لأنه فعل متعد.

(٣) البيت لأبي طالب انظر ديوانه (٢١) اللسان (نضح).

(٤) من الوافر انظر الحاماة البصرية (٤٣٩/١).

(٥) انظر القرطبي ١٠٧/١٣، ١٠٨، وزاد المسير ١٥٥/٦ وابن كثير ٣/٣٥٦، ٣٥٧.

(٦) انظر القرطبي ١٠٧/١٣، ١٠٨، وزاد المسير ١٥٥/٦ وابن كثير ٣/٣٥٦، ٣٥٧.

فقال (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) والظاهر أن الضمير في (أنه) ضمير الشأن و(أنا الله) جملة في موضع الخبر و(العزيز الحكيم) صفتان، وأجاز الزمخشري أن يكون الضمير في (أنه) راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله، يعني أن مكلّمك أنا، و(الله) بيان «لأنا» و(العزيز الحكيم) صفتان للبيان انتهى. وإذا حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فلا يجوز أن يعود الضمير على ذلك المحذوف، إذ قد غير الفعل عن بنائه له وعزم على أن لا يكون محدثاً عنه، فعود الضمير إليه مما ينافي ذلك، إذ يصير مقصوداً معتنى به، وهذا النداء والإقبال والمخاطبة تمهيد لما أراد الله تعالى أن يظهره على يده من المعجز، أي «أنا القوي القادر على ما يبعد في الأوهام، الفاعل ما أفعله بالحكمة»، وقال الزمخشري: «فإن قلت: علام عطف قوله (وألق عصاك) (قلت) على (بورك) لأن المسمى «نودي أن بورك من في النار»، وقيل له (ألق عصاك) والدليل على ذلك قوله (وأن ألق عصاك) بعد قوله (أن يا موسى إني أنا الله) على تكرير حرف التفسير، كما تقول «كتبت إليه أن حج واعتمر» وإن شئت أن حج وأن اعتمر. انتهى. وقوله إنه معطوف على (بورك) مناف لتقديره، وقيل له ألق عصاك لأن هذه جملة معطوفة على (بورك) وليس جزؤها الذي هو، وقيل معطوفاً على (بورك) وإنما احتجج إلى تقدير وقيل له ألق عصاك لتكون الجملة خبرية مناسبة للجملة الخبرية التي عطف عليها، كأنه يرى في العطف تناسب المتعاطفين، والصحيح أنه لا يشترط ذلك بل قوله (وألق عصاك) معطوف على قوله (إنه أنا الله العزيز الحكيم) عطف جملة الأمر على جملة الخبر، وقد أجاز سيبويه «جاء زيد ومن عمرو».

(فلما رآها تهتز) ثم محذوف تقديره «فألقاها من يده»، وقرأ الحسن والزهري وعمرو بن عبيد (جان) بهمزة مكان الألف، كأنه فر من التقاء الساكنين. وقد تقدم الكلام في نحو ذلك في قوله (ولا الضالين) بالهمز في قراءة عمرو بن عبيد وجاء (فإذا هي حية) (فإذا هي ثعبان مبین) وهذا إخبار من الله بانقلابها وتغيير أوصافها وأعراضها، وليس إعداماً لذاتها وخلقها حية وثعبان، بل ذلك من تغيير الصفات لا تغيير الذات، وهنا شبهها حالة اهتزازها بالجان، وقيل: وهو صغار الحيات، شبهها بها في سرعة اضطرابها وحركتها مع عظم جثتها، ولما رأى موسى هذا الأمر الهائل (ولى مدبراً ولم يعقب) قال مجاهد: ولم يرجع، وقال السدي: لم يمكث، وقال قتادة: ولم يلتفت. يقال: عقب الرجل: توجه إلى شيء كان ولى عنه كأنه انصرف على عقبه، ومنه عقب المقاتل إذا كُرِّب بعد الفرار، قال الشاعر:

فَمَا عَقِبُوا إِذْ قِيلَ هَلْ مِنْ مَعْقِبٍ      وَلَا نَزَلُوا يَوْمَ الْكَرْبِ هَيَّةَ مَنْزِلًا<sup>(١)</sup>

ولحقه ما لحق طبع البشرية إذا رأى الإنسان أمراً هائلاً جداً، وهو رؤية انقلاب العصا حية تسمى ولم يتقدمه في ذلك تطمين إليه عند رؤيتها، قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «وإنما رغب لظنه أن ذلك لأمر أريد به وبدل عليه (إني لا يخاف لدي المرسلون) انتهى. وقال ابن عطية: وناداه الله تعالى مؤنساً ومقوياً على الأمر (يا موسى لا تخف) فإن رسلي الذين اصطفتيهم للنبوة لا يخافون غيري، فأخذ موسى عليه السلام، الحية فرجعت عصا ثم صارت له عادة. انتهى، وقيل: المعنى لا يخاف المرسلون في الموضع الذي يوحى إليهم فيه، وهم أخوف الناس من الله، وقيل: إذا أمرتهم بإظهار معجز فينخي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك، فالمرسل يخاف الله لا محالة. انتهى. والأظهر أن قوله (إلا من ظلم) استثناء منقطع، والمعنى لكن من ظلم غيرهم. قاله الفراء وجماعة، إذ الأنبياء معصومون من وقوع الظلم الواقع من غيرهم، وعن الفراء أنه استثناء متصل من جعل محذوفة، والتقدير: وإنما يخاف غيرهم إلا من ظلم، ورده النحاس وقال: الاستثناء من محذوف محال، لو

(١) من الطويل لم أهد لقائله. انظر الكشاف (١٣٩/٢).

(٢) انظر الكشاف ٣٥١/٣.

جاز هذا لجاز «أن لا يضرب القوم إلا زيداً» بمعنى وإنما أضرب غيرهم إلا زيد، وهذا ضد البيان والمجىء بما لا يعرف معناه. انتهى . وقالت فرقة: «إلا» بمعنى الواو والتقدير ولا من ظلم وهذا ليس بشيء لأن معنى إلا مابين لمعنى الواو مبيانية كثيرة، إذ الواو للإدخال، و«إلا» للإخراج، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر، وروي عن الحسن ومقاتل وابن جريج والضحاك: ما يقتضي أنه استثناء متصل، قال ابن عطية: وأجمع العلماء على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، واختلف فيها عداها، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك. انتهى، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: و«إلا» بمعنى «لكن»، لأنه لما أطلق نفي الخوف عن المرسل كان ذلك مظنة لظهور الشبهة، فاستدرك ذلك، والمعنى «ولكن من ظلم منهم أي فرطت منهم صغيرة بما لا يجوز على الأنبياء» كالذي فرط من آدم، ويونس، وداود، وسليمان، وإخوة يوسف، ومن موسى بوكزه القبطي، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض ما وجد من موسى، وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها، وساء ظلماً كما قال موسى: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ [القصص: ١٦] انتهى .

وقرأ أبو جعفر وزيد بن أسلم (ألا من ظلم) بفتح الهمة وتخفيف اللام حرف استفتاح (ومن) شرطية، و«الحسن» حسن التوبة، و«السوء» الظلم الذي ارتكبه وقرأ الجمهور: (حَسُنًا) بضم الحاء وإسكان السين منوناً، وقرأ محمد بن عيسى الأصبغاني كذلك، إلا أنه لم ينون، جعله «فُعِلَ» فامتنع الصرف، وابن مقسم بضم الحاء والسين منوناً، ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي ليلى والأعمش وأبو عمرو في رواية الجعفي وأبو زيد وعصمة وعبد الوارث وهارون وعياش بفتحهما منوناً، (وأدخل) أمر بما يترتب عليه من ظهور المعجز العظيم. لما أظهر له معجزاً في غيره وهو العصا أظهر له معجزاً في نفسه وهو تلالؤ يده كأنها قطعة نور إذا فعل ما أمر به، وجواب الأمر: الظاهر أنه (تخرج) لأن خروجها مترتب على إدخالها، وقيل: في الكلام حذف تقديره «وأدخل يدك في جيبك تدخل وأخرجها تخرج» فحذف من الأول ما أثبت مقابله في الثاني، ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول، قال قتادة: (في جيبك) قميصك كانت له مدرعة من صوف لا كمين لها، وقال ابن عباس ومجاهد: كان كمها إلى بعض يده، وقال السدي: في جيبك أي تحت إبطك، والظاهر أن قوله (في تسع آيات إلى فرعون) متعلق بمحذوف تقديره «أذهب بهاتين الآيتين في تسع آيات إلى فرعون»، وبدل عليه قوله بعد (فلما جاءهم آياتنا مبصرة) وهذا الحذف مثل قوله:

أَتَوْا نَارِي فَسَقُلْتُ مَنُونًا أَنْتُمْ      فَقَالُوا الْجِنَّ قُلْتُ عُمُوا ظَلَامًا  
وَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ      فَرِيقٌ يَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامًا<sup>(٢)</sup>

التقدير: هلموا إلى الطعام، وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون المعنى «وألقت عصاك وأدخل يدك في تسع آيات» أي في جملة تسع آيات. ولقائل أن يقول كانت الآيات إحدى عشرة، ثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجذب في بواديهم والنقصان من مزارعهم انتهى. فعل الأول يكون العصا واليد داخلتين في التسع، وعلى الثاني تكون (في) بمعنى مع أي مع تسع آيات، وقال ابن عطية: (في تسع آيات) متصل بقوله (ألق) (وأدخل) وفيه اقتضاب وحذف تقديره: تمهد ذلك وتيسر لك في جملة تسع آيات وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، والحجر. وفي هذين الأخيرين اختلاف والمعنى: يجيء بهن إلى فرعون وقومه، وقال الزجاج: في تسع آيات أي: من تسع آيات، كما تقول: خذ لي عشرًا من الإبل فيها فحلان، أي منها إلى فرعون، أي مرسلًا إلى فرعون انتهى. وانتصب (مبصرة) على الحال أي بينة واضحة، ونسب الإبصار إليها على

(١) انظر الكشف ٣/٣٥١.

(٢) البيتان في روح المعاني (١٦٧/١٩).



سبيل المجاز، لما كان يبصر بها جعلت مبصرة، أو لما كان معها الإبصار والوضوح، وقيل: لجعلهم بصراء، من قولك: أبصرته، المتعدية همزة النقل من بصر، وقيل: فاعل بمعنى مفعول كماء دافق، وقرأ قتادة وعلي بن الحسين: (مبصرة) بفتح الميم والصاد وهو مصدر كما تقول: «الولد مجبنة» وأقيم مقام الاسم وانتصب أيضاً على الحال، وكثر هذا الوزن في صفات الأماكن نحو «أرض<sup>(١)</sup> مسبعة»، و«مكان مضبة<sup>(٢)</sup>»، قال «الزمخشري»: أي: مكاناً يكثر فيه التبصر. انتهى، والأبلغ في (واستيقنتها) أن تكون الواو واو الحال، أي: «كفروا بها، وأنكروها في الظاهر، وقد استيقنت أنفسهم في الباطن أنها آيات من عند الله، وكابروا وسموها سحراً». وقال تعالى حكاية عن موسى في محاورته لفرعون قال: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ [الإسراء: ١٠٢] (ظليماً) مجاوزة الحد (وعلوأ) ارتفاعاً وتكبراً عن الإيمان، وانتصبا على أنها مصدران في موضع الحال، أي: ظالمين عالين، أو مفعولان من أجلها، أي: لظلمهم وعلوهم، أي الحامل لهم على الإنكار والجحود مع استيقان أنها آيات من عند الله هو الظلم والعلو. و«استفعل» هنا بمعنى تفعل، نحو «استكبر» في معنى «تكبر»، وقرأ عبد الله وابن وثاب والأعمش وطلحة وأبان بن تغلب (وعلياً) يقلب الواو ياء وكسر العين واللام، وأصله فعول، لكنهم كسروا العين إبتاعاً. وروي ضمها عن ابن وثاب والأعمش وطلحة. وتقدم الخلاف في كفر العناد هل يجوز أن يقع أم لا؟ و«العاقبة» ما آل إليه قوم فرعون من سوء المنقلب، وما أعد لهم في الآخرة أشد. وفي هذا تمثيل لكفار قريش، إذ كانوا مفسدين مستعدين، وتحذيرهم أن يحل بهم مثل ما حل بمن كان قبلهم ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين، وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ هذا ابتداء قصص وإخبار بمغيبات وعبر ونكر (علماً) لأنه طائفة من العلم، وقال قتادة: (علمياً) فهمها، وقال مقاتل: (علمياً) بالقضاء، وقال ابن عطاء: (علمياً) بالله تعالى، وقال الزمخشري: أو (علمياً) سنياً عزيزاً، وقالوا قال (فإن قلت) أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك أعطيتك فشكر ومنعته فصبر؟ (قلت): بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قاله بعض ما أحدث فيها إتياء العلم وشيء من مواجهه، فأضمر ذلك، ثم عطف عليه التحميد كأنه قال «ولقد آتيناها علماً فعملنا به، وعلماها، وعرفنا حق النعمة فيه والفضيلة» (وقالوا الحمد لله) والكثير المفضل عليه من لم يؤت علماً، أو من لم يؤت مثل علمها. وفي الآية دليل على شرف العلم. انتهى. و«الموروث»: الملك والنبوة، بمعنى صار ذلك إليه بعد موت أبيه، فسمي ميراثاً تجوزاً، كما قيل «العلماء ورثة الأنبياء» وحقيقة الميراث في المال، والأنبياء لا تورث مالا، وكان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً، فنبىء سليمان من بينهم وملك، وقيل: ولاه على بني إسرائيل في حياته من بين سائر أولاده، فكانت الولاية في معنى الوراثة، وقال الحسن: ورث المال لأن النبوة عطية مبتدأة لا تورث، وقيل: الملك والسياسة، وقيل: النبوة فقط. والأظهر القول الأول، ويؤيده قوله (علمنا منطق الطير) فهذا يدل على النبوة (وأوتينا من كل شيء) يدل على الملك، وكان هذا شرحاً للميراث، وقوله: (إن هذا هو الفضل المبين) يتقوى ذلك ولا يناسب شيء من هذا وراثته المال، وقوله (يا أيها الناس) تشهير لنعمة الله، وتنويه بها، واعتراف بمكانها، ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيته من عظام

(١) أرض مسبعة: كثيرة السباع.

لسان العرب ٣/١٩٢٦

(٢) أرض مضبة: أي ذات ضباب جمع ضب.

لسان العرب (٤/٢٥٤٣)

الأمور. و(منطق الطير) استعارة لما يسمع منها من الأصوات، وهو حقيقة في بني آدم لما كان سليمان يفهم منه ما يفهم من كلام بني آدم كما يفهم بعض الطير من بعض أطلق عليه (منطق)، وقيل: كانت الطير تكلمه معجزة له كقصه الهدد. والظاهر: أنه علم منطق الطير وعموم الطير، وقيل: علم منطق الحيوان، قيل: والنبات، حتى كان يمر على الشجرة فتذكر له منافعها ومضارها، وإنما نص على الطير لأنه كان جنداً من جنوده يحتاج إليه في التظليل من الشمس، وفي البعث في الأمور، وقال قتادة والشعبي: وكذلك كانت هذه النملة القائلة ذات جناحين، وأورد المفسرون مما ذكروا أن سليمان عليه السلام أخبر عن كثير من الطير بأنواع من الكلام، تقديس لله تعالى، وعظائم، وعبر ما أعلم بصحته، (وأوتينا من كل شيء) ظاهر العموم، والمراد: الخصوص، أي من كل شيء يصلح لنا وتنمنا، وأريد به كثرة ما أوتي، فكانه مستغرق لجميع الأشياء، كما تقول «فلان يقصده كل أحد» يريد كثرة قصاده. وهذا كقوله تعالى في قصة بلقيس: ﴿وَأوتيت من كل شيء﴾ [النمل: ٢٣] وبني (علمنا) (وأوتينا) للمفعول، وحذف الفاعل، للعلم به، وهو الله تعالى، وكنا مسنتين لنون العظمة، لا لثناء المتكلم، لأنه إما أنه أراد نفسه وأباه، أو لما كان ملكاً مطاعاً خاطب أهل طاعته ومملكته بحاله التي هو عليها، لا على سبيل التعاضل والتكبر (إن هذا هو الفضل المبين) إقرار بالنعمة وشكرها ومحمدة، روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة، خمسة وعشرون للجن، ومثلها للإنس، ومثلها للطير، ومثلها للوحش وألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحه، وسبعائة سرية، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ، ومنزه في وسطه من ذهب فيصعد عليه، وحوله ستائة ألف كرسي من ذهب وفضة، تقعد الأنبياء على كرسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر. وتفصيل هذه الأشياء يحتاج إلى صحة نقل وكان ملكه عظيماً ملاً الأرض، وانقاد له أهل المعمور منها<sup>(١)</sup>. وتقدم لنا أنه ملك الأرض بأسرها أربعة مؤمنان: سليمان، وذو القرنين، وكافران: بختنصر وغرود (وحشر) الجنود يقتضي سفيراً، وفسر الجنود أنهم (الجن والإنس والطير) وذكر المفسرون الوحش رابعاً، (فهم يوزعون) يحشر أولهم على آخرهم أي يوقف متقدمو العسكر حتى يأتي آخرهم فيجتمعون لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة، أو يكفون عن المسير حتى يجتمعوا، وقيل: يجتمعون من كل جهة، وقيل: يساقون، وقيل: يدفعون، وقيل: يجسسون كانت الجيوش تسير معه إذا سار وتزل إذا نزل، (حتى إذا أتوا) هذه غاية لشيء مقدر، أي وساروا حتى إذا أتوا، أو يضمّن (يوزعون) معنى فعل يقتضي أن تكون حتى غاية له، أي «فهم يسرون مكنوفاً بعضهم من مفارقة بعض»، وعدي (أتوا) بـ «على» إما لأن إتيانهم كان من فوق، وإما أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم «أتى على الشيء» إذا أتى على آخره وأنفذه، كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي، لأنهم ما دامت الريح تحملهم لا يخاف حطهم، قاله الزمخشري، وقال ابن عطية: والظاهر أن سليمان وجنوده كانوا مشاة في الأرض، ولذلك يتهاى حطم النمل بنزولهم في وادي النمل، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح فأحست النمل بنزولهم في وادي النمل. ووادي النمل قيل بالشام، وقيل: بأقصى اليمن، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها، وقال كعب: وادي السدر من الطائف. والظاهر صدور القول من النملة، وفهم سليمان كلامها كما فهم منطق الطير، قال مقاتل: من ثلاثة أميال، وقال الضحاك: بلغته الريح كلامها، وقال ابن بحر: نطقت بالصوت معجزة لسليمان، ككلام الضب والذراع للرسول، وقيل: فهمه إلهاماً من الله، كما فهمه جنس النمل، لا أنه سمع قولاً، وقال الكلبي: أخبره ملك بذلك، قال الشاعر:

لَوْ كُنْتُ أوتيتُ كَلَامَ الحُكَلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ<sup>(٢)</sup>

(١) انظر القرطبي ١٣/١١٢.

(٢) البيت لرؤية انظر اللسان مادة (حكَل).

والحكل: (١) ما لا يسمع صوته وذكروا اختلافاً في صغر النملة وكبرها، وفي اسمها العلم ما لفظه، وليت شعري من الذي وضع لها لفظاً يخصها، أبو آدم أم النمل؟ وقالوا: كانت غملة عرجاء. ولحوق التاء في (قالت) لا يدل على أن النملة مؤنث بل يصح أن يقال: في المذكر (قالت غملة) لأن غملة وإن كان بالتاء [ف] هو مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث، وما كان كذلك كالنملة والقملة مما بينه في الجمع وبين واحده من الحيوان تاء التأنيث فإنه يجبر عنه إخبار المؤنث، ولا يدل كونه يجبر عنه إخبار المؤنث على أنه ذكر أو أنثى، لأن التاء دخلت فيه للفرق لا دالة على التأنيث الحقيقي، بل دالة على الواحد من هذا الجنس (٢). وقال الزمخشري: وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم. وكان أبو حنيفة حاضراً وهو غلام حدث فقال: سلوه عن غملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال: أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفت؟ فقال: من كتاب الله وهو قوله (قالت غملة) ولو كان ذكراً لقال «قال غملة»، قال الزمخشري: وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم «حمامة ذكر» و«حمامة أنثى» و«هي» و«هي». انتهى. وكان قتادة بن دعامة السدوسي بصيراً بالعربية، وكونه أفحم يدل على معرفته باللسان، إذ علم أن النملة يجبر عنها إخبار المؤنث وإن كانت تنطلق على الأنثى والذكر إذ هو مما لا يتميز فيه أحد هذين، فذكره وتأنثه لا يعلم ذلك من إلحاق العلامة للفعل فتوقف إذ لا يعلم ذلك إلا بوحى من الله. وأما استنباط تأنيثه من كتاب الله من قوله (قالت غملة) ولو كان ذكراً لقال «قال غملة» وكلام النحاة على خلافه، وأنه لا يجبر عنه إلا إخبار المؤنث سواء كان ذكراً أم أنثى. وأما تشبيه الزمخشري النملة بالحمامة والشاة، فبينها قدر مشترك وهو إطلاقها على المذكر والمؤنث، وبينها فرق وهو: أن الحمامة والشاة يتميز فيها المذكر من المؤنث، فيمكن أن تقول: «حمامة ذكر» و«حمامة أنثى» فتميز بالصفة، وأما تميزه «بهو» و«هي» فإنه لا يجوز لا تقول «هو الحمامة» ولا «هو الشاة»، وأما النملة والقملة فلا يتميز فيه المذكر من المؤنث، فلا يجوز فيه في الإخبار إلا التأنيث، وحكمه حكم المؤنث بالتاء من الحيوان العاقل، نحو المرأة، أو غير العاقل كالدابة إلا إن وقع فصل بين الفعل وبين ما أسند إليه من ذلك فيجوز أن تلحق العلامة الفعل، ويجوز أن لا تلحق على ما قرر ذلك في باب الإخبار عن المؤنث في علم العربية، وقرأ الحسن وطلحة ومعتز بن سليمان وأبوسليمان التيمي (غملة) بضم الميم «كسْمرة» وكذلك النمل كالرجلة والرجل لغتان، وعن سليمان التيمي (تمل وتُمَل) بضم النون والميم. وجاء الخطاب بالأمر كخطاب من يعقل من قوله (ادخلوا) وما بعده، لأنها أمرت النمل كأمر من يعقل، وصدر من النمل الامتثال لأمرها، وقرأ شهر بن حوشب: (مسكنكم) على الأفراد، وعن أبي (أدخلن مساكنكن لا يحطمنكنم) مخففة النون التي قبل الكاف، وقرأ الحسن وأبو رجاء وكتادة وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي ونوح القاضي: بضم الياء وفتح الحاء وشد الطاء والنون مضارع «حطّم» مشدداً، وعن الحسن بفتح الياء وإسكان الحاء وشد الطاء وعنه كذلك مع كسر الحاء وأصله (لا يحطمنكنم) من الاحتطام (٣)، وقرأ ابن أبي إسحق وطلحة ويعقوب وأبو عمرو في رواية عبيد كقراءة الجمهور، إلا أنهم سكنوا نون التوكيد، وقرأ الأعمش: بحذف النون وجزم الميم، والظاهر أن قوله (لا يحطمنكنم) بالنون خفيفة أو شديدة نهي مستأنف، وهو من باب لا أرينك

(١) الحكلة: كالعجمة لا يبين صاحبها الكلام. والحكلة والحكيمة. اللغثة.

قال ابن الأعرابي: في لسانه حكلة أي: عجمة لا يبين الكلام.

لسان العرب (٢٠/٩٥١)

(٢) انظر مواضع إسناد الفعل إلى تاء الوحدة في البسيط في شرح جمل الزجاجي ١/٢٧٩.

شرح الكافية ٢/١٦٩، التصريح ٢/٢٨٦، الأشموني ٤/٩٥، شرح ابن عقيل ١/٤٧٥.

(٣) التحطيم: التكسير، وحطمه يحطمه حطماً أي: كسره.

لسان العرب ٢/٩١٦

ههنا<sup>(١)</sup> بهن غير النمل والمراد النمل، أي: لا يظهروا بأرض الوادي فيحطمكم ولا تكن هنا فأراك، وقال الزمخشري فإن قلت لا يحطمنكم ما هو؟ (قلت) يحتمل أن يكون جواباً للأمر، وأن يكون هنا بدلاً من الأمر، والذي جوز أن يكون بدلاً منه لأنه في معنى «لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم» على طريقة لا أرينك ههنا، أرادت: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاءت بما هو أبلغ، ونحوه.

عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ إِشْفَاقِهَا.

انتهى. وأما تحريجه على أنه أمر فلا يكون ذلك إلا على قراءة الأعمش إذ هو مجزوم مع أنه يحتمل أن يكون استئناف نفى، وأما مع وجود نون التوكيد فإنه لا يجوز ذلك إلا إن كان في الشعر، وإذ لم يجز ذلك في جواب الشرط إلا في الشعر فأحرى أن لا يجوز في جواب الأمر إلا في الشعر. وكونه جواب الأمر متنازع فيه على ما قرر في النحو، ومثال مجيء نون التوكيد في جواب الشرط، قول الشاعر:

نَبَتُمْ نَبَاتَ الْخَيْرِ زَانَةَ فِي الشَّرَى حَدِيثاً مَتَى يَأْتِيكَ الْخَيْرُ يَنْفَعَا<sup>(٢)</sup>

وقول الآخر

مَهْمَا تَشَا مِنْهُ فَرَازَةٌ يُعْطِيهِ وَمَهْمَا تَشَا مِنْهُ فَرَازَةٌ يَمْنَعَا<sup>(٣)</sup>

قال سيبويه: وذلك قليل في الشعر، شبهوه بالنفي حيث كان مجزوماً غير واجب. انتهى. وقد تنبه أبو البقاء لشيء من هذا قال: وقيل: هو جواب الأمر، وهو ضعيف، لأن جواب الشرط لا يؤكد بالنون في الاختيار، وأما تحريجه على البدل: فلا يجوز، لأن مدلول (لا يحطمنكم) مخالف للمدلول (ادخلوا)، وأما قوله «لأنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم» فهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب، والبدل من صفة الألفاظ، نعم لو كان اللفظ القرآني «لا تكونوا حيث أنتم لا يحطمنكم» لتخيل فيه البدل، لأن الأمر بدخول المساكن نهي عن كونهم في ظاهر الأرض، وأما قوله إنه أراد لا يحطمنكم جنود سليمان إلى آخره فيسوغ زيادة الأسماء، وهو لا يجوز، بل الظاهر: إسناد الحطم إليه وإلى جنوده، وهو على حذف مضاف، أي خيل سليمان وجنوده، أو نحو ذلك مما يصح تقديره، (وهم لا يشعرون) جملة حالية أي إن وقع حطم فليس ذلك بتعمد منهم، وإنما يقع وهم لا يعلمون بحطمننا كقوله: ﴿فتصيبكم منهم معرفة بغير علم﴾ [الفتح: ٢٥] وهذا التفات حسن، أي من عدل سليمان وأتباعه ورحمته ورفقه أن لا يحطم غملة فما فوقها إلا بأن لا يكون لهم شعور بذلك، وما أحسن ما أتت به هذه النملة في قولها، وأغربه، وأفصحه، وأجمعه للمعاني، أدركت فخامة ملك سليمان فنادت، وأمرت، وأنذرت.

وذكروا أنه جرى بينها وبين سليمان محاورات وأهدت له نبقة<sup>(٤)</sup>، وأنشدوا أبياتاً في حقارة ما يهدى إلى العظيم والاستعداد من ذلك، ودعاء سليمان للنمل بالبركة والله أعلم بصحة ذلك أو افتعاله. والنمل حيوان قوي الحس شام جداً، يدخر القوت، ويشق الحبة قطعتين لثلاث تنبت، والكزبرة بأربع، لأنها إذا قطعت قطعتين أنبتت، وتآكل في عامها بعض ما

(١) انظر الكتاب (٥١٧/٣) والشاهد فيه توكيد الفعل بالنون بعد لا الناهية وهذا طلب والتوكيد بعد الطلب كثير، وانظر شرح المفصل (٣٩/٩).

(٢) البيت من الطويل للنجاشي. انظر الكتاب (٥١٥/٣) والمهمع ٧٨/٢، الأشموني (٢٢٠/٣).

(٣) من الطويل ينسب للكमित ونسبه سيبويه لابن الخرج انظر الكتاب (٥١٥/٣) التصريح (٢٠٦/٢) الأشموني (٢٢٠/٣).

(٤) التبق: ثمر السدر.

تجمع، وتدخر الباقي عدة. وفي الحديث «النبى عن قتل أربع من الدواب: الهدهد، والصدرد، والنملة، والنحلة». خرجه أبو داود عن ابن عباس، وروي من حديث أبي هريرة وتبسم سليمان عليه السلام إما للعجب بما دل عليه قولها (وهم لا يشعرون) وهو إدراكها رحمته وشفقته ورحمة عسكريه، وإما للسرور بما آتاه بما لم يؤت أحداً، وهو إدراكه قول ما همس به الذي هو مثل في الصغر، ولذلك دعا أن يوزعه الله شكر ما أنعم به عليه. وانتصب (ضاحكاً) على الحال أي شارعاً في الضحك، ومتجاوزاً حد التبسم إلى الضحك. ولما كان التبسم يكون للاستهزاء وللغضب كما يقولون «تبسم تبسم الغضبان» و«تبسم تبسم المستهزىء»، وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح أتى بقوله (ضاحكاً)، وقرأ ابن السميع (ضحكاً) جعله مصدرأ، لأن تبسم في معنى ضحك، فانتصابه على المصدرية، أو على أنه مصدر في موضع الحال كقراءة ضاحكاً (وقال رب أوزعني) أي اجعلني أزع شكر نعمتك، وآلفه، وارتبطه حتى لا ينفلت عني، حتى لا أنفك شاكراً لك، وقال ابن عباس: (أوزعني) اجعلني أشكر، وقال ابن زيد: حرضني، وقال أبو عبيدة: أولعني، وقال الزجاج: امنعني عن الكفران، وقيل: ألهمني الشكر<sup>(١)</sup>، وأدرج ذكر نعمة الله على والديه في أن يشكرهما كما يشكر نعمة الله على نفسه لما يجب للوالد على الولد من الدعاء لها والبر بها، ولا سيما إذا كان الولد تقياً لله صالحاً، فإن والديه ينتفعان بدعائه، وبدعاء المؤمنين لها بسببه كقولهم «رحم الله من خلفك» «رضي الله عنك وعن والديك». ولما سأل ربه شيئاً خاصاً وهو شكر النعمة سأل شيئاً عاماً وهو: أن يعمل عملاً يرضاه الله تعالى فاندرج فيه شكر النعمة، فكانه سأل إيزاع الشكر مرتين، ثم دعا أن يلحق بالصالحين، قال ابن زيد: هم الأنبياء والمؤمنون، وكذا عادة الأنبياء أن يطلبوا جعلهم من الصالحين، كما قال يوسف عليه السلام ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [البقرة: ١٣٠] وقيل: لأن كمال الصلاح أن لا يعصي الله تعالى ولا يهيم بمعصية، وهذه درجة عالية.

﴿وتفقد الطير فقال ما لي لأرى الهدهد أم كان من الغائين لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحته أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾.

الظاهر: أنه تفقد جميع الطير وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك والاهتمام بالرعايا، قيل: وكان يأتيه من كل صنف واحد فلم ير الهدهد<sup>(٢)</sup>، وقيل: كانت الطير تظله من الشمس، وكان الهدهد يستر مكانه الأيمن، فمسته الشمس، فنظر إلى مكان الهدهد فلم يره، وعن عبد الله بن سلام: أن سليمان عليه السلام نزل بمفازة لا ماء فيها، وكان الهدهد يرى ظاهر الأرض وباطنها، وكان يخبر سليمان بذلك، فكانت الجن تخرجه في ساعة تسليخ الأرض كما تسليخ الشاة، فسأل عنه حين حلوا تلك المفازة لاحتياجهم إلى الماء، وفي قوله (وتفقد الطير) دلالة على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، وقال عمر رضي الله عنه: «لو أن سخلة<sup>(٣)</sup> على شاطئ الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر»، وفي الكلام محذوف، أي: فقد الهدهد حين تفقد الطير، قال ابن عطية: وقوله (ما لي لا أرى الهدهد) مقصد الكلام: الهدهد غاب، ولكنه أخذ اللازم عن مغيبه، وهو أن لا يراه فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم، وهذا ضرب من الإيجاز والاستفهام الذي في قوله «ما لي

(١) انظر ابن كثير ٣/٣٥٩، وزاد السير ٦/١٦٢.

(٢) انظر القرطبي ٣/١١٩، وابن كثير ٣/٣٦٠، وزاد السير ٦/١٦٣.

(٣) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن ذكراً كان أو أنثى.

ناب مناب الألف التي تختلجها أم» انتهى . فظاهر هذا الكلام أن (أم) متصلة، وأن الاستفهام الذي في قوله «مالي ناب مناب ألف» الاستفهام، فمعناه عنده «أغاب عني الآن فلم أراه حالة التفتقد أم كان ممن غاب قبل ولم أشعر بغيبته»، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> (أم) هي المنقطعة، نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال (مالي لا أرى الهدهد) على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لسائر ستره أو غير ذلك، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب، كأنه سأل صحة ما لاح له، ونحوه قولهم «إنها لإيل أم شاء» انتهى .

والصحيح: أن (أم) في هذا هي المنقطعة، لأن شرط المتصلة تقدم همزة الاستفهام، فلو تقدمها أداة الاستفهام غير الهمزة كانت (أم) منقطعة، وهنا تقدم (ما) ففات شرط المتصلة، وقيل: يحتمل أن تكون من المقلوب، وتقديره «ما للهدهد لا أراه»، ولا ضرورة إلى ادعاء القلب.

وفي الكشف: أن سليمان لما تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج، فوافى الحرم، وأقام به ما شاء، ثم عزم على المسير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً يوم سهيلاً، فوافق صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً حسناء أعجبتة خضرتها، فنزل ليتعدى ويصلي فلم يجد الماء، وكان الهدهد يأتيه وكان يرى الماء من تحت الأرض، وذكر أنه: كان الجن يسلمون الأرض. حتى يظهر الماء (لأعذبه عذاباً شديداً) أهبهم «العذاب الشديد»، وفي تعيينه أقوال متعارضة، والأجود أن يجعل أمثلة، فعن ابن عباس ومجاهد وابن جريج: نفث ريشه<sup>(٢)</sup>، وقال ابن جريج: ريشه كله، وقال يزيد بن رومان: جناحه، وقال ابن وهب: نصفه ويبقى نصفه، وقيل: يزداد مع تنفثه تركه للشمس، وقيل: يحبس في القفص، وقيل: يطل بالقطران ويشمس<sup>(٣)</sup>، وقيل: يتنفث ويلقى للنمل، وقيل: يجمع مع غير جنسه، وقيل: يبعد من خدمة سليمان عليه السلام<sup>(٤)</sup> وقيل: يفرق بينه وبين إلفه، وقيل: يلزم خدمة امرأته.

وكان هذا القول من سليمان غضباً لله، حيث حضرت الصلاة وطلب الماء للوضوء فلم يجده، وأباح الله ذلك للمصلحة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل، وكما سخر له الطير فله أن يؤذ به إذا لم يأت ما سخر له، وقرأ الجمهور (أوليأتيني) بنون مشددة بعدها ياء المتكلم، وابن كثير بنون مشددة بعدها نون الوقاية بعد الياء، وعيسى بن عمر بنون مشددة مفتوحة بغير ياء، و«السلطان المبين»: الحجة والعذر، وفيه دليل على الإغلاظ على العصاة وعقابهم. وبدأ أولاً بأخف العقابين وهو التعذيب، ثم أتبعه بالأشد وهو إذهاب المهجة بالذبح، وأقسم على هذين لأنها من فعله، وأقسم على الإتيان بالسلطان وليس من فعله لما نظم الثلاثة في الحكم بأو، كأنه قال: ليكون أحد الثلاثة. والمعنى: إن أتى بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإلا كان أحدهما. ولا يدل قسمه على الإتيان على ادعاء دراية، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه يأتيه بسلطان فيكون قوله (أوليأتيني بسلطان مبين) عن دراية، وإيقان، وقرأ الجمهور (فَمَكَّتْ) ثم قال: وفي قراءة عبد الله (فيمكث) فقال: وكلاهما في الحقيقة تفسير لا قراءة، لمخالفة ذلك سواد المصحف، وما روي عنها بالنقل الثابت.

والظاهر أن الضمير في (فمكث) عائد على الهدهد أي غير زمن بعيد أي عن قرب، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراره خوفاً من سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له، وليبان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة

(١) انظر الكشف ٣/٣٥٨.

(٢) انظر القرطبي ١٣/١٢٠ وزاد المسير ٦/١٦٤ وابن كثير ٣/٣٦٠.

(٣) انظر القرطبي ١٣/١٢٠ وزاد المسير ٦/١٦٤ وابن كثير ٣/٣٦٠.

(٤) انظر القرطبي ١٣/١٢٠ وزاد المسير ٦/١٦٤ وابن كثير ٣/٣٦٠.

الله، وقيل: وقف مكاناً غير بعيد من سليمان، وكأنه فيها روي حين نزل سليمان حلق الهدهد، فرأى هدهد فانحط عليه ووصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء، وذكر له صاحبه ملك بلقيس، وعظم منه، وذهب معه لينظر، فما رجع إلا بعد العصر، وقيل: الضمير في (فمكث) لسليمان، وقيل: يحتمل أن يكون لسليمان وللهدهد وفي الكلام حذف. فإن كان (غير بعيد) زماناً فالتقدير: «فجاء سليمان فسأله ما غيبك فقال أحطت». وإن كان مكاناً فالتقدير «فجاء فوق مكاناً قريباً من سليمان فسأله ما غيبك» وكان فيها روي قد علم بما أقسم عليه سليمان، فبادر إلى جوابه بما يسكن غيظه عليه، وهو: أن غيبته كانت لأمر عظيم عرض له فقال (أحطت بما لم تحط به) وفي هذا جسارة من لديه علم لم يكن عند غيره، وتبجحه بذلك، وإبهام حتى تشوف النفس إلى معرفة ذلك المهم ما هو. ومعنى «الإحاطة» هنا أنه علم علماً ليس عند نبي الله سليمان، قال الزمخشري: أهدم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة، والحكمة، والعلوم الجمة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له في علمه، وتبنيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به سليمان لتحقاق إليه نفسه، ويصغر إليه علمه، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء، وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علماً أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا وفيه دليل على بطلان قول الرافضة وإن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أعلم منه» انتهى. ولما أبهم في قوله (بما لم تحط) انتقل إلى ما هو أقل منه إبهاماً وهو قوله (وجئتك من سبأ بنياً يقين) إذ فيه إخبار بالمكان الذي جاء منه وأنه له علم بخبر مستيقن له، وقرأ الجمهور (من سبأ) مصروفاً، هذا وفي (لقد كان لسبأ) وابن كثير وأبو عمرو وبفتح الهمزة غير مصروف فيها، وقيل من طريق النبال بإسكانها فيها، فمن صرفه جعله اسماً للحمي أو الموضع أو للأب، كما في حديث فروة بن مسيك وغيره عن رسول الله ﷺ «أنه اسم رجل ولد عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة» (والسته): «حمير»، و«كندة»، و«الأزد»، و«خثعم» و«بجيلة» (والأربعة): «لخم» و«جذام» و«عاملة» و«غسان» وكان سبأ رجلاً من قحطان اسمه عبد شمس، وقيل: عامر، وسمي «سبأ» لأنه أول من سبأ ومن منعه الصرف جعله اسماً للقبيلة أو البقعة، وأنشدوا على الصرف:

السَّوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي دُرَى سَبَأٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ<sup>(١)</sup>

ومن سكن الهمزة فلتوالي الحركات فيمن منع الصرف، وإجراء للوصل مجرى الوقف، وقال مكي: الإسكان في الوصل بعيد غير مختار ولا قوي. انتهى، وقرأ الأعمش (من سبأ) بكسر الهمزة من غير تنوين، حكاها عنه ابن خالويه وابن عطية، ويعد توجيهها، وقرأ ابن كثير في رواية (من سبأ) بتنوين الباء على وزن «رحى» جعله مقصوراً مصروفاً، وذكر أبو معاذ أنه قرأ (من سبأ) بسكون الباء وهمزة مفتوحة غير منونة، بناه على «فَعَلَى» فامتنع الصرف للتأنيث اللازم، وروى ابن حبيب عن يزيد: (من سبأ) بألف ساكنة، كقولهم «تفرقوا أيدي سبأ»، وقرأت فرقة (بنبا) بألف عوض الهمزة، وكأنها قراءة من قرأ (لسبأ) بالألف لتوازن الكلمتان، كما توازنت في قراءة من قرأهما بالهمز المكسور والتنوين، وقال في التحرير: إن هذا النوع في علم البديع يسمى «بالتريديد». وفي كتاب التفریع بفنون البديع أن التريديد: رد أعجاز البيوت على صدورها، أو رد كلمة من النصف الأول إلى النصف الثاني، ويسمى أيضاً «التصدير» فمثال الأول قوله:

سَرِيْعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَجْبُرُ كَسْرَهُ وَلَيْسَ إِلَيَّ دَاعِي الْخَنَاءِ بِسَرِيْعٍ<sup>(٢)</sup>

ومثال الثاني وقوله

(١) من السيطر لحرير في هجاء عمر بن لجا انظر ديوانه (٣٩٤) معاني الفراء (١٠٢/٢) الكشاف (١٤٢/٢).  
(٢) البيت من الطويل للأقشير الأسدي. انظر معاهد التنصيص (٨٢/٢) ودلائل الإعجاز ١٧٤، والإيضاح (٢٧٧).

وَاللَّيَالِي إِذَا نَأَيْتُم طَوَالَ وَاللَّيَالِي إِذَا ذَنُوتُمْ قِصَارًا<sup>(١)</sup>

وذكر أن مثل (من سبأ نبأ) يسمى تجنيس التصريف، قال: وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف، ومنه قوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [غافر ٧٥] وما ورد في الحديث «الخليل معقود في نواصيها الخير»، وقال الشاعر:

لِلَّهِ مَا صَنَعْتَ بِنَا تِلْكَ الْمَعَاجِرُ وَالْمَحَاجِرُ<sup>(٢)</sup>

وقال الزمخشري: وقوله (من سبأ نبأ) من جنس الكلام الذي سباه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً، أو بصيغة عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء هنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى، ألا ترى لو وضع مكان (نبأ) «بخبر» لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال. انتهى. والزيادة التي أشار إليها هي: أن «النبأ» لا يكون إلا الخبر الذي له شأن، ولفظ «الخبر» مطلق ينطلق على ماله شأن وما ليس له شأن، ولما أجهم (المهدد) أولاً ثم أجهم ثانياً دون ذلك الإبهام صرح بما كان أهمه فقال: (إني وجدت امرأة تملكهم) ولا يدل قوله (تملكهم) على جواز أن تكون المرأة ملكة، لأن ذلك كان من فعل قوم بلقيس وهم كفار، فلا حجة في ذلك، وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»<sup>(٣)</sup>، ونقل عن محمد بن جرير: أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح عنه، ونقل عن أبي حنيفة: أنها تقضي فيما تشهد فيه، لا على الإطلاق، ولا أن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما ذلك على سبيل التحكم والاستنابة في القضية الواحدة، ومعنى (وجدت) هنا أصبت، والضمير في (تملكهم) عائد على (سبأ) إن كان أريد القبيلة، وإن أريد الموضع فهو عنى حذف، أي: «وجئتك من أهل سبأ»، والمرأة بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك اليمن كلها، وقد ولد له أربعون ملكاً، ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس، واختلف في اسم أبيها اختلافاً كثيراً، قيل: وكانت أمها جنية تسمى «ريحانة بنت السكن» تزوجها أبوها إذ كان من عظمه لم ير أن يتزوج أحداً من ملوك زمانه، فولدت له بلقيس، وقد طولوا في قصصها بما لم يثبت في القرآن ولا الحديث الصحيح، وبدأ المهدد بالإخبار عن ملكها وأنها (أوتيت من كل شيء) وهذا على سبيل المبالغة، والمعنى من كل شيء احتاجت إليه، أو من كل شيء في أرضها.

وبين قول المهدد ذلك وبين قول سليمان (وأوتيتنا من كل شيء) فرق. وذلك: أن سليمان عطف على قوله (علمنا منطلق الطير) وهو معجزة ف يرجع أولاً إلى ما أوتي من النبوة والحكمة وأسباب الدين ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وعطف (المهدد) على (الملك) فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا الثلاثة بحالها، (ولها عرش عظيم) قال ابن زيد: هو مجلسها، وقال سفيان: هو كرسيها، وكان مرضعاً<sup>(٤)</sup> بالجواهر، وعليه سبعة أبواب. وذكروا من وصف عرشها أشياء الله هو العالم بحقيقة ذلك. واستعظام المهدد عرشها إما لاستصغار حالها أن يكون لها مثل هذا العرش، وإما لأن سليمان لم يكن له مثله وإن كان عظيم المملكة في كل شيء، لأنه قد يوجد لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون للملك الذي هو تحت طاعته، ولما

(١) من الخفيف لم أهدت لقائله. والشاهد فيه رد كلمة الليالي الأولى في الصدر إلى مثلتها في العجز.

(٢) البيت من الكامل لم أهدت لقائله وذكره السمين في الدر المصون.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٦/٨ كتاب المغازي (٤٤٢٥).

(٤) رضع الشيء عقده عقداً مثلثاً، والترصيع: التركيب، ويقال: تاج مرضع بالجواهر أي: محلى بالرصائع، وهي حلق يحلى بها.



كان سليمان قد آتاه الله من كل شيء وكان له عرش عظيم أخبره بهذا النبأ العظيم، حيث كان في الدنيا من يشاركه فيما يقرب من ذلك، ولم يلتفت سليمان لذلك إذ كان معرضاً عن أمور الدنيا، فانتقل الهدهد إلى الإخبار إلى ما يتعلق بأمور الدين، وما أحسن انتقالات هذه الأخبار بعد تهدد الهدهد وعلمه بذلك: أخبر أولاً باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان تحصناً من العقوبة بزينة العلم الذي حصل له، فتشوف السامع إلى علم ذلك. ثم أخبر ثانياً بتعلق ذلك العلم وهو أنه من سبأ، وأنه أمر متيقن لا شك فيه فزاد تشوف السامع إلى سماع ذلك النبأ. ثم أخبر ثالثاً عن الملك الذي أوتيته امرأة، وكان سليمان عليه السلام قد سأل الله أن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. ثم أخبر رابعاً ما ظهره الاشتراك بينه وبين هذه المرأة التي ليس من شأنها ولا شأن النساء أن تملك فحول الرجال وهو قوله (وأوتيت من كل شيء) وقوله (ولها عرش عظيم) وكان سليمان له بساط قد صنع له، وكان عظيماً ولما لم يتأثر سليمان للإخبار بهذا كله، إذ هو أمر دنياوي، أخبره خامساً بما يهزه لطلب هذه الملكة ودعائها إلى الإيمان، وإفراده بالعبادة فقال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) وقد تقدم القول أنهم كانوا مجوساً يعبدون الأنوار، وهو قول الحسن، وقيل: كانوا زنادقة. وهذه الإخبارات من الهدهد كانت على سبيل الاعتذار عن غيبته عن سليمان وعرف أن مقصد سليمان الدعاء إلى توحيد الله والإيمان به، فكان ذلك عذراً واضحاً أزال عنه العقوبة التي كان سليمان قد توقعه بها، وقام ذلك الإخبار مقام الإيقان بالسلطان المبين إذ كان في غيبته مصلحة لإعلام سليمان بما كان خافياً عنه، ومآله إلى إيمان الملكة وقومها. وخفي ملك هذه المرأة ومكانها على سليمان وإن كانت المسافة بينهما قريبة. كما خفي ملك يوسف على يعقوب وذلك لأمر أراه الله تعالى، قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: ومن نوحي<sup>(١)</sup> القصاص من يقف على قوله (ولها عرش عظيم وجدتها) يريد أمر عظيم إن وجدتها، فر من استعظام الهدهد عرشها فوقع في عظمة وهي نسخ كتاب الله. انتهى. وقال أيضاً (فإن قلت) من أين للهدهد الهدى إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وإنكار السجود للشمس، وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ (قلت) لا يبعد أن يلهمه الله ذلك، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقلاء يهتدون لها، ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان خصوصاً في زمان نبي سخرت له الطيور، وعلم منطقتها، وجعل ذلك معجزة له. انتهى. وأسند الترين إلى الشيطان إذ كان هو المتسبب في ذلك بإقدار الله تعالى (فصدهم عن السبيل) أي الشيطان، أو تزيينه عن السبيل وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبادة، (فهم لا يهتدون) أي إلى الحق، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر والزهري والسلمي والحسن وحيد والكسائي (ألا) بتخفيف لام الألف، فعلى هذا له أن يقف على (فهم لا يهتدون) ويتبدى على (ألا يسجدوا) قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: وإن شاء وقف على (ألا) ثم ابتدأ (اسجدوا) وباقي السبعة بتشديدها، وعلى هذا يصل قوله (فهم لا يهتدون) بقوله (ألا يسجدوا)، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش (هلا) و(هلا) بقلب الهمزتين هاء، وعن عبد الله (هلا يسجدون) بمعنى ألا تسجدون على الخطاب، وفي قراءة أبي (ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سرهم وما تعلنون) انتهى. وقال ابن عطية: وقرأ الأعمش (هلا يسجدون)، وفي حرف عبد الله (ألا هل تسجدون) بالتاء، وفي قراءة أبي (ألا تسجدون) بالتاء أيضاً. فأما قراءة من أثبت النون في (يسجدون) وقرأ بالتاء أو الباء فتحريجها واضح. وأما قراءة باقي السبعة فخرجت على أن قوله (ألا يسجدوا) في موضع نصب على أن يكون بدلاً من قوله (أعلمهم) أي: «فزين لهم الشيطان أن لا يسجدوا»

(١) نوحي: من نوحي القصاص أي: الحمقى، والأنوك: الأحمق. وجمعه: النوكى. وقوم نوك. والنواكة: الحياقة.

لسان العرب (٦/٤٥٨٢)

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٦٢.

(٣) انظر الكشاف ٣/٣٦٢.

(٤) انظر الكشاف ٣/٣٦٢.

وما بين المبدل منه والبديل معترض ، أو في موضع جر على أن يكون بدلاً من السبيل أي : «فصدهم عن أن لا يسجدوا» وعلى هذا التخريج تكون (لا) زائدة، أي : «فصدهم عن أن يسجدوا لله» ويكون (فهم لا يهتدون) معترضاً بين المبدل منه والبديل، ويكون التقدير : «لأن لا يسجدوا» وتتعلق اللام إما بـ (زين)، وإما بقصدهم، واللام الداخلة على «أن» داخلة على مفعول له، أي «علة تزين الشيطان لهم أو صدهم عن السبيل هي انتفاء سجودهم لله، أو لخوفه أن يسجدوا لله» وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> : ويجوز أن تكون (لا) مزيدة ويكون المعنى «فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا». انتهى . وأما قراءة ابن عباس ومن وافقه فخرجت على أن تكون (ألا) حرف استفتاح و(يا) حرف نداء، والمنادى محذوف و«اسجدوا» فعل أمر، وسقطت ألف «يا» التي للنداء وألف الوصل في «اسجدوا» إذ رسم المصحف (يسجدوا) بغير ألفين لما سقطا لفظاً سقطاً خطأً ومجيء مثل هذا التركيب موجود في كلام العرب، قال الشاعر :

أَلَا يَا اسْلَمِي ذَاتِ الدَّمَالِحِ وَالْعِقْدِ

وقال :

أَلَا يَا اسْقِينَانِي قَبْلَ غَارَةِ سِنَجَالِ<sup>(٢)</sup>

وقال :

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَمِي عَلَى الْبَلِي<sup>(٣)</sup>

وقال :

أَلَا يَا اسْقِينَانِي قَبْلَ حَبْلِ أَبِي بَكْرِ<sup>(٤)</sup>

وقال :

فَقَالَتْ أَلَا يَا اسْمِعْ أَعْظَمَكَ بِخُطْبَةِ فَقُلْتُ سَمِعْنَا فَاَنْطَقِي وَأُصِيبِي<sup>(٥)</sup>

وقال :

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدُ بَنِي بَدْرٍ وَإِنْ كَانَ جَبَانًا عَدَا آجَرَ الدَّهْرِ<sup>(٦)</sup>

وسمع بعض العرب يقول «ألا يا ارحمونا، ألا تصدقوا علينا» ووقف الكسائي في هذه القراءة على (يا) ثم يتدىء (اسجدوا) وهو وقف اختيار لا اختار، والذي أذهب إليه : أن مثل هذا التركيب الوارد عن العرب ليست «يا» فيه للنداء، وحذف المنادى لأن المنادى عندي لا يجرز حذفه، لأنه قد حذف الفعل العامل في النداء، وانحذف فاعله لحذفه، ولو حذفنا المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء وحذف متعلقه وهو المنادى، فكان ذلك إخلالاً كبيراً، وإذا أبقينا المنادى ولم نحذفه كان ذلك دليلاً على العامل فيه جملة النداء، وليس حرف النداء حرف جواب كنعم ولا ولى وأجل، فيجوز حذف الجمل بعدهنّ للدلالة ما سبق من السؤال على الجمل المحذوفة فـ «يا» عندي في تلك التراكيب حرف تنبيه، أكد به (ألا) التي للتنبيه، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين، ولقصد المبالغة في التوكيد. وإذا كان قد وجد التأكيد في اجتماع الحرفين المختلفي

(١) انظر الكشاف ٣/٣٦٢.

(٢) للشهاخ النظر ملحق ديوانه (٤٥٦) وروايته (ألا يا اصبحاني) وانظر الكتاب (٢٢٢/٤).

(٣) من الطويل لذي الرمة . انظر ديوانه (٢٩٠) التصريح (١٨٥/١) الأشموني (٣٧/١) الممع (١١١/١) مجاز القرآن (٩٤/٢).

(٤) من الطويل لم أهدت لقائله والشاهد فيه دخول ياء على الفعل لتأكيد التنبيه في الا قبلها وذكره السمين في الدر المصون بتحقيقنا.

(٥) البيت من الطويل للنمر بن تولب . انظر أمالي ابن الشجري (١٥١/١) النوادر لأبي زيد (١٩٢) الكشاف (١٥٨/٢) معاني الفراء

(٤٠٢/٢).

(٦) من الطويل لأخطل . انظر ديوانه (١٥٠) شرح المفصل لابن يعيش (٢٤/٢)، معاني الفراء (٢٩٠/٢).

اللفظ العاملين في قوله :

فَأَصْبَحَنَ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ بِمَاءِ بِهِ<sup>(١)</sup>

والمتفقى اللفظ العاملين في قوله :

وَلَا لِلَّيْمَاءِ بِهِمْ أَبْدًا دَوَاءً<sup>(٢)</sup>

وجاز ذلك وإن عدوه ضرورة أو قليلاً، فاجتماع غير العاملين وهما مختلفا اللفظ يكون جائزاً. وليس يا في قوله :

يَا لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلَّهُمْ<sup>(٣)</sup>

حرف نداء عندي، بل حرف تنبيه جاء بعده المبتدأ، وليس مما حذف منه المنادى لما ذكرناه<sup>(٤)</sup>، وقال الزمخشري : (فإن قلت) أسجدة التلاوة واجبة في القراءة جميعاً أو في واحدة واحدة منها (قلت) هي واجبة فيها وإحدى القراءة أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك. وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه. انتهى. و(الخبء) مصدر أطلق على المخبوء وهو المطر والنبات وغيرهما مما خبأه تعالى من غيبوبه، وقرأ الجمهور (الخبء) بسكون الباء والهمزة، وثراً أبي عيسى بنقل حركة الهمزة إلى الباء وحذف الهمزة، وقرأ عكرمة بألف بدل الهمزة، فلزم فتح ما قبلها، وهي قراءة عبد الله ومالك بن دينار، ويخرج على لغة من يقول في الوقف «هذا الخبو» و«مررت بالخبى» و«رأيت الخبا»، وأجرى الوصل مجرى الوقف. وأجاز الكوفيون أن تقول في «المرأة والكفاءة» «المرأة والكفاة» فيبدل من الهمزة ألفاً فتفتح ما قبلها، فعلى قولهم هذا يجوز أن يكون الخبا منه، قيل : وهي لغة ضعيفة، وإجراء الوصل مجرى الوقف أيضاً نادر قليل، فيعادل التخريجان، ونقل الحركة إلى الباء وحذف الهمزة حكاة سيويه عن قوم من بني تميم وبني أسد. وقراءة (الخبيا) بالألف طعن فيها أبو حاتم وقال : لا يميز في العربية، قال : لأنه إن حذف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال «الخب»، وإن حوّلها قال «الخبى» بسكون الباء وياء بعدها. قال المبرد : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلدتهم لم يلق أعلم منه. والظاهر أن (في السموات) متعلق بـ (الخبء) أي المخبوء في السموات، وقال الفراء : «في» و«من» يتعاقبان بقول العرب «لأستخرجن العلم فيكم» يريد «منكم» انتهى. فعلى هذا يتعلق «بيخرج» أي من في السموات. ولما كان الهدهد قد أوتي من معرفة الماء تحت الأرض ما لم يؤت غيره، وألهمه الله تعالى ذلك كان وصفه ربّه تعالى بهذا الوصف الذي هو قوله (الذي يخرج الخبء) إذ كل محتص بوصف من علم أو صناعة يظهر عليه تخايل ذلك الوصف في روايته ومنطقه وشائله، ولذلك ورد «ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله»، وقرأ الحرميان والجمهور (ما يخفون وما يعلنون) بياء الغيبة، والضمير عائد على المرأة وقومها، وقرأ الكسائي وحفص بقاء الخطاب، فاحتمل أن يكون خطاباً لسليمان عليه السلام والحاضرين معه، إذ يبعد أن تكون محاوره الهدهد لسليمان وهما ليس معهما أحد، وكما جاز له أن يخاطبه بقوله (أحطت بما لم تحط) به جاز أن يخاطبه والحاضرين معه بقوله (ما تخفون وما تعلنون) بل خطابه بهذا ليس فيه ظهور شغوف، بخلاف ذلك الخطاب. والظاهر أن قوله (ألا يسجدوا) إلى (العظيم) من كلام الهدهد، وقيل : من كلام الله تعالى

(١) صدر بيت من الطويل للأسود بن يعفر وعجزه (أصعد في علو الهوى أم أصوبا . .)

أوضح المسالك (١٨٣) معاني الفراء ٢٢١/٣ الأشموني ٨٣/٣ التصريح (١٣١/٢).

(٢) من الوافر لمسلم بن معبد الوالبي، المحتسب (٢٥٦/٢) الخصائص (٢٨٢/٢) ابن عيش (١٨/٧) التصريح (١٣٠/٢) الهمع ٧٨/٢.

(٣) من البسيط لم يعلم قائله. انظر الكتاب (٢١٩/٢) شرح المفصل لابن عيش ٢٤/٢، ٤٠ الإنصاف (١١٨).

(٤) شرح المفصل لابن عيش ١٢١/٨ الصبان ١٤١/٣ شذور الذهب ٢٢ - ٢٣.

لأمة رسول الله ﷺ، وقال ابن عطية: القراءة بياء الغيبة تعطي أن الآية من كلام الهدهد، وبناء الخطاب تعطي أنها من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ، وقال صاحب الغنيان: لما ذكر الهدهد عرش بلقيس ووصفه بالعظم رد الله عز وجل عليه وبين أن عرشه تعالى هو الموصوف بهذه الصفة على الحقيقة، إذ لا يستحق عرش دونه أن يوصف بالعظمة، وقيل: إنه من تمام كلام الهدهد، كأنه استدرك ورد العظمة من عرش بلقيس إلى عرش الله، وقال الزمخشري: (فإن قلت) كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم (قلت) بين الوصفين فرق، لأن وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. انتهى، وقرأ ابن محيصن وجماعة (العظيم) بالرفع، فاحتمل أن تكون صفة للعرش، وقطع على إضمار «هو» على سبيل المدح، فتستوي قراءته وقراءة الجمهور في المعنى، واحتمل أن تكون صفة للرب، وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه في ضمنه. ولما فرغ الهدهد من كلامه وأبدى عذره في غيبته أخر سليمان أمره إلى أن يتبين له صدقه من كذبه فقال: (سننظر.أصدقت) في إخبارك أم كذبت. والنظر هنا التأمل والتصفح و(أصدقت) جملة معلق عنها (سننظر) وهي في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، لأن «نظر» بمعنى التأمل والتفكير إنما يتعدى بحرف الجر الذي هو «في»، وعادل بين الجملتين «بأم» ولم يكن التركيب «أم كذبت» لأن قوله: (أم كنت من الكاذبين) أبلغ في نسبة الكذب إليه، لأن كونه من الكاذبين يدل على أنه معروف بالكذب، سابق له هذا الوصف قبل الإخبار بما أخبر به، وإذا كان قد سبق له الوصف بالكذب كان متهماً فيما أخبر به، بخلاف من يظن ابتداء كذبه فيما أخبر به. وفي الكلام حذف تقديره فأمر بكتابة كتاب إليهم، وبذهاب الهدهد رسولاً إليهم بالكتاب فقال: (اذهب بكتابي هذا) أي الحاضر المكتوب الآن، (فألقه إليهم ثم تول عنهم) أي تنح عنهم إلى مكان قريب بحيث تسمع ما يصدر منهم وما يرجع به بعضهم إلى بعض من القول. وفي قوله (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم) دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرهما ملوك العرب<sup>(١)</sup>، وقال وهب: أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به الملوك بمعنى «وكن قريباً بحيث تسمع مراجعاتهم»، وقال ابن زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه، أي ألقه وارجع. قال وقوله (فانظر ماذا يرجعون) في معنى التقديم على قوله (ثم تول عنهم) انتهى. وقاله أبو علي، ولا ضرورة تدعو إلى التقديم والتأخير، بل الظاهر أن النظر معتقب التولي عنهم، وقرئ في السبعة (فألقه) بكسر الهاء وياء بعدها، وباختلاس الكسرة وبسكون الهاء، وقرأ مسلم بن جندب بضم الهاء وواو بعدها، وجمع في قوله (إليهم) الهدهد (قال وجدتها وقومها) وفي الكتاب أيضاً ضمير الجمع في قوله (أن لا تلعوا علي) والكتاب كان فيه الدعاء إلى الإسلام لبلقيس وقومها، ومعنى (فانظر ماذا يرجعون) أي تأمل واستحضره في ذهنك، وقيل: معناه فانتظر (ماذا) إن كان معنى (فانظر) معنى التأمل بالفكر كان انظر معلقاً، و(ماذا) إما كلمة استفهام في موضع نصب، وإما أن تكون ما استفهاماً وذا موصول بمعنى الذي فعلى الأول يكون (يرجعون) خبراً عن (ماذا)، وعلى الثاني يكون «ذا» هو الخبر و(يرجعون) صلة. ذا، وإن كان معنى (فانظر) فانتظر فليس فعل قلب فيعلق، بل يكون (ماذا) كله موصولاً بمعنى الذي، أي «فانتظر الذي يرجعون». والمعنى فانتظر ماذا يرجعون حتى ترد إلى ما يرجعون من القول. «قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تلعوا علي واثنوني مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإني مرسله إليهم بهدية فانظرة بمرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدوني بما لآتي الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة

(١) أخرجه البخاري ٣١/١ كتاب بدء الوحي (٧) ومسلم ١٣٩٣/٣ كتاب الجهاد (٧٤ - ١٧٧٣).

وهم صاغرون ﴿ في الكلام حذف، تقديره: «أخذ الهدهد الكتاب وذهب به إلى بلقيس وقومها وألقاه إليهم كما أمره سليمان»، فقيل: أخذته بمنقاره<sup>(١)</sup>، وقيل: علقه في عنقه، فجاءها حتى وقف على رأسها وحوّلها جنودها، فرفرف بجناحيه والناس ينظرون إليه حتى رفعت رأسها، فألقى الكتاب في حجرها<sup>(٢)</sup>، وقيل: كانت في قصرها قد غلقت الأبواب واستلقت على فراشها نائمة فألقى الكتاب على نحرها<sup>(٣)</sup>، وقيل: كانت في البيت كوة تقع الشمس فيها كل يوم، فإذا نظرت إليها سجدت، فجاء الهدهد فسدها بجناحه، فرأت ذلك وقامت إليه، فألقى الكتاب إليها، وكانت فائرة عربية من قوم تبع، وقيل: ألقاه من كوة، وتوارى فيها فأخذت الكتاب، ونادت أشراف قومها (قالت يا أيها الملاء) وكرم الكتاب لطبعه بالخاتم، وفي الحديث «كرم الكتاب ختمه»، أو لكونه من سليمان، وكانت عالمة بملكه، أو لكون الرسول به الطير، فظنته كتاباً سماوياً، أو لكونه تضمن لطفاً وليناً، لا سباً، ولا ما يغير النفس، أو لبداءته باسم الله أقوال. ثم أخبرتهم فقالت (إنه من سليمان) كأنها قيل لها: ممن الكتاب، وما هو؟ فقالت (إنه من سليمان وإنه) كيت وكيت، أجهت أولاً، ثم فسرت. وفي بنائها ألقى للمفعول دلالة على جهلها بالملقى حيث حذفته، أو تحقيراً له حيث كان طائراً إن كانت شاهدة. والظاهر أن بداءة الكتاب من سليمان (بسم الله الرحمن الرحيم) إلى آخر ما قص الله منه خاصة فاحتمل أن يكون (من سليمان) مقدماً على (بسم الله) وهو الظاهر، وقدمه لاحتمال أن يندر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة، فيكون اسمه وقاية لاسم الله تعالى، أو كان عنواناً في ظاهر الكتاب وباطنه فيه (بسم الله) إلى آخره، واحتمل أن يكون مؤخراً في الكتابة عن (بسم الله)، وأن ابتدأ الكتاب باسم الله، وحين قرأته عليهم بعد قراءتها له في نفسها قدمته في الحكاية وإن لم يكن مقدماً في الكتابة، وقال أبو بكر بن العربي: كانت رسل المتقدمين إذا كتبوا كتاباً بدؤوا بأنفسهم: من فلان إلى فلان، وكذلك جاءت الإشارة<sup>(٤)</sup>، وعن أنس: «ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله ﷺ، وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدؤوا بأنفسهم<sup>(٥)</sup>»، وقال أبو الليث في كتاب الستان له: ولو بدأ بالكتوب إليه جاز، لأن الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه، وقرأ الجمهور (إنه من سليمان وإنه) بكسر الهمزة فيها، وقرأ عبد الله (وأنه من سليمان) بزيادة واو عطفاً على (إني ألقى)، وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة بفتحها، وخرج على البديل من كتاب، أي ألقى إليّ أنه، أو على أن يكون التقدير لأنه، كأنها عللت كرم الكتاب لكونه من سليمان وتصديره بيسم الله، وقرأ أبي (أن من سليمان وأن بسم الله) بفتح الهمزة ونون ساكنة، فخرج على أن «أن» هي المفسرة، لأنه قد تقدمت جملة فيها معنى القول، وعلى أنها أن المخففة من الثقيلة وحذفت الهاء. و(بسم الله الرحمن الرحيم) استفتاح شريف بارع المعنى مبدوء به في الكتب في كل لغة وكل شرع، وأن في قوله (أن لا تعلوا)، قيل: في موضع رفع على البديل من (كتاب)، وقيل: في موضع نصب على معنى بأن لا تعلوا، وعلى هذين التقديرين تكون (أن) ناصبة للفعل، وقال الزمخشري: وأن في (أن لا تعلوا عليّ) مفسرة، فعلى هذا تكون (لا) في (لا تعلوا) للنهي وهو حسن لمشاكلة عطف الأمر عليه، وجوز أبو البقاء أن يكون التقدير «هو أن لا تعلوا» فيكون خبر مبتدأ محذوف، ومعنى (لا تعلوا) لا تتكبروا، كما يفعل الملوك، وقرأ ابن عباس في رواية وهب بن منبه والأشهب العقيلي (أن لا تعلوا) بالغين المعجمة، أي ألا تتجاوزوا الحد، وهو من الغلو. والظاهر أنه طلب منهم أن يأتوه وقد أسلموا وتركوا الكفر وعبادة الشمس، وقيل: معناه: مدعين مستسلمين، من الانقياد والدخول في الطاعة.

(١) انظر ابن كثير ٣/٣٦١.

(٢) انظر زاد المسير ٦/١٦٧، ١٦٨ وابن كثير ٣/٣٦١ والقرطبي ٣/١٢٧.

(٣) انظر زاد المسير ٦/١٦٧، ١٦٨ وابن كثير ٣/٣٦١ والقرطبي ٣/١٢٧.

(٤) انظر القرطبي ١٣/١٢٨.

(٥) انظر القرطبي ١٣/١٢٨.

وما كتبه سليمان في غاية الإيجاز والبلاغة، وكذلك كتب الأنبياء. والظاهر أن الكتاب هو ما نص الله عليه فقط، واحتمل أن يكون مكتوباً بالعربي، إذا للملوك يكون عندهم من يترجم بعدة ألسن، فكتب بالخط العربي واللفظ العربي، لأنها كانت عربية من نسل «تبع بن شراحيل الحميري»، واحتمل أن يكون باللسان الذي كان سليمان يتكلم به وكان عندها من يترجم لها إذ كانت هي عارفة بذلك اللسان، وروي: أن نسخة الكتاب «من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلقوا عليّ واثقوني مسلمين» وكانت كتب الأنبياء جملاً، لا يظلمون ولا يكثرون، وطبع الكتاب بالمسك وختّمه بخاتمه، وروي أنه لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان. ولما قرأت على الملأ الكتاب، ورأت ما فيه من الانتقال إلى سليمان استشارتهم في أمرها، قال قتادة: وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر، وعنه وثلاثة عشر، كل رجل منهم على عشرة آلاف، وكانت بأرض مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام، وذكر عن عسكرها ما هو أعظم وأكثر من هذا، والله أعلم بذلك، وتقدم الكلام في الفتوى في «سورة يوسف»، والمراد هنا أشيروا عليّ بما عندكم في ما حدث لها من الرأي السديد والتدبير، وقصدت بإشارتهم استطلاع آرائهم واستعطافهم وتطبيب أنفسهم ليلاثوا ويقوموا (ما كنت قاطعة أمراً) أي مبرمة وفاصلة أمراً (حتى تشهدون) أي تحضروا عندي فلا أستبد بأمر، بل تكونون حاضرين معي وفي قراءة عبد الله (ما كنت قاضية أمراً) أي لا أبت إلا وأنتم حاضرون معي، (وما كنت قاطعة أمراً) عام في كل أمر، أي إذا كانت عادتي هذه معكم فكيف لا أستشيركم في هذه الحادثة الكبرى التي هي الخروج من الملك، والانسلاك في طاعة غيري، والصريرة تبعاً فراجعها الملأ بما أقر عينها من قوهم: إنهم أولو قوة، أي قوة بالعدد والعدد (وأولو بأس شديد) أي أصحاب شجاعة ونجدة، أظهروا القوة العرضية، ثم القوة الذاتية، أي نحن متهيئون للحرب ودفع هذا الحادث، ثم قالوا (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) وذلك من حسن محاورتهم إذ وكلوا الأمر إليها، وهو دليل على الطاعة المفرطة، أي نحن ذكرنا ما نحن عليه، ومع ذلك فالأمر موكول إليك، كأنهم أشاروا أولاً عليه بالحرب، أو أرادوا نحن أبناء الحرب لا أبناء الاستشارة وأنت ذات الرأي والتدبير الحسن (فانظري ماذا تأمرين) به نرجع إليك وتنبع رأيك، (فانظري) من التأمل والتفكر (وماذا) هو المفعول الثاني (لتأمرين) والمفعول الأول محذوف لفهم المعنى، أي تأمريننا، والجملة معلق عنها «انظري» فهي في موضع مفعول لانظري بعد إسقاط الحرف من اسم الاستفهام، ولما وصل إليها كتاب سليمان، لا على يد رجل بل على طائر استعظمت ملك سليمان، وعلمت أن من سخر له الطير حتى يرسله بأمر خاص إلى شخص خاص معلق عليه الأبواب غير ممتنع عليه تدويخ الأرض وملوكها فأخبرت بحال الملوك ومالت إلى المهاداة والصلح فقالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية) أي تغلبوا عليها (أفسدوها) أي خربوها بالهدم والحرق والقطع، وأذلوأ أعزة أهلها بالقتل والنهب والأسر. ووقوها فيه تزييف لآرائهم في الحرب، وخوف عليهم، وحياطة لهم، واستعظام الملك سليمان، والظاهر أن (وكذلك يفعلون) هو من قولها، أي عادة الملوك المستمرة تلك من الإفساد والتذليل، وكانت ناشئة في بيت الملك، فرأت ذلك، وسمعت، ذكرت ذلك تأكيداً لما ذكرت من حال الملوك، وقيل: هو من كلام الله إعلاماً لرسوله ﷺ وأمته وتصديقاً لإخبارها عن الملوك إذا تغلبوا، ولما كانت عادة الملوك قبول الهدايا، وأن قبولها يدل على الرضا والألفة قالت (وإني مرسله إليهم) أي إلى سليمان ومن معه رسلاً (بهدية) وجاء لفظ الهدية مبهماً، وقد ذكروا في تعيينها أقوالاً مضطربة متعارضة، وذكروا من حالها ومن حال سليمان حين وصلت إليه الهدية وكلامه مع رسلها ما الله أعلم به، (فانظرة) معطوف على (مرسله)، و(بم) متعلق (بيرجع) ووقع للحوفي أن الباء متعلقة بـ (ناظرة) وهو وهم فاحش. و«النظر» هنا معلق أيضاً، والجملة في موضع مفعول به، وفيه دلالة على أنها لم تثق بقبول الهدية، بل جوزت الرد، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان. و«الهدية» اسم لما يهدى كالعطية هي اسم لما يعطى، وروي أنها قالت لقومها إن كان ملكاً دُنْيَاوِيًّا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرصه المال وينبغي أن تتبعه على دينه. وفي الكلام حذف، تقديره: «فأرسلت الهدية فلما جاء أي الرسول سليمان» والمراد «بالرسول» الجنس، لا حقيقة المفرد، وكذلك الضمير في (ارجع)، و«الرسول» يقع على الجمع

والمفرد والمذكر والمؤنث، وقرأ عبد الله (فلما جاؤوا) وقرأ (ارجعوا) جعله عائداً على قوله (المرسالون)، و(أتمدوني بمال) استفهام إنكار واستقلال، وفي ذلك دلالة على عزوفه عن الدنيا، وعدم تعلق قلبه عليه الصلاة والسلام بها، ثم ذكر نعمة الله عليه، وأن ما آتاه الله من النبوة وسعة الملك (خير مما آتاكم بل أنتم) بما يهدي إليكم (تفرحون) بحبكم الدنيا. والهدية تصح إضافتها إلى المهدى وإلى المهدى إليه، وهي هنا مضافة للمهدى إليه، وهذا هو الظاهر، ويجوز أن تكون مضافة إلى المهدى، أي بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك، فإنكم قدرتم على إهداء مثلها، ويجوز أن تكون عبارة عن الرد كأنه قال: بل أنتم من حقمكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها، وقرأ جمهور السبعة (أتمدوني) بنونين وأثبت بعض الباء، وقرأ حمزة بإدغام نون الرفع في نون الوقاية وإثبات ياء المتكلم، وقرأ المسيبي عن نافع بنون واحدة خفيفة، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: (فإن قلت) ما الفرق بين قولك (أتمدوني بمال) وأنا أغني منكم، وبين أن يقوله بالفاء (قلت) إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى، وهو مع ذلك يمدني بالمال. وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عنه حالي وأنا أخبره الساعة بما لا احتاج معه إلى إمداده، كأني أقول له أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه، وعليه ورد قوله (فما آتاني الله) (فإن قلت) فما وجه الإضراب (قلت) لما أنكر عليهم الإمداد، وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح إلا أن يهدي إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها. انتهى (ارجع إليهم) هو خطاب للرسول الذي جاء بالهدية وهو «المنذر بن عمرو» أمير الوفد، والمعنى: «ارجع إليهم بهديتكم» وتقدمت قراءة عبد الله (ارجعوا إليهم) و«ارجعوا» هنا لا تتعدى أي انقلبوا وانصرفوا إليهم، وقيل: الخطاب بقوله (ارجع) للهدد عملاً كتاباً آخر، ثم أقسم سليمان فقال (فلنأتينهم بجنود) متوعداً لهم، وفيه حذف، أي إن لم يأتوني مسلمين. ودل هذا التوعد على أنهم كانوا كفاراً باقين على الكفر إذ ذاك. والضمير في (بها) عائد على الجنود وهو جمع تكسير، فيجوز أن يعود الضمير عليه كما يعود على الواحدة كما قالت العرب «الرجال وأعضادها»، وقرأ عبد الله (هم) ومعنى (لا قبل) لا طاقة. وحقيقة «القبل» المقاومة والمقابلة، أي لا تقدر أن تقابلوه. والضمير في (منها) عائد على سبأ، وهي أرض بليقيس وقومها، وانتصب (أذلة) على الحال، (وهم صاغرون) حال أخرى. و«الذل» ذهاب ما كانوا فيه من العز. و«الصغار» وقوعهم في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً. وفي مجيء هاتين الحالتين دليل على جواز أن يقضي العامل حالين لذي حال واحد، وهي مسألة خلاف، ويمكن أن يقال إن الثانية هنا جاءت توكيداً لقوله (أذلة) فكأنها حال واحدة.

﴿قال يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح نرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

في الكلام حذف، تقديره: «فرجع المرسل إليها بالهدية، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان، فتجهزت للمسير إليه، إذ علمت أنه نبي، ولا طاقة لها بقتال نبي» فروي أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات، بعضها في جوف بعض في آخر قصرٍ من قصورها، وغلقت الأبواب، ووكلت به حراساً يحفظونه، وتوجهت إلى سليمان في

أقياها<sup>(١)</sup> وأتباعهم<sup>(٢)</sup>، قال عبد الله بن شداد . فلما كانت على فرسخ من سليمان قال : (أيكم يأتيني بعرشها)<sup>(٣)</sup>، وقال ابن عباس : كان سليمان مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فنظر ذات يوم رهجاً<sup>(٤)</sup> قريباً منه فقال : ما هذا؟ فقالوا : بلقيس فقال ذلك، واختلفوا في قصد سليمان استدعاء عرشها، فقال قتادة وابن جريج : لما وصف له عظم عرشها وجودته أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويمنع أخذ أموالهم، والإسلام على هذا الدين<sup>(٥)</sup>، وهذا فيه بعد أن يقع ذلك من نبي أوتي ملكاً لم يؤته غيره، وقال ابن عباس وابن زيد : استدعاه ليربها القدرة التي هي من عند الله، وليغرب عليها سليمان، والإسلام على هذا الاستسلام<sup>(٦)</sup> . وأشار «الزمخشري» لقول فقال : ولعله أوحى إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يغرب عليها ويربها بذلك بعض ما خصه به من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان ويصدقها . انتهى، وقال الطبري : أراد أن يختبر صدق الهدهد في قوله (ولها عرش عظيم) وهذا فيه بعد، لأنه قد ظهر صدقه في حمل الكتاب، وما ترتب على حمله من مشورة بلقيس قومها، وبعثها بالهدية، وقيل : أراد أن يؤتي به فينكر ويغير، ثم ينظر أثبته أم تنكره، اختباراً لعقلها . والظاهر ترتيب هذه الأخبار على حسب ما وقعت في الوجود . وهو قول الجمهور، وعن ابن عباس : أنه (قال أيكم يأتيني بعرشها) حين ابتدأ النظر في صدق الهدهد من كذبه لما قال (ولها عرش عظيم) ففي ترتيب القصص تقديم وتأخير . وفي قوله (أيكم يأتيني بعرشها) دليل على جواز الاستعانة ببعض الأتباع في مقاصد الملوك، ودليل على أنه قد يخص بعض أتباع الأنبياء بشيء لا يكون لغيرهم، ودليل على مبادرة من طلب منه الملوك قضاء حاجة، وبداءة الشياطين في التسخير على الإنس، وقدرتهم بإقدار الله على ما يبعد فعله من الإنس، وقرأ الجمهور (عَفْرِيَّة) وأبو حيوة بفتح العين، وقرأ أبو رجاء وأبو السمال وعيسى، ورويت عن أبي بكر الصديق (عَفْرِيَّة) بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة بعدها تاء التانيث، وقال ذو الرمة :

كَأَنَّهُ كَوَكَّبُ فِي إِثْرِ عَفْرِيَّةٍ مُصَوَّبٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُقْتَضِبٍ<sup>(٧)</sup>

وقرأت فرقة (عفر) بلا ياء ولا تاء ويقال في لغة طىء وتميم «عفراة» بالالف وتاء التانيث، وفيه لغة سادسة «عفارية» ويوصف بها الرجل، ولما كان قد يوصف به الإنس خص بقوله (من الجن) وعن ابن عباس : اسمه صخر، وقيل : كوري، وقيل : ذكران، و(أتيك) يحتمل أن يكون مضارعاً واسم فاعل، وقال قتادة ومجاهد ووهب : (من مقامك) أي من مجلس الحكم، وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم، وقيل : قبل أن تستوي من جلوسك قائماً، و(إني عليه) أي على الإتيان به (لقوي) على حمله (أمين) لا أختلس منه شيئاً، قال الحسن : كان كافراً لكنه كان مسخراً، والعفريت لا يكون إلا كافراً (قال الذي عنده علم من الكتاب) قيل : هو من الملائكة وهو جبريل، قاله النخعي . (والكتاب) اللوح المحفوظ، أو كتاب سليمان إلى بلقيس، وقيل : ملك أيد الله به سليمان . وقيل : هو رجل من الإنس واسمه آصف بن برخيا كاتب

(١) القيل : الملك من ملوك (حبر) يتقيل من قبله من ملوكهم يشبهه . وجمعه أقيال وقبول .

لسان العرب ٥/٣٧٩٨

(٢) انظر القرطبي ١٣/١٣٤، ١٣٥ وابن كثير ٣/٣٦٣ وزاد المسير ٦/١٧٣ .

(٣) انظر القرطبي ١٣/١٣٤، ١٣٥ وابن كثير ٣/٣٦٣ وزاد المسير ٦/١٧٣ .

(٤) رهجا : الريح والريح : الغبار . وفي الحديث وما خالط قلب امرئ رهج في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار .

لسان العرب ٣/١٧٥٠

(٥) انظر القرطبي ١٣/١٣٥ وابن كثير ٣/٣٦٣، وزاد المسير ٦/١٧٣ .

(٦) انظر القرطبي ١٣/١٣٥ وابن كثير ٣/٣٦٣، وزاد المسير ٦/١٧٣ .

(٧) تقدم قريباً .



سليمان، وكان صديقاً عالمًا قاله الجمهور. أو اسطوم، أو هود، أو مليخا. قاله قتادة. أو أسطورس، أو الخضر عليه السلام. قال ابن لبيبة: وقالت جماعة: هو ضبة بن أد، جد بني ضبة من العرب، وكان فاضلاً يخدم سليمان، كان على قطعة من خيله، وهذه أقوال مضطربة، وقد أهدم الله اسمه فكان ينبغي أن لا يذكر اسمه حتى يخبر به نبي، ومن أغرب الأقوال: أنه سليمان عليه السلام، كأنه يقول لنفسه (أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك) أو يكون خاطب بذلك العفريت. حكى هذا القول الزمخشري وغيره. كأنه استبطاً ما قال العفريت، فقال له سليمان ذلك على تحقير العفريت. (والكتاب) هو المنزل من عند الله، أو اللوح المحفوظ قولان، والعلم الذي أوتيته، قيل اسم الله الأعظم وهو «يا حي يا قيوم»، وقيل: يا ذا الجلال والإكرام، وقيل: بالعبرانية «أهيا شراهما»، وقال الحسن: الله ثم الرحمن. والظاهر: أن ارتداد الطرف حقيقة، وأنه أقصر في المدة من مدة العفريت، ولذلك روي أن سليمان قال أريد أسرع من ذلك حين أجابه العفريت، ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال البصر كما قال الشاعر:

وَكُنْتَ مَتَى أُرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا      لِقَلْبِكَ يَوْمًا اتَّعَبْتُكَ الْمَنَاطِرُ<sup>(١)</sup>

وصف برد الطرف، ووصف الطرف بالارتداد، فالمعنى «أنك ترسل طرفك فقبل أن ترده أتيتك به وصار بين يديك»، فروي أن آصف قال لسليمان عليه السلام «مد عينيك حتى ينتهي طرفك» فمد طرفه فنظر نحو اليمن، فدعا آصف فغاب العرش في مكانه بمأرب، ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدره الله قبل أن يرد طرفه، وقال ابن جبير وقتادة: قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه في أبعد ما ترى، وقال مجاهد: قبل أن تحتاج إلى التغميض أي مدة ما يمكنك أن تمد بصرك دون تغميض وذلك ارتداده، قال ابن عطية: وهذان القولان يقابلان قول من قال إن القيام هو من مجلس الحكم، ومن قال إن القيام هو من الجلوس فيقول في ارتداد الطرف هو أن تطرف، أي قبل أن تغمض عينيك وتفتحها وذلك أن الثاني يعطي الأقصر في المدة ولا بد. انتهى، وقيل (طرفك) مطروفك، أي قبل أن يرجع إليك من تنظر إليه من منتهى بصرك، وهذا هو قول ابن جبير وقتادة المتقدم، لأن من يقع طرفك عليه هو مطروفك، وقال الماوردي: قبل أن ينقبض إليك طرفك بالموت، فخره أنه سيأتيه قبل موته، وهذا تأويل بعيد، بل المعنى أتيتك به سريعاً، وقيل: ارتداد الطرف مجاز هنا، وهو من باب مجاز التمثيل، والمراد استقصار مدة الإتيان به، كما تقول لصاحبك «أفعل كذا في لحظة» و«في ردة طرف» و«في طرفة عين»، تريد به السرعة، أي أتيتك به في مدة أسرع من مدة العفريت (فلما رآه مستقراً عنده) في الكلام حذف تقديره «فدعا الله فأتاه به فلما رآه» أي عرش بلقيس، قيل: نزل على سليمان من الهواء، وقيل: نبع من الأرض، وقيل: من تحت عرش سليمان، وانتصب (مستقراً) على الحال (وعنده) معمول له، والطرف إذا وقع في موضع الحال كان العامل فيه واجب الحذف، فقال ابن عطية: وظهر العامل في الظرف من قوله (مستقراً) وهذا هو المقدر أبداً في كل ظرف وقع في موضع الحال. وقال أبو البقاء: (مستقراً) أي ثابتاً غير متقلقل، وليس بمعنى الحضور المطلق إذا لو كان كذلك لم يذكر. انتهى. فأخذ في (مستقر) أمراً زائداً على الاستقرار المطلق، وهو كونه غير متقلقل، حتى يكون مدلوله غير مدلول العندية، وهو توجيه حسن لذكر العامل في الظرف الواقع حالاً، وقد قدر ذكر العامل في ما وقع خبراً من الجار والمجرور التام في قول الشاعر:

لَسْكَ الْعِزُّ إِنْ مَوْلَاكَ عَزَّ وَإِنْ يَهُنُّ      فَأَنْتَ لَدَى بَحْبُوحَةِ الْهُونِ كَائِنٌ<sup>(٢)</sup>

(قال هذا من فضل ربي) أي هذا الإتيان بعرشها وتحصيل ما أردت من ذلك هو من فضل ربي علي وإحسانه، ثم علل

(١) البيت من الطويل. انظر عيون الأخبار (٤/٢٢) الإنصاف (٨٠٤).

(٢) البيت من الطويل. انظر المغني (٢/٨١) الهمع (١/٩٨) (٢/١٠٨).

ذلك بقوله (ليلبوني أشكر أم أكفر) قال ابن عباس: المعنى أشكر على السرير وسوقه، أم أكفر إذ رأيت من هودوني في الدنيا أعلم مني. انتهى. وتلقى سليمان النعمة، وفضل الله بالشكر إذ ذاك نعمة متجددة، والشكر قيد للنعم (وأشكر أم أكفر) في موضع نصب (ليلبوني) وهو معلق، لأنه في معنى التمييز، والتمييز في معنى العلم، وكثير التعليق في هذا الفعل إجراء له مجرى العلم وإن لم يكن مراداً له، لأن مدلوله الحقيقي هو الاختبار، (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أي ذلك الشكر عائد ثوابه إليه إذ كان قد صان نفسه عن كفران النعمة وفعل ما هو واجب عليه من شكر نعمة الله عليه، (ومن كفر أي فضل الله ونعمته عليه (فإن ربي غني) عن شكره، لا يعود منفعتها إلى الله، لأنه هو الغني المطلق الكريم بالإععام على من كفر نعمته. والظاهر أن قوله (فإن ربي غني كريم) هو جواب الشرط، ولذلك أضمر فاء في قوله (غني) أي عن شكره، ويجوز أن يكون الجواب محذوفاً دل عليه ما قبله من قسمه، أي «ومن كفر فلنفسه» أي ذلك الكفر عائد عقابه إليه، ويجوز أن تكون «ما» موصولة، ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط (قال نكروا لها عرشها) روي أن الجن أحست من سليمان أو ظنت به أنه ربما تزوج بلقيس، فكهروا ذلك، ورموها عنده بأنها غير عاقلة ولا مميزة، وأن رجلها كحافر دابة فجرب عقلها وميزها بتكثير العرش، ورجلها بالصرح<sup>(١)</sup> لتكشف عن ساقها عنده.

وتكثير عرشها<sup>(٢)</sup>، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك بأن زيد فيه ونقص منه، وقيل: بنزع ما عليه من الفصوص والجواهر<sup>(٣)</sup>، وقيل: بجعل أسفله أعلاه، ومقدمه مؤخره، والتكثير جعله متكرراً متغيراً عن شكله وهيئته، كما يتكرر الرجل للناس حتى لا يعرفوه، وقرأ الجمهور (نظروا) بالجزم على جواب الأمر، وقرأ أبو حيوة بالرفع على الاستئناف، أمر بالتكثير، ثم استأنف الإخبار عن نفسه بأنه «ينظر» ومتعلق (أتهتدي) محذوف، والظاهر: أنه أتهتدي لمعرفة عرشها، ولا يجعل تكثيره قادحاً في معرفتها له فيظهر بذلك فرط عقلها، وأنها لم يخف عليه حال عرشها، وإن كانوا قد راموا الإخفاء، أو أتهتدي للجواب المصيب إذا سئلت عنه، أو أتهتدي للإيمان بنبوة سليمان عليه السلام إذا رأته هذا المعجز من نقل عرشها من المكان الذي تركته فيه وغلقت الأبواب عليه وجعلت له حراساً، (فلما جاءت) في الكلام حذف، أي: «فنكروا عرشها ونظروا ما جواها إذا سئلت عنه» (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك) أي مثل هذا العرش الذي أنت رأيتيه عرشك الذي تركته ببلادك؟ ولم يأت التركيب «أهكذا عرشك» جاء بأداة التشبيه لئلا يكون ذلك تلقيناً لها، ولما رأته على هيئة لا تعرفها فيه وتميزت فيه أشياء من عرشها لم تجزم بأنه هو، ولا نفتته النفي البالغ، بل أبرزت ذلك في صورة تشبيهية ف (قالت كأنه هو) وذلك من جودة ذهنها، حيث لم تجزم في الصورة المحتملة بأحد الجائزين من كونه إياه، أو من كونه ليس إياه وقابلت تشبيههم بتشبيها. والظاهر أن قوله (وأوتينا العلم) إلى قوله (من قوم كافرين) ليس من كلام بلقيس وإن كان متصلاً بكلامها، فقيل: من كلام سليمان، وقيل: من كلام قوم سليمان وأتباعه، فإن كان من قول سليمان فقيل: العلم هنا مخصوص أي: وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائفة، (من قبلها) أي من قبل مجيئها (وكنا مسلمين) موحدين خاضعين، وقال ابن عطية: وفي الكلام حذف تقديره: «كأنه هو وقال سليمان عند ذلك وأوتينا العلم من قبلها» الآية، قال ذلك على جهة تعديد نعم الله تعالى، وإنما قال ذلك بما علمت هي وفهمت، ذكر هو نعمة الله عليه وعلى آبائه. انتهى ملخصاً، وقال الزمخشري وأوتينا العلم من كلام سليمان وملته (فإن قلت) علام عطف هذا الكلام وبم اتصل؟ (قلت) لما كان المقام الذي سئلت فيه عن

(١) الصرح: بيت واحد يبني منفرداً ضخماً طويلاً في السماء.

وقيل: هو القصر، وقيل: هو كل بناء عال مرتفع، وفي التنزيل: «إنه صرح محرد من قوارير».

لسان العرب (٤/٢٤٢٥)

(٢) انظر القرطبي ١٣/١٣٥ وابن كثير ٦/٣٦٤، ٦/٣٦٥ وزاد السير ٦/١٧٦.

(٣) انظر القرطبي ١٣/١٣٥ وابن كثير ٦/٣٦٤، ٦/٣٦٥ وزاد السير ٦/١٧٦.

عرشها وأجابت بما أجابت به مقاماً أجرى فيه سليمان وملاه ما يناسب قولهم (وأوتينا العلم) نحو أن يقولوا عند قولها (كأنه هو) قد أصابت في جوابها فطبقت المفصل، وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله، وصحة النبوة بالآيات التي تقدمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها، عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة نبوة سليمان ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل نحن على دين الإسلام، شكروا الله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها، وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس، ونشؤها بين ظهري الكفرة. ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها (كأنه هو) والمعنى: «وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة، أو قبل هذه الحالة، يعني «ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر، ودخلنا في الإسلام» ثم قال الله تعالى: وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل، وقيل: وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار واتصال الفعل. انتهى. أما قوله: ويجوز أن يكون من كلام بلقيس، فهو قول قد تقدم إليه على سبيل التعيين لا الجواز، قيل: والمعنى وأوتينا العلم بصحة نبوته بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسول من قبل هذه المعجزة، يعني إحضار العرش (وكنا مسلمين) مطيعين لأمرك منقادين لك. والظاهر أن الفاعل بـ (صدها) هو قوله (ما كانت تعبد) وكونه «الله» أو «سليمان» و(ما) مفعول (صدها) على إسقاط حرف الجر، قاله الطبري. وهو ضعيف لا يجوز إلا في ضرورة الشعر نحو قوله:

تَمْرُونَ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعْرِجُوا<sup>(١)</sup>

أي عن الديار، وليس من مواضع حذف حرف الجر، وإذا كان الفاعل هو (ما) كانت بالمصدود عنه، الظاهر: أنه الإسلام، وقال الرماني: التقدير التفتن للعرش، لأن المؤمن يقظ، والكافر خبيث، والظاهر: أن قوله (وصدها) معطوف على قوله (وأوتينا) إذا كان من كلام سليمان وإن كان يحتمل ابتداء إخبار من الله تعالى لمحمد نبيه ولأمته. وإن كان (وأوتينا) من كلام بلقيس فالظاهر أنه يتعين كونه من قول الله تعالى، وقول من قال إنه متصل بقوله (أنتهدي أم تكون من الذين لا يهتدون)، والواو في (وصدها) للحال وقد مضى، مرغوب عنه لطول الفصل بينهما، ولأن التقديم والتأخير لا يذهب إليه إلا عند الضرورة، وقرأ الجمهور (إنها) بكسر الهمزة، وسعيد بن جبيرة ابن أبي عبله بفتحها، فيما على تقدير حرف الجر أي «لأنها»، وإما على أن يكون بدلاً من الفاعل الذي هو (ما كانت تعبد)، قال محمد بن كعب القرظي وغيره: لما وصلت «بلقيس» أمر «سليمان» الجن فصنعت له صرحاً، وهو السطح في الصحن من غير سقف، وجعلته مبنياً كالصهريج<sup>(٢)</sup>، وملء ماء وبث فيه السمك والضفادع، وجعل لسليمان في وسطه كرسي، فلما وصلته «بلقيس» قيل لها: ادخلي إلى النبي عليه السلام فرأت اللجة وفزعت، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر فكشفت عن ساقها، فرأى سليمان ساقها سليميتين مما قالت الجن، فلما بلغت هذا الحد قال لها سليمان (إنه صرح مرد)<sup>(٣)</sup> من قوارير) وعند ذلك استسلمت «بلقيس» وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم، وفي هذه الحكاية زيادة، وهو أنه وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس، قال الزمخشري: وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظماً لأمره وتحققاً لنبوته وثباتاً على الدين انتهى، و«الصرح» كل بناء عالٍ ومنه «ابن لي صرحاً لعلني أبلغ الأسباب» [غافر: ٣٦] وهو من التصريح وهو الإعلان البالغ، وقال مجاهد: «الصرح» هنا البركة، وقال ابن عيسى: الصحن وصرحة الدار ساحتها، وقيل: الصرح هنا القصر من

(١) البيت لجرير الوافر انظر ديوانه (٦١٣) شرح المفصل (٨/٨) والمجم (٨٣/٢) المقرب (١/١١٥).

(٢) الصهريج: واحد الصهاريج، وهي كالخياض يجتمع فيها الماء.

لسان العرب (٤/٢٥١٥)

(٣) مرد: بناء مرد: مطول، والمارد المرتفع.

ترتيب القاموس (٤/٢٢٤)



لَكُمْ أَنْ تَنْتَشِرُوا شَجْرَهَا ۗ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿١١﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا  
أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾  
أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا  
نَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ  
أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ  
أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَا تَأْتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا  
اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۗ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۗ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٧﴾  
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا آءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاءُنَا آيْنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿١٨﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ  
هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ  
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ عَسَى أَنْ  
يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ  
﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ  
﴿٢٦﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ  
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٢٩﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ  
الْمُبِينِ ﴿٣٠﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٣١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ  
إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ  
تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ نَخَشُّهُمْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ  
يُوزَعُونَ ﴿٣٤﴾ حَقِّقْ إِذَا جَاءُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَقَعَ الْقَوْلُ  
عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ  
أَنْوَاهُ دَاخِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۗ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ  
بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمِئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٤٠﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ

وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

والحديقة» البستان كان عليه جدار أو لم يكن، الحاجز: الفاصل بين الشيئين، الفوج: الجماعة، الجمود: سكنون الشيء وعدم حركته، الإتيان: الإتيان بالشيء على أحسن حالاته من الكمال والإحكام في الخلق، وهو مشتق من قول العرب: «تقنوا أرضهم» إذا أرسلوا فيها الماء الخائر<sup>(١)</sup> بالتراب فتجدو، والتقن ما رمي به الماء في الغدير، وهو الذي يجيء به الماء من الخثورة، كَبَيْتُ الرجل: ألقيته لوجهه.

«ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وعين معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون». (ثمود) هي عاد الأولى، وصالح أخوهم في النسب. لما ذكر قصة موسى وداود وسليمان وهم من بني إسرائيل ذكر قصة من هو من العرب، يذكر بها قريشاً والعرب، وينبهم أن من تقدم من الأنبياء من العرب كان يدعو إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، ليعلموا أنهم في عبادة الأصنام على ضلالة، وأن شأن الأنبياء عزهم وعجبتهم هو الدعاء إلى عبادة الله، (وأن) في (أن اعبدوا) يجوز أن تكون مفسرة، لأن (أرسلنا) تتضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية أي «بأن اعبدوا» فحذف حرف الجر. فعلى الأول لا موضع لها من الإعراب، وعلى الثاني ففي موضعها خلاف، أهو في موضع نصب؟ أم في موضع جر؟

والظاهر أن الضمير في (فإذا هم) عائد على ثمود، وأن قومه انقسموا فريقين مؤمناً وكافراً، وقد جاء ذلك مفسراً في «سورة الأعراف» في قوله «قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم» [الأعراف ٧٥] وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: أريد بالفريقين صالح وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد انتهى. فجعل الفريق الواحد هو صالح، والفريق الآخر قومه. (وإذا) هنا هي الفجائية، وعطف بالفاء التي تقتضي التعقيب لا المهلة، فكان المعنى أنهم بادروا بالاختصاص، متعباً دعاء صالح إياهم إلى عبادة الله، وجاء (يختصمون) على المعنى لأن الفريقين جمع فإن كان الفريقان من آمن ومن كفر فالجمعية حاصلة في كل فريق، وبدل على أن الفريق المؤمن جمع قوله (إن بالذي آمنتم به كافرين) فقال: (آمنتم) وهو ضمير الجمع، وإن كان الفريق المؤمن هو صالح وحده فإنه قد انضم إلى قومه، والمجموع جمع وأوثر (يختصمون) على «يختصمان» وإن كان من حيث التثنية جائزاً فصيحاً لأنه مقطع فصل، واختصاصهم: دعوى كل فريق أن الحق معه، وقد ذكر الله

(١) الخثورة: نقيض الرقة. وهي مصدر الشيء الخائر.

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٧١.

تخاصمهم في سورة الأعراف، ثم تلتطف صالح بقومه ورفق بهم في الخطاب، فقال منادياً لهم على جهة التحنن عليهم (لم تستعجلون بالسيئة) أي بوقوع ما يسوءكم قبل الحالة الحسنة وهي رحمة الله، وكان قد قال لهم في حديث الناقة ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ [الأعراف ٧٣] فقالوا له ﴿إئتنا بعذاب الله﴾ [العنكبوت : ٩]، وقيل : لم تستعجلون بوقوع المعاصي منكم قبل الطاعة .

قال الزمخشري<sup>(١)</sup> : (فإن قلت) ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟

قلت : كانوا يقولون بجهلهم : إن العقوبة التي يعدنا صالح إن وقعت على زعمه تُبْنَا حينئذ واستغفرنا، مقدرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت، وإن لم تقع فتحن على ما نحن عليه، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم . انتهى . ثم حضهم على ما فيه درء السيئة عنهم وهو الإيمان واستغفار الله مما سبق من الكفر، وناط ذلك بترجي الرحمة، ولم يجزم بأنه يترتب على استغفارهم . وكان في التحضيض تنبيه على الخطأ منهم في استعجال العقوبة، وتجهيل لهم في اعتقادهم . ولما لطفهم في الخطاب أغلظوا له وقالوا (اطيرنا بك وبين معك) أي تشاء منا بك وبالذين آمنوا معك، ودل هذا العطف على أن الفريقين كانوا مؤمنين وكافرين، لقوله (وبين معك) وكانوا قد حطوا . وتقدم الكلام في معنى «التطير» في سورة الأعراف . جعلوا سبب قحطهم هو ذات صالح ومن آمن معه، فرد عليهم بقوله (طائركم عند الله) أي : حظكم في الحقيقة من خير أو شر هو عند الله ويقضائه إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : ويجوز أن يريد عملكم مكتوب عند الله ، فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ، ومنه «طائركم معكم» [يس : ١٩] «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» [الأسراء : ١٣] وقرئ (تطيرنا بك) على الأصل ومعنى تطيره : تشاء به ، وتطيره منه . نفر عنه . انتهى . ثم انتقل إلى الإخبار عنهم بحالهم ، فقال : (بل أنتم قوم تفتنون) أي تختبرون ، أو تعذبون ، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة ، أو تفتنون بشهواته أي تشفعون بها ، كما يقال فتن فلان بفلان ، وقال الشاعر :

دَاءٌ قَدِيمٌ فِي بَنِي آدَمَ فِتْنَةٌ إِنْسَانٍ بِإِنْسَانٍ

وهذه أقوال يحتملها لفظ (تفتنون) . وجاء (تفتنون) بناء الخطاب على مراعاة (أنتم) وهو الكثير في لسان العرب ، ويجوز (يفتنون) بياء الغيبة على مراعاة لفظ (قوم) وهو قليل ، تقول العرب أنت رجل تأمر بالمعروف بناء الخطاب ، وبياء الغيبة ، و(المدينة) مجتمع ثمود ، وقربتهم وهي الحجر ، وذكر المفسرون ، أسماء «التسعة» وفي بعضها اختلاف ، ورأسهم : «قدار بن سالف» وأسماؤهم لا تنضب بشكل . ولا تتعين ، فلذلك ضربنا صفحاً عن ذكرها ، وكانوا عطاء القرية وأغنياءها وفساقها ، و«الرهم» من الثلاثة إلى العشرة ، و«النفر» من الثلاثة إلى التسعة ، واتفق المفسرون على أن المعنى «تسعة رجال» ، وقال الزمخشري : إنما جاز تمييز «التسعة» «بالرهم» ، لأنه في معنى الجماعة ، فكانه قيل : «تسعة أنفس» انتهى . وتقدير غيره «تسعة رجال» هو الأولى ، لأنه من حيث أضاف إلى أنفس كان ينبغي أن يقول تسع أنفس ، على تانيث النفس إذ الفصحح فيها التانيث ، ألا تراهم عدوا من الشذوذ قول الشاعر :

(١) انظر الكشاف ٣/٣٧١ .

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٧١ .

### ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ وَثَلَاثُ ذَوْدٍ<sup>(١)</sup>

فأدخل التاء في ثلاثة، وكان الفصيح أن يقول «ثلاث أنفس»، وقال أبو عبد الله الرازي: الأقرب أن يكون المراد «تسعة جمع» إذ الظاهر من الرهط الجماعة، لا الواحد، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم، لا لاختلاف أجناسهم. انتهى، قيل: و«الرهط» اسم الجماعة، وكانهم كانوا رؤساء مع كل منهم رهط، وقال الكرماني: وأصله من الترهيط، وهو تعظيم اللقم وشدة الأكل انتهى. و(رهط) اسم جمع، وانفقوا على أن فصله بمن هو الفصيح، كقوله تعالى ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ [البقرة: ٢٦٠] واختلفوا في جواز إضافة العدد إليه.

فذهب الأخفش إلى أنه لا ينقاس، وما ورد من الإضافة إليه فهو على سبيل الندور. وقد صرح سيبويه أنه لا يقال ثلاث غنم وذئب قوم إلى أنه يجوز ذلك وينقاس، وهو مع ذلك قليل، وفصل قوم بين أن يكون اسم الجمع للقليل كرهط، ونفر، وذود فيجوز أن يضاف إليه، أو للتكثير، أو يستعمل لهما، فلا تجوز إضافته إليه وهو قول المازني. وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة في شرح التسهيل، و(يفسدون) صفة لـ (تسعة رهط) والمعنى: «أنهم يفسدون الفساد العظيم الذي لا يخالطه شيء من الإصلاح» فلذلك قال (ولا يصلحون) لأن بعض من يقع منه إفساد قد يقع منه إصلاح في بعض الأحيان، وقرأ الجمهور (تقاسموا) وابن أبي ليلي (تَقَسَّمُوا) بغير ألف وتشديد السين، وكلاهما من القسم والتقسام والتقسيم، كالتظاهر والتظهير. والظاهر: أن قوله (تقاسموا) فعل أمر محكي بالقول، وهو قول الجمهور. أشار بعضهم على بعض بالحلف على تبسيط صالح، وأجاز الزمخشري وابن عطية أن يكون (تقاسموا) فعلاً ماضياً في موضع الحال، أي قالوا متقاسمين انتهى، قال الزمخشري (تقاسموا) يحتمل أن يكون أمراً وخبراً على محل الحال بإضمار «قد»، أي قالوا متقاسمين انتهى. أما قوله وخبراً فلا يصح، لأن الخبر هو أحد قسمي الكلام إذ هو منقسم إلى الخبر والإنشاء، وجميع معانيه إذا حقيقت راجعة إلى هذين القسمين وقال بعد ذلك: وقرئ (لنبيته) بالياء والتاء والنون (فتقاسموا) مع النون والتاء، يصح فيه الوجهان، يعني فيه أي في تقاسموا بالله، والوجهان هما الأمر والخبر عنده، قال: ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً انتهى. والتقييد بالحال ليس إلا من باب نسبة التقييد، لا من نسبة الكلام التي هي الإسناد، فإذا أطلق عليها الخبر كان ذلك على تقدير أنها لو لم تكن حالاً لجاز أن تستعمل خبراً، وكذلك قولهم في الجملة الواقعة قبله صلة إنها خبرية هو مجاز، والمعنى: أنها لو لم تكن صلة لجاز أن تستعمل خبراً، وهذا شيء فيه غموض، ولا يحتاج إلى الإضمار، فقد كثرت وقوع الماضي حالاً بغير «قد» كثرة ينبغي القياس عليها، وعلى هذا الإعراب احتمل أن يكون (بالله) متعلقاً بـ (تقاسموا) الذي هو حال، فهو من صلته، ليس داخلها تحت القول، والمقول (لنبيته) وما بعده احتمل أن يكون هو وما بعده هو المقول، وقرأ الجمهور (لنبيته وأهله ثم لنقولن) بالنون فيها، والحسن وحزمة والكسائي بناء خطاب الجمع، ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش بياء الغيبة، والضعلان مسندان للجمع، وحيد بن قيس بياء الغيبة في الأول مسنداً للجمع، أي «لنبيته أي قوم منّا»، وبالنون في الثاني أي: جميعنا يقول لوليه، والبيات مباغنة العدو، وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال: ليس من عادة الملوك استراق الظفر، ووليه طالب ثاره إذا قتل، وقرأ الجمهور (مُهَلِّكٌ) بضم الميم وفتح اللام من (أهلك)، وقرأ حفص (مَهْلِكٌ) بفتح الميم وكسر اللام، وأبو بكر بفتحها، فأما القراءة الأولى: فتحتمل المصدر والزمان والمكان، أي ما شهدنا إهلاك أهله، أو زمان إهلاكهم، أو مكان إهلاكهم، ويلزم من هذين أنهم إذا لم يشهدوا الزمان ولا المكان أن لا يشهدوا الإهلاك، وأما القراءة

(١) صدر بيت من الوافر للحطينة ويروى ثلاث أعبد وعجزه: (لقد جار الزمان على عيالي... ) انظر ملحقات ديوانه (٢٧١) الكتاب (٥٦٥/٣) الإصناف (٢٧١) التصريح (٢٧٠/٢) الممع (١٥٣/١).



الثانية : فالقياس يقتضي أن يكون للزمان والمكان، أي ما شهدنا زمان هلاكهم ولا مكانه، والثالثة : تقتضي القياس، أن يكون مصدراً أي ما شهدنا هلاكه، وقال الزمخشري : وقد ذكروا القراءات الثلاث، قال : ويحتمل المصدر والزمان والمكان انتهى : والظاهر : في الكلام حذف معطوف يدل عليه ما قبله، والتقدير «ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه» ودل عليه قوله (لنبيته وأهله) وماروي أنهم كانوا عزموا على قتله وقتل أهله، وحذف مثل هذا المعطوف جائز في الفصح، كقوله «سراييل تقيكم الحر» [النحل : ٨] أي والبرد، وقال الشاعر :

فَمَا كَانَ بَيْنَ الْخَيْرِ لَوْجَاءَ سَالِمًا . أَبُو حَجْرٍ إِلَّا لَيْالٍ قَلَائِلٌ<sup>(١)</sup>

أي بين الخير وبينه . ويكون قولهم (وإنا لصادقون) كذباً في الإخبار، أو هموا قومهم أنهم إذا قتلوه وأهله سرّاً ولم يشعر بهم أحد وقالوا تلك المقالة أنهم صادقون، وهم كاذبون، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ (قلت) كأنهم اعتقدوا إذا بيتوا صالحاً، وبيتوا أهله، فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا (ما شهدنا مهلك أهله) فذكروا أحدهما كانوا صادقين، فإنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما . وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه، ولا يخطر ببالهم، ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يروا لأنفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سووا الصدق في أنفسهم حيلة يتفصون<sup>(٢)</sup> بها عن الكذب انتهى .

والعجب من هذا الرجل كيف يتخيل هذه الحيلة في جعل إخبارهم (وإنا لصادقون) إخباراً بالصدق وهو يعلم أنهم كذبوا صالحاً، وعقروا الناقة التي كانت من أعظم الآيات، وأقدموا على قتل نبي وأهله، ولا يجوز عليهم الكذب، وهو يتلو في كتاب الله كذبهم على أنبيائهم، ونص الله ذلك، وكذبهم على من لا تخفى عليه خافية «يوم تبلى السرائر» [الطارق : ٩] وهو قولهم «والله ربنا ما كنا مشركين» [الأنعام : ٢٣] وقول الله تعالى «انظر كيف كذبوا على أنفسهم» [الأنعام : ٢٤] وإنما هذا منه تحريف لكلام الله تعالى حتى ينصر مذهبه في قوله : إن الكذب قبيح عند الكفرة، ويتحيل لهم هذا التحيل حتى يجعلهم صادقين في إخبارهم، وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرآن أوفر حظاً، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت شيئاً من محاسنه ثم نهت على ما فيه مما يجب تجنبه، رأيت إثبات ذلك هنا ليتنفع بذلك من يقف على كتابي هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح (فقلت) بعد ذكر ما مدحته به :

وَلَكِنَّهُ فِيهِ مَجَالٌ لِنَاقِدٍ      وَزَلَّاتٌ سُوءٍ قَدْ أَخَذْنَ الْمَخَائِقَا  
فِيئْتِ مَوْضُوعَ الْأَحَادِيثِ جَاهِلًا      وَيَعْرِزُو إِلَى الْمَعْصُومِ مَا لَيْسَ لِأَيْقَا  
وَيَسْتُمُّ أَعْلَامَ الْأَيْمَةِ ضَلَّةً      وَلَا سِيمَا إِنْ أَوْلَجُوهُ الْمَضَائِقَا  
وَيَسْهَبُ فِي الْمَعْنَى الْوَجِيزِ ذَلَالَةً      يَتَكَثَّرُ الْفَظُ تَسْمَى الشَّقَاشِقَا  
يُقَوِّلُ فِيهَا اللَّهُ مَا لَيْسَ قَائِلًا      وَكَانَ مُجِبًّا فِي الْخَطَابَةِ وَامِقَا  
وَيُخْطِئُ فِي تَرْكِيبِهِ لِكَلَامِهِ      فَلَيْسَ لِمَا قَدْ رَكَّبُوهُ مَوَافِقَا  
وَيَنْسِبُ أَبْدَاءَ الْمَعَانِي لِنَفْسِهِ      لِيُوهَمَ أَغْمَارًا وَإِنْ كَانَ سَارِقَا

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢١٣/١٩).

(٢) يتفصون : فصي الشيء عن الشيء فصياً : فصله . قال الجوهري : أصل الفصية الشيء تكون فيه ثم تخرج منه، وهي هنا بمعنى يتخلصون .

وَيُخْطِئُ فِي تَرْكِيهِ لِكَلَامِهِ  
وَيُخْطِئُ فِي فَهْمِ الْقُرَانِ لِأَنَّهُ  
وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يُؤْتَى الْبَيَانَ سَلِيْقَةً  
وَيَحْتَالُ لِلْأَلْفَاظِ حَتَّى يُدِيرَهَا  
فَيَا حُسْرَةَ شَيْخاً تَحْرَقُ صِيْتُهُ  
لَيْنَ لَمْ تَدَارِكْهُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً  
فَلَيْسَ لِمَا قَدْ رَكِبُوهُ مُوَافِقًا  
يُجَوِّزُ إِعْرَابًا أَسَى أَنْ يُطَابِقَا  
وَأَخْرَعَانَاهُ فَمَا هُوَ لِأَحِقًا  
لِمَذْهَبِ سُوءٍ فِيهِ أَصْبَحَ مَارِقًا  
مَغَارِبَ تَخْرِيقِ الصَّبَا وَمَشَارِقًا  
لَسَوْفَ يَرَى لِلْكَافِرِينَ مُرَافِقًا<sup>(١)</sup>

«ومكرهم» ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله، و«مكر الله» إهلاكهم من حيث لا يشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستمارة، ومكرهم إنبأؤهم أنهم مسافرون، واختفاؤهم في غار، قيل: أو شعب، أو عزمهم على قتله، وقتل أهله، وحلفهم أنهم ما حضروا ذلك. و«مكر الله بهم» إطباق صخرة على فم الغار والشعب، وإهلاكهم فيه<sup>(٢)</sup>، أو رمي الملائكة إياهم بالحجارة يرونها ولا يرون الرامي حين شهروا أسياهم بالليل ليقتلوه، قولان، وقيل: إن الله أخبر صالحاً بمكرهم فيخرج عنه، فذلك مكر الله في حقهم<sup>(٣)</sup>. وروي أن صالحاً بعد عقر الناقة أخبرهم بمجيء العذاب بعد ثلاثة أيام، فاتفق هؤلاء التسعة على قتل صالح وأهله ليلاً، وقالوا إن كان كاذباً في وعيده كنا قد أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا قد عجلنا قبلنا وشفينا نفوسنا. واختفوا في غار وأهلكهم الله كما تقدم ذكره، وأهلك قومهم ولم يشعر كل فريق بهلاك الآخر، والظاهر أن (كيف) خبر (كان) و(عاقبة) الاسم، والجمله في موضع نصب بـ (انظر) وهي معلقة، وقرأ الجمهور (إنا) بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق والكوفيون بفتحها فـ (أنا) بدل من (عاقبة)، أو خبر لكان، ويكون في موضع الحال، أو خبر مبتدأ محذوف، أي هي، أي «العاقبة تدميرهم»، أو يكون التقدير «لأننا» وحذف حرف الجر، وعلى كلتا القراءتين يجوز أن يكون (كان) تامه، و(عاقبة) فاعل بها، وأن تكون زائدة و(عاقبة) مبتدأ خبره (كيف)، وقرأ أبي (أن دمرناهم) وهي (أن) التي من شأنها أن تنصب المضارع، ويجوز فيها الأوجه الجائزة في (أنا) بفتح الهمزة، وحكى أبو البقاء أن بعضهم أجاز في (أنا دمرناهم) في قراءة من فتح الهمزة أن تكون بدلاً من (كيف) قال: وقال آخرون: لا يجوز، لأن البدل من الاستفهام يلزم فيه إعادة حرفه، كقوله «كيف زيدٌ أصحیحٌ أم مريضٌ» لما أمر تعالى بالنظر فيما جرى لهم من الهلاك في أنفسهم بين ذلك بالإشارة إلى منازلهم، وكيف خلت منهم. وخراب البيوت وخلوها من أهلها حتى لا يبقى منهم أحدهما يعاقب به الظلمة، إذ يدل ذلك على استئصالهم. وفي التوراة «ابن آدم لا تنظلم بخرب بيتك» وهو إشارة إلى هلاك الظالم، إذ خراب بيته متعقب هلاكه، وهذه البيوت هي التي قال فيها رسول الله ﷺ لأصحابه عام تبوك «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين» الحديث، وقرأ الجمهور (خاوية) بالنصب على الحال، قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: عمل فيها ما دل عليه «تلك»، وقرأ عيسى بن عمر (خاوية) بالرفع، قال الزمخشري<sup>(٥)</sup>: على خبر المبتدأ المحذوف، وقاله ابن عطية، أي: «هي خاوية» قال: أو على الخبر عن تلك، و(بيوتهم) بدل، أو على خبر ثان، و(خاوية) خبرية، بسبب ظلمهم وهو الكفر، وهو من خلوا البطن، وقال ابن عباس: (خاوية) أي ساقط أعلاها على أسفلها، (إن في ذلك) أي في

(١) انظر الآيات في الدر اللقيط.

(٢) انظر القرطبي ١٤٤/٣ وابن كثير ٣٦٧/٣ - ٣٦٨ - وزاد المسير ١٨٢/٦.

(٣) انظر القرطبي ١٤٤/٣ وابن كثير ٣٦٧/٣ - ٣٦٨ - وزاد المسير ١٨٢/٦.

(٤) انظر الكشاف ٣٧٢/٣.

(٥) انظر الكشاف ٣٧٢/٣.

فعلنا بشمود، وهو استئصالنا لهم بالتدمير، وخلاء مساكنهم منهم. وبيوتهم هي بوادي القرى بين المدينة والشام (وأنجينا الذين آمنوا) أي بصالح، من العذاب الذي حل بالكفار، وكان الذين آمنوا به أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، وسميت حضرموت لأن صالحاً عليه السلام لما دخلها مات بها، وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها «حاضوراً»، وأما الهالكون فخرج بأبدانهم خراج مثل الحمص أحمر في اليوم الأول، ثم أصفر في الثاني، ثم أسود في الثالث، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء، وهلكوا يوم الأحد، قال مقاتل: تفتتت تلك الخراجات، وصاح جبريل عليه السلام بهم صيحة فحمدوا.

﴿ولو طأ إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ .

(ولو طأ) عطف على (صالحاً) أي: وأرسلنا لوطاً، أو على (الذين آمنوا) أي: وأنجينا لوطاً، أو «بإذكر» مضمرة، وإذ بدل منه، أقوال، و(أتأتون) استفهام إنكار وتوبيخ، وأهم أولاً في قوله (الفاحشة) ثم عينها في قوله (أنتم لتأتون الرجال). وقوله (وأنتم تبصرون) أي تعلمون قبح هذا الفعل المنكر الذي أحدثتموه، وأنه من أعظم الخطايا. والعلم يقبح الشيء مع إتيانه أعظم في الذنب. أو آثار العصاة قبلكم، أو ينظر بعضكم إلى بعض لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك مجانة، وعدم احتراث بالمعصية الشنعاء. أقوال ثلاثة. وانتصب (شهوة) على أنه مفعول من أجله. و(تجهلون) غلب فيه الخطاب كما غلب في ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ [النمل ٤٧] ومعنى (تجهلون) أي عاقبة ما أنتم عليه، أو تفعلون فعل السفهاء المجان، أو فعل من جهل أنها معصية عظيمة مع العلم. أقوال. ولما أنكر عليهم، ونسب إلى الجهل، ولم تكن لهم حجة فيما يأتونه من الفاحشة عدلوا إلى المغالبة والإيذاء. وتقدم معنى (يتطهرون) في الأعراف، وقرأ الجمهور (جواب) بالنصب والحسن وابن أبي إسحاق بالرفع، والجمهور (قدرناها) بتشديد الدال، وأبو بكر بتحفيظها. وباقي الآية تقدم تفسير نظيره في الأعراف. و«ساء» بمعنى بسس، والمخصوص بالذم محذوف أي مطرهم. ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون آمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إليه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إليه مع الله قليلاً ما تذكرون آمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إليه مع الله تعالى الله عما يشركون آمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إليه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل إدارك علمهم في الآخر بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾ .

لما فرغ من قصص هذه السورة أمر رسوله ﷺ بحمده تعالى، والسلام على المصطفين، وأخذ في مباينة واجب الوجود الله تعالى، ومباينة الأصنام والأديان التي أشركوها مع الله وعبدها، وابتدأ في هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمدلة، وكأنها صدر خطبة لما يليق من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة، وقد اقتدى بذلك المسلمون في تصانيف كتبهم وخطبهم ووعظهم، فافتتحوا بتحميد الله، والصلاة على محمد رسول الله ﷺ، وتبعهم المترسلون في أوائل كتب الفتح والتهاني والحوادث التي لها شأن، وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر الرسول عليه السلام بتحميد الله على هلاك الهالكين من

كفار الأمم، والسلام على الأنبياء، وأتباعهم الناجين<sup>(١)</sup>، وقيل: (قل) خطاب للوط عليه السلام أن يحمده الله على هلاك كفار قومه، ويسلم (على عباده الذين اصطفى)<sup>(٢)</sup> وعزا هذا القول ابن عطية للفراء، وقال: هذه عجمة من الفراء، وقرأ أبو السمال (قل الحمد لله) وكذا ﴿قل الحمد لله سيركم﴾ [النمل: ٩٣] بفتح اللام، و«عباده المصطفون» يعم الأنبياء وأتباعهم، وقال ابن عباس: العباد المسلم عليهم هم: أصحاب رسول الله ﷺ، اصطفاهم لنبية وفي اختصاصهم بذلك توبيخ للمعاصرين من الكفار، وقال أبو عبد الله الرازي: لما ذكر تعالى أحوال الأنبياء، وأن من كذبهم استؤصل بالعذاب، وأن ذلك مرتفع عن أمة الرسول أمره تعالى بحمده على ما خصه من هذه النعمة وتسليمه على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة. انتهى. وفيه تلخيص، وقوله (الله خير أما يشركون) استفهام فيه تبيكيت وتوبيخ وتهكم بحالهم، وتنبية على موضع التباين بين الله تعالى وبين الأوثان، إذ معلوم عند من له عقل أنه لا شركة في الخيرية بين الله تعالى وبينهم، وكثيراً ما يجيء هذا النوع من أفعال التفضيل حيث يعلم ويتحقق أنه لا شركة فيها، وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبية على خطأ مرتكبه، والظاهر أن هذا الاستفهام هو عن خيرية الذوات، فقيل: جاء على اعتقاد المشركين حيث اعتقدوا في أهتهم خيراً بوجه ما، وقيل: في الكلام حذف في موضعين التقدير «أوحيد الله خير أم عبادة ما يشركون»، فيها في (أم ما) بمعنى الذي، وقيل: (ما) مصدرية، والحذف من الأول أي «أوحيد الله خير أم شرككم»، وقيل: (خير) ليست للتفضيل، فهي كما تقول «الصلاة خير» يعني خيراً من الخيور، وقيل: التقدير: ذو خير، والظاهر. أن «خيراً» أفعال التفضيل، وأن الاستفهام في نحو هذا يجيء لبيان فساد ما عليه الخصم، وتنبية على خطئه، وإلزامه الإقرار بحضر التفضيل في جانب واحد، وانتفائه عن الآخر، وقرأ الجمهور (تشركون) بناء الخطاب، والحسن وقادة وعاصم وأبو عمرو: بياء الغيبة. و(أم) في (أم ما) متصلة، لأن المعنى «أيهما خير» وفي (أم من خلق) وما بعده منفصلة، ولما ذكر الله خيراً عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله كما عدّها في غير موضع من كتابه توفيقاً لهم على ما أبدع من المخلوقات وأنهم لا يجدون بُدّاً من الإقرار بذلك لله تعالى، وقرأ الجمهور (أمن خلق) وفي الأربعة بعدها بشد الميم، وهي ميم (أم) أدغمت في ميم (من)، وقرأ «الأعمش»: بتخفيفها، جعلها همزة الاستفهام أدخلت على (من)، و(من) في القراءة تين مبتدأ وخبره: قال ابن عطية: تقديره «يكفر بنعمته ويشرك به»، ونحو هذا من المعنى. وقدره الزمخشري<sup>(٣)</sup> (خير أما يشركون) فقدّر ما أثبت في الاستفهام الأول، بدأ أولاً في الاستفهام باسم الذات، ثم انتقل فيه إلى الصفات، وقال «أبو الفضل الرازي» في كتاب «اللوامح» له: ولا بد من إضمار جملة معادلة، وصار ذلك المضمّر كالمنطوق به لدلالة الفحوى عليه، وتقدير تلك الجملة «أمن خلق السموات كمن لم يخلق»، وكذلك أخواتها، وقد أظهر في غير هذا الموضع ما أضمر فيها، لقوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) انتهى. وتسمية هذا المقدّر جملة، إن أراد بها جملة من الألفاظ فهو صحيح. وإن أراد الجملة المصطلح عليها في النحو فليس كذلك، بل هو مضمّر من قبيل المفرد.

وبدأ تعالى بذكر إنشاء مقر العالم العلوي، والسفلي وإنزال ما به قوام العالم السفلي، وقال (لكم) أي لأجلكم على سبيل الامتنان، وأن ذلك من أجلكم، ثم قال (فأنبتنا) وهذا التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة، دالاً على اختصاصه بذلك، وأنه لم يُنبت تلك الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح بماء واحد إلا هو تعالى، وقد رشح هذا الاختصاص بقوله (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها). ولما كان خلق السموات والأرض، وإنزال الماء من السماء لا شبهة للعاقل في أن ذلك لا يكون إلا لله، وكان الإنابت مما قد يتسبب فيه الإنسان بالذر والسقي والتهيمة ويسوغ لفاعل

(١) انظر زاد المسير ١٨٤/٦ والقرطبي ١٤٦/١٣ وابن كثير ٣/٣٦٩.

(٢) انظر زاد المسير ١٨٤/٦ والقرطبي ١٤٦/١٣ وابن كثير ٣/٣٦٩.

(٣) انظر الكشاف ٣/٣٧٥.

السبب نسبة فعل المسبب إليه بين تعالى اختصاصه بذلك بطريق الالتفات وتأکید ذلك بقوله (ما كان لكم أن تنتبوا شجرها) ألا ترى أن المتسبب لذلك قد لا يأتي على وفق مراده! ولو أتى فهو جاهل بطبعه، ومقداره، وكيفيته، فكيف يكون فاعلاً لها؟ و«البهجة» الجمال والنضرة والحسن، لأن الناظر فيها يتهجج أي يسر ويفرح، وقرأ الجمهور: (ذات) بالإفراد (بِهَجَّة) بسكون الهاء، وجمع التفسير يجري في الوصف مجرى الواحدة كقوله (أزواج مطهرة) وهو على معنى جماعة، وقرأ ابن أبي عبيدة (ذوات) بالجمع (بِهَجَّة) بتحريك الهاء بالفتح، ﴿ما كان لكم أن تنتبوا شجرها﴾ [البقرة: ٢٥] قد تقدم أن نفي مثل هذه الكينونة قد يكون ذلك لاستحالة وقوعه كهذا، أو لامتناع وقوعه شرعاً، أو لنفي الأولوية والمعنى هنا أن إنبات ذلك منكم محال، لأنه إبراز شيء من العدم إلى الوجود، وهذا ليس بمقدور إلا لله تعالى. ولما ذكر منته عليهم خاطبهم بذلك، ثم لما ذكر ذمهم عدل من الخطاب إلى الغيبة فقال (بل هم قوم يعدلون) إما التفاتاً، وإما إخباراً للرسول ﷺ بحالهم، أي: يعدلون عن الحق، أو: يعدلون به غيره، أي: يجعلون له عديلاً ومثيلاً، وقرئ (إلهاً) بالنصب بمعنى: «أتدعون أو أتشركون»، وقرئ (إله) بتخفيف الهمزتين وتلين الثانية والفصل بينها بألف. ولما ذكر تعالى أنه منشيء السموات والأرض، وذكر شيئاً مشتركاً بين السماء والأرض وهو إنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق بالأرض ذكر شيئاً مختصاً بالأرض وهو جعلها (قراراً) أي مستقراً لكم بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها، ولا يديرها الفلك، قيل: لأنها مضمحلة<sup>(١)</sup> في جنب الفلك كالنقطة في الرمح (وجعل خلخالها) أي بين أمانتها، في شعابها، وأوديتها (أنهاراً وجعل لها رواسي) أي جبلاً ثوابت حتى تتكفأ بكم وتميد و«البحران» العذب والملح، و«الحاجز» الفاصل من قدرته تعالى، قاله الضحاك، وقال مجاهد: بحر السماء والأرض، و«الحاجز» من الهواء، وقال الحسن: بحر فارس والروم، وقال السدي: بحر العراق والشام، والحاجز من الأرض، قال ابن عطية، مختاراً لهذا القول في الحاجز: هو ما جعل الله بينها من حواجز الأرض وموانعها، على رقتها في بعض المواضع، ولطافتها التي لولا قدرته لبلغ الملح العذب. وكان ابن عطية قد قدم أن البحرَين: العذب بجملته، والماء الأجاج بجملته. ولما كانت كل واحدة منه عظيمة مستقلة تكرر فيها العامل في قوله (وجعل) فكانت من عطف الجمل المستقل كل واحدة منها بالامتنان، ولم يشرك في عامل واحد فيكون من عطف المفردات. و«لأبي عبد الله الرازي» في ذكر هذه الامتنانات الأربع كلام من علم الطبيعة، والحكماء على زعمه، خارج عن مذاهب العرب يوقف عليه في كتابه، و«المضطر» اسم مفعول، وهو الذي أحوجه مرض، أو فقر، أو حادث من حوادث الدهر إلى الالتجاء إلى الله والتضرع إليه، فيدعوه لكشف ما اعتراه من ذلك وإزالته عنه، وقال ابن عباس: هو المجهود<sup>(٢)</sup>، وقال السدي: هو الذي لا حول ولا قوة له<sup>(٣)</sup>، وقيل: هو المذنب إذا استغفر<sup>(٤)</sup>، وإجابته إياه مقرونة بمشيئته تعالى، فليس كل مضطر دعا يجيبه الله في كشف ما به، وقال الزمخشري: الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة، ولهذا لا يحسن الدعاء إلا شارطاً فيه المصلحة. انتهى. وهو على طريق الاعتزال في مراعاة المصلحة من الله تعالى، (ويكشف السوء) هو كل ما يسوء، وهو عام في كل ضرر. انتقل من حالة المضطر وهو خاص إلى أعم وهو ما يسوء، سواء كان المكشوف عنه في حالة الاضطراب أو فيما دونها، و«خلفاء» أي الأمم السالفة، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو خلفاء النبي ﷺ من بعده، أو خلفاء الكفار في أرضهم، أو الملك والتسلط. أقوال، وقرأ «الحسن» في رواية (ونجعلكم) بنون المتكلم، كأنه استئناف إخبار ووعد، كما قال

(١) مضمحلة: اضمحل الشيء أي: ذهب. لسان العرب (٤/٢٥٥٩).

(٢) انظر القرطبي ١٣/١٤٨ وابن كثير ٣/٣٧٠.

(٣) انظر القرطبي ١٣/١٤٨ وابن كثير ٣/٣٧٠.

(٤) انظر القرطبي ١٣/١٤٨ وابن كثير ٣/٣٧٠.

تعالى ﴿لَيْسَتْخَلْفَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور ٥٥] وقوله (ويجعلكم خلفاء الأرض) انتقال من حالة المضطر إلى رتبة مغايرة لحالة الاضطرار، وهي حالة الخلافة، فهما طرفان. وكم رأينا في الدنيا ممن بلغ حالة الاضطرار ثم صار ملكاً متسلطاً، وقرأ الجمهور (تذكرون) بناء الخطاب، والحسن والأعمش وأبو عمرو: بياء الغيبة، والذال في القراءتين مشددة لإدغام التاء فيها، وقرأ أبو حيوة (تذكرون) بتاءين، و(ظلمة البر) هي ظلمة الليل، وهي الحقيقة، وتنتقل مجازاً إلى الجهل وعلى انبهام الأمر، فيقال: «أظلم على الأمر»، وقال الشاعر:

تَجَلَّتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ عَنِ الصَّبَا

أي جهالات الصبا، و«هداية البر» تكون بالعلامات، و«هداية البحر» بالنجوم، (ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) تقدم تفسير نظير هذه الجملة، وقرئ (عما تشركون) بناء الخطاب، (أمن يبدأ الخلق) الظاهر: أن الخلق هو المخلوق، وبدؤه: اختراعه وإنشاؤه، ويظهر أن المقصود هو: من يعيده الله في الآخرة من الإنس والجن والملك، لا عموم المخلوق، وقال ابن عطية: والمقصود بنو آدم من حيث ذكر الإعادة، والإعادة البعث من القبور، ويحتمل أن يريد بالخلق مصدر خلق ويكون «يبدأ» و«يعيد» استعارة للإتقان والإحسان، كما تقول «فلان يبدأ ويعيد في أمر كذا» إذا كان يتقنه، وقال الزمخشري: (فإن قلت) كيف قال لهم (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) وهم منكرون الإعادة (قلت) قد أنعم عليهم بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار انتهى. ولما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال: (ومن يرزقكم من السماء بالمطر والأرض بالنبات، قل هاتوا برهانكم) أي: أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تدعون من إنكار شيء مما تقدم تقريره (إن كنتم صادقين) في أن مع الله لها آخر فأين دليلكم عليه؟ وهذا راجع إلى ما تقدم من جميع الاستفهام الذي جيء به على سبيل التقرير، وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه:

لما ذكر إيجاد العالم العلوي والسفلي، وما امتن به من إنزال المطر وإنبات الحدائق اقتضى ذلك أن لا يُعبد إلا مُوجد العالم والممتن بما به قوام الحياة، فحتم بقوله (بل هم قوم يعدلون) أي عن عبادته أو يعدلون به غيره مما هو مخلوق مخترع.

ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار وإرساء الجبال وكان ذلك تنبيهاً على تعقل ذلك والفكر فيه ختم بقوله (بل أكثرهم لا يعلمون) إذ كان فيهم من يعلم ويفكر في ذلك.

ولما ذكر إجابة دعاء المضطر، وكشف سوء، واستخلافهم في الأرض، ناسب أن يستحضر الإنسان دائماً هذه المنة فحتم بقوله (قليلاً ما تذكرون) إشارة إلى توالي النسيان إذا صار في خير، وزال اضطرابه، وكشف سوء عنه. كما قال ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

لما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح نشراً، ومعبوداتهم لا تهدي ولا ترسل، وهم يشركون به الله، قال: (تعالى عما يشركون).

واعتقب كل واحدة من هذه الجمل قوله (أإله مع الله) على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إله إلا هو تعالى، قيل: سأل الكفار عن وقت القيامة التي وعدهم الرسول ﷺ وألحوا عليه فنزل (قل لا يعلم من في السموات والأرض) الآية. والمتبادر إلى الذهن أن (من) فاعل (يعلم) و(الغيب) مفعول و(إلا الله) استثناء منقطع لعدم اندراجها في مدلول لفظ (من) وجاء مرفوعاً على لغة تميم. ودلت الآية على أنه تعالى هو المفرد بعلم الغيب. وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم الفرية على الله، والله تعالى يقول (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله)، ولا يقال إنه مندرج في مدلول (من) فيكون (في السموات والأرض) ظرفاً حقيقياً للمخلوقين فيها، ومجازياً بالنسبة إليه تعالى، أي هو فيها بعلمه، لأن في ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز وأكثر العلماء ينكر ذلك، وإنكاره هو الصحيح. ومن أجاز ذلك فيصح

عنده أن يكون استثناء متصلاً، وارتفع على البدل، أو الصفة والرفع أفصح من النصب على الاستثناء، لأنه استثناء من نفي متقدم. والظاهر: عموم الغيب، وقيل: المراد غيب الساعة، وقال الزمخشري: (فإن قلت) ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي يعني في كونه استثناء منقطعاً إذ ليس مندرجاً تحت (من)، ولم أختَر الرفع على لغة تميم، ولم نختَر النصب على لغة الحجاز؟، قال (قلت) دعت إلى ذلك نكتة سرية، حيث أخرج المستثنى مخرج قوله «إلا اليعافير» بعد قوله «ليس بها أنيس» ليؤول المعنى إلى قولك: «إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب» يعني أن علمهم الغيب في استحالة كاستحالة أن يكون الله منهم، كما أن معنى ما في البيت إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس بناء للقول بخلوها عن الأنيس. انتهى. وكان الزمخشري قد قدم قوله: (فإن قلت) لم رفع اسم الله، والله سبحانه أن يكون ممن في السموات والأرض (قلت) جاء على لغة بني تميم<sup>(١)</sup> حيث يقولون «ما في الدار أحد إلا حمار» كان أحد لم يذكر، ومنه قوله:

عَشِيَّةَ مَا تُغْنِي الرَّمَاحُ مَكَانَهَا      وَلَا النَّبْلُ إِلَّا الْمَشْرِفِي الْمُصَمَّمِ<sup>(٢)</sup>

وقوله «ما أتاني زيد إلا عمرو» و«ما أعانته إخوانكم إلا إخوانه» انتهى. وملخصه: أنه يقول لو نصب لكان مندرجاً تحت المستثنى منه، وإذا رفع كان بدلاً، والمبدل منه في نية الطرح، فصار العامل كأنه مفرغ له، لأن البدل على نية تكرار العامل، فكانه قيل: «قل لا يعلم الغيب إلا الله»، ولو أعرب (من) مفعولاً (والغيب) بدل منه (إلا الله) هو الفاعل، أي: لا يعلم غيب من في السموات والأرض إلا الله، أي الأشياء الغائبة التي تحدث في العالم وهم لا يعلمون بحدوثها، أي لا يسبق علمهم بذلك لكان وجهاً حسناً، وكان الله تعالى هو المخصوص بسابق علمه فيما يحدث في العالم، (وأيان) تقدم الكلام فيها في أواخر الأعراف، وهي هنا اسم استفهام بمعنى متى، وهي معمولة (ليبعثون) و(يشعرون) معلق، والجملة التي فيها استفهام في موضع نصب به. وقرأ «السُّلَمِي» (إيان) بكسر الهمزة، وهي لغة قبيلته بني سليم. ولما نفي علم الغيب عنهم على العموم نفي عنهم هذا الغيب المخصوص، وهو وقت الساعة والبعث، فصار منتفياً مرتين، إذ هو مندرج في عموم الغيب، ومنصوص عليه بخصوصه، وقرأ الجمهور (بل أدارك) أصله (تدارك) فأدغمت التاء في الدال فسكنت فاجتلبت همزة الوصل، وقرأ «أبي» (أم تدارك) على الأصل وجعل (أم) بدل، وقرأ سليمان بن يسار أخوه (بل أدرك) بنقل حركة الهمزة إلى اللام وشدّ الدال، بناء على أن وزنه «افتعل» فأدغم الدال وهي فاء الكلمة في التاء بعد قلبها دالاً، فصار قلب الثاني للأول لقولهم «اترد» وأصله «اترد» من الترد، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام، أدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألف الوصل، ثم انحذفت هي وألقت حركتها على لام (بل)، وقرأ أبو رجاء والأعرج وشيبة وطلحة وتوبة العنبري كذلك، إلا أنهم كسروا لام (بل)، وروي ذلك عن ابن عباس وعاصم والأعمش، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل مكة (بل أدرك) على وزن أفعل بمعنى تفاعل ورويت عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ عبد الله في رواية، وابن عباس في رواية، وابن أبي حمزة وغيره عنه والحسن وقتادة وابن محيص (بل أدرك) بمدة بعد همزة الاستفهام، وأصله «أدرك» فقلب الثانية ألفاً تخفيفاً، كراهة الجمع بين همزتين. وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه الرواية ووجهها، وقال أبو حاتم: لا يجوز الاستفهام بعد «بل»، لأن «بل» إيجاب، والاستفهام في هذا الموضع إنكار، بمعنى لم يكن، كقوله تعالى: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ [الزخرف: ١٩] أي لم يشهدوا، فلا يصح وقوعها معاً، للتناقض الذي بين الإيجاب والإنكار. انتهى، وقد أجاز بعض المتأخرين الاستفهام بعد «بل» وشبهه بقول القائل: «أخْبِرْ أأكلت بل أماء شربت» على ترك الكلام الأول والأخذ في الثاني، وقرأ مجاهد (أم أدرك) جعل أم بدل بل، و«أدرك» على وزن «أفعل»، وقرأ ابن عباس أيضاً (بل أدرك)

(١) انظر روح المعاني ٩/٢٠ شرح الكافية ١/٢٢٨. شرح المفصل ٢/٨٠.

(٢) البيت من الطويل للحصين بن حام. انظر الكتاب (٣٢٥/٢) الأشموني (١٤٧/٢).

بهزمة داخلية على «ادارك» فيسقط همزة الوصل المحتملة لأجل الإدغام والنطق بالسكن، وقرأ ابن مسعود أيضاً (بل أدرك) بهمزيين، همزة الاستفهام، وهمزة أفعال، وقرأ الحسن أيضاً والأعرج (بل ادرك) بهمزة وإدغام فاء الكلمة وهي الدال في تاء «افتعل» بعد صيرورة التاء دالاً، وقرأ ورش في رواية (بل أدرك) بحذف همزة «ادرك» ونقل حركتها إلى اللام، وقرأ ابن عباس أيضاً (بل ادرك) بحرف الإيحاب الذي يوجب به المستفهم المنفي، وقرئ (بل آدرك) بألف بين الهمزتين، فأما قراءة من قرأ بالاستفهام، فقال ابن عباس: هو للتقريع بمعنى: لم يدرك علمهم، على الإنكار عليهم، وقال الزمخشري: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك قراءة من قرأ (أم أدرك) و(أم تدارك) لأنها «أم» التي بمعنى «بل» والهمزة. انتهى. وقال ابن عطية: هو على معنى الهزة بالكفرة والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد عنهم أي: اعلموا أمر الآخرة وأدركها علمهم، وأما قراءة من قرأ على الخبر: فقال ابن عباس: المعنى «بل تدارك علمهم ما جهلوه في الدنيا» أي علموه في الآخرة، بمعنى تكامل علمهم في الآخرة بأن كل ما وعدوا به حق، وهذا حقيقة إثبات العلم لهم، لمشاهدتهم عياناً في الآخرة ما وعدوا به غيباً في الدنيا، وكونه بمعنى الماضي، ومعناه الاستقبال لأن الإخبار به صدق، فكانه قد وقع، وقال ابن عطية يمتثل معنيين: أحدهما: أنه تنهى علمهم، كما تقول ادرك النبات وغيره، أي تنهى وتتابع علمهم بالآخرة إلى أن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا، وإنما لهم ظنونٌ كاذبة أو إلى أن لا يعرفوا لها وقتاً، وتكون (في) بمعنى «الباء» متعلقة بـ (علمهم) وقد تعدى العلم بالباء كما تقول «علمي يزيد كذا»، ويسوغ حمل هذه القراءة على معنى التوقيف والاستفهام، وجاء إنكاراً لأنهم لم يدركوا شيئاً نافعاً. والثاني أن «أدرك» بمعنى يدرك، أي علمهم في الآخرة يدرك وقت القيامة، ويرون العذاب والحقائق التي كذبوا بها. وأما في الدنيا فلا. وهذا تأويل «ابن عباس»، ونحا إليه «الزجاج»، و(في) على بابها من الظرفية متعلقة بتدارك انتهى وفيه بعض تلخيص وزيادة، وقال الزمخشري: هو على وجهين: أحدهما: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته، وهم شاكون جاهلون، وذلك قوله (بل هم في شك منها بل هم منها عمون) يريد المشركين ممن في السموات والأرض، لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع، كما يقال بنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله ناس منهم. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكامه وتكامله تهكم بهم، كما تقول لأجهل الناس «ما أعلمك» على سبيل الهزة به، وذلك حيث شكوا وعموا عن إتيانه الذي هو طريق إلى علم مشكوك، فضلاً عن أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته.

وفي (أدرك علمهم) و(ادارك) وجه آخر: وهو أن يكون (ادرك) بمعنى انتهى وفي، من قولهم أدركت الثمرة، لأن تلك غايتها التي عندها تعدم، وقد فسر الحسن باضمحل علمهم، و«تدارك» من تدارك بنو فلان، إذا تتابعوا في الهلاك. انتهى، وقال «الكرمانى»: «العلم» هنا بمعنى الحكم والقول، أي تتابع منهم القول والحكم في الآخرة، وكثر منهم الخوض فيها، فنفاها بعضهم، وشك فيها بعضهم، واستبعدها بعضهم، وقال الفراء: «بل ادرك» فيصير بمعنى الجحد، ولذلك نظائر، أي لم يعلموا حدوثها وكونها، ودل على ذلك (بل هم في شك منها) فصارت (في) في الكلام بمعنى الباء، أي لم يدرك علمهم بالآخرة، قال الفراء: ويقوي هذا الوجه قراءة من قرأ (أدرك) بالاستفهام انتهى. وأما قراءة من قرأ (بلى) بحرف الجواب بدل (بل)، فقال أبو حاتم: إن كان (بلى) جواباً لكلام تقدم جاز أن يستفهم به، كأن قوماً أنكروا ما تقدم من القدرة، فقيل لهم: (بلى) إيجاباً لما نفوا، ثم استؤنف بعده الاستفهام وعودل بقوله تعالى (بل هم في شك منها) بمعنى: أم هم في شك منها، لأن حروف العطف قد تتناوب، وكف عن الجملتين بقوله تعالى (بل هم منها عمون) انتهى يعني: إن المعنى «أدرك علمهم بالآخرة أم شكوا» فـ (بل) بمعنى «أم» عودل بها الهمزة، وهذا ضعيف جداً، وهو أن تكون «بل» بمعنى «أم» وتعادل همزة الاستفهام، قال «الزمخشري»<sup>(١)</sup> (فإن قلت) فمن قرأ (بلى ادرك) (قلت) لما جاء بـ (بلى) بعد قوله (وما



يشعرون) كان معناه «بلى يشعرون»، ثم فسر الشعور بقوله (أدرك علمهم في الآخرة) على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم، فكأنه قال «شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها» فيرجع إلى المبالغة في نفي الشعور على أبلغ ما يكون. وأما من قرأ (بلى أدرك) على الاستفهام فمعناه: «يشعرون متى يبعثون» ثم أنكر علمهم بكونها، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها، لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن. (فإن قلت) هذه الإضرابات الثلاث ما معناه (قلت): ما هي إلا تنزيل لأحوالهم، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخطبون في شك ومرية فلا يزيلونه، والإزالة مستطاعة، وقد جعل الآخرة مبدأ عاهاهم ومنشأه، فلذلك عداه (من) دون «عن»، لأن العاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يبصرون. انتهى .

﴿وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا المخرجون لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين إن هذا القرآن يقصص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾.

لما تقدم أنه تعالى منفرد بعلم الغيب، ومن جملتها وقت الساعة، وأنهم لا شعور لهم بوقتها، وأن الكفار في شك منها عمون ناسب ذكر مقالاتهم في استعادها، وأن ما وعدوا به من ذلك ليس بصحيح إنما ذلك ما سطر الأولون من غير إخبار بذلك عن حقيقة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أنذا) (أنا) بالجمع بين الاستفهام وقلب الثانية ياء، وفصل بينها بألف أبو عمرو، وقرأها عاصم وحمة بهزتين، ونافع (إذا) بهمزة مكسورة (أينا) بهمزة الاستفهام وقلب الثانية ياء وبينها مدة، والباقون (أنذا) باستفهام ممدود (إننا) بنونين من غير استفهام، والعامل في إذا محذوف دل على مضمون الجملة الثانية تقديره «يخرج ويمتنع أعمال المخرجون فيه» لأن كلاً من «إن» ولام الابتداء والاستفهام يمنع أن يعمل ما بعده فيما قبله إلا اللام الواقعة في خبر إن، فإنه يتقدم معمول الخبر عليها وعلى الخبر على ما قرر في علم النحو. (وآبأؤنا) معطوف على اسم كان، وحسن ذلك الفصل بخبر كان، والإخراج هنا من القبور أحياء مردوداً أرواحهم إلى الأجساد، والجمع بين الاستفهام في «إذا» وفي «أنا» إنكار على إنكار، ومبالغة في كون ذلك لا يكون، والضمير في (إننا) لهم ولآبائهم، لأن صيرورتهم تراباً شامل للجميع، ثم ذكروا أنهم وعدوا ذلك هم وآبائهم فلم يقع شيء من هذا الموعود، ثم جزموا وحصرنا أن ذلك من أكاذيب من تقدم. وجاء هنا تقديم الموعود به وهو (هذا)، وتأخر في آية أخرى، على حسب ما سبق الكلام لأجله، فحيث تأكد الإخبار عنهم بإنكار البعث والآخرة عمدوا إليها بالتقديم على سبيل الاعتناء، وحيث لم يكن ذلك عمدوا إلى إنكار إيجاد المبعوث فقدموه وأخروا الموعود به، ثم أمر نبيه أن يأمرهم بالسير في الأرض. وتقدم الكلام في نظير هذه الآية في أوائل الأنعام. وأراد بالمجرمين الكافرين. ثم سلى نبيه فقال (ولا تحزن عليهم) أي في كونهم لم يسلموا ولم يدعوا إلى ما جئت به (ولا تكن في ضيق) أي في حرج وأمر شاق عليك (عما يمكرون) فإن مكرهم لاحق بهم لا بك، والله يعصمك منهم. وتقدمت قراءة (ضيق) بكسر الضاد وفتحها، وهما مصدران، وكره «أبو علي» أن يكون المفتوح الضاد، أصله ضيق بتشديد الياء، فخفف «كلين» في «لين»، لأن ذلك يقتضي حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، وليست من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد، وأجاز ذلك «الزمخشري» قال: ويجوز أن يراد «في أمر ضيق من مكرهم». ولما استعجلت قریش بآمر

الساعة، أو بالعذاب الموعود به هم، وسألوا عن وقت الموعود به على سبيل الاستهزاء قيل له: (قل عسى أن يكون) ردفكم بعضه، أي تبعكم عن قرب وصار كالرديف التابع (لكم بعض) ما استعجلتم به، وهو: كان عذاب يوم بدر، وقيل: عذاب القبر<sup>(١)</sup>، وقرأ الجمهور (ردف) بكسر الدال، وقرأ «ابن هرمز» بفتحها، وهما لغتان، وأصله التعدي بمعنى تبع ولحق، فاحتمل أن يكون مضمناً معنى اللازم، ولذلك فسره «ابن عباس» وغيره بأزف وقرب، لما كان يجيء بعد الشيء قريباً منه ضمن معناه، أو مزيداً اللام في مفعوله لتأكيد وصول الفعل إليه، كما زيدت الباء في (ولا تلقوا بأيديكم)، قاله الزمخشري. وقد عدي بـ (من) على سبيل التضمين لما يتعدى بها، قال الشاعر:

فَلَمَّا رَدَفْنَا مِنْ عُمَيْرٍ وَصَحْبِهِ تَوَلَّوْا سِرَاعاً وَالْمَنِيَّةُ تَعْنِقُ<sup>(٢)</sup>

أي: دنوا من عمير، وقيل: ردفه، وردف له، لغتان، وقيل: الفعل محمول على المصدر، أي الرادفة لكم (بعض) على تقدير ردافه بعض ما تستعجلون، وهذا فيه تكلف ينزه القرآن عنه، وقيل: اللام في (لكم) داخله على المفعول من أجله، والمفعول به محذوف تقديره «ردف الخلق لأجلكم»، وهذا ضعيف. وقيل: فاعل: (ردف) ضمير يعود على (الوعد) ثم قال (لكم بعض ما تستعجلون) على المبتدأ والخبر، وهذا فيه تفكيك للكلام، وخروج عن الظاهر لغير حاجة تدعو إلى ذلك، (لذو فضل) أي إفضال عليهم بترك معاجلتهم بالعقوبة على معاصيهم وكفرهم. ومتعلق (يشكرون) محذوف، أي: لا يشكرون نعمة عندهم، أو لا يشكرون بمعنى لا يعرفون حق النعمة، عبر عن انتفاء معرفتهم بالنعمة بانتفاء ما يترتب على معرفتها وهو الشكر. ثم أخبر تعالى بسعة علمه، فبدأ بما يخص الإنسان، ثم عم كل (غائبة) وعبر بالصدور وهي محل القلوب التي لها الفكر والتعقل كما قال ﴿ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦] عن الحال فيها وهي القلوب، وأسند الإعلان إلى ذواتهم لأن الإعلان من أفعال الجوارح، ولما كان المضمرة في الصدر هو الداعي لما يظهر على الجوارح والسبب في إظهاره، قدم الإكثار على الإعلان، وقرأ الجمهور (ما تكن) من أكن الشيء أخفاه، وقرأ ابن محيصن وحמיד وابن السميع: بفتح التاء وضم الكاف من كَن الشيء ستره، والمعنى ما يخفون (وما يعلنون) من عداوة الرسول ومكايدهم. والظاهر عموم قوله (من غائبة) أي ما من شيء في غاية الغيبوبة والخفاء (إلا في كتاب) عند الله ومكنون علمه، وقيل: ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض، وقيل: هو يوم القيامة وأهواها، قاله الحسن. و«الكتاب»: اللوح المحفوظ، وقيل: أعمال العباد أثبتت ليجازى عليها، وقال صاحب الغنيان: أي حادثة غائبة، أو نازلة واقعة، وقال ابن عباس: أي ما من شيء سرّ في السموات والأرض وعلائية، فاكنتي بذكر السر عن مقابله، وقال الزمخشري: سمي الشيء الذي يغيب ويخفي غائبة وخافية، فكانت التاء فيها بمنزلة العاقبة، والعاقبة، ونظيرهما النطيحة والذبيحة، والرمية في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة، كالرواية في قولهم «ويل للشاعر من رواية السوء»، كأنه قال: «وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبتته في اللوح المبين الظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة». انتهى. ولما ذكر تعالى المبدأ والمعاد ذكر ما يتعلق بالنبوة، وكان المعتمد الكبير في إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن، ومن جملة إعجازه إخباره بما تضمن من القصص الموافق لما في التوراة والإنجيل، مع العلم بأنه أمي لم يخالط العلماء ولا اشتغل بالتعليم، و«بنو إسرائيل» هم اليهود والنصارى، قص فيه أكثر ما اختلفوا فيه على وجهه وبينه لهم، ولو أنصفوا أسلموا. وما اختلفوا فيه: أمر المسيح، تحزبوا فيه فمن قائل هو الله، ومن قائل ابن الله، ومن قائل ثالث ثلاثة، ومن قائل هو نبي كغيره من الأنبياء. وقد عقدوا لهم اجتماعات، وتباينوا في العقائد، وتناكروا في أشياء حتى لعن بعضهم بعضاً.

(١) انظر القرطبي ١٣/١٥٢، ١٥٣.

(٢) من الطويل انظر الكشاف ٢/١٥١.

والظاهر: عموم المؤمنين، وقيل: لمن آمن من بني إسرائيل. و«القضاء». و«الحكم» وإن ظهر أنها مترادفان، فقيل: المراد به هنا العدل، أي بعدله، لأنه لا يقضي إلا بالعدل، وقيل: المراد بحكمته، والحكم، قيل: ويدل عليه قراءة من قرأ (بحكمه) بكسر الحاء وفتح الكاف، جمع حكمة وهو «جناح بن حبيش». ولما كان القضاء يقتضي تنفيذ ما يقضي به، والعلم بما يحكم به جاءت هاتان الصفتان عقبه وهو العزة، أي: الغلبة والقدرة والعلم، ثم أمره تعالى بالتوكل عليه، وأخبره أنه على الحق الواضح الذي لا شك فيه، وهو كالتعليل للتوكل. وفيه دليل على أن من كان على الحق يحق له أن يثق بالله، فإنه ينصره ولا يخذله، ولما كان القرآن وما قص الله فيه لا يكاد يجدي عندهم أخبر تعالى عنهم أنهم موق القلوب أو شبهوا بالموق وإن كانوا أحياء صحاح الأبصار لأنهم إذا تلي عليهم لا تعيه أذانهم فكانت حالهم لانقضاء جدوى السماع كحال الموق، وقرأ الجمهور (ولا تسمع الصم) هنا، وفي الروم بضم التاء وكسر الميم (الصم) بالرفع، ولما كان الميت لا يمكن أن يسمع لم يذكر له متعلق، بل نفي الإسراع أي: لا يقع منك إسراع لهم البتة لعدم القابلية، وأما الأصم فقد يكون في وقت يمكن إسماعه وسماعه، فأتى بمتعلق الفعل وهو الدعاء. و(إذا) معمولة لـ (تسمع)، وقيد ففي الإسراع أو السماع بهذا الظرف وما بعده على سبيل التأكيد لحال الأصم، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولي مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته، شبههم أولاً بالموق، ثم بالصم في حالة، ثم بالعمي فقال (وما أنت بهادي العمي) حيث يضلون الطريق فلا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويحوطهم هداة بصراء إلا الله تعالى، وقرأ الجمهور (بهادي العمي) اسم فاعل مضاف ويحيى بن الحارث وأبو حيوه (بهاد) منوناً (العمي) والأعمش وطلحة وابن وثاب وابن يعمر وحمزة (تهدي) مضارع «هدى» (العمي) بالنصب، وابن مسعود (وما أنت تهدي) بزيادة «أن» بعدما، و(يهدي) مضارع اهتدى، والعمي بالرفع، والمعنى: ليس في وسعك إدخال الهدى في قلب من عمي عن الحق ولم ينظر إليه بعين قلبه، (أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا) وهم الذين علم الله أنهم يصدقون بآياته (فهم مسلمون) منقادون للحق، وقال «الزمخشري»<sup>(١)</sup> (مسلمون) مخلصون، من قوله: ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ [البقرة: ١١٢] بمعنى جعله سالماً لله خالصاً. انتهى (وإذا وقع القول عليهم) أي إذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي من الله، كقوله: ﴿حققت كلمة العذاب﴾ [الزمر: ٧١] فالعنى إذا أراد الله أن ينفذ في الكافرين سابق علمه فيهم من العذاب أخرج لهم دابة تنفذ من الأرض، ووقع عبارة عن الثبوت واللزوم، و(القول) إما على حذف مضاف أي مضمون القول وإما أنه أطلق القول على المقول لما كان المقول مؤدى بالقول وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب، وقال ابن مسعود: وقع القول عليهم يكون: بموت العلماء، وذهاب العلم، ورفع القرآن. انتهى. وروي: أن خروجها حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا نائب. وفي الحديث «إن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراف» ولم يعين الأول، وكذلك الدجال. وظاهر الأحاديث أن طلوع الشمس آخرها. والظاهر: أن الدابة التي تخرج هي واحدة، وروي أنه يخرج في كل بلد دابة مما هو مثبت نوعها في الأرض، وليست واحدة فيكون قوله (دابة) اسم جنس، واختلفوا في ماهيتها، وشكلها، ومحل خروجها، وعدد خروجها، ومقدار ما تخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً، ويكذب بعضه بعضاً، فاطرحنا ذكره لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح، وتضيق لزمان نقله، والظاهر: أن قوله (تكلمهم) بالتشديد وهي قراءة الجمهور من الكلام ويؤيده قراءة أبي (تنبههم) وفي بعض القراءات (تحدثهم) وهي قراءة يحيى بن سلام، وقراءة عبد الله (بأن الناس) قال السدي: تكلمهم ببطلان سائر الأديان سوى الإسلام، وقيل: تخاطبهم فتقول للمؤمن: هذا مؤمن ولللكافر: هذا كافر، وقيل: معنى (تكلمهم) تجرحهم، من الكلم، والتشديد للتكثير ويؤيده قراءة ابن عباس ومجاهد وابن جبير وأبي زرع

والجحدري وأبي حيوه وابن أبي عبله (تَكَلَّمَهُمْ) بفتح التاء وسكون الكاف مخفف اللام، وقراءة من قرأ (تجرهم) مكان (تكلّمهم) وسأل أبو الحوراء ابن عباس تَكَلَّمْ أَوْ تَكَلَّمْ؟ فقال: كل ذلك تفعل تُكَلِّمُ المؤمن وتُكَلِّمُ الكافر. انتهى، وروي أنها تسم الكافر في جبهته، وتربده<sup>(١)</sup>، وتمسح على وجه المؤمن فتبيضه، وقرأ الكوفيون وزيد بن علي (أن الناس) بفتح الهززة، وابن مسعود بأن، وتقدم. وباقى السبعة (إن) بكسر الهززة، فاحتمل الكسر أن يكون من كلام الله وهو الظاهر لقوله (بآياتنا) واحتمل أن يكون من كلام الدابة. وروي هذا عن ابن عباس، كسرت إن هذا على القول إما على إضمار القول، أو على إجراء (تكلّمهم) إجراء تقول لهم، ويكون قوله (بآياتنا) على حذف مضاف، أو لاختصاصها بالله كما تقول: بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا، وعلى قراءة الفتح فالتقدير «بأن» كقراءة عبد الله، والظاهر أنه متعلق «بتكلّمهم» أي تخاطبهم بهذا الكلام ويجوز أن تكون الباء المنطوق بها أو المقدره سببية، أي تخاطبهم أو تجرحهم بسبب انتفاء إيمانهم بآياتنا.

﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أما إذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليستكفوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ويوم يفتح في الصور ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين وترى الجبال تحسبها جامدة وهي غمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسئنة فكبت وجوههم في النار هل تحزون إلا ما كنتم تعملون إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾. أي اذكر يوم نحشر، والحشر: الجمع على عنف، (من كل أمة) أي من الأمم ومن هي للتبويض، (فوجاً) أي جماعة كثيرة (من يكذب بآياتنا) من اللبيان، أي الذين يكذبون، و«الآيات» الأنبياء، أو القرآن، أو الدلائل أقوال. (فهم يوزعون) تقدم تفسيره في أول قصة سليمان من هذه السورة، وعن ابن مسعود: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة بين يدي أهل مكة، وكذلك يحشر قادة الأمم بين أيديهم إلى النار (حتى إذا جاؤوا) أي إلى الموقف، (قال أكذبتم بآياتي) استفهام توبيخ وتقريع وإهانة، (ولم تحيطوا بها علماً) الظاهر أن الواو للحال، أي: أوقع تكذيبكم بها غير متدبرين لها ولا محيطين علماً بكنهها، ويجوز أن تكون الواو للعطف، أي: أجمدتموها، ومع جحودها لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها، فإن المكتوب إليه قد يحجد أن يكون الكتاب من عند من كتبه إليه، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويحيط بمعانيه علماً، وقيل: (ولم تحيطوا بها علماً) أي بطلانها حتى تعرضوا عنها بل كذبتم جاهلين غير مستدلين. (وأم) هنا منقطعة، وينبغي أن تقدر بيل وحدها. انتقل من الاستفهام الذي يقتضي التوبيخ إلى الاستفهام عن عملهم أيضاً على جهة التوبيخ، أي أي شيء كنتم تعملون، والمعنى إن كان لكم عمل أو حجة فهااتوا، وليس لهم عمل ولا حجة فيما عملوه إلا الكفر والتكذيب. (وماذا) بجملته يحتمل أن يكون استفهاماً منصوباً بخبر كان، وهو (تعملون)، وأن يكون (ما) هو الاستفهام و(ذا) موصول بمعنى الذي فيكونان مبتدأ وخبراً. وكان صلة لذا، والعائد محذوف أي: تعملونه، وقرأ أبو حيوه (أماذا) بتخفيف الميم، أدخل أداة الاستفهام على اسم الاستفهام على سبيل التوكيد، (ووقع القول) أي العذاب الموعود به بسبب ظلمهم، وهو التكذيب بآيات الله، (فهم لا ينطقون) أي بحجة ولا عذر لما شغلهم من عذاب الله<sup>(٢)</sup>، وقيل: يحتم على أفواههم فلا ينطقون<sup>(٣)</sup>، وانتفاء

(١) تربده: واربد وجهه وتربده: احرمره فيها سواد عند الغضب.

لسان العرب (٣/١٥٥٥)

(٢) انظر زاد المسير ١٩٤/٦ والقرطبي ١٥٨/١٣.

(٣) انظر زاد المسير ١٩٤/٦ والقرطبي ١٥٨/١٣.

نطقهم يكون في موطن من مواطن القيامة، أو من فريق من الناس، لأن القرآن يقتضي أنهم يتكلمون بحجج في غير هذا الموطن. ولما ذكر أشياء من أحوال يوم القيامة ليرتدع بسايعها من أراد الله تعالى ارتداعه نبيهم على ما هو دليل على التوحيد والحشر والنبوة بما هم يشاهدونه في حال حياتهم، وهو تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ومن ظلمة إلى نور، وفاعل ذلك واحد وهو الله تعالى، فيجب أن يُفرد بالعبادة والألوهية، وفي هذا التقليب دليل على القلب من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة أخرى وفيه دليل أيضاً على النبوة لأن هذا التقليب هو لمنافع المكلفين، وهذا علل ذلك الجعل بقوله «ليسكنوا فيه» وبعثة الأنبياء لتحصيل منافع الخلق، وأضاف الإبصار إلى النهار على سبيل المجاز لما كان يقع فيه أضافه إليه، كما تقول «ليلك نائم»، وعلل جعل الليل بقوله (ليسكنوا فيه) أي: لأن يقع سكونهم فيه مما يلحقهم من التعب في النهار واستراحة نفوسهم، قال بعض الرجاز:

النَّوْمُ رَاحَةٌ الْقُوَى الْجِسِّيَّةُ مِنْ حَرَكَاتِ وَالْقُوَى النَّفْسِيَّةِ<sup>(١)</sup>

ولم يقع التقابل في جعل النهار بالنص على علته، فيكون التركيب «والنهار لتبصروا فيه» بل أتى بقوله (مبصراً) قيداً في جعل النهار، لا علة للجعل، فقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: هو مراعى من حيث المعنى، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف، لأن معنى (مبصراً) لتبصروا فيه طريق التقلب في المكاسب. انتهى. والذي يظهر أن هذا من باب ما حذف من أوله ما أثبت في مقابله، وحذف من آخره ما أثبت في أوله، فالتقدير: «جعلنا الليل مظلاً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه» فالإظلام ينشأ عنه السكون، والإبصار ينشأ عنه التصرف في المصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ [الإسراء: ١٢] فالسكون علة لجعل الليل مظلاً، والتصرف علة لجعل النهار مبصراً، وتقدم لنا، الكلام على نظير هذين الحذفين مشبعاً في البقرة في قوله ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق﴾<sup>(٣)</sup> [البقرة: ١٧١] (إن في ذلك) أي في هذا الجعل (آيات لقوم يؤمنون) لما كان لا يتنفع بالفكر في هذه الآيات إلا المؤمنون خصوصاً بالذكر وإن كانت آيات لهم ولغيرهم (ويوم ينفخ في الصور) تقدم القول في الصور في سورة الأنعام، وهذه النفخة هي نفخة الفزع، وروى أبو هريرة: «أن الملك له في الصور ثلاث نفخات، نفخة الفزع - وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر -، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور»، وقيل: نفختان، جعلوا الفزع والصعق نفخة واحدة، واستدلوا بقوله: ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾ [الزمر: ٦٨] ويأتي الكلام في ذلك إن شاء الله، وقال صاحب الغنيان: (ويوم ينفخ في الصور) للبعث من القبور والحشر، وعبر هنا بالماضي في قوله (فزع) وإن كان لم يقع إشعاراً بصحة وقوعه وأنه كائن لا محالة، وهذه فائدة وضع الماضي موضع المستقبل كقوله تعالى (فأوردتهم النار) بعد قوله: ﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾ [هود: ٩٨] (إلا من شاء الله) أي فلا ينالهم هذا الفزع، لتثبيت الله قلبه، فقال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت عليهم السلام، وإذا كان الفزع الأكبر لا ينالهم فهم حريون أن لا ينالهم هذا<sup>(٤)</sup>، وقال الضحاك: الحور العين، وخزنة النار، وحملة العرش، وعن جابر: منهم موسى لأنه صعق مرة<sup>(٥)</sup>، وقال أبو هريرة: هم الشهداء، ورواه أبو هريرة حديثاً وهو أنهم هم الشهداء عند ربهم يرزقون، وهو قول ابن جبير قال: هم الشهداء مقلدو السيوف حول العرش، وقيل: هم المؤمنون لقوله (وهم من فزع

(١) البيت في روح المعاني (٢٩/٢٠).

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٨٥.

(٣) قال الفراء: أي ومثل الذين كفروا كالهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت فأضاف التشبيه إلى الراعي والمعنى في المرعى.

لسان العرب (٤٤٧٦/٦)

(٤) انظر القرطبي ١٣/١٥٩، ١٦٠ وزاد المسير ٦/١٩٥ وابن كثير ٣/٣٧٧.

(٥) انظر القرطبي ١٣/١٥٩، ١٦٠ وزاد المسير ٦/١٩٥ وابن كثير ٣/٣٧٧.

يوئذ آمنون)، قال بعض العلماء: ولم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل، قال القرطبي: خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي، فيعول عليه في التعيين، وغيره اجتهاد، وهذا النفخ هو حقيقة إما في القرن، وإما في الصور وهو قول الأكثرين، وقيل: يجوز أن يكون تمثيلاً لدعاء الموت، فإن خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع الصوت، فيكون ذلك مجازاً، والأول قول الأكثرين وهو الصواب، لكثرة ورود النفخ في الصور في القرآن وفي الحديث الصحيح، وقيل: (ففزع) ليس من الفزع بمعنى الخوف، وإنما معناه: أجاب وأسرع إلى البقاء، (وكل أتوه) المضاف إليه كل محذوف تقديره «وكلهم» وقرأ الجمهور (أتوه) اسم فاعل وعبد الله وحزرة وحفص (أتوه) فعلاً ماضياً، وفي القراءتين روعي معنى (كل) من الجمع وقيادة (أتاه) فعلاً ماضياً مسند الضمير كل على لفظها وجمع (داخرين) على معناها، وقرأ الحسن والأعمش (دخرين) بغير ألف، قيل: ومعنى (أتوه) حاضر الموقف بعد النفخة الثانية، ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له، (وترى الجبال) هو من رؤية العين (تحسبها) حال من فاعل ترى، أو من الجبال، (وجامدة) من جمد مكانه إذا لم يبرح منه، وهذه الحال للجبال عقيب النفخ في الصور، وهي أول أحوال الجبال، تخرج وتسير، ثم ينسفها الله، فتصير كالعهن<sup>(١)</sup>، ثم تكون هباء منبثاً في آخر الأمر، (وهي تمرر السحاب) جملة حالية، أي: تحسبها في رأي العين ثابتة مقيمة في أماكنها وهي سائرة، وتشبيه مرورها بمر السحاب، قيل: في كونها تمر مرةً حثيثاً<sup>(٢)</sup>، كما مر السحاب وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها كما قال النابغة الجعدي في صفة جيش:

نَارَ عَن مِّثْلِ الطُّورِ تَحْسِبُ أَنَّهُمْ      وَقُوفٌ لِحِجَابِ وَالرِّكَابُ تَهْمَلُجُ<sup>(٣)</sup>

وقيل شبه مرورها بمر السحاب في كونها تسير سيراً وسطاً كما قال الأعشى:

كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ نَيْتِ جَارَتِهَا      مَرُّ السَّحَابِ لَأَرِيْتُ وَلَا عَجَلُ<sup>(٤)</sup>

وحسبان الرائي الجبال جامدة مع مرورها، قيل: هؤل ذلك اليوم، فليس له ثبوت ذهن في الفكر في ذلك حتى يتحقق كونها ليست بجامدة، وقال أبو عبد الله الرازي: الوجه في حسابهم أنها جامدة أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمات ظن الناظر إليها أنها واقفة وهي تمر مرةً حثيثاً. انتهى، وقيل: وصف تعالى الجبال بصفات مختلفة ترجع إلى تفرغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات ارتجاجها، ثم صيرورتها كالعهن المنفوش، ثم كالهباء بأن تنقطع بعد أن كانت كالعهن، ثم نسفها وهي مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها، والأرض غير بارزة، وبالنسف برزت، ونفسها بإرسال الرياح عليها، ثم تطيرها بالرياح في الهواء كأنها غبار ثم كونها سراباً، فإذا نظرت إلى مواضعها لم تجد فيها منها شيئاً كالسراب، وقال مقاتل: بل تقع على الأرض فتسوى بها، وانتصب (صنع الله) على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي تليها، فالعامل فيه مضمون لفظه، وقال الزمخشري: صنع الله من المصادر المؤكدة، كقوله: ﴿وعند الله﴾ [البقرة: ١٣٨] و﴿صيغة الله﴾ [الروم: ٦] إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب لـ (يوم ينفخ) والمعنى: ويوم ينفخ في الصور فكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال (صنع الله) يريد به الإثابة والمعاقبة، وجعل

(١) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً، وقيل: كل صوف عهن، والقطعة منه عهنة والجمع عهون.

لسان العرب ٤/٣١٥٣

(٢) ولي حثيثاً أي: مسرعاً.

لسان العرب (٢/٧٧٣)

(٣) انظر البيت في روح المعاني ٢٠/٣٤.

(٤) انظر روح المعاني (٢٠/٣٤).

هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأق بها على الحكمة والصواب، حيث قال (صنع الله الذي أتقن كل شيء) يعني أن مقابلته الحسنة بالثواب، والسيئة بالعقاب من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة إنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك، ثم لخص ذلك بقوله: (من جاء بالحسنة فله) إلى آخر الآيتين، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه، وترتيبه، ومكانة إضاده<sup>(١)</sup>، ورسالة تفسيره، وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفرافاً واحداً، وما لأمر أعجز القوى وأخرس الشقاشق<sup>(٢)</sup> ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد لصحته والمنادى على سداه، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما كان ألا ترى إلى قوله (صنع الله) و﴿صبغة الله﴾ [البقرة ١٣٨] و﴿وعد الله﴾ [الروم ٦] و﴿فطرة الله﴾ [الروم ٣٠] بعد ما رسمها بإضافتها إليه تسمية التعظيم كيف تلاها بقوله (الذي أتقن كل شيء) و﴿من أحسن من الله صبغة﴾ [البقرة: ١٣٨] ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [الروم: ٣٠] لا بتبديل لخلق الله ﴿الروم: ٣٠﴾. انتهى. وهذا الذي ذكر من شقاشقه وتكثيره في الكلام واحتياله في إدارة ألفاظ القرآن لما عليه من مذاهب المعتزلة. والذي يظهر أن (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة وهي جملة الحال، أي: صنع الله بها ذلك، وهو قلعهما من الأرض ومرهاً مرأً مثل مر السحاب، وأما قوله «إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ» إلى قوله (صنع الله) يريد به الإثابة والمعاقبة، فذلك لا يصح، لأن المصدر المؤكد لمضمون الجملة لا يجوز حذف جملة، لأنه منصوب بفعل من لفظه، فيجتمع حذف الفعل الناصب وحذف الجملة التي أكد مضمونها بالمصدر، وذلك حذف كثير محل، ومن تتبع مساق هذه المصادر التي تؤكد مضمون الجملة وجد الجمل مصرحاً بها لم يرد الحذف في شيء منها، إذ الأصل أن لا يحذف المؤكد، إذ الحذف ينافي التوكيد، لأنه من حيث أكد معتنى به ومن حيث حذف غير<sup>(٣)</sup> معتنى به، وقيل: انتصب (صنع الله) على الإغراء بمعنى: أنظروا صنْع الله، وقرأ العربيان وابن كثير: (يفعلون) بالياء، وباقي السبعة بقاء الخطاب. ولما ذكر علامات القيامة ذكر أحوال المكلفين بعد قيام الساعة، والحسنة. الإيمان، وقال ابن عباس والنخعي وقتادة: هي لا إله إلا الله، ورتب على محيء المكلف بالحسنة شيئين: أحدهما: أنه له خير منها، ويظهر أن «خيراً» ليس أفعال تفضيل، و«من» لا ابتداء الغاية أي له خير من الخيور، مبدؤه ونشؤه منها، أي من جهة هذه الحسنة، والخير هنا. الثواب، وهذا قول الحسن وابن جريح وعكرمة، قال عكرمة: ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله، يريد أنها ليست أفعال التفضيل، وقيل: أفعال التفضيل، فقال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: (فله خير منها) يريد الأضعاف، وأن العمل ينقضي، والثواب يدوم، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد. انتهى. وقوله و«شتان ما بين فعل العبد وفعل السيد» تركيب مختلف فيه، فبعض العلماء منعه، والصحيح جوازه<sup>(٥)</sup>، وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون للتفضيل، ويكون في قوله (منها) حذف مضاف تقديره: «خير من

(١) أصل الضم الصد.

لسان العرب (٤/٢٦٠٥)

(٢) الشقاشق: الشَّقِيقَةُ: لغة البعير، ولا تكون إلا للرجعي من الإبل: هو شيء كالرثة يخرجها البعير من فيه إذا هاج ومنه سمي الخطباء شقاشق، شبهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر.

لسان العرب (٤/٢٣٠٣)

(٣) قد اعترض على هذا بأن المصدر المؤكد قد يكون لمجرد التقرير وهو رفع توهم المجاز عن المؤكد، وقد يكون لتقوية المؤكد وتثبيت معناه في النفس فإن كان للتقوية والتقرير معاً نافي الحذف، وإن كان للتقرير وحده فلا ينافي الحذف، لأنه إذا جاز أن يقرر معنى العامل المذكور بتوكيده بالمصدر فلان يجوز أن يقرر معنى العامل المحذوف لدلالة قرينته عليه أولى وأجيب بمنافاة الحذف لتوكيد مطلقاً أي كان للتقرير أو التقوية فدعواه الأولية مردودة. الصبان ١١٥/٢ حاشية يس ٣٢٩/١ التصريح ٣٢٩/١.

(٤) انظر الكشاف ٣/٣٨٨.

(٥) انظر الصبان ٣/١٩٧ وشرح المفصل ٤/٣٨ وشرح الكافية ٢/٧٤.

قدرها واستحقاقها» بمعنى: أن الله تعالى تفضل عليه فوق ما تستحق حسنته، قال ابن زيد: يعطي بالواحدة عشراً، والداعية إلى هذا التقدير أن الحسنه لا يتصور بينها وبين الثواب تفضيل. انتهى، وقيل: ثواب المعرفة الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة، ولذا النظر إلى وجهه الكريم. وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة، ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الأكل والشرب خيراً من معرفة الله تعالى، وذلك لا يكون، وقرأ الكوفيون (من فرع) بالتثوين (ويومئذ) منصوب على الظرف، معمول لقوله (آمنون) أو لفرع، ويدل على أنه معمول له قراءة من أضافه إليه، أو في موضع الصفة لفرع أي كائن في ذلك الوقت، وقرأ باقي السبعة بإضافة (فرع) إلى (ويومئذ) فكسر الميم العربيان وابن كثير وإسماعيل بن جعفر عن نافع، وفتحها بناء لإضافته إلى غير متمكن نافع في غير رواية إسماعيل، والتثوين في (ويومئذ) تثوين العوض، حذفت الجملة وعوض منها، والأولى أن تكون الجملة المحذوفة ما قرب من الظرف، أي «يوم إذ جاء بالحسنة»، ويجوز أن يكون التقدير: «يوم إذ ترى الجبال»، ويجوز أن يكون التقدير «يوم إذ ينفخ في الصور»، ولا سيما إذا فسر بأنه نفخ القيام من القبور للحساب، ويكون الفرع إذ ذاك واحداً، وقال أبو علي ما معناه: (من فرع) بالتثوين أو بالإضافة، ويجوز أن يراد به فرع واحد، وأن يراد به الكثرة، لأنه مصدر، فإن أريد لكثرة شمل كل فرع يكون في القيامة، وإن أريد الواحد فهو الذي أشير إليه بقوله ﴿لا يحزنهم الفرع الأكبر﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال الزمخشري (فإن قلت) ما الفرق بين الفرعين؟ (قلت) الفرع الأول ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدة تقع، وهو ينفجاً من رعب وهيبة، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به، والثاني: الخوف من العذاب. انتهى. (والسيئة) الكفر والمعاصي ممن حتم الله عليه من أهل المشيئة بدخول النار، وخصت الوجوه إذ كانت أشرف الأعضاء، ويلزم من كبها في النار كبح الجميع، أو عبر بالوجه عن جملة الإنسان كما يعبر عنها بالرأس والرقبة، كما قال ﴿فككبوا فيها﴾ [الشعراء: ٩٤] فكأنه قيل: فكبوا في النار، والظاهر من «كبت» أنهم يلقون في النار منكوسين، قاله أبو العالية أعلاهم قبل أسفلهم، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن طرحهم في النار، قاله الضحّاك، (هل تجزون) خطاب لهم على إضمار القول، أي «يقال لهم وقت الكب هل تجزون»، ثم أمر تعالى نبيه أن يقول (إنما أمرت) والأمر هو الله تعالى على لسان جبريل، أو دليل العقل على وحدانية الله تعالى، (أن أعبد) أي أفرده بالعبادة ولا أتخذ معه شريكاً كما فعلت قريش، وهذه إشارة تعظيم كقوله: ﴿هذا كتاب أنزلناه﴾ [الأنبياء: ٢٤] ﴿هذا ذكر من معي﴾ [الأنعام: ١٥٥] من حيث هي موطن نبيه ومهبط وحيه، (والبلدة) مكة، وأسند التحريم إليه تشرافاً لها واختصاصاً، ولا تعارض بين قوله (الذي حرمها) وقوله عليه السلام: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة» لأن إسناد ذلك إلى الله من حيث كان بقضائه وسابق علمه، وإسناده إلى إبراهيم من حيث كان ظهور ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأمته، وفي قوله (حرمها) تنبيه بنعمته على قريش إذ جعل بندتهم أمانة من الغارات والفتن التي تكون في بلاد العرب، وأهلك من أرادها بسوء، وقرأ الجمهور (الذي) صفة للرب، وقرأ ابن مسعود وابن عباس (التي حرمها) صفة للبلدة. ولما أخبر أنه مالك هذه البلدة أخبر أنه يملك كل شيء، فقال: (وله كل شيء) أي جميع الأشياء داخلة في ربوبيته، فشرفت البلدة بذكر اندراجها تحت ربوبيته على جهة الخصوص وعلى جهة العموم، (وأمرت أن أكون من المسلمين) أي من المستسلمين المتقادين لأمر الله فأعبده كما أمرني، أو من الخفاء الثابتين على ملة الإسلام المشار إليهم في قوله: ﴿هو سماكم المسلمين﴾ [الحج: ٧٨] (وأن أتلو القرآن) إما من التلاوة، أي «وأن أتلو عليكم القرآن» وهذا الظاهر إذ بعده التقسيم المناسب للتلاوة، وإما من التلو أي: «وأن أتبع القرآن»، كقوله: ﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ [الأحزاب: ٢] وقرأ الجمهور (وأن أتلو) وقرأ عبد الله (وأن اتل) بغير واو، أمراً من تلا، فجاز أن تكون (مفسرة على إضمار) «وأمرت أن أتل» أي اتل، وقرأ أبي (واتل هذا القرآن) جعله أمراً دون أن (فمن اهتدى) به ووحده الله وآمن بنبيه وبما جاء به فثمره هدايته مختصة به (ومن ضل) فوبال ضلاله محتص به، وحذف جواب (من ضل) للدلالة



جواب مقابله عليه ، أو يقدر في قوله (فقل إنما أنا من المنذرين) ضمير حتى يربط الجزء بالشرط ، إذ أداة الشرط اسم وليس ظرفاً فلا بد في جملة الجواب من ذكر يعود عليه ملفوظ به أو مقدر فتكون هذه الجملة هي جواب الشرط ، ويقدر الضمير (من المنذرين) له ليس عليّ إلا إنذاره ، وأما هدايته فإلى الله ، (وقل الحمد لله) أمر أن يقول ذلك فيحمد ربه على ما خصه به من شرف النبوة والرسالة واختصه من رفيع المنزلة (سيركم آياته) تهديد لأعدائه بما يريهم الله من آياته التي تضطرهم إلى معرفتها ، والإقرار أنها آيات الله ، قال الحسن : وذلك في الآخرة حتى لا تنفعهم المعرفة ، وقال الكلبي : في الدنيا وهي ، الدخان ، وانشقاق القمر ، وما حل بهم من نعمات الله ، وقيل : يوم بدر ، وقيل : خروج الدابة ولو بعد حين ، وقيل (آياته) في أنفسكم وفي سائر ما خلق مثل قوله : ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت : ٥٣] وقيل : معجزات الرسول ، وأضافها إليه لأنه هو مجريها على يدي رسوله ، ومظهرها من جهته (فتعرفونها) أي حقيقتها ولا يسعكم جحودها ، وقرأ الجمهور (عما يعملون) بياء الغيبة التفاتاً من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة ، ونافع وابن عامر بتاء الخطاب لقوله (سيركم) ولما قسمهم إلى مهتد وضال أخبر تعالى أنه محيط بأعمالهم غير غافل عنها .

(١) من البسيط انظر ديوانه (٩١) مجاز القرآن (٢/١٠٣) اللسان (جذا).

(٢) من الطويل لم أهد لقائله . انظر تفسير القرطبي (١٣/١٨٦).

(٣) البيتان من الطويل ذكرهما السمين في الدر المصون .

(٤) من الوافر انظر الكشاف (٢/١٦٢).

## ﴿مفردات سورة القصص﴾

«الْوَكْزُ» الضرب باليد مجموعاً كعقد ثلاث وسبعين، وقيل: بجمع كفه، وقيل: «الوكز» والنكز واللهمز واللكز: الدفع بأطراف الأصابع، وقيل: «الوكز»: على القلب، واللكز: على اللحي، وقيل: الوكز بأطراف الأصابع، «داد» طرد ودفع، وقال الفراء: حبس، جذوت الشيء جذواً: قطعته، والجذوة: عود فيه نار بلا لهب، قال ابن مقبل:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا جَزْلَ الْجَدَا غَيْرَ حَوَارٍ وَلَا ذَعْرٍ<sup>(١)</sup>

الحوَار الذي يتقصف والذعر الذي فيه تعب، وقال آخر:

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً عَلِيَّهَا حَمْئُهَا وَالْتِهَابُهَا<sup>(٢)</sup>

وقيل الجذوة مثلث الجيم العود الغليظ، كانت في رأسه نار أو لم تكن، وقال السلمي يصف الصلي:

حَمَى حُبَّ هَذِي النَّارِ حُبَّ خَلِيلَتِي وَحُبُّ الْغَوَانِي فَهُوَ دُونَ الْحَبَائِبِ  
وَبَدَلَتْ بَعْدَ الْمِسْكِ وَالْبَيَانَ شِقْوَةً دُخَانَ الْجَدَا فِي رَأْسِ أَشْمَطِ شَاحِبٍ<sup>(٣)</sup>

«الشاطيء» والشط: حفة الوادي، «الفصاحة» بسط اللسان في إيضاح المعنى المقصود، ومقابله اللكن، «الرذء» المعين الذي يشده في الأمر، فعل بمعنى مفعول، فهو اسم لما يعان به كما أن الدفاء اسم لما يدفأ به، قال سلامة بن جندل:

وَرَدُّهُ كُلُّ أَبِيضٍ مَشْرِفِيٍّ شَجِيدُ الْحَدِّ عَضْبٍ ذِي فُلُولٍ<sup>(٤)</sup>

ويقال: ردت الحائط أردوه إذا دَعَمته بخشبة لئلا يسقط، وقال أبو عبيدة: العون، ويقال رداًته على عدوه: أعنته، المقبوح المطرود، وقال الشاعر:

أَلَا قَبِّحَ اللهُ الْبَرَاجِمَ كُلَّهَا نَوَى» بثوي ثواء أقام، قال الشاعر:

لَقَدْ كَانَ فِي جَوْلِ ثَوَاءِ ثَوَيْتُهُ تَقْضَى لِبَانَاتٍ وَيَسْأَمُ سَائِمٌ<sup>(١)</sup>

وقال العجاج:

قَبَاتٌ حَيْثُ يَدْخُلُ الثَّوَى<sup>(٢)</sup>

أي الضيف المقيم، البطر: الطغيان، السرمد: الدائم الذي لا ينقطع<sup>(٣)</sup>

(١) من الطويل لأمرى، القيس انظر ديوانه (١٣٠).

(٢) البيت من الطويل للأعشى. انظر ديوانه (١٧٧) الكتاب (٣٨/٣) المنتصب (٤/٢٩٧) شرح المفصل لابن يعش (٦٥/٣).

(٣) من الرجز انظر ديوانه (٣٢٥) مجاز القرآن (١٠٧/٢).

سُورَةُ الْقَصَصِ

ترتيبها ٢٨

آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۚ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۚ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُهُمْ وَبَسَّخِي ۚ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۚ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً لِلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۚ

هذه السورة مكية كلها، قاله الحسن وعطاء وعكرمة، وقال مقاتل: فيها من المدني (الذين آتيناها الكتاب من قبله) إلى قوله (لا نبتغي الجاهلين)، وقيل: نزلت بين مكة والجحفة<sup>(١)</sup>، وقال ابن عباس: بالجحفة في خروجه عليه السلام للهجرة<sup>(٢)</sup>، وقال ابن سلام: نزل (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) بالجحفة وقت الهجرة إلى المدينة<sup>(٣)</sup>.

ومناسبة أول هذه السورة لآخر السورة قبلها: أنه أمره تعالى بحمده ثم قال: ﴿سِيرِكُمْ آيَاتِهِ﴾ [النمل: ٩٣] وكان مما فسر به آياته تعالى معجزات الرسول، وأنه أضافها تعالى إليه، إذ كان هو المخبر بها على قدمه فقال (تلك آيات الكتاب) إذ كان الكتاب هو أعظم المعجزات، وأكبر الآيات البينات والظاهر أن (الكتاب) هو القرآن، وقيل: اللوح المحفوظ (نتلو) أي نقرأ عليك بقراءة جبريل، أو نقص. ومفعول (نتلو) (من نبأ) أي «بعض نبأ» و(بالحق) متعلق بـ (نتلو) أي محققين أو في موضع، الحال من نبأ، أي «متلبساً بالحق»، وخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالتلاوة (علا في الأرض) أي تجبر واستكبر حتى ادعى الربوبية والإلهية (والأرض) أرض مصر. و«الشيع» الفرق. ملك القبط، واستعبد بني إسرائيل أي يشيعونه على ما يريد، أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته، أو ناسأ في بناء، وناسأ في حفر، وغير ذلك من الحرف المتهنة، ومن لم يستخدمه ضرب عليه الجزية، أو أغرى بعضهم ببعض ليكونوا له أطوع. و«الطائفة المستضعفة» بنو إسرائيل. والظاهر أن

(١) الجحفة: ميقات أهل الشام. وكانت قرية جامعة على اثنين وثلاثين ميلاً من مكة وكانت تسمى مهيعة.

ترتيب القاموس (١/٤٨٨) وانظر معجم البلدان (٢/٢٢٩)

(٢) انظر زاد المسير ٦/٢٠٠ القرطبي ٣/١٦٤.

(٣) انظر زاد المسير ٦/٢٠٠ القرطبي ٣/١٦٤.

(يستضعف) استئناف يبين حال بعض الشيع، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير (وجعل) وأن تكون صفة لـ (شيعاً) و(يذبح) تبين للاستضعاف وتفسير، أو في موضع الحال من ضمير (يستضعف) أو في موضع الصفة لـ (طائفة)، وقرأ الجمهور (يذبح) مضعفاً، وأبو حيوه وابن محيصن بفتح الياء وسكون الذال، (إنه كان من المفسدين) علة لتجبره ولتذبيح الأبناء، إذ ليس في ذلك إلا مجرد الفساد، (ونريد) حكاية حال ماضية، والجملة معطوفة على قوله (إن فرعون) لأن كليهما تفسير للبناء ويضعف أن يكون حالاً من الضمير في (يستضعف) لاحتياجه إلى إضمار مبتدأ، أي «نحن نريد» وهو ضعيف. وإذا كانت حالاً فكيف يجتمع استضعاف فرعون وإرادة المنة من الله؟، ولا يمكن الاقتران، فقيل: لما كانت المنة بخلاصهم من فرعون قرينة الوقوع جعلت إرادة وقوعها، كأنها مقارنة لاستضعافهم، (وأن ممن) أي بخلاصهم من فرعون وإغراقه، (ونجعلهم أئمة) أي مُقَدِّئِيْهم في الدين والدنيا، وقال مجاهد: دعاة إلى الخير، وقال قتادة: ولاة قسولهم: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال الضحاك: أنبياء. (ونجعلهم الوارثين) أي يرثون فرعون وقومه ملكهم وما كان لهم، وعن علي: «الوارثون» هم يوسف عليه السلام وولده. وعن قتادة أيضاً: ورثوا أرض مصر والشام، وقرأ الجمهور: (ويمكن) عطفاً على (ممن)، وقرأ الأعمش: (ولنمکن) بلام كي، أي «وأردنا ذلك لنمکن»، أو: «ولنمکن فعلنا ذلك». و«التمكين»: التوطئة في الأرض، هي أرض مصر والشام، بحيث ينفذ أمرهم ويتسلطون على من سواهم، وقرأ الجمهور (ونري) مضارع أربنا ونصب ما بعده، وعبد الله وحزرة والكسائي: (ونري) مضارع رأى ورفع ما بعده، (وهامان) وزير فرعون وأحد رجاله، وذكر لنباهته في قومه ومخلة من الكفر، ألا ترى إلى قوله له: ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾ [غافر: ٣٦] و(يجذرون) أي زوال ملكهم وإهلاكهم على يدي مولود من بني إسرائيل.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إنا رآدُوهُ  
إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعَةُ: ءَأَلْ فِرْعَوْنُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ  
وَهَمَّانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمَّرَاتُ فِرْعَوْنَ فَرَّتْ عَيْنٌ لِيْ وَلَكْ لَا نَقْتُلُوهُ عسىٰ أَنْ  
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُمُ وِلْدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

وإيحاء الله إلى أم موسى إلهام وقذف في القلب، قاله ابن عباس وقتادة. أو منام، قاله قوم. أو إرسال ملك، قاله قطرب وقوم. وهذا هو الظاهر لقوله (إننا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وأجمعوا على أنها لم تكن نبية، فإن كان الوحي بإرسال ملك كما هو الظاهر فهو كإرساله للأقرع والأبرص والأعمى، وكما روي من تكليم الملائكة للناس. والظاهر أن هذا الإيحاء هو بعد الولادة، فيكون ثمَّ جملة محذوفة، أي ووضعت موسى أمه في زمن الذبح وخافت عليه، و«أوحينا» و(أن) تفسيرية أو مصدرية، وقيل: كان الوحي قبل الولادة، وقرأ عمرو بن عبد الواحد وعمر بن عبد العزيز (أن أَرْضِعِيهِ) بكسر النون بعد حذف الهمزة على غير قياس، لأن القياس فيه نقل حركة الهمزة وهي الفتحة إلى النون كقراءة ورش (فإذا خفت عليه) من جوايس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأولاد (فألقيه في اليم)، قال الجنيد: إذا خفت حفظه بواسطة فسلميه إلينا بالقاءه في البحر، واقطعي عنك شفقتك وتدبيرك. وزمان إرضاعه ثلاثة أشهر، أو أربعة، أو ثمانية. أقول، و(اليم) هنا نيل مصر، (ولا تخافي) أي من غرقه وضياعه ومن التقاطه فيقتل (ولا تحزني) لمفارتك إياه (إننا رادوه إليك) وعد صادق يسكن قلبها ويبرئها بحياته وجعله رسلاً. وقد تقدم طه سورة طه طرف من حديث التابوت، ورميه في اليم، وكيفية التقاطه فأغنى عن إعادته. واستفصح الأصمعي امرأة من العرب أنشدت شعراً فقالت أبعده قوله تعالى (وأوحينا إلى أم

موسى) الآية فصاحة، وقد جمع بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين، (فالتقطه آل فرعون) في الكلام حذف، تقديره «فعلت ما أمرت به من إرضاعه ومن إلقائه في اليم» واللام في (ليكون) للتعليل المجازي، لما كان مآل التقاطه وتربيته إلى كونه عدواً لهم وحرزاً، وإن كانوا لم يلتقطوه إلا للتبني وكونه يكون حبيباً لهم، ويعبر عن هذه اللام بلام العاقبة وبلاد الصيرورة، وقرأ الجمهور (وَحَزَنًا) بفتح الحاء والزاي وهي لغة قريش، وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش وحزة والكسائي وابن سعدان بضم الحاء وإسكان الزاي «والخاطيء» المتعمد الخطأ، المخطيء الذي لا يتعمده، واحتمل أن يكون في الكلام حذف، وهو الظاهر أي: «فكان لهم عدواً وحرزاً، أي لأنهم كانوا خاطئين» لم يرجعوا إلى دينه، وتعمدوا الجرائم والكفر بالله، وقال المبرد: خاطئين على أنفسهم بالتقاطه، وقيل: بقتل أولاد بني إسرائيل، وقيل: في تربية عدوهم، وأضيف الجند هنا وفيها قبل إلى فرعون وهامان وإن كان هامان لا جنود له، لأن أمر الجنود لا يستقيم إلا بالملك والوزير، إذ بالوزير تحصل الأموال، وبالملك وقهره يتوصل إلى تحصيلها، ولا يكون قوام الجند إلا بالأموال، وقرئ (خاطئين) بغير همز فاحتمل أن يكون أصله الهمز وحذفت، وهو الظاهر، وقيل: من خطأ بخطو أي خاطين الصواب.

ولما التقطوه هموا بقتله، وخافوا أن يكون المولود الذي يحذرون زوال ملكهم على يديه، فألقى الله محبته في قلب آسية امرأة فرعون، ونقلوا أنها رأت نوراً في التابوت وتسهل عليها فتحه بعد تعسر فتحه على يدي غيرها، وأن بنت فرعون أحبته أيضاً لبرئتها من دائها الذي كان بها وهو البرص بإخبار من أخبر أنه لا يبرئها إلا ريق إنسان يوجد في تابوت في البحر، و(قرة) خبر مبتدأ محذوف أي «هو قرة»، ويبعد أن يكون مبتدأ والخبر (لا تقتلوه). وتقدم شرح (قرة) في آخر الفرقان. وذكر أنها لما قالت لفرعون (قرة عين لي ولك) قال: لك، لا لي. وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل، وأتبع النبي عن قتله برجائها أن ينفعهم لظهور مخايل الخير فيه من النور الذي رأته، ومن برء البرص، أو يتخذوه ولداً فإنه أهل لذلك، (وهم لا يشعرون) جملة حالية أي لا يشعرون أنه الذي يفسد ملكهم على يديه، قاله قتادة. أو أنه عدو لهم، قاله مجاهد. أو أي فعل ما أريد لا ما يريدون، قاله محمد بن إسحاق. والظاهر أنه من كلام الله تعالى، وقيل: هو من كلام امرأة فرعون، أي قالت ذلك لفرعون، والذين أشاروا بقتله لا يشعرون بمقاتلتها له، واستعطف قلبه عليه، لثلا يغروه بقتله، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: تقدير الكلام «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحرزاً» وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه» وقوله: (إن فرعون) الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم. انتهى. ومضى يمكن حمل الكلام على ظاهره من غير فصل كان أحسن.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَإِتَّوَكَّتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آثِمِهِ ۚ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾  
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

(وأصبح) أي صار فارغاً من العقل، وذلك حين بلغها أنه وقع في يد فرعون، فذهمها أمر مثله لا يثبت معه العقل لا

سيما عقل امرأة خافت على ولدها حتى طرحته في اليم رجاء نجاته من الذبح ، هذا مع الوجي إليها أن الله يردّه إليها ويجعله رسولاً ، ومع ذلك فطاش لبها ، وغلب عليها ما يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم ، ثم استكانت بعد ذلك لموعود الله ، وقرأ أحمد بن موسى عن أبي عمرو (فواد) بالواو ، وقال ابن عباس : فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى<sup>(١)</sup> ، وقال مالك : هو ذهاب العقل<sup>(٢)</sup> ، وقالت فرقة : فارغاً من الصبر ، وقال ابن زيد : فارغاً من وعد الله ووحيه إليها تناسته من الهم ، وقال أبو عبيدة : فارغاً من الحزن ، إذ لم يفرق ، وهذا فيه بعد ، وتبعده القراءات الشواذ التي في اللفظة ، وقرأ فضالة بن عبيد والحسن ويزيد بن قطيب وأبو زرعة بن عمرو بن جرير (فرغاً) بالزاي والعين المهملة ، من الفزع وهو الخوف والقلق ، وابن عباس (فرغاً) بالقاف وكسر الراء وإسكانها ، من فرغ رأسه إذا انحسر شعره ، كأنه خلا من كل شيء إلا من ذكر موسى ، وقيل : (فرغاً) بالسكون مصدر ، أي يفرغ فرغاً من القارعة وهي الهم العظيم ، وقرأ بعض الصحابة (فرغاً) بالفاء مكسورة وسكون الزاي والغين المنقوطة ، ومعناه : ذاهباً هدرأً تالفاً من الهم والحزن ، ومنه قول طليحة الأسدي في أخيه حبال :

فَإِنْ يَكُ قَتْلِي قَدْ أَصِيبَتْ نَفْسُهُمْ      فَلَنْ تَذْهَبُوا فَرِغاً بِقَتْلِ حِبَالِ<sup>(٣)</sup>

أي بقتل حبال فرغاً ، أي هدرأً لا يطلب له بثأر ولا يؤخذ ، وقرأ الخليل بن أحمد (فرغاً) بضم الفاء والراء ، (إن كادت لتبدي به) هي إن المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة ، وقيل (إن) نافية ، واللام بمعنى إلا ، وهذا قول كوفي ، والإبداء إظهار الشيء ، والظاهر : أن الضمير في (به) عائد على موسى عليه السلام ، فقيل : الباء زائدة أي لتظهره ، وقيل : مفعول تبدي محذوف ، أي لتبدي القول به ، أي بسببه وأنه ولدها ، وقيل : الضمير في به للوحي ، أي لتبدي بالوحي ، وقال ابن عباس : كادت تصيح عند إلقائه في البحر : «وا ابناه»<sup>(٤)</sup> وقيل : عند رؤيتها تلاطم الأمواج به (لولا أن ربطنا على قلبها) ، قال قتادة : بالإيمان ، وقال السدي : بالعصمة<sup>(٥)</sup> ، وقال الصادق : باليقين ، وقال ابن عطاء : بالوحي ، (ولتكون من المؤمنين) فعلنا ذلك ، أي المصدقين بوعد الله ، وأنه كائن لا محالة . «والربط على القلب» كناية عن قراره واطمئنانه ، شبه بما يربط مخافة الانقلاب ، وقال الزمخشري : ويجوز : وأصبح فؤادها فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه ، (إن كادت لتبدي) بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أنا طمأننا قلبها ، وسكناً قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، (لتكون من المؤمنين) الواثقين بوعد الله ، لا بتبني فرعون وتعطفه . انتهى . وما ذهب إليه الزمخشري من تجويز كونه فارغاً من الهم إلى آخره خلاف ما فهمه المفسرون من الآية وجواب «لولا» محذوف ، تقديره : «لكادت تبدي به» ودل عليه قوله (إن كادت لتبدي) به وهذا تشبيه بقوله (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ، (وقالت لأخته) طمعاً منها في التعرف بحاله (قصيه) أي اتبعي أثره وتتبعي خبره ، فروي أنها خرجت في سكك المدينة مخفية فرأته عند قوم من حاشية امرأة فرعون يتطلبون له امرأة ترضعه حين لم يقبل المراضع ، واسم أخته «مريم» وقيل : «كلثمة» ، وقيل : «كلثوم» . وفي الكلام حذف ، أي فقضت أثره . (فبصرت به) أي أبصرت به (عن جنب) أي عن بعد (وهم لا يشعرون) بتطلبها له ، ولا يبصارها ، وقيل : معنى (عن جنب) عن شوق إليه ، حكاه أبو عمرو بن العلاء ، وقال هي لغة جذام يقولون : جنبت إليك أي اشتقت ، وقال الكرمانى (جنب) صفة لموصوف محذوف ، أي : عن مكان جنب يريد بعيد ،

(١) انظر زاد المسير ٦/٢٠٤ والقرطبي ١٣/١٦٩ وابن كثير ٣/٣٨١ .

(٢) انظر زاد المسير ٦/٢٤ والقرطبي ١٣/١٦٩ وابن كثير ٣/٣٨١ .

(٣) من الطويل انظر المحتسب (١٤٨/٢) الأشموني (١٧٧/٢) ابن عقيل (٩٢) اللسان (حبل) .

(٤) انظر زاد المسير ٦/٢٠٥ ، ٢٠٦ والقرطبي ١٣/١٧٠ .

(٥) انظر زاد المسير ٦/٢٠٥ ، ٢٠٦ والقرطبي ١٣/١٧٠ .

وقيل : عن جانب لأنها كانت تمشي على الشط (وهم لا يشعرون) أنها تقصص<sup>(١)</sup>، وقيل : (لا يشعرون) أنها أخته، وقيل (لا يشعرون) أنه عدو لهم، قاله مجاهد، وقرأ الجمهور (عن جنب) بضمين، وقرأ قتادة (فبصرت) بفتح الصاد، وعيسى بكسرهما، وقرأ قتادة والحسن والأعرج وزيد بن علي (جَنَّب) بفتح الجيم وسكون النون، وعن قتادة : بفتحها أيضاً، وعن الحسن : بضم الجيم وإسكان النون، وقرأ النعمان بن سالم (عن جانب). والجنب، والجانب، والجنابة والجناب : بمعنى واحد، وقال قتادة : معنى (عن جنب) أنها تنظر إليه كأنها لا تريده، والتحريم هنا بمعنى المنع، أي «منعناه أن يرضع ثدي امرأة». و(المراضع) جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع، أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع وهو الثدي، أو الإرضاع، (من قبل) أي من أول أمره، وقيل : (من قبل) قصصها أثره وإتيانه على من هو عنده، (فقال هل أدلكم) أي أرشدكم إلى (أهل بيت يكفلونه)<sup>(٢)</sup> لكم وهم له ناصحون) لكونهم فيهم شفقة ورحمة لمن يكفلونه وحسن تربيته. ودل قوله (وحرمنا عليه المرضع) أنه عرض عليه جملة من المرضعات. والظاهر : أن الضمير في (له) عائد على موسى، قيل : ويحتمل أن يعود على الملك، الذي كان الطفل في ظاهر أمره من جلته، وقال ابن جريج : تأول القوم أن الضمير للطفل فقالوا لها إنك قد عرفته فأخبرنا من هو؟ فقالت : ما أردت إلا «أنهم ناصحون للملك»، فتخلصت منهم بهذا التأويل. وفي الكلام حذف، تقديره «فمرت بهم إلى أمه، فكلموها في إرضاعه»، أو فجاءت بأمه إليهم، فكلموها في شأنه، فأرضعته، فالتقم ثديها». ويروى : أن فرعون قال لها ما سبب قبول هذا الطفل ثديك وقد أبي كل ثدي؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أوق بصبي إلا قبلني. فدفعه إليها، وذهبت به إلى بيتها، وأجرى لها كل يوم ديناراً. وجاز لها أخذه لأنه مال حربي، فهو مباح، وليس ذلك أجرة رضاع، (فرددناه إلى أمه) كما قال تعالى (إنا رادوه إليك) ودمع الفرح بارد، وعين المهموم حرى سخنة، وقال أبو تمام :

فَأَمَّا عُيُونُ الْعَاشِقِينَ فَاسْخَنَتْ وَأَمَّا عُيُونُ الشَّامِتِينَ فَفَقَرَتْ<sup>(٣)</sup>

لما أنجز تعالى وعده في الرد ثبت عندها أنه سيكون نبياً رسولاً، (ولتعلم أن وعد الله حق) فعلنا ذلك، (ولا يعلمون) أي أن وعد الله حق، فهم مرتابون فيه، أو (لا يعلمون) أن الرد إنما كان لعلمها بصدق وعد الله، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) بأن الرد كان لذلك. وفي قوله (ولتعلم أن وعد الله حق) دلالة على ضعف من ذهب إلى أن الإجماع إليها كان إلهاماً أو مناماً، لأن ذلك يبعد أن يقال فيه «وعد»، وقوله (ولتعلم) وقوع ذلك فهو علم مشاهدة، إذ كانت عاملة أن ذلك سيكون «وأكثرهم» هم القبط (ولا يعلمون) سرّ القضاء، وقال الضحاك : (ولا يعلمون) مصالحهم وصلاح عواقبهم، وقال الضحاك أيضاً ومقاتل : (لا يعلمون) أن الله وعدها رده إليها. وتقدم تفسير (ولما بلغ أشده) إلى (المحسنين) في سورة يوسف عليه السلام.

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَبَهُ الَّذِي مِنْ شِيعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ

(١) انظر زاد المسير ٢٠٥/٦، ٢٠٦ والقرطبي ١٣/١٧٠.

(٢) الكافل العائل: والكافل والكفيل: الضامن، والأنتى كفيل أيضاً.

لسان العرب (٣٩٠٦/٥)

(٣) البيت لأبي تمام انظر ديوانه (٣٠٠/١).

مُضِلُّ مَبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوسَى إِنَّكَ أَلَمَّا يَا تَمْرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَأَخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

(المدينة) قال ابن عباس: هي منف<sup>(١)</sup>، ركب فرعون يوماً وسار إليها، فعلم موسى عليه السلام بركوبه، فلحق بتلك المدينة، في وقت القائلة، وعنه بين العشاء والعتمة<sup>(٢)</sup>، وقال ابن إسحق (المدينة) مصر بنفسها، وكان موسى قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون فاخطفى، وخاف فدخلها متنكراً، حذراً، متغفلاً للناس<sup>(٣)</sup>، وقال ابن زيد: كان فرعون قد أخرجته من المدينة، فغاب عنها سنين فَنَسِيَ، فجاء والناس في غفلة بنسيانهم له وبعد عهدهم به، وقيل: كان يوم عيد وهم مشغولون بلهوهم، وقيل: خرج من قصر فرعون ودخل مصر، وقيل: (المدينة) عين شمس، وقيل: قرية على فرسخين من مصر يقال لها «حابين»، وقيل: الإسكندرية، وقرأ أبو طالب القارئ (على حين) بنصب نون حين، ووجهه: أنه أجرى المصدر مجرى الفعل، كأنه قال «على حين غفل أهلها»، فبناه، كما بناه حين أضيف إلى الجملة المصدرية بفعل ماضٍ كقوله:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا<sup>(٤)</sup>

وهذا توجيه شذوذ، وقرأ «نعيم بن مسيرة»: (يقتلان) بإدغام التاء في التاء، ونقل فتحها إلى القاف، قيل: كانا (يقتلان) في الدين، إذ أحدهما إسرائيلي مؤمن، والآخر قبطي، وقيل: (يقتلان) في أن كلف القبطي حمل الخطب إلى مطبخ فرعون على ظهر الإسرائيلي، و(يقتلان) صفة لرجلين، وقال ابن عطية: (يقتلان) في موضع الحال. انتهى. والحال من النكرة أجزاه سبويه من غير شرط، (هذا من شيعته) أي ممن شابعه على دينه وهو الإسرائيلي، قيل: وهو السامري. (وهذا من عدوه) أي من القبط، وقيل: اسمه «فاتون»، وهذا حكاية حال، وقد كانا حاضرين حالة وجدان موسى لها، أو لحكاية الحال، عبر عن غائب ماضٍ باسم الإشارة الذي هو موضوع للحاضر، وقال المبرد: العرب تشير بهذا إلى الغائب، قال جرير:

(١) منف: اسم مدينة فرعون بمصر، وقيل: هي المرادة بالآية «ودخل المدينة على...» وقيل: هي أول مدينة عمرت بعد الفرق.

انظر معجم البلدان ٢٤٧/٥.

(٢) انظر القرطبي ١٨٢/١٣ وزاد المسير ٢٠٧/٦، ٢٠٨.

(٣) انظر القرطبي ١٧٢/١٣ وزاد المسير ٢٠٧/٦، ٢٠٨.

(٤) البيت للناطقة من الطويل انظر ديوانه (٣٢) الكتاب (٣٣٠/٢) شرح الفصل لابن يعيش (١٦/٣) التصريح (٤٢/٢) الممع (٢١٨/١).

الأشموني (٢٥٦/٢).



هَذَا ابْنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفَةً لَوْ شِئْتُ سَأَقْكُمُ إِلَيَّ قَطِينًا<sup>(١)</sup>

وقرأ الجمهور (فاستغاثه) أي طلب غوثه ونصره على القبطي، وقرأ سيبويه وابن مقسم والزعفراني: بالعين المهملة والنون بدل الثاء، أي طلب منه الإعانة على القبطي، قال أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة: والاختيار قراءة ابن مقسم، لأن الإعانة أولى في هذا الباب، وقال ابن عطية: ذكرها الأخفش وهي تصحيف لا قراءة. انتهى. وليست تصحيفاً، فقد نقلها ابن خالويه عن سيبويه، وابن جبارة عن ابن مقسم والزعفراني.

وروي: أنه لما اشتد التناكر بينهما قال القبطي لموسى: لقد هممت أن أحمله عليك، يعني الحطب، فاشتد غضب موسى، وكان قد أوتي قوة (فوكزه) فمات، وقرأ عبد الله: (فلكزه) باللام وعنه، (فنكزه) بالنون، قال قتادة: (وكزه) بعصاه. وغيره قال: بجمع كفه. والظاهر: أن فاعل (ففضي) ضمير عائذ على «موسى»، وقيل: يعود على «الله» أي فضي الله عليه بالموت، ويحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من (وكزه) أي: «فيفضي الوكز عليه». وكان موسى لم يتعمد قتله، ولكن وانتمت وكزته الأجل، فندم موسى. وروي: أنه دفنه في الرمل وقال: (هذا من عمل الشيطان) وهو ما لحقه من الغضب حتى أدى إلى الوكزة التي قضت على القبطي، وجعله من عمل الشيطان، وساء ظملاً لنفسه، واستغفر منه، لأنه أدى إلى قتل من لم يؤذن له في قتله، وعن ابن جريج ليس لني أن يقتل ما لم يؤمر، وقال كعب: كان موسى إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قتله خطأ، فإن الوكزة في الغالب لا تقتل، وقال النقاش: كان هذا قبل النبوة. وقد انتهج موسى عليه السلام نهج آدم عليه السلام إذ قال (ظلمنا أنفسنا) والباء في (بما أنعمت) للقسم، والتقدير: «أقسم بما أنعمت به عليّ من المغفرة»، والجواب محذوف، أي: «لأنون». (فلن أكون) أو متعلقة بمحذوف تقديره «اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة» (فلن أكون) إن عصمتني (ظهيراً للمجرمين)، وقيل: (فلن أكون) دعاء لا خبر، و«لن» بمعنى «لا» في الدعاء، والصحيح أن «لن» لا تكون في الدعاء، وقد استدلل على أن «لن» تكون في الدعاء هذه الآية ويقول الشاعر:

لَنْ تَزَالُوا كَذَّاكُمُ ثُمَّ مَا زِلُمْ لَهُمْ خَالِدًا خُلُودَ الْجِبَالِ<sup>(٢)</sup>

و«المظاهرة» إما بصحته لفرعون، وانتظامه في جملة، وتكثير سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون، وإما أنه أدت المظاهرة إلى القتل الذي جرى على يده، وقيل: (بما أنعمت علي) من النبوة فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك، ولا أدع قبطياً يغلب لإسرائيلياً. واحتج أهل العلم بهذه الآية على منع معونة أهل الظلم وخدمتهم، نص على ذلك عطاء بن أبي رباح وغيره. وقال رجل لعطاء إن أخي يضرب بعلمه ولا يعدو رزقه، قال: فمين الرأس؟ يعني من يكتب له؟ قال خالد بن عبد الله القسري، قال: فأين قول موسى وتلا الآية (فأصبح في المدينة خائفاً) من قبل القبطي أن يؤخذ به. (يترب) وقوع المكروه به، أو الإخبار هل وقفوا على ما كان منه، وقيل: (خائفاً) من أنه يترب المغفرة، وقيل: (خائفاً يترب) نصرة ربه، أو يترب هداية قومه، أو ينتظر أن يسلمه قومه، (فإذا الذي استنصره بالأمس) أي الإسرائيلي الذي كان قتل القبطي بسببه، و(إذا) هنا للمفاجأة، و(بالأمس) يعني اليوم الذي قبل يوم الاستصراخ، وهو معرب، فحركة سينه حركة إعراب، لأنه دخلته «أل»، بخلاف حاله إذا عري منها، فالجواز تبنيه إذا كان معرفة، وتميم تمنعه الصرف حالة الرفع فقط، ومنهم من يمنعه الصرف مطلقاً، وقد بينى مع «أل» على سبيل الندور، قال الشاعر:

(١) انظر ديوانه (٤٣٩) وانظر روح المعاني (٥٣/٢٠).

(٢) البيت من الخفيف للأعشى انظر ديوانه (١٦٩) الأشموني (٢٧٨/٢) الممع (١١١/١) والتصريح (٢٣٠/٢).

وَإِنِّي حَسِبْتُ الْيَوْمَ وَالْأَمْسَ قَبْلَهُ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ<sup>(١)</sup>

(يستصرخه) يصبح به مستغيثاً من قبضي آخر، ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَنَزَعُ      كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَابِيبِ

(قال له موسى) الظاهر أن الضمير في (له) عائد على (الذي)، (إنك لغوي مبین) لكونك كنت سبباً في قتل القبطي بالأمس، قال له ذلك على سبيل العتاب والتأنيب، وقيل: الضمير في (له) والخطاب للقبطي، ودل عليه قوله (يستصرخه) ولم يفهم الإسرائيلي أن الخطاب للقبطي، (فلما أن أراد أن يبطنش) الظاهر أن الضمير في (أراد) و(يبطنش) هو لموسى، (بالذي هو عدو لها) أي للمستصرخ وموسى وهو القبطي يوهم الإسرائيلي أن قوله (إنك لغوي مبین) هو على سبيل إرادة السوء به وظن أنه يسطو عليه، قال أي الإسرائيلي (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس) دفعاً لما ظنه من سطو موسى عليه، وكان تعيين القائل القبطي قد خفي على الناس، فانتشر في المدينة أن قاتل القبطي هو موسى ونفي ذلك إلى فرعون فأمر بقتل موسى، وقيل: الضمير في (أراد) و(يبطنش) للإسرائيلي عند ذلك من موسى وخاطبه بما يقبح وإن بعد لما يطرد زيادتها، وقيل «لو» إذا سبق قسم كقوله:

فَأَقْسِمُ أَنْ لَوْ التَّقَيْنَا وَأَنْتُمْ      لَكَانَ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٌ<sup>(٢)</sup>

وقرأ الجمهور (يبطنش) بكسر الطاء، والحسن وأبو جعفر: بضمها، (إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض) وشأن الجبار أن يقتل بغير حق، وقال الشعبي: من قتل رجلين فهو جبار، يعني بغير حق. ولما أثبت له الجبروتية نفى عنه الصلاح، (وجاء رجل من أقصى المدينة) قيل هو مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، قال الكلبي: واسمه جبريل بن شمعون، وقال الضحكاك: شمعون بن إسحق، وقيل: هو غير مؤمن آل فرعون (يسعى) يشتد في مشيه. ولما أمر فرعون بقتله خرج الجلاوزة<sup>(٣)</sup> من الشارع الأعظم لطلبه، فسلك هذا الرجل طريقاً أقرب إلى موسى، (ومن أقصى المدينة) و(يسعى) صفتان، ويجوز أن يكون (يسعى) حالاً، ويجوز أن يتعلق (من أقصى) بـ (جاء)، قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: وإذا جعل يعني (من أقصى) حالاً لـ (جاء) لم يجز في (يسعى) إلا الوصف انتهى. يعني: أن رجلاً يكون نكرة لم توصف، فلا يجوز منها الحال<sup>(٥)</sup>، وقد أجاز ذلك سيويه في كتابه من غير وصف (قال إن الملاء) وهم وجوه أهل دولة فرعون (بأمرزون) يتشاورون قال الشاعر وهو النمر بن تولب:

أَرَى النَّاسَ قَدْ أَحْدَثُوا شَيْمَةً      وَفِي كُلِّ حَادِثَةٍ يُؤْتَمَرُ<sup>(٦)</sup>

(١) من الطويل لنصيب بن رباح وروايته في الديوان:

(وإني نويت اليوم... على الباب...)

وانظر المحتسب (١٩٠/٢) الممع (٢٠٩/١).

(٢) من الطويل للمسيب بن علس انظر الكتاب (١٠٧/٣) وابن يعيش (٩٤/٩) المغني (٣٢/١) التصريح (٢٣٣/٢).

(٣) الجلاوزة: وقيل هو الشرطي، والجمع جلاوزة، وجلزته، أي: خفته بين يدي العامل في ذهابه ومجيئه، والجمع الجلاوزة.

لسان العرب (١٠٧/١)

(٤) انظر الكشاف ٣/٣٩٩.

(٥) انظر تفصيل ذلك في شرح الكافية ١/٢٠٤، شرح الفصل ٦٤/٢ الأشموني ١٧٦/٢ التصريح ١/٣٧٨.

(٦) من المقارب انظر مجاز القرآن (١٠٠/٢).

وقال ابن قتبية: يأمر بعضهم بعضاً بقوله من قوله تعالى ﴿واثمروا بينكم بمعروف﴾ [الطلاق: ٦] (فاخرج إني لك من الناصحين)، و(لك) متعلق إما بمحذوف، أي: ناصح لك من الناصحين، أو بمحذوف على جهة البيان أي: لك أعني، أو بالناصحين، وإن كان في صلة ال لأنه يتسامح في الظروف والمجرور ما لا يتسامح في غيرها. وهي ثلاثة أقوال للناصحين فيما أشبه هذا.

فامتثل موسى ما أمره به ذلك الرجل، وعلم صدقه ونصحه، وخرج وقد أفلت طالبيه فلم يجده، وكان موسى لا يعرف ذلك الطريق، ولم يصحب أحداً فسلك مجهلاً وثاقاً بالله تعالى داعياً راعباً إلى ربه في تنجيته من الظالمين.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنَةُ بَدْعُوكَ لِجَبْرَيْكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرِّي إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي لَأَشَقُّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ ءَأَسَّكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسَّتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَدُودٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

(توجه) رد وجهه، و(تلقاء) تقدم الكلام عليه في يونس أي: ناحية وجهه، استعمل المصدر استعمال الظرف، وكان هناك ثلاث طرق، فأخذ موسى أوسطها، وأخذ طالبوه في الآخرين، وقالوا: المرعب لا يأخذ في أعظم الطرق، ولا يسلك إلا بنياتها، فبقي في الطريق ثنائي ليال وهو حاف لا يطعم إلا ورق الشجر. والظاهر من قوله (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) أنه كان لا يعرف الطريق، فسأل ربه أن يهديه أقصد الطرق بحيث إنه لا يضل، إذ لو سلك ما لا يوصله إلى المقصود لناه، وعن ابن عباس: قصد «مدين» وأخذ يمشي من غير معرفة، فأوصله الله إلى مدین<sup>(١)</sup>، وقيل: هده جبريل إلى مدین، وقيل: ملك غيره، وقيل: أخذ طريقاً يأمن فيه فاتفق ذهابه إلى مدین<sup>(٢)</sup>. والظاهر أن (سواء السبيل) وسط الطريق

(١) انظر زاد المسير ٦/٢١٢.

(٢) مدین: قال أبو زيد: مدین على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البشر التي استقى منها موسى. انظر معجم البلدان (٩٢/٥)

الذي يسلكه إلى مكان آمنه، وقال مجاهد: (سواء السبيل) طريق مدين، وقال الحسن: هو سبيل الهدى، فمشى موسى عليه السلام إلى أن وصل إلى مدين، ولم يكن في طاعة فرعون. (ولما ورد ماء مدين) أي وصل إليه. «والورود» بمعنى الوصول إلى الشيء، وبمعنى الدخول فيه، قيل: وكان هذا الماء بئراً، و«الأمّة» الجمع الكثير، ومعنى (عليه) أي على شفيره وحاشيته، (يسقون) يعني مواشيه (ووجد من دونهم) أي من الجهة التي وصل إليها قبل أن يصل إلى الأمّة، فهما من دونهم بالإضافة إليه، قاله ابن عطية، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: في مكان أسفل من مكانهم، (تذودان) قال ابن عباس وغيره: (يذودان) غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء، وقال قتادة: (تذودان) الناس عن غنمهما، قال الزجاج: وكأنيما تكرهان المزامحة على الماء، وقيل: لثلاث مختلط غنمهما بأغنمامهم، وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لسترهما، وقال الفراء: تحبسناها عن أن تفرق. واسم الصغرى «عبرا» واسم الكبرى «صبورا»، ولما رأهما موسى عليه السلام واقفتين لا تتقدمان للسقي سألهما. فقال: (ما خطبكما)، قال ابن عطية: والسؤال بالخطب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: وحقيقته ما مخطوبكما؟ أي ما مطلوبكها من الديات؟، سمي المخطوب خطباً كما سمي الشؤون شأناً، في قولك «ما شأنك» يقال شأنت شأنه أي قصدت قصده. انتهى. وفي سؤاله عليه الصلاة والسلام دليل على جواز مكالمة الأجنبية فيما يعن، ولم يكن لأبيها أجير، فكانتا تسوقان الغنم إلى الماء، ولم تكن لهما قوة الاستقاء، وكان الرعاة يستقون من البئر فيسقون مواشيهما فإذا صدروا فإن بقي في الحوض شيء سقتا، فوافى موسى عليه السلام ذلك اليوم وهما يمنعان غنمهما عن الماء، فرق عليهما، وقال: (ما خطبكما) وقرأ شمر: بكسر الخاء أي من زوجكها، ولم لا يسقي هو؟ وهذه قراءة شاذة نادرة (فالتا لا نسقي) وقرأ ابن مصرف (لا نسقي) بضم النون، وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسن وقاتدة والعريبيان (يصدُر) بفتح الياء وضم الدال، أي يصدرون بأغنمامهم، وبأقي السبعة والأعرج وطلحة والأعمش وابن أبي إسحق وعيسى بضم الياء وكسر الدال، أي يصدرون أغنمامهم، وقرأ الجمهور (الرعاء) بكسر الراء جمع تكسير، قال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: وأما (الرعاء) بالكسر فقياس، كصيام وقيام. انتهى. وليس بقياس لأنه جمع راع، وقياس فاعل الصفة التي للعاقل أن تكسر على فعلة كفاض وقضاة، وما سوى جمعه هذا فليس بقياس، وقرئ (الرعاء) بضم الراء وهو اسم جمع كالرخال والثناء، قال أبو الفضل الرازي، وقرأ «عياش» عن «أبي عمرو» «الرعاء»: بفتح الراء وهو مصدر أقيم مقام الصفة، فاستوى لفظ الواحد والجماعة فيه، وقد يجوز أنه حذف منه المضاف، (وأبونا شيخ كبير) اعتذار لموسى عن مباشرتها السقي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخه وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتها، (فسقى لهما) أي سقى غنمهما لأجلهما، وروي: أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا عدد من الرجال، واضطرب النقل في العدد، فأقل ما قالوا: سبعة، وأكثره: مائة، فأقله وحده، وقيل: كانت لهم دلو لا ينزع بها إلا أربعون، فنزع بها وحده، وروي: أنه زاحمهم على الماء حتى سقى لهما، كل ذلك رغبة في الثواب على ما كان به من نصب السفر، وكثرة الجوع، حتى كانت تظهر الخضرة في بطنه من البقل، وقيل: إنه مشى حتى سقط أصله، وهو باطن القدم، ومع ذلك أغاثهما وكفاهما أمر السقي<sup>(٤)</sup>، وقد طابق جوابها لسؤاله. سألهما عن سبب الذود، فأجاباه بأننا امرأتان، ضعيفتان، مستورتان لا نقدر على مزامحة الرجال، فنؤخر السقي إلى فراغهم. ومباشرتها ذلك ليس بمحظور. وعادة العرب وأهل البدو في ذلك غير عادة أهل الحضرة والأعاجم، لا سيما إذا دعت إلى ذلك ضرورة (ثم تولى إلى الظل)، قال ابن مسعود:

(١) انظر الكشاف ٤٠٠/٣.

(٢) انظر الكشاف ٤٠٠/٣.

(٣) انظر الكشاف ٤٠١/٣.

(٤) انظر القرطبي ١٣/١٧٧، ١٧٨ وزاد المسير ٦/٢١٣، ٢١٤.

ظل شجرة<sup>(١)</sup>، قيل: كانت سُمرة<sup>(٢)</sup>، وقيل: إلى ظل جدار لا سقف له، وقيل: جعل ظهره يلي ما كان يلي وجهه من الشمس (قال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) قال المفسرون: تعرض لما يطعمه لما ناله من الجوع، ولم يصرح بالسؤال. (وأنزلت) هنا بمعنى تنزل، وقال الزمخشري: وعدي باللام (فقير) لأنه ضمن معنى سائل وطالب، ويحتمل أن يريد أي «فقير من الدنيا، لأجل ما أنزلت إلي من خير الدين، وهو النجاة من الظالمين» لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة، قال ذلك رضىً بالبدل السني، وفرحاً به، وشكراً له، وقال الحسن: سأل الزيادة في العلم والحكمة، (فجاءته إحداهما تمثي على استحياء) في الكلام حذف، والتقدير: «فذهبنا إلى أبيهما من غير إبطاء في السقي، وقصتا عليه أمر الذي سقى لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له» (فجاءته إحداهما) قرأ ابن محيصن (فجاءته إحداهما) بحذف الهزمة تخفيفاً على غير قياس، مثل: «ويل أمه» في «ويل أمه» و«يا با فلان»، والقياس: أن يجعل بين بين. و(إحداهما) مبهم، فقيل: الكبرى، وقيل: كانتا توأمتين، ولدت الأولى قبل الأخرى بنصف نهار، و(على استحياء) في موضع الحال، أي: مستحبة متحفزة، قال عمر بن الخطاب: قد سترت وجهها بكم درعها. والجمهور على أن الداعي أباهما هو «شعيب» عليه السلام، وهما ابنتاه، وقال الحسن: هو ابن أخي شعيب، واسمه «مروان»، وقال أبو عبيدة: «هارون»، وقيل: هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب، وقيل: كان عمهما صاحب الغنم، وهو المزوج، عبرت عنه بالأب إذ كان بمثابة، (ليجزيك أجر ما سقيت لنا) في ذلك ما كان عليه شعيب من الإحسان والمكافأة لمن عمل له عملاً، وإن لم يقصد العالم المكافأة (فلما جاءه) أي «فذهب معها إلى أبيهما» وفي هذا دليل على اعتماد إخبار المرأة، إذ ذهب معها موسى، كما يعتمد على أخبارها في باب الرواية، (وقص عليه القصص) أي ما جرى له من خروجه من مصر وسبب ذلك (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أي قبل الله دعاءك في قولك (رب نجني من القوم الظالمين)، أو أخبره بنجاته منهم فأنسه بقوله (لا تخف)، وقرب إليه طعاماً، فقال له موسى: «إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً» فقال له شعيب: «ليس هذا عوض السقي، ولكن عادي وعادة آبائي قرى الضيف، وإطعام الطعام». فحينئذ أكل موسى عليه السلام، (قالت إحداهما) أي أمهم القائلة وهي الذاهبة، والقائلة، والمتزوجة (يا أبت استأجره) أي لرعي الغنم وسقيها، ووصفته بالقوة لكونه رفع الصخرة عن البئر وحده، وانتزع بتلك الدلو، وزاحمهم حتى غلبهم على الماء، وبالأمانة، لأنها حين قام يتبعها هبت الريح فلفت ثيابها فوصفتها، فقال: «ارجعي خلفي ودليني على الطريق» وقولها كلام حكيم جامع، لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر فقد تم المقصود، وهو كلام جرى مجرى المثل، وصار مطروفاً للناس، وكان ذلك تعليلاً للاستئجار، وكأنها قالت: «استأجره لأمانته وقوته» وصار الوصفان منبهين عليه، ونظير هذا التركيب، قول الشاعر:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَهَالِكًا      أُسِيرُ تَقِيْفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلَاسِلِ

جعل (خير من استأجرت) الاسم اعتناء به، وحكمت عليه بالقوة والأمانة، ولما وصفته بهذين الوصفين قال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا؟ فذكرت إقلاله الحجر وحده، وتخرجه من النظر إليها حين وصفتها بالريح، وقاله ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم، وقيل: قال لها موسى ابتداء: كوني ورائي فإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء ودليني على الطريق يميناً أو يساراً.

(١) انظر القرطبي ١٣/١٧٧، ١٧٨ وزاد السير ٦/٢١٣، ٢١٤.

(٢) انظر القرطبي ١٣/١٧٧، ١٧٨ وزاد السير ٦/٢١٣، ٢١٤.

وقال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: بنت شبيب، وصاحب يوسف في قوله ﴿عسى أن ينفعنا﴾ [يوسف ٢١]، وأبو بكر في عمر.

وفي قولها (استأجره) دليل على مشروعية الإجارة عندهم، وكذا كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الناس، ومصلحة الخلطة خلافاً لابن عليّة والأصم، حيث كانا لا يميزانها، وهذا مما انعقد عليه الإجماع، وخلافهما حرق (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين) رغب شعيب في مصاهرته، لما وصفته به، ولما رأى فيه من عزوفه عن الدنيا، وتعلقه بالله، وفراره من الكفرة، وقرأ ورش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو (أنكحك إحدى) بحذف الهمزة.

وظاهر قوله (أن أنكحك) أن الإنكاح إلى الولي، لا حق للمرأة فيه، خلافاً لأبي حنيفة في بعض صورته، بأن تكون بالغة، عالمة بمصالح نفسها فإنها تعقد على نفسها، بمحض من الشهود. وفيه دليل على عرض الولي وليته على الزوج، وقد فعل ذلك «عمر»، ودليل على تزويج ابنته البكر من غير استئثار، وبه قال مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: إذا بلغت البكر فلا تزوج إلا برضاها، قيل: وفيه دليل على قول من قال: لا ينعقد إلا بلفظ التزويج أو الإنكاح، وبه قال ربيعة والشافعي وأبو ثور وأبو عبيد داود (وإحدى ابنتي) مبهم وهذا عرض لا عقد، ألا ترى إلى قوله (إني أريد) وحين العقد يعين من شاء منهما، وكذلك لم يحد أول أمد الإجارة، والظاهر من الآية جواز النكاح بالإجارة، وبه قال الشافعي وأصحابه وابن حبيب، وقال الزمخشري: (هاتين) فيه دليل على أنه كانت له غيرهما انتهى. ولا دليل في ذلك، لأنها كانتا اللتين رأهما تدودان، وجاءته إحداهما، فأشار إليهما، والإشارة إليهما لا تدل على أن له غيرهما، (على أن تأجرني) في موضع الحال من ضمير (أنكحك) إما الفاعل، وإما المفعول. و(تأجرني) من «أجرته» كنت له أجيراً، كقولك «أبوته» كنت له أباً، ومفعول (تأجرني) الثاني محذوف، تقديره: «نفسك» و(ثماني) حجج ظرف، وقاله أبو البقاء، وقال الزمخشري: (حجج) مفعول به، ومعناه: «رعيه» ثماني حجج (فإن أتممت عشراً فمن عندك) أي هو تبرع وتفضل، لا اشتراط، (وما أريد أن أشق عليك) يلزم أيما الأجلين، ولا في المعاشرة، والمناقشة في مراعاة الأوقات، وتكليف الرعاة أشياء من الخدم خارجة عن الشرط (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) وعد صادق. مقرون بالمشيئة، (من الصالحين) في حسن المعاملة ووطءة الخلق، أو (من الصالحين) على العموم، فيدخل تحته حسن المعاملة. ولما فرغ شعيب مما حاور به موسى قال موسى (ذلك بيني وبينك) على جهة التقدير والتوثق في أن الشرط إنما وقع في (ثماني حجج) و(ذلك) مبتدأ خبره (بين وبينك) إشارة إلى ما عاهده عليه، أي ذلك الذي عاهدتني وشارطتني قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ثم قال (أيما الأجلين) أي الثماني أو العشر (فلا عدوان علي) أي لا يعتدي علي في طلب الزيادة، و(أي) شرط و(ما) زائدة، وقرأ الحسن والعباس عن أبي عمرو (أيما) بحذف الياء الثانية كما قال الشاعر:

تَنْظَرْتُ نَصْرًا وَالسَّمَاكَيْنِ أَيَّمَا عَلِيٍّ مِنَ الْعَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهُ<sup>(١)</sup>

وقرأ عبد الله (أي الأجلين ما قضيت) بزيادة (ما) بين (الأجلين) و(قضيت) قال الزمخشري: (فإن قلت) ما الفرق بين موقف (ما) الزيادة في القراءتين (قلت): وقعت في المستفيضة مؤكدة الإهام، أي زائدة في شياعها وفي الشاذ تأكيداً للقضاء، كأنه قال: «أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزمي له»، وقرأ أبو حيوة وابن قطيب (فلا عدوان) بكسر العين، قال المبرد: قد علم أنه لا عدوان عليه في أتمهما، ولكن جمعها ليجعل الأول كالآتم في الوفاء، وقال الزمخشري:

(١) من الطويل للفرزدق انظر ديوانه (٢٨١/١) والمحتسب (٤١/١).

تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو أفصر، وهو المطالبة بتتمة العشر فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً؟ (قلت) معناه: كما أي إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه، فكذلك إن طولبت في الزيادة على الثاني، أراد بذلك تقرير الخيار، وأنه ثابت مستقر، وأن الأجلين على السواء، إما هذا، وإما هذا، من غير تفاوت بينهما في القضاء، وأما التتمة فموكولة إلى رأيي إن شئت آتيت بها وإلا لم أجبر عليها، وقيل: معناه فلا أكون متعدياً وهو في نفي العدوان عن نفسه كقولك «لا إنم علي ولا تبعه». انتهى. وجوابه الأول فيه تكثير، (والله على ما نقول) أي على ما تعاهدنا عليه وتواثقتنا (وكيل) أي شاهد، وقال قتادة: حفيظ، وقال ابن شجرة: رقيب والوكيل الذي وكل إليه الأمر، فلما ضمن معنى شاهد ونحوه عدي بعل (فلما قضى موسى الأجل) جاء عن النبي ﷺ أنه وثى أطول الأجلين وهو العشر، وعن مجاهد وثى عشر أو عشرأ بعدها، وهذا ضعيف، (وسار بأهله) أي نحو مصر بلده، وبلد قومه. والخلاف فيمن تزوج، الكبرى أم الصغرى؟ وكذلك في اسمها، وتقدم كيفية سيره. وإيناسه النار في سورة طه وغيرها، وقرأ الجمهور (جذوة)<sup>(١)</sup> بكسر الجيم، والأعمش وطلحة وأبو حيوة وحمزة بضمها. وعاصم غير الجعفي بفتحها (لعلكم تصطلون) أي تتسخنون بها، إذ كانت ليلة باردة وقد أضلوا الطريق.

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّيْ إِنْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّيْ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنَادُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا ۗ أَنْتَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعٰلَمُونَ ﴿٣٥﴾

(من) في (من شاطيء) لابتداء الغاية، (ومن الشجرة) كذلك، إذ هي بدل من الأولى، أي من قبيل الشجرة (والأيمن) يحتمل أن يكون صفة للشاطيء، وللواوي، على معنى «اليمن والبركة»، أو «الأيمن»، يريد المعادل للعضو الأيسر، فيكون ذلك بالنسبة إلى موسى، لا للشاطيء، ولا للواوي، أي «أيمن موسى في استقباله حتى يهبط الوادي»، أو بعكس ذلك، وكل هذه الأقوال في (الأيمن) مقول، وقرأ الأشهب العقيلي ومسلمة في (البقعة) بفتح الباء، قال «أبوزيد». سمعت من العرب «هذه بقعة طيبة» بفتح الباء، ووصفت البقعة بالبركة لما خصت به من آيات الله وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام، أو لما حوت من الأرزاق والثمار الطيبة. ويتعلق (في البقعة) بـ (نودي)، أو تكون في موضع الحال من (شاطيء) والشجرة: عناب، أو علق، أو سمرة، أو عوسج. أقوال. (وأن) يحتمل أن تكون حرف تفسير، وأن تكون مخففة من الثقيلة، وقرأت فرقة (أي أنا) بفتح الهمزة. وفي إعرابه إشكال لأن «أن» إن كانت تفسيرية فينبغي كسر (إني) وإن

(١) والجذوة والجذوة والجذوة: القبسة من النار، وقيل هي الجمرة والجمع جذأوجذأوقيل: الجذوة القطعة الغليظة من الخشب ليس فيها لب.

كانت مصدرية تتقدر بالمفرد، والمفرد لا يكون خبراً للضمير الشأن، فتخريج هذه القراءة على أن تكون «أن» تفسيرية و(إني) معمول للضمير تقديره «إني يا موسى أعلم أني أنا الله»، وجاء في طه ﴿نودي يا موسى إني أنا ربك﴾ [طه : ١١ ، ١٢] وفي النمل ﴿نودي أن بورك من في النار﴾ [النمل : ٨] وهنا (نودي من شاطيء) ولا منافاة، إذ حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء. والجمهور: على أنه تعالى كلمه في هذا المقام من غير واسطة، وقال الحسن: ناداه نداء الوحي، لا نداء الكلام. وتقدم الكلام على نظير قوله (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب) ثم أمره فقال (اسلك يدك في جيبك) وهو فتح الجبة من حيث نخرج الرأس، وكان كم الجبة في غاية الضيق، وتقدم الكلام على (تخرج بيضاء من غير سوء) وفسر الجناح هنا باليد، وبالعضد، وبالعطاف، وبما أسفل من العضد إلى الرسغ، ويجب مدرعته. و(الرهب) الخوف، وتأتي القراءات فيه، وقيل: بفتح الراء والهاء: الكم بلغة بني حنيفة وحمير، وسمع الأصمعي قائلًا يقول: أعطني ما في رَهَبِكَ، أي في كَمِكَ. والظاهر حمل (واضمم إليك جناحك من الرهب) على الحقيقة، قال الثوري: خاف موسى أن يكون حدث به سوء فأمره تعالى أن يعيد يده إلى جيبه لتعود على حالتها الأولى، فيعلم موسى أنه لم يكن سوءاً، بل آية من الله، وقال «مجاهد» و«ابن زيد»، أمره بضم عضده وذراعه وهو الجناح إلى جنبه ليخف بذلك فزعه، ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يقوى قلبه، وقيل: لما انقلبت العصا حية فزع موسى واضطرب، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له (أدخل يدك) تحت عضدك مكان اتفائك بها، ثم أخرجها بيضاء لتظهر معجزة أخرى، وهذا القول بسطه الزمخشري<sup>(١)</sup>، لأنه كالتكرار. لقوله (اسلك يدك في جيبك) وقد قال هو «الجناح» هنا: اليد، قال لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه، وقيل: المعنى فإذا هالك أمر لما يغلب من شعاعها فاضممها إليك تسكن، وقالت فرقة: هو مجاز، أمره بالعزم على ما أمره به، كما تقول العرب «اشدد حيازيمك واربط جأشك» أي: شمر في أمرك ودع الرهب، وذلك لما كثر تخوفه وفزعه في غير موطن، قاله أبو علي وكأنه طيرُه الفزع وآلة الطيران الجناح، فقيل له: اسكن ولا تخف، وضم منشور جناحك من الخوف إليك، وذكر هذا القول الزمخشري<sup>(٢)</sup>، فقال: والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه تجلده، وضبطه نفسه، وتشدده عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب، ولا يهرب استعارة من فعل الطائر، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما، وإلا فجناحه مضمومان إليه مشمران. ومعنى (من الرهب) من أجل الرهب، أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك، جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلّة فيها أمر به من ضم جناحه إليه، ومعنى (واضمم إليك جناحك) وقوله (اسلك يدك في جيبك) على أحد التفسيرين واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء، وفي الثاني إخفاء الرهب (فإن قلت) قد جعل «الجناح» وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً، وفي الآخر مضموماً إليه وذلك قوله (واضمم إليك جناحك) (واضمم يدك إلى جناحك) فما التوفيق بينهما (قلت) المراد بالجناح المضموم: هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه: اليد اليسرى، وكل واحدة من يميني اليدين ويسرهما جناح. ومن بدع التفاسير: أن الرهب: الكم بلغة حمير، وأنهم يقولون «أعطني ما في رَهَبِكَ» وليت شعري كيف صحته في اللغة؟ وهل سمع من الأثبات الثقات التي ترضى عربيتهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية؟ وكيف يعطيه الفصل كسائر كلمات التنزيل؟ على أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زمامقة من صوف لا كمين لها. انتهى. أما قوله «وهل سمع من الأثبات؟» وهذا مروى عن الأصمعي وهو ثقة ثبت. وأما قوله: «كيف موقعه من الآية»، فقالوا: معناه أخرج يدك من كَمِكَ، وكان قد أخذ العصا بالكم، وقرأ الحرميان وأبو عمرو (من الرَّهَبِ) بفتح الراء والهاء، وحفص بفتح الراء

(١) انظر الكشاف ٤٠٨/٣.

(٢) انظر الكشاف ٤٠٩/٣.



وسكون الهاء وباقي السبعة بضم الراء وإسكان الهاء، وقرأ قتادة والحسن وعيسى والجحدري بضمهما، (فذانك) إشارة إلى العصا واليد، وهما مؤنثتان، ولكن ذكراً لتذكير الخبر، كما أنه قد يؤنث المذكر لتأنيث الخبر، كقراءة من قرأ: ﴿ثم لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا﴾ [الأنعام: ٢٣] بالياء في (تكن)، (برهانان): حجتان نيرتان، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (فذانك) بتشديد النون، وباقي السبعة بتخفيفها، وقرأ ابن مسعود وعيسى وأبو نوفل وابن هرمز وشبل (فذانيك) بياء بعد النون المكسورة، وهي لغة هذيل، وقيل: بل لغة تميم ورواها شبل عن ابن كثير، وعنه أيضاً (فذانيك) بفتح النون قبل الياء على لغة من فتح نون التثنية نحو قوله:

عَلَى أَحْوَدِيَّيْنِ اسْتَقَلَّتْ عَشِيَّةٌ<sup>(١)</sup>

وقرأ ابن مسعود: بتشديد النون مكسورة بعدها ياء قيل: وهي لغة هذيل، وقال «المهدي»: بل لغتهم تخفيفها، (وإلى فرعون) يتعلق بمحذوف دل عليه المعنى، تقديره «أذهب إلى فرعون» (قال رب إني قتلت منهم نفساً) هو القبطي الذي وكزه فمات، فطلب من ربه ما يزداد به قوة، وذكر أخاه، والعلة التي تكون له زيادة التبليغ (وأفصح) يدل على أن فيه فصاحة ولكن أخوه أفصح، (فأرسله معي رداءً) أي مُعِيناً يصدقني، ليس المعنى أنه يقول لي: صدقت إذ يستوي في قول هذا اللفظ العمي والفصيح، وإنما المعنى. أنه لزيادة فصاحته يبالغ في التبيان، وفي الإجابة عن الشبهات، وفي جداله الكفار، وقرأ الجمهور (رداءً) بالهمز، وأبو جعفر ونافع والمدنيان بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الدال، والمشهور عن أبي جعفر بالنقل ولا همز ولا تنوين، ووجهه أنه أجرى الوصل مجرى الوقف، وقرأ عاصم وحمزة (بصدقني) بضم القاف، فاحتمل الصفة لـ(رداءً)، والحال احتمال الاستئناف، وقرأ باقي السبعة بالإسكان، وقرأ أبو زيد بن علي (يصدقوني) والضمير لفرعون وقومه، قال ابن خالويه: هذا شاهد لمن جزم، لأنه لو كان رفعا لقال (يصدقوني) انتهى. والجزم على جواب الأمر، والمعنى في (يصدقوني) أرجو تصديقهم إياي، فأجابه تعالى إلى طلبته (وقال سنشد عضدك بأخيك) وقرأ زيد بن علي والحسن (عُضْدُكَ) بضميتين، وعن الحسن: بضم العين وإسكان الضاد، وعن بعضهم بفتح العين وكسر الضاد وفتحها، قرأ به عيسى، ويقال فيه «عُضْدُ» بفتح العين وسكون الضاد، ولا أعلم أحداً قرأ به، و«العضد» العضو المعروف، وهي قوام اليد، وبشدتها يشتد، قال الشاعر:

أُبْنِي لُبَيْنِي لَسْتُ مَا بِيَدٍ إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لَهَا عَضْدُ

والمعنى فيه «ستقويك بأخيك»، و«يقال في الخير شد الله عضدك»، وفي الشرف الله في عضدك، و«السلطان» الحجة والغلبة والتسليط، (فلا يصلون إليك) أي بسوء، أو إلى إذابتكما، ويحتمل (بآياتنا) أن يتعلق بقوله (ويجعل) أو بـ (يصلون) أو بـ (الغالبون)، وإن كان موصولاً على مذهب من يجوز عنده أن يتقدم الظرف والجار والمجرور على صلة آل، وإن كان عنده موصولاً على سبيل الاتساع، أو بفعل محذوف أي «أذهبا بآياتنا» كما علق في «تسع آيات» «بأذهب»، أو على البيان، فالعامل محذوف وهذه أعراب منقولة، وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون قسماً، جوابه (فلا يصلون) مقدماً عليه، أو من لغو القسم. انتهى. أما أنه قسم جوابه (فلا يصلون) فإنه لا يستقيم على قول الجمهور، لأن جواب القسم لا تدخله الفاء، وأما قوله. أو من لغو القسم فكأنه يريد والله أعلم أنه لم يذكر له جواب، بل حذف للدلالة عليه أي: «بآياتنا لتغلبن».

(١) من الطويل لحمد بن ثور انظر ديوانه (٥٥) شرح المفصل لابن يعيش (١٤١/٤) الأشموني (٩٠/١) أوضح المسالك (١٤). الممع (٤٩/١) التصريح (٧٨/١).

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ  
 ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
 الظَّالِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْتَمِنُ عَلَى  
 الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطْعَمُ إِلَٰهَ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٣٨ وَأَسْتَكَبَرَ هُوَ  
 وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ  
 فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ  
 إِلَىٰ التَّنَادِرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ  
 مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ  
 لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣

(بآياتنا) هي العصا واليد، (بينات) أي واضحات الدلالة على صدقه، وأنه أمر خارق معجز كفوا عن مقاومته ومعارضته، فرجعوا إلى البهت والكذب، ونسبوه إلى أنه سحر، لأنهم يرون الشيء على حالة ثم يرونه على حالة أخرى، ثم يعود إلى الحالة الأولى، فزعموا أنه سحر يفتعله موسى ويفتره على الله فليس بمعجز، ثم مع دعواهم أنه سحر مفترى، وكذبهم في ذلك، زادوا في الكذب أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم، أي في زمان آبائهم وأيامهم (وفي آياتنا) حال أي (بهذا) أي: بمثل هذا كائناً في أيام آبائنا، وإذا نفوا السماع لمثل هذا في الزمان السابق ثبت أن ما ادعاه موسى هو بدع لم يسبق إلى مثله، فدل على أنه مفترى على الله، وقد كذبوا في ذلك. وطرق سمعهم أخبار الرسل السابقين موسى في الزمان، ألا ترى إلى قول مؤمن آل فرعون ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ [غافر ٣٤] ولما رأى موسى ما قابلوه به من كون ما أتى به سحراً، وانتفاء سماع مثله في الزمان السابق (قال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) حيث أهله للرسالة، وبعثه بالهدى، ووعدده حسن العقبي، ويعني بذلك نفسه، ولو كان كما يزعمون لم يرسله. ثم نبه على العلة الموجبة لعدم الفلاح وهي «الظلم» وضع الشيء غير موضعه، حيث دُعوا إلى الإيمان بالله وأتوا بالمعجزات، فادعوا الإلهية ونسبوا ذلك المعجز إلى السحر، و(عاقبة الدار) وإن كانت تصلح للمحمودة والمذمومة فقد كثر استعمالها في المحمودة، فإن لم تقيد حملت عليها، ألا ترى إلى قوله ﴿وأولئك لهم عقبي الدار جنات عدن﴾ [الرعد ٢٢، ٢٣] وقال ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار﴾ [الرعد ٤٢]، وقرأ ابن كثير (قال موسى) بغير واو، وباقي السبعة بالواو، ومناسبة قراءة الجمهور أنه لما جاءهم بالبينات قالوا: كيت وكيت، وقال موسى كيت وكيت، فيتميز الناظر فصل ما بين القولين وفساد أحدهما، إذ قد تقابلا، فيعلم يقيناً أن قول موسى هو الحق والهدى، ومناسبة قراءة ابن كثير أنه موضع قراءة لما قالوا: كيت وكيت، قال موسى: كيت وكيت ونفى فرعون علمه بإله غيره للملأ، ويريد بذلك نفي وجوده، أي ما لكم من إله غيري، ويجوز أن يكون غير معلوم عنده إله لهم، ولكنه مطنون، فيكون النفي على ظاهره، ويدل على ذلك قوله (وإنني لأظنه من الكاذبين) وهو الكاذب في انتفاء علمه بإله غيره، ألا ترى إلى قوله حالة غرقه: ﴿أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ [يونس: ٩] واستمر

فرعون في مخرقته<sup>(١)</sup>، ونادى وزيره هامان، وأمره أن يوقد النار على الطين، قيل: وهو أول من عمل الأجر، ولم يقل اطلع الأجر، لأنه لم يتقدم هامان علم بذلك فرعون هو الذي يعلمه ما يصنع، (فاجعل لي صرحاً) أي ابن لي (العلي أطلع إلى إله موسى) أو هم قومه أن إله موسى يمكن الوصول إليه والقدرة عليه، وهو عالم متيقن أن ذلك لا يمكن له، وقومه لغباوتهم وجهلهم وإفراط عمايتهم يمكن ذلك عندهم، ونفس إقليمي مصر يقتضي لأهله تصديقهم بالمستحيلات، وتأثرهم للموهومات، والخيالات، ولا يشك أنه كان من قوم فرعون من يعتقد أنه مبطل في دعواه، ولكن يوافقه مخافة سطوه واعتدائه كما رأينا يعرض لكثير من العقلاء إذا حدث رئيس بحضرة بحديث مستحيل يوافقه على ذلك الحديث، ولا يدل الأمر ببناء الصرخ على أنه بُني، وقد اختلف في ذلك، فقيل: بناء، وذكر من وصفه بما الله أعلم به، وقيل: لم بين، و(أطلع) في معنى اطلع يقال طلع إلى الجبل، واطلع، بمعنى واحد: أي سعد، فافتعل فيه بمعنى الفعل المجرد (وبغير الحق) إذ ليس لهم ذلك فهم مبطلون في استكبارهم حيث ادعى الإلهية، ووافقوه على ذلك. و«الكبرياء» في الحقيقة إنما هو الله، وقرأ «حمزة» و«الكسائي» و«نافع». (لا يَرْجِعُونَ) مبنياً للفاعل، والجمهور مبنياً للمفعول. و(الأرض) هنا أرض مصر، (فنبذناهم في اليم) كناية عن إدخالهم في البحر حتى غرقوا، شبهوا بحصيات قذفها الرامي من يده، ومنه نبذ النواة، وقول الشاعر:

نَظَرْتُ إِلسَى عُنْوَانِهِ فَنَبَذْتُهُ      كَبَبْتُكَ نَعْلًا مِنْ نَعَالِكَ بَالِيًا<sup>(٢)</sup>

وقوم فرعون وفرعون وإن ساروا إلى البحر باختيارهم في طلب بني إسرائيل فإن ما ضمهم من القدر السابق، وإغراقهم في البحر هو نبذ الله إياهم، و«جعل» هنا بمعنى صير، أي صيرناهم (أئمة) قدوة للكفار يقتدون بهم في ضلالتهم، كما أن للخير أئمة يقتدى بهم، اشتهروا بذلك وبقي حديثهم، وقال الزمخشري: (وجعلناهم) دعوانهم (أئمة) عادة (إلى النار)، وقلنا إنهم أئمة دعاء إلى النار، وهو من قولك: جعله بخيلاً وفاسقاً إذا دعاه فقال إنه بخيل وفاسق، ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله: «جعله بخيلاً وفاسقاً» ومنه قوله عز وجل: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً﴾ [الزخرف: ١٩] ومعنى «دعوتهم إلى النار» دعوتهم إلى موجباتها من الكفر. انتهى. وإنما فسر (جعلناهم) بمعنى دعوانهم، لا بمعنى صيرناهم، جرياً على مذهبه من الاعتزال، لأن في تصييرهم أئمة خلق ذلك لهم، وعلى مذهب المعتزلة لا يجوزون ذلك من الله ولا ينسبونه إليه، قال: ويجوز «خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر» ومعنى الخذلان: منع اللطاف، وإنما يمنعها من علم أنه لا ينفع فيه، وهو المصمم على الكفر، الذي لا تغني عنه الآيات والنذر. انتهى، وهو على طريقة الاعتزال أيضاً، (لعنة) أي طرداً وإبعاداً، أو عطف (يوم القيامة) على (في هذه الدنيا) (من المقبوحين)، قال أبو عبيدة: من الهالكين، وقال ابن عباس: من المشوهي الحلقة، لسواد الوجوه، وزرقة العيون، وقيل: من المبعدين.

ولما ذكر تعالى ما آل إليه فرعون وقومه من غضب الله عليهم وإغراقه، ذكر ما امتن به على رسوله موسى عليه السلام، فقال (ولقد آتينا موسى الكتاب) وهو التوراة، وهو أول كتاب أنزلت فيه الفرائض والأحكام، (من بعد ما أهلكتنا القرون الأولى) قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ويقال: لم تهلك قرية بعد نزول التوراة غير القرية التي مسخ أهلها قرودة، وانتصب (بصائر) على الحال أي طرائق هدى يستبصر بها.

(١) مخرقته: التخرقُ لغة في التخلُّق من الكذب.

وتخرقوا واخترقوا والاختراق والاختلاق والافتراء واحد.

لسان العرب (٢/١١٤٣).

(٢) البيت في روح المعاني (٢٠/٨٣).

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مَن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَنَّكَ وَنُكْفِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

لما قص الله تعالى من أبناء موسى وغرائب ما جرى له من الحمل به في وقت ذبح الأبناء، ورميه في البحر في تابوت، ورده إلى أمه، وتبني فرعون له، وإيتائه الحكم والعلم، وقتله القبطي، وخروجه من منشته فاراً، وتصاهره مع شعيب، ورعيه لغنمه السنين الطويلة، وعوده إلى مصر، وإضلاله الطريق، ومناجاة الله له، وإظهار تينك المعجزتين العظيمتين على يديه وهي العصا واليد، وأمره بالذهاب إلى فرعون، ومحاورته معه، وتكذيب فرعون وإهلاكه وإهلاك قومه، والامتنان على موسى بإيتائه التوراة، وأوحى تعالى بجميع ذلك إلى محمد رسوله ﷺ ذكره بإنعامه عليه بذلك، وبما خصه من الغيوب التي كان لا يعلمها لا هو ولا قومه، فقال: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) (والأمر) قيل: النبوة والحكم الذي آتاه الله موسى، وقيل: الأمر أمر محمد عليه السلام أن يكون من أمته، وهذا التأويل يلتئم معه ما بعده من قوله (ولكننا أنشأنا قرونًا)، وقيل: (الأمر) هلاك فرعون بالماء وبحمل (بجانب الغربي) على «اليم»، وبدأ أولاً بنفي شيء خاص وهو: أنه لم يحضر وقت قضاء الله لموسى الأمر، ثم ثنى بكونه «لم يكن من الشاهدين»، والمعنى - والله أعلم - (من الشاهدين) بجميع ما أعلمناك به، فهو نفي لشهادته جميع ما جرى لموسى، فكان عموماً بعد خصوص، و(بجانب الغربي) من إضافة الموصوف إلى صفته عند قوم، «ومن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه عند قوم» فعلى القول الأول: أصله «بالجانب الغربي»، وعلى الثاني أصله «بجانب المكان الغربي». والترجيح بين القولين المذكورين في النحو، و(الغربي)، قال قتادة: غربي الجبل، وقال الحسن: بعث الله موسى بالغرب، وقال أبو عبيدة: حيث تغرب الشمس والقمر والنجوم، وقيل: هنا جبل غربي<sup>(١)</sup>، وقيل: الغربي من الوادي، وقيل: من البحر، قال ابن عطية: المعنى لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي تخبر بها، ولكنها صارت إليك بوحينا، أي فكان الواجب أن يُسارع إلى الإيمان بك، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها زمناً زمناً فعزبت حلومهم، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «الغرب» المكان الواقع في شق الغرب،

(١) انظر القرطبي ١٣/١٩٢ وزاد المسير ٦/٢٢٥.

(٢) انظر الكشاف (٣/٤١٧).

وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى من الطور، وكتب الله له في الألواح. و«الأمر المقضي إلى موسى» الوحي الذي أوحى إليه، والخطاب لرسول الله ﷺ يقول: و«ما كنت حاضراً المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه» أو «على الوحي إليه» وهم نقبأه الذين اختارهم للميقات حتى تقف من جملة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته، وكتب التوراة له في الألواح، وغير ذلك (فإن قلت): كيف يتصل قوله (لكننا أنشأنا قروناً) بهذا الكلام، ومن أي جهة يكون استدراكاً له؟ (قلت) اتصاله به وكونه استدراكاً من حيث إن معناه «ولكننا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول على آخرهم، وهو القرن الذي أنت فيهم» (العمر) أي أمد انقطاع الوحي، واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك، وكسبناك العلم بقصص الأنبياء، وقصة موسى، كأنه قال: «وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ولكننا أوحينا إليك» فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة النظرة، ودل به على المسبب على عادة الله في اختصاره، فإذا ن هذا الاستدراك شبيه للاستدراكين بعده، (وما كنت ثاوياً) أي مقيماً (في أهل مدين) هم شعيب والمؤمنون، (تتلو عليهم آياتنا) تقرأ عليهم تعليماً منهم، يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه، (ولكننا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها، (إذ نادينا) يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه، ولكن علمناك، وقيل: (فتطاول عليهم العمر) وفترت النبوة ودرست الشرائع وحُرِّف كثير منها، وتام الكلام مضمراً، تقديره: «وأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار، مميّزاً للحق بما اختلف فيه منها رحمة منا، وقيل: يحتمل أن يكون المعنى وما كنت من الشاهدين في ذلك الزمان، وكانت بينك وبين موسى قرون تطاولت أعمارهم، وأنت تخبر الآن عن تلك الأحوال إخبار مشاهدة وعيان بإيجائنا معجزة لك، وقيل: (تتلو حال، وقيل: مستأنف أي: أنت الآن تتلو قصة شعيب، ولكننا أرسلناك رسولاً، وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار المنسية تتلوها عليهم، ولولاك ما أخبرتهم بما لم يشاهدوه، وقال الفراء: (وما كنت ثاوياً في أهل مدين) مع موسى فتراه وتسمع كلامه، وما أنت (تتلو عليهم آياتنا) أي على أمتك فهو منقطع انتهى. قيل: وإذا لم يكن حاضراً في ذلك المكان فما معنى (وما كنت من الشاهدين)، فقال ابن عباس: التقدير «لم تحضر ذلك الموضوع، ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع»، فإنه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى، وقال مقاتل: لم يشهد أهل مدين فيقرأ على أهل مكة خبرهم، ولكننا أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا إليك هذه الأخبار، ولولا ذلك ما علمته، وقال الضحاك: يقول إنك يا محمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم آيات الكتاب، وإنما كان غيرك (ولكننا كنا مرسلين) في كل زمان رسولاً، فأرسلنا إلى مدين شعيباً، وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء. انتهى، وقال الطبري: (إذ نادينا) بأن (سأكتبها للذين يتقون) الآية، وعن أبي هريرة أنه نودي من السماء حينئذ: يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني، وغفرت لكم قبل أن تسألوني. فحينئذ قال موسى عليه السلام: اللهم اجعلني من أمة محمد. فالعنى: إذ نادينا بأمرك، وأخبرناك بنبوتك، وقرأ الجمهور (رحمة) بالنصب، فقدر «ولكن جعلناك رحمة». وقدر «أعلمناك ونبأناك رحمة»، وقرأ عيسى وأبو حيوة بالرفع، وقدر «ولكن هو رحمة» أو «وهو رحمة» أو «أنت رحمة» (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير) أي في زمن الفترة بينك وبين عيسى، وهو خمسمائة وخمسون عاماً ونحوه. وجواب (لولا) محذوف والمعنى: «لولا أنهم قائلون إذ عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي: هلا (أرسلت البينا رسولاً) محتجين بذلك علينا ما أرسلنا إليهم، أي إنما أرسلنا الرسل إزالة لهذا العذر، كما قال: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء: ١٦٥] «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ [المائدة: ١٩] وتقدير الجواب: «ما أرسلنا إليهم الرسل» هو قول الزجاج، وقال ابن عطية: تقديره «لعلناهم بما يستحقونه»، و«المصيبة»: العذاب، ولما كان أكثر الأعمال تزاو بالأيدي عبر عن كل عمل باجتراح الأيدي حتى أعمال القلوب، اتساعاً في الكلام، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل، والفاء في (فيقولوا) للتعطف على (تصيهم) (ولولا) الثانية للتحضيض، و(فتنبع) الفاء فيه جواب للتحضيض، وقال الزمخشري: (فإن قلت) كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول، لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ (قلت): القول هو المقصود بأن يكون سبباً لإرسال الرسل، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول

فكان وجوده بوجودها، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول، فأدخلت عليها (لولا) وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية، ويؤول معناها إلى قولك «ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا»، ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة، وهو أنهم لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم، وقد عابوا ما الجثوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا (لولا أرسلت إلينا رسولاً)، وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير، لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخهم فيه ما لا يخفى، كقولهم: ﴿ولوردوا العادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨] انتهى، (والحق) هو الرسول محمد ﷺ، جاء بالكتاب المعجز الذي قطع معاذيرهم، وقيل: القرآن (مثل ما أوتي موسى من قبل) أي من قبل الكتاب المنزل جملة واحدة، وانقلاب العصا حية، وقلق البحر، وغيرها من الآيات. اقترحوا ذلك على سبيل التعتن والعناد، كما قالوا: ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ [هود: ١٢] وما أشبه ذلك من المقترحات لهم، وهذه المقالة التي قالوها هي من تعليم اليهود لقريش، قالوا لهم: ألا يأتي بآية باهرة كآيات موسى، فرد الله عليهم بأنهم كفروا بآيات موسى، وقد وقع منهم في آيات موسى ما وقع من هؤلاء في آيات الرسول، فالضمير في (أو لم يكفروا) لليهود، قاله ابن عطية، وقيل: قائل ذلك العرب بالتعليم كما قلنا، وقيل: قائل ذلك اليهود، ويظهر عندي أنه عائد على قريش الذين قالوا (لولا أوتي) أي محمد (ما أوتي موسى)، وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيب لموسى عليه السلام، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى، إذ الأنبياء هم من وادٍ واحد، فمن نسب إلى أحد من الأنبياء ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء، وتتناسق الضمائر كلها في هذا. وفي قوله (قل فاتوا بكتاب من عند الله) وإن كان الظاهر من القول أنه النطق اللساني، فقد ينطلق على الاعتقاد، وهم من حيث إنكار النبوات معتقدون أن ما ظهر على أيدي الأنبياء من الآيات، إنما هو من باب السحر. وقال الزمخشري: (أو لم يكفروا) يعني آباء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم، وعنادهم عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى (بما أوتي موسى)، وعن الحسن: قد كان للعرب أصل في أيام موسى، فمعناه على هذا «أو لم يكفر آباؤهم قالوا في موسى وهرون ساحران تظاهرا» أي تعاونا انتهى. (ومن قبل) يحتمل أن يتعلق بـ (كفروا) وبـ (ما أوتي)، وقرأ الجمهور (ساحران) قال مجاهد: موسى وهرون<sup>(١)</sup>، وقال الحسن: موسى وعيسى، وقال ابن عباس: موسى ومحمد ﷺ<sup>(٢)</sup>، وقال الحسن: أيضاً عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقرأ عبد الله وزيد بن علي والكوفيون (ساحران)، قال ابن عباس: التوراة والقرآن، وقيل: التوراة والإنجيل، أو موسى وهرون، جعلنا سحرين على سبيل المبالغة (تظاهرا): تعاونا، قرأ الجمهور (تظاهرا) فعلاً ماضياً على وزن تفاعل، وقرأ طلحة والأعمش (أظَاهَرَا) بهمزة الوصل وشد الظاء، وكذا هي في حرف عبد الله، وأصله «تظاهرا» فأدغم التاء في الظاء، فاجتلبت همزة الوصل لأجل سكون التاء المدغمة، وقرأ محبوب عن الحسن ويحيى بن الحارث الذماري وأبو حيوة وأبو خلاد عن اليزيدي (تَظَاهَرَا) بالتاء وتشديد الظاء، قال ابن خالويه: وتشديده لحن، لأنه فعل ماض، وإنما يشدد في المضارع، وقال صاحب اللوامح: ولا أعرف وجهه، وقال صاحب الكامل في القراءات: ولا معنى له. انتهى. وله تحريج في اللسان، وذلك أنه مضارع حذفت منه النون، وقد جاء حذفها في قليل من الكلام وفي الشعر. (وساحران) خبر مبتدأ محذوف، تقديره «أنتم ساحران تظاهران» ثم أدغمت التاء في الظاء، وحذفت النون، وروعي ضمير الخطاب، ولو قرئ (يظَاهَرَا) بالياء حملاً على مراعاة (ساحران) لكان له وجه، أو على تقديرهما «ساحران تظاهرا»، (وقالوا إنا بكل كافرون) أي بكل من الساحرين أو السحريين. ثم أمره تعالى أن يصدع بهذه الآية، وهي قوله (قل فاتوا) أي: أنتم أيها المكذبون بهذه الكتب التي تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق، ونهت عن الكفر والنقائص، ووعد الله عليها الثواب الجزيل إن كان تكذيبكم لمعنى (فاتوا بكتاب من عند الله) يهدي أكثر من هدى هذه (أتبعه) معكم. والضمير في (منها) عائد على ما أنزل على موسى وعلى محمد ﷺ. وتعليق إتيانهم بشرط الصدق أمر متحقق

(١) انظر زاد المسير (٢٢٧/٦) والقرطبي (١٩٤/١٣) وابن كثير (٣٩٢/٣).

(٢) انظر زاد المسير (٢٢٧/٦) والقرطبي (١٩٤/١٣) وابن كثير (٣٩٢/٣).

متيقن أنه لا يكون ولا يمكن صدقهم، كما أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب من عند الله يكون أهدى من الكتابين، ويجوز أن يراد بالشرط التهكم بهم، وقرأ زيد بن علي (أتبعه) برفع العين على الاستئناف أي «أنا أتبعه»، (فإن لم يستجيبوا لك) قال ابن عباس: يريد: «فإن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج، ولم يمكنهم أن يأتوا بكتاب هو أفضل»، والاستجابة تقتضي دعاء وهو ﷺ يدعو دائماً إلى الإيمان، أي «فإن لم يستجيبوا لك بعدما وضح لهم من المعجزات التي تضمنها كتابك الذي أنزل»، أو يكون قوله (فأتوا بكتاب) هو الدعاء إذ هو طلب منهم، ودعاء لهم بأن يأتوا به، ومعلوم أنهم لا يستجيبون لأن يأتوا بكتاب من عند الله (فاعلم) أنه ليس لهم إلا اتباع هوى مجرد، لا اتباع دليل، و«استجاب» بمعنى أجاب، ويعدى للداعي باللازم، ودونها، كما قال: ﴿فاستجاب له ربه﴾ [يوسف: ٣٤] ﴿فاستجبنا له ووهبنا له ما يحيى﴾ [الأنبياء: ٩٠] ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ [هود: ١٤]، وقال الشاعر:

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

فعداه بغير لام، وقال الزمخشري: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء، وإلى الداعي باللازم، ويحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب، فيقال «استجاب الله دعاءه» و«استجاب له» فلا يكاد يقال «استجاب له دعاءه» وأما البيت فمعناه: فلم يستجب دعاء، على حذف المضاف. انتهى (ومن أضل) أي لا أحد أضل، و(بغير هدى) في موضع الحال، وهذا الحال قيد في اتباع الهوى لأنه قد يتبع الإنسان ما يهواه، ويكون ذلك الذي يهواه فيه هدى من الله، لأن الأهواء كلها تنقسم إلى ما يكون فيه هدى وما لا يكون فيه هدى، فلذلك قيد بهذه الحال، وقال الزمخشري: يعني مخذولاً، مخلى بينه وبين هواه. انتهى. وهو على طريق الاعتزال.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥١: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٢: ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ ٥٣: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ٥٤: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ٥٥: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ٥٦: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَأَمَّنَّا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧:

قرأ الجمهور (وَصَّلْنَا) مشدداً للصلاء، والحسن بتخفيفها. والضمير في (هم) لقريش، وقال «رفاعة القرظي»: نزلت في عشرة من اليهود أنا أحدهم، قال الجمهور: (وصلنا) تابعنا القرآن موصولاً ببعضه ببعض في المواعظ والزجر والدعاء إلى الإسلام، وقال الحسن: وفي ذكر الأمم المهلكة، وقال مجاهد: جعلناه أوصالاً من حيث كان أنواعاً من القول في معان مختلفة، وقال ابن زيد: (وصلنا لهم) خبر الآخرة بخبر الدنيا، حتى كأنهم عاينوا الآخرة، وقال الأخفش: أتمننا لوصلك الشيء بالشيء، وأصل التوصل في الحبل يوصل بعضه ببعض، وقال الشاعر:

فَقُلْ لِبَنِي مَرْوَانَ مَا بَالَ ذَمِّي بَحْبَلٍ ضَعِيفٍ لَا يَزَالُ يُوسِّلُ<sup>(١)</sup>

وهذه الأقوال معناها توصيل المعاني فيه بها إليهم. وقالت فرقة التوصيل بالنسبة إلى الألفاظ أي: وصلنا لهم قولاً معجزاً دالاً على نبوتك. و«أهل الكتاب» هنا جماعة من اليهود أسلمت، وكان الكفار يؤذونهم، أو «بحيرا الراهب»، أو «النجاشي»، أو «سلمان الفارسي» و«ابن سلام» و«أبو رفاعه وابنه» وفي عشرة من اليهود أسلموا، أو أربعون من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالرسول قبل مبعثه. اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب، وثمانية قدموا من الشام بحيرا، وأبرهة، وأشرف، وأريد، وتام وإدريس، ونافع، وواد، أو ابن سلام، وتميم الداري، والجارود العبيدي، وسلمان. سبعة أقوال. آخرها لقتادة. والظاهر أنها أمثلة لمن آمن منهم، والضمير في (به) عائد على القول، وهو القرآن، وقال الفراء: عائد على الرسول وقال أيضاً إن عاد على القرآن كان صواباً، لأنهم قد قالوا (إنه الحق من ربنا) انتهى (إنه الحق من ربنا) تعليل للإيمان به، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن تؤمن به، (إننا كنا من قبله مسلمين) بيان لقوله (أما به) أي إيماننا به متقاد، إذ كان الآباء الأقدمون إلى آبائنا قرأوا ما في الكتاب الأول، وأعلموا بذلك الأبناء، فنحن مسلمون من قبل نزوله وتلاوته علينا، والإسلام صفة كل موحد مصدق بالوحي، وإيتاء الأجر مرتين لكونه آمن بكتابه وبالقرآن، وعلل ذلك بصبرهم أي على تكاليف الشريعة السابقة لهم، وهذه الشريعة وما يلحقون من الأذى. وفي الحديث: «ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي<sup>(٢)</sup>»، الحديث. (ويدروؤن) يدفعون (بالحسنة) الطاعة (السيئة) المعصية المتقدمة، أو بالحلم الأذى، وذلك من مكارم الأخلاق، وقال ابن مسعود: يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك، وقال ابن جبير: بالمعروف المنكر، وقال ابن زيد: بالخير الشر، وقال ابن سلام: بالعلم الجهل، وبالكظم الغيظ وفي وصية الرسول ﷺ لعاذ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن<sup>(٣)</sup>» و«اللغو» سقط القول، وقال مجاهد: الأذى والسب، وقال الضحاك: الشرك، وقال ابن زيد: ما غيرته اليهود من وصف الرسول، سمعه قوم منهم فكرهوا ذلك، وأعرضوا. (ولكم أعمالكم) خطاب لقائل اللغو، المفهوم ذلك من قوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) (سلام عليكم) قال الزجاج: سلام متاركة، لا سلام تحية (لا ينتغي الجاهلين) أي لا نطلب مخالطتهم (إنك لا تهدي من أحببت) أي لا تقدر على خلق الهداية فيه، ولا تنافي بين هذا وبين قوله ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى ٥٢] لأن معنى هذا «وإنك لترشد»، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب» وحديثه مع رسول الله ﷺ حالة أن مات مشهور، وقال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: لا تقدر أن تدخّل في الإسلام كل من أحببت، لأنك لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره، ولكن الله يدخل في الإسلام من يشاء، وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه، وأن الألفاظ تنفع فيه فتقرب به الطافه حتى يدعوه إلى القبول (وهو أعلم بالمهتدين) بالقابلين من الذين لا يقبلون. انتهى. وهو على طريقه الاعتزال في أمر الألفاظ، وقالوا: الضمير في (وقالوا) لقريش، وقيل: القائل «الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف» إنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب فذلك، وإنما نحن أكلة رأس، أي قليلون أن يتخطفونا من أرضنا. وقولهم (الهدى معك) أي على زعمك، فقطع الله حججهم، إذ كانوا وهم كفار بالله عبّاد أصنام قد آمنوا في حرمهم، والناس في غيره يتقاتلون، وهم مقيمون في بلد غير

(١) البيت من الطويل للأخطل انظر ديوانه (٢٧١) مجاز القرآن (٢/١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري ١٧٤/٤ (دار الفکر) والترمذي (١١١٦) والنسائي (١١٥/٦) وأحمد في المسند ٤/٤٠٥ والدارمي ٢/١٥٥ والطبراني في الصغير ١/٢٤ والطبري في التفسير ٢٧/١٤٠ وابن الجوزي في زاد المسير ٨/١٧٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/١٥٣ - ١٥٨ والدارمي ٣/٣٢٣ وأبو نعيم في الحلية ٤/٣٧٦.

(٤) انظر الكشاف ٣/٤٢٢.



ذي زرع يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا فهو تعالى يهد لهم الأرض، ويملكهم الأرض كما وعدهم تعالى، ووقع ما وعد به. ووصف الحرم بالأمن مجاز، إذ الأمنون فيه هم ساكنوه، و(ثمرات كل شيء) عام مخصوص يراد به الكثرة، وقرأ المنقري (يتخطف) برفع الفاء مثل قوله تعالى ﴿أينما تكونوا يدرككم﴾ [النساء ٧٨] برفع الكاف أي «فيدرككم» أي: «فهو يدرككم» وقوله: «من يفعل الحسنات الله يشكرها» أي فيتخطف وفالله يشكرها، وهو تخريج شدوذ، وقرأ نافع وجماعة عن يعقوب وأبو حاتم عن عاصم (تجبي) بناء التانيث، والباقون بالياء، وقرأ الجمهور (ثمرات) بفتحين، وأبان بن تغلب بضمين، وبعضهم بفتح الثاء وإسكان الميم، وانتصب (رزقاً) على أنه مصدر من المعنى لأن قوله (يجيى إليه ثمرات) أي برزق ثمرات، أو على أنه مفعول له، وفاعل الفعل المعلن محذوف، أي نسوق إليه ثمرات كل شيء، وإن كان الرزق ليس مصدراً، بل بمعنى المرزوق جاز انتصابه على الحال من (ثمرات)، ويحسن ذلك تخصيصاً بالإضافة، و(أكثرهم لا يعلمون) أي جهلة بأن ذلك الرزق هو من عندنا.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بَطَرَتْ مَعِيْشَتَهَا فَبِئْسَ مَا كَانَتْ تَسْكُنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُوْلًا يَلْتَلُوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُوْنَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِيْنَ ﴿٦١﴾

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فغمطوا النعمة، وقابلوها بالأشر والبطر، فدمرهم الله وخرَّب ديارهم، و(معيشتها) منصوب على التمييز على مذهب الكوفيين، أو مثبه بالمفعول على مذهب بعضهم، أو مفعول به على تضمين (بطرت) معنى فعل متعد، أي «خسرت معيشتها» على مذهب أكثر البصريين أو على إسقاط «في» أي «معيشتها» على مذهب الأخفش، أو على الظرف، على تقدير «أيام معيشتها» كقولك «جئت خفوق النجم» على قول الزجاج (فتلك مساكنهم) أشار إليها، أي: ترونها خراباً تمررون عليها كحجر ثمود هلكوا وفنوا. وتقدم ذكر المساكن، و(تسكن) فاحتمل أن يكون الاستثناء في قوله (إلا قليلاً) من المساكن، أي «إلا قليلاً منها سكن»، واحتمل أن يكون من المصدر المفهوم من قوله (لم نسكن) أي إلا سكني قليلاً. أي لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق، (وكننا نحن الوارثين) أي لتلك المساكن وغيرها، كقوله ﴿إنا نحن نرث الأرض﴾ [مريم ٤٠] خلت من ساكنيها فحرت:

تَتَخَلَّفُ الْأَثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِينَئِذٍ وَيُذْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتَّبِعُ

والظاهر: أن (القرى) عامة في القرى التي هلكت، فالعنى أنه تعالى لا يهلكها في كل وقت، (حتى يبعث) في أم تلك القرى، أي: كبيرتها التي ترجع تلك القرى إليها، ومنها يمتارون، وفيها عظيمهم الحاكم على تلك القرى، (حتى يبعث في أمها رسولاً) لإلزام الحجة، وقطع المَعْدِرَةِ. ويحتمل أن يراد بالقرى: القرى التي في عصر الرسول فيكون «أم القرى».

مكة، ويكون «الرسول». محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، و«ظلم أهلها» هو بالكفر والمعاصي (وما أوتيتم من شيء) أي حسن يسركم وتفخرون به (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) تمتعون أياماً قلائل (وما عند الله) من النعيم الدائم الباقي المعد للمؤمنين (خير) من متاعكم، (أفلا تعقلون) توبيخ لهم، وقرأ أبو عمرو (يعقلون) بالياء، إعراض عن خطابهم، وخطاب لغيرهم، كأنه قال «انظروا إلى هؤلاء وسخافة عقولهم»، وقرأ الجمهور بالتاء من فوق، على خطابهم وتوبيخهم في كونهم أهملوا العقل في العاقبة، ونسب هذه القراءة «أبو علي» في «الحجة» إلى أبي عمرو وحده، وفي التحرير والتحجير بين الباء والتاء عن أبي عمرو، وقرئ (متاعاً الحياة الدنيا) أي تمتعون متاعاً في الحياة الدنيا، فانصب الحياة الدنيا على الظرف (أفمن وعدناه) يذكر تفاوت ما بين الرجلين من وعد (وعداً حسناً) وهو الثواب فلاقاه، ومن متع في الحياة الدنيا ثم أحضر إلى النار. وظاهر الآية: العموم في المؤمن والكفار، قيل: ونزلت في الرسول ﷺ، وأبي جهل<sup>(١)</sup>، وقيل: في حمزة، وأبي جهل، وقيل: في علي، وأبي جهل، وقيل: في عمار، والوليد بن المغيرة<sup>(٢)</sup>، وقيل: نزلت في المؤمن، والكافر. وغلب لفظ «المحضر» في المحضر إلى النار كقوله: ﴿لكن من المحضرين﴾ [الصفات: ٥٧] ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ [الصفات: ١٢٧] والفاء في (أفمن) للعطف. لما ذكر تفاوت ما بين ما أوتوا من المتاع والزينة، وما عند الله من الثواب، قال: أبعده هذا التفاوت الظاهر يسوى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا؟ والفاء في (فهو لافيه) للتسبب لأن لقاء الموعد مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخبر و (ثم) للتراخي حال الإحضار عن حال التمتع بتراحي وقته عن وقته، وقرأ طلحة (أمن وعدناه) بغير فاء.

وَيَوْمَ يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴿٦٢﴾ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين  
أغويانا أغويانهم كما غويانا نبرانا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴿٦٣﴾ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم  
يستجيبوا لهم وראوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴿٦٤﴾ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴿٦٥﴾  
فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا ينسأ لولك ﴿٦٦﴾ فأما من تاب وءامن وعمل صليحاً فعسى أن  
يكون من المفلحين ﴿٦٧﴾ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله  
وتعالى عما يشركون ﴿٦٨﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴿٦٩﴾ وهو الله لا إله إلا  
هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴿٧٠﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم آئيل  
سرمداً إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتاكم بضيأ أفلا تسمعون ﴿٧١﴾ قل أرأيتم إن جعل الله  
عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه أفلا  
تبصرون ﴿٧٢﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿٧٣﴾

(١) انظر زاد المسير ٢٣٤/٦ والقرطبي ٢٠٠/١٣ وابن كثير ٣٩٦/٣.

(٢) انظر زاد المسير ٢٣٤/٦ والقرطبي ٢٠٠/١٣ وابن كثير ٣٩٦/٣.

لما ذكر أن الممتعين في الدنيا يحضرون إلى النار ذكر شيئاً من أحوال يوم القيامة، أي واذكر حالهم يوم يناديهم الله، ونداؤه إياهم يحتمل أن يكون بواسطة وبغير واسطة (فيقول أين شركائي) أي على زعمكم. وهذا الاستفهام على جهة التوبيخ والتقريع، و«الشركاء» هم من عبده من دون الله، من ملك، أو جن، أو إنس، أو كوكب، أو صنم أو غير ذلك. ومفعولاً (تزعمون) محذوفان. أحدهما: العائد على الموصول، والتقدير «تزعموهم شركاء»، ولما كان هذا السؤال مسكناً لهم، إذ تلك الشركاء التي عبدها مفقودون، هم أوجدوهم في الآخرة حادوا عن الجواب إلى كلام لا يجدي، (قال الذين حق عليهم القول) أي الشياطين وأئمة الكفر ورؤوسه، و«حق» أي وجب عليهم القول أي مقتضاه وهو قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [السجدة: ١٣] و(هؤلاء) مبتدأ و(الذين أغويناهم) صفة و(أغويناهم كما غوينا) الخبر و(كما غوينا) صفة لمطواع (أغويناهم) أي فغوا كما غوينا، أي تسبينا لهم في الغي فقبلوا منا. وهذا الإعراب قاله الزمخشري<sup>(١)</sup>، وقال أبو علي: ولا يجوز هذا الوجه، لأنه ليس في الخبر زيادة على ما في صفة المبتدأ، قال (فإن قلت) قد وصلت بقوله (كما غوينا) وفيه زيادة، قيل: الزيادة بالظرف لا تصيره أصلاً في الجملة، لأن الظروف صلوات، وقال هو الذين أغوينا هو الخبر، و(أغويناهم) مستأنف وقال غير أبي علي: لا يمتنع الوجه الأول، لأن الفضلات في بعض المواضع تلزم كقولك «زيد عمرو قائم في داره» انتهى. والمعنى: «هؤلاء أتباعنا آثروا الكفر على الإيمان كما آثرناه نحن، ونحن كنا السبب في كفرهم فقبلوا منا»، وقرأ أبان عن عاصم وبعض الشاميين (كما غوينا) بكسر الواو، قال ابن خالويه: وليس ذلك مختاراً لأن كلام العرب «غويت من الضلالة». و«غويت من البشم<sup>(٢)</sup>» ثم قالوا (تبرأنا إليك) منهم (ما كانوا) يعبدوننا، إنما عبدوا غيرنا و(إيانا) مفعول (يعبدون) لما تقدم انفصل، وانفصاله لكون (يعبدون) فاصلة، ولو اتصل ثم لم يكن فاصلة، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونها مقرونتين لمعنى الجملة الأولى انتهى. (وقيل ادعوا شركاءكم) لما سئلوا أين شركاؤكم وأجابوا بغير جواب سئلوا ثانياً، فقيل: (ادعوا شركاءكم) وأضاف الشركاء إليهم أي: «الذين جعلتموهم شركاء لله» وقوله (ادعوا شركاءكم) على سبيل التهكم بهم لأنه يعلم أنه لا فائدة في دعائهم، فدعوهم هذا لسخافة عقولهم في ذلك الموطن أيضاً، إذ لم يعلموا أن من كان موجوداً منهم في ذلك الموطن لا يجيبهم والضمير في (ورأوا)، قال الضحاك ومقاتل: هو للتابع والمتبوع، وجواب «لو» محذوف، والظاهر أن يقدر بما يدل عليه مما يليه، أي «لو كانوا مؤمنين في الدنيا ما رأوا العذاب في الآخرة»، وقيل: التقدير «لو كانوا مهتدين بوجه من وجوه الخيل لدفعوا به العذاب» وقيل: لعلموا أن العذاب حق، وقيل: لتحيروا عند رؤيته من فظاعته وإن لم يعذبوا به، وقيل: ما كانوا في الدنيا عابدين الأصنام.

وقال أبو عبد الله الرازي: وعندي أن الجواب غير محذوف، وفي تقريره وجوه:

أحدها أن الله إذا خاطبهم بقوله (ادعوا شركاءكم) اشتد خوفهم ولحقهم شيء بحيث لا يبصرون شيئاً لاجرم ما رأوا العذاب، وثانيها: لما ذكر الشركاء وهي الأصنام، وأنهم لا يجيبون الذين دعوهم، قال في حقهم (ورأوا العذاب) لو كانوا من الأحياء المهتدين، ولكنها ليست كذلك. ولا جرم ما رأت العذاب، والضمير في (رأوا) وإن كان للعقلاء فقد قال ودعوهم وهم للعقلاء. انتهى. وفيه بعض تلخيص. وقد أثنى على هذا الذي اختاره وليس بشيء لأنه بناه على أن الضمير

(١) انظر الكشاف ٤٢٦/٣.

(٢) البشم: تحمة على الدسم.

(٣) انظر الكشاف ٤٢٦/٣.

في (رأوا) عائد على المدعويين، قال: وهم الأصنام والظاهر: أنه عائد على الداعين، كقوله: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب﴾ [البقرة: ١٦٦]. ولأن حمل (مهتدين) على الأحياء في غاية البعد، لأن ما قدره هو جواب، ولا يشعر به أنه جواب إذ صار التقدير عنده «لو كانوا من الأحياء رأوا العذاب لكنها ليست من الأحياء فلا ترى العذاب»، ألا ترى إلى قوله «فلا جرم ما رأيت العذاب» (ويوم يناديهم) هذا النداء أيضاً قد يكون بواسطة من الملائكة، أو بغير واسطة. حكى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء، ثم ما يقوله رؤوس الكفر عند توبيخهم، ثم استعانتهم بشركائهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يبيكون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزالة العلل. وقرأ الجمهور (فعميت) بفتح العين وتخفيف الميم، وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش وأبو زرعة بن عمرو بن جرير بضم العين وتشديد الميم، والمعنى «أظلمت عليهم الأمور فلم يستطيعوا أن يخبروا بما فيه نجاتهم»، وأتى بلفظ الماضي لتحقق وقوعه (فهم لا يتساءلون)، وقرأ طلحة (يساءلون) بإدغام التاء في السين، أي لا يسأل بعضهم بعضاً فيما يتحاجون به، إذ أيقنوا أنه لا حجة لهم فهم في عمى وعجز عن الجواب، والمراد «بالنبا» الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله ولما ذكر تعالى أحوال الكفار يوم القيامة وما يكون منهم فيه، أخبر بأن من تاب من الشرك، وآمن، وعمل صالحاً، فإنه مرجؤه للفلاح والفوز في الآخرة، وهذا ترغيب للكافر في الإسلام، وضمان له للفلاح، ويقال إن (عسى) من الله واجبة (وربك يخلق ما يشاء ويختار) نزلت بسبب ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي ﷺ ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] وقائل ذلك «الوليد بن المغيرة»<sup>(١)</sup>، قال القرطبي: هذا متصل بذكر الشركاء الذين دعواهم واختاروهم للشفاعة، أي الاختيار إلى الله تعالى في الشفاعة، لا إلى المشركين<sup>(٢)</sup>، وقيل: هو جواب لليهود، إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمننا به، ونص الزجاج وعلي بن سليمان والنحاس على: أن الوقف على قوله (ويختار) تام. والظاهر أن (ما) أنا فيه، أي «ليس لهم الخيرة إنما هي لله تعالى كقوله: ﴿ما كان لهم الخيرة سبحان الله﴾ [القصص: ٦٨]، وذهب الطبري: إلى أن (ما) موصولة منصوبة بـ (يختار)، أي «ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس كما لا يختارونهم ما ليس إليهم ويفعلون ما لم يؤمروا به» وأنكر أن تكون (ما) نافية لثلاثا يكون المعنى «إنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل»، ولأنه لم يتقدم كلام ينفي، وروي عن ابن عباس معنى ما ذهب إليه الطبري وقد رد هذا القول تقدم العائد على الموصول، وأجيب: بأن التقدير «ما كان لهم فيه الخيرة»، وحذف للدلالة المعنى، قال الزمخشري: كما حذف من قوله: ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى: ٤٣] يعني أن التقدير «إن ذلك فيه لمن عزم الأمور»، وأنشد القاسم بن معن بيت عنتر:

أَمِنْ سُمِيَّةَ دَمْعِ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ      لَوْ كَانَ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ<sup>(٣)</sup>

وقرن الآية بهذا البيت، والرواية في البيت «لو أن ذا» ولكن على ما رواه القاسم يتجه في بيت عنتر أن يكون في كان ضمير الشأن، فأما في الآية فقال ابن عطية: تفسير الأمر والشأن لا يكون بجمله فيها محذوف، قال ابن عطية: ويتجه عندي أن تكون (ما) مفعولة، إذا قدرنا (كان) تامة أي «إن الله تعالى يختار كل كائن ولا يكون شيء إلا بإذنه» وقوله (لهم الخيرة) جملة مستأنفة معناها: تعديد النعمة عليهم في اختيار الله لهم لو قبلوا وفهموا. انتهى. يعني والله أعلم خيرة الله لهم أي لمصلحتهم، و«الخبر» من التخير، «كالطيرة» من التطير، يستعملان بمعنى المصدر، والجمل التي بعد هذا تقدم الكلام عليها، و«الحمد في الآخرة» قولهم: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ [فاطر: ٣٤] (الحمد لله الذي صدقنا وعده

(١) انظر القرطبي ٢١/١٣.

(٢) انظر القرطبي ٢١/١٣.

(٣) من البسيط انظر ديوانه (٥٣) وروايته (لو أن ذا منك ..) وعليها فلا شاهد وانظر تفسير الطبري (٦٤/٢٠) السبع الطوال (٣٥٣).

[الزمر: ٧٤] ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ٢] والتحميد هنالك على سبيل اللذة، لا التكليف، وفي الحديث: «يلهمون التسبيح والتقديس»، وقرأ ابن محيصن (ما تكن) بفتح التاء وضم الكاف، (وله الحكم) أي القضاء بين عباده والفصل، و(أرأيتم) بمعنى أخبروني، وقد يسלט على (الليل) (أرأيتم) و(جعل) إذ كل منها يقتضيه، فأعمل الثاني، وجملة (أرأيتم) بمعنى أخبروني، وقد يسלט على (الليل) (أرأيتم) و(جعل) إذ كل منها يقتضيه، فأعمل الثاني. وجملة (أرأيتم) الثانية هي جملة الاستفهام، والعائد على (الليل) محذوف، تقديره «من إله غير الله يأتيكم بضياء» بعده، ولا يلزم في باب التنازع أن يستوي المتنازعان في جهة التعدي مطلقاً، بل قد يختلف الطلب فيطلبه، هذا على جهة الفاعلية، وهذا على جهة المفعولية، وهذا على جهة المفعول، وهذا على جهة الظرف. وكذلك (أرأيتم) ثاني مفعوليه جملة استفهامية غالباً، وثاني (جعل) إن كانت بمعنى صير لا يكون استفهاماً وإن كانت بمعنى «خلق وأوجد» وانتصب ما بعده مفعولاً كان ذلك المنتصب حالاً، و(سرمداً) قيل: من السرد، فميمة زائدة، ووزنه «فعمل»، ولا يزداد وسطاً ولا آخراً بقياس، وإنما هي ألفاظ تحفظ مذكورة في علم التصريف. وأتى (بضياء) وهو نور الشمس ولم يجيء التركيب «بنيار يتصرفون فيه» كما جاء (بليل) تسكنون فيه) لأن منافع الضياء متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء، (أفلا تسمعون) لأن السمع يدرك ما يدركه البصر، من ذكر منافعه، ووصف فوائده وقرن بالليل (أفلا تبصرون) لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه، قاله الزمخشري، (ومن رحمته) (من) هنا للسبب، أي وبسبب رحمته إياكم (جعل لكم الليل والنهار) ثم علل جعل كل واحد منهما، فبدأ بعله الأول وهو (الليل) وهو (لعلكم تشكرون) أي هذه الرحمة والنعمة وهذا النوع من علم البديع يسمى «التفسير» وهو أن تذكر أشياء ثم تفسرها بما يناسبها، ومنه قول ابن جيبوش:

وَمَقَرَّتْ قُرْبَانِي السَّنْدِيمَ بِوَجْهِهِ      عَنْ كَأْسِهِ الْمَلَأَى وَعَنْ إِبْرِيْقِهِ  
فِعْلُ الْمُدَامِ وَلَوْنُهَا وَمَذَاقُهَا      فِي مُقْلَتَيْهِ وَوَجْنَتَيْهِ وَرَبِيْقِهِ

والضمير في (فيه) عائد على (الليل) وفي (فضله) يجوز أن يكون عائداً على (الله) والتقدير: من فضله، أي من فضل الله فيه، أي في النهار، وحذف للدلالة المعنى، ولدلالة لفظ (فيه) السابق عليه، ويحتمل أن يعود على (النهار) أي من فضل النهار، ويكون أضافه إلى ضمير النهار على سبيل المجاز، لما كان الفضل حاصلًا فيه أضيف إليه كقوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ [سبأ: ٣٣].

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ذُرِّيَّةً مِنْ الْكُوفِرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُمْ لَنُنَوِّئُ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْتَلْ عَن دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ  
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُونَ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ  
وَيَلَيْكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ  
وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ  
الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِبَسْطِ الرِّزْقِ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ ۗ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن  
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَقْلِحُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

تقدم الكلام على قوله (ويوم يناديهم) وكرر هنا على جهة الإيلاج والتأكيد (ونزعنا) أي ميزنا وأخرجنا بسرعة (من كل أمة) من الأمم (شهيدياً) وهونبي تلك الأمة، لأنه هو الشهيد عليها، كما قال: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١] وقيل: عدولاً وخياراً، و«الشهيد» على هذا اسم الجنس، و«الشهيد» يشهد على تلك الأمة بما صدر منها وما أجابت به لما دعيت إلى التوحيد، وأنه قد بلغهم رسالة ربهم، (فقلنا) أي للملأ (هاتوا برهانكم) أي حججتكم فيما كنتم عليه في الدنيا من الكفر، ومخالفة هذا الشهيد (فعلموا أن الحق لله) لا لأصنامهم وما عبدوا من دون الله، (وضل عنهم) أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع (ما كانوا يفترون) من الكذب والباطل، و(قارون) أعجمي منع الصرف للعمجة والعلمية، وقيل: ومعنى «كان من قومه» أي من آمن به، قال ابن عطية: وهو إسرائيلي بإجماع. انتهى، واختلف في قرابته من موسى عليه السلام اختلافاً مضطرباً متكاذباً، وأولاهما ما قاله ابن عباس: إنه ابن عمه، وهو «قارون بن يصهر بن قاهث» جد موسى، لأن النساين ذكروا نسبه كذلك، وكان يسمى المنور لحسن صورته، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم، ففاقق كما ناقق السامري (فبغى عليهم) ذكروا من أنواع بغيه: الكفر، والكبر، وحسده لموسى على النبوة، وطارون على الذبح والقرابان، وظلمه لبني إسرائيل حين ملكه فرعون عليهم ودسه بغياً تكذب على موسى أنه تعرض لها وتفضحه بذلك في ملأ من بني إسرائيل، ومن تكبره أن زاد في ثيابه شبراً (وآتيناه من الكنوز) قيل: أظفره الله بكنز من كنوز يوسف عليه السلام. وقيل: سميت أمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أول عداوته و(ما) موصولة، صلتها ان ومعمولاها، وقال «النحاس»: سمعت علي بن سليمان يعني الأخفش الصغير يقول: ما أقبح ما يقوله الكوفيون في الصلاة: إنه لا يجوز أن تكون صلة الذي «ان» وما عملت فيه، وفي القرآن (ما ان مفاتحه) انتهى. وتقدم الكلام في «مفاتح» في سورة الأنعام. وقالوا هنا: مقاليد خزائنه، وقال السدي: هي الخزائن نفسها، وقال الضحاك: ظروفه وأوعيته، وقرأ الأعمش: مفاتيحه بياء جمع مفتاح، وذكروا من كثرة مفاتحه ما هو كذب أو يقارب الكذب فلم أكتبه، قال أبو زيد: «نوت بالعمل» إذا نهضت به قال الشاعر:

إِذَا وَجَدْنَا خَلْفًا بِشِّسِ الْخَلْفِ      عَبْدًا إِذَا مَا نَاءَ بِالْحِمْلِ وَقَفَ

ويقال: ناء بنوه إذا نهض بشقل، قال الشاعر:

تَنُوهُ بِأَخْرَافِهَا فَلَأَيًّا قِيَامَهَا وَتَمَشِي الْهُوَيْنَا عَنْ قَرِيبٍ فْتَبْهَرُ<sup>(١)</sup>

وقال أبو عبيدة: هو مقلوب، وأصله «لتنوء بها العصبه» أي تنهض، والقلب عند أصحابنا بابه الشعر. والصحيح أن «الباء» للتعدي، أي لتنيء العصبه، كما تقول: ذهبت به وأذهبت، وجئت به وأجأته ونقل هذا عن الخليل وسيبويه والفراء، واختاره النحاس، وروي معناه عن ابن عباس وأبي صالح والسدي. وتقول العرب «ناء الحمل بالبعير» إذا أثقله، قال ابن عطية: ويمكن أن يسند «تنوء» إلى «المفتاح» لأنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها، وإذا مطرد في ناء الحمل بالبعير ونحوه، فتأمل، وقرأ بديل بن ميسرة (لبنوء) بالياء وتذكير. راعى المضاف المحذوف، التقدير «ما إن حمل مفاتحه، أو مقدارها أو نحو ذلك»، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: ووجهه أن يفسر المفتاح بالخزائن، ويعطيهما حكم ما أضيف إليه للملابسة والإيصال، كقوله «ذهبت أهل البيامة» انتهى. يعني أنه اكتسب «المفتاح» التذكير من الضمير الذي لقارون، كما اكتسب «أهل» التأنيث من إضافته إلى البيامة، فقيل فيه «ذهبت»، وذكر أبو عمرو والداني أن بديل بن ميسرة قرأ (ما إن مفتاحه) على الأفراد، فلا تحتاج قراءته (لبنوء) بالياء إلى تأويل. وتقدم تفسير (العصبه) في سورة يوسف عليه السلام، وتقدم قبل تفسير «المفتاح» أهي المقاليد، أو الخزائن نفسها، أو الظروف والأوعية؟ وعن ابن عباس والحسن: أن المفتاح هي الأموال<sup>(٣)</sup>، قال ابن عباس: كانت خزائنه تحملها أربعون أقوياء، وكانت أربعمائة ألف، يحمل كل رجل عشرة آلاف، وقال أبو مسلم: المراد من المفتاح العلم والإحاطة، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾<sup>(٤)</sup> [الأنعام: ٥٩] والمراد: «وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والإطلاع عليها ليثقل على العصبه» أي، هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها يتعب حفظها القائمين على حفظها، (إذ قال له قومه لا تفرح) نهوه عن الفرح المطغي الذي هو انهماك وانحلال نفس وأشر وإعجاب، وإنما يفرح بإقبال الدنيا عليه من أطمأن إليها وغفل عن أمر الآخرة ومن جعل أنه مفارق زهرة الدنيا عن قريب فلا يفرح بها، وقال أبو الطيب:

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْتَقَالَ<sup>(٥)</sup>

قال الزمخشري: ومحل (إذ) منصوب بتنوء انتهى. وهذا ضعيف جداً، لأن إثقال المفتاح العصبه ليس مقيداً بوقت قول قومه له (لا تفرح)، وقال ابن عطية: متعلق بقوله (بغى عليهم) وهو ضعيف أيضاً، لأن بغيه عليهم لم يكن مقيداً بذلك الوقت، وقال الحوفي: الناصب له محذوف تقديره «اذكر»، وقال أبو البقاء: (إذ قال له) ظرف لـ (آتيناه) وهو ضعيف أيضاً، لأن الإيتاء لم يكن وقت ذلك القول، وقال أيضاً: ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل محذوف دل عليه الكلام، أي بغى عليهم إذ قال له قومه. انتهى. ويظهر أن يكون تقديره «فأظهر التفاخر والفرح بما أوتي من الكنوز إذ قال له قومه لا تفرح» وقال تعالى (ولا تفرحوا بما آتاكم) والعرب تمدح بترك الفرح عند إقبال الخير وقال الشاعر:

وَلَسْتُ بِمَفْرَاحٍ إِذَا السَّدَّهُرُ سَرَّنِي وَلَا جَارِعُ مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَحَوَّلِ<sup>(٦)</sup>

(١) البيت لذي الرمة من الطويل انظر ديوانه (٢٢٧) الفضليات (٣٤٢) اللسان (نوا).

(٢) انظر الكشف ٤٣٠/٣.

(٣) انظر القرطبي ٢٠٦/١٣ وزاد المسير ٢٤٠/٦.

(٤) انظر القرطبي ٢٠٦/١٣ وزاد المسير ٢٤٠/٦.

(٥) انظر البيت في الكشف (٤٣٠/٣) روح المعاني (١١٢/٢٠).

(٦) البيت هدية بن خشرم انظر الكشف (٤٣٠/٣) القرطبي (٢٠٧/١٣) روح المعاني (١١٢/٢٠).

وقال الآخر:

إِنْ تُلَاقِي مُنْفِيساً لَا تَلْقِنَا فِرْحَ الْخَيْرِ وَلَا تَكْبُولِضُرًّا<sup>(١)</sup>

وقرىء (الفارحين) حكاها عيسى بن سليمان الحجازي<sup>(٢)</sup>، و(لا يجب) صفة فعل، لا صفة ذات بمعنى الإرادة لأن الفرح أمر قد وقع، فالمعنى «لا يظهر عليهم بركته، ولا يعمهم رحمته». ولما نوه عن الفرح المطغي أمروه بأن يطلب فيما آتاه الله من الكنوز وسعة الرزق ثواب الدار الآخرة، بأن يفعل فيه أفعال البر وتجعله زادك إلى الآخرة (ولا تنس نصيبك من الدنيا) قال ابن عباس والجمهور: معناه: ولا تضع عمرك في أن لا تعمل صالحاً في دنياك إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها، وهذا التأويل فيه عظة<sup>(٣)</sup>، وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضع حظك من الدنيا في تمتعك بالخلال، وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك، وفي هذا التأويل بعض رفق، وقال الحسن: معناه قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به<sup>(٤)</sup>، وقال «مالك»: هو الأكل والشرب بلا سرف، وقيل: أرادوا بنصيبه الكفن، وهذا وعظ متصل، كأنهم قالوا ترك جميع مالك لا يكون نصيبك منه إلا الكفن، كما قال الشاعر:

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرُ كُلَّهُ رِداءً إِنْ تُلَوِّى فِيهِمَا وَحُنُوطُ<sup>(٥)</sup>

وقال «الزمخشري»: أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك، وهذا قريب من قول الحسن (وأحسن) إلى عباد الله، أو بشكرك وطاعتك لله (كما أحسن الله إليك) بتلك النعم التي خولكها، والكاف للتشبيه، وهو يكون في بعض الأوصاف، لأن مماثلة إحسان العبد لإحسان الله من جميع الصفات يمتنع أن تكون، فالتشبيه وقع في مطلق الإحسان، أو تكون الكاف للتعليل، أي «أحسن لأجل إحسان الله إليك»، (ولا تبغ الفساد) أي ما أنت عليه من البغي والظلم، (على علم) علم مصدر، يحتمل أن يكون مضافاً إليه، ومضافاً إلى الله، فقال الجمهور: ادعى أن عنده علماً استوجب به أن يكون صاحب تلك الكنوز، فقيل: علم التوراة وحفظها، وكان أحد السبعين الذين اختارهم موسى للميقات، وكانت هذه مغالطة<sup>(٦)</sup>، وقال أبو سليمان الداني: أي علم التجارة، ووجه المكاسب، أي أوتيته بإدراكي وسعيي<sup>(٧)</sup>، وقال ابن «المسيب»: علم الكيمياء، قال ابن المسيب: وكان موسى عليه السلام يعلم الكيمياء وهي جعل الرصاص والنحاس ذهباً، وعن ابن عباس: على علم لصنعة الذهب<sup>(٨)</sup>، ولعل ذلك لا يصح عنه ولا عن ابن المسيب. وأنكر الزجاج علم الكيمياء، وقال باطل لا حقيقة له. انتهى. وكثيراً ما تولع أهل مصر بطلب أشياء من المستحيلات والخرافات من ذلك تغوير الماء، وخدمة الصور الممثلة في الجدر خطوطاً، وادعائهم أن تلك الخطوط تتحرك، إذا خدمت بأنواع من الخدم لهم والكيمياء، حتى إن مشايخ العلم عندهم الذين هم عندهم بصورة الولاية يتطلب ذلك من أجهل وارد من المغاربة، وقال «ابن زيد» وغيره:

(١) البيت في روح المعاني (١١٢/٢٠).

(٢) عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيرزي الحنفي مقرئ عالم نحوي معروف قال سبط الخياط: كان حجازياً ثم انتقل إلى شيرز وأقام بها إلى أن مات فنسب إليها، غاية النهاية ٦٠٨/١.

(٣) انظر زاد المسير ٢٤١/٦، ٢٤٢.

(٤) انظر زاد المسير ٢٤١/٦، ٢٤٢.

(٥) البيت في القرطبي (٢٠٨/١٣) روح المعاني (١١٢/٢٠).

(٦) انظر القرطبي ٢٠٨/١٣، ٢٠٣، وزاد المسير ٢٤٢/٦.

(٧) انظر القرطبي ٢٠٨/١٣، ٢٠٣، وزاد المسير ٢٤٢/٦.

(٨) انظر القرطبي ٢٠٨/١٣، ٢٠٣، وزاد المسير ٢٤٢/٦.



أراد: أوتيته على علم من الله، وتخصيص «من لدنه» قصدني به أي فلا يلزمي فيه شيء مما قلت، ثم جعل قوله (عندي) كما يقول في معتقدي وعلى ما أراه، وقال مقاتل: (على علم) أي على خير علمه الله عندي، والظاهر أن قوله (أو لم يعلم) تقرير لعلمه ذلك، وتنبه على خطئه في اغتراره، أي قد علم أن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأعنى، لأنه قد قرأه في التوراة، وأخبر به موسى، وسمعه في التواريخ، كأنه قيل: أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغير بكثرة ماله وقوته، قال الزمخشري: ويجوز أن يكون نعتاً لعلمه بذلك، لأنه لما قال (أوتيته على علم عندي) فتنفخ بالعلم وتعظم به، قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه وأرى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي نفسه مصارع الهالكين انتهى. (وأكثر جمعاً)، إما للمال، أو جماعة يحوطونه ويخدمونه، قال ابن عطية (ولم يعلم) يرجح أن قارون تشبع بعلم نفسه على زعمه، وقرأ الجمهور (ولا يسأل) مبنياً للمفعول (والمجرمون) رفع به، وهو متصل بما قبله، قاله محمد بن كعب. والضمير في (ذنوبهم) عائد على «من أهلك من القرون» أي لا يسأل غيرهم ممن أجرم، ولا ممن لم يجرم عن أهلكه الله بل ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر: ٣٨]، وقيل: أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم، فلم يمتنع إلى مسألتهم عنها، وقيل: هو مستأنف عن حال يوم القيامة، قال قتادة: لا يسألون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، لأنهم يدخلون النار بغير حساب، وقال قتادة أيضاً ومجاهد: لا تسألهم الملائكة عن ذنوبهم، لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السواد والتشويه كقوله: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ [الرحمن: ٤١]، وقيل: لا يسألون سؤال توبيخ وتقريع، وقرأ أبو جعفر في روايته (ولا تسأل) بالياء والجزم (المجرمين) نصب، وقرأ «ابن سيرين» و«أبو العالي» كذلك في (ولا تسأل) على النهي للمخاطب، وكان ابن أبي إسحق لا يجوز ذلك إلا أن يكون (المجرمين) بالياء في محل نصب بوقوع الفعل عليه، قال صاحب اللوامح: فالظاهر ما قاله، ولم يبلغني في نصب (المجرمين) شيء فإن تركاه على رفعه فله وجهان: أحدهما: أن تكون الهاء والميم في (عن ذنوبهم) راجعة إلى ما تقدم من القرون وارتفاع (المجرمين) بإضمار المبتدأ، وتقديره «هم المجرمون» و«أولئك المجرمون» ومثله «التائبون العابدون» [التوبة: ١١٢] في التوبة. والثاني: أن يكون بدلاً من أصل الهاء والميم في ذنوبهم، لأنها وإن كانت في محل الجر بالإضافة إليها فإن أصلها الرفع، لأن الإضافة إليها بمنزلة إضافة المصدر إلى اسم الفاعل، فعلى ذلك (المجرمون) محمول على الأصل على ما تقدم لنا من أن بعضهم قرأ ﴿أن يضرب مثلاً ما بعوضة﴾ [البقرة: ٣٦] بالجر على أنها بدل من أصل المثل، و(ما) زائدة فيه وتقديره «لا يستحي بضرب مثل بعوضة» أي بضرب بعوضة في ذلك، فسر «أن» مع الفصل بالمصدر ناصب إلى المفعول به، ثم أبدل منه «البعوضة» من غير أن أعرف فيها أثر الحال، فأما قوله «من ذنوبهم» فذنوب جمع، فإن كان جمع مصدر ففي إعماله خلاف: وأما قوله على ما تقدم لنا من أن بعضهم قرأ، فقد ذكر في البقرة أنه سمع ذلك ولا نعرف فيها أثراً، فينبغي أن لا يجعلها قراءة. ولما ذكر تعالى قارون ونعته، وما أتاه من الكنوز، وفرحه بذلك فرح البطرين، وادعاه أن ما أوتي من ذلك إنما أوتيته على علم، ذكر ما هو ناشئ عن التكبر والسرور بما أوتي فقال (فخرج على قومه في زينته) وكان يوم السبت، أي: أظهر ما يقدر عليه من الملابس والمراكب وزينة الدنيا، قال جابر ومجاهد: في ثياب حر، وقال ابن زيد: هو وحشمة في ثياب معصفرة<sup>(١)</sup>، وقيل: في ثياب الأرجوان، وقيل: على بغلة شهباء عليها الأرجوان، وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعلى يمينه ثلاثمائة غلام، وعلى يساره ثلاثمائة جارية بيض، عليهم الحلي والديباج<sup>(٢)</sup>، وقيل:

(١) قد عصفت الثوب وتعصفر، والعصفر هو الذي يصبغ به، منه ريفيٌّ ومنه بريٌّ، وكلاهما نبت بأرض العرب.

لسان العرب (٢٩٧٣/٤)

(٢) الدَّبِجُ: النَّقْشُ والتَّزْيِينُ فارسيٌّ معرَّبٌ.

لسان العرب (١٣١٦/٢)

في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات، وهو أول يوم رئي فيه المعصفر، وقيل: غير ذلك من الكيفيات (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) قيل: كانوا مؤمنين، وقال قتادة: تمنوه ليتقربوا به إلى الله، وقيل: رغبة في اليسار والثروة، وقيل: كانوا كفاراً، وتمنوا مثل ما أوتي قارون، ولم يذكروا زوال نعمته، وهذا من الغبطة (انه لذو حظ عظيم) أي درجة عظيمة، قاله الضحاك، وقيل: نصيب كثير من الدنيا، و«الخط»: البخت والسعد، يقال «فلان ذو حظ» وحظيظ، ومحظوظ، وقال الذين أوتوا العلم) منهم يوشع، والعلم معرفة الثواب والعقاب. أو التوكل أو الإخبار، أقوال (ويلكم) دعاء بالشر، (ثواب الله) وهو ما أعده في الآخرة للمؤمن (خير) مما أوتي قارون (ولا يلقاها) أي هذه الحكمة وهي معرفة ثواب الله، وقيل: الجنة ونعيمها، وقيل: هذه المقالة، وهي قولهم (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) وبخهم بها (إلا الصابرون) على الطاعات، وعلى قمع أنفسهم عن الشهوات. تقدم طرف من خير قارون، وحسده لموسى، ومن حسده أنه جعل لبغى جعلاً على أن ترمي موسى بطلبها ويزنائها، وأنها تابت إلى الله، وأقرت أن قارون هو الذي جعل لها جعلاً على رمي موسى بذلك، فأمر الله الأرض أن تطيعه، فقال: يا أرض خذيه وأتباعه، فحسف بهم في حكاية طويلة. الله أعلم بها. ولما خسف بقارون ومن معه فقال بنو إسرائيل: إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله، و(من) زائدة أي من جماعة، تفيد استغراق الفئات، وإذا انتفت الجملة ولم يقدر على نصره فانتفاء الواحد عن نصرته أبلغ (وما كان من المنتصرين) أي: لم يكن في نفسه ممن يمتنع من عذاب الله (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) بدل (وأصبح) إذا حمل على ظاهره أن الخسف به وداره كان ليلاً وهو أفضع العذاب، إذ الليل مقر الراحة والسكون، والأمس يحتمل أن يراد به الزمان الماضي، ويحتمل أن يراد به ما قبل يوم الخسف وهو يوم التمني، ويدل عليه العطف بالفاء التي تقتضي التعقيب في قوله (فخسفنا) فيكون فيه اعتقاب العذاب خروجه في زينته، وفي ذلك تعجيل العذاب، و(مكانه) منزلته في الدنيا من الثروة والحشم والاتباع و(وي) عند الخليل وسيبويه اسم فعل، مثل «صه» و«مه» ومعناها أعجب، قال الخليل: وذلك أن القوم ندموا فقالوا متقدمين على ما سلف منهم (وي) وكل من ندم فأظهر ندامته قال (وي) و(كان) هي كاف التشبيه الداخلة على (أن) وكتبت متصلة بكاف التشبيه لكثرة الاستعمال وأنشد سيبويه:

وَيَ كَأَنَّ مَنْ يَكُنُّ لَهُ نَسَبٌ يُحَدِّبُ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعْشُ عَيْشَ ضُرٍّ<sup>(١)</sup>

والبيت لزيد بن عمرو بن نفيل، وحكى الفراء: أن امرأة قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: ويكأنه وراء البيت، وعلى هذا المذهب يكون الوقف على (وي)، وقال الأخفش: هي ويك، وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب ولا موضع له من الإعراب، والوقف عليه ويك، ومنه قول عنترة:

وَلَقَدْ شَفَا نَفْسِي وَأَبْرَأُ سُقْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ وَيَكُ عَتْرَ أَقْدِيمٍ<sup>(٢)</sup>

قال الأخفش: و«أن» عنده مفتوح بتقدير العلم أي «أعلم أن الله»، وقال الشاعر:

(١) من السبب لزيد بن عمرو بن نفيل انظر الكتاب (١٥٥/١) الخصائص (٤١/٣) ابن عيش (٦٦/٤) مجالس ثعلب (٣/٢) معاني الفراء (٣١٢/٢) المجمع (٣١٢/٢).

(٢) من معلقته انظر ديوانه (١٤) السبع الطوال (٣٥٩) المحتسب (١٦/١) التصريح (١٩٧/٢) ابن عيش (٧٧/٤) الأشموني (١٩٨/٣).

أَلَا وَنِكَ الْمَظْرُةُ لَا تَدُومُ وَلَا يُبْقَى عَلَى الْبُؤْسِ النَّعِيمُ<sup>(١)</sup>

وذهب الكسائي ويونس وأبو حاتم وغيرهم: إلى أن أصله «ويلك» فحذفت اللام، والكاف في موضع جر بالإضافة، فعلى المذهب الأول قيل: تكون الكاف خالية من معنى التشبيه، كما قيل (ليس كمثله شيء) وعلى المذهب الثاني: فالمعنى «أعجب لأن الله»، وعلى المذهب الثالث: تكون ويلك كلمة تحزن، والمعنى أيضاً لأن الله، وقال أبو زيد وفرقة معه: ويكأن حرف واحد بجملته، وهو بمعنى «ألم تر» وبمعنى «ألم تر» قال «ابن عباس» و«الكسائي» و«أبو عبيد»، وقال الفراء: «ويك» في كلام العرب كقول الرجل «أما ترى إلى صنع الله»، وقال ابن قتيبة: عن بعض أهل العلم أنه قال: معنى «ويك» رحمة لك بلغة حمير، ولما صدر منهم غمي حال قارون وشاهدوا الخسف كان ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا وداعياً إلى الرضا بقدر الله فتنبهوا لخطئهم فقالوا (وي)، ثم قالوا (كأن الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده) بحسب مشيئته وحكمته، لا لكرامته عليه ويضيق على من يشاء لا هوانه بل لحكمته وقضائه ابتلاءً، وقرأ الأعمش (لولا من الله) بحذف (أن) وهي مزادة، وروي عنه (من الله) برفع النون والإضافة، وقرأ الجمهور (لخسف) مبنياً للمفعول، وحفص وعصمة وأبان عن عاصم، وابن أبي حماد عن أبي بكر: مبنياً للفاعل، وابن مسعود وطلحة والأعمش (لا نخسف بنا) كقولك «انقطع بنا» كأنه فعل مطاوع، والمقام مقام الفاعل هو (بنا) ويجوز أن يكون المصدر أي لانخسف الانخساف، ومطاوع فعل لا يتعدى إلى مفعول به، فلذلك بني إما لبنا، وإما للمصدر، وعن ابن مسعود أيضاً (لتخسف) بباء وشد السين مبنياً للمفعول.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ<sup>(٢)</sup> مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا<sup>(٣)</sup> وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٤)</sup> إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ<sup>(٥)</sup> وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِّلْكَافِرِينَ<sup>(٦)</sup> وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ<sup>(٧)</sup> وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ<sup>(٨)</sup> وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ<sup>(٩)</sup>

لما كان من قول أهل العلم والإيمان (ثواب الله خير) ذكر محل الثواب وهو الدار الآخرة، والمعنى (تلك) التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها (الدار الآخرة)، أي نعيم الدار الآخرة، وهي الجنة، والبقاء فيها سرمداً، وعلق حصولها على مجرد الإرادة، فكيف بمن باشر العلو والفساد؟ ثم جاء التركيب بـ (لا) في قوله (ولا فساد) فدل على أن كل واحد من العلو والفساد مقصود، لا مجموعهما، قال الحسن: العلو: العز والشرف إن جر البغي<sup>(٣)</sup>. الضحاك: الظلم والفساد يعم أنواع الشرك<sup>(٢)</sup>، وعن عليّ كرم الله وجهه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شرك نعله أجود من شرك<sup>(٤)</sup> نعل صاحبه فيدخل تحتها،

(١) من الوافر انظر إبراز المعاني (٢٧٩).

(٢) انظر زاد المسير ٦/٢٤٨.

(٣) انظر زاد المسير ٦/٢٤٨.

لسان العرب (٤/٢٢٥٠)

(٤) الشرك: سبر النعل (النعل) والجمع شرك، وهو أحد سيور النعل التي تكون على وجهها.

وعن الفضيل : أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأمانى ، وعن عمر بن عبد العزيز : أنه كان يرددها حتى قبض (فله خير منها) يحتمل أن يكون «خير» أفعال التفضيل ، وأن يكون واحد الخيور ، أي : فله خير بسبب فعلها . ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله (فلا يجزى الذين عملوا السيئات) تهجيناً لحالهم ، وتبغيضاً للسيئة إلى قلوب السامعين ، ففيه بتكراره ما ليس فيه لو كان «فلا يجزون» بالصهر و(ما كانوا) على حذف مثل أي : «إلا مثل ما كانوا يعملون» ، لأن جزاء السيئة سيئة مثلها ، والحسنة بعشر أمثالها (إن الذي فرض عليك القرآن) ، قال عطاء : العمل به ، ومجاهد : أعطاكه ، ومقاتل : أنزله عليك ، وكذا قال الفراء وأبو عبيدة ، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> : أوجب عليك تلاوته ، وتبليغه ، والعمل بما فيه ، يعني إن الذي حَمَلَكَ صعوبة هذا التكليف ليثيبك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف ، و«المعاد» ، قال الجمهور : في الآخرة ، أي باعثك بعد الموت ، ففيه إثبات الجزاء ، والإعلام بوقوعه ، وعن ابن عباس وأبي سعيد الخدري : المعاد . الموت<sup>(٢)</sup> وقيل : بيت المقدس<sup>(٣)</sup> ، وقيل : الجنة وكان قد دخلها ليلة المعراج ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد : المعاد مكة ، أراد رده إليها يوم الفتح . ونكره المقصود التعظيم أي معاد أي معاد ، أي له شأن لغلبة الرسول عليها ، وقهره لأهلها ، ولظهور عز الإسلام وأهله فكان الله وعده وهو بمكة أنه يهاجر منها ويعود إليها ظافراً ظاهراً ، وقيل : نزلت عليه حين بلغ الجحفة<sup>(٤)</sup> في مهاجره ، وقد اشتاق إليها ، فقال له جبريل : أتشتاق إليها؟ قال نعم . فأوحاها إليه . و(من) منصوب بإضمار فعل ، أي «يعلم من جاء بالهدى» . ومن أجاز أن يأتي «أفعل» بمعنى «فاعل» ، وأجاز مع ذلك أن ينصب به جاز أن ينتصب به اذ يؤوله بمعنى «عالم» ويعطيه حكمه من العمل .

ولما وعده تعالى أنه يرده إلى معاد ، وأنه تعالى فرض عليه القرآن أمره أن يقول للمشركين ذلك ، أي «هو تعالى عالم بمن جاء بالهدى ، وهو محمد ﷺ ، وبما يستحقه من الثواب في معاده» ، وهذا إذا عني بالمعاد ما بعد الموت . ويعني بقوله (ومن هو في ضلال مبين) المشركين الذين أمره الله بأن يبلغهم ذلك ، هو عالم بهم ، وبما يستحقونه من العقاب في معادهم ، وفي ذلك مشاركة للكفار وتوبيخ (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) هذا تذكير لنعمته تعالى على رسوله ، وأنه تعالى رحمه رحمة لم يتعلق بها رجاءه ، وقيل : بل هو معلق بقوله (إن الذي فرض عليك القرآن) وأنت بحال من لا يرجو ذلك . وانتصب (رحمة) على الاستثناء المنقطع ، أي : لكن رحمة من ربك سبقت فألقى إليك الكتاب ، وقال الزمخشري : هذا كلام محمول على المعنى ، كأنه قيل : و«ما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك» . انتهى . فيكون استثناء متصل إماماً من الأحوال ، وإماماً من المفعول له ، وقرأ الجمهور (يصدنك) مضارع صدّ ، وشدّوا النون ويعقوب كذلك إلا أنه خففها ، وقرىء (يصدنك) مضارع أصد بمعنى صد ، حكاه أبو زيد عن رجل من كلب ، قال : وهي لغة قومه ، وقال الشاعر :

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ  
صُدُّوا السَّوَاقِي عَنِ السُّوفِ الْحَوَائِمِ<sup>(٥)</sup>

(بعد إذ أنزلت إليك) أي بعد وقت إنزالها ، و(إذ) تضاف إليها أساء الزمان كقوله «بعد إذ هديتنا» [آل عمران ٨] و«يومئذ» و«حينئذ» ، قال الضحاك : وذلك حين دعوه إلى دين آبائهم ، أي : لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركز إلى قولهم فيصدونك عن اتباع آيات الله (وادع إلى ربك) أي دين ربك .

(١) انظر الكشاف ٤٣٦/٣ .

(٢) انظر ابن كثير ٤٠٢/٣ ، ٤٠٣ ، والقرطبي ٢١٢/١٣ وزاد المسير ٢٥٠/٦ .

(٣) انظر ابن كثير ٤٠٢/٣ ، ٤٠٣ ، والقرطبي ٢١٢/١٣ وزاد المسير ٢٥٠/٦ .

(٤) انظر لسان العرب (٤٨٨/١) وانظر معجم البلدان (١٢٩/٢) .

(٥) البيت من الطويل لذي الرمة انظر ديوانه (٦٢٣) اللسان (صدد) الكشاف (١٧٣/٢) .

وهذه المناهي كلها ظاهرها أنها للرسول، وهي في الحقيقة لأتباعه. و«المهلك» يطلق بإزاء العدم المحض، فالمعنى «أن الله يعدم كل شيء سواه» وبإزاء نفي الانتفاع به إما للإماتة، أو بتفريق الأجزاء. وإن كانت نافية يقال «هلك الثوب» لا يريدون فناء أجزائه، ولكن خروجه عن الانتفاع به، ومعنى (إلا وجهه) إلا إياه، قاله الزجاج، وقال مجاهد والسدي: (هلك) بالموت إلا العلماء، فإن علمهم باق. انتهى. ويريدون إلا ما قصد به وجهه من العلم فإنه باق، وقال الضحاك: إلا الله عز وجل والعرش والجنة والنار، وقيل: ملكه، ومنه ﴿لمن الملك اليوم﴾ [غافر: ٦] وقال أبو عبيدة: المراد بالوجه: جاهه الذي جعله في الناس، وقال سفيان الثوري: إلا وجهه ما عمل لذاته، ومن طاعته، وتوجهه به نحوه. ومنه قول الشاعر.

رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الرَّجْعُ وَالْعَمَلُ

وقوله (يريدون وجهه) (له الحكم) أي: فصل القضاء (إليه ترجعون) أي إلى جزائه، وقرأ عيسى (ترجعون) مبنياً للفاعل، والجمهور مبنياً للمفعول.

# سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ  
 اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا  
 يَحْكُمُونَ ٤ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا  
 يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ  
 وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ  
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْحَمَتِكُمْ فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ  
 كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعٰلَمِينَ  
 ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ١١ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا  
 سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحٰمِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ ١٢  
 وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ١٣

هذه السورة مكية، قاله جابر وعكرمة والحسن<sup>(١)</sup>، وقال ابن عباس وقتادة: مدنية<sup>(٢)</sup>، وقال يحيى بن سلام: مكية  
 إلا من أولها إلى (وليعلمن المنافقين) ونزل أوائلها في مسلمين بمكة كرهوا الجهاد حين فرض بالمدينة. قاله السدي<sup>(٣)</sup>. أو في  
 «عمار» ونظرائه ممن كان يعذب في الله، قاله ابن عمر. أو في مسلمين كان كفار قريش يؤذونهم، قاله مجاهد<sup>(٤)</sup>، وهو قريب

(١) انظر القرطبي ٢١٤/١٣ وزاد المسير ٢٥٣/٦.

(٢) انظر القرطبي ٢١٤/١٣ وزاد المسير ٢٥٣/٦.

(٣) انظر زاد المسير ٢٥٤/٦ والقرطبي ٢١٤/١٣.

(٤) انظر زاد المسير ٢٥٤/٦ والقرطبي ٢١٤/١٣.

مما قبله . أو في «مهجع» مولى عمر، قتل بيدر لجنجع أبواه وامراته عليه، وقال فيه رسول الله ﷺ «سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة»<sup>(١)</sup>. أو في «عياش» أخي أبي جهل غدير فارتد، و(الناس) فسر بمن نزلت فيه الآية، وقال الحسن: الناس هنا المنافقون، أي أن يتركوا لمجرد قوهم (آمنا)، و(حسب) يطلب مفعولين. فقال الحوفي وابن عطية وأبو البقاء: سدت (أن) وما بعدها من معموها مسد المفعولين. وأجاز الحوفي وأبو البقاء: (أن يقولوا) بدلاً من (أن يتركوا) و(أن يكونوا) في موضع نصب بعد إسقاط الخافض، وقدروه «بأن يقولوا» و«لأن يقولوا»، وقال ابن عطية وأبو البقاء: وإذا قدرت الباء كان حالاً، قال ابن عطية: والمعنى في الباء واللام مختلف، وذلك أنه في الباء كما تقول «تركت زيدا بحاله»، وهي في اللام بمعنى «من أجل»، أي: «حسبوا أن إيمانهم علة للترك» تفسير معنى، إذ تفسر الإعراب «حسبانهم أن الترك لأجل تلفظهم بالإيمان»، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> (فإن قلت) فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان؟ (قلت) هو في قوله (أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) وذلك أن تقديره: حسبوا تركهم غير مفتونين لقوهم آمنا، فالترك أول مفعولي (حسب) ولقوهم (آمنا) هو الخبر، وأما غير مفتونين فتتمة للترك، لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقوله.

#### فتركته جزر السباع ينشئه

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركتهم غير مفتونين لقوهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام؟ (فإن قلت) (أن يقولوا) هو علة تركهم غير مفتونين، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ (قلت): كما تقول «خروجه لمخافة الشر» و«ضربه للتأديب» وقد كان التأديب والمخافة في قوله «خرجت مخافة الشر» و«ضربته تأديباً» تعليلين، وتقول أيضاً: «حسبت خروجه لمخافة الشر» و«ظننت ضربه للتأديب» فتجعلها مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً. انتهى. وهو كلام فيه اضطراب، ذكر أولاً أن تقديره: غير مفتونين تنمة يعني أنه حال، لأنه<sup>(٣)</sup> سبك ذلك من قوله (وهم لا يفتنون) وهذه جملة حالية، ثم ذكر (أن يتركوا) هنا من الترك الذي هو من التصيير وهذا لا يصح، لأن مفعول صير الثاني لا يستقيم أن يكون لقوهم، إذ يصير التقدير: «أن يصيروا لقوهم وهم لا يفتنون»، وهذا كلام لا يصح. وأما ما مثل به من البيت فإنه يصح، وأن يكون «جزر السباع» مفعولاً ثانياً لترك بمعنى صير، بخلاف ما قدر في الآية. وأما تقديره «تركهم غير مفتونين لقوهم آمناً» على تقدير «حاصل ومستقر» قبل اللام فلا يصح إذ كان تركهم بمعنى تصييرهم كان «غير مفتونين» حالاً، إذ لا ينعقد من تركهم بمعنى تصييرهم وقوهم مبتدأ وخبر، لاحتياج تركهم بمعنى تصييرهم إلى مفعول ثان، لأن غير مفتونين عنده حال، لا مفعول ثان. وأما قوله: «فإن قلت: أن يقولوا» إلى آخره فيحتاج إلى فضلة فهم، وذلك أن قوله «أن يقولوا هو علة تركهم» فليس كذلك، لأنه لو كان علة له لكان متعلقاً كما يتعلق بالفعل، ولكنه علة للخبر المحذوف الذي هو مستقر أو كائن، والخبر غير المبتدأ، ولو كان لقوهم علة للترك لكان من تمامه فكان يحتاج إلى خبره وأما قوله: كما تقول خروجه لمخافة الشر»، فلمخافة ليس علة للخروج بل للخبر المحذوف الذي هو مستقر أو كائن، (وهم لا يفتنون)، قال الشعبي: الفتنة

(١) ذكره ابن حجر في تخرجه على الكشاف ٤٣٩/٣ وعزه للثعلبي عن مقاتل قال وفي الدلائل لابن أبي شيبه من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن

عبد الله بن مسعود. . انظر القرطبي ٣٢٤/١٣.

(٢) انظر الكشاف ٤٣٩/٣.

(٣) قال ابن الأعرابي: الصناديد السادات، وهم الأجواد، وهم الحلباء، وهم حماة الفكر وفي الحديث ذكر صنديد قريش وهم أشرفهم

وعظماؤهم، الواحد صنديد وكل عظيم غالب: صنديد.

هنا: ما كلفه المؤمنون من الهجرة التي لم يتركوا دونها<sup>(١)</sup>، وقال الكلبي: هو مثال (أو يلبسكم شيعاً)<sup>(٢)</sup>، وقال مجاهد: يتلون في أنفسهم وأمواهم<sup>(٣)</sup>، و«الذين من قبلهم»: المؤمنون أتباع الأنبياء، أصابهم من المحن ما فرق به المؤمن بالمنشار فرقتين، وتمشط بأمشاط الحديد، ولا يرجع عن دينه (فليعلمن الله) بالامتحان (الذين صدقوا) في إيمانهم، (وليعلمن الكاذبين) فيه من «علم» المتعدية إلى واحد فيها، ويستحيل حدوث العلم لله تعالى، فالعنى «وليتعلقن علمه به موجوداً به كما كان متعلقاً به حين كان معدوماً»، والمعنى وليميزن الصادق منهم من الكاذب، أو عبر بالعلم عن الجزاء، أي: «وليتبين الصادق وليعذب الكاذب» ومعنى (صدقوا) في إيمانهم يطابق قولهم واعتقادهم أفعالهم و(الكاذبين) ضد ذلك، وقرأ علي وجعفر بن محمد (فليعلمن) مضارع المنقولة بهجمة التعدي، من «علم» المتعدية إلى واحد، والثاني محذوف، أي: «منازلهم في الآخرة من ثواب وعقاب». أو الأول محذوف، أي: «فليعلمن الناس الذين صدقوا»، أي يشهرهم، هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر وذلك في الدنيا والآخرة، أو من العلامة فيتعدى إلى واحد أي يسمهم بعلامة تصلح لهم كقوله «من أسرَّ سريرة» ألبسه الله رداءها» وقرأ الزهري الأولى كقراءة الجماعة، والثانية كقراءة علي (أم حسب) قال ابن عطية: (أم) معادلة للألف في قوله (أحسب)، وكأنه عز وجل قرر الفريقين، قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات في تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون نقمات الله ويعجزونه. انتهى.

وليست (أم) هنا معادلة للألف في (أحسب) كما ذكر، لأنها إذاً تكون متصلة ولها شرطان: أحدهما: أن يكون قبلها لفظ همزة الاستفهام، وهذا الشرط هنا موجود. والثاني: أن يكون بعدها مفرد أو ما هو في تقدير المفرد مثال المفرد «أزيد قائم أم عمرو»، ومثال ما هو في تقدير المفرد «أقام زيد أم قعد» وجوابها تعيين أحد الشئيين إن كان التعادل بين شئيين، أو الأشياء إن كان بين أكثر من شئيين، وهنا بعد (أم) جملة، ولا يمكن الجواب هنا بأحد الشئيين، بل (أم) هنا منقطعة بمعنى «بل» التي للإضراب، بمعنى الانتقال من قضية إلى قضية، لا بمعنى الإبطال، وهمزة الاستفهام والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ والإنكار فلا يقتضي جواباً، لأنه في معنى «كيف وقع حساب ذلك؟» و(الذين يعملون السيئات) قال ابن عباس: يريد «الوليد بن المغيرة، وأب جهل، والأسود، والعاصي بن هشام، وشيبة، وعتبة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وحنظلة بن أبي سفيان، والعاصي بن وائل» وأنظارهم، من صناديد قريش انتهى. والآية وإن نزلت على سبب فهي تعم جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم، وقال مجاهد: (أن يسبقونا) أي يعجزونا فلا نقدر على الانتقام. وقيل أن يعجلونا محتوم القضاء. وقيل أن يهربوا منا ويفوتونا بأنفسهم، وقال الزمخشري: (أن يسبقونا) أن يفوتونا، يعني أن الجزاء يلحقهم لا محالة، وهم لم يطمعوا في الفوت، ولم يحدثوا به أنفسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرتهم في العاقبة، وإصرارهم على المعاصي في صورة من يقدم ذلك ويطمع فيه، ونظيره ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ [الشورى: ٣١] ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون﴾ [الأنفال: ٥٩] [فإن قلت] أين مفعولاً (حسب) (قلت): اشتغال صلة (أن) على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين، كقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ [البقرة: ٢١٤]، ويجوز أن تضمن (حسب) معنى «قدر» و(أم) منقطعة، ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحساب الأول لأن ذلك يقدر أن لا يمتحن لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يجازي بمساويه. انتهى. أمّا قوله: «وهو لم يطمعوا في الفوت» إلى آخر قوله: «ويطمع فيه» فليس كما ذكر بل هم معتقدون أن لا يبعث ولا جزاء ولا سبأ السرية التي نص عليها ابن عباس وما ذكره الزمخشري هو على اعتقاد من يعلم أن الله

(١) انظر تفسير زاد المسير ٦/٢٥٥.

(٢) انظر تفسير زاد المسير ٦/٢٥٥.

(٣) انظر تفسير مجاهد ٢/٤٩٣.



يجازيه ولكن طمع في عفو الله . وأما قوله : «اشتغال صلة أن إلى آخره» فقد كان ينبغي أن يقدر ذلك في قوله أن يتركوا، فيجعل ذلك سد مسد المفعولين، ولم يقدر ما لا يصح تقديره . وأما قوله : ويجوز أن تضمن (حسب) معنى «قدر»، فتعين أن (أن) وما بعدها في موضع مفعول واحد، والتضمين ليس بقياس، ولا يصار إليه إلا عند الحاجة إليه وهذا لا حاجة إليه (ساء) ما يحكمون، قال الزمخشري وابن عطية ما معناه: إن (ما) موصولة (ويحكمون) صلتها، أو تمييز بمعنى شيء (ويحكمون) صفة، والمخصوص بالذم محذوف، فالتقدير «أي حكمهم» انتهى .

وفي كون (ما) موصولة مرفوعة بـ (ساء)، أو منصوبة على التمييز خلاف المذكور في النحو . وقال ابن كيسان : (ما) مصدرية لتقديره بشس حكمهم، وعلى هذا القول يكون التمييز محذوفاً، أي ساء حُكماً حُكْمُهُم (ساء) هنا بمعنى بشس، وتقدم حكم بشس إذا اتصل بها ما والفعل في قوله ﴿بشسما اشتروا به أنفسهم﴾ [البقرة ٩٠] مشبهاً في البقرة . وجاء بالمضارع وهو (يحكمون) قيل : إشعاراً بأن حكمهم مذموم حالاً واستقبالاً، وقيل : لأجل الفاصلة وقع المضارع موقع الماضي اتساعاً . والظاهر : أن (يرجو) على بابها، ومعنى (لقاء الله) الوصول إلى عاقبة الأمر من الموت والبعث والجزاء، مثلت حاله بحالة عبد قدم على مولاه من سفر بعيد وقد اطلع مولاه على ما عمل في غيبته عنه، فإن كان عمل خيراً تلقاه بإحسان، أو شراً فبضد الإحسان (فإن أجل الله لآت) وهو ما أجله وجعل له أجلاً، لا نفسه لا محالة، فليبادر لما يصدق رجاءه، وقال أبو عبيدة : (يرجو) يخاف . ويظهر أن جواب الشرط محذوف، أي : «من كان يرجو لقاء الله فليبادر بالعمل الصالح الذي يحقق رجاءه فإن ما أجله الله تعالى من لقاء جزائه لآت» والظاهر : أن قوله (ومن جاهد) معناه ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات فثمرة جهاده، وهو الثواب المعد له إنما هو له لا لله، والله تعالى غني عنه وعن العالمين، وإنما كلفهم ما كلفهم إحساناً إليهم (لنكفرون عنهم سيئاتهم) يشمل من كان كافراً قآمن وعمل صالحاً فأسقط عنه عقاب ما كان قبل الإيمان من كُفْرٍ ومعصية، ومن نشأ مؤمناً عاملاً الصالحات وأساء في بعض أعماله فكفر عنه ذلك وكانت سيئاته مغمورة بحسناته، (ولنجزيهم أحسن الذي) أي أحسن جزاء أعمالهم، وقال ابن عطية : فيه حذف مضاف تقديره «ثواب أحسن الذي كانوا يعملون» . انتهى . وهذا التقدير لا يسوغ، لأنه يقتضي أن أولئك يجزون ثواب أحسن أعمالهم، وأما ثواب حسنهما فمسكوت عنه، وهم يجزون ثواب الأحسن والحسن إلا إن أخرجت «أحسن» عن بابها من التفضيل فيكون بمعنى حسن، فإنه يسوغ ذلك . وأما التقدير الذي قبله فمعناه : أنه مجزي أحسن جزاء العمل، فعمله يقتضي أن تكون الحسنة بمثلها، فجوزي أحسن جزائها، وهي أن جُعِلَتْ بعشر أمثالها .

وفي هذه الآيات تحريك وهز لمن تخلف عن الهجرة أن يبادر إلى استدراك ما فرط فيه منها، وثناء على المؤمنين الذين بادروا إلى الهجرة وتنويه بقدرهم (ووصينا الإنسان) في جامع الترمذي : أنها نزلت في «سعد بن أبي وقاص» آلت أمه أن لا تطعم ولا تشرب حتى تموت أو يكفر . وقيل : في «عياش بن أبي ربيعة» أسلم وهاجر مع «عمر»، وكانت أمه شديدة الحب له، وحلفت على مثل ذلك، فتحليل عليه أبو جهل وأخوه الحارث فشداه وثاقاً حين خرج معهما من المدينة إلى أمه قصداً ليراها، وجلده كل منها مائة جلدة، ورداه إلى أمه فقالت : لا يزال في عذاب حتى يكفر بمحمد، في حديث طويل ذكر في السير (ووصينا الإنسان بوالديه) أي أمرناه بتعهدهما ومرعاتهما، وانتصب (حسناً) على أنه مصدر وصف به مصدر (وصينا) أي إيصال حسناً، أي ذا حسن، أو على سبيل المبالغة، أي : هو في ذاته حسن، قال ابن عطية : يحتمل أن ينتصب على المفعول، وفي ذلك تحريض على كونه عامماً لمعان كما تقول : «وصيتك خيراً» و«أوصيتك شراً» وعبر بذلك عن جملة ما قلت له، ويحسن ذلك دون حرف الجر كون حرف الجر في قوله (بوالديه) لأن المعنى : ووصينا الإنسان بالحسن في قوله مع والده، ونظير هذا قول الشاعر :

عَجِبْتُ مِنْ دَهْمَاءٍ إِذْ تَشْكُونَا وَمِنْ أَبِي دَهْمَاءٍ إِذْ يُوصِينَا<sup>(١)</sup>

انتهى مثله قول الخطيئة يوصي ابنته برة :

وَصَّيْتُ مِنْ «بِرَّةٍ» قَلْبًا حَرًّا بِالْكَلْبِ خَيْرًا وَالْحِمَاةَ شَرًّا<sup>(٢)</sup>

وعلى هذا التقدير يكون الأصل : بخير، وهو المفعول الثاني، والباء في «بوالديه» وفي «بالحماء» و«بالكلب» ظرفية بمعنى «في»، أي وصينا الإنسان في أمر والديه بخير، قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون المفعول الثاني في قوله (بوالديه) ويتنصب (حسناً) يفعل مضمراً تقديره «يحسن حسناً»، ويتنصب انتصاب المصدر. وفي التحرير (حسناً) نصب عند البصريين على التكرير، أي وصيناه حسناً، وقيل: على القطع تقديره: «ووصينا بالحسن»، كما تقول «وصيته خيراً» أي بالخير، ويعني بالقطع: عن حرف الجر فانصب، وقال أهل الكوفة: ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً، فيقدر له فعل. انتهى. وفي هذا القول حذف «أن» وصلتها، وإبقاء المفعول، وهو لا يجوز عند البصريين، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: وصيناه بإيتاء والديه حسناً أو نائلاً والديه حسناً، أي فعلاً ذا حسن، وما هو في ذاته حسن، لفطر حسنة كقوله: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ [البقرة: ٨٣] انتهى. وهذا التقدير فيه إعمال المصدر محذوفاً، وإبقاء معموله، وهو لا يجوز عند البصريين، قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: ويجوز أن يجعل (حسناً) من باب قولك «زيداً» بإضمار «أضرب» إذا رأيت متهيباً للضرب، فتنصبه بإضمار أولها، أو «أفعل بهما»، لأن الوصية بهما دالة عليه، وما بعده مطابق له، فكأنه قال: قلنا أولهاً معروفاً، وقرأ عيسى والجدري (حسناً) بفتحيتين. والجمهور بضم الحاء وإسكان السين، وهما كالبخل والبخل، وقال أبو الفضل الرازي: وانتصابه بفعل دون التوصية المقدمة، لأنها قد أخذت مفعولها معاً مطلقاً، ومجروراً. «فالحسن» هنا صفة أقيم مقام الموصوف بمعنى أمر حسن انتهى. أي أمراً حسناً حذف «أمراً» وأقيم «حسن» مقامه. وقوله: «مطلقاً» عني به الإنسان، وفيه تسامح، بل هو مفعول به، والمطلق إنما هو المصدر، لأنه مفعول لم يقيد من حيث التفسير بأداة جر بخلاف سائر المفاعيل فإنك تقول مفعول به، ومفعول فيه، ومفعول معه، ومفعول له. وفي مصحف أبي (إحساناً) (وإن جاهدك) أي: وقلنا إن جاهدك (ما ليس لك به علم) أي بإهيته فالمراد بنفي العلم نفي المعلوم، أي لتشرك به شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم، فلا تطعها فيما جاهدك عليه من الإشراف (إلى مرجعكم) شامل للموصى والموصي والمجاهد والمجاهد، (فأنبئكم) فأجازيكم بما كنتم تعملون) من بر، أو عقوق، أو طاعة، أو عصيان.

وكرر تعالى ما رتب للمؤمنين من دخولهم في الصالحين ليحرك النفوس إلى نيل مراتبهم. ومعنى (في الصالحين) في جملتهم ومرتبة الصلاح شريفة، أخبر الله بها عن إبراهيم، وسأها سليمان عليها السلام، وأخبر تعالى أن يجعل من أطاع الله ورسوله معهم، ويجوز أن يكون التقدير «في ثواب الصالحين» وهي الجنة، ولما ذكر تعالى ما أعدّه للمؤمنين الخالص ذكر حال المنافقين، ناساً آمنوا بالسنتهم فإذا آذاهم الكفار جعلوا ذلك الأذى وهو (فتنة الناس) صارفاً لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، وكونها نزلت في منافقين قول ابن زيد، وقال الزجاج: جزع كما يجزع من عذاب الله، وهذا معنى قول مجاهد والضحاك، وقال قتادة: فيمن هاجر فردهم المشركون إلى مكة. وقيل: في مؤمنين أخرجهم إلى بدر

(١) البيت في القرطبي (٢١٨/١٤).

(٢) البيت لأبي النجم العجلي انظر الكامل (٩٤/٢) معاهد التنصيص (٩/١).

(٣) انظر الكشاف ٤٤٢/٣.

(٤) انظر الكشاف ٤٤٢/٣.

المشركون، فارتدوا، وهم الذين قال فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء ٩٧] (ولكن جاء نصر من ربك) أي للمؤمنين (ليقولن) أي القائلون أودينا في الله إنا معكم، أي متابعون لكم في دينكم، أو مقاتلون معكم، ناصرون لكم، قاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم. وهذه الجملة المقسم عليها مظهرة مغالطتهم، إذ لو كان إيمانهم صحيحاً لصبروا على أذى الكفار. وإن كانت فيمن هاجر وكانوا يخالون في أمرهم، وركبوا كل هول في هجرتهم، وقرىء (ليقولن) بفتح اللام. ذكره أبو معاذ النحوي والزمخشري. و«أعلم» أفعل تفضيل، أي: من أنفسهم «وبما في صدورهم» أي: بما تكن صدورهم من إيمان ونفاق، وهذا استفهام معناه التقرير، أي: قد علم ما انطوت عليه الضمائر من خير وشر (وليعلمن المنافقين) ظاهر في أن ما قبل هذه الجملة في المنافقين كما قال ابن زيد. وعلمه بالمؤمن، وعدله بالثواب، وبالنفاق وعيد له بالعقاب، ولما ذكر حال المؤمنين والمنافقين ذكر مقالة الكافرين قولاً واعتقاداً وهم رؤساء قريش، قال مجاهد: كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن كان عليكم شيء فهو علينا. وقيل: قائل ذلك «أبوسفيان بن حرب، وأمّية بن خلف» قالوا لعمر إن كان في الإقامة على دين الآباء إثم فنحن نحمله عنك. وقيل: قائل ذلك «الوليد بن المغيرة»، قال ابن عطية: وقوله (ولنحمل) أخبر أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالثقل، لكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازاة، ومن هذا النوع قول الشاعر:

فَقُلْتُ ادْعِي وَأَدْعُو فَإِنَّ أُنْدَى لِيَصُوتَ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ<sup>(١)</sup>

ولكونه خيراً حسن تكذيبهم فيه، وقال الزمخشري: أمرهم باتباع سبيلهم، وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فحمل الأمر على الأمر، وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن يتبعوا سبيلنا، وأن نحمل خطاياكم، والمعنى تعليق الحمل بالاتباع، وهذا قول صنّاديد قريش، كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نُبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك فإننا نتحمل عنكم الإثم. انتهى. وقوله «فإن عسى كان» تركيب أعجمي، لا عربي، لأن «إن» الشرطية لا تدخل على «عسى»، لأنه فعل جامد، ولا تدخل أدوات الشرط على الفعل الجامد، وأيضاً فإن «عسى» لا يليها «كان»، واستعمل عسى بغير اسم ولا خبر، ولم يستعملها تامة، وقرأ الحسن وعيسى ونوح القاريء: (ولنحمل) بكسر لام الأمر، ورويت عن علي، وهي لغة الحسن في لام الأمر. و«الحمل» هنا مجاز، شبه القيام بما يتحصل من عواقب الإثم بالحمل على الظهر، والخطايا بالمحمول، وقال مجاهد: نحمل هنا من الجمالة، لا من الحمل، وقرأ الجمهور: (من خطاياهم) وقرأ داود بن أبي هند فيما ذكر أبو الفضل الرازي (من خطيتهم) على التوحيد، قال: ومعناه الجنس. ودل على ذلك اتصافه بضمير الجماعة. وذكر ابن خالويه وأبو عمرو الداني: أن داود هذا قرأ (من خطيتهم) بجمع خطيئة جمع السلامة بالألف والتاء. وذكر ابن عطية عنه: أنه قرأ (من خطيتهم) بفتح الطاء وكسر الباء، وينبغي أن يحمل كسر الباء على أنها همزة سهلت بين بين فأشبهت الباء، لأن قياس تسهيلها هو ذلك، قال الزمخشري: (فإن قلت) كيف ساهم كاذبين وإنما ضمنوا شيئاً علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به، ومن ضمن شيئاً لا يقدر على الوفاء به لا يسمى كاذباً، لا حين ضمن، ولا حين عجز، لأنه في الحالين لا يدخل تحت عدّ الكاذبين، وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه؟ (قلت) شبه الله حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يَفُؤا به، فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم، لا على ما عليه المخبر عنه. ويجوز أن يريد أنهم كاذبون لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يصدقون الشيء وفي قلوبهم فيه الخلف. انتهى. وتقدم من قول ابن عطية: أن قوله (ولنحمل) خبر يعني أمراً ومعناه الخبر، وهذان الأمران منزلان منزلة الشرط والجزاء إذ المعنى «إن تتبعوا سبيلنا» ولحقكم في ذلك إثم على ما

تزعمون فنحن نحمل خطاياكم» وإذا كان المعنى على هذا كان إخباراً في الجزاء بما لا يطابق، وكان كذباً (وليحملن أثقالهم) أثقال أنفسهم من كفرهم ومعاصيهم (وأنقالاً) أي آخر، وهي أثقال الذين أغروهم فكانوا سبياً في كفرهم. ولم يبين من الذين يحملون أثقاله، فأمكن اندراج أثقال المظلوم بحملها للظالم كما جاء في الحديث «أنه يقتص من الظالم للمظلوم بأن يعطى من حسنات ظالمه، فإن لم يبق للظالم حسنة أخذ من سيئات المظلوم فطرح عليه» وفي صحيح مسلم ما معناه «أبدا دعاً إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها بعده فعليه أوزار من عمل بها ممن اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً» (وليسألن يوم القيامة) أي سؤال توبيخ وتقريع.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَيَّخَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقَرِبُوا إِلَيْهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِأَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَاسِئُونَ مِّن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

ذكر هذه القصة تسلياً لرسول الله ﷺ لما كان يلقي من أذى الكفار، فذكر ما لقي أول الرسل وهو نوح من أذى قومه المدد المتطاولة، تسلياً لخاتم الرسل صلوات الله عليه والواو في (ولقد) واو عطف عطفت جملة على جملة، قال ابن عطية: والقسم فيها بعيد، يعني أن يكون المقسم به قد حذف وبقي حرفه وجوابه. وفيه حذف المجرور وإبقاء حرف الجار، وحرف الجر لا يعلق عن عمله بل لا بد له من ذكره. والظاهر: أنه أقام في قومه هذه المدة المذكورة بدعوتهم إلى الله. وقال ابن عطية: يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته في قومه من لدن مولده إلى غرق قومه. انتهى وليس عندي محتملاً لأن اللبث متعقب بإلغاء الدالة على التعقيب. واختلف في مقدار عمره حين كان بعث، وحين مات، اختلافاً مضطرباً متكاذباً، تركنا حكايته في كتابنا، وهو في كتب التفسير. والاستثناء من «الألف» استدلل به على جواز الاستثناء من العدد، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف مذكور في النحو. وقد عمل الفقهاء المسائل على جواز ذلك، وغاير بين تمييز المستثنى منه وتمييز المستثنى، لأن التكرار في الكلام الواحد محتجب في البلاغة إلا إذا كان لغرض من تفخيم، أو تهويل، أو تنويه. ولأن التعبير عن المدة المذكورة بما عبر به، لأن ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكبر منه أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره، ولإزالة التوهم الذي يجيء مع قوله «تسعمائة وخمسون عاماً» بأن ذلك على سبيل المبالغة لا التمام، والاستثناء يرفع

ذلك التوهم المجازي. وتقدمت وقعة نوح بأكمل مما هنا، والخلاف في عدد من آمن ودخل السفينة، والضمير في (وجعلناها) يحتمل أن يعود على السفينة، وأن يعود على الحادثة والقصة. وأفرد (آية) وجاء بالفاصلة (للعالمين)، لأن إنجاء السفن أمر معهود، فالآية إنجاؤه تعالى أصحاب السفينة وقت الحاجة، ولأنها بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لهم، فناسب ذلك قوله (للعالمين) وانتصب (إبراهيم) عطفاً على (نوحاً)، قال ابن عطية: أو على الضمير في (فأنجيناه) وقال هو والزمخشري<sup>(١)</sup>: بتقدير «اذكر»، وأبدل منه (إذ) بدل اشتغال، لأن الأحيان تشتمل على ما فيها، وقد تقدم لنا أن (إذ) ظرف لا يتطرف، فلا يكون مفعولاً به، وقد كثر تمثيل المعربين إذ في القرآن بأن العامل فيها «اذكر» وإذا كانت ظرفاً لما مضى، فهو لو كان منصرفاً لم يجوز أن يكون معمولاً لاذكر، لأن المستقبل لا يقع في الماضي، لا يجوز «ثم أمس» فإن كان خلع من الظرفية الماضية وتصرف فيه جاز أن يكون مفعولاً به ومعمولاً لاذكر وقرأ النخعي وأبو جعفر وأبو حنيفة وإبراهيم: بالرفع، أي «ومن المرسلين إبراهيم». وهذه القصة تمثيل لقريش. وتذكير لحال أبيهم إبراهيم من رفض الأصنام والدعوى إلى عبادة الله وكان نموذ وأهل مدينته عباد أصنام، وقرأ الجمهور (وتخلقون) مضارع خلق (إفكاً) بكسر الهمزة وسكون الفاء، وقرأ علي والسلمي وعون العقيلي وعبادة وابن أبي ليلى وزيد بن علي: بفتح التاء والخاء واللام مشددة، قال ابن مجاهد: رويت عن ابن الزبير أصله: «تخلقون» بتاءين فحذفت إحداهما على الخلاف الذي في المحذوفة، وقرأ زيد بن علي أيضاً فيما ذكر الأهوازي «تخلقون» من خلق المشدد، وقرأ ابن الزبير وفضيل بن زرقان (إفكاً) بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر مثل الكذب، قال ابن عباس: (وتخلقون إفكاً) هو نحت الأصنام وخلقها، سهاها «إفكاً» توسعاً من حيث يفترون بها الإفك في أنها آلهة، وقال مجاهد: هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان وغير ذلك، وقال الزمخشري: (إفكاً) فيه وجهان: أحدهما: أن تكون مصدرراً، نحو كذب ولعب، والإفك مخفف منه، كالكذب واللعب من أصلهما، وأن تكون صفة على فعل أي خلقاً إفكاً ذا إفك وباطل، واختلاقم الإفك تسمية الأوثان آلهة وشركاء لله وشفعاء إليه، أو سمي الأصنام إفكاً، وعملهم لها ونحتهم خلقاً للإفك. انتهى. وهذا التردد منه في نحو (وتخلقون إفكاً) قولان لابن عباس ومجاهد. وقد تقدم لنا نقلها عنها ونفهم بقوله (لا يملكون لكم رزقاً) على جهة الاحتجاج بأمر يفهمه عامتهم وخاصتهم، فقرر أن الأصنام لا ترزق. و«الرزق» يحتمل أن يريد به المصدر، لا يملكون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق. واحتمل أن يكون اسم المرزوق أي: لا يملكون لكم إيتاء رزق ولا تحصيله، وخص «الرزق» لمكانته من الخلق. ثم أمرهم بابتغاء الرزق ممن هو يملكه ويؤتيه، وذكر الرزق لأن المقصود أنهم لا يقدرون على شيء منه، وعرفه بعد لدلالته على العموم، لأنه تعالى عنده الأرزاق كلها، (واشكروا له) على نعمه السابقة<sup>(٢)</sup> من الرزق وغيره، (وإليه ترجعون) أي إلى جزائه أخبر بالمعاد والحشر، ثم قال (وإن تكذبوا) أي ليس هذا مبتكراً منكم، وقد سبق ذلك من أمم الرسل، قيل: قوم شيث وإدريس وغيرهم، وروي أن إدريس عليه السلام عاش في قومه ألف سنة، فأمن به ألف إنسان على عدد سنه وباقيهم على التكذيب، (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) تقدم الكلام على مثل هذه الجملة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بخلاف عنه (تروا) بناء الخطاب. وباقي السبعة بالياء. والجمهور (بيديء) مضارع أبدأ والزبير وعيسى وأبو عمرو بخلاف عنه (بيدأ) مضارع بدأ، وقرأ الزهري (كيف بدأ الخلق) بتخفيف الهمزة بإيادها ألفاً فذهبت في الوصل، وهو تخفيف غير قياسي كما قال الشاعر:

(١) انظر الكشاف ٣/٤٤٥.

(٢) السابقة: نعمة سابقة وأسبغ الله عليه النعمة: أكملها وأتمها ووسعها. وإنهم لفي سبعة من العيش واسعة.

### فَارْعَمِي فَرَاةَ لَا هَنَّاكَ الْمَرْتَعِ

وقياس تخفيف هذا التسهيل بين بين، وتقريرهم على رؤية بدء الخلق في قوله (أو لم يروا) وفي (فانظروا كيف بدأ الخلق) إنما هو لمشاهدتهم إحياء الأرض بالنبات، وإخراج أشياء من العدم إلى الوجود. وقوله (ثم يعيده) وقوله (ثم الله ينشئ) ليس داخلاً تحت الرؤية، ولا تحت النظر، فليس (ثم يعيده) معطوفاً على (بيدي) ولا ثم (ينشئ) داخلاً تحت كيفية النظر في البدء، بل هما جملتان مستأنفتان إخباراً من الله تعالى بالإعادة بعد الموت. وقدم ما قبل هاتين الجملتين على سبيل الدلالة على إمكان ذلك، فإذا أمكن ذلك وأخبر الصادق بوقوعه صار واجباً مقطوعاً بعمامة ولا شك فيه، وقال قتادة: (أو لم يروا) بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت، وقال الربيع بن أنس: المعنى: كيف يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده إلى أحوال آخر حتى إلى التراب، وقال مقاتل: الخلق هنا: الليل والنهار، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (النشأة) هنا وفي النجم والواقعة، على وزن «فعالة» وباقي السبعة (النشأة) على وزن فعلة، وهما كالرأفة والرأفة، وهما لغتان، والقصر أشهر. وانتصابه على المصدر إما على غير المصدر قام مقام الإنشاء، وإما على إضمار فعله، أي: فتنشئون النشأة. وفي الآية الأولى صرح باسمه تعالى في قوله (كيف يبدئ الله الخلق) ثم أضمر في قوله (ثم يعيده) وهنا عكس أضمر في (بدأ) ثم أبرزه في قوله (ثم الله ينشئ) حتى لا تخلو الجملتان من صريح اسمه، ودل إبرازه هنا على تفخيم النشأة الآخرة، وتعظيم أمرها وتقرير وجودها، إذ كان نزاع الكفار فيها، فكأنه قيل «ثم ذلك الذي بدأ الخلق هو الذي ينشئ النشأة الآخرة»، فكان التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه. و(الآخرة) صفة للنشأة، فهما نشأتان: نشأة اختراع من العدم، ونشأة إعادة. ثم ذكر الصفة التي النشأة هي بعض مقدراتها، ثم أخبر بأنه (يعذب من يشاء)، أي تعذيبه (ويرحم من يشاء). رحمة. وبدأ بالعذاب لأن الكلام هو مع الكفار مكذبي الرسل، (وليه تقلبون) أي تردون، وقال الزمخشري: ومتعلق المشيئين مفسر مبين في مواضع من القرآن، وهو يستوجبها من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا، ومن المعصوم والتائب انتهى. وهو على طريقة الاعتزال (وما أنتم بمعجزين) أي فائتين ما أراد الله لكم (في الأرض ولا في السماء) إن حمل السماء على العلو فجائز أي في البروج والقلاع الذاهبة في العلو، ويكون تخصيصاً بعد تعميم، أو على المظلة فيحتاج إلى تقرير، أي: لو صرتم فيها، ونظيره قول الأعشى:

وَلَوْ كُنْتَ فِي جُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً      وَرُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ  
لَيَعْتَوِرَنَّكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْزُهُ      وَتَعْلَمَ أَنَّي فَيْكَ لَسْتُ بِمُجْرِمٍ<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى: ﴿إِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٣٣] على تقدير الحكم لو كنتم فيها، والأرض فانفذوا، وقال ابن زيد والفراء: التقدير ولا من في السماء، أي يعجز إن عصي، وقال الفراء: وهذا من غوامض العربية، وأنشد قول حسان:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ      وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ<sup>(٢)</sup>

أي: ومن ينصره، وهذا عند البصريين لا يكون إلا في الشعر، لأن فيه حذف الموصول وإبقاء صلته، وأبعد من هذا

(١) انظر البيتين في ديوانه (١٨٣).

(٢) تقدم.

القول قول من زعم أن التقدير «وما أنتم بمعجزين من في الأرض من الإنس والجن، ولا من في السماء من الملائكة فكيف تعجزون الله؟» وقرأ الجمهور (يشوا) بالهمز. والدماري وأبو جعفر: بغير همز بل بياء بدل الهمزة. وهو وعيد، أي: يباسون يوم القيامة. وقيل: من رحمتي. وقيل: من ديني فلا أهدبهم. وقيل: هو وصف بحالهم، لأن المؤمن يكون دائماً راجياً خائفاً، والكافر لا يخطر بباله ذلك شبه حالهم في انتفاء رحمة عنهم بحال من يش من الرحمة. والظاهر: أن قول (وإن يكذبوا) من كلام الله حكاية عن إبراهيم إلى قوله (عذاب أليم) وقيل: هذه الآيات اعتراض من كلام الله بين كلام إبراهيم والإخبار عن جواب قومه، أي: وإن تكذبوا محمداً، فتقدير هذه الجمل اعتراضاً يرده على أبي علي الفارسي حيث زعم أن الاعتراض لا يكون جملتين فاكتر، وفائدة هذا الاعتراض أنه تسلية للرسول ﷺ، حيث كان قد أتى بمثل ما كان أبوه إبراهيم قد أتى من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، وتكذيبهم إياه، ومحاولتهم قتله. وجاءت الآيات بعد الجملة الشرطية مفرقة لما جاء به الرسول من توحيد الله ودلائله وذكر آثار قدرته والمعاد.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾ فَمَنْ لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ إِجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُضَافٍ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مَنهَاءَ آيَةٍ بَيِّنَةٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

لما أمرهم بعبادة الله، وبين سفههم في عبادة الأوثان، وظهرت حجته عليهم رجعوا إلى الغلبة فجعلوا القائم مقام جوابه فيما أمرهم به قولهم (اقتلوه أو حرقوه) والأمرون بذلك: إما بعضهم لبعض، أو كبرائهم قالوا لأتباعهم اقتلوه

فتستريحوا منه عاجلاً، أو حرقوه بالنار، فإما أن يرجع إلى دينكم إذا أمضته النار، وإما أن يموت بها إن أصر على قوله ودينه . وفي الكلام حذف، أي : «حرقوه في النار فأنجاه الله من النار» . وتقدمت قصته في تحزيقه في سورة ﴿اقرب للناس حسابهم﴾ [الأنبياء : ١] وجمع هنا فقال الآيات ، لأن الإنجاء من النار وجعلها برأً وسلاماً، وأنها في الجبل الذي كانوا أوتقوه به دون الجسم، وإن صح ما نقل من أن مكانها حالة الرمي صار بستاناً يناعاً هو مجموع آيات، فناسب الجمع، بخلاف الإنجاء من السفينة فإنه آية واحدة . وتقدم الكلام على ذلك . وفي ذلك إشارة من النار بعد إلقائه فيها قال «كعب» لم يحترق بالنار إلا الجبل الذي أوتقوه به، وجاء هنا التريديد بين قتله وإحراقه، فقد يكون ذلك من قائلين : ناس أشاروا بالقتل، وناس أشاروا بالإحراق . وفي (اقرب) قالوا ﴿حرقوه﴾ [الأنبياء : ٢٨] اقتصروا على أحد الشيتين وهو الذي فعلوه، رموه في النار، ولم يقتلوه . وقرأ الجمهور (جواب) بالنصب . والحسن وسالم الأفضس بالرفع اسماً لكان . وقرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبة وأبو عمرو وفي رواية الأضعمي والأعمش عن أبي بكر (مودة) بالرفع و(بينكم) بالنصب . فالرفع على خبر «إن» و(ما) موصولة بمعنى الذي، أي : إن الأوثان التي اتخذتموها مودوداً، أو بسبب مودة، أو مصدرية، أي : إن اتخذكم أوثاناً مودة . أو على خبر مبتدأ محذوف، أي : هي مودة بينكم، و(ما) إذ ذاك مهية، وروي عن عاصم (مودة) بالرفع من غير تنوين و(بينكم) بالفتح أي بفتح النون جعله مبنياً لإضافته إلى مبني، وهو موضع خفض بالإضافة، ولذلك سقط التنوين من (مودة) وقرأ أبو عمرو والكسائي وابن كثير كذلك، إلا أنه خفض نون بينكم وقرأ ابن عامر وعاصم بنصب (مودة) منوناً ونصب (بينكم) وحمزة كذلك، إلا أنه أضاف (مودة) إلى (بينكم) وخفض كما في قراءة من نصب (مودة) مهية . و«اتخذ» يحتمل أن يكون مما تعدت إلى اثنين والثاني هو (مودة) أي : اتخذتم الأوثان بسبب المودة بينكم، على حذف المضاف أو اتخذتموها مودة بينكم كقوله : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ [البقرة : ١٦٥] أو مما تعدت إلى واحد، وانتصب (مودة) على أنه مفعول له، أي ليتوادوا، ويتواصلوا، ويجتمعوا على عبادتها كما يجتمع ناس على مذهب فيقع التحاب بينهم . وذكروا عن ابن مسعود قراءة شاذة تخالف سواد المصحف، مع أنه قد روي عنه ما في سواد المصحف بالنقل الصحيح المستفيض، فلذلك لم أذكر تلك القراءة . ثم يوم القيامة يقع بينكم التلاعن أي فيلأعن العبد والمعبودات الأصنام كقوله ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ [مريم ٨٢] و(بينكم) و(في الحياة) يجوز تعليقها بلفظ (مودة)، وعمل في ظرفين لاختلافهما، إذ هما ظرفا مكان وزمان، ويجوز أن يتعلقا بمحذوفين، فيكونا في موضع الصفة . أي : كائنة بينكم في الحياة في موضع الحال من الضمير المستكن في (بينكم) وأجاز أبو البقاء أن يتعلق (في الحياة) ب (اتخذتم) على جعل (ما) كافة، ونصب (مودة) لا على جعل (ما) موصولة بمعنى الذي، أو مصدرية ورفع (مودة) لثلاثا يؤدي إلى الفصل بين الموصول وما في الصلة بالخبر . وأجاز قوم منهم ابن عطية : أن يتعلق (في الحياة) ب (مودة) وأن يكون (بينكم) صفة لمودة وهو لا يجوز . لأن المصدر إذا وصف قبل أخذ متعلقاته لا يعمل، وشبهتهم في هذا أنه يتسع في الظرف بخلاف المفعول به . وأجاز أبو البقاء : أن يتعلق بنفس (بينكم)، قال : لأن معناه اجتماعكم، أو وصلكم . وأجاز أيضاً : أن يجعله حالاً من (بينكم) قال : لتعرفه بالإضافة . انتهى . وهما إعرابان لا يتعلقان (فأمن له لوط) لم يؤمن بإبراهيم أحد من قومه إلا لوط عليه السلام حين رأى النار لم تحرقه، وكان ابن أخي سارة، أو كانت بنت عمه . والضمير في (وقال) عائد على إبراهيم، وهو الظاهر ليتناسق مع قوله (ووهبنا له إسحق) وهو قول قتادة والنخعي . وقالت فرقة : يعود على لوط، وهاجر، وإبراهيم عليهم السلام من قريتهما «كوثى» وهي في سواد العراق من أرض بابل إلى فلسطين من أرض الشام . وكان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة، وهو أول من هاجر في الله . وقال ابن جريج : هاجر إلى حران، ثم إلى الشام، وفي هجرته هذه كانت معه سارة . و«المهاجر» : الفارغ عن الشيء وهو في عرف الشريعة : من ترك وطنه رغبةً في رضا الله، وعرف بهذا الاسم أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرون قبل فتح مكة (إلى ربي) أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها . وقيل : إلى حيث لا أمنع عبادة ربي .



وقيل : مهاجراً من خالفني من قومي ، متقرباً إلى ربي . ونزل إبراهيم قرية من أرض فلسطين ، وترك لوطاً في سدوم - وهي المؤتفكة - على مسيرة يوم وليلة من قرية إبراهيم عليهما السلام (إنه هو العزيز) الذي لا يذل من عبده (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها . والضمير في (ذريته) عائذ على إبراهيم (النبوة) إسحق ويعقوب وأبناء بني إسرائيل وإساعيل ومحمد خاتمهم ﷺ (والكتاب) اسم جنس يدخل فيه التوراة والزبور والإنجيل والفرقان (وأتيناه أجره في الدنيا) أي في حياته ، قال مجاهد : نجاته من النار ومن الملك الجبار ، والعمل الصالح ، والثناء الحسن ، بحيث يتولاه كل أمة . وقال ابن جريج : والولد الذي قرت به عينه ، قاله الحسن ، وقال السدي : إنه رأى مكانه من الجنة . وقال ابن أبي بردة : ما وفق له من عمل الآخرة ، وقال الماوردي : بقاء ضيافته عند قبره ، وليس ذلك لنبي غيره . وقيل : النبوة والحكمة . وقيل : الصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وانتصب (لوطاً) بإضمار «اذكر» ، أو بالعطف على (إبراهيم) ، أو بالعطف على ما عطف عليه (إبراهيم) . والجمهور على الاستفهام في (أنتكم) معاً . وقرئ إنكم على الخبر ، والثاني على الاستفهام ، وقال أبو عبيد : وجدته في الإمام بحرف واحد ، بغير ياء ، ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون . ولم يأت في قصة لوط أنه دعا قومه إلى عبادة الله ، كما جاء في قصة إبراهيم وقصة شعيب ، لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم في زمانه ، وسبقه إبراهيم إلى الدعاء لعبادة الله وتوحيده واشتهر أمره بذلك عند الخلق ، فذكر لوط ما اختص به من المنع من الفحشاء وغيرها ، وأما إبراهيم وشعيب فجاء بعد انقراض من كان يعبد الله فلذلك دعوا إلى عبادة الله ، قال الزمخشري<sup>(١)</sup> : (ما سبقكم بها) جملة مستأنفة مقررة لفاحشة تلك الفعلية ، كأن قائلها قال : لم كانت فاحشة؟ فقيل : لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشمئزاً منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى قدم عليها قوم لوط لخبث طبيعتهم ، قالوا : لم يتردد ذكر على ذكر قبل قوم لوط . انتهى . ويظهر أن ما سبقكم بها جملة حالية ، كأنه قال : «أتأتون الفاحشة متدعين لها غير مسبوقين بها» ، واستفهم أولاً وثانياً استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، وبين ما تلك الفاحشة المهمة في قوله (أنتكم لتأتون الفاحشة) وإن كانت معينة أنها إتيان الذكور في الأدبار بقوله (ما سبقكم بها) فقال (أنتكم لتأتون الرجال) يعني في الأدبار (وتقطعون السبيل) الولد بتعطيل الفرج ووطء أدبار الرجال ، أو بامسآك الغرباء لذلك الفعل حتى انقطعت الطرق ، أو بالقتل وأخذ المال ، أو بقبح الأحدثة حتى تنقطع سبل الناس في التجارات ، (وتأتون في ناديكم) أي في مجلسكم الذي تجتمعون فيه وهو اسم جنس ، إذ أنديتهم في مدائهم كثيرة ، ولا يسمى نادياً إلا ما دام فيه أهله ، فإذا قاموا عنه لم يطلق عليه نادٍ إلا مجازاً ، (والمنكر) ما تنكره العقول والشرائع والمروءات . حذف الناس بالخصياء ، والاستخفاف بالغريب خاطر<sup>(٢)</sup> ، وروت «أم هانئ» عن النبي ﷺ : أو إتيان الرجال في مجالسهم ، يرى بعضهم بعضاً<sup>(٣)</sup> . قاله منصور ومجاهد والقاسم بن محمد وقتادة بن زيد . أو تضارطهم أو تصافعهم فيها ، قاله ابن عباس . أو لعب الحمام ، أو تطريف الأصابع بالحناء ، والصفير ، والحذف ، ونبد الحياء في جميع أمورهم قاله مجاهد أيضاً . أو الحذف بالخصي ، والرمي بالبنادق ، والفرقة ومضغ العلك ، والسواك بين الناس ، وحل الأزرار والسباب ، والفحش في المزاح ، قاله ابن عباس . أيضاً مع شركهم بالله كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، تظالم فيما بينهم ، وبشاعة ، ومضاريط في مجالسهم ، وحذف ، ولعب بالنرد والشطرنج ، ولبس المصبغات ، ولباس النساء للرجال ، والمكوس<sup>(٤)</sup> على كل عابر ، وهم أول من لاط ، ومن ساحق ، ولما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح أصروا على اللجاج في التكذيب ، فكان جوابهم له (أن قالوا اثنتا بعداًب الله إن

(١) انظر الكشف ٥١١/٣ .

(٢) انظر القرطبي ٢٢٦/١٣ ، ٢٢٧ ، وابن كثير ٤١١/٣ ، ٤١٢ ، وزاد المسير ٢٦٨/٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) انظر القرطبي ٢٢٦/١٣ ، ٢٢٧ ، وابن كثير ٤١١/٣ ، ٤١٢ ، وزاد المسير ٢٦٨/٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٤) المكس : الضريبة التي يأخذها المكس وأصلها الحياجة .

كنت من الصادقين) فيما تعدنا به من نزول العذاب . قالوا ذلك وهم مضمون على اعتقاد كذبه فيها وعدهم به . وفي آية أخرى ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط﴾ [النمل: ٥٦] الجمع بينهما أنهم أولاً قالوا (اثننا بعذاب الله) ثم إنه كثر: منه الإنكار، وتكرر ذلك منه نبياً، ووعظاً، ووعيداً، (قالوا أخرجوا آل لوط) ولما كان إنما يأمرهم بترك الفواحش وما كانوا يصنعونه من قبيح المعاصي، ويعد على ذلك بالعذاب، وكانوا يقولون: إن الله لم يحرم هذا، ولا يعذب عليه، وهو يقول أن الله حرمه ويعذب عليه (قالوا اثننا بعذاب الله) فكانوا ألطف في الجواب من قوم إبراهيم بقولهم: (اقتلوه أو حرقوه) لأنه كان لا يذم أهتهم، وعهد إلى أصنامهم فكسرهما، فكان فعله هذا معهم أعظم من قول لوط لقومه، فكان جوابهم له أن قالوا (اقتلوه أو حرقوه) ثم استنصر لوط عليه السلام فبعث ملائكة لعذابهم، ورجعهم بالحاصب وإفسادهم بحمل الناس على ما كانوا عليه من المعاصي طوعاً وكرهاً، وخصوصاً تلك المعصية المتدعة، (بالبشرى) هي بشارته بولده إسحاق وبنافلته يعقوب، وبنصر لوط على قومه وإهلاكهم . (والقرية) سدوم، وفيها قيل: «أجور من قاضي سدوم»<sup>(١)</sup> (كانوا ظالمين) أي قد سبق منهم الظلم واستمر على الأيام السالفة، وهم مصررون، و«ظلمهم» كفرهم وأنواع معاصيهم، ولما ذكروا لإبراهيم (إنا مهلكو أهل هذه القرية) أشفق على لوط فقال (إن فيها لوطاً) ولما عللوا الإهلاك بالظلم قال لهم «فيها من هو بريء من الظلم» (قالوا نحن أعلم بمن فيها) أي منك، وأخبر بحاله، ثم أخبروه بإنجائهم إياه وأهله إلا امرأته، وقرأ حمزة والكسائي (لُنَجِيَّتُهُ) مضارع «أنجي»، وباقي السبعة مضارع «نَجَى» والجمهور بشد النون، وفرقة بتخفيفها (ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً) تقدم الكلام على مثل هذه الجملة إلا أن هنا زيدت (أن) بعد (لما) وهو قياس مطرد، وقال الزمخشري: (أن) صلة أكدت وجود الفعلين، مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين، لا فاصل بينهما، كأنها وُجِّدَا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم فاجأت المساء من غير وقت خيفة عليهم من قومه. انتهى . وهذا الذي ذكره في الترتيب هو مذهب سيبويه، إذ مذهبه أن (لما) حرف لا ظرف، خلافاً للفارسي . وهذا مذکور في علم النحو، وقرأ العريبان ونافع وحفص (مُنَجَّوْكَ) مشدداً، وباقي السبعة مخففاً . والكاف في مذهب سيبويه في موضع جر (وأهلك) منصوب على إضمار فعل أي وننجي أهلك»، ومن راعى هذا الموضع عطفه على موضع الكاف والكاف على مذهب الأخفش وهشام في موضع نصب (وأهلك) معطوف عليه لأن هذه النون كالتنوين، وهما على مذهبهما يجذفان للطفافة الضمير وشدة طلبه الاتصال بما قبله، وقرأ الجمهور (سيء) بكسر السين، وضمناها نافع وابن عامر والكسائي، وقرأ عيسى وطلحة (سوء) بضمها وهي لغة بني هذيل وبني وبيد، يقولون في: قيل وبيع ونحوهما قول وبوع، وقرئ (منزِلون) مخففاً ومشدداً، وابن محيصن (رُجْزاً) بضم الراء . وأبو حيوة والأعمش بكسر سين (يُقْسِقُونَ) - والظاهر أن الضمير في (منها) عائد على (القرية) فقال ابن عباس: منازلهم الخربة، وحكى أبو سليمان الدمشقي أن الآية في قرينهم إلا أن أساسها أعلاها، وسقوفها أسفلها إلى الآن، وقال الفراء: المعنى تركناها آية، يقول إن في السماء لآية، يريد أنها آية. انتهى . وهذا لا يتجه إلا على زيادة (من) في الواجب نحو قوله «أمهت (٢) منها جبة وتيساً» يريد: أمهتها، وكذلك ﴿ولقد تركناها آية﴾ [القمر: ١٥] وقيل: الهاء في (منها) عائدة على الفعلة التي فعلت بهم، فقيل: الآية . الحجارة التي أدركتها أوائل هذه

(١) سدوم: مدينة بحمص، ويقال هي مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له سدوم.

كذلك قوم لوط حين أمسوا كعصف في سدومهم رميم

لسان العرب ١٩٧٧/٣

(٢) المهر: الصداق: والجمع مهور. وأمهرها النجاشي من عنده ساق لها مهرها.

لسان العرب (٤٢٨٦/٦)

الامة، قاله قتادة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض، قاله مجاهد. وقيل: أنجز ما صنع بهم، و(لقوم) متعلق بـ (تركنا) أو بـ (بينه).

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمَ عَبْدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَرَبِّنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُورٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمْدَانٌ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَنْتَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

وإلى مدين أي: وإلى مدين أرسلنا أو بعثنا، مما يتعدى بإلى، أمرهم بعبادة الله والإيمان بالبعث واليوم الآخر، والأمر بالرجاء أمر بفعل ما يترتب الرجاء عليه أقام المسبب مقام السبب، والمعنى: «وافعلوا ما ترجون به الثواب من الله»، أو يكون أمر بالرجاء على تقدير تحصيل شرطه وهو الإيمان بالله، وقال أبو عبيدة: (وأرجوا): خافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله منكم إن لم تعبدوه، وتضمن الأمر بالعبادة والرجاء أنه إن لم يفعلوا ذلك وقع بهم العذاب، كذلك جاء (فكذبوه)، وجاءت ثمرة التكذيب، وهي (فأخذتهم الرجفة<sup>(١)</sup> فأصبحوا في دارهم جاثمين<sup>(٢)</sup>) وتقدم تفسير مثل هذه الجملة، وانتصب (وعادًا وثمودًا) بإضمار «أهلكنا» للدلالة (فأخذتهم الرجفة) عليه، وقيل بالعطف على الضمير في (فأخذتهم) وأبعد الكسائي في عطفه على (الذين) من قوله (ولقد فتنا الذين من قبلهم) وقرأ (ثمود) بغير تنوين حمزة وشيبة والحسن وحفص، وباقى

(١) الرجفان: الاضطراب الشديد والرجفة الزلزلة، قال الليث: الرجفة في القرآن كل عذاب أخذ قومًا، فهي رجفة وصيحة وصاعقة.

لسان العرب (٣/١٥٩٥)

(٢) جاثمين: أي: أجساماً ملقاة على الأرض، والجاثم المبارك على رجله كما يجثم الطير أي: أصابهم العذاب فهاثوا جاثمين أي: باركين.

لسان العرب (١/٥٤٥)

السبعة بالتنونين ، وقرأ ابن وثاب (وعادٍ وثمودٍ) بالخفض فيها والتنونين عطفاً على (مدين) أي وأرسلنا إلى عاد وثمود (وقد تبين لكم) أي ذلك أي ما وصف لكم (من) إهلاكهم من جهة (مساكنهم) إذا نظرتم إليها عند مروركم لها ، وكان أهل مكة يرون عليها في أسفارهم ، وقرأ الأعمش (مساكنهم) بالرفع من غير (من) فيكون فاعلاً بـ (تبين) ، (وزين لهم الشيطان) أي بوسوسته وإغوائه أعماهم القبيحة (فصدهم عن) سبيل الله وهي طريق الإيمان بالله ورسله (وكانوا مستبصرين) أي في كفرهم لهم به بصر وإعجاب ، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك . وقيل : عقلاء ، يعلمون أن الرسالة والآيات حق ، ولكنهم كفروا عناداً . ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [النمل : ١٤] ، (وقارون) معطوف على ما قبله ، أو منصوب بإضمار «اذكر» ، (فاستكبروا) أي عن الإقرار بالصانع وعبادته في الأرض إشارة إلى قلة عقولهم ، لأن من في الأرض يشعر بالضعف ، ومن في السماء يشعر بالقوة ، ومن في السماء لا يستكبرون عن عبادة الله فكيف من في الأرض؟ ، (وما كانوا سابقين) الأمم إلى الكفر ، أي تلك عادة الأمم مع رسلهم ، و«الحاصب» لقوم لوط وهي ريحٌ عاصف فيها حصاً ، وقيل : ملك كان يريمهم . و«الصيحة» لمدين وثمود ، و«الخسف» لقارون ، و«الغرق» لقوم نوح وفرعون وقومه ، وقال ابن عطية : ويشبه أن يدخل قوم عاد في الحاصب ، لأن تلك الريح لا بد أن كانت تحصبهم بأمور مؤذية ، و«الحاصب» هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمى بشيء ، ومنه قول الفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شِمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُهُمْ      بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ مَثُورٍ<sup>(١)</sup>

ومنه قول الأخطل :

تَرْمِي الْعُضَاةَ بِحَاصِبٍ مِنْ بَلْجِهَا      حَتَّى تَبِيَّتَ عَلَى الْعُضَاةِ جِفَالاً<sup>(٢)</sup>

(العنكبوت) حيوان معروف ووزنه فَعَلَّلُوتٍ ويؤنث ويذكر فمن تذكيره قول الشاعر :

عَلَى هَطَالِهِمْ مِنْهُمْ بُيُوتٌ      كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ هُوَ ابْتَنَاهَا<sup>(٣)</sup>

ويجمع عنكب ، ويصغر عنكبب يشبه تعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم أمورهم عليها بالعنكبوت التي تبني وتجهد وأمرها كله ضعيف متى مسته أدنى هامة أو هامة أذهبت ، فكذلك أمر أولئك وسعيهم مضمحل ، لا قوة له ولا معتمد ، وقال الزمخشري<sup>(٤)</sup> : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم ، وتولوه من دون الله مما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة وهو نسج العنكبوت ، ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله (إن أوهن البيوت لبنت العنكبوت)؟ انتهى . يعني بقوله : ألا ترى إلى مقطع التشبيه بما ذكر أولاً من أن الغرض تشبيه المتخذ بالبيت ، لا تشبيه المتخذ بالعنكبوت . والذي يظهر هو تشبيه المتخذ من دون الله ولياً بالعنكبوت المتخذة بيتاً ، أي : فلا اعتماد للمتخذ على وليه من دون الله ، كما أن العنكبوت لا اعتماد لها على بيتها في استغلال وسكني ، بل لو دخلت فيه خرقت ، ثم بين حال بيتها ، وأنه في غاية الوهن بحيث لا يُتَنَفَّعُ به ، كما أن تلك الأصنام لا تنفع ولا تجدي شيئاً البتة . وقوله (لو كانوا يعلمون) ليس مرتبطاً بقوله (وإن أوهن البيوت لبنت العنكبوت) لأن كل أحد يعلم ذلك فلا يقال فيه (لو كانوا يعلمون) وإنما المعنى لو كانوا يعلمون أن

(١) انظر ديوانه (١٩١) ورواية الشطر الأول (مستقبلين شمال الشام تضربنا . .).

(٢) انظر ديوانه (٢٤٦) والعشاء شجر عظيم كثير الشوك .

(٣) من الوافر انظر معاني الفراء (٣١٧/٢) اللسان (هطل).

(٤) انظر الكشف ٤٥٤/٣ .

هذا مثلهم، وأن أمر دينهم بالغ من الوهن هذه الغاية لأقلعوا عنه وما اتخذوا الأصنام آلهة، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: إذا صح تشبيه ما اعتمده في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون، أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز، وكأنه قال: وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتاً، بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بأجرٍ وجصٍّ أو نحته من صخر، فكما أن أوهن البيوت إذا استقرتها بيتاً بيتاً العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقرتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. انتهى. وما ذكره من قوله: ولقائل أن يقول إلخ لا يدل عليه لفظ الآية، وإنما هو تحمیل للفظ ما لا يحتمله، كعادته في كثير من تفسيره، وقرأ أبو عمرو وسلام (يعلم ما) بالإدغام، والجمهور بالفك. والجمهور (تدعون) بقاء الخطاب. وأبو عمرو وعاصم بخلاف بياء الغيبة، وجوزوا في (ما) أن يكون مفعولاً بـ (يدعون) أي يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأشياء، أي: يعلم حالهم، وأنهم لا قدرة لهم، وأن تكون نافية، أي: لستم تدعون من دونه شيئاً له بال ولا قدر، فيصلح أن يسمى شيئاً، وأن يكون استفهاماً، كأنه قدر على جهة التوبيخ على هذا المعبود من جميع الأشياء، وهي في هذين الوجهين مقطعة من (يعلم) واعتراض بين (يعلم) وبين قوله (وهو العزيز الحكيم) وجوز «أبو علي» أن يكون (ما) استفهاماً منصوباً بـ (يدعون) و(يعلم) معلقة، فالجملة في موضع نصب بها، والمعنى: «أن الله يعلم أوثاناً تدعون من دونه أم غيرها لا يخفى عليه ذلك»، والجملة تأكيد للمثل، وإذا كانت (ما) نافية كان في الجملة زيادة على المثل، حيث لم يجعل تعالى ما يدعونه شيئاً، (وهو العزيز الحكيم) فيه تجهيل لهم، حيث عبد واما ليس بشيء، لأنه جمد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً، وتركوا عبادة القادر القاهر الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا لحكمة (وما يعقلها إلا العالمون) أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها. وكان جهلة قريش يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، وما علموا أن الأمثال والتشبيهات طرق إلى المعاني المحتجبة، فبرزها، وتصورها للفهم، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد. والإشارة بقوله (وتلك الأمثال) إلى هذا المثل وما تقدم من الأمثال في السور. وعن جابر أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»<sup>(٢)</sup> (خلق) (السموات والأرض) فيه تنبيه على صغر قدر الأوثان التي عبدوها. ومعنى (بالحق) بالواجب الثابت لا بالعبث واللعب، إذ جعلها مساكن عبادة، وعبرة، ودلائل على عظيم قدرته وباهر حكمته، والظاهر: أن الصلاة هي المعهودة، والمعنى: من شأنها أنها إذا أدت على ما يجب من فروضها وسننها، والخشوع فيها، والتدبر لما يتلو فيها، وتقدير المثول بين يدي الله تعالى أن تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقال ابن عباس والكلبي وابن جريج وحماد بن أبي سليمان: تنهى ما دام المصلي فيها. وقال ابن عمر: (الصلاة) هنا: القرآن، وقال ابن بحر: الصلاة الدعاء، أي أقم الدعاء إلى أمر الله، وأما من تراه من المصلين يتعاطى المعاصي فإن صلاته تلك ليست بالوصف الذي تقدم. وفي الحديث «إن فتى من الأنصار كان يصلي مع النبي ﷺ ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ارتكبه، فقيل ذلك للنبي ﷺ فقال: إن صلاته تنهاه فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم»<sup>(٣)</sup> ولا يدل اللفظ على أن كل صلاة تنهى، بل المعنى أنه يوجد ذلك فيها، ولا يكون على العموم كما تقول «فلان يأمر بالمعروف» أي من شأنه ذلك، ولا

(١) انظر الكشاف ٤٥٤/٣.

(٢) ذكره البغوي في التفسير ١٩٤/٥ وذكره الحافظ ابن حجر في تخرجه على الكشاف (٤٥٥/٣) وعزاه لداود بن المحبر في كتاب العقل والحارث بن أبي أسامة في مسنده عنه من حديث جابر وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحد البغوي وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٣) قال الحافظ في تخرجه الكشاف ٤٥٦/٣ لم أجده.

يلزم منه أن كل معروف يأمر به، والظاهر: أن (أكبر) أفعل تفضيل، فقال عبد الله وسلمان وأبو الدرداء وابن عباس وأبو قرة: معناه (ولذكر الله) إياكم (أكبر) من ذكركم إياه، وقال قتادة وابن زيد: أكبر من كل شيء. وقيل: (ولذكر الله) في الصلاة (أكبر) منه خارج الصلاة، أي: أكبر ثواباً. وقيل: أكبر من سائر أركان الصلاة. وقيل: (ولذكر الله) نهي أكبر من نهي الصلاة. وقيل: أكبر من كل العبادة، وقال ابن عطية: وعندي أن المعنى (ولذكر الله أكبر) على الإطلاق، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، والجزء الذي منه في الصلاة ينهى كما ينهى في غير الصلاة، لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله مراقبه، وثواب ذلك الذاكر أن يذكره الله في ملا خير من ملئه، والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في النهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله، وأما ما لا يجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وقال الزمخشري: يريد: والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وسأها بذكر الله كما قال ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [الجمعة ٩] وإنما قال (ولذكر الله) لتستقل بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر لأنها ذكر الله (مما تصنعون) من الخير والشر فيجازيكم. وفيه وعيد وحث على المراقبة.

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَأَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَوَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٤٦] وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَنْزَلْنَا الْمُبْتُلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعَثَةٌ وَهَمَّ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَعَشُوهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُو قُوَّةٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

(وأهل الكتاب) اليهود والنصارى (إلا بالتي هي أحسن) من الملائكة في الدعاء إلى الله والتنبه على آياته (إلا الذين ظلموا) ممن لم يؤد جزية، ونصب الحرب، وصرح بأن الله ولدأ، أو شريكاً، أو يده مغلوله، فالآية منسوخة في مهادة من لم يجارب، قاله مجاهد. ومؤمنو أهل الكتاب (إلا بالتي هي أحسن) أي بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم (إلا الذين ظلموا) من بقي منهم على كفره، وعيد لقرينة والنضير قاله ابن زيد، والآية على هذا محكمة. وقيل: إلا الذين آذوا رسول

الله ﷺ، وقال قتادة: الآية منسوخة بقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون) الآية<sup>(١)</sup>، وقرأ الجمهور (إلا) حرف استثناء، وابن عباس (ألا) حرف تنبيه واستفتاح، وتقديره: ألا جادلوهم بالتي هي أحسن، وقولوا آمنا، هذا من المجادلة بالأحسن (بالذي أنزل إلينا) وهو القرآن (وأنزل إليكم) وهو التوراة والزبور والإنجيل. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»<sup>(٢)</sup> (وكذلك) أي مثل ذلك الإنزال الذي للكتب السابقة (أنزلنا إليك الكتاب) أي القرآن (فالذين آتيناكم الكتاب) هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه (ومن هؤلاء) أي من أهل مكة، وقيل: (فالذين آتيناكم الكتاب) أي الذين تقدموا عهد الرسول (يؤمنون به) أي بالقرآن، إذ هو مذكور في كتبهم أنه ينزل على رسول الله ﷺ (ومن هؤلاء) أي ممن في عهده منهم (وما يجحد بآياتنا) مع ظهورها وزوال الشبهة عنها (إلا الكافرون) أي من بني إسرائيل وغيرهم، قال مجاهد<sup>(٣)</sup>: كان أهل الكتاب يقرؤون في كتبهم أن محمداً عليه السلام لا يخط ولا يقرأ كتاباً فنزلت (وما كنت تتلو من قبله) أي من قبل نزوله عليك (من كتاب) أي كتاباً، (ومن) زائدة، لأنها في متعلق النفي (ولا تخطه) أي لا تقرأ ولا تكتب (بيمينك) وهي الجارحة التي يكتب بها وذكرها زيادة تصوير لما نفى عنه من الكتابة، لما ذكر إنزال الكتاب عليه متضمناً من البلاغة والفصاحة والإخبار عن الأمم السابقة والأمور الغيبية ما أعجز البشر أن يأتوا بسورة مثله أخذ يحقق كونه نازلاً من عند الله بأنه ظهر عن رجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل العلم، وظهور هذا القرآن المنزل عليه أعظم دليل على صدقه، وأكثر المسلمين على أن رسول الله ﷺ لم يكتب قط ولم يقرأ بالنظر في كتاب، وروي عن الشعبي<sup>(٤)</sup> أنه قال «مامات رسول الله ﷺ حتى كتب». وأسند «النقاش» حديث «أبي كبشة السلولي»<sup>(٥)</sup> أنه ﷺ قرأ صحيفة لعبيثة<sup>(٦)</sup> بن حصن وأخبر بمعناها. وفي صحيح مسلم ما ظاهره أنه كتب مباشرة. وقد ذهب إلى ذلك جماعة منهم: أبو ذر عبد الله بن أحمد الهروي، والقاضي أبو الوليد الباجي، وغيرهما. واشتد نكير كثير من علماء بلادنا على أبي الوليد الباجي حتى كان بعضهم يسبه ويطنع فيه على المنبر، وتأول أكثر العلماء ما ورد من أنه كتب على أن معناه أمر بالكتابة، كما تقول «كتب السلطان لفلان بكذا» أي أمر بالكتب، (إذا لارتاب المبطلون) أي لو كان يقرأ كتباً قبل نزول القرآن عليه أو يكتب لحصلت الرية للمبطلين، إذ كانوا يقولون: حصل ذلك الذي يتلوه مما قرأه، قيل: وخطه واستحفظه فكان يكون لهم في ارتيابهم تعلق ببعض شبهة، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة فظاهر فساده. (والمبطلون) أهل الكتاب، قاله قتادة. أو كفار قريش، قاله مجاهد. وسما مبطلين لأنهم كفروا به وهو أُمي بعيد من الريب، ولما لم يكن قارئاً ولا كاتباً كان ارتيابهم لا وجه له (بل هو) أي القرآن (آيات بينات) واضحات الإعجاز (في صدور الذين أوتوا العلم) أي مستقرة، مؤمن بها، محفوظة في صدورهم، يتلوها أكثر الأمة ظاهراً، بخلاف غيره من الكتب فليس بمعجز، ولا يقرأ إلا من الصحف وجاء في صفة هذه الأمة. «صدورهم» أناجيلهم، وكونه القرآن يؤيده قراءة عبد الله (بل هي آيات) وقيل: (بل هو) أي النبي وأموره (آيات بينات) قاله قتادة. وقرأ (بل هو آية بينة) على التوحيد، وقيل: (بل هو) أي كونه لا يقرأ ولا يكتب، ويقال جحدته، وجحدت به، وكفرته، وكفرت به، قيل: والجحود الأول معلق بالوحدانية، والثاني معلق بالنبوة، وختمت تلك

(١) انظر القرطبي ١٣/١٣٢٢ وزاد المسير ٦/٢٧٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/٥١٦ كتاب التوحيد (٧٥٤٢).

(٣) انظر القرطبي ١٣/١٣٣.

(٤) انظر القرطبي ١٣/١٣٣.

(٥) أبو كبشة السلولي الشامي وفقه العجلي. الخلاصة (٣/٢٣٩).

(٦) بضم العين وفتح الباء وسكون الثانية وفتح النون.

بالكافر ولأنه قسيم المؤمنين في قوله (يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن) وهذه بالظالمين، لأنه جحد بعد إقامة الدليل على كون الرسول صدر منه القرآن، منزل عليه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، فهم الظالمون بعد ظهور المعجزة (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه) أي قريش وبعض اليهود، كانوا يعلمون قريشاً مثل هذا الاقتراح يقولون له: ألا يأتيكم بآية مثل آيات موسى من العصا وغيرها. وقرأ العربيان ونافع وحفص (آيات) على الجمع، وباقي السبعة على التوحيد (قل إنما الآيات عند الله) ينزل أيتها شاء، ولو شاء أن ينزل ما يقترحونه لفعل، (وإنما أنا نذير) بما أعطيت من الآيات. وذكر يحيى بن جعدة أن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود فلما نظر إليها ألقاها وقال: كفر بها جماعة قوم، أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت. (أو لم يكفهم) <sup>(١)</sup> والذي يظهر أنه رد على الذين قالوا (لولا أنزل عليه آية من ربه) أي: أو لم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين <sup>(٢)</sup> هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا تزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل، كما تزول كل آية بعد وجودها ويكون في مكان دون مكان (إن في) هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان (لرحمة) لعظمة لا تنكر وتذكر، وقيل (أو لم يكفهم) يعني اليهود (أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك، وروي أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا يا محمد من يشهد بأنك رسول الله فنزلت (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) أي قد بلغت وأنذرت، وأنكم جحدتم وكذبتم، وهو العالم (ما في السموات والأرض) فيعلم أمري وأمركم والذين آمنوا بالباطل، قال ابن عباس: بغير الله، وقال مقاتل: بعبادة الشيطان، وقيل: بالضم، (ويستعجلونك) أي كفار قريش في قولهم ﴿إتسنا بما تعدنا﴾ [الأعراف: ٧٧] وقول النضر ﴿فأمطر علينا حجارة﴾ [الأنفال: ٣٢] وهو استعجال على جهة التحجيز والتكذيب والاستهزاء بالعذاب الذي كان يتوعدهم به الرسول، والأجل المسمى: ما ساءه الله وأثبتته في اللوح لعذابهم وأوجبت الحكمة تأخيره، وقال ابن جبير: يوم القيامة، وقال ابن سلام: أجل ما بين النفختين وقيل يوم بدر (وليأتينهم بغتة) أي فجأة، وهو ما ظهر يوم بدر، وفي السنين السبع، ثم كرر فعلهم وقبحه، وأخبر أن وراءهم جهنم تحيط بهم. وانتصب (يوم يغشاهم) بـ (محيطه)، وقرأ الكوفيون ونافع (ويقول) أي الله، وباقي السبعة بالنون نون العظمة أو نون جماعة الملائكة وأبو البرهيم بالناء، أي جهنم، كما نسب القول إليها في (وتقول هل من مزيد)، وقرأ ابن مسعود وابن أبي عبله (ويقال) مبنياً للمفعول.

يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ  
الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ  
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى  
يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن

(١) انظر القرطبي ١٣/١٣٥، ١٣٦، وزاد المسير ٦/٢٧٩.

(٢) أعتته وتعنته معتاً: سأله عن شيء أراد به اللبس عليه والمشقة.

وقال ابن الأنباري أصل التعنت التشديد.



نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قَلِيلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّيْتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتِعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنْخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

أكثر المفسرين ذهبوا إلى قوله (يا عبادي) الآية نزلت فيمن كان مقيماً بمكة، أمروا بالهجرة عنها إلى المدينة<sup>(١)</sup> أي جانيها أهل الشرك واطلبوا أهل الإيمان، وقال أبو العالية: سافروا لطلب أوليائه، وقال ابن جبير وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس؛ الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، ويلزم الهجرة عنها إلى بلد حق<sup>(٢)</sup>، وقال مطرف بن الشخير: (إن أرضي واسعة) عدة بسعة الرزق في جميع الأرض، وقيل: أرض الجنة واسعة أعطيكم، وقال مجاهد: سافروا لجهاد أعدائه، (فإياي فاعبدون) من باب الاشتغال أي: فإياي اعبدوا فاعبدون، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: (فإن قلت) ما معنى الفاء في (فاعبدون) وتقدم المفعول؟ (قلت) الفاء جواب شرط محذوف، لأن المعنى إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة في أرض فاخلوصها في غيرها، ثم حذف الشرط، وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص. انتهى. ويحتاج هذا الجواب إلى تأمل، ولما أخبر تعالى بسعة أرضه وكان ذلك إشارة إلى الهجرة، وأمر بعبادته فكان قد يتوهم متوهم أنه إذا خرج من أرضه التي نشأ فيها لأجل من حلها من أهل الكفر إلى دار الإسلام لا يستقيم له فيها ما كان يستقيم له في أرضه، وربما أدى ذلك إلى هلاكه أخبر أن كل نفس لها أجل تبلغه، وتموت في أي مكان حل، وأن رجوع الجمع إلى أجزائه يوم القيامة، وقرأ عليّ (تَرْجِعُونَ) مبنياً للفاعل، والجمهور مبنياً للمفعول بناء الخطاب، وروي «عن عاصم» بياء الغيبة، وقرأ «أبو حيوة» (ذاتقة) بالتنوين (الموت) بالنصب. وقرأ (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) من المباءة، وقرأ عليّ وعبد الله والربيع بن خيثم وابن وثاب وطلحة وزيد بن علي وحمزة والكسائي: من الثواء (وبوأ) يتعدى لاثنين، قال تعالى: ﴿تَبَوَّءَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وقد جاء متعدياً باللام قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] والمعنى: ليجعلن لهم مكان مباءة، أي مرجعاً يأوون إليه (غرفاً) أي علالي، وأما ثوى فمعناه: أقام وهو فعل لازم، فدخلت عليه همزة التعدية فصار يتعدى إلى واحد، وقد قرئ مشدداً، عُدِّي بالتضعيف، فانصب (غرفاً) إما على إسقاط حرف الجر، أي: في غرف، ثم اتسع فحذف، وإما على تضمين الفعل معنى التبوئة فتعدى إلى اثنين، أو شبه الظرف المكاني المخصص بالمبهم يوصل إليه الفعل، وروي عن ابن عامر (عُرفاً) بضم الراء، وقرأ ابن وثاب (فنعم) بالفاء. والجمهور بغير فاء (الذين صبروا) أي على مفارقة أوطانهم، والهجرة وجميع المشاق من امتثال الأوامر واجتناب المناهي (وعلى ربهم يتوكلون) هذان جماع الخير كله، الصبر، وتفويض الأمور إلى الله تعالى. ولما أمر رسول الله ﷺ من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر، فقالوا

(١) انظر القرطبي ٢٣٧/١٣ وزاد السير ٢٨١/٦ وابن كثير ٤١٩/٣.

(٢) انظر القرطبي ٢٣٧/١٣ وزاد السير ٢٨١/٦ وابن كثير ٤١٩/٣.

(٣) انظر الكشاف ٤٦١/٣.

غربة في بلاد لا دَارَ لَنَا، ولا فيه عقار، ولا من يطعم، فمثل لهم بأكثر الدواب التي تتقوت، ولا تدخر، ولا تروى في رزقها، ولا تحمل رزقها من الحمل، أي لا تنقل، ولا تنظر في ادخار، قاله مجاهد. وأبو مجلز وعلي بن الأقرم. والادخار جاء في حديث «كف بك إذا بقيت في حثالة<sup>(١)</sup> من حثالة الناس يخبئون رزق سنة لضعف اليقين» قيل: ويجوز أن يكون من الحثالة التي لا تتكفل لنفسها ولا تروى، وقال الحسن (لا تحمل رزقها) لا تدخر إنما تصبح فبرزقها الله، وقال ابن عباس: لا يدخر إلا الأدمي والنمل والفأرة والعققة<sup>(٢)</sup>، وقيل: اللبليل يحتكر في حوضه، ويقال: للعققة مخابء إلا أنه ينسأها، وانتفاء حملها لرزقها إما لضعفها وعجزها عن ذلك، وإما لكونها خلقت لا عقل لها فيفكر فيما يجزؤه للمستقبل، أي يرزقها على ضعفها (وإياكم) أي على قدرتكم على الاكتساب وعلى التحيل في تحصيل المعيشة، ومع ذلك فرازقكم هو الله (وهو السميع) لقولكم نخشى الفقر (العليم) بما انطوت عليه ضمائرهم، ثم أعقب تعالى ذلك بإقرارهم بأن مبدع العالم ومسخر النيرين هو الله، وأتبع ذلك ببسط الرزق وضيقة فقال (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه، ويقدر لمن يشاء أن يقدره، والضمير في (له) ظاهره العود على (من يشاء) فيكون ذلك الواحد يبسط له في وقت، ويقدر في وقت، ويجوز أن يكون الضمير عائداً عليه في اللفظ، والمراد: لمن يشاء آخر، فصار نظير ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ [فاطر: ١١] أي من عُمر مُعَمَّرٍ آخر. وقولهم «عندبي درهم ونصفه» أي «ونصف درهم آخر» فيكون المسبوط له الرزق غير المضيق عليه الرزق، وقرأ علقمة الحمصي (ويُقَدَّرُ) بضم الياء وفتح القاف وشد الدال (عليم) يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، ولما أخبر بأنهم مقرون بأن موجد العالم، ومسخر النيرين، ومحبي الأرض بعد موتها هو الله كان ذلك الإقرار ملزماً لهم أن رازق العباد إنما الله هو المتكفل به، وأمر رسوله بالحمد له تعالى، لأن في إقرارهم توحيد الله بالإبداع ونفي الشركاء عنه في ذلك، وكان ذلك حجة عليهم حيث أسندوا ذلك إلى الله، وعبدوا الأصنام (بل أكثرهم لا يعقلون) حيث يقرون بالصانع الرازق المحيي ويعبدون غيره (وما هذه الحياة الدنيا) الإشارة بهذه ازدراء للدنيا وتصغير أمرها، وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة؟ أي ما هي في سرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون. و(الحيوان) و«الحياة» بمعنى واحد، وهو عند الخليل وسيبويه مصدر «حيي» والمعنى: هي دار الحياة، أي المستمرة التي لا تنقطع، قال مجاهد: لا موت فيها. وقيل: الحيوان: الحي، وكأنه أطلق على الحي اسم المصدر، وجعلت الدار الآخرة حيا على المبالغة بالوصف بالحياة، وظهور الواو في «الحيوان» وفي «حَيَوَة» علم لرجل استدلل به من ذهب إلى أن الواو في مثل هذا التركيب تبدل ياء لكسر ما قبلها نحو «شقي» من الشقوة، ومن ذهب إلى أن لام الكلمة لامها ياء زعم أن ظهور الواو في «حيوان» و«حوية» بدل من ياء شذوذاً، وجواب (لو) محذوف أي: لو كانوا يعلمون لم يؤثروا دار الفناء عليها. وجاء بناء مصدر «حي» على «تَعْلَان» لأنه يدل على الحركة والاضطراب كالعَلْيَان والنَزْوَان واللَّهْيَان<sup>(٣)</sup> والجَوْلَان والطَوْفَان. والحي: كثير الاضطراب والحركة، فهذا البناء فيه لكثرة الحركة، ولما ذكر تعالى أنهم مقرون بالله إذا سئلوا من خلق العالم؟ ومن نزل من السماء ماء؟ ذكر أيضاً حالة أخرى يرجعون فيها إلى الله ويقرون بأنه هو الفاعل لما يريد، وذلك حين ركوب البحر، واضطراب أمواجه، واختلاف رياحه، وقال الزمخشري: (فإن قلت) بم اتصل قوله (فإذا ركبوا في الفلك) (قلت) بمحذوف

(١) الحثالة والحثال: الرديء من كل شيء وحثالة الناس: رذالتهم.

وفي الحديث: «لا تقوم الساعة إلا على حثالة الناس».

لسان العرب (٢/٧٧٥)

(٢) قال: ابن الأثير: هو طائر معروف ذو لونين أبيض وأسود طويل الذنب نوع من الغربان.

لسان العرب (٤/٣٠٤٦)

(٣) اللهيان: هيت عن الشيء بالكسر أهي، بالفتح، هُيَا وهَيَانًا، إذا سلوت عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه واشتغلت.

لسان العرب (٥/٤٠٩٢)

دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم، معناه: على ما وصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين كاثنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون مع الله آخر. وفي «المخلصين» ضرب من التهكم (وإذا هم يشركون) جواب (لما) أي فاجأ السُّجِّيَّةَ إشرافهم بالله، أي لم يتأخر عنها ولا وقتاً، والظاهر في (ليكفروا) أنها لام كي، وعطف عليه (وليتمتعوا) في قراءة من كسر اللام وهم العريبان ونافع وعاصم، والمعنى: عادوا إلى شركهم ليكفروا، أي: الحامل لهم على الشرك هو كفرهم بما أعطاهم الله تعالى، وتلذذهم بما متعوا به من عرض الدنيا، بخلاف المؤمنين فإنهم إذا نجوا من مثل تلك الشدة كان ذلك جالب شكر الله تعالى وطاعة له مزداة. وقيل: اللام في (ليكفروا) (وليتمتعوا) لام الأمر، ويؤيده قراءة من سكن لام (وليتمتعوا) وهم ابن كثير والأعمش وحمة والكسائي، وهذا الأمر على سبيل التهديد، كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [فصلت ٤٠] وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: (فإن قلت) كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، وبأن يعمل العصاة ما شاؤوا وهو ناهٍ عن ذلك ومتوعِّدٌ عليه (قلت): هو مجاز على الخذلان والتخلية، وأن ذلك الأمر مسخط إلى غاية. انتهى. والتخلية والخذلان من ألفاظ المعتزلة، وقرأ ابن مسعود (فتمتعوا فسوف تعلمون) بالتاء فيها، أي: قيل لهم تمتعوا فسوف تعلمون، وكذا في مصحف أبي، وقرأ أبو العالية (فيمتعوا) بالياء مبنياً للمفعول. ومن قرأ (وليتمتعوا) بسكون اللام، وكان عنده اللام في (ليكفروا) لام كي قالوا وعاطفةً كلاماً على كلام، لا عاطفةً فعلاً على فعل، وحكى ابن عطية عن ابن مسعود (لسوف تعلمون) باللام. ثم ذكرهم تعالى بنعمه حيث أسكنهم بلدة أمنوا فيها، لا يغزوهم أحد، ولا يستلب منهم مع كونهم قليلي العدد قارين في مكان لا زرع فيه وهذه من أعظم النعمة التي كفروها، وهي نعمة لا يقدر عليها إلا الله تعالى، وقرأ الجمهور (يؤمنون) و(يكفرون) بالياء فيها، وقرأ السلمي والحسن: بتاء الخطاب فيها. وافتراؤهم الكذب: زعمهم أن الله شريكاً، وتكذيبهم بالحق: كفرهم بالرسول والقرآن. وفي قوله (لما جاءه) إشعار بأنهم لم يتوقفوا في تكذيبه وقت مجيء الحق لهم بخلاف العاقل فإنه إذا بلغه خبر نظر فيه وفكر حتى يبين له أصدق هو أم كذب و(ليس) تقرير لمقامهم في جهنم كقوله:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

(و) للكاافرين) من وضع الظاهر موضع المضمرة، أي مثواهم (والذين جاهدوا فينا) أطلق المجاهدة ولم يقيد بها بتعلق، ليتناول المجاهدة في: النفس الأمارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين. وما ورد من أقوال العلماء فالمتصوِّد بها المثال، قال ابن عباس: جاهدوا أهواءهم في طاعة الله وشكر آلائه والصبر على بلائه<sup>(٢)</sup> (لنهديهم سبلنا) لنزيدهم هداية إلى سبيل الخير كقوله ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: ١٧] وقال السدي: (جاهدوا فينا) بالثبات على الإيمان (لنهديهم سبلنا) إلى الجنة، وقال أبو سليمان الداراني: (جاهدوا) فيما علموا (لنهديهم) إلى ما لم يعلموا. وقيل (جاهدوا) في الغزو (لنهديهم) سبيل الشهادة والمغفرة، وقال ابن عباس (المحسنين) الموحدين. وقال غيره: المجاهدون، وقال عبد الله بن المبارك: من اعتاصت<sup>(٣)</sup> عليه مسألة فليسأل أهل الثغور عنها، كقوله تعالى (لنهديهم سبلنا) و(الذين) مبتدأ، خبره: القسم المحذوف وجوابه وهو (لنهديهم) وبهذا ونظيره رد على أبي العباس ثعلب في منعه أن تقع جملة القسم والمقسم عليه خبراً للمبتدأ، ونظيره ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئهم﴾ [العنكبوت: ٥٨].

(١) انظر الكشاف ٤٦٥/٣.

(٢) انظر القرطبي ٢٤٢/١٣.

(٣) اعتاصت: وقد اعتاص وأعوص في المنطق غمضه.

# سُورَةُ الرُّومِ

آياتها  
٦٠

ترتيبها  
٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَلَأْنَا غُلْبَتِ الرُّومِ ﴿١﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بَنَصْرٍ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مَنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ أُولَئِكَ يَنْفَكِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٨﴾ ثُمَّ كَانُوا عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْأَأُوا السَّوَأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِهُونَ ﴿٩﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كٰفِرِينَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُّحَضَّرُونَ ﴿١٥﴾

هذه السورة مكية . قال ابن عطية وغيره : بلا خلاف<sup>(١)</sup> ، وقال الزمخشري : إلا قوله (فسبحان الله) وسبب نزولها : أن كسرى بعث جيشاً إلى الروم ، وأمر عليهم رجلاً ، واختلف النقلة في اسمه ، فسار إليهم بأهل فارس وظهر ، وقتل وخرّب ، وقطع زيتونهم ، وكان التقاؤهم بأذرعات وبصرى ، وكان قد بعث قيصرُ رجلاً أميراً على الروم ، وقال مجاهد : التقت

(١) انظر زاد المسير ٦/٢٨٦ .

بالجزيرة، وقال السدي: بأرض الأردن وفلسطين، فشق ذلك على المسلمين لكونهم مع الروم أهل الكتاب، وفرح بذلك المشركون لكونهم مع المجوس ليسوا بأهل كتاب، وأخبر رسول الله ﷺ أن الروم سيغلبون في بضع سنين، ونزلت أوائل الروم فصاح «أبو بكر» بها في نواحي مكة (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فقال ناس من مشركي قريش: زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارساً في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ فقال: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان، فاتفقوا أن جعلوا بضع سنين وثلاث فلائص، وأخبر «أبو بكر» رسول الله بذلك، فقال: هلا اختطبت؟ فارجع فزدهم في الأجل والرهان، فجعلوا الفلائص مائة، والأجل تسعة أعوام، فظهرت الروم على فارس في السنة السابعة، وكان ممن راهن «أبي بن خلف»، فلما أراد «أبو بكر» الهجرة طلب منه «أبي» كفيلاً بالخطر إن غلبت فكفل به ابنه عبد الرحمن، فلما أراد «أبي» الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً، ومات «أبي» من جرح جرحه النبي ﷺ، وظهر الروم على فارس «يوم الحديبية». وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فاخذ أبو بكر الخطر من ذرية «أبي»، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال له: تصدق به<sup>(١)</sup>. وسبب ظهور الروم أن كسرى بعث إلى «شهريزان» وهو الذي ولاه على محاربة الروم أن اقتل أخاك «فرخان» لمقالة قالها، وهي قوله: لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى، فلم يقتله، فبعث إلى فارس: إني عزلت «شهريزان» ووليت أخاه «فرخان»، وكتب إليه إذا ولي أن يقتل أخاه «شهريزان» فأراد قتله، فأخرج له «شهريزان» ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل أخيه «فرخان»، قال: وراجعت في أمرك مراراً ثم تقتلني بكتاب واحد؟ فرد الملك إلى أخيه وكتب «شهريزان» إلى قيصر ملك الروم فتعاونوا على كسرى، فغلبت الروم فارس، وجاء الخبر ففرح المسلمون، وكان ذلك من الآيات البيّنات الشاهدة بصحة النبوة، وأن القرآن من عند الله، لأنها إتياء من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وقرأ علي وأبو سعيد الخدري وابن عباس وابن عمر ومعاوية بن قرة والحسن (عَلَبَتِ الروم) مبنياً للفاعل (سَيُغْلِبُونَ) مبنياً للمفعول، وتأويل ذلك على ما فسره ابن عمر أن: الروم غلبت على أدنى ريف الشام يعني بالريف السواد، وجاء كذلك عن عثمان، وتأوله أبو حاتم على أن الروم غلبت يوم بدر فعز ذلك على كفار قريش وسر المؤمنون وبشر الله عباده بأنهم سيغلبون في بضع سنين انتهى فيكون قد أخبر عن الروم بأنهم قد غلبوا وبأنهم سيغلبون فيكون غلبهم مرتين، قال ابن عطية: والقراءة بضم الغين أصح، وأجمع الناس على (سَيُغْلِبُونَ) بفتح الياء يراد به الروم، وروي عن ابن عمر أنه قرأ (سَيُغْلِبُونَ) بضم الياء وفي هذه القراءة قلت المعنى الذي تظاهرت به الروايات. انتهى. وقوله وأجمعوا ليس كذلك ألا ترى أن الذين قرأوا (عَلَبَتِ) بفتح الغين هم الذين قرؤوا (سَيُغْلِبُونَ) بضم الياء وفتح اللام، وليست هذه مخصوصة بابن عمر. وقرأ الجمهور (عَلَبَهُمْ) بفتح الغين واللام وعلي وابن عمر ومعاوية بن قرة بإسكانها، والقياس عن ابن عمرو (غلابهم) على وزن «كتاب». والروم طائفة من النصارى (وأدنى الأرض) أقربها فإن كانت الواقعة في «أذرعات» فهي أدنى الأرض بالنظر إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَدْرَعَاتٍ وَأَهْلُهَا      بِيَشْرِبِ أَدْنَى دَارَهَا نَظَرَ عَالٍ<sup>(٢)</sup>

وإن كانت بالجزيرة فهي أدنى بالنظر إلى أرض كسرى فإن، كانت بالأردن فهي أدنى بالنظر إلى أرض الروم، وقرأ الكلبي (في أدنى الأرض). وتقدم الكلام في مدلول «الْبُضْع» باعتبار القراءتين ففي (عَلَبَتِ) بضم الغين يكون مضافاً

(١) انظر الكشاف ٤٦٦/٣.

(٢) انظر القرطبي ١٤/٣-٦. وزاد المسير ٢٨٧/٦ وابن كثير ٤٢٢/٣-٤٢٦.

(٣) تقدم وانظر ديوانه (١٢٤).

للمفعول، وبالفتح يكون مضافاً للفاعل، ويكون المعنى: سيغلبهم المسلمون في بضع سنين عند انقضاء هذه المدة التي هي أقصى مدلول البضع أخذ المسلمون في جهاد الروم. وكان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يحكي عن أبي الحكم بن بركان أنه استخرج من قوله تعالى، (ألم غلبت الروم) إلى قوله (في بضع سنين) افتتاح المسلمين بيت المقدس معيناً زمانه ويومه، وكان إذ ذاك بيت المقدس قد غلبت عليه النصارى، وأن ابن بركان مات قبل الوقت الذي كان عينه للفتح، وأنه بعد موته بزمان افتتحة المسلمون في الوقت الذي عينه أبو الحكم، وكان أبو جعفر يعتقد في أبي الحكم هذا أنه كان يطلع على أشياء من المغيبات يستخرجها من كتاب الله، (لله الأمر) أي إنفاذ الأحكام وتصريفها على ما يريد، وقرأ الجمهور (من قبل ومن بعد) بضمهما، أي: من قبل غلبة الروم ومن بعدها، ولما كانا مضافين إلى معرفة، وحذفت بنياً على الضم، والكلام على ذلك المذكور في علم النحو، وقرأ أبو السهال والحدردى وعون العقيلي (من قبل ومن بعد) بالكسر والتنوين فيهما، قال الزمخشري: على الجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنه قيل: قبلاً وبعداً بمعنى: أولاً وآخراً. انتهى، وقال ابن عطية: ومن العرب من يقول «من قبل ومن بعد» بالخفض والتنوين، قال الفراء: ويجوز ترك التنوين فيبقى كما هو في الإضافة وإن حذف المضاف. انتهى. وأنكر النحاس ما قاله الفراء ورده، وقال للفراء في كتابه في القرآن أشياء كثيرة من الغلط، منها: أنه زعم أنه يجوز «من قبل ومن بعد»، وإنما يجوز «من قبل ومن بعد» على أنها نكرتان والمعنى من متقدم ومن متأخر، وحكى الكسائي عن بعض بني أسد (لله الأمر من قبل ومن بعد) الأول مخفوض مؤن، والثاني مضموم بلا تنوين. والظاهر أن (يومئذ) ظرف (يفرح المؤمنون) وعلى هذا المعنى فسره المفسرون. وقيل (ويومئذ) عطف على (من قبل ومن بعد) كأنه حصر الأزمنة الثلاثة، الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتداء الأخبار بفرح المؤمنين بالنصر، (وبنصر الله) أي الروم على فارس، أو المسلمين على عدوهم، أو في أن صدق ما قال الرسول من أن الروم ستغلب فارس، أو في أن يسلط بعض الظالمين على بعض حتى تفانوا وتناكصوا. احتمالات. وفي الحديث «فارس نطحة أو نطحان ثم لا فارس بعدها أبداً والروم ذات القرون كلما ذهب قرن خلف قرن إلى آخر الأبد»<sup>(١)</sup>، وقال ابن عباس: «يوم بدر كانت هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران» وقال معناه أبو سعيد الخدري. وقيل ورد الخبر يوم الحديدية بوفاة كسرى فسُر المسلمون بحرب المشركين، ولوت عدوهم في الأرض متمكن (وهو العزيز) بانتقامه من أعدائه (الرحيم) لأوليائه، وانتصب (وعد الله) على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي تقدمت وهو قوله (سيغلبون) وقوله (يفرح المؤمنون)، (ولكن أكثر الناس) الكفار من قريش وغيرهم (لا يعلمون) نفى عنهم العلم النافع للأخرة، وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا. قيل: والمعنى: لا يعلمون أن الأمور من عند الله، وأن وعده لا يخلفه، وأن ما يورده بعينه ﷺ حق، (يعلمون ظاهراً) أي بيناً، أي ما أدته إليهم حواسهم فكان علومهم إنما هي علوم البهائم، وقال ابن عباس والحسن والجمهور: معناه ما فيه الظهور والعلو في الدنيا من إتقان الصناعات والمباني ومطاب كسب المال والفلاحات ونحو هذا. وقالت فرقة: معناه ذاهباً زائلاً، أي يعلمون أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة، وقال الهذلي:

وَعَيَّرَهَا السَّوْأُسُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا      وَتَلَكَ شَكَاةَ ظَاهِرٍ عَنكَ عَارُهَا

أي زائل، وقال ابن جبير: ظاهر أي يعلمون من قبل الكهنة مما يسترقه الشياطين، وقال الرماني: كل ما يعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهر، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن، وقال الزمخشري: (يعلمون) بدل من قول (لا يعلمون) وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبده معه، وجعله بحيث يقوم مقامه، ويسد مسده لنعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا، وقوله (ظاهراً من الحياة الدنيا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٢٩٨/٥ وابن حجر في المطالب (٣٨٦٥) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٥١٢٧).

يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعيم بملاذها، وباطنها، وحقيقتها أنها مجاز للأخرة يتروذ إليها منها بالطاعة والأعمال الصالحة، و(هم) الثانية توكيد لـ (هم) الأولى، أو مبتدأ. وفي إظهارهم على أي الوجهين كانت تنبيه على غفلتهم التي صاروا ملتبسين بها لا ينفكون عنها، و(في أنفسهم) معمول ليتفكروا، إما على تقدير مضاف، أي: في خلق أنفسهم ليخرجوا من الغفلة فيعلموا أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فقط ويستدلوا بذلك على الخالق المخترع، ثم أخبر عقب هذا بأن الحق هو السبب في خلق السموات والأرض، وأما على أن يكون في أنفسهم ظرفاً للفكرة في خلق السموات والأرض فيكون في أنفسهم توكيداً لقوله (يتفكرون) كما تقول «أبصر بعينك واسمع بأذنك»، وقال «الزخخري»: في هذا الوجه كأنه قال: أولم يحدثوا التفكير في أنفسهم أي في قلوبهم الفارغة من الفكر، والفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقولك «اعتقده في قلبك وأصره في نفسك»، وقال أيضاً: يكون صلة المتفكر كقولك «تفكر في الأمر وأجال فكره»، و(ما خلق الله) متعلق بالقول المحذوف، معناه «أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول». وقيل: معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلاً عليه. انتهى. والدليل هو قوله (أولم يتفكروا) وقيل: أولم يتفكروا متصل بما بعده، ومثله ﴿ثم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ [سبأ ٤٦] ومثله ﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾ [فصلت ٤٨] فيكون في بمعنى الباء (ثم يتفكروا ما يصاحبهم من) كأنه قال أولم يتفكروا بقلوبهم فيعلموا. انتهى. ويجوز أن يكون تفكروا هنا معلقة، ومتعلقها الجملة من قوله (ما خلق) إلى آخرها و(في أنفسهم) ظرف على سبيل التأكيد، لأن الفكر لا يكون إلا في النفس كما أن الكتابة لا تكون إلا باليد، و(بالحق) في موضع الحال، أي وهي ملتبسة بالحق مقترنة به وبتقدير أجل مسمى لا بدلها أن تنتهي إليه وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب، ألا ترى إلى قوله ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون ١١٥] كيف سمي تركهم غير راجعين، إليه عبثاً، والمراد بقاء ربهم. الأجل المسمى، وقال ابن عطية (بالحق) أي بسبب المنافع التي هي حق واجب يريد من الدلالة عليه والعبادة له دون فتور، والانتصار للعبدة ومنافع الإرفاق وغير ذلك. و(أجل) عطف على (الحق) أي وبأجل مسمى وهو يوم القيامة، ففي الآية إشارة إلى البعث والنشور، وفساد بنية هذا العالم، ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفروا بذلك المعنى، فعبث عنها بقاء الله لأن لقاء الله هو عظيم الأمر، وفيه النجاة والهلكة. انتهى. وقال أبو عبد الله الرازي: قدم هنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق وفي ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت ٥٤] دلائل الآفاق على دلائل الأنفس. وحكمة ذلك أن المفيد بذكر الفائدة على وجه يختارها، فإن فهمت وإلا انتقل إلى الأبين، ثم يرتقي إلى الأخصى، وفي (أولم يتفكروا) بفعل مسند إلى السامع، فبدأ بما يفهم أولاً، ثم ارتقى إليه ثانياً، وفي (سنريهم) أسند إلى المفيد فذكر أولاً الآفاق فإن لم يفهموا فالأنفس إذ لا ذهول للإنسان عن دلائلها، بخلاف دلائل الآفاق، لأنه قد يذهل عنها، وهذا مراعى في ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾ [آل عمران] الآية بدأ بأحوال الأنفس ثم بدلائل الآفاق، وقال أيضاً هنا (وإن كثيراً) وقيل (ولكن أكثر الناس) وذلك أن هنا ذكر «كثيراً» بعد ذكر الدلائل الواضحة. وهما (أولم يتفكروا في أنفسهم) و(ما خلق الله) والإيمان بعد الدلائل أكثر من الإيمان قبلها، فبعد ذكر الدليل لا بد أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع فلا يبقى الأكثر. انتهى. وفيه تلخيص ولا يتم كلامه الأول إلا إذا جعل في أنفسهم محلاً للتفكير، وجعل ما خلق أيضاً محلاً ثانياً (أولم يسيروا في الأرض) هذا تقرير توبيخ أي قد ساروا. ونظروا إلى ما حمل ممن كان قبلهم من مكذبي الرسل ووصف حالهم من الشدة وإثارة الأرض وعمارتها، وأنهم أقوى منهم في ذلك، قال مجاهد: وأثاروا، الأرض: حرثوها، وقال الفراء: قلبوها للزراعة، وقال غيرهما قلبوا وجه الأرض لاستنباط المياه، واستخراج المعادن، وإلقاء البذر فيها للزراعة. والإثارة: تحريك الشيء حتى يرتفع ترابه، وقرأ أبو جعفر (وأثاروا الأرض) بمدة بعد الهمزة، وقال ابن مجاهد: ليس بشيء، وخرجه أبو الفتح على الإشباع كقوله

وَمَنْ دَمَّ الزَّمَانُ بِمَتْرَاحٍ

وقال: من ضرورة الشعر، ولا يجيء في القرآن، وقرأ أبو حيوه (وآثروا) من الأثرة وهو الاستبداد بالشيء، وقرئ (وآثروا الأرض) أي أبقوا عنها آثاراً (وعمروها) من العمارة، أي بقاؤهم فيها أكثر من بقاء هؤلاء، أو من العمران أي مكنوا فيها، أو من العمارة، قال الزمخشري: أكثر مما عمروها من عمارة أهل مكة، وأهل مكة أهل واد غير ذي زرع ما لهم إثارة الأرض أصلاً، ولا عمارة لهم رأساً، فما هو إلا تهكم بهم، وتضعيف حالهم في دنياهم، لأن معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة، وهم أيضاً ضعاف القوى (فما كان الله ليظلمهم) قبله محذوف أي فكذبوهم فأهلكوا، وقرأ الحرميان وأبو عمرو (ثم كان عاقبة) بالرفع اسماً لكان وخبرها (السوأي)، أو هو تانيث «الأسوأ» أفعال من السوء، (أن كذبوا) مفعول من أجله متعلق بالخبر لا بأساءوا وإلا كان فيه الفصل بين الصلة ومتعلقها بالخبر، وهو لا يجوز، والمعنى: ثم كان عاقبتهم، فوضع المظهر موضع المضمرة (السوأي) أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي جهنم، ويجوز أن تكون (السوأي) مصدرراً على وزن فُعَلَى كالرُّجعى، وتكون خبراً أيضاً، ويجوز أن تكون مفعولاً بأساء بمعنى اقرءوا، وصفة مصدر محذوف أي الإساءة السوأي، ويكون خبر كان أن كذبوا، وقرأ الأعمش والحسن (السوأي) بإبدال الهمزة واواً وإدغام الواو فيها كقراءة من قرأ بالسوى بالإدغام في يوسف، وقرأ ابن مسعود (السوء) بالتذكير، وقرأ الكوفيون وابن عامر (عاقبة) بالنصب خبر كان، والاسم (السوأي) أو السوء مفعول وكذبوا الاسم، وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون (أن) بمعنى أي، تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء، كانت في معنى القول نحو نادى وكتب، ووجه آخر وهو: أن يكون (أسأوا السوأي) بمعنى اقرءوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا (وأن كذبوا) عطف بيان لها، وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو لإرادة الإبهام انتهى. وكون «أن» هنا حرف تفسير متكلف جداً. وأما قول «الخطايا» فكذا هو في النسخة التي طالعناها جمع جمع تكسير بالألف والتاء، وذلك لا ينقاس، وإنما يقتصر فيه على مورد السماع، ولا يبعد أن يكون زيادة التاء في الخطايا من الناسخ. وأما قوله (وإن كذبوا) عطف بيان لها أي للسوأي، وخبر كان محذوف الخ فهذا فهم أعجمي، لأن الكلام مستقل في غاية الحسن بلا حذف، فيتكلف له محذوفاً لا يدل عليه دليل، وأصحابنا لا يميزون حذف خبر كان وأخواتها، لا اختصاراً، ولا اختصاراً إلا إن ورد منه شيء فلا ينقاس عليه<sup>(١)</sup>، وقرأ عبد الله وطلحة (يُبدىء) بضم الياء وكسر الدال، والجمهور بفتحها، والأبوان (يرجعون) بياء الغيبة، والجمهور ببناء الخطاب، أي إلى ثوابه وعقابه، والجمهور (يبلس) بكسر اللام، وعلي والسلمي بفتحها، من أبلسه إذا أسكته. والجمهور (ولم يكن) بالياء وخارجة والاريس كلاهما عن نافع وابن سنان عن أبي جعفر والأنطكي عن شيبه بناء التانيث، (من شركائهم) من الذين عبدوهم من دون الله، وهي الأوثان وأضيفوا إليهم لأنهم أشركوهم في أموالهم، وقيل: لأنهم اتخذوها بزعمهم شركاء لله، وقال مقاتل: المراد بهم الملائكة شفعاء لله، كما زعموا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر ٣] وكانوا معناه. ويكون عند معايتنم أمر الله وفساد حال الأصنام، عبر بالماضي لتيقن الأمر وصحة وقوعه وكتب (السوأي) بالألف قبل الياء، كما كتبوا ﴿علماء بني إسرائيل﴾ [الشعراء ١٩٧] بواو قبل الألف. والتونين في (يومئذ) تنوين عوض من الجملة المحذوفة، أي: ويوم تقوم الساعة يوم إذ يبلس<sup>(٢)</sup> المجرمون. والضمير في (يتفرقون) للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه، قال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: ويظهر أنه عائد على ما قبله، إذ قبله (الله يبدأ الخلق ثم يعيده)، قال قتادة: هي فرقة لا اجتماع بعدها، (في روضة) الروضة: الأرض ذات النبات والماء، وفي المثل «أحسن من بيضة» يريدون بيض النعامة. والروضة عما تعجب

(١) حاصل ذلك أن جعل (أن) مفسرة متكلف لتوقف تضمن ما قبلها معنى القول على ما بعدها وأن حذف خبر كان في الآية بعيد لأن ذلك مقصور

على السماع، انظر الهمع ١/١١٦ - وروح المعاني ٢١/٢٤.

(٢) أبلس الرجل: قطع به، وأبلس: سكت، وأبلس من رحمة الله أي: يش وندم.

لسان العرب (١/٣٤٣)

(٣) انظر الكشاف ٣/٤٧١.



العرب، وقد أكثروا من مدحها في أشعارهم (يجبرون) يسرون. حَبْرَةٌ: سره سروراً، وتهلل له وجهه، وظهر له أثره يُحْبِرُ بالضم حَبْرًا وَحَبْرَةً وَحُبُورًا، وفي المثل «امتلات بيوتهم حَبْرَةٌ فهم ينتظرون العَبْرَةَ»، وحكى الكسائي حَبْرَتُهُ: أكرمته ونعمته، وقال علي بن سليمان: هو من قولهم «على أسنانه حَبْرَةٌ» أي أثر أي يسير عليهم أثر النعمة. وقيل: من التحجير وهو التحسين، أي يحسنون، ويقال: «فلان حسن الحَبْرِ والسَّبْرِ» بالفتح إذا كان جميلاً حسن الهيئة، وقال ابن عباس والضحاك ومجاهد: يكرمون. وقال يحيى بن أبي كثير والأوزاعي ووكيع: يسمعون الأغاني<sup>(١)</sup>، وقال أبو بكر وابن عباس: يتوجون على رؤوسهم. وقال ابن كيسان: يحلون. ومعنى (محضرون) مجموعون له، لا يغيب أحد منهم عنه بقوله (وما هم بخارجين منها) وجاء (في روضة) منكرأ، و(في العذاب) معرفاً، قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه، وجاء (يجبرون) بالفعل المضارع لاستعماله للتجدد، لأنهم كل ساعة يأتيهم ما يسرون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة وجاء (محضرون) باسم الفاعل لاستعماله للشبوت فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين فهو وصف لا ذم لهم.

فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْأَسْنِينَكُمْ وَالْوَنُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

لما بين تعالى عظيم قدرته، في خلق السموات والأرض بالحق، وهو حالة ابتداء العالم، وفي مصيرهم إلى الجنة والنار وهي حالة الانتهاء أمر تعالى بتزنيه من كل سوء. والظاهر أنه أمر عباده بتزنيه في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من النعم، ويحتمل أن يكون كناية عن استغراق زمان العبد وهو أن يكون ذاكرة ربّه وأصفه بما يجب له على كل حال، وقال الزمخشري: لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد، وقيل: المراد هنا بالتسبيح الصلاة، فعن ابن عباس وقتادة: المغرب والصبح والعصر والظهر، وأما العشاء ففي قوله ﴿وزلفاً من الليل﴾ [هود ١١٤] وعن ابن عباس: الخمس، وجعل (حين تمسون) شاملاً للمغرب والعشاء، (وله الحمد في السموات والأرض) اعتراض بين الوقتين،

(١) انظر القرطبي ١٤/١٠ وزاد المسير ٦/٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) انظر الكشاف ٣/٤٧١.

ومعناه: أن الحمد واجب على أهل السموات وأهل الأرض، وكان الحسن يذهب إلى أن هذه الآية مدنية، لأنه كان يقول: «فرضت الخمس بالمدينة»، وقال الأكترون: بل فرضت بمكة، وفي التحرير اتفق المفسرون على أن الخمس داخلة في هذه الآية. وعن ابن عباس: ما ذكرت الخمس إلا فيها. وقدم الإمساء على الإصباح كما قدم في قوله ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [الحديد ٦] و﴿الظلمات﴾ على «النور»، وقابل بالعشي الإمساء، وبالإظهار الإصباح لأن كلاً منهما يعقب بما يقابله، فالعشي يعقبه الإمساء، والإصباح يعقبه الإظهار. ولما لم يتصرف من «العشي» فعل لا يقال أعشى، كما يقال أمسى وأصبح وأظهر، جاء التركيب (وعشيًا)، وقرأ عكرمة (حيناً تمسون وحيناً تصبحون) بتنوين «حين»، والجملة صفة، حذف منها العائد تقديره «تمسون فيه وتصبحون فيه». ولما ذكر الإبداء والإعادة ناسب ذكره (بمخرج الحي من الميت) وتقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران، (وكذلك) أي مثل ذلك الإخراج، والمعنى تساوي الإبداء والإعادة في حقه تعالى، وقرأ الجمهور (تُخْرِجُونَ) ببناء المضمومة مبنياً للمفعول. وابن وثاب وطلحة والأعمش بفتح تاء الخطاب وضم الراء. ثم ذكر تعالى آياته من بدء خلق الإنسان آية آية إلى حين بعثه من القبر فقال (ومن آياته أن خلقكم من تراب) جعل خلقهم من تراب حيث كان خلق أباهم آدم من تراب و﴿تنتشرون﴾ تتصرفون في أغراضكم بـ (ثم) المقتضية المهلة والتراخي، ونبه تعالى على عظيم قدرته بخلق الإنسان من تراب، وهو أبعد الأشياء عن درجة الإحياء لأنه بارد يابس، والحياة بالحرارة والرطوبة، وكذا الروح نير وثقيل، والروح خفيف وساكن، والحيوان متحرك إلى الجهات الست، فالتراب أبعد من قبول الحياة من سائر الأجسام، (من أنفسكم) فيها قولان ﴿وخلق منها زوجها﴾ [النساء ١] إما كون حواء خلقت من ضلع آدم، وإما من جنسكم ونوعكم، وعلل خلق الأزواج بالسكون إليها وهو الإلف، فمتى كان من الجنس كان بينهما تآلف، بخلاف الجنسين فإنه يكون بينهما التنافر، وهذه الحكمة في بعث الرسل من جنس بني آدم، ويقال سكن إليه مال، ومنه السكن فعل بمعنى مفعول (مودةً ورحمة) أي بالأزواج بعد أن لم يكن سابقة تعارف يوجب التواد، وقال مجاهد والحسن وعكرمة: المودة: النكاح، والرحمة: الولد، كني بذلك عنهما، وقيل: مودةً للشابة، ورحمة للصغير، وقيل: هما اشتباك الرحم، وقيل: المودة من الله، والبغض من الشيطان (واختلاف ألسنتكم) أي لغاتكم، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها مع اتحاد المدلول عجائب وغرائب في المفردات والمركبات. وعن وهب: أن الألسنة اثنان وسبعون لساناً، في ولد حام سبعة عشر، وفي ولد سام تسعة عشر، وفي ولد يافث ستة وثلاثون، وقيل: المراد باللغات الأصوات والنغم، وقال الزمخشري: الألسنة اللذات، وأجناس النطق، وأشكاله، خالف عز وجل بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقتين متفقي في همس واحد ولا جهازة، ولا حدة ولا رخاوة، ولا فصاحة ولا لكنة، ولا نظم ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله. انتهى (وألوانكم) السواد والبياض وغيرهما، والأنواع والضروب، بتخطيط الصور ولولا ذلك الاختلاف لوقع الالتباس، وتعطلت مصالح كثيرة من المعاملات وغيرها، وفيه آية بيّنة حيث فرّعا من أصل واحد، وتباينا في الأشكال على كثرتهم، وقرأ الجمهور (للعالمين) بفتح اللام، لأنها في نفسها آية منصوبة للعالم، وقرأ حفص وهما بن شعيب عن أبي بكر وعلقمة عن عاصم ويونس عن أبي عمرو: بكسر اللام، إذ المنتفع بها إنما هم أهل العلم، كقوله: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت ٤٣] والظاهر: أن (بالليل والنهار) متعلق «بمنامكم»، فامتن تعالى بذلك لأن النهار قد يقام فيه وخصوصاً من كان مشغلاً في حوائجه بالليل (وابتغواكم من فضله) أي فيها، أي في الليل والنهار معاً، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل بالليل كالمسافرين والحراس بالليل وغيرهم، وقال الزمخشري: هذا من باب اللف، وترتيبه: «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم» ولأنه فصل بين الفريقين الأولين بالفريقين الآخرين لأنها زمانان، والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على ذلك. ويجوز أن يراد (منامكم) في الزمانين (وابتغواكم من فضله) فيها، والظاهر: هو الأول، لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن، وقال ابن عطية: وقال بعض المفسرين: في الكلام تقديم وتأخير، وهذا ضعيف. وإنما أراد أن ترتب النوم في الليل والابتغاء للنهار، ولفظ الآية لا يعطي ذلك (ومن)

آياته يريكم البرق خوفاً) إما أن يتعلق (من آياته) يريكم فيكون في موضع نصب ومن لا ابتداء الغاية، أو يكون (يريككم) على إضمار «أن» كما قال:

### أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضَرُ الْوَعْيِ<sup>(١)</sup>

يرفع «أحضر»، والتقدير: أن أحضر، فلما حذف «أن» ارتفع الفعل، وليس هذا من المواضع التي يحذف منها أن قياساً، أو على إنزال الفعل منزلة المصدر من غير ما يسبكه له، كما قال الخليل في قول:

أُرِيدُ لِأَنْسَى حَيْهًا<sup>(٢)</sup>

أي أرادني لأنسى حبه «فيكون التقدير في هذين الوجهين» ومن آياته إراءته إياكم البرق، فمن آياته في موضع رفع على أنه خبر المبتدأ، وقال الرماني: يحتمل أن يكون التقدير «ومن آياته يريكم البرق بها»، وحذف للدلالة من عليها، كما قال الشاعر:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أُبْتِغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ<sup>(٣)</sup>

أي: فمنها تارة أموت، و«من» على هذه الأوجه الثلاثة للتبعيض، وانتصب (خوفاً وطمعاً) على أنها مصدران في موضع الحال، أي: خائفين وطامعين، وقيل: مفعول من أجله، وقال الزجاج: وأجازه الزمخشري على تقدير إرادة خوف وطمع، فيتحد الفاعل في العامل والمحذوف، ولا يصح أن يكون العامل يريكم لاختلاف الفاعل في العامل والمصدر، وقال الزمخشري: المفعولون فاعلون في المعنى، لأنه راؤون مكانه، فكأنه قيل لجعلكم راين البرق خوفاً وطمعاً. انتهى. وكونه فاعلاً قيل: همزة التعدية لا تثبت له حكمه بعدها، على أن المسألة فيها خلاف: مذهب الجمهور: اشتراط اتحاد الفاعل، ومن النحويين<sup>(٤)</sup> من لا يشترطه، ولو قيل على مذهب من يشترطه: إن التقدير «يريككم البرق فتروونه خوفاً وطمعاً» فحذف العامل للدلالة، لكان إعراباً سائغاً، واتحد فيها الفاعل، وقال الضحاك: خوفاً من صواعقه، وطمعاً في مطره، وقال قتادة: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم. وقيل: خوفاً أن يكون خلياً، وطمعاً أن يكون ماطراً، وقال الشاعر:

لَا يَكُنْ بَرْقُكَ بَرْقًا خُلْبًا إِنْ خَيْرَ الْبَرْقِ مَا الْعَيْثُ مَعَهُ<sup>(٥)</sup>

وقال ابن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، وطمعاً في المطر أن يجيبه، (ومن آياته أن تقوم) أن تثبت وتمسك، مثل: «وإذا أظلم عليهم قاموا» [البقرة ٢٠] أي ثبتوا بأمره أي بإرادته، وإذا الأولى للشرط، والثانية للمفاجأة جواب الشرط. والمعنى: أنه لا يتأخر طرفة عين خروجكم عن دعائه كما يجيب الداعي المطيع مدعوه، كما قال الشاعر:

دَعَوْتُ كَلْبًا دَعْوَةً فَكَأَنَّمَا دَعَوْتُ قَرِينَ الطُّودِ أَوْ هُوَ أَسْرَعُ<sup>(٦)</sup>

(١) لطفة من الطويل وعجزه

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

انظر ديوانه (٣٢) السبع الطوال (١٧٢) المقتضب (١٣٤/٢) الممع (٦/١) التصريح (٢٤٥/٢) الخزانة (١١٩/١).

(٢) تقدم.

(٣) البيت لتميم بن مقبل انظر ديوانه (٢٤) الكتاب (٣٤٦/٢) المحتسب (٢١٢/١)، المقتضب (١٣٦/٢) الممع (١٢٠/٢) الكامل

(١٧٩/٣) الخزانة (١٧٩/٣).

(٤) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٥٣/٢ الكتاب ١٨٤/١٩ - ١٨٥ شرح الكافية ١٩٣/١ روح المعاني ٣٣/٢١.

(٥) البيت في القرطبي (١٤/١٤).

(٦) انظر البيت في المصدر السابق.

«قرين الطود» الصدا، أو الحجر إن أيد هذا، والطود: الجبل، والدعوة البعث من القبور (ومن الأرض) يتعلق «بدعاكم»، و(دعوة) أي مرة فلا يحتاج إلى تكرير دعائكم لسرعة الإجابة، وقيل (من الأرض) صفة ل(دعوة)، وقال ابن عطية: و(من) عندي هنا لانتهاء الغاية، كما يقول «دعوتك من الجبل» إذا كان المدعو في الجبل. انتهى. وكون (من) لانتهاء الغاية قول مردود عند أصحابنا، وعن نافع ويعقوب أنها وقفا على (دعوة) وابتدأ (من الأرض) (إذا أنتم تخرجون) علقاً من الأرض بتخرجون، وهذا لا يجوز، لأن فيه الفصل بين الشرط وجوابه بالوقف على (دعوة) فيه إعمال ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها، وهو لا يجوز، وقال الزجاجي: وقوله (إذا دعاكم) بمنزلة قوله «يريكم» في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال «ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموق من القبور، إذا دعاهم دعوة واحدة: يا أهل القبور اخرجوا» وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بضم بياناً لعظيم ما يكون من ذلك الأمر، واقتداره على مثله، وهو أن يقول يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنتظر. انتهى، وقرأ حمزة والكسائي (تُخْرَجُونَ) بفتح التاء وضم الراء، وباقى السبعة بضمها وفتح الراء. وبدأ أولاً من الآيات بالنشأة الأولى، وهي خلق الإنسان من التراب، ثم كونه بشراً منتشراً وهو خلق حي من جماد، ثم أتبعه بأن خلق له من نفسه زوجاً، وجعل بينها تواداً، وذلك خلق حي من عضو حي، وقال (لقوم يتفكرون) لأن ذلك لا يدرك إلا بالفكر في تأليف بين شيئين لم يكن بينهما تعارف، ثم أتبعه بما هو مشاهد للعالم كلهم وهو خلق السموات والأرض، واختلاف اللغات والألوان، والاختلاف من لوازم الإنسان لا يفارقه وقال (للعالمين) لأنها آية مكشوفة للعالم، ثم اتبعه بالمنام والابتغاء، وهما من الأمور المفارقة في بعض الأوقات، بخلاف اختلاف الألسنة والألوان وقال (لقوم يسمعون) لأنه لما كان من أفعال العباد قد يتوهم أنه لا يحتاج إلى مرشد، فنبه على السع، وجعل البال من كلام المرشد. ولما ذكر عرضيات الأنفس اللازمة والمفارقة ذكر عرضياً الأفاق المفارقة من إراءة البرق، وإنزال المطر، وقدمها على ما هو من الأرض وهو الإتيان والإحياء، كما قدم السموات على الأرض، وقدم البرق على الإنزال، لأنه كالمبشر يجيء بين يدي القادم، والأعراب لا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللاتحة من جانب إلى جانب، وقال (لقوم يعقلون) لأن البرق والإنزال ليس أمراً عادياً فيتوهم أنه طبيعة إذ يقع ذلك ببلدة دون أخرى، ووقتاً دون وقت، وقويماً وضعيفاً، فهو أظهر في العقل، دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن عقل بأن لم يتفكر تفكيراً تاماً ثم ختم هذه الآيات بقيام السموات والأرض وذلك من العوارض اللازمة، فإن كلاً من السماء والأرض لا يخرج عن مكانه، فيتعجب من وقوف الأرض وعدم نزولها، ومن علو السماء وثباتها من غير عمد، ثم أتبع ذلك بالنشأة الأخرى وهي الخروج من الأرض، وذكر تعالى من كل باب أمرين من الأنفس خلقكم وخلق لكم، ومن الأفاق السماء والأرض، ومن لوازم الإنسان اختلاف الألسنة واختلاف الألوان. ومن خواصه المنام والابتغاء، ومن عوارض الأفاق البرق والمطر، ومن لوازمه قيام السماء وقيام الأرض.

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَتِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنَّفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُمْ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾  
 ﴿٢٧﴾ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَآتَقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٨﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ  
 وَكَانُوا شِعْبًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٩﴾

(من في السموات والأرض) عام في كونهم تحت ملكه وقهره، وقال الحسن: (قانتون) قائمون بالشهادة على وحدانيته، كما قال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ نَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاجِدٌ<sup>(١)</sup>

وقال ابن عباس: مطيعون أي في تصريفه لا يمتنع عنه شيء يريد فعله بهم من حياة، وموت، وصحة ومرض، فهي طاعة الإرادة، لا طاعة العبادة. وقيل: قانتون يوم القيامة (يوم يقوم الناس لرب العالمين)<sup>(٢)</sup> [المطففين ٦] وإذا حمل القنوت على الإخلاص كما قال ابن جبير، أو على الإقرار بالعبودية، أو قانتون من ملك ومؤمن لأن كل عام مخصوص (وهو أهون عليه) أي والعود أهون عليه، وليست (أهون)، أفعل تفضيل لأنه تفاوت عند الله في النشاطين الإبداء والإعادة، فلذلك تأوله ابن عباس والربيع بن خيثم على أنه بمعنى هين، وكذا هو في مصحف عبد الله. والضمير في (عليه) عائد على «الله» وقيل أهون للتفضيل، وذلك بحسب معتقد البشر وما يعطيه النظر في المشاهد من أن الإعادة في كثير من الأشياء أهون من البداءة للاستغناء عن الروية التي كانت في البداءة، وهذا وإن كان الاثنان عنده تعالى من اليسر في حيز واحد. وقيل الضمير في (عليه) عائد على الخلق أي والعود أهون على الخلق بمعنى أسرع، لأن البداءة فيها تدرج من طور إلى طور إلى أن يصير إنساناً، والإعادة لا تحتاج إلى هذه التدريجات في الأطوار، إنما يدعوه الله فيخرج فكانه قال: وهو أيسر عليه، أي أقصر مدة وأقل انتقالاً، وقيل: المعنى وهو أهون على المخلوق، أي يعيد شيئاً بعد إنشائه، فهذا عرف المخلوقين فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق، قال ابن عطية: والأظهر عندي عود الضمير على الله تعالى، ويؤيده قوله تعالى (وله المثل الأعلى) كما جاء بلفظ فيه استعادة واستشهاد بالمخلوق على الخالق وتشبيه بما يعهده الناس، من أنفسهم خلص جانب العظمة بأن جعل له المثل الأعلى الذي لا يتصل به فكيف ولا تماثل مع شيء انتهى، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: (فإن قلت) لم أخرج الصلة في قوله (وهو أهون عليه) وقدمت في قوله (هو عليّ هين) (قلت) هنالك قصد الاختصاص، وهو تجرّه فقيل، وهو عليّ هين وإن كان مستصعباً عندك، وإن تولد بين هرم وعافر، وأما هنا لا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. انتهى ومبني كلامه على أن تقديم المعمول يؤذن بالاختصاص، وقد تكلمنا معه في ذلك ولم نسلمه في قوله (إياك نعبد) (وله المثل الأعلى) قيل هو متعلق بما قبله، قاله الزجاج، وهو قوله (وهو أهون) قد ضربه لكم مثلاً فيما يسهل أو يصعب. وقيل: بما بعده من قوله (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم) وقيل (المثل) الوصف الأرفع (الأعلى) الذي ليس لغيره مثله، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما، (وهو العزيز) أي القاهر لكل شيء (الحكيم) الذي أفعاله على مقتضى حكمته، وعن مجاهد: المثل الأعلى قول لا إله إلا الله، وله الوصف بالوحدانية، ويؤيده قوله (ضرب لكم) وقال ابن عباس وغيره: بين تعالى أمر الأصنام

(١) تقدم.

(٢) انظر القرطبي ١٥/١٤.

(٣) انظر الكشاف ٤٧٦/٣.

وفساد معتقد من يشركها بالله بضربه هذا المثل، ومعناه إنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكونهم فإنكم لا تشركونهم في أموالكم ومهم أموركم، ولا في شيء على جهة استواء المنزلة، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يروثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم، كما يفعل بعضكم ببعض، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون إن من عبده ومُلكه شركاء في سلطانه وألوهيته وتبتون في جانبه ما لا يليق عندكم بجوابنكم؟ وجاء هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير<sup>(١)</sup>، وقال السدي: كانوا يورثون أهنتهم فنزلت. وقيل: لما نزلت قال أهل مكة لا يكون ذلك أبداً، فقال رسول الله ﷺ فليَمْ يَجُوز لربكم، و(من) في (من أنفسكم) لا ابتداء الغاية، كأنه قال أخذ مثلاً وافتري من أقرب شيء منكم وهو أنفسكم ولا يبعد و(من) في (مما ملكت) للتبعية، و(من) في (من شركاء) زائدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي يقول ليس يرضى أحد منكم أن يشركه عبده في ماله وزوجته وما يختص به حتى يكون مثله، فكيف ترضون شريكاً لله وهورب الأرباب، ومالك الأحرار والعبيد، وقال أبو عبد الله الرازي: وبين المثل والممثل به مشابهة ومخالفة، فالمشابهة معلومة، والمخالفة من وجوه. قوله (من أنفسكم) أي من نسلكم مع حقارة الأنفس ونقصها وعجزها، وقاس نفسه عليكم مع عظمتها وجلالتها وقدرتها، وقوله (مما ملكت أيمانكم) أي عبيدكم، والمثل ما قبل النقل بالبيع، والزوال بالعتق. ومملوكه تعالى لا خروج له عن الملك فإذا لم يجز أن يشرككم مملوككم وهو مثلكم من جميع الوجوه ومثلكم في الأدمية حالة الرق فكيف يشرك الله مملوكه من جميع الوجوه المبين له بالكلية؟، وقوله (فيا رزقناكم) يعني أن المسير لكم في الحقيقة إنما هو الله ومن رزقه حقيقة، فإذا لم يجز أن يشرككم فيا هو لكم من حيث الاسم فكيف يكون له تعالى شريك فيما له من جهة الحقيقة. انتهى. وفيه بعض تلخيص و(شركاء) في موضع رفع بالابتداء و(فيا رزقناكم) متعلق به و(لكم) الخبر و(مما ملكت) في موضع الحال لأنه نعت نكرة تقدم عليها، وانتصب على الحال. والعامل فيها العامل في الجار والمجرور والواقع خيراً، وهو مقدر بعد المبتدأ و(ما) في (فيا رزقناكم) واقعة على النوع، والتقدير: «هل شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكته أيمانكم كائنون لكم». ويجوز أن يتعلق (لكم) بـ (شركاء) ويكون (مما رزقناكم) في موضع الخبر، كما تقول «لزيد في المدينة مُبغض» فلزيد متعلق بمبغض الذي هو مبتدأ، وفي المدينة الخبر. و(فأنتم فيه سواء) جملة في موضع الجواب للاستفهام المضمن معنى النفي. و(فيه) متعلق بـ (سواء) و(تخافونهم) خبر ثان لأنتم، والتقدير: فأنتم مستورون معهم فيما رزقناكم، تخافونهم كما يخاف بعضكم بعضاً أي السادة، والمقصود نفي الشركة والاستواء والخوف، وليس النفي منسحباً على الجواب وما بعده فقط كأخذ وجهي «ما تأتينا فتحدثنا»، أي: ما تأتينا فتحدثنا إنما تأتي ولا تحدث، بل هو على الوجه الآخر، أي: ما تأتينا فكيف تحدثنا، أي ليس منك إتيان فلا يكون حديث، وكذلك هذا ليس لهم شريك فلا استواء ولا خوف، وقرأ الجمهور (بالنصب) أضيف المصدر إلى الفاعل. وابن أبي عبيدة بالرفع أضيف المصدر للمفعول. وهما وجهان حسنان، ولا قبح في إضافة المصدر إلى المفعول مع وجود الفاعل (كذلك) أي مثل ذلك التفصيل (نفس الـآيات) أي نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها، ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة، وقرأ الجمهور (نفس) بالنون حملاً على (رزقناكم) وعباس عن ابن عمر بياء الغيبة رعيماً لضرب إذ هو مسند للغائب، وذكر بعض العلماء في هذه الآية دليلاً على صحة أصل الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض، كأنه يقول: الممتنع والمستقبح شركة العبيد لساداتهم، أما شركة السادات بعضهم لبعض فلا يمتنع ولا يستقبح، والإنصاف ببل في قوله (بل اتبع) جاء على ما تضمنته الآية إذ المعنى ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من إشراكهم بالله، بل ذلك بمجرد هوى بغير علم، لأنه قد يكون هوى للإنسان وهو يعلم و(الذين ظلموا) هم المشركون اتبعوا (أهواءهم) جاهلين هائمين على أوجههم لا يرغمهم عن هواهم علم إذ هم خالون من العلم

الذي قد يردع متبع الهوى (فمن يهدي من أضل الله) أي : لا أحد يهدي من أضله الله ، أي هؤلاء ممن أضلهم الله فلا هادي لهم ، وقال الزمخشري : (من أضل الله) من خذله الله ولم يلفظ به ، لعلمه أنه ممن لا لطف له ممن يقدر على هداية مثله (وما لهم من ناصرين) دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان . انتهى . وهو على طريقة الاعتزال (فأقم وجهك للدين) فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت ، وهو تمثيل لإقباله على الدين ، واستقامته عليه ، وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه ، وقوم له وجهه ، مقبلاً به عليه . و«الدين» دين الإسلام . وذكر «الوجه» لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه (وحينئذ) حال من الضمير في (أقم) ، أو من الوجه ، أو من الدين ، ومعناه : مائلاً عن الأديان المحرفة المنسوخة . (فطرة الله) منصوب على المصدر ، كقوله (صبغة الله) ، وقيل منصوب بإضمار فعل تقديره «الترم فطرة الله» ، وقال الزمخشري : الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، وإنما أضمرت على خطاب الجماعة لقوله (منيبين إليه) و(منيبين) حال من الضمير في «الزموا» ، وقوله (وأقيموا) (ولا تكونوا) معطوف على هذا المضمرة . انتهى . وقيل : فأقم وجهك المراد به فأقيموا وجوهكم ، وليس مخصوصاً بالرسول وحده ، وكأنه خطاب لمفرد أريد به الجمع ، أي فأقم أيها المخاطب ، ثم جمع على المعنى لأنه لا يراد به مخاطب واحد ، فإذا كان هذا فقوله (منيبين) (وأقيموا) (ولا تكونوا) ملحوظ فيه معنى الجمع ، وقول «الزمخشري» «أو عليكم فطرة الله» لا يجوز ، لأن فيه حذف كلمة الإغراء ، ولا يجوز حذفها لأنه قد حذف الفعل وعوض «عليك» منه ، فلو جاز حذفه لكان إجحافاً ، إذ فيه حذف العوض والمعوض منه ، و«الفطرة» قيل : دين الإسلام ، والناس مخصوصون بالمؤمنين . وقيل : العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم نسأ من ظهره ، ورجح الخذاق أنها القابلية التي في الطفل للنظر في مصنوعات الله والاستدلال بها على موجدته فيؤمن به ويتبع شرائعه ، لكن قد تعرض له عوارض تصرفه عن ذلك ، كتهويد أبويه له ، وتصيرهما وإغواء شياطين الإنس والجن (لا تبديل لخلق الله) أي لا تبديل لهذه القابلية من جهة الخالق ، وقال مجاهد وابن جبير والضحاك والنخعي وابن زيد : لا تبديل لدين الله ، والمعنى لمعتقدات الأديان إذ هي متفقة في ذلك ، وقال الزمخشري : أي ما ينبغي أن تبديل تلك الفطرة أو تغير ، وقال ابن عباس : لا تبديل لقضاء الله بسعادتهم وشقاوتهم<sup>(١)</sup> ، وقيل : هو نفي معناه النبي ، أي لا تبدلوا ذلك الدين . وقيل (لا تبديل لخلق الله) بمعنى الوجدانية مترشحة فيه لا تغير لها ، حتى لو سألته من خلق السموات والأرض يقول الله ويستغرب ما روي عن ابن عباس أن معنى لا تبديل لخلق الله النبي عن خصاء الفحول من الحيوان . وقول من ذهب إلى أن المعنى في هذه الجملة ألتجأ على الكفرة اعترض به أثناء الكلام ، كأنه يقول أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا ، فإن هؤلاء الكفرة ومن خلق الله لهم الكفر ولا تبديل لخلق الله أي أنهم لا يفلحون . (ذلك) الذي أمرت بإقامة وجهك له هو (الدين) المبالغ في الاستقامة و(القيم) بياء مبالغة من القيام بمعنى الاستقامة ، ووزنه «فَعِيل» أصله «قيوم» كيد ، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فيها وهو بناء مختص بالمعتل العين لم يجيء منه في الصحيح إلا «بيش» و«صَيْقِل» علم لامرأة ، (منيبين) حال من الناس ولا سيما إذا أريد بالناس المؤمنون ، أو من الضمير في الزموا فطرة الله ، وهو تقدير الزمخشري ، أو من الضمير في (فأقم) إذ المقصود الرسول وأمه ، وكأنه حذف معطوف ، أي : فأقم وجهك وأمتك ، وكذا زعم الزجاج في «يا أيها النبي إذا طلقتم» [الطلاق : ١] أي يا أيها النبي والناس ، ودل على ذلك مجيء الحال في (منيبين) جمعاً ، وفي (إذا طلقتم) جاء الخطاب فيه وفي ما بعده ، جمعاً ، أو على خير كان مضمرة ، أي كونوا منيبين ، ويدل عليه قوله بعد (ولا تكونوا) وهذه احتمالات منقولة كلها . (من المشركين) من اليهود والنصارى قاله قتادة ، وقال ابن زيد : هم اليهود . وعن أبي هريرة وعائشة : أنهم أهل القبلة . ولفظة الإشراف على هذا تجوز بأنهم صاروا في دينهم فرقاً . والظاهر : أن المشركين كل من

(١) انظر تفسير مجاهد ٢/٥٠٠ ، ٥٠١ وانب كثير ٣/٤٣٢ والقرطبي ١٤/١٨ ، ١٩ ، ٢٠ وزاد المسير ٦/٣٠٢ .

أشرك، فيدخل فيهم أهل الكتاب وغيرهم، و(من الذين) بدل من (المشركين) (فرقوا دينهم) أي دين الإسلام وجعلوه أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم (وكانوا شيعاً) كل فرقة تشايح إمامها الذي كان سبب ضلالها (كل حزب) أي منهم فرح بمذهبه مفتون به، والظاهر: أن (كل حزب) مبتدأ و(فرحون) الخبر، وقال الزخشي: ويجوز أن يكون (من الذين) منقطعاً مما قبله، ومعناه من المفارقين دينهم، كل حزب فرحين بما لديهم، ولكنه رفع (فرحون) على الوصف لكل، كقوله:

وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرَهَا ضَمَّ نَفْسَهُ<sup>(١)</sup>

انتهى . قدر أولاً «فرحين» مجرورة صفة لحزب ثم قال ولكنه رفع على الوصف لكل، لأنك إذا قلت من قومك كل رجل صالح جاز في صالح الخفض نعتاً لرجل وهو الأكثر<sup>(٢)</sup> كقوله:

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ نَرِيَّةً      فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالدَّرْهِمِ<sup>(٣)</sup>

وجاز الرفع نعتاً لكل كقوله:

وَعَلَيْهِ هَبَّتْ كُلُّ مُغْصِفَةٍ      هَوَجَاءٍ لَيْسَ لِبَيْهَا دَبْرُ<sup>(٤)</sup>

برفع «هوجاء» صفة لكل.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ<sup>(٣٣)</sup>  
لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَايَنْتَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ<sup>(٣٤)</sup> أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ  
يُشْرِكُونَ<sup>(٣٥)</sup> وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ<sup>(٣٦)</sup>  
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ<sup>(٣٧)</sup> فَآتَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ  
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ<sup>(٣٨)</sup> ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ<sup>(٣٩)</sup> وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن  
رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُم  
الْمُضْعِفُونَ<sup>(٤٠)</sup>

«الضر» الشدة من فقر أو مرض أو قحط أو غير ذلك. و«الرحمة» الخلاص من ذلك الضر (دعوا ربهم) أفردوه بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر، وتركوا أصنامهم لعلهم أنه لا يكشف الضر إلا هو تعالى، فلهم في ذلك الوقت

(١) من الطويل للشهاخ انظر ديوانه (١٧٣) واللسان (عرز).

(٢) انظر المغني ٢٠٢/٢ حاشية الدسوقي ٢٠٢/٢٠ الكتاب ٢٧١/١ روح المعاني ٤٢/٢١.

(٣) من الكامل لعترة العسبي انظر ديوانه (١٨) السبع الطوال (٣١٣) المجمع (٧٤/٢) المغني (١٦٨/٢).

(٤) من الكامل لابن أحر انظر الكتاب (١١/٢) معاني القرآن للزجاج (١٤٥/٢) اللسان (دب).



إنابة وخضوع، وإذا خلصهم من ذلك الضر أشرك فريق من أخلص، وهذا الفريق هم عبدة الأصنام، قال ابن عطية: ويلحق من هذه الألفاظ شيء للمؤمنين، إذا جاءهم فرج بعد شدة علقوا ذلك بمخلوقين أو بحذق آرائهم أو بغير ذلك، فيه قلة شكر الله ويسمى مجازاً، وقال «أبو عبد الله الرازي»: يقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني، وسبب الصنم الفلاني، بل ينبغي أن لا يعتقد أنه يخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً فإنه شرك خفي. انتهى. (وإذا فريق) جواب (إذا أذاقهم) الأولى شرطية، والثانية للمفاجأة، وتقدم نظيره. وجاء هنا (فريق) لأن قوله (وإذا مس الناس) عام للمؤمن والكافر فلا يشرك إلا الكافر، و(ضر) هنا مطلق، وفي آخر العنكبوت ﴿إذا هم يشركون﴾ [العنكبوت: ١] لأنه في مخصوصين من المشركين عباد الأصنام، والضر هناك معين وهو ما يتخوف من ركوب البحر «إذا هم» أي ركاب البحر عبدة الأصنام، وبدل على ذلك ما قبله وما بعده، واللام في (ليكفروا) لام كي، أو لام الأمر للتهديد. وتقدم نظيره في آخر العنكبوت، وقرأ الجمهور (فتمتعوا فسوف تعلمون) بالتاء فيها، وقرأ أبو العالية: (فيمتعوا) بياء قبل التاء عطف على «ليكفر» و«فسوف يعلمون» بالياء على التهديد لهم. وعن أبي العالية (فيمتعوا) وقال هارون: في مصحف عبد الله (يمتعوا) (أم أنزلنا) أم بمعنى بل، والهزمة للإضراب عن الكلام السابق، والهزمة للاستفهام عن الحجة استفهام إنكار وتوبيخ، و«السلطان» البرهان من كتاب أو نحوه (فهو يتكلم) أي يظهر مذهبهم وينطق بشركهم، والتكلم مجاز لقوله ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجنانية ٢٩] وهو يتكلم جواب للاستفهام الذي تضمنه أم، كأنه قال بل أنزلنا عليهم سلطاناً أي برهاناً شاهداً لكم بالشرك، فهو يشهد بصحة ذلك، وإن قدر ذا سلطان أي ملكاً ذا برهان كان التكلم حقيقة، (وإذا أذقنا الناس رحمة) أي نعمة من مطر أو سعة أو صحة (وإن تصبهم سيئة) أي بلاء من حدث، أو ضيق، أو مرض (بما قدمت أيديهم) من المعاصي (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ففي إصابة الرحمة فرحوا وذهلوا عن شكر من أسداها إليهم، وفي إصابة البلاء قنطوا وئسوا وذهلوا عن الصبر ونسوا ما أنعم به عليهم قبل إصابة البلاء (وإذا هم) جواب (وإن تصبهم) يقوم مقام الفاء في الجملة الاسمية الواقعة جواباً للشرط، وحين ذكر إذاعة الرحمة لم يذكر سببها وهو زيادة الإحسان والتفضل، وحين ذكر إصابة السيئة ذكر سببها وهو العصيان، ليتحقق بدله، ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره لم يأس من روح الله وهو أنه تعالى هو الباسط القابض، فينبغي أن لا يقنط، وأن يتلقى ما يرد من قبل الله بالصبر في البلاء والشكر في النعاء، وأن يقلع عن المعصية التي أصابته السيئة بسببها حتى تعود إليه رحمة ربه.

ومناسبة (فأت ذا القرنى) لما قبله: أنه لما ذكر أنه تعالى هو الباسط القابض وجعل في ذلك آية للمؤمن، ثم نبه بالإحسان أن به فاقة واحتياج، لأن من الإيمان الشفقة على خلق الله فخاطب من بسط له الرزق بأداء حق الله من المال وصرفه إلى من يقرب منه من حج وإلى غيره من مسكين وابن سبيل، وقال الحسن: هذا خطاب لكل سامع بصلته الزحم والمسكين وابن السبيل، وقيل: للرسول عليه السلام، وذو القرنى بنو هاشم وبنو المطلب يعطون حقوقهم من الغنيمة والفيء، وقال الحسن: حق المسكين وابن السبيل من الصدقة المسماة لهما. واحتج أبو حنيفة بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب، أثبت تعالى لذي القرنى حقاً، وللمسكين، وابن السبيل حقها. والسورة مكية، فالظاهر أن الحق ليس الزكاة وإنما يصير حقاً بجهة الإحسان والمواساة وللاهتمام بذو القرنى قدم على المسكين وابن السبيل لأن بره صدقة وصله، (ذلك) أي الإيتاء (خير) أي يضاعف لهم الأجر في الآخرة، وينمو ما لهم في الدنيا. لوجه الله أي التقرب إلى رضا الله لا يضره. ثم ذكر تعالى من يتصرف في ماله على غير الجهة المرضية فقال (وما آتيتم) أكله (ليربو) ليزيد ويزكو في المال فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه لقوله ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ [البقرة: ٢٧٦]، قال السدي: نزلت في ربا ثقيف، كانوا يعملون بالربا ويعمله فيهم قريش، وقال ابن عباس ومجاهد وابن جبير وطاوس: هذه الآية نزلت

في هبات للشواب، وقال ابن عطية: وما جرى مجراها مما يصنع للمجازاة كالسلم وغيره، فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله، وقال ابن عباس أيضاً والنخعي. نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم، على معنى نفعمهم وتمويلهم والتفضل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع به فذلك النفع لهم، وقال الشعبي قريباً من هذا وهو: أن ما خدم به الإنسان غيره انتفع به، فذلك النفع لهم، وقال الشعبي أيضاً قريباً من هذا وهو: أن لا يربو عند الله، والظاهر القول الأول، وهو النهي عن الربا، وقرأ الجمهور (وما آتيتم) الأول بمد الهمزة، أي: وما أعطيتم وابن كثير بقصرها، أي وما جئتم وقرأ الجمهور (ليربو) بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وابن عباس والحسن وقتادة وأبورجاء والشعبي ونافع وأبو حوية بالتاء مضمومة وإسناد الفعل إليهم، وقرأ أبو مالك (ليربوها) بضمير المؤنث. و«المضعف» ذو أضعاف في الأجر، قال الفراء: هم أصحاب المضاعفة كما تقول «هو مسمن»، أي صاحب إبل سمان و«معطش» أي صاحب إبل عطشى، وقرأ أبي (المضعفون) بفتح العين اسم مفعول، وقال الزمخشري: (فأولئك هم المضعفون) التفات حسن، كأنه قال للملائكة وخواص خلقه «فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون» والمعنى: المضعفون به، بدلالة أولئك هم المضعفون، والحذف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مأخذاً. والأول أملاً بالفائدة انتهى. وإنما احتاج إلى تقدير ما قدر لأن اسم الشرط ليس بظرف لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه يتم به الربط.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا أَكْثَرُهم مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرُبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

كرر تعالى خطاب الكفار في أمر أوثانهم فذكر أفعاله التي لا يمكن أن يدعى له فيها شريك وهي: الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، ثم استفهم على جهة التقرير لهم والتوبيخ، ثم نزه نفسه عن مقاتلتهم، (والله الذي خلقكم) مبتدأ وخبر، وقال «الزمخشري»: ويجوز أن يكون (الذي خلقكم) صفة للمبتدأ، والخبر (هل من شركائكم) وقوله (من ذلكم) هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ، لأن معناه من أفعاله. انتهى. والذي ذكره النحويون أن اسم الإشارة يكون رابطاً إذا كان أشير به إلى المبتدأ، وأما «ذلكم» هنا فليس إشارة إلى المبتدأ، لكنه شبيه بما أجازه الفراء من الربط بالمعنى وخالفه الناس<sup>(١)</sup>، وذلك في قوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن﴾ [البقرة: ٢٣٤] قال: التقدير يتربصن أزواجهن، فقدر الضمير بمضاف إلى ضمير الذين، فحصل به الربط. كذلك قدر الزمخشري (من ذلكم) من أفعاله المضاف إلى الضمير العائد على المبتدأ، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> أيضاً: «هل من شركائكم الذين اتخذتموهم أنداداً له» - من الأصنام وغيرها - من يفعل شيئاً قط

(١) انظر المجمع ٩٧/١ التصريح ٦٥/١ المغني ١٤٣/٢ - ١٤٥ روح المعاني ٤٧/٢١.

(٢) انظر الكشاف ٤٨٢/٣.

من تلك الأفعال حتى يصح ما ذهبتم إليه؟ فاستعمل «قط» في غير موضعها، لأنها ظرف للماضي، وهنا جعلها معمولة ليفعل، وقال الزمخشري (١) أيضاً: و(من) الأولى والثانية كل واحدة مستقبلة تأكيداً لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم. فـ (من) الأولى للتبعيض، والجار والمجرور خبر المبتدأ و(من) يفعل هو المبتدأ، و(من) الثانية في موضع الحال من (شيء) لأنه نعت نكرة، تقدم عليها فانصب على الحال، و(من) الثالثة زائدة لانحساب الاستفهام الذي معناه النفي على الكلام، التقدير «من يفعل شيئاً من ذلكم» أي من تلك الأفعال، وقرأ الجمهور (يشركون) بياء الغيبة. والأعشى وابن وثاب بناء الخطاب. والظاهر: مراد ظاهر البرِّ والبحر، وقال الحسن: وظهور الفساد فيها بارتفاع البركات، ونزول رزايابا (٢)، وحدوث فتن، وتقلب عدو كافر؛ وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر، وقال ابن عباس: الفساد في البر: القُطَاع فتسده، وقال مجاهد: (في البر) بقتل أحد بني آدم لأخيه و(في البحر) بأخذ السفن غصباً. وعنه أيضاً. البر البلاد البعيدة من البحر، والبحر السواحل والجزر التي على ضفة البحر والأنهار، وقال قتادة: (البر) الفيافي (٣)، ومواضع القبائل، وأهل الصحارى والعمور. و(البحر) المدن جمع بحرة، ومنه: «ولقد أجمع أهل هذه البحيرة ليتوجه» يعني قول سعد بن عباد في عبادة في عبد الله بن أبي ابن سلول، ويؤيد هذا قراءة عكرمة: و(البحور) بالجمع، ورويت عن ابن عباس (٤). وكان قد ظهر الفساد براً وبحراً وقت بعثة رسول الله ﷺ (٥)، وكان الظلم عم الأرض، فأظهر الله به الدين وأزال الفساد وأخذه، وقال النحاس: فيه قولان: أحدهما ظهر الجذب في البر في البوادي وقراها، والبحر أي في مدن البحر مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: ظهر قلة العشب، وغلا السعر. والثاني: ظهرت المعاصي من قطع السبيل، والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأول مجاز. وقيل: إذا قل المطر قل الغوص، وأحنق (٦) الصياد، وعميت دواب البحر، وقال ابن عباس: إذا مطرت فتفتحت الأصداف في البحر، فما وقع فيها من الساء فهو لؤلؤ، (بما كسبت أيدي الناس) أي بسبب معاصيهم وذنوبهم (لنذيقهم) أي أنه تعالى أفسد أسباب دنياهم ومحققهم ليزيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة (لعلهم يرجعون) عما هم فيه، وقال ابن عطية: (بما كسبت) جزاء ما كسبت، ويجوز أن يتعلق «الباء» بـ (ظهر) أي بكسبهم المعاصي في البر والبحر، وهو نفس الفساد الظاهر، وقرأ «السلمي» و«الأعرج»، وأبو حيو، وسلام، وسهل، وروح، وابن حسان، وقبيل من طريق ابن مجاهد، وابن الصباح، وأبو الفضل الواسطي عنه، ومحسوب عن أبي عمرو (لنذيقهم) بالنون. والجمهور بالياء. ثم أمرهم بالمسير في الأرض فينظروا كيف أهلك الأمم بسبب معاصيهم وإشراكهم، وذلك تنبيه لقريش، وأمرهم بالاعتبار بمن سلف من الأمم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، (كان أكثرهم مشركين) أهلكتهم كلهم بسبب الشرك، وقوم بسبب المعاصي لأنه تعالى يهلك بالمعاصي كما يهلك بالشرك كأصحاب السبت، أو أهلكتهم كلهم المشرك والمؤمن كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وأهلكهم كلهم وهم كفار، فأكثرهم مشركون، وبعضهم معطل. وحين ذكر امتنانه قال (الله الذي خلقكم ثم رزقكم) فذكر الوجود، ثم البقاء بسبب الرزق. وحين ذكر خذلانهم بالطغيان بسبب البقاء بإظهار الفساد ثم بسبب الوجود بالإهلاك، (من قبل أن يأتي يوم) يوم القيامة، وفيه تحذير

(١) انظر الكشاف ٤٨٢/٣.

(٢) انظر لسان العرب ١٦٤٠/٣.

(٣) الفيافي: مفردا فيفاة: المفازة لا ماء فيها، والفيف: المفازة التي لا ماء فيها مع الاستواء والسعة.

لسان العرب ٣٥٠٢/٥

(٤) انظر القرطبي ٢٨/١٤ وزاد المسير ٣٠٥/٦، ٣٠٦ وابن كثير ٤٣٥/٣.

(٥) انظر المصادر السابقة.

(٦) أحنق: الإحناق لزوم البطن بالصلب. والمحنق قليل اللحم.

لسان العرب (١٠٢٧/٢)

يعم الناس (لا مردّ له من الله) المرّد: مصدر ردّ و(من الله) يحتمل أن يتعلق بآتي، أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد حتى لا يأتي، لقوله (فلا يستطيعون ردها) ويحتمل أن يتعلق بمحذوف يدل عليه (مرد) أي لا يرده هو بعد أن يجيء به، ولا رد له من جهته (يومئذ) أي يوم إذ يأتي ذلك اليوم (يصدعون) يتفرون، فريق في الجنة وفريق في السعير. يقال تصدع القوم: إذا تفرقوا، ومنه الصداع لأنه يفرق شعب الرأس، وقال الشاعر:

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَدِيمَةَ حِقْبَةَ      مَنِ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا<sup>(١)</sup>

ثم ذكر حالتي المتفرقين، (من كفر فعليه كفره) أي جزاء كفره، وعبر عن حالة الكافر بـ (عليه) وهي تدل على الفعل والمشقة، وعن حال المؤمن بقوله (فلا أنفسهم) باللام التي هي لام الملك، و(يمهدون) يوطئون، وهي استعارة من القرش، وعبرة عن كونهم يفعلون في الدنيا ما يلقون به ما تقر به أعينهم وتسربّه أنفسهم في الجنة، وقال مجاهد: هو التمهيد للقر، وقال الزمخشري: وتقديم الطرف في الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعداه، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تتجاوز. انتهى. وهو على طريقته في دعواه أن تقديم المفعول وما جرى مجراه يدل على الاختصاص، وأما على مذهبنا فيدل على الاهتمام، وأما ما يدعيه من الاختصاص فمفهوم من آي كثيرة في القرآن منها ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، والالم في (ليجزى) قال الزمخشري: متعلق بـ (يمهدون) تعليل له. وتكرير (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وترك الضمير إلى الصريح لتقديره أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح، وقوله (إنه لا يجب الكافرين) تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس، وقال ابن عطية (ليجزى) متعلق بـ (يصدعون) ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره «ذلك ليجزى» وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله تعالى (من كفر) (ومن عمل صالحاً) انتهى. ويكون قسيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات على هذين التقديرين اللذين ذكرهما ابن عطية محذوفاً تقديره كأنه قال والكافرون بعدله، ودل على حذف هذا القسيم قوله (إنه لا يجب الكافرين) ومعنى نفي الحب هنا أنه لا تظهر عليهم أمارات رحمة ولا يرضى الكفر لهم ديناً، وقال الزمخشري (من فضله) بما تفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب وهذا يشبه الكناية، لأن الفضل تبع للثواب، فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له، أو أراد من عطائه وهو ثوابه لأن «الفضول» و«الفواضل» هي الأعطية عند العرب.

وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ      وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ      وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ      وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ      وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾      وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ      وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا      وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾      اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ      سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ      كَيْفَ يَشَاءُ      وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا      فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ      فَإِذَا أَصَابَ بِهِ      مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ      إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٤٨﴾      وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قِبَلِهِ      لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾      فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ      كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ      بَعْدَ مَوْتِهَا      إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتَى      وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾      وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا      فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا      لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ

يَكْفُرُونَ ﴿٤٦﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح، والكريم لا يذكر لإحسانه عوضاً، ويذكر لعقابه سبباً، لثلاث يتوهم به الظلم، فذكر من أعلام قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها متقدمة، والمبشرات رياح الرحمة الجنوب، والشمال، والصبا. وأما الدبور<sup>(١)</sup>: فريح العذاب وليس تبشيرها مقتضراً به على المطر، بل لها تبشيرات بسبب السفن والسير بها إلى مقاصد أهلها، وكأنه بدأ أولاً بشيء عام وهو التبشير، وقرأ الأعمش (الريح) مفرداً، وأراد معنى الجمع ولذلك قرأ (مبشرات) ثم ذكر من أعظم تبشيرها إذاقة الرحمة وهي نزول المطر، ويتبعه حصول الخصب والريح الذي معه الهبوب، وإزالة العفونة من الهواء، وتذرية الحبوب، وغير ذلك، (وليذيقكم) عطف على معنى مبشرات، فالعامل أن يرسل، ويكون عطفاً على التوهم، كأنه قيل ليشروكم، والحال والصفة قد يجيئان وفيهما معنى التعليل، تقول: «أهن زيداً شيئاً» و«أكرم زيداً العالم» تريد لإمائه ولعلمه. وقيل: ما يتعلق به اللام محذوف، أي: ولكننا أرسلناها. وقيل: الواو في ولنديقكم زائدة؛ (بأمره) أي بأمر الله يعني أن جرياتها لما كان مسنداً إليها أخبر أنه بأمره تعالى (من فضله) مما يسمى لكم من الريح في التجارات في البحر ومن غنائم أهل الشرك. ثم بين لرسوله بأن ضرب له مثل من أرسل من الأنبياء، ولما كان تعالى بين الأصلين المبدأ والمعاد بين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة. وفي الكلام حذف تقديره وآمن به بعض وكذب بعض فانتقمنا من الذين أجرموا) وفي قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) تبشير للرسول وأتمه بالنصر والظفر، إذ أخبر أن المؤمنين بأولئك المؤمنين نصروا، وفي لفظ (حقاً) مبالغة في التحتم وتكريم للمؤمنين وإظهار لفضيلة سابقة للإيمان حيث جعلهم مستحقين النصر والظفر. والظاهر أن (حقاً) خبر (كان) و(نصر المؤمنين) الاسم، وأخر لكون ما تعلق به فاصلة للاهتمام بالجزء إذ هو محط الفائدة، وقال ابن عطية: وقف بعض القراء على (حقاً) وجعله من الكلام المتقدم، ثم استأنف جملة من قوله (علينا نصر المؤمنين) وهذا قول ضعيف، لأنه لم يدر قدر ما عرّضه في نظم الآية، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: وقد يوقف على حقاً، ومعناه: وكان الانتقام منهم حقاً، ثم يبدأ (علينا نصر المؤمنين). انتهى. وفي الوقف على (وكان حقاً) بيان أنه لم يكن الانتقام ظليماً بل عدلاً، لأنه لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الفاجر الكافر فكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث (الله الذي يرسل الرياح) هذا متعلق بقوله (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) والجملة التي بينها اعتراض، جاءت تأنيساً للرسول، وتسلية، ووعداً بالنصر، ووعداً لأهل الكفر. وفي إرسالها قدرة وحكمة، أما القدرة فإن الهواء اللطيف الذي يسبقه البرق بحيث يقلع الشجر ويهدم البناء وهو ليس بذاته يفعل ذلك بل بفاعل مختار، وأما الحكمة ففيها يفضي إليه نفس الهبوب، من إثارة السحب، وإخراج الماء منه، وإنبات الزرع، ودر الضرع، واختصاصه بناس دون ناس، وهذه حكمة بالغة معروفة بالمشيئة. والإثارة: تحريكها وتسييرها، والسط: نشرها في الآفاق. والكسف: القطع. وتقدم الكلام على قوله (افترى الودق يخرج من خلاله) وذكر الخلاف في كسفاً وحاله من جهة القراء، والضمير في (من خلاله) الظاهر أنه عائد على السحاب، إذ هو المحدث عنه، وذكر الضمير، لأن السحاب اسم جنس يجوز تكثيره وتأنيثه. قيل: ويحتمل أن يعود على كسفاً في قراءة من سكن العين، والمراد بالسماء: سمت السماء، كقوله: ﴿وفرعها

(١) الدبور: ريح تأتي من دُبر الكعبة مما تذهب نحو المشرق، هي الريح التي تقابل الصبا والقبول، وهي ريح تهب من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية المشرق.

في السماء ﴿إبراهيم : ٢٤﴾ [فإذا أصاب به من يشاء] أي أرض من يشاء إصابها فاجأهم الاستبشار ولم يتأخر سرورهم، وقال الأخفش: (من قبله) تأكيد لقوله (من قبل أن ينزل عليهم) وقال ابن عطية: أفاد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلان<sup>(١)</sup> إلى الاستبشار، وذلك أن قوله (من قبل أن ينزل عليهم) يحتمل الفسحة في الزمان، أي من قبل أن ينزل بكثير كالأيام ونحوه فجاء قوله (من قبل) بمعنى أن ذلك متصل بالمطر فهو تأكيد مقيد، وقال الزمخشري: وبمعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحکم بأسهم، وتمادى إبلانهم، فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم بذلك. انتهى. وما ذكره ابن عطية والزمخشري من فائدة التأكيد في قوله (من قبله) غير ظاهر، وإنما هو عند ذكره لمجرد التوكيد ويفيد رفع المجاز فقط، وقال قطرب: التقدير «وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر». انتهى. وصار من قبل إنزال المطر من قبل المطر، وهذا تركيب لا يسوغ في كلام فصيح فضلاً عن القرآن، وقيل: التقدير: من قبل تنزيل الغيث من قبل أن يزرعوا. ودل المطر على الزرع، لأنه يخرج بسبب المطر، ودل على ذلك قوله (فأروه مصفراً) يعني الزرع. انتهى. وهذا لا يستقيم لأن (ومن قبل أن ينزل عليهم) متعلق بقوله (لميلين) ولا يمكن من قبل الزرع أن يتعلق بـ (لميلين) لأن حرفي جر لا يتعلقان بعامل واحد إلا إن كان بواسطة حرف العطف أو على جهة البدل. وليس التركيب هنا. (ومن قبله) بحرف العطف ولا يصح فيه البدل إذ إنزال الغيث ليس هو الزرع ولا الزرع بعضه. وقد يتخيل (فيه) بدل الاشتغال بتكلف. أما لاشتغال الإنزال على الزرع بمعنى أن الزرع يكون ناشئاً عن الإنزال «فكان الإنزال مشتتم عليه». وهذا على مذهب من يقول الأول يشتمل على الثاني. وقال المبرد: «الثاني السحاب، ويحتاج أيضاً إلى حرف عطف حتى يمكن تعلق الحرفين بـ (لميلين)»، وقال علي بن عيسى: من قبل الإرسال، وقال الكرمانى: «من قبل الاستبشار، لأنه قرنه بالإبلان، ولأنه من عليهم بالاستبشار». انتهى. ويحتاج قوله وقول ابن عيسى إلى حرف العطف فإن ادعى في قوله (من) جعل الضمير في (من قبله) عائداً إلى غير إنزال الغيث ان حرف العطف محذوف أمكن لكن في حذف حرف العطف خلاف أينقاس أم لا ينقاس؟ أما حذفه مع الجمل فجائز. وأما وحده فهو الذي فيه الخلاف، وقرأ الحرمان وأبو عمرو وأبو بكر (إلى أثر) بالإفراد وباقي السبعة بالجمع وسلام بكسر الهمزة وإسكان التاء. وقرأ الجحدري وابن السميع وأبو حيوة (تُحَيِّ) بالتاء للتأنيث. والضمير عائذ على الرحمة. وقال صاحب اللوامح: وإنما أنت الأثر، لاتصاله بالرحمة إضافة إليها فاكسب التأنيث منها، ومثل ذلك لا يجوز إلا إذا كان المضاف بمعنى المضاف إليه أو من سببه، وأما إذا كان أجنبياً فلا يجوز بحال انتهى. وقرأ زيد بن علي (تُحَيِّ) بنون العظمة. والجمهور (تُحَيِّ) بياء الغيبة. والضمير لله. ويدل عليه قراءة (أثار) بالجمع، وقيل يعود على (أثر) في قراءة من أفرد، وقال ابن جني (كيف يحيي) جملة منصوبة الموضع على الحال، حملاً على المعنى كأنه قال يحيياً، وهذا فيه نظر. (إن ذلك) أي: القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم. وهذا الإخبار على جهة القياس في البعث، والبعث من الأشياء التي هو قادر عليها تعالى، (ولئن أرسلنا ريحاً) أخبر تعالى عن حال تقلب ابن آدم أنه بعد الاستبشار بالمطر، بعث الله ريحاً فأصفر بها النبات، (لظلوا يكفرون) قلقاً منهم. والريح التي تصفر النبات صر حرور. وهما مما يصح به النبات هشيماً، والحرور جنب الشمال إذا عصفت. والضمير في (فأروه) عائذ على ما يفهم من سياق الكلام وهو النبات، وقيل: إلى الأثر، لأن الرحمة هي الغيث وأثرها هو النبات. ومن قرأ (أثار) بالجمع. رجع الضمير إلى آثار الرحمة وهو النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير، لأنه مصدر سمي به ما يئب. وقال ابن عيسى: الضمير في (فأروه) عائذ على السحاب، لأن السحاب إذا اصفر لم يمطر وقيل: على الريح، وهذان قولان ضعيفان. وقرأ صباح بن حبيش (مصفراً) بألف بعد الفاء، واللام في (ولئن) مؤذنة بقسم محذوف وجوابه (لظلوا) وهو ما وضع فيه الماضي موضع المستقبل، اتساعاً. تقديره: ليظللن. ونظيره قوله تعالى ﴿ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة ١٤٥] أي: ما

(١) الإبلان: الانكسار والحزُن. يقال: إبلس فلان إذا سكت غياً.

يتبعون . ذمهم تعالى في جميع أحوالهم . كان عليهم أن يتوكلوا على فضل الله فقتلوا وإن شكروا نعمته فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار (وأن تصبروا) على بلائه كفروا والضمير في (من بعده) عائد على الاصفرار: أي : من بعد اصفرار النبات تجحدون نعمته وتقدم الكلام على قوله (فإنك لا تسمع الموت) إلى قوله (فهم مسلمون) في أواخر النمل إلا أن هنا الربط بالفاء في قوله (فإنك) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤ ﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُفَعِّلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩ فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ ٦٠

لما ذكر دلائل الأفاق ذكر شيئاً من دلائل الأنفس . وجعل الخلق من ضعف ، لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفوليته كقوله : ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ [الأنبياء : ٣٧] والقوة التي تلت الضعف هي رعرعته وتمامه وقوته إلى فصل الاكتهال والضعف الذي بعد القوة هو حال الشيخوخة والهرم . وقيل (من ضعف) من النطفة كقوله : ﴿من ماء مهين﴾ [المسرات : ٢٠] والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرته الصانع وعلمه . وقرأ الجمهور بضم الضاد في (ضَعْفٍ) معاً وعاصم وحمة بفتحها فيها . وهي قراءة عبد الله وأبي رجا . وروي عن أبي عبد الرحمن والجحدري والضحاك (الضم) والفتح في الثاني ، وقرأ عيسى بضمين فيها ، والظاهر أن الضعف والقوة هما بالنسبة إلى ما عدا البدن من ذلك وأن الضم والفتح بمعنى واحد في ضعف ، وقال كثير من اللغويين الضم في البدن والفتح في العقل . (ما لبثوا) هو جواب وهو على المعنى إذ لو حكي قولهم كان يكون التركيب ما لبثوا غير ساعة . أي : ما أقاموا تحت التراب غير ساعة ، وما لبثوا في الدنيا استقلوها لما عاينوا من الآخرة أو فيها بين فناء الدنيا إلى البعث وإخبارهم بذلك هو على جهة التسور والتقول بغير علم أو على جهة النسيان أو الكذب . (يؤفكون) أي : يصفون عن قول الحق والنطق بالصدق . (الذين أوتوا العلم) هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون . (في كتاب الله) فيها وعد به في كتابه من الحشر والبعث . و(العلم) يعم الإيمان وغيره . ولكن نص على هذا الخاص ، تشريفاً وتنبهياً على محله من العلم وقيل (في كتاب الله) اللوح المحفوظ . وقيل : في علمه ، وقيل : في حكمه ، وقرأ الحسن (الْبَعْثِ) بفتح العين فيها . وقرئ بكسرهما وهو اسم والمفتوح مصدر ، وقال قتادة : هو على التقديم والتأخير تقديره : أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم . وعلى هذا تكون (في) بمعنى الباء أي : العلم بكتاب الله . ولعل هذا القول لا يصح عن قتادة ، فإن فيه تشكيكاً للنظم لا يسوغ في كلام غير فصيح . فكيف يسوغ في كلام الله ؟ وكان قتادة موصوفاً بعلم العربية فلا يصدر عنه مثل هذا القول . والفاء في (فهذا يوم البعث) عاطفة لهذه الجملة المقولة على الجملة التي قبلها . وهي (لقد لبثتم) اعتقبا في الذكر . قال الزمخشري<sup>(١)</sup> : (فإن قلت) ما هذه الفاء؟ وما حقيقتها؟ (قلت) هي التي في قوله :

فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانًا

وحقيقتها: أنها جواب شرط يدل عليه الكلام، كأنه قال إن صح ما قلتم من أن أقصى ما يراد بنا؟ قلنا: الفقول قد جئنا خراسانا. وإذا أمكن جعل الفاء عاطفة لم يتكلف إضمار شرط. وجعل الفاء جواباً لذلك الشرط المحذوف لا تعلمون لتفريطكم في طلب الحق واتباعه. وقيل: لا تعلمون البعث ولا تعرفون به، فصار مصيركم إلى النار فتظلمون التأخير، (فيومئذ) أي: يوم إذ يقع ذلك من أقسام الكفار وقول أولي العلم لهم. وقرأ الكوفيون (لا ينفع) بالياء هنا وفي الطول. ووافقهم نافع في الطول، وباقي السبعة بتاء التأنيث، (ولا هم يستعقبون)، قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: من قولك: استعبتني فلان فأعتبه أي: استرضاني فأرضيته. وذلك إذا كان جانياً عليه وحقيقته أعتبه أزلت عتبه ألا ترى إلى قوله:

عُضِبْتَ تَمِيمٌ أَنْ يُقْتَلَ عَامِرٌ يَوْمَ النَّارِ فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلَمِ<sup>(٢)</sup>

كيف جعلهم غضاباً ثم قال فأعتبوا، أي: أزيل غضبهم والغضب في معنى العتب. والمعنى: لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ومثله قوله تعالى ﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعقبون﴾ [الجنات: ٣٥] (فإن قلت) كيف جعلوا غير مستعبتين في بعض الآيات؟ وغير معتبين في بعضها؟ وقوله: ﴿وإن يستعقبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت: ٢٤] (قلت): أما كونهم غير مستعبتين فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين. فمعناه: أنهم غير راضين بما هم فيه. فشبّهت حالهم بحال قوم جني عليهم فهم عاتبون على الجاني، غير راضين منه (فإن يستعقبوا) الله أي: يسألوه إزالة ما هم فيه فما هم من المجابين إلى إزالته، وقال ابن عطية: «هذا إخبار عن هول يوم القيامة، وشدة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يعطون عتبي - وهو الرضا - (ويستعقبون) بمعنى يعتبون، كما تقول: يملك ويستملك. والباب في استفعال أنه طلب الشيء وليس هذا منه، لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه ولا يطلب منهم عتبي» انتهى. فيكون استفعال في هذا بمعنى الفعل المجرد. وهو عتب. أي: هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب. وقد قيل: لا يعاتبون على سيئاتهم بل يعاقبون. وقيل: لا يطلب لهم العتبي، وقيل: لا يلتبس منهم عمل وطاعة ولكن ضربنا إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار. وقال الزمخشري: وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وما يقال لهم، وما لا يقع من اعتذارهم، ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم، ومع أساعهم حديث الآخرة إذا جتتهم بآية من آيات القرآن قالوا أجبتنا بزور باطل. انتهى (وأنتم) خطاب للرسول والمؤمنين. أي: تبطلون في دعوكم الحشر والجزاء. وقال أبو عبد الله الرازي: «وفي توحيد الخطاب بقوله (ولئن جتتهم) والجمع في قوله (إن أنتم) لطيفة. وهي: أن الله عز وجل قال (ولئن جتتهم بكل آية) جاءت بها الرسل فيمكن أن يجابوه بقوله (أنتم) كلكم أيها المدعون الرسالة مبطلون، (كذلك يطبع الله) أي: مثل هذا الطبع يطبع الله. أي: يختم على قلوب الجهلة الذين قد حتم الله عليهم الكفر في الأزل وأسند الطبع إلى ذاته تعالى، إذ هو فاعل ذلك ومقدره. وقال الزمخشري: «ومعنى طبع الله: صنع اللطاف التي يشرح لها الصدور حتى تقبل الحق. ثم قال: فكأنه كذلك تصدأ القلوب وتقسو قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين وهم أعرف خلق الله في تلك الصفة». انتهى. وهو على طريقة الاعتزال، ثم أمره تعالى بالصبر على عداوتهم وقواه بتحقيق الوعد أنه لا بد من إنجازه والوفاء به، ونهاه عن الاهتزاز بكلامهم، والتحرك، فإنهم لا يقين لهم ولا بصيرة. وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب (ولا يستحقنك) بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق. والجمهور بخاء معجمة وفاء من الاستخفاف، وسكن النون ابن أبي عبله ويعقوب، والمعنى: لا يفتننك ويكونوا أحق بك من المؤمنين.

(١) انظر الكشاف ٤٨٧/٣.

(٢) البيت من الكامل لبشر بن أبي حازم الأسدي انظر ديوانه (١٨٠) اللسان (صلم)، الكشاف (١٩٢/٢) القرطبي (٤٧١٤).



## ﴿مفردات سورة لقمان﴾

لقمان: اسم علم، فإن كان أعجمياً فمنعه من الصرف للجمجمة والعلمية، وإن كان عربياً فمنعه للعلمية وزيادة الألف والنون، ويكون مشتقاً من اللقم. مرتجلاً، إذ لا يعلم له وضع في النكرات. صَعْر: مشدد العين لغة بني تميم، قال شاعرهم:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ أَقْمَنَّا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَيُقَوْمٌ<sup>(١)</sup>

فَيُقَوْمٌ: أمر بالاستقامة للقوافي المخفوضة. أي: فيقوم إن قاله أبو عبيدة وإنشاد الطبري فيقوماً فعلاً ماضياً خطأ. وتصاعر. لغة الحجاز ويقال: يصعر، قال الشاعر:

أَقْمَنَّا لَهُ مِنْ خَدِّهِ الْمُتَّصِعِرِ<sup>(٢)</sup>

ويقال: أصعر خده، قال الفضل: هو الميل، وقال اليزيدي: هو التشدق في الكلام، وقال أبو عبيدة أصل هذا من الصعر داء يأخذ الإبل في رؤوسها وأعناقها فتلتوي منه أعناقها، القلم: معروف. الختار: شديد الغدر، ومنه قولهم:

إِنَّكَ لَا تُمُدُّ إِلَيْنَا شَيْبَرًا مِنْ غَدْرِ إِلَّا مَدَدْنَا لَكَ بَاعًا مِنْ خَتْرٍ.

وقال عمرو بن معديكرب:

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلَأَتْ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرِ وَخَتْرٍ<sup>(٣)</sup>

وقال الأعشى:

فَالأَبْلَقُ الْفَرْدُ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلُهُ حِصْنُ حَصِينٍ وَجَارٌ غَيْرُ خَتَارٍ<sup>(٤)</sup>

(١) البيت من الطويل نسبة أبو عبيدة لعمرو بن جُنَى التغلبي وفي الأصمعيات للمتلمس وكذا في اللسان (صعر) انظر مجاز القرآن (١٢٧/٢)

الأصمعيات (٢٤٥) اللسان (صعر) وروي

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من دونه فتقوموا

(٢) عجز بيت من الطويل وروي في الديوان بتامه هكذا:

إذا الأضعر الجبار صعر خده أقمنا له من خده المتصاعير

للأخطل. انظر: ديوانه ١٣٦.

(٣) البيت من الوافر لعمرو بن معد يكرب انظر ديوانه (١٠٩) مجاز القرآن (١٢٩/٢) القرطبي (٥٤/١٤).

(٤) من البسيط انظر ديوانه (٦٩) مجاز القرآن (١٢٩/٢) القرطبي ٥٤/١٤.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

ترتيبها ٢١

آياتها ٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ  
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن  
يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا  
تُلِيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفِئَ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً فَأَنبَأْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ  
الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

هذه السورة مكية . قال ابن عباس : «إلا ثلاث آيات» ، أولهن (ولو أن ما في الأرض) (١) ، وقال قتادة : إلا آيتين ، أولهما (ولو أن) إلى آخر الآيتين . وسبب نزولها أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه ، فنزلت . وقيل : نزلت بالمدينة إلا الآيات الثلاث (ولو أن ما في الأرض) إلى آخرهن لما نزل ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء] وقول اليهود : إن الله أنزل التوراة على موسى وخلفها فينا ومعنا ، فقال الرسول : التوراة وما فيها من الأنبياء قليل في علم الله . فنزل (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) ، ومناسبتها لما قبلها . أنه قال تعالى ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ [الروم : ٥٨] فأشار إلى ذلك بقوله (ألم تلك آيات الحكيم) وكان في آخر تلك ﴿ولئن جنتهم بآية﴾ [الروم : ٥٨] وهنا وإذا تلى عليه آياتنا ولي مستكبراً) و(تلك) إشارة إلى البعيد فاحتمل أن يكون ذلك ، لبعده غاية ، وعلو شأنه . و(آيات الكتاب) القرآن . واللوح المحفوظ . ووصف الكتاب بالحكيم ، إما لتضمنه للحكمة . قيل : أو فاعيل بمعنى المحكم . وهذا يقل أن يكون فاعيل بمعنى مُفَعَّل . ومنه : عقدت العسل فهو عقيد . أي : مُعَقَّد . ويجوز أن يكون حكيم بمعنى حاكم . وقال الزمخشري : (الحكيم) ذو الحكمة ، أو وصف لصفة الله عز وجل على الإسناد المجازي . ويجوز أن يكون

(١) انظر القرطبي ٣٥/١٣ وزاد المسير ٣١٤/٦ .

الأصل الحكيم . قابله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة . وقرأ الجمهور (هدى ورحمة) بالنصب على الحال من (الآيات) والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة . قاله الزمخشري وغيره . ويحتاج إلى نظر . وقرأ حمزة والأعمش والزرعفراني وطلحة وقبيل من طريق أبي الفضل الواسطي بالرفع خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر بعد خبر على مذهب من يميز ذلك . (للمحسنين) الذين يعملون الحسنات . وهي التي ذكرها كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة . ونظيره قول أوس :

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الْظَّنَّ كَأَنَّ قَدْرَ أَيْ وَقَدْ سَمِعَا (١)

حكى عن الأصمعي أنه سئل عن الألمي فأنشده ولم يزد . وخص المحسنون ، لأنهم هم الذين انتفعوا به ونظروه بعين الحقيقة . وقيل : الذين يعملون بالحسن من الأعمال . وخص منهم القائمون بهذه الثلاث ، لفضل الاعتداد بها . ومن صفة الإحسان ما جاء في الحديث من أن «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» . وقيل : المحسنون : المؤمنون . وقال ابن سلام : «هم السعداء» وقال ابن شجرة : «هم المنجحون» ، وقيل : الناجون ، وكرر الإشارة إليهم ، تنبيهاً على عظم قدرهم ، ولما ذكر من صفات القرآن الحكمة وأنه (هدى ورحمة) وأن متبعه فائز ذكر حال من بدل الحكمة باللهم وذكر مبالغته في ارتكابه حتى جعله مشترياً له ، وبإذلاً فيه رأس عقله . وذكر علته وأنها الإضلال عن طريق الله . ونزلت هذه الآية في النضر بن الحارث . كان يتجر إلى فارس ، ويشترى كتب الأعاجم ، فيحدث قريباً بحديث رستم ، واسفندار ، ويقول : أنا أحسن حديثاً (٢) ، وقيل : في ابن خطل ، اشترى جارية تغني بالسب ، وبهذا فسر (هو الحديث) المعازف والغناء ، وفي الحديث من رواية أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال : «شراء المغنيات وبيعهم حرام» . وقرأ هذه الآية (٣) وقال الضحاك : «هو الحديث الشرك» ، وقال مجاهد وابن جريج : الطبل «وهذا ضرب من آلة الغناء» ، وقال عطاء : «الترهات» . وقيل : «السحر» . وقيل : «ما كان يشتغل به أهل الجاهلية من السباب» وقال أيضاً : «ما شغلك عن عبادة الله وذكره من السحر ، والأصاحيك ، والخرافات ، والغناء» ، وقال سهل : «الجدال في الدين ، والخوض في الباطل ، والظاهر أن الشراء هنا مجاز عن اختيار الشيء ، وصرف عقله بكليته إليه» . فإن أريد به ما يقع عليه الشراء كالجواري المغنيات عند من لا يرى ذلك ، وككتب الأعاجم التي اشتراها النضر ، فالشراء حقيقة . ويكون على حذف . أي : من يشتري ذات هو الحديث . وإضافة هو إلى الحديث هي لمعنى من لأن الله قد يكون من حديث فهو كباب ساج . والمراد بالحديث ، الحديث المنكر ، وقال الزمخشري : «ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى (من) التبعية كأنه قال : ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو الله منه» . انتهى . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (لِيُضِلَّ) بفتح الياء . وباقي السبعة بضمها ، قال الزمخشري : «فإن قلت : القراءة بالرفع بيّنة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء الله أن يصد الناس عن الدخول في الإسلام ، واستماع القرآن ، ويضلهم عنه . فما معنى القراءة بالفتح ؟ (قلت) معنيان أحدهما : ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ، ولا يصدف عنه ، ويزيد فيه ، وعده بأن المخذول كان شديد الشكيمة (٤) . في عداوة الدين وصد الناس عنه» ، والثاني : أن يوضع ليضل موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة ، فدل بالرديف على المردوف . (فإن قلت) : قوله (بغير علم) ما معناه ؟

(١) من المنسرح انظر ديوانه (٥٣) الخصائص (١١٢/٢) الكامل (٣٧/٤) .

(٢) انظر زاد السير ٥١٦ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، والقرطبي ٣٦/١٤ .

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٩/٢١ ، والترمذي ٣٤٥/٥ كتاب التفسير والبيهقي في السنن ١٥/٦ وابن عدي في الكامل ٢٣١٥/٦ وذكره في

المجمع ٢٥٣/٦ والسيوطي في الدرر ١٥٩/٥ ونسبه لابن أبي الدنيا وابن مردويه والواحدي في تفسيره .

(٤) الشكيمة : يقال فلان شديد الشكيمة إذا كان ذا عارضة وجد قال ابن الأعرابي : الشكيمة قوة القلب .

(قلت): لما جعله مشترياً هو الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة، وبغير بصيرة بها، حيث يستبدل الضلال بالهدى، والباطل بالحق، ونحوه: قوله تعالى: ﴿فما رحبت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ [البقرة: ١٦] أي: وما كانوا مهتدين للتجارة وبصراء بها. انتهى. (وسبيل الله) الإسلام أو القرآن قولان. قال ابن عطية: «والذي يرجح أن الآية نزلت في هو الحديث مضافاً إلى الكفر، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله (ليضل) إلى آخره. وقرأ حمزة والكسائي وحفص (ويتخذها) بالنصب عطفاً على (يُضِلُّ) تشريكاً في الصلة. وباقي السبعة بالرفع عطفاً على (يشتري) تشريكاً في الصلة، والظاهر عود ضمير (ويتخذها) على السبيل، كقوله: ﴿ويغونها عوجاً﴾ [هود: ١٩] قيل: ويحتمل أن يعود على آيات الكتاب. وقال تعالى: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ [البقرة: ٢٣١] قيل: ويحتمل أن يعود على الأحاديث، لأن الحديث اسم جنس بمعنى الأحاديث. وقال صاحب التحرير: «ويظهر لي أنه أراد بلهو الحديث: ما كانوا يظهرونه من الأحاديث في تقوية دينهم، والأمر بالدوام عليه، وتفسير صفة الرسول وأن التوراة تدل على أنه من ولد إسحق يقصدون صد أتباعهم عن الإيمان. وأطلق اسم الشراء، لكونهم يأخذون على ذلك الرشا والجعائل من ملوكهم. ويؤيده (ليضل عن سبيل الله) أي: دينه» انتهى. وفيه بعض حذف وتلخيص، (وإذا تتلى عليه) بدأ أولاً بالحمل على اللفظ فأفرد في قوله (من يشتري) و(ليضل) (ويتخذها) ثم جمع على الضمير في قوله (أولئك لهم) ثم حمل على اللفظ فأفرد في قوله (وإذا تتلى) إلى آخره، و(مَنْ) في (من يشتري) موصولة. ونظيره في من الشرطية قوله ﴿ومن يؤمن بالله﴾ [التغابن: ١١] فما بعده أفرد ثم قال (خالدين) فجمع، ثم قال ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ [الطلاق: ١١] فأفرد، ولا نعلم جاء في القرآن ما حمل على اللفظ ثم على المعنى ثم على اللفظ. ويستدلون بها على أن هذا الحكم جار في (من) الموصولة. ونظيرها مما لم يُشْرَ ولم يُجْمَع من الموصولات. وتضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه التولية عن الحكمة، ثم الاستكبار، ثم عدم الالتفات إلى سماعها، كأنه غافل عنها، ثم الإيغال في الإعراض بكون أذنيه كأن فيها صمماً يصده عن السماع. (وكان لم يسمعها) حال من الضمير في (مستكبراً) أي: مشبهاً حال من لم يسمعها، لكونه لا يجعل لها بالأ، ولا يلتفت إليها. (وكان) هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن واجب الحذف.

(وكان في أذنيه وقرا) حال من (لم يسمعها).

وقال الزمخشري: «ويجوز أن يكونا استثنافين». انتهى. يعني الجملتين التشبيهيتين. ولما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم ذكر ما وعد به المؤمنين. وقرأ زيد بن علي (خالدون) بالواو. والجمهور بالياء، وانتصب (وعد الله) على أنه مصدر مؤكد لنفسه. و(حقاً) على المصدر المؤكد لغيره، لأن قوله (لهم جنات النعيم) والعامل فيها متغاير ف (وعد الله) منصوب، أي: «يوعد الله وعده و(حقاً) منصوب بـ (أحق ذلك حقاً) (خلق السموات) إلى (وأنبأنا فيها) تقدم الكلام على ذلك ومعنى (كريم) مدحته بكرم جوهره ونفاسته، وحسن منظره، وما تقضي له النفوس بأنه أفضل من غيره حتى استحق الكرم فيخص لفظ الأزواج ما كان نفيماً مستحسناً من جهة، أو مدحته بإتقان صفته، وظهور حسن الرتبة والتحكم للصنع فيه، فيعم جميع الأزواج وهو الأنواع. (هذا خلق الله) إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته. وينح بذلك الكفار، وأظهر حجته، و(الخلق) بمعنى المخلوق، كقولهم: درهم ضرب الأمير، أي: مضرابه ثم سألهم على جهة التهكم بهم أن يورده وإما خلقته آلهتهم لما ذكر مخلوقاته. فكيف عبدها من دونه؟ ويجوز في (ماذا) أن تكون كلها موصولة بمعنى الذي وتكون مفعولاً ثانياً (أروني) واستعمال (ماذا) كلها موصولاً قليل. وقد ذكره سيويه. ويجوز أن تكون (ما) استفهامية في موضع رفع على الابتداء، و(ذا) موصولة بمعنى الذي. وهو خير عن (ما) والجملته في موضع نصب بـ (أروني) وأروني معلقة عن العمل لفظاً، لأجل الاستفهام، ثم أضرب عن توبيخهم وتبكيهتهم إلى التسجيل عليهم بأنهم في حيرة واضحة لمن يتدبر، لأن من عبد صنماً وترك خالقه جدير بأن يكون في حيرة وتيه لا يقلع عنه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَنُورِي إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّمَا إِيَّاهُ يُنْفِقُ إِنْ تَكُ مَشْقَالًا حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَسَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

اختلف في لقمان . أكان حراً أم عبداً؟ فإذا قلنا: كان حراً فقيل هو ابن باعورا . قال وهب: «ابن أخت أيوب عليه السلام» وقال مقاتل: «ابن خالته»، وقيل: «كان من أولاد أزر وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى . فقيل له: لم؟ فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟ وكان قاضياً في بني إسرائيل». وقال الواقدي: «كان قاضياً في بني إسرائيل، وزمانه ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام، والأكثرون على أنه لم يكن نبياً»، وقال عكرمة والشعبي «كان نبياً»، وإذا قلنا، كان عبداً اختلف في جنسه، فقال ابن عباس وابن المسيب ومجاهد: «كان نوبياً مشقق الرجلين ذا مشافر»<sup>(١)</sup>. وقال الفراء وغيره: «كان حبشياً مجدوع الأنف ذا مشفر». واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال، فقال خالد بن الربيع: «كان نجاراً». وفي معاني الزجاج: «كان نجاداً بالبدال». وقال ابن المسيب: «كان خياطاً»، وقال ابن عباس: «كان راعياً». وقيل: «كان يتحطب لمولاه كل يوم حزمة». وهذا الاضطراب في كونه حراً أو عبداً، وفي جنسه، وفيما كان يعانيه، يوجب أن لا يكتب شيء من ذلك، ولا ينقل، لكن المفسرون مولعون بنقل المضطربات حشواً وتكثيراً. والصواب تركه. وحكمة لقمان مأثورة كثيرة، منها: قيل له: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً، وقال له داود - عليه السلام - يوماً: «كيف أصبحت؟ قال أصبحت في يد غيبي، فتفكر داود فيه، فصعق صعقة». وقال وهب بن منبه: «قرأت في حكم لقمان أكثر من عشرة آلاف». والحكمة: المنطق الذي يتعذب به، ويتنبه به، ويتناقله الناس لذلك، (أن اشكر) قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: (أن) هي المفسرة، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول. وقد نبه سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بها، أو عبادة الله، والشكر له حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشك، وقال الزجاج: «المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن يشكر الله، فجعلها مصدرية لا تفسيرية»، وحكى سيبويه: كتبت إليه بأن قم . (فإنما يشكر لنفسه) أي: ثواب الشكر لا يحصل إلا للشاكرين، إذ هو تعالى غني عن الشكر، فشكر الشاكر لا ينفعه، وكفر من كفر لا يضره. (وحميد) مستحق الحمد لذاته وصفاته، (وإذ قال) أي: واذكر إذ، وقيل:

(١) انظر القرطبي ٤١/١٤ وزاد المسير ٣١٧/٦، ٣١٨ وابن كثير ٤٤٣/٣.

(٢) انظر الكشاف ٤٩٣/٣.

يحتمل أن يكون التقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال. واختصر، لدلالة المتقدم عليه. و(ابنه) بآز، أي: أو أنعم، أو اشكر، أو شاكر أقوال. (وهو يعظه) جملة حالية، قيل: «كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما» والظاهر: أن قوله (إن) الشرك لظلم عظيم) من كلام لقمان، وقيل: «هو خير من (الله) منقطع عن كلام لقمان متصل به في تأكيد المعنى. وفي صحيح مسلم ما ظاهره أنه من كلام لقمان، وقرأ البري (يا بني) بالسكون و(يا بني إنها) بكسر الياء و(يا بني أقم) بفتحها، وقيل: بالسكون في الأولى والثانية، والكسر في الوسطى. وحفص والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير «يا نبيا». والاجتزاء بالفتحة عن الألف، وقرأ باقي السبعة بالكسر في الثلاثة. (ووصينا الإنسان بالديه) لما بين لقمان لابنه أن الشرك ظلم ونهاه عنه، كان ذلك حثاً على طاعة الله. ثم بين أن الطاعة تكون للأبوين وبين السبب في ذلك، فهو من كلام لقمان مما وصى به ابنه أخبر الله عنه بذلك، وقيل: «هو من كلام الله». قاله للقمان. أي: قلنا له اشكر. وقلنا له: ووصينا. وقيل: هذه الآية اعتراض بين أثناء وصيته للقمان. وفيها تشديد وتوكيد لاتباع الولد والده، وامتنال أمره في طاعة الله تعالى، وقال القرطبي: «والصحيح أن هذه الآية وآية العنكبوت نزلتا في سعد بن أبي وقاص وعليه جماعة من المفسرين، ولما خص الأم بالمشقات من الحمل، والنفاس، والرضاع، والتربية نه على السبب الموجب للإيضاء، ولذلك جاء في الحديث الأُميرير الأم ثلاث مرات ثم ذكر الأب فجعل له مرة الربع من المبرة (وهنا على وهن) قال ابن عباس: شدة بعد شدة وخلقاً بعد خلق». وقال الضحاك: «ضعفاً بعد ضعف». وقال قتادة: «جهداً على جهد» يعني ضعف الحمل، وضعف الطلق، وضعف النفاس. وانتصب على هذه الأقوال على الحال، وقيل (وهنا على وهن) نطفة، ثم علقه إلى آخر النشأة. فعلى هذا يكون حالاً من الضمير المنصوب في جملته، وهو الولد، وقرأ عيسى الثقفي وأبو عمرو في رواية (وهنا على وهن) بفتح الهاء فيهما، فاحتمل أن يكون كالشعر والشعر. واحتمل أن يكون مصدر (وهن) بكسر الهاء يوهن وهناً. بفتحها في المصدر قياساً. وقرأ الجمهور بسكون الهاء فيها وقرؤوا (وفصاله) وقرأ الحسن وأبو رجاء وقاتدة والجحدري ويعقوب (وفصله) ومعناه: الفطام، أي: في تمام عامين. عبر عنه بنهائته. وأجمعوا على اعتبار العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن في الرضاع فخلاف المذكور في الفقه. و(أن اشكر) في موضع نصب على قول الزجاج. وقال النحاس: «الأجود أن تكون مفسرة»، (لي) أي: على نعمة الإيمان (ولوالديك) على نعمة التربية. (إلى المصير) توعد أثناء الوصية، (وإن جاهداك) إلى (فلا تطعها) تقدم الكلام عليه في العنكبوت إلا أن هنا (على) وهناك ﴿لتشرك﴾ [العنكبوت ٨] بلام العلة، وانتصب (معروفاً) على أنه صفة لمصدر محذوف. أي: صحاباً، أو مصاحباً معروفاً، وعشرة جميلة. وهو إطعامها وكسوتها، وعدم جفائها وانتهازها، وعيادتها إذا مرضا، ومواراتها إذا ماتا. (واتبع سبيل من أناب إلى) أي: رجع إلى الله، وهو سبيل الرسول لا سبيلها، (ثم إلى مرجعكم) أي: مرجعك ومرجعها فأجازي كلاً منكم بعمله، ولما نهى لقمان ابنه عن الشرك نبهه على قدرة الله، وأنه لا يمكن أن يتأخر عن مقدوره شيء فقال (يا بني إنها إن تك) والظاهر: أن الضمير في (إنها) ضمير القصة، وقرأ نافع (مثنالاً) بالرفع على أن (تَكُ) تامة، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر. وأخبر عن (مثنالاً) وهو مذكر إخبار المؤنث، لإضافته إلى مؤنث، وكأنه قال: إن تك زنة حبة، وباقي السبعة بالنصب على أن (تَكُ) ناقصة، واسمها ضمير يفهم من سياق الكلام، تقديره: هي، أي: التي سألت عنها. وكان فيها روي: «قد سأل لقمان ابنه أرايت الحبة تقع في مغاص البحر أيعلمها الله؟» فيكون الضمير ضمير جوهر لا ضمير عرض، ويؤيده قوله (إن) تك مثنال حبة) وقرأ عبد الكريم الجزري (فَتَكُنْ) بكسر الكاف وشد النون وفتحها. وقراءة محمد بن أبي فجة البعلبكي (فَتَكُنْ) بضم التاء وفتح الكاف والنون مشددة، وقرأ قتادة (فَتَكُنْ) بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون من «وكن يكن»، ورويت هذه القراءة عن عبد الكريم الجزري أيضاً. أي: تستقر، ويجوز أن يكون الضمير ضمير عرض، أي تلك الفعلة من الطاعة أو المعصية. وعلى من قرأ بنصب (مثنالاً) يجوز أن يكون الضمير في (إنها) ضمير الفعلة لا ضمير القصة. قال الزمخشري: «فمن نصب يعني (مثنالاً) كان الضمير للهيئة من الإساءة والإحسان أي: كانت مثلاً في الصغر والقراءة كحبة

الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحززه كجوف الصخرة، أو حيث كانت من العالم العلوي أو السفلي. (يأت بها الله) يوم القيامة، فيحاسب عليها. (إن الله لطيف) يتوصل علمه إلى كل خفي (خبير) عالم بكنهه. وعن قتادة (لطيف) باستخراجها (خبير) بمستقرها. وبدأ له بما يتعلق به أولاً، وهو: كينونة الشيء في صخرة، وهو ما صلب من الحجر وعسر إخراجه منها، ثم أتبعه بالعالم العلوي وهو أغرب للسامع، ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء للشاهد، وهو الأرض، وعن ابن عباس والسدي: «أن هذه الصخرة هي التي عليها الأرض». قال ابن عباس: «هي تحت الأرضين السبع يكتب فيها أعمال الفجار». قال ابن عطية: قيل: «أراد الصخرة التي عليها الأرض والحوت والماء وهي على ظهر ملك». وقيل: «هي صخرة في الريح». وهذا كله ضعيف لا ثبت سنده. وإنما معنى الكلام المبالغة والانتها في التفهيم. أي: إن قدرته تنال ما يكون في تضاعيف صخرة، وما يكون في السماء والأرض. انتهى قيل: «وخفاء الشيء يعرف بصغره عادة، وبعده عن الرائي، وبكونه في ظلمة، وباحتجابه. ف (في صخرة) إشارة إلى الحجاب (وفي السموات) إشارة إلى البعد. (وفي الأرض) إشارة إلى الظلمة، فإن جوف الأرض أظلم الأماكن، وفي قوله (يأت بها الله) دلالة على العلم والقدرة، كأنه قال: يحيط بها علمه، وقدرته، ولما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى، وباهر قدرته، أمره بما يتوصل به إلى الله من الطاعات فبدأ بأشرفها، وهو الصلاة، حيث يتوجه إليه بها ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن جميعها، أو على ما يصيبه بسبب الأمر بالمعروف ممن يعيته عليه والنهي عن المنكر ممن ينكره عليه، فكثيراً ما يؤدي فاعل ذلك. وهذا إنما يريد به بعد أن يمثل هو في نفسه يأتي بالمعروف. (إن ذلك) إشارة إلى ما تقدم مما نهاه عنه وأمره به والعزم مصدر، فاحتمل أن يراد به المفعول. أي: من معزوم الأمور. واحتمل أن يراد به الفاعل، أي: عازم الأمور. كقوله ﴿إِذَا عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ [محمد: ٢١]، وقال «ابن جريج»: «مما عزمه الله وأمر به». وقيل: «من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة»، والظاهر: أنه يريد من لازمات الأمور الواجبة، لأن الإشارة بذلك إلى جميع ما أمر به ونهى عنه. وهذه الطاعات يدل إيصاء لقمان على أنها كانت مأموراً بها في سائر الملل والعزم: ضبط الأمر ومراعاة إصلاحه. وقال مؤرخ: «العزم: الحزم بلغة هذيل. والحزم والعزم أصلان». وما قاله المبرد من أن العين قلبت حاء ليس بشيء (لاطراد تصاريف كل واحد من اللفظين، فليس أحدهما أصلاً للآخر) (ولا تصعر خدك للناس) أي: لا تولم شق وجهك كفعل المتكبر، وأقبل على الناس بوجهك من غير كبر، ولا إعجاب، قاله ابن عباس والجماعة، قال «ابن خويز منداد»: نهى أن يذل نفسه من غير حاجة. وأورد قريباً من هذا ابن عطية احتمالاً، فقال: «ويحتمل أن يريد ولا سؤلاً، ولا ضراعة بالفقر. قال: والأول يعني تأويل ابن عباس والجماعة أظهر، لدلالة ذكر الاختيال والعجز بعده. وقال مجاهد: «(ولا تصعر) أراد به الإعراض كهجره بسبب أخيه»، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وزيد بن علي (تُصَعَّرُ) بفتح الصاد وشد العين. وباقي السبعة بآلف. والجدري (يُصْعَرُ) مضارع أصعر، (ولا تمش في الأرض مرحاً) تقدم الكلام على هذه الجملة في سورة سبحة (إن الله لا يحب كل مختال فخور) تقدم الكلام في النساء على نظير هذه الجملة في قوله (إن الله لا يحب كل مختال فخور) ولما وصى ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ صار هو في نفسه ممثلاً للمعروف مزدجراً عن المنكر أمر به غيره ونهاياً عنه غيره، نهاه عن التكبر على الناس، والإعجاب، والمشي مرحاً، وأخبره أنه تعالى لا يحب المختال، وهو المتكبر، ولا الفخور، قال مجاهد: «وهو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله» ويدخل في الفخور الفخر بالأنساب». (واقصد في مشيك واغضض من صوتك) ولما نهاه عن الخلق الذميمة أمره بالخلق الكريم، وهو القصد في المشي بحيث لا يبيط كما يفعل المتناسون<sup>(١)</sup>، والمتعاجبون يتباطؤون في نقل خطواتهم المتنامين للرياء، والمتعاجب للترفع، ولا يسرع كما يفعل الخرق

(١) المتناسون: التتميس: التلبس، وما تنمس به من الاحتيال.

التهور، ونظر أبو جعفر المنصور إلى أبي عمرو بن عبيد فقال: كلكم يمشي رويداً، كلكم يطلب صيداً غير عمرو بن عبيد، وقال ابن مسعود: «كانوا ينهون عن خيب اليهود وديب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك». وقيل معناه: «اجعل بصرك موضع قدمك». وقرئ (وأقصد) بهمة القطع. أي: سدد في مشيك، من «أقصد الرامي» إذا سدد سهمه نحو الرمية، ونسبها ابن خالويه للحجاز (والغض من الصوت) التقيص من رفعه وجهارته. والغض: رد طموح الشيء كالصوت، والنظر، والزمام، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت وتمدح به في الجاهلية. ومنه قول الشاعر:

جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ الْعُطَاسِ      جَهِيرُ الرِّوَاءِ جَهِيرُ النُّعِيمِ<sup>(١)</sup>  
وَيَخْطُو عَلَى الْأَيْنِ خَطْوُ الظُّلَمِ      وَيَسْغَلُو الرِّجَالَ بِسَخْلِقِ عَمِيمِ

وغض الصوت أوفر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع، وفهمه. وأنكر أفعَل إن بني من فعل المفعول كقولهم: «أشغل من ذات النحين». وبنائه من ذلك شاذ. (والأصوات) أصوات الحيوان كلها. وأنكر جماعة للمذام اللاحقة للأصوات. والحمار مثل في الدم البليغ والشثيمة. شبه الرافعون أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالهناق. ولم يؤت بأداة التشبيه بل أخرج مخرج الاستعارة. وهذه أقصى مبالغة في الدم، والتنفير عن رفع الصوت. ولما كان صوت الحمير متاثلاً في نفسه لا يكاد يختلف في الفظاعة أفرد (لأنه في الأصل مصدر وأما أصوات الحمير فغير مختلفة جداً جمعت في قوله (إن أنكر الأصوات) فالعنى: أنكر أصوات الحمير بالجمع بغير لام. وقال الحسن: «كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً فضل به الحمير. والظاهر أن قوله (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) من كلام لقمان لابنه، تنفير له عن رفع الصوت: ومماثلة الحمير في ذلك. قيل: هو من كلام الله تعالى وفرغت وصية لقمان في قوله (واغضض من صوتك) رد الله به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورفع الصوت يؤذي السامع، ويقرع الصياخ<sup>(٢)</sup> بقوة، وربما يخرج الغشاء الذي هو داخل الأذن وقيل: (واقصد في مشيك) إشارة إلى الأفعال (واغضض من صوتك) إشارة إلى الأقوال. فبني على التوسط في الأفعال وعلى الإقلال من فضول الكلام.

الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبِئُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَان الشَّيْطٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۚ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۚ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۚ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ۚ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ۚ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ

(١) البيتان من المتقارب انظر الكامل (٣١٤) انظر القرطبي (٤٩/٢٠).

(٢) الصياخ من الأذن الحرق الباطن الذي يفضي إلى الرأس ويقال: إن الصياغ الأذن نفسها وقيل: هي ثقل الأذن.



وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُم مِّن بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا  
بِعَثْمِكُمْ إِلَّا كَفِّسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

سخر لكم: تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع من تسخير (ما في السموات) من الشمس والقمر، والنجوم والسحاب، (وما في الأرض) من الحيوان والنبات والمعادن والبحار وغير ذلك، وذلك لا يكون إلا بمسخر من مالك متصرف كما يشاء. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمار (وأصْبَغ) بالصاد. وهي لغة لبي كلب، يبدلونها من السين إذا جمعت الغين، أو الخاء، أو القاف، صاداً، وباقي التراء بالسين على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وحفص (نَعْمَهُ) جمعاً مضافاً للضمير، وباقي السبعة وزيد بن علي: (نَعْمَةً) على الأفراد والظاهر: أنه يراد بالنعمة الظاهرة الإسلام، والباطنة الستر. وعن الضحاك: «الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء، والباطنة: المعرفة»، وقيل: «الظاهرة: البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح، والباطنة: القلب، والعقل والفهم»، والذي ينبغي أن يقال: «إن الظاهرة مما يدرك بالمشاهدة، والباطنة: ما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلاً فكم من نعمة في بدن الإنسان لا يعلمها ولا يهتدي إلى العلم بها». وانتصب (ظاهرة) على الحال من (نَعْمَهُ) الجمع على الصفة ومن (نَعْمَهُ) على الأفراد. وتقدم الكلام على (ومن الناس) إلى (منير) في الحج. وعلى ما بعده إلى (أبأنا) في نظيره في البقرة. (أولو كان) تقديره: أيتبعونهم في أحوالهم، وفي هذه الحال التي لا ينبغي أن لا يتبع فيها الآباء لأنها حال تلف وعذاب، وقد تقدم لنا أن مثل هذا التركيب الذي فيه (ولو أنما) يكون في الشيء الذي كان ينبغي أن لا يكون نحو «أعطوا السائل ولو جاء على فرس» «ردوا السائل ولو يظلف محرق». «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» [يوسف: ١٧] وكذلك هذا كان ينبغي من دعا إلى عذاب السعير أن لا يتبع. وقرأ الجمهور. (وَمَنْ يُسْلِم) مضارع أسلم، وعلي والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار بتشديد اللام مضارع (سَلَّمَ) وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في البقرة. والمراد: التفويض إلى الله. (فقد استمسك بالعروة الوثقى) تقدم الكلام عليه في البقرة. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «من باب التمثيل مثلت حال المتوكل بحال من تدلَّى من شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوتق عروة من جبل متين مأمون انقطاعه» انتهى ولما ذكر حال الكافر المجادل ذكر حال المسلم، وأخبر بأن منتهى الأمور صائرة إليه. وقال ابن عطية: «والعروة: موضع التعليق، فكان المؤمن متعلقاً بأمر الله، فشبّه ذلك بالعروة. وسلى رسوله بقوله (ومن كفر) إلى آخره. وشبه إلزام العذاب وإرهاقهم إليه باضطراب من يضطر إلى الشيء الذي لا يمكنه دفعه ولا الانفكاك منه. والغلظ: يكون في الأجرام فاستعير للمعنى والمراد: الشدة»، (ليقولنَّ الله) أقام الحجة عليهم، بأنهم يقولون بأن الله هو خالق العالم بأسره، ويدعون مع ذلك إلهاً غيره. (قل الحمد لله) على ظهور الحجة عليهم. (بل أكثرهم لا يعلمون) إضراب عن مقدر، تقديره: ليس دعواهم نحو: لا يعلمون أن ما ارتكبه من ادعاء إله غير الله لا يصح، ولا يذهب إليه ذو علم، ثم أخبر أنه مالك للعالم كله، وأنه هو الغني فلا افتقار له لشيء من الموجودات. (الحميد) المستحق الحمد على ما أنشأ وأنعم. (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) تقدم في أول السورة سبب نزول هذه الآية. ولما ذكر تعالى: أن ما في السموات والأرض ملك له، وكان ذلك متناهياً، بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها، فقال: (ولو أن ما في الأرض) و(أن) بعد (لو) في موضع رفع على الفاعلية. أي: لو وقع أو ثبت على رأي المبرد، أو في موضع مبتدأ محذوف الخبر على رأي غيره. وتقرر ذلك في علم النحو. (ومن شجرة) تبيين لـ (ما) وهو في التقرير في موضع الحال من الضمير الذي في الجار والمجرور المنتقل من العامل فيه. وتقديره: ولو أن الذي استقر في الأرض كائناً من شجرة. (وأقلام) خبر لـ (أن) وفيه دليل على بطلان دعوى الزمخشري، وبعض العجم ممن ينصر قوله إن خبر أن

الجائية بعد لو لا يكون اسماً جامداً، ولا اسماً مشتقاً، بل يجب أن يكون فعلاً، وهو قول باطل، ولسان العرب طافح بالزيادة عليه، قال الشاعر:

وَلَوْ أَنَّهَا عُضْفُورَةٌ لَحَسِبْتُهَا      مُسَوِّمَةٌ تَدْعُو عبيدًا وَأَيَّمَا<sup>(١)</sup>

وقال آخر:

مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ لَوْ أَنَّ الْفَتَى حَجْرٌ      تَنْبُو الْحَوَادِثُ عَنْهُ وَهُوَ مَلْمُومٌ<sup>(٢)</sup>

وقال آخر:

وَلَوْ أَنَّ حَيًّا فَائِثٌ الْمَوْتِ فَاتَهُ      أَخُو الْحَرْبِ فَرَّقَ الْقَارِحِ الْعَدَوَانَ<sup>(٣)</sup>

وهو كثير في لسانهم. والظاهر: أن الواو في قوله (والبَحْرُ) في قراءة من رفع وهم الجمهور. واو الحال (والبَحْرُ) مبتدأ (ومده) الخبر، أي: حال كون البحر ممدوداً، وقال الزمخشري: «عطفاً على محل إن ومعمولها على: ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً، وثبت أن البحر ممدوداً بسبعة أبحر»، انتهى، وهذا لا يتم إلا على رأي المبرد حيث زعم أن أن في موضع رفع على الفاعلية. وقال بعض النحويين: هو عطف على أن لأنها في موضع رفع بالابتداء، وهو لا يتم إلا على رأي من يقول إن أن بعد لو في موضع رفع على الابتداء (ولو) لا يليها المبتدأ اسماً صريحاً إلا في ضرورة شعر نحو قوله:

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِقٌ      كُنْتُ كَالْفُصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي

فإذا عطف (والبحر) على أن ومعمولها - وهما رفع بالابتداء - لزم من ذلك أن (لو) يليها الاسم مبتدأ، إذ يصير التقدير: ولو البحر. وذلك لا يجوز إلا في الضرورة إلا أنه قد يقال: إنه يجوز في المعطوف عليه، نحو رب رجل وأخيه يقولان ذلك، وقرأ عبد الله (وبحراً مده) بالتنكير بالرفع. والواو للحال، أو للعطف على ما تقدم<sup>(٤)</sup> وإن كانت الواو واو الحال كان (بحر) وهو نكرة مبتدأ. وذكروا في مسوغات الابتداء بالنكرة أن تكون واو الحال تقدمته نحو قوله:

سَرِينَا وَنَجْمٌ قَدْ أَضَاءَ فَقَدْ بَدَا      مُحَيِّبًا أَخْفَى ضَوْؤُهُ كُلُّ شَارِي<sup>(٥)</sup>

وقرأ الجمهور (مُدَّة) بالياء من مد وابن مسعود وابن عباس بتاء التانيث: من مد أيضاً. وعبد الله أيضاً، والحسن وابن مطرف وابن هرمز: بالياء من تحت. من أمد، وجعفر بن محمد (والبَحْرُ مِدَادُهُ) أي: يكتب به من السواد، وقال ابن عطية: «هو مصدر» انتهى. (من تَعْدِهِ) أي: من بعد نفاذ ما فيه سبعة أبحر، لا يراد به الاقتصار على هذا العدد، بل جيء به للكثرة. كقوله: «المؤمن يأكل في معى واحد والكافر في سبعة أمعاء» لا يراد به العدد، بل ذلك إشارة إلى القلة والكثرة. ولما كان لفظ (سبعة) ليس موضوعاً في الأصل للتكثير. وإن كان مراداً به التكثير جاء بميزة بلفظ القلة، وهو (أبحر) ولم يقل: بحور وإن كان لا يراد به أيضاً إلا التكثير، ليناسب بين اللفظين، فكما يجوز في (سبعة) واستعمل للتكثير كذلك يجوز في (أبحر) واستعمل للتكثير، وفي الكلام جملة محذوفة يدل عليها المعنى وكتب بها الكتاب (كلمات الله) ما نفدت، والمعنى: ولو

(١) من الطويل للعوام بن شاذب انظر غريب القرآن (٤٦٨) الأشموني (٤١/٤) اللسان (رثم).

(٢) من البسيط نسبه في حاشية الأمير لشمس بن مقبل انظر حاشية الأمير (٤١/٤) المغني (٢١٤/٢) شرح المفصل لابن يعيش (٨٧/١).

(٣) من الطويل لصخر بن عمرو الشريد السلمي انظر الأصمعيات (١٤٧) الأشموني (٤٢/٤) اللسان (عدا).

(٤) انظر التصريح ٢٥٩/٢ الأشموني ٤٠/٤ الكتاب ٤٦٢/١ الصبان ٤١/٤.

(٥) من الطويل لم أمتد لقائله انظر الأشموني (٢٠٦/١) الممع (١٠١/١) المغني (٩٤/٢).

أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، ما نفذت، ونفدت الأقلام، والمداد الذي في البحر. وما يمده، كما قال ﴿لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية، وقال الزمخشري: (فإن قلت): زعمت أن قوله (والبحر يمده) حال في أحد وجهي الرفع، وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال؟ (قلت): هو كقوله.

### وقد أغتدي والطير في وكناتها

وجئت والجيش مصطف، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف يجوز أن يكون المعنى: وبحرها، والضمير «للأرض». انتهى. وهذا الذي جعله سؤالاً وجواباً من واضح النحو الذي لا يجمله المبتدئون فيه، وهو أن الجملة الاسمية إذا كانت حالاً بالواو لا يحتاج إلى ضمير يربط واكتفى بالواو فيها. وأما قوله: «وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف فليس بجيد» لأن الطرف إذا وقع حالاً، ففي العامل فيه ضمير ينتقل إلى الطرف، والجملة الاسمية إذا كانت حالاً بالواو فليس فيها ضمير منتقل. وأما قوله: «ويجوز» فلا يجوز إلا على رأي الكوفيين، حيث يجعلون أُل عوضاً من الضمير، وقال الزمخشري: (فإن قلت): لم قيل (من شجرة) على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر. (قلت): أريد تفصيل الشجر، ونفضها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا قد برت أقلاماً». انتهى وهذا النوع هو ما أوقع فيه المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة. ونظيره ﴿ما ننسخ من آية﴾ ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾ [فاطر: ٢] ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ [النحل: ٤٩] وكقول العرب: «هو أول فارس وهذا أفضل عالم، يريد من الآيات، ومن الرحمات، ومن الدواب، وأول الفرسان. أخبروا بالمفرد والنكرة وأرادوا به معنى الجمع المعرف بآل، وهو مهيع<sup>(١)</sup> في كلام العرب معروف. وكذلك يتقدر هذا من الشجرات أو من الأشجار. وفي هذا الكلام من المبالغة في تكثير الأقلام والمداد ما ينبغي أن يتأمل، وذلك أن الأشجار مشتمل كل واحدة منها على الأغصان الكثيرة وتلك الأغصان كل غصن منها يقطع على قدر القلم، فيبلغ عدد الأقلام في التناهي إلى ما لا يعلم به ولا يحيط إلا الله تعالى، وقرأ الجمهور (ما نفذت كلمات الله) بالألف والتاء، وقرأ زيد بن علي (كلمة الله) على التوحيد. وقرأ الحسن (ما نفذ) بغير تاء، (كلام الله) قال أبو علي: المراد بالكلمات. والله أعلم: ما في المعدوم دون ما خرج من العدم إلى الوجود. وقالت فرقة: المراد بكلمات الله: معلوماته. وقال الزمخشري: «(فإن قلت): الكلمات جمع قلة، والمواضع مواضع التكثر لا التقليل<sup>(٢)</sup>، فهلا قيل: كلم الله؟ (قلت): معناه: أن كلماته لا تفي بكتبها البحار فكيف بكلمة» انتهى. وعلى تسليم أن (كلمات) جمع قلة مجموع القلة إذا تعرفت بالألف واللام غير العهدية أو أضيفت عمت وصارت لا تخص القليل والعام مستغرة، لجميع الأفراد. (إن الله عزيز) كامل القدرة، فمقدوراته لا نهاية لها (حكيم) كامل العلم، فمعلوماته لا نهاية لها. ولما ذكر تعالى كمال قدرته، وعلمه، ذكر ما يبطل استبعادهم للحشر (إلا كنفس واحدة) إلا كخلق نفس واحدة، وبعثها، ومن لا نفاذ لكلماته يقول للموق كونوا فيكونون، فالقليل والكثير، والواحد والجمع، لا يتفاوت في قدرته. وقال النقاش: «هذه الآية في أبي بن خلف وأبي الأسد ونبية ومنبه، ابني الحجاج قالوا: يا محمد إنا نرى الطفل يخلق بتدريج، وأنت تقول الله يعيدنا دفعة واحدة». فنزلت<sup>(٣)</sup>. (إن الله سميع بصير) (سميع) كل صوت (بصير) يبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك

(١) مهيع: بلد مهيع: واسع، شد عن القياس فصح. وكان الحكم أن يعتل لأنه مفعّل مما أعلنت عنه.

لسان العرب (٤٧٣٧/٦)

(٢) شرح الكافية ١٧٨/٢ شرح الشافية ١٩٥/٢ انظر حاشية يس (٣٠٠/٢) الكتاب ١٤٢/٢ - ١٨١ المقتضب ١٥٤/٢ ابن يعيش ٩/٥ -

(١١)

(٣) انظر القرطبي ٥٢/١٤ وزاد المسير ٣٣٧/٦.

بعضها عن بعض فكذلك الخلق والبعث.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرَى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

﴿يولج الليل﴾ الجملتين شرحت في آل عمران وهنا ﴿إلى أجل﴾ ويدل على الانتهاء. أي: يبلغه وينتهي إليه. وفي الزمر ﴿لأجل﴾ [الزمر: ٥] ويدل على الاختصاص بجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى. وجري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر بآخر الشهر. فكلا المعنيين متناسب لجرهما، فلذلك عدي بهما. وقرأ عياش عن أبي عمرو ﴿بما يعملون﴾ بياء الغيبة. ﴿ذلك بأن الله﴾ الآية تقدم شرحها في الحج. وهنا ﴿وأن ما تدعون من دونه الباطل﴾ وفي الحج ﴿من دونه هو الباطل﴾ [الحج: ٦٢] بزيادة (هو). ولما ذكر تعالى تسخير النيرين وامتنانه بذلك علينا ذكر أيضاً من سخر الفلك من العالم الأرضي بجامع ما اشتركا فيه من الجريان، وقرأ الجمهور ﴿بنعمة الله﴾ على الأفراد اللفظي. وقرأ الأعرج والأعمش وابن عمر ﴿بنعمات الله﴾ بكسر النون وسكون العين جمعاً بالألف والتاء. وقرأ ابن أبي عبيدة بفتح النون وكسر العين وبالألف والتاء والباء. وتحمّل السببية: أي: تجري بسبب الريح وتسخير الله، وتحمّل الحالية. أي: مصحوبة بنعمة الله. وهي ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات. وقال ابن عطية: «الباء للإلصاق» انتهى وقرأ موسى بن الزبير ﴿الفلك﴾ بضم اللام. و﴿صبار شكور﴾ بيتا مبالغة. وفعال أبلغ، لزيادة حروفه. ولما تقدم ذكر جري الفلك في البحر وكان في ذلك ما لا يخفى على راكبه من الخوف، وتقدم ذكر النعمة تناسب الختم بالصبر على ما يحذر، وبالشكر على ما أنعم به تعالى. وشبه الموج في ارتفاعه واسوداده واضطرابه بالظلل وهو السحاب، وقيل: كالظلل كالجبال. أطلق على الجبل ظلة. وقرأ محمد بن الحنفية ﴿كالظلال﴾ وهما: جمع ظلة، نحو قلة وقلل وقلال. وقوله ﴿وإذا غشيه﴾ فيه التفات. خرج من ضمير الخطاب في ﴿ليريك﴾ إلى ضمير الغيبة في ﴿غشيه﴾ و﴿موج﴾ اسم جنس يفرق بينه وبين مفردة بناء التأنيث فهو يدل على الجمع، ولذلك شبهه بالجمع، ﴿فمنهم مقتصد﴾ قال الحسن: «أي مؤمن يعرف حق الله في هذه النعم»، وقال مجاهد: «مقتصد على كفره». أي: يسلم لله ويفهم أن نحو هذا من القدرة وإن ضل في الأصنام من جهة أنه يعظمها قيل: «أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر»، قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند

الخوف لا ينبغي لأحد قط» انتهى . وكثر استعمال الزمخشري<sup>(١)</sup> ﴿قط﴾ ظرفاً والعامل فيه غير ماض . وهو مخالف لكلام العرب في ذلك . فقيل : حذف مقابل فمنهم مؤمن مقتصد تقديره ومنهم جاحد ودل عليه قوله ﴿وما يحجد بآياتنا﴾ وعلى هذا القول يكون مقتصد . معناه : مؤمن مقتصد في أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء موف بما عاهد الله عليه - في البحر - وختم هنا ببنيي مبالغة وهما ﴿ختار﴾ و﴿كفور﴾ فالصبار الشكور معترف بآيات الله ، والختار<sup>(٢)</sup> الكفور يحجد بها . وتوازنت هذه الكلمات لفظاً ومعنى أما لفظاً فظاهر ، وأما معنى فالختار هو الغدار ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبار يفوض أمره إلى الله ، وأما الغدار فيعهده ويغدر فلا يصبر على العهد ، وأما الكفور فمقابلته معنى للشكور واضحة ، ولما ذكر تعالى الدلائل على الوحداية والحر من أول السورة أمر بالتقوى على سبيل المعوطة والتذكير بهذا اليوم العظيم . ﴿لا يجزي﴾ لا يقضي ، ومنه قيل للمتقاضي المتجازي ، وتقدم الكلام في ذلك في أوائل البقرة ، ولما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه بدأ به أولاً وأتى في الإسناد إلى الوالد بالفعل المقتضي للتجدد ، لأن شفقتة متجددة على الولد في كل حال ، وأتى في الإسناد إلى الولد باسم الفاعل ، لأنه يدل على الثبوت ، والثبوت يصدق بالمرّة الواحدة . والجملة من ﴿لا يجزي﴾ صفة لـ ﴿يوم﴾ والضمير محذوف أي : منه فإما أن يحذف برتمه وإما على التدرج . حذف الخبر فتعدى الفعل إلى الضمير وهو منصوب فحذف . وقرأ الجمهور ﴿لا يجزي﴾ مضارع جزى ، وعكرمة بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول . وأبو السك وعامر بن عبد الله وأبو السوار ﴿لا يجزيء﴾ بضم الياء وكسر الزاي مهموز . أو معناه : لا يغني ، يقال : أجزأت عنك جزء فلان . أي : أغنيت ويجوز في ﴿ولا مولود﴾ وجهان ، أحدهما : أن يكون معطوفاً على ﴿والد﴾ والجملة من قوله ﴿هو﴾ مجاز صفة لـ ﴿مولود﴾ ، والثاني : أن يكون مبتدأ . و﴿هو﴾ مبتدأ ثانٍ و﴿جاز﴾ خبره ، والجملة خبر للأول ، وجاز الابتداء به وهو نكرة ، لوجود مسوغ ذلك وهو النفي . وذهل المهدي فقال : «لا يكون مولود مبتدأ ، لأنه نكرة وما بعده صفة فيبقى بلا خير» و﴿شيئاً﴾ منصوب بـ ﴿جاز﴾ وهو من باب الإعمال ، لأنه يطلبه ﴿لا يجزي﴾ ويطلبه ﴿جاز﴾ فجعلناه من إعمال الثاني ، لأنه المختار ، وقرأ ابن أبي إسحق وابن أبي عبله ويعقوب ﴿تغرّئكم﴾ بالنون الخفيفة وقرأ سماك بن حرب وأبو حية ﴿الغرور﴾ بالضم وهو مصدر . والجمهور بالفتح . وفسره ابن مجاهد والضحاك : بالشیطان . ويمكن حمل قراءة الضم عليه ، جعل الشيطان بنفس الغرور مبالغة ، وقال الزمخشري : «فإن قلت : ﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ هو وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؟ ﴿قلت﴾ الأمر كذلك ، لأن الجملة الاسمية أكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله ﴿هو﴾ وقوله ﴿مولود﴾ والسبب في مجيئه هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين وغالبهم ، قبض أبائهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي ، فأريد حسم أطعاهم ، وأطاع الناس أن ينفعوا آباءهم في الآخرة وأن يشفعوا لهم وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جيء به على الطريق الأوكد . ومعنى التوكيد في لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع للوالد الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده ، لأن الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك . ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ يروى «أن الحارث بن عماره المحاربي قال : يا رسول الله أخبرني عن الساعة متى قيامها؟ وإني لقد أقيت حباتي في الأرض وقد أبطأت عني الساء متى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت على ما في بطنها أذكر أم أنثى؟ وعلمت ما عملت أمس فما أعمل غداً؟ وهذا مولدي قد عرنته فأين أموت؟ فنزلت ، وفي الحديث : «خمس لا يعلمهن إلا الله وتلا هذه الآية» . و﴿علم﴾ مصدر أضيف إلى الساعة والمعنى : علم يقين وفيها ﴿وينزل الغيث﴾ في آياته من غير تقديم ولا تأخير ﴿ما في الأرحام﴾ من ذكر أم أنثى ، تام أو ناقص ﴿وما تدري نفس﴾ برة أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غداً﴾ من خير أو شر وربما عزمت على أحدهما فعملت ضده . ﴿بأي أرض تموت﴾ وربما أقامت بمكان ناوية

(١) انظر الكشاف ٥٠٣/٣ .

(٢) الختر : شبيه بالغدر والخديعة .

أن لا تفارقه إلى أن تدفن به ثم تدفن في مكان لم يخطر لها ببال قط . وأسند العلم إلى الله ، والدراية للنفس ، لما في الدراية من معنى الختل والحيلة . ولذا وصف الله بالعالم ولا يوصف بالداري وأما قوله :

لَا هُمْ لَا أَدْرِي وَأَنْتَ الدَّارِي

فقول عربي جلف جاهلي جاهل بما يطلق على الله من الصفات وما يجوز منها وما يمتنع ، وقرأ الجمهور (بأي أرض) وقرأ موسى الاسواري وابن أبي عبلة (بأيّة أرض) بناء التانيث ، لإضافتها إلى الموت . وهي لغة قليلة فيها كما أن كلاً إذا أضيفت إلى مؤنث قد تؤنث تقول : كلهنّ فعلن ذلك . و(تدري) معلقة في الموضعين ، فالجملة من قوله (ماذا تكسب) في موضع مفعول (تدري) ويجوز أن يكون (ماذا) كلها موصولاً منصوباً بـ (تدري) ، كأنه قال : وما تدري نفس الشيء التي تكسب غداً . و(أي) متعلق بـ (تموت) والباء ظرفية . أي : في أي أرض . فالجملة في موضع نصب بـ (تدري) ووقع الإخبار بأن الله استأثر بعلمه هذه الخمس ، لأنها جواب لسائل سأل ، وهو يستأثر بعلم أشياء لا يحصيها إلا هو وهذه الخمس .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ  
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدِيرُ  
الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ  
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ  
جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ  
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ  
بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَنفِقْنَكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ  
تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا  
مُقْتَدِرُونَ ﴿١٢﴾

هذه السورة مكية قيل : إلا خمس آيات (تنجاني) إلى (تكذبون) (١) وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي : إلا ثلاث آيات  
نزلت بالمدينة (أفمن كان مؤمناً) (٢) قال كفار قريش : لم يبعث الله محمداً إلينا وإنما الذي جاء به اختلاق منه فنزلت ، ولما ذكر  
تعالى فيها قبلها دلائل التوحيد من بدء الخلق وهو الأصل الأول ثم ذكر المعاد والحشر وهو الأصل الثاني وختم به السورة .  
ذكر في بدء هذه السورة الأصل الثالث . وهو : تبين الرسالة (والكتاب) القرآن . قال الحوفي (تنزيل) مبتدأ . (ولا ريب)  
خبره . ويجوز أن يكون (تنزيل) خبر مبتدأ . أي : هذا المثلو تنزيل . أو هذه الحروف تنزيل . و(الم) بدل على الحروف . وقال  
«أبو البقاء» (الم) مبتدأ . و(تنزيل) خبره بمعنى : المنزل . و(لا ريب فيه) حال من الكتاب . والعامل فيه (تنزيل) و(من رب  
العالمين) متعلق بـ (تنزيل) أيضاً ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في (فيه) والعامل فيه الظرف . ويجوز أن يكون (تنزيل)

(١) انظر القرطبي ٥٧/١٤ وزاد المسير ٦/٣٣٢ .

(٢) انظر القرطبي ٥٧/١٤ وزاد المسير ٦/٣٣٢ .

مبتدأ و(لا ريب فيه) الخبر و(من رب العالمين) حال كما تقدم، ولا يجوز على هذا أن يتعلق به (تنزيل) لأن المصدر قد أخبر عنه. ويجوز أن يكون الخبر (من رب العالمين) و(لا ريب) حال من الكتاب وأن يكون خبراً بعد خبر. انتهى. والذي أختاره: أن يكون (تنزيل) مبتدأ و(لا ريب) اعتراض و(من رب العالمين) الخبر، وقال ابن عطية: (من رب العالمين) متعلق به (تنزيل) ففي الكلام تقديم وتأخير. ويجوز أن يتعلق بقوله (لا ريب) أي: لا شك من جهة الله تعالى وإن وقع شك الكفرة فذلك لا يراعى. والريب: الشك. وكذا هو في كل القرآن إلا قوله (ريب المنون) انتهى. وإذا كان (تنزيل) خبر مبتدأ محذوف وكانت الجملة اعتراضية بين ما افتقر إلى غيره وبينه لم نقل فيه إن فيه تقدماً وتأخيراً، بل لو تأخر لم يكن اعتراضاً. وأما كونه متعلقاً به (لا ريب) فليس بالجيد، لأن نفي الريب عنه مطلقاً هو المقصود، لأن المعنى لا مدخل للريب فيه إنه تنزيل الله! لأن موجب نفي الريب عنه موجود فيه، وهو الإعجاز، فهو أبعد شيء من الريب. وقولهم (افتراه) كلام جاهل لم يعن النظر أو جاحد مستيقن أنه من عند الله، فقال ذلك حسداً، أو حكماً من الله عليه بالضلال. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «والضمير في (فيه) راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك. أي: في كونه منزلاً من رب العالمين، ويشهد لوجهته قوله (أم يقولون افتراه) لأن قوهم: هذا مفترى إنكار لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله (بل هو الحق من ربك) وما فيه من تقدير أنه من الله. وهذا أسلوب صحيح محكم. أثبت أولاً أن تنزيله من رب العالمين، وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله (أم يقولون افتراه) لأن (أم) هي المقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة. إنكاراً لقولهم، وتعجباً منه، لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات، ثم أضرب عن الإنكار إلى الإثبات أنه الحق من ربك». انتهى. وهو كلام فيه تكثير، وقال «أبو عبيدة»: أم يكون معناه بل يقولون: فهو خروج من حديث إلى حديث. و(من ربك) في موضع الحال. أي: كائناً من عند ربك و(به) متعلق به (لتنذر) أو محذوف تقديره: أنزله لتنذر. والقوم: هنا قريش والعرب و(ما) نافية. و(من نذير) (من) زائدة. و(نذير) فاعل (أتاهم) أخبر تعالى أنه لم يبعث إليهم رسلاً بخصوصيتهم قبل محمد ﷺ لا لهم ولا لأبائهم، لكنهم كانوا متعبدين بجملة إبراهيم وإسماعيل وما زالوا على ذلك إلى أن غير ذلك بعض رؤسائهم وعبدوا الأصنام، وعم ذلك فهم مندرجون تحت قوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] أي: شريعته ودينه، والنذير ليس مخصوصاً بمن باشر، بل يكون نذيراً لمن باشره ولغير من باشره بالقرب ممن سبق لها نذير. ولم يباشرهم نذير غير محمد ﷺ وقال ابن عباس ومقاتل: «المعنى: لم يأتهم في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام»<sup>(٢)</sup>. وقال الزمخشري: (ما أتاهم من نذير من قبلك) كقوله ﴿ما أنذر آبائهم﴾ [يس: ٦] وذلك أن قريشاً لم يبعث الله إليهم رسلاً قبل محمد ﷺ (فإن قلت): فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة؟ (قلت) أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول فلا، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم، لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان». انتهى. والذي ذهب إليه غير ما ذهب إليه المفسرون، وذلك أنهم فهموا من قوله (ما أتاهم) و(ما أنذر آبائهم) أن (ما) نافية. وعندني أن (ما) موصولة. والمعنى: لتنذر قوماً العقاب الذي أتاهم (من نذير) متعلق به (أتاهم) أي: أتاهم على لسان نذير من قبلك وكذلك (لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم) أي: العقاب الذي أنذره آبائهم ف (ما) مفعولة في الموضعين، وأنذر يتعدى إلى اثنين قال تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة﴾ [فصلت: ١٣] وهذا القول جار على ظاهر القرآن. قال تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] و﴿إن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ [المائدة: ١٩] و﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: ١٥] و﴿وما كان ربك ليهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً﴾ [القصص: ٥٩] ولما حكى تعالى عنهم أنهم يقولون: إن محمداً ﷺ افتراه، ورد عليهم اقتصر في ذكر ما

(١) انظر الكشاف ٣/٥٠٦.

(٢) انظر القرطبي ١٤/١٩٧.



جاء به القرآن على الإنذار وإن كان قد جاء له وللتبشير، ليكون ذلك ردعاً لهم، ولأنه إذ ذكر الإنذار صار عند العاقل فكر فيما أنذر به، فلعل ذلك الفكر يكون سبباً لهديته، و(لعلهم يهتدون) ترجمة من رسول الله كما كان في قوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه: ٤٤] من موسى وهرون، قال الزمخشري (١): «وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة» انتهى. يعني: أنه عبر عن الإرادة بلفظ الترجي. ومعناه: إرادة اهتدائهم. وهذه نزعة اعتزالية، لأنه عندهم إن يرد هداية العبد فلا يقع ما يريد ويقع ما يريد العبد. تعالى الله عن ذلك، ولما بين تعالى أمر الرسالة ذكر ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد، وإقامة الدليل بذكر مبدأ العالم. وتقدم الكلام على ﴿في ستة أيام﴾ في الأعراف. [الأعراف: ٥٤]. (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع) أي: إذا جاوزتموه إلى سواء فاتخذتموه ناصراً وشفيعاً. (أفلا تتذكرون) موجد هذا العالم فتعبده وترفضوا ما سواه (يدبر الأمر) (الأمر) واحد الأمور. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك: «ينفذ الله قضاءه بجميع ما يشاؤه». (ثم يعرج إليه) أي: يصعد خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره أن لو سير فيه السير المعروف من البشر ألف سنة. لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام. وقال مجاهد أيضاً الضمير في (مقداره) عائد على التدبير. أي: كان مقدار التدبير المنقضي في يوم ألف سنة لو دبره البشر». وقال مجاهد أيضاً: «يدبر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عندنا وهو اليوم عنده، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها». فالعنى: أن الأمور تنفذ عنه لهذه المدة وتصير إليه آخراً، لأن عاقبة الأمور إليه. وقيل: المعنى: يدبره في الدنيا إلى أن تقوم الساعة، فينزل القضاء والقدر، ثم تعرج إليه يوم القيامة، ومقداره ما ذكر، ليحكم فيه من ذلك اليوم، حيث ينقطع أمر الأمراء أو أحكام الحكام، وينفرد بالأمر كل يوم من أيام الآخرة بألف سنة. وهو على الكفار، قدر: خمسين ألف سنة حسباً في سورة سأل سائل. وتأتي الأقوال فيه إن شاء الله تعالى، وقيل: ينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض ثم يرجع إلى ما كان من قبول الوحي أو ربه مع جبريل، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة، لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل، لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد. قال الزمخشري: «وبداية الأمر المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مديراً من السماء إلى الأرض ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريد ويرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة الأعمال لله، والخلوص من عباده، وقلّة الأعمال الصاعدة، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص. ودل عليه قوله على أثره ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ [الأعراف: ١٠]». انتهى. ويدبر أمر الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب. ومدارها في العالم من السماء إلى الأرض، لأنها على أهل الأرض تطلع إلى أن تغرب وترجع إلى موضعها من الطلوع (في يوم) مقداره في المسافة ألف سنة، والضمير في (إليه) عائد إلى السماء، لأنها تذكر. وقيل: إلى الله، وقال عبد الله بن سابط: «يدبر أمر الدنيا أربعة، جبريل للرياح والجنود، وميكائيل للقطر والماء. وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل لنزول الأمر عليهم». وقيل: العرش موضع التدبير وما دونه موضع التفصيل، وما دون السموات موضع التعريف. وقال السدي: الأمر الوحي. وقال مقاتل: القضاء وقال غيرهما: أمر الدنيا. قال الزجاج: تقول: «عرجت في السلم أعرج وعرج الرجل يعرج إذا صار أعرج». وقرأ ابن أبي عملة (يُعرج) مبنياً للمفعول. والجمهور مبنياً للفاعل، قال أبو عبد الله الرازي: «وفي هذا لطيفة، وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق وأشار إلى عظمة الملك وذكر هنا عالم الأرواح والأمر بقوله (يدبر الأمر) والروح من عالم الأمر كما قال (قل الروح من أمر ربي) وأشار إلى دوامه بلفظ يومهم الزمان. والمراد: دوام النفاذ كما يقال في العرف: طال زمان فلان. والزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة، فأشار إلى عظمة الملك بالمكان، وأشار إلى دوامه هنا بالزمان. والمكان من خلقه وملكه، والزمان يحكمه وأمره». انتهى. وهو كلام ليس جارياً على فهم العرب. وقرأ الجمهور (بما تعدون) بناء الخطاب، وقرأ السلمي وابن وثاب والأعمش والحسن بياء الغيبة بخلاف عن الحسن. وقرأ جناح بن حبيش

ثم تعرُّجُ الملائكةُ بزيادة الملائكة ولعله تفسير منه، لسقوطه في سواد المصحف. (ذلك) أي: ذلك الموصوف بالخلق والاستواء والتدبير (عالم الغيب) والغيب: الآخرة، (والشهادة) الدنيا، أو (الغيب) ما غاب عن المخلوقين. (والشهادة): ما شوهد من الأشياء. قولان. وقرأ زيد بن علي (عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) بخفض الأوصاف الثلاثة. وأبو زيد النحوي بخفض (العزيز الرحيم) وقرأ الجمهور برفع الثلاثة على أنها أخبار لذلك، أو الأول خبر والاثنان وصفان. ووجه الخفض أن يكون (ذلك) إشارة إلى الأمر وهو فاعل بـ (يعرج) أي: ثم يعرج إليه ذلك. أي: الأمر المدبر ويكون (عالم) وما بعده بدلاً من الضمير في (إليه) وفي قراءة ابن زيد (يكون ذلك عالم) مبتدأ وخبر و(العزيز الرحيم) بالخفض بدل من الضمير في (إليه) وقرأ الجمهور (خلقه) بفتح اللام فعلاً ماضياً صفة لـ (كل) أو لـ (شيء)، وقرأ العريبيان وابن كثير بسكون اللام. والظاهر: أنه بدل اشتغال والمبدل منه (كل) أي: أحسن خلق كل شيء. فالضمير في (خلقه) عائد على (كل) وقيل: الضمير في (خلقه) عائد على الله، فيكون انتصابه نصب المصدر المؤكد لمضمون الجملة. كقوله: ﴿صَبَغَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٨] وهو قول سيويه. أي: خلقه خلقاً، ورجح على بدل الاشتغال بأن فيه إضافة المصدر إلى الفاعل، وهو أكثر من إضافته إلى المفعول، وبأنه أبلغ في الامتنان، لأنه إذا قال (أحسن كل شيء) كان أبلغ من أحسن خلق كل شيء، لأنه قد يحسن الخلق، وهو المجاز له، ولا يكون الشيء في نفسه حسناً. فإذا قال (أحسن كل شيء) اقتضى أن كل شيء خلقه حسن. بمعنى: أنه وضع كل شيء في موضعه. انتهى. وقيل: في هذا الوجه وهو عود الضمير في (خلقه) على «الله» يكون بدلاً من (كل شيء) بدل شيء من شيء، وهما لعين واحدة ومعنى (أحسن) حسن، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة، فالمخلوقات كلها حسنة، وإن تفاوتت في الحسن وحسنها من جهة المقصد الذي أريد بها. ولهذا قال ابن عباس: «ليست القردة بحسنة ولكنها متقنة محكمة». وعلى قراءة من سكن لام (خلقه) قال مجاهد: «أعطى كل جنس شكله. والمعنى: خلق كل شيء على شكله الذي خصه به»، وقال الفراء: «ألم كل شيء خلقه فيما يحتاجون إليه كأنه أعلمهم ذلك فيكون كقوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: ٥] وقرأ الجمهور، (بدأ) بالهمز والزهري بالألف بدلاً من الهمزة، وليس بقياس إلى يقول: في هذا، بإبدال الهمزة ألفاً، بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين على أن الأحفش حكى في قرأت قرئت، ونظائره. وقيل: وهي لغية، والأنصار تقول: في بدأ بدي بكسر عين الكلمة وباء بعدها، وهي لغة لطي يقولون في فعل هذا نحو بقي بقاً فاحتمل أن تكون قراءة الزهري على هذه اللغة. أصله بدي، ثم صار بدأ، أو على لغة الأنصار، وقال ابن رواحة<sup>(١)</sup>.

بِاسْمِ إِلَهِ وَبِهِ بَدِينَا وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا<sup>(٢)</sup>

(وبدأ خلق الإنسان) هو آدم - عليه الصلاة والسلام - (ثم جعل نسله) أي: ذريته. نسل<sup>(٣)</sup> من الشيء: انفصل منه، (ثم سواء) قومُه. وأضاف الروح إلى ذاته، دلالة على أنه خلق عجب، لا يعلم حقيقته إلا هو. وهي إضافة ملك إلى مالك، وخلق إلى خالق تعالى (وجعل لكم) التفات إذ هو خروج من مفرد غائب إلى جمع مخاطب، ونعديد للنعم، وهي شاملة لآدم كما أن التسوية ونفخ الروح شامل له ولذريته. والظاهر: أن (وقالوا) الضمير لجمع، وقيل: القائل أبي بن خلف. وأسند إلى الجمع لرضاهم به. والناصب للظرف محذوف يدل عليه (أثنا) وما بعدها، تقديره: أنبعث أئذا ضللنا. ومن قرأ (إذا) بغير استفهام فجواب إذا محذوف أي: إذا ضللنا في الأرض نبعث. ويكون ذلك إخباراً منهم على طريق

(١) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأكبر الأنصاري الخزرجي توفي شهيداً بمؤنة رضي الله عنه. الخلاصة (٥٦/٢ - ٥٦).

(٢) من الرجز انظر البداية والنهاية (٩٧/٤) اللسان (بدا).

(٣) نسل: النسل: الخلق.

الاستهزاء. وكذلك من قرأ (إنّا) على الخبر. أكدوا ذلك الاستهزاء باستهزاء آخر. وقرأ الجمهور بفتح اللام والمضارع (يُضِلُّ) بكسر عين الكلمة، وهي اللغة الشهيرة الفصيحة وهي لغة نجد. قال مجاهد: «هلكنا وكل شيء غلب عليه غيره حتى تلف وخفي فقد هلك. وأصله: من ضل الماء في اللبن إذا ذهب». وقال قطرب: ضَلَلْنَا، غبنا في الأرض. وأنشد قول النابغة الذبياني:

فَأَب مُضِلُّوهُ بِعَيْنِ جَلِيَّةٍ وَعُودِرَ بِالْجَوْلَانِ حَزْمٌ وَنَائِلٌ<sup>(١)</sup>

وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء وطلحة وابن وثاب يكسر اللام والمضارع بفتحها، وهي لغة أبي العالية، وقرأ أبو حيوة (ضللنا) بالضاد المنقوطة وضمها وكسر اللام مشددة ورويت عن علي. وقرأ علي وابن عباس والحسن والأعمش وأبان بن سعيد بن العاص (ضَلَلْنَا) بالصاد المهملة وفتح اللام، ومعناه: أتنا، وعن الحسن (ضَلَلْنَا) بكسر اللام. يقال: ضَلَّ يَضِلُّ بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع وصل يَضِلُّ بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع وأَصْلٌ يَضِلُّ بالهمزة على وزن أَفْعَل، قال الشاعر:

تَلَجَلَجُ مُضْغَةً فِيهَا أَنْيْضُ أَصَلَّتْ فَهِيَ تَحْتَ الْكُشْحِ دَاءٌ<sup>(٢)</sup>

وقال الفراء: معناه: «صرنا بين الصلة وهي الأرض اليابسة الصلبة». وقال النحاس: «لا نعرف في اللغة ضللنا، ولكن يقال: أَصَلَّ اللحم وَصَلَّ وَأَحَمَّ وَحَمَّ إذا أنتن، وحكاه غيره (بل هم بقاء ربهم كافرون) جاحدون بقاء الله، والصورورة إلى جزائه، ثم أمره تعالى أن يخبرهم بجملة الحال غير مفصلة من قبض أرواحهم ثم عودهم إلى جزاء ربهم بالبعث. وملك الموت اسمه عزرائيل، ومعناه: عبد الله وقرأ الجمهور (تُرْجَعُونَ) مبنياً للمفعول وزيد بن علي مبنياً للفاعل (ولو ترى) الظاهر، أنه خطاب للرسول وقيل: له ولأتمته. أي: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب. وقال أبو العباس: «المعنى: يا محمد قل للمجرم: ولو ترى» رأى أن الجملة معطوفة على يتوفاكم، داخله تحت (قل) فلذلك لم يجعله خطاباً للرسول، والظاهر: أن (لو) هنا لم تشرب معنى التمني بل هي التي لما كان سيقع لوقوع غيره. والجواب محذوف، أي: لرأيت أسوأ حال يرى. (ولو) تعليق في الماضي. (وإذ) ظرف للماضي، فلتتحقق الإخبار ووقوعه قطعاً. أتى بها تنزيلاً منزلة الماضي. وقال الزمخشري: «يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله. وفيه وجهان، أحدهما: أن يراد به التمني. كأنه قيل: وليتك ترى. والتمني له كما كان الترجي له في (لعلهم يبتدون) لأنه تجرّع منهم الغصص، ومن عداوتهم، وضرارهم، فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء. والخزي والغم، ليشمت بهم، وأن تكون (لو) امتناعية وقد جوابها، وهو: لرأيت أمراً فظيعاً. ويجوز أن يخاطب به كل أحد كما تقول: فلان لثيم إن أكرمته أهانك، وإن أحسنت إليه أساء إليك. فلا يريد به مخاطباً بعينه وكأنك قلت: إن أكرم وإن أحسن إليه انتهى والتمني بـ (لو) في هذا الموضع بعيد. وتسمية (لو) امتناعية ليس بجيد، بل العبارة الصحيحة (لو) لما كان سيقع لوقوع غيره، وهي عبارة سيويه، وقوله: «قد حذف جوابها، وتقديره: وليتك ترى ما يدل على أنها كانت إذاً للتمني لا جواب لها. والصحيح: أنها إذا أشربت معنى التمني يكون لها جواب كحالتها إذا لم تشربه، قال الشاعر:

فَلَوْ نَيْشَ الْمَقَابِرُ عَنْ كَلَيْبٍ فَيُخْبِرَ بِالذَّنَائِبِ أَيُّ زِيرٍ

(١) من الطويل انظر ديوانه (١٢١) اللسان (ضلل).

(٢) البيت لزهير انظر ديوانه (٨٣) المحتسب (١٧٤/٢) الكامل (١٤/١).

## بِیَوْمِ الشُّعْثَمَيْنِ لَقَرَّ عَيْنَا وَكَيْفَ لِقَاءِ مَنْ تَحْتَ الْقُبُورِ<sup>(١)</sup>

وقال الزمخشري: «وقد تحيء (لو) في معنى التمني. كقولك: لو تأتيتني فتحدثني، كما تقول: ليتك تأتيتني فتحدثني. فقال ابن مالك: إن أراد به الحذف، أي: وددت لو تأتيتني فصحيح. وإن أراد أنها موضوعة للتمييز فغير صحيح، لأنها لو كانت موضوعة له ما جاز أن يجمع بينها وبين فعل التمني. لا يقال: تمنيت ليتك تفعل، ويجوز تمنيت لو تقوم. وكذلك امتنع الجمع بين لعل والترجي، وبين إلا واستثنى». انتهى (ناكسور ووسهم) مطلقاً ومفعولاً والجمهور اسم فاعل مضاف. (عند ربهم) أي: عند مجازاته. وهو مكان شدة الخجل، لأن المربوب إذا أساء ووقف بين يدي ربه كان في غاية الخجل. (ربنا) على إضمار يقولون. وقدره الزمخشري: يستغيثون بقولهم: ربنا أبصرنا ما كنا نكذب، وسمعنا ما كنا ننكر، وأبصرنا صدق وعدك ووعيدك، وسمعنا تصديق رسلك وكنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا، فارجعنا إلى الدنيا. (إنا موقنون) أي بالبعث. قال النقاش وقيل مصدقون بالذي قال الرسول قاله يحيى بن سلام و(موقنون) مشعر بالالتباس في الحال. أي: حين أبصرنا وسمعنا. وقيل: (موقنون) زالت الآن عنا الشكوك، ولم تكن في الدنيا نتدبر، وكنا كمن لا يبصر ولا يسمع. وقيل: لك الحجة ربنا قد أبصرنا رسلك، وعجائب في الدنيا، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا. وهذا اعتراف منهم.

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

(لآتينا كل نفس هداها) أي: اخترعنا الإيمان فيها كقوله: ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ [الرعد: ٣١] ولجمعهم على الهدى، ولجعل الناس أمة واحدة. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «على طريق الإلجاء والقسر ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار فاستحبوا العمى على الهدى فحقت كلمة العذاب على أهل العمى، دون أهل البصر. ألا ترى إلى

(١) البيان للمهلل انظر أمالي القالي (٤٧/١) الأشموني (٣٢/٤) المغني (١٢/٢) الأصمعيات (٥٤) الحماسة البصرية (٨٤/١).

(٢) انظر الكشاف ٥١٠/٣.

ما عقبه به من قوله (فذوقوا بما نسيتم)، فجعل ذوق العذاب، نتيجة فعلهم من نسيان العاقبة، وقلة الفكر فيها، وترك الاستعداد لها، والمراد بالنسيان خلاف التذكر. يعني: أن الانهالك في الشهوات أنهككم، وألهاكم عن تذكر العاقبة، وسلط عليكم نسيانها. ثم قال (إنا نسيناكم) على المقابلة. أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك. قاله ابن عباس وغيره. أي: تركتم الفكر في العاقبة فتركناكم من الرحمة. انتهى. وقوله: «على طريق الإلجاء والقسر». هو قول المعتزلة. وقالت الإمامية: يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكن حق القول منه أن يملا جهنم فلا يجب على الله هداية الكل إليها. قالوا: بل الواجب هداية المعصومين، فاما من له ذنب فجازر هدايته إلى النار، جزاء على أفعاله. وفي جواز ذلك منع لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان انتهى. (وهذا) صفة لـ (يومكم) ومفعول فذوقوا محذوف، أو مفعول: فذوقوا هذا العذاب بسبب نسيانكم لقاء يومكم هذا، وهو ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم، أو: ذوقوا العذاب المخلد في جهنم. وفي استئناف قوله (إنا نسيناكم) وبناء الفعل على إن واسمها. تشديد في الانتقام منهم. (إنما يؤمن بآياتنا) أثنى تعالى على المؤمنين في وصفهم بالصفة الحسنى من سجودهم عند التذكير، وتسيبهم، وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفرة من الإعراض عن التذكير، وقول الهجر، وإظهار التكبر. وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن. وقال ابن عباس: «السجود هنا بمعنى الركوع». وروي عن ابن جريج: «المسجد: مكان الركوع. يقصد من هذا ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية. ومن مذهب ابن عباس أن القارئ للسجدة يركع واستدل بقوله (فخر راکماً وأناب) (تتجافى جنوبهم) أي: ترتفع وتتحنى: يقال، جفا الرجل الموضع، تركه. قال عبد الله بن رواحة:

نَبِيٌّ تَجَافَى جَنْبَهُ عَن فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ<sup>(١)</sup>

وقال الزجاج والرماني: «التجافى التنحي إلى جهة فوق». والمضاجع: أماكن الاتكاء للنوم. الواحد «مضجع»، أي: هم منتبهون لا يعرفون نوماً. وقال الجمهور: المراد بهذا التجافى صلاة النوافل بالليل<sup>(٢)</sup> وهو قول الأوزاعي ومالك والحسن البصري وأبي العالية وغيرهم. وفي الحديث ذكر قيام الليل ثم استشهد بالآية يعني: الرسول. وقال أبو الدرداء وقتادة والضحاك: «تجافى الجنب: هو أن يصلي العشاء والصبح في جماعة». وقال الحسن: «هو التهجد. وقال أيضاً هو وعطاء: «هو العتمة». وفي الترمذي عن أنس: «نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة». وقال قتادة وعكرمة: «التنفل ما بين المغرب والعشاء». (يدعون) حال أو مستأنف (خوفاً وطمعاً) مفعول من أجله، أو مصدران في موضع الحال. والظاهر: أن الدعاء هو الابتهاج إلى الله. وقيل: «الصلاة»، وقرأ الجمهور (ما أخفى لهم) فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول. وحمزة والأعمش ويعقوب بسكون الباء فعلاً مضارعاً للمتكلم، ابن مسعود (وما نخفي) بنون العظمة. والأعمش أيضاً (أخفيت) وقرأ محمد بن كعب (ما أخفى) فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل، وقرأ الجمهور (من قرة) على الأفراد، وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعوف العقيلي (من قرأت) على الجمع بالألف والتاء. وهي رواية عن أبي جعفر والأعمش. (وما أخفى) يحتمل أن تكون مؤسولة، وأن تكون استفهامية. فيكون (تعلم) متعلقة، والجملة في موضع المفعول إن كان (تعلم) مما عدي لواحد، وفي موضع المفعولين إن كانت تتعدى لاثنتين. وتقدم تفسيره في «قرة عين» في طه. وفي الحديث قال النبي ﷺ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)» وقال ابن مسعود: «في التوراة مكتوب على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت». إلى آخره، (ولا تعلم نفس) نكرة في سياق النفي، فيعم جميع الأنفس مما أذخر الله تعالى

(١) من الطويل انظر الطبري (٦٤/٢٢) القرطبي (٦٧/١٤).

(٢) انظر القرطبي ٦٧/١٤ وزاد المسير ٦/٣٣٧، ٣٣٨.

لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه مما تقر به أعينهم لا يعلمه إلا هو. وهذه عدة عظيمة لا تبلغ الأفهام كنهها، بل ولا تفصيلها. وقال الحسن: «اخفوا اليوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، جزاء بما كانوا يعملون. وهو تعالى الموفق للعمل الصالح». وقال الزمخشري: «فحسم أطماع المتمنين». انتهى وهذه نزعة اعتزالية (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) قال ابن عباس وعطاء: «نزلت في علي والوليد بن عقبة تلاحما فقال له الوليد: أنا أدلتك منك لسناً، وأحد سناناً، وأرد للكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق»<sup>(١)</sup>. قال الزمخشري فنزلت عامة للمؤمنين والفاسيقين فتناولها، وكل من في مثل حالها، وقال الزجاج والنحاس: «نزلت في علي وعقبة بن أبي معيط، فعلى هذا تكون الآية مكية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة وإنما قتل بطريق مكة منصرف بدر والجمع في (لا يستون) والتقسيم بعده حمل على معنى (من) وقيل: لا يستون لاثنين وهو المؤمن والفاسق، والثنية جمع. وقال الزجاج: «ونزول الآية في علي والوليد ثم بين انتفاء الاستواء بمقر كل واحد منهما بالإفراد. والجمهور (جنات) بالجمع، وقيل: سميت بذلك، لما روي عن ابن عباس قال: «يأوى إليها أرواح الشهداء»، وقيل: «هي عن يمين العرش»، وقرأ الجمهور: «نُزلاً» بضم الزاي، وأبو حيوة بإسكانها. والنزل: عطاء النازل، ثم صار عاماً فيما يعد للضيف. (وأما الذين فسقوا) أي: بالكفر (فمأواهم النار) قال الزمخشري: «ويجوز أن يراد، فجنة مأواهم النار. أي النار لهم، مكان جنة المأوى للمؤمنين. كقوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ [التوبة: ٣٤] انتهى. وهذا فيه بعد، وإنما يذهب إلى مثل (فبشرهم) إذا كان مصرحاً به، فيقول: قام مقام التبشير العذاب، وكذلك قام مقام التحية ضرب وجيع. أما أن تضمر شيئاً لكلام مستغنى عنه جار على أحسن وجوه الفصاحة حتى يحمل الكلام على إضمار، فليس بجيد (والعذاب الأذن)، قال أبي وابن عباس والضحاك وابن زيد: «مصائب الدنيا في الأنفس والأموال»، وقال ابن مسعود والحسن بن علي: «هو القتل بالسيف نحو يوم بدر»، وقال مجاهد: «القتل والجوع لفريش»، وعنه: أنه عذاب القبر، وقال النخعي ومقاتل: «هو السنون التي أجاعهم الله فيها». وقال ابن عباس أيضاً: «هو الحدود»، وقال أبي أيضاً: هو «البطشة واللزام والدخان والعذاب الأكبر»، قال ابن عطية: «لا خلاف أنه عذاب الآخرة»، وفي التحرير: «وأكثرهم على أن العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة في النار». وقيل: «هو القتل والسبي والأسر»، وعن جعفر بن محمد: «أنه خروج المهدي بالسيف». (لعلهم يرجعون) قال ابن مسعود: «لعل من بقي منهم يتوب». وقال أبو العالية: «لعلهم يتوبون». وقال مقاتل: «يرجعون عن الكفر إلى الإيمان»، وقيل: «لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه لقوله: ﴿فارجعنا لعمل صالحاً﴾ [السجدة: ١٢] وسميت إرادة الرجوع رجوعاً، كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) انتهى. ويقابل الأدنى: الأبعد، والأكبر الأصغر، لكن الأدنى يتضمن الأصغر، لأنه منقضى بموت العذب، والتخويف إنما يصلح بما هو قريب وهو العذاب العاجل، والأكبر يتضمن الأبعد، لأنه واقع في الآخرة والتخويف بالبعيد إنما يصلح بذكر عظمه وشدته، فحصلت المقابلة من حيث التضامن، وخرج في كل منها بما هو أكد في التخويف. وقال الزمخشري: (فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة، ولعل من الله إرادة، وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يمتنع، وتوبتهم ما لا يكون. ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر. قلت: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمنع للاقتدار وخلص الداعي. وأما أفعال عباده فإما أن يريد بها وهم يختارون لها ومضطرون إليها بقسره وإلجائه: فإن أرادها وقدرها فحكمها حكم أفعاله. وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن تختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها، لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك، فلم يكن بعده دالاً على عجزك». انتهى. وهو على مذهب المعتزلة وقد ردّ عليهم أهل السنة وذلك مقرر في علم الكلام، (ومن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها). بخلاف المؤمنين إذا ذكروا بها خروا سجداً (ثم أعرض عنها) قال

الزخشي : « ثم للاستبعاد والمعنى » أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها، مستبعد في العقل والعادة. كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها. استبعاداً لتركه الانتهاز. ومنه ثم في بيت الشاعر :

وَلَا يَكْشِفُ الْغَمَّاءُ إِلَّا ابْنَ حُرَّةٍ      يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا<sup>(١)</sup>

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقظها واطلع على شدتها. انتهى . (من المجرمين) عام في كل من أجرم، فيندرج فيه بجهة الأولوية من كان أظلم ظالم. والإجرام هنا هو الكفر، وقال يزيد بن رفيع : « هي في أهل القدر ». وقرأ (إن المجرمين) إلى قوله (بقدر) وفي الحديث . « ثلاث من كن فيه فقد أجزم : من عقد لواء في غير حق، ومن عق والديه، ومن نصر ظالماً .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا مَعْرِبُ مَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ أُولَئِكَ يَهْدِيهِمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مَنِ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمَسُّونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَفَلَا يَسْمَعُونَ ۖ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِيهِم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَنزَلْنَاهُمْ يَوْمَئِذٍ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۖ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ۖ

لما قرر الأصول الثلاثة : الرسالة، وبدء الخلق، والمعاد. عاد إلى الأصل الذي بدأ به، وهو الرسالة التي ليست بدعاً في الرسالة، إذ قد سبق قبلك رسل، وذكر موسى - عليه السلام - لقرب زمانه والزمامن كان على دينه، ولم يذكر عيسى، لأن معظم شريعته مستفاد من التوراة، ولأن أتباع موسى لا يوافقون على نبوته، وأتباع عيسى متفقون على نبوة موسى . و(الكتاب) التوراة، وقرأ الحسن (في مرية) بضم الميم، والظاهر : أن الضمير عائد على موسى مضافاً إليه على طريق المفعول والفاعل محذوف ضمير الرسول . أي : من لقائك موسى . أي : في ليلة الإسراء . أي : شهادته حقيقة . وهو النبي الذي أوتي التوراة، وقد وصفه الرسول . فقال : آدم طوال جعد كأنه من رجال شنوءة حين رآه ليلة الإسراء . قاله أبو العالية وقتادة وجماعة من السلف . وقال المبرد : حين امتحن الزجاج هذه المسألة . وقيل : « عائد على الكتاب فيما مضاف إليه على طريق الفاعل والمفعول محذوف . أي : من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه إما بالعكس أي من لقاء موسى الكتاب وتلقيه وقيل يعود على الكتاب على تقدير مضمهر . أي : من لقاء مثله . أي : إنا آتيناك مثل ما آتينا موسى، ولقناك بمثل ما لقن من الوحي، فلا تك في شك من أنك لقنت مثله، ولقيت نظيره، ونحوه (من لقائه) قوله : ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ [النمل : ٦] وقال الحسن : يعود على ما تضمنته القول من الشدة والمحنة التي لقي موسى، وذلك أن إخباره بأنه آتى موسى الكتاب، كأنه قال : ولقد آتينا موسى هذا العبء الذي أنت بسبيله فلا تتمر<sup>(٢)</sup> أنك تلقي ما لقي هو من المحنة بالناس . انتهى . وهذا قول

(١) البيت لجعفر بن عليّة الحارثي انظر الحماسة البصرية (١٥٠/١) الكشاف (٥١٥/٣).

(٢) انظر لسان العرب (٤١٢٦/٦).

بعيد. وأبعد من هذا مَنْ جعله عائداً على ملك الموت الذي تقدم ذكره، والجملة اعتراضية. وقيل: عائد على الرجوع إلى الآخرة. وفي الكلام تقديم وتأخير. والتقدير: ثم إلى ربكم ترجعون. فلا تكن في مرية من لقائه. أي: من لقاء البعث. وهذه أنفال كان ينبغي أن ينزه كتابنا عن نقلها، ولكن نقلها المفسرون فاتبعناهم. والضمير في (وجعلناه) لموسى. وهو قول قتادة. وقيل: للكتاب جعله هادياً من الضلالة. وخص بني إسرائيل بالذكر (لأنه لم يتبع بما فيها ولد إسماعيل، وجعلنا منهم) أي: من بني إسرائيل أئمة قادة يقتدى بهم، وقرأ الجمهور (لَمَّا صَبَرُوا) بفتح اللام وشد الميم وعبد الله وطلحة والأعمش وحمة والكسائي ورويس بكسر اللام وتخفيف الميم. (وكانوا) مجتملاً أن يكون معطوفاً على (صبروا) فيكون داخلاً في التعليق. ويحتمل أن يكون عطفاً على (وجعلنا منهم) وقرأ عبد الله أيضاً (بما صبروا) بياء الجر. والضمير في (منهم) ظاهره يعود على بني إسرائيل. والفصل يوم القيامة يعم الخلق كلهم. (أو لم يهد لهم) تقدم الكلام على نحو هذه الآية إعراباً وقراءةً وتفسيراً في طه إلا أن هنا (من قبلهم) و(القوم يسمعون) وهناك (قبلهم) و(لأولي النهي) وسمعون والنهي من الفواصل. (أو لم يروا أنا نسوق الماء) أقام تعالى الحجة على الكفرة بالأمم السالفة، الذين كفروا فأهلكوا، ثم أقامها عليهم بإظهار قدرته، وتنبههم على البعث، وتقدم تفسير الجرُّز في الكهف. وكل أرض جرُّز: داخلة في هذا فلا تخصيص لها بمكان معين. وقال ابن عباس: «هي أرض آيين من اليمن، وهي أرض تشرب بسبول لا تمطر»<sup>(١)</sup>، وقرئ (الجرُّز) بسكون الراء. (فنخرج به) أي: بالماء. وخص الزرع بالذكر وإن كان يخرج الله به أنواعاً كثيرة من الفواكه، والبقول، والعشب المنتفع به في الطب وغيره، تشريفاً للورع، ولأنه أعظم ما يقصد من النبات. وأوقع الزرع موقع النبات. وقدمت الأنعام، لأن ما ينبت يأكله الأنعام أول فأول من قبل أن يأكل بنو آدم الحب. ألا ترى أن القصيل وهو شعير يزرع تأكله الأنعام قبل أن يسبل والبرسيم، والفصفاة، وأمثال ذلك تبادلته الأنعام بالأكل قبل أن يأكل بنو آدم حب الزرع، أو لأنه غذاء الدواب والإنسان قد يتغذى بغيره من حيوان وغيره. أو بدأ بالأدن ثم ترقى إلى الأشرف وهم بنو آدم. وقرأ أبو حنيفة وأبو بكر في رواية (يَأْكُلُ) بالياء من أسفل. وقرأ الجمهور (يُصِرُونَ) بياء الغيبة، وابن مسعود بياء الخطاب وجاءت الفاصلة: (أفلا يبصرون) لأن ما سبق مرثي. وفي الآية قبله مسموع فناسب (أفلا يسمعون) ثم أخبر تعالى عن الكفرة باستعجال فصل القضاء بينهم وبين الرسول على معنى الهزء والتكذيب. و(الفتح) الحكم، قاله الجمهور. وهو الذي يترتب عليه قوله (قل يوم الفتح) الخ ويضعف قول الحسن ومجاهد فتح مكة، لعدم مطابقته لما بعده، لأن من آمن يوم فتح مكة إيمانه ينفعه. وكذا قول من قال: يوم بدر (ولا هم ينظرون) أي: لا يؤخرون عن العذاب. ولما عرف غرضهم في سؤالهم على سبيل الهزء، وقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا، فكان قد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتم في حلول العذاب، فلم تنظروا فـ (يوم) منصوب بـ (لا ينفع) ثم أمر بالإعراض عنهم، وانتظار النصر عليهم، والظفر بهم. (إنهم منتظرون) للغلبة عليكم لقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾<sup>(٢)</sup> إنا معكم متربصون ﴿التوبة: ٥٢﴾ وقيل (إنهم منتظرون) العذاب. أي: هذا حكمهم وإن كانوا لا يشعرون. وقرأ الياني (مُنْتَظِرُونَ) بفتح الطاء اسم مفعول. والجمهور بكسرها اسم فاعل. أي: منتظر هلاكهم فإنهم أحقاء، أن ينتظر هلاكهم. يعني: أنهم هالكون لا محالة، أو وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه.

(١) انظر القرطبي ٧٤/١٤.

(٢) التريص: الانتظار والمكث.



سُورَةُ الْأَنْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّى اللَّهُ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝<sup>١</sup> وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ  
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝<sup>٢</sup> وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝<sup>٣</sup> مَا جَعَلَ  
اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلْسِنَىٰ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ  
أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝<sup>٤</sup> ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ  
أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا  
أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝<sup>٥</sup> النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ  
أَنْفُسِهِمْ ۚ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ  
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝<sup>٦</sup> وَإِذْ  
أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا  
۝<sup>٧</sup> لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝<sup>٨</sup> يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ  
عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝<sup>٩</sup> إِذْ  
جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ  
الطُّغْيَانًا ۝<sup>١٠</sup> هَٰذَا الَّذِي بَدَأُوا كَفَرًا تَتَوَخَّوْنَ بِالْحَمْرِ الْبُرْجَانَ ۚ وَإِذْ يَخْتَلِفُ أَلْسِنَتُهُمْ فِي الْقَوْلِ لَعِيْنًا  
وَيَسْتَعِزُّونَ بِالْحَمْرِ الْبُرْجَانَ ۚ وَإِذْ يَخْتَلِفُ أَلْسِنَتُهُمْ فِي الْقَوْلِ لَعِيْنًا ۚ وَإِذْ يَخْتَلِفُ أَلْسِنَتُهُمْ فِي الْقَوْلِ لَعِيْنًا  
مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝<sup>١١</sup> وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا  
وَيَسْتَعْزِمُونَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝<sup>١٢</sup> وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ  
مِّنْ أَمْرٍ هَٰئِمٌ سَأَلُوا بِأَلْسِنَتِهِمُ الْفِتْنَةَ لَآتَوهُمَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝<sup>١٣</sup> وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا

يُولُونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ نَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمُنُّونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مَنِ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْوَاهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَافُوًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّمُوا النَّبِيَّ قُلْ لَا زُوجَ لَكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّنَهَا فَفَعَالِينَ أُمْتِعْكُمْ وَأَسْرِخْكُمْ سَرَحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَلْبَسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَدَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَلْبَسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشْتَلِي فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ إِيْدَتِ

اللَّهُ وَالْحِكْمَةَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ  
 وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِئِينَ وَالْقَانِئَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِرِينَ وَالصَّادِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ  
 وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ  
 وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥ وَمَا  
 كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ  
 ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ٣٦ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي  
 فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ  
 لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزُوجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ٣٧ مَا كَانَ  
 عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ٣٨  
 الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ٣٩ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا  
 أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٤٠ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا  
 أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ  
 الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ٤٤  
 يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ٤٦ وَبَشِّرِ  
 الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ اللَّهُ فَضْلًا كَثِيرًا ٤٧ وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ  
 وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ٤٨ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ  
 تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَيِّتُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ٤٩ يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ إِنْ آتَى  
 أَحَدًا مِنْكُمْ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ  
 عَمَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيُّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ  
 عَمَلْتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ النَّبِيُّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ آتَى النَّبِيِّ  
 النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا  
 مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٠ تَرْجَى مِنْ نِسَاءِ  
 مِتْنَهُنَّ وَتُؤَوَّى إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءِ مَنْ أَبْنَعْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَمَهُنَّ وَلَا

يَحْزَنُ وَيَرْضَى بِمَا آيَاتُهُنَّ كُتِبَتْ لَهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مَنْ أَنْزَلَتْ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ

لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِيءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِيءُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٧﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا إِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ رَبَّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٦١﴾

الجوف: معروف، وجمعه اجواف. يثرب: مدينة الرسول - عليه السلام - وقيل: أرض المدينة في ناحية منها. الحنجرة، رأس الغلصمة<sup>(١)</sup>، وهي منتهى الخلقوم، والخلقوم: مدخل الطعام والشراب. الأقطار: النواحي، واحدا قطر. ويقال: قُتِرَ بالثناء لغة فيه، عَوَّقَ عن كذا: تَبَطَّ عنه، سَلَقَهُ، اجْتَرَأَ عليه وضربه، ويقال: صلقة بالصاد، قال الشاعر:

فَصَلَقْنَا فِي مُرَادٍ صَلَقَةً وَصَدَائِهِ لِحَقَّتْهُمْ بِالسَّلَلِ

وقيل: سلقه: خاطبه مخاطبة بليغة ومنه خطيب سلاق وسلاق، ولسان سلاق وسلاق. السحب: النذر. والشيء الذي لا يلتزمه الإنسان ويعتقد الوفاء به، قال الشاعر:

عَشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثُونَ بُعِيدَ مَا قَضَى نَجْبَهُ فِي مَلْتَقَى الْقَوْمِ هَزْبَرًا<sup>(٢)</sup>

وقال جرير:

(١) الغلصمة: رأس الخلقوم. والجمع غلاصم.

لسان العرب (٣٢٨١/٥)

(٢) من الطويل لذي الرمة انظر شرح المفصل لابن بعيش (٢٤/٣) المجمع (٥١/٢) القرطبي (١٠٥/١٤) روح المعاني (١٧٠/٢٠).

بَطْخَفَةَ جَالِدْنَا الْمُلُوكَ وَخَيْلُنَا عَشِيَّةَ بَسْطَامٍ جَرَيْنَ عَلَى نَحْبٍ<sup>(١)</sup>

أي : على أمر عظيم . التزم القيام به ، وقد يسمى الموت نجباً . الصياصي : الحصون . واحداً صيصية ، وهي : كل ما يمتنع به ، ويقال : لقرن الصور ، والظبي ولشوكه الديك وهي : مخبله الذي في ساقه ، لأنه يتحصن به ، والصياصي أيضاً : شوك الحاكة ويتخذ من حديد . ومنه قول دريد بن الصمة :

كَوْعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُدْمَدِ<sup>(٢)</sup>

الأسوة : القدوة . وتضم همزته وتكسر ويتأسي بفلان يقتدى به . والأسوة من الانتساء كالقدوة من الاقتداء . اسم وضع موضع المصدر . التبرج (٣) : قال الليث : « تبرجت : أبدت محاسنها من وجهها وجسدها ويرى مع ذلك من عينها حسن نظره » . وقال أبو عبيدة : تخرج محاسنها عما تستدعي به شهوة الرجال ، وأصله من البرج في عينه ، وفي أسنانه برج . أي : سعة الوطر ، قال أبو عبيدة : « كالأرب وأنشد للربيع بن أصبغ :

وَدَعْنَا قَبْلَ أَنْ نُسَوِّدَّعُهُ لَمَّا قَضَى مِنْ شَبَابِنَا وَطَرًا<sup>(٤)</sup>

وقال المبرد : « الوطر<sup>(٥)</sup> : الشهوة والمحبة . يقال : مما قضيت من لقاءك وطراً . أي : ما استمتعت بك حتى تشتهي نفسي » . وأنشد :

وَكَيْفَ نَوَائِي بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ مَا قَضَى وَطَرًا مِنْهَا جَمِيلٌ بِنُ مَعْمَرٍ<sup>(٦)</sup>

الجلباب : ثوب أكبر من الخمار .

« يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى

(١) انظر ديوانه (٨٢) مجاز القرآن (١٣٥/٢) القرطبي (١٠٥/١٤) روح المعاني (١٧٠/٢١) .

(٢) انظر اللسان (٢٥٣٦/٤) .

(٣) من الطويل انظر الأصمعيات (١٠٩) مجاز القرآن (١٣٦/٢) اللسان (نوش) ، روح المعاني (١٧٥/٢١) .

(٤) انظر اللسان (٢٤٣/١) (برج) .

(٥) البيت للربيع بن ضبيح الفزاري انظر نوادر أبي زيد (١٥٩) والطبري (١٠/٢٢) ، المعمرين رقم (٦) المحتسب (١٦٧/١) مجاز القرآن

(١٣٨/٢) روح المعاني (٢٥/٢٢) .

(٦) الوطر : كل حاجة كان لصاحبها فيها هم ، فهي وَطْرُهُ ، وجمع الوطر أوطار ومنها قوله تعالى « ولما قضى زيد منها وطراً » قال الزجاج : الوطر والأزب بمعنى واحد . ولا يبنى منه فعل .

لسان العرب (٤٨٦٦/٦)

(٧) البيت في روح المعاني (٢٥/٢٢) وانظر الكامل (٥٠/٢) .

بعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك في الكتاب مسطوراً وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً.

هذه السورة مدنية<sup>(١)</sup>. وتقدم أن ندائه - ﷺ - (يا أيها النبي) (يا أيها الرسول) هو على سبيل التثنية والتكرمة، والتثنية بمحلها وفضيلته، وجاء نداء غيره باسمه كقوله (يا آدم) (يا نوح) (يا إبراهيم) (يا موسى) (يا داود) (يا عيسى) وحيث ذكره على سبيل الإخبار عنه بأنه رسوله ولفظهم أن يسموه بذلك، وحيث لم يقصد الإعلام بذلك جاء اسمه كما جاء في رسول ﴿[آل عمران: ١٤٤] أعلم أنه رسوله ولفظهم أن يسموه بذلك، وحيث لم يقصد الإعلام بذلك جاء اسمه كما جاء في النداء ﴿[لقد جاءكم رسول من أنفسكم]﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿[وقال الرسول يا رب]﴾ [الفرقان: ٣٠] ﴿[النبي أولى بالمؤمنين]﴾ [الأحزاب: ٦] وغير ذلك من الآي، وأمره بالتقوى للمتلبس بها أمر بالديمومة عليها والازدياد منها، والظاهر أنه أمر للنبي، وإذا كان هو مأموراً بذلك فغيره أولى بالأمر، وقيل: هو خطاب له لفظاً، وهو لأتمته، وروي: أنه لما قدم المدينة وكان يجب إسلام اليهود فبايعه ناس منهم على النفاق، وكان يلين لهم جانبه، وكانوا يظهرون النواصح في طرق المخادعة ولحفه وحرصه على ائتلافهم ربما كان يسمع منهم، فنزلت تحذيراً له منهم وتنبهاً على عداوتهم، وروي أيضاً: أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا في المواقعة التي كانت بينهم وبينه، وقام عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا له: ارفض ذكر آهتنا وقل إنها تشفع وتنفع. وندعك وربك، فشق ذلك عليه وعلى المؤمنين، وهُموا بقتلهم فنزلت<sup>(٢)</sup>. وناسب أن نهاء عن طاعة «الكفار» وهم المتظاهرون به، وعن طاعة المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر، فالسببان حاويان الطائفتين أي ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك، وروي أن أهل مكة دعوه إلى أن يرجع إلى دينهم ويعطوه شطر أموالهم ويزوجه «شبية بن ربيعة» بنته، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع. فنزلت.

ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة وهو: أنه حكى أنهم يستعجلون الفتح وهو الفصل بينهم، وأخبر تعالى أنه يوم الفتح لا ينفعهم إيمانهم، فأمره في أول هذه السورة بتقوى الله، ونهاه عن طاعة الكفار والمنافقين فيما أرادوا به (إن الله كان عليماً حكيماً) (عليماً) بالصواب من الخطأ، والمصلحة من المفسدة (حكيماً) لا يضع الأشياء إلا مواضعها، منوطة بالحكمة. أو (عليماً) حيث أمر بتقواه وأنها تكون عن صميم القلب (حكيماً) حيث نهى عن طاعة الكفار والمنافقين، وقيل: هي تسلية للرسول أي (عليماً) بمن يتقي. (حكيماً) في هدى من شاء وإضلال من شاء، ثم أمره باتباع ما أوحى إليه وهو القرآن والاعتصام عليه وترك مراسيم الجاهلية، وقرأ أبو عمرو (بما يعملون) الأولى والثانية بياء الغيبة، وباقي السبعة بئاء الخطاب، فجاز في الأولى أن يكون من باب الالتفات، وجاز أن يكون مناسباً لقوله (واتبع). ثم أمره بتفويض أمره إلى الله. وتقدم الكلام في (كفى بالله) في أول ما وقع في القرآن، روي أنه كان في بني فهر رجل فيهم يقال له أبو معمر جميل بن أسد وقيل «حميد بن معمر بن حبيب بن وهب بن حارثة بن جمح» وفيه يقول الشاعر:

وَكَيْفَ ثَوَائِي بِالْمَدِينَةِ بَعْدَمَا قَضَى وَطَرًا مِنْهَا جَمِيلٌ بِنُّ مَعْمَرٍ<sup>(٣)</sup>

(١) انظر زاد المسير ٦/٣٤٧ والقرطبي ١٤/٧٦.

(٢) انظر القرطبي ١٤/٧٧ وزاد المسير ٦/٣٤٧، ٣٤٨.

(٣) تقدم قريباً.

يَدْعِي أَنْ لَهُ قَلْبَيْنِ، وَيُقَالُ لَهُ «ذُو الْقَلْبَيْنِ»، وَكَانَ يَقُولُ أَنَا أَذْكَى مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَفْهَمُ، فَلَمَّا بَلَغَتْهُ هَزِيمَةُ بَدْرِ طَاشَ لَبُهُ وَحَدَّثَ «أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ» بِحَدِيثِ كَالْمَخْتَلِ.. فَنَزَلَتْ<sup>(١)</sup>، وَقَالَ الْحَسَنُ: هُمْ جَمَاعَةٌ يَقُولُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ: نَفْسٌ تَأْمُرُنِي وَنَفْسٌ تَنْهَانِي، وَقِيلَ: إِنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَهُ قَلْبَانِ، لِأَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ فِي شَيْءٍ فَنَزَعَ فِي غَيْرِهِ نَزْعَةً ثُمَّ عَادَ إِلَى شَأْنِهِ، فَنفَى اللهُ ذَلِكَ عَنْهُ وَعَنْ كُلِّ أَحَدٍ.

قيل: وجه نظم هذه الآية بما قبلها، أنه تعالى لما أمر بالتقوى كان من حقها أن لا يكون في القلب تقوى غير الله، فإن المرء ليس له قلبان يتقي بأحدهما الله وبالأخر غيره، وهو لا يتقي غيره إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره، ولا يليق ذلك بمن يتقي الله حق تقاته. انتهى ملخصاً. ولم يجعل الله للإنسان قلبين، لأنه إما أن يفعل أحدهما مثل ما يفعل الآخر من أفعال القلوب فلا حاجة إلى أحدهما أو غيره، فيؤدي إلى اتصاف الإنسان بكونه مريداً كارهاً، عالماً، ظاناً، شاكاً، موثقاً، في حال واحدة وذكر الجوف وإن كان من المعلوم أن القلب لا يكون إلا بالجوف زيادة للتصوير والتجلي للمدلول عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فإذا سمع بذلك صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين يسرع إلى إنكار ذلك (وما جعل أزواجكم) لم يجعل تعالى الزوجة المظاهر منها أمماً، لأن الأم مخدومة مخفوض لها جناح الذل، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره. كالمملوك، وهما حالتان متناقضتان، وقرأ قالون وقنبل (اللاتي) هنا وفي المجادلة والطلاق بالهمز من غير ياء، وورش بياء مختلصة الكسرة، والبزي وأبو عمرو بياء ساكنة بدلاً من الهمزة، وهو بدل مسموع لا مقيس، وهي لغة قريش، وباقي السبعة بالهمز وياء بعدها، وقرأ عاصم (تظاهرون) بالتاء للخطاب وفي المجادلة بالياء للغمية مضارع ظاهر، وبشد الظاء والهاء الجرمان وأبو عمرو، وبشد الظاء وألف بعدها ابن عامر، ويتخفيفها والألف حمزة والكسائي، ووافق ابن عامر الآخرين في المجادلة وباقي السبعة فيها بشدها، وقرأ ابن وثاب فيما نقل ابن عطية بضم الياء وسكون الظاء وكسر الهاء مضارع أظهر وفيما حكى أبو بكر الرازي عنه بتخفيف الظاء لخذفهم تاء المطاوعة وشدّ الهاء، وقرأ الحسن (تُظَهَّرُونَ) بضم التاء وتخفيف الظاء وشدّ الهاء مضارع ظَهَّرَ مشدد الهاء، وقرأ هرون عن أبي عمرو (تُظَهَّرُونَ) بفتح التاء والهاء وسكون الظاء مضارع ظهر مخفف الهاء، وفي مصحف أبي (تتظهِرون) بتاءين، فتلك تسع قراءات. والمعنى: قال لها «أنت عليّ كظهر أُمِّي»، فتلك الأفعال مأخوذة من هذا اللفظ كقوله «لبي المحرم» إذا قال لبيك، و«أفّف» إذا قال «أف»، وعدي الفعل بمن لأن الظاهر كان طلاقاً في الجاهلية، فيتجنبون المظاهر منها، كما يتجنبون المطلقة، والمعنى أنه تباعد منها بجهة الظهار وغيره أي من امرأته لما ضمن معنى التباعد عدى بمن، وكنا عن البطن بالظهر إبعاداً لما يقارب الفرج، ولكونهم كانوا يقولون يجرم إتيان المرأة وظهرها للسوء، وأهل المدينة يقولون بجيء الولد إذا ذاك أحول، فبالغوا في التغليب في تحريم الزوجة فشبها بالظهر، ثم بالغ فجعلها كظهر أمه، وروي أن «زيد بن حارثة» من كلب سبي صغيراً، فاشتره حكيم بن حزام لعتمته خديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ، وجاء أبوه وعمه بفدائه، وذلك قبل بعثة رسول الله فاعتقه، وكانوا يقولون «زيد بن محمد» فنزلت<sup>(٢)</sup> (وما جعل أديعاءكم أبناءكم) الآية. وكانوا في الجاهلية وصدر الإسلام إذا تبني الرجل ولد غيره صار يرثه، و«أديعاء» جمع دَعِيَ فاعيل بمعنى مفعول جاء شاداً، وقياسه فعلى كجريح وجرحى، وإنما هذا الجمع قياس فاعيل المعتل اللام بمعنى فاعل نحو تقي وأتقياء، شبها أديعاء بتقي فجمعوه جمعاً شذوذاً، كما شذوا في جمع أسير وقتيل فقالوا أسراء وقتلاء، وقد سمع المقيس فيها فقالوا أسرى وقتلى. والبنوة تقتضي التأصل في النسب، والدعوة للصاق عارض بالتسمية، فلا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل (ذلكم) أي دعاؤهم أبناء مجرد قول لا حقيقة لمدلوله، إذ لا يواطىء اللفظ الاعتقاد إذ يعلم حقيقة أنه ليس ابنه (والله يقول الحق) أي ما يوافق

(١) انظر زاد المسير ٦/٣٤٨ - ٣٥٠ والقرطبي ٧٨/١٤، ٧٩ وابن كثير ٣/٤٦٦.

(٢) انظر زاد المسير ٦/٣٥١، ٣٥٢ وابن كثير ٣/٤٦٨ والقرطبي ٧٩/١٤، ٨٠.

ظاهراً وباطناً (وهو يهدي السبيل) أي سبيل الحق وهو قوله (ادعوهم لأبائهم)، أو سبيل الشرع والإيمان، وقرأ الجمهور (يهدي) مضارع هدى، وفتادة بضم الياء وفتح الهاء وشد الدال. (وأقسط) أفعال التفضيل، وتقدم الكلام فيه في أواخر البقرة. ومعناه أعدل. ولما أمر بأن يدعى المتبني لأبيه إن علم قالوا «زيد بن حارثة» (ومواليكم) ولذلك قالوا «سالم» مولى «أبي حذيفة»، وذكر الطبري أن أبا بكره قرأ هذه الآية ثم قال: أنا ممن لا يعرف أبوه، فأنا أخوكم في الدين ومولاكم، قال الرازي: ولو علم والله أباه حماراً لانتفى إليه، ورجال الحديث يقولون فيه «نفع بن الحارث» وفي الحديث «من ادعى إلى غير أبيه متعمداً حرم الله عليه الجنة» (فما أخطأتم به) قيل: رفع الحرج عنهم فيما كان قبل النهي، وهذا ضعيف لا يوصف بالخطأ ما كان قبل النهي. وقيل: فيما سبق إليه اللسان. أما على سبيل الغلط إن كان سبق ذلك إليهم قبل النهي فجرى ذلك على ألسنتهم غلطاً، أو على سبيل التحنن والشفقة، إذ كثيراً ما يقول الإنسان للصغير «يا بني»، كما يقول للكبير «يا أبي» على سبيل التوقير والتعظيم، و(ما) عطف على (ما أخطأتم) أي: ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم، وأجيز أن تكون (ما) في موضع رفع بالابتداء، أي ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح، (وكان الله غفوراً) للعامل إذا تاب (رحيماً) حيث رفع الجناح عن المخطئ. وكونه عليه السلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم أي: أرف بهم وأعطف عليهم إذ هو يدعوهم إلى النجاة وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، ومنه قوله عليه السلام «أنا أخذ بحجزكم<sup>(١)</sup> عن النار وأنتم تقتحمون فيها تقحم الفراش» ومن حيث ينزل لهم منزلة الأب، وكذلك في مصحف أبي، وقراءة عبد الله (وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) يعني في الدين، وقال مجاهد: كل نبي أبو أمته، وقد قيل في قول لوط عليه السلام «هؤلاء بناتي» [الحجر: ٧١] أنه أراد المؤمنات أي بناته في الدين، ولذلك جاء (إنما المؤمنون أخوة) أي في الدين، وعنه عليه السلام «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، وأقربوا إن شئتم» النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» [الحجرات: ١٠] فأما مؤمن هلك وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ» قيل: وأطلق في قوله تعالى (أولى بالمؤمنين) أي في كل شيء ولم يقيد، فيجب أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقوقه أثر إلى غير ذلك مما يجب عليهم في حقه. انتهى.

ولو أريد هذا المعنى لكان التركيب «المؤمنون أولى بالنبي منهم بأنفسهم وأزواجه أمهاتهم» أي مثل أمهاتهم في التوقير والاحترام وفي بعض الأحكام من تحريم نكاحهن، وغير ذلك مما جرى فيه مجرى الأجانب، وظاهر قوله (وأزواجه) كل من أطلق عليها أنها زوجة له عليه السلام من طلقها ومن لم يطلقها. وقيل: لا يثبت هذا الحكم المطلقة. وقيل: من دخل بها ثبتت حرمتها قطعاً وهم «عمر» برّجُم امرأة فارقتها رسول الله ﷺ ونكحت بعده، فقالت له: ولم هذا وما ضرب علي حجاً، ولا سميت للمسلمين أمّاً فكف عنها، كان أولاً بالمدينة توارث بأخوة الإسلام بالهجرة، ثم حكم تعالى بأن أولى الأرحام أحق بالتوارث من الأخ في الإسلام أو بالهجرة (في كتاب الله) أي في اللوح المحفوظ، أو في القرآن (من المؤمنين والمهاجرين) أي أولى من المؤمنين الذين كانوا يتوارثون بمجرد الإيمان ومن المهاجرين الذين كانوا يتوارثون بالهجرة، وهذا هو الظاهر، فيكون (من) هنا كهي في «زيد أفضل من عمرو»، وقال الزحشري<sup>(٢)</sup>: يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام أي الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب انتهى. والظاهر عموم قوله (إلى أوليائكم) فيشمل جميع أقسامه من قريب وأجنبي مؤمن وكافر يحسن إليه ويصله في حياته ويوصي له عند الموت، قاله فتادة والحسن وعطاء وابن الحنفية، وقال مجاهد وابن زيد والرماني وغيره: (إلى أوليائكم) مخصوص بالمؤمنين، وسياق ما تقدم في المؤمنين يعضد هذا، لكن ولاية النسب لا تدفع في الكافر إنما تدفع في أن تلقي إليه بالمودة كولي الإسلام، وهذا الاستثناء في قوله (إلا أن تفعلوا) هو مما يفهم من

(١) وقيل: حُجْزَةُ الإنسان معقد السراويل والإزار.

لسان العرب (٢/٧٨٦)

(٢) انظر الكشف ٣/٥٢٣.



الكلام أي (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) في النفع بميراث وغيره، وعدي بيلي لأن المعنى «إلا أن توصلوا إلى أوليائكم». (كان ذلك) إشارة إلى ما في الآيتين، (في الكتاب) إما اللوح. وإما القرآن على ما تقدم، (مسطوراً) (١) أي مثبتاً بالأسطر، وهذه الجملة مستأنفة كالحاتمة لما ذكر من الأحكام.

ولما كان ما سبق أحكام عن الله تعالى، وكان فيها أشياء مما كانت في الجاهلية وأشياء في الإسلام نسخت، أتبعه بقوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) أي في تبليغ الشرائع والدعاء إلى الله، فلست بدعاً في تبليغك عن الله، والعامل في (إذ) قال الحوفي وابن عطية: يجوز أن يكون (مسطوراً) أي مسطوراً في أم الكتاب، وحين أخذنا. وقيل العامل واذكر حين أخذنا. وهذا الميثاق هو في تبليغ رسالات الله، والدعاء إلى الإيمان، ولا يمنهم من ذلك مانع لا من خوف ولا طمع، قال الكلبي: أخذ ميثاقهم بالتبليغ، وقال قتادة: بتصديق بعضهم بعضاً، والإعلان بأن محمداً رسول الله، وإعلان رسول الله أن لا نبي بعده، وقال «الزجاج» وغيره: الذي أخذ عليهم وقت استخراج البشر من صلب آدم كالذر، قالوا فأخذ الله حينئذ ميثاق النبيين بالتبليغ، وتصديق بعضهم بعضاً، وجميع ما تضمنته النبوة، وروي نحوه عن أبي بن كعب.

وخص هؤلاء الخمسة بالذكر بعد دخولهم في جملة النبيين وقيل: هم أولو العزم، لشرفهم وفضلهم على غيرهم، وقدم محمد ﷺ لكونه أفضل منهم وأكثرهم أتباعاً، وقدم نوح في آية الشورى في قوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ [الشورى: ١٣] الآية لأن إيراده على خلاف الإيراد، فهناك أوردته على طريق وصف دين الإسلام بالأصالة، فكأنه قال «شرع لكم الدين الأصيل الذي بُعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير». والميثاق الثاني هو الأول، وكرر لأجل صفته والغلظ من صفة الأجسام، واستعير للمعنى مبالغاً في حرمة وعظمته وثقل فرط تحمله. وقيل: «الميثاق الغليظ» اليمين بالله على الوفاء بما حمله واللام في (ليسأل) قيل يحتمل أن تكون لام الصيرورة، أي: أخذ الميثاق على الأنبياء ليصير الأمر إلى كذا. والظاهر أنها لام كي، أي: بعثنا الرسل وأخذنا عليهم الموائيق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقتين: فرقة يسألها عن صدقها على معنى إقامة الحجة فتجيب بأنها قد صدقت الله في إيمانها وجميع أفعالها فيثيبها على ذلك، وفرقة كفرت فيناها ما أعد لها من العذاب فالصادقون على هذا المسؤولون هم المؤمنون، والهاء في (صدقهم) عائدة عليهم، ومفعول (صدقهم) محذوف تقديره عن صدقهم عهده، أو يكون صدقهم في معنى تصديقهم، ومفعوله محذوف أي عن تصديقهم الأنبياء، لأن من قال للصادق صدقت كان صادقاً في قوله أو ليسأل الأنبياء الذي أجابهم به أمهم، حكاه علي بن عيسى. أو ليسأل عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم، حكاه ابن شجرة. أو ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، قاله مجاهد. وفي هذا تنبيه، أي إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف بمن سواهم، وقال مجاهد أيضاً (ليسأل الصادقين) أراد المؤدين عن الرسل. انتهى. وسؤال الرسل تنبكت للكافرين بهم، كما قال تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] وقال تعالى ﴿فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين﴾ [الأعراف: ٦]، (وأعد) معطوف على (أخذنا) لأن المعنى: أن الله أكد على الأنبياء الدعاء إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين (وأعد للكافرين عذاباً أليماً) أو على ما دل عليه (ليسأل، الصادقين) كأنه قال: فأناب المؤمن وأعد للكافرين، قالها الزمخشري: ويجوز أن يكون حذف من الأول ما أثبت به الصادقون وهم المؤمنون، وذكرت العلة وحذف من الثاني العلة، وذكر ما عوقبوا به، وكان التقدير «ليسأل الصادقين عن صدقهم فأنابهم، ويسأل الكافرين عما أجابوا به رسلمهم» كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الأنبياء﴾ [القصص: ٦٥] (وأعد لهم عذاباً أليماً) حذف من الأول ما أثبت مقابله في الثاني، ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول،

وهذه طريقة بليغة وقد تقدم لنا ذكر ذلك في قوله: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق﴾ [البقرة: ١٧١] وأمنا الكلام هناك. ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديبار وكان عهد الله مسؤولاً قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتتمون إلا قليلاً قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحح عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالنسنة حداد أشحح على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾.

ذكرهم الله تعالى بنعمته عليهم في غزوة الخندق، وما اتصل بها من أمر بني قريظة، وقد استوفى ذلك أهل السير. ونذكر من ذلك ماله تعلق بالآيات التي نفسرها، و(إذ) معمولة لـ (نعمة) أي: إنعامه عليكم وقت مجيء الجنود، والجنود كانوا عشرة آلاف قريش ومن تابعهم من الأحابيش في أربعة آلاف يقودهم أبو سفيان. وبنو أسد يقودهم طليحة. وغطفان يقودهم عيينة. وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل. وسليم يقودهم أبو الأعور، واليهود النضير رؤسائهم حيي بن أخطب وابن أبي الحقيق وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد وكان بينه وبين الرسول عهد فنبذ به سعي حيي بن أخطب. فاجتمعوا خمسة عشر ألفاً، وهم: الأحزاب، ونزول المدينة، فحفروا الخندق بإشارة سلمان، وظهرت للرسول به تلك المعجزة العظيمة من كسر الصخرة التي أعوزت الصحابة ثلاث فرق، ظهرت مع كل فرقة بركة أراه الله منها مدائن كسرى وما حولها ومدائن قيصر وما حولها، ومدائن الحبشة وما حولها، وبشر بفتح ذلك، وأقام الدراري والنساء بالأطام<sup>(١)</sup>. وخرج رسول - الله ﷺ - والمسلمون في ثلاثة آلاف، فنزلوا بظهر سلع، والخندق بينهم وبين المشركين، وكان ذلك في شوال سنة خمس. قاله ابن إسحق<sup>(٢)</sup>. وقال مالك: «سنة أربع»، وقرأ الحسن (وجنود) بفتح الجيم والجمهور بالضم بعث الله الصبا لنصرة نبيه فأضرت بهم. هدمت بيوتهم، وأطفأت نيرانهم، وقطعت حبالهم، وأكفأت قدورهم، ولم يمكنهم معها قرار، وبعث الله مع الصبا ملائكة تشدد الريح، وتفعل نحو فعلها. وقرأ أبو عمرو في رواية وأبو بكر في رواية (لم يروها) بياء الغيبة وباقي السبعة والجمهور بقاء الخطاب. (من فوقكم) من أعلى الوادي من قبل مشرق غطفان (ومن أسفل منكم) من أسفل الوادي منه قبل المغرب<sup>(٣)</sup>، وقريش تحزبوا، وقالوا: نكون جملة حتى نستأصل محمداً. وقال مجاهد «(من فوقكم) يريد أهل نجد مع عيينة بن حصن (ومن أسفل منكم) يريد مكة وسائر تهامة». وهو قول قريب من الأول. وقيل: إنما يراد ما يختص ببقعة المدينة. أي: نزلت طائفة في أعلى المدينة، وطائفة في أسفلها. وهذا قريب من القول الأول. وقد يكون ذلك على معنى المبالغة. أي: جاؤوكم من جميع الجهات، كأنه قيل: إذ جاؤوكم محيطين بكم، كقوله: ﴿يغشاهم العذاب من فوقهم ومن

(١) الأطام: الأطم: حصن مبني بحجارة. وقيل: هو كل بيت مُرَبَّع مُسَطَّح، وقيل: الأطم مثل الأجم والجمع أطام جمع قلة والأطم جمع كثرة.

لسان العرب (٩٣/١)

(٢) انظر ابن كثير ٣/٤٧٠، ٤٧٢، والقرطبي ١٤/٨٦، ٨٧.

(٣) انظر القرطبي ١٤/٩٥.

تحت أرجلهم ﴿ [العنكبوت : ٥٥] المعنى : يغشاهم محيطاً بجميع أبدانهم ، وزيف الأبصار : ميلها عن مستوى نظرها فعل الواله الجزع . وقال الفراء : « زاعت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها ، وبلوغ القلوب الحناجر مبالغة في اضطرابها ووجيها دون أن تنتقل من مقرها إلى الحنجرة . وقيل : بحت القلوب من شدة الفزع ، فيتصل وجيها بالحنجرة ، فكأنها بلغت . وقيل : يجد خشونة ، وقلبه يصعد علواً لينفصل ، فالبلوغ ليس حقيقة وقيل : القلب عند الغضب يندفع ، وعند الخوف يجتمع فينقلص بالحنجرة . وقيل : يفضي إلى أن يسد مخرج النفس فلا يقدر المرء أن يتنفس ويموت خوفاً ، ومثله ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ [غافر : ١٨] وقيل : إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع والغضب ، أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ، ومن ثم قيل للجبان ، انتفخ سحره . والظنون : جمع لما اختلفت متعلقاته ، وإن كان لا ينقاس عند من جمع المصدر إذا اختلفت متعلقاته ، وينقاس عند غيره . وقد جاء الظنون جمعاً في أشعارهم . أنشد أبو عمرو في كتاب الألقان :

إِذَا الْجَوُزَاءُ أُرْدَفَتِ الشَّرِيَا      ظَنَنْتُ بِأَلِ قَاطِمَةَ الظُّنُونَا<sup>(١)</sup>

فظن المؤمنون الخالص أن ما وعدهم الله من النصر حق ، وأنهم يستظهرون ، وظن الضعيف الإيمان مضطربه ، والمنافقون أن الرسول والمؤمنين سيغلبون ، وكل هؤلاء يشملهم الضمير في (وتظنون) وقال الحسن : ظنوا ظنوناً مختلفة ، ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يبتلون . وقال ابن عطية : « أي يكادون يضطربون ويقولون : ما هذا الخلف للوعد . وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن البشر دفعها . وأما المنافقون فعجلوا ونطقوا . وقال الزمخشري : « ظن المؤمنون الثبت القلوب بالله يتبليهم ويفتهم ، فخافوا الزلل ، وضعف الاحتمال . والضعاف القلوب الذين هم على حرف ، والمنافقون ظنوا بالله ما حكى عنهم . وكتب (الظنون) و(الرسول) و(السيلا) في المصحف بالألف فحذفها حمزة وأبو عمرو وقفاً ووصلاً . وابن كثير والكسائي وحفص بحذفها وصلاً خاصة وباقي السبعة بإثباتها في الحالين . واختار أبو عبيد والحذاق أن يوقف على هذه الكلمة بالألف ولا يوصل فيحذف أو يثبت ، لأن حذفها مخالف لما اجتمعت عليه مصاحف الأمصار ، ولأن إثباتها في الوصل معدوم في لسان العرب نظمهم ونثرهم لا في اضطراب ولا غيره . أما إثباتها في الوقف ففيه اتباع الرسم وموافقته لبعض مذاهب العرب لأنهم يثبتون هذه الألف في قوافي أشعارهم ، وفي تصاريدها ، والفواصل في الكلام كالمصارع . وقال أبو علي : « هي رؤوس الأي تشبه بالقوافي من حيث كانت مقاطع كما كانت القوافي مقاطع (هنالك) ظرف مكان للبعيد . هذا أصله . فيحمل عليه ، أي في ذلك المكان الذي وقع فيه الحصار والقتال ابتلي المؤمنون . والعامل فيه (ابتلي) وقال ابن عطية : (هنالك) ظرف زمان . قال : ومن قال : إن العامل فيه (وتظنون) فليس قوله بالقوي ، لأن البداءة ليست متمكنة ، وابتلاؤهم قال الضحاك : « بالجوع » ، وقال مجاهد : « بالحصار » . وقيل : بالصبر على الإيمان . (وزلزلوا) قال ابن سلام : حركوا بالخوف ، وقيل : زلزلوا فثبتوا وصبروا حتى نصروا . وقيل : حركوا إلى الفتنة فعصموا . وقرأ الجمهور (وزلزلوا) بضم الزاي . وقرأ أحمد بن موسى اللؤلؤي عن أبي عمرو بكسر الزاي قاله ابن خالويه . وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : « وعن أبي عمرو إشمام زاي (زلزلوا) انتهى . كأنه يعني إشمامها الكسر ووجه الكسر في هذه القراءة الشاذة أنه اتبع حركة الزاي الأولى بحركة الثانية ولم يعتد بالساكن كما يعتد به من قال - متن بكسر الميم إتباعاً لحركة التاء . وهو اسم فاعل من أنتن . وقرأ الجمهور (زلزالاً) بكسر الزاي . والجدري وعيسى بفتحها . وكذا ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ [الزلزلة : ١] ومصدر « فعملل » من المضاعف يجوز فيه الكسر والفتح ، نحو : قلقل قلقالاً . وقد يراد بالفتح معنى

(١) البيت في القرطبي (٩٦/١٤) .

(٢) انظر الكشاف ٥٢٦/٣ .

اسم الفاعل فصلصال بمعنى متصل، فإن كان غير مضاعف فما سمع منه على فعلان مكسور الفاء، نحو سَرَّهفه سِرَّهافاً (وإذ يقول المنافقون) وهم: المظهرون للإيمان المبطنون الكفر. (والذين في قلوبهم مرض) هم ضعفاء الإيمان الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فهم على حرف والعطف دال على التغاير، نبه عليهم على جهة الذم. لما ضرب رسول الله - ﷺ -، الصخرة، وبرقت تلك البوارق وبشر بفتح فارس، والروم، واليمن، والحبشة قال معتب بن قشير: «يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى، وقيصر، ومكة، ونحن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط ما يعدنا إلا غروراً» أي: أمراً يغرنا ويوقننا فيها لا طاقة لنا به. وقال غيره من المنافقين نحو ذلك. وقولهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) هو على سبيل الهزء، إذ لو اعتقدوا أنه رسول حقيقة ما قالوا هذه المقالة. فالمعنى ورسوله على زعمكم وزعمه. وفي معتب ونظرائه نزلت هذه الآية. (وإذ قالت طائفة منهم) أي: من المنافقين (لا مقام لكم) في حومة القتال والممانعة (فارجعوا) إلى بيوتكم ومنازلكم. أمرهم بالهرب عن رسول الله - ﷺ - وقيل: فارجعوا كفاراً إلى دينكم الأول وأسلموه إلى أعدائه. قال السدي: «والقاتل لذلك عبد الله بن أبي رباحة بن سلول وأصحابه» وقال مقاتل: «بنومسلمة» وقال أوس بن رومان: «أوس بن قبطي وأصحابه»، وقال الكلبي: «بنو حارثة» ويمكن صحة هذه الأقوال فإن فيهم من كان منافقاً. (لا مقام لكم) وقرأ السلمي والأعرج واليأزي وحفص بضم الميم. فاحتمل أن يكون مكاناً أي لا مكان إقامة. واحتمل أن يكون مصدرأ، أي: لا إقامة وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو رجاء والحسن وقتادة والنخعي وعبد الله بن مسلم وطلحة وباقي السبعة بفتحها. واحتمل أيضاً المكان. أي: لا مكان قيام. واحتمل المصدر، أي: لا قيام لكم (ويستأذن فريق منهم النبي) هو أوس بن قبطي استأذن في الدخول إلى المدينة عن اتفاق من عشيرته، (يقولون) حال. أي: قائلين إن بيوتنا عورة أي: منكشفة للعدو. وقيل: خالية للسراق، يقال أعور المنزل انكشف. وقال الشاعر

لَهُ الشَّدَّةُ الْأُولَى إِذَا الْفِرْنُ أَعُورًا

وقال ابن عباس: «الفريق بنو حارثة، وهم كانوا عاهدوا الله لا يولون الأدبار، اعتذروا بأن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق، لأنها غير محرزة، ولا محصنة، فاستأذنه ليحصنوها. ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار». وقرأ ابن عباس وابن يعمر وقتادة وأبو رجاء وأبو حيوه وابن أبي عبلة وأبو طلوت وابن مقسم وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير عورة وبعورة بكسر الواو فيها. والجمهور بإسكانها. قال الزمخشري ويجوز أن يكون تخفيف (عورة) بالكسر هو اسم فاعل. وقال ابن جني: «صحة الواو في هذا، إشارة لأنها متحركة قبلها فتحة». انتهى. فيعني أنها تنقلب ألفاً فيقال (عارة) كما يقول رجل مال أي ممول وإذا كان (عورة) اسم فاعل فهو من عور الذي صحت عينه، فاسم الفاعل كذلك تصح عينه، فلا تكون صحة العين على هذا شذوذاً، وقيل: السكون على أنه مصدر وصف به، والبيت العور: هو المنفرد المعرض لمن أراد سوءاً. وقال الزجاج: عور المكان يعور عوراً وعورة فهو عور، وبيوت عورة. وقال الفراء: أعور المنزل بدا منه عورة وأعور الفارس كان فيه موضع خلل للضرب والظعن». قال الشاعر:

مَتَى تَلَفَهُمْ لَمْ تَلَقْ فِي الْبَيْتِ مُعُورًا وَلَا الضَّيْفَ مَسْحُورًا وَلَا الْجَارَ مُرْسَلًا<sup>(١)</sup>

قال الكلبي: «(عورة) خالية من الرجال ضائعة». وقال قتادة: «قاصية يحنى عليها العدو»، وقال السدي: «قصيرة الحيطان يخاف عليها السراق». وقال الليث: «العورة: سواة الإنسان، وكل أمر يستحيا منه فهو عورة، يقال: عورة في

(١) من الطويل انظر تفسير القرطبي (٩٨/١٤) وروايته فيه:

مَتَى تَلَفَهُمْ لَمْ تَلَقْ فِي الْبَيْتِ مُعُورًا وَلَا الضَّيْفَ مَضْجُوعًا وَلَا الْجَارَ مَرْمَلًا

التذكير والتأنيث، والجمع كالمصدر». وقال ابن عباس: «قالت اليهود لعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين ما الذي يملككم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه فارجعوا إلى المدينة فأتتم آمنون». (إن يريدون الإفراجاً) من الدين. وقيل: من القتل وقال الضحاك: «ورجع ثمانون رجلاً من غير إذن للنبي - ﷺ - والضمير في (دُخِلت) الظاهر عوده على البيوت، إذ هو أقرب مذكور. قيل: أو على المدينة. أي: ولودخلها الأحزاب الذين يفرون خوفاً منها، وانثالت على أهاليهم وأولادهم (ثم ستلوا الفتنة) أي: الردة والرجوع إلى إظهار الكفر ومقاتلة المسلمين، (لأتوها) أي: لجأوا إليها وفعلوا على قراءة القصر. وهي قراءة نافع وابن كثير. وقرأ باقي السبعة (لأتوها) بالمد. أي: لأعطوها (وما تلبثوا بها) وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم (إلا يسيراً) فإن الله يهلكهم ويخرجهم بالمؤمنين، قال ابن عطية: «(ولو دخلت) المدينة (من أظفارها) واشتد الحرب الحقيقي (ثم ستلوا الفتنة) والحرب لمحمد - ﷺ - لطاروا إليها وأتوها مجبين فيها، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها (إلا يسيراً) قيل: قدر ما يأخذون سلاحهم». انتهى. وقرأ الجمهور (ستلوا) وقرأ الحسن (سُولوا) بواو ساكنة بعد السين المضمومة. قالوا: وهي من سَال يسأل (كخاف يخاف) لغة من «سأل» المهموز العين. وحكى أبو زيد «هما يتساولان» انتهى. ويجوز أن يكون أصلها الهمز، لأنه يجوز أن يكون سُولوا على قول من يقول في ضرب ضرب ثم سهل الهمزة بإبدالها واو على قول من قال في بؤس بإبدال الهمزة واواً لضممة ما قبلها. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو والأعمش (سِيلوا) بكسر السين من غير همز نحو، قيل. وقرأ مجاهد (سُولوا) بواو بعد السين المضمومة وياء مكسورة بدلاً من الهمزة. وقال الضحاك: «(ثم ستلوا الفتنة) أي: القتال في العصبية لأسرعوا إليه». وقال الحسن «(الفتنة) الشرك. والظاهر: عود الضمير بها على الفتنة. وقيل: يعود على المدينة. (وعاهدوا) أجرى مجرى اليمين، ولذلك يتلقى بقوله (لا يولون الأدبار) وجواب هذا القسم جاء على الغيبة عنهم على المعنى، ولو جاء كما لفظوا به لكان التركيب لا نولي «الأدبار» والذي عاهدوا بنو حارثة وبنو مسلمة، وهما الطائفتان اللتان هما بالفشل في يوم أحد، ثم تابوا وعاهدوا أن لا يفروا، فوقع يوم الخندق من بني حارثة ذلك الاستئذان. قال ابن عباس: «عاهدوا بمكة ليلة العقبة أن يمنعوا مما يمنعون منهم أنفسهم». وقيل: ناس غابوا عن وقعة بدر، قالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن (من قبل) أي: من قبل هذه الغزوة غزوة الخندق. (لا يولون الأدبار) كناية عن الفرار والانزمام (ستلوا) مطلوباً مقتضى حتى يوفى به، وفي ذلك تهديد ووعيد. (قل لن ينفعكم الفرار) خطاب توبيخ وإعلام أن الفرار لا ينجي من القدر، وأنه تنقطع أعمارهم في سير من المدة. واليسير: مدة الأجل، قال الربيع بن خيثم: «وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما قبله عليه، أي: إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار، لأن مجيء الأجل لا بد منه. (وإذا) هنا تقدمها حرف عطف فلا يتحتم إعمالها، بل يجوز، ولذلك. قرأ بعضهم ﴿وإذا لا يلبثوا خلفك﴾ في سورة الإسراء [الإسراء: ٧٦] بحذف النون ومعنى (خلفك) أي: بعد فراقهم إياك. (و قليلاً) نعت لمصدر محذوف. أي: تمتعاً قليلاً، أو لزمان محذوف. أي: زماناً قليلاً. ومرّ بعض المروانية على حائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية، فقال: ذلك القليل نطلب. وقرأ الجمهور (لا تمتعون) ببناء الخطاب وقرىء بياء الغيبة. (ومن ذا) استفهام ركبت (ذا) مع (من) وفيه معنى النفي. أي: لا أحد يعصمكم من الله. قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء؟ قلت: معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله:

مُتَقَلِّدًا سَيِّئًا وَرُحْمًا<sup>(١)</sup>

أو حمل الثاني على الأول، لما في العصمة من معنى المنع». انتهى. أما الوجه الأول ففيه حذف جملة لا ضرورة تدعو

إلى حذفها، والثاني: هو الوجه لاسيما إذا قدر مضاف محذوف. أي: يمنعكم من مراد الله. (والقاتلين لإخوانهم) كانوا أي: المنافقون يشطون إخوانهم من ساكني المدينة من أنصار رسول الله ﷺ يقولون: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لآلتهمهم أبو سفيان فخلوهم: وقيل: هم اليهود كانوا يقولون لأهل المدينة: تعالوا إلينا وكونوا معنا. وقال ابن زيد: انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ يوم الأحزاب فوجد شقيقه عنده سويق ونيذ، فقال: أنت ها هنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال: هلم إليه، فقد أحيط بك، وبصاحبك، والذي يحلف به لا يستقبلها محمد أبداً، فقال: كذبت، والذي يحلف به ولاخبرته بأمر، فذهب ليخبره، فوجد جبريل قد نزل بهذه الآية». وقال ابن السائب: «هي في عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير ومن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة، فإذا جاءهم المنافق قالوا له: ويحك، اجلس ولا تخرج، ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر أن اثبتوا فإننا ننتظركم، وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن يجدوا بدأً من إتيانه فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة، فنزلت». وتقدم الكلام في (هلم) في أواخر الأنعام، وقال الزمخشري: «وهلموا<sup>(١)</sup> إلينا، أي: قربوا أنفسكم إلينا قال: وهو صوت سمي به فعل متعد مثل احضر وأقرب» انتهى. والذي عليه النحويون أن (هلم) ليس صوتاً، وإنما هو مركب، مختلف في أصل تركيبه، فقيل: هو مركب من (ها) التي للتنبية و(لم) وهو مذهب البصريين. وقيل: من (هل) و(أم) والكلام على ترجيح المختار منها مذكور في النحو. وأما قوله: «سمي به فعل متعد»، ولذلك قدر (هلم إلينا) أي: قربوا أنفسكم إلينا. والنحويون: أنه متعد لازم. فالمتعدي كقوله: ﴿قل هلم شهداءكم﴾ [الأنعام: ١٥٠] أي: أحضروا شهداءكم، واللازم كقوله (هلم إلينا) وأقبلوا إلينا. (ولا يأتون البأس) أي: القتال (إلا قليلاً) يخرجون مع المؤمنين يوهومهم أنهم معهم، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه، كقوله (ما قاتلوا إلا قليلاً) وقتله: إما لقصر زمانه، وإما لقله عقابه وأنه رياء وتلميع لا تحقيق. (أشحة) جمع شحيح، وهو البخيل. وهو جمع لا يتقاس، وقياسه في الصفة المضعفة العين واللام فعلاء نحو خليل وأخلاء فالقياس أشحاء. وهو مسموع أيضاً. ومتعلق الشح بأنفسهم، أو بأحوالهم، أو بأموالهم في النفقات في سبيل الله، أو بالغنيمة عند القسم أقوال. والصواب: أن يعم شحهم كل ما فيه منفعة للمؤمنين. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «(أشحة عليكم) في وقت الحرب، أضناء بكم، يترففون عليكم، كما يفعل الرجل بالذاب عن المناضل دونه عند الخوف (ينظرون إليك) في تلك الحالة كما ينظر (المغشي عليه) من معالجة سكرات الموت، حذراً وخوراً، ولوذاً، فإذا ذهب الخوف، وحيزت الغنائم، ووقعت القسمة نقلوا ذلك الشح، وتلك الضنة، والرفقة عليكم إلى الخير، وهو المال والغنيمة، وسوء تلك الحالة الأولى، واجترؤوا عليكم، وضربوكم بالسنتهم، وقالوا: وفروا قسمتنا، فإننا قد شاهدناكم، وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم، وبنا نصرتم عليكم». انتهى. وهو تكثير وتحميل للفظ ما لا يحتمله كعادته. وقرأ الجمهور (أشحة) بالنصب، قال الفراء: «على الذم، وأجاز نصبه على الحال والعامل يعوقون». وقال الطبري: «حال من هلم إلينا». وقال الزجاج: «حال من (ولا يأتون)» وقيل: حال من المعوقين. وقيل: من القائلين. ورُدَّ القولان بأن فيهما تفرقاً بين الموصول وما هو من تمام صلته. وقرأ ابن أبي عبله (أشحة) بالرفع على إضمار مبتدأ. أي: هم أشحة (فإذا جاء الخوف) من العدو، وتوقع أن يستأصل أهل المدينة لاذ هؤلاء المنافقون بك (ينظرون) نظر المألوع المختلط النظر الذي يغشى عليه من الموت (وتدور) في موضع الحال. أي: دائرة أعينهم (كالذي) في موضع الصفة لمصدر محذوف، وهو مصدر مشبه. أي: دوراناً كدوران عين الذي يغشى

(١) هلموا: انظر لسان العرب (٤/٦٩٤).

(٢) انظر (٤/٢٢٠٥) لسان العرب.

(٣) انظر الكشاف ٣/٥٣٠.

عليه، فبعد الكاف محذوفان، وهما: دوران وعين، ويموز أن يكون في موضع الصفة لمصدر من ينظرون إليك نظراً كنظر الذي يغشى عليه. وقيل: إذا جاء الخوف من القتال، وظهر المسلمون على أعدائهم، رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم في رؤوسهم، وتحول وتضطرب رجاء أن يلوح لهم. قال قتادة: «بسطوا ألسنتهم فيكم»! قال يزيد بن رومان: «في أذى المؤمنين وسبهم وتنقيص الشرع»، وقال قتادة: «في طلب العطاء من الغنيمة والإلحاف في المسألة». وقيل: السلق في مخادعة المؤمنين بما يرضيهم من القول على جهة المصانعة والمجاملة. وقرأ الجمهور (سَلَقُوكُمْ) بالسين. وابن أبي عبيدة بالصاد. وقرأ ابن أبي عبيدة (أشحة) بالرفع. أي: هم أشحة والجمهور بالنصب على الحال من (سَلَقُوكُمْ) وعلى الخبر يدل على عموم الشح في قوله أولاً (أشحة عليكم) وقيل: في هذا أشحة على مال الغنائم. وقيل: على ما لهم الذي ينفقونه. وقيل: على الرسول بظفروه. (أولئك لم يؤمنوا) إشارة إلى المنافقين. أي: لم يكن لهم قط إيمان، والإحباط: عدم قبول أعمالهم، فكانت كالمحبطة. وقال الزمخشري: «(فإن قلت:) هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط؟ (قلت:) لا ولكن تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يواطئه القلب، وأن ما يعمله المنافق من الأعمال يجزى عليه، فبين أن إيمانه ليس بإيمان وأن كل عمل يوجد منه باطل». انتهى وفي كلامه استعمال عسى صلة لمن، وهو لا يجوز. وقال ابن يزيد عن أبيه: «نزلت في رجل بدري، نافق بعد ذلك، ووقع في هذه المعاني، فأحبط الله عمله في بدر وغيرها، وكان ذلك. أي: الإحباط أو حالهم من شحهم ونظرهم يسيراً لا يبالي به، ولا له أثر في دفع خير، ولا عليه شر». وقال الزمخشري: «على الله يسيراً، معناه: أن أعمالهم حقيقة بالإحباط، تدعو إليه الدواعي ولا يصرف عنه صارف». انتهى. وهي ألفاظ المعتزلة يحسبون أنهم لم يرحلوا (وإن يأت الأحزاب) كرة ثانية تمنوا لخوفهم بما منوا به عند الكرة أنهم مقيمون في البدو مع الأعراب، وهم أهل العمود يرحلون من قطر إلى قطر، يسألون من قدم من المدينة عما جرى عليكم من قتال الأحزاب يتعرفون أحوالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة، فرقاً وجنباً، وغرضهم من البدواة أن يكونوا سالمين من القتال (ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتال لم يقاتلوا (إلا قليلاً) لعله ورياء وسمعة. قال ابن السائب: «رمياً بالحجارة خاصة دون سائر أنواع القتال»، وقرأ الجمهور (بأذن) جمع سلامة لبأذ. وقرأ عبد الله وابن عباس وابن عمر وطلحة (بَدَى) على وزن فعل كـ (فاز) و(غزى) وليس بقياس في معتل اللام، بل شبه بضارب، وقياسه فُعَلَةٌ، كقاض وقُضَاة، وعن ابن عباس (بَدَا) فعلاً ماضياً. وفي رواية صاحب الإقليد: «بدي بوزن عدي». وقرأ الجمهور (يسألون) مضارع سأل، وحكى ابن عطية: «أن أبا عمرو وعاصم والأعمش قرؤوا (يَسْأَلُونَ) بغير همز، نحو قوله: ﴿سَلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٢١١]». ولا يعرف ذلك عن أبي عمرو وعاصم، ولعل ذلك في شاذهما. ونقلها صاحب اللوامح عن الحسن والأعمش. وقرأ زيد بن علي وقاتدة والجحدري والحسن ويعقوب بخلاف عنها (يسأل بعضهم بعضاً) أي: يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت؟ وماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب، كما تقول تراءينا الهلال، ثم سلى الله نبيه عنهم، وحقر شأنهم بأن أخبر أنهم لو حضروا ما أغنوا وما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً. قال: «هو قليل من حيث هو رياء ولو كان كثيراً».

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾. الظاهر: أن الخطاب في قوله (لقد كان لكم) للمؤمنين، لقوله قبل (ولو كانوا فيكم) وقوله بعد (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر والمعنى: أنه - ﷺ - لكم فيه

الافتداء، فكما نضركم، ووازركم حتى قاتل بنفسه عدوكم، فكسرت رباعيته الكريمة، وشج وجهه الكريم، وقتل عمه وأوذى ضرورياً من الإيذاء، يجب عليكم أن تنصروه، وتوازره، ولا ترغبوا بأنفسكم عن نفسه، ولا عن مكان هو فيه، وتبدلوا أنفسكم دونه، فما حصل لكم من الهداية للإسلام أعظم من كل ما تفعلونه معه - ﷺ - من النصرة، والجهاد في سبيل الله وبعد قول من قال: إنه خطاب للمنافقين (واليوم الآخر) يوم القيامة. وقيل: يوم السياق. (وأسوة) اسم كان. (ولكم) الخبر، ويتعلق (في رسول الله) بما يتعلق به (لكم) أو يكون في موضع الحال، لأنه لو تأخر جاز أن يكون بعد لـ (أسوة) أو يتعلق بـ (كان) على مذهب من أجاز في كان وأخواتها الناقصة أن تعمل في الظرف والمجرور. ويجوز أن يكون (في رسول الله) الخبر و(لكم) تبيين. أي: (لكم) لمن كان يرجو الله. قال الزمخشري: «بدل من (لكم) كقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]» انتهى. ولا يجوز على مذهب جمهور البصريين، أن يبدل من ضمير المتكلم، ولا من ضمير المخاطب اسم ظاهر في بدل الشيء وهما العين واحدة وأجاز ذلك الكوفيون والأخفش، ويدل عليه قول الشاعر:

بِكُمْ قَرَيْشُ كُفَيْنَا كُلُّ مُغْضِلَةٍ وَأُمَّ نَهَجَ الْهُدَى مَنْ كَانَ ضَلِيلًا<sup>(١)</sup>

وقرأ الجمهور (أسوة) بكسر الهمزة وعاصم يصمها والرجاء: بمعنى الأمل، أو الخوف. وقرن الرجاء بذكر الله والمؤتسي برسول الله هو الذي يكون راجياً ذاكراً. ولما بين تعالى المنافقين، وقولهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) بين حال المؤمنين وقولهم ضد ما قال المنافقون وكان الله قد وعدهم أن يزلزلهم حتى يستنصروه في قوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) الآية فلما جاء الأحزاب ونهض بهم للقتال واضطربوا قالوا (هذا ما وعدنا الله ورسوله) وأيقنوا بالجنة والنصر، وعن ابن عباس قال النبي - ﷺ - لأصحابه إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشرة أي في آخر تسع ليال أو عشر فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك<sup>(٢)</sup>، وقيل: الوعد هو ما جاء في الآية وما وعده عليه السلام حين أمر بحفر الخندق فإنه أعلمهم بأنهم يحضرون، وأمرهم بالاستعداد لذلك، وأعلمهم أنهم سينصرون بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب قالوا ذلك فسلموا لأول الأمر وانتظروا آخره. وهذا إشارة إلى الخطب إيماناً بالله وبما أخبر به الرسول مما لم يقع، كقولك: فتح مكة وفارس والروم، فالزيادة فيما يؤمن لا في نفس الإيمان، وقرأ ابن أبي عبيدة (وما زادوهم) بالواو. وضمير الجمع يعود على الأحزاب، وتقول: صدقت زيداً الحديث وصدقت زيداً في الحديث وقد عدت صدق هذه في ما يتعدى بحرف الجر، وأصله ذلك، ثم يتسع فيه فيحذف الحرف ويصل الفعل إليه بنفسه، ومنه قولهم في المثل «صدقتي سن بكرة»، أي: في سن بكرة (فما عاهدوا)، إما أن يكون على إسقاط الحرف. أي: فيما عاهدوا. والمفعول الأول محذوف، والتقدير: صدقوا الله. وإما أن يكون صدق يتعدى إلى واحد، كما تقول: صدقتي أخوك. إذا قال لك الصدق، وكذبك أخوك إذا قال لك الكذب. وكان المعاهد عليه مصدوقاً مجازاً، كأنهم قالوا للمعاهد عليه: سنفي لك وهم وافون به. فقد صدقوه (ولو كانوا) ناكثين لكذبوه وكان مكذوباً، وهؤلاء الرجال، قال مقاتل والكلبي: «هم أهل العقبة السبعون أهل البيعة»، وقال أنس: «نزلت في قوم لم يشهدوا بداراً فعاهدوا أن لا يتأخروا عن رسول الله - ﷺ - فوفوا<sup>(٣)</sup>». وقال زيد بن رومان: «بنو حارثة» (فمنهم من قضى

(١) البيت من البسيط لم يعلم قائله انظر التصريح (١٦١/٢).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشف ٥٣١/٣ وقال الحافظ ابن حجر لم أجده.

(٣) انظر ابن كثير ٤٧٥/٣ - ٤٧٦ - زاد المسير ٣٦٩/٦، ٣٧٠، والقرطبي ١٠٤/١٤، ١٠٥.



نحبه<sup>(١)</sup> وهذا تجوز، لأن الموت أمر لا بد منه أن يقع بالإنسان، فسمي نحباً لذلك. وقال مجاهد: «قضى نحبه» أي: عهده، قال أبو عبيدة: «نُدْرَه»، وقال الزمخشري: «(فمنهم من قضى نحبه) يحتمل موته شهيداً، ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله - ﷺ - وقالت فرقة: الموصوفون بقضاء النحب: جماعة من الصحابة وفوا بعهود الإسلام على التمام فالشهداء منهم، والعشرة الذين شهد لهم الرسول بالجنة منهم من حصل في هذه المرتبة بما لم ينص عليه، ويصحح هذا القول قول رسول الله - ﷺ - وقد سئل من الذي قضى نحبه؟ وهو على المنبر، فدخل طلحة بن عبيد الله، فقال: هذا ممن قضى نحبه، (ومنهم من ينتظر) إذا فرس قضاء النحب بالشهادة. كان التقدير: ومنهم من ينتظر الشهادة. وإذا فرس بالوفاء لعهود الإسلام، كان التقدير: ومنهم من ينتظر الحصول في أعلى مراتب الإيمان والصلاح، وقال مجاهد: «ينتظر يوماً فيه جهاد فيقضى نحبه» (وما بدلوا) لا المستشهدون، ولا من ينتظر. وقد ثبت طلحة يوم أحد حتى أصيبت يده، فقال رسول الله - ﷺ - أوجب طلحة، وفيه تعريض لمن بدل من المنافقين حين ولوا الأديار وكانوا عاهدوا لا يولون الأديار. (ليجزى الله الصادقين) أي: الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه (بصدقهم) أي: بسبب صدقهم، (ويعذب المنافقين) إن شاء وعذابهم متحتم، فكيف يصح تعليقه على المشيئة وهو قد شاء تعذيبهم إذا وفوا على النفاق، فقال ابن عطية: تعذيب المنافقين ثمرته إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم، والتوبة موازية لتلك الإقامة، وثمرة التوبة تركهم دون عذاب، فها هم درجتان، إقامة على نفاق، أو توبة منه. وعنها ثمرتان، تعذيب، أو رحمة، فذكر تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاتين، وواحدة من هاتين، ودل ما ذكر على ما ترك ذكره، ويدل على أن معنى قوله (ليعذب) أي: ليدوم على النفاق قوله (إن شاء) ومعادلتة بالتوبة، وحذف أو» انتهى. وكان ما ذكر يؤول إلى أن التقدير: ليقموا على النفاق فيموتوا عليه، إن شاء فيعذبهم، أو يتوب عليهم فيرحمهم. فحذف سبب التعذيب، وأثبت المسبب وهو الرحمة والغفران، وحذف المسبب وهو الرحمة والغفران وحذف المسبب وهو الرحمة والغفران. وهذا من الإيجاز الحسن. وقال الزمخشري: «ويعذبهم إن شاء إذا لم يتوبوا، ويتوب عليهم إذا تابوا». انتهى. ولا يجوز تعليق عذابهم إذا لم يتوبوا بمشيئته تعالى، لأنه تعالى قد شاء ذلك، وأخبر أنه يعذب المنافقين حتماً لا محالة. واللام في (ليجزى) قيل: لام الصيرورة. وقيل: لام التعليل، ويتعلق بقوله (وما بدلوا تبديلاً)، قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «جعل المنافقون كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم، لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبة من الثواب والعقاب، فكأنها استويا في طلبها والسعي لتحصيلها. وقال السدي: «المعنى: إن شاء يميتهم على نفاقهم، أو يتوب عليهم بفعلهم من النفاق بتقبلهم الإيمان. وقيل: يعذبهم في الدنيا إن شاء، ويتوب عليهم إن شاء. (إن الله كان غفوراً رحيماً) غفوراً للحوية<sup>(٣)</sup>، رحيماً يقبول التوبة. (ورد الله الذين كفروا) الأحزاب عن المدينة، والمؤمنين إلى بلادهم (بغظهم) أي: مغيظين، فهو حال والباء للمصاحبة (ولم يبالوا) حال ثانية، أو من الضمير في (بغظهم) فيكون حالاً متداخلة، وقال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: «ويجوز أن تكون الثانية بياناً للأولى، أو استثناءً». انتهى. ولا يظهر كونها بياناً للأولى، ولا للاستئناف، لأنها تبقى كالمفصلة مما قبلها. (وكفى الله المؤمنين القتال)

(١) روى الأزهرى عن محمد بن إسحاق في قوله تعالى «فمنهم من قضى نحبه» قال: فرغ من عمله، ورجع إلى ربه، وقيل نحبه أي: نذره. كأنه ألزم نفسه أن يموت فوق به.

لسان العرب (٤٣٦٢/٦)

(٢) انظر الكشاف ٥٣٢/٣.

(٣) الحوية: قال أبو عبيد: حوتى يعنى المائم، وتفتح الحاء وتضم، وهو من قوله تعالى «إنه كان حوباً كبيراً» قال: وكل مائم حُوبٌ وحُوبٌ والواحدة حُوبة.

لسان العرب (١٠٣٦/٢)

(٤) انظر الكشاف.

بإرسال الرياح والجنود، وهم الملائكة، فلم يكن قتال بين المؤمنين والكفار. وقيل: المراد علي بن أبي طالب ومن معه برزوا للقتال ودعوا إليه وقتل علي من الكفار عمرو بن عبدود ومبارزة، حين طلب عمرو المبارزة، فخرج إليه علي، فقال: إني لأؤثر قتلك لصحبتني لأبيك، فقال له علي: فأنا أؤثر قتلك فقتله علي مبارزة. واقتحم نوفل بن الحارث من قريش الخندق بفرسه فقتل فيه. وقتل من الكفار أيضاً - بنو بن عثمان، وعبيد بن السباق. واستشهد من المسلمين في غزوة الخندق معاذ، وأنس بن أوس بن عتيك: وعبد الله بن سهل، وأبو عمرو. وهم من بني عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة، وهما: من بني سلمة، وكعب بن زيد من بني ذبيان بن النجار أصابه سهم غرب فقتله. ولم تغز قريش المسلمين بعد الخندق، وكفى الله مداومة القتال وعودته بأن هزمهم بعد ذلك، وذلك بقوته وعزته وعن أبي سعيد الخدري: «حبسنا يوم الخندق فلم نصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء حتى كان بعد هوي من الليل كفيئنا وأنزل الله تعالى. (وكفى الله المؤمنين القتال) فأمر رسول الله - ﷺ - بلالاً فأقام وصلى الظهر فأحسنها، ثم كذلك كل صلاة بإقامة». (وأنزل الذين ظاهروهم) أي: أعانوا قريشاً ومن معهم من الأحزاب من أهل الكتاب. هم: يهود بني قريظة، كما هو قول الجمهور. وعن الحسن: «بنو النضير وقذف الرعب سبب لإنزالهم، ولكنه قدم المسبب لما كان السرور بإنزالهم أكثر، والإنخبار به أهم قدم». وقال رجل: «يا رسول الله مر بنا دحية الكلبي على بغلة بيضاء، عليها قטיפية ديباج<sup>(١)</sup>، فقال ذلك جبريل - عليه السلام - بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم، ولما رجعت الأحزاب جاء جبريل وقت الظهر، فقال: إن الله يأمرك بالخروج إلى بني قريظة، فنادى في الناس: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فخرجوا إليها، فمصل في الطريق، ورأى أن ذلك خرج مخرج التأكيد والاستعجال، ومصل بعد العشاء، وكل مصيب، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: خمسة عشر فنزلوا على حكم سعد بن معاذ الأوسي لحلف كان بينهم رجوا حنوه عليهم، فحكم أن يقتل المقاتلة، ويسبى الذرية والعيال والأموال، وأن تكون الأرض والثمار للمهاجرين دون الأنصار، فقالت له الأنصار في ذلك، فقال: أردت أن يكون لهم أموال كما لكم، فقال له رسول الله - ﷺ - : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة<sup>(٢)</sup>، ثم استنزلهم وخندق لهم في سوق المدينة وقدمهم، فضرب أعناقهم، وهم من بين ثمانمائة إلى تسعمائة، وقيل: كانوا ستمائة مقاتل، وسبعمائة أسير، وحيي يحيى بن أخطب النضيري وهو الذي كان أدخلهم في الغدر برسول الله - ﷺ - فدخل عندهم. وفاء لهم، فترك فيمن ترك على حكم سعد، فلما قرب وعليه حلتان تفاحتان مجموعة يده إلى عنقه أبصر رسول الله - ﷺ - فقال: يا محمد: والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكن من يخذل الله يخذل. ثم قال: أيها الناس إنه لا بأس أمر الله وقدره ومحنة كتبت على بني إسرائيل ثم تقدم فضربت عنقه». وقال فيه بعض بني ثعلبة:

لَعَمْرُكَ مَا لَأَمَ ابْنُ أَخْطَبَ نَفْسَهُ      وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلُ اللَّهَ يَخْذُلُ  
لَأَجْهَدَ حَتَّى أَبْلُغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا      وَقَلْقَلْ يَبْغِي الْعُدْرُكُلَ مُقْلِقِلَ

وقتل من نسايتهم امرأة وهي لبابة امرأة الحكم القرظي، كانت قد طرحت الرحي على خلاد بن سويد<sup>(٣)</sup> فقتل ولم

(١) انظر اللسان (٢/١٣١٦)

(٢) كل سماء يقال لها رقية: وقيل: الرقيب اسم سماء الدنيا، والجمع أرقعة.

لسان العرب (٣/١٧٠٥)

(٣) خلاد بن سويد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي قال ابن الكلبي شهد بدرًا وولي ابنه السائب بن خلاد اليمن انظر ترجمته في الإصابة ٢/١٤٠

يستشهد في حصار بني قريظة غيره. ومات في الحصار أبو سفيان بن محصن أخو عكاشة بن محصن<sup>(١)</sup>. وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة. وقرأ الجمهور (وتأسرون) بقاء الخطاب وكسر السين، وأبو حيوة بضمها. والبياني بياء الغيبة. وابن أنس عن ابن ذكوان بياء الغيبة في (تقتلون وتأسرون) (وأورثكم) فيه إشعار أنه انتقل إليهم ذلك بعد موت أولئك المقتولين ومن نقلهم من أرضهم وقدمت لكثرة المنفعة بها من النخل والزرع، ولأنهم باستيلائهم عليها ثانياً وأموالهم، ليستعان بها في قوة المسلمين للجهاد، ولأنها كانت في بيوتهم، فوقع الاستيلاء عليها ثالثاً. (وأرضاً لم تطؤوها) وعد صادق في فتح البلاد كالعراق والشام واليمن ومكة وسائر فتوح المسلمين<sup>(٢)</sup>، وقال عكرمة: «أخبر تعالى أن قد قضى بذلك»، وقال الحسن: «أراد الروم وفارس». وقال قتادة: «كنا نتحدث أنها مكة»، وقال مقاتل يزيد بن رومان وابن زيد: «هي خيبر» وقيل: اليمن. ولا وجه لهذه التخصيصات. ومن بدع التفاسير: أنه أراد نساءهم، وقرأ الجمهور (تَطْؤُوهَا) بهمزة مضمومة بعدها واو. وقرأ زيد بن علي (لم تطؤوها) بحذف الهمزة أبدل همزة تطأ ألفاً على حد قوله:

إِنَّ السَّبَّاعَ لَتَهَذَا فِي مَرَابِضِهَا وَالنَّاسُ لَا يُهْتَدَى مِنْ شَرِّهِمْ أَبَدًا<sup>(٣)</sup>

فالتقت ساكنة مع الواو فحذفت، كقولك: لم تَرَوْهَا. وختم تعالى هذه الآية بقدرته على كل شيء فلا يعجزه شيء. وكان في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة، وأنه لا يستبعد ذلك، فكما ملكهم هذه فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد.

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرزن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله رسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والمصدقات والقاتنين والقاتنات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾. سبب نزولها. أن أزواجه - ﷺ - تغايرن وأردن زيادة في كسوة ونفقة. فنزلت. ولما نصر الله نبيه، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة، والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله، وقلن: يا رسول الله: بنات كسرى، وقيصر في الحلبي، والحللي، والإماء، والخول<sup>(٤)</sup>، ونحن على ما تراه من الفاقة، والضيق، وآلن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل، في أمرهن. وأزواجه إذ ذاك تسع، عائشة بنت أبي بكر «وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، وهؤلاء من قريش». ومن غير قريش، ميمونة بنت الحارث الهلالية،

(١) عكاشة بن محصن بن حريث الأسدي من بني غنم صحابي من أمراء السرايا، يعد من أهل المدينة شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ توفي سنة

١٢ هـ الإصابة (٥٦٣٤) حلية الأولياء ١٢/٢ الأعلام ٤/٤٤٤.

(٢) انظر القرطبي ١٠٦/١٤.

(٣) البيت من الطويل لابن هرمة انظر الديوان (٩٦) التاج (هدأ).

(٤) الخول: الخول حشم الرجل وأتباعه.

وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية، وقال أبو القاسم الصيرفي: «لما خير رسول الله - ﷺ - بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختر الآخرة، وأمر بتخيير نسائه، ليظهر صدق موافقتهن، وكان تحته عشر نساء - زاد الحميرية - فاخترن الله ورسوله إلا الحميرية» وروى: أنه قال لعائشة وبدأ بها، وكانت أحبهن إليه: إني ذاك لك أمراً، ولا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمرني أبويك، ثم قرأ عليها القرآن، فقالت: أفى هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. لا تخبر أزواجك أني اخترتك فقال: إنما بعثني الله مبلغاً ولم يعثني متعتاً<sup>(١)</sup>. والظاهر: أنهم إذا اخترن الحياة الدنيا وزينتها، متعن رسول الله وطلقهن، وأنه ليس باختيارهن ذلك يقع الفراق دون أن يوقعه هو. وقال الأكثرون: هي آية تخيير، فإذا قال لها: اختاري فاخترت زوجها لم يكن ذلك طلاقاً. وعن علي: تكون واحدة رجعية، وإن اختارت نفسها وقعت طليقة بائنة عند أبي حنيفة وأصحابه. وهو قول علي وواحدة رجعية عند الشافعي، وهو قول عمر وابن مسعود. وثلاث عند مالك. وأكثر الناس ذهبوا إلى أن الآية في التخيير والطلاق، وهو قول علي والحسن وقتادة. قال هذا القائل: «وأما أمر الطلاق فمرجأ، فإن اخترن أنفسهن نظر هو كيف يسرحهن، وليس فيها تخيير في الطلاق، لأن التخيير يتضمن ثلاث تطبيقات، وهو قد قال (أسرحكن سراحاً جميلاً) وليس مع بت الطلاق سراح جميل». انتهى. والذي يدل عليه ظاهر الآية هو ما ذكرناه أولاً من أنه علق على إرادتهن زينة الحياة الدنيا وقوع التمتع والتسريح منه. والمعنى في الآية: أنه كان عظيم همكهن، ومطلبكن التمتع في الدنيا، ونيل نعيمها وزينتها. وتقدم الكلام في (فتعالين) في قوله تعالى: ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ [آل عمران: ٦١] في «آل عمران» (أمتعن) قيل: المتعة واجبة في الطلاق. وقيل: مندوب إليها. والأمر في قوله (ومتعوهن) يقتضي الوجوب في مذهب الفقهاء. وتقدم الكلام في ذلك وفي تفصيل المذاهب في البقرة. والتسريح الجميل. إما في دون البيت أو جميل الثناء والمعتقد وحسن العشرة إن كان تاماً، وقرأ الجمهور (أمتعن) بالتشديد من متع وزيد بن علي بالتخفيف من أمتع ومعنى (أعدت) هياً ويسر. وأوقع، الظاهر موقع المضمر، تنبيهاً على الوصف الذي ترتب له به الأجر العظيم، وهو الإحسان، كأنه قال: أعد لكن، لأن من أراد الله ورسوله والدار الآخرة كان محسناً. وقراءة حميد الخراز، أمتعن وأسرحكن) بالرفع على الاستئناف. والجمهور بالجزم على جواب الأمر أو على جواب الشرط. ويكون (فتعالين) جملة اعتراض بين الشرط وجزائه، ولا يضر دخول الفاء على جملة الاعتراض. ومثل ذلك قول الشاعر:

وَأَعْلَمَ فَعِلْمُ الْمَرْءِ يَنْفَعُهُ      أَنْ سَوْفَ يَأْتِي كُلَّ مَا قُدِرَ<sup>(٢)</sup>

ثم نادى نساء النبي ليجعلن باهن مما يخاطبن به إذا كان أمراً يجعل له البال. وقرأ زيد بن علي والجدري وعمرو بن فائد الأسواري ويعقوب (تأت) بقاء التأنيث حملاً على معنى (من) والجمهور بالياء حملاً على لفظ (من) (بفاحشة مبينة) كبيرة من المعاصي، ولا يتوهم أنها الزنا لعصمة رسول الله - ﷺ - من ذلك ولأنه وصفها بالتبين، والزنا مما يستتر به. وينبغي أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته، ولما كان مكانهن مهبط الوحي من الأوامر والنواهي لزمهن بسبب ذلك وكونهن تحت الرسول أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب. وقرأ نافع وحزمة وعاصم والكسائي (يُضَاعَف) بألف وفتح العين، والحسن وعيسى وأبو عمرو بالتشديد وفتح العين، والجدري وابن كثير وأبو عامر بالنون وشد العين مكسورة، وزيد بن علي وابن محيص وخارجة عن أبي عمرو بالألف والنون والكسر وفرقة بياء الغيبة والألف والكسر، ومن فتح العين رفع العذاب ومن كسرها نصبه. (ضعفين) أي: عذابين فيضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر. وقال أبو

(١) أخرجه البخاري ٣٦٧/٩ كتاب الطلاق (٥٢٩٢) ومسلم ١١٠٤/٢ (٢٩ - ١٤٧٨).

(٢) من الكامل لم أهدت لقائله انظر المغني (٥٦/٢) الأشموني (٢٩٢/١) معاهد التنصيص (١٢٨/١).

عبيدة وأبو عمرو وفيها حكى «الطبري» عنها: «أنه يضاف إلى العذاب عذابان، فتكون ثلاثة وكون الأجر مرتين بعد هذا القول، لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأجر في الطاعة، وكان ذلك. أي: تضعيف العذاب عليهن على الله يسيراً. أي: سهلاً وفيه إعلام بأن كونهن نساء مع مقارفة الذنب لا يغني عنهن شيئاً وهو يغني عنهن، وهو سبب مضاعفة العذاب، (ومن يفتت) أي: يطع ويخضع بالعبودية لله، وبالموافقة لرسوله. وقرأ الجمهور (ومن يفتت) بالمذكر حملاً على لفظ (من) (وتعمل) بالتاء حملاً على المعنى (نؤتها) بنون العظمة، وقرأ الجحدري والأسواري ويعقوب في رواية (ومن تفتت) بتاء التانيث حملاً على المعنى وبها قرأ ابن عامر في رواية ورواها أبو حاتم عن أبي جعفر وشيبة ونافع. وقال ابن خالويه: «ما سمعت أن أحداً قرأ (ومن يفتت) إلا بالتاء»، وقرأ السلمي وابن وثاب وحمزة والكسائي بياء من تحت في ثلاثها، وذكر أبو البقاء أن بعضهم قرأ (ومن يفتت) بالياء حملاً على المعنى (ويعمل) بالياء حملاً على لفظ (من) قال: فقال بعض النحويين هذا ضعيف، لأن التذكير أصل لا يجعل تبعاً للتانيث، وما عللوه به قد جاء مثله في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ [الأنعام: ١٣٩] انتهى وتقدم الكلام على (خالصة) في الأنعام، والرزق الكريم، الجنة، قال ابن عطية: «ويجوز أن يكون في ذلك وعد دنياوي. أي: إن أرزاقها في الدنيا على الله، وهو كريم من حيث هو حلال، وقصد، وبرضا من الله في نيته»، وقال بعض المفسرين: «العذاب الذي توعد به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة وكذلك الأجر وهو ضعيف» انتهى. وإنما ضوعف أجرهن، لطلبهن رضا رسول الله بحسن الخلق وطيب المعاشرة، والقناعة، والتوفيق على عبادة الله، (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) أي: ليس كل واحدة منكن كشخص واحد من النساء، أي من نساء عسرك، وليس النفي منصباً على التشبيه في كونهن نسوة تقول: ليس زيد كأحد الناس. لا تريد نفي التشبيه عن كونه إنساناً، بل في وصف أخص موجود فيه وهو كونه عالماً، أو عاملاً، أو مصلياً. فالمعنى: أنه يوجد فيكن من التمييز ما لا يوجد في غيركن، وهو كونكن أمهات المؤمنين، وزوجات خير المرسلين، ونزل القرآن فيكن، فكما أنه - عليه السلام - ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام: «لست كأحدكم»<sup>(١)</sup>، كذلك زوجاته اللاتي تشرفن به، وقال الزمخشري: «أحد في الأصل بمعنى وحد، وهو الواحد، ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه. والمعنى: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء. أي: إذا تقصيت أمة النساء جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل، والسابقة، ومنه قوله عز وجل: ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ [النساء: ١٥٢] يريد بين جماعة واحدة منهم تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين» انتهى. أما قوله: «أحد في الأصل بمعنى وحد وهو الواحد» فصحيح. وأما قوله: «ثم وضع إلى قوله وما وراءه». فليس بصحيح، لأن الذي يستعمل في النفي العام مدلوله غير مدلول واحداً لأن واحداً ينطلق على كل شيء اتصف بالوحدة، وأحد المستعمل في النفي العام مخصوص بمن يعقل. وذكر النحويون: أن مادته همزة وحاء ودال ومادة أحد بمعنى وحد أصله واو وحاء ودال، فقد اختلفا مادة ومدلولاً، وأما قوله: «لستن كجماعة واحدة». فقد قلنا إن قوله (لستن) معناه: ليست كل واحدة منكن، فهو حكم على كل واحدة واحدة ليس حكماً على المجموع من حيث هو مجموع. وقلنا إن معنى كأحد كشخص واحد، فأبقينا أحداً على موضوعه من التذكير ولم نتأوله بجماعة واحدة. وأما ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ [النساء: ١٥٢] فاحتمل أن يكون الذي للنفي العام ولذلك جاء في سياق النفي فعم وصلحت البنية للعموم. واحتمل أن يكون أحد بمعنى واحد، ويكون قد حذف معطوف أي بين واحد وواحد من رسله<sup>(٢)</sup>. كما قال الشاعر:

فَمَا كَانَ بَيْنَ الْخَيْرِ لَوْ جَاءَ سَالِمًا أَبُو حَجَرٍ إِلَّا لَيَالٍ قَلَائِلٌ<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه البخاري بنحوه ٢٤٥/٤ كتاب الصوم (١٩٦٧) والترمذي (٧٧٨) وأحمد في المسند ٢/٢٣.

(٢) وخلاصة هذا أن أحداً في قوله تعالى (لستن كأحد) هو من مادة الهمزة والحاء والدال وهو خاص بالمعلاء، وأن مقتضى الإنصاف كونه بمعنى =

أي : لستن مثلهن إن اتقيتن الله، وذلك لما انضاف مع تقوى الله من صحبة الرسول، وعظيم المحل منه ونزول القرآن في بيتهن، وفي حقهن . وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup> : (إن اتقيتن) إن أردتن التقوى، وإن كن متقيات، (فلا تحضعن بالقول) فلا تجبن بقولكن خاضعاً، أي : ليناً خنتاً مثل كلام المربيات والمومسات . (فيطمع الذي في قلبه مرض) أي : ريبة وفجوراً انتهى . فعلى القول الأول يكون (إن اتقيتن) قيماً في كونهن لسن كأحد من النساء، ويكون جواب الشرط محذوفاً، وعلى ما قاله الزمخشري يكون (إن اتقيتن) ابتداء شرط، وجوابه (فلا تحضعن) وكلا القولين فيهما حل (إن اتقيتن) على تقوى الله تعالى، وهو ظاهر الاستعمال . وعندني : أنه محمول على أن معناه إن استقبلتن أحداً فلا تحضعن . واتقى : بمعنى : استقبل معروف في اللغة . قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَّاوَلْتَهُ وَأَتَقْنَا بِالْيَدِ<sup>(٤)</sup>

أي : استقبلتنا باليد، ويكون هذا المعنى أبلغ في مدحهن، إذ لم يعلق فضيلتهن على التقوى، ولا علق نهيهن عن الخضوع بها، إذ هن متقيات لله في أنفسهن . والتعليق يقتضي ظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى، قال ابن عباس : «لا ترخصن بالقول» . وقال الحسن : «لا تكلمن بالرفث<sup>(٥)</sup>»، وقال الكلبي : «لا تكلمن بما يهوى المريب» . وقال «ابن زيد» : «الخضوع بالقول : ما يدخل في القلب الغزل» وقيل : لا تلن للرجال القول . أمر تعالى أن يكون الكلام خيراً لا على وجه يظهر في القلب علاقة ما يظهر عليه من اللين كما كان الحال عليه في نساء العرب من مكاملة الرجال برخييم الصوت ولينه مثل كلام المومسات فنهان عن ذلك . وقال الشاعر :

بِتَكَلِّمٍ لَوْ تَسْتَطِيعُ كَلَامَهُ لَأَنْتَ لَهُ أَرْوَى الْهَضَابِ الصُّخْرِ

وقال آخر :

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ  
لَرَنَسَا لِرُؤْيَيْتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا  
عَبَدَ الْإِلَهَ ضُرُورَةَ الْمُتَعَبِّدِ  
وَلِحَالِهَا رَشْداً وَإِنْ لَمْ يَرشُدِ

وقرأ الجمهور (فَيُطَمَعُ) بفتح الميم ونصب العين جواباً للنهي . وأبان بن عثمان وابن هرمز بالجزم فكسرت العين لالتقاء الساكنين . نهين عن الخضوع بالقول، ونهي مريض القلب عن الطمع، كأنه قيل : لا تخضع فلا تطعم . وقراءة النصب أبلغ، لأنها تقتضي الخضوع بسبب الطمع، وقال أبو عمر والداني : «قرأ الأعرج وعيسى (فَيُطَمَعُ) بفتح الياء وكسر الميم» . ونقلها ابن خالويه عن أبي السماك قال : «وقد روي عن ابن محيصن وذكر أن الأعرج وهو ابن هرمز قرأ (فَيُطَمَعُ)

= الجماعة كما ذهب إليه الزمخشري ويكون في تفضيل جماعة نساء النبي ﷺ يفصل لكل واحدة منهن بحسب العرف الاستعمالي في تفضيل جماعة على جماعة .

انظر شرح المفصل ٣١/٦ الكافية ١٤٦/٢ روح المعاني ٥/٢٢ .

(٢) من الطويل للنابغة انظر ديوانه (١٢٠) .

(٣) انظر الكشاف ٥٣٧/٣ .

(٤) البيت من الكامل انظر ديوانه (٩٣) الأشموني (١٩١/٢) .

(٥) الرفث : الفحش من القول، وقد رثت بها ومعها .

بضم الياء وفتح العين وكسر الميم، أي: فيطمع هو. أي: الخضوع بالقول، و(الذي) مفعول، أو(الذي) فاعل، والمفعول محذوف، أي: فيطمع نفسه. والمرض: قال قتادة: «النفاق». وقال عكرمة «الفسق والغزل»، (وقلن قولاً معروفاً) والمحرم: وهو الذي لا تنكره الشريعة ولا العقول. قال ابن عباس: «المرأة تندب إذا خالطت الأجنبي عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول من غير رفع الصوت فإنها مأمورة بخفض الكلام». وقال الكلبي: «معروفاً صحيحاً بلا هجر ولا ترميض». وقال الضحّاك: «عنيفاً». وقيل: خشناً حسناً، وقيل: (معروفاً) أي: قولاً أذن لكم فيه، وقيل: ذكر الله وما يحتاج إليه من الكلام. وقرأ الجمهور (وقرن) بكسر القاف من وَقَرِ يَقر إذا سكن، وأصله، أو قرن مثل عدن من وعد وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان وجهاً آخر، قال: فار يقار إذا اجتمع، ومنه القارة، لاجتماعها. ألا ترى إلى قول عضل والديش اجتمعوا فكونوا قارة فالعنى: اجتمع أنفسكن في بيوتكن (وقرن) أمر من قار كما تقول خفن من خاف، أو من القرار، تقول: قررت بالمكان وأصله: وأقررن حذف الراء الثانية تخفيفاً، كما حذفوا لام ظللت ثم نقلت حركتها إلى القاف، فذهبت ألف الوصل. وقال أبو علي: «أبدلت الراء ونقلت حركتها إلى القاف، ثم حذف الياء لسكونها وسكون الراء بعدها». انتهى وهذا غاية في التحميل كعادته. وقرأ عاصم ونافع بفتح القاف، وهي لغة العرب يقولون: قررت بالمكان بكسر الراء وبفتح القاف، حكاه أبو عبيد والزجاج وغيرهما، وأنكرها قوم منهم المازني، وقالوا: بكسر الراء من قرت العين ويفتحها من القرار. وقرأ ابن أبي عبله (وأقررن) بألف الوصل وكسر الراء الأولى، وتقدم لنا الكلام على قررت وأنه بالفتح والكسر من القرار، ومن القرية «أمرهن تعالى بملازمة بيوتهن، ونهاهن عن التبرج، وأعلم تعالى أنه فعل الجاهلية الأولى، وكانت عائشة إذا قرأت هذه الآية بكت حتى تبل خمارها تذكر خروجهما أيام الحمل تطلب بدم عثمان. وقيل لسودة لم لا تحجين وتعتمرين كما يفعل إخوانك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت وأمرني الله أن أقر في بيتي، فما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها». (ولا تبرجن) قال مجاهد وقاتة: التبرج «التبختر والتغنج والتكسر». وقال مقاتل: «تلقي الخمار على وجهها ولا تشده». وقال المبرد: «تبدي من محاسنها ما يجب عليها ستره». (والجاهلية الأولى) يدل على أن ثم جاهلية متقدمة وأخرى متأخرة، فقبل هما، ابنان لآدم سكن أحدهما الجبل، فذكور أولاده صباح، وإناثهم قباح، والآخر السهل، وأولاده على عكس ذلك، فسوى لهم إبليس عيداً يجتمع جميعهم فيه، فمال ذكور الجبل إلى إناث السهل، وبالعكس، فكثرت الفاحشة، فهو تبرج الجاهلية الأولى. وقال عكرمة والحكم بن عيينة: «ما بين آدم ونوح، وهي ثمانمائة سنة كان الرجال صباحاً، والنساء قباحاً فكانت المرأة تدعو الرجل إلى نفسها». وقال ابن عباس أيضاً: «الجاهلية الأولى: ما بين إدريس ونوح كانت ألف سنة تجمع المرأة بين زوج وعشيق». وقال الكلبي وغيره: «ما بين نوح وإبراهيم»، قال مقاتل: «زمن عمروذ بغايا يلبسن أرق الدرود<sup>(١)</sup> وعشيقين في الطرق»، وقال الزمخشري: «والجاهلية الأولى: هي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجهلاء وهي الزمان الذي ولد فيه إبراهيم، كانت المرأة تلبس الدرود من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق، تعرض نفسها على الرجال»، وقال أبو العالية: «زمن داود وسليمان، كان للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين يظهر منه الأكعاب والسواتان». وقال المبرد: «كانت المرأة تجمع بين زوجها وحلمها، للزوج نصفها الأسفل وللحلم نصفها يتمتع به في التقبيل والترشف»، وقيل: «ما بين موسى وعيسى»، وقال الشعبي: «ما بين عيسى ومحمد - ﷺ -»، وقال مقاتل: «الأولى: زمن إبراهيم، والثانية: زمن محمد - عليه الصلاة والسلام وقال عمر لابن عباس: «وهل كانت الجاهلية إلا واحدة فقال ابن عباس: وهل كانت الأولى إلا ولها آخرة فقال عمر لله درك يا ابن عباس». وقال الزمخشري: «والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليها الصلاة والسلام قبل أن يبعث»، وقال الزجاج: «الأشبه قول الشعبي، لأنهم هم الجاهلية المعروفون

(١) الدرود: ودرع المرأة قميصها، وهو أيضاً الثوب الصغير الذي تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها.

كانوا يتخذون البغايا. وإنما قيل الأولى، لأنه يقال لكل متقدم ومتقدمة أول وأولى، وتأويله أنهم تقدموا على أمة - محمد ﷺ - فهم أولى، وهم أول من أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - ويجوز أن يكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام فكان المعنى ولا يجدر بالتبرج جاهلية في الإسلام يتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر، وبعضه ما روي أن رسول الله - ﷺ - قال لأبي الدرداء: إن فيك جاهلية قال جاهلية كفر أم إسلام؟ فقال: بل جاهلية كفر» انتهى والمعروف في الحديث أنه - عليه الصلاة والسلام - إنما قال: إنك امرؤ فيك جاهلية<sup>(١)</sup> لأبي ذر رضي الله عنه. وقال ابن عطية: «والذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي خصها، فأمرن بالنقلة من سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفر، ولأنهم كانوا لا غيره عندهم، وكان أمر النساء دون حجة، وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى، وقد مر إطلاق اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام، فقالوا جاهلي في الشعراء». وقال ابن عباس في البخاري: «سمعت أي في الجاهلية إلى غير هذا». انتهى. (وأقمن الصلاة) أمرهن أمراً خاصاً بالصلاة والزكاة، إذ هما عمود الطاعة البدنية والمالية، ثم جاء بهما في عموم الأمر بالطاعة، ثم بين أن نهين، وأمرهن، ووعظهن إنما هو لإذهاب المأثم عنهن، وتصونهن بالقوى. واستعار الرجز للذنوب، والظهر للقوى، لأن عرض المقترف للمعاصي يتدنس بها، ويتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما الطاعات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة تنفير عما نهى الله عنه، وترغيب فيما أمر به. والرجس: يقع على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسة، وعلى النقائص فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت. وقال الحسن: «الرجس» هنا. الشرك<sup>(٢)</sup>، وقال السدي «الإثم»، وقال ابن زيد<sup>(٣)</sup>: «الشیطان»، وقال الزجاج: «الفسق». وقيل: المعاصي كلها ذكره الماوردي وقيل: الشك. وقيل: البخل والطبع، وقيل: الأهواء والبعد. وانتصب (أهل) على النداء، أو على المدح، أو على الاختصاص، وهو قليل في المخاطب ومنه: «بك الله نرجو الفضل»، وأكثر ما يكون في المتكلم وقوله:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقِ<sup>(٤)</sup>

ولما كان أهل البيت يشملهن وآبائهن غلب المذكر على المؤنث في الخطاب في (عنكم) (ويطهركم) وقول عكرمة ومقاتل وابن السائب: «إن أهل البيت في هذه الآية مختص بزوجاته عليه السلام» ليس بجيد، إذ لو كان كما قالوا لكان التركيب «عنكن» و«يطهركن» وإن كان هذا القول مروياً عن ابن عباس فلعله لا يصح عنه. وقال أبو سعيد الخدري: «هو خاص برسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين». وروي نحوه عن أنس وعائشة وأم سلمة. وقال الضحاك: «هم أهله وأزواجه». وقال زيد بن أرقم والثعلبي: «بنو هاشم الذين يجرمون الصدقة، آل عباس، وآل علي، وآل عقيل، وآل جعفر» ويظهر أنهم زوجاته وأهله فلا تخرج الزوجات عن أهل البيت، بل يظهر أنهم أحق بهذا الاسم، لملازمتهم بيته - عليه الصلاة والسلام - وقال ابن عطية: «والذي يظهر أن زوجاته لا يخرج عن ذلك البتة، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها». وقال الزمخشري<sup>(٥)</sup>: «وفي هذا دليل على أن نساء النبي من أهل بيته، ثم ذكر لهن أن بيوتهن مهابط

(١) لم أجده عن أبي الدرداء وإنما هو في الصحيحين عن أبي ذر أخرجه مسلم في الإيمان رقم (٣٨، ٣٩) والترمذي رقم (٢٨٧١) وأحمد ٥/١٦١ والبيهقي ٧/٨ والبعري في الشرح ٣٣٩/٩ وفي التفسير ٥٢٤/١.

(٢) انظر زاد المسير ٣٨١/٦.

(٣) عويم بن زيد الأنصاري الخزرجي أسلم يوم بدر وشهد أحداً وأحققه عمر بالبدرين وولي قضاء دمشق وله فضائل جمة توفي سنة اثنتين وثلاثين الخلاصة ٣١٠/٢.

(٤) من الرجز لهند بنت عتبة انظر المجمع (١٧١/١).

(٥) انظر الكشاف ٥٣٨/٣.



الوحي ، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : وهو آيات بينات تدل على صدق النبوة ، لأنه معجز بنظمه وهو حكمة وعلوم وشرائع . « (إن الله كان لطيفاً خبيراً) حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم ، فأنزله عليكم . أو علم من يصلح لنبوته ، ومن يصلح لأن تكونوا أهل بيته ، أو حيث جعل الكلام جامعاً بين الغرضين . انتهى ، واتصال (واذكرن) بما قبله يدل على أنهن من البيت ومن لم يدخلهن قال هي ابتداء مخاطبة . (واذكرن) إما بمعنى : احفظنه وتذكرنه وإما اذكرنه لغيركن واروينه حتى ينقل . (ومن آيات الله) هو : القرآن (والحكمة) هي : ما كان من حديثه وستته - عليه الصلاة والسلام - غير القرآن . ويحتمل أن يكون وصفاً للآيات . وفي قوله (لطيفاً) تلين . وفي (خبيراً) تحذير ما ، وقرأ زيد بن علي (ما تتلى) بقاء التأنيث ، والجمهور بالياء . وروي : أن نساءه - عليه الصلاة والسلام - قلن : يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكرنا ، وقيل : السائلة أم سلمة ، وقيل : لما نزل في نسائه ما نزل ، قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شيء؟ فنزلت (إن المسلمين) الآية . وهذه الأوصاف العشرة تقدم شرحها فبدأ أولاً بالانقياد ، الظاهر ، ثم بالتصديق ، ثم بالأوصاف التي بعدهما تدرج في الإسلام وهو الانقياد . وفي الإيمان وهو التصديق . ثم ختمها بحلة المراقبة ، وهي : ذكر الله كثيراً ولم يذكر هذه الأوصاف متعلقاً إلا في قوله (والحافظين فروجهم) (والذاكرين الله كثيراً (نص على متعلق الحفظ ، لكونه منزلة العقلاء ومركب الشهوة الغالبة ، وعلى متعلق الذكر بالاسم الأعظم - وهو لفظ الله - ، إذ هو العلم المحتوي على جميع أوصافه ليتذكر المسلم من تذكره وهو الله تعالى ، وحذف من الحافظات والذاكرات المفعول ، للدلالة ما تقدم ، والتقدير : والحافظاتها والذاكراته . (أعد الله لهم) غلب الذكور ، فجمع الإناث معهم ، وأدرجهم في الضمير ، ولم يأت التركيب «لهم ولهن» . ﴿وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضللاً مبيناً وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكم لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ . قال الجمهور وابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم : خطب الرسول لزيد زينب بنت جحش ، فأبت ، وقالت : لست بناكحة . فقال : بلى فانكحيه فقد رضيتك لك . فأبت . فنزلت . وذكر أنها وأخاها عبد الله كرها ذلك ، فلما نزلت الآية رضى<sup>(١)</sup> ، وقال ابن زيد : «وهبت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط - وهي أول امرأة وهبت - للنبي - ﷺ - نفسها ، فقال : قد قبلتك وزوجتك زيد بن حارثة . فسخطت هي وأخوها ، قالوا : إنما أردناه فزوجنا عبده» فنزلت<sup>(٢)</sup> . والسبب الأول أصح . ومناسبة هذه الآية : أنه لما ذكر تلك الأوصاف السابقة من الإسلام فما بعده ، عقب ذلك بما صدر من بعض المسلمين ، إذ أشار الرسول بأمر وقع منهم الإيذاء له ، فأنكر عليهم ، إذ طاعته - عليه السلام - من طاعة الله ، وأمره من أمره . والخيرة : مصدر من تخير على غير قياس كالطيرة من تطير . وقرىء بسكون الياء . ذكره عيسى بن سليمان ، وقرأ الحرمان والعريبان وأبو جعفر وشيبة والأعرج وعيسى (أن تكون) بقاء التأنيث والكوفيون والحسن والأعمش والسلمي بالياء . ولما كان قوله (للمؤمن ولا مؤمنة)

(١) انظر زاد المسير ٦/٣٨٥ والقرطبي ١٤/١٢١ .

(٢) انظر زاد المسير ٦/٣٨٥ والقرطبي ١٤/١٢١ .

يعم في سياق النفي جاء الضمير مجموعاً على المعنى في قوله لهم مغلباً فيه المذكر على المؤنث. وقال الزمخشري: «كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا». انتهى. ليس كما ذكر، لأن هذا عطف بالواو فلا يجوز إفراد الضمير إلا على تأويل الحذف. أي: ما جاءني من رجل إلا كان من شأنه كذا. وتقول: ما جاء زيد ولا عمرو إلا ضرباً خالداً. ولا يجوز إلا ضرب إلا على الحذف كما قلنا (وإذ تقول) الخطاب للرسول عليه السلام (لذي أنعم الله عليه) بالإسلام، وهو أجل النعم. وهو زيد بن حارثة الذي كان الرسول تبناه (وأنعمت عليه) وهو: عتقه وتقدّم طرف من قصته في أوائل السورة. (أمسك عليك زوجك) وهي: زينب بنت جحش، وتقدّم أن الرسول كان خطبها له. وقيل: (أنعم الله عليه) بصحبتك ومودتك (وأنعمت عليه) بتبنيه، فجاء زيد فقال: يا رسول الله إني أريد أن أفارق صاحبتني، فقال: أرأيتك منها شيء؟ قال: لا والله، ولكنها تعظم عليّ لشرفها، وتؤذي بلسانها، فقال (أمسك عليك زوجك) أي: لا تطلقها، وهو أمر نذب (واتق الله) في معاشرتها، فطلقها، وتزوجها رسول الله - ﷺ - بعد انقضاء عدتها. وعلل تزويجه إياها بقوله (لكي لا يكون على المؤمنين حرج) في أن يتزوجوا زوجات من كانوا تبنيه إذا فارقوهن، وأن هؤلاء الزوجات ليست داخلات فيما حرم في قوله: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ [النساء: ٢٣]، وقال علي بن الحسين: «كان قد أوحى الله إليه أن زيداً سيطلقها، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما شكك زيد خلقها وأنها لا تطيعه، وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له: أمسك عليك زوجك واتق الله على طريق الأدب والوصية، وهو يعلم أنه سيطلقها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه ولم يرد أنه يأمره بالطلاق، ولما علم من أنه سيطلقها، وخشي رسول الله أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله على هذا القدر في شيء قد أباحه الله بأن قال أمسك مع علمه أنه يطلق فأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال» انتهى. وهذا المروي عن علي بن الحسين هو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين كالزهري وبكر بن العلاء والقشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. والمراد بقوله (وتخشى الناس) إنما هو إرجاف المنافقين في تزويج نساء الأبناء. والنيبي - ﷺ - معصوم في حركاته وسكناته. ولبعض المفسرين كلام في الآية يقتضي النقص من منصب النبوة ضربنا عنه صفحاً. وقيل: قوله (واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه) خطاب من الله عز وجل أو من النبي - ﷺ - لزيد فإنه أخفى الميل إليها وأظهر الرغبة عنها لما توهم أن رسول الله - ﷺ - أراد أن تكون من نسائه، انتهى. وللزمخشري في هذه الآية كلام طويل، وبعضه لا يليق ذكره بما فيه غير صواب مما جرى فيه على مذهب الاعتزال وغيره، واخترت منه ما أنصه قال: «كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من إطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات لعظم أثرها في الدين، ويجل ثوابها، ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتي فضلاً، وعلماً، وديناً، ونظراً في حقائق الأشياء، ولبابها دون قشورها، ألا ترى أنهم كانوا إذا طمعوها في بيوت رسول الله - ﷺ - بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يديمون مستأنسين بالحديث وكان رسول الله ﷺ يؤذيه قعودهم، ويضيق صدره حديثهم، والحياء يصدّه أن يأمرهم بالانتشار حتى نزلت ﴿إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق﴾ [الأحزاب: ٥٣] ولو أبرز رسول الله - ﷺ - مكنون ضميره، وأمرهم أن ينتشروا لشق عليهم، ولكان بعض المقالة، فهذا من ذلك القبيل، لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها غير موصوف بالقبیح في العقل ولا في الشرع، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استئزال زيد عنها، ولا طلب إليه، ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل منهم عن امرأته لصديقه ولا مستهجنأ إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر، فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شيء حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداها وأنكحها المهاجر، وإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح، ولا مفسدة، ولا مضرة بزيد، ولا بأحد، بل كان مستجراً مصالِح ناهيك

بواحدة منها أن بنت عمه رسول الله - ﷺ - أمنت الأيمه<sup>(١)</sup>، والضيعة ونالت الشرف، وعادت أما من أمهات المؤمنين إلى ما ذكر الله عز وجل من المصلحة العامة في قوله (لكي لا يكون) الآية». انتهى. ما اخترناه من كلام الزمخشري. وقوله (أمسك عليك) فيه وصول الفعل الرفع الضمير المتصل إلى الضمير المجرور وهما لشخص واحد فهو كقوله:

هُوَ عَلَيْكَ وَدَعَّ عَنْكَ نَهْيًا صَبِيحَ فِي حُجْرَاتِهِ<sup>(٢)</sup>

وذكروا في مثل هذا التركيب أن على وعن اسمان ولا يجوز أن يكونا حرفين، لامتناع فكر فيك وأعنى بك، بل هذا مما يكون فيه النفس. أي: فكر في نفسك وأعني بنفسك. وقد تكلمنا على هذا في قوله: ﴿وهزي إليك﴾ [مریم: ٢٥] ﴿واضمم إليك جناحك﴾ [القصص ٣٢] وقال الحوفي «(وتخفي في نفسك) مستأنف (وتخشى) معطوف على (وتخفي)». وقال الزمخشري: «واو الحال. أي: تقول لزيد (أمسك عليك زوجك) مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها وتخفي خاشياً قاله الناس. أو واو العطف، كأنه قيل: وأن تجمع بين قولك أمسك وإخفاء قاله وخشية الناس». انتهى. ولا يكون (وتخفي) حالاً على إضمار مبتدأ، أي: وأنت تخفي لأنه مضارع مثبت، فلا يدخل عليه الواو إلا على ذلك الإضمار (وهو مع ذلك قليل نادر لا يبنى على مثله القواعد<sup>(٣)</sup>). ومنه قولهم: قمت وأصك عينه. أي وأنا أصك عينه (والله أحق أن تخشاه) تقدم إعراب نظيره في التوبة. (فلما قضى زيد منها وطراً) أي: حاجة. قيل: وهو الجماع، قاله ابن عباس. وروى أبو عصمة نوح بن أبي مریم بإسناد رفعه إلى زينب أنها قالت: «ما كنت أمتنع منه غير أن الله معني منه». وقيل: «إنه مذ تزوجها لم يتمكن من الاستمتاع بها». وروي: أنه كان يتورم ذلك منه حين يريد أن يقربها. وقال قتادة: «الوطر: هنا الطلاق»، وقرأ الجمهور (زَوْجًا كَهَا) بنون العظمة وجعفر بن محمد وابن الحنفية وأخواه الحسن والحسين وأبوهم علي (زَوْجْتُكَهَا) بناء الضمير للمتكلم. ونفى تعالى الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهن بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهن. (وكان أمر الله) أي: مقتضى أمر الله أو مضمن أمره. قال ابن عطية: «وإلا فالأمر قديم لا يوصف بأنه مفعول، ويحتمل على بعد أن يكون الأمر واحد الأمور التي شأنها أن تفعل»، وقال الزمخشري: «وكان أمر الله الذي يريد أن يكونه مفعولاً مكوناً لا محالة، وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله - ﷺ - زينب، ويجوز أن يراد بأمر الله المكون لأنه مفعول يكن، ولما نفى الحرج عن المؤمنين فيما ذكر واندرج الرسول فيهم، إذ هو سيد المؤمنين نفى عنه الحرج بخصوصه، وذلك على سبيل التكريم، والتشريف، ونفى الحرج عنه مرتين (إحداهما) بالاندرج في العموم، والأخرى: بالخصوص. (فيما فرض الله له) قال الحسن: «فيما خص به من صحة النكاح بلا صداق». وقال قتادة: «فيما أحل له» وقال الضحاك: «في الزيادة على الأربع، وكانت اليهود عابوه بكثرة النكاح، وكثرة الأزواج، فرد الله عليهم بقوله (سنة الله) أي: في الأنبياء بكثرة النساء، حتى كان لسليمان - عليه السلام - ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية وكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سرية». وقيل: الإشارة: إلى أن الرسول جمع بينه وبين زينب كما جمع بين داود وبين التي تزوجها بعد قتل زوجها. وانتصب (سنة الله) على أنه اسم مريض موضع المصدر قاله الزمخشري<sup>(٤)</sup>: أو على المصدر أو على إضمار فعل، تقديره: الزم أو نحوه، أو على الإغراء كأنه قال فعليه سنة الله. قال ابن عطية: «وقوله أو على الإغراء ليس بجيد، لأن عامل الاسم في الإغراء لا يجوز حذفه،

(١) الأيم في الأصل: التي لا زوج لها، بكرأ كانت أو ثيباً. مطلقة كانت أو متوفى عنها.

لسان العرب (١/١٩١)

(٢) من المتقارب للأعور الشني انظر الكتاب (٦٤/١) المقتضب (١٩٦/٤) المجمع (٢٩/٢) المغني (١/١٢٨).

(٣) انظر شرح الكافية ٢١٢/١ الصبان ١٨٩/٢ التصريح ٣٩٢/١ الأشموني ١٨٧/٢ شرح الفصل ٦٥/٢.

(٤) انظر الكشف ٥٤٠/٣.

وأيضاً، فتقديره: فعله سنة الله بضمير الغيبة. ولا يجوز ذلك في الإغراء، إذ لا يغرى غائب. وما جاء من قولهم: عليه رجلاً ليسني. له تأويل وهو مع ذلك نادر، و(الذين خلوا) الأنبياء بدليل وصفهم بعد قوله (الذين يبلغون رسالات الله) وكان أمر الله) أي: مأموراته والكائنات من أمره، فهي مقدورة. وقوله (قدراً) أي: ذا قدر. أو عن قدر، أو قضاء مقضياً، وحكماً مشبوتاً و(الذين) صفة (الذين خلوا) أو مرفوع، أو منصوب على إضمارهم، أو على أمدح. وقرأ عبد الله (الذين بلغوا) جعله فعلاً ماضياً. وقرأ أبي (رسالة الله) على التوحيد. والجمهور (يبلغون رسالات) جمعاً (وكفى بالله حسيباً) أي: محاسباً على جميع الأعمال والعقائد. أو محاسباً، أي: كافياً. ثم نفى تعالى كون رسوله أبا أحد من رجالكم بينه وبين من تبناه من حرمة الصهارة<sup>(١)</sup> والنكاح ما يثبت بين الأب وولده هذا مقصود هذه الجملة، وليس المقصود أنه لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج في أمر بنه بأنهم كانوا ماتوا ولا في أمر الحسن والحسين بأنهما كانا طفلين وإضافة (رجالكم) إلى ضمير المخاطبين يخرج من كان من بنيه، لأنهم رجاله لا رجال المخاطبين وقرأ الجمهور (ولكن رسول) بتخفيف لكن ونصب رسول على إضمار كان لدلالة كان المتقدمة عليه. قيل: أو على العطف على (أبا أحد). وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالتشديد والنصب على أنه خبر (لكن) والخبر محذوف، تقديره: «ولكن رسول الله وخاتم النبيين هو» أي: محمد - ﷺ - وحذف خبر لكن وأحواتها جائز إذا دل عليه الدليل، ومما جاء في ذلك قول الشاعر:

فَلَوْ كُنْتُ ضَبِيًّا عَرَفْتُ قَرَابَتِي      وَلَكِنْ زَنْجِيًّا عَظِيمَ الْمَشَافِرِ<sup>(٢)</sup>

أي: أنت لا تعرف قرابتي. وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة بالتخفيف ورفع ورسوله وخاتم. أي: ولكن هو رسول الله. كما قال الشاعر:

وَلَسْتُ الشَّاعِرَ السَّقَاةَ بِهِمْ      وَلَكِنْ مَدْرَةَ الْحَرْبِ الْعَوَالِ<sup>(٣)</sup>

أي: لكن أنا مدرة، وقرأ الجمهور (وخاتم) بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم، أي: جاء آخرهم. وروي عنه أنه قال: «أنا خاتم ألف نبي». وعنه «أنا خاتم النبيين»<sup>(٤)</sup>. في حديث، وروي عنه - عليه السلام - ألفاظ تقتضي نصاً أنه لاني بعده - ﷺ - والمعنى: أنه لا يتنبأ أحد بعده، ولا يرد نزول عيسى آخر الزمان، لأنه ممن نبيء قبله وينزل عاملاً على شريعة محمد - ﷺ - مصلياً إلى قبلته كأنه بعض أمته، قال ابن عطية: «وما ذكره القاضي أبو الطيب في كتابه المسمى بالهداية من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالاعتقاد، وتطرق إلى ترك تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد - ﷺ - النبوة فالخذر الخذر منه، والله الهادي برحمته». وقرأ الحسن والشعبي وزيد بن علي والأعرج بخلاف وعاصم بفتح التاء بمعنى: أنهم به ختموا، فهو كالخاتم، والطابع لهم، ومن ذهب

(١) الصهارة: الصهر القرابة، وختن الرجل صهره، والمتزوج فيهم أصهار الختن والأصهار أهل بيت المرأة، ولا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان.

لسان العرب (٤/٢٥١٥)

(٢) من الطويل للفرزدق انظر الكتاب (١٣٦/٢) المحتسب (١٨٢/٢) أسرار البلاغة (١٢٩) ابن يعيش (٨١/٨) المصع (١٣٦/١) المقرب (١٠٨/١).

(٣) من الوافر لم نهند لقائله وذكره السمين في الدر المصون.

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل رقم (٢٢) والترمذي رقم (٢٢١٩) وأبو داود في الفتن باب رقم (١) وأحمد في المسند ٢/٣٩٨ والطبراني في الكبير

إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع أو إلى أن الولي أفضل من النبي فهو زنديق يجب قتله، وقد ادعى النبوة ناس فقتلهم المسلمون على ذلك، وكان في عصرنا شخص من الفقهاء ادعى النبوة بمدينة مالقة فقتله السلطان ابن الأحمر ملك الأندلس بغرناطة وصلب إلى أن تآثر لحمه (وكان الله بكل شيء عليماً) هذا عام. والقصد هنا: علمه تعالى بما رآه الأصلح لرسوله، وبما قدره في الأمر كله، ثم أمر المؤمنين بذكره بالثناء عليه، وتحميده، وتقديسه، وتنزيهه عما لا يليق به. والذكر الكثير، قال ابن عباس: «إن لا ينساه أبداً، أو التسييح مندرج في الذكر لكنه خص بأنه ينزهه تعالى عما لا يليق به فهو أفضل أو من أفضل الأذكار». وعن قتادة: «قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله». وعن مجاهد: «هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب» (بكرة وأصيلاً) يقتضيهما اذكروا وسبحوا. والنصب بالثاني على طريق الإعمال، والوقتان: كناية عن جميع الزمان. ذكر الطرفين إشعاراً بالاستغراق. وقال ابن عباس: «أي: صلوا صلاة الفجر والعشاء<sup>(١)</sup>». وقال الأخصس: «ما بين العصر إلى العشاء»، وقال قتادة: «الإشارة بهذين الوقتين إلى صلاة الغداة وصلاة العصر»، ويجوز أن يكون الأمر بالذكر وإكثاره تكثر الطاعات، والإقبال على الطاعات، فإن كل طاعة وكل خير من جملة الذكر، ثم خص من ذلك التسييح بكرة وأصيلاً، وهي الصلاة في جميع أوقاتها تفضل الصلاة غيرها، أو صلاة الفجر والعشاء، لأن أداءهما أشق. ولما أمرهم بالذكر والتسييح ذكر إحسانه تعالى بصلاته عليهم هو وملائكته. قال الحسن «(يصلي عليكم) يرحمكم»، وقال ابن جبير: «يعفر لكم»، وقال أبو العالية: «يثني عليكم». وقيل: يتأرف بكم. وصلاة الملائكة: الاستغفار كقوله تعالى: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ [غافر: ٧] وقال مقاتل: «الدعاء، والمعنى: هو الذي يترحم عليكم حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار الذكر والطاعة، ليخرجكم من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة». وقال ابن زيد: «من الضلالة إلى الهدى»، وقال مقاتل: «من الكفر إلى الإيمان». وقيل: «من النار إلى الجنة». حكاها الماوردي. وقيل: «من القبور إلى البعث» (وملائكته) معطوف على الضمير المرفوع المستكن في (يصلي) فأغنى الفصل بالجار والمجرور عن التأكيد. وصلاة الله غير صلاة الملائكة فكيف اشتركا في قدر مشترك وهو إرادة وصول الخير إليهم، فالله تعالى يريد برحمته إياهم بإرسال الخير إليهم، وملائكته يريدون بالاستغفار ذلك. وقال الزمخشري: «جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة. كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة، ونظيره قولهم: «حياك الله». أي: أحياك وأبقاك. وحييتك: أي دعوت لك بأن يحييك الله، لأنك لا تكالك على إجابة دعوتك كأنك تبقيه على الحقيقة، وكذلك عمرك الله، وعمرتك، وسقاك الله، وسقيتك، وعليه قوله (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أي: ادعوا له بأن يصل عليه. (وكان بالمؤمنين رحيماً) دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة. انتهى. وما ذكره من قوله: كأنهم فاعلون، فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، وما ذكرناه من أن الصلاتين اشتركتا في قدر مشترك أولى. (تحيتهم يوم يلقونه) أي: يوم القيامة. (سلام) أي: تحية الله لهم يقول للمؤمنين: «السلام عليكم مرحباً بعبادي الذين أرضوني باتباع أمري». قاله الرقاشي. وقيل يحییهم الملائكة بالسلامة من كل مكروه. وقال البراء بن عازب: «معناه: أن ملك الموت لا يقبض روح المؤمن حتى يسلم عليه. وقال ابن مسعود: «إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن، قال: ربك يقروك السلام». قيل: فعلى هذا الهاء في قوله (يلقونه) كناية عن غير مذكور، وقيل: سلام الملائكة عند خروجهم من القبور. وقال قتادة: «يوم دخولهم الجنة يحيي بعضهم بعضاً بالسلامة. أي: سلمنا وسلمت من كل مخوف. وقيل: تحييم الملائكة يومئذ. وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم. وبشارتهم بالجنة. والتحية: مصدر في هذه الأقوال أضيف إلى المفعول إلا في قول من قال إنه مصدر مضاف لمحي والمحي لا على جهة العمل، لأن الضمير الواحد لا يكون فاعلاً مفعولاً، ولكنه كقوله: ﴿وكننا لحكمهم شاهدين﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي: للحكم الذي جرى بينهم وليبعث إليهم فكذلك هذه التحية الجارية بينهم هي سلام. وفرق المبرد بين

(١) انظر زاد المسير ٦/٣٩٧، ٣٩٨، والقرطبي ١٤/١٢٧، ١٢٨.

التحية والسلام فقال: «التحية يكون ذلك دعاء، والسلام مخصوص. ومنه (ويلقون فيها تحية وسلاماً) والأجر الكريم: الجنة (شاهداً) على من بعثت إليهم، وعلى تكذيبهم وتصديقهم. أي: مفعولاً قولك عند الله، وشاهداً بالتبليغ إليهم، وتبليغ الأنبياء قولك. وانتصب (شاهداً) على أنه حال مقدرة إذا كان قولك عند الله وقت الإرسال لم يكن شاهداً عليهم وإنما يكون شاهداً عند تحمل الشهادة وعند أدائها، أو لأنه أقرب زمان البعثة، وإيمان من آمن، وتكذيب من كذب كأن ذلك وقع في زمان واحد. (وداعياً إلى الله) قال ابن عباس: «شهادة أن لا إله إلا الله»، وقال ابن عيسى: «إلى الطاعة» (بإذنه) أي: بتسهيله وتيسيره، ولا يراد به حقيقة الإذن، لأنه قد فهم في قوله (إنا أرسلناك داعياً) أنه مأذون له في الدعاء، ولما كان دعاء المشرك إلى التوحيد صعباً جداً قيل (بإذنه) أي: بتسهيله تعالى (وسراجاً منيراً) جلي من ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلي ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدي به إذ أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار. ووصفه بالإضاءة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليله ودقت فتيلته. وقال الزجاج: «هو معطوف على شاهداً. أي: وإذا سراج منير أي: كتاب نير. وقال الفراء: «إن شئت كان نصباً على معنى وتالياً سراجاً منيراً. وقال الزمخشري: «ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف (أرسلناك) انتهى. ولا يتضح هذا الذي قاله، إذ يصير المعنى: أرسلناك سراج منير. وهو القرآن، ولا يوصف بالإرسال القرآن، وإنما يوصف بالإنزال وكذلك أيضاً إذا كان التقدير: وتالياً: يصير المعنى: أرسلناك تالياً سراجاً منيراً. ففيه عطف الصفة التي للذات على الذات، كقولك: رأيت زيداً والعالم إذا كان العالم صفة لزيد، والعطف مشعر بالتغاير، لا يحسن مثل هذا التخريج في كلام الله، ثم حمل على ما تقتضيه الفصاحة والبلاغة، ولما ذكر تعالى أنه أرسل نبيه شاهداً إلى آخره تضمن ذلك الأمر بتلك الأحوال، فكأنه قال فاشهد وبشر وأذرع وأدع وأنه ثم قال (وبشر المؤمنين) فهذا متصل بما قبله من جهة المعنى وإن كان يظهر أنه منقطع من الذي قبله. والفضل الكبير: الثواب من قولهم: للعطايا فضول وفواضل. أو المزيد على الثواب، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب أو ما فضلوا به على سائر الأمم، وذلك من جهته تعالى، أو الجنة وما أوتوا فيها، ويفسر ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ [الشورى ٢] (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهي له - عليه السلام - عن السماع منهم في أشياء كانوا يطلبونها مما لا يجب وفي أشياء ينتصحون بها وهي غش. (ودع أذاهم) الظاهر: إضافته إلى المفعول. لما نهي عن طاعتهم أمر بتركه إذيتهم، وعقوبتهم، ونسخ منه ما ينخص الكافرين بأية السيف. (وتوكل على الله) فإنه ينصرك ويخذلهم. ويجوز أن يكون مصدرًا مضافاً للفاعل، أي: ودع إذيتهم إياك: أي: مجازاة الإذابة من عقاب وغيره حتى تؤمر. وهذا تأويل مجاهد. ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعهن وسرحوهن سراحاً جميلاً يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيامهم لكي لا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبذل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً﴾.

لما ذكر تعالى قصة زيد وزينب وتطليقه إياها، وكانت مدخولاً بها واعتدت، وخطبها الرسول - عليه السلام - بعد انقضاء عدتها بين حال من طلقت قبل المسيس، وأنها لا عدة عليها. ومعنى (نكحتم) عقدتم عليهن. وسمي العقد نكاحاً، لأنه سبب إليه كما سميت الخمر إنمًا، لأنها سبب له: قالوا: ولفظ النكاح في كتاب الله لم يرد إلا في العمد، وهو من

آداب القرآن كما كني عن الوطء بالمهاسة، والملامسة، والقربان، والتغشي، والإتيان. قيل: إلا في قوله (حتى تنكح زوجاً غيره) فإنه بمعنى الوطء. وقد تقدم الكلام عليه في البقرة. والكتبايات. وإن شاركت المؤمنات في هذا الحكم، فخصيص المؤمنات بالذكر، تنبيه على أن المؤمن لا ينبغي أن يتخير لظفته إلا المؤمنة. وفائدة المجيء بـ (ثم) وإن كان الحكم ثابتاً إن تزوجت وطلقت على الفور ولمن تأخر طلاقها. قال الزمخشري: «نفي التوهم عن عسى يتوهم عمن تفاوت الحكم بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يعدها بالنكاح وتتراخي بها المدة في حباله الزوج ثم يطلقها»، انتهى واستعمل صلة لمن عسى وهو لا يجوز، أو لوحظ في ذلك الغالب فإن من أقدم على العقد على امرأة إنما يكون ذلك لرغبة فيبعده أن يطلقها على الفور، لأن الطلاق مشعر بعدم الرغبة فلا بد أن يتخلل بين العقد والطلاق مهلة يظهر فيها للزوج نأيه عن المرأة وأن المصلحة في ذلك له. والظاهر: أن الطلاق لا يكون إلا بعد العقد، ولا يصح طلاق من لم يعقد عليها عنها أو قبيلتها أو البلد وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين. وقالت طائفة كبيرة منهم مالك يصح ذلك. والظاهر: أن المسيس هنا كناية عن الجماع وأنه إذا خلاها ثم طلقها لا يعقد. وعند أبي حنيفة وأصحابه: حكم الخلوة الصحيحة حكم المسيس. والظاهر: أن المطلقة رجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتها ثم فارقها قبل أن يمسه لا تتم عدتها من الطلقة الأولى ولا تستقبل عدة لأنها مطلقة قبل الدخول وبه قال داود. وقال عطاء وجماعة: «تمضي في عدتها عن طلاقها الأول». وهو أحد قول الشافعي. وقال مالك: «لا تبني على العدة من الطلاق الأول وتستأنف العدة من يوم طلقها الطلاق الثاني، وهو قول فقهاء جمهور الأمصار» والظاهر أيضاً أنها لو كانت بائناً غير مبتوتة فتروجها في العدة ثم طلقها قبل الدخول كالرجعية في قول داود ليس عليها عدة لا بقية عدة الطلاق الأول ولا استئناف عدة الثاني ولها نصف المهر. وقال الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب ومالك الشافعي وعثمان النبي وزفر: «لها الصداق وتتم بقية العدة الأولى». وقال الثوري والأوزاعي وأبو حنيفة وأبو يونس: «لها مهر كامل للنكاح الثاني وعدة مستقبله جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه»، وقرأ الجمهور (تعتدونها) بتشديد الدال. افتعل من العد، أي: تستوفون عددها، من قولك: عد الدراهم فاعتدها. أي: استوفى عددها نحو قولك: كلته واكتاله وزنته فاتزنته، وعن ابن كثير وغيره، من أهل مكة بتخفيف الدال ونقلها عن ابن كثير ابن خالويه وأبو الفضل الرازي. وقال ابن عطية: «وروي عن أبي برزة عن ابن كثير بتخفيف الدال من العُدوان كأنه قال: فما لكم عدة تلمسونها عدواناً وظلماً هن». والقراءة الأولى أشهر عن ابن كثير وتخفيف الدال وهم من أبي برزة. انتهى. وليس بوهم، إذ قد نقلها عن ابن كثير ابن خالويه وأبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح في شواذ القراءات» ونقلها الرازي المذكور عن أهل مكة وقال: «هو من الاعتداد لا محالة، لكنهم كرهوا التضعيف فحذفوه، فإن جعلت من الاعتداء الذي هو الظلم ضعف، لأن الاعتداء يتعدى بـ (على) انتهى. وإذا كان يتعدى بـ (على) فيجوز أن لا يحذف على ويصل الفعل إلى الضمير نحو قوله:

نَحْنُ قَتَبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ وَأُخْفِي الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لَفَضَّانِي<sup>(١)</sup>

أي لقضي عليّ، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «وقرىء (تعتدونها) مخففاً». أي: تعتدون فيها، كقوله:

ويوماً شهدناه

والمراد بالاعتداء ما في قوله «ولا تمسكون ضراً لتعتدوا» [البقرة ٢٣١] انتهى. ويعني أنه اتصل بالفعل لما حذف حرف الجر وصل الفعل إلى ضمير العدة كقوله:

(١) البيت من الطويل نسب لعروة بن حزام انظر المغني (١/١٢٥) (٢/١٤٢) شرح الجمل (١/٣٠٧) الكامل (١/٣٢) الممع (٢/٢٩).

(٢) انظر الكشاف ٥٤٩/٣.

وَيَوْمًا شَهِدْنَا هُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا<sup>(١)</sup>

إي : شهدنا فيه . وأما على تقدير على فالعنى : تعتدون عليهنّ فيها . وقرأ الحسن بإسكان العين كغيره وتشديد الدال جمعاً بين الساكنين . وقوله (فما لكم) يدل على أن العدة حق الزوج فيها غالب ، وإن كانت لا تسقط بإسقاطه لما فيه من حق الله تعالى . والظاهر : أن من طلقت قبل المسيس لها المتعة مطلقاً سواء كانت ممدودة أم مفروضاً لها . وقيل : يختص هذا الحكم بمن لا مسمى لها . والظاهر : أن الأمر في (فمتموهن) للوجوب . وقيل للندب . وتقدم الكلام مشبعاً في المتعة في البقرة . والسراح الحميل : هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب . وقيل : أن لا يطالبها بما آتاها . ولما بين تعالى بعض أحكام أنكحة المؤمنين أتبعه بذكر طرف من نساء النبي - ﷺ - والأجور : المهور ، لأنه أجز على الاستمتاع بالوضع وغيره مما يجوز به الاستمتاع . وفي وصفهنّ بـ (اللاتي آتيت أجورهن) تنبيه على أن الله اختار لنبية الأفضل والأولى ، لأن إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيرها ليتفصي<sup>(٢)</sup> الزوج عن عهدة الدين وشغل ذمته به ، ولأن تأخيرها يقتضي أنه يستمتع بها مجاناً دون عوض تسلمته . والتعجيل كان سنة السلف لا يعرف منهم غيره ، ألا ترى إلى قوله - عليه السلام - لبعض الصحابة حين شكوا حالة الزوج «فأين درعك الحطمية؟»<sup>(٣)</sup> وكذلك تخصيص ما ملكت يمينه بقوله (مما آفأه الله عليك) لأنه إذا كانت مسببة فملكها مما غنمه الله من أهل دار الحرب كانت أحل وأطيب مما تشتري من الجلب ، فما سبي من دار الحرب قيل فيه سبي طيبة ومن له عهد قيل فيه سبي خبيثة ، وفيء الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث . والظاهر : أن قوله ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ مخصوص لفظه (أزواجك) بمن كانت في عصمته كعائشة وحفصة ومن تزوجها بمهر . وقال ابن زيد : «أي : من تزوجها بمهر ، ومن تزوجها بلا مهر ، وجميع النساء حتى ذوات المحارم من مهوره ورقيقة وواهة نفسها مخصوصة به» . ثم قال بعد (ترجي من تشاء منهن) أي : من هذه الأصناف كلها ، ثم الضمير بعد ذلك يعم إلى قوله (ولا أن تبدل بهنّ من أزواج) فينقطع من الأول ويعود على أزواجه التسع فقط . وفي التأويل الأول تضييق . وعن ابن عباس : «كان رسول الله - ﷺ - يتزوج أي النساء شاء ، وكان ذلك يشق على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا من سمي سر نسائه بذلك» . وملك اليمن إنما يعلقه في النادر ، وبنات العم ومن ذكر معهنّ يسير ، ومن يمكن أن يتزوج منهنّ محصور عند نسائه ولا سبياً وقد قرن بشرط الهجرة ، والواجب أيضاً من النساء قليل فلذلك سر بانحصار الأمر ثم مجيء (ترجي من تشاء منهن) إشارة إلى ما تقدم ثم مجيء (ولا أن تبدل بهنّ من أزواج) إشارة إلى أن أزواجه اللواتي تقدم النص عليهنّ بالتحليل فيأتي الكلام مثبتاً مطرداً أكثر من اطراده على التأويل الآخر . (وبنات عمك) قالت أم هانئ بنت أبي طالب<sup>(٤)</sup> : «خطبني رسول الله - ﷺ - فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم نزلت هذه الآية فحرمتمني عليه ، لأنني لم أهاجر معه ، وإنما كنت من الطلقاء والتخصيص بـ (اللاتي هاجرن معك) لأن من هاجر معه من قرابته غير المحارم أفضل من غير المهاجرات . وقيل : شرط الهجرة في التحليل منسوخ . وحكى الماوردي في ذلك قولين ، أحدهما : أن الهجرة شرط في إحلال الأزواج على الإطلاق . والثاني : أنه شرط في إحلال قرابات المذكورات في الآية دون الأجنبية . والمعية هنا : الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها ، فيقال : دخل فلان معي وخرج معي ، أي : كان عمله كعملي وإن لم يقرننا في الزمان . ولو قلت : فرجعنا

(١) تقدم .

(٢) فصي الشيء من الشيء نصياً : فصله .

لسان العرب (٥/٣٤٢٤)

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح باب (٣٦) والنسائي ٦/١٢٩ ، ١٣٠ ، والبيهقي ٧/٢٣٤ ، ٢٥٢ ، وفي الدلائل ٣/١٦١ والخطيب في

التاريخ ٤/١٩٣ وذكره الهيثمي في المجمع ٤/٢٨٣ .

(٤) أم هانئ بنت أبي طالب الهاشمية اسمها فاختة وقال أحمد : هند أسلمت يوم الفتح الخلاصة ٣/٤٠٣ - ٤٠٤ .



معاً، اقتضى المعنيان الاشتراك في الفعل، والاقتران في الزمان. وأفرد العم والخال، لأنه اسم جنس، والعممة والخاله كذلك. وهذا حرف لغوي قاله أبو بكر بن العربي القاضي. (وامرأة مؤمنة)، قال ابن عباس وقتادة: «هي ميمونة بنت الحارث<sup>(١)</sup>»، وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل، «هي أم شريك» وقال عروة والشعبي: «هي زينب بنت خزيمة أم المساكين امرأة من الأنصار»، وقال عروة أيضاً: «هي خولة بنت حكيم بن الأوقص السلمية»، واختلف في ذلك، فعن ابن عباس: «لم يكن عند رسول الله - ﷺ - أحد منهن بالهبة»، وقيل: الموهبات أربع: ميمونة بنت الحارث ومن ذكر معها قبل، وقرأ الجمهور (وامرأة) بالنصب (إن وهبت) بكسر الهمزة أي: أحللناها لك (إن وهبت) (إن أراد) فهنا شرطان، والثاني في معنى الحال شرط في الإحلال هبتها نفسها. وفي الهبة إرادة استنكاح النبي كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها، لأن إرادته هي قبوله الهبة وما به تتم. وهذان الشرطان نظير الشرطين في قوله: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ [هود: ٣٤] وإذا اجتمع شرطان فالثاني شرط في الأول، متأخر في اللفظ متقدم في الوقوع، ما لم تدل قرينة على الترتيب نحو: إن تزوجتك أو طلقتك فعبدي حر. واجتماع الشرطين مسألة فيها خلاف وتفصيل وقد استوفينا ذلك في شرح التسهيل في باب الجوازم. وقرأ أبو حيوة (وامرأة مؤمنة) بالرفع على الابتداء والخبر محذوف. أي: أحللناها لك. وقرأ أبي والحسن والشعبي وعيسى وسلام: أن بفتح الهمزة وتقديره: لأن وهبت بذلك حكم في امرأة بعينها، فهو فعل ماض. وقرأ الكسر استقبال في كل امرأة كانت تمسك نفسها دون واحدة بعينها. وقرأ زيد بن علي (إذ وهبت) إذ ظرف لما مضى فهو في امرأة بعينها وعدل عن الخطاب إلى الغيبة في النبي (إن أراد النبي) ثم رجع إلى الخطاب في قوله (خالصة لك) للإيذان بأنه مما خص به وأوثر. ويجيء على لفظ (النبي) للدلالة على أن الاختصاص، تكرمة له لأجل النبوة، وتكريره تفخيم له، وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته. واستنكاحها: طلب نكاحها والرغبة فيه، والجمهور على أن الترويج لا يجوز بلفظ الإجارة ولا بلفظ الهبة، وقال أبو الحسن الكرخي<sup>(٢)</sup>: «يجوز بلفظ الإجارة لقوله (اللاتي آتيت أجورهن) وحجة من منع: أن عقد الإجارة مؤقت، وعقد النكاح مؤبد فتنافيا. وذهب أبو حنيفة وصاحبه إلى جواز عقد النكاح بلفظ الهبة إذا وهبت فأشهد على نفسه بمهر لأن رسول الله وأمه سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل. وحجة الجمهور. أنه عليه السلام خص بمعنى الهبة ولفظها جميعاً، لأن اللفظ تابع للمعنى والمدعي للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل. وقرأ الجمهور (خالصة) بالنصب، وهو مصدر مؤكد ك﴿وعد الله﴾ و﴿صبغة الله﴾ [البقرة ٣٨] أي: أخلص لك إخلاصاً أحللنا لك خالصة بمعنى خلوصاً ويجيء المصدر على فاعل وعلى فاعلة. وقال الزمخشري: «والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين كالخارج والقاعد والعاقبة والكاذبة». انتهى. وليس كما ذكر بل هما عزيزان وتمثيله كالخارج يشير إلى قول الفرزدق:

وَلَا خَارِجًا مِنْ فِي زُورٍ كَلَامٍ<sup>(٣)</sup>

والقاعد إلى أحد التأويلين في قوله:

(١) انظر زاد المسير ٦/٤٠٥، ٤٠٦ والقرطبي ١٤/١٣٥.

(٢) عبيد الله بن الحسين الكرخي أبو الحسن انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق مولده في الكرخ ووفاته ببغداد سنة ٣٤٠ هـ الفوائد البهية (١٠٧) الأعلام ٤/١٩٣.

(٣) عجز بيت من الطويل وصدره:

على حلقة لا أشتم الدهر مسلماً

للفرزدق انظر ديوانه (٢١٢/٢) الكتاب ١/٣٣٦ الكامل ١/١٢٠ شرح المفصل (٦/٥٠) شرح شواهد الشافية (٧٩).

## أَقَاعِدُ وَقَدْ سَارَ الرُّكْبُ

والكاذبة إلى قوله تعالى: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ [الواقعة: ٢] وقد تناول هذه الألفاظ على أنها ليست مصادر. وقرىء (خالصة) بالرفع فمن جعله مصدرًا، قدره: ذلك خلوص لك وخلوص من دون المؤمنين. والظاهر: أن قوله (خالصة لك) من صفة الواهبة نفسها لك، فقراءة النصب على الحال، قاله الزجاج. أي: أحللناها خالصة لك. والرفع خبر مبتدأ، أي: هي خالصة لك. أي: هبة النساء أنفسهن مختص بك لا يجوز أن تهب المرأة نفسها لغيرك. وأجمعوا على أن ذلك غير جائز لغيره - عليه السلام - ويظهر من كلام أبي بن كعب أن معنى قوله (خالصة لك) يراد به جميع هذه الإباحة لأن المؤمنين قصروا على مثنى وثلاث ورباع. وقال الزمخشري: «والدليل على أنها وردت في أثر الإحلال الأربعة، مخصوصة برسول الله - ﷺ - على سبيل التوكيد لها، قوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم) بعد قوله (من دون المؤمنين) وهي جملة اعتراضية وقوله (لكيلا يكون عليك حرج) متصل بـ (خالصة لك من دون المؤمنين) في الأزواج الإماء وعلى أي حد وصفه يجب أن يفرض عليهم ففرضه، وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله - ﷺ - بما اختصه به ففعل. ومعنى (لكيلا يكون عليك حرج) أي: لكيلا يكون عليك ضيق في دينك، حيث اختصاصك بالتزوية، واختصاص ما هو أولى وأفضل في دنياك، حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات، وزدناك الواهبة نفسها. ومن جعل (خالصة) نعتًا للمرأة فعلى مذهبه هذه المرأة خالصة لك من دونهم». انتهى. والظاهر: أن (لكيلا) متعلق بقوله (أحللنا لك أزواجك)، وقال ابن عطية: «لكيلا يكون. أي: بينا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح، لكي لا يكون عليك حرج، ويظن بك أنك قد أثمت عند ربك، ثم أنس جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته». وقال الزمخشري: «(غفوراً) للواقع في الحرج إذا تاب (رحيماً) بالتوسعة على عباده». انتهى، وفيه دسيسة<sup>(١)</sup> اعتزالية. (قد علمنا ما فرضنا عليهم) الآية. معناه: أن ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك، وأما حكم أمتك فعندنا علمه وسنبيته لهم. وإنما ذكر هذا، لثلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي - ﷺ - فإن له في النكاح والتسري خصائص ليست لغيره. وقال مجاهد: «ما فرضنا عليهم هو أن لا يجاوزوا أربعاً». وقال قتادة: «هو الولي والشهود والمهر». وقيل: ما فرضنا من المهر والنفقة والكسوة، (وما ملكت أيماهم) قيل: لا يثبت الملك إلا إذا كانت ممن يجوز سبيها. وقيل: ما أبحنا لهم من ملك اليمين مع الأربعة الحرائر من غير عدد محصور. والمعنى: قد علمنا إصلاح كل منك ومن أمتك، وما هو الأصح لك ولهم، فشرعنا في ححك وحققهم على وفق ما علمنا. روي: «أن أزواجه - عليه السلام - لما يعايرن وابتغين زيادة النفقة فهجرهن شهراً، ونزل التخير فأشفقن أن يطلقن، فقلن: يا رسول الله افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت». وتقدم الكلام في معنى (ترجي) في قوله: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ في سورة براءة [التوبة: ٨]. والظاهر: أن الضمير في (منهن) عائد على أزواجه عليه السلام والإرجاء: الإيواء. قال ابن عباس والحسن: «في طلاق ممن تشاء ممن حصل في عصمتك وإمساك من تشاء»، وقالت فرقة: «في تزوج من تشاء من الواهبات وتأخير من تشاء»، وقال مجاهد وقاتدة والضحاك: «وتقرر من شئت في القسمة لها، وتؤخر عنك من شئت وتقلل لمن شئت، وتكثر لمن شئت، لا حرج عليك في ذلك، فإذا علمن أن هذا حكم الله وقضاؤه زالت الإحنة<sup>(٢)</sup> والغيرة عنهن وأرضين وقرت أعينهن»، وهذا مناسب لما روي في سبب هذه الآية المتقدم ذكره، (ومن ابتغيت ممن عزلت) أي: ومن طلبتها من المعزولات ومن المفردات فلا جناح عليك في ردها وإيوائها إليك. ويجوز أن يكون ذلك توكيداً لما قبله، أي: ومن

(١) انظر (٢/١٣٧٢) لسان العرب.

(٢) الإحنة: الحقد في الصدر، والجمع إحن وإحنات.

ابتغيت ممن عزلت ومن عزلت سواء لا جناح عليك، كما تقول من لقيك ممن لم يلقك جميعهم لك شاكر. تريد من لقيك ومن لم يلقك. وفي هذا الوجه حذف المعطوف وغرابة في الدلالة على هذا المعنى هذا التركيب. والراجح القول الأول. وقال الحسن: «المعنى، من مات من نساك اللواتي عندك، أو خليت سبيلها، فلا جناح عليك أن تستبدل عوضها من اللاتي أحللت لك، فلا تزداد على عدة نساك اللاتي عندك. وقال الزمخشري: «بمعنى ترك مضاجع من تشاء منهن وتضاجع من تشاء، أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء، أو لا تقسم لأيتهن شئت وتقسم لمن شئت، أو تترك من تشاء من أمتك وتزوج من شئت، وعن الحسن كان النبي - ﷺ - إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم، وإذا طلق وعزل فإما أن يخلي المعزولة لا يتبعها أو يتبعها». وروي أنه أرجأ منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء، وكانت ممن أوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب أرجأ خمساً، وأوى أربعاً». وروي: أنه كان يسوي بينهن مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة. فإنها وهبت نفسها لعائشة، وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساك». انتهى. ذلك التفويض إلى مشيئتك أدنى إلى قرّة عيونهن وانتفاء حزنهن، ووجود رضاهن، إذا علمت أن ذلك التفويض من عند الله فحالة كل منهن كحالة الأخرى في ذلك. وقرأ الجمهور (أن تقرّ أعينهن) مبنياً للفاعل. من قرّت العين. وابن محيصن يقر من أقر (أعينهن) بالنصب وفاعل (تقر) ضمير الخطاب. أي: أنت، وقرء (تقرّ) مبنياً للمفعول (وأعينهن) بالرفع، وقرأ الجمهور (كُلهن) بالرفع تأكيد النون (يرضين) وأبوياس حوبة بن عائذ بالنصب تأكيد الضمير النصب في (آيتهن) (والله يعلم ما في قلوبكم) عام، قال ابن عطية: «والإشارة به ههنا إلى ما في قلب رسول الله - ﷺ - من محبة شخص دون شخص، ويدخل في المعنى المؤمنون». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> وعبيدة: «من لم يرض منهن بما يريد الله من ذلك، وفوض إلى مشيئة رسوله، وبعث على تواطؤ قلوبهن، والتصافي بينهن، والتوافق على طلب رضار رسول الله - ﷺ - وما فيه طيب نفسه». انتهى، (وكان الله عليماً) بما انطوت عليه القلوب (حليماً) يصفح عما يغلب على القلب من المسؤول إذ هي مما لا يملك غالباً. واتفقت الروايات على أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يعدل بينهن في القسمة حتى مات، ولم يستعمل شيئاً مما أبيع له ضبطاً لنفسه، وأخذ بالفضل غير ما جرى لسودة مما ذكرناه. (لا تحل لك النساء من بعد) الظاهر: أنها محكمة وهو قول أبي بن كعب، وجماعة منهم: الحسن وابن سيرين واختاره الطبري. (ومن بعد) المحذوف منه مختلف فيه، فقال أبي وعكرمة والضحاك: «ومن بعد اللواتي أحللتنا لك». في قوله (إنا أحللتنا لك أزواجك) فعلى هذا المعنى: لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص عليهن أنهن يحلن لك من الأصناف الأربعة لا أعرابية، ولا عربية، ولا كتابية، ولا أمة بنكاح. وقال ابن عباس وقتادة: «(من بعد) لأن التسع نصاب رسول الله من الأزواج كما أن الأربع نصاب أمته منهن». قال: لما خيرن فاخترن الله ورسوله، جازاهن الله أن حظر عليه النساء غيرهن وتبديلهن، ونسخ بذلك ما أباحه له قبل من التوسعة في جميع النساء». وقال مجاهد وابن جبير. وروي عن عكرمة: «(من بعد) أي: من بعد إباحة النساء على العموم، ولا تحل لك النساء غير المسلمات من يهودية، ولا نصرانية، وكذلك (ولا تبدل بهن من أزواج) أي: بالمسلمات من أزواج يهوديات ونصرانيات. وقيل في قوله (ولا أن تبدل) هو من البديل الذي كان في الجاهلية، كان يقول الرجل: بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي. فينزل كل واحد منها عن امرأته للأخر، قال معناه ابن زيد وأنه كان في الجاهلية. وأنكر هذا القول الطبري وغيره في معنى الآية، وما فعلت العرب قط هذا. وما روي من حديث عيينة بن حصن أنه قال لرسول الله - ﷺ - حين دخل عليه بغير استئذان وعنده عائشة من هذه الحميراء؟ فقال: عائشة. فقال عيينة: يا رسول الله إن شئت نزلت لك عن سيدة نساء العرب جمالاً ونسباً». فليس بتبديل ولا أراد

ذلك وإنما احتقر عائشة، لأنها كانت صبية (من) في (من أزواج) زائدة لتأكيد النفي. وفائدته: استغراق جنس الأزواج بالتحريم. وقيل: الآية منسوخة، واختلف في النسخ، فقيل: بالسنة. قالت عائشة: «ما مات حتى حل له النساء». وروى ذلك عن أم سلمة وهو قول علي وابن عباس والضحاك. وقيل: بالقرآن. وهو قوله (ترجي من تشاء منهن) الآية. قال هبة الله الضرير: «في النسخ والمنسوخ له، وقال: ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا»، قال ابن عطية: «وكلامه يضعف من جهات». انتهى، وقيل: قوله (إنا أحللتنا لك أزواجك) الآية فترتيب النزول ليس على ترتيب كتابة المصحف. وقد روي عن ابن عباس القولان أنها محكمة، وأنها منسوخة. (ولو أعجبك حسنهن) قيل: منهن أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب. والجملة. قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «في موضع الحال من الفاعل، وهو الضمير في (تبدل) إلا من المفعول الذي هو من (أزواج) لأنه موغل في التذكير وتقديره: مفروضاً إعجابك لمن وتقدم لنا في مثل هذا التركيب أنه معطوف على حال محذوفة». أي: ولا أن تبدل بين من أزواج على كل حال، ولو في هذه الحال التي تقتضي التبدل، وهي حالة الإعجاب بالحسن، قال ابن عطية: «وفي هذه اللفظ (أعجبك حسنهن) دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها». انتهى وقد جاء ذلك في السنة من حديث المغيرة بن شعبة وحديث محمد بن مسلمة (إلا ما ملكت يمينك) أي: فإنه يحل لك. وأما إن كانت موصولة واقعة على الجنس فهو استثناء من الجنس يختار فيه الرفع على البدل من النساء. ويجوز النصب على الاستثناء وإن كانت مصدرية ففي موضع نصب لأنه استثناء من غير جنس الأول. قاله ابن عطية. وليس يجيد، لأنه قال: والتقدير إلا ملك اليمين، وملك بمعنى مملوك، فإذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساء، لأنه لم يرد حقيقة المصدر، فيكون الرفع هو أرجح، لأنه قال: وهو في موضع نصب، ولا يتحتم أن يكون في موضع نصب، ولو فرضنا أنه من غير الجنس حقيقة بل الحجاز تنصب، وتيم نبدل لأنه مستثنى يمكن توجه العامل عليه وإنما يكون النصب متحتماً حيث كان المستثنى لا يمكن توجه العامل عليه نحو: ما زاد المال إلا النقص. فلا يمكن توجه الزيادة على النقص ولأنه قال: «استثناء من غير الجنس وقال مالك بمعنى مملوك فناقض»، (وكان الله على كل شيء رقيباً) أي: راقباً أو مراقباً. ومعناه: حافظ وشاهد ومطلع، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتحطى حلاله وحرامه.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيماهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾. في الصحيحين أنه - ﷺ - لما تزوج زينب بنت جحش دعا القوم فقطعوا، ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة، فجاء فدخل فإذا القوم جلوس فرجع، وأنهم قاموا فانطلقوا، وجئت فأخبرته. أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه، وأنزل عليه هذه الآية. قال ابن عباس: «كان ناس يتحيتون طعامه - عليه الصلاة والسلام - فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون، وكان يتأذى بهم». فنزلت. وأما سبب الحجاب فعمر قال: يا رسول الله: إن نساءك يدخل عليهن

البار والفاجر فلو أمرتهم أن يحتجبن». فنزلت<sup>(١)</sup>. وقال مجاهد: «طعم معه بعض أصحابه ومعهم عائشة، فمست يد رجل منهم يد عائشة، فكره ذلك - عليه السلام -». فنزلت. «آية الحجاب» ولما كان نزول الآية في شيء خاص وقع للصحابة لم يدل ذلك على أنه لا يجوز دخول بيوت النبي إلا إن كان عن إذن إلى طعام غير ناظرين إناه، بل لا يجوز دخول بيوته - عليه السلام - إلا بإذن سواء كان لطعام أم لغيره. وأيضاً: فإذا كان النبي إلا بإذن إلى طعام وهو ما تمس الحاجة إليه لجهة الأولى. و(بيوت) جمع وإن كانت الواقعة في بيت واحد خاص يعم جميع بيوته. و(إلا أن يؤذن) قال الزمخشري (إلا أن يؤذن) في معنى الظرف، تقديره: وقت أن يؤذن لكم. و(غير ناظرين) حال من (لا تدخلوا) أوقع الاستثناء على الوقت والحال معاً كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي إلا وقت الإذن ولا تدخلوها إلا غير ناظرين إناه». انتهى فقوله (إلا أن يؤذن) في معنى الظرف، وتقديره: وقت أن يؤذن لكم وأنه أوقع الاستثناء على الوقت فليس بصحيح، وقد نصوا على أن المصدرية لا تكون في معنى الظرف، تقول: أجيئك صباح الديك وقدوم الحاج، ولا يجوز أجيئك أن يصبح الديك ولا أن يقدم الحاج. وأما أن الاستثناء وقع على الوقت والحال معاً فلا يجوز على مذهب الجمهور، ولا يقع بعد إلا في الاستثناء إلا المستثنى أو المستثنى منه، أو صفة المستثنى منه، وأجاز الأخفش والكسائي ذلك في الحال. أجاز إما ذهب القوم إلا يوم الجمعة راحلين عنا. فيجوز ما قاله الزمخشري في الحال. وأما قوله (إلا أن يؤذن لكم) فلا يتعين أن يكون ظرفاً لأنه يكون التقدير (إلا بأن يؤذن لكم) فتكون الباء للسببية كقوله ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ [الأعراف ٥٧] أو للحال. أي: مصحوبين بالإذن وأما (غير ناظرين) كما قرر في قوله ﴿بالبينات والزبر﴾ [النحل ٤٤] أرسلناهم: بالبينات والزبر دل عليه (لا تدخلوا) كما دل عليه أرسلناهم. قوله ﴿وما أرسلنا﴾ [الأعراف ٩٤] ومعنى (غير ناظرين) فحال. والعامل فيه محذوف، تقديره: ادخلوا بالإذن غير ناظرين. كما قرر في قوله (بالبينات والزبر) أي غير منتظرين وقته. أي: وقت استوائه وتهيته. وقرأ الجمهور (غير) بالنصب على الحال. وابن أبي عملة بالكسر صفة لـ (طعام) قال الزمخشري: «وليس بالوجه، لأنه جرى على غير من هو له فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز من إلى اللفظ، فيقال: غير ناظرين إناه أنتم كقوله: هند زيد ضاربه هي». انتهى. وحذف هذا الضمير جائز عند الكوفيين إذا لم يلبس. وأنى الطعام إدراكه. يقال: أنى الطعام أنى كقوله: قلاه قلى. وقيل: وقته. أي: غير ناظرين ساعة أكله. وقرأ الجمهور (إناه) مفرداً. والأعشى (إناءه) بمدة بعد النون. ورتب تعالى الدخول على أن يدعوا فلا يقدمون عليه الدخول حين يدعوا. ثم أمر بالاستثناء إذا طعموا (ولا مستأنسين لحديث) معطوف على (ناظرين) فهو مجرور. أو معطوف على (غير) فهو منصوب. أي: لا تدخلوها لا ناظرين ولا مستأنسين. وقيل: ثم حال محذوفة، أي: لا تدخلوها أجمعين ولا مستأنسين. فيعطف عليه. واللام في (الحديث) إما لام العلة. نهوا أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به. أو اللام المقوية لطلب اسم الفاعل للمفعول، فهوا أن يستأنسوا حديث أهل البيت، واستئناسه تسمعه وتوحشه. (إن ذلكم) أي: انتظاركم واستئناسكم (يؤذي النبي فيستحي منكم) أي: من إنهاضكم من البيوت، أو من إخراجكم منها، بدليل قوله (والله لا يستحي من الحق) يعني: أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحي منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال قيل (لا يستحي من الحق) بمعنى: لا يتمتع. وجاء ذلك على سبيل المقابلة لقوله (فيستحي منكم) وعن عائشة وابن عباس: «حسبك في الثقلاء أن الله لم يحتلمهم». وقرئت هذه الآية بين يدي إسماعيل بن أبي حكيم فقال: «هنا أدب أدب الله به الثقلاء». وقرئت فرقة (فيستحي) بكسر الحاء مضارع استحي. وهي لغة بني تميم. واختلفوا ما المحذوف أعين الكلمة أم لامها؟ فإن كان العين فوزنها يستقبل وإن كان اللام فوزنها يستفع، والترجيح المذكور في النحو. وقرأ الجمهور بياءين وسكون الحاء. والمتاع: عام في ما يمكن أن يطلب على عرف

السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا (ذلكم) أي : السؤال من وراء الحجاب أطهر . يريد من الخواطر التي تخطر للرجال في أمر النساء والنساء في أمر الرجال إذ الرؤية سبب التعلق والفتنة ألا ترى إلى قول الشاعر :

وَالْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا      فِي أَعْيُنِ الْعَيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ<sup>(١)</sup>  
يَسْرُ مُقَلَّتَهُ مَا سَاءَ مُهْجَتَهُ      لِأَمْرَجِبًا بِاتِّفَاعِ جَاءَ بِالضَّرَرِ

وذكر أن بعضهم قال : « أنهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد لأتزوجن فلانة » . وقال ابن عباس وبعض الصحابة : « وفلانة عائشة »<sup>(٢)</sup> . وحكى مكي عن معمر أنه قال : « هو طلحة بن عبید الله » . قال ابن عطية : « وهذا عندي لا يصح على طلحة فإن الله عصمه منه » . وفي التحرير : « أنه طلحة فنزلت (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) فتاب وأعتق رقبة ، وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله وحج ماشياً . وروى أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله - ﷺ - أم سلمة بعده ، أي : بعد أبي سلمة . وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ، والله لو قدمنا لأجلنا السهام على نساءه » . ولما توفي رسول الله - ﷺ - وارتدت العرب ، ثم رجعت ، تزوج عكرمة بن أبي جهل قتيلة بنت الأشعث بن قيس ، وكان رسول الله - ﷺ - قد تزوجها . ولم يبين بها ، فصعب ذلك على أبي بكر وقلق ، فقال له عمر : مهلاً يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه إنه لم يبين بها ، ولا أرخى عليها حجاباً ، وقد أبانتها منه ردتها مع قومها ، فسكن أبو بكر . وذهب عمر إلى أن لا يشهد جنازة زينب إلا ذو محرم عنها مراعاة للحجاب فدلته أسماء بنت عميس<sup>(٣)</sup> على سترها في النعش في القبة ، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة ومنعه عمر » . وروي أنه صنع ذلك في جنازة فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) عام في كل ما يتأذى به (ولا أن تنكحوا) خاص بعد عام ، لأن ذلك يكون أعظم الأذى فحرم الله نكاح أزواجه بعد وفاته . (إن ذلكم) أي : إذابته ونكاح أزواجه ، (كان عند الله عظيماً) وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله وإيجابه حرمة حياً وميتاً . وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه فإن نحو هذا مما يحدث به المرء نفسه . ومن الناس من تفرط غيرته على حرمة حتى يتمنى لها الموت ، لثلا تنكح من بعد وخصوصاً العرب فإنهم أشد الناس غيرة ، وحكى الزمخشري أن بعض الفتيان قتل جارية كان يجيها في حكاية قال : تصوراً لما عسى أن يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره » انتهى فقال لما عسى ، فجعل عسى صلة للموصول ، وقد كثر منه هذا ، وهو لا يجوز . وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثاني في هدير الثلث يجري مجرى العقوبة فعنى رسول الله - ﷺ - عملاً يلاحظ ذلك ، (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه) وعيد لما تقدم التعرض به في الآية عن أشير إليه بقوله (ذلكم أطهر) من أشير إليه (وما كان لكم أن تؤذوا) فقيل (إن تبدوا شيئاً) على ألسنتكم (أو تخفوه) في صدوركم مما يقع عليه العقاب فالله يعلمه فيجازي عليه . وقال (شيئاً) ليدخل فيه ما يؤذيه عليه السلام من نكاحهن - وغيره ، وهو صالح لكل باد وخاف . وروي أنه لما نزلت آية الحجاب قال : « الآباء والأبناء والأقارب أو نحن يا رسول الله أيضاً نكلمهن من وراء حجاب » فنزلت (لا جناح عليهن) أي : لا إثم عليهن<sup>(٤)</sup> . قال قتادة : « في ترك الحجاب » ، وقال مجاهد : « في وضع الحلباب وإبداء الزينة » . وقال الشعبي : « لم يذكر العم والحال وإن كانا من المحارم ، لثلا يصفان للأبناء وليسوا من المحارم » . وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها . وقيل : لأنها يجريان مجرى الوالدين . وقد جاءت تسمية العم أباً ، وذكر هنا بعض المحارم والجمع في سورة النور . ودخل في (ولا نسائهن)

(١) البيتان في روح المعاني (٧٢/٢٢) .

(٢) انظر القرطبي ١٤/١٤٧ .

(٣) أسماء بنت عميس الخثعمية . من المهاجرات الأول وأخت ميمونة لأمها وهاجرت إلى الحبشة ثم تزوجها أبو بكر ثم علي وماتت بعده انظر

الخلاصة ٣/٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٤) انظر القرطبي ١٤/١٤٨ ، ١٤٩ .

الأمهات والأخوات وسائر القرابات ومن يتصل بهن من المتطرفات هن . وقال ابن زيد وغيره : «أراد جميع النساء المؤمنات ، وتخصيص الإضافة إنما هي في الإيمان» ، وقال مجاهد : «من أهل دينهن ، وهو كقول ابن زيد . والظاهر من قوله (أوما ملكت أيمانهن) دخول العبيد وإلاماء دون ما ملك غيرهن . وقيل : مخصوص بالإمام وقيل : جميع العبيد ممن في ملكهن أو ملك غيرهن . وقال النخعي : «يباح لعبدها النظر إلى ما يواريه الدرع من ظاهر بدنهما ، وإذا كان للعبد المكاتب ما يؤدي فقد أمر رسول الله - ﷺ - بضرب الحجاب دونه ، وفعلته أم سلمة مع مكاتبها نبهان» ، (واتقين الله) أمر بالتقوى ، وخروج من الغيبة إلى الخطاب . أي : واتقين الله فيما أمرتن به من الاحتجاب ، وأنزل الله فيه الوحي من الاستتار ، وكان في الكلام جملة حذف تقديره : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تعدينه إلى غيره . ثم توعد بقوله (إن الله كان على كل شيء شهيداً) من السر والعلن . وظاهر الحجاب . وباطنه وغير ذلك (شهيداً) لا تتفاوت الأحوال في علمه . وقرأ الجمهور (ملائكته) نصباً وابن عباس وعبد الوارث عن أبي عمرو رفعاً . فعند الكوفيين - غير الفراء - : هو عطف على موضع اسم إن والفراء يشترط خفاء إعراب اسم إن . وعند البصريين : هو على حذف الخبر ، أي : يصلي على النبي وملائكته يصلون . وتقدم الكلام على كيفية اجتماع الصلاتين في قوله ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب ٤٣] فالضمير في (يصلون) عائد على الله وملائكته . وقيل : في الكلام حذف ، أي : يصلي وملائكته يصلون فراراً من اشتراك الضمير . والظاهر : وجوب الصلاة والسلام عليه . وقيل : سنة . وإذا كانت الصلاة واجبة ، فقيل : كلما جرى ذكره . قيل : في كل مجلس مرة . وقد ورد في الحديث في الصلاة عليه فضائل كثيرة . وروي : أنه لما نزلت هذه الآية قال قوم من الصحابة : السلام عليك يا رسول الله عرفناه فكيف نصلي عليك؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وارحم محمد وآل محمد كما رحمت وباركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد» . وفي بعض الروايات زيادة ونقص (إن الذين يؤذون الله ورسوله) قال ابن عباس : نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفية بنت حبي زوجاً . انتهى<sup>(١)</sup> . والظن في تأمير أسامة بن زيد أن إيذائه عليه السلام وإيذاء الله والرسول فعل ما نهى الله ورسوله عنه من الكفر والمعاصي وإنكار النبوة ومخالفة الشرع وما يصيبون به الرسول من أنواع الأذى . ولا يتصور الأذى حقيقة في حق الله ، فقيل : هو على حذف مضاف . أي : يؤذون أولياء الله . وقيل : المراد يؤذون رسول الله . وقيل : في أذى الله هو قول اليهود والنصارى والمشركين (يد الله مغلولة) (ثالث ثلاثة) والمسيح (ابن الله) والملائكة (بنات الله) والأصنام : شركاؤه . وعن عكرمة : فعل أصحاب التصاوير الذين يزورون خلقاً مثل خلق الله . وقيل : في أذى رسول الله قولهم : ساحر ، شاعر ، كاهن ، مجنون . وقيل : كسر رابعيته ، وشح وجهه يوم أحد . وأطلق إيذاء الله ورسوله على إيذاء المؤمنين بقوله (بغير ما اكتسبوا) لأن إيذاءهما لا يكون إلا بغير حق بخلاف إيذاء المؤمن ، فقد يكون بحق ومعنى (بغير ما اكتسبوا) بغير جنابة واستحقاق أذى . وقال مقاتل : «نزلت في ناس من المنافقين يؤذون علياً - كرم الله وجهه - ويسمعونه . وقيل : في الذين أفكوا على عائشة . وقال الضحاك والسدي والكلبي : «في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات» . وقيل : في عمر رأى من الريبة على جارية من جوارى الأنصار ما كره فضرها فأوذي أهل عمر باللسان» . فنزلت . قال ابن عباس : «وروي أن عمر قال يوماً لأبي قرأت البارحة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) ففرغت منها ، وإني لأضربهم وأنهرهم فقال له لست منهم إنما أنت معلم ومقوم»<sup>(٢)</sup> .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ آدَتُهُنَّ أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩ ﴿ ۞ ۙ لَيْنٌ لَمْ يَنْهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ

(١) انظر القرطبي ١٤/١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) انظر القرطبي ١٤/١٥٢ .

فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا  
 وَقْتَلُوا وَقَتِيلًا ﴿١٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾ يَسْتَكَ  
 النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ  
 وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيرًا ﴿١٦﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ  
 يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿١٨﴾ رَبَّنَا  
 آتِنَاهُمْ صَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى  
 فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٢١﴾ يُصَلِّحْ  
 لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ  
 عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا  
 ﴿٢٣﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ  
 وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾

كان دأب الجاهلية أن تخرج الحرة والأمة مكشوفتي الوجه في درع وخمار، وكان الزناة يتعرضون إذا خرجن بالليل  
 لقصاء حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء، وربما تعرضوا للحرة بعلقة الأمة، يقولون: حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن  
 بزهن عن زي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه ليحتشمن ويهين فلا يطمع فيهن». وروي: «أنه كان في  
 المدينة قوم يجلسون على الصعدات لرؤية النساء ومعارضتهن ومرادتهن. فنزلت»<sup>(١)</sup>. قيل: والجلايب: الأردية التي تستر  
 من فوق إلى أسفل. وقال ابن جبير: «المقانع». وقيل: «الملاحف». وقيل: الجلاب: كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها.  
 وقيل: كل ما تستتر به من كساء أو غيره. قال أبو زيد: «مجلبت من سواد الليل جلاباً» وقيل: الجلاب: أكبر من الخمار.  
 وقال عكرمة: «تلقي جانب الجلاب على غيرها ولا يرى». وقال أبو عبيدة السلماني حين سئل عن ذلك فقال: «أن تضع  
 رداءها فوق الحاجب ثم تديره حتى تضعه على أنفها». وقال السدي: «تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا  
 العين». انتهى وكذا عادة بلاد الأندلس لا يظهر من المرأة إلا عينها الواحدة. وقال الكسائي: يتقنعن بملاحفن منضمة  
 عليهن». أراد بالانضمام معنى الإدناء. وقال ابن عباس وقتادة: «وذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف  
 وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه»<sup>(٢)</sup>. والظاهر: أن قوله (ونساء المؤمنات) يشمل الحرائر والإماء، والفتنة  
 بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح. (ومن) في (من)  
 جلابيهن) للتبعيض، و(عليهن) شامل لجميع أجسادهن، أو (عليهن) على وجوههن، لأن الذي كان يبدو منهن في  
 الجاهلية هو الوجه. (ذلك أدنى أن يعرفن) لتسترهن بالعفة، فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن، لأن المرأة إذا كانت في

(١) انظر زاد المسير ٦/٤٢٢.

(٢) انظر القرطبي ١٢/١٥٦.



غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المترجحة فإنها مطموع فيها. (وكان الله غفوراً رحيماً) تأنيس للنساء في ترك الاستتار قبل أن يؤمن بذلك. ولما ذكر حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله، والمجاهر الذي يؤذي المؤمنين ذكر حال المسر الذي يؤذي الله ورسوله، ويظهر الحق، ويضمّر النفاق، ولما كان المؤذون ثلاثة باعتبار إذيتهم لله، ورسوله، وللمؤمنين، كان المشركون ثلاثة، منافق. ومن في قلبه مرض ومرجف فالمنافق يؤذي سراً، والثاني يؤذي المؤمن باتباع نسائه، والثالث يرجف بالرسول، يقول: غلب سيخرج من المدينة سيؤخذ هزمت سراياه. وظاهر العطف التغاير بالشخص فيكون المعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يقولون من أخبار السوء ويشيعونه، ويجوز أن يكون التغاير بالوصف، فيكون واحداً بالشخص، ثلاثة بالوصف، كما جاء (إن المسلمين والمسلمات) فذكر أوصافاً عشرة والموصوف بها واحد. ونص على هذين الوصفين من المنافقين لشدة ضررها على المؤمنين. قال عكرمة: (الذين في قلوبهم مرض) هو العزل وحب الزنا، ومنه (فيقطع الذي في قلبه مرض) وقال السدي: «المرض: النفاق، ومن في قلوبهم مرض». وقال ابن عباس: «هم الذين آذوا عمر». وقال الكلبي: «من آذى المسلمين». وقال ابن عباس: «المرجفون ملتسمو الفتن». وقال قتادة: «الذين يؤذون قلوب المؤمنين بليهم القتل والهزيمة» (لنغرينك بهم) أي: لنسلطنك عليهم قاله ابن عباس. وقال قتادة: «لنحرسنك بهم» (ثم لا يجاورونك فيها) أي: في المدينة. (ثم لا يجاورونك) معطوف على (لنغرينك) ولم يكن العطف بالفاء، لأنه لم يقصد أنه متسبب عن الإغراء، بل كونه جواباً للقسم أبلغ. وكان العطف بـ (ثم) لأن الجلاء عن الوطن كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حالة الجلاء عن حالة الإغراء. (إلا قليلاً) أي: جواراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، أو عدداً قليلاً، وهذا الأخير استثناء من المنطوق. وهو ضمير الرفع في (يجاورونك) أو ينتصب (قليلاً) على الحال، أي: إلا قليلين. والأول: استثناء من المصدر الدال عليه (يجاورونك) والثاني: من الزمان الدال عليه (يجاورونك) والمعنى: أنهم يضطرون إلى طلب الجلاء عن المدينة خوف القتل. وانتصب (ملعونين) على الذم. قاله الطبري. وأجاز ابن عطية أن يكون بدلاً من (قليلاً) قال: هو من إقلاء الذي قدرناه. وأجاز هو أيضاً أن يكون حالاً من الضمير في (يجاورونك) قال: كأنه قال: ينتفون من المدينة ملعونين فلا يقدر (لا يجاورونك) فقدر ينتفون حسن هذا. انتهى. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> والحوافي وتبعها أبو البقاء: «يجوز أن يكون حالاً من الضمير في (لا يجاورونك) كما قال ابن عطية. قال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «وهذا نصه (ملعونين) نصب على الشتم أو الحال. أي: لا يجاورونك إلا ملعونين. دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً كما مر في قول (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) ولا يصح أن ينتصب من (أخذوا) لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها». انتهى. وتقدم الكلام معه في محيء الحال مما قبل (إلا) مذكورة بعد ما استثنى بيلاً فيكون الاستثناء منصباً عليهما وأن جمهور البصريين منعوا من ذلك. وأما تجوير ابن عطية أن يكون بدلاً، فالبدل بالمشتق قليل. وأما قول الزمخشري لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها، فليس هذا مجمعاً عليه، لأن ما بعد كلمة الشرط شيان، فعل الشرط والجواب، فأما فعل الشرط، فأجاز الكسائي تقديم معموله على الكلمة، أجاز: زيد إن يضرب اضربه. وأما الجواب فقد أجاز أيضاً تقديم معموله عليه نحو: إن يقم زيد عمراً يضرب، وقد حكى عن بعض النحويين أنه قال: المعنى: أينما ثقفوا أخذوا ملعونين. والصحيح أن (ملعونين) صفة لـ (قليل) أي: إلا قليلين ملعونين، ويكون (قليلاً) مستثنى من الواو في (لا يجاورونك) والجملة الشرطية صفة أيضاً. أي: مهجورين مغلوباً عليهم. ومعنى (ثقفوا) حصرها وظفر بهم. ومعنى (أخذوا) أسروا، والأخذ الأسير. وقرأ الجمهور (ثقفوا) بتشديد التاء. وفرقة بتخفيفها، فيكون (ثقفوا) مصدرأ على غير قياس المصدر. والظاهر: أن المنافقين انتهوا عما كانوا يؤذون به الرسول والمؤمنين، وتستر

(١) انظر الكشاف ٥٦١/٣.

(٢) انظر الكشاف ٥٦١/٣.

جميعهم وكفوا، خوفاً من أن يقع بهم ما وقع القسم عليه وهو الإغراء، والجلاء، والأخذ، والقتل، وقيل: لم يمثلوا للانتهاة جملة، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً، ألا ترى إلى إخراجهم من المسجد ونهيه عن الصلاة عليهم، وما نزل فيهم في سورة براءة. وأبعد من ذهب إلى أنه لم ينته هؤلاء الأصناف ولم ينفذ الله الوعيد عليهم ففيه دليل على بطلان القول بإنفاذ الوعيد في الآخرة، ويكون هذا الوعيد مفروضاً ومشروطاً بالمشيئة. (سنة الله) مصدر مؤكد. أي: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يُقتلوا حيثما ظفر بهم. وعن مقاتل: «كما قتل أهل بدر وأسروا فالذين خلوا يشمل أتباع الأنبياء الذين نافقوا ومن قتل يوم بدر» (يسألك الناس) أي: المشركون عن وقت قيام الساعة استعجالاً، على سبيل الهزء، واليهود على سبيل الامتحان إذ كانت معمى وقتها في التوراة، فنزلت الآية بأن يرد العلم إلى الله إذ لم يطلع عليها ملكاً ولا نبياً، ولما ذكر حالهم في الدنيا أنهم ملعونون مهانون مقتولون بين حالهم في الآخرة. (وما يدريك) ما استفهام في موضع رفع بالابتداء، أي: وأي شيء يدريك بها. ومعناه النفي. أي: ما يدريك بها أحد. (لعل الساعة تكون قريباً) بين قرب الساعة. وفي ذلك تسلية للممتحن، وتهديد للمستعجل، وانتصب (قريباً) على الظرف. أي: في زمان قريب إذ استعماله ظرفاً كثيراً. ويستعمل أيضاً غير ظرف، تقول: إن قريباً منك زيد. فجاز أن يكون التقدير: شيئاً قريباً. أو تكون الساعة بمعنى الوقت فذكر قريباً على المعنى، أو يكون التقدير: لعل قيام الساعة فلو حظ الساعة في تكون فأنت ولوحظ المضاف المحذوف وهو قيام في قريباً فذكر. (يوم تقلب وجوههم في النار) يجوز أن ينتصب (يوم) بقوله (لا يجدون) ويكون (يقولون) استئناف إخبار عنهم، أو تم الكلام عند قولهم (ولا نصيراً) وينتصب (يوم) بقوله (يقولون) أو محذوف أي، اذكر. (ويقولون) حال، وقرأ الجمهور (تُقَلَّبُ) مبنياً للمفعول. والحسن وعيسى وأبو جعفر الرواسي بفتح التاء. أي: تتقلب وحكاها ابن عطية عن أبي حنيفة. وقال ابن خالويه: عن أبي حنيفة (نقلب) بالنون وجوههم بالنصب». وحكاها ابن عطية عن أبي حنيفة أيضاً وخارجه. زاد صاحب «اللوامح» أنها قراءة عيسى البصري. وقرأ عيسى الكوفي كذلك إلا أن بدل النون تاء. وفاعل (تقلب) ضمير يعود على (سعيماً) وعلى (جهنم) أسند إليهما اتساعاً. وقراءة ابن أبي عمير (تقلب) بتاءين. وتقلب الوجوه في النار: تحركها في الجهات، أو تغيرها عن هيئاتها أو إلقاؤها في النار منكوسة. والظاهر: هو الأول. والوجه أشرف ما في الإنسان فإذا قلب في النار كان قلب ما سواه أولى. وعبر بالوجه عن الجملة. وتمنيهم حيث لا ينفع، وتشكيهم من كبرائهم لا يجدي. وقرأ الجمهور (سَادَتْنَا) جمعاً على وزن فَعَلَاتِ أصله سَوَدَةٌ وهو شاذ في جمع فيعمل فإن جعلت جمع سائد قرب من القياس. وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والسلمي وابن عامر والعامرة في الجامع بالبصرة (سَادَاتِنَا) على الجمع بالألف والتاء.

وهو لا ينقاس كسوقات ومواليات بني هاشم. وسادتهم: رؤساء الكفر الذين لقنوه الكفر وزينوه لهم. قال قتادة: «سادتنا رؤسائنا» وقال طاوس: «أشرافنا» وقال أبو أسامة: «أمرؤنا»، وقال الشاعر:

تَسَلَّسَلْ قَوْمٌ سَادَةٌ ثُمَّ زَادَةٌ . يُّدُونُ أَهْلَ الْجَمْعِ يَوْمَ الْمُحْصَبِ

ويقال: ضل السبيل وضل عن السبيل فإذا دخلت همزة النقل تعدى لاثنين. وتقدم الكلام على إثبات الألف في (الرسولا) و(السبيلا) في قوله: «وتظنون بالله الظنون» [الأحزاب: ١٠] ولما لم يجد تمنيهم الإيمان بطاعة الله ورسوله، ولا قام لهم عذر في تشكيهم عن أضلهم، دعوا على ساداتهم. (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) ضعفاً على ضلالهم في أنفسهم، وضعفاً على إضلال من أضلوا. وقرأ الجمهور (كثيراً) بالثاء المثلثة وقرأ حذيفة بن اليان وابن عامر وعاصم والأعرج بخلاف عنه بالباء. (كالذين آذوا موسى) قيل: نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قاله بعض الناس. وقيل: المراد حديث الإفك على أنه ما أودى نبي مثل ما أوديت. وفي حديث الرجل الذي قال لقسم قسمه رسول الله: «إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله فغضب. وقال: رحم الله أخي موسى لقد أودى أكثر من هذا فصبر». وإذاية موسى قولهم إنه أبرص وأدر وإنه حسد أخاه

هارون وقتله، أو حديث المومسة المستأجرة لأن تقول: إن موسى زنى بها، أو ما نسبه إليه من السحر، والجنون. أقوال (ما قالوا) أي: من وصم ما قالوا. و(ما) موصولة، أو مصدرية. وقرأ الجمهور، (وكان عند الله) الظرف معمول لـ (وجيهاً) أي: ذا وجه ومنزلة عند الله تعالى تحيط عنه الأذى وتدفع التهم: وقرأ عبد الله والأعمش وأبو حيوة (عبد) من العبودية (لله) جر بلام الجر و(عبداً) خبر. كان و(وجيهاً) صفة له. قال ابن خالويه: «صليت خلف ابن شبنوذ في شهر رمضان فسمعته يقرأ (وكان عبد الله) على قراءة ابن مسعود، قال ابن زيد. «(وجيهاً) مقبولاً» وقال الحسن: «مستجاب الدعوة ما سأل شيئاً إلا أعطى إلا الرؤية في الدنيا». وقال قطرب: «رفع القدر». وقيل: وجاهته: أنه كلمه ولقبه كليم الله. والسديد: تقدم شرحه في أوائل النساء. وقال ابن عباس هنا «صواباً»، وقال مقاتل وقتادة: «سديداً: في شأن زيد وزينب والرسول»، وقال ابن عباس وعكرمة أيضاً: «لا إله إلا الله». وقيل: ما يوافق ظاهره باطنه. وقيل: ما هو إصلاح من تسديد السهم ليصيب الغرض. وقيل: السديد: يعم الخيرات ورتب على القول السديد صلاح الأعمال وغفران الذنوب. قال الزمخشري: «وهذه لآية مقررّة لتلي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤدي به رسول الله، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان ليرادف عليهم النهي والأمر مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى، واتباع الأمر الوعد البليغ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه». انتهى. وهو كلام حسن. (إنا عرضنا الأمانة) لما أرشد المؤمنين إلى ما أرشد من ترك الأذى واتقاء الله، وسداد القول ورتب على الطاعة ما رتب بين أن ما كلفه الإنسان أمر عظيم، فقال: (إنا عرضنا الأمانة) تعظيماً لأمر التكليف. و(الأمانة) الظاهر: أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي. وشأن دين ودنيا، والشرع كله أمانة. وهذا قول الجمهور. ولذلك قال أبي بن كعب: «من الأمانة أن أوثمت المرأة على فرجها». وقال أبو الدرداء: «غسل الجنب أمانة». والظاهر عرض الأمانة على هذه المخلوقات العظام - وهي الأوامر والنواهي - فتثاب إن أحسنت، وتعاقب إن أساءت فأبت وأشفقت، ويكون ذلك بإدراك خلق الله فيها، وهذا غير مستحيل، إذ قد سبح الحصى في كفه - عليه الصلاة والسلام - وحن الجذع إليه وكلمته الذراع، فيكون هذا العرض والإباء حقيقة. قال ابن عباس: «أعطيت الجهادات فهماً وتمييزاً فخيرت في الحمل وذكر الجبال مع أنها مع الأرض لزيادة قوتها وصلابتها تعظيماً للأمر». وقال ابن الأنباري: «عرضت بمسمع من آدم - عليه الصلاة والسلام - وأسمع من الجهادات الإباء ليتحقق العرض عليه، فيتجاسر على الحمل غيره، ويظهر فضله على الخلائق حرصاً على العبودية، وتشريفاً على البرية بعلو المهمة. وقيل: هو مجاز فقيل: من مجاز الحذف. أي: على من فيها من الملائكة. وقيل: من باب التمثيل. قال الزمخشري: «إن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه أن يتحمّله ويستقل به فأبى محمله، والاستقلال به، وحملها الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته. (إنه كان ظلوماً جهولاً) حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء به القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قول العرب لو قيل للشحم أين تذهب؟ ل قيل: أسوي العوج. وكم هم من أمثال على ألسنة البهائم والجهادات. وتصور مقالة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبجه، كما أن العجف<sup>(١)</sup> مما يقيح حسنه، فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس، وله أقب، وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة، وصعوبة أمرها، وثقل حملها، والوفاء بها. (فإن قلت:) قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى» لأنه مثلت حال تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضي على إحدهما بحال من يتردى في ذهابه، فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه، وكل واحد من المثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة، فليس كذلك ما في الآية. فإن عرض الأمانة على الجهاد، وإبائه وإشفاقه محال

(١) العَجْفُ: ذهاب السَّمَنِ والهزالُ فهو أعجف، عجف، «الأنثى عجفاء وعجف والجمع عجاف».

في نفسه، غير مستقيم، فكيف صح بها التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول؟ (قلت: ) الممثل به في الآية، وفي قولهم: «لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض، والمفروض أن يتخيل في الذهن كما أن المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحال المفروض لو عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها». انتهى. وقال أيضاً: «إن هذه الأجرام العظام قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها وهو ما أتى من الجمادات، حيث لم يتمتع على مشيئته إيجاداً وتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة، وأشكال متنوعة كما قال: ﴿قالتا اتيا طائعين﴾ [فصلت: ١١] وأما الإنسان فلم يكن حاله فيما يصح منه من الانقياد لأوامر الله ونواهي، وهو حيوان صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد. والمراد بالأمانة: الطاعة لأنها لازمة للوجود كما أن الأمانة لازمة للآداء، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز. وحمل الأمانة من قولك: «فلان حامل للأمانة ومحمّل لها» يريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته، ويخرج عن عهدها، لأن الأمانة كأنها رابطة للمؤمن عليها، وهو حامل لها، ألا تراهم يقولون: ركبته الديون. ولي عليه حق (فأبين) أن لا يؤديها وأبى الإنسان أن لا يكون محتملاً لها لا يؤديها، ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لآداء الأمانة، وبالجهل لخطئه ما يسعده مع تمكنه منه وهو اداؤها». انتهى. وفيه بعض حذف. وقال قوم: الآية من المجاز. أي: إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات، والأرض، والجبال، رأيتهما أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبتها وأشفقت عنها، فعبّر عن هذا المعنى بقوله (إننا عرضنا) الآية وهذا كما تقول: عرضت الحمل على البعير فأباه، وأنت تريد بذلك مقارنة قوته بثقل الحمل فرأيتها تقصر عنه. ونحوه قول ابن بحر: «معنى (عرضنا) عرضناها وقابلناها بها»، (فأبين أن يحملنها) أي: قصرن ونقص عنها، كما تقول: أبت الضجة أن تحمل ما قابلها. (وحملها الإنسان) قال ابن عباس وابن جبير: التزم القيام بحقها. (والإنسان) آدم وهو في ذلك ظلم نفسه، جهول بقدر ما دخل فيه. وقال ابن عباس: «ما تم له يوم حتى أخرج من الجنة». وقال الضحاك والحسن: وحملها معناه خان فيها. (والإنسان) الكافر، والمنافق، والعاصي على قدره». وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً: «ابن آدم قابيل الذي قتل أخاه هابيل، وكان قد تحمل لأبيه أمانة أن يحفظ الأهل بعده وكان آدم مسافراً عنهم إلى مكة في حديث طويل ذكره الطبري. وقال ابن إسحاق: «عرض الأمانة: وضع شواهد الوجدانية في المصنوعات. والحمل: الخيانة كما تقول: حمل خفي واحتمله. أي: ذهب به قال الشاعر:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَبْسِرْخْ تُؤَدِّي أَمَانَةً      وَتَحْمِلُ أُخْرَى أَخْرَجْتِكَ الْوَدَائِعُ<sup>(١)</sup>

انتهى، وليس وتحمل أخرى نصاً في الذهاب بها بل يحتمل لأنك تحمّل أخرى فتؤدي واحدة وتحمل أخرى فلا تزال دائماً ذا أمانات فتخرج إذ ذاك. واللام في (ليعذب) لام الصيرورة، لأنه لم يحملها لأن يعذب، لكنه حملها قال الأمر إلى أن يعذب من نافق وأشرك، ويتوب على من آمن. وقال الزمخشري: «لام التعليل على طريق المجاز، لأن نتيجة حمل الأمانة العذاب كما أن التأديب في: ضربته للتأديب. نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش (فيتوب) يعني بالرفع بجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، وبيئديء (ويتوب) ومعنى قراءة العامة (ليعذب الله) حامل الأمانة (ويتوب) على غيره ممن لم يحملها، لأنه إذا ثبت على أن الواو في (وكان ذلك) نوعان من عذاب القتال». انتهى. وذهب صاحب اللوامح أن الحسن قرأ (ويتوب) بالرفع.

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٢/٩٩).

## ﴿مفردات سورة سبأ﴾

المزق<sup>(١)</sup>: خرق الشيء، يقال منه: ثوب ممزوق، ومزيق، ومتمزق وممزق إذا صار قطعاً بالياً. ومنه قول العبدى:

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولًا فَكُنْ خَيْرَ أَكِلٍ وَإِلَّا فَأَذْرِكُنِي وَلَمَّا أَمَزَقِي<sup>(٢)</sup>

السباغات: الدروع، وأصله: الوصف بالسبوغ، وهو التمام، والكمال، وغلب على الدروع، فصار كالأبطح. وقال

الشاعر:

عَلَيْهَا أَسْوَدُ صَارِيَاتٍ لُبُوسُهُمْ سَوَابِغٌ بِيضٌ لَا يَحْرِقُهَا النَّبْلُ<sup>(٣)</sup>

السرد: إبتاع الشيء بالشيء من جنسه، قال الشياخ:

فَطَنْ تَبَاعًا خَيْلَنَا فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا تَابَعَتْ سَرْدَ الْعَنَانِ الْخَوَارِزُ<sup>(٤)</sup>

ويقال للدرع مسرودة، لأنه توبع فيها الحلق بالحلقة، قال الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغُ تَبْعُ<sup>(٥)</sup>

ويقال لصانع ذلك سرداء، وزرّاد تبدل من السين الزاي، كما قالوا: سِرَاطٌ وَزِرَاطٌ، ويقال للأشفي مسرد ومسراد،

وسرد القرآن إذا حدر فيه، والكلام إذا تابعه مستعجلاً فيه. سال: من سال الوادي والدمع. جرى، لسرعة ما فيه من الماء

والدمع. القَطْر: النحاس، وقيل الفلز النحاس والحديد، وما جرى مجراه، الجفان: جمع جَفْنَة، وهي معروفة. الجوابي:

الحياض العظام، واحدها جابية. لأنه يجبي فيها الماء، أي: يجمع قال الشاعر:

بِجَفَانٍ تَعْتَرِي نَادِينَا مِنْ سَدِيفٍ حِينَ قَدْ هَاجَ الضُّبُرُ<sup>(٦)</sup>

كَالْجَوَابِي لَا تَنِي مُتْرَعَةً لِقَرَى الْأَضْيَافِ أَوْ لِمَحْتَضِرٍ

وقال الأعشى:

نَفَى الذَّمَّ عَنِ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ السَّيْحِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ<sup>(٧)</sup>

وقال الأفوه الأودي:

وَقُدُورٍ كَالرَّبَا رَاسِيَاتٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِي مُتْرَعَةً<sup>(٨)</sup>

القدر: إناء يطبخ فيه من فخار أو غيره، وهو على شكل مخصوص. المنسأة: العصى. تهمز ولا تهمز ووزنها مَفْعَلَةٌ

من: نسأت أي: أحررت وطردت. ويقال: منسأة بالمد والهمز على وزن مَفْعَالَةٌ كما قالوا: مِيضَاءٌ وَمِيضَاءَةٌ. وقال الشاعر:

(١) انظر لسان العرب (٤١٩٣/٦).

(٢) البيت من الطويل انظر المفضليات (٥٩١) الأصمعيات (١٦٦) الأشموني (٥/٤) الكامل (١٧/١) مغني اللبيب (٤٥٥).

(٣) البيت في روح المعاني (١١٥/٢٢).

(٤) انظر البيت في القرطبي (١٧٢/١٤) وفيه فظلت.

(٥) البيت في روح المعاني (١١٥/٢٢) القرطبي (١٧٢/١٤).

(٦) البيت من الرمل لطرفة انظر ديوانه (٥٦) وقد تقدم، وروي في الديوان: حين هاج الصُّبُرُ: أو للمحتظر.

(٧) من الطويل للأعشى ديوانه (١٢١) اللسان (جبي) الكشاف (٢٢٧/٢).

(٨) من الرمل ذكره السمين في الدر.

صَرَبْنَا بِمِنْسَاءٍ وَجْهَهُ فَصَارَ بِذَلِكَ مَهِينًا ذَلِيلًا<sup>(٩)</sup>

وقال آخر:

إِذَا دَبَّيْتَ عَلَى الْمِنْسَاءِ مِنْ هَرَمٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللَّهُوُ وَالْعَزَلُ<sup>(١٠)</sup>

وقياس تخفيف همزتها أن يكون بين بين، وأما إبدالها ألفاً وحذفها فغير قياس. العرم<sup>(٣)</sup> : إما صفة للسيل أضيف فيه الموصوف إلى صفته، كقولهم : مسجد الجامع، وإما اسم لشيء، ويأتي القول فيه في تفسير المركبات. الخِمْطُ : قال أبو عبيدة : «كل شجرة مرة ذات شوك». وقال ابن الأعرابي : «الخِمْطُ : ثمر شجرة على صورة الخشخاش لا ينتفع به. وقال القتيبي : يقال للحراصة خِمْطَة اللبن إذا أخذ شيئاً من الريح فهو خامط وخميظ. وتخمط الفحل : هدر، والرجل : تعصب وتكسر. والخرم : أخذت ريح الأراك كرائحة التفاح ولم تدرك بعد، ويقال : هي الخامطة. قاله الجوهري». الأثل<sup>(٤)</sup> : شجر، وهو ضرب من الطرفاء، قاله أبو حنيفة اللغوي في كتاب النبات له. ويأتي ما قال فيه المفسرون. السدر : قال الفراء : «هو السرو». وقال الأزهري : «السدر سدران، سدر لا ينتفع به، ولا يصلح ورقه للغسل، وله ثمرة عفصة لا تؤكل، وهو الذي يسمى الضال. وسدر ينبت على الماء، رثمه النبق، ورقه غسول، يشبه ورق شجر العناب. التناوش : تناول سهل لشيء قريب. يقال : ناشه ينوشه، وتناوشه القوم وتناوشوا في الحرب : ناش بعضهم بعضاً بالسلام، وقال الراجز :

فَهِبِي تَنْوُشَ الْحَوْضِ نَوْشاً مِنْ عَلَا نَوْشاً بِهِ تَقَطَّعُ أَجْوَازَ الْفَلَآ<sup>(٥)</sup>  
وأما بالهمز، فقال الفراء : من ناشت. أي : تأخرت. قال الشاعر :

تَمَنَّى نَيْشِشٌ أَنْ يَكُونَ أَطَاعِنِي وَقَدْ حَدَّثَتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورُ<sup>(٦)</sup>

وقال آخر :

وَجِئْتُ نَيْشِشاً بَعْدَ مَا فَاتَكَ الْخَبْرُ نَيْشِشاً أُخِيرًا<sup>(٧)</sup>

(١) انظر البيت في القرطبي (١٧٩/١٤) روح المعاني (١٢١/٢٢).

(٢) انظر البيت في المحتسب (١٨٧/٢) مجاز القرآن (١٤٥/٢) معاني الفراء (٣٥٦/٢) اللسان (نساء) روح المعاني (١٢١/٢٢).

(٣) العرم : السيل الذي لا يطاق، ومنه قوله تعالى (فأرسلنا عليهم سيل العرم) وقيل : العرم المطر الذي لا يطاق.

لسان العرب (٢٩١٤/٤)

(٤) الأثل : شجر شبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود منه.

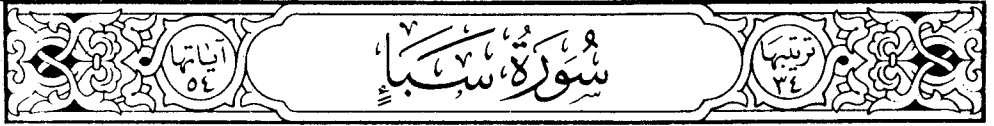
لسان العرب (٢٨/١)

(٥) انظر روح المعاني (١٥٨/٢٢) / اللسان (نوش).

(٦) البيت لنهشل انظر المصدر السابق.

(٧) والبيت هكذا في القرطبي (٢٠٢/١٤)، اللسان (نوش)، وهو فيه كما القرطبي عدا صدره.

قعدت زماناً عن طلابك للعلل وجئت نيشاً بعد ما فاتك الخبر



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا  
يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا  
فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ  
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي  
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنذِرُكُمْ إِذَا أُمرِقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ  
لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ  
الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نُشْأَتَهُمْ بِالْأَرْضِ أَوْ  
نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

هذه السورة قال في التحرير: «مكية بإجماعهم»<sup>(١)</sup> قال ابن عطية: «مكية لإقوله: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ [سبأ: ٦] فقالت فرقة: مدنية فيمن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأشباهه». انتهى. وسبب نزولها: أن أبا سفيان قال لكفار مكة: لما سمعوا ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ [الأحزاب: ٧٣] إن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويخوفنا بالبعث، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، ولا نبعث، فقال الله: قل يا محمد: «بل وربى لتبعثن». قاله مقاتل. وباقي السورة تهديد لهم وتخويف. ومن ذكر هذا السبب ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها (الحمد لله) مستغرق لجميع المحامد (وله الحمد في الآخرة) ظاهره الاستغراق، ولما كانت نعمة الآخرة مخبراً بها، غير مرئية لنا في الدنيا، ذكرها ليقاس نعمها بنعم الدنيا، قياس الغائب على الشاهد، وإن اختلفا في الفضيلة

(١) انظر القرطبي ١٤/١٦٦.

والديومة. وقيل «أل» للعهد والإشارة إلى قوله: ﴿وآخر دعوانهم أن الحمد لله﴾ [يونس: ١] وإلى قوله ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ [الزمر: ٧٤] وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «الفرق بين الحمدين، وجوب الحمد في الدنيا، لأنه على نعمه متفضل بها، وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة، وهي الثواب. وحمد الآخرة ليس بواجب، لأنه على نعمة واجبة الاتصال إلى مستحقها إنما هو تنمة سرور المؤمنين، وتكملة اغتباطهم، يلتذون به. انتهى وفيه بعض تلخيص. (يعلم ما يلج في الأرض) من المياه، وقال الكلبي: «من الأموات والدفائن وما يخرج منها من النبات». وقال الكلبي: «من جواهر المعادن، وما ينزل من السماء من المطر، والثلج، والبرد، والصاعقة والرزق، والملك (وما يعرج فيها) من أعمال الخلق». وقال الكلبي: «وما ينزل من الملائكة». وقيل: «من الأفضية والأحوال، والأدعية والأعمال». وقيل: من الإناعم والعتاء. وقرأ عليّ والسلمي (وما يُنزل) بضم الياء وفتح النون وشد الزاي. أي: الله تعالى. و(بلى) جواب للنفي السابق من قولهم (لا تأتينا الساعة) أي: (بلى لتأتينكم)، وقرأ الجمهور (لتأتينكم) بقاء التانيث. أي: الساعة التي أنكرتم مجيئها، وقرأ طلق عن أشياخه بياء الغيبة. أي (ليأتينكم) البعث، لأنه مقصودهم من نفي الساعة أنهم لا يبعثون. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «أو على معنى الساعة. أي: اليوم، أو على إسناده إلى الله على معنى: ليأتينكم أمر عالم الغيب كقوله: ﴿أو يأتي ربك﴾ [الأنعام: ١٥٨] أي: أمره. ويبعد أن يكون ضمير الساعة، لأنه مذهب التذكير لا يكون إلا في الشعر نحو قوله

وَلَا أَرْضٌ أَبْقَلُ إِبْقَاهَا

ثم أكد الجواب بالقسم على البعث، وأتبع القسم بقوله (عالم الغيب) وما بعده، ليعلم أن إثباتها من الغيب الذي تفرد به تعالى. وجاء القسم بقوله (وربي) مضافاً إلى الرسول ليدل على شدة القسم إذ لم يأت به في الاسم المشترك بينه وبين من أنكروا الساعة وهو لفظ الله. وقرأ نافع وابن عامر ورويس وسلام والجحدري وقعب (عالم) بالرفع على إضمار هو. وجوز الحوفي وأبو البقاء: أن يكون مبتدأ والخبر (لا يعزب) وقال الحوفي: «أو خبره محذوف، أي: عالم الغيب هو». وباقي السبعة عالم بالجر. قال ابن عطية وأبو البقاء: «وذلك على البدل، وأجاز أبو البقاء أن تكون صفة ويعني أن (عالم الغيب) يجوز أن يتعرف وكذا كل ما أضيف إلى معرفة مما كان لا يتعرف بذلك يجوز أن يتعرف بالإضافة إلا الصفة المشبهة فلا تتعرف بالإضافة ذكر ذلك سيويه في كتابه، وقل من يعرفه. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمة والكسائي (عَلَام) على المبالغة والحفص. وتقدمت قراءة يعزب في يونس. وقرأ الجمهور (ولا أصغر) من ذلك ولا أكبر) برفع الرائيين. واحتمل أن يكون معطوفاً على (مثقال) وأن يكون مبتدأ والخبر في قوله (إلا في كتاب) وعلى الاحتمال الأول يكون (إلا في كتاب مبين) توكيداً لما تضمنه النفي في قوله (لا يعزب) وتقديره لكنه في كتاب مبين. وهو كناية عن ضبط الشيء والتحفظ به، فكانه في كتاب وليس ثم كتاب حقيقة. وعلى التخريج الأول يكون الكتاب: هو اللوح المحفوظ، وقرأ الأعمش وفتادة بفتح الرائيين. قال ابن عطية: «عطفاً على ذرة». ورويت عن أبي عمرو وعزاها أيضاً إلى نافع ولا يتعين ما قال، بل تكون لا لنفي الجنس وهو مبتدأ، أعني: مجموع لا وما بني معها على مذهب سيويه والخبر (إلا في كتاب مبين) وهو من عطف الجمل لا من عطف المفردات كما قال ابن عطية. وقال الزمخشري: «جواباً لسؤال من قال هل جاز عطف (ولا أصغر) على (مثقال) وعطف (ولا أصغر) على (ذرة)؟ قلت: يأتي ذلك حرف الاستثناء إلا إذا جعلت الضمير في (عنه) للغيب، وجعلت الغيب اسماً للخفيات قبل أن تكتب في اللوح، لأن إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب على معنى أنه لا يتفصل عن الغيب شيء ولا يزول عنه إلا

(١) انظر الكشاف ٣/٥٦٦.

(٢) انظر الكشاف ٣/٥٦٦.



مسطور في اللوح». انتهى ولا يحتاج إلى هذا التأويل إذا جعلنا الكتاب المين: ليس اللوح المحفوظ. وقرأ زيد بن علي (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) بخفض الراءين بالكسرة. كأنه نوى مضافاً إليه محذوفاً. التقدير: ولا أصغرة ولا أكبرة (من ذلك) ليس متعلقاً بـ (أفعل) بل هو بتبيين، لأنه لما حذف المضاف إليه أهم لفظاً فبينه بقوله (من ذلك) أي: عني من ذلك، وقد جاءت من مع كون أفعل التفضيل مضافاً في قول الشاعر:

نَحْنُ بِفَرَسِ الْوَدِيِّ أَعْلَمُنَا      بِنَا بِرَكْضِ الْجَيَادِ فِي السُّدْفِ<sup>(٣)</sup>

وخرج على أنه أراد علم بنا فأضاف ناوياً طرح المضاف إليه، فاحتملت قراءة زيد هذا التوجيه الآخر أنه لما أضاف (أصغر) و(أكبر) على إعرابها حالة الإضافة. وهذا كله توجيه شذوذ وناسب وصفه تعالى بـ (عالم الغيب) وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات، فاندرج في ذلك وقت قيام الساعة وصار ذلك دليلاً على صحة ما أقسم عليه، لأن من كان علماً بجميع الأشياء كلها، وجزئها، وكانت قدرته ثابتة، كان قادراً على إعادة ما فني من جميع الأرواح والأشباح. قيل: وقوله (مثقال ذرة في السموات) إشارة إلى علمه بالأرواح (ولا في الأرض) إشارة إلى علمه بالأشياء، وكما أبرزهما من العدم إلى الوجود أولاً فكذلك يعيدهما ثانياً. وقال الزمخشري: «فإن قلت: كيف يكون بمعنى اليمين مصححة لما أنكروه؟ قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها بالحجة القاطعة وهو قوله (ليجزى) فقد وضع الله في العقول، وركب في الغرائز وجوب الجزاء وأن المحسن لا بد له من ثواب والمسيء لا بد له من عقاب» انتهى. وفي السؤال بعض اختصار وفيه دسيسة الاعتزال، والظاهر: أن قوله (ليجزى) متعلق بقوله (لا يعزب) وقيل: بقوله (لتأنيبكم) وقيل بالعامل (في كتاب مبين) أي: إلا مستقراً في كتاب مبين ليجزي. وقرأ الجمهور (مُعْجِزِينَ) مخففاً. وابن كثير وأبو عمرو والجدري وأبو السماك مثقفاً وتقدّم في الحج. أي: معجزين قدرة الله في زعمهم. وقال ابن الزبير: «معناه: مثبطين<sup>(١)</sup> عن الإيمان<sup>(٢)</sup> من إرادته، مدخلين عليه العجز في نشاطه، وهذا هو سعيهم في الآيات. أي: في شأن الآيات». وقال قتادة: «مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا». وقال عكرمة: «مراغمين». وقال ابن زيد: «مجاهدين في إبطائها»، وقرأ ابن كثير وحفص وابن أبي عبله: (أليم) هنا وفي الجاثية بالرفع صفة للعذاب، وباقي السبعة بالجر صفة للرجز. والرجز: العذاب السيء والظاهر: أن قوله (والذين سعوا) مبتدأ والخبر في الجملة الثانية وهي (أولئك) وقيل: هو منصوب عطفاً على (الذين آمنوا) أي: وليجزى الذين سعوا، واحتمل أن تكون الجملتان المصدرتان بـ (أولئك) هما نفس الثواب والعقاب. واحتمل أن تكونا مستأنفتين، والثواب والعقاب ما تضمنتا مما هو أعظم كرضا الله عن المؤمن. دائماً، وسخطه على الفاسق دائماً، قال العتبي: «والظاهر أن قوله (ويرى) استثناء إخبار عمن أوتي العلم يعلمون القرآن المنزل عليك (هو الحق) وقيل: (ويرى) منصوب عطفاً على (ليجزى) وقاله الطبري والشعبي وتقدّم الخلاف في (الذين أوتوا العلم) في ذلك المكان الذي نزلت فيه هذه السورة. وقال الزمخشري: «أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علماً لا يزداد عليه في الاتفاق ويحتجوا به على (الذين كفروا) (وتولوا). ويجوز أن يريد وليعلم من لم يؤمن من الأخيار أنه هو الحق فيزداد حسرة وغماً. انتهى وإنما قال عند مجيء الساعة لأنه علق (ليجزى) بقوله (لتأنيبكم) فبني التخريج على ذلك. وقرأ الجمهور (الحق) بالنصب مفعولاً ثانياً لـ (يرى) وهو فصل. وابن أبي عبله بالرفع. جعل (هو) مبتدأ (والحق) خبره والجملة في موضع المفعول الثاني لـ (يرى) وهي لغة تميم يجعلون ما هو

(١) ثبطه عن الشيء تثبيطاً: أي: شغله عنه وفي التنزيل الحميد ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وقال أبو إسحاق «التثبيط ردك الإنسان عن الشيء بفعله».

لسان العرب (١/٤٧٠)

(٢) انظر القرطبي ١٤/١٦٨.

(٣) انظر مغني اللبيب (٦٨٦).

فصل عند غيرهم مبتدأ . قاله أبو عمر الجرمي . والظاهر : أن الفاعل لـ (يهدي) هو ضمير (الذي أنزل) وهو القرآن . وهو استئناف إخبار وقيل : هو في موضع الحال على إضمار وهو يهدي . ويجوز : أن يكون معطوفاً على (الحق) عطف الفعل على الاسم كقوله : ﴿صافات ويقبضن﴾ [الملك : ١٩] أي : قابضات . كما عطف الاسم على الفعل في قوله :

فَأَلْفَيْتُهُ يَوْمًا يُبِيرُ غَدُوَّهُ      وَبَحَرَ عَطَاءٍ يُسْتَحَقُّ الْمَعَابِرَا<sup>(١)</sup>

عطف (وبحر) على (يبير) وقيل : الفاعل بـ (يهدي) ضمير عائد على الله ، وفيه بعد . (وقال الذين كفروا) هم : قريش قال بعضهم لبعض على جهة التعجب والاستهزاء ، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه هل أدلك على قصة عربية نادرة ، لما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه . وأتوا باسمه عليه السلام نكرة في قوله (هل ندلكم على رجل) وكان اسمه أشهر علم في قريش ، بل في الدنيا وإخباره بالبعث أشهر خبر ، لأنهم أخرجوا ذلك مخرج الاستهزاء والتحلي ببعض الأحاجي<sup>(٢)</sup> المعمولة للتلهي والتعمية فلذلك نكروا اسمه . وقرأ الجمهور (يُنْبِتْكُمْ) بالهمز . وزيد بن علي بإبدال الهمزة ياء محضة . وحكى عنه الزمخشري (ينبتكم) بالهمز من أنباء (إذا) جوابها محذوف تقديره تبعثون . وحذف للدلالة ما بعده عليه وهو العامل (إذا) على قول الجمهور . وقال الزجاج : «ذلك وقال أيضاً : هو والنحاس العامل (مزقتم)» . اقل ابن عطية : «هو خطأ وإفساد للمعنى» . انتهى . وليس بخطأ ولا إفساد للمعنى (وإذا) الشرطية تختلف في العامل فيها وقد بينا ما كتبناه في شرح التسهيل أن الصحيح أن يعمل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط ، والجملة الشرطية يحتمل أن تكون معمولة لـ (ينبتكم) لأنه في معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق تبعثون ثم أكد ذلك بقوله (إنكم لفي خلق جديد) ويحتمل أن يكون (إنكم لفي خلق جديد) معمولاً لـ (ينبتكم) و(ينبتكم) متعلق ولولا اللام في خبر إن كانت مفتوحة فالجملة سدت مسد المفعولين ، والجملة الشرطية على هذا التقدير اعتراض ، وقد منع قوم التعليق في باب «أعلم» والصحيح جوازه ، قال الشاعر :

حَذَارٍ فَكَقْدُ نُبِئْتُ أَنَّكَ لَلَّذِي      سَتُجْزَى بِمَا تَسَعَى فَتَسَعَدَ أَوْ تَشْقَى<sup>(٣)</sup>

(ومُزَّق) مصدر جاء على زنة اسم المفعول على القياس في اسم المصدر من كل فعل زائد على الثلاثة كقوله :

أَلَمْ تَعْلَمْ بِمَسْرَجِي الْقَوَافِي      فَلَا عِيَاءَ بَيْنَ وَلَا اجْتِيَابَا<sup>(٤)</sup>

أي : تسريحي القوافي . وأجاز الزمخشري أن يكون ظرف مكان . أي : إذا مزقتم في مكان من القبور ويطون الطير ، والسياب ، وما ذهبت به السيول كل مذهب ، وما نسفته الرياح فطرحت كل مطرح . انتهى . (جديد) عند البصريين بمعنى فاعل . تقول : جد فهو جاد وجديد . وبمعنى مفعول عند الكوفيين من جدّه إذا قطعه ، والظاهر أن قوله (أفترى) من قول بعضهم لبعض . أي : هو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من أمر البعث . أم به جنون يوهمه ذلك ، ويلقيه على لسانه ، عادلوا بين الافتراء والجنون ، لأن هذا القول عندهم إنما يصدر عن أحد هذين لأنه إذا كان يعتقد خلاف ما أتى به فهو مفتر وإن كان لا يعتقد أنه مجنون . ويحتمل أن يكون من كلام السامع المحيب لمن قال (هل ندلكم) ردد بين الشيتين ولم يجزم

(١) من الطويل للنابغة انظر ديوانه (٢٥٩) شرح الجمل (٢٤٩/١).

(٢) الأحجية : اسم المحاجة وفي لغة أحجوة . قال الأزهرى : والياء أحق وهي لعبة وأغلوطة يعاطاها الناس بينهم .

لسان العرب (٢٩٢/١)

(٣) البيت من الطويل لنظر التصريح ١٦٦/١ المجمع (١٥٨/١).

(٤) البيت من الوافر لجرير انظر ديوانه (٥٧) المقتضب (٢١٣/١) ، الحصائص (٣٦٧/١) الكامل (٢٠١/١).

بأحدهما، حيث جوز هذا وجوز هذا ولم يجزم بأنه افتراء محض، احترازاً من أن ينسب الكذب لعامل نسبة قطعية إذ العاقل حتى الكافر لا يرضى بالكذب لا من نفسه ولا من غيره وأضرب تعالى عن مقالتهن. والمعنى: ليس للرسول كما نسبتهم البتة بل أنتم في عذاب النار أو في عذاب الدنيا بما تكابدونه من إبطال الشرع - وهو بحق - وإطفاء نور الله - وهو متم - ولما كان الكلام في البعث قال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة) فرتب العذاب على إنكار البعث. وتقدم الكلام في وصف الضلال بالبعد، وهو من أوصاف المحال. استعير للمعنى ومعنى بعده أنه لا ينقضي خبره المتلبس به (أفلم يروا) أي: هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة (إلى ما بين أيديهم) أي: حيث ما تصرفوا فالسواء والأرض قد أحاطنا بهم، ولا يقدر أن ينفذوا من أقطارهما، ولا يخرجوا عن ملكوت الله فيها. وقال الزمخشري: «أعموا فلم ينظروا»: جعل بين الفاء والهمزة فعلاً يصح العطف عليه، وهو خلاف ما ذهب إليه النحويون من أنه لا محذوف بينهما، وأن الفاء للعطف على ما قبل همزة الاستفهام، وأن التقدير (فألم) لكن همزة الاستفهام لما كان لها الصدر قدمت. وقد رجع الزمخشري إلى مذهب النحويين في ذلك. وقد ردنا عليه هذا المذهب فيما كتبناه في شرح التسهيل. وفهمه تعالى على قدرته الباهرة، وحذرهم إحاطتها بهم على سبيل الإهلاك لهم، وكان ثم حال محذوفة. أي: أفلا يرون إلى ما يحيط بهم من سماء وأرض مقهور تحت قدرتنا، نتصرف فيه كما نريد. (إن نشأ نخسف بهم الأرض) كما فعلنا بقارون (أو نسقط عليهم كسفاً<sup>(١)</sup>) من السماء) كما فعلنا بأصحاب الظلة. أو: أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم محيطاً بهم، وهم مقهورون تحت قدرتنا (إن في ذلك) النظر إلى السماء والأرض والفكر فيها وما يدلان عليه من قدرة الله (لآية) لعلامة ودلالة (لكل عبد منيب) راجع إلى ربه مطيع له، قال مجاهد: «مخبت». وقال الضحاك: «مستقيم». وقال أبو روق: «مخلص في التوحيد». وقال قتادة: «مقبل إلى ربه بقلبه لأن النبي لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقابه من يكفر به»، وقرأ الجمهور (إن نشأ نخسف) و(نسقط) بالنون في الثلاثة. وحزرة والكسائي وابن وثاب وعيسى والأعمش وابن مطرف بالياء فيهن. وأدغم الكسائي الفاء في الباء في (نخسف بهم) قال أبو علي: وذلك لا يجوز، لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء نحو اضرب فلاناً. وهذا ما تدغم الباء في الميم. كقولك اضرب مالكاً ولا تدغم الميم في الباء، كقولك: اصمم بك. لأن الباء انحطت عن الميم بفقد الغنة التي في الميم. وقال «الزمخشري»: «وقرأ «الكسائي»: (نخسف بهم) بالإدغام وليست بقوة» انتهى. والقراءة سنة متبعة ويوجد فيها الفصيح والأفصح، وكل ذلك من تيسيره تعالى القرآن للذكر فلا التفتات لقول أبي علي ولا الزمخشري.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۚ إِنَّ أَعْمَلَ سَدِغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ﴾ ﴿وَلَسَلِمَتْنَا لِرِيحٍ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نُدِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ۚ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَّجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ۚ﴾ ﴿فَلَمَّا فَضَيَّتْ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى سَوْتِهِ ۚ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ

(١) الكسف والكسفة والكسيفة: القطعة مما قطعت، وكسف السحاب وكسفه: قطعه.

تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٠)

مناسبة قصة داود وسليمان - عليهما السلام - لما قبلها: هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالتهم عندهم، فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكاره، إذ طفحت ببعضه أخبارهم، وشعراؤهم، على ما يأتي ذكره. إن شاء الله - من تأويب والجبال والطيور مع داود - وإلانة الحديد وهو الجرم المستعصي. وتسخير الريح لسليمان، وإسالة النحاس له، كما ألان الحديد لأبيه، وتسخير الجن فيما شاء من الأعمال الشاقة. وقيل: لما ذكر من نيب من عباده ذكر من جلتهم داود، كما قال (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب) وبين ما آتاه الله على إنبته فقال (ولقد آتينا داود منا فضلاً) وقيل: ذكر نعمته على داود وسليمان - عليهما السلام - احتجاجاً على ما منح محمداً - ﷺ - أي: لا تستبعدوا هذا، فقد تفضلنا على عبدينا قديماً بكذا، وكذا، فلما فرغ التمثيل لمحمد - عليه السلام - رجح التمثيل لهم سبأ، وما كان من هلاكهم بالكفر والعتو. انتهى. والفضل الذي أوتي داود: الزبور، والعدل في القضاء، والثقة بالله، وتسخير الجبال، والطيور وتليين الحديد. أقوال: (يا جبال) هو إضمار القول إما مصدر أي: قولنا يا جبال، فيكون بدلاً من (فضلاً) وإما فعلاً. أي: قلنا فيكون بدلاً من (آتيناً) وإما على الاستئناف. أي: «قلنا يا جبال». وجعل الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان، وجماد، وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته، غير متمتع على إرادته، ودلالة على عزة الربوبية، وكبرياء الألوهية، حيث نادى الجبال وأمرها. وقرأ الجمهور (أوبي) مضاعف أب يؤوب ومعناه: سبحي معه قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد وقال مؤرج وأبو مسيرة: «أوبي» سحي بلغة الحبشة. أي: يسبح هو وترجع هي معه التسبيح. أي: تردد بالذكر. وضعف الفعل للمبالغة قاله ابن عطية. ويظهر: أن التضعيف للتعدية. فليس للمبالغة، إذ أصله أب وهو لازم بمعنى رجح اللازم، فعدي بالتضعيف إذ شرحوه بقولهم: رجعي معه التسبيح. قال الزمخشري (١): «ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يخلق فيها تسبيحاً، كما خلق الكلام في الشجرة فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود. قيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين، وكانت الجبال تساعد على نوحه بأصدائها، والطيور بأصواتها». انتهى. وقوله: «كما خلق الكلام في الشجرة» يعني: أن الذي يسمع موسى هو مما خلقه الله في الشجرة من الكلام لا أنه كلام الله حقيقة. وهو مذهب المعتزلة. وأما قوله: «تساعده الجبال على نوحه بأصدائها فليس بشيء، لأن الصدى ليس بصوت الجبال حقيقة، والله تعالى نادى الجبال وأمرها بأن تؤوب معه، والصدى لا تؤمر الجبال بأن تفعله إذ ليس فعلاً لها، وإنما هو من آثار صوت المتكلم على ما يقوم عليه البرهان، وقال الحسن: «معنى (أوبي) (٢) معه) سيري معه أين سار والتأويب: سير النهار كان الإنسان يسير الليل ثم يرجع للسير بالنهار. أي: يردده. وقال تميم بن مقبل:

لَحِقْنَا بِحَيٍّ أَوْبُوا السَّيْرَ بَعْدَمَا رَفَعْنَا شُعَاعَ الشَّمْسِ وَالطَّرْفَ تَجْنَحُ (٣)

وقال آخر:

يَوْمَانِ: يَوْمٌ مَقَامَاتٍ وَأَنْدِيَةٍ وَيَوْمٌ سَيْرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيبٌ (٤)

وقيل (أوبي) تصر في معه على ما يتصرف فيه، فكان إذا قرأ الزبور: صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكانها فعلت ما فعل. وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق (أوبي) أمر من أوب. أي رجعي معه في التسبيح، أو في

(١) انظر الكشف ٥٧١/٣.

(٢) انظر لسان العرب (١٦٦/١).

(٣) البيت في روح المعاني (١١٣/٢٢) والقرطبي (١٧٠/١٤).

(٤) انظر المصدر السابق.

السير على القولين . فأمر الجبال كأمر الواحدة المؤنثة ، لأن جمع ما لا يعقل يجوز فيه ذلك ومنه : «يا خيل الله اركبي» ومنه : «يا رب أخرى» . وقد جاء ذلك في جميع ما يعقل من المؤنث . قال الشاعر :

تَرَكْنَا الْخَيْلَ وَالنَّعَمَ الْمُفْدَى      وَقُلْنَا لِلنِّسَاءِ بِهَا أَيْمِي (١)

لكن هذا قليل . وقرأ الجمهور (والطير) بالنصب عطفاً على موضع (يا جبال) قال سيويه : «وقال أبو عمرو بإضمار فعل تقديره وسخرنا له الطير» . وقال الكسائي : «عطفاً على فضلاً . أي : وتسيح الطير» . وقال الزجاج : «نصبه على أنه مفعول معه» انتهى . وهذا لا يجوز ، لأن قبله (معه) ولا يقتضي الفعل اثنين من المفعول معه إلا على البدل ، أو العطف . فكما لا يجوز جاء زيد مع عمرو مع زينب إلا بالعطف كذلك هذا . وقرأ السلمي وابن هرمز وأبو يحيى وأبو نوفل ويعقوب وابن أبي عبله وجماعة من أهل المدينة وعاصم في رواية (والطير) بالرفع عطفاً على لفظ (يا جبال) وقيل : عطفاً على الضمير في (أوي) وسوغ ذلك الفصل بالظرف ، وقيل : رفعاً بالابتداء والخبر محذوف ، أي : والطير تؤوب وإلانة الحديد ، قال ابن عباس وفتادة : «صار كالشمع» (٢) ، وقال الحسن : «كالعجين وكان يعمل من غير نار» ، وقال السدي : «كالطين المبلول ، والعجين والشمع ، يصرفه كيف شاء من غير نار ، ولا ضرب مطرقة» . وقيل : أعطي قوة يلين بها الحديد ، وقال مقاتل : «وكان يفرغ من الدرع في بعض يوم أو في بعض ليلة ثمنا ألف درهم ، وكان داود يتنكر» . فيسأل الناس عن حاله ، فعرض له ملك في صورة إنسان ، فسأله فقال : نعم العبد لولا خلة فيه . فقال : وما هي ؟ فقال : يرتزق من بيت المال ، ولو أكل من عمل يده تمت فضائله ، فدعا الله أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه فعلمه صنعة الدروع ، وألان له الحديد ، فأثرى ، وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين» . (وأن) في (أن أعمل) مصدرية ، وهي على إسقاط حرف الجر . أي : ألناه لعمل سابغات . وأجاز الحوفي وغيره أن تكون مفسرة ولا يصح ، لأن من شرطها : أن يتقدمها معنى القول (وأن) ليس فيه معنى القول . وقدر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً حتى يصح أن تكون مفسرة ، وتقديره : وأمرناه أن أعمل . أي : اعمل ، ولا ضرورة تدعو إلى هذا المحذوف . وقرئ (صابغات) بالصاد بدلاً من السين ، وتقدم أنها لغة في قوله ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ﴾ [لقمان ٢٠] (وقدر في السرد) قال ابن زيد : «هو في قدر الحلقة . أي : لا تعملها صغيرة فتضعف فلا يقوى الدرع على الدفاع ، ولا كبيرة فينال لابسها من خلالها» ، وقال ابن عباس : «هو في المسار لا يرق فينكسر ، ولا يغلظ فيفصم بالفاء وبالقاف» . وقال فتادة : «إن الدروع كانت قبل صفائح كانت ثقلاً ، وهو أول من صنع الدرع حلقاً» (٣) . والظاهر : أن الأمر في قوله (اعملوا آل داود) لآل داود وإن لم يجر لهم ذكر . ويجوز أن يكون أمر الداود شرفه الله بأن خاطبه خطاب الجمع . (ولسليمان الريح) قال الحسن : «عقر سليمان الخيل على ما فوتته من صلاة العصر ، فأبدله الله خيراً منها وأسرع ، الريح تجري بأمره» ، وقرأ الجمهور (الريح) بالنصب . أي : ولسليمان سخرنا الريح . وأبو بكر بالرفع على الابتداء والخبر في المجرور . ويكون الريح على حذف مضاف . أي : تسخير الريح ، أو على إضمار الخبر . أي : الريح مسخرة . وقرأ الحسن وأبو حيوة وخالد بن إلياس (الرياح) . بالرفع جمعاً . وقال فتادة : «كانت تقطع في الغدو إلى قرب الزوال مسيرة شهر ، وفي الرواح من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر» . وقال الحسن : «فخرج من مستقره بالشام يريد تدمر التي بنتها الجن بالصفاح والعمد فيقتيل في اصطخر ويروح منها فيبيت في كابل من أرض خراسان ، والغدو ليس الشهر هو على حذف مضاف ، أي : جزى غدوها ، أي : جريها في الغدو مسيرة شهر وجري رواحها . أي : جريها في الرواح مسيرة شهر . وأخبر

(١) البيت في روح المعاني (٢٢/١١٤) .

(٢) انظر القرطبي ١٤/١٧١ .

(٣) انظر القرطبي ١٤/١٧١ .

هنا في الغدو عن الرواح بالزمان وهو شهر، ويعني شهراً واحداً كاملاً. ونصب شهر جائز ولكنه لم يقرأ به فيما أعلم. وقرأ ابن أبي عملة (عَدُوَّتُهَا) (وَرَوَّحْتُهَا) على وزن فَعَلَةٌ وهي المرة الواحدة من (غدا) و(راح) وقال وهب: «كان مستقر سليمان - عليه السلام - بتدمر وكانت الجن قد بنتها له بالصفاح والعمد، والرخام الأبيض والأشقر». وفيه يقول النابغة:

إِلَّا سُلَيْمَانَ قَدْ قَالَ الْإِلَهُ لَهُ      قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاصْدُدْهَا عَنِ الْعَمَدِ<sup>(١)</sup>  
وَحَيْسَ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ      يَبْنُونَ تَدْمَرَ بِالصَّفَاحِ وَالْعَمَدِ

ووجدت أبياتاً منقورة في صخرة بأرض يشكر شاهدة لبعض، أصحاب سليمان - عليه السلام - وهي:

وَنَحْنُ وَلَا حَوْلَ سِوَى حَوْلِ رَبِّنَا      نُرُوحُ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ أَرْضِ تَدْمَرَ  
إِذَا نَحْنُ رُحْنَا كَانَ رَبُّنَا رَوَّاحِنَا      مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَالْغِدْوُ لِأَخِيرِ<sup>(٢)</sup>  
أُنَاسٌ أَعَزَّ اللَّهُ طَوْعاً نَفْسَهُمْ      يَنْصُرُ ابْنَ دَاوُدَ النَّبِيَّ الْمُطَهَّرَ  
لَهُمْ فِي مَعَانِي الدِّينِ فَضْلٌ وَرَفْعَةٌ      وَإِنْ نُسِبُوا يَوْمًا فَمِنْ خَيْرٍ مَعَشَرَ  
وَإِنْ رَكِبُوا الرِّيحَ الْمُطِيعَةَ أَسْرَعَتْ      مُبَادِرَةً عَنِ يُسْرِهَا لَمْ تُقْصَرَ  
تُظَلُّهُمْ طَيْرٌ صُفُوفٌ عَلَيْهِمْ      مَتَى رَفَرْتُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ لَمْ تُنْشَرَ

انتهى ما حكى وهب. (وأسلنا له عين القطر) الظاهر: أنه جعله له في معدنه عيناً تسيل كعيون الماء دلالة على نبوته. قال قتادة: «يستعملها فيما يريد». وعن ابن عباس ومجاهد والسدي: «أجريت له ثلاثة أيام بلياليهن وكانت بأرض اليمن»، قال مجاهد: «سالت من صنعاء ولم يذب النحاس فيما روي لأحد قبله وكان لا يذوب»، وقالت فرقة: «المعنى: أذنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلين لداود - عليه السلام - قالوا: وكانت الأعمال تتأتى منه وهو بارد دون نار. (وعين) بمعنى الذات، وقالوا: لم يكن أولاً ذاب لأحد قبله، وقال الزمخشري: «أراد بها معدن النحاس نبعاً له كما ألان الحديد لداود فنبع، كما ينبع الماء من العين، فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه. كما قال (إني أراي أعصرُ خمرًا) [يوسف: ٣٦] انتهى. ويحتمل \*من يعمل\* أن يكون في موضع نصب. أي: وسخرنا من الجن من يعمل، وأن يكون في موضع رفع على الابتداء وخبره في الجار والمجرور قبله (بإذن ربه) لقلوله (ومن يزرع منهم عن أمرنا) وقرأ الجمهور (يَزْعُ) مضارع زاع، أي: ومن يعدل عن أمرنا الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرىء (يَزْعُ) بضم الباء من أزاغ. أي: ومن يمل ويصرف نفسه عن أمرنا. (وعذاب السعير) عذاب الآخرة، قاله ابن عباس، وقال السدي: «كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى». ولبعض الباطنية أو من يشبههم تحريف في هذه الجملة أن تسبيح الجبال هو من نوع قوله: \* (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) [الإسراء: ٤٤] وأن تسخير الريح: هو أنه راض الخيل وهي كالريح وأن غدوها شهر يكون فرسخاً لأن من يخرج للتفرج لا يسير في غالب الأمر أشد من فرسخ وإلانة الحديد وإسالة القطر هو استخراج ذوبها بالنار واستعمال الآلات منها. (ومن الجن) هم ناس من بني آدم أقوياء شهبوا بهم في قواهم. وهذا تأويل فاسد وخروج بالجملة عما يقوله أهل التفسير في الآية وتعجيز للقدرة الإلهية نعوذ بالله من ذلك والمحارب: قال مجاهد: المشاهد سميت باسم بعضها تجوراً. وقال ابن عطية: «القصور». وقال قتادة كليهما، وقال ابن زيد: «مساكن»، وقيل: «ما يصعد إليه بالدرج كالغرف. والتهايل: الصور وكانت لغير الحيوان. وقال الضحاك: «كانت تماثيل حيوان وكان عملها جائزاً في

(١) انظر البيهقي في القرطبي (١٤/١٧٣) وروح المعاني (٢٢/١١٧).

(٢) انظر الأبيات في المصدرين السابقين، وفي القرطبي: أناس شَرَوْا لله طَوْعاً نفوسهم.

ذلك الشرع». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «هي صور الملائكة والنبين والصالحين كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. وهذا مما يجوز أن يختلف فيه الشرائع، لأنه ليس من مقبحات الفعل كالظلم والكذب. وعن أبي العالية: «لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً أو صوراً محذوفة الرؤوس». انتهى وفيه بعض حذف. وقيل: التماثيل: طلسمات<sup>(٢)</sup> فيعمل تماًلاً للتمساح، أو للذباب، أو للبعوض، ويأمر أن لا يتجاوز ذلك الممثل به ما دام ذلك التمثال والتصوير حراماً في شريعتنا. قد ورد تشديد الوعيد على المصورين. ولبعض العلماء استثناء في شيء منها. وفي حديث سهل بن حنيف: «لعن الله المصورين ولم يستثن عليه الصلاة والسلام». وحكى مكى في الهداية: «أن قوماً أجازوا التصوير». وحكاه النحاس عن قوم واحتجوا بقوله (وتماثيل) قاله ابن عطية. وما أحفظ من أئمة العلم من يجوزه. وقرىء: (كالجواب) بلا ياء. وهو الأصل اجترأ بالكسرة وإجراء الألف واللام مجرى ما عاقبها وهو التنوين، وكما يحذف مع التنوين يحذف مع ما عاقبه وهو أل. (والراسيات) الثابتات على الأثافي<sup>(٣)</sup> فلا تنقل ولا تحمل لعظمتها. وقدمت المحارِب على التماثيل، لأن النقوش تكون في الأبنية. وقدم الجفان على القدور، لأن القدور آلة الطبخ، والجفان آلة الأكل، والطبخ قبل الأكل: لما بين الأبنية الملكية وأراد بيان عظمة الساط الذي يمد في تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيها والقدور لا تكون فيها ولا تحضر هناك ولهذا قال (راسيات) ولما بين حال الجفان سرى الذهن إلى عظمة ما يطبخ فيه، فذكر القدور للمناسبة. وذكر في حق داود اشتغاله بألة الحرب، لاحتياجه إلى قتال الأعداء. وفي حق سليمان المحارِب والتماثيل، لأنه كان ملكاً ابن ملك قد وطد له أبوه الملك فكانت حاله حالة سلم إذ لم يكن أحد يقدر على محاربتة. وقال عقب (أن اعمل سابغات) (واعملوا صالحاً) وعقب ما يعملُه الجن (اعملوا آل داود شكراً) إشارة إلى أن الإنسان لا يستغرق في الدنيا ولا يلتفت إلى زخارفها وأنه يجب أن يعمل صالحاً (اعملوا آل داود) وقيل: مفعول (اعملوا) محذوف. أي: اعملوا الطاعات وواظبوا عليها (شكراً) لربكم على ما أنعم به عليكم. فقيل: انتصب (شكراً) على الحال. وقيل: مفعول من أجله. وقيل: مفعول له بـ (اعملوا) أي: اعملوا عملاً هو الشكر كالصلاة، والصيام. والعبادات كلها في أنفسها هي الشكر إذا سدت مسده. وقيل: على المصدر لتضمينه (اعملوا) (اشكروا) بالعمل لله شكراً. روي: «أن مصلى آل داود لم يخل قط من قائم يصلي ليلاً ونهاراً، وكانوا يتناوبونه، وكان سليمان - عليه السلام - يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار<sup>(٤)</sup>، والمساكين الدرهم، وما شبع قط، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن شبت أن أنسى الجياع» (والشكور) صيغة مبالغة وأريد به الجنس. قال ابن عباس: «الشكور: من يشكر على أحواله كلها»، وقال السدي: «من يشكر على الشكر». وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وهذه الجملة تحتل أن تكون خطاباً لآل داود. وهو الظاهر وأن تكون خطاباً للرسول - ﷺ - وفيها تنبيه وتحريض على الشكر (فلما قضينا عليه الموت) أي: أنفذنا عليه ما قضينا عليه في الأزل من الموت وأخرجناه إلى حيز الوجود وجواب (لما) النفي الموجب وهذا يدل على أن (لما) حرف لا ظرف خلافاً لمن زعم ذلك، لأنه لو كان ظرفاً لكان الجواب هو العامل وما دخلت عليه، وهي نافية، ولا يعمل ما قبلها فيها بعدها. وقد مضى لنا نظير هذا في يوسف في قوله: ﴿ولما دخلوا

(١) انظر الكشاف ٥٧١/٣.

(٢) الطلسم: طلسم الرجل: كره وجهه وقطبه.

لسان العرب (٤/٢٦٨٩)

(٣) الأثافي: الألفية: الحجر الذي توضع عليه القدر وجمعها أثافي وأثاف.

لسان العرب (١/٢٧)

(٤) الخشكار: الخشن من كل شيء: الرديء.

لسان العرب (٢/١١٦٧)

من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴿ [يوسف : ٦٨ ] فالضمير في (دهم) عائد على الجن الذين كانوا يعملون له ، وكان سليمان قد أمر الجن ببناء صرح له فبنوه له ، ودخله مختلياً ليصفوه يوم من الدهر من الكدر ، فدخل عليه شاب ، فقال له : كيف دخلت عليّ بغير إذن؟ فقال : إنما دخلت بإذن . قال : ومن أذن لك؟ قال : رب هذا الصرح فعلم أنه ملك الموت أتى فقبض روحه . فقال : سبحان الله هذا اليوم الذي طلبت فيه الصفا . فقال له : طلبت ما لم يخلق ، فاستوتق من الاتكاء على العصا ، فقبض روحه ، وبقيت الجن تعمل على عاداتها . وكان سليمان قصد تعمية موته لأنه كان بقي من تمام بناء المسجد عمل سنة ، فسأل الله تمامها على يد الإنس والجن ، وكان يخلو بنفسه الشهرين والثلاثة ، فكانوا يقولون إنه يتحنث<sup>(١)</sup> . وقيل : إن ملك الموت أعلمه أنه بقي من حياته ساعة ، فدعا الشياطين فبنوا له الصرح ، وقام يصلي متكئاً على عصاه ، فقبض روحه وهو عليها ، وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه فلا ينظر أحد منهم إليه في صلاته إلا احترق ، فمر واحد منهم فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع ، فنظر فإذا هو قد خر ميتاً . وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة . ملك بعد موت أبيه وهو ابن ثلاثة عشر سنة ، وكان أبوه قد أسس بنيان المسجد موضع بساط موسى فهات قبل أن يتمه ، ووصى به ابنه فأمر الشياطين بإتمامه ومات قبل تمامه . (ودابة الأرض تأكل) هي سوسة الخشب ، وهي الأرضة . وقيل : ليست سوسة الخشب ، لأن السوسة ليست من دواب الأرض ، بل هذه حيوان من الأرض شأنه أن يأكل الخشب ، وذلك موجود . وقالت فرقة - منها أبو حاتم (الأرض) هنا مصدر أرضت الأوباب والخشب أكلتها الأرضة ، فكأنه قال : دابة الأكل الذي هو بتلك الصورة وإذا كان الأرض مصدراً كان فعله : أرضت الدابة الخشب تأرضه أرضاً فـ (أرض) بكسر الراء ، نحو : جُدِعتْ أنه فجدع ، ويقال : إنه مصدر لفعل مفتوح العين قراءة ابن عباس والعباس بن الفضل الأرض بفتح الراء لأن مصدر فعل المطاوع لفعل يكون على فَعَل نحو جدع أنه جدعاً . وأكلت الأسنان أكلاً مطاوع أكلت وقيل : الأرض بفتح الراء جمع أرضة . وهو من إضافة العام إلى الخاص لأن الدابة أعم من الأرض . وقراءة الجمهور بسكون الراء . فالتبادر أنها الأرض المعروفة . وتقدم أنها مصدر لأرضت الدابة الخشب . و(تأكل) حال ، أي : أكلت منسأته ، وهي حنّ مصاحبة ، وتقدم أن المسأة هي العصا ، وكانت فيها روي من خرنوب . وذلك أنه كان يتعبد في بيت المقدس فتنبت له في محرابه كل سنة شجرة تحبره بمنافعها فيأمر فتقلع ، ويتصرف في منافعها ، وتغرس لتتناسل ، فلما قرب موته نبتت شجرة ، وسألها فقالت : أنا الخرنوب<sup>(٢)</sup> خرجت لخراب ملكك ، فعرف أنه حضر أجله فاستعد واتخذ منها عصا ، واستدعى بزاد سنة ، والجن تتوهم أنه يتغذى بالليل . وروي : « أن سليمان كان في قبة وأوصى بعض أهله بكتبان موته عن الإنس والجن سنة ليتم البناء الذي بدىء في زمن داود فلما مضى لموته سنة ، خر عن العصا ونظر إلى مقدار ما تأكله الأرضة يوماً ، وقيس عليه ، فعلم أنها أكلت العصا منه سنة وقرأ نافع وأبو عمرو وجماعة (منسأته) بألف وأصله منسأته ، أبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غير قياسي . وقال أبو عمرو : « أنا لا أهمزها لأنني لا أعرف لها اشتقاقاً ، فإن كانت مما لاتهمز فقد احتطت وإن كانت تهمز فقد يجوز لي ترك الهمزة فيما يهمز » ، وقرأ ابن ذكوان وجماعة منهم بكار والوليد أن بن عتبة وابن مسلم (منسأته) همزة ساكنة ، وهو من تسكين التحريك تخفيفاً ، وليس بقياس وضعف النحاة هذه القراءة ، لأنه يلزم فيها أن يكون ما قبل التانيث ساكناً غير الفاء . وقيل : قياسها التخفيف بين بين والراوي لم يضبط ، وأنشد هارون بن موسى الأخفش الدمشقي شاهداً على سكون هذه القراءة قول الراجز :

(١) حنث : تحنث : تعبد واعتزل الأصنام : مثل تحنث .

لسان العرب (٢/١٠١٨)

(٢) الخرنوب : والخرنوب بالتشديد نبت معروف .

لسان العرب (٢/١١٢٢)



صَرِيحٍ خَمْرٍ قَامَ مِنْ وَكَاتِهِ كَقَوْمَةِ الشَّيْخِ إِلَى مَنَسَاتِهِ<sup>(١)</sup>

وقرأ باقي السبعة بالهمز مفتوحة. وقرىء بفتح الميم وتخفيف الهمة قلباً وحذفاً. وعلى وزن مِقْعَالَةٍ مَنَسَاءَ. وقرأت فرقة منهم عمر بن ثابت عن ابن جبير مفصولة حرف جر (وسأته) بجر التاء قيل: ومعناه: من عصاه، يقال لها ساءة<sup>(٢)</sup> القوس وسيتها معاً. وهي: يدها العليا والسفلى، سميت العصا ساءة القوس على الاستعارة ولا سيما إن صح النقل أنه اتخذها من شجر الخروب قبل موته، فيكون حين انكأ عليها، وهي كما قطعت من شجرة خضراء قد اعوجت حتى صارت كالقوس. ألا ترى أنك إذا اتكأت على غصن أخضر كيف يعوج حتى يكاد يلتقي طرفاه. فيها لغتان ساءة وسية كما يقال قحة وقحاة. والمحدوف من ساءة وسية (فلما خر) أي: سقط عن العصا ميتاً. والظاهر: أن الضمير في (خر) عائد على سليمان. وقيل: إنه لم يمِتْ إلى أن وجد في سفر مضطجعاً، ولكنه كان في بيت مبني عليه، وأكلت الأرضة عتبة الباب حتى خر الباب، فعلم موته. وقال ابن عباس: «مات في متعبده على فراشه، وقد أغلق الباب على نفسه، فأكلت الأرضة المنسأة، أي: عتبة الباب (فلما خر) أي: الباب»<sup>(٣)</sup> انتهى. وهذا فيه ضعف، لأنه لو كانت المنسأة هي العتبة، وعاد الضمير عليها، لكان التركيب «فلما خرت» بناء التأنيث، ولا يجيء حذف مثل هذه التاء إلا في ضرورة الشعر. ولا يكون من ذكر المعنى على معنى العود، لأنه قليل وقرأ الجمهور (تَبَيَّنْتُ) مبنياً للفاعل. فاحتمل أن يكون من (تبين) بمعنى بان. أي: ظهرت الجن. والجن فاعل وأن وما بعدها بدل من الجن، كما تقول: تبين زيد جهله. أي: ظهر جهل زيد. فالعنى: ظهر للناس جهل الجن علم الغيب وأن ما ادعوه من ذلك ليس بصحيح. واحتمل أن يكون من تبين بمعنى عليم وأدرك (والجن) هنا خدم الجن وضعفتهم (أن لو كانوا) أي: لو كان رؤسؤاؤهم وكبرؤاؤهم (يعلمون الغيب) قاله قتادة. وقال الزمخشري: «أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم، وأنهم لا يعلمون الغيب. وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد بهم التهكم كما يتهكم بمدعى الباطل إذا دحضت حجته وظهر إبطاله، كقولك: هل تبينت أنك مبطل، وأنت لا تعلم أنه لم يزل لذلك متبيناً. انتهى. ويجيء تبين بمعنى بان وظهر لازماً وبمعنى «علم» متعدياً موجود في كلام العرب. قال الشاعر:

تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْقَمَاءَةَ ذُلَّةٌ وَأَنَّ أَعْرَاءَ الرَّجَالِ طِيَالُهَا<sup>(٤)</sup>

وقال آخر:

أَفَاطِمُ إِنِّي مَيِّتٌ فَتَبَيَّنِي وَلَا تَجْزَعِي كُلُّ الْأَنَامِ يَمُوتُ<sup>(٥)</sup>

أي: فتبينني ذلك. أي: اعلميه، وقال ابن عطية: «ذهب سيويه إلى أن لا موضع لها من الإعراب إنما هي موزونة نحو إن ما ينزل منزلة القسم من الفعل الذي معناه التحقيق واليقين، لأن هذه الأفعال التي هي: تحققت وتيقنت وعلمت ونحوها تحمل محل القسم (فما لبثوا) جواب القسم لا جواب لو. وعلى الأقوال، الأول: جواب لو. وفي كتاب النحاس إشارة إلى أنه يقرأ (تبينت الجن) بنصب الجن. أي: تبينت الإنس الجن. والمعنى: أن الجن لو كانت تعلم الغيب ما خفي عليها موته. أي: موت سليمان. وقد ظهر أنه خفي عليها بدوامها في الخدمة والضعمة وهو ميت. وقرأ ابن عباس، فيما ذكر ابن خالويه ويعقوب بخلاف عنه (تَبَيَّنْتُ) مبنياً للمفعول وعن ابن عباس وابن مسعود وأبي علي بن الحسن والضحاك قراءة

(١) انظر البيت في روح المعاني (١٢٢/٢٢).

(٢) انظر لسان العرب (٢١٧٣/٣).

(٣) انظر القرطبي ١٤/١٧٨ وزاد المسير ٦/٤٤١ وابن كثير ٣/٥٢٩.

(٤) البيت من الطويل. المحتسب (١٨٤/١) شرح شواهد الشافية (٣٨٥/٤) التصريح (٣٧٩/٢) الأشموني (٣٠٤/٤).

(٥) من الطويل، انظر روح المعاني (١٢٢/١١).

في هذا الموضع مخالفة لسواد المصحف ولما روي عنهم ذكرها المفسرون أضرب عن ذكرها صفحاً على عادتنا في ترك نقل الشاذ الذي يخالف للسواد مخالفة كثيرة.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةً طَيِّبَةً  
 وَرَبِّ غُفُورٍ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ  
 وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ  
 الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبْرًا فِيهَا لَيَالٍ وَأَيَّامٌ آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا  
 رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ  
 صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ  
 عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان. بين حال الكافرين بأنعمه بقصة سبأ موعظة لقريش، وتحذيراً وتنبهاً على ما جرى لمن كفر أنعم الله. وتقدم الكلام في سبأ في النمل، ولما ملكت بلقيس اقتتل قومها على ماء وادهم فتركت ملكها، وسكنت قصرها، وراودوها على أن ترجع فأبت، فقالوا لترجعن أو لنقتلنك، فقالت لهم: لا عقول لكم، ولا تطيعوني، فقالوا: نطيعك فرجعت إلى وادهم، وكانوا إذ امطروا أتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام، فأمرت به فسد ما بين الجبلين بمساءة بالصخر والقار، وحبست الماء من وراء السد وجعلت له أبواباً، بعضها فوق بعض، وبتت من دونه بركة فيها اثنا عشر مخرجاً على عدد أنهارهم، وكان الماء يخرج لهم بالسوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان - عليه السلام - ما سبق ذكره في سورة النمل. وقيل: الذي بنى لهم السد هو حمير أبو القبائل اليمنية. وعن الضحاك: «كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد - ﷺ -». قيل: وكان لهم رئيس يلقب بالجمار، وكان في الفترة، فمات ولده، فرفع رأسه إلى السماء، فبزق وكفر، فلذا يقال في المثل «أكفر من حمار» ويقال: «بركة جوف حمار» أي: كوادى حمار لما حال بهم السيل. وقرأ الجمهور (في مساكنهم) جمعاً. والنخعي وحمزة وحفص مفرداً بفتح الكاف. والكسائي مفرداً بكسرها. وهي قراءة الأعمش وعلقمة. وقال أبو الحسن كسر الكاف لغة فاشية، وهي لغة الناس اليوم. والفتح لغة الحجاز، وهي اليوم قليلة. وقال الفراء: «هي لغة يمانية فصيحة». فمن قرأ الجمع فظاهر، لأن كل أحده له مسكن. ومن أفرد ينبغي أن يحمل على المصدر. أي: في سكناتهم حتى لا يكون مفرداً يراد به الجمع، لأن سبويه يرى ذلك ضرورة نحو:

كلوا في بعض بطونكم تعفوا

يريد: بطونكم وقوله

قَدْ عَصَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ (١)

(١) تقدم انظر القرطبي (٧٤/١٠)، وصدوره فيه: الوردان يتم في ذرا سبأ.

أي : جلود (آية) أي : علامة دالة على الله، وعلى قدرته، وإحسانه، ووجوب شكره، أو جعل قُصتهم لأنفسهم آية إذ عرض أهلها عن شكر الله عليهم، فخرهم وأبدلهم عنها الخمط<sup>(١)</sup> والأثل<sup>(٢)</sup> ثمرة لهم . (وجنتان) خير مبتدأ محذوف . أي : هي جنتان . قاله الزجاج . أو بدل قال معناه الفراء، قال : رفع لأنه تفسير لآية . وقال مكي وغيره : وضعفه ابن عطية ولم يذكر جهة تضعيفه وقال (جنتان) ابتداء وخبره في قوله (عن يمين وشمال) انتهى . ولا يظهر، لأنه نكرة لا مسوغ للابتداء بها إلا إن اعتقد أن ثمة صفة محذوفة، أي : جنتان لهم، أو عظيמתان لهم عن يمين وشمال . وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام مقلتاً مما قبله . وقرأ ابن أبي عبلة (جَنَّتَيْنِ) بالنصب على أن (آية) اسم كان (وجنتين) الخبر . قيل : ووجه كون الجنتين آية : نبات الخمط، والأثل، والسدر مكان الأشجار المثمرة . قال قتادة : «كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار، تسر الناس بظلالها . ولم يرد جنتين ثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة» . انتهى . قال الزمخشري<sup>(٣)</sup> : «وإنما أراد جماعة من البساتين عن يمين بلدتهم، وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة . كما يكون بلاد الريف العامرة وبساتينها، أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال : ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾» [الكهف: ٣٢] انتهى . قال ابن زيد : «لا يوجد فيها برغوث، ولا بعوض، ولا عقرب، ولا تقمل ثيابهم، ولا تعيا دوابهم، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها المكنل فيمتلئ ثماراً من غير أن تتناول بيدها شيئاً» . وروي نحو هذا عن عبد الرحمن بن عوف، وابن عباس (كلوا من رزق ربكم) قول الله لهم على ألسنة الأنبياء المبعوثين إليهم<sup>(٤)</sup> . وروي ذلك مع الإيمان بالله، أو قول لسان الحال لهم كما رأوا نعماً كثيرة وأرزاقاً مبسوطة . وفيه إشارة إلى تكميل النعمة عليهم، حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض . (واشكروا له على ما أنعم به عليكم (بلدة طيبة) أي : كريمة التربة، حسنة الهواء، رغبة النعم، سليمة من الهوامّ والمضار (ورب غفور) لا عقاب على التمتع بنعمه في الدنيا، ولا عذاب في الآخرة، فهذه لذة كاملة خالية عن المفسد العاجلة والمآلية . وقرأ رويس بنصب الأربعة . قال أحمد بن يحيى : «اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا رباً غفوراً» وقال الزمخشري<sup>(٥)</sup> : «منصوب على المدح . ولما ذكر تعالى ما كان من جانبه من الإحسان إليهم ذكر ما كان من جانبهم في مقابلته، فقال (فأعرضوا) أي : عما جاء به إليهم أنبياءهم، وكانوا ثلاثة عشر نبياً دعوهم إلى الله تعالى، وذكرهم بنعمه، فكذبوهم، وقالوا : ما نعرف الله نعمة فين كيفية الانتقام منهم . كما قال : ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾» [السجدة: ٢٢] فسلط الله عليه الجرذ<sup>(٦)</sup> فأراً أعمى توالد فيه، ويسمى الخلد، وخرقه شيئاً بعد شيء . وأرسل سيلاً في ذلك الوادي، فحمل ذلك السد . فروي : «أنه كان من العظم وكثر به الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين، وحمل الجنات، وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار»، وروي : «أنه لما حرق السد كان ذلك سبب ييس الجنات فهلك بهذا الوجه»، وقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة : «العرم» في لغة اليمن جمع عرمة وهي : كل ما بني أو ستم ليمسك الماء . وقال ابن جبير : «العرم : المسناة بلسان الحبشة»، وقال الأخفش : «هو عربي، ويقال لذلك البناء بلغة الحجاز

(١) خمط : قال الليث : الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وقال الزجاج : يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من المارة خمط، وقال الفراء، الخمط الأراك .

لسان العرب (١٢٦٧/٢)

(٢) انظر لسان العرب (٢٨/١) .

(٣) انظر الكشاف ٥٧٥/٣ .

(٤) انظر القرطبي ١٨٢/١٤ وزاد المسير ٤٤٤/٢ .

(٥) انظر الكشاف ٥٧٦/٣ .

(٦) الجرذ : الذكر من الفأر .

لسان العرب (٥٩٠/١)

المسناة . كأنها الجسور والسداد . ومن هذا المعنى قول الأعشى :

وَفِي ذَلِكَ لِمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ  
رُجَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ جِمِيرٌ  
فَأَزْوَى الزُّرُوعَ وَأَشْجَارَهَا  
فَصَارُوا أَيَادِي لَّا يَقْدِرُوا  
مَارِبٌ عَفَى عَلَيْهَا الْعَرِمُ<sup>(١)</sup>  
إِذَا جَاشَ دَفَاعُهُ لَمْ يَرْمِ  
عَلَى سَعَةِ مَأْوُهُ إِذْ قُسِمَ  
نَ مِنْهُ عَلَى شَرْبِ طِفْلِ فِطْمِ

وقال آخر :

وَمِنْ سَبَابِ لِحَاضِرِينَ مَارِبٌ إِذَا بَسُوا مِنْ دُونِهِ سَيْلَ الْعَرِمِ<sup>(٢)</sup>

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : «العرم<sup>(٣)</sup> اسم وإن ذلك الماء بعينه الذي كان السد بني به» . انتهى ويمكن أن يسمى الوادي بذلك البناء ، لمجاورته له فصار علماً عليه . وقال ابن عباس أيضاً : «العرم الشديد» . فاحتمل أن يكون صفة للسيل أضيف فيه الموصوف إلى صفته والتقدير : السيل العرم ، أو صفة لموصوف محذوف . أي : سيل المطر الشديد الذي كان عنه السيل ، أو سيل الجرذ العرم فـ (العرم) صفة للجرذ ، وقيل (العرم) اسم للجرذ ، وأضيف السيل إليه لكونه كان السبب في خراب السد الذي حمله السيل . والإضافة تكون بأذن ملابسة . وقرأ عروة بن الورد فيما حكى ابن خالويه (العرم) بإسكان الراء تحفيف العرم كقولهم في الكبد الكبد ، ولما غرق من غرق ونجا من نجا ، تفرقوا ، وتحرفوا ، حتى ضربت العرب بهم المثل ، فقالوا : «تفرقوا أيدي سبأ» . وأيادي سبأ ، قيل : الأوس والخزرج منهم . وعن ابن عباس : «كان سيل ذلك الوادي يصل إلى مكة ، ويتفجع به ، وكان سيل العرم في ملك ذي الأذعار بن حسان في الفترة بين عيسى ونبينا - ﷺ -» انتهى ، ودخلت الباء في (بجنتهم) على الزائل وانتصب ما كان بدلاً ، وهو قوله : (جنتين) على المعهود في لسان العرب . وإن كان كثيراً لمن ينتمي للعلم يفهم العكس ، حتى قال بعضهم : ولو أبدل ضاداً بظاء لم تصح صلاته ، وهو خطأ في لسان العرب . ولو أبدل ظاء بضاد وقد تكلمنا على ذلك في البقرة في قوله : ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ [البقرة : ١٠٨] وسمي هذا المعوض (جنتين) على سبيل المقابلة ، لأن ما كان فيه خطم وأثل وسدر لا يسمى جنة ، لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها ، وجاءت تشبیه (ذات) على الأصح في رد عينها في التشبیه فقال ﴿ذواتي أكل﴾ كما جاء ﴿ذواتا أفنان﴾ [الرحمن ٤٨] ويجوز أن لا ترد فتقول : ذاتا كذا . على لفظ ذات . وتقدم ذكر الخلاف في ضم كاف (أكل) وسكونها ، وقرأ الجمهور (أكل) منوناً . والأكل : الثمر المأكول فخرجه الزمخشري على أنه على حذف مضاف . أي : أكل خطم . قال : أو وصف الأكل بالخمط ، كأنه قيل : ذواتي أكل شبع» . انتهى . والوصف بالأسماء لا يطرد وإن كان قد جاء منه شيء نحو قولهم : «مررت بقاع عرفج كله» ، وقال أبو علي : «البدل في هذا لا يحسن ، لأن الخمط ليس بالأكل نفسه» ، انتهى . وهو جائز على ما قاله الزمخشري ، لأن البدل حقيقة هو ذلك المحذوف فلما حذف أعرب ما قام مقامه بإعرابه ، قال أبو علي : «والصفة أيضاً كذلك يريد لا بجنتين ، لأن الخمط اسم لا صفة ، وأحسن ما فيه عطف البيان . كأنه بين أن الأكل هذه الشجرة ومنها» . انتهى . وهذا لا يجوز على مذهب البصريين ، إذ شرط عطف البيان أن يكون معرفة ، وما قبله معرفة ، ولا يميز ذلك في النكرة من النكرة إلا

(١) انظر الآيات في الديوان (١٧٢) روح المعاني (١٣٣/٢٢) ، جاز القرآن (١٤٦/١) .

(٢) من المنسرح للنابغة الجعدي انظر ديوانه (١٣٤) الكتاب (٢٥٣/٣) جاز القرآن (١٤٧/٢) ، اللسان (سبأ) ، (عرم) وهو في اللسان :

من سبأ الحاضرين مارب إذ شرد من دون سيله العرما

(٣) العرم : انظر اللسان (٢٩١٣/٤) .

الكوفيون . فأبو علي أخذ بقولهم في هذه المسألة . وقرأ أبو عمرو (أَكُلُ حَظِي) بالإضافة . أي : ثمر حط ، وقرىء (وأثلاً وشيثاً) بالنصب حكاه الفضل بن إبراهيم عطفاً على (جتين) ، و(قليل) صفة لـ (سدر) وقلله ، لأنه كان أحسن أشجاره وأكرم . قاله الحسن و(ذلك) إشارة إلى ما أجراه عليهم ، من تحريب بلادهم ، وإغراق أكثرهم ، وتمزيقهم في البلاد ، وإبداهم بالأشجار الكثيرة الفواكه الطيبة المستلذة الخمط ، والأثل ، والسدر ، ثم ذكر سبب ذلك وهو كفرهم بالله ، وإنكار نعمه . (وهل يُجَازَى) بذلك العقاب (إلا الكفور) أي : المبالغ في الكفر يجازى بمثل فعله ، قدرأ بقدر ، وأما المؤمن فجزاؤه بتفضيل ، وتضعيف . وقرأ الجمهور بضم الياء وفتح الزاي (الكفور) رفعا . وحزرة الكسائي بالنون وكسر الزاي (الكفور) نصباً . وقرأ مسلم بن جندب (يُجَزَى) مبنياً للمفعول (الكفور) رفعا . وأكثر ما يستعمل الجزاء في الخبر ، والمجازاة في الشر ، لكن في تقيدهما قد يقع كل واحد منهما موقع الآخر . (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة) جاءت هذه الجملة بعد قوله (وبدلناهم) وذلك أنه لما ذكر ما أنعم به عليهم من جنتهم ، وذكر تبديلها بالخمط ، والأثل ، والسدر . ذكر ما كان أنعم به عليهم من اتصال قرارهم ، وذكر تبديلها بالمفاوز ، والبراري . وقوله (وجعلنا) وصف تعالى حالهم قبل مجيء السيل ، وهو أنه مع ما كان منهم من الجنتين والنعمة الخاصة بهم كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم ، وعمرها وجعلهم أربابها ، وقدر السير بأن قرب القرى بعضها من بعض . قال ابن عطية : «حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام يبيت في قرية . ويقبل في أخرى ، ولا يحتاج إلى حمل زاد . و(القرى) المدن ، ويقال للجمع الصغير أيضاً قرية . و(القرى التي بورك فيها) بلاد الشام بإجماع من المفسرين . و(القرى الظاهرة) هي : التي بين الشام ومأرب ، وهي : الصغار التي هي البوادي» . انتهى . وما ذكره من أن القرى التي بورك فيها : هي قرى الشام بإجماع ليس كما ذكر ، قال مجاهد : «هي السراوي» . وقال وهب : «قرى صنعاء» ، وقال ابن جبير : «قرى مأرب» ، وقال ابن عباس : «قرى بيت المقدس ، وبركتها : كثرة أشجارها ، أو ثمارها ، ووصف قرى بـ (ظاهرة)» ، قال قتادة : «متصلة على الطريق يغدون فيقولون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية . قيل : كان كل ميل قرية بسوق وهو سبب أمن الطريق» . وقال المبرد : «ظاهرة مرتفعة . أي : في الأكام والطراب وهو أشرف القرى» . وقيل : ظاهرة إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى . وقيل : ظاهرة معروفة ، يقال : هذا أمر ظاهر . أي : معروف . وقيل : ظاهرة عامرة . وقال ابن عطية : «والذي يظهر لي : أن معنى (ظاهرة) خارجة عن المدة ، فهي عبارة عن القرى الصغار التي هي في ظواهر المدن كأنه فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن ، وظواهر المدن : ما خرج عنها في الفيافي والفحوص ، ومنه قولهم : نزلنا بظاهر فلاة أي : خارجاً عنها ، وقوله (ظاهرة) تظهر تسمية الناس إياها بالبادية والضاحية . ومن هذا قول الشاعر :

فَلَوْ شَهِدْتَنِي مِنْ قُرَيْشٍ عَصَابَةً      قُرَيْشُ الْبِطَاحِ لَا قُرَيْشُ الظَّوَاهِرِ<sup>(١)</sup>

يعني : الخارجين من بطحاء مكة . وفي الحديث : «وجاء أهل الضواحي يسكنون الغرف» . (وقدرنا فيها السير) قد ذكر أن الغادي يقبل في قرية ، والرائح في أخرى إلى أن يصل إلى مقصوده . أمنا من عدو ، وجوع ، وعطش ، وأفات المسافر . قال الضحاك . «مقادير المراحل كانت القرى على مقاديرها» . وقال الكلبي : «مقادير القليل والمبيت» . وقال القتبي : «بين كل قرية وقرية مقدار واحد معلوم» . وقيل : بين كل قرينتين نصف يوم . وهذه أقوال متقاربة . والظاهر : أن قوله (سبروا) أمر حقيقة على لسان أنبيائهم . وقال الزمخشري : «ولا قول ثم ولكنهم لما مكثوا من السير ، وسويت لهم أسبابه ، فكأنهم أمروا بذلك ، وأذن لهم فيه» . انتهى . ودخول الفاء في قوله «فكأنهم» لا يجوز ، والصواب كأنهم ، لأنه خبر

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٢/١٢٩) .

لكنهم، وقال قتادة: «كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان، ولو وجد الرجل قاتل ابنه لم يهجه وكان المسافر لا يأخذ زاداً، ولا سقاء، مما بسط الله لهم من النعم». وقال الزمخشري: «سيروا فيها إن شتتم بالليل، وإن شتتم بالنهار، فإن الأمان فيها لا يختلف باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين، ولا تخافون وإن تطاولت مدة أسفاركم فيها، وامتدت أياماً، وليالي. أو سيروا فيها لياليكم، وأيامكم، مدة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا آمنين». انتهى. وقدم الليالي، لأنها مظنة الخوف لمن قال: ومنّ عليهم بالأمن. حتى يساوي الليل النهار في ذلك، ولما طالت بهم مدة النعمة، بطروا وملوا العافية، وطلبوا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، كما فعلت بنو إسرائيل، وقالوا: لو كان جني ثمارنا أبعد لكان أشهى، وأعلى قيمة، فتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز، ليركبوا الرواحل فيها، ويتزودوا الأزواد (فقالوا ربنا بَعْدُ بين أسفارنا) وقرأ جمهور السبعة (رَبُّنَا). بالنصب على النداء. (باعد) طلب. وابن كثير وأبو عمرو وهشام كذلك إلا أنهم شددوا العين. وابن عباس وابن الحنفية وعمرو بن قائد (رَبُّنَا) رفعا (بَعْدُ) فعلاً ماضياً مشدداً العين. وابن عباس أيضاً وابن الحنفية أيضاً وأبو رجاء والحسن ويعقوب وأبو حاتم وزيد بن علي وابن يعمر أيضاً وأبو صالح وابن أبي ليلى والكلبي ومحمد بن علي وسلام وأبو حيوة كذلك إلا أنه بألف بين الباء والعين. وسعيد بن أبي الحسن أخي الحسين وابن الحنفية أيضاً وسفيان بن حسين وابن السميع (رَبُّنَا) بالنصب (بَعْدُ) بضم العين فعلاً ماضياً (بَيْنَ) بالنصب إلا سعيداً منهم فضم نون (بَيْنَ) جعله فاعلاً. ومن نصب، فالفاعل ضمير يعود على السير، أي: أُبْعِدُ السير بين أسفارنا. فمن نصب (ربنا) جعله نداء فإن جاء بعده طلب كان ذلك أشراً منهم وبطراً وإن جاء بعد فعلاً ماضياً، كان ذلك شكوى مما أحل بهم من بعد الأسفار التي طلبوها أولاً، ومن رفع (رَبُّنَا) فلا يكون الفعل إلا ماضياً. وهي جملة خبرية فيها شكوى بعضهم إلى بعض مما حل بهم، من بعد الأسفار. ومن قرأ (باعد) أو (بَعْدُ) بالالف والتشديد فـ (بين) مفعول به، لأنها فعلان متعديان، وليس (بين) ظرفاً. ألا ترى إلى قراءة من رفعه كيف جعله اسماً، فكذلك إذا نصب، وقرى (بَعْدُ) مبنياً للمفعول. وقرأ ابن يعمر (بَيْنَ سَفَرِنَا) مفرداً. والجمهور بالجمع. (وظلموا أنفسهم) عطف على (فقالوا) وقال الكلبي: «هو حال. أي: وقد ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل». (فجعلناهم أحاديث) أي: عظة وعبراً يتحدث بهم ويتمثل. وقيل: لم يبق منهم إلا الحديث ولو بقي منهم طائفة لم يكونوا أحاديث. (ومرقاتهم كل ممزق) أي: تفريقاً اتخذها الناس مثلاً مضرراً. فقال كثير:

أَيَادِي سَبَايَا عَزَمَ مَا كُنْتُ بَعْدَكُمْ فَلَمْ يَحُلْ لِلْعَيْنَيْنِ بَعْدَكَ مَنْظَرٌ<sup>(١)</sup>

وقال قتادة: «فرقاتهم بالتباعد». وقال ابن سلام: «جعلناهم تراباً تذرؤه الرياح». وقال الزمخشري: «غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان»، وفي التحرير: وقع منهم قضاة بمكة، وأسد بالبحرين، وخزاعة بتهامة. وفي الحديث: «إن سبأ أبو عشرة قبائل، فلما جاء السيل على مأرب - وهو اسم بلدهم - تيامن منهم ستة قبائل، أي: تبددت في بلاد اليمن كندة والأزد، والسفر، ومدحج، وأنمار - التي منها بحيلة، وخثعم، وطائفة قيل لها حجبر بقي عليها اسم الأب الأول. وتشاءمت أربعة، لحم. وجذام، وغسان، وخزاعة. ومن هذه المشائمة أولاد قتيبة - وهم الأوس والخزرج - ومنها عاملة - وغير ذلك». (إن في ذلك لآية) أي: في قصص هؤلاء لآية، أي: علامة. (لكل صبار) عن المعاصي وعلى الطاعات. (شكور) للنعم. والظاهر: أن الضمير في (عليهم) عائد على من قبله من أهل سبأ، وقيل: هو لبي آدم. وقرأ ابن عباس وقاتدة وطلحة والأعمش وزيد بن علي والكوفيون (صَدَّقْ) بتشديد الدال. وانتصب (ظَنَّهُ) على أنه مفعول بـ (صَدَّقْ) والمعنى: وجد ظنه صادقاً، أي: ظن شيئاً فوق ما ظن. وقرأ باقي السبعة بالتخفيف فاتنصب (ظَنَّهُ) على المصدر. أي: يظن ظناً، أو على إسقاط الحرف. أي: في ظنه، أو على المفعول به، نحو قولهم: أخطأت ظني، وأصبت

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٢/١٣٣).

ظني . و(ظنه) هذا كان حين قال (لأصلنهم ولأغوينهم) وهذا مما قاله ظناً منه فصدق هذا الظن . وقرأ زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمد وأبو الجهم الأعرابي من فصحاء العرب وبلال بن أبي برزة بنصب (إبليس) ورفع (ظنه) أسند الفعل إلى (ظنه) لأنه ظن ظناً فصار ظنه في الناس صادقاً، كأنه صدقه ظنه ولم يكذبه . وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو (إبليسُ ظنُّهُ) برفعها فـ (ظنُّهُ) بدل من (إبليس) بدل اشتغال، (فاتبعوه) أي : في الكفر (إلا فريقاً) هم : المؤمنون . و(من) لبيان الجنس . ولا يمكن أن تكون للتبعيض لاقتضاء ذلك أن فريقاً من المؤمنين اتبعوا إبليس . وفي قوله (إلا فريقاً) تقليل لأن المؤمنين بالإضافة إلى الكفار قليل كما قال ﴿لأحتكن﴾ (١) ذريته إلا قليلاً ﴿[الإسراء ٦٢] (وما كان له) أي : لإبليس (عليهم من سلطان) أي : من تسلط، واستيلاء بالسوسة، والاستواء، ولا حجة إلا الحكمة بينه وبين تميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها، وعلل التسلط بالعلم . والمراد ما تعلق به العلم قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية : (إلا لتعلم) موجوداً لأن العلم متقدم أولاً انتهى . وقال معناه ابن قتيبة : «قال : لتعلم حادثاً كما علمناه قبل حدوثه» . وقال قتادة : «ليعلم الله به المؤمن من الكافر عاماً ظاهراً يستحق به العقاب والثواب» . وقيل : ليعلم أوليائنا وحزبنا . وقال الحسن : «والله ما كان له سوط ولا سيف ولكنه استهلمهم فما لوابتريته» . انتهى كما قال تعالى عنه ﴿ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم ٢٢] وقرأ الزهري (إلا ليُعلم) بضم الياء وفتح اللام مبنياً للمفعول . وقال ابن خالويه : (إلا ليعلم من يؤمن) بالياء . (وربك على كل شيء حفيظ) إما للمبالغة عدل إليها عن حافظ، وإما بمعنى محافظ كجلس وخليل، والحفظ : يتضمن العلم والقدرة، لأن من جهل الشيء وعجز لا يمكنه حفظه .

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ٢٢ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٢٣ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢٤ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشَأُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ٢٦ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٧ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٩ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ٣٠ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ٣١

(١) لأحتكن : في قوله عز وجل حاكياً عن لسان إبليس : «لأحتكن ذريته إلا قليلاً» مأخوذ من احتك الجراد الأرض إذا أقر على نبتها، فهو يقون : لاستولين عليهم إلا قليلاً قال الفراء : لاستاصلنهم ولأستملنهم .

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَا عَنْ آلِهَتِنَا بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ۚ  
 وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ  
 أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَىٰ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجَزُونَ إِلَّا مَا  
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ

لما بين حال الشاكرين وحال الكافرين، وذكر قريشاً، ومن لم يؤمن بمن مضى عاد إلى خطابهم فقال (قل) يا محمد للمشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ، المعروفة عندهم بالنقل في أخبارهم وأشعارهم، (ادعوا الذين زعمتم) وهم معبوداتهم من الملائكة، والأصنام. وهو أمر بدعاء هو تعجيز، وإقامة للحجة. وروي: «أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشاً. أي: ادعوه، ليكشفوا عنكم ما حل بكم، والجؤوا إليهم فيما يعين لكم، و(زعم) من الأفعال التي تتعدى إلى اثنين إذا كانت اعتقادية. والمفعول الأول هو الضمير المحذوف العائد على (الذين) والثاني محذوف أيضاً، للدلالة المعنى، ونابت صفة منابه، التقدير: الذين زعمتموهم آلهة من دونه. وحسن حذف الثاني قيام صفة مقامه. ولولا ذلك ما حسن إذ في حذف إحدى مفعولي ظن وأخواتها اختصاراً خلاف. منع ذلك ابن ملكوت، وأجازه الجمهور. وهو مع ذلك قليل. ولا يجوز أن يكون الثاني (من دونه) لأنه لا يستقل كلاماً، لو قلت: هم من دونه لم يصح، ولا الجملة من قوله (لا يملكون مثقال ذرة) لأنه لو كانت هذه النسبة مزعومة لهم، لكانوا معترفين بالحق، قائلين له، ولو كان ذلك توحيداً منهم، وأن آلهتهم ومعبوداتهم لا يملكون شيئاً باعترافهم، ثم أخبر عن آلهتهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة، وهو أحقر الأشياء، وإذا انتفى ملك الأحقر عنهم، فملك الأعظم أولى، ثم ذكر مقر ذلك المثقال، وهو السموات والأرض، ثم أخبر أنهم ما هم في السموات ولا في الأرض من شركة، فنفي نوعي الملك من الاستبداد والشركة، ثم نفى الإعانة منهم له تعالى في شيء مما أشأ، بقوله (وما له منهم من ظهير) فبين عجز معبوداتهم من جميع الجهات، ولما كان من العرب من يعبد الملائكة لتشفع له، نفى أن شفاعتهم تنفع، والنفي منسحب على الشفاعة. أي: لا شفاعة لهم فتتفع، وليس المعنى: أنهم يشفعون ولا تنفع شفاعتهم، أي: لا يقع من معبوداتهم شفاعة أصلاً، ولأن عابديهم كفار فإن كان المعبودون أصناماً أو كفاراً كفرعون فسلب الشفاعة عنهم ظاهر، وإن كانوا ملائكة أو غيرهم ممن عبد كعيسى - عليه السلام - فشفاعتهم إذا وجدت تكون المؤمن. و(إلا لمن أذن له) استثناء مفرغ، فالمستثنى منه محذوف تقديره، ولا تنفع الشفاعة لأحد إلا لمن أذن له. واحتمل قوله، لأحد أن يكون مشفوعاً له، وهو الظاهر فيكون قوله (إلا لمن أذن له) أي: المشفوع أذن لأجله أن يشفع فيه، والشافع ليس بمذكور. وإنما دل عليه المعنى. واحتمل أن يكون شافعاً فيكون قوله (إلا لمن أذن له) بمعنى: إلا لشافع أذن له أن يشفع، والمشفوع ليس بمذكور، وإنما دل عليه المعنى. وعلى هذا الاحتمال تكون اللام في (أذن له) لام التبليغ لا لام العلة، وقال الزمخشري: «يقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما يقول الكرم لزيد. وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول: القيام لزيد. فاحتمل قوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أن يكون على أحد هذين الوجهين. أي: لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له، أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له، أي: لشفيعه. أو هي اللام الثانية في قولك: أذن لزيد لعمرو. أي: لأجله وكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، وهذا وجه لطيف، وهو الوجه. وهذا تكذيب لقولهم ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس ١٨] انتهى. فجعل (إلا لمن أذن له) استثناء مفرغاً من الأحوال، ولذلك قدره: إلا كائنة وعلى ما قررناه استثناء من الذوات. وقال أبو عبد الله الرازي: «المذاهب المضطربة إلى الشرك أربعة، قائل:



إن الله خلق السموات وجعل الأرض والأرضيات في حكمها، ونحن من جملة الأرضيات. فنعبد الكواكب والملائكة السماوية، وهم إلهنا، والله إلههم، فأبطل بقوله (لا يملكون في السموات) كما اعترفتم (ولا في الأرض) خلاف ما زعمتم. وقائل: السموات من الله استبداداً، والأرضيات منه بواسطة الكواكب، فإنه تعالى خلق العناصر، والتركيبات التي فيها بالاتصالات، وحركات وطوالع، فجعلوا مع الله شركاء في الأرض، والأولون جعلوا الأرض لغيره فأبطل بقوله (وما لهم فيها من شرك) أي: الأرض كالسمااء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب. وقائل: التركيبات والحوادث من الله، لكن فوض إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الأذن ويسلب عن المأذون له فيه، جعلوا السموات معينة لله فأبطل بقوله (وما له منهم من ظهير) وقائل: نعبد الأصنام - التي هي صور الملائكة - ليشفوا لنا، فأبطل بقوله (ولا تنفع الشفاعة) الجملة. و(أل) في (الشفاعة) الظاهر: أنها للعموم. أي: شفاعة جميع الخلق، وقيل: للعهد. أي: شفاعة الملائكة التي زعموها شركاء وشفعاء». انتهى وفيه بعض تليخيص. وقال أبو البقاء: «اللام في (لمن أذن له) يجوز أن تتعلق بالشفاعة، لأنك تقول: أشفعت له وأنت تعلق بـ (تنفع) انتهى. وهذا فيه قلة، لأن المفعول متأخر فدخل اللام عليه قليل، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (أذن) بضم الهمزة وباقي السبعة بفتحها. أي: أذن الله له. والظاهر: أن الضمير في قوله (قلوبهم) عائد على ما عادت عليه الضمائر التي للغبية في قوله (لا يملكون) وفي (ما لهم) (وما له منهم) وهم الملائكة الذين دعواهم آلهة وشفعاء. ويكون التقدير إلا لمن أذن له منهم. و(حتى) تدل على الغاية، وليس في الكلام عائد على أن (حتى) غاية له فقال ابن عطية. «في الكلام حذف يدل عليه الظاهر، كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تحبون أنتم بل هم عبدة أو مسلمون أبداً يعني: منافدون حتى إذا فرغ عن قلوبهم. قال: وتظاهرت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - «أن قوله (حتى إذا فرغ عن قلوبهم) إنما هي في الملائكة. إذا سمعت الوحي - أي جبريل - وبالأمر يأمر الله به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان، فتنزع عند ذلك، تعظيماً وهيبة». وقيل: خوف أن تقوم الساعة فإذا فرغ ذلك عن قلوبهم، أي: اطرير الفرع عنها وكشف يقول بعضهم لبعض وجبريل: ماذا قال ربكم؟ فيقول المسؤولون قال الحق وهو العلي الكبير». وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات، تتسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله (الذين زعمتم) لم تتصل له هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله (الذين زعمتم) لم تتصل له هذه الآية بما قبلها فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها حتى قال بعضهم: «في الكفار بعد حلول الموت، ففرغ عن قلوبهم بفقد الحياة، فرأوا الحقيقة، وزال فرغهم مما يقال لهم في حياتهم، فيقال لهم حينئذ: ماذا قال ربكم؟ فيقولون قال: الحق: يقرون حين لا ينفعهم الإقرار». وقالت فرقة: «الآية في جميع العالم. وقوله (حتى) يريد في الآخرة». والتأويل الأول في الملائكة هو الصحيح، وهو الذي تظاهرت به الأحاديث. وهذا بعيد. انتهى، وإذا كان الضمير في (عن قلوبهم) لا يعود على (الذين زعمتم) كان عائداً على من عاد عليه الضمير في قوله ﴿ولقد صدق عليهم إبليس﴾ [سبأ ٢٠] ويكون الضمير في (عليهم) عائداً على جميع الكفار، ويكون (حتى) غاية لقوله (فاتبعوه) ويكون التفريع حالة مفارقة الحياة، أو يجعل اتباعهم إياه مستصحباً لهم إلى يوم القيامة مجازاً. والجملة بعد من قوله (قل ادعوا) اعتراضية بين المعنى والغاية. قال ابن زيد: «أقروا بالله حين لا ينفعهم الإقرار. فالمعنى: فرغ الشيطان عن قلوبهم وفارقهم ما كان يطلبهم به قالوا ماذا قال ربكم». وقال الحسن: «وإنما يقال للمشركين: ماذا قال ربكم؟ على لسان الأنبياء، فأقروا حين لا ينفع». وقيل (حتى) غاية متعلقة بقوله (زعمتم) أي: زعمتم الكفر إلى غاية التفريع، ثم تركتم ما زعمتم، وقتلتم: قال الحق» انتهى. فيكون في الكلام التفات من خطاب في (زعمتم) إلى غيبة في (فرغ عن قلوبهم) وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أذن فرغ ودام فرغ حتى إذا أزيل التفريع عن قلوبهم، قال بعض الشافعين من الملائكة لبعض الملائكة: ماذا قال ربكم في قبول شفاعتنا؟ فيجيب بعضهم لبعض قال أي الله الحق». أي: القول الحق، وهو قبول شفاعتهم إذ كان تعالى أذن لهم في ذلك ولا يأذن إلا وهو يريد

لقبول الشفاعة. وقال الزمخشري: (فإن قلت: ) بم اتصل قوله (حتى إذا فرغ عن قلوبهم) ولا شيء وقعت حتى غاية له؟ (قلت: ) بما فهم من هذا الكلام من أن ثم انتظار الإذن، وتوقفاً وتمهلاً وفرعاً من الرجوع للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن، وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان، وطول من التريص، ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز من قائل، (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) كأنه قيل: يترصون، ويتوقفون ملياً فرعين وهلين ﴿حتى إذا فرغ عن قلوبهم﴾ [النبا: ٣٧، ٣٨] أي: كشف الفرغ من قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن تباشروا بذلك، وسأل بعضهم بعضاً (ماذا قال ربكم) قال الحق. أي: القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى. انتهى. وتلخص من هذا أن (حتى) غائية إما لمنطوق وهو (زعمتم) ويكون الضمير في (عن قلوبهم) التفتاً وهو للكفار أو هو (فاتبعوه) وفيه تناسق الضمائر لغائب، والفصل بالاعتراض والضمير أيضاً للكفار، والضمير في (قالوا) للملائكة، وضمير الخطاب في (ربكم) والغائب في (قالوا) الثانية للكفار. وإما المحذوف فما قدره ابن عطية لا يصح أن يغيى، لأن ما بعد الغاية مخالف لما قبلها وهم عبدة متقادون دائماً لا ينفكون عن ذلك، لا إذا فرغ عن قلوبهم ولا إذا لم يفرغ. وحمل ذلك على الملائكة حال الوحي لا يناسب الآية وكون النبي - ﷺ - في قصة الوحي قال: «إذا جاءهم جبريل فرغ عن قلوبهم» لا يدل على أن هذه الآية في الملائكة حالة تكلم الله بالوحي. والحديث رواه ابن مسعود عن النبي - ﷺ - قال: «إذا تكلم الله عز وجل بالوحي، سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل - عليه السلام - فإذا جاءهم جبريل فرغ عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك قال: فيقول: الحق فينادون الحق<sup>(١)</sup>. وما قدره الزمخشري يحتمل إلا أن فيه تخصيص (الذين زعمتم من دونه) بالملائكة، والذين عبدهم ملائكة وغيرهم. وتخصيص (من أذن له) بالملائكة أيضاً، والمأذون لهم في الشفاعة الملائكة وغيرهم ألا ترى إلى ما حكى رسول الله - ﷺ - في الشفاعة في قوله عز وجل ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذنه﴾ وقرئ «فَرَّغَ» مشدداً من الفرغ مبنياً للمفعول. أي: اطير الفرغ عن قلوبهم. وقُفِّلَ تأتي لمعان منها الإزالة وهذا منه. نحو: قُودت البعير. أي: أزلت القراد<sup>(٢)</sup> عنه. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وطلحة وأبو المتوكل الناجي وابن السميع وابن عامر مبنياً للفاعل. من الفرغ أيضاً. والضمير الفاعل في (فرغ) إن كان الضمير في (عن قلوبهم) للملائكة، فهو الله. وإن كان للكفار فالضمير لمغوبهم. وقرأ الحسن (فَرَّغَ) من الفرغ بتخفيف الزاي مبنياً للمفعول. و(عن قلوبهم) في موضع رفع به كقولك: انطلق بزيد. وقرأ الحسن أيضاً وأبو المتوكل أيضاً وقتادة ومجاهد (فَرَّغَ) مشدداً مبنياً للفاعل من الفرغ. وقرأ الحسن أيضاً كذلك إلا أنه خفف الزاي. وقرأ عبد الله بن عمر والحسن أيضاً وأيوب السخيتاني وقتادة أيضاً وأبو مجلز (فَرَّغَ) من الفراغ مشدد الراء مبنياً للمفعول وقرأ ابن مسعود وعيسى (افرَّغَ عن قلوبهم) بمعنى انكشف عنها. وقيل: تفرق. وقال الزمخشري: «والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب قمطر من حروف القمط زيادة الراء». انتهى فإن عنى الزمخشري أن العين من حروف الزيادة وكذلك الراء، وهو ظاهر كلامه، فليس بصحيح، لأن العين والراء ليستا من حروف الزيادة. وإن عنى أن الكلمة فيها حروف وما ذكرنا زائداً إلى ذلك العين والراء كهادة فرقع وقمطر فهو صحيح لولا إيهام ما قاله الزمخشري في هذه الكلمة لم أذكر هذه القراءة لمخالفتها سواد المصحف - وقالوا أيضاً في قوله تعالى (حتى إذا فرغ) أقوالاً غير ما سبق. قال كعب: «إذا تكلم الله عز وجل بلا كيف ضربت الملائكة بأجنحتها وخرت فرعاً قالوا فيما بينهم: ماذا قال ربكم قالوا الحق». وقيل: إذا دعاهم إسرافيل من قبورهم قالوا مجيبين: ماذا وهو من الفرغ الذي هو الدعاء والاستصراخ كما قاله زهير:

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٣٨) والسيوطي في الدر (٢٣٦/٥).

(٢) القراد: معروف واحد القردان: والقراد دويبة تعض الإبل.

إِذَا فَرِزَعُوا طَارُوا إِلَى مُسْتَغِيثِهِمْ طَوَالَ الرَّمَاحِ لَا ضِعَافٌ وَلَا عُزْلٌ<sup>(١)</sup>

وقيل : هو فزع ملائكة أذن السموات عند نزول المذبرات إلى الأرض . وقيل : لما كانت الفترة بين عيسى ومحمد - ﷺ - وبعث الله محمداً أنزل الله جبريل بالوحي ، فلظنت الملائكة أنه قد نزل بشيء من أمر الساعة وصعدوا لذلك ، فجعل جبريل يمر بكل سماء ويكشف عنهم الفزع ، ويخبرهم أنه الوحي . قاله قتادة ومقاتل وابن السائب . وقيل : الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الله فانحدروا ، سمع لهم صوت شديد ، فيحسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة ، فيخرون سجداً يصعقون . رواه الضحاك عن ابن مسعود . وهذه الأقوال والتي قبلها لا تكاد تلائم ألفاظ القرآن ، والله أسأل أن يرزقنا فهم كتابه . وأقربها عندي : أن يكون الضمير في (قلوبهم) عائداً على من عاد عليه (اتبعوه) و(عليهم) و(ومن هو منها في شك) وتكون الجملة بعد ذلك اعتراضاً . وقوله (قالوا) أي : الملائكة لأولئك المتبعين الشاكين يسألونهم سؤال توبيخ (ماذا قال ربكم) على لسان من بعث إليكم بعد أن كشف الغطاء عن قلوبهم فيقولون إذ ذاك أن الذي قاله وجاءت به أنبيأؤه وهو الحق لا الباطل الذي كنا فيه من اتباع إبليس وشكنا في البعث (ماذا) يحتمل أن تكون (ما) منصوبة ب (قال) أي : أي شيء قال ربكم؟ وأن يكون في موضع رفع على أن (ذا) موصولة . أي : ما الذي قال ربكم؟ و(ذا) خبره ومعمول (قال) ضمير محذوف عائداً على الموصول . وقرأ ابن أبي عبله (قالوا الحق) برفع (الحق) خبر مبتدأ . أي : مقوله الحق (وهو العلي الكبير) تنزيه منهم له تعالى وتمجيد . ثم رجع إلى خطاب الكفار ، فسألهم عنم يرزقهم محتجاً عليهم بأن رازقهم هو الله ، إذ لا يمكن أن يقولوا : إن آلهتهم ترزقهم ، وتسألهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وأمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله (قل الله) لأنهم قد لا يجيبون حباً في العناد ، وإيثاراً للشرك ، ومعلوم أنه لا جواب لهم ولا لأحد إلا بأن يقول هو (الله) . (وإننا) أي : الموحدين الرازق العابدين (أو إياكم) المشركين العابدين الأصنام والجمادات . (لعلى هدى) أي : طريقة مستقيمة (أو في) حيرة واضحة بينة . والمعنى : أن أحد الفريقين منا ومنكم لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال ، أخرج الكلام مخرج الشك والاحتمال . ومعلوم أن من عبد الله ووحده هو على الهدى ، وأن من عبد غيره من جماد أو غيره في ضلال . وهذه الجملة تضمنت الإنصاف واللطف في الدعوى إلى الله ، وقد علم من سمعها أنه جملة اتصاف ، والرد بالتورية والتعريض أبلغ من الرد بالتصريح . ونحوه قول العرب : «أخزى الله الكاذب مني ومنك» يقول ذلك من يتيقن أن صاحبه هو الكاذب . ونظيره قول الشاعر :

فَأَيُّ مَا وَأَيْكَ كَانَ شَرًّا فَسَيَقُ إِلَى الْمَقَادَةِ فِي هَوَانٍ

وقال حسان :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍ فَشَرُّكُمَْا خَيْرُكُمَْا الْفِئَاءُ<sup>(٢)</sup>

وهذا النوع يسمى في علم البيان استدراج المخاطب . يذكر له أمراً يسلمه وإن كان بخلاف ما ذكر حتى يصغي إلى ما يلقيه إليه إذ لو بدأ به بما يكره لم يصغ ، ولا يزال ينقله من حال إلى حال حتى يتبين له الحق ويقبله . وهنا لما سمعوا الترداد بينه وبينهم ، ظهر لهم أنه غير جازم أن الحق معه ، فقال لهم بطريق الاستدلال : إن آلهتكم لا تملك مثقال ذرة ، ولا تنفع ، ولا تضر ، لأنها جماد وهم يعلمون ذلك . فتحقق أن الرازق لهم ، والنافع والضار هو الله سبحانه . وقيل : معنى الجملة : استنقاص المشركين ، والاستهزاء بهم ، وقد بينوا أن آلهتهم لا ترزقهم شيئاً ، ولا تنفع ولا تضر ، فأراد الله من نبيه وأمره أن يوبخهم ، ويستقصهم ويكذبهم بقول غير مكشوف إن كان ذلك أبلغ في استنقاصهم . كقولك «إن أهدنا لكاذب» . وقد

(١) انظر ديوانه (٨٤) وانظر روح المعاني (١٣٩/٢٢) .

(٢) تقدم وانظر ديوان حسان (٧٦) مجاز القرآن (٣٤/١) .

علمت أن من خاطبته هو الكاذب، ولكنك وبُخْتة بلفظ غير مكشوف. (وَأَوْ) هنا: على موضوعها لكونها لأحد الشيتين أو الأشياء. وخبر (إنا أو إياكم) هو (لَعَلَّ هدى أو في ضلال مبین) ولا يحتاج إلى تقدير حذف، إذ المعنى: أن أحدنا لفي أحد هذين. كقولك: زيد أو عمرو في القصر أو في المسجد. لا يحتاج هذا إلى تقدير حذف، إذ معناه أحد هذين في أحد هذين. وقيل: الخبر محذوف. فقيل خبر لأوله. والتقدير: وإنا لعل هدى أو في ضلال مبین فحذف لدلالة خبر ما بعده عليه فعلى هدى أو في ضلال مبین المثبت خبر عنه أو إياكم إذ هو على تقدير إنا ولكنها لما حذفت اتصل الضمير وقيل خبر الثاني والتقدير أو إياكم لعل هدى أو في ضلال مبین، وحذف لدلالة خبر الأول عليه، وهو هذا المثبت (لعل هدى أو في ضلال مبین) ولا حاجة لهذا التقدير من الحذف لو كان ما بعد (أو) غير معطوف بها، نحو: زيد أو عمرو قائم. كان يحتاج إلى هذا التقدير وإن مع ما يصلح أن يكون خبراً، لأن اسمها عطف عليه بـ (أو) والخبر معطوف بـ (أو) فلا يحتاج إليه. وذهب أبو عبيدة إلى أن (أو) بمعنى الواو فيكون من باب اللف والنشر. والتقدير: وإنا لعل هدى وإياكم في ضلال مبین. فأخبر عن كل بما ناسبه ولا حاجة إلى إخراج (أو) عن موضوعها وجاء في الهدى بـ (على) لأن صاحبه ذو استعلاء وتمكن مما هو عليه يتصرف حيث شاء. وجاء في الضلال بـ (عن) لأنه منغمس في حيرة، مرتبك فيها، لا يدري أين يتوجه. (قل لا تسألون عما أجرنا) هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ من الأول، وأكثر تلطفاً واستدراجاً، حيث سمي فعله جرماً كما يزعمون مع أنه مثاب مشكور. وسمي فعلهم عملاً مع أنه مزجور عنه محذور. وقد يراد بـ (أجرنا) نسبة ذلك إلى المؤمنين دون الرسول وذلك ما لا يكاد يخلو المؤمن منه من الصغائر، والذي تعملون هو الكفر وما دونه من المعاصي الكبائر. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف. (قل يجمع بيننا ربنا) أي: يوم القيامة (ثم يفتح) أي: يحكم (بالحق) بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكفار النار. (وهو الفتح) الحاكم الفاصل (العليم) بأعمال العباد. (والفتاح) (والعليم) صيغتا مبالغة، وهذا فيه تهديد وتوبيخ. تقول لمن نصحته وخوفته فلم يقبل «سترى سوء عاقبة الأمر». وقرأ عيسى (الفتاح) اسم فاعل. والجمهور (الفتاح) (قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء) الظاهر: أن (أروني) هنا بمعنى «أعلم» فيتعدى إلى ثلاثة. الضمير للمتكلم هو الأول و(الذين) الثاني و(شركاء) الثالث. أي: أروني بالحجة والدليل كيف وجه الشركاء؟ وهل يملكون مثقال ذرة؟ أويرزقونكم؟ وقيل: هي رؤية بصر و(شركاء) نصب على الحال من الضمير المحذوف في (ألحقتهم) إذ تقديره: ألحقتهم به في حال توهمه شركاء له. قال ابن عطية: «وهذا ضعيف، لأن استدعاء رؤية العين في هذا لا غناء له». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(فإن قلت: ما معنى قوله (أروني) وكان يراهم ويعرفهم؟) قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على حالة القياس إليه والإشراك به. و(كَلَّا) ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسره بإبطال المقايسة كما قال إبراهيم: ﴿أَفْ لَكُمْ ولما تعبدون من دون الله﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعدما حجهم. وقد نبه على تفاحش غلطهم، وأن يقدروا الله حق قدره بقوله (هو الله العزيز الحكيم) كأنه قال: أين الذين ألحقتهم به شركاء من هذه الصفات. (وهو راجع إلى الله وحده، أو هو ضمير الشأن كما في قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] انتهى. وقول ابن عطية لأن استدعاء رؤية العين في هذا لا غناء له». أي: لا نفع له. ليس بجيد، بل في ذلك تبيكيت لهم وتوبيخ. ولا يريد حقيقة الأمر، بل المعنى: إن الذين هم شركاء الله على زعمكم هم ممن إن أريتموهم افتضحتم، لأنهم خشب وحجر، وغير ذلك من الحجارة والجماد. كما تقول للرجل الخسيس الأصل: اذكر لي أباك الذي قايست به فلاناً الشريف. ولا تريد حقيقة الذكر وإنما أردت تبيكيته وإنه إن ذكر أباه افتضح. و(كافة) اسم فاعل من كف. وقيل: مصدر كالعاقبة والعافية فيكون على حذف مضاف. أي: إلا إذا كافة. أي: ذا كف للناس. أي: منع لهم من الكفر أو إذا منع من أن يشذوا عن تبليغك. وإذا كان اسم فاعل، فقال الزجاج وغيره: «هو حال من الكاف في (أرسلناك) والمعنى إلا جامعاً للناس في الإبلاغ. والكافة بمعنى الجامع. والهاء

فيه للمبالغة. كهي في علامة وراوية». وقال الزمخشري: إلا إرساله عامة لهم، محيطه بهم، لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. قال: ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ، لأن تقدم حال المجرور عليه في الأصالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار. وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ. ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني فلا بد من ارتكاب الخطأين». انتهى. أما (كافة) بمعنى عامة فالمنقول عن النحويين أنها لا تكون إلا حالاً ولم يتصرف فيها بغير ذلك. فجعلها صفة لمصدر محذوف خروج عما نقلوا، ولا يحفظ أيضاً استعماله صفة لموصوف محذوف. وأما قول الزجاج «إن كافة بمعنى جامعاً والهاء فيه للمبالغة» فإن اللغة لا تساعد على ذلك لأن (كف) ليس بمحفوظ أن معناه جمع. وأما قول الزمخشري: «ومن جعله حالاً إلى آخره» فذلك مختلف فيه، ذهب الأكثرون إلى أن ذلك لا يجوز. وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان. ومن معاصرنا ابن مالك إلى أنه يجوز وهو الصحيح. ومن أمثلة أبي علي: زيد خير ما يكون خير منك. التقدير: زيد خير منك خير ما يكون. فجعل خير ما يكون حالاً من الكاف في منك وقدمها عليه. قال الشاعر:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئاً      فَمَطْلُبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدٌ<sup>(١)</sup>

وقال آخر:

تَسَلَّيْتُ طَرًّا عَنْكُمْ بَعْدَ بَيْنِكُمْ      بِذِكْرِكُمْ حَتَّى كَأَنَّكُمْ عِنْدِي<sup>(٢)</sup>

أي: تسليت عنكم طراً. أي: جميعاً. وقد جاء تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلق به. ومن ذلك قول الشاعر:

مَشْغُوفَةٌ بِكَ قَدْ شَغِفْتُ وَإِنَّمَا      حَتَمَ الْفِرَاقِ فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ<sup>(٣)</sup>

وقال آخر:

غَافِلًا تَعْرِضُ الْمَنِيَةَ لِلْمُرِّ      ءَ فَيَدْعَى وَلَاتَ حِينَ إِيَاءِ<sup>(٤)</sup>

أي: شغفت بك مشغوفة. وتعرض المنية للمرء غافلاً. وإذا جاز تقديمها على المجرور والعامل فتقدمها عليه دون العامل أجوز. وعلى أن (كافة) حال من (الناس) حمله ابن عطية وقال: «قدمت للاهتمام». والمنقول عن ابن عباس قوله «أي إلى العرب والعجم وسائر الأمم وتقديره إلى الناس كافة» انتهى. وقول الزمخشري: «وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ إلى آخر كلامه شنيع، لأن قائل ذلك لا يحتاج إلى أن يتأول اللام بمعنى إلى، لأن أرسل يتعدى بـ (إلى) ويتعدى باللام، كقوله: «وأرسلناك للناس رسولا» [النساء: ٧٩] ولو تأول اللام بمعنى إلى لم يكن ذلك خطأ، لأن اللام قد جاءت بمعنى إلى وإلى قد جاءت بمعنى اللام. وأرسل مما جاء متعدياً بها إلى المجرور. ثم حكى تعالى مقاتلهم في الاستهزاء بالبعث، واستعجالهم على سبيل التكذيب، ولم يجابوا بتعيين الزمان. إذ ذلك مما انفرد تعالى بعلمه، بل أجيبوا بأن ما وعدوا به لا بد من وقوعه وهو ميعاد يوم القيامة. وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة. ويجوز أن يكون سؤالهم عما وعدوا به من العذاب في الدنيا واستعجلوا به استهزاء منهم. وقال أبو عبيد: «الوعد والوعيد والميعاد: بمعنى». وقال الجمهور: «الوعد: في الخير،

(١) من الطويل لمخبل السعدي انظر شرح الرضي للكافية (٢٠٧/١) الأشموني (١٧٨/٢).

(٢) من الطويل انظر التصريح (٣٧٩/١) الأشموني (١٧٧/٢).

(٣) البيت من الكامل انظر الأشموني (١٧٧/٢).

(٤) من الخفيف انظر المصدر السابق.

والموعيد، في الشر، والميعاد: يقع لهذا». والظاهر: أن الميعاد. اسم على وزن مفعول. استعمل بمعنى المصدر. أي: قل لكم وقوع وعد يوم وتنجيزه. وقال الزمخشري: «الميعاد: ظرف الوعد من مكان أو زمان، وهو ههنا: الزمان. والدليل عليه قراءة من قرأ (ميعاد يوم) فأبدل منه اليوم» انتهى. ولا يتعين ما قال، إذ يكون بدلاً على تقدير محذوف. أي: قل لكم ميعاد يوم. فلما حذف أعرب ما قام مقامه بإعرابه. وقرأ الجمهور (ميعاد يوم) بالإضافة. ولما جعل الزمخشري الميعاد ظرف زمان قال: «أما الإضافة لإضافة تبيين. كما تقول: سحق ثوب وبغير سانية». وقرأ ابن أبي عبلة والبيدي (ميعاد يوماً) بتنوينها. قال الزمخشري: «وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل. تقديره: لكم ميعاد. أعني يوماً. وأريد يوماً من صفته أعني كيت وكيت. ويجوز أن يكون انتصابه على حذف مضاف. ويجوز أن يكون الرفع على هذا للتعظيم». انتهى. لما جعل الميعاد ظرف زمان خرج الرفع والنصب على ذلك. ويجوز أن يكون انتصابه على الظرف على حذف مضاف. أي: إنجاز وعد. يوم من صفته كيت وكيت. وقرأ عيسى (ميعاداً) متوناً (ويوم) بالنصب من غير تنوين مضافاً إلى الجملة. فاحتمل تخريج الزمخشري على التعظيم. واحتمل تخريجاً على الظرف على حذف مضاف. أي: إنجاز وعد يوم كذا. وجاء هذا الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون بيوم القيامة يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه، ولا تقدماً عليه. واليوم: يوم القيامة وهو السابق إلى الذهن. أو يوم مجيء أجلهم عند حضور منيهم. أو يوم بدر. أقوال. (ولن نؤمن بهذا القرآن) يعنى الذي تضمن التوحيد، والرسالة، والبعث المتقدم ذكرها فيه. (ولا بالذي بين يديه) هو ما نزل من كتب الله المبشرة برسول الله. يروى: «أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله - ﷺ - في كتبهم، وأغضبهم ذلك، وقرنوا إلى القرآن ما تقدم من كتب الله في الكفر». ويكون (الذين كفروا) مشركي قريش ومن جرى مجراهم. والمشهور أن (الذي بين يديه) التوراة والإنجيل، وما تقدم من الكتب. وهو مروى عن ابن جريج. وقالت فرقة: (الذي بين يديه) هي القيامة. قال ابن عطية: «وهذا خطأ قائله لم يفهم أمر بين اليد في اللغة وأنه المتقدم في الزمان وقد بيناه فيما تقدم». انتهى. (ولو ترى إذا الظالمون) أخبر عن حالهم في صفة التعجب منها. (وترى) في معنى رأيت لإعمالها في الظرف الماضي. ومفعول (ترى) محذوف. أي: حال الظالمين إذ هم موقوفون وجواب (لو) محذوف. أي: لرأيت لهم حالاً منكراً من ذلهم، وتخاذلهم، وتحاورهم، حيث لا ينفعهم شيء من ذلك. ثم فسر ذلك الرجوع والجدل بأن الأتباع وهم الذي استضعفوا قالوا لرؤسائهم على جهة التذنب والتوبيخ ورد الائمة عليهم (لولا أنتم لكانا مؤمنين) أي: أنتم أغويتمونا وأمرتمونا بالكفر. وأتى الضمير بعد (لولا) ضمير رفع على الأوضح. وحكى الائمة سيويه والخليل وغيرهما مجيئه ضمير الجر نحو لولاكم. وإنكار المبرد ذلك لا يلتفت إليه. ولما كان مقاماً استوى فيه المرؤوس والرئيس بدأ الأتباع بتوبيخ مضليهم، إذ زالت عنهم رئاستهم، ولم يمكنهم أن ينكروا أنهم ما جاءهم رسول، بل هم مقرون. ألا ترى إلى قول المتبوعين (بعد إذ جاءكم) فالجمع المقرون بأن الذكر قد جاءهم. فقال لهم رؤساؤهم (أنحن صددناكم) فأتوا بالاسم بعد أداة الاستفهام إنكاراً لأن يكونوا هم الذين صدوهم. صددتم من قبل أنفسكم، وباختياركم بعد أداة الاستفهام، كأنهم قالوا: نحن أخبرناكم، وحلنا بينكم وبين الذكر، بعد أن همتم على الدخول في الإيمان، بل أنتم منعتم أنفسكم حظها، وأثرتم الضلالة على الهدى، فكنتم مجرمين، كافرين باختياركم، لا لقولنا، وتسويلنا. ولما أنكر رؤساؤهم أنهم السبب في كفرهم، وأثبتوا بقولهم (بل كنتم مجرمين) أن كفرهم هو من قبل أنفسهم، قابلوا إضراباً بإضراب. فقال الأتباع (بل مكر الليل والنهار) أي: ما كان إجرامنا من جهتنا بل مكركم لنا دائماً، ومخادعتكم لنا، ليلاً ونهاراً، إذ تأمرونا ونحن أتباع لا نقدر على مخالفتكم، مطيعون لكم - لاستيلائكم علينا - بالكفر بالله، واتحاد الأنداد. وأضيف المكر، إلى الليل والنهار اتسع في الظرفين. فهما في موضع نصب على المفعول به على السعة. أو في موضع نصب على المفعول به على السعة وفي موضع رفع على الإسناد المجازي كما قالوا: ليل نائم. والأولى عندي: أن يرتفع (مكر) على

الفاعلية . أي : بل صدنا مكرمكم بالليل والنهار . ونظيره قول القائل : أنا ضربت زيداً بل ضربه عمرو . فيقول بل ضربه غلامك . والأحسن في التقدير : أن يكون المعنى : ضربه غلامك . وقيل : يجوز أن يكون مبتدأ وخبراً أي : سبب كفرنا . وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر (بل مكرّم) بالتونين (الليل والنهار) نصب على الظرف . وقرأ سعيد بن جبير بن محمد وأبورزبن وابن يعمر أيضاً بفتح الكاف وشد الراء مرفوعة مضافة . ومعناه : كدور الليل والنهار واختلافهما . ومعناها : الإحالة على طول الأمل ، والاعتزاز بالأيام ، مع أمر هؤلاء الرؤساء الكفر بالله . وقرأ ابن جبير أيضاً وطلحة وراشد - هذا من التابعين ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج - كذلك إلا أنهم نصبوا الراء على الظرف ، وناصبه فعل مضمر . أي : «صدتمونا مكرّم الليل والنهار» . أي : في مكرهما ومعناه دائماً . وقال صاحب «اللوامح» يجوز أن ينتصب به (إذ) تأمر ونا مكر الليل والنهار . انتهى . وهذا وهم ، لأن ما بعد (إذ) لا يعمل فيما قبلها . وقال الزمخشري : «بل يكون الإغراء مكرّاً دائماً لا يفترون عنه» . انتهى . وجاء (قال الذين استكبروا) بغير واو ، لأنه جواب لكلام المستضعفين فاستؤنف وعطف (وقال الذين استضعفوا) على ما سبق من كلامهم . والضمير في وأسرنا للجميع المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون والموقوفون وتقدم الكلام في ﴿وأسرنا الندامة لما رأوا العذاب﴾ [يونس : ٥٤] في سورة يونس . والندامة : من المعاني القلبية فلا تظهر إنما يظهر ما يدل عليها . وما يدل عليها غيرها . وقيل : هو من الأضداد . وقال ابن عطية : هذا لم يثبت قط في لغة أن أسر من الأضداد . وندامة (الذين استكبروا) على ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم . وندامة (الذين استضعفوا) على ضلالهم واتباعهم المضلين . (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) والظاهر : عموم الذين كفروا ، فيدخل فيه المستكبرون ، والمستضعفون ، لأن من الكفار من لا يكون له اتباع مراجعة القول في الآخرة ، ولا يكون أيضاً تابعاً لرئيس له كافر . كالغلام الذي قتله الخضر . وقيل (الذين كفروا) هم الذين سبقت منهم المحاورة . وجعل الأغلال إشارة إلى كيفية العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا التندم . (هل يجوزون) معناه النفي . ولذلك دخلت إلا بعد النفي .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نَسَلْنَا عَلَيْهِم ءَابِتْنَا تَبْتَدَّ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

(وما أرسلنا) الآية هذه تسليية لرسول الله - ﷺ - مما مني به من قومه قريش من الكفر والافتخار بالأموال والأولاد، وإن ما ذكروا من ذلك هو عادة المترفين مع أنبيائهم، فلا يهمنك أمرهم. (ومن نذير) عام. أي: تنذره بعذاب الله إن لم يوحده. (وقال مترفوها) جملة حالية. ونص على المترفين، لأنهم أول المكذبين للرسول لما شغلوا به من زخرفة الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا، فقلوبهم أقبل للخير. ولذلك هم أتباع الأنبياء كما جاء في حديث هرقل و(بما) متعلق بـ (كافرون) و(به) متعلق بـ (أرسلتم) و(ما) عامة في ما جاءت به النذر من طلب الإيمان بالله وإفراجه بالعبادة، والإخبار بأنهم رسله إليهم، والبعث والجزاء على الأعمال. والظاهر: أن الضمير في (وقالوا) عائد على المترفين. وقيل: عائد على قريش. ويدل عليه ما بعده من الخطاب في قوله (قل) لأن من تقدم من المترفين المهالكين لا يخاطبون فلا يقول إلا الموجودون. وقوله (وما أموالكم ولا أولادكم) واحتجوا على رضا الله عنهم بإحسانه تعالى إليهم، فلو لم يتكرم عليهم ما وسع علينا. وأما أنتم فلهوانكم عليه حرمكم أيها التابعون للرسول. ثم نقول إن يعذبوا نفيًا عامًا، لأن الأنبياء قد ينذرون بعذاب عاجل في الدنيا، أو أجل في الآخرة، فنواهم جميع ذلك. فيما أن يكونوا منكربين للآخرة فقد نفوا تعذيبهم فيها، لأنها إذا لم تكن فلا يكون فيها عذاب. وإما أن يكونوا مقرين بها حقيقة أو على سبيل الفرض، فيقولون: كما أنعم علينا في الدنيا ينعم علينا في الآخرة على حالة الدنيا، قياساً فاسدًا فأبطل الله ذلك بأن الرزق فضل منه، يقسم علينا في الآخرة على حالة الدنيا كما شاء لمن يشاء، فقد يوسع على العاصي، ويضيق على الطائع، وقد يوسع عليها، والوجود شاهد بذلك، فلا تقاس التوسعة في الدنيا، لأن ذلك في الآخرة إنما هو على الأعمال الصالحة. وقرأ الأعمش (ويُقدر) في الموضعين مشددًا. والجمهور مخففًا. ومعناه ويضيق. مقابل بـ (بسط) (ولكن أكثر الناس) مثل هؤلاء الكفرة لا يعلمون أن الرزق مصروف بالمشيئة. وليس دليلًا على الرضا. ثم أخبر تعالى أن أموالهم وأولادهم التي افتخروا بها ليست بمقربة من الله، وإنما يقرب الإيمان والعمل الصالح. وقرأ الجمهور (بالتي) وجمع التكسير من العقلاء وغيرهم يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: ويجوز أن يكون (التي) هي التقوى. وهي المقربة عند الله (زلفى) وحدها. أي: ليست أموالكم تلك الموضوع للتعريب. انتهى. فجعل (التي) نعتًا لموصوف محذوف وهي التقوى. انتهى. ولا حاجة إلى تقدير هذا الموصوف. والظاهر: أن (التي) راجع إلى الأموال والأولاد. وقاله الفراء. وقال أيضاً هو والزجاج: «حذف من الأول لدلالة الثاني عليه. والتقدير: وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى». انتهى. ولا حاجة لتقدير هذا المحذوف إذ يصح أن يكون (التي) لمجموع الأموال والأولاد. وقرأ الحسن (باللاتي) جمعاً. وهو أيضاً راجع للأموال والأولاد. وقرىء (بالذي) و(زلفى) مصدر كالقربى. وانتصابه على المصدرية من المعنى. أي: يقربكم وقرأ الضحاك (زلفاً) بفتح اللام وتنوين الفاء جمع زلفَة وهي القربة. (إلا مَنْ آمن) الظاهر: أنه استثناء منقطع، وهو منصوب على الاستثناء، أي: لكن من آمن وعمل صالحاً، فإيمانه وعمله يقربانه وقال الزجاج: «هو بدل من الكاف والميم في (تقربكم)»، وقال النحاس: «وهذا غلط، لأن الكاف والميم للمخاطب، فلا يجوز البدل، ولو جاز هذا لجاز رأيتك زيداً، وقول أبي إسحاق هذا هو قول الفراء». انتهى. ومذهب الأخفش والكوفيين: أنه يجوز أن يبدل من ضمير المخاطب والمتكلم لكن البدل في الآية لا يصح. ألا ترى أنه لا يصح تفرغ الفعل الواقع صلة لما بعد إلا، لو قلت: ما زيد بالذي يضرب إلا خالدًا. لم يصح وتخيل الزجاج أن الصلة وإن كانت من حيث المعنى منفية أنه يصح البدل، وليس بجائز إلا فيما يصح التفرغ<sup>(٢)</sup> له، وقد اتبعه الزمخشري فقال: «(إلا من آمن) استثناء من (كَمْ) في (تقربكم)

(١) انظر الكشاف ٥٨٦/٣.

(٢) يشير بهذا إلى أن شرط الإبدال في الاستثناء وهي النفي، وإن كان موجوداً فالأمر ليس مطلقاً بل فيه ما يصح فيه التفرغ أي في غير جملة الصلة =



والمعنى : أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله ، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير ، وفقهم في الدين ، ورشحهم للصالح والطاعة . انتهى . وهو لا يجوز كما ذكرنا . لا يجوز ما زيد بالذي يخرج إلا أخوه . ولا ما زيد بالذي يضرب إلا عمراً . ولا ما زيد بالذي يمر إلا بكر . والتركيب الذي ركبه الزمخشري من قوله : « لا يقرب أحد إلا المؤمن » غير موافق للقرآن ، ففي الذي ركبه يجوز ما قال ، وفي لفظ القرآن لا يجوز . وأجاز الفراء أن تكون من في موضع رفع ، وتقدير الكلام عنده ما هو المقرب إلا من آمن . انتهى وقوله : كلام لا يتحصل منه معنى ، كأنه كان نائماً حين قال ذلك . وقرأ الجمهور (جزاء الضعف) على الإضافة أضيف فيه المصدر إلى المفعول . وقدره الزمخشري مبنياً للمفعول الذي لم يسم فاعله ، فقال : إن مجازوا لضعف . والمصدر في كونه يبنى للمفعول الذي لم يسم فاعله فيه خلاف . والصحيح المنع . ويقدر هنا أن مجازوا الله بهم الضعف . أي : يضاعف لهم حسناتهم ، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة لمن يشاء . وقرأ قتادة (جزاء الضعف) برفعها . فالضعف بدل . ويعقوب في رواية ينصب جزاء ورفع الضعف . وحكى هذه القراءة الداني عن قتادة ، وانتصب جزاء على الحال . كقولك : في الدار قائماً زيد . وقرأ الجمهور (في العرفات) جمعاً مضموم الراء . والحسن وعاصم بخلاف عنه . والأعمش ومحمد بن كعب بإسكانها . وبعض القراءة بفتحها . وابن وثاب والأعمش وطلحة وحزرة . وأطلق في اختياره في (العرفة) على التوحيد ساكنة الراء . وابن وثاب أيضاً بفتحها على التوحيد . ولما ذكر جزاء من آمن ، ذكر عقاب من كفر . ليظهر تباين الجزاءين . وتقدم تفسير نظير هذه الكلمة . ولما كان افتخارهم بكثرة الأموال والأولاد أخبروا أن ذلك على ما شاء الله كبر . وذلك المعنى تأكيد أن ذلك جار على ما شاء الله إلا أن ذلك على حسب الاستحقاق لا التكرمة ولا الهوان . ومعنى (فهو يخلفه) أي : يأتي بالخلف والعوض منه . وكان لفظ (من عباده) مشعرة بالمؤمنين ، وكذلك الخطاب في (وما أنفقتم) يقصد هنا رزق المؤمنين ، فليس مساق (قل إن ربي يسقط) مساق ما قيل للكفار ، بل مساق الوعظ والتزهيد في الدنيا ، والحض على النفقة في طاعة الله ، وإخلاف ما أنفق إما منجزاً في الدنيا وإما مؤجلاً في الآخرة . وهو مشروط بقصد وجه الله . وقال مجاهد : «من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد ، وأن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل ، وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر» . ولا يتأتى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) هذا في الآخرة . ومعنى الآية : ما كان من خلف فهو منه ، وجاء (الرازقين) جمعاً وإن كان الرازق حقيقة هو الله وحده ، لأنه يقال : الرجل يرزق عياله ، والأمير جنده ، والسيد عبده . والرازقون جمع بهذا الاعتبار لكن أولئك يرزقون مما رزقهم الله ، وملكهم فيه التصرف ، والله تعالى يرزق من خزائنه لا تفتى ، ومن إخراج من عدم إلى وجود . (ويوم نحشرهم جميعاً) أي : المكذبين من تقدم ومن تأخر . وقرأ الجمهور (نحشرهم نقول) بالنون فيهما . وحفص بالياء وتقدمت في الأنعام ، وخطاب الملائكة تبريع للكفار . وقد علم تعالى أن الملائكة منزهون براء مما وجه عليهم من السؤال ، وإنما ذلك على طريق توقيف الكفار وقد علم سوء ما ارتكبه من عبادة غير الله وأن من عبده متبرئ منهم . (وهؤلاء) مبتدأ وخبره (كانوا يعبدون) و(إياكم) مفعول (يعبدون) ولما تقدم انفصل . وإنما قدم ، لأنه أبلغ في الخطاب ، ولكون (يعبدون) فاصلة ، فلو أتى بالضمير منفصلاً كان التركيب : يعبدونكم ولم تكن فاصلة . واستدل بتقديم هذا المعمول على جواز تقديم خبر كان عليها إذا كان جملة . وهي مسألة خلاف . أجاز ذلك ابن السراج ، ومنع ذلك قوم من النحويين ، وكذلك منعوا توسطه إذا كان جملة . وقال ابن السراج : «القياس جواز ذلك ولم يسمع» . ووجه الدلالة من الآية أن تقديم المعمول مؤذن بتقديم العامل ، فكما جاز تقديم (إياكم) جاز تقديم (يعبدون) . وهذه القاعدة ليست مطردة . والأولى منع ذلك إلى أن يدل على

= كما يشير أن الصلة مثبتة ، والبديل منفي وكيف يبذل مثبت من منفي وهذا فيه غرابة من أبي حيان لأن البديل في الاستثناء لا يكون إلا كذلك وقد وجهه الرضي ، انظر الكافية ٢٣٣/١ التصريح ٣٥٠/١ .

جواز سماع من العرب . ولما أجابوا الله بدؤوا بتزيهه وبرائه من كل سوء ، كما قال - عيسى عليه السلام - (سبحانك) ثم انتسبوا إلى موالاته دون أولئك الكفرة . أي : أنت ولينا إذ لا موالاة بيننا وبينهم . وفي قولهم (بل كانوا يعبدون الجن) إشعار لهم بما عبده وإن لم يصرح به ، لكن الإضراب بـ (بل) يدل عليه ، وذلك لأن المعبود إذا لم يكن راضياً بعبادة عباده ، مريداً لها ، لم يكن ذلك العابد عبداً له حقيقة ، فلذلك قالوا (بل كانوا يعبدون الجن) لأن أفعالهم القبيحة من وسوسة الشياطين ، وإغوائهم ، ومراداتهم ، عابدون لهم حقيقة ، فلذلك قالوا (بل كانوا يعبدون الجن) إذا الشياطين راضون تلك الأفعال . وقيل : صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن ، وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها . وقيل : كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها . وقال ابن عطية : «لم تنف الملائكة عبادة البشر إياها وإنما أقرت أنها لم يكن لها في ذلك مشاركة . وعبادة البشر الجن هي فيما يقرون بطاعتهم إياهم ، وسماعهم من وسوستهم ، وإغوائهم . فهذا نوع من العبادة . وقد يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن . وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها» . انتهى . وإذا هم قد عبدوا الجن فما وجه قولهم (أكثرهم مؤمنون) ولم يقولوا جميعهم؟ وقد أخبروا أنهم كانوا يعبدون الجن . والجواب : أنهم لم يدعوا الإحاطة إذ قد يكون في الكفار من لم يطلع الملائكة عليهم ، أو أنهم حملوا على الأكثر بإيمانهم بالجن ، لأن الإيمان من عمل القلب فلم يذكروا الاطلاع على جميع أعمال قلوبهم ، لأن ذلك لله تعالى . ومعنى (مؤمنون) مصدقون أنهم معبودوهم . وقيل : مصدقون أنهم بنات الله ، وأنهم ملائكة . ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ [الصافات : ١٥٨] وأما من قال بأن الأكثر بمعنى الجميع فلا يرد عليه شيء ، لكنه ليس موضوع اللغة فـ (اليوم) هو يوم القيامة . والخطاب في (بعضكم) قيل : للملائكة ، لأنهم المخاطبون . في قوله (أهؤلاء إياكم) ويكون ذلك تكييماً للكفار حين بين لهم أن من عبده لا ينفع ولا يضر ، ويؤيده ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء : ٢٨] ولأن بعده (ونقول للذين ظلموا) ولو كان الخطاب للكفار لكان التركيب : فذوقوا . وقيل : الخطاب للكفار ، لأن ذكر (اليوم) يدل على حضورهم ، ويكون قوله (ونقول) تأكيد البيان حالهم في الظلم . وقيل : هو خطاب من الله لمن عبد ومن عبد . وقوله (نفعاً) قيل : بالشفاعة (ولا ضراً) بالتعذيب . وقيل هنا (التي كنتم بها تكذبون) وفي السجدة ﴿الذي كنتم به تكذبون﴾ [السجدة : ٢٠] كل منها أي : من العذاب ومن النار ، لأنهم هنا لم يكونوا ملتبسين بالعذاب ، بل ذلك أول ما رأوا النار إذ جاء عقيب الحشر فوصفت لهم النار بأنها هي التي كنتم تكذبون بها . وأما الذي في السجدة فهم ملبسو العذاب مترددون فيه ، لقوله : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها﴾ [السجدة : ٢٠] فوصف لهم العذاب الذي هم مباشره ، وهو العذاب المؤبد الذي أنكره . والإشارة بقوله (ما هذا إلا رجل) إلى تالي الآيات . المفهوم من قوله (وإذا تلى) وهو رسول الله - ﷺ - .

وحكى تعالى مطاعنهم عند تلاوة القرآن عليهم فبدؤوا أولاً بالطعن في التالي فإنه يقدح في معبودات أهلكم . ثانياً : فيما جاء به الرسول من القرآن بأنه كذب محتلق من عنده وليس من عند الله . وثالثاً : بأن ما جاء به سحر واضح لما اشتمل على ما يوجب الاستمالة ، وتأثير النفوس له ، وإجابته ، وطعنوا في الرسول وفيما جاء به ، وفي وصفه . واحتمل أن يكون ذلك صدر من مجموعهم ، واحتمل أن تكون كل جملة منها قالها قوم غير من قال الجملة الأخرى . وفي قوله (لما جاءهم) دليل على أنه حين جاءهم لم يفكروا فيه ، بل بادروه بالإنكار ونسبته إلى السحر ولم يكتفوا بقولهم (إنه سحر) حتى وصفوه بأنه واضح لمن يتامله ، وقيل : إنكار القرآن والمعجزة كان متفقاً عليه من المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى (وقال الذين كفروا للحق) على وجه العموم .

وَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم بِرَأْسِكَ مِنْ نَذِيرٍ ؕ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا

بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى وَفَرْدَى ثُمَّ نَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمِ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

(وما آتيناهم) أهل مكة (من كتب) قال السدي : «من عندنا فيعلموا بدراستها بطلان ما جئت به». وقال ابن زيد : «فنفصوا أن الشرك جائز وهو كقولهم : ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ [الروم : ٣٥]» وقال قتادة : «ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد - ﷺ -» والمعنى : من أين كذبوا ولم يأثم كتاب، ولا نذير بذلك<sup>(١)</sup>. وقيل : وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية، ولا ملة لهم، وليس لهم عهد بإنزال الكتاب، ولا بعثة رسول، كما قال : ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾ [الزخرف : ٢١] فليس لتكذيبهم وجه مثبت، ولا شبهة تعلق، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل الكتاب والشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله. وقيل : المعنى : أنهم يقولون بأرائهم في كتاب الله يقول بعضهم سحر، وبعضهم افتراء. ولا يستندون فيه إلى آثار من علم، ولا إلى خبر من يقبل خبره. فإذا آتيناهم كتاباً يدرسونها ولا أرسلنا إليهم رسولاً، ولا نذيراً فيمكثهم أن يدعوا أن أقواهم تستند إلى أمره. وقرأ الجمهور (يُدْرُسونها) مضارع دَرَسَ مخففاً. وأبو حنيفة يفتح الدال وشدّها وكسر الراء. مضارع ادْرَسَ افتعل من الدرس ومعناه تتدارسونها. وعن أبي حنيفة أيضاً (يُدْرُسونها) من التدريس وهو تكرير الدرس، أو من درس الكتاب مخففاً، ودَرَسَ الكتاب مشدداً، التضعيف باعتبار الجمع. ومعنى (قبلك) قال ابن عطية : «أي وما أرسلنا من نذير شافههم بشيء»، ولا يباشر أهل عصرهم، ولا من قرب من آبائهم : وقد كانت النذارة في العالم وفي العرب مع شعيب، وصالح، وهود، ودعوة الله وتوحيده قائم، لم تحل الأرض من داع إليه. وإنما المعنى : من نذير يختص بهؤلاء الذين بقيت إليهم. وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل والله تعالى يقول : ﴿إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ [مريم : ٥٤] ولكن لم يتجرد للنذارة وقاتل عليها إلا محمد - ﷺ - انتهى. (وكذب الذين من قبلهم) توعد لهم ممن تقدمهم من الأمم وما آل إليه أمرهم، وتسليمة لرسوله بأن عاداتهم في التكذيب عادة الأمم السابقة، وسيحل بهم ما حل بأولئك. وأن الضميرين في (بلغوا) وفي (ما آتيناهم) عائذان على (الذين من قبلهم) ليتناسقا مع قوله تعالى (فكذبوا) أي : ما بلغوا في شكر النعمة وجزاء المنة معشائر ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم. وقال ابن عباس وقاتدة وابن زيد : «الضمير في (بلغوا) لقريش وفي (ما آتيناهم) للأمم الذين من قبلهم. والمعنى : وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجسام، وكثرة الأموال، وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة، فكيف حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب

والهلاك. وقيل: الضمير في (بلغوا) عائذ على (الذين من قبلهم) وفي (آتيانهم) على قريش وما بلغ الأمم المتقدمة معشار ما آتينا قريشاً من الآيات. والبيئات والنور الذي جنتهم به. وأورد ابن عطية هذه الأقوال احتمالات. والزمخشري ذكر الثاني. وأبو عبد الله الرازي اختار الثالث. قال: أي: الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البرهان، وذلك لأن كتاب محمد - عليه السلام - أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد - عليه السلام - أفضل من جميع الرسل وأصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى. ويؤيد ما ذكرنا (وما آتيانهم من كتب يدرسونها) تغني عن القرآن فلما كان المؤق في الآية الأولى هو الكتاب حمل الإتياء في الآية الثانية على إتياء الكتاب، وكان أولى. انتهى، وعن ابن عباس: «فليس أنه أعلم من أمته، ولا كتاب أبين من كتابه. والمعشار: مفعال من العشر، ولم يبين على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المربع، ومعناها العشر والرابع. وقال قوم: المعشار: عشر العشر، قال ابن عطية: «وهذا ليس بشيء» انتهى. وقيل: والعشر في هذا القول عشر المعشرات فيكون جزءاً من ألف جزء. قال الماوردي: «وهو الأظهر لأن المراد به المبالغة في التقليل». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «فإن قلت: ما معنى (فكذبوا رسلي) وهو مستغنى عنه بقوله (وكذب الذين من قبلهم)؟ (قلت: لما كان معنى قوله (وكذب الذين من قبلهم) وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه، جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه. ونظيره أن يقول القائل أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد - ﷺ - ويجوز أن ينعطف على قوله (ما بلغوا) كقولك: ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فيفضل عليه. فكيف كان نكير للمكذبين الأولين ليحذروا من مثله». انتهى. (وكيف) تعظيم للأمر - وليست استفهاماً مجزئاً، وفيه تهديد لقريش. أي: إنهم معرضون لنكير مثله. والنكير: مصدر كالإنكار وهو من المصادر التي جاءت على وزن فعيل، والفعل على وزن أفعل كالنذير والعذير من أذّر وأعذّر. وحذفت إلى من (نكير) تخفيفاً لأنها أجزأته. (قل إنما أعظكم بواحدة) قال: هي طاعة الله وتوحيده. وقال السدي: «هي لا إله إلا الله»<sup>(٢)</sup>. قال قتادة: «هي (أن تقوموا) قال أبو علي (أن تقوموا) في موضع خفض على البدل من (واحدة)، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: «(بواحدة) بخصلة واحدة وهو فسرهما بقوله (أن تقوموا) على أنه عطف بيان لها». انتهى. وهذا لا يجوز، لأن (بواحدة) نكرة، و(أن تقوموا) معرفة لتقديره: قيامكم لله. وعطف البيان فيه مذهباً<sup>(٤)</sup>، أحدهما: أنه يشترط فيه أن يكون معرفة من معرفة وهو مذهب الكوفيين. وأما التخالف فلم يذهب إليه ذاهب إنما هو وهم من قائله. وقد ردّ النحويون على الزمخشري في قوله: «إن ﴿مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٧] عطف بيان من قوله (آيات بيّنات)» وذلك لأجل التخالف فكذلك هذا. والظاهر: أن القيام هنا هو الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة لا القيام الذي يراد به المقول على القولين. ويبعد أن يراد به ما جوزه الزمخشري من القيام عن مجلس رسول الله - ﷺ - وتفريقهم عن مجتمعهم عنده. والمعنى: إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحق وخلاصكم، وهي: أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين، واحداً واحداً، ثم تفكروا في أمر محمد وما جاء به وإنما قال (مثنى وفرادى) لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر، والمنع من التفكير، وتخليط الكلام، والتعصب

(١) انظر الكشاف ٥٨٩/٣.

(٢) انظر القرطبي ١٩٩/١٤.

(٣) انظر الكشاف ٥٨٩/٣.

(٤) بيان ذلك أن جمهور البصريين على أن عطف البيان خاص بالمعارف لأنه بيان كاسمه والنكرة مجهولة، والمجهول لا يبين مجهولاً فإنه يكون للشخص اسماً أحدهما أشهر من الآخر فيجعل الأشهر بياناً لغيره نحو «أقسم بالله أبو حفص عمر» فعمر أشهر من أبي حفص، فجعل بياناً له، ومن البصريين من يخص عطف البيان بالعلم اسماً كان أو كنية أو لقباً، وأثبت الكوفيون وجماعة من البصريين كالفارسي وابن جني ومن المتأخرين الزمخشري وابن مالك البيان في التكرات، وجوزوا أن يكون منه قوله تعالى: «من وراء جهنم ويسقى من ماء صديده» فصديده يصح عندهم أن يكون بياناً لماء وقوله تعالى: «أو كفارة طعام مساكين» في قراءة تنوين كفارة طعام بيان لكفارة، وجمهور البصريين يوجبون في التكرات البدلية والبيان عندهم خالص بالمعرف انظر تفصيل ذلك في الأشموني ٨٦/٣ التصريح ١٣١/٢، شرح المفصل ١٧١/٢.

للمذاهب، وقلة الإنصاف كما هو مشاهد في الدروس التي يجتمع فيها الجماعة فلا يوقف فيها على تحقيق. وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف، وعرض كل واحد منها على صاحبه ما ظهر له، فلا يكاد الحق أن يعدوهما. وأما الواحد إذا كان جيد الفكر، صحيح النظر، عارياً عن التعصب، طالباً للحق، فبعيد أن يعدوه. وانتصب (مثنى) وفرادى) على الحال. وقدم (مثنى) لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة إذا انقح الحق بين الاثنین فكر كل واحد منها بعد ذلك فيزيد بصيرة. قال الشاعر:

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ      فَيَزْدَادُ بَعْضُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْضِهِمْ عِلْمًا

(ثم تفكروا) عطف على (أن تقوموا) فالفكرة هنا في حال رسول الله - ﷺ - وفيما نسبوه إليه، فإن الفكرة تهدي غالباً إلى الصواب إذا عري صاحبها عما يشوش النظر. والوقف عند أبي حاتم عند قوله (ثم تفكروا) (ما بصاحبكم من جنة) نفي مستأنف. قال ابن عطية: «وهو عند سيويه جواب ما ينزل منزلة القسم، لأن (تفكر) من الأفعال التي تعطي التمييز كـ (تبين) ويكون التفكير على هذا في آيات الله والإيمان به» انتهى. واحتمل أن يكون (تفكروا) معلقاً، والجملة المنفية في موضع نصب وهو محط التفكير. أي: ثم تفكروا في انتفاء الجنة عن محمد - ﷺ - فإن إثبات ذلك لا يصح أن يتصف به من كان أرجح قریش عقلاً، وأثبتهم ذهنًا، وأصدقهم قولاً، وأزهمهم نفساً، ومن ظهر على يديه هذا القرآن المعجز فيعلمون بالفكرة أن نسبته للجنون لا يمكن ولا يذهب إلى ذلك عاقل، وأن من نسبه إلى ذلك فهو مفتر كاذب، والظاهر: أن (ما) للنفي كما شرحنا. وقيل (ما) استفهام، وهو استفهام لا يراد به حقيقته، بل يؤول معناه إلى النفي. التقدير: أي شيء بصاحبكم من الجنون. أي: ليس به شيء من ذلك. ولما نفى تعالى عنه الجنة أثبت أنه (نذير) (بين يدي عذاب شديد) أي: هو متقدم في الزمان على العذاب الذي توعدوا به. (وبين يدي) يشعر بقرع العذاب. (قل ما سألتكم من أجر) الآية. في التبري من طلب الدنيا، وطلب الأجر على النور الذي أتى به، والتوكل على الله فيه. واحتملت (ما) أن تكون موصولة مبتدأ والعائد من الصلة محذوف. تقديره: سألتكموه. (وهو لكم) الخبر، ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، واحتملت أن تكون شرطية مفعولة بـ (سألتكم) و(فهو لكم) جملة هي جواب الشرط وقوله (ما سألتكم من أجر فهو لكم) على معنيين، أحدهما نفي مسألة الأجر كما يقول الرجل لصاحبه: إن أعطيتني شيئاً فخذ. وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه أراد البت لتعليقه الأخذ بما لم يمكن، ويؤيده (إن أجري إلا على الله) والثاني: أن يريد بالأجر ما في قوله: ﴿قل ما سألتكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧] وفي قوله: ﴿لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣] لأن اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم ما فيه نفعهم، وكذلك المودة في القرابة، لأن القرابة قد انتظمت وإياهم قاله الزمخشري. وفيه بعض زيادة. قال ابن عباس: «الأجر: المودة في القربى». وقال قتادة: «(فهو لكم) أي: ثمرته وثوابه لأنني سألتكم صلة الرحم. وقال مقاتل: «تركته لكم». (وهو على كل شيء شهيد) مطلع حافظ، يعلم أني لا أطلب أجراً على نصحكم ودعאתكم إليه إلا منه، ولا أطمع منكم في شيء. والقذف: الرمي بدفع واعتقاد ويستعار لمعنى الإلقاء لقوله: ﴿فاقذفه في اليم﴾ [طه: ٣٩] ﴿واقذف في قلوبهم الرعب﴾ [الحشر: ٢] قال قتادة: «(يقذف بالحق) يبين الحجة ويظهرها<sup>(١)</sup>». وقال «ابن القشيري»: «يبين الحجة بحيث لا اعتراض عليها، لأنه علام الغيوب، وأنا مستمسك بما يقذف إلى من الحق وأصل القذف: الرمي بالسهم أو الحصى والكلام». وقال ابن عباس: «يقذف الباطل بالحق. والظاهر: أن (بالحق) هو المفعول ف (الحق) هو المقذوف محذوفاً. أي: يقذف أي: يلقي ما يلقي إلى أنبيائه من الوحي والشرع بالحق لا بالباطل، فتكون الباء إما للمصاحبة وإما لسبب ويؤيد هذا الاحتمال كون (قذف) متعدياً بنفسه فإذا جعلت (بالحق) هو

المفعول كانت الباء زائدة في موضع لا تطرد زيادتها. وقرأ الجمهور (عَلَّامٌ) بالرفع، فالظاهر أنه خبر ثان وهو ظاهر قول الزجاج. قال: «هورفع، لأن تأويل قل رب علام الغيوب». وقال الزمخشري: «رفع محمول على محل إن واسمها، أو على المستكن في (يقذف) وهو خبر مبتدأ محذوف». انتهى. أما الحمل على محل إن واسمها فهو غير مذهب سيويه، وليس بصحيح عند أصحابنا على ما قرئناه في كتب النحو<sup>(١)</sup>. وأما قوله: «على المستكن في يقذف» فلم يبين وجه حمله، وكأنه يريد أنه بدل من ضمير (يقذف). ونال الكسائي: «هونعت لذلك الضمير، لأن مذهبه جواز نعت المضمرة الغائب». وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق وزيد بن علي وابن أبي عملة وأبو حيوة وحرب عن طلحة (عَلَّامٌ) بالنصب. فقال الزمخشري صفة لـ (ربي)، وقال أبو الفضل الرازي وابن عطية: «بدل». وقال الحوفي: «بدل أو صفة». وقيل: نصب على المدح. وقرئ (الغيوب) بالجر أما الضم فجمع (غيب) وأما الكسر فكذلك، استقلوا ضميتين والواو فكسر والتناسب الكسر مع الباء والضممة التي على الباء مع الواو. وأما الفتح فمفعول للمبالغة كالصبور، وهو الشيء الذي غاب وخفي جداً. ولما ذكر تعالى أنه يقذف بالحق بصيغة المضارع، أخبر أن الحق قد جاء - وهو القرآن والوحي - وبطل ما سواه من الأديان فلم يبق لغير الإسلام ثبات لا في بدء ولا في عاقبة فلا يخاف على الإسلام ما يبطله كما قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال قتادة: «الباطل الشيطان لا يخلق شيئاً ولا يبعثه<sup>(٢)</sup>». وقال الضحاك: «الأصنام لا تفعل ذلك». وقال أبو سليمان: «لا يبتدىء، الصنم من عنده كلاماً فيجانب، ولا يرد ما جاء من الحق بحجة»، وقيل: الباطل: الذي يصاد الحق. فالمعنى: ذهب الباطل بمجميء الحق فلم يبق منه بقية، وذلك أن الجائي إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة، فصار قولهم «لا يبدي ولا يعيد» مثلاً في الهلاك. ومنه قول الشاعر:

أَقْفَرَ مَنْ أَهْيَلِهِ عَبِيدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ<sup>(٣)</sup>

والظاهر: أن (ما) نفي. وقيل: استفهام ومآله إلى النفي، كأنه قال: أي شيء يبديء الباطل. أي: إبليس ويعيده، قتاله الزجاج وفرقة معه. وعن الحسن: «لا يبديء أي إبليس لأهله خيراً، ولا يعيده: أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة». وقيل: الشيطان، الباطل، لأنه صاحب الباطل ولأنه هالك كما قيل له الشيطان من شاط إذا هلك. وقيل: الحق: السيف عن ابن مسعود «دخل رسول الله - ﷺ - مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود نبقة<sup>(٤)</sup>»، ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد». وقرأ الجمهور (قل إن ضللت) بفتح اللام. (فإنما أضل) بكسر الضاد. وقرأ الحسن وابن وثاب وعبد الرحمن المقرئ بكسر اللام وفتح الضاد. وهي لغة تميم وكسر عبد الرحمن همزة (أضل) وقال الزمخشري: «لغتان نحو: ضَلَّلت أضلُّ وظَلَّلت أظل (وإن اهتديت فيما يوحى إليّ ربي) (وإن) تكون مصدرية. أي: فبوحى ربي والتقابل اللفظي (وإن اهتديت) فإنما أهتدي لها. كما قال: ﴿ومن أساء فعليها﴾ مقابل ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ [فصلت: ٤٦] (ومن ضل فإنما يضل عليها) مقابل (فمن اهتدى فلنفسه) أو يقال: فإنما أضل بنفسي. وأما في الآية فالتقابل معنوي، لأن النفس كل ما عليها فهو لها. أي: كل وبال عليها، فهو بسببها ﴿إن النفس لأمانة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣] وما لها مما ينفعها فهداية ربهما وتوفيقه. وهذا حكم عام لكل مكلف. وأمر رسوله أن يسند إلى نفسه، لأنه إذا دخل تحته مع جلالة محله وسر طريقتة كان غيره أولى به». انتهى وهو من كلام

(١) انظر تفصيل ذلك في شرح المفصل ٦٩/٨، وشرح الكافية ٣٥٢/١، الكتاب ٢٨٥/١، المقضب ١١١/٤ التصريح ٢٢٧/١ وقول المصنف وليس بصحيح عند أصحابنا بقصد المحققين المشتركين وجود المجوز في العطف على المحل، وقد تقدم انظر المجمع ١٤١/٢.

(٢) انظر القرطبي ٢٠٠/١٤ وزاد المسير ٤٦٦/٦.

(٣) البيت من البسيط لعبيد بن الأبرص ديوانه (٤٥) الكشف (٢٣٥/٢) وروح المعاني (١٥٦/٢٢).

(٤) النبق: ثمر السدر.

الزخشمري : (إنه سميع قريب) يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله . والظاهر : أن قوله (ولو ترى إذ فزعوا) أنه وقت البعث وقيام الساعة . وكثيراً جاء ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ [الأنعام : ٢٧] ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ [السجدة : ١٢] وكل ذلك في يوم القيامة وعبر بـ (فزعوا) (وأخذوا) (وقالوا) (وحيل) بلفظ الماضي، لتتحقق وقوعه بالخبر الصادق، وقال ابن عباس والضحاك : «هذا في عذاب الدنيا»، وقال الحسن : «في الكفار عند خروجهم من القبور»، وقال مجاهد : «يوم القيامة»، وقال ابن زيد والسدي : «في أهل بدر، حين ضربت أعناقهم فلم يستطيعوا فراراً من العذاب، ولا رجوعاً إلى التوبة». وقال ابن جبير وابن أبي أزي : «في جيش لغزو الكعبة فيخسف بهم في ببداء من الأرض ولا ينجو إلا رجل من جهينة، فيخبر الناس بما ناله قالوا وله قيل :

وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْبَيِّنُ

وروي في هذا المعنى حديث مطول عن حذيفة، وذكر الطبري أنه ضعيف السند مكذوب فيه على رواية ابن الجراح . وقال الزخشمري : «وعن ابن عباس نزلت في خسف البيداء، وذلك أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها فإذا دخلوا البيداء خسف بهم . وذكر في حديث حذيفة أنه تكون فتنة بين أهل المشرق والمغرب فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السفياي من الوادي اليابس في فوره ذلك حين ينزل دمشق فيبعث جيشاً إلى المدينة فينتهبونها ثلاثة أيام، ثم يخرجون إلى مكة فيأتيهم جبريل - عليه السلام - فيضربها - أي الأرض - برجله ضربة فيخسف الله بهم في ببداء من الأرض ولا ينجو إلا رجل من جهينة فيخبر الناس بما ناله، فذلك قوله (فلا فوت) ولا يتفقت منهم إلا رجلان من جهينة ولذلك جرى المثل (وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْبَيِّنُ) اسم أحدهما: بشير، يشر أهل مكة، والآخر: نذير ينقل بخر السفياي . وقيل : لا ينقلب إلا رجل واحد يسمى ناجية من جهينة، ينقلب وجهه إلى قفاه . ومفعول (ترى) محذوف . أي : ولو ترى الكفار (إذ فزعوا فلا فوت) أي : لا يفوتون الله، ولا مهرب لهم عما يريد بهم . وقال الحسن : «فلا فوت من صيحة النشور وأخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها». انتهى . أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من صحراء بدر إلى القلب . أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم . وهذه أقوال مبنية على تلك الأقوال السابقة في عود الضمير في (فزعوا) ووصف المكان بالقرب من حيث قدرة الله عليهم فحيث ما كانوا هو قريب . وقرأ الجمهور (فلا فوت) مبني على الفتح (وأخذوا) فعلاً ماضياً . والظاهر : عطفه على (فزعوا) وقيل : على (فلا فوت) لأن معناه فلا يفوتوا وأخذوا . وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة (فلا فوت وأخذ) مصدرين منونين . وقرأ أبي (فلا فوت) مبنياً (وأخذ) مصدرأ منوناً . ومن رفع (وأخذ) فخر مبتدأ . أي : وحالها أخذ . أو مبتدأ . أي : وهناك أخذ، وقال الزخشمري : «وقرىء (وأخذ) وهو معطوف على محل (فلا فوت) ومعناه : فلا فوت هناك وهناك أخذ». انتهى . كأنه يقول (لا فوت) مجموع ولا والمبني معها في موضع مبتدأ وخبره هناك، فكذلك (وأخذ) مبتدأ وخبره هناك فهو من عطف الجمل، وإن كانت إحداهما تضمنت النفي والأخرى تضمنت الإيجاب . والضمير في (به) عائد على الله . قاله مجاهد . أي : يقولون ذلك عندما يرون العذاب . وقال الحسن : «على البعث»، وقال مقاتل : «على القرآن»، وقيل : على العذاب . وقال الزخشمري وغيره : على الرسول لمرور ذكره في قوله (ما بصاحبكم من جنة) (وأن لهم التناوش)<sup>(١)</sup> قال ابن عباس «(التناوش) الرجوع إلى الدنيا وأنشد ابن الأباري :

تَمَنَّى أَنْ تَوُوبَ إِلَيَّ مَيُّ وَلَيْسَ إِلَيَّ تَنَاوُشُهَا سَبِيلٌ<sup>(٢)</sup>

أي : تمنى . وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في

(١) التناوش : انظر (٤٥٧٥/٦).

(٢) من الوافر انظر القرطبي (٢٠٢/١٤)، روح المعاني (١٥٨/٢٢).

الدنيا. مثل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعد كما يتناوله الآخر من قرب. وقرأ الجمهور (التناؤش) بالواو. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وأبو بكر بالهمز. ويجوز أن يكونا مادتين، إحداهما: النون والواو والشين. والأخرى: النون والهمزة والشين. وتقدم شرحهما في المفردات. ويجوز أن يكون أصل الهمزة الواو على ما قاله الزجاج، وتبعه الزمخشري وابن عطية والحوفي وأبو البقاء. وقال الزجاج: «كل واو مضمومة ضمة لازمة فأنت فيها بالخيار إن شئت ثبتت همزتها وإن شئت تركت همزتها تقول ثلاث أدور بلا همزة وأدور بالهمز. قال: والمعنى: من أتى لهم تناول ما طلبوه من التوبة بعد فوات وقتها، لأنها إنما تقبل في الدنيا وقد ذهبت الدنيا، فصارت على بعد من الآخرة وذلك قوله تعالى (من مكان بعيد)» وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه وأدور»، وقال ابن عطية: «وأما التناؤش بالهمز فيحتمل أن يكون من التناؤش وهمزت الواو لما كانت مضمومة ضمة لازمة كما قالوا أفئيت»، وقال الحوفي: «ومن همز احتمال وجهان، أحدهما: أن يكون من الناش وهو الحركة في إبطاء. ويجوز أن يكون من ناش ينوش همزت الواو لانضمامها كما همزت أفئيت وأدور»، وقال أبو البقاء: «ويقرأ بالهمز من أجل ضمة الواو. وقيل: هي أصل من ناشه». انتهى. وما ذكره من أن الواو إذا كانت مضمومة ضمة لازمة يجوز أن تبدل همزة، ليس على إطلاقه، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغمة فيها. ونحو تعود وتعوذ مصدرين ولا إذا صحت في الفعل نحو: ترهوك ترهوكاً، وتعاون تعاوناً، ولم يسمع همزتين من ذلك فلا يجوز. و(التناؤش) مثل التعاون فلا يجوز همزه، لأن واوه قد صحت في الفعل إذ يقول: تناؤش، (وقد كفروا به) الضمير في (به) عائد على ما عاد عليه (أماناً به) على الأقوال، والجملة حالية. (ومن قبل) نزول العذاب. وقرأ الجمهور (ويُقَدِّفون) مبنياً للفاعل حكاية حال متقدمة. قال الحسن: «قولهم لا جنة ولا نار». وزاد قتادة: «ولا بعث ولا نار»، وقال ابن زيد: «طاعنين في القرآن بقولهم أساطير الأولين». وقال مجاهد: «في الرسول - ﷺ - بقولهم: شاعر وساحر وكاهن». (من مكان بعيد) أي: في جهة بعيدة، لأن: نسبتبه إلى شيء من ذلك من أبعد الأشياء. قال «الزمخشري<sup>(٢)</sup>»: «وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي، لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً، ولا شعراً، ولا كذباً، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله، لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عاداته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور». انتهى. وقيل: هو مستأنف. أي: يتلفظون بكلمة الإيمان حين لا ينفخ نفسها إيمانها. فمثلت حالهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم أماناً في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد ممن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للنظر في حوقه حيث يريد أن يقع فيه، لكونه غائباً عنه بعيداً. والغيب: الشيء الغائب. وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو (ويُقَدِّفون) مبنياً للمفعول، قال مجاهد: «ويرجمهم بما يكرهون من السماء»، وقال أبو الفضل الرازي: «يرمون بالغيب من حيث لا يعلمون ومعناه: يجازون بسوء أعمالهم ولا علم لهم بما أتاه إما في حال تعذر التوبة عند معاينة الموت وإما في الآخرة». وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: «أي: يأتيهم به يعني بالغيب شياطينهم ويلقنهم إياه». وقيل: يرمون في النار. وقيل: هو مثل لأن من ينادي من مكان بعيد لا يسمع. أي: هم لا يعقلون ولا يسمعون. (وحيل بينهم) قال الحوفي: الظرف قائم مقام اسم مالم يسم فاعله. انتهى. ولو كان على ما ذكر لكان مرفوعاً (بينهم) كقراءة من قرأ ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] في أحد المعنيين. لا يقال لما أضيف إلى مبني وهو الضمير بني فهو في موضع رفع. وإن كان مبنياً كما قال بعضهم في قوله: «وإذ ما مثلهم» يشير إلى أنه في موضع رفع لإضافته إلى الضمير وإن كان مفتوحاً، لأنه قول فاسد. يجوز أن تقول: مررت بغلامك وقام غلامك بالفتح. وهذا لا يقوله أحد. والبناء لأجل الإضافة إلى المبني ليس مطلقاً، بل له مواضع أحكمت في النحو.

(١) انظر الكشاف ٥٩٣/٣.

(٢) انظر الكشاف ٥٩٣/٤.

(٣) انظر الكشاف ٥٩٣/٤.



وما يقول قائل ذلك في قول الشاعر:

وَقَدْ جِيلَ بَيْنَ الْعَبْرِ وَالنَّزْوَانِ<sup>(١)</sup>

فإنه نصب بين وهي مضافة إلى معرب. وإنما يخرج ما ورد من نحو هذا على أن القائم مقام الفاعل هو ضمير المصدر الدال عليه (وحيل) هو: أي: الحول، ولكونه أضم لم يكن مصدراً مؤكداً فجاز أن يقام مقام الفاعل. وعلى ذلك يخرج قول الشاعر

وَقَالَتْ مَتَى يَخْلُ عَلَيْكَ وَيَعْتَلِلُ بِسُوءٍ وَإِنْ يُكْشَفَ غَرَامُكَ تَدْرِبُ<sup>(٢)</sup>

أي: ويعتلل هو، أي: الاعتلال. والذي يشتهون: الرجوع إلى الدنيا، قاله ابن عباس. أو الأهل والمال والولد، قاله السدي. أو بين الجيش وتخريب الكعبة. أو بين المؤمنين أو بين النجاة من العذاب. أو بين نعيم الدنيا ولذتها. قاله مجاهد أيضاً (كما فعل بأشباعهم) من كفرة الأمم. أي: حيل بينهم وبين مشتهياتهم (من قبل) يصح أن يكون متعلقاً بـ (أشباعهم) أي: من اتصف بصفتهم (من قبل) أي: في الزمان الأول. ويترجح بأن ما يفعل بجمعهم إنما هو في وقت واحد، ويصح أن يكون متعلقاً بـ (فُعل) إذا كانت الحيلولة في الدنيا. وقال الضحاك: أشباعهم: أصحاب الفيل. يعني: أشباع قريش<sup>(٣)</sup>، وكأنه أخرجه مخرج التمثيل. وأما التخصيص فلا دليل عليه (إنهم كانوا في شك مريب) يعني في الدنيا و(مريب) اسم فاعل من «أراب الرجل» أتى بريية ودخل فيها، و«أربت الرجل» أوقعته في ريبة. ونسبة الإرابة إلى الشك مجاز. قال الزمخشري: «إلا أن بينها فرقاً، وهو أن المريب من المتعدي منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان، إلى المعنى. ومن اللازم منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول: شعر شاعر». انتهى وفيه بعض تبين. قيل: ويجوز أن يكون أردفه على الشك، وهما بمعنى، لتناسق آخر الآية بالتي قبلها، (من مكان قريب) كما تقول: عجب عجيب وشتاء شات وليلة ليلاء، وقال ابن عطية: «الشك المريب أقوى ما يكون من الشك وأشدّه إظلاماً».

(١) هذا عجز بيت لصخر بن عمرو بن الشريد، انظر مقدمة ديوان الخنساء.

(٢) من الطويل لامرئ القيس انظر ديوانه (٣٩) التصريح (٢٨٩/١) الأشموني (٦٥/٣).

(٣) انظر زاد المسير ٤٧١/٦.

سُورَةُ فَطْرٍ

٢٥ آياتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ  
 إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ  
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ  
 وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفِقُوا تَوْفِيقًا ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ  
 الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ  
 الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ  
 شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زِينٍ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنْ  
 اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ  
 الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرَ سَآبًا فَيَسْقِنَهُ إِلَىٰ أَرْضٍ مَثْبُوتَةٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ  
 يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ  
 لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا  
 تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ  
 يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا  
 طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِنَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ  
 ﴿١٢﴾ يُورِثُ الْيَتِيمَ فِي النَّهَارِ وَيُورِثُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ  
 مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ  
 وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ  
 يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ  
 مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا  
 الصَّلَاةَ ۗ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا  
 الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ  
 وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا  
 خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ  
 وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾  
 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ۗ كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ  
 اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا  
 وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ  
 غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ  
 بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ  
 مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۗ يُؤْتِيهِم مِّن قَبْلِ الْوَعْدِ ۗ إِنَّهُمْ عَلَىٰ شَاوِرٍ وَمِنْهُمْ مِّسْكِينٌ وَمِنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي  
 أَسَاءَ ۗ إِنَّهُمْ لَخَالِفُونَا يُتَّبَعُونَ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا  
 يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۗ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا  
 الْحَزْنَ ۗ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ۗ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا  
 فِيهَا غُوبٌ ﴿٣٥﴾

القطمير<sup>(١)</sup>: المشهور أنه القشرة الرقيقة التي على نوى التمرة. ويأتي ما قال المفسرون، الجدد. جمع جدة<sup>(٢)</sup>، وهي

(١) القطمير: انظر لسان العرب (٥/٣٧٤٠).

(٢) الجدد: انظر لسان العرب (١/٥٦٠).

الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طويلاً. وقال الزمخشري: «والجُدُّ الخَطُّ والطرائق». وقال لبيد: أو مذهب جدد على الواحد، ويقال: «جدة الجمال» للخطبة السوداء التي على ظهره، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه». انتهى. وقال الشاعر:

كَأَنَّ سَرَاتَهُ وَجِدَّةَ ظَهْرِهِ كِنَائِنُ يَجْرِي بَيْنَهُنَّ دَلِيصٌ<sup>(٣)</sup>

الجددة: الخط الذي في وسط ظهره، يصف حمار وحش، الغريب: الشديد السواد. لغب يلغب لغوباً: أعبأ. ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة منى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل من بعده وهو العزيز الحكيم، يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأتى توفكون، وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور، يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، الذين كفروا لهم عذاب شديد، والذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير، أقمّن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾.

هذه السورة مكية<sup>(٤)</sup>، ولما ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هلاك المشركين - أعداء المؤمنين - وأنزلهم منازل العذاب، تعين على المؤمنين حمده تعالى، وشكره لنعمائه، ووصفه بعظيم آلائه، كما في قوله: ﴿فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ٤٥]، وقرأ الضحاك والزهري: (فَطَّر) جعله فعلاً ماضياً ونصب ما بعده. قال أبو الفضل الرازي: «فإما على إضمار الذي فيكون نعتاً لله عز وجل، وإما بتقدير قد فيها قبله فيكون بمعنى الحال». انتهى. وحذف الموصول الاسمي لا يجوز عند البصريين. وأما الحال فيكون حالاً محكية، وأحسن عندي: أن يكون خبر مبتدأ محذوف. أي: هو فطر. وتقدم شرح (فاطر السموات والأرض) وأن المعنى خالفها بعد أن لم تكن (السموات والأرض) عبارة عن العالم. وقال أبو عبد الله الرازي: «الحمد يكون في غالب الأمر على النعمة، ونعم الله عاجلة، و﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام ١] إشارة إلى أن النعمة العاجلة ودليله ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً﴾ [الأنعام: ٢] و﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ [الكهف: ١] إشارة إليها أيضاً، وهي الالتقاء. فإن الالتقاء والصالح بالشرع والكتاب والحمد في سورة سبأ إشارة إلى نعمة الإيجاد، والحشر ودليله ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ [سبأ: ٢] وقوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ [سبأ: ٣] وهنا إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة دليله ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ففاطر السموات والأرض: شاقها لنزول الأرواح من السماء. وخروج الأجساد من الأرض، دليله (جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة) أي: في ذلك اليوم. فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن (كما فعل بأشيعاهم من قبل) بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب. ولما ذكر حالهم ذكر حال المؤمن وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وأنه يفتح لهم أبواب الرحمة. وقرأ الحسن (جاعل) بالرفع أي: هو جاعل وعبد الوارث عن أبي عمرو (جاعل) رفعاً بغير تنوين (الملائكة) نصباً حذف التنوين لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن يعمر وخليد بن نسيط (جاعل) فعلاً ماضياً (الملائكة) نصباً. وذلك بعد قراءته (فاطر) بألف والجر كقراءة من قرأ ﴿فالق الإصباح وجعل

(٣) البيت لامرئ القيس (٩٣).

(٤) انظر زاد المسير ٦/٤٧٢١.

الليل سكناً ﴿[الأنعام: ٩٦] وقرأ الحسن وحيد بن قيس (رسلاً) بإسكان السين، وهي لغة تميم. وقال الزمخشري: وقرئ (الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة) فمن قرأ (فطر) (وجعل) فينبغي أن تكون هذه الجملة إخباراً من العبد إلى ما أسداه إلينا من النعم، كما تقول: الفضل لزيد، أحسن إلينا بكذا، حولنا كذا، يكون ذلك جهة بيان لفعله الجميل كذلك يكون في قوله (فطر) (جعل) لأن في ذلك نعماً لا تحصى. ومن قرأ (وجاعل) فالأظهر أنها اسماً فاعل بمعنى المضي، فيكونان صفة لله. ويحيى الخلاف في نصب (رسلاً) فمذهب السيرافي أنه منصوب باسم الفاعل وإن كان ماضياً لما لم يمكن إضافته إلى اسمين نصب الثاني. ومذهب أبي علي أنه منصوب بإضمار فعل. والترجيح بين المذهبين المذكورين في النحو. وأما من نصب (الملائكة) فينتخرج على مذهب الكسائي وهشام في جواز إعمال الماضي النصب، ويكون إذ ذاك إعرابه بدلاً. وقيل: هو مستقبل، تقديره: يجعل الملائكة رسلاً ويكون أيضاً إعرابه بدلاً، ومعنى (رسلاً) بالوحي وغيره من أوامره، ولا يريد جميع الملائكة، لأنهم ليسوا كلهم رسلاً، فمن الرسل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، والملائكة المتعاقبون، والملائكة المسددون حكام العدل وغيرهم كالملك الذي أرسله الله إلى الأعمى والأبرص والأقرع. و(أجنحة) جمع جناح صيغة جمع القلة، وقياس جمع الكثرة فيه جناح على وزن فعل فإن كان لم يسمع كان (أجنحة) مستعملاً في القليل والكثير. وتقدم الكلام على (مثنى وثلاث ورباع) في أول النساء مشعباً، ولكن المفسرون تعرضوا للكلام فيه هنا<sup>(١)</sup>، فقال الزمخشري: (مثنى وثلاث ورباع) صفات الأجنحة، وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد من صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وحدام عن حاذمة وعن تكرير إلى غير تكرير. وأما بالوصفية فلا تقتزن الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها، ألا تراك تقول: بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها». انتهى. فجعل المانع للصرف هو تكرار العدل فيها. والمشهور أنها امتنعت من الصرف للصفة والعدل. وأما قوله: «ألا تراك» فإنه قاس الصفة في هذا المعدول على الصفة في أفعل وفي ثلاثة وليس بصحيح، لأن مطلق الصفة لم يعدوه علة بل اشترطوا فيه، فليس الشرط موجوداً في أربع لأن شرطه أن لا يقبل تاء التانيث. وليس شرطه في ثلاثة موجوداً، لأنه لم يجعل علة مع التانيث، فقياس الزمخشري قياس فاسد، إذ غفل عن شرط كون الصفة علة. وقال ابن عطية: «عدلت عن حال التنكير فتعرفت بالعدل فهي لا تنصرف للعدل والتعريف. وقيل: للعدل والصفة». انتهى. وهذا الثاني هو المشهور، والأول قول لبعض الكوفيين. والظاهر: أن الملك الواحد من صنف له جناحان، وآخر ثلاثة، وآخر أربعة، وآخر أكثر من ذلك. لما روي: «أن لجبريل ستمائة جناح، منها اثنان يبلغ بهما المشرق إلى المغرب»، قال قتادة: «وأخذ الزمخشري يتكلم على كيفية هذه الأجنحة، وعلى صورة الثلاثة بما لا يجدي قائلًا يطالع ذلك في كتابه. وقالت فرقة: المعنى: أن في كل جانب من الملك جناحان، ولبعضهم ثلاثة، ولبعضهم أربعة، وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت في معتاد ما رأينا نحن من الأجنحة، وقيل: بل هي ثلاثة لواحد كما يوجد لبعض الحيوانات. والظاهر: أن المراد من الأجنحة: ما وضعت له في اللغة، وقال أبو عبد الله الرازي: «يزيل بحثه في قوله (الحمد لله فاطر السموات والأرض) وهو الذي حكينا عنه أن قوله (جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أقل ما يكون لذي الجناح إشارة إلى الجهة. وبيانه: أن الله ليس شيء فوقه، وكل شيء تحت قدرته ونعمته، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه، ويعطون من دونه مما أخذوه بإذن الله، كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] وقال تعالى في حقهم ﴿فالملدبرات أمراً﴾ [النازعات: ٥] فهما جناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيهم من له ثلاث جهات، ومنهم من له أربع جهات. وأكثر». انتهى. وبحثه في هذا وفي (فاطر السموات والأرض) بحث

عجيب . وليس على طريقة فهم العرب من مدلولات الألفاظ التي حملها ما حمل . والظاهر أن (مثنى) وما بعده من صفات الأجنحة . وقيل (أولي أجنحة) : معترض . و(مثنى) حال والعامل فعل محذوف يدل عليه (رسلاً) أي : يرسلون مثنى وثلاث ورباع . قيل : وإنما جعلهم أولي أجنحة ، لأنه لما جعلهم رسلاً جعل لهم أجنحة ، ليكون أسرع لنفاذ الأمر وسرعة إنفاذ القضاء فإن المسافة التي بين السماء والأرض لا تقطع بالأقدام إلا في سنين فجعلت لهم الأجنحة حتى ينالوا المكان البعيد في الوقت القريب كالطير . (يزيد في الخلق ما يشاء) تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب من خبر الملائكة أولي أجنحة . أي : ليس هذا ببدع في قدرة الله فإنه يزيد في خلقه ما يشاء . والظاهر : عموم الخلق . وقال الفراء : «هذا في الأجنحة التي للملائكة ، أي : يزيد في خلق الملائكة الأجنحة» . وقالوا في هذه الزيادة الخلق الحسن ، أو حسن الصوت ، أو حسن الخط ، أو لملاحة في العينين ، أو الأنف ، أو خفة الروح ، أو الحسن ، أو جعودة الشعر ، أو العقل ، أو العلم ، أو الصنعة ، أو العفة في الفقراء ، والحلاوة في الفم . وهذه الأقوال على سبيل التمثيل لا الحصر . والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق . وقد شرحوا هذه الزيادة بالأشياء المستحسنة . و(ما يشاء) عام لا يخص مستحسناً دون غيره . وختم الآية بالقدرة على كل شيء يدل على ذلك . والفتح والإرسال استعارة للإطلاق ف(لا مرسل له) مكان لا فاتح له . والمعنى : أي شيء يطلب الله من رحمة . أي : نعمة ورزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها . وما روي عن المفسرين المتقدمين من تفسير (رحمة) بشيء معين فليس على الحصر منه وإنما هو مثال ، قال الزمخشري : «وتنكير الرحمة للإشاعة والإيهام ، كأنه قال من أية رحمة كانت ، سهاوية أو أرضية ، فلا يقدر أحد على إمساكها وحبسها . وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه» انتهى . والعموم مفهوم من اسم الشرط . و(من رحمة) لبيان ذلك العام من أي صنف هو . وهو ما اجتزى فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرف المطابق في العموم لاسم الشرط ، وتقديره : من الرحمت . و(من) في موضع الحال . أي : كائناً من الرحمت ولا يكون في موضع الصفة ، لأن اسم الشرط لا يوصف . والظاهر : أن قوله (وما يمسك) عام في الرحمة وفي غيرها ، لأنه لم يذكر له تبيين ، فهو باق على العموم في كل ما يمسك . فإن كان تفسيره (من رحمة) وحذف لدلالة الأول عليه فيكون تذكير الضمير في (فلا مرسل له من بعده) حملاً على لفظ (ما) وأنت في (فلا يمسك لها) على معنى (ما) لأن معناها الرحمة . وقرىء (فلا مرسل لها) بتأنيث الضمير . وهو دليل على أن التفسير هو من رحمة وحذف لدلالة ما قبله عليه . وعن ابن عباس : «(من رحمة) من باب توبة (فلا يمسك لها) أي : يتوبون إن شأؤوا وإن أبوا وما يمسك من باب فلا مرسل له من بعده فهم لا يتوبون» . وعنه أيضاً (من رحمة) من هداية ، قال الزمخشري : «(فإن قلت : ) فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس؟ (قلت : ) أراد بالتوبة الهداية لها ، والتوفيق فيها ، وهو الذي أراده ابن عباس إن قاله فمقبول ، وإن أراد أنه (إن شاء أن يتوب العاصي تاب ، وإن لم يشأ لم يتب ، فمردود ، لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ، ولا يجوز عليه أن لا يشاء بها» . انتهى . وهو على طريقة الاعتزال (من بعده) هو على حذف مضاف ، أي : من بعد إمساكه كقوله ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ [الجاثية ٢٣] أي : من بعد إضلال الله إياه ، لأن قبله ﴿وأضل الله على علم﴾ [الجاثية ٢٣] كقوله ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ [الأعراف ١٨٦] وقدره الزمخشري من بعد هداية الله . وهو تقدير فاسد لا يناسب الآية . جرى فيه على طريقة الاعتزال . (وهو العزيز) الغالب القادر على الإرسال والإمساك (الحكيم) الذي يرسل ويمسك ما اقتضته حكمته . (يا أيها الناس) خطاب لقريش وهو متجه لكل مؤمن وكافر ولا سيما من عبد غير الله ، وذكرهم بنعمه في إيجادهم . و(اذكروا) ليس أمراً بذكر اللسان ولكن به وبالقلب وبحفظ النعمة من كفرانها وشكرها ، كقولك لمن أنعمت عليه : «اذكر أيادي عندك» تريد حفظها وشكرها والجميع مغمورون في نعمة الله . فالخطاب عام اللفظ وإن كان نزل ذلك بسبب قريش ، ثم استفهم على جهة التقرير (هل من خالق غير الله) أي : فلا إله إلا الخالق ما تعبدون أنتم من الأصنام . وقرأ ابن وثاب وشقيق وأبو جعفر وزيد بن علي وحمزة والكسائي (غير) بالخفض ، نعتاً على اللفظ ، و(من خالق) مبتدأ .

(يرزقكم) جوزوا أن يكون خبر للمبتدأ، وأن يكون صفته، وأن يكون مستأنفاً والخبر على هذين الوجهين محذوف. تقديره: لكم. وقرأ شيبه وعيسى والحسن وباقي السبعة (عَبْرُ) بالرفع. وجوزوا أن يكون نعتاً على الموضع كما كان الخبر نعتاً على اللفظ. وهذا أظهر، لتوافق القراءتين. وأن يكون خبراً للمبتدأ وأن يكون فاعلاً باسم الفاعل الذي هو (خالق) لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام فحسن إعماله، كقولك: أفأثم زيد في أحد وجهيه. وفي هذا نظر، وهو أن اسم الفاعل أو ما جرى مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجرى مجرى الفعل فرفع ما بعده هل يجوز أن تدخل عليه (مَنْ) التي للاستغراق، فتقول: هل من قائم الزيدون كما تقول: هل قائم الزيدون. والظاهر: أنه لا يجوز، ألا ترى أنه إذا جرى مجرى الفعل لا يكون فيه عموم خلافة إذا أدخلت عليه (من) ولا أحفظ مثله في لسان العرب وينبغي أن لا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلام العرب. وقرأ الفضل بن إبراهيم النحوي (عَبْرُ) بالنصب على الاستثناء والخبر إما (يرزقكم) وإما محذوف (ويرزقكم) مستأنف، وإذا كان (يرزقكم) مستأنفاً كان أولى لانتهاء صديق (خالق) على غير الله بخلاف كونه صفة، فإن الصفة تقيد فيكون ثم خالق غير الله لكنه ليس برازق. ومعنى (من السماء) بالمطر (والأرض) بالنبات (لا إله إلا هو) جملة مستقلة لا موضع لها من الإعراب (فأني يؤفكون) أي: كيف يصرفون على التوحيد إلى الشرك وإن يكذبوك) إلى (الأمور) تقدم الكلام على ذلك. (إن وعد الله حق) شامل لجميع ما وعد من ثواب وعقاب وغير ذلك. وقرأ الجمهور (الغُور) بفتح الغين. وفسره ابن عباس بالشیطان. وقرأ أبو حيوه وأبو السیال بضمها جمع غار أو مصدرأ، كقوله: ﴿فدلاهما بغرور﴾ [الأعراف: ٢٢] وتقدم الكلام على ذلك في آخر لقمان. (إن الشيطان لكم عدو) عداوته سبقت لابنا آدم، وأي عداوة أعظم من أن يقول في بنيه (لأغوينهم) أجمعين (ولأضلنهم)، فاتخذوه عدواً أي: بالمقاطعة والمخالفة باتباع الشرع. ثم بين أن مقصوده في دعاء حزبه إنما هو تعذيبهم في النار يشترك هو وهم في العذاب فهو حريص على ذلك أشد الحرص حتى يبين صدق قوله في (فالأغوينهم) (ولأضلنهم) لأن الاشتراك فيما يسوء مما قد يتسلى به بخلاف المنفرد بالعذاب. ثم ذكر الفريقين وما أعد لهما من العقاب والثواب وبدأ بالكفار، لمجاورة قوله (إنما يدعو حزبه) فأتبع خبر الكافر بحاله في الآخرة. قال ابن عطية: «واللام في (ليكون) لام الصيرورة، لأنه لم يدعهم إلى السعير إنما اتفق أن صار أمرهم، عن دعائه إلى ذلك». انتهى. ونقول: هو مما عبر فيه عن السبب بما تسبب عنه دعاؤهم إلى الكفر، وتسبب عنه العذاب. (والذين كفروا) (والذين آمنوا) مبتدآن وجوز بعضهم في (الذين كفروا) أن يكون في موضع خفض بدلاً من (أصحاب السعير) أو صفة، وفي موضع نصب بدلاً من (حزبه) وفي موضع رفع بدلاً من ضمير (ليكونوا) وهذا كله بمعزل من فصاحة التقسيم، وجزالة التركيب. (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) أي: فرأى سوء عمله حسناً. (ومن) مبتدأ موصول وخبره محذوف، فالذي يقتضيه النظر أن يكون التقدير: كمن لم يزين له كقوله: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾ [محمد: ١٤] ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ [الرعد: ١٩] ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢] ثم قال ﴿كمن مثله في الظلمات﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقاله الكسائي: أي: «تقديره تذهب نفسك عليهم حسرات لدلالة (فلا تذهب نفسك عليهم)». وقيل: التقدير: فرآه حسناً فأضله الله كمن هداه الله، فحذف ذلك لدلالة (فإن الله يضل من يشاء) وذكر هذين الوجهين الزجاج، وشرح الزخشرى هنا (يضل من يشاء) على طريقته في غير موضع من كتابه من أن الإضلال هو خذلانه وتحليلته وشأنه وأنى بالفاظ كثيرة في هذا المعنى، وقرأ الجمهور (أفمن زُين) مبنياً للمفعول (سوء) رفع، وقرأ عبيد بن عمير (زَيْنٌ لَهُ سُوءٌ) مبنياً للفاعل ونصب (سوء) وعنه أيضاً (أسوأ) على وزن أفعل منصوباً. (وأسوأ عمله) هو الشرك. وقراءة طلحة (أَمْنٌ) بغير فاء. قال صاحب اللوامح: «للاستخبار بمعنى العامة للتقرير. ويجوز أن يكون بمعنى حرف النداء فحذف التمام كما حذف من المشهور الجواب». انتهى. ويعني بالجواب خبر المبتدأ. وبالتمام: ما يؤدي لأجله. أي: تفكر وارجع إلى الله فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، تسلياً للرسول عن كفر قومه، ووجوب التسليم لله في

إضلاله من يشاء وهداية من يشاء. وقرأ الجمهور (فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ) مبنياً للفاعل من ذهب (ونفسك) فاعل، وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب وشيبة وأبو حيوة وحמיד والأعمش وابن محيصن (يُذْهَبُ) من أذهب مسند الضمير المخاطب (نفسك) نصب. ورويت عن نافع. والحسرة: هم النفس على فوات أمر. وانتصب (حسرات) على أنه مفعول من أجله. أي: فلا تهلك نفسك للحسرات. و(عليهم) متعلق بـ (تذهب) كما تقول: هلك عليه حياً ومات عليه حزناً. أو هو بيان للمتحسر عليه، ولا يتعلق بـ (حسرات) لأنه مصدر فلا يتقدم معموله. وقال الزمخشري: (١) «ويجوز أن يكون حالاً كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

مَشَقُّ الْهُوَاجِرِ لِحُمُومٍ مَعَ السُّرَى حَتَّى ذَهَبْنَ كَلَاكِلًا وَصُدُورًا<sup>(٢)</sup>

يريد: رجعت كلاكلاً. وصدوراً: أي: لم يبق إلا كلاكلها وصدورها ومنه قوله:

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسِي حَسْرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لِي سَقَامٌ<sup>(٣)</sup>

انتهى. وما ذكر من أن كلاكلاً وصدوراً حالان هو مذهب سيويه. وقال المبرد: «هو تمييز منقول من الفاعل. أي: حتى ذهبت كلاكلها وصدورها». ثم توعدهم بالعقاب على سوء صنعهم فقال (إن الله عليهم بما يصنعون) أي: فيجازيهم عليه.

«والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور، من كان يريد العزة لله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو بيور، والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير، وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، أن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير».

لما ذكر أشياء من الأمور السأوية وإرسال الملائكة، ذكر أشياء من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها. وفي هذا احتجاج على منكري البعث، دهم على المثال الذي يعاينونه، وهو وإحياء الموتى سيان. وفي الحديث: أنه قيل لرسول الله - ﷺ - كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: هل مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهتر خضراً فقالوا: نعم. فقال: فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه<sup>(٤)</sup>. قيل: (أرسل) في معنى يرسل ولذلك عطف عليه (فتثير) وقيل: جيء بالمضارع، حكاية حال يقع فيها إثارة الرياح السحاب ويستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية،

(١) انظر الكشاف ٦٠٠/٣.

(٢) من الكامل انظر ديوانه (٣٥٣)، الكتاب (١٦٢/١)، روح المعاني (١٧٠/٢٢)، القرطبي (٢٠٨/١٤).

(٣) لم نهند لقائله انظر القرطبي (٢٠٩/١٤) الكشاف (٢٣٩/٢) روح المعاني (١٧٠/٢٢).

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤٧٦/٦.



ومنه ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ [الحج : ٦٣]، قال الزمخشري : «وكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز خصوصية بحال يستغرب أو يتهم المخاطب أو غير ذلك، كما قال تأبط شرأ :

بَأَنِّي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوِي بِشُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحَصَحَانَ (١)  
فَأُضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرْتُ صَرِيعاً لِّلْيُدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي يشجع فيها ابن عمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدةً للتعجب من جراته على كل هول وثباته عند كل شدة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة. قيل : فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه» انتهى . وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : «أي : أرسل بلفظ الماضي لما أسند إلى الله وما يفعله تعالى بقوله (كن) لا يبقى زماناً ولا جزء زمان، فلم يأت بلفظ المستقبل، لوجوب وقوعه وسرعة كونه، ولأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة، وإلى المواضع المعينة، ولما أسند الإثارة إلى الريح وهي تؤلف في زمان قال (فتشير) وأسند (أرسل) إلى الغائب وفي (فسقناه) و(فأحيينا إلى المتكلم) لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال، ثم لما عرف قال : أنا الذي عرفتي سقت السحاب فأحييت الأرض. ففي الأول تعريف بالفعل العجيب وفي الثاني تذكير بالبعث. و(فسقناه) و(فأحيينا) بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرنا من الفرق بين (فتشير) و(أرسل)» انتهى . وهذا الذي ذكر من الفرق بين (أرسل) و(فتشير) لا يظهر ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الروم ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ [الروم : ٤٨] في الأعراف ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته﴾ [الأعراف : ٥٧] كيف جاء في الإرسال بالمضارع، وإنما هذا من التنفن في الكلام والتصرف في البلاغة. وأما الخروج من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه فهو من باب الالتفات. وكذلك ما في الأعراف ﴿فسقناه إلى بلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ [الأعراف : ٥٧] وأما قوله : «وما يفعله تعالى إلى آخره». وكل فعل وإن كان أسند إلى غيره مجاز، فهو فعله حقيقة فلا فرق بين ما يسنده إلى ذاته وبين ما يسند إلى غيره، لأن جميع ذلك هو إيجاد وخلقه، و(النشور) مصدر نشر الميت إذا أحيى، قال الأعمش :

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يَا عَجَباً لِمَيِّتِ النَّاشِرِ (٢)

و(النشور) مبتدأ والجار والمجرور قبله في موضع الجر، والتشبيه وقع لجهات لما قبلت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة، أو كما أن الريح يجمع قطع السحاب كذلك تجمع أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء أو كما يسوق الرياح والسحاب إلى البلد الميت يسوق الروح والحياة إلى البدن. (من كان يريد العزة) أي : المغالبة (فله العزة) أي : ليست لغيره ولا تتم إلا به والمغالب مغلوب. ونحا إليه مجاهد وقال : «من كان يريد العزة بعبادة الأوثان». وهذا تمثيل لقوله : ﴿واتخذوا من دون الله آهة ليكونوا لهم عزاً﴾ [مريم : ٨١] وقال قتادة : «من كان يريد العزة وطريقها القويم، ويجب نيلها، فله العزة أي : به وعن أمره لا تنال عزته إلا بطاعته». وقال الفراء : «من كان يريد علم العزة فله العزة. أي : هو المتصف بها». وقيل : من كان يريد العزة. أي : لا يعقبها ذلة ويصار بها للذلة. وقال الزمخشري : «كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل : ﴿واتخذوا من دون الله آهة ليكونوا لهم عزاً﴾ [مريم : ٨١] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطاة قلوبهم، كانوا يتعززون بالمشركين كما قال : ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن

(١) انظر البيهقي في القرطبي (٢٠٩/١٤) والكشاف (٢٣٩/٢) روح المعاني (١٧١/٢٢).

(٢) انظر ديوانه (٩٢) وانظر روح المعاني (١٧٢/٢٢).

العزة لله جميعاً ﴿ [النساء : ١٣٩] فيبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه . وقال ﴿ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨] انتهى . ولا تنافي بين قوله ﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾ وإن كان الظاهر أنها لا له لغيره وبين قوله ﴿ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨] وإن كان يقتضي الاشتراك ، لأن العزة في الحقيقة لله بالذات ، وللرسول بواسطة قربه من الله ، وللمؤمنين بواسطة الرسول . فالمحكوم عليه أولاً غير المحكوم عليه ثانياً . و (مَنْ) اسم شرط وجملة الجواب لا بد أن يكون فيها ضمير يعود على اسم الشرط إذا لم يكن ظرفاً . والجواب محذوف . تقديره على حسب تلك الأقوال السابقة . فعلى قول مجاهد ، فهو مغلوب . وعلى قول قتادة ، فيطلبها من الله ، وعلى قول الفراء ، فلينسب ذلك إلى الله . وعلى القول الرابع فهو لا ينالها ، وحذف الجواب استغناء عنه بقوله ﴿ فإله العزة جميعاً ﴾ لدلالته عليه . والظاهر من هذه الأقوال قول قتادة فيطلبها من العزة له يتصرف فيها كما يريد ، كما قال تعالى : ﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ [آل عمران : ٢٦] وانتصب (جميعاً) على المراد والمراد عزة الدنيا وعزة الآخرة . و(الكلم الطيب) التوحيد والتحميد وذكر الله ونحو ذلك . وقال ابن عباس : « شهادة أن لا إله إلا الله » . وقيل : ثناء بالخير على صالحي المؤمنين . وقال كعب : « إن لسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لدويماً حول العرش كدوي النحل بذكر صاحبها » . وقرأ الجمهور (يُصعد) مبنياً للفاعل من صعد (الكلم الطيب) مرفوعاً فـ (الكلم) جمع كلمة ، وقرأ علي - وابن مسعود والسلمي وإبراهيم (يصعد) من أصد الكلام الطيب على البناء للمفعول ، انتهى . - وقرأ زيد بن علي (يصعد) من صعد الكلام رقي : وصعود الكلام إليه تعالى مجاز في الفاعل وفي المسمى إليه ، لأنه تعالى ليس في جهة ، ولأن الكلم ألفاظ لا توصف بالصعود ، لأن الصعود من الأجرام يكون وإنما ذلك كناية عن القبول ووصفه بالكمال كما يقال علا كعبه وارتفع شأنه . ومنه ترافعوا إلى الحاكم ورفع الأمر إليه وليس هناك علو في الجهة . وقرأ الجمهور (والعمل الصالح) يُرفعهما فـ (العمل) مبتدأ و(يرفعه) الخبر . وفاعل (يرفعه) ضمير يعود على (العمل الصالح) وضمير النصب يعود على (الكلم) أي : يرفع الكلم الطيب قاله ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد والضحاك . وقال الحسن : « يعرض القول على الفعل فإن وافق القول الفعل قبل وإن خالف رد » . وعن ابن عباس نحوه قال : « إذا ذكر الله العبد وقال كلاماً طيباً وأدى فرائضه ارتفع قوله مع عمله وإذا قال ولم يؤد فرائضه رد قوله على عمله » . وقيل : عمله أولى به . قال ابن عطية : « وهذا قول يريده معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس . والحق أن القاضي لفرائضه إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له ، متقبل وله حسناته ، وعليه سيئاته والله يتقبل من كل من اتقى الشرك » . وقال أبو صالح : وشهر بن حوشب : عكس هذا القول : « ضمير الفاعل يعود على (الكلم) وضمير النصب على (العمل الصالح) أي : يرفعه الكلم الطيب » ، وقال قتادة : « إن الفاعل هو ضمير يعود على الله والهاء للعمل الصالح . أي : يرفعه الله إليه . أي : يقبله » . وقال ابن عطية : هذا أرجح الأقوال . وعن ابن عباس : « والعمل الصالح يرفع عامله ويشرفه » . فجعله على حذف مضاف . ويجوز عندي أن يكون (العمل) معطوفاً على (الكلم الطيب) أي : يصعدان إلى الله . و(يرفعه) استئناف إخبار أي : يرفعهما الله . ووحده الضمير لاشتراكهما في الصعود والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة فيكون لفظه مفرداً والمراد به التثنية ، فكأنه قيل : ليس صعودهما من ذاتهما بل ذلك برفع الله إياهما . وقرأ عيسى وابن أبي عملة و(العمل الصالح) بنصبها على الاشتغال . فالفاعل ضمير (الكلم) أو ضمير الله . و(مكر) لازم و(السيئات) نعت لمصدر محذوف . أي : المكرات السيئات . أو المضاف إلى المصدر . أي : أضاف المكر إلى السيئات . أو ضمن (يمكرون) معنى يكتسبون ، فنصب (السيئات) مفعولاً به ، وإذا كانت (السيئات) نعتاً لمصدر أو لمضاف لمصدر فالظاهر أنه عنى به مكرات فريش في دار الندوة إذ تذاكروا إحدى ثلاث مكرات وهي المذكورة في الأنفال إثباته ، أو قتله ، أو إخراجة . و(أولئك) إشارة إلى الذين مكروا تلك المكرات ، (يبور) أي : يفسد وهلك دون مكر الله بهم إذ أخرجهم من مكة ، وقتلهم وأثبتهم في قلب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً ، وحقق فيهم قوله : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال : ٣٠] وقوله : ﴿ ولا يحق المكر السبيء إلا بأهله ﴾ [فاطر : ٤٣] و(هو) مبتدأ و(يبور) خبره . والجملة خبر عن قوله (ومكر أولئك) وأجاز الحوفي وأبو البقاء :

أن يكون (هو) فاصلة . (ويور) خبر (ومكر أولئك) والفاصل لا يكون ما بعدها، فعلاً. ولم يذهب إلى ذلك أحد فيما علمناه إلا عبد القاهر الجرجاني في شرح الإيضاح له فإنه أجاز في: كان زيد هو يقوم أن يكون هو فصلاً وردّ ذلك عليه، (والله خلقكم من تراب) من حيث خلق أينا آدم (ثم من نطفة) أي: بالتناسل (ثم جعلكم أزواجاً) أي: أصنافاً ذكراً وإناً، كما قال: ﴿أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرَانًا وَإِنثَانًا﴾ [الشورى: ٤٩] وقال قتادة: «قدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم بعضاً» (ومن) في (من مُعَمَّرٌ زائدة، وسماه بما يؤول إليه وهو الطويل العمر. والظاهر أن الضمير في (مِنْ عُمُرِهِ) عائد على (مُعَمَّرٌ) لفظاً ومعنى. وقال ابن عباس وغيره: «يعود على (معمر) الذي هو اسم جنس، والمراد غير الذي يعمر، فالقول تضمن شخصين يعمر أحدهما مائة سنة وينقص من الآخر. وقال ابن عباس أيضاً وابن جبير وأبو مالك». المراد شخص واحد. أي يحصي ما مضى منه إذا مر حول كتب ذلك ثم حول فهذا هو النقص وقال الشاعر:

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدُّ فَكُلَّمَا مَضَى نَفْسٌ مِنْكَ انْتَقَصَتْ بِهِ جُزْءٌ<sup>(١)</sup>

وقال كعب الأحبار: «معنى (ولا ينقص من عمره) لا يخترم بسببه قدرة الله ولو شاء لأخر ذلك السبب». وروي أنه قال: «لما طعن عمر رضي الله عنه: «لودعا الله لزداد في أجله، فأنكر المسلمون عليه ذلك وقالوا: إن الله تعالى يقول (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فاحتج بهذه الآية». قال ابن عطية: «وهو قول ضعيف مردود يقتضي القول بالأجلين وبنحوه تمسك المعتزلة». وقرأ الجمهور (ولا يُنْقَصُ) مبنياً للمفعول وقرأ يعقوب وسلام وعبد الوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو (ولا يُنْقَصُ) مبنياً للفاعل، وقرأ الحسن من عمره (إلا في كتاب) قال ابن عباس: «هو اللوح المحفوظ»، وقال الزمخشري: «يجوز أن يراد بكتاب الله علم الله أو صحيفة الإنسان». انتهى. (وما يستوي البحران) هذه آية أخرى يستدل بها على كل عاقل أنه مما لا مدخل لصنم فيه، وتقدم شرح (هذا عذب فرات) وشرح (وهذا ملح أجاج) في سورة الفرقان. وهنا بين القسمين صفة للعرب وبين قوله (سائغ شرابه)، وقرأ الجمهور (سائغ) اسم فاعل من ساع، وقرأ عيسى (سَيْغ) على وزن فيعل كميت. وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم. وقرأ عيسى أيضاً (سَيْغ) مخففاً من المشدّد كميت مخفف ميت، وقرأ الجمهور (مَلِح) وأبو نبيك وطلحة بفتح الميم وكسر اللام. وقال أبو الفضل الرازي: «وهي لغة شاذة، ويجوز أن يكون مقصوداً من مالح فحذف الألف تخفيفاً، وقد يقال: ماء ملح في الشدوذ وفي المستعمل مملوح». وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «ضرب البحرين - العذب والملح - مثلين للمؤمن والكافر ثم قال على صفة الاستطراد في صفة البحرين وما علق بها من نعمته وعطائه ومن كل من شرح الزمخشري<sup>(٣)</sup> ألفاظاً من الآية تكررت في سورة النحل، ثم قال: ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجري الفلك فيه، وللکافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة ٧٤] الآية» انتهى. (لتبتغوا من فضله) يريد التجارات والحج والغزو، أو كل سفر له وجه شرعي. (يولج الليل في النهار) تقدم شرح هذه الجملة. ولما ذكر أشياء كثيرة تدل على قدرته الباهرة من إرسال الرياح، والإيجاد من تراب وما عطف عليه وإبلاج الليل في النهار، وتسخير الشمس والقمر. أشار إلى أن المتصف بهذه الأفعال الغريبة هو الله فقال (ذلكم الله ربكم له الملك) وهي أخبار مترادفة. والابتداء (ذلكم) (والله ربكم) خبران. (وله الملك) جملة مبتدأ في قران قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير)، قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: «ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة

(١) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون، وذكر الألويسي في روح المعاني (١٧٧/٢٢).

(٢) انظر الكشاف ٣/٦٠٤.

(٣) انظر الكشاف ٣/٦٠٥.

(٤) انظر الكشاف ٣/٦٠٥.

وعطف بيان. و(ربكم) خبر لولوا أن المعنى يأباه». انتهى. أما كونه صفة فلا يجوز، لأن الله علم والعلم لا يوصف به، وليس اسم جنس كالرجل فتتحيل فيه الصفة. وأما قوله «لولوا أن المعنى يأباه». فلا يظهر أن المعنى يأباه، لأنه يكون قد أخبر بأن المشار إليه بتلك الصفات والأفعال المذكورة (ربكم) أي: مالكم أو مصلحكم، وهذا معنى لائق سائغ (والذين يدعون من دونه) هي الأوثان. وقرأ الجمهور (تدعون) بناء الخطاب. وعيسى وسلام ويعقوب بياء الغيبة، وقال صاحب «الكامل» أبو القاسم بن جبارة (يدعون) بالياء اللؤلؤي عن أبي عمرو وسلام والهاوندي عن قتيبة وابن الجلاء عن نصير وابن حبيب وابن يونس عن الكسائي وأبو عمار عن حفص. و(القطمير) تقدم شرحه، وقال جويسر عن رجاله والضحاك: «هو القمع»<sup>(١)</sup> الذي في رأس التمرة. وقال مجاهد: «لغافة النواة». وقيل: «الذي بين قمع التمرة والنواة». وقيل: قشر الثوم. وأياما كان فهو تمثيل للقليل. وقال الشاعر:

وَأَبُوكَ يَخْفِفُ نَعْلَهُ مُتَوَرِّكًا      مَا يَمْلِكُ الْمَسْكِينُ مِنْ قَطْمِيرٍ<sup>(١)</sup>

(لا يسمعون دعاءكم) لأنهم جهاد (ولو سمعوا) هذا على سبيل الفرض (ما استجابوا لكم) لأنهم لا يدعون لهم من الإلهية ويتبرؤون منها. وقيل: ما نفعوكم. وأضاف المصدر في (شرككم) أي: بإشراككم لهم مع الله في عبادتكم إياهم كقوله: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ [يونس: ٢٨] فهي إضافة إلى الفاعل. وقوله (يكفرون) يحتمل أن يكون بما يظهر هنالك من جودها وبطئها عند حركة ناطق ومدافعة كل محتج فيجيء هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لَمِيَّةٍ نَاطِقٍ      تُخَاطِبُنِي آثَارُهُ وَأَخَاطِبُهُ<sup>(٢)</sup>  
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُتُّهُ      تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ<sup>(٣)</sup>

(ولا يبتك مثل خبير)، قال قتادة وغيره من المفسرين «(الخبير) هنا أراد به تعالى نفسه، فهو الخبير الصادق الخبير، نبأ بهذا فلا شك في وقوعه». قال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون قوله (ولا يبتك مثل خبير) من تمام ذكر الأصنام، كأنه قال: فلا يخبرك مثل من يخبرك عن نفسه. أي: لا يصدق في تبرئها من شرككم منها فيريد بالخبير على هذا المثل لها، كأنه قال (ولا يبتك مثل خبير) عن نفسه، وهي قد أخبرت عن نفسها بالكفر بهؤلاء. وقال الزمخشري: «لا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، يريد: أنا الخبير بالأمر هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق، لأنني خبير بما أخبر به. وقال في التجريد: «يحتمل وجهين، أن يكون ذلك خطاباً للرسول لما أخبر بأن الحشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده، وهو أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله عنه، قال تعالى (إنهم برهيم يكفرون) أي يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون المخبر عنه أمراً عجبياً هو كما قال لأن المخبر عنه خبير. والثاني: أن يكون خطاباً ليس مختصاً بأحد. أي: هذا الذي ذكر هو كما ذكر لا يبتك أيها السامع كائناً من كنت مثل خبير.

﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز، ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتركى لنفسه وإلى الله المصير، وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور، إن أنت إلا

(١) القمع: انظر لسان العرب (١/٣٧٤١).

(٢) لم نهند لقائله وذكره السمين في الدر المنثور، انظر روح المعاني (٢٢/١٨٢).

(٣) انظر البيتين في روح المعاني (٢٢/١٨٣).

(٤) انظر القرطبي ١٤/٢١٤، ٢١٥.

نذير، إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير، وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءهم رسلكم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير.\*

هذه آية موعظة وتذكير، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم لا يستغني أحد عنه طرفه عين وهو الغني عن العالم على الإطلاق، وعرف (الفقراء) ليربهم شديد افتقارهم إليه، إذ هم جنس الفقراء وإن كان العالم بأسره مفتقراً إليه فلضعفهم جعلوا كأنهم جميع هذا الجنس ولو نكر لكان المعنى (أنتم) يعني الفقراء. وقوبل الفقراء بالغني، ووصف بالحميد، دلالة على أنه جواد منعم، فهو محمود على ما يسديه من النعم، مستحق للحمد. ولما ذكر أنه الغني على الإطلاق ذكر ما يدل على استغنائه عن العالم وأنه ليس بمحتاج إليهم فقال (إن يشأ يذهبكم) أي: إن يشأ إذهبكم يذهبكم. وفي هذا وعيد بإهلاكهم. (وما ذلك) أي: إذهبكم والإتيان بخلق جديد (بعزير) أي: بممتنع عليه إذ هو المتصف بالقدرة التامة فلا يمتنع عليه شيء مما يريد. ومعنى (بخلق جديد) بدلکم لقله: ﴿وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ [محمد: ٣٨]، وعن ابن عباس: «يخلق بعدكم من يعبد لا يشرك به شيئاً» وقد جاء هذا المعنى من ذكر الإذهب بعد وصفه تعالى بالغني في قوله تعالى ﴿وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشأ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وجاء أيضاً تعليق الإذهب محتوماً آخر الآية بذكر القدرة الدالة على ذلك في قوله: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ [النساء: ١٣٣]، روي أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: «اكفروا بمحمد وعليّ وزركم». فنزلت. وأخبر تعالى لا يحمله أحد عن أحد، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «هذه الآية في الذنوب والجرائم». ويقال: وزر الشيء حمله. (وإزرة) صفة لمحذوف. أي: نفس وإزرة حاملة، وذكر الصفة ولم يذكر الموصوف مقتصراً عليه، لأن المعنى: أن كل نفس لا ترى إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها فلا يؤاخذ نفساً بذنب نفس كما يأخذ جبابرة الدنيا الجار بالجار والصديق بالصديق والقريب بالقرب. وقال ابن عطية: «ومن تطرف من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه في جريمة كفعل زياد ونحوه فإنما ذلك ظلم، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بموازرة ومواصلة أو اطلاع على حاله وتقرير لها فهو قد أخذ من الجرم نصيب». انتهى. وكان ابن عطية تأول أفعال زياد وما فعل في الإسلام وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجاج، ولا منافاة بين هذه الآية والتي في العنكبوت، لأن تلك في الضالين المضلين يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم فكل ذلك أثقالهم ما فيها من ثقل غيرهم شيء ألا ترى ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ [العنكبوت: ١٢] (وإن تدع مثقلة) أي: نفس مثقلة بحملها ﴿إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾ [فاطر: ١٨] أي: لا غياث يومئذ لمن استغاث ولا إعانة حتى إن نفساً قد أثقلت الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وزرها لم تجب وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فالآية قبلها في الدلالة على عدل الله في حكمه، وأنه لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها. وهذه في نفي الإعانة، والحمل: ما كان على الظهر في الأجرام فاستعير للمعاني كالذنوب ونحوها، فيجعل كل محمول متصلاً بالظهر، كقوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: ٣١] كما جعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد، وقرأ الجمهور (لَا يُحْمَلُ) بالياء مبنياً للمفعول. وأبو السمال عن طلحة وإبراهيم بن زاذان عن الكسائي بفتح التاء من فوق وكسر الميم. وتقتضي هذه القراءة نصب (شيء) كما اقتضت قراءة الجمهور رفعه، والفاعل بـ (يحمل) ضمير عائد على مفعول (تدع) المحذوف. أي: وإن تدع مثقلة نفساً أخرى إلى حملها لم تحمل منه شيئاً واسم كان ضمير يعود على المدعو المفهوم من قوله (وإن تدع) هذا معنى قول الزمخشري<sup>(١)</sup>. قال: «وترك المدعو ليعم ويشمل كل مدعو. قال (فإن قلت): فكيف استفهام إضمار ولا يصح أن يكون العام ذا قرين للمثقل؟ (قلت): هو من العموم الكائن على طريق البدل». انتهى. وقال

ابن عطية: «واسم كان مضمراً تقديره ولو كان». انتهى. أي: ولو كان الداعي ذا قرى من المدعو فإن المدعول يحمل منه شيئاً، وذكر الضمير حملاً على المعنى، لأن قوله (مثقلة) لا يريد به مؤنث المعنى فقط، بل كل شخص، فكأنه قيل: وإن تدع شخصاً مثقلاً. وقرئ (ولو كان ذو قرى) على أن (كان) تامة، أي: ولو حضر إذ ذاك ذو قرى ودعته لم يحمل منه شيئاً، وقالت العرب: «قد كان لين». أي: حضر وحدث. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إذا دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه وإن كان مدعوها ذا قرى وهو معنى صحيح ملتئم. ولو قلت: ولو وجد ذو قرى، لتفكك وخرج عن اتساقه والثامه». انتهى، وهو نسق ملتئم على التقدير الذي ذكرناه. وتفسيره (كان) وهو مبني للفاعل (يؤخذ) المبني للمفعول تفسير معنى وليس مرادفاً. ومرادفه حدث أو حضر أو وقع هكذا فسره النحاة. ولما سبق ما تضمن الوجود وبعض أهوال القيامة كان ذلك إنذاراً فذكر أن الإنذار إنما يجدي وينفع من يخشى الله (بالغيب) حال من الفاعل أو المفعول. أي: يخشون ربهم غافلين عن عذابه، أو يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: (بالغيب) في السر. وقيل: بالغيب. أي: وهو بحال غيبه عنهم إنما هي رسالة. وقرأ الجمهور (ومن تزكى) فعلاً ماضياً (فإنما يتزكى) فعلاً مضارعاً. تزكى: أي ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي فإنما ثمرة ذلك عائدة عليه، وهو إنما زكاته لنفسه لا لغيره. والتزكي: شامل للخشية وإقامة الصلاة. وقرأ العباس عن أبي عمرو (ومن يزكى فإنما يزكى) بالياء من تحت وشد الزاي فيها وهما مضارعان أصلهما ومن يتزكى. أدغمت التاء في الزاي كما أدغمت في الذال في قوله ﴿يذكرون﴾ [الأعراف ٢٦]، وقرأ ابن مسعود وطلحة (ومن أزكى) بإدغام التاء في الزاي واجتلاب همزة الوصل في الابتداء. وطلحة أيضاً (فإنما يزكى) بإدغام التاء في الزاي. (وإلى الله المصير) وعد لمن يزكى بالثواب (وما يستوي الأعمى والبصير) الآية هي طعن على الكفرة وتمثيل، فالأعمى: الكافر والبصير: المؤمن. أو الأعمى: الصنم، والبصير: الله عز وجل، وعلا، أي: لا يستوي معبودهم ومعبود المؤمنين (والظلمات) و(النور) و(الظل) و(الحرور) تمثيل للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب. و(الأحياء) و(الأموات) تمثيل لمن دخل في الإسلام ومن لم يدخل فيه. و(الحرور) شدة حر الشمس. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «و(الحرور) السموم إلا أن السموم تكون بالنهار وليس كما قال، وإنما الأمر كما حكى الفراء وغيره أن السموم يختص بالنهار، ويقال: الحرور في حر الليل وفي حر النهار» انتهى. ولا يرد على رؤية، لأنه منه تؤخذ اللغة فأخبر عن لغة قومه. وقال قوم: (الظل) هنا الجنة و(الحرور) جهنم. و(يستوي) من الأفعال التي لا تكتفي بفاعل واحد فدخول لا في النفي لتأكيد معناه لقوله ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ [فصلت: ٣٤]، وقال ابن عطية: «دخول لا إنما هو على هيئة التكرار، كأنه قال (ولا الظلمات والنور ولا النور والظلمات) فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ودل مذكور الكلام على متروكه» انتهى. وما ذكر غير محتاج إلى تقديره، لأنه إذا نفى استواء الظلمات والنور فأى فائدة في تقدير نفي استوائها ثانياً. ادعاء محذوفين وأنت تقول: ما قام زيد ولا عمرو فتؤكد بلا معنى النفي فكذلك هذا. وقرأ زاذان عن الكسائي (وما تستوي الأحياء) بناء التأنيث. والجمهور بالياء. وترتيب هذه المنفي عنها الاستواء في غاية الفصاحة، وذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر. ثم البصير ولو كان حديد النظر لا يبصر إلا في ضوء، فذكر ما هو فيه الكافر من ظلمة الكفر وما هو فيه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مألها وهو الظل وهو أن المؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعيب. ثم ذكر مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير إذ الأعمى قد يشارك البصير في إدراك ما والكافر غير مدرك إدراكاً نافعاً فهو كالليت ولذلك أعاد الفعل فقال (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) كأنه جعل مقام سؤال وكرر (لا) فيها ذكر، لتأكيد المنافاة.

(١) انظر الكشف ٣/٦٠٧.

(٢) انظر الكشف ٣/٦٠٨.

فالظلمات تنافي النور وتضاده، والظل والحرور كذلك، والأعمى والبصير ليس كذلك، لأن الشخص الواحد قد يكون بصيراً ثم يعرض له العمى فلا منافاة إلا من حيث الوصف. والمنافاة بين الظل والحرور دائمة، لأن المراد من (الظل) عدم الحر والبرد، فلما كانت المنافاة أتم أكد بالتكرار. وأما الأحياء والأموات من حيث إن الجسم الواحد يكون محلاً للحياة فيصير محلاً للموت، فللنفاة بينهما أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، لأن هذين قد يشتركان في إدراك ما ولا كذلك الحي والميت يخالف الحي في الحقيقة لا في الوصف على ما بين في الحكمة الإلهية، وقدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحر وآخر في مثلين وهما البصير والنور، ولا يقال لأجل السجع، لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ، بل فيه وفي المعنى. والشاعر قد يقدم ويؤخر لأجل السجع والقرآن المعنى صحيح واللفظ فصيح، وكانوا قبل المبعث في ضلالة فكانوا الكعوى وطريقهم الظلمة، فلما جاء الرسول واهتدى به قوم صاروا بصيرين وطريقهم النور، وقدم ما كان متقدماً من المتصف، بالكفر وطريقته على ما كان متأخراً من المتصف بالإيمان وطريقته، ثم لما ذكر المال والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب كما جاء: «سبقت رحمتي غضبي» فقدم الظل على الحرور. ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق فقال (وما يستوي الأحياء) الذين آمنوا بما أنزل الله (ولا الأموات) الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافر. وأفرد الأعمى والبصير، لأنه قابل الجنس بالجنس إذ قد يوجد في أفراد العميان ما يساوي به بعض أفراد البصراء كأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البصير البليد، فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد. وجمعت الظلمات، لأن طرق الكفر متعدّدة، وأفرد النور، لأن التوحيد والحق واحد والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد فقال الظلمات لا تجد فيها ما يساوي هذا النور. وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً، فذكر أن الأحياء لا يساؤون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أم قابلت الفرد بالفرد». انتهى. من كلام أبي عبد الله الرازي، وفيه بعض تلخيص.

ثم سلى رسوله بقوله (إن الله يسمع من يشاء) أي: إسماع هؤلاء منوط بمشيئتنا. وكفي بالإسراع عن الذي تكون عنه الإجابة للإيمان. وذا ذكر أنه ما يستوي الأحياء ولا الأموات قال (وما أنت بمسمع من في القبور) أي: هؤلاء من عدم إصغائهم إلى سمع الحق بمنزلة من هم قد ماتوا فأقاموا في قبورهم، فكما أن من مات لا يمكن أن يقبل منك قول الحق فكذلك هؤلاء لأنهم أموات القلوب. وقرأ الأشهب والحسن (بمسمع من) على الإضافة، والجمهور بالتثنية. (إن أنت إلا نذير) أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المنذر ممن أراد الله هدايته سمع واهتدى وإن كان ممن أراد الله ضلاله فما عليك لأنه تعالى هو الذي يهدي ويضل. و(بالحق) حال من الفاعل. أي: محق أو من المفعول، أي: محققاً، أو صفة لمصدر محذوف. أي: إرسالاً بالحق. أي: مصحوباً. قال الزمخشري: «أو صلة (بشير) و(نذير) ف (نذير) على (بشير) بالوعد الحق و(نذير) بالوعيد». انتهى. ولا يمكن أن يتعلق بالحق هذا بشير ونذير معاً، بل ينبغي أن يتأول كلامه على أنه أراد أن ثم محذوفاً. والتقدير: بالوعد الحق بشيراً وبالوعد الحق نذيراً. فحذف المقابل للدلالة مقابله عليه (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) الأمة: الجماعة الكثيرة، والمعنى: أن الدعاء إلى الله لم ينقطع عن كل أمة إما مباشرة من أنبيائهم وما ينقل إلى وقت بعثة محمد - ﷺ - والآيات التي تدل على أن قريشاً ما جاءهم نذير. معناه: لم يباشروهم ولا أبأوهم القريين. وأما أن النذارة انقطعت فلا، ولما شرعت آثار النذارة تدرس بعث الله محمداً - ﷺ - وما ذكره أهل علم الكلام من حال أهل الفترات فإن ذلك على حسب العرض لأنه واقع ولا توجد أمة على وجه الأرض إلا وقد علمت الدعوة إلى الله وتعبادته. واكتفى بذكر (نذير) عن بشير، لأنها مشفوعة بها في قوله (بشيراً ونذيراً) فدل ذلك على أنه مراد وحذف للدلالة عليه، (وإن يكذبوك) مسلاة للرسول - ﷺ - وتقدم الكلام على نظير هذه الجمل في أواخر آل عمران وقوله (فكيف كان تكثير) توعدهم لقريش بما جرى لمكذبي رسلكم.

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور، إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور، والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه إن الله بعباده خبير بصير، ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير، جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾.

لما قرر تعالى وحدانيته بأدلة قهرها وأمثال ضربها أتبعها بأدلة مساوية وأرضية فقال (ألم تر) وهذا الاستفهام تقريري ولا يكون إلا في الشيء الظاهر جداً. والخطاب للسامع و(تر) من رؤية القلب، لأن إسناد إنزاله تعالى لا يستدل عليه إلا بالعقل الموافق للنقل وإن كان إنزال المطر مشاهداً بالعين لكن رؤية القلب قد تكون مسندة لرؤية البصر ولغيرها. وخرج من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله (فأخرجنا) لما في ذلك من الفخامة إذ هو مسند للمعظم المتكلم، لأن نعمة الإخراج أتم من نعمة الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى ذاته بضمير المتكلم وما دونه بضمير الغائب. والظاهر أن الألوان إن أريد بها ما يتبادر إليه الذهن من الحمرة والصفرة والخضرة والسواد وغير ذلك. والألوان بهذا المعنى أوسع وأكثر من الألوان بمعنى الأصباغ. وقرأ الجمهور (مختلفاً ألوانها) على حد اختلاف ألوانها. وقرأ زيد بن علي (مختلفة ألوانها) على حد اختلفت ألوانها وجمع التفسير يجوز فيه أن تلحق الناء وأن لا تلحق. وقرأ الجمهور (جُدُد) بضم الجيم وفتح الدال جمع جدة. قال ابن بحر: «فقطع من قولك جددت الشيء قطعتة». وقرأ الزهري كقراءة الجمهور. قال صاحب اللوامح: «جمع جدة وهي ما تخالف من الطريق في الجبال لون ما يليها. وعنه أيضاً بضم الجيم والدال جمع جديدة وجدد وجدائد كما يقال في الاسم سفينة وسفن وسفائن. قال أبو ذؤيب:

جَوْنُ السَّرَاةِ أَمْ جَدَائِدُ أُرْبَعُ<sup>(١)</sup>

وعنه أيضاً بفتح الجيم والدال ولم يجزه أبو حاتم في المعنى ولا صححه أثراً. وقال غيره: هو الطريق الواضح المين، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض. وقال أبو عبيدة: «يقال: جدد في جمع جديد، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية». وقال صاحب اللوامح: «جدد جمع جديد بمعنى آثار جديدة واضحة الألوان». انتهى. وقال (مختلف ألوانها) لأن البياض والحمرة تتفاوت بالشدة والضعف فأبيض لا يشبه أبيض وأحمر لا يشبه أحمر وإن اشتركا في القدر المشترك لكنه مشكل. والظاهر عطف (وغرايب) <sup>(٢)</sup> على (حمر) عطف ذي لون على ذي لون. وقال الزمخشري: «معطوف على (بيض) أو على (جدد) كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد. وقال بعد ذلك: ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله (ومن الجبال جدد) بمعنى ذو جدد (بيض وحمر) وسود حتى تؤول إلى قولك (ومن الجبال مختلف ألوانه) كما قال (ثمرات مختلفاً ألوانها) (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه. وقرأ ابن السميع (ألوانها) انتهى. والظاهر: أنه لما ذكر الغرايب - وهو الشديد السواد - لم يذكر فيه (مختلف ألوانه) لأنه من حيث جعله شديد السواد وهو المبالغ في غاية السواد لم يكن له ألوان، بل هذا لون واحد بخلاف البياض والحمرة فإنها مختلفة. والظاهر أن قوله (بيض وحمر) ليسا مجموعين بجدة واحدة، بل المعنى: جدد بيض، وجدد حمر، وجدد

(١) من الكامل انظر ديوان الهدلين (٤/١) المفضليات (٨٥٨).

(٢) غرايب: انظر اللسان (٥/٣٢٣٠).



غرايب. ويقال: أسود حلكوك<sup>(١)</sup> وأسود غريب. ومن حق الواضح الغاية في ذلك اللون أن يكون تابعاً. فقال ابن عطية: «قدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر وكذلك هو في المعنى لكن كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا. وقال الزمخشري: «الغريب تأكيد للأسود، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد، كقولك: أصفر فاقع وأبيض يقق. وما أشبه ذلك. ووجهه أن يظهر المؤكد قبله فيكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر، كقول النابغة:

وَالْمُؤْمِنُ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرُ<sup>(٢)</sup>

وإنما يفعل لزيادة التوكيد<sup>(٣)</sup> حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعاً انتهى. وهذا لا يصح إلا على مذهب من يميز حذف المؤكد. ومن النحاة من منع ذلك وهو اختيار ابن مالك. وقيل: هو على التقديم والتأخير أي: سود غرايب. وقيل: سود بدل من غرايب. وهذا أحسن. ويحسنة: كون غرايب لم يلزم فيه أن يستعمل تأكيداً، ومنه ما جاء في الحديث «إن الله يبغض الشيخ الغريب<sup>(٤)</sup>» يعني الذي يخضب بالسواد: وقال الشاعر:

الْعَيْنُ طَامِحَةٌ وَالْيَدُ سَابِحَةٌ  
وَالرَّجُلُ لَائِحَةٌ وَالْوَجْهُ غَرِيبٌ<sup>(٥)</sup>

وقال آخر:

وَمِنْ تَعَاجِبِ خَلْقِ اللَّهِ غَالِيَةٌ  
الْبَعْضُ مِنْهَا مَلَاجِيٌّ وَغَرِيبٌ<sup>(٦)</sup>

وقرأ الجمهور (والدواب) مشدد الباء. والزهري بتخفيفها كراهية التضعيف، إذ فيه التقاء الساكنين كما همز بعضهم ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة ٧] فراراً من التقاء الساكنين، فحذف هنا آخر المضعفين وحرك أول الساكنين. (ومختلفة) صفة لمحذوف. أي: خلق مختلف ألوانه (كذلك) أي: كاختلاف الثمرات والجبال فهذا التشبيه من تمام الكلام قبله، والوقف عليه حسن. قال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني يخرج مخرج السبب، كأنه قال: كما جاءت القدرة في هذا كله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أي: المخلصون لهذه العبر الناظرون فيها». انتهى. وهذا الاحتمال لا يصح، لأن ما بعد (إنما) لا يمكن أن يتعلق بهذا المجرور قبلها ولو خرج مخرج السبب لكان التركيب: كذلك يخشى الله من عباده. أي: لذلك الاعتبار، والنظر في مخلوقات الله، واختلاف ألوانها يخشى الله، ولكن التركيب جاء بإنما وهي تقطع هذا المجرور عما بعدها. (والعلماء) هم الذين علموه بصفاته، وتوحيده، وما يجوز عليه وما يجب له، وما يستحيل عليه، فعظموه، وقدروه

(١) حلكوك: الحلقة والحلك: شدة السواد كلون الغراب.

لسان العرب (٩٧١/٢)

(٢) صدر بيت من البسيط للنابغة وتمام صدره تمسحها وعجزه (ركبان مكة بين الغيّل والسُنْدِ) انظر ديوانه (٢٥) وابن يعيش (١١/٣) الخزانة ٧١/٥.

(٣) انظر الكافية ٣١٧/١ المغني ٢٤١/٢ الفصل لابن يعيش ١٠/٣ التصريح ٣٢٩/١.

(٤) أخرجه الديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً عزاه له العجلوني في الكشف ٢٨٩/١ وأخرجه ابن عدي في الكامل ١٠١٥/٣ وانظر تفسير القرطبي ٣٤٣/١٤ والغريب بكسر الغين المعجمة وسكون الراء وبموحدين بينها تحتية.

(٥) البيت لامرئ القيس نسبة القرطبي له (٢١٩/١٤) وانظر روح المعاني (٢٢/١٩٠).

(٦) البيت للقرطبي (٢١٩/١٤).

حق قدره، وخشوه حق خشيته، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً، ومن كان علمه به أقل كان آمن. وقد وردت أحاديث وأثار في الخشية. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق، وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه. ومن ادعى أن (إنما) للحصر. قال: «المعنى ما يخشى الله إلا العلماء فغيرهم لا يخشاه». وهو قول الزمخشري. وقال ابن عطية: (وإنما) في هذه الآية تخصيص العلماء لا الحصر، وهي لفظة تصلح للحصر وتأتي أيضاً دونه. وإنما ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه انتهى. وجاءت هذه الجملة بعد قوله (ألم تر) إذ ظاهره خطاب للرسول، حيث عدد آياته، وأعلام قدرته، وأثار صنعته، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدل به عليه، وعلى صفاته، فكأنه قال إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته. وقرأ الجمهور بنصب الجلالة ورفع العلماء. وروي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة عكس ذلك. وتوالت هذه القراءة على أن الخشية استعارة للتعظيم، لأن من خشي وهاب وأجل وعظم من خشيه وهابه. ولعل ذلك لا يصح عنها وقد رأينا كتباً في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة. وإنما ذكرها الزمخشري وذكرها عن أبي حنيفة أبو القاسم يوسف بن جبارة في كتابه الكامل (إن الله عزيز غفور) تعليل للخشية إذ العزة تدل على عقوبة العصاة وقهرهم. والمغفرة على إنابة الطائعين والعتو عنهم. (إن الذين يتلون طاهره يقرؤون كتاب الله. أي: يداومون تلاوته<sup>(١)</sup>)، وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: «هذه آية القراءة ويتبعون كتاب الله فيعملون بما فيه». وعن الكلبي: «يأخذون بما فيه»، وقال السدي: هم أصحاب الرسول - ﷺ - ورضي عنهم. وقال عطاء: هم المؤمنون. ولما ذكر تعالى وصفهم بالخشية وهي عمل القلب ذكر أنهم (يتلون كتاب الله) وهو عمل اللسان. (وأقاموا الصلاة) وهو عمل الجوارح (وينفقون) وهو العمل المالي. وإقامة الصلاة والإنفاق يقصدون بذلك وجه الله لا للرباء والسمة. (تجارة لن تبور) لن تكسد ولا يتعذر الربح فيها بل ينفق عند الله. (ليوفيهم) متعلق بـ (يرجون) بـ (لن تبور) أو بمضمرة. تقديره: فعلوا ذلك أقوال. وقال الزمخشري: «وإن شئت فقلت (يرجون) في موضع الحال على (وأنفقوا) راجين ليوفيهم أي: فعلوا جميع ذلك لهذا الغرض. وخبر إن قوله (إنه غفور شكور) لأعمالهم. والشكر مجاز عن الإثابة. انتهى. (وأجرهم) هي التي رتبها تعالى على أعمالهم وزيادته من فضله. قال أبو وائل: «بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم»، وقال الضحاك: «بتفسيح القلوب وفي الحديث بتضعيف حسناتهم». وقيل: بالنظر إلى وجهه. (والكتاب) هو القرآن. (ومن) للتيين أو الجنس أو التبويض. تخريجات للزمخشري. (ومصدقاً) حال مؤكدة (لما بين يديه) من الكتب الإلهية، التوراة والإنجيل والزبور وغيره. وفيه إشارة إلى كونه وحياً لأنه عليه السلام - لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله ولا يكون ذلك إلا من الله تعالى. (إن الله بعباده لخبير بصير) عالم بدقائق الأشياء وبواطنها، بصير بما ظهر منها، وحيث أهلك لوجيه واختارك برسائله وكتابه ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾ [الأنعام ١٢٤] (ثم أورثنا الكتاب) (وتم) قيل بمعنى الواو، وقيل: للمهلة إما في الزمان وإما في الأخبار على ما يأتي بيانه. (والكتاب) فيه قولان، أحدهما: أن المعنى: أنزلنا الكتب الإلهية. (والكتاب) على هذا اسم جنس والمصطفون على ما يأتي بيانه أن المعنى الأنبياء وأتباعهم قاله الحسن<sup>(٢)</sup>، وقال ابن عباس: «هم هذه الأمة أورثت أمة محمد - ﷺ - كل كتاب أنزله الله». وقال ابن جرير: «أورثهم الإيمان، فالكتب تأمر باتباع القرآن، فهم مؤمنون بها، عاملون بمقتضاها، يدل عليه ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾ [فاطر: ٣١] ثم أتبعه بقوله (ثم أورثنا الكتاب) فعلنا أنهم أمة محمد - ﷺ - إذ كان معنى الميراث انتقال شيء من قوم إلى قوم، ولم تكن أمة انتقل إليها كتاب من قوم كانوا قبلهم غير أمته فإذا قلنا: هم الأنبياء وأتباعهم كان المعنى: أورثنا كل كتاب أنزل على نبي ذلك النبي وأتباعه. والقول الثاني: إن الكتاب هو القرآن، والمصطفون أمة الرسول، ومعنى (أورثنا) قال مجاهد: «أعطينا لأن الميراث عطاء». ثم قسم الوارثين إلى هذه الأقسام

(١) انظر القرطبي ١٤/ ٢٢٠ وزاد المسير ٦/ ٤٨٦.

(٢) انظر زاد المسير ٦/ ٤٨٧، ٤٨٨.

الثلاثة. قال مكّي: «فقبل هم المذكورون في الواقعة فالسابق بالخيرات هو المقرب، والمقتصد أصحاب الميمنة، والظالم لنفسه أصحاب المشأمة<sup>(١)</sup>، وهو قول يروى معناه عن عكرمة، والحسن، وقاتدة، قالوا: «الضمير في (منهم) عائد على العباد. فالظالم لنفسه الكافر والمنافق. والمقتصد المؤمن العاصي. والسابق التقي على الإطلاق. وقالوا: هو نظير ما في الواقعة». والأكثر على أن هؤلاء الثلاثة هم في أمة الرسول. ومن كان من أصحاب المشأمة مكذباً صالماً لا يورث الكتاب ولا اصطفاه الله وإنما الذي في الواقعة أصناف الخلق من الأولين والآخرين. قال عثمان بن عفان: «سابقنا أهل جهاد، ومقتصدنا أهل حضرة، وظالمنا أهل بدونا لا يشهدون جمعة ولا جماعة». وقال معاذ: «الظالم لنفسه الذي مات على كبيرة لم يتب منها والمقتصد: من مات على صغيرة ولم يصب كبيرة لم يتب منها والسابق: من مات تائباً عن كبيرة أو صغيرة أو لم يصب ذلك. وقيل: الظالم لنفسه العاصي المسرف. والمقتصد: متقي الكبائر، والسابق: المتقي على الإطلاق». وقال الحسن: «الظالم: من خفت حسناته. والمقتصد: من استوت. والسابق: من رجحت». وقال الزمخشري: «قسمهم إلى ظالم مجرم: وهو المرجيء لأمر الله ومقتصد: وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وسابق: من السابقين». انتهى. وذكر في التجريد ثلاثة وأربعين قولاً في هؤلاء الأصناف الثلاثة. وقرأ أبو عمران الحوفي وعمر بن أبي شجاع ويعقوب في رواية والقراءة عن أبي عمر (سابق) والجمهور (سابق) قيل: وقدم الظالم لأنه لا يتكل إلا على رحمة الله. وقال الزمخشري: «للإيدان بكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم وأن المقتصد قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل» انتهى. (يأذن الله) بتيسيره وتمكينه أي: إن سبقه ليس من جهة ذاته، بل ذلك منه تعالى. والظاهر: أن الإشارة بذلك إلى إيراث الكتاب، واصطفاء هذه الأمة. (وجنات) على هذا مبتدأ. (ويدخلونها) الخبر. (وجنات) قراءة الجمهور جمعاً بالرفع. ويكون ذلك إخباراً بمقدار أولئك المصطفين. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> وابن عطية: «(جنات) بدل من الفضل. قال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: (فإن قلت: فكيف جعلت (جنات عدن) بدلاً من (الفضل الكبير) الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ (قلت: لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب، كأنه هو الثواب فأبدلت عنه جنات عدن». انتهى. ويدل على أنه مبتدأ قراءة الجحدري وهارون عن عاصم (جنات) منصوباً على الاشتغال. أي: يدخلون جنات عدن يدخلونها. وقرأ رزين وحبيش والزهري (جَنَّة) على الأفراد، وقرأ أبو عمر (يُدْخَلُونَهَا) مبنياً للمفعول. ورويت عن ابن كثير والجمهور مبنياً للفاعل. والظاهر: أن الضمير المرفوع في (يدخلونها) عائد على الأصناف الثلاثة، وهو قول عبد الله بن مسعود، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وأبي الدرداء، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد، وعائشة، ومحمد بن الحنفية، وجعفر الصادق، وأبي إسحاق السبيعي وكعب الأبحار، وقرأ عمر هذه الآية ثم قال رسول الله - ﷺ -: «سابقنا ناج، وظالمنا مغفور له». ومن جعل ثلاثة الأصناف هي التي في الواقعة لأن الضمير في (يدخلونها) عائد عنده على المقتصد والسابق. وقال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: «هو عائد على السابق فقط، ولذلك جعل (ذلك) إشارة إلى السبق بعد التقسيم، فذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر، فليحذر المقتصد، وليهلك الظالم نفسه، حذراً. وعليها بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ولا يغتر بما رواه عمر رضي الله عنه عن رسول الله - ﷺ -: سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور<sup>(٥)</sup> له. فإن شرط ذلك صحة

(١) القرطبي ١٤/٢٢١ - ٢٢٤.

(٢) انظر الكشاف ٣/٦١٣.

(٣) انظر الكشاف ٣/٦١٣.

(٤) انظر الكشاف ٣/٦١٤.

(٥) عزاه السيوطي في الجامع الصغير ٤/٧٩ لابن مردويه والبيهقي في البعث عن عمر ورمزه السيوطي بالحسن وقال الخناوي في الفيض: ذكره ابن مردويه عن الفضل عن عمير الطناوي عن ميمون الكردي عن عثمان النهدي عن ابن عمر وأعله العقيلي بالفضل وقال: لا يتابع عليه

التوبة عسى الله أن يتوب عليهم وقوله: ﴿إِذَا يَعَذِبُهُمْ وَإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخداع». انتهى. وهو على طريق المعتزلة. وقرأ الجمهور (يَجْلُونَ) بضم الياء وفتح الحاء وشد اللام مبنياً للمفعول. وقرئ بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام من حليت المرأة فهي حال إذا لبست الحلي. ويقال جيد حال إذا كان فيه الحلي. وتقدم في سورة الحج الكلام على ﴿يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وقرأ الجمهور (الْحَزَنُ) بفتح الحاء وضم الهمزة. وقرئ بضم الحاء وسكون الزاي. ذكره جناح بن حبيش. و(الْحَزَنُ) يعم جميع الأحزان. وقد خص المفسرون هنا وأكثرُوا وينبغي أن يجعل ذلك على التمثيل لا على التعيين، فقال أبو الدرداء: «حزن أهوال يوم القيامة وما يصيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن»، وقال سمرة بن جندب: «معيشة الدنيا الخير ونحوه»، وقال قتادة: «حزن الدنيا في الخوفة أن لا يتقبل أعمالهم»، وقال مقاتل: «حزن الانتقال بقولونها إذا استقروا فيها»، وقال الكلبي: «خوف الشيطان»، وقال ابن زيد: «حزن نظام الآخرة والوقوف عن قبول الطاعات وردها وطول المكث على الصراط»، وقال القاسم بن محمد: «حزن زوال الغم، وتقلب القلب، وخوف العاقبة». وقد أكثرُوا حتى قال بعضهم. كراء الدار، ومعناه: أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا. (إن ربنا لغفور شكور) (لغفور) فيه إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة. و(شكور) فيه إشارة إلى السابق، وأنه كثير الحسنات. و(المقامة) هي الإقامة، أي: الجنة لأنها دار إقامة دائماً لا يرحل عنها من فضله من عطائه. (لا يمسنها فيها نصب) أي: تعب بدن (ولا يمسنها فيها لغوب) أي: تعب نفس وهو لازم عن تعب البدن. وقال قتادة: «اللغوب<sup>(١)</sup>: الوضع». وقال الزمخشري: «(النصب) التعب والمشقة التي تصيب المنتصب المزاوِل له، وأما (اللغوب) فما يلحقه من الفتور بسبب النصب و(النصب) نفس المشقة والكلفة و(اللغوب) نتيجه وما يحدث منه من الكلال والفترة». انتهى (فإن قلت): إذا انتفى السبب انتفى مسببه فما حكمه إذا نفي السبب وانتفى مسببه وأنت تقول: ما شبت ولا أكلت ولا يحسن ما أكلت ولا شبت لأنه يلزم من انتفاء الأكل انتفاء الشبع ولا ينعكس، فلو جاء على هذا الأسلوب لكان التركيب: لا يمسنها فيها إعياء ولا مشقة؟ (فالجواب): أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فإن أمانتها على قسمين، موضع يمسن فيه المشاق والمتاع كالبراري والصحارى. وموضع يمسن فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي فيها الصغار فقال (لا يمسنها فيها نصب) لأنها ليست مظان المتاع لدار الدنيا (ولا يمسنها فيها لغوب) أي: ولا تخرج منها إلى موضع نصب وترجع إليها فيمسنها فيها الإعياء». وقرأ الجمهور (لُغُوبٌ) بضم اللام. وعلي بن أبي طالب والسلمي بفتحها. قال الفراء: «هو ما يلغب به كالفطور والسحور. وجاز أن يكون صفة للمصدر المحذوف كأنه لغوب كقولهم: موت مائت»، وقال صاحب اللوامح: «يجوز أن يكون مصدراً كالقبول، وإن شئت جعلته صفة لمضمر. أي: أمر لغوب. واللغوب أيضاً في غير هذا للأحق. قال أعرابي إن فلاناً لغوب جاءت كتابي فاحترها. أي: أحق فليل له لم أنته؟ فقال: ليس صحيفة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ التَّذْيِيرُ فذوقوا فما لِلظَّالِمِينَ مِنْ تَصْوِيرٍ ٣٧ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

وقال أيضاً: فيه الفضل بن عميرة القرشي قال في الميزان عن العقيلي لا يتابع على حديثه ثم ساق له هذا الخبر وقال رواه عنه عمرو بن الحصين وعمر وضعفه انظر العقيلي في الضعفاء ٤٤٣/٣ الدر المنثور ٢٥٢/٥ زاد المسير ٤٨٩/٦.

(١) اللغوب: التعب والإعياء، (٥/٤٠٤٦).

عَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ  
فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ  
أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ  
كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

لما ذكر حال المؤمنين ومقرهم ذكر حال الكافرين، وهذا يدل على أن أولئك الثلاثة هم في الجنة (والذين كفروا) هم مقابلوهم (لا يقضى عليهم) أي: لا يجهز عليه (فيموتوا) لأنهم إذا ماتوا بطلت حواسهم فاستراحوا. وقرأ الجمهور (فيموتوا) بحذف النون منصوباً في جواب النفي، وهو على أحد معنيي النصب، فالمعنى: انتفى القضاء عليهم فانتهى مسبه. أي: لا يقضى عليهم ولا يموتون، كقولك: ما تأتينا فتحدثنا. أي: ما يكون حديث. انتفى الإتيان فانتهى الحديث، ولا يصح أن يكون على المعنى الثاني من معنى النصب لأن المعنى ما تأتينا محدثاً إنما تأتي ولا تحدث، وليس المعنى هنا، لا يقضى عليهم ميتين إنما يقضى عليهم ولا يموتون. وقرأ عيسى والحسن (فيموتون) بالنون، وجهها: أن تكون معطوفة على (لا يقضى)، وقال ابن عطية: «وهي قراءة ضعيفة». انتهى. وقال أبو عثمان المازني: «هو عطف. أي: فلا يموتون لقوله (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) أي: فلا يعتذرون. ولا يخفف عنهم نوع عذابهم. والنوع في نفسه يدخله أن يحبوا ويسعدوا. قال ابن عطية: «وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو (ولا يخفف) بإسكان الفاء شبه المنفصل بالمتصل كقوله:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ (١).

وقرأ الجمهور (نُجْرِي كُلُّ) مبنياً للفاعل. ونصب (كُلُّ) وأبو عمرو وأبو حاتم عن نافع بالياء مبنياً للمفعول (كُلُّ) بالرفع، (وهم يصطرخون) بني من الصرخ يفتعل وأبدلت من التاء طاء. وأصله يصرخون. والصرخ: شدة الصياح، قال الشاعر:

صَرَخَتْ حُبْلَى أَسْلَمَتْهَا قَبِيلُهَا

واستعمل في الاستغاثة لجهة المستغيث صوته، قال الشاعر:

وَطُورُ اضْطِرَّاحِ الْمَرْءِ فِي بُعْدِ قَعْرِهَا وَجَهْدُ شَقِيٍّ طَالَ فِي النَّارِ مَا عَوَى

(ربنا أخرجنا) أي: قائلين ربنا أخرجنا (منها) أي: من النار. وردنا إلى الدنيا (نعمل صالحاً)، قال ابن عباس: (٢) «نقل لا إله إلا الله» (غير الذي كنا نعمل) أي: من الشرك وتمثل أمر الرسل، فنؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية. وقال الزمخشري: «هل اكتفى بـ (صالحاً) كما اكتفى به في (أرجعنا نعمل صالحاً) وما فائدة زيادة (غير الذي كنا نعمل) على أنه يوهم أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه؟، قالت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به، وأما الوهم فزائل بظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي ولأنهم كانوا يحسنون صنعاً فقالوا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله» انتهى. روي أنهم يجابون بعد مقدار الدنيا (أولم نعملكم) وهو استفهام

(١) تقدم وهو لامرئ القيس ديوانه (١٢٢).

(٢) انظر القرطبي ١٤ / ٢٢٥.

تويخ وتوقيف وتقرير و(ما) مصدرية ظرفية . أي : مدة يذكر . وقرأ الجمهور (ما يتذكر فيه من تذكر) وقرأ الأعمش (ما يذكر فيه) من اذكر بالإدغام وأجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدرج . وهذه المدة، قال الحسن : «البلوغ» . يريد أنه أول حال التذكر . وقيل : سبع عشرة سنة ، وقال قتادة : «ثمان عشرة سنة» ، وقال عمر بن عبد العزيز : «عشرون» ، وقال ابن عباس : «أربعون» ، وقيل : خمسون ، وقال علي : «ستون» ، وروي ذلك عن ابن عباس (وجاءكم) معطوف على (أولم نعلمكم) لأن معناه : قد عمرناكم كقوله ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ [الشعراء ١٨] وقوله (ألم نشرح لك صدرك) ثم قال ﴿وليث فينا﴾ [الشعراء ١٨] وقال (ووضعنا) لأن المعنى قد ربيناك ، وشرحنا . (والنذير) جنس ، وهم الأنبياء . كل نبي نذير أمته . وقرء (النذر) جمعاً وقيل : النذير الشيب . قاله ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسن بن الفضل والفراء والطبري . وقيل : موت الأهل والأقارب . وقيل : كمال السفلى . (فذوقوا) أي : عذاب جهنم . وقرأ جناح بن حبيش (عالمٌ) منوناً (غيبٌ) نصباً . والجمهور على الإضافة . ومجيء هذه الجملة عقيب ما قبلها هو أنه تعالى ذكر أن الكافرين يعذبون دائماً مدة كفرهم كانت مدة يسيرة منقطعة ، فأخبر أنه تعالى عالم غيب السموات والأرض فلا يخفى عليه ما تنطوي عليه الصدور من المضمرات ، وكان يعلم من الكافر أنه تمكن الكفر في قلبه بحيث لو دام إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبده . (وخلائف) جمع خليفة . وخلفاء جمع خليف ، ويقال للمستخلف خليفة وخليف . وفي هذا تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من مكذبي الرسل وما حل بهم من الهلاك ، ولا اعتبروا بمن كفر ، ولم يتعظوا بمن تقدم (فعليه كفره) أي : عقاب كفره . والظاهر : أنه خطاب عام . وقيل : لأهل مكة . (والمقت) أشد الاحتقار والبغض والغضب والخسار : خسار العمر ، كان العمر رأس مال فإن انقضى في غير طاعة الله فقد خسره واستعاض به بدل الربح بما يفعل من الطاعات سخط الله وغضبه بحيث صاروا إلى النار (قل أرأيتم شركاءكم) قال الحوفي : «ألف الاستفهام ذلك للتقرير» ، وفي التحرير (أرأيتم) المراد منه أخبروني لأن الاستفهام يستدعي ذلك ، يقول القائل : أرأيتم ماذا فعل زيد؟ فيقول السامع باع واشترى ولولا تضمنه معنى أخبروني لكان الجواب نعم أو لا . وقال ابن عطية : «أرأيتم ينزل عند سيبويه منزلة أخبروني» . وقال الزمخشري : «(أروني) بدل من (أرأيتم) لأن معنى (أرأيتم) أخبروني ، كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعن ما استحقوا به الإلهية والشركة (أروني) أي : جزء من أجزاء الأرض استمدوا بخلقه دون الله ، أم لهم مع الله شركة في خلق السموات ، أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب ، أو يكون الضمير في (أتيناهم) للمشركين ، لقوله : ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ [الروم : ٣٥] (أم أتيناهم كتاباً من قبله) (بل إن يعد الظالمون بعضهم) وهم الرؤساء (بعضاً) وهم الأتباع (إلا غروراً) وهو قولهم : هؤلاء شفعناؤنا عند الله انتهى . أما قوله : «أروني بدل من أرأيتم» . فلا يصح ، لأنه إذا أبدل مما دخل عليه الاستفهام فلا بد من دخول الأداة على البدل . وأيضاً : فيإبدال الجملة من الجملة لم يعهد في لسانهم ، ثم البدل على نية تكرار العامل . ولا يتأتى ذلك هنا لأنه لا عامل في (أرأيتم) فيتحيل دخوله على (أروني) وقد تكلمنا في الأنعام على (أرأيتم) كلاماً شافياً . والذي أذهب إليه<sup>(١)</sup> : أن (أرأيتم) بمعنى أخبرني ، وهي تطلب مفعولين أحدهما منصوب والآخر مشتمل على استفهام . تقول العرب : أرأيت زيدا ما صنع فالأول هنا هو (شركاءكم) والثاني (ماذا خلقوا) و(أروني) جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد . ويحتمل أن يكون ذلك أيضاً من باب الإعمال لأنه توارد على (ماذا خلقوا) (أرأيتم) و(أروني) لأن (أروني) قد تعلق على مفعولها في قولهم أما ترى . أي : ترى ها هنا . ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين . وقيل : يحتمل أن يكون (أرأيتم) استفهاماً حقيقياً و(أروني) أمر تعجيز للتبيين . أي : أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز ، أو تتوهمون فيها قدرة فإن كنتم تعلمونها

(١) والذي ذهب إليه الزمخشري هو أيضاً من احتمالات الاعراب في الآية . انظر روح المعاني ٢٢/٢٠٣ .

عاجزة فكيف تعبدونها. أو توهمتم لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي أهي في الأرض كما قال بعضهم: إن الله إله في السماء وهؤلاء آلهة في الأرض. قالوا: وفيها من الكواكب والأصنام صورها، أم في السموات كما قال بعضهم: إن السموات خلقت باستعانة الملائكة، فالملائكة شركاء في خلقها، وهذه الأصنام صورها، أم قدرتها في الشفاعة لكم، كما قال بعضهم: إن الملائكة ما خلقوا شيئاً ولكنهم مقربون عند الله فنعبدهم لتشفع لنا فهل معهم من الله كتاب فيه إذنه لهم بالشفاعة. انتهى. وأضاف الشركاء إليهم من حيث هم جعلوهم شركاء لله. أي: ليس للأصنام شركة بوجه إلا بقولهم وجعلهم. قيل: ويحتمل (شركاء كم) في النار لقوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب<sup>(١)</sup> جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] والظاهر: أن الضمير في (آتيناهم) عائد على الشركاء لتناسب الضمائر. أي: هل مع ما جعل شركاء لله كتاب من الله فيه إن له شفاعة عنده فإنه لا يشفع عنده إلا بإذنه. وقيل: عائد على المشركين. ويكون التفاتاً خرج من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، إعرافاً عنهم، وتنزيلاً لهم منزلة الغائب الذي لا يحصل للخطاب. ومعناه: أن عبادة هؤلاء، إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد ما لا يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء، ولا له شرك في السماء، وإما بالنقل، ولم تؤت المشركين كتاباً فيه أمر بعبادة هؤلاء، فهذه عبادة لا عقلية ولا نقلية. انتهى. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحزمة وأبو عمرو وابن كثير وحفص وأبان عن عاصم (على بينة) بالإفراد. وباقي السبعة بالجمع. ولما بين تعالى فساد أمر الأصنام ووقف الحجة على بطلانها، عقبه بذكر عظمته وقدرته ليتبين الشيء بضده، وتؤكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله، فقال (إن الله يسك السموات والأرض أن تزولا) والظاهر: أن معناه أن تنتقلا عن أماكنها وتسقط السموات عن علوها. وقيل: معناه: أن تزولا عن الدوران انتهى. ولا يصح أن الأرض لا تدور. ويظهر من قول ابن مسعود: «إن السماء لا تدور وإنما تجري فيها الكواكب». وقال: كفى بها زوالاً أن تدور ولودارت لكانت قد زالت. (وأن تزولا) في موضع المفعول له وقدر «لثلاثا تزولا»، وكراهة أن تزولا. وقال الزجاج «(يسك) يمنع من أن تزولا فيكون مفعولاً ثانياً على إسقاط حرف الجر. ويجوز أن يكون بدلاً، أي: يمنع زوال السموات والأرض بدل اشتغال (ولئن زالتا إن) تدخل غالباً على الممكن، فإن قدرنا دخولها على الممكن، فيكون ذلك باعتبار يوم القيامة عند طي السماء، ونسف الجبال، فإن ذلك ممكن، ثم واقع بالخبر الصادق. أي: ولئن جاء وقت زوالها. ويجوز أن يكون ذلك على سبيل الفرض. أي: ولئن فرضنا زوالها فيكون مثل لو في المعنى. وقد قرأ ابن أبي عبيدة (ولوزالتا) و(إن) نافية. و(أمسكها) في معنى المضارع جواب للمقدّر قبل لام التوطئة في (لئن) وإنما هو في معنى المضارع لدخول (إن) الشرطية كقوله: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥] أي: ما يتبعون وكقوله: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرةً لظلوا﴾ [الروم: ٥١] أي: ليظلوا فيقدر هذا كله مضارعاً لأجل إن الشرطية. وجواب إن في هذه المواضع محذوف لدلالة جواب القسم عليه قال الزمخشري: «و(إن أمسكها) جواب القسم في (ولئن زالتا) سداً لجوابين» انتهى. يعني: أنه دل على الجواب المحذوف وإن أخذ كلامه على ظاهره لم يصح، لأنه لو سداً مسدداً لكان له موضع من الإعراب باعتبار جواب الشرط ولا موضع له من الإعراب باعتبار جواب القسم. والشيء الواحد لا يكون معمولاً غير معمول<sup>(٢)</sup>. (ومن) في (من أحد) لتأكيد الاستغراق و(من) في (من بعده) لابتداء الغاية. أي: من بعد ترك إمساكه. وسأل ابن عباس رجلاً أقبل من الشام من لقيت؟ قال: كعباً. قال: وما سمعته يقول؟ قال إن السموات على منكب ملك قال كذب كعب أما ترك يهوديته بعد ثم قرأ هذه الآية. وقال ابن مسعود لجندب البجلي وكان رجل أي كعب

(١) قال الفراء: ذكر أن الحصب في لغة أهل اليمن الخطب.

لسان العرب ٢/٨٩٤

(٢) يقصد المصنف رحمه الله أن جملة أن أمسكها إن جعلت سادة مسد الجوابين كانت معمولة إذ هي في محل جزم باعتبارها جواب الشرط وغير معمولة لأنه لا محل لها باعتبارها جواب القسم وانظر في سد الجملة مسد جوابي الشرط والقسم الأشموني ٤/٢٩.

الأخبار في كلام آخره ما تمكنت اليهودية في قلب وكادت أن تفارقه . وقالت طائفة : اتصافه بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماء كادت تزول والأرض كذلك لإشراك الكفرة فيمسكها حكماً منه عن المشركين وتربصاً ليغفر لمن آمن منهم كما قال في آخر آية أخرى ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ [الشورى : ٥] الآية ، وقال الزمخشري : « حليماً غفوراً » غير معاجل بالعقوبة حيث يمكسها وكانتا جديرتين بأن تهدهد<sup>(١)</sup> العظم كلمة الشرك كما قال تكاد السموات يتفطرن منه الآية .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِحْدَىٰ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ ۗ فَلَنْ يُجَدِّسُنَّ اللَّهُ تَبْدِيلًا ۗ وَلَنْ يُجَدِّسُنَّ اللَّهُ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِا مِّن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

الضمير في (وأقسموا) لقريش . ولما بين إنكارهم للتوحيد بين تكذيبهم للرسول . قيل : وكانوا يلعنون اليهود والنصارى حيث كذبوا رسلهم ، وقالوا : (لئن أتانا رسول ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما بعث رسول الله - ﷺ - كذبوه<sup>(٢)</sup> (لئن جاءهم) حكاية لمعنى كلامهم لا للفظهم إذ لو كان اللفظ لكان التركيب لئن جاءنا نذير من إحدى الأمم . أي : من واحدة مهتدية من الأمم ، أو من الأمة التي يقال فيها إحدى الأمم ، تفضيلاً لها على غيرها كما قالوا هو أحد الأحدين ، وهو أحد الأحد . يريدون التفضيل في الدهاء والعقل بحيث لا نظير له . وقال الشاعر :

حَتَّى اسْتَشَارُوا فِي أَحَدِ الْإِحْدِيدِ لَيْثًا هَزْبِرًا فِي سِلَاحِ مُعَدِّ

(فلما جاءهم نذير) وهو محمد - ﷺ - قاله ابن عباس ، وهو الظاهر<sup>(٣)</sup> . وقال مقاتل : « هو انشقاق القمر » (ما زادهم) أي : ما زادهم هو أو جيشه . (إلا نفوراً) بُعداً من الحق وهرباً منه . وإسناد الزيادة إليه مجاز ، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفوراً . كقوله : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : ١٢٥] وصاروا أضل مما كانوا . وجواب (لما) (ما زادهم) وفيه دليل واضح على حرفية (لما) لا ظرفيتها ، إذ لو كانت ظرفاً لم يجوز أن يتقدم على عاملها المنفي بـ (ما) وقد ذكرنا ذلك في قوله : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم ﴾ [سبأ : ١٤] وفي قوله (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم)

(١) انظر لسان العرب (٤٦٣٢/٦) .

(٢) انظر زاد المسير ٤٩٧/٦ والقرطبي ٢٢٨/١٤ .

(٣) من الرجز نسبها البغدادي للمرار بن سعيد الفقعسي انظر الخزانة (٣٥١/٧) .

والبيتان هكذا :

حَتَّى اسْتَشَارُوا بِي إِحْدَى الْإِحْدِيدِ لَيْثًا هَزْبِرًا فِي سِلَاحِ مُعَدِّ

وانظر روح المعاني (٣٠٥/٢٢) .

(٤) انظر زاد المسير ٤٩٧/٦ وابن كثير ٥٦٢/٣ .



والظاهر: أن (استكباراً مفعول من أجله أي سبب النفور وهو الاستكبار) (ومكر السبيء) [يوسف: ٦٨] معطوف على (استكبار) فهو مفعول من أجله أيضاً. أي: الحامل لهم على الابتعاد من الحق هو الاستكبار. والمكر السبيء: وهو الخداع الذي ترومونه برسول الله - ﷺ - والكيد له. وقال قتادة «المكر السبيء، هو الشرك»<sup>(١)</sup>. وقيل: (استكباراً) بدل من (نفوراً) وقاله الأخفش، وقيل: حال يعني مستكبرين وماكرين برسول الله - ﷺ - والمؤمنين. (ومكر السبيء) معطوفاً على (نفوراً) وقرأ الجمهور (ومكر السبيء) بكسر الهمزة والأعمش وهمزة بإسكانها فيما إجراء للوصل مجرى الوقف، وإما إسكاناً لتوالي الحركات وإجراء للمنفصل مجرى المتصل. كقوله: لنا إبلا، وزعم الزجاج أن هذه القراءة لحن، قال أبو جعفر: «وإنما صار لحناً لأنه حذف الإعراب منه»، وزعم محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز في كلام ولا شعر، لأن حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش يقرأ بهذا، وقال: إنما كان يقف على من أدى عنه، والدليل على هذا أنه تمام الكلام وأن الثاني لما لم يكن تمام الكلام أعربه والحركة في الثاني أثقل منها في الأول لأنها ضمة بين كسرتين. وقال الزجاج أيضاً: «قراءة حمزة (ومكر السبيء) موقوفاً عند الخذاق بياءين لحن لا يجوز وإنما يجوز في الشعر للاضطرار». وأكثر أبو علي في الحجة من الاستشهاد والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والاضطرار، والوصل بنية الوقف. قال: فإذا ساغ ما ذكرناه في هذه القراءة من التأويل لم يسغ أن يقال لحن». وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «لعله اختلس فظن سكوناً أو وقف وقفة خفيفة ثم ابتداء (ولا يحيق)<sup>(٣)</sup>». وروي عن ابن كثير ومكر السبيء بهمزة ساكنة بعد السين وياء بعدها مكسورة وهو مقلوب السبيء: المخفف من السبيء كما قال الشاعر:

وَلَا يُجْزَوْنَ مِنْ حُسْنِ بَسِيٍّ      وَلَا يُجْزَوْنَ مِنْ غِلْظِ بِلَيْنٍ<sup>(٤)</sup>

وقرأ ابن مسعود (ومكراً سيئاً) عطف نكرة على نكرة (ولا يحيق) أي: يحيط ويحل ولا يستعمل إلا في المكروه، وقرئ (يُحيق) بالضم أي بضم الياء (المكر السبيء) بالنصب (ولا يحيق الله) (إلا بأهله) أما في الدنيا فعاقبة ذلك على أهله. وقال أبو عبد الله الرازي: «(فإن قلت: ) كثيراً ترى الماكر يفيد مكره ويغلب خصمه بالمكر، والآية تدل على عدم ذلك؟ (فالجواب) من وجوه، أحدها: أن المكر في الآية هو المكر بالرسول من العزم على القتل والإخراج ولا يحيق إلا بهم حيث قتلوا ببدر، وثانيها: أنه عام وهو الأصح فإنه - عليه السلام - نهى عن المكر وقال: «لا تمكروا ولا تعينوا ماکراً فإنه تعالى يقول (ولا يحيق المكر السبيء إلا بأهله)» فعل هذا يكون ذلك الممكوره أهلاً فلا يرد نقضاً، وثالثها: أن الأمور بعواقبها ومن مكره غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك». انتهى. وقال كعب لابن عباس: «في التوراة من حفر حفرة لأخيه وقع فيها فقال له ابن عباس إنا وجدنا هذا في كتاب الله (ولا يحيق المكر السبيء إلا بأهله)<sup>(٥)</sup>. انتهى. وفي أمثال العرب: «من حفر لأخيه جأ وقع فيه منكباً». (وسنة الأولين) إنزال العذاب على الذين كفروا برسولهم من الأمم، وجعل استقباهم لذلك انتظاراً له منهم (وسنة الأولين) أضاف فيه المصدر. وفي (لسنة الله) إضافة إلى الفاعل، فأضيفت أولاً إليهم لأنها سنة بهم، وثانياً إليه لأنه هو الذي سنها. وبين تعالى الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها بغيرها ولا

(١) انظر زاد المسير ٦/٤٩٨.

(٢) انظر الكشاف ٣/٦١٩.

(٣) الحيق ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء.

لسان العرب (٢/١٠٧٢)

(٤) من الوافر لأبي الغول انظر أمالي القاضي (١/٢٦٠) الخزانة (٦/٤٣٤) ابن عيش (٥/٥٥٥) (٦/١٠٢٦)

(٥) انظر القرطبي ١٤/٢٢٩.

يحوها إلى غير أهلها، وإن كان ذلك كائن لا محالة . واستشهد عليهم عما كانوا يشاهدونه في مسائرهم ومتاجرهم في رحلتهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم وديارهم، كديار ثمود ونحوها . وتقدّم الكلام على نظير هذه الجملة في سورة الروم وهناك ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ [الروم : ٩] استئناف إخبار عن ما كانوا عليه، وهنا (وكانوا) أي : وقد كانوا فالجملة حال فيها مقصدان . (وما كان الله ليعجزه) أي : ليفوته ويسبقه (من شيء) أي : شيء (ومن) لاستغراق الأشياء أنه كان عليماً قديراً فبعلمه يعلم جميع الأشياء فلا يغيب عن علمه شيء وبقدرته لا يتعذر عليه شيء ثم ذكر تعالى حلمه تعالى على عباده في تعجيل العقوبة فقال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) أي : من الشرك وتكذيب الرسل، وهو المعنى في الآية التي في النحل وهو قوله : ﴿ بظلمهم ﴾ [النحل : ٦١] وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في النحل وهناك (عليها) وهنا (على ظهرها) والضمير عائد على الأرض إلا أن هناك يدل عليه سياق الكلام وهنا يمكن أن يعود على ملفوظ به وهو قوله (في السموات ولا في الأرض) ولما كانت حاملة لمن عليها استعير لها الظهر كالدابة الحاملة للأثقال ، ولأنه أيضاً هو الظاهر بخلاف باطنها ف (إنه كان بعباده بصيراً) توعد للمكذبين . أي : فيجازيهم بأعمالهم .

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ  
آيَاتُهَا ٨٤
تَرْتِيبُهَا ٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾  
 لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَیْ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي  
 أَعْيُنِهِمْ أَغْلَظًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا  
 فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ  
 الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَلِيبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى  
 وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ  
 جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا  
 أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ  
 ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُ بِكُمْ لَيْلًا لَمْ تَنْتَهُوا لِرَجْمِكُمْ وَلَيَسَّ لَكُمْ مَتَاعُ عَذَابِ  
 آلِيمٍ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَبَّرَكُم مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ  
 يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ  
 الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدِنَ الرَّحْمَنُ بَصُرًا لَا تَعْنِ عَفَى شَفَعَتْهُمْ  
 شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْتِ ءَأَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ  
 الْجَنَّةَ قَالِ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ  
 بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسَرَةُ  
 عَلَى الْعِبَادِ مَا يُأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ

أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا  
 وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِن  
 الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ  
 كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ  
 فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ  
 مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ  
 فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمُ مِن مِّثْلِهِ مَا  
 يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ  
 لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا  
 مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ  
 أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا  
 صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي  
 الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَلَتْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ  
 الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾  
 فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي  
 شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾  
 سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْسَرُوا الْيَوْمَ أَنفُسَهُمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۖ أَلَمْ يَعِدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ءَادَمَ أَن لَّا  
 تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ  
 جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ  
 تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾  
 وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ  
 مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَقُوا مِضْيَا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ

﴿١٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ<sup>(٢)</sup> إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ  
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ أَوْلَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَمْلُوكُونَ ﴿٢١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ  
فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعِفٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ  
ءَالِهَةً لَّعَلَّهُم يُبْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَا يَخْزِنَاكَ قَوْلُهُمْ  
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ أَوْلَئِكَ يَرَى الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٢٧﴾  
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٢٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ  
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ نُوقَدُونَ ﴿٣٠﴾  
أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا  
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ  
تَرْجِعُونَ ﴿٣٣﴾

قمح البعير رأسه : رفعه أثر شرب الماء ، ويأتي الكلام فيه مستوفى العرجون : عود العنق<sup>(١)</sup> من بين الشمراخ<sup>(٢)</sup> إلى  
منبته من النخلة . وقال الزجاج : « هو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف » . الحدث : القبر ، وسمع فيه جذف بإبدال الـ  
فاء ، كما قالوا : قم في ثم ، وكما أبدلوا من الفاء ثاء قالوا في معفور معثور ، وهو ضرب من الكمأة . المسخ : تحويل من صورة  
إلى صورة منكرة ، الرميم : البالي المفتت .

﴿يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم  
فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ،  
وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم لا  
يؤمنون ، إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ، إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا  
وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ .

هذه السورة مكية<sup>(٣)</sup> إلا أن فرقة زعمت أن قوله : ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ [يس : ١٢] نزلت في بني سلمة من  
الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول<sup>(٤)</sup> . وليس زعماً صحيحاً ، وقيل : إلا قوله : ﴿وإذا

(١) تقدم .

(٢) الشمراخ : الشمروخ ، العثكال الذي عليه البسر ، وأصله في العنق ، وقد يكون في العنب .

(٣) انظر القرطبي ٣/١٥ .

(٤) انظر القرطبي ٣/١٥ .

قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴿ [يس : ٤٧] الآية وتقدم الكلام في الحروف المقطعة في أول البقرة . قال ابن جبير هنا : إنه اسم من أسماء محمد - ﷺ - ودليله (إنك لمن المرسلين) ، قال السيد الحميري :

يَا نَفْسُ لَا تَمْحِضِي بِالوُدِّ جَاهِدَةً عَلَى المَوْدَّةِ إِلَّا آلَ يَاسِينَا<sup>(١)</sup>

وقال ابن عباس معناه : «يا إنسان بالحيشية<sup>(٢)</sup>» . وعنه : «هو في لغة طىء ، وذلك أنهم يقولون إيسان بمعنى إنسان ويجمعونه على آياسين فهذا منه» . وقالت فرقة : (يا) حرف نداء . والسين مقامة مقام إنسان انتزع منه حرف فأقيم مقامه . وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup> : «إن صح أن معناه يا إنسان في لغة طىء ، فوجهه أن يكون أصله : يا أنيسين ، فكثرت النداء على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما قالوا في القسم م الله في أيمن الله» . انتهى . والذي نقل عن العرب في تصغيرهم<sup>(٤)</sup> إنسان أنيسيان بياء بعدها ألف ، فدل على أن أصله أنيسان ، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها ، ولا نعلمهم قالوا في تصغيره : أنيسين . وعلى تقدير أنه بقية أنيسين فلا يجوز ذلك ، لا أن يبنى على الضم ولا يبقى موقوفاً ، لأنه منادى مقبل عليه مع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير ويمتنع ذلك في حق النبوة . وقوله : «كما قالوا في القسم م الله في أيمن الله» . هذا قول ومن النحويين من يقول : إن م حرف قسم وليس مبقياً من أيمن . وقرئ بفتح الياء وإمالتها محضاً وبين اللفظين . وقرأ الجمهور بسكون النون مدغمة في الواو ، ومن السبعة الكسائي وأبو بكر وورش وابن عامر . مظهرة عند باقي السبعة . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بفتح النون . وقال قتادة : «(يس) قسم» قال أبو حاتم : فقياس هذا القول فتح النون ، كما تقول : الله لأفعلن كذا . وقال الحاج : «ال نصب كأنه قال أتلى يس وهذا على مذهب سيبويه أنه اسم للسورة» . وقرأ الكلبي بضم النون وقال : «هي بلغة طىء يا إنسان» ، وقرأ السهالك وابن أبي إسحاق أيضاً بكسرها . قيل : والحركة لالتقاء الساكنين ، فالفتح كائن طلباً للتخفيف . والضم كحيث . والكسر على أصل التثانها . وإذا قيل إنه قسم فيجوز أن يكون معرباً بالنصب على ما قال أبو حاتم . والرفع على الابتداء نحو أمانة الله لأقومن . والجر على إضمار حرف الجر ، وهو جائر عند الكوفيين . (والحكيم) إما فعيل بمعنى مفعول كما تقول عقدت العسل فهو عقيد أي مَعْقَدٌ وإما للمبالغة من حاكم وإما على معنى السبب . أي : ذي حكمة (على صراط) خبر ثان أو في موضع الحال منه - عليه السلام - أو من (المرسلين) أو متعلق بالمرسلين . والصراط المستقيم : شريعة الإسلام . وقرأ طلحة والأشهب وعيسى بخلاف عنها وابن عامر وحمة والكسائي (تنزيل) بالنصب على المصدر . وباقي السبعة وأبو بكر وأبو جعفر وشيبة والحسن والأعرج والأعمش بالرفع خبر مبتدأ محذوف . أي : هو تنزيل . وأبو حيوة والبيهقي والقورصي عن أبي جعفر وشيبة بالخفض إما على البدل من (القرآن) وإما على الوصف بالمصدر (لتنذر) متعلق بـ (تنزيل) أو بـ (أرسلنا) مضمرة . (ما أنذر) قال عكرمة : بمعنى الذي ، أي الشيء الذي أنذره آباؤهم من العذاب فـ (ما) مفعول ثان . كقوله : ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ [النبا : ٤٠] ، قال ابن عطية : «ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية . أي : ما أنذر آباؤهم والآباء على هذا : هم الأقدمون من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم . (وفهم) على هذا للتأويل بمعنى فإنهم ، دخلت الفاء ، لقطع الجملة من الجملة الواقعة صلة فتتعلق بقوله (إنك لمن المرسلين لتنذر) كما تقول أرسلتلك إلى فلان لتنذره ، فإنه غافل أو فهو غافل . وقال قتادة : «(ما) نافية . أي : إن آباءهم لم ينذروا فـ (آباؤهم) على هذا هم القريبون منهم . (وما أنذر) في موضع الصفة . أي : غير منذر آباؤهم (وفهم غافلون) متعلق بالنفي . أي : لم ينذروا فهم

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٢/٢١١) والقرطبي (٥/١٥) .

(٢) انظر ابن كثير ٥٦٣/٣ والقرطبي ٥/١٥ .

(٣) انظر الكشاف ٣/٤ .

(٤) انظر شرح الكافية ١/٢٧٣ - ٢٧٤ روح المعاني ٢٢/٢١٠ شرح الفصل ٥/١١٤ .

غافلون على أن عدم إندازهم هو سبب غفلتهم وباعتبار الآباء في القدم والقرب يزول التعارض بين الإنذار ونفيه . (لقد حق القول على أكثرهم) المشهور أن القول: (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقيل: لقد سبق في علمه وجوب العذاب، وقيل: حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبأن برهانه، فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك. والظاهر أن قوله (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً) لآية هو حقيقة لا استعارة. لما أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون أخبر عن شيء من أحوالهم في الآخرة إذا دخلوا النار. قال ابن عطية: «وقوله (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) يضعف هذا، لأن بصر الكافر يوم القيامة إنما هو حديد يرى قبح حاله». انتهى. ولا يضعف هذا. ألا ترى إلى قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً﴾ [الإسراء: ٩٧] وقوله: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى﴾ [طه: ١٢٥] وإما أن يكون قوله: ﴿بصرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢] كناية عن إدراكه ما يؤول إليه حتى كأنه يبصره. وقال الجمهور ذلك استعارة. قال ابن عباس وابن إسحاق: «استعارة لحالة الكفرة الذين أرادوا الرسول بسوء، جعل الله هذا لهم مثلاً في كفه إياهم عنه ومنعهم من أذاه حين بيته». وقال الضحاك والفراء: «استعارة لمنعهم من النفقة في سبيل الله، كما قال: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال عكرمة: «نزلت حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم، وفي غير ذلك من المواطن، فمنعه الله». وهذا قريب من قول ابن عباس، فروي: «أن أبا جهل حمل حجراً ليدفع به النبي - ﷺ - وهو يصلي فأنشئت يده إلى عنقه حتى عاد إلى أصحابه والحجر في يده قد لزق فما فكوه إلا بجهد فأخذ آخر، فلما دنا من الرسول طمس الله بصره فلم يره فعاد إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه». فجعل الغل يكون استعارة عن منع أبي جهل وغيره في هذه القصة. ولما كان أصحاب أبي جهل راضين بما أراد أن يفعل فنسب ذلك إلى الجمع. وقالت فرقة: استعارة لمنع الله إياهم من الإيمان وحوله بينهم وبينه. قال ابن عطية: «وهذا أرجح الأقوال لأنه تعالى لما ذكر أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل عقب ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالهم معه حال المغلولين». انتهى. وقال الزمخشري: «مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى دعواهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين<sup>(١)</sup> في أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم، ولا يبصرون أنهم متعامون عن النظر في آيات الله تعالى». انتهى. وفيه دسيسة الاعتزال. ألا ترى إلى قول أهل السنة: استعارة لمنع الله إياهم من الإيمان. وقول الزمخشري: «مثل تصميمهم ونسبته الأفعال التي يعدها إليهم لا إلى الله». والغل: ما أحاط بالعتق على معنى التعنيف، والتضييق، والتعذيب، والأسر، ومع العنق اليدان أو اليد الواحدة على معنى التعليل، والظاهر: عود الضمير في (فهي) إلى الأغلال، لأنها هي المذكورة والمحدث عنها. قال ابن عطية: «هي عريضة تبلغ بحرفها الأذقان. والذقن: مجتمع اللحين فيضطر المغلول إلى رفع وجهه نحو السماء، وذلك هو الإفتاح. وهو نحو الإفتاح في الهيئة. وقال الزمخشري: الإغلال، وأصله إلى الأذقان مكزوزة إليها، وذلك أن طوق الغل الذي هو عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن فلا تحلوه يطأطىء رأسه ويوطىء ذقنله فلا يزال مقمحاً». انتهى وقال الفراء: «القمح الذي يغض بصره بعد رفع رأسه». وقال الزجاج نحوه، قال: «يقال قمح البعير رأسه عن ري وقمح هو». وقال أبو عبيدة: «قمح قموحاً رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب والجمع قحاح. ومنه قول بشر يصف ميتة أحدهم ليدفنها:

وَتَحْنُ عَلَى جَوَائِبِهَا قُعُودٌ نَغْضُ السُّطْرَفَ كَالِإِبْلِ الْقِمَاحِ<sup>(٢)</sup>

(١) القمحين: الدليل، وروي عن الفراء: أنه قال: القمح الغاض بصره بعد رفع رأسه.

لسان العرب (٥/٣٧٣٤)

(٢) البيت لبشر بن أبي خازم الأسدي انظر مجاز القرآن (٢/١٥٧) القرطبي (١٥/٨) روح المعاني (٢٢/٢١٤) اللسان (قمح) التاج (قمح).

وقال الليث: «هورف البعير رأسه إذا شرب الماء الكريه ثم يعود». وقال الزجاج للكانونين شهراً قمحاً لأن الإبل إذا وردت الماء ترفع رؤوسها لشدة برده. وأنشد أبو زيد بيت الهذلي:

فَتَى مَا ابْنُ الْأَعْرَى إِذَا شَتَوْنَا      وَحُبُّ الزَّادِ فِي شَهْرِي قِمَاحٍ<sup>(١)</sup>

رواه بضم القاف، وابن السكيت بكسرها، وهما لغتان. «وسميا شهري قمحاً، لكراهة كل ذي كبد شرب الماء فيه». وقال الحسن: «القامح الطافح بصره إلى موضع قدمه». وقال مجاهد: «الرافع الرأس الواضع يده على فيه». وقال الطبري: «الضمير في (فهي) عائد على الأيدي وإن لم يتقدم لها ذكر لوضوح مكانها من المعنى. وذلك أن الغل إنما يكون في العنق مع اليدين، ولذلك سمي الغل جامعة لجمعه اليد والعنق. وأرى علي كرم الله وجهه الناس الإقحاح فجعل يديه تحت لحية وأصقهما ورفع رأسه». وقال الزمخشري: «جعل الإقحاح نتيجة قوله فهي (إلى الأذقان) ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقحاح ظاهراً، على أن هذا الإضرار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطل الذي يجفو عنه ترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج». انتهى. وقرأ عبد الله وعكرمة والنخعي وابن وثاب وطلحة وحزمة والكسائي وابن كثير وحفص (سُدًّا) بفتح السين فيها والجمهور بالضم وتقدم شرح السد في الكهف. وقرأ الجمهور (فأغشيناهم) بالغين منقوطة. وابن عباس وعمر بن عبد العزيز وابن يعمر وعكرمة والنخعي وابن سيرين والحسن وأبورجاء وزيد بن علي ويزيد البربري ويزيد بن المهلب وأبو حنيفة وابن مقسم بالعين من العشاء، وهو ضعف البصر جعلنا عليها غشاة. (وسواء عليهم) الآية تقدم الكلام على نظيرها تفسيراً وإعراباً في أول البقرة. (إنما تنذر) تقدم ﴿لتنذر قوماً﴾ [يس: ٦] لكنه لما كان محتوماً عليهم أن لا يؤمنوا حتى قال (وسواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم) لم يجد الإنذار لانتهاء منفعته فقال (إنما تنذر) أي: إنذاراً ينفع (من اتبع الذكر) وهو القرآن قال قتادة: «أو الوعظ» (وخشي الرحمن) أي: المتصف بالرحمة مع أن الرحمة قد تعود إلى الرجاء لكنه مع علمه برحمته هو يخشاه خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه (بالغيب) أي: بالخلوة عند مغيب الإنسان عن غيوب البشر. ولما أحدث فيه النذارة (بشراً بمغفرة) لما سلف (وأجر كريم) على ما أسلف من العمل الصالح، وهو الجنة. ولما ذكر تعالى الرسالة، وهي أحد الأصول الثلاثة التي بها يصير المكلف مؤمناً ذكر الحشر وهو أحد الأصول الثلاثة والثالث: هو توحيد. فقال (إننا نحن نحيي الموت) أي: بعد مماتهم. وأبعد الحسن والضحاك في قوله: إحياءهم: إخراجهم من الشرك إلى الإيمان (ونكتب ما قدموا) كناية عن المجازاة. أي: ونحصى. فعبّر عن إحاطة علمه بأعمالهم بالكتابة التي تضبط بها الأشياء. وقرأ زر ومسروق (ويُكْتَبُ ما قدموا وأثارهم) بالياء مبنياً للمفعول. (وما قدموا) من الأعمال (وأثارهم) خطاهم إلى المساجد. وقال: السير الحسنة والسيئة. وقيل (ما قدموا) من السيئات (وأثارهم) من الأعمال. وقال الزمخشري: «ونكتب ما أسلفوا من الأعمال الصالحات غيرها، وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه، وكتاب صفوه، أو حبيس أجسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أو سبىء كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تحريمهم، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من ألمان وملاء، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة، يستن بها ونحوه قوله عز وجل ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بما قدم وأخر﴾ [القيامة: ١٣] من آثاره». انتهى. وقرأ الجمهور (وكلُّ شيء) بالنصب على الاشتغال. وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء. والإمام الميبي: اللوح المحفوظ. قاله مجاهد وقاتدة وابن زيد. وقالت فرقة: أراد صحف الأعمال.

﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذوبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم

(١) البيت لملك الهذلي ذكره ابن منظور في اللسان (قمح).



لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين، قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجنكم ولیمسنكم منا عذاب أليم، قالوا طائرکم معکم أئن ذکرتم بل أنتم قوم مسرفون، وجاء من أقصى المدينة رجل یسعی قال یا قوم اتبعوا المرسلین، اتبعوا من لا یسألکم أجراً وهم مهتدون، وما لی لا أعبد الذی فطرني وإلیه ترجعون، أأتخذ من دونه آلهة إن یردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ینقذون، إني إذا لقي ضلال مبين، إني آمنت بربکم فاسمعون، قيل ادخل الجنة قال یا لیت قومي یعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المکرمين ﴿١﴾.

تقدم الكلام على اضرب مع المثل في قوله: ﴿أن يضرب مثلاً ما بعوضة﴾ [البقرة: ٢٦] والقرية: انطاكية فلا خلاف في قصة أصحاب القرية (إذ جاءها المرسلون) هم ثلاثة جمعهم في المجيء وإن اختلفوا في زمن المجيء (إذ أرسلنا إليهم اثنين) الظاهر من (أرسلنا) أنهم أنبياء أرسلهم الله، ويدل عليه قوله المرسل إليهم (ما أنتم إلا بشر مثلنا) وهذه المحاورة لا تكون إلا مع من أرسله الله. وهذا قول ابن عباس وكعب. وقال قتادة: «وغيرهم من الحواريين بعثهم عيسى - عليه السلام - حين رفع وصلب الذي ألقى عليه الشبه فافترق الحواريون في الآفاق فقص الله قصة الذين ذهبوا إلى انطاكية وكان أهلها عباد أصنام صادق وصدوق قاله وهب وكعب الأحبار، وحكى النقاش بن سمعان ويحنا. وقال مقاتل: «تومان ويونس». (فكذبوهما) أي: دعواهم إلى الله وأخبراً بأنها رسولا الله فكذبوهما (فعرزنا بثالث) أي: قوينا وشددنا قاله مجاهد وابن قتبية. وقال: يقال تعزز لحم الناقة إذا صلب. وقال غيره: يقال المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدها، ويقال للأرض الصلبة القرآن هذا على قراءة تشديد الزاي، وهي قراءة الجمهور. وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو بكر والمفضل وأبان بالتخفيف. قال أبو علي: «فغلبنا»، انتهى. وذلك من قولهم: من عزني وقوله تعالى (وعزني في الخطاب)، وقرأ عبد الله (بالثالث) بألف ولام. والثالث: شمعون الصفا قاله ابن عباس. وقال كعب وهب: «شلوم». وقيل: يونس. وحذف مفعول (فعرزنا) مشدداً. أي: قويناها بثالث. مخففاً. فغلبناهم. أي: بحجة ثالث وما يلطف به من التوصل إلى الدعاء إلى الله حتى من الملك على ما ذكر في قصتهم. وستأتي هي أو بعض منها إن شاء الله وجاء أولاً (مرسلون) بغير لام، لأنه ابتداء إخبار فلا يحتاج إلى توكيد بعد المحاورة (المرسلون) بلام التوكيد لأنه جواب عن إنكار، وهؤلاء أمة أنكرت النبوات بقولها (وما أنزل الرحمن من شيء) وراجعتهم الرسل بأن ردوا العلم إلى الله، وفتحوا بعلمه، وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط، وما عليهم من هداهم وضلالهم، وفي هذا وعيد لهم. ووصف البلاغ بالمبين وهو الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت (قالوا إنا تطيرنا بكم) أي: تشاء منا. قال مقاتل: «احتبس عليهم المطر». وقال آخر: «أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل»، قال ابن عطية: «والظاهر أن تطير هؤلاء كان سبب ما دخل فيهم من اختلاف الكلمة، وافتتان الناس. وهذا على نحو تطير قريش بمحمد - ﷺ - وعلى نحو ما حوطف به موسى - عليه السلام -» وقال الزمخشري: (١) «وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وقبلته طباعهم، وتشاءوا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابتهم نعمة، أو بلاء قالوا ببركة هذا، وبشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن سعه﴾ [الأعراف: ١٣١] وعن مشركي مكة ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ [النساء ٧٨] انتهى.

وعن قتادة: «إن أصابنا شيء كان من أجله ﴿لنرجنكم﴾ بالحنجرة. قاله قتادة (عذاب أليم) هو الحريق. (قالوا طائرکم معکم) أي: حظكم وما صار لكم من خير أو شر معكم. أي: من أفعالكم ليس هو من أجلنا بل بكمفرکم. وقرأ الحسن وابن هرمز وعمرو بن عبيد وزر بن حبيش (طيرکم) بياء ساكنة بعد الطاء. وقرأ الحسن فيما نقل (أطيرکم) مصدر «أطير»

الذي أصله تطير، فأدغمت التاء في الطاء فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر. وقرأ الجمهور (طَائِرُكُمْ) على وزن فاعل وقرأ الجمهور (أَيْنُ ذَكَرْتُمْ) بهمزتين، الأولى: همزة الاستفهام. والثانية: همزة إن الشرطية، فخففها الكوفيون وابن عامر. وسهلها باقي السعة. وقرئ بوزن همزتين مفتوحتين، وهي قراءة أبي جعفر وطلحة إلا أنها لبناء الثانية بين بين. وقال الشاعر في تحقيقتها:

إِنْ كُنْتُ دَاوُدَ بْنَ أَحْوَى مُرَجِّلاً      فَلَسْتَ بِدَاعٍ لِابْنِ عَمِّكَ مُحْرِمًا<sup>(١)</sup>

والمجشونى: وهو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة المدني همزة واحدة مفتوحة. والحسن بهاء مكسورة. وأبو عمرو في رواية وزر أيضاً بمدة قبل الهمزة المفتوحة. استثقل اجتماعهما ففصل بينهما بألف. وقرأ أبو جعفر أيضاً والحسن أيضاً وقتادة وعيسى الهمداني والأعمش (أَيْنُ) بهمزة مفتوحة وياء ساكنة وفتح النون ظرف مكان. وروي هذا عن عيسى الثقفي أيضاً. فالقراءة الأولى على معنى إن ذكرتم تطيرون يجعل المحذوف مصب الاستفهام على مذهب سيبويه. ويجعله للشرط على مذهب يونس. فإن قدرته مضارعاً كان مجزوماً. والقراءة الثانية على معنى: لأن ذكرتم تطيرون فإن مفعول من أجله وكذلك الهمزة الواحدة المفتوحة، والتي بمدة قبل الهمزة المفتوحة. وقراءة الهمزة المكسورة وحدها فحرف شرط بمعنى الإخبار. أي: إن ذكرتم تطيرون. والقراءة الثانية الأخيرة (أَيْنُ) فيها ظرف، أداة الشرط حذف جزاؤه للدلالة عليه. وتقديره: أين ذكرتم صحبكم طائركم. ويدل عليه قوله (طائركم معكم) ومن جوز تقديم الجزاء على الشرط وهم الكوفيون وأبو زيد والمبرد يجوز أن يكون الجواب (طائركم معكم) وكان أصله: أين ذكرتم فطائركم معكم. فلما قدم حذف الفاء. وقرأ الجمهور (ذُكِرْتُمْ) بتشديد الكاف. وأبو جعفر وخالد بن إلياس وطلحة والحسن وقتادة وأبو حيوة والأعمش من طريق زائدة والأصمعي عن نافع بتخفيفها (بل أنتم قوم مسرفون) مجاوزون الحد في ضلالكم فمن ثم أتاكم الشؤم. (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) اسمه: حبيب<sup>(٢)</sup>، قاله ابن عباس، وأبو مجلز، وكعب الأحمري، ومجاهد، ومقاتل، قيل: وهو ابن إسرائيل وكان قصاراً. وقيل: إسكافاً. وقيل: كان ينحت الأصنام. ويمكن أن يكون جامعاً لهذه الصنائع (ومن أقصى المدينة) أي: من أبعد مواضعها، فقيل: كان في خارج المدينة يعاني زرعاً له. وقيل: كان في غار يعبد ربه وقيل: كان مجذوماً فميز له أقصى باب من أبوابها عبد الأصنام سبعين سنة يدعوهم لكشف ضره فلما دعاه الرسل إلى عبادة الله قال هل من آية؟ قالوا نعم: ندعونا القادر يفرج عنك ما بك فقال: إن هذا العجيب لي سبعون سنة أدعو هذه الآلهة فلم تستطع يفرجه ربكم في غداة واحدة. قالوا: نعم، وربنا على ما يشاء قدير وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر فآمن، ودعوا ربهم فكشف الله ما به كان لم يكن به بأس، فأقبل على التكسب فإذا مثنى تصدق بكسبه، نصف لعيله، ونصف يطعمه. فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم فقال (يا قوم اتبعوا المرسلين) وحبيب هذا ممن آمن برسول الله - ﷺ - وبينها ستائة سنة كما آمن به تبع الأكبر، وورقة بن نوفل، وغيرهما. ولم يؤمن بنبي غيره أحد إلا بعد ظهوره. وقال ابن أبي ليلى: «سابق الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين علي بن أبي طالب، وصاحب يس ومؤمن آل فرعون». وأورد الزمخشري قول ابن أبي ليلى حديثاً عن رسول الله - ﷺ - «وتقدم قبل من حاله أنه كان مجذوماً عبد الأصنام سبعين سنة فإله أعلم». وهنا تقدم (من أقصى المدينة) وفي القصص تأخر وهو من التفتن في البلاغة (رجل يسعى) يمشي على قدميه (قال يا قوم اتبعوا المرسلين) الظاهر أنه لا يقول ذلك إلا بعد تقدم إيمانه كما سبق في قصة. وقيل: جاء عيسى وسمع قولهم وفهمه فيها فهمه. روي: «أنه تعقب أمرهم وسبره بأن قال لهم: أتطلبون أجراً على دعوتكم هذه؟ قالوا: لا فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم والإيمان بهم

(١) البيت من الطويل استشهد به على تحقيق الهمزتين في قوله (إن كنت) وذكره السمين في الدر المنون.

(٢) انظر القرطبي ١٥/١٤.

واحتج عليهم بقوله (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) أي : وهم على هدى من الله . أمرهم أولاً باتباع المرسلين . أي : هم رسل الله إليكم ، فاتبعوهم . ثم أمرهم ثانياً بجملة جامعة في الترغيب في كونهم لا ينقص منهم من حطام دنياهم شيء ، وفي كونهم يهتدون بهداهم فيشتملون على خيري الدنيا والآخرة . وقد أجاز بعض النحويين في (من) أن تكون بدلاً من (المرسلين) ظهر فيه العامل كما ظهر إذا كان حرف جر كقوله تعالى : ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم ﴾ [الزخرف : ٣٣] والجمهور لا يعرفون ما صرح فيه بالعامل الرفع والناصب بدلاً ، بل يجعلون ذلك مخصوصاً بحرف الجر ، وإذا كان الرفع والناصب سماوا ذلك بالتبعية لا بالبدل ، وفي قوله (اتبعوا من لا يسألكم أجراً) دليل على نقص من يأخذ أجراً على شيء من أفعال الشرع التي هي لازمة له كالصلاة . ولما أمرهم باتباع المرسلين أخذ بيدي الدليل في اتباعهم وعبادة الله فأبرزه في صورة نصحه لنفسه ، وهو يريد نصحهم ليتلطف بهم ويراد بهم ، ولأنه أدخل في المحاضر<sup>(١)</sup> النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه فوضع قوله (ومالي لأعبد، الذي فطرني) موضع (ومالكم لا تعبدون الذي فطركم ، ولذلك قال (وإليه ترجعون) ولولا أنه قصد ذلك لقال وإليه أرجع . ثم أتبع الكلام كذلك مخاطباً لنفسه ، فقال (أأخذ من دونه آهة) قاصرة عن كل شيء لا تنفع ولا تضر ، فإن أرادكم الله بضر وشفعت لكم لم تنفع شفاعتهم ، ولم يقدروا على إنقاذكم فيه . أولاً بانتفاء الجاه عن كون شفاعتهم لا تنفع ، ثم ثانياً بانتفاء القدرة فعبر بانتفاء الإنقاذ عنه إذ هو نتيجته . وفتح ياء المتكلم في (يردني) مع طلحة السمان . كذا في كتاب ابن عطية . وفي كتاب ابن خالويه طلحة بن مطرف ، وعيسى الهمداني ، وأبو جعفر ، ورويت عن نافع وعاصم وأبي عمرو . وقال الزمخشري : «وقرىء (إن يردني الرحمن بضر) بمعنى أن يجعلني مورداً للضر . انتهى . وهذا والله أعلم رأي في كتب القراءات (يردني) بفتح الياء فتوهم أنها ياء المضارعة فجعل الفعل متعدياً بالياء المعدية كالمزمة ، فلذلك أدخل عليه همزة التعدية ونصب به اثنين . والذي في كتب القراء الشواذ أنها ياء الإضافة المحذوفة خطأً ونطقاً لالتقاء الساكنين<sup>(٢)</sup> . قال في كتاب ابن خالويه : «بفتح ياء الإضافة» ، وقال في اللوامح : (إن يردني الرحمن) بالفتح وهو أصل الياء عند البصرية ، لكن هذه محذوفة يعني البصرية . أي : المثبتة بالخط البربري بالبرص لكونها مكتوبة بخلاف المحذوفة خطأً ولفظاً فلا ترى بالبصر . (إني إذا) إن لم أعبد الذي فطرني واتخذت آهة من دونه في حيرة واضحة لكل ذي عقل صحيح . ثم صرح بإيمانه وصدع بالحق فقال مخاطباً لقومه (إني آمنت بربكم) أي : الذي كفرتم به (فاسمعون) أي : اسمعوا قولي وأطيعون . فقد نهتكم على الحق ، وأن العبادة لا تكون إلا لمن منه نشأتكم ، وإليه مرجعكم ، والظاهر : أن الخطاب بالكاف والميم وبالواو وهو لقومه . والأمر على جهة المبالغة والتنبيه ، قاله ابن عباس وكعب وهب . وقيل : خاطب بقوله (فاسمعون) الرسل على جهة الاستشهاد بهم والاستحفاظ للأمر عندهم<sup>(٣)</sup> . وقيل : الخطاب في (بربكم) وفي (فاسمعون) للرسل لما نصح قومه أخذوا يرحمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال ذلك ، أي : اسمعوا إيماني واشهدوا لي به . (قيل ادخل الجنة) ظاهره : أنه أمر حقيقي . وقيل : معناه وجبت لك الجنة فهو خبر بأنه قد استحق دخولها ، ولا يكون إلا بعد البعث . ولم يأت في القرآن أنه قتل فقال الحسن : «لما أراد قومه قتله رفعه الله إلى السماء فهو في الجنة لا يموت إلا ببناء السموات وهلاك الجنة فإذا أعاد الله الجنة دخلها» . وقيل : لما قال ذلك رفعوه إلى الملك فطول معهم الكلام ليشغلهم عن قتل الرسل إلى أن صرح لهم بإيمانه فوثبوا عليه فقتلوه بوطء الأرجل حتى خرج قلبه من دبره وألقي في

(١) المحض اللبن الخالص بلا رغو . والمحض من كل شيء : الخالص .

لسان العرب (٦/٤١٤٦)

(٢) أي : في قراءة الجمهور لأن الذي في شواذ القراءات أن الياء مثبتة مفتوحة فلا حذف ولا سكون وهي التي فسر بها المصنف البصرية فهي المرئية بالبصر في القراءة الشاذة وفي قراءة الجمهور علمية مقدره . انظر روح المعاني ٢٢/٢٢٧ .

(٣) انظر القرطبي ١٤/١٤ .

بثروهي الرس»<sup>(١)</sup>. وقال السدي: «رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي حتى مات». وقال الكلبي: «رموه في حفرة وردوا التراب عليه فمات». وعن الحسن: حرقوه حرقاً، وعلقوه في باب المدينة وقبره في سور أنطاكية. وقيل: نشروه بالناشير حتى خرج من بين رجله. وعن قتادة: «أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق». أراد قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] وفي النسخة التي طالعنا من تفسير ابن عطية ما نصه. وقرأ الجمهور (فاسمعون) بفتح النون، قال أبو حاتم: «هذا خطأ لا يجوز لأنه أمر فإما حذف النون وإما كسرهما على جهة البناء». انتهى. يعني ياء التثنية والنون للوقاية. وقوله: وقرأ الجمهور، وهم فاحش، ولا يكون والله أعلم إلا من الناسخ، بل القراءة مجمعون فيما أعلم على كسر النون سبعتهم وشواذهم إلا ما روي عن عصمة عن عاصم من فتح النون ذكره في الكامل مؤلف أبي القاسم الهذلي ولعل ذلك وهم من عصمة، وقال ابن عطية: «هنا محذوف تواترت به الأحاديث والروايات وهو أنهم قتلوه، فقيل له عند موته ادخل الجنة، وذلك - والله أعلم - بأن عرض عليه مقعده منها، وتحقق أنه من ساكنيتها، فرأى ما أقر عينه، فلما حصل ذلك تمنى أن يعلم قومه بذلك». انتهى. وقول (قيل ادخل الجنة) كأنه جواب لسائل عن حاله عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه، فقيل (ادخل الجنة) ولم يأت التركيب قيل له، لأنه معلوم أنه المخاطب. وتمنيه علم قومه بذلك هو مرتب على تقدير سؤال عن ما وجد من قوله عند ذلك، استيفافاً، ونصحاً لهم. أي: لو علموا ذلك لآمنوا بالله. وفي الحديث: «نصح قومه حياً وميتاً وقيل: تمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ في أمره، وهو على صواب فيندموا، ويجزئهم ذلك، ويبرر بذلك. وموجود في طباع البشر أن من أصاب خيراً في غير موطنه ود أن يعلم بذلك جيرانه وأترابه الذين نشأ فيهم. وبلغنا أن الوزير ذلك الدين المسيري وكان وزيراً للملك مصر راح إلى قريته التي كان منها وهي مسيروهي من أصغر قرى مصر فقيل له في ذلك، فقال: أردت أن يراني عجائز مسير في هذه الحالة التي أنا فيها. قال الشاعر:

وَالْعِرْزُ مَظْلُوبٌ وَمُلْتَمَسٌ وَأَحْبُهُ مَا نِيلَ فِي السَّوْطَيْنِ

والظاهر: أن (ما) في قوله (بما غفر لي ربي) مصدرية. جوزوا أن يكون بمعنى الذي والعائد محذوف. تقديره: بالذي غفره لي ربي من الذنوب. وليس هذا بجيد، إذ يؤول إلى تمنى علمهم بالذنوب المغفرة. والذي يحسن تمنى علمهم بمغفرة ذنوبه، وجعله من المكرمين. وأجاز الفراء أن تكون (ما) استفهاماً، وقال الكسائي: «لو صح هذا يعني الاستفهام لقال بم من غير ألف». وقال الفراء: «يجوز أن يقال بما بالألف وأنشد فيه أبياتاً». وقال الزمخشري: «ويحتمل أن تكون استفهامية، يعني: بأي شيء غفر لي ربي؟ يريد ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز دين الله حتى قيل: إن قولك (بما غفر لي ربي) يريد ما كان منه معهم بطرح الألف أجود وإن كان إثباتاً جائزاً فقال: قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت». انتهى. والمشهور أن إثبات الألف في ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر تختص بالضرورة نحو قوله:

عَلَى مَا قَامَ يَسْتُمْنِي لَيْمٌ كَخَنْزِيرٍ تَمَرَّغٌ فِي رَمَادٍ<sup>(٢)</sup>  
وحذفها هو المعروف في الكلام نحو قوله:

عَلَى مَا يَقُولُ الرَّمْحُ يُثْقِلُ كَاهِلِي إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعَنْ إِذَا الْخَيْلُ كَرَّتِ<sup>(٣)</sup>

(١) الرس: بثر لثمود، وفي الصحاح: بثر كانت لبقية من ثمود.

لسان العرب (٣/١٦٤١)

(٢) تقدم.

(٣) البيت من الطويل لعمرو بن معد يكرب. انظر الحامسة البصرية (١١/١) الأصمعيات (١٢٢) المعنى (١٢٦/١) التصريح (١/٢٦٣) الأشموني (٢/٣٦) روح المعاني (٢٢/٢٢٩).

وقرىء (من المُكْرَمِينَ) مشدد الراء مفتوح الكاف . والجمهور بإسكان الكاف وتخفيف الراء .

﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين، إن كانت الاصيحة واحدة فإذا هم خامدون، يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون، وإن كل لما جميع لدينا محضرون، وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حيا فمنه يأكولون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون، وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾ .

أخبر تعالى بإهلاك قوم حبيب بصيحة واحدة، صاح بهم جبريل . وفي ذلك توعدهم لقريش أن يصيبهم ما أصابهم إذ هم المضروب لهم المثل . وأخبر تعالى أنه لم ينزل عليهم لإهلاكهم (جنداً من السماء) كالحجارة والريح وغير ذلك، وكانوا أهون عليه . وقوله (من بعده) يدل على ابتداء الغاية . أي : لم يرسل إليهم رسولاً ولا عاتبهم بعد قتله، بل عاجلهم بالهلاك . والظاهر : أن (ما) في قوله (وما كنا منزلين) نافية . فالمعنى قريب من معنى الجملة قبلها . أي : وما كان يصح في حكمنا أن ننزل في إهلاكهم جنداً من السماء، لأنه تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض كما قال ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ [العنكبوت ٤٠] الآية . وقالت فرقة (ما) اسم معطوف على (جند)، قال ابن عطية : «أي : من جند ومن الذي كنا منزلين على الأمم مثلهم» . انتهى . وهو تقدير لا يصح ، لأن (من) في (من جند) زائدة . ومذهب البصريين غير الأخفش أن لزيادتها شرطين، أحدهما : أن يكون قبلها نفي أو نهي أو استفهام والثاني : أن يكون بعدها نكرة . وإن كان كذلك فلا يجوز أن يكون المعطوف على النكرة معرفة . لا يجوز ما ضربت من رجل ولا زيد . وإنه لا يجوز ولا من زيد . وهو قدر المعطوف بالذي وهو معرفة فلا يعطف على النكرة المجرورة بمن الزائدة . وقال أبو البقاء : «ويجوز أن تكون (ما) زائدة . أي : وقد كنا منزلين» . وقوله ليس بشيء . وقرأ (إن كانت إلا صيحة) بنصب الصيحة . و(كان) ناقصة واسمها مضمرة . أي : إن كانت الأخذة أو العقوبة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ومعاذ بن الحارث القاريء (صيحة) «بالرفع في الموضعين على أن (كانت) تامة . أي : ما حدثت أو وقعت إلا صيحة . وكان الأصل أن لا يلحق التاء، لأنه إذا كان الفعل مسنداً إلى ما بعد إلا من المؤنث لم تلحق العلامة للتأنيث، فيقول : ما قام إلا هند . ولا يجوز ما قامت إلا هند عند أصحابنا إلا في الشعر . وجوز به بعضهم في الكلام على قلة ومثله قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء والجدري وقتادة وأبي حنيفة وابن أبي عمير وأبي بحرية ﴿لا ترى إلا مساكنهم﴾ [الأحقاف : ٢٥] بالتاء والقراءة المشهورة بالياء . وقول ذي الرمة :

وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الجُرَاشِعُ<sup>(١)</sup>

وقول الآخر :

مَا بَرَّيْتُ مِنْ رَيْبَةٍ وَذُمَّ فِي حَرْبِنَا إِلَّا بَنَاتُ السَّعَمِ<sup>(٢)</sup>

فأنكر أبو حاتم وكثير من النحويين هذه القراءة بسبب حقوق تاء التأنيث (فإذا هم خامدون) أي : فاجأهم الحمود إثر

(١) تقدم .

(٢) البيت من الرجز لم نهد لقائله . التصريح ٢٧٩/١ الأشموني (٥٢/٢) اضع (١٧١/٢) .

الصيحة لم يتأخر. وكفى بالخمود عن سكوتهم بعد حياتهم كثار حمدت بعد توفدها. ونداء الحسرة على معنى هذا وقت حضورك وظهورك هذا تقدير نداء مثل هذا عند سيبويه. وهو منادى منكور على قراءة الجمهور. وقرأ أبي وابن عباس وعلي بن الحسين والضحاك ومجاهد والحسن (يا حسرة العباد) على الإضافة، فيجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم. ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم لما فاتهم من اتباع الرسل حين أحضروا للعذاب، وطباع البشر تتأثر عند معاينة عذاب غيرهم وتحسر عليهم. وقرأ أبو الزناد وعبد الله بن ذكوان المدني وابن هرمز وابن جندب (يا حسرة على العباد) بسكون الهاء في الحالين. حمل فيه الوصل على الوقف. ووقفوا على الهاء مبالغة في التحسر لما في الهاء من التأه كالتأه ثم وصلوا على تلك الحال، قاله صاحب اللوامح، وقال ابن خالويه «(يا حسرة على العباد) بغير تنوين قاله ابن عباس». انتهى ووجهه أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف التي هي بدل من ياء المتكلم في النداء كما اجتزأ بالكسرة عن الياء فيه. وقد قرىء (يا حسرتا) بالألف أي: يا حسرتي. ويكون من الله على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم وفرط إنكاره وتعجيبه منه. والظاهر: أن العباد هم مكذوبو الرسل تحسرت عليهم الملائكة. قاله الضحاك<sup>(١)</sup>، وقال الضحاك أيضاً: «المعنى: يا حسرة الملائكة على عبادنا الرسل حتى لم ينفعهم الإيمان لهم». وقال أبو العالية: «المراد بالعباد: الرسل الثلاثة. وكان هذا التحسر هو من الكفار حين رأوا عذاب الله تلهفوا على ما فاتهم. قال ابن عطية: «وقوله (ما يأتيهم) الآية يدفع هذا التأويل». انتهى. قال الزجاج: «الحسرة: أمر يركب الإنسان من كثرة الندم على ما لا نهاية له حتى يبقى حسيراً». وقيل: المنادى محذوف. وانتصب (حسرة) على المصدر. أي: يا هؤلاء تحسروا حسرة. وقيل: (يا حسرة على العباد) من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لما وثب القوم لقتله. وقيل: هو من قول الرسل الثلاثة، قالوا ذلك حين قتلوا ذلك الرجل، وحل بهم العذاب، قالوا يا حسرة على هؤلاء، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا». انتهى. فالألف واللام للعهد إذا قلنا: إن العباد المراد بهم الرسل الثلاثة أو من أرسلوا إليه، وهم الهالكون بسبب كفرهم وتكذيبهم إياهم. والظاهر: أنها لتعريف جنس الكفار المكذبين. وتلخص: أن المتحسر الملائكة، أو الله تعالى، أو المؤمنون، أو الرسل الثلاثة، أو ذلك الرجل. أقوال (ما يأتيهم) إلى آخر الآية. تمثيل لقريش، وهم الذين عاد عليهم الضمير في قوله (ألم يروا كم أهلكنا)، قال ابن عطية: «و(كم) هنا خبرية و(أنهم) بدل منها، والرؤية رؤية البصر». انتهى. فهذا لا يصح لأنها إذا كانت خبرية فهي في موضع نصب بـ (أهلكنا) ولا يسوغ فيها، إلا ذلك. وإذا كان كذلك امتنع أن يكون (أنهم) بدل منها لأن البدل على نية تكرار العامل ولو سلطت (أهلكنا) على (أنهم) لم يصح. ألا ترى أنك لو قلت: أهلكنا انتفاء رجوعهم أو أهلكنا كونهم لا يرجعون. لم يكن كلاماً، لكن ابن عطية توهم أن (يروا) مفعوله (كم) فتوهم أن قولهم (أنهم لا يرجعون) بدل لأنه يسوغ أن يتسلط عليه، فتقول: ألم يروا أنهم لا يرجعون. وهذا وأمثاله دليل على ضعفه في علم العربية. وقال الزجاج: «هو بدل من الجملة. والمعنى: ألم يروا أن القرون التي أهلكناها إليهم لا يرجعون، لأن عدم الرجوع والهلاك بمعنى النهي». وهذا الذي قاله الزجاج ليس بشيء، لأنه ليس بدلاً صناعياً. وإنما فسر المعنى ولم يلحظ صنعة النحو. وقال أبو البقاء: «إنهم إليهم انتهى. وليس بشيء، لأن (كم) ليس بمعمول لـ (يروا) ونقل عن الفراء أنه يعمل (يروا) في الجملتين من غير إبدال. وقولهم في الجملتين تجوز لأن (أنهم) وما بعده ليس بجملة ولم يبين كيفية هذا العمل. وقال الزخشي<sup>(٢)</sup>: (ألم يروا) ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في (كم) لأن (كم) لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر، لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناها نافذ في الجملة. كما نفذ في قولك: ألم يروا أن زيداً لمنطلق. وإن لم تعمل في لفظه و(أنهم إليهم لا يرجعون) بدل من (أهلكنا) على المعنى لا على اللفظ، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين

(١) انظر القرطبي ١٧/١٥.

(٢) انظر الكشاف ١٣/٤.

إليهم». انتهى. فجعل (يروا) بمعنى يعلموا، وعلقها على العمل في (كم) وقوله: «لأن (كم) لا يعمل فيها ما قبلها كانت للاستفهام أو للخبر». وهذا ليس على إطلاقه، لأن العامل إذا كان حرف جر، أو اسماً مضافاً، جاز أن يعمل فيها نحو كم. على كم جذع بيتك؟ وأين كم رئيس صحبت؟ وعلى كم فقير تصدقت؟ أرجو الثواب؟ وأين كم شهيد في سبيل الله أحسنت إليه؟ وقوله: «أو للخبر» الخبرية فيها لغتان الفصيحة كما ذكر، لا يتقدمها عامل إلا ما ذكرنا من الجار. واللغة الأخرى حكاها الأخصش يقولون فيها: ملكت كم غلام. أي: ملكت كثيراً من الغلمان. فكما يجوز أن يتقدم العامل على كثير كذلك يجوز أن يتقدم على كم، لأنها بمعناها. وقوله: «لأن أصلها الاستفهام» ليس أصلها الاستفهام، بل كل واحدة أصل في بابها لكنها لفظ مشترك بين الاستفهام والخبر. وقوله: «إلا أن معناها نافذ في الجملة». يعني: معنى (يروا) نافذ في الجملة، لأن جعلها معلقة وشرح بـ (يعلموا). وقوله كما تقدم في قولك - ألم يروا أن زيداً لمنطلق. فإن زيداً لمنطلق معمول من حيث المعنى لـ (يروا) ولو كان عاملاً من حيث اللفظ لم تدخل اللام وكانت أن مفتوحة كإن وفي خبرها اللام من الأدوات التي تعلق أفعال القلوب. وقوله: «وأنهم لا يرجعون» إلى آخر كلامه. لا يصح أن يكون بدلاً لا على اللفظ ولا على المعنى. أما على اللفظ، فإنه زعم أن (يروا) معلقة فيكون (كم) استفهاماً وهو معمول لـ (أهلكتنا) و(أهلكتنا) لا يتسلط على (أنهم إليهم لا يرجعون) وتقدم لنا ذلك. وأما على المعنى فلا يصح أيضاً، لأنه قال تقديره: أي على المعنى ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، فكونهم غير كذا ليس كثرة الإهلاك فلا يكون بدل كل من كل، ولا بعضاً من الإهلاك، ولا يكون بدل بعض من كل، ولا يكون بدل اشتغال، لأن بدل الاشتغال يصح أن يضاف إلى ما أبدل منه. وكذلك بدل بعض من كل وهذا لا يصح هنا، لا تقول: ألم يروا انتفاء رجوع كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم وفي بدل الاشتغال نحو: أعجبني الجارية ملاحظتها. وسرق زيد ثوبه يصح: أعجبني ملاحه الجارية. وسرق ثوب زيد. وتقدم لنا الكلام على إعراب مثل هذه الجملة في قوله: ﴿ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن﴾ [الأنعام: ٦] في سورة الأنعام والذي تقتضيه صناعة العربية أن (أنهم) معمول المحذوف ودل عليه المعنى. وتقديره: قضينا أو حكمنا أنهم إليهم لا يرجعون. وقرأ ابن عباس والحسن (إنهم) بكسر الهمزة على الاستثناء، وقطع الجملة عن ما قبلها من جهة الإعراب. ودل ذلك على أن قراءة الفتح مقطوعة عن ما قبلها من جهة الإعراب لتتفق القراءتان ولا تختلفا. والضمير في (أنهم) عائد على معنى (كم) وهم القرون. و(إليهم) عائد على من أسند إليه (يَرَوُ) وهم قريش. فالمعنى: أنهم لا يرجعون إلى من في الدنيا وقيل: الضمير في (أنهم) عائد على من أسند إليه (يروا) وفي (إليهم) عائد على المهلكين. والمعنى: أن الباقي لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة. أي: أهلكتناهم، وقطعنا نسلهم. والإهلاك مع قطع النسل أتم وأعم. وقرأ عبد الله (ألم يروا من أهلكتنا) (أنهم) على هذا بدل اشتغال. وفي قولهم (أنهم لا يرجعون) رد على القائلين بالرجعة. وقيل لابن عباس: إن قوماً يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة فقال: ليس القوم نحن إذا نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه». وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر بتشديد (لما) وباقي السبعة بتخفيفها. فمن ثقلها كانت عنده بمعنى إلا و(إن) نافية. أي: ما كل. أي: كلهم إلا (جميع لدينا محضرون). أي: محشورون. قاله قتادة. وقال ابن سلام: «معدبون»، وقيل: التقدير لمن ما وليس بشيء ومن خفف (لما) جعل (إن) المخففة من الثقيلة و(ما) زائدة. أي: إن كل لجميع، وهذا على مذهب البصريين. وأما الكوفيون ف(إن) عندهم نافية واللام بمعنى إلا و(ما) زائدة. و(لما) المشددة بمعنى إلا ثابت في لسان العرب بنقل الثقات، فلا يلتفت إلى زعم الكسائي أنه لا يعرف ذلك. وقال أبو عبد الله الرازي: «في كون لماً بمعنى إلا معنى مناسب، وهو أن لماً كأنها حرفا نفي جميعاً وهما لم وما فتأكد النفي وإلا كأنها حرفا نفي إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر». انتهى. وهذا أخذه من قول الفراء في إلا في الاستثناء أنها مركبة من إن ولا إلا أن الفراء جعل إن المخففة من الثقيلة وما زائدة. أي: إن كل لجميع، وهذا على مذهب البصريين. وأما الكوفيون و(إن) عندهم نافية واللام بمعنى إلا و(ما) زائدة. ولما المشددة بمعنى إلا ثابت حرف نفي، وهو قول مردود عند النحاة ركيك وما تركب منه وزاد تحرفاً أرك منه. و(كل) بمعنى الإحاطة. و(جميع) فعييل بمعنى

مفعول. ويدل على الاجتماع. و(جميع) (محضرون) هنا على المعنى كما أفرد منتصر على اللفظ، وكلاهما بعد. جميع يراعى فيه الفواصل. وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبيناً أنه تعالى ليس من أهله يترك بل بعد إهلاكهم جمع، وحساب، وثواب، وعقاب، ولذلك أعقب هذا بما يدل على الحشر من قوله (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) وما بعده من الآيات. وبدأ بالأرض، لأنه مستقرهم، حركة وسكوناً، حياة وموتاً. وموت الأرض: جدها، وإحيائها بالغيث. والضمير في (لهم) عائد على كفار قريش ومن يجري مجراهم في إنكار الحشر، و(أحييناها) استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك نسلخ. وقيل: (أحييناها) في موضع الحال، والعامل فيها (آية) بما فيها من معنى الإعلام ويكون (آية) خبراً مقدماً و(الأرض الميتة) مبتدأ، فالنية بآية التأخير. والتقدير: والأرض الميتة آية لهم بحياة، كقولك: قائم زيد مسرعاً. أي: زيد قائم مسرعاً. و(لهم) متعلق بآية لا صفة، وقال الزمخشري: «ويجوز أن يوصف الأرض والليل بالفعل، لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بإحيائهما فعمولاً معاملة النكرات في وصفها بالأفعال». ونحوه:

وَلَقَدْ أَمَرُ عَلَى اللَّيْمِ يُسْبِي (١)

انتهى. وهذا هدم لما استقر عند أئمة النحو من أن النكرة لا تنعت إلا بالنكرة، والمعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة. ولا دليل لمن ذهب إلى ذلك وأما يسبي فحال. أي: ساباً لي. وقد تبع الزمخشري ابن مالك على ذلك في التسهيل من تأليفه. وفي هذه الجملة تعدد نعم وإحيائها بحيث تصير مخضرة، تبهج النفس والعين، وإخراج الحب منها، حيث صار ما يعيشون به في المكان الذي هم فيه مستقرون لا في الساء ولا في الهواء، وجعل الحبات لأنهم أكلوا من الحب وربما تاقت النفس إلى النقلة فالأرض يوجد منها الحب، والشجر يوجد منه الثمر، وتفجير العيون يحصل به الاعتماد على تحصيل الزرع والثمر، ولو كان من الساء لم يدر أين يغرس ولا أين يقع المطر. وقرأ جناح بن حبيش (وفجرتنا) بالتخفيف. والجمهور بالتشديد. و(من ثمره) بفتح تين. وطلحة وابن وثاب وحزة والكسائي بضم تين. والأعمش بضم التاء وسكون الميم. والضمير في (ثمره) عائد على الماء، قيل: لدلالة العيون عليه، ولكونه على حذف مضاف. أي: من ماء العيون. وقيل: على النخيل واكتفي به للعلم في اشتراك الأعيان فيما علق به النخيل من أكل ثمره أو يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال الشاعر:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقُ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِيْعُ الْبَهَقِ (٢)

فقيل له: كيف قلت بعيون كأنه والذي تقدم خطوط؟ فقال: أرت كان ذلك. وقيل: عائد إلى التفجير الدال عليه (وفجرتنا) الآية أقرب مذکور. وعنى به (ثمره) فوائده كما تقول ثمرة التجارة الربح. وقال الزمخشري: «وأصله: من ثمرنا. كما قال (وجعلنا) (وفجرتنا) فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات. والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر، وما عملته أيديهم من الغرس، والسقي، والأبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه. وبأن أكله يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقته. وفيه آثار من كد بني آدم. ويجوز أن تكون (ما) نافية على أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدر على خلقه. وقرأ الجمهور (وما عملته) بالضمير فإن كانت (ما) موصولة فالضمير عائد عليها، وإن كانت نافية فالضمير عائد على الثمر. وقرأ طلحة وعيسى وحزة والكسائي وأبو بكر بغير ضمير. مفعول (عملت) على التقديرين محذوفة. وجوز في هذه القراءة أن تكون (ما) مصدرية. أي: وعمل أيديهم. وهو مصدر أريد به المعمول فيعود إلى معنى الموصول. ولما عدد تعالى هذه النعم حض على الشكر فقال (أفلا تشكرون) ثم نزه تعالى نفسه عن كل ما يلحد به ملحد، أو يشرك به مشرك، فذكر إنشاء الأزواج وهي الأنواع من جميع الأشياء مما تنبت الأرض من النخل والشجر والزرع

(١) تقدم.

(٢) من الرجز لرؤية. تقدم.



والشمر وغير ذلك . وكل صنف زوج ، مختلف لوناً وطعماً وشكلاً وصغراً وكبراً (ومن أنفسهم) ذكوراً وإناثاً (مما لا يعلمون) أي : وأنواعاً مما لا يعلمون أعلموا بوجوده ولم يعلموا ما هو ، إذ لا يتعلق علمهم بمباهيته أمر محتاج إليه في دين ولا دنيا . وفي إعلامه بكثرة مخلوقاته دليل على اتساع ملكه ، وعظم قدرته . ولما ذكر تعالى الاستدلال بأحوال الأرض وهي المكان الكلي ذكر الاستدلال بالليل والنهار وهو الزمان الكلي وبينها مناسبة ، لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر ، والزمان لا تستغني عنه الأعراس ، لأن كل عرض فهو في زمان ومثله مذكور في قوله : ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر﴾ [فصلت : ٣٧] ثم قال بعده ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض هامة﴾ [فصلت : ٣٩] الآية وبدأ هناك بالزمان ، لأن المقصود إثبات الوجدانية بدليل قوله (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) الآية . ثم الحشر بقوله (إن الذي أحيها لمحى الموت) وهذا المقصود الحشر أولاً ، لأن ذكره فيها أكثر ، وذكر التوحيد في فصلت أكثر بدليل قوله (قل أأنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض) انتهى . وهو من كلام أبي عبد الله الرازي وفيه تلخيص . و(نسلخ) معناه : نكشط<sup>(١)</sup> ونقشر ، وهو استعارة لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل . و(مظلمون) داخلون في الظلام كما تقول أعتما وأسحرنا ، دخلنا في العتمة وفي السحر . واستدل قوم بهذا على أن الليل أصل والنهار فرع طارئ عليه ، ومستقر الشمس بين يدي العرش تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها كما جاء في حديث أبي ذر (ويقال لها اطلعي من حيث طلعت فإذا كان طلوعها من مغربها يقال لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) [الأنعام : ١٥٨] ، وقال ابن عباس : «إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استوت تحت العرش إلى أن تطلع» . وقال الحسن : «للشمس في السنة ثلاثمائة وستون مطلعاً ، تنزل كل يوم مطلعاً ، ثم لا تنزل إلى الحول وهي تجري في فلك المنازل ، أو يوم القيامة ، أو غيوبتها ، لأنها تجري كل وقت إلى حد محدود تغرب فيه ، أو أحد مطالعها في المتقلبين ، لأنها نهايتنا مطالعها فإذا استقر وصولها كرت راجعة وإلا فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين» . ونحا إلى هذا ابن قتيبة أو وقفها عند الزوال كل يوم ، ودليل استقرارها وقوف ذلك الظلام حينئذ . وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : «بمستقر لها حد لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة . شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو كمنتهى لها من المشارق والمغارب لأنها تتقاصها مشرقاً مشرقاً ، ومغرباً مغرباً ، حتى تبلغ أقصاها ، ثم ترجع فلذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه أو لا يعدلها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب» . وقيل : مستقرها : محلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه ، وهو آخر السنة . وقيل : الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها ، وهو يوم القيامة<sup>(٣)</sup> ، وقال أبو عبد الله الرازي : ما ملخصه : «في المستقر وجوه في الزمان وفي المكان ، ففي الزمان الليل ، أو السنة ، أو يوم القيامة . وفي المكان : غاية ارتفاعها في الصيف ، وانخفاضها في الشتاء ، وتجري إلى ذلك الموضع فترجع ، أو غاية مشارقها ، فلها في كل يوم مشرق إلى ستة أشهر ، ثم تعود على تلك المقنطرات ، وهذا هو ما تقدم في الارتفاع ، فإن اختلاف المشارق ، سبب اختلاف الارتفاع ، أو وصولها إلى بيتها في الأسد أو الدائرة التي عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس . ويحتمل أن يقال : تجري مجرى مستقرها فإن أصحاب الهيئة قالوا : الشمس في فلك والفلك يدور فيدير الشمس ، فالشمس تجري مجرى مستقرها» . انتهى . وقرئ (إلى مستقرها) ، وقرأ عبد الله وابن عباس وعكرمة وعطاء بن رباح وزين العابدين والباقر وابنه الصادق وابن أبي عبدة (لأُستقر لها) نيفاً . مبنياً على الفتح . فيقتضي انتفاء كل مستقر وذلك في الدنيا ، أي : هي تجري دائماً فيها لا تستقر إلا ابن أبي عبلة فإنه قرأ برفع (مستقر) وتوونيه على

(١) كشط : قرع ونزع وكشف .

لسان العرب (٣/٨٨٢).

(٢) انظر الكشاف ٣/٤١٦ .

(٣) انظر ابن كثير ٣/٥٧١ والقرطبي ١٥/١٩ ، ٢٠ .

إعمالها إعمال ليس . نحو قول الشاعر :

تَعَزَّرَ فَلَا شَيْءَ عَلَى الْأَرْضِ بَاقِيَا      وَلَا وَزَرَ مِمَّا قَضَى اللَّهُ وَاقِيَا<sup>(١)</sup>

الإشارة بذلك إلى جري الشمس . أي : ذلك الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق ، تقدير (العزير) الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم . وقرأ الحرميان وأبو عمرو وأبو جعفر وابن محيصن والحسن بخلاف عنه (والقمر) بالرفع على الابتداء . وباقي السبعة بالنصب على الاشتغال . و(قدرناه) على حذف مضاف . أي : قدرنا سيره . و(منازل) طرف أي منزله . وقيل : قدرنا نوره في منازل يزيد مقدار النور كل يوم في المنازل الاجتماعية ، وينقص في المنازل الاستقبالية ، وقيل (قدرناه) جعلنا أنه أجري جريه عكس منازل أنوار الشمس ، ولا يحتاج إلى حذف حرف الصفة فإن جرم القمر مظلم ينزل فيه النور لقبوله عكس ضياء الشمس مثل المرأة المجلوة إذا قوبل بها الشعاع ، وهذه المنازل معروفة عند العرب ، وهي ثمانية وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستوٍ لا بتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يسير ليلتين إذا نقص الشهر ، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة وهي : الشرطين ، البطين ، الزباني ، الإكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الطرف ، الجبهة ، الدبرة ، الصرفة ، العواء ، السهاك ، العفر ، الزباني ، الإكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرع الدلو المقدم ، فرع الدلو المؤخر ، بطن الحوت ، ويقال له : الرشاء ، فإذا كان في آخر منزله دق واستقوس واصفر فشبه بالمرجون القديم من ثلاثة الأوجه ، وقرأ سليمان التيمي (كالمرجون) بكسر العين وفتح الجيم . والجمهور بضمهما . وهما لغتان كالبريون . و(القديم) ما مر عليه زمان طويل . وقيل : أقل عدة الموصوف بالقدم حول ، فلو قال رجل : كل مملوك لي قديم فهو حر ، أو كتب ذلك في وصية ، عتق منهم من مضى له حول وأكثر . انتهى . والقدم : أمر نسبي وقد يطلق على ما ليس له سنة ، ولا ستان ، فلا يقال : العالم قديم وإنما تعتبر العادة في ذلك . (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) (ينبغي لها) مستعملة فيما لا يمكن خلافه . أي : لم يجعل لها قدرة على ذلك ، وهذا الإدراك المنبغي هو . قال الزمخشري : «إن الله تعالى جعل لكل واحد من الليل والنهار وآيتهما قسماً من الزمان ، وضرب له حداً معلوماً ، ودبر أمرهما على التعاقب ، فلا ينبغي للشمس أن لا يستهل لها ، ولا يصح ولا يستقيم ، لوقوع التدبير على العاقبة . وإن جعل لكل واحد من التيرين سلطان على حياله أن يدرك القمر ، فتجتمع معه في وقت واحد ، وتداخله في سلطانه ، فتطمس نوره ، ولا يسبق الليل النهار : يعني : آية الليل آية النهار ، وهما النيران ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك ، وينقص ما ألفت فيجمع بين الشمس والقمر ، فتطلع الشمس من مغربها» . انتهى . وقال ابن عباس والضحاك : «إذا طلعت لم يكن للقمر ضوء وإذا طلع لم يكن للشمس ضوء»<sup>(٢)</sup> . وقال مجاهد : «لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر» . وقال قتادة : «لكل أحد حد لا يعده ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا» . وقال ابن عباس أيضاً : «إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها» ، وقال الحسن : «لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة . أي : لا تبقى الشمس حتى يطلع الفجر ولكن إذا غربت طلع» . وقال يحيى بن سلام : «لا تدركه ليلة البدر خاصة لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها» . وقيل : «لا يمكنها أن تدركه في سرعته ، لأن دائرة فلك القمر داخلة في فلك عطارد ، وفلك عطارد داخل في فلك الزهرة ، وفلك الزهرة داخل في فلك الشمس ، فإذا كان طريق الشمس أبعد قطع القمر جميع أجزاء فلكه ، أي : من البروج الاثني عشر في زمان تقطع الشمس فيه برجاً واحداً من فلكه .

(١) تقدم وهو من الطويل انظر التصريح (١٩٩/١) الهمع (١٢٥/١) .

(٢) انظر القرطبي ٢٣/١٥ وابن كثير ٥٧٣/٣ .

وقال النحاس: «ما قيل فيه وأبينه أن مسير القمر مسير سريع والشمس لا تدرکه في السير». انتهى . وهو ملخص القول الذي قبله (ولا الليل سابق النهار) لا يعارض قوله ﴿يعشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ [الأعراف ٥٤] لأن ظاهر قوله (يطلبه حثيثاً) أن النهار سابق أيضاً، فيوافق الظاهر. وفهم أبو عبد الله الرازي من قوله (يطلبه حثيثاً) أن النهار يطلب الليل، والليل سابقه. وفهم من قوله (ولا الليل سابق النهار) أن الليل مسبق لا سابق فأورده سؤالاً. وقال: كيف يكون الليل سابقاً مسبوقاً؟ وأجاب بأن المراد من (الليل) هنا سلطان الليل، وهو القمر، وهو لا يسبق الشمس. بالحركة اليومية السريعة والمراد من الليل هناك: نفس الليل، وكل واحد لما كان في عقب الآخر كان طالبه». انتهى. وعرض له هذا السؤال لكونه جعل الضمير الفاعل في (يطلبه) عائداً على النهار، وضمير المفعول عائداً على (الليل) والظاهر أن ضمير الفاعل عائد على ما هو الفاعل في المعنى وهو الليل، لأنه كان قبل دخول همزة النقل (يعشى الليل النهار) وضمير المفعول عائد على النهار، لأنه المفعول قبل النقل وبعده، وقرأ عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي (سابق) بغير تنوين (النهار) بالنصب، قال المبرد: «سمعتهم يقرأون فقلت ما هذا؟ قال: أردت سابق النهار فحذفت، لأنه أخف». انتهى. وحذف التنوين فيه لالتقاء الساكنين وتقدم شرح ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ [الأنبياء: ٣٣] في سورة الأنبياء والظاهر من الذرية أنه يراد به الأبناء ومن نشأ منهم. وقيل: ينطلق على الآباء وعلى الأبناء. قاله أبو عثمان، وقال ابن عطية: «هذا تخليط ولا يعرف هذا في اللغة». انتهى. وتقدم الكلام في الذرية في آل عمران. والظاهر: أن الضمير في (لهم) وفي (ذرياتهم) عائد على شيء واحد، فالعنى: أنه تعالى حمل ذريات هؤلاء وهم آباؤهم الأقدمون في سفينة نوح - عليه السلام - قاله ابن عباس، وجماعة. ومن مثله للسفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة، أو أريد بقوله (ذرياتهم) حذف مضاف. أي: ذريات جنسهم، وأريد بالذرية: من لا يطبق المشي والركوب من الذرية والضعفاء (والفلك)، اسم جنس من عليهم بذلك. وكون الفلك مراداً به الجنس. قاله ابن عباس أيضاً، ومجاهد والسدي ومن مثله الإبل وسائر ما يركب. وقيل: الضميران مختلفان. أي: ذرية القرون الماضية قاله علي بن سليمان. وكان آية هؤلاء، إذ هم نسل تلك الذرية، وقيل: الذرية: النطف (والفلك المشحون) بطون النساء. ذكره الماوردي، ونسب إلى علي بن أبي طالب. وهذا لا يصح، لأنه من نوع تفسير الباطنية، وغلاة المتصوفة الذين يفسرون كتاب الله على شيء لا يدل عليه اللفظ بجهة من جهات الدلالة، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويدل على أنه أريد ظاهر الفلك قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) يعني: الإبل والخيل والبغال والحمير. والمائلة في أنه مركوب مبلغ للأوطان فقط. هذا إذا كان الفلك جنساً، وأما إن أريد به سفينة نوح فالمائلة تكون في كونها سفناً مثلها، وهي الموجودة في بني آدم وبعده قول من قال «الذرية في الفلك»: قوم نوح في سفينته والمثل: الأجل وما يركب»، لأنه يدفعه قوله (وإن نشأ نغرقهم)، وقرأ نافع وابن عامر والأعمش وزيد بن علي وأبان بن عثمان (ذرياتهم) بالجمع وكسر زيد وأبان الذال. وباقي السبعة وطلحة وعيسى بالإفراد، وقال الزمخشري (ذريتهم) أولادهم ومن يهملهم حمله». وقيل: اسم الذرية يقع على النساء لأنهن مزارعها، وفي الحديث: «أنه نهي عن قتل الذراري يعني النساء». (من مثله) من مثل الفلك (ما يركبون) من الإبل وهي سفائن البر. وقيل (الفلك المشحون) سفينة نوح، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها، أنه حمل فيها آباؤهم الأقدمون، وفي أصلهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح، (ومن مثله) من مثل ذلك الفلك (ما يركبون) من السفن» انتهى. وقال أبو عبد الله الرازي: «إنما خص الذريات بالذكر، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم. أي: لم يكن الحمل حلاً لهم وإنما كان حلاً لما في أصلهم من المؤمنين». وقال أيضاً: «الضمير في (وآية لهم) عائد على العباد في قوله (يا حسرة على العباد) ثم قال بعد (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) (وآية لهم الليل وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) ذريات العباد، ولا يلزم أن يكون الضمير في الموضعين المعنيين فهو كقوله: ﴿لا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩] وإنما يريد. لا يقتل بعضكم بعضاً، فكذلك هذا (وآية لهم) أي: آية كل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم، أو ذرية بعض منهم». انتهى. والظاهر في قوله

(وخلقنا) أنه أريد الإنشاء والاختراع، فالمراد الإبل وما يركب، وتكون (من) للبيان وإن كان ما يصنعه الإنسان قد ينسب إلى الله خلقاً، لكن الأكثر ما ذكرنا، وإذا أريد به السفن تكون (من) للتبعيض، و(لهم) الظاهر عوده على ما عاد عليه (وآية لهم) لأنه المحدث عنهم. وجوز أن يعود على (الذرية) والظاهر: أن الضمير في (مثله) عائد على (الفلك)، وقيل: يعود على معلوم غير المذكور. وتقديره: من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) كما قالوا في قوله (من ثمرة) أي: من ثمر ما ذكرنا. وقرأ الحسن (نُغْرَقَهُمْ) مشدداً. والجمهور مخففاً. والصريح: فعيل بمعنى صارخ. أي: مستغيث. بمعنى مصرخ أي مغيث. وهذا معناه هنا. أي: فلا مغيث لهم ولا معين، وقال الزمخشري: «(فلا صريح لهم) أي: فلا إغاثة لهم». انتهى. كأنه جعله مصدراً من أفعال ويحتاج إلى نقل أن صريحاً يكون مصدراً بمعنى صارخ والظاهر: أن قوله (فلا صريح لهم) أي: لا مغيث لهؤلاء الذين شاء الله إغراقهم (ولا هم ينقذون) أي: ينجون من الموت بالغرق. نفى أولاً الصريح وهو خاص، ثم نفى ثانياً إنقاذهم بصريح أو غيره. وقال ابن عطية: «وقوله (فلا صريح لهم) استئناف إخبار عن المسافرين في البحر ناجين كانوا أو مغرقين، فهم في هذه الحال لا نجاة لهم إلا برحمة الله، وليس قوله (فلا صريح لهم) مربوطاً بالمغرقين، وقد يصح ربطه به، والأول أحسن فتأمله». انتهى. وليس بحسن ولا أحسن. والفاء في (فلا صريح لهم) تعلق الجملة بما قبلها تعليقاً واضحاً، وترتبط به ربطاً لائحاً، والخلاص من العذاب بما يدفعه من أصله، فنفي بقوله (فلا صريح لهم) وما يرفعه بعد وقوعه فنفي بقوله (ولا هم ينقذون) وانتصب (رحمة) على الاستثناء المفرغ للمفعول من أجله. أي: لرحمة منا. وقال الكسائي والزمخشري: «إلى حين». أي: إلى حين الموت. قاله قتادة. وقال الزمخشري: «إما الرحمة منا، وليتمتع بالحياة إلى حين. أي: إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق». انتهى. وإنما قال: «لا بد لهم من موت الغرق»، لأنه تعالى قال (وإن نشأ) أي: إغراقهم (نغرقهم) فمن شاء إغراقه لا بد أن يموت بالغرق. والظاهر: أن (رحمة) (ومتاعاً إلى حين) يكون للذين ينقذون، فلا يفيد الدوام بل ينقذه الله رحمة له، ويمتعه إلى حين ثم يمته. وقيل: فيه تقسيم إلا رحمة لمن علم أنه يؤمن فينقذه الله رحمة، ومن علم أنه لا يؤمن بمنعه زماناً ويزداد إثماً.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون، وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين، وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، ما ينظرون إلا صحيحة واحدة تأخذهم وهم يخضمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، إن كانت إلا صحيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون، فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

الضمير في (لهم) لقريش. و(ما بين أيديكم) قال قتادة ومقاتل: «عذاب الأمم قبلكم» (وما خلفكم) عذاب الآخرة. وقال مجاهد: عكسه. وقال الحسن: «خوفوا بما مضى من ذنوبهم وما يأتي منها»، وقال مجاهد أيضاً كقول الحسن: «ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر» (لعلكم ترحمون) وجواب (إذا) محذوف يدل عليه ما بعده. أي: أعرضوا (وما تأتيتهم من آية) أي: دأبهم الإعراض عند كل آية تأتيتهم (وإذا قيل لهم أنفقوا) لما أسلم حواشي الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين قطعوا عنهم ما كانوا يواسونهم به، وكان ذلك بمكة أولاً قبل نزول آيات القتال، فندبهم المؤمنون إلى صلة قراباتهم فقالوا (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) وقيل: سحق قريش بسبب أذية المساكين من مؤمن وغيره فندبهم النبي ﷺ - إلى النفقة عليهم فقالوا هذا القول. وقيل: قال فقراء المؤمنين أعطونا ما زعمتم من أموالكم إنها لله فحرموهم وقالوا

ذلك على سبيل الاستهزاء. وقال ابن عباس<sup>(١)</sup>: «كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة، قالوا: لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن، أو كانوا يسمعون المؤمنين يعلقون الأفعال بمشيئة الله لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعزه، ولو شاء لكان كذا، فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولون. وقال القشيري: «نزلت في قوم من الزنادقة لا يؤمنون بالصانع، استهزاء بالمسلمين بهذا القول. وقال الحسن: «(وإذا قيل لهم) أي: اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وجواب (لو نشاء) قوله (أطعمهم) وورود الموجب بغير لام فصيح، ومنه (أن لو نشاء أصبناهم) ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ [الواقعة ٧٠] والأكثر مجيئه باللام. والتصريح بالموضوعين من الكفر والإيمان، دليل على أن المقول لهم هم الكافرون. والقاتل لهم هم المؤمنون وإن كل وصف حامل صاحبه على ما صدر منه إذ كل إناء بالذي فيه يرشح. وأمروا بالإنفاق مما رزقكم الله، وهو عام في الإطعام وغيره فأجابوا بغاية المخالفة، لأن نفي إطعامهم يقتضي نفي الإنفاق العام، فكأنهم قالوا: لا تنفق ولا أقل الأشياء التي كانوا يسمحون بها، ويؤثرون بها على أنفسهم وهو الإطعام الذي به يفتخرون، وهذا على سبيل المبالغة، كمن يقول لشخص: أعط لزيد ديناراً فيقول: لا أعطيه درهماً. فهذا أبلغ من لا أعطيه ديناراً. والظاهر: أن قوله (إن أنتم إلا في ضلال مبين) من تمام كلام الكفار يخاطبون المؤمنين. أي: حيث طلبتم أن تطعموا من لا يريد الله إطعامه إذ لو أراد الله إطعامه لأطعمه هو. ويجوز أن يكون من قول الله لهم. استأنف زجرهم به، أو من قول المؤمنين لهم، ثم حكى تعالى عنهم ما يقولون على سبيل الاستهزاء والتعجيل لما توعدون به. أي: متى يوم القيامة الذي أنتم توعدوننا به، أو متى هذا العذاب الذي تهددوننا به. وهو سؤال على سبيل الاستهزاء منهم لما أمروا بالتقوى ولا يتقي إلا بما يخاف وهم غير مؤمنين. سألوهم متى يقع هذا الذي تخوفون به استهزاء منهم. (ما ينظرون) أي: ما ينتظرون. ولما كانت هذه الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها، وهذه هي النفخة الأولى، تأخذهم فيهلكون، وهم يتخاصمون. أي: في معاملاتهم وأسواقهم وفي أماكنهم من غير إمهال لتوصية ولا رجوع إلى أهل. وفي الحديث: «تقوم الساعة والرجلان قد نشر أثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم». وقيل: (لا يرجعون) إلى أهلهم قولاً. وقيل: ولا إلى أهلهم يرجعون أبداً. وقرأ أبي (يُحْتَصِمُونَ) على الأصل والحرميان وأبو عمرو والأعرج وشبل وابن فطنطين بإدغام التاء في الصاد ونقل حركتها إلى الخاء، وأبو عمرو أيضاً. وقالون يخالف بالاختلاس وتشديد الصاد. وعنهما إسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصم. وباقي السبعة بكسر الخاء وشد الصاد. وفرقة بكسر الياء اتباعاً لكسرة الخاء وشد الصاد. وقرأ ابن محيصن (يُرْجَعُونَ) بضم الياء وفتح الجيم، وقرأ الأعرج في (الصور) بفتح الواو. والجمهور بإسكانها. وقرئ (من الأجداف)<sup>(٢)</sup> بالفاء بدل التاء، وقرأ الجمهور بالتاء (يُنْسَلُونَ) بكسر السين. وابن أبي إسحاق وأبو عمرو بخلاف عنه بضمها. وهذه النفخة هي الثانية التي يقوم الناس أحياء عنها. ولا تنافر بين (ينسلون) وبين ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ [الزمر ٦٨] لأنه لا ينسل إلا قائماً، ولأن تفاوت الزمانين يجعله كأنه زمان واحد. وقرأ ابن أبي ليلى (يا وَيَلْتَنَّا) بقاء التانيث. وعنه أيضاً (يا وَيَلْتِي) بالتاء بعدها ألف بدل من ياء الإضافة ومعنى هذه القراءة: أن كل واحد منهم يقول يا ويلتي. والجمهور (مَنْ بَعَثْنَا) (مَنْ) استفهام. و(بعث) فعل ماض. وعلي وابن عباس والضحاك وأبو نهيك (مَنْ) حرف جر و(بَعَثْنَا) مجرور به. و(المردد) استعارة عن مضجع الميت. واحتمل أن يكون مصدرأ. أي: من رقادنا، وهو أجدود. أو يكون مكاناً، فيكون المفرد فيه يراد به الجمع، أي: من مراقدنا. وماروي عن أبي بن كعب ومجاهد وقتادة: «من أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر» فقالوا: هو غير صحيح الإسناد. وقيل: قالوا (من مرقدنا) لأن عذاب

(١) انظر القرطبي ٢٥/١٥، ٢٦ وابن كثير ٥٧٤/٣ وتفسير مجاهد ٥٣٥/٢.

(٢) الاجداف: الجدف القبر، وهو إبدال الجدد، والعرب تعقب بين الفاء والتاء في اللغة.

القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم . والظاهر : أن هذا ابتداء كلام فقيل : من الله على سبيل التوبيخ والتوقيف على إنكارهم ، وقال الفراء : « من قول الملائكة » . وقال قتادة ومجاهد : « من قول المؤمنين للكفار على سبيل التقرع »<sup>(١)</sup> . وقال ابن زيد : من قول الكفرة ، أو البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ، قالوا ذلك . والاستفهام بـ ( مَنْ ) سؤال عن الذي بعثهم . وتضمن قوله ( هذا ما وعد الرحمن ) ذكر الباعث . أي : الرحمن الذي عدكموه . و ( ما ) يجوز أن تكون مصدرية على سمة الموعد ، والمصدر فيه بالوعد والصدق ، وبمعنى الذي أي : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدق المرسلون . أي : صدق فيه من قولهم صدقت زيد الحديث . أي : صدقه فيه ومنه قولهم : صدقني سن بكره . أي : في سن بكره . وقال الزجاج : « ويجوز أن يكون إشارة إلى المرقد ثم استأنف ( ما وعد الرحمن ) ويضم الخبر حق أو نحوه ، وبعه الزمخشري ، فقال : « ويجوز أن يكون ( هذا ) صفة لـ ( المرقد ) . و ( ما وعد ) خبر مبتدأ محذوف . أي : هذا وعد الرحمن ، أو مبتدأ محذوف الخبر . أي : ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق عليكم » . انتهى . وتقدمت قراءة ( إلا صيحة ) بالرفع وتوجيهها . ( فاليوم ) هو يوم القيامة . وانتصب على الظرف . والعامل فيه ( لَأُظْلَمَ ) والظاهر : أن الخطاب لجميع العالم ، ويندرج فيه من تقدم ذكره . قيل : والصيحة قول إسرافيل - عليه السلام - : « أيها العظام النخرة ، والأوصال المنقطعة ، والشعور المتمزقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء » . وهذا معنى قوله تعالى ( يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ) .

﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة وهم ما يدعون ، سلام قولاً من رب رحيم ، وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التي كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ، ومن نمره نكسه في الخلق أفلا يعقلون ، وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ .

لما ذكر تعالى أهوال يوم القيامة ، أعقب ذلك بحال السعداء والأشقياء . والظاهر : أنه إخبار لنا بما يكونون فيه إذا صاروا إلى ما أعد لهم من الثواب والعقاب . وقيل : هو حكاية ما يقال في ذلك اليوم<sup>(٢)</sup> . وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعد له في النفوس ، وترغيب إلى الحرص عليه ، وفيها يشره . والظاهر : أن ( الشغل ) هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال . وقال قريباً منه مجاهد<sup>(٣)</sup> . وبعضهم خص هذا الشغل باقتضاض الأبيكار<sup>(٤)</sup> . قاله ابن عباس ، وعنه أيضاً : سماع الأوتار . وعن الحسن : « شغلوا عن ما فيه أهل النار » ، وعن الكلبي : « عن أهلهم من أهل النار ، لا يذكر ونهم لثلا يتنصصوا » . وعن ابن كيسان : « الشغل التزاور » . وقيل : « ضيافة الله ، وأفرد الشغل ملحوظاً فيه النعيم وهو واحد من حيث هو نعيم » . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بضم الشين وسكون الغين . وباقي السبعة بضمها . ومجاهد وأبو السمال وابن هبيرة فيما نقل ابن خالويه عنه بفتحيتين . ويزيد النحوي وابن هبيرة فيما نقل أبو الفضل الرازي بفتح الشين وإسكان الغين . وقرأ

(١) انظر القرطبي ٢٩/١٥ وابن كثير ٣/٥٧٤ وتفسير مجاهد ٢/٥٣٥ .

(٢) انظر القرطبي ٣٠/١٥ .

(٣) انظر تفسير مجاهد ٢/٥٣٦ والقرطبي ٣٠/١٥ .

(٤) انظر القرطبي ٣٠/١٥ وابن كثير ٣/٥٧٥ .

الجمهور (فاكهون) بالالف، والحسن، وأبو جعفر، وقتادة، وأبو حيو، ومجاهد، وشيبة، وأبو رجاء، ويحيى بن صبيح، ونافع في رواية بغير ألف. وطلحة، والأعمش (فاكهين) بالالف وبالياء نصباً على الحال. و(في شغل) هو الخبر. فبالالف أصحاب فاكهة، كما يقال: لابن، وتامر، وشاحم، ولاحم. وبغير ألف معناه: فرحون طربون. مأخوذ من الفكاهة. وهي: المزحة، وقرىء (فكهين) بغير ألف وبالياء. وقرىء (فكهُون) بضم الكاف يقال: رجل فكه وفكه نحو يديس ويُدس، ويجوز في (هم) أن يكون مبتدأ وخبره (في ضلال) و(متكثون) خبر ثان، أو خبره (متكثون) و(في ضلال) متعلق به، أو يكون تأكيداً للضمير المستكن في (فاكهون) و(في ضلال) حال و(متكثون) خبر ثان لـ (إن) أو يكون تأكيداً للضمير المستكن في شغل المنتقل إليه من العامل فيه. وعلى هذا الوجه والذي قبله يكون الأزواج قد شاركوهم في التفكه، والشغل، والاتكاء على الأرائك، وذلك من جهة المنطوق. وعلى الأول شاركوهم في الضلال والاتكاء على الأرائك من حيث المنطوق وهن قد شاركنهم في التفكه والشغل من حيث المعنى. وقرأ الجمهور (في ضلال)، قال ابن عطية: «وهو جمع ظل إذ الجنة لا شمس فيها، وإنما هواؤها سجاج، كوقت الأسفار قبل طلوع الشمس». انتهى، وجمع فعل على فعال في الكثرة نحو ذئب وذئاب. وأما أن وقت الجنة كوقت الإسفار قبل طلوع الشمس، فيحتاج هذا إلى نقل صحيح، وكيف يكون ذلك وفي الحديث ما يدل على حوراء من حور الجنة لو ظهرت لأضاءت منها الدنيا، أو نحو من هذا. قال: «ويحتمل أن يكون جمع ظلة»، قال أبو علي «كبرمة وبرام»، وقال منذر بن سعيد: «جمع ظلة بكسر الظاء»، قال ابن عطية: «وهي لغة في ظلة». انتهى. فيكون مثل لُقحة ولقاح، وفعل لا يتقاس في فعلة بل يحفظ. وقرأ عبد الله، والسلمي، وطلحة، وحمزة، والكسائي (في ظل) جمع ظلة وجمع فعلة على فعل مقيس. وهي عبارة عن الملابس، والمراتب من الحجال، والستور، ونحوها من الأشياء التي تظل. وقرأ عبد الله (متكثين) نصب على الحال و(يدعون) مضارع أَدعى، وهو افتعل من دعا، ومعناه: ولهم ما يتمنون. قال أبو عبيدة: «العرب تقول ادع على ما شئت بمعنى تمن علي. وتقول فلان في خير ما تمنى، قال الزجاج: «وهو من الدعاء، أي: ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم، وقيل: «يدعون به لأنفسهم». وقيل: «يتداعونه لقوله ارتموه وتراموه. وقرأ الجمهور (سَلام) بالرفع، قيل: وهو صفة لـ (ما) أي: مسلم لهم وخالص» انتهى. ولا يصح إن كان (ما) بمعنى الذي لأنها تكون إذ ذاك معرفة، و(سلام) نكرة ولا تنعت المعرفة بالنكرة، فإن كانت (ما) نكرة موصوفة جاز إلا أنه لا يكون فيه عموم كحالتها بمعنى الذي. وقيل: (سلام) مبتدأ ويكون خبره ذلك الفعل الناصب لقوله (قولاً) أي: سلام يقال قولاً (من رب رحيم) أو يكون (عليكم) محذوفاً. أي: سلام عليكم قولاً من رب رحيم، وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو سلام، وقال الزمخشري: «(سلام قولاً) بدل من (ما يدعون) كأنه قال لهم سلام، يقال لهم قولاً من جهة رب رحيم والمعنى: أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة، مبالغة في تعظيمهم. وذلك متمناهم (ولهم) ذلك لا يمنعونه. قال ابن عباس: «والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين». انتهى. وإذا كان (سلام) بدلاً من (ما يدعون) كان (ما يدعون) خصوصاً، والظاهر: أنه عموم في كل ما يدعون، وإذا كان عموماً لم يكن (سلام) بدلاً منه. وقيل (سلام) خبر (ما يدعون) و(ما يدعون) مبتدأ. أي: ولهم ما يدعون. سلام خالص لا شرب فيه. و(قولاً) مصدر مؤكد لقوله (ولهم ما يدعون سلام) أي: عدة من (رحيم)، قال الزمخشري: «والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازة». انتهى ويكون (لهم) متعلقاً على هذا الإعراب بـ (سلام)، وقرأ محمد بن كعب القرظي (سَلِم) بكسر السين وسكون اللام ومعناه سلام. وقال أبو الفضل الرازي: «مسالم لهم. أي: ذلك مسالم»، وقرأ أبي، وعبد الله، وعيسى والقنوي، (سلاماً) بالنصب على المصدر. وقال الزمخشري: «نصب على الحال. أي: لهم مرادهم خالصاً. وامتازوا اليوم) أي: انفردوا عن المؤمنين، لأن المحشر جمع البر والفاجر، فأمر المجرمون بأن يكونوا على حدة من المؤمنين. والظاهر: أن ثم قولاً محذوفاً. لما ذكر تعالى ما يقال للمؤمنين في قوله (سلام قولاً من رب رحيم) قيل: ويقال للمجرمين امتازوا. ولما امتلوا ما أمروا به، قال

لهم على جهة التوبيخ والتفريع (ألم أعهد إليكم) وقفهم على عهده إليهم ومخالفتهم إياه. وعن الضحاك: «لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى فعلى هذا معناه أن بعضهم من بعض». وعن قتادة: «اعتزلوا عن كل خير. والعهد: الوصية. عهد إليه: إذا وصاه. وعهد الله إليهم: ما ركز فيهم من أدلة العقل، وأنزل إليهم من أدلة السمع. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يغويه ويزينه. وقرأ الجمهور (أعهد) بفتح الهمزة والهاء، وقرأ طلحة والهدليل بن شرحبيل الكوفي بكسر الهمزة. قاله صاحب اللوامح: «وقال لغة تميم وهذا الكسر في النون والتاء أكثر من بين حروف المضارعة. يعني نَعْهَد وتَعْهَد». وقال ابن خالويه: «ألم أعهد، يحى بن وثاب ألم أحد لغة تميم». وقال ابن عطية: «وقرأ الهدليل بن وثاب (ألم أعهد) بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء وهي على لغة من كسر أول المضارع سوى الباء. وروي عن ابن وثاب: «ألم (أعهد) بكسر الهاء. يقال: عهد بعهد». انتهى. وقوله: «بكسر الميم والهمزة» يعني: أن كسر الميم يدل على كسر الهمزة لأن الحركة التي في الميم هي حركة نقل الهمزة المكسورة، وحذفت الهمزة حين نقلت حركتها إلى الساكن قبلها، وهو الميم (أعهد) بالهمزة المقطوعة المكسورة لفظاً لأن هذا لا يجوز. وقال الزمخشري: «وقرئ (أعهد) بكسر الهمزة. وباب فَعِلَ كله يجوز في حروف مضارعة الكسر<sup>(١)</sup> إلا في الباء وأُعْهَد بكسر الهاء. وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نَعَمَ يُنْعَمُ وضَرْبَ يَضْرَبُ وأُعْهَدَ بالخاء وأحد وهي لغة تميم ومنه قولهم: دَحَا مَحَا انتهى. وقوله: «إلا في الباء». لغة لبعض كلب: أنهم يكسرون أيضاً في الباء يقولون هل يعلم وقوله: دحا محا يريدون دحها معها، أدغموا العين في الخاء، والإشارة بهذا إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن. وقرأ نافع وعاصم (جِبَلًا) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام. وهي قراءة أبي حنيفة، وسهيل، وأبي جعفر، وشيبة، وأبي رجاء، والحسن بخلاف عنه، وقرأ العربيان، والهدليل بن شرحبيل، بضم الجيم وإسكان الباء. وباقي السبعة بضمها وتخفيف اللام. والحسن بن أبي إسحاق، والزهري، وابن هرمز، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وحفص بن حميد، بضميتين وتشديد اللام. والأشهب العقيلي، والبيان، وحماد بن مسلمة عن عاصم، بكسر الجيم وسكون الباء، والأعمش (جِبَلًا) بكسرتين وتخفيف اللام. وقرئ (جِبَلًا) بكسر الجيم، وفتح الباء وتخفيف اللام. جمع جِبَلَةٌ، نحو: «فَطَرَهُ وَفَطَّرَ فهذه سبع لغات قرئ بها. وقرأ علي بن أبي طالب وبعض الخراسانيين (جِبَلًا) بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف. واحد الأجيال. و(الجِبَل) بالباء بواحدة من أسفل الأمة العظيمة. وقال الضحاك: «أقله عشرة آلاف». خاطب تعالى الكفار بما فعل معهم الشيطان، تقريراً لهم. وقرأ الجمهور (أفلم تكونوا) بقاء الخطاب. وطلحة وعيسى بياء الغيبة عائداً على (جبل) وروى: «أنهم يجحدون ويخاصمون، فيشهد عليهم جيرانهم وعشائرتهم، وأهلهم فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم». وفي الحديث. «يقول العبد يوم القيامة. إني لا أجزى عليّ شاهد إلا من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انظري فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقال بُعْدًا لَكِنَّ وَسَحَقًا، فعنكَنْ كنت أناضل». وقرئ (يُخْتَم) مبنياً للمفعول (وتكلم أيديهم) بقاء بين وقرئ (وَلْتَكَلِمْنَا أيديهم وَلْتَشْهَدْ) بلام الأمر والجزم. على أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة. وروى عيد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده طلحة أنه قرأ (ولتكلمنا أيديهم ولتشهد) بلام كي، والنصب على معنى: وكذلك يختم على أفواههم. والظاهر: أن الأعين: هي الأعضاء المبصرة. والمعنى: لأعينناهم فلا يرون كيف يمشون؟ قاله الحسن وقتادة ويؤيده مناسبة المسخ فهم في قبضة القدرة وبروج العذاب إن شاء الله لهم. وقال ابن عباس: «أراد عين البصائر، والمعنى: ولو نشاء لختمت عليهم بالكفر فلا يبتدي منهم أحد أبداً. والطمس: إذهاب الشيء وأثره جملة حتى كأنه لم يوجد فإن أريد بالأعين الحقيقة، فالظاهر: أنه يطمس بمعنى يمسح حقيقة، ويجوز أن يكون الطمس: يراد به العمى من غير إذهاب العضو وأثره، وقرأ الجمهور (فاسْتَبَقُوا) فعلاً ماضياً، معطوفاً على (لَطَمْنَا) وهو على الفرض والتقدير. (والصراط) منصوب على

(١) شرح الشافية، ١/١٤١/٢ الكتاب ٢٥٦/٢ التصريح ١١٨/٢ شرح المفصل ١/١٣٤.



تقدير إلى حذف، ووصل الفعل . والأصل : (فاستبقوا إلى الصراط) أو مفعولاً به على تضمين (استبقوا) معنى : «تبادروا» . وجعله مسبوفاً لا مسبوقاً إليه . قال الزمخشري<sup>(١)</sup> : «أو ينتصب على الظرف، وهذا لا يجوز، لأن الصراط هو الطريق، وهو ظرف مكان مختص لا يصل إليه الفعل إلا بوساطة في» إلا في شذوذ<sup>(٢)</sup>، كما أنشد سيبويه :

لَدُنْ بِهِزْ الْكُفِّ يَعْسَلُ مَتْنُهُ      فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ الثُّغْلُبُ<sup>(٣)</sup>

ومذهب ابن الطراوة : «أن الصراط والطريق، والمخرم وما أشبهها من الظروف المكانية ليست مختصة» . فعلى مذهبه يسوغ ما قاله الزمخشري<sup>(٤)</sup> . وقرأ عيسى (فَأَسْتَبِقُوا) على الأمر، وهو على إضمار القول . أي : فيقال لهم : استبقوا الصراط، وهذا على سبيل التمجيز، إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين (فأني يبصرون) أي : كيف يبصر من طمس على عينه، والظاهر : أن المسخ حقيقة، وهو تبديل صورهم بصور شنيعة . قال ابن عباس : «لمسخانهم قردة وخنازير كما تقدم في بني إسرائيل» . وقيل : حجارة . وقال الحسن وقتادة وجماعة : «لأقعدناهم وأزمانهم فلا يستطيعون تصرفاً»، والظاهر : أن هذا لو كان يكون في الدنيا . وقال ابن سلام : «هذا التوعد كله يوم القيامة»، وقرأ الحسن (على مكاتهم) بالإفراد وهي المكان كالقمامة والمقام . وقرأ الجمهور، وأبو بكر، بالجمع . والجمهور (مُضِيًّا) بضم الميم . وأبو حيوة وأحمد بن جبير الأنطاكي، عن الكسائي بكسرها اتباعاً لحركة الضاد كالعتيبي والقنبي وزنه . فَعُولُ التقت واو ساكنة وياء فأبدلت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها لتصح الياء . وقرئ (مُضِيًّا) بفتح الميم، فيكون من المصادر التي جاءت على فَعِيل كالرَّسِيمِ وَالْوَجِيفِ . ولما ذكر تعالى الطمس والمسخ على تقدير المشبه، ذكر تعالى دليلاً على باهر قدرته في تنكيس العمر وأن ذلك لا يفعله إلا هو تعالى وتنكيسه قلبه وجعله على عكس ما خلقه أولاً، وهو أنه خلقه على ضعف في جسد، وخلو من عقل وعلم، ثم جعله يتزايد وينتقل من حال إلى حال إلى أن يبلغ أشده، وتستكمل قوته، ويعقل ويعلم ما له وما عليه . فإذا انتهى نكسه في الخلق، فيتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبا في ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوه من الفهم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله . وفي هذا كله دليل على أن من فعل هذه الأفاعيل قادر على أن يطمس، وأن يفعل بهم ما أراد . وقرأ الجمهور (نُكِّسَهُ) مشدداً . وعاصم وحزمة مخففاً . وقرأ نافع وابن ذكوان، وأبو عمرو في رواية عباس (تَعْقُلُونَ) بناء الخطاب . وباقي السبعة بياء الغيبة . (وما علّمناه الشُّعْرَ) الضمير في (علّمناه) للرسول - ﷺ - كانوا يقولون فيه شاعر . وروي أن القائل عقبة بن أبي معيط فنفى الله ذلك عنه، وقولهم فيه شاعر . أما من كان في طبعه الشعر، فقوله مكابرة وإيهام للجاهل بالشعر، وأما من ليس في طبعه، فقوله جهل محض، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخيل، وتزويق الكلام، وغير ذلك مما يتورع المتدين عن إنشاده فضلاً عن إنشائه، وكان عليه السلام لا يقول الشعر وإذا أنشد بيتاً أحرز المعنى دون وزنه كما أنشد :

سَبِّدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا      وَيَأْتِيكَ مِنْ لَمَّ تُرَوِّدُ بِالْأَخْبَارِ<sup>(٥)</sup>

وقيل من أشعر الناس فقال الذي يقول :

(١) انظر الكشاف ٢٥/٤ .

(٢) اجمع ٢٠٠/١ الصبان ١٢٩/٢ . شرح الفصل ٤٤/٢ شرح الكافية ١٨٦/١ .

(٣) تقدم .

(٤) انظر الكشاف ٢٥/٤ .

(٥) انظر البيت في القرطبي (٣٦/١٥) روح المعاني (٤٩/٢٣) .

أَلَمْ تَرَيَانِي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا      وَجَدْتُ بِهَا وَإِنْ لَمْ تَطَّيْبْ طَيْبًا (١)  
أَتَجَعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبْدِ      بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ (٢)

وأنشد يوماً:

كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ نَاهِيًا (٣)

فقال أبو بكر وعمر: نشهد أنك رسول الله إنما قال الشاعر: كفى الشيب والإسلام. وربما أنشد البيت مترنماً في النادر. وروي عنه، أنشد بيت ابن رواحة:

بَيْتٌ يُجَافِي جَنْبَهُ عَن فِرَاشِهِ      إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ (٤)

ولا يدل إجراء البيت على لسانه مترنماً أنه يعلم الشعر، وقد وقع في كلامه - عليه السلام - ما يدخله الوزن كقوله:

أَنَا النَّسِيُّ لَا كَذِبٌ      أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (٥)

وكذلك قوله:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا أَصْبَعُ دَمِيَّتِ      وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ (٦)

وهو كلام من جنس كلامه الذي كان يتكلم به على طبيعته من غير صنعة فيه، ولا قصد لوزن، ولا تكلف. كما يوجد في القرآن شيء موزون، ولا يعد شعراً. كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وفي كثير من النثر الذي تنشئه الفصحاء. ولا يسمى ذلك شعراً، ولا يحظر ببال المنشي ولا السامع أنه شعر. (وما ينبغي له) أي: ولا يمكن له، ولا يصح، ولا يناسب، لأنه - عليه السلام - في طريق جد محض، والشعر أكثره في طريق هزل، وتحسين لما ليس حسناً، وتقبيح لما ليس قبيحاً، ومغالاة مفرطة، جعله تعالى لا يقرض الشعر، كما جعله أمياً لا يخط، لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدهض. وقيل: في هذه الآية دلالة على غضاضة الشعر، وقد قال عليه السلام: «ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي». وذهب قوم إلى أنه لا غضاضة فيه، وإنما منعه الله نبيه - عليه الصلاة والسلام - وإن كان حلية جليلة ليجيء القرآن من قبله أغرب فإنه لو كان له إدراك الشعر لقليل في القرآن هذا من تلك القوة، قال ابن عطية: «وليس الأمر عندي كذلك، وقد كان - عليه السلام - من الفصاحة والبيان. في النثر في الرتبة العليا، ولكن كلام الله يبين بإعجازه، ويندر بوضفه، ويخرجه إحاطة علم الله عن كل كلام، وإنما منع الله نبيه من الشعر، ترفيعاً له عن ما في قول الشعراء من التخيل والتزيق للقول. وأما القرآن فهو ذكر بحقائق وبراهين، فما هو بقول شاعر. وهذا كان أسلوب كلامه - عليه السلام - قولاً واحداً. انتهى. والضمير في (له) للرسول. أي: وما ينبغي الشعر لرسول الله - ﷺ -. وأبعد من ذهب إلى أنه عائد على القرآن. أي: وما ينبغي الشعر للقرآن ولم يجز له ذكر، لكن له أن يقول يدل الكلام عليه، ويبينه عود الضمير عليه في قوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) أي: كتاب سماوي يقرأ في المحارب، وينال

(١) انظر البيت في القرطبي (٣٦/١٥) روح المعاني (٤٩/٢٣).

(٢) انظر البيت في القرطبي (٣٦/١٥) روح المعاني (٤٩/٢٣).

(٣) تقدم.

(٤) انظر البيت في القرطبي (٣٦/١٥) روح المعاني (٤٨/٢٣).

(٥) تقدم.

(٦) انظر البيت في القرطبي (٣٦/١٥) روح المعاني (٤٩/٢٣).

بتلاوته، والعمل به، ما فيه فوز الدارين. فكفم بينه وبين الشعر الذي أكثره من همزات الشياطين. وقرأ نافع وابن عامر (لتنذر) بقاء الخطاب للرسول. وباقي السبعة بالياء للغيبة، فاحتمل أن يعود على الرسول، واحتمل أن يعود على القرآن. وقرأ الياني (لَيُنذِر) بالياء مبنياً للمفعول، ونقلها ابن خالويه عن الجحدري، وقال عن أبي السمال والياني: «إنهما قرأ (لَيُنذِر) بفتح الياء والذال مضارع نذير بكسر الذال إذا علم بالشيء فاستعد له. (من كان حياً) أي: غافلاً، قاله الضحاك لأن الغافل كالميت ويريد به من حتم عليه بالإيمان، وكذلك قابله بقوله (ويحق القول) أي: كلمة العذاب على الكافرين المحتوم لهم بالموافاة على الكفر.

﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون، ولذلكناها لهم فمنا ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون، واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون، فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون، أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾.

الإخبار وتنبية الاستفهام لقريش وإعراضها عن عبادة الله، وعكوفها على عبادة الأصنام. ولما كانت الأشياء المصنوعة لا يباشرها البشر إلا باليد عبر لهم بما يقرب من أفهامهم بقوله (مما عملت أيدينا) أي: مما تولينا عمله، ولا يمكن لغيرنا أن يعملها، فبقدرتنا وإرادتنا برزت هذه الأشياء، لم يشركنا فيها أحد. والباري تعالى منزه عن اليد التي هي الجارحة وعن كل ما اقتضى التشبيه بالمحدثات. وذكر الأنعام لها، لأنها كانت جل أمواهم، ونبه على ما يجعل لهم من منافعها (لها مالكون) أي: ملكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالانتفاع بها، أو (مالكون) ضابطون لها، قاهرونها. من قوله:

أَضْبَحْتُ لَا أُحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرًا<sup>(١)</sup>

أي: لا أضبطه، وهو من جملة النعم الظاهرة فلولا تذييله تعالى إياها وتسخيره لم يقدر عليها، ألا ترى إلى ما نذ منها ألا يكاد يقدر على رده، لذلك أمر بتسبيح الله راعيها، وشكره على هذه النعمة، بقوله: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ [الزخرف: ١٣]، وقرأ الجمهور (رُكُوبُهُمْ) وهو فَعُول بمعنى مَفْعُول كَالْحُضُورِ وَالْحُلُوبِ وَالْقُدُوعِ<sup>(٢)</sup> وهو مما لا يتقاس. وقرأ أبي وعائشة (رُكُوبُهُمْ) بالتاء وهي فَعُولَةٌ بمعنى مفعولة. وقال الزمخشري: «وقيل: الرُّكُوبَةُ جمع». انتهى. ويعني اسم جمع، لأن فَعُولَةٌ، فينبغي أن يعتقد فيها أنها اسم مفرد لا جمع تكسير، ولا اسم جمع. أي: مركوبتهم، كالحلوبة بمعنى المحلوبة. وقرأ الحسن، وأبو البرهيثم، والأعمش (رُكُوبُهُمْ) بضم الراء وبغير تاء، وهو مصدر حذف مضافه. أي: ذوركوبهم أو فحسن منافعها ركوبهم، فيحذف ذو، أو يحذف منافع. قال ابن خالويه: «العرب تقول: ناقة ركوب حلوب. وركوبة حلوبة، وركبة حلبة، وركوب حلوب وركبي حلبي وركبوتاً حلبوتاً، كل ذلك محكي. وأنشد:

(١) البيت في روح المعاني (٢٣/٥٠).

(٢) القُدُوعُ: الخنثى والفحش، قزعه ويقزعه قزعاً وأقزعه له إقزاعاً: رماه بالفحش وأساء القول فيه.

رَكْبَانَةٌ حَلْبَانَةٌ رُفُوفٌ تَخْلِطُ بَيْنَ وَبَرٍ وَصُوفٍ<sup>(١)</sup>

وأجل المنافع هنا، وفصلها في قوله (وجعل لكم من جلود الأنعام) الآية والمشارب: جمع مُشْرَب، وهو إما مصدر. أي: شرب أو موضع الشرب. ثم عنفهم واستجْهَلهم في اتخاذهم آفة لطلب الاستنصار (لا يستطيعون) أي: الآلة نصر متخذينهم. وهذا هو الظاهر لما اتخذوهم آفة للاستنصار بهم رد تعالى عليهم بأنهم ليس لهم قدرة على نصرهم. وقول ابن عطية: «ويحتمل أن يكون الضمير في (يستطيعون) عائداً للكفار، وفي (نصرهم) للأصنام». انتهى. والظاهر: أن الضمير في (وهم) عائد على ما هو الظاهر في (لا يستطيعون) أي: والآلة للكفار (جند محضرون) في الآخرة عند الحساب على جهة التوبيخ والنقمة. وسأهم جنداً، إذ هم معدون للنقمة من عابديهم، وللتوبيخ. أو محضرون لعذابهم، لأنهم يجعلون وقوداً للنار. قيل: ويجوز أن يكون الضمير في (وهم) عائداً على الكفار، وفي (لهم) عائداً على الأصنام. أي: وهم الأصنام (جند محضرون) متعصبون لهم، متحIRON، يذبون عنهم، يعني في الدنيا. ومع ذلك لا يستطيعون أي: الكفار التناصر. وهذا القول مركب على أن الضمير في (لا يستطيعون) للكفار. ثم آتس تعالى نبيه بقوله (فلا يحزنك قولهم) أي: لا يهكم تكذيبهم، وأذاهم، وجفاؤهم. وتوعد الكفار بقوله (إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) فنجازيهم على ذلك. (أو لم ير الإنسان) قبح تعالى إنكار الكفرة البعث حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو نطفة ماء مهين، خارج من مخرج النجاسة، أفضى به مهانة أصله إلى أن يخاصم الباري تعالى، ويقول: من يحيي الميت بعد ما رم مع علمه أنه منشأ من موات. وقائل ذلك العاصي بن وائل، أو أمية بن خلف، أو أبي بن خلف. أقوال. أصحها أنه أبي بن خلف. رواه ابن وهب عن مالك، وقاله ابن إسحاق وغيره. والقول: أنه أمية قاله مجاهد، وقتادة، ويحتمل أن كلاً منهم واقع ذلك منه. وقد كان لأبي مع الرسول مراجعات ومقامات. «جاء بالعظم الرميم<sup>(٢)</sup> بمكة ففتته في وجهه الكريم وقال من يحيي هذا يا محمد؟ فقال: الله يحييه ويميتك ويحيي ويدخلك جهنم» ثم نزلت الآية. وأبي هذا قتله رسول الله - ﷺ - بيده يوم أحد بالحربة، فخرجت من عنقه<sup>(٣)</sup>. ووهم من نسب إلى ابن عباس أن الجاثي بالعظم هو عبد الله بن أبي ابن سلول، لأن السورة والآية مكية بإجماع ولأن عبد الله بن أبي لم يهاجر قط هذه المهاجرة. وبين قوله (فإذا هو خصيم مبين) وبين (خلقناه من نطفة) جملة محذوفة تبين أكثرها في قوله في سورة المؤمنون، «ثم جعلناه نطفة في قرار مكين» [المؤمنون: ١٣] وإنما اعتقب قوله (فإذا هو خصيم مبين) الوصف الذي آل إليه من التمييز، والإدراك الذي يتأتى معه الخصام. أي: فإذا هو بعدما كان نطفة، رجل مميز منطوق، قادر على الخصام، مبين معرب عما في نفسه. (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه) أي: نشأته من النطفة فذهل عنها، وترك ذكرها، على طريق اللدد والمكابرة والاستبعاد لما لا يستبعد. وقرأ زيد بن علي (ونسي خلقه) اسم فاعل. والجمهور (خَلَقَهُ) أي نشأته. وسمي قوله (من يحيي العظام وهي رميم) لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكار قدرة الله على إحياء الموتى كما هم عاجزون عن ذلك. وقال الزمخشري: «والرميم: اسم لما يلي من العظام غير صفة كالرمة والرفاة، فلا يقال لم لم يؤنث وقد وقع خيراً مؤنث، ولا هو فاعيل أو مفعول؟ انتهى. واستدل بقوله (قل يحييها) على أن الحياة تحلها. وهذا الاستدلال ظاهر ومن قال إن الحياة لا تحلها، قال المراد بإحياء العظام ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حسن حساس. (وهو بكل خلق عليم) يعلم كيفيات ما يخلق لا يتعاطمه شيء من المنشآت والمعادات جنساً، ونوعاً، دقة وجلالة. (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) ذكر ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة وهو إبراز الشيء من ضده وذلك

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (حلب).

(٢) الرميم: الخلق البالي.

لسان العرب (٣/١٧٣٧)

(٣) انظر ابن كثير ٥٨١/٣.

أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر ألا ترى أن الماء يطفىء النار ومع ذلك خرجت عما هو مشتمل على الماء. والأعراب تورى النار من الشجر الأخضر وأكثرها من المرخ، والعفرار. وفي أمثالهم: «في كل شيء نار، واستمجد المرخ<sup>(١)</sup> والعفرار<sup>(٢)</sup>». يقطع الرجل منها غصنين - مثل السواكين - وهما أخضران، يقطر منها الماء، فيستحق المرخ وهو ذكر والعفرار وهي أنثى، ينقدح النار بإذن الله عز وجل. وعن ابن عباس: «ليس شجر إلا وفيه نار إلا العفار». وقرأ الجمهور (الأخضر) وقرىء (الخضراء) وأهل الحجاز يؤثنون الجنس المميز. واحده بالياء. وأهل نجد يذكرون ألفاظاً، واستثنت في كتب النحو. ثم ذكر ما هو أبدع وأغرب من خلق الإنسان من نطفة، ومن إعادة الموت وهو إنشاء هذه المخلوقات العظيمة الغربية من صرف العدم إلى الوجود فقال (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقرأ الجمهور (بقادر) بياء الجر داخله على اسم الفاعل. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وسلام، ويعقوب، (بِقَدْرٍ) فعلاً مضارعاً. أي: مَنْ قدر على خلق السموات والأرض من عظم شأنها كان على خلق الأناس قادراً والضمير في (مثلهم) عائداً على الناس. قاله الرماني، وقال جماعة من المفسرين: «عائد على السموات والأرض» وعاد الضمير عليهما كضمير من يعقل من حيث كانت متضمنة من يعقل من الملائكة والثقلين. وقال الزمخشري: «(مثلهم) يحتمل معنيين، أن يخلق مثلهم في الصغر والقضاء بالإضافة إلى السموات والأرض. أو أن يعيدهم لأن المصادر مثل للمبتدأ وليس به». انتهى. ويقول: إن المعاد هو عين المبتدأ ولو كان مثله لم يسم ذلك إعادة، بل يكون إنشاء مستأنفاً. وقرأ الجمهور (الخالق) بصيغة المبالغة لكثرة مخلوقاته. وقرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار، وزيد بن علي (الخالق) اسم فاعل (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) تقدم شرح مثل هذه الجملة. والخلاف في (فيكون) من حيث القراءة نصباً ورفعاً. (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) تنزيه عام له تعالى من جميع النقص. وقرأ الجمهور (مَلَكُوت) وطلحة والأعمش (مَلَكَةٌ) على وزن شجرة. ومعناه: ضبط كل شيء والقدرة عليه. وقرىء (مَلَكَةٌ) على وزن مَفْعَلَة. وقرىء (مَلِكٌ) والمعنى: أنه متصرف فيه على ما أراد وقضى. والجمهور (تُرْجِعُونَ) مبنياً للمفعول وزيد بن علي مبنياً للفاعل.

(١) المُرْخُ: من شجر النار: معروف. والمرخ شجر كثير الورى سريعه.

لسان العرب (٦/٤١٧١)

(٢) العَفَّارُ: شجر تُقَدِّحُ منه النار. وفي المثل: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفرار» انظر الصحاح، م (عفر).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۚ فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ۚ فَالتَّلْبِيتِ ذِكْرًا ۚ إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ۚ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا  
 بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۚ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بَرِيَّةِ الْكَوْكَبِ ۚ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۚ لَا  
 يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۚ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۚ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ  
 فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۚ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ حَلَقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ۚ بَلْ  
 عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۚ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۚ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۚ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ  
 ۚ أءَا دَأْمَنَا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۚ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۚ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۚ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ  
 وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۚ وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۚ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۚ  
 ۞ أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۚ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۚ وَقَفَّوهُمْ إِيَّاهُمْ  
 مَسْئُولُونَ ۚ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ۚ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ ۚ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ قَالُوا إِنَّا كُنْمْ  
 كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۚ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ  
 ۚ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَأَدَابِقُونَ ۚ فَأَغْوَيْتَكُمُ إِنَّا كُنَّا عَالِمِينَ ۚ فَاتَّبَعْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ۚ  
 إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۚ إِنْتُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۚ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا  
 ۚ إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مُّجْتَوِمٍ ۚ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ۚ إِنَّكُمْ لَأَقْبِلُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ وَمَا تُحْزَنُونَ  
 إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ۚ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۚ فَوَكَهَهُمْ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ۚ فِي  
 جَنَّتِ النَّعِيمِ ۚ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۚ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ۚ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِيِّينَ ۚ لَا فِيهَا  
 غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُذْفَرُونَ ۚ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۚ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۚ فَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ  
 عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۚ يَقُولُ أَءَأَنْتَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ۚ أءَا دَأْمَنَا وَكُنَّا

تُرَابًا وَعِظْمًا إِيَّانَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظَلِّعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ  
لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَلَّتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ  
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُمِثِلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ  
الزَّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّمَا شَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلَعَهَا كَأَنَّ رُءُوسَ  
الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ  
مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ  
أَكْثَرُ الْأُولَىٰ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا  
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَحْنُ نُهُ وَأَهْلُهُمْ مِنَ الْكُرْبِ  
الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ  
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّابْرَاهِيمَ ﴿٨٤﴾  
إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٥﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَاءَ إِلَهَةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا  
ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنُؤَلُوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ  
إِلَهِيهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صُرُبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ  
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا أَبْنَاؤُا لِمُ بَنَيْنَا فَالْقُوَّةُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ  
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

الزجر: الدفع عن الشيء بتسليط وصياح. والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعي الإبل والغنم إذا صاح  
عليها فرجعت لصوته. قال الشاعر:

زَجَرَ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعَ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَنَّ بِالْغَنَمِ (١)

يريد تصويته بها. الثاقب: الشديد النفاذ. اللازب: اللازم ما جاوره واللاصق به. اللذيذ: المستطاب. يقال: لذ  
الشيء يلد فهو لذيد. ولد على وزن فَعَلَ كـ (طَلَبَ)، قال الشاعر:

تَلَذُّ بِطَعْمِهِ وَتَخَالُ فِيهِ إِذَا نَبَّهَتْهَا بَعْدَ الْمَنَامِ (٢)

(١) في المنسرح للناطقة الجعدي انظر ديوانه (١٥٨) الكامل (١٦٥/٢) روح المعاني (٦٥/٢٣).

(٢) من الوافر للناطقة الذبياني انظر ديوانه (١٣٢).

وقال :

تَلَذَّ كَطَعْمِ الصَّرْحَدِيِّ تَرَكَّتَهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ<sup>(١)</sup>

يريد: النوم.

بِحَدِيثِكَ الَّذِي لَوْ كَلَّمْتُ أَسَدَ الْفَلَاةِ بِهِ أَتَيْنَ سِرَاعًا<sup>(٢)</sup>

الغول: اسم عام في الأذى. تقول: غاله كذا وكذا: إذا ضره في خفاء، ومنه الغيلة في العقل، والغيلة في الرضاع، وغاله الشيء: أهلكه وأفسده، ومنه الغول التي في أكاذيب العرب وفي أمثالهم: «الغضب غول الحلم»، وقال الشاعر:

مَضَى أَوْلُونَا نَاعِمِينَ بَعِيثِهِمْ جَمِيعاً وَعَالَتْنِي بِمَكَّةَ غَوْلٌ<sup>(٣)</sup>

أي: عاقبتني عوائق، وقال:

وَمَا زَالَتِ الْخَمْرُ تُغْتَالِنَا وَتَذْهَبُ بِالأَوَّلِ الأَوَّلِ<sup>(٤)</sup>

نزفت الشارب الخمر وأنزف هو: ذهب عقله من السكر، فهو نزيف، ومنزف. الثلاثي متعد. والرباعي لازم، نحو: كَبَيْتَ الرَّجْلَ وَأَكَبَّ وَقَشَعَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ وَأَقْشَعَ هَوَايَ. دخلا في الكب والقشع، قال الشاعر، وهو الأسود:

لَعَمْرِي لَيْسَ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ لَيْسَ السُّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرٍ<sup>(٥)</sup>

ونُزِفَ الشَّارِبُ بضم الزاي، ويقال: نُزِفَ المَطْعُونُ ذَهَبَ دَمُهُ كُلَّهُ. مبنياً للمفعول: ونزحت الركية حتى نزفتها: لم يبق فيها ماء، ويقال أنزف الرجل بعد شرابه فنُزِفَ (مشترك بين سكر ونفد، البيض: معروف وهو اسم جنس الواحد بيضة، وسمي بذلك، لبياضه، ويجمع على بيوض. قال الشاعر:

بِتَيْهَاءَ قَفْرٍ وَالْمِطْيَى كَأَنَّهَا قَطَا الحُرْنَ قَدْ كَانَتْ فِرَاحاً بِيَوْضُهَا<sup>(٦)</sup>

الرقوم: شجرة مسمومة لها لبن إن مس جسم إنسان تورم ومات منه في أغلب الأمر. تنبت في البلاد المجاورة للصحراء. والتزقم: البلع على شدة وجهد. شاب الشيء بالشيء يشوبه شوباً: خلطه ومزجه. راغ يروغ: مال في خفية من روعة الثعلب. زف<sup>(٧)</sup>: أسرع. وأزف: دخل في الزفيف فهمزته به ليست للتعدية. وأزفه: حمله على الزفيف. قال

(١) نسب البيت للراعي هكذا في اللسان (لذذ) وانظر القرطبي (٥٣/١٥) روح المعاني (٨٧/٢٣).

(٢) البيت من الكامل ذكره السمين في الدر المصون.

(٣) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون. روح المعاني (٨٧/٢٣).

(٤) البيت من المتقارب لمطيع بن إياس. انظر مجاز القرآن (١٦٩/٢) الطبري (٣٥/٢٣) القرطبي (٧٩/١٥).

(٥) من الطويل نسبة أبو عبيدة للأبيرد الرياحي ونسبه القرطبي للحطيفة انظر اللسان (نزف) مجاز القرآن (١٦٩/٢) القرطبي (٧٩/١٥) المحتسب (٣٠٨/٢).

(٦) البيت من الطويل لعمر بن بحر. انظر الخزانة (٢٠١/٩) ابن يعيش (١٠٢/٧) الأشموني (٢٣٠/١) اللسان (عرض) روح المعاني ٨٩/٢٣.

(٧) الزف، الزفيف: سرعة تقارب خطو وسكون.



الأصمعي: «فلهزمة فيه للتعدية»، وقال الشاعر - وهو الفرزدق -:

فَجَاءَ فَرِيْعُ الشُّوْلِ قَبْلَ إِفَالِهَا      يَزْفُ وَجَاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ زَفْفٌ<sup>(١)</sup>

﴿والصافات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً، إن إلهكم لواحد، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظاً من كل شيطان مارد، لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾. هذه السورة مكية. ومناسبة أولها لآخر يس، أنه تعالى لما ذكر المعاد، وقدرته على إحياء الموتى، وأنه هو منشئهم، وإذا تعلق إرادته بشيء كان ذكر تعالى وحدانيته إذ لا يتم ما تعلق به الإرادة وجوداً وعمداً إلا بكون المريد واحداً، وتقدم الكلام على ذلك في قوله: ﴿لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وأقسم تعالى بأشياء من مخلوقاته، فقال: (والصافات) قال ابن مسعود، وفتادة، ومسروق: «هم الملائكة تصف في السماء في العبادة والذكر صفواً». وقيل: تصف أجنحتها في الهواء، واقفة منتظرة لأمر الله<sup>(٢)</sup>. وقيل: من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله. أو في صلاة وطاعة. وقيل: والطير صافات. (والزاجرات) قال مجاهد، والسدي: «الملائكة تزجر السحاب وغيرها من مخلوقات الله تعالى». وقال فتادة: «آيات القرآن، لتضمنه، النواهي الشرعية. وقيل: كل ما زجر عن معاصي الله (والتاليات) القارئات. قال مجاهد: «الملائكة يتلون ذكره»<sup>(٣)</sup>، وقال فتادة: «بنو آدم يتلون كلامه المنزل وتسيحه وتكبيره»، وقال مجاهد: «الملائكة يتلون ذكره»، قال الزمخشري: «ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال، الصافات أقدامها في التهجد. وسائر الصلوات، وصفوف الجماعات، فالزاجرات بالموعظة والنصائح، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه، أو بنفوس قراء القرآن في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك لا يشغلها عنه تلك الشواغل». انتهى. وقال ما معناه: «إن الفاء العاطفة في الصافات إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يَا لَهْفَ زَيَابَةَ لِحَارِثِ الصَّا      بَح      فَالْغَانِمِ      فَالْأَيِّبِ

أي: الذي صبح، فغتم قآب وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خذ الأفضل فالأفضل، واعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتيب موصوفاتها في ذلك، كقولك: رحم الله المحلقين فالمقصرين فأما هنا فإن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتيب (الصافات) في التفاضل فإذا كان الموحد الملائكة فيكون الفضل للصف، ثم الزجر، ثم التلاوة، وإما على العكس. وإن تليت الموصوف فترتب في الفضل فتكون (الصافات) ذوات فضل (والزاجرات) أفضل (والتاليات) أبهز فضلاً. أو على العكس. انتهى. ومعنى العكس في المكانين: أنك ترتقي من أفضل إلى فاضل إلى مفضل، أو تبدأ بالأدنى، ثم بالفاضل، ثم بالأفضل. وأدغم ابن مسعود، ومسروق، والأعمش، وأبو عمرو، وحزمة التاءات الثلاث. والجملة القسم عليها تضمنت وحدانيته تعالى، أي: هو واحد من جميع الجهات التي ينظر فيها المتفكرون. خبر بعد خبر على مذهب من يميز تعداد الأخيار، أو خبر مبتدأ محذوف، وهو أمدح. أي: هورب وذكر المشارق، لأنها مطالع الأنوار والإبصار بها أكلف، وذكرها بغني عن ذكر المغارب إذ ذاك مفهوم من المشارق. والمشارق: ثلاثمائة وستون مشرقاً، وكذلك المغارب، تشرق الشمس كل يوم من مشرق منها، وتغرب في مغرب، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين

(١) من الطويل انظر الديوان (٣٨٨).

(٢) انظر القرطبي ٤٢/١٥، ٤٣.

(٣) انظر تفسير مجاهد ٥٣٩/٢.

وثني في ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن : ١٧] باعتبار مشرقى الصيف والشتاء، ومغربيهما. وقال ابن عطية: «أراد تعالى مشارق الشمس ومغاريها، وهي : مائة وثمانون في السنة. فيها يزعمون من أطول أيام السنة إلى أقصرها. ثم أخبر تعالى عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب، وانتظام التزيين أن جعلها حفظاً وحذراً من الشيطان». انتهى. والزينة: مصدر كالسنة، واسم لما يزان به الشيء، كالليقة اسم لما يلاق به الدواء. وقرأ الجمهور (بِزِينَةِ الْكُوكَبِ) بالإضافة فاحتمل المصدر مضافاً للفاعل أي: بأن زانت السماء الكواكب، ومضافاً للمفعول. أي: بأن زين الله الكواكب. واحتمل أن يكون ما يزان به، والكواكب بيان للزينة، لأن الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به، أو مما زينت الكواكب من إضاءتها وثبوتها. وقرأ ابن مسعود، ومسروق، بخلاف عنه وأبو زرعة، وابن وثاب، وطلحة (بِزِينَةٍ) منوناً (الكواكب) بالخفض بدلاً من (زينة)، وقرأ ابن وثاب، ومسروق، بخلاف عنها والأعمش، وطلحة، وأبو بكر (بِزِينَةٍ) منوناً (الكواكب) نصباً، فاحتمل أن يكون (بِزِينَةٍ) مصدراً و(الكواكب) مفعول به، كقوله: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً﴾ [البلد : ١٤] واحتمل أن يكون (الكواكب) بدلاً من (السماء) أي: زينا كواكب السماء، وقرأ زيد بن علي بتنوين (زينة) ورفع (الكواكب) على خبر مبتدأ. أي: هو الكواكب. أو على الفاعلية بالمصدر. أي: بأن زينت الكواكب. ورفع الفاعل بالمصدر المنون، زعم الفراء أنه ليس بمسموع، وأجاز البصريون ذلك على قلة. وقال ابن عباس: «(بِزِينَةِ الْكُوكَبِ) بضوء الكواكب». قيل: ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة كشكل الثريا، وبنات نعش، والجوزاء، وغير ذلك. ومطالعها، ومساريها، وخص السماء الدنيا بالذكر، لأنها التي تشاهد بالأبصار. والحفظ من الشياطين. إنما هو فيها وحدها. وانتصب (وحفظاً) على المصدر. أي: وحفظانها حفظاً، أو على المفعول من أجله على زيادة الواو، أو على تأخير العامل. أي: وحفظها زينها بالكواكب وحملها على معنى ما تقدم لأن المعنى: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء، وحفظاً. وكل هذه الأقوال منقولة. والمارد: تقدم شرحه في قوله: ﴿شيطاناً مريداً﴾ [النساء : ١١٧] في النساء. وهناك جاء (مريداً) وهنا (مارد) مراعاة للفواصل (لا يسمعون إلى الملاء الأعلى) كلام منقطع مبتدأ اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع، وأنهم لا يقدر أن يستمعوا أو يسمعوا، وهم مقذوفون بالشهب مبعدون عن ذلك إلا من أمهل حتى خطف الخطفة واسترق استراقه فعندها تعاجله الملائكة باتباع الشهاب الثاقب. ولا يجوز أن يكون (لا يسمعون) صفة، ولا استئنافاً جواباً لسائل سأل لم يحفظ من الشياطين، لأن الوصف كونهم لا يسمعون، أو الجواب لا معنى للحفظ من الشياطين على تقديرهما، إذ يصير المعنى مع الوصف: «وحفظاً من كل شيطان مارد غير سامع أو مسمع» وكذلك لا يستقيم مع كونه جواباً. وقول من قال: إن الأصل «لأن لا يسمعون» فحذفت اللام وأن، فارتفع الفعل، قول متعسف بضان كلام الله عنه. وقرأ الجمهور (لا يسمعون) نفى سماعهم وإن كانوا يسمعون بقوله ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [الشعراء : ٢١٢] وعدها بـ (إلى) لتضمنه معنى الإصغاء، وقرأ ابن عباس بخلاف عنه، وابن وثاب، وعبد الله بن مسلم، وطلحة، والأعمش، وحمة، والكسائي، وحفص بشد السين والميم بمعنى: لا يسمعون. أدغمت التاء في السين وتقتضي نفى التسمع. وظاهر الأحاديث أنهم يتسمعون حتى الآن لكنهم لا يسمعون، وإن سمع أحد منهم شيئاً لم يقلت حرساً وشهباً من وقت بعثة رسول الله ﷺ - وكان الرجم في الجاهلية أحق، فأما كانت ثمرة التسمع هو السمع وقد انتفى السمع بنفي التسمع في هذه القراءة لانتفاء ثمرته، وهو السمع و(الملاء الأعلى) يعم الملائكة والإنس. والجن: هم الملاء الأسفل، لأنهم سكان الأرض. وقال ابن عباس: «هم أشرف الملائكة وعنه كتابهم». (ويقذفون) يرمون ويرجمون (من كل جانب) أي: من كل جهة يصعدون إلى السماء منها. والمرجوم بها: هي التي يراها الناس تنفض، وليست بالكواكب الجارية في السماء، لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الرجمة ترى حركتها لقربها عنا. قاله مكّي. والنقاش وقرأ محبوب عن ابن عمرو (ويَقْدُفُونَ) مبنياً للفاعل. و(دحوراً) مصدر في موضع الحال. قال مجاهد: «مطرودين»، أو مفعول من أجله، أي: ويقذفون للطرد، أو مصدر لـ (يقذفون) لأنه متضمن معنى الطرد. أي: ويدحرون من كل جانب دحوراً،

لويقذفون من كل جانب قذفاً. فيما أن يكون التجوز في (ويقذفون) وإما في (دحوراً) وقرأ علي، والسلمي، وابن أبي عبلة، والطبراني، عن رجاله عن أبي جعفر (دحوراً) بنصب الدال. أي: قذفاً دحوراً بنصب الدال. ويجوز أن يكون مصدراً كالقبول والولوج إلا أن هذه ألفاظ ذكر أنها محصورة. والواصب: الدائم، قاله السدي، وأبو صالح. وتقدم في سورة النحل. ويقال: وصب الشيء وصوباً دام. وقال مجاهد: الموجه ومنه الوصب، كأن المعنى: أنهم في الدنيا مرجومون، وفي الآخرة معذبون. ويجوز أن يكون هذا العذاب الدائم لهم في الدنيا، وهو رجمهم دائماً، وعدم بلوغهم ما يقصدون من استراق السمع. (إلا من خطف الخطفة) (من) بدل من الضمير في (لا يسمعون) ويجوز أن يكون منصوباً على الاستثناء. أي: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف. وقرأ الجمهور (خطف) ثلاثياً بكسر الطاء، وقرأ الحسن وقتادة بكسر الخاء والطاء مشددة. قال أبو حاتم: «يقال: هي لغة بكر بن وائل وتميم بن مرة، وقرئ (خطف) بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة، ونسبها ابن خالويه إلى الحسن، وقتادة، وعيسى، وعن الحسن أيضاً التخفيف. وأصله في هاتين القراءتين «اختطف» ففي الأول لما سكنت للإدغام والحاء ساكنة كسرت لالتقاء الساكنين فذهبت ألف الوصل وكسرت الطاء اتباعاً لحركة الخاء. وعن ابن عباس: «خطف بكسر الخاء والطاء مخففة أتبع حركة الخاء لحركة الطاء كما قالوا نعم». وقرئ (فأتبعه) مخففاً ومشدداً. والثاقب: قال السدي، وقتادة: «وهو النافذ بضوئه وشعاعه المنير».

﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب، بل عجبت ويسخرون، وإذا ذكروا لا يذكرون، وإذا رأوا آية يستسخرون، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين، أنذمتنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون، أو آباؤنا الأولون، قل نعم وأنتم داخرون، فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾. الاستفتاء: نوع من السؤال. والهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير، فهي في الأصل لمعنى الاستفهام. أي: فاستخبرهم، والضمير لمشركي مكة<sup>(١)</sup>، وقيل: نزلت في أبي الأشد بن كعدة، وكفي بذلك، لشدة بطشه وقوته. وعادل في هذا الاستفهام التقريري في الأشدية بينهم وبين من خلق من غيرهم من الأمم، والجن، والملائكة، والأفلاك، والأرضين. وفي مصحف عبد الله (أم من عَدَدْنَا) وهو تفسير لـ (من خلقنا) أي: من عددنا من الصافات، وما بعدها من المخلوقين: وغلب العاقل على غيره في قوله (من خلقنا) واقتصر على الفاعل في (خلقنا) ولم يذكر متعلق الخلق، اكتفاء ببيان ما تقدمه، وكأنه قال: أم من خلقنا من غرائب المصنوعات وعجائبها. وقرأ الأعمش (أمن) بتخفيف الميم دون (أم) جعله استفهاماً ثانياً تقريراً أيضاً، فهما جملتان مستقلتان في التقرير. و(من) مبتدأ والخبر محذوف تقديره أشد. فعلى (أم من) هو تقرير واحد ونظيره ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ [النازعات: ٢٧] قال الزمخشري: و﴿أشد خلقاً﴾ يحتمل أقوى خلقاً، من قولهم: وفي خلقه شدة، وأصعب خلقاً، وأشد خلقاً، وأشقه. يحتمل أقوى خلقاً من قولهم: شديد الخلق. وفي خلقه شدة على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى، وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق الشر عليه أهون، وخلقهم من طين لازب: إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة، لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله. قالوا: أنذا كنا تراباً؟ وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث». انتهى. والذي يظهر الاحتمال الأول، وقيل: (أم من خلقنا) من الأمم الماضية كقوله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ [ق: ٣٦] وقوله (وكانوا أشد منكم قوة) وأضاف الخلق من الطين إليهم، والمخلوق منه هو

أبوهم آدم إذ كانوا نسله . وقال الطبري : «خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء ، وهذا كله إذا خلط صار طيناً لازباً يلزم ما جاوره» . وعن ابن عباس : «اللازب : الجرز : أي الكريم الجيد» ، وقرأ الجمهور (بل عَجِبْتَ) بناء الخطاب . أي : من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة وهم يسخرون منك ، ومن تعجبك ، ومما تريمهم من آثار قدرة الله ، أو عجبت من إنكارهم البعث ، وهم يسخرون من أمر البعث . أو عجبت من إعراضهم عن الحق وعمّاهم عن الهدى وأن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به من عند الله . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن سعدان ، وابن مقسم بياء المتكلم . ورويت عن عليّ وعبد الله وابن عباس ، والنخعي ، وابن وثاب ، وطلحة ، وشقيق ، والأعمش . وأنكر شريح القاضي هذه القراءة ، وقال : «الله لا يعجب» . فقال إبراهيم كان شريح معجباً بعلمه ، وعبد الله أعلم منه يعني عبد الله بن مسعود . والظاهر : أن ضمير المتكلم هو الله تعالى ، والعجب لا يجوز على الله تعالى ، لأنه روعة تعتري المتعجب من الشيء . وقد جاء في الحديث <sup>(١)</sup> إسناد العجب إلى الله تعالى . وتؤول على أنه صفة فعل يظهرها الله تعالى في صفة المتعجب منه من تعظيم أو تحقير حتى يصير الناس متعجبين منه . فالمعنى : بل عجبت من ضلالتهم ، وسوء عملهم ، وجعلتها للناظرين فيها ، وفيها اقترن فيها من شرعي وهداي متعجباً . وقال الزمخشري : «أي بلغ من عظيم آياتي ، وكثرة خلائقي ، أي عجبت منها فكيف بعبادي؟ وهؤلاء لجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي . أو عجبت من أن ينكروا البعث من هذه أفعاله . وهم يسخرون بمن يصف الله بالقدرة عليه . قال : ويجرد العجب لمعنى الاستعظام أو تحجّل العجب ويفرض» . وقيل : هو ضمير الرسول . أي : قل بل عجبت . قال مكي وعليّ بن سليمان . «(وهم يسخرون) من نبوتك والحق الذي عندك ، وإذا ذكروا ووعظوا لا يذكرون ولا يتعظون» <sup>(٢)</sup> . وذكر جناح بن حبيش (ذُكِرُوا) بتخفيف الكاف . روي : «أن ركانة رجلاً من المشركين من أهل مكة ، لقيه الرسول في جبل خال يرعى غنماً له ، وكان من أقوى الناس فقال له يا ركانة أرايت إن صرعتك أتؤمن بي؟ قال : نعم . فصرعه ثلاثاً ، ثم عرض عليه آيات ، من دعاء شجرة وإقبالها ، فلم يؤمن وجاء إلى مكة ، فقال : يا بني هاشم سآجروا بصاحبكم أهل الأرض» . فنزلت فيه وفي نظرائه (وإذا رأوا آية يستسخرون) ، قال مجاهد ، وقتادة : «يسخرون يكون استفعل بمعنى المجرد وقيل فيه معنى الطلب . أي : يطلبون أن يكونوا ممن يسخرون» . وقال الزمخشري <sup>(٣)</sup> ، «يبالغون في السخرية ، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها . وقرئ (يستسخرون) بالحاء المهملة وهو عبارة عن ما قال ركانة لاسحرا الرسول والإشارة بهذا إلى ما ظهر على يديه - عليه السلام - من الحارق المعجز . وتقدم الخلاف في كسر ميم (مُتَنَّا) وضمها . ومن قرأ (أُنْذَا) بالاستفهام فجواب (إذا) محذوف . أي : نبعث ويدل عليه (إنا لمبعوثون) أو يعرى عن الشرط ، ويكون ظرفاً محضاً ، ويقدر العامل : أنبعث إذا متنا؟ وقرأ الجمهور (أَوْ أَبَاؤُنَا) بفتح الواو في (أو) وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وابن عامر ، ونافع في رواية قالون بالسكون فهي حرف عطف . ومن فتح فالواو حرف عطف دخلت عليه همزة الاستفهام . قال الزمخشري : «(أو أَبَاؤُنَا) معطوف على محل إن واسمها ، أو على الضمير في (مبعوثون) والذي جوز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام . والمعنى : أبعث أيضاً أبأؤنا على زيادة الاستبعاد ، يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل» . انتهى . أما قوله : «معطوف على محل إن واسمها» فمذهب سيبويه خلافه ، لأن قولك : إن زيداً قائم وعمرو فيه مرفوع على الابتداء وخبره محذوف . وأما قوله : «وعلى الضمير في مبعوثون إلى آخره» . فلا يجوز عطفه على الضمير ، لأن همزة الاستفهام لا تدخل إلا على الجمل لا على المفرد لأنه إذا عطف على المفرد كان الفعل عاملاً في المفرد بواسطة حرف العطف وهمزة الاستفهام لا يعمل فيها بعدها ما قبلها . فقوله (أو أَبَاؤُنَا) مبتدأ خبره محذوف . تقديره : مبعوثون . ويدل عليه ما قبله فإذا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٥٧ وأبو داود ٢/٩ كتاب الصلاة (١٢٠٣) والنسائي ٢٠/٢٠ كتاب الأذان .

(٢) انظر القرطبي ٤٧/١٥ .

(٣) انظر الكشاف ٤/٣٧ .

قلت: أقام زيد أو عمرو. فعمرو مبتدأ محذوف الخبر لما ذكرنا. واستفهامهم تضمن إنكاراً واستبعاداً، فأمر الله نبيه أن يجيبهم بـ (نعم) و(أنتم داخرون) أي: صاغرون. وهي جملة حالية العامل فيها محذوف. تقديره: نعم تبعثون وزادهم في الجواب أن بعثهم وهم ملتبسون بالصغار والذل. وقرأ ابن وثاب (نعم) بكسر العين. وتقدم الخلاف فيها في سورة الأعراف. وهي كناية عن البعثة فإنما بعثتهم زجرة أي: صيحة. وهي النسخة الثانية. لما كانت بعثتهم ناشئة عن الزجرة جعلت إياها مجازاً. وقال الزمخشري: «هي مهمة يوضحها خبرها». انتهى. وكثيراً ما يقول هو وابن مالك: «إن الضمير يفسره الخبر وجعل من ذلك ابن مالك (إن) هي إلا حياتنا الدنيا) وتكلمنا معه في ذلك في شرح التسهيل». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(إنما) جواب شرط مقدّم، وتقديره: إذا كان ذلك فما هي إلا زجرة واحدة». انتهى. وكثيراً ما تضمن جملة الشرط قبل فاء إذا ساغ تقديره ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. ولا يحذف الشرط ويبقى جوابه إلا إذا انجزم الفعل في الذي يطلق عليه أنه جواب الأمر والنهي. وما ذكر معناها على قول بعضهم أما ابتداء فلا يجوز حذفه. و(ينظرون) من النظر. أي: فإذا هم بصراء ينظرون، أو من الانتظار. أي: فإذا هم ينتظرون ما يفعل بهم وما يؤمرون به؟ والظاهر: أن قوله (يا ويلنا) من كلام بعض الكفار لبعض إلى آخر الجملتين. أقرأوا بأنه يوم الجزاء، وأنه يوم الفصل، وخطاب بعضهم بعضاً. ووقف أبو حاتم على قوله (يا ويلنا) وجعل (هذا يوم الدين) إلى آخره من قول الله لهم، أو الملائكة. وقيل: (هذا يوم الدين) من كلام الكفرة. و(هذا يوم الفصل) ليس من كلامهم، وإنما المعنى يقال لهم: هذا يوم الفصل، و(يوم الدين) يوم الجزاء والمعاوضة، ويوم الفصل: يوم الفرق بين فرق الهدى وفرق الضلال. وفي (الذي كنتم به تكذبون) توبيخ لهم وتقرّيع.

﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم، وقفوههم إنهم مسؤولون، مالكم لا تناصرون، بل هم اليوم مستسلمون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون، فأغويناكم إنا كنا غاوين، فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون، إنا كذلك نعمل بالمجرمين، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون، ويقولون إنا لئنا لشارع مجنون، بل جاء بالحق وصدق المرسلين، إنكم لذائقو العذاب الأليم، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

(احشروا) خطاب من الله للملائكة، أو خطاب الملائكة بعضهم لبعض. أي: اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات. قاله ابن عباس، ورجحه الرماني. وأنواعهم وضرباؤهم. قاله عمرو ابن عباس أيضاً. أو أشباههم من العصاة، وأهل الزنا مع أهل الزنا، وأهل السرقة. أو قرناؤهم: الشياطين. وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي (وأزواجهم) مرفوعاً عطفاً على ضمير (ظلموا) أي: وظلم أزواجهم (فاهدوهم) أي: عرفوهم وقودوهم إلى طريق النار حتى يصطلوها. و(الجحيم) طبقة من طبقات جهنم. (وقفوهم) كما قال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ [الأنعام: ٢٧] وهو توبيخ لهم (إنهم مسؤولون)، وقرأ عيسى (أنهم) بفتح الهمزة قال عبد الله يسألون عن شرب الماء البارد على طريق الهزء بهم». وعنه أيضاً: «يسألون عن لا إله إلا الله». وقال الجمهور: «وعن أعمالهم ويوقفون على قبورها، وفي الحديث: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن خمس: شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله كيف اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن ما عمل فيما علم». وقال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون المعنى على نحو ما فسره بقوله (ما لكم لا تناصرون) أي: إنهم مسؤولون عن امتناعهم عن التناصر، وهذا على سبيل التوبيخ في الامتناع». وقال الزمخشري: «هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين». وقال الثعلبي: «(ما لكم لا تناصرون) جواب أبي جهل حين قال

في بدر ﴿نحن جميع منتصر﴾ [القمر : ٤٤] وقرىء (لا تناصرون) بناء واحدة وبتاءين وبيدغام إحداهما في الأخرى . (بل هم اليوم مستسلمون) أي : قد أسلم بعضهم بعضاً، وخذله عن عجز، وكل واحد منهم مستسلم غير منتصر . (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) قال قتادة : «هم جن وإنس<sup>(١)</sup>، وتساؤلهم على معنى التقرع، والندم، والسخط، قالوا: أي قالت الإنس للجن»، قال مجاهد وابن زيد : «أو ضعفة الإنس الكفرة لكبرائهم وقادتهم». واليمين : الجارحة، وليست مرادة هنا، فقول : استعيرت لجهة الخير، أو للقوم والشدة، أو لجهة الشهوات، أو لجهة التمويه والإغواء وإظهار أنهارشده، والحلف . ولكل من هذه الاستعارات وجه . فأما استعارتها لجهة الخير، فلأن الجارحة أشرف العضوين وأيمنها وكانوا يتمنون بها حتى في السانح<sup>(٢)</sup> ويصافحون ويماسخون ويناولون ويزاولون بها أكثر الأمور، ويباشرون بها أفاضل الأشياء، وجعلت لكاتب الحسنات، ولأخذ المؤمن كتابه بها، والشمال بخلاف ذلك . وأما استعارتها للقوة والشدة، فإنها يقع بها البطش . فالمعنى : أنكم تعلموننا بقوتكم، وتحملوننا على طريق الضلال . وأما استعارتها لجهة الشهوات، فلأن جهة اليمين، هي الجهة الثقيلة من الإنسان، وفيها كبده، وجهة شماله فيها قلبه ومكره، وهي أخف والمتهمز يرجع على شقه الأيسر، إذ هو أخف شقيه . وأما استعارتها لجهة التمويه والإغواء فكأنهم شبهوا أقوال المغوين بالسوانح التي هي عندهم محمودة، كأن التمويه في إغوائهم أظهر ما يمدونه . وأما الحلف فإنهم يحلفون لهم، ويتوهم إتيان المقسمين على حسن ما يتبعونهم فيه . (قالوا) أي : المخاطبون إما الجن وإما قادة الكفر (بل لم تكونوا مؤمنين) أي : لم نفرمكم على الكفر، بل أنتم من ذواتكم أبيتم الإيمان . وقال الزمخشري : «وأعرضتم مع تمكنكم واختباركم، بل كنتم قوماً على الكفر غير ملجئين، وما كان لنا عليكم من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختباركم، بل كنتم قوماً مختارين الطغيان». انتهى . ولفظة التمكين والاختيار ألفاظ المعتزلة جرياً على مذهبه . (فحق علينا قول ربنا) أي : لزمنا قول ربنا . أي : وعيده لنا بالعذاب، والظاهر : أن قوله (إنا لذائقون) إخبار منهم أنهم ذائقون العذاب جميعهم الرؤساء والأتباع . وقال الزمخشري : «فلزمنا قول ربنا (إنا لذائقون) يعني : وعيد الله بأننا ذائقون لعذابه لا محالة، لعلمه بحالنا، واستحقاقنا بها العقوبة، ولو حكي الوعيد كما هو لقال : «إنكم لذائقون». ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم، لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم . ونحوه قول القائل :

لَقَدْ رَعَمْتُ هَوَازِنُ قَلِّ مَالِي<sup>(٣)</sup>

ولو حكي قولها لقال : قل مالك : ومنه قول المحلف للحالف لأخرجن ولنخرجن الهمزة لحكاية لفظ الحالف . والتاء لإقبال المحلف على الحلف». انتهى (فأغويناكم) دعوناكم إلى الغي فكانت فيكم قابلية له فغويتهم (إنا كنا غاوين) فأردنا أن تشاركونا في الغي . (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) أي : يوم إذ تساءلوا وتراجعوا في القول . وهذا إخبار منه تعالى كما اشتركوا في الغي اشتركوا فيما ترتب عليه من العذاب . (إنا كذلك) أي : مثل هذا الفعل بهؤلاء (نفعل) بكل مجرم فيرتب على إجرامه عذابه . ثم أخبر عنهم بأكبر إجرامهم، وهو الشرك بالله، واستكبارهم عن توحيده وإفراده بالإلهية . ثم ذكر عنهم ما قدحوا به في الرسول، وهو نسبته إلى الشعر والجنون، وأنهم ليسوا بتاركي آلهتهم له، ولما جاء به، فجمعوا بين

(١) انظر القرطبي (٥١/١٥) وابن كثير (٥/٤).

(٢) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك.

لسان العرب (٣/٢١١٢)

(٣) صدر بيت من الوافر وعجزه :

إنكار الوحداية وإنكار الرسالة. وقولهم (لشاعر مجنون) تخليط في كلامهم، وارتباك في غيهم، فإن الشاعر هو عنده من الفهم والحذق وجودة الإدراك ما ينظم به المعاني الغريبة ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنوناً لا يصل إلى شيء من ذلك. ثم أضرب تعالى عن كلامهم وأخبر بأنه جاء الحق وهو إثبات الذي لا يلحقه اضمحلال، فليس ما جاء به شعراً، بل هو الحق. الذي لا شك فيه ثم أخبر أنه صدق من تقدمه من المرسلين إذ هو وهم على طريقة واحدة في دعوى الأمم إلى التوحيد وترك عبادة غيره، وقرأ عبد الله (وَصَدَّقْ) بتخفيف الدال (المرسلون) بالواو رفعاً. أي: وصدق المرسلون في التبشير به وفي أنه يأتي آخرهم. وقرأ الجمهور (لذائقو العذاب) بحذف النون للإضافة. وأبو السمال، وإبان عن ثعلبة عن عاصم بحذفها، لالتقاء لام التعريف ونصب (العذاب) كما حذف بعضهم التنوين لذلك في قراءة من قرأ ﴿أحد الله﴾ [الإخلاص: ١، ٢] ونقل ابن عطية عن أبي السمال أنه قرأ (لذائقو) منوناً (العذاب) بالنصب. ويخرج على أن التقدير جمع والإلم يتطابق المفرد وضمير الجمع في (إنكم) وقول الشاعر:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ      وَلَا ذَاكِرَ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلاً<sup>(١)</sup>

وقرى (لذائقون) بالنون (العذاب) بالنصب وما ترون لإجزاء مثل عملكم إذ هو ثمرة عملكم.

﴿إلا عباد الله المخلصين، أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون، في جنات النعيم، على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين، بياض لذة للشاربين، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيض مكنون، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قال قائل منهم إني كان لي قرين، يقول إنك لمن المصدقين، وإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإننا لمدينون، قال هل أنتم مطلعون، فاطلع فرآه في سواء الجحيم، قال تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين، أفما نحن بميتين، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين، إن هذا هو الفوز العظيم، لمثل هذا فيعمل العاملون﴾.

(إلا عباد الله) استثناء منقطع. لما ذكر شيئاً من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ونعيمهم. (المخلصين) صفة مدح لأن كونهم (عباد الله) يلزم منه أن يكونوا (مخلصين) ووصف (رزق) بـ (معلوم) أي: عندهم فقد قوت عيونهم بما يستدر عليهم من الرزق، وبأن شهواتهم تأتيهم بحسبها. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «معلوم بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ [مریم: ٦٢] وعن قتادة: «الرزق المعلوم الجنة» وقوله (في جنات النعيم) ياباه انتهى. (فواكه) بدل من (رزق) وهي ما يتلذذ به. ولا يتقوت لحفظ الصحة. يعني: أن رزقهم كله فواكه، لاستغنائهم عن حفظ الصحة بالأقوات، لأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ. وقرأ ابن مقسم (مُكْرَمُونَ) بفتح الكاف مشدد الراء. ذكر أولاً: الرزق وهو ما يتلذذ به الأجسام. وثانياً: الإكرام وهو ما يتلذذ به النفوس ورزق بإهانة تنكيد، ثم ذكر المحل الذي هم فيه وهو (جنات النعيم) ثم أشرف المحل وهو السرر، ثم لذة التأنس بأن بعضهم يقابل بعضاً وهو أتم السرور وأنسه. ثم المشروب وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم بل يطاف عليهم بالكؤوس. ثم وصف ما يطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد. ثم ذكر تمام اللذة الجسائية وختم بها كما بدأ باللذة الجسائية من الرزق وهي أبلغ الملاذ وهي التأنس بالنساء. وقرأ الجمهور (على سرر) بضم الراء. وأبو السمال بفتحها، وهي لغة بعض تميم وكلب يفتحون ما كان جمعاً على فُعْل من

(١) تقدم.

(٢) انظر الكشف ٤/٤٢.

المضعف إذا كان اسماً. واختلف النحويون في الصفة فمنهم من قاسها على الاسم ففتح فيقول ذلك بفتح اللام على تلك اللغة الثانية في الاسم ومنهم من خص ذلك بالاسم وهو مورد السماع في تلك اللغة. وقيل: التقابل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وفي الحديث: إنه في أحيان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض». ولا محالة أن أكثر أحيانهم فيها قصورهم. (ويُطاف) مبني للمفعول، وحذف الفاعل وهو الميثب في آية أخرى في قوله: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ [الطور: ٢٤] (ويطوف عليهم غلمان لهم) ولعلمهم من مات من أولاد المشركين قبل التكليف ففي صحيح البخاري: «أنهم خدم أهل الجنة». والكأس: ما كان من الزجاجه فيه خمر أو نحوه من الأنبذة، ولا يسمى كأساً إلا وفيه ذلك. وقد سمي الخمر نفسها كأساً، تسمية للشيء باسم محله. قال الشاعر:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وقال ابن عباس والضحاك والأحفش: «كل كأس في القرآن فهو خمر. وقيل: الكأس: هيئة مخصوصة في الأواني، وهو كل ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض ولا يراعى كونه لخمراً أو لا. (من معين) أي: من شراب معين، أو من ثمد معين. وهو الجاري على وجه الأرض كما يجري الماء. و(بيضاء) صفة للكأس، أو للخمر. وقال الحسن: «خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن»، وفي قراءة عبد الله (صفراء) كما قال بعض المولدين:

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْرَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتُهُ سَرَاءُ<sup>(١)</sup>

(ولذَّة) صفة بالمصدر على سبيل المبالغة، أو على حذف. أي: ذات لذة، أو على تأنيث لدمعني لذيد. (لا فيها غول) قال ابن عباس وقتادة: «هو صداع<sup>(٢)</sup> في الرأس» وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وابن زيد: «وجع في البطن» انتهى. والاسم يشمل أنواع الفساد الناشئة عن شرب الخمر فينتفي جميعها من مغص، وصداع، وخمار وعريضة، ولغو، وتأنيم، ونحو ذلك. ولما كان السكر أعظم مفاستها أفردته بالذكر فقال (ولا هم عنها ينزفون)، وقرأ الحرميان، والعريبان بضم الياء وفتح الزاي هنا وفي الواقعة. وبذهاب العقل فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وحمزة، والكسائي بكسرهما فيها. وعاصم بفتحها هنا، وكسرها في الواقعة. وابن أبي إسحاق بفتح الياء وكسر الزاي وطلحة بفتح الياء وضم الزاي. قال ابن عباس، ومجاهد وابن زيد: (قاصرات الطرف) قصرن الطرف على أزواجهن لا يمتد طرفهن إلى أجنبي بقوله تعالى: ﴿عُرْبًا﴾ [الواقعة: ٣٧] وقال الشاعر:

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطُّرْفِ لَوَدَّبَ مُحَوَّلٌ مِّنَ السُّدْرِ فَوْقَ الْخَدِّ مِنْهَا لِأَثْرًا<sup>(٤)</sup>

والعين: جمع عينا، وهي الواسعة العين في جمال. (كأنهن بيض مكنون) شبههن - قال الجمهور -: ببيض النعام المكنون في عشه، وهو الأدحية، ولونها بياض به صفرة حسنة، وبها تشبه النساء. فقال: مُضِيَّاتُ الْخُدُودِ ومنه قول امرئ القيس:

وَبَيْضَةَ خَدْرِ لَا يُسْرَامُ حَبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ

(١) البيت من المتقارب للأعشى، انظر ديوانه (٢٩)، روح المعاني (٢٣/٨٦).

(٢) البيت للحسن بن هانئ (أبو نواس) انظر ديوانه (٦) روح المعاني (٢٣/٨٧).

(٣) لسان العرب (٥/٣٣٢٨).

(٤) من الطويل لامرئ القيس انظر ديوانه (٦٥) القرطبي (٥٤/١٥).



كَيْفَ الْمَعَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ<sup>(١)</sup>

وقال السدي وابن جبير: «شبه ألوانهن بلون قشر البيضة الداخل - وهو غرقىء البيضة وهو المكنون في كن ورجحه الطبري، وقال: وأما خارج قشر البيضة فليس بمكنون. وعن ابن عباس: «البيض المكنون: الجوهر المصون». واللفظ ينبو عن هذا القول. وقالت فرقة: هو تشبيه عام جملة المرأة بجملة البيضة. أراد بذلك تناسب أجزاء المرأة وأن كل جزء منها نسبه في الجودة إلى نوعه نسبة الآخر من أجزائها إلى نوعه، فنسبة شعرها إلى عينها مستوية، إذ هما غاية في نوعها. والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء، لأنها من حيث حسنها في النظر واحد كما قال بعض الأدباء يتغزل:

تَنَاسَبَتِ الْأَعْضَاءُ فِيهِ فَلَا تَرَى بِهِنَّ اخْتِلَافاً بَلْ أَتَيْنَ عَلَى قَدْرِ

وتساؤلهم في الجنة سؤال راحة وتنعم، يتذكرون نعيمهم، وحال الدنيا، والإيمان وثمرته، (وفاقبل) معطوف على (يطاف عليهم) والمعنى: يشربون فيتحدثون على الشراب كعادة الشراب في الدنيا، قال الشاعر:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ<sup>(٢)</sup>

وجيء به ماضياً لصدق الإخبار به، فكأنه قد وقع ثم حكي تعالى عن بعضهم ما حكي يتذكر بذلك نعمه تعالى عليه، هذاه إلى الإيمان، واعتقاد وقوع البعث والثواب والعقاب. وهو مثال للتحفظ من قراءة السوء والبعد منهم. قال ابن عباس وغيره: «كان هذا القائل وقرينه من البشر». وقالت فرقة: هما اللذان في قوله «يا ويلي ليتي لم أتخذ فلاناً خليلاً» [الفرقان ٢٨] وقال مجاهد: «كان إنسياً وجنياً من الشياطين الكفرة». وقرأ الجمهور (من المصدقين) بتخفيف الصاد من التصديق. وفرقة بشدها من التصديق. قال قرة بن ثعلبة النهراي: «كانا شريكين بثانية آلاف درهم يعبد الله أحدهما، ويقصر في التجارة والنظر والآخر: كان مقبلاً على ماله فانفصل من شريكه لتقصيره، فكلما اشترى داراً، أو جارية، أو بستاناً، ونحوه عرضه على المؤمن وفخر عليه، فيتصدق المؤمن بنحو من ذلك ليشتري به في الجنة، فكان من أمرهما في الآخرة ما قصه الله». وقال الزمخشري: «نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدي بعض إخوانه فقال: وأين مالك؟ فقال: تصدقت به ليعوضني الله في الآخرة خيراً منه فقال (أئتلك لمن المصدقين) بيوم الدين، أو من المصدقين لطلب الثواب، والله لا أعطيك شيئاً. (أئنا لمدينون) قال ابن عباس وقتادة والسدي: «لمجازون محاسبون». وقيل: لمسوسون مديونون. يقال: دانه ساسه. ومنه الحديث: «العاقل من دان نفسه». والظاهر: أن الضمير في (قال هل أنتم) عائد على (قائل) في قوله (قال قائل) قيل: وفي الكلام حذف تقديره فقال لهذا القائل حاضره من الملائكة إن قرينك هذا في جهنم يعذب، فقال عند ذلك (هل أنتم مطلعون) والخطاب في (هل أنتم مطلعون) يجوز أن يكون للملائكة، وأن يكون لرفقائه في الجنة الذين كان هو وإياهم يتساءلون، أو لخدمته، وهذا هو الظاهر لما كان قرينه ينكر البعث علم أنه في النار فقال (هل أنتم مطلعون) إلى النار لأريكم ذلك القرين. وعلى هذا القول لا يحتاج الكلام إلى حذف ولا لقول الملائكة: إن قرينك في جهنم يعذب. قيل: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. وقيل: القائل (هل أنتم مطلعون) الله تعالى. وقيل: بعض الملائكة يقول لأهل الجنة: بل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار. وقرأ الجمهور (مطلعون) بتشديد الطاء المفتوحة وفتح النون. و(اطلع) بشد الطاء، فعلاً ماضياً. وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي (مطلعون) بإسكان الطاء وفتح النون (فاطلع) بضم الهمزة وسكون الطاء وكسر اللام فعلاً ماضياً مبنياً.

(١) من الطويل انظر ديوانه (١١٦) والسبع الطوال (٤٨ - ٧٠) الفضليات (٢١٤).

(٢) البيت من الوافر لم أهدل لقائله انظر الكشف (٢٦٣/٢) القرطبي (٥٥/١٥).

للمفعول. وهي قراءة ابن عباس، وابن محيصن، وعمار بن أبي عمار، وأبي سراج وقرىء (فاطلع) مشدداً مضارعاً منصوباً على جواب الاستفهام. وقرىء (مطلعون) بالتخفيف (فاطلع) مخففاً. فعلاً ماضياً. (فاطلع) مخففاً مضارعاً منصوباً، وقرأ أبو البرهيشم، وعمار بن أبي عمار، فيما ذكره خلف عن عمار (مطلعون) بتخفيف الطاء وكسر النون (فاطلع) ماضياً مبنياً للمفعول. ورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره لجمعها بين نون الجمع وياء المتكلم والوجه مطلي كما قال: «أو مخرجي هم». ووجهها أبو الفتح على تنزيل اسم الفاعل منزلة المضارع. وأنشد الطبري على هذا قول الشاعر:

وَمَا أَذْرِي وَظَنِّي كُلَّ ظَنٍّ أُمْسِلُمْنِي إِلَى قَوْمِي شَرَّاجِي<sup>(١)</sup>

قال الفراء: «يريد شرّاحيل». وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «يريد مطلعون إياي، فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله: هُمُ الْفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُونَهُ<sup>(٣)</sup>».

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتأخ بينها، كأنه قال (تطلعون) وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر. انتهى. والتخريج الثاني تخريج أبي الفتح. وتخريجه الأول لا يجوز، لأنه ليس من مواضع الضمير المنفصل، فيكون المتصل وضع موضعه لا يجوز: هند زيد ضارب إياها ولا زيد ضارب إياي. وكلام الزمخشري<sup>(٤)</sup> يدل على جوازه، فالأولى تخريج أبي الفتح وقد جاء منه.

أُمْسِلُمْنِي إِلَى قَوْمِي شَرَّاجِي<sup>(٥)</sup>،

وقول الآخر:

فَهَلْ فَتَى مِنْ سَرَاةِ الْقَوْمِ يَحْمِلُنِي وَلَيْسَ حَامِلُنِي إِلَّا ابْنُ حَمَّالٍ<sup>(٦)</sup>

وقال الآخر:

وَلَيْسَ بِمُعِيْبِي<sup>(٧)</sup>

فهذه أبيات ثبت التنوين فيها مع ياء المتكلم فكذلك ثبت نون الجمع معها إجراء للنون مجرى التنوين، لاجتماعهما في السقوط للإضافة<sup>(٨)</sup>. ويقال: طلع علينا فلان وأطلع بمعنى واحد. ومن قرأ (فأطلع) مبنياً للمفعول فضميره القائل الذي هو المفعول الذي لم يسم فاعله، وهو متعد بالهزمة إذ يقول طلع زيد وأطلعه غيره. وقال صاحب اللوامح: «طلع وأطلع إذا بدا وظهر. وأطلع أطلاقاً إذا أقبل، وجاء مبنياً. ومعنى ذلك (هل أنتم مقبلون فأقبل وإن أقيم المصدر فيه مقام الفاعل

(١) البيت ليزيد بن محرم الحارثي انظر المحتسب (٢٢٠/٢) المعني (٢٥/٢) الطبري (٣٩/٢٣) الهمع (١/٢٦٥).

(٢) انظر الكشاف ٤/٤٤.

(٣) شطر بيت من الطويل وتماه:

إذا ما خشوا من الأمر محطلاً

انظر الكتاب (١٨٨/١) مجالس ثعلب (١٢٣) شرح الفصل لابن عبيش (١٢٥/٢) الكامل (٣٦٢/١) الخزانة (٤/٢٦٩).

(٤) انظر الكشاف ٤/٤٤.

(٥) تقدم قريباً.

(٦) البيت من البسيط انظر الانصاف (١٢٩) الكامل (٣٦٣/١) شرح الكافية للرضي (٣٨٣/١) الخزانة (٤/٢٩٥).

(٧) من الطويل انظر الأشموني (١٣٦/١).

(٨) انظر شرح الفصل ١٢٤/٢ التصريح ٣١/٢٤ الأشموني ١٢٦/١.

بتقدير (فأطلع) الاطلاع . أو حرف الجر المحذوف . أي : فاطلع به ، لأن أطلع لازم كما أن أقبل كذلك . انتهى . وقد ذكرنا أن (أطلع) عدي بالهمزة من طلع اللزوم . وأما قوله «أو حرف الجر المحذوف أي فاطلع به» فهذا لا يجوز ، لأن مفعول ما لم يسم فاعله لا يجوز حذفه لأنه نائب عن الفاعل فكما أن الفاعل لا يجوز حذفه دون عامله فكذلك هذا ، لو قلت : زيد ممدود أو مغمضوب . تريد به أو عليه لم يجوز . (وسواء الجحيم) وسطها ، تقول : تعبت حتى انقطع سوائي . قال ابن عباس : «سمي سواء ، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب» . يعني سواء الجحيم<sup>(١)</sup> . وقال خليل العصري : «(رأه) تبدلت حاله ، فلولا ما عرفه الله به لم يعرفه قال له عند ذلك (تالله إن كدت لتردين) أي : لتهلكني بإغوائك و(إن) مخففة من الثقيلة يلقي بها القسم و(تالله) قسم فيه التعجب من سلامته منه إذا كان قرينه قارب أن يريده . (ولولا نعمة ربي) وهي : توفيقه للإيمان والبعد من قرين السوء (لكنت من المحضرين) للعباب كما أحضرته أنت . (أفما نحن بميتين) قرأ زيد بن عليّ (بماتتين) والظاهر : أنه من كلام القائل يسمع قرينه على جهة التوبيخ له . أي : لسنا أهل الجنة بميتين لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا بخلاف أهل النار ، فإنهم في كل ساعة يتمنون فيها الموت (وما نحن بمعذبين) كحال أهل النار بل نحن منعمون دائماً . ويكون في خطابه ذلك منكلاً له ، مقررراً محزناً له ، بما أنعم الله به عليه من دخول الجنة معلماً له بتباين حاله في الآخرة بحاله كما كانتا تباينان في الدنيا من أنه ليس بعد الموت جزءاً ظهر له خلافه . يعذب بكفره بالله ، وإنكار البعث . ويجوز أن يكون خطاباً من القائل لرفقائه . لما رأى ما نزل بقرينه وقنهم على نعمه تعالى في ديمومة خلودهم في الجنة ونعيمهم فيها ويتصل قوله (إن هذا) إلى قوله (العاملون) بهذا التأويل أيضاً ولا واضحاً خطاباً لرفقائه . ويجوز أن يكون تم كلامه عند قوله (لتردين) ويكون (إنما نحن) إلى (بمعذبين) من كلامه وكلام رفقائه . وكذلك (إن هذا) إلى (العاملون) أي : إن هذا الأمر الذي نحن فيه من النعيم والنجاة من النار . وقيل : هو من قول الله تعالى تقرير لقولهم وتصديقاً له وخطاباً لرسول الله وأتمته . ويقوي هذا قوله (مثل هذا فيعمل العاملون) والآخرة ليست بدار عمل ولا يناسب ذلك قول المؤمن في الآخرة إلا على تجوز ، كأنه يقول : مثل هذا ينبغي أن يعمل العاملون . وقال الزمخشري : «الذي عطف عليه الفاء محذوف ، معناه : أنحن مخلدون . أي : منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين» . انتهى . وتقدم من مذهبه أنه إذا تقدمت همزة الاستفهام وجاء بعدها حرف العطف بضمير ما يصح به إقرار الهمزة والحرف في محلها اللذين وقعا فيها . ومذهب الجماعة أن حرف العطف هو المقدم في التقدير والهمزة بعده ، ولكنه لما كانت الهمزة لها صدر الكلام قدمت . فالتقدير عند الجماعة : فأما . وقد رجع الزمخشري إلى مذهب الجماعة . وتقدم الكلام معه في ذلك .

﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم، إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لاكلون منها فيالثون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لآلى الجحيم ، إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ، ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين ، ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على نوح في العالمين ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين﴾ .

لما انقضت قصة المؤمن وقرينه ، وكان ذلك على سبيل الاستطراد من شيء إلى شيء . عاد إلى ذكر الجنة والرزق الذي أعده الله فيها لأهلها فقال (أذلك) الرزق (خير نزلاً) والنزل : ما يعد للأضياف . وعادل بين ذلك الرزق وبين شجرة الزقوم

فلاستواء الرزق المعلوم يحصل به اللذة والسرور، وشجرة الزقوم<sup>(١)</sup> يحصل بها الألم والغم فلا اشتراك بينهما في الخيرية. والمراد: تقدير قريش والكفار وتوقيفهم على شيئين، أحدهما: فاسد. ولو كان الكلام استفهاماً حقيقة لم يجز إذ لا يتوهم أحد أن في شجرة الزقوم خيراً، حتى يعادل بينها وبين رزق الجنة. ولكن المؤمن لما اختار ما أدى إلى رزق الجنة، والكافر اختار ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل ذلك توبيخاً للكافرين، وتوقيفاً على سواء اختيارهم. (إنا جعلناها فتنة للظالمين) قال قتادة، ومجاهد، والسدي: «أبو جهل ونظراؤه. لما نزلت قال للكفار يخبر محمد عن النار أنها تنبت الأشجار وهي تأكلها وتذهبها ففتنوا بذلك أنفسهم وجملة أتباعهم<sup>(٢)</sup>». وقال أبو جهل: «إنما الزقوم التمر بالزبد ونحن نترقمه». وقيل: منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. واستعير الطلع وهي النخلة لما تحمل هذه الشجرة. وشبه طلوعها بثمر شجرة معروفة يقال لثمرها رؤوس الشياطين وهي بناحية اليمين يقال لها الأستن، وذكرها النابغة في قوله:

تَجِيدُ عَنْ أُسْتَنِ سُودٍ أَسَافِلُهُ مَشِيَّ الإِمَاءِ الْغَوَادِي تَحْمِلُ الْخُزْمَا<sup>(٣)</sup>

وهو شجر خشن مر منكر الصورة، سمت ثمره العرب بذلك، تشبهاً برؤوس الشياطين ثم صار أصلاً يشبه به. وقيل: هو شجرة يقال لها الصوم، ذكرها ساعدة بن حوبة الهذلي في قوله:

مُوكَّلٌ بِشُدُوفِ الصُّومِ يَرْقُبُهَا مِنْ الْمَنَاطِرِ مَخْطُوفِ الْحَشَارِمِ<sup>(٤)</sup>

وقيل: الشياطين: صنف من الحيات ذوات أعراف، ومنه:

عَنْجَرْدٌ تَحْلِفُ حِينَ أَحْلِفُ كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحَمَاطِ أَعْرَفُ<sup>(٥)</sup>

وقيل: شبه بما اشتهر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها وإن كانت غير مرئية، ولذلك يصورون الشيطان في أقيح الصور، وإذا رأوا أشعث منتفش الشعر قالوا: كأنه وجه شيطان وكان رأسه رأس شيطان. وهذه بخلاف الملك يشبهون به الصورة الحسنة، وكما شبه امرؤ القيس المسنونة الزرق بأنياب الغول في قوله:

وَمَسْنُونَةٌ زُرُقُ كَأَنِّيَابِ أَعْوَالِ<sup>(٦)</sup>

إن كان لم يشاهد تلك الأنياب. وهذا كله تشبيه تخييلي. والضمير في (منها) يعود على الشجرة. أي: من طلوعها. وقرأ الجمهور (لشوباً) بفتح الشين. وشيبان النحوي بضمها. وقال الزجاج: «الفتح للمصدر، والضم للاسم». يعني أنه فعل بمعنى مفعول. أي: مشوب كالنقص بمعنى المنقوص. وفسر بالخلط. و(الحميم) الماء السخن جداً. وقيل: يراد به هنا شراهم الذي هو طينة الخبال صديدهم وما ساح منهم. ولما ذكر أنهم يملؤون بطونهم من شجرة الزقوم للجوع الذي

(١) قال الجوهري: اسم طعام لهم فيه تمر وزبد. وهو فاعول من الزتم اللقم الشديد والشرب المفرط. لسان العرب (٣/١٨٤٦).

(٢) انظر القرطبي ٥٨/١٥ وابن كثير ٦٠/٤.

(٣) من البسيط للناطقة انظر ديوانه (١١٣) الكامل (٩٣/٣).

(٤) من البسيط لساعدة بن جؤية انظر ديوان الهذليين (١٥٤/١) الخصائص (٧٩/٣)، أمالي القالي (٤٨/١) اللسان (صوم).

(٥) البيت من الرجز انظر معاني الفراء (٣٨٧/١) اللسان (عنجرد) القرطبي (٥٩/١٥).

(٦) عجز بيت من الطويل لامرئ القيس وصدره:

أيقنتني والمشرقي مضاجعي

انظر ديوانه (٣٣) الكامل (٩٦/٣) معاهد التنصيص (١٣٤/١) دلائل الإعجاز (١٤٩)، القرطبي (٥٨/١٥).

يلحقهم أو لإكراههم على الأكل وملء البطون زيادة في عذابهم ذكر ما يسقون لعلبة العطش وهو ما يمزج لهم من الحميم . ولما كان الأكل يعتقه ملء البطن كان العطف بالفاء في قوله (فماثلون) ولما كان الشرب يكثر تراخيه عن الأكل أتى بلفظ (ثم) المقتضية المهلة . أو لما امتلأت بطونهم من ثمرة الشجرة ، وهو حار أحرق بطونهم ، وعطشهم ، فأخر سقيهم زماناً ، ليزدادوا بالعطش عذاباً إلى عذابهم ، ثم سقوا ما هو أحر وألم وأكره . (ثم إن مرجعهم لإلى الحميم) لما ذهب بهم من منازلهم التي أسكنوها في النار إلى شجرة الزقوم للأكل والتملؤ منها ، والسقي من الحميم ونواحي رجوعهم إلى منازلهم دخلت (ثم) للدلالة على ذلك ، والرجوع دليل على الانتقال في وقت الأكل والشرب إلى مكان غير مكانها ، ثم ذكر تعالى حالهم في تقليد آبائهم . والضمير لقريش وأن ذلك التقليد كان سبباً لاستحقاقهم تلك الشدائد . أي : وجدوا آباءهم ضالين فاتبعوهم على ضلالتهم مسرعين في ذلك لا يثبتهم شيء . ثم أخبر بضلال أكثر من تقدم من الأمم ، هذا وما خلت أزمانهم من إرسال الرسل وإنذارهم عواقب التكذيب . وفي قوله (فانظر) ما يقتضي إهلاكهم وسوء عاقبتهم ، واستثنى المخلصين من عباده وهم الأقل المقابل لقوله (أكثر الأولين) والمعنى : إلا عباد الله فإنهم نجوا . ولما ذكر ضلال الأولين وذكر أولهم شهرة وهم قوم نوح - عليه السلام - تضمنت أشياء ، منها : الدعاء على قومه ، وسؤاله النجاة ، وطلب النصرة ، وأجابه تعالى في كل ذلك إجابة بلغ بها مراده واللام في (فلنعم) جواب قسم ، كقوله :

يَمِينًا نِنْعَمُ السَّيِّدَانِ وَجُدْتُمَا<sup>(١)</sup>

والمخصوص بالمدح محذوف . تقديره : فلنعم المجيون نحن . وجاء بصيغة الجمع للعظمة والكبرياء لقوله (فقدردنا فنعم القادرون) و(الكراب العظيم) قال السدي : «الغرق ، ومنه تكذيب الكفرة ، وركوب الماء وهوله ، وهم فصل متعين للفصلية لا يحتمل غيره» . قال ابن عباس وقتادة : «أهل الأرض كلهم من ذرية نوح» . وفي الحديث : «أنه - عليه السلام - قرأ (وجعلنا ذريته هم الباقين) فقال : سام وحام ويافت» . وقال الطبري : «العرب من أولاد سام ، والسودان من أولاد حام ، والترك وغيرهم من أولاد يافت» . وقالت فرقة : أبقى الله ذرية نوح ، ومد في نسله ، وليس الناس منحصرين في نسله بل في الأمم من لا يرجع إليه» . (وتركنا عليه في الآخرين) أي : في الباقين غابر الدهر ، ومفعول (تركنا) محذوف ، تقديره : ثناء حسناً جميلاً في آخر الدهر . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي . و(سلام) رفع بالابتداء مستأنف . سلم الله عليه ليقنتي بذلك البشر فلا يذكره أحد من العالمين بسوء . سلم تعالى عليه جزاء على ما صبر طويلاً من أقوال الكفرة وإذائتهم له . وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> (وتركنا عليه في الآخرين) هذه الكلمة وهي (سلام على نوح في العالمين) يعني يسلمون عليه تسليماً ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكي كقولك : قرأت سورة أنزلناها» . انتهى . وهذا قول الفراء وغيره من الكوفيين : «وهذا هو المتروك عليه ، وكأنه قال : وتركنا على نوح تسليماً يسلم به عليه إلى يوم القيامة» . انتهى . وفي قراءة عبد الله (سَلاماً) بالنصب ومعنى (في العالمين) ثبوت هذه التحية مثبتة فيهم جميعاً ، مدامة عليه في الملائكة ، والتقليد يسلمون عليه عن آخرهم ، ثم علل هذه التحية بأنه كان محسناً ، ثم علل إحسانه بكونه مؤمناً ، فدل على جلالة الإيمان ومخلة عند الله (ثم أغرقنا الآخرين) أي : من كان مكذباً له من قومه . لما ذكر نجاته ونجاة أهله إذ كانوا مؤمنين ذكر هلاك غيرهم بالغرق .

(١) صدر بيت من الطويل لزهير وعجزه :

على كل حال من سحيل وميرم

ديوانه (١٠٥) المصم (٤٢/٢) .

(٢) انظر الكشف ٤/ ١٨ .

﴿وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون، أنفكاً آلهة دون الله تريدون، فما ظنكم برب العالمين، فنظر نظرة في النجوم، فقال إني سقيم، فتولوا عنه مدبرين، فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون، ما لكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين، فأقبلوا إليه يرفون، قال أتعبدون ما تتحتون، والله خلقكم وما تعملون قالوا ابناؤه بنياناً فألقوه في الجحيم، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾.

والظاهر عود الضمير في (من شيعته) على نوح. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي. أي: ممن شايعه في أصول الدين والتوحيد وإن اختلفت شرائعها، أو اتفق أكثرهما، أو ممن شايعه في التصلب في دين الله، ومصابرة المكذبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفا سنة وستمائة وأربعون سنة، وبينها من الأنبياء هود وصالح - عليها السلام - وقال الفراء: «الضمير في (من شيعته) يعود على محمد - ﷺ - والأعراف أن المتأخر في الزمان هو شيعته للمتقدم. وجاء عكس ذلك في قول الكميت:

وَمَالِي إِلَّا آلَ أَحْمَدَ شَيْعَةً وَمَالِي إِلَّا مُشْعَبَ الْحَقِّ مُشْعَبٌ<sup>(١)</sup>

جعلهم شيعته لنفسه. وقال الزمخشري: «(فإن قلت: ) بم يتعاقى الظرف (قلت: ) بما في الشيعة من معنى المشايعة. يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم، أو بمحذوف وهو اذكر». انتهى. أما التخريج الأول فلا يجوز، لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو قوله (لإبراهيم) لأنه أجنبي (من شيعته) ومن (إذ) وزاد المنع إذ قدره ممن شايعه حين جاء لإبراهيم. وأيضاً فلام التوكيد يمنع أن يعمل ما قبلها فيما بعدها لو قلت: إن ضارباً لقدام علينا زيداً. وتقديره: إن ضارباً زيداً لقدام علينا. لم يجز. وأما تقديره اذكر». فهو المعهود عند المعربين. ومجيئه (ربه بقلب سليم) إخلاصه الدين لله، وسلامة قلبه براءته من الشرك، والشك، والنقائص التي تعتري القلوب من الغل والحسد والخبث والمكر والكبر ونحوها<sup>(٢)</sup>. قال عروة بن الزبير لم يلعن شيئاً قط، وقيل: سليم من الشرك ولا معنى للتخصيص. وأجازوا في نصب (أنفكاً) وجوهاً، أحدها: أن يكون مفعولاً ب (تريدون). والتهديد لأمتة وهو استفهام تقرير ولم يذكر ابن عطية غير هذا الوجه، وذكره الزمخشري قال: «فسر الإفك بقوله (آلهة) من (دون الله) على أنها إفك في أنفسهم. والثاني: أن يكون مفعولاً من أجله. أي: تريدون آلهة من دون الله إفكاً. و(آلهة) مفعول به، وقدمه عناية به. وقدم المفعول له على المفعول به، لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم وبدأ بهذا الوجه الزمخشري. والثالث: أن يكون حالاً. أي: أتريدون آلهة من دون الله أفكين قاله الزمخشري وجعل المصدر حالاً لا يطرد إلا مع أما في نحو: أما علماً فعالم. (فما ظنكم برب العالمين) استفهام توبيخ وتحذير وتوعد. أي: أي شيء ظنكم بمن هو يستحق لأن تعبدوه إذ هورب العالمين حتى تركتم عبادته، وعدلتم به الأصنام. أي أي شيء ظنكم بفعله معكم من عقابكم إذ قد عبدتم غيره، كما تقول: أسأت آل فلان فما ظنك به أن يوقع بك خيراً ما أسأت إليه. ولما ويخهم على عبادة غير الله أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تنفع ولا تضر فعهد إلى ما يجعله منفرداً بها حتى يكسرها ويبين لهم حالها وعجزها. (فنظر نظرة في النجوم) والظاهر: أنه أراد علم الكواكب وما يعزى إليها من التأثيرات التي جعلها الله لها. والظاهر: أن نظره كان فيها، أي: في علمها، أو في كتابها الذي اشتمل على أحوالها وأحكامها. قيل: وكانوا يعانون ذلك، فاتاهم من الجهة التي يعانونها، وأوهمهم بأنه استدل بأمارة في علم النجوم أنه (سقيم) أي: يشارف السقم. قيل: وهو الطاعون<sup>(٣)</sup> وكان أغلب الأسقام عليهم إذ ذاك وخافوا العدوى

(١) البيت من الطويل انظر المقتضب (٤/٣٩٨) الإنصاف (٢٧٥) مجالس ثعلب (٤٩)، الأشموني (٢/١٤٩) اللسان (شعب).

(٢) انظر القرطبي ٦١/١٥ وابن كثير ١٢/٤.

(٣) انظر القرطبي ٦٢/١٥، ٦٣.

وهربوا منه إلى عيدهم، ولذلك قال (فتولوا عنه مدبرين) قال معناه ابن عباس: «وتركوه في بيت الأصنام ففعل ما فعل». وقيل: كانوا أهل رعاية وفلاحة وكانوا يحتاجون إلى علم النجوم. وقيل: أرسل إليهم ملكهم أن غداً عيدنا فاحضر معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال إن هذا يطلع مع سقمي. وقيل: معنى (فنظر نظرة في النجوم) أي: فيما نجم إليه من أمور قومه وحاله معهم. ومعنى (فتولوا عنه مدبرين) أي: لكفرهم به، واحتقارهم له، وقوله (إني سقيم) من المعارض. عرض أنه يسقم في المال. أي: يشارف السقم. قيل: وهو الطاعون، وكان أغلب. وفهموا منه أنه ملتبس بالسقم وابن آدم لا بد أن يسقم والمثل: كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً، قال الشاعر:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ (١)

ومات رجل فجأة فاكتنف عليه الناس، فقالوا مات وهو صحيح. فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه (فراغ إلى ألهتهم) أي: أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة، كقولهم ﴿أين شركائي﴾ [القصص ٧٤] وعرض الأكل عليها واستفهامها عن النطق هو على سبيل الهزاء، لكونها منحطة عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون. وروي: أنهم كانوا يضعون عندها طعاماً ويعتقدون أنها تصيب منه شيئاً وإنما يأكله خدمتها. (فراغ عليهم ضرباً باليمين) أي: أقبل عليهم مستخفياً ضارباً، فهو مصدر في موضع الحال. أو يضربهم ضرباً، فهو مصدر فعل محذوف. أو ضمن (فراغ عليهم) معنى ضربهم. و(باليمين) أي: يمين يديه. قال ابن عباس: «لأنها أقوى يديه، أو بقوته لأنه قيل كان يجمع يديه في الآلة التي يضربها بها، وهي الفأس». وقيل: سبب الخلف الذي هو ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ [الأنبياء ٥٧] وقرأ الجمهور (يُزْفون) بفتح الياء من زَفَّ أسرع، أو من زفاف العروس وهو التمهل في المشية إذ كانوا في طمأنينة أن ينال أصنامهم شيء لعزتهم. وقرأ حمزة، ومجاهد، وابن وثاب، والأعمش بضم الياء من (أَزَفَّ) دخل في الزيف، فهي للتعدي. قاله الأصمعي. وقرأ مجاهد، أيضاً وعبد الله بن يزيد، والضحاك، ويحيى بن عبد الرحمن المقرئ وابن أبي عبلة (يُزْفون) مضارع زف بمعنى أسرع وقال الكسائي والفراء «لا نعرفها بمعنى زف». وقال مجاهد «الوزيف السيلان». وقرئ يزفون مبنياً للمفعول. وقرئ (يُزْفون) بسكون الزاي من زفاه إذا حداه فكان بعضهم يزفون بعضاً لتسارعهم إليه وبين قوله (فراغ عليهم ضرباً باليمين) وبين قوله (فأقبلوا إليه يزفون) جل محذوفة، هي مذكورة في سورة اقترب. ولا تعارض بين قوله (فأقبلوا إليه يزفون) وبين سؤالهم ﴿من فعل هذا بأهنتنا﴾ [الأنبياء ٥٩] وإخبار من عرض بأنه إبراهيم كان يذكر أصنامهم، لأن هذا الإقبال كان يقتضي تلك الجمل المحذوفة. أي: فأقبلوا إليه أي: إلى الإنكار عليه في كسر أصنامهم، وتأنيبه على ذلك، وليس هذا الإقبال من عندهم، بل بعد مجيئهم من عندهم جرت تلك المفاوضات المذكورة في سورة اقترب. واستسلف الزمخشري في كلامه أشياء لم تتضمنها الآيات صارت الآيات عندها كالتناقضة. قال: «حيث ذكر هنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى، فلما أبصروه يكسر أصنامهم، أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به، وذكرتم أنهم سألوا عن الكاسر حتى قيل سمعنا إبراهيم يذمهم فلعله هو الكاسر ففي إحداهما أنهم شاهدهوه يكسرها، وفي الأخرى أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر». انتهى. ما أبدى من التناقض وليس في الآيات ما يدل على أنهم أبصروه يكسروهم فيكون فيه كالتناقض. ولما قرر أنه كالتناقض قال: «قلت فيه وجهان، أحدهما: أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفرأ منهم دون جمهورهم وكبرائهم، فلما رجع الجمهور والعلية من عندهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتترك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك وسألوا من فعل هذا بها لم ينم عليه أولئك النفس غيمة صريحة ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم ﴿سمعنا فتى يذكروهم﴾

[الأنبياء ٦٠] لبعض الصوارف. والثاني: أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر وقولهم: ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾ [الأنبياء: ٦١] انتهى. وهذا الوجه الثاني الذي ذكره هو الصحيح. (قال أئميدون ما تحتون) استفهام توبيخ وإنكار عليهم. كيف هم يعبدون صوراً صوّروها بأيديهم وشكلوها على ما يريدون من الأشكال (والله خلقكم وما تعملون) الظاهر: أن (ما) موصولة بمعنى الذي معطوفة على الضمير في (خلقكم) أي: أنشأ ذواتكم وذوات ما تعملون من الأصنام. والعمل هنا: هو التصوير والتشكيل كما يقول عمل الصانع الخللخال، وعمل الحداد الففل، والنجار الخزانة. ويحمل ذلك على أن (ما) بمعنى الذي يتم الاحتجاج عليهم بأن كلاً من الصنم وعبده هو مخلوق لله تعالى، والعابد هو المصور ذلك المعبود، فكيف يعبد مخلوق مخلوقاً وكلاهما خلق الله وهو المنفرد بإنشاء ذواتها، والعابد مصور الصنم معبوده. و(ما) في (وما تحتون) بمعنى الذي فكذلك في (وما تعملون) لأن نحتهم هو عملهم. وقيل: (ما) مصدرية. أي: خلقكم وعملكم. وجعلوا ذلك قاعدة على خلق الله أفعال العباد، وقد بدد الزمخشري تقابيل هذه المقالة بما يوقف عليه في كتابه. وقيل: (ما) استفهام إنكاري. أي: وأي شيء تعملون في عبادتكم أصناماً تحتونها. أي: لا عمل لكم يعتبر، وقيل: (ما) نافية. أي: وما أنتم تعملون شيئاً في وقت خلقكم، ولا تقدرون على شيء. وكون (ما) مصدرية واستفهامية ونعتاً. أقوال متعلقة خارجة عن طريق البلاغة. ولما غلبهم إبراهيم - عليه السلام - بالحجة مالوا إلى العلبة بقوة الشوكة والجمع (فقالوا ابنوا له بنياناً) أي: في موضع إيقاد النار. وقيل: هو من المنجنيق الذي رمي عنه (وأرادوا به كيداً) فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأخسرين الأسفلين وكذا عادة من غلب بالحجة رجع إلى الكيد.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدِينَ ٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١ فَأَمَّا بَلَعُ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يُبْتِئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ١٠٢ قَالَ يَتَّبِعُكَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٠٣ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٠٤ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعِهِ ١٠٥ فَدَصَّقْتُ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٦ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُمِينُ ١٠٧ وَفَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١٠٩ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ١١٠ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١١١ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١١٢ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ ١١٣ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ١١٤ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ١١٥ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ١١٦ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ١١٧ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ١١٨ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١١٩ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ١٢٠ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ١٢١ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٢٢ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١٢٣ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٢٤ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ أَكْفَرُونَ ١٢٥ أَلَدُعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ١٢٦ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ١٢٧ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ ١٢٨ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ١٢٩



وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْعَثُهُ وَإِلَىٰ يَاقُونََ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ  
 ﴿١٢٢﴾ وَإِنْ لَوْطَا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ يَخْتَصِمِيهِمْ أَهْلُهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ  
 ﴿١٢٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٢٧﴾ وَبِالنِّلِّ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِنْ يُؤْسَسُ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ أَتَىٰ إِلَى  
 الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣١﴾ فَالْقَمَمَةُ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ  
 الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٣٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٥﴾ فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٣٦﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ  
 شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٣٧﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ فَتَأَمَّنُوا فَمَزَّجْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٣٩﴾  
 فَاسْتَفْتَاهُمُ أَرَأَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٤١﴾ أَلَا  
 إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٤٢﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٤٣﴾ أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَىٰ الْبَنِينَ ﴿١٤٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ  
 تَحْكُمُونَ ﴿١٤٥﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٤٦﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٤٧﴾ فَاتُوا بِكِنْيَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٨﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
 الْجَنَّةِ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٤٩﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٥١﴾  
 فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٥٢﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٥٣﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٥٤﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٥٥﴾ وَإِنَّا  
 لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٥٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٥٧﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٥٨﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥٩﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ  
 الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٦٣﴾  
 وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٦٤﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٦٥﴾ وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٦٦﴾ أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٦٧﴾ فَإِذَا  
 نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦٨﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٦٩﴾ وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٠﴾ سُبْحٰنَ رَبِّكَ  
 رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٧١﴾ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٣﴾

تَلَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ : صرعه على شقه . وقيل : وضعه بقوة . وقال ساعدة بن جؤية (١) :

وتَلَّ تليلاً للجبين وللقم

والجبينان : ما اكتنف من هنا ومن هنا . وشذ جمع الجبين على أجبين وقياسه في القلة أجنة ككثيب وأكثبة ، وفي الكثرة  
 جُبُنَاتٌ وَجُبُنٌ ككثبات وكثب ، الذبح : اسم ما يذبح كالرعي اسم ما يرعى . أبق : هرب ، ساهم : قارع ، المدحض :  
 المقلوب ، الخوث : معروف ، الأم : أتى بما يلام عليه . قال الشاعر :

وَكَمْ مِنْ مُلِيمٍ لَمْ يُصَبِّ بِمَلَامَةٍ      وَمُتَّبِعٍ بِالذَّنْبِ لَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ (١)

(١) البيت من الطويل انظر أمالي القاضي ١٦/١ .

العراء : الأرض الفيحاء لا شجر فيها ولا يعلم . قال الشاعر :

رَفَعْتُ رَجُلًا لَا أَخَافُ عِثَارَهَا      وَتَبَدُّتُ بِأَلْمِينِ الْعَرَاءِ تَيَّابِي<sup>(١)</sup>

اليقطين : يفعل كاليقصيد من «قطن» أقام بالمكان . وهو بالمكان . وهو ما كان من الشجر لا يقوم على ساق من עוד شجر البطيخ والحظل والقثاء ، الساحة : الفناء ، وجمعها سوح . قال الشاعر :

فَكَانَ سَيَّانٍ أَنْ لَا يَسْرُحُوا نَعْمًا      أَوْ يَسْرُحُوهُ بِهَا وَاعْتَبَرَتِ السُّوحُ<sup>(٢)</sup>

﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، ونادياته أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتها محسن وظالم لنفسه مبين﴾ .

لما سلمه الله منهم ومن النار التي ألقوه فيها عزم على مفارقتهم . وعبر بالذهاب إلى ربه عن هجرته إلى أرض الشام كما قال : ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾ [العنكبوت : ٢٦] ليتمكن من عبادة ربه ، ويتضرع له من غير أن يلقي من يشوش عليه ، فهاجر من أرض بابل من مملكة غرود إلى الشام . وقيل : إلى أرض مصر ويعد قول من قال : ليس المراد بذهابه الهجرة ، وإنما مراده لقاء الله بعد الإحراق ظاناً منه أنه سيموت في النار ، فقاها قبل أن يطرح في النار . (وسيهدين) أي : إلى الجنة نحا إلى هذا قتادة لأن قوله (رب هب لي من الصالحين) يدفع هذا القول . والمعتقد أنه يموت في النار لا يدعو بأن يهب الله له ولداً صالحاً (سيهدين) يوفقي إلى ما فيه صلاحه (من الصالحين) أي : ولداً يكون في عداد الصالحين . ولفظ الهبة غلب في الولد ، وإن كان قد جاء في الأخ كقوله : ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ [مريم : ٥٣] واشتملت البشارة على ذكورية المولود وبلوغه سن الحلم ووصفه بالحلم . وأي حلم أعظم من قوله وقد عرض عليه أبوه الذبح (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) (فلما بلغ معه السعي) بين هذه الجملة والتي قبلها محذوف . تقديره : فولد له وشب فلما بلغ ، أي : بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوادثه . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد : والسعي هنا : العمل والعبادة والمعونة<sup>(٣)</sup> ، وقال قتادة : «السعي على القدم يريد سعياً متمكناً» ، وفيه قال الزمخشري<sup>(٤)</sup> : «لا يصح تعلقه بـ (بلغ) به بلوغها معاً أحد السعي ولا بالسعي ، لأن أصله المصدر لا يتقدم عليه فنفي أن يكون بياناً كأنه لما قال (فلما بلغ معه السعي) أي : الحد الذي يقدر فيه على السعي . قيل : مع من؟ فقال : مع أبيه والمعنى في احتصاص الأب ، أنه أرفق الناس وأعطفهم عليه وعلى غيره وبما عنف عليه في الاستعلاء فلا يحتمله ، لأنه لم يستحكم قوله ، ولم يطلب عوده ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة» . انتهى . (قال يا بني) نداء شفقة وترحم (إني أرى في المنام أني أذبحك) أي : بأمر من الله . ويدل عليه (افعل ما تؤمر) ورؤيا الأنبياء

(١) من الكامل نسب لأبي خراش الهذلي انظر ديوان الهذليين (١٦٨/٢) الكامل (٢٨٧/٦) مجاز القرآن (١٧٥/٢) اللسان (عرا) .

(٢) من البسيط لأبي ذؤيب الهذلي انظر ديوان الهذليين (١٠٧/١) ابن عيش (٨٦/٢) الحصائص (٣٤٨/١) المغني (٦١/١) اللسان (سوا) .

(٣) انظر ابن كثير ١٤/٤ والقرطبي ٦٦/١٥ .

(٤) انظر الكشاف : ٥٣/٣ .

وحي كاليقظة . وذكره له الرؤيا . تحمير<sup>(١)</sup> على احتمال تلك البلية العظيمة ، وشاوره بقوله ( فانظر ماذا ترى ) وإن كان حتماً من الله ليعلم ما عنده من تلقي هذا الامتحان العظيم ويصبره إن جزع ، ويوطن نفسه على ملاقاته هذا البلاء ، وتسكن نفسه لما لا بد منه إذ مفاجأة البلاء قبل الشعور به أصعب على النفس ، وكان ما رآه في المنام ولم يكن في اليقظة كروياً يوسف - عليه السلام - ورؤيا رسول الله - ﷺ - دخول المسجد الحرام ليدل على أن حالي الأنبياء يقظة ومناماً سواء في الصدق متظافرتان عليه . قيل : إنه حين بشرت الملائكة (بغلام حلیم) قال هو إذن ذبيح الله فلما بلغ حد السعي معه . قيل له : أوف بنذكرك . قيل : رأى ليلة التروية قائلاً يقول له : إن الله يأمرك بذيح ابنك هذا ، فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم فمن ثم سمي يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فمن ثم سمي يوم عرفة ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر . وقرأ الجمهور (ترى) بفتح التاء والراء . وعبد الله ، والأسود بن يزيد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، ومجاهد ، وحمزة ، والكسائي بضم التاء وكسر الراء . والضحاك والأعمش أيضاً بضم التاء وفتح الراء . فالأول : من الرأي والثاني : ماذا ترينه وما تبديه لأنظر فيه . والثالث : ما الذي يخيل إليك ويوقع في قلبك . (وانظر) معلقة (وماذا) استفهام ، فإن كانت (ذا) موصولة بمعنى الذي ف (ما) مبتدأ والفعل بعد (ذا) صلة ، وإن كانت (ذا) مركبة ففي موضع نصب بالفعل بعدها ، والجملة واسم الاستفهام الذي هو معمول للفعل بعده في موضع نصب له (انظر) ولما كان خطاب الأب (يا بني) على سبيل الترحم ، قال هو (يا أبت) على سبيل التعظيم والتوقير (افعل ما تؤمر) أي : ما تؤمره . حذفه وهو منصوب ، وأصله : ما تؤمر به فحذف الحرف واتصل الضمير منصوباً فجاز حذفه لوجود شرائط الحذف فيه . وقال الزمخشري : «أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول الذي لم يسم فاعله . وفي ذلك خلاف هل يعتقد في المصدر العامل أن يجوز أن يبنى للمفعول فيكون ما بعده مفعولاً لم يسم فاعله أم لا يكون ذلك» . (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) كلام من أوتي الحلم والصبر والامثال لأمر الله والرضا بما أمر الله . (فلما أسلم) أي : لأمر الله ، ويقال : استسلم وسلم بمعناها . وقرأ الجمهور (أسلم) . وقرأ عبد الله ، وعلي ، وابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وجعفر بن محمد ، والأعمش ، والثوري (سَلَّم) أي : فوضا إليه في قضائه وقدره . وقرئ (استسَلَّم) ثلاث قراءات . وقال قتادة : «في (أسلم) أسلم هذا ابنه وأسلم هذا نفسه» . فجعل (أسلم) متعدياً وغيره جعله لازماً بمعنى انقاداً لأمر الله ، وخضعاً له . (وتله للجين) أي : أوقعه على أحد جنبيه في الأرض مباشر الأمر بصبر وجلد وذلك عند الصخرة التي بنى . وعن الحسن : «في الموضع المشرف على مسجد منى» ، وعن الضحاك : «في المنحر الذي ينحرف فيه اليوم» . وجواب (لما) محذوف بقدر بعد (وتله للجين) أي : أجزلنا أجزهما . قاله بعض البصريين أو بعد الرؤيا ، أي : كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما وحمدهما الله على ما أنعم به إلى ألفاظ كثيرة ذكرها الزمخشري على عاداته في خطابه ، أو قبل (وتله) تقديره فلما أسلم وتله . قال ابن عطية : «وهو قول الخليل وسيبويه . وهو عندهم كقول امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَنْتَحَى<sup>(٢)</sup>

وقال الكوفيون : الجواب مثبت ، وهو (ونادينه) على زيادة الواو وقالت فرقة : هو (وتله) على زيادة الواو . وذكر

(١) رجل جور : مقدم ماض شجاع .

لسان العرب (١/٢٢٣)

(٢) صدر بيت لامرئ القيس وعجزه :

بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل

ديوانه (١١٥) السبع الطوال (٥٤) معاني الفراء (٢/٢٥٠) الإنصاف (٤٥٧) اللسان (جوز) القرطبي (١٥/٦٩) .

الزنجشري في قصة إبراهيم وابنه وما جرى بينهما من الأقوال والأفعال فصولاً - الله أعلم بصحتها - يوقف عليها في كتابه (وأن) مفسرة. أي: قد صدقت، وقرأ زيد بن علي (ونادياته قد صدقت) بحذف أن. وقرىء (صَدَقْتَ) بتخفيف الدال. وقرأ فياض (الرؤيا) بكسر الراء والإدغام. وتصديق الرؤيا، قال الزنجشري: «بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة، لكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه. وهذا لا يقدر في فعل إبراهيم، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفراطاً، بل يسمى مطيعاً ومجتهداً كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم وليس هذا من ورود النسخ على الأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه». وقال ابن عطية: «(قد صدقت) يحتمل أن يريد بقلبك على معنى كانت عندك رؤياك صادقة حقاً من الله فعملت بحسبها حين آمنت بها واعتقدت صدقها. ويحتمل أن يريد: صدقت بقلبك ما حصل عن الرؤيا في نفسك، كأنه قال: قد وفيتها حقها من العمل». انتهى. (إنا كذلك نجزي المحسنين) تعليل لتحويل ما حولهما الله من الفرج بعد الشدة، والظفر بالبغية بعد اليأس. (إن هذا) أي: ما أمر به إبراهيم من ذبح ابنه (هو البلاء المبين) أي: الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون وغيرهم. أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها. (وفديناه بذبح) قال ابن عباس: «هو الكبش الذي قرب به هابيل فقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى فدي به إسماعيل». وقال أيضاً: هو والحسن فدي بوعلى أهبط عليه من سرو<sup>(١)</sup>. وقال الجمهور: كبش أبيض أقرن أفتى. ووصف بالعظم، قال مجاهد: «لأنه متقبل يقيناً». وقال عمرو بن عبيد: «لأنه جرت السنة به وصار ديناً باقياً إلى آخر الدهر». وقال الحسن بن الفضل: «لأنه كان من عند الله». وقال أبو بكر الوراق: «لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين». وقال ابن عباس وابن جبير: «عظمته كونه من كباش الجنة، رعى فيها أربعين خريفاً». وفي قوله (وفديناه بذبح عظيم) دليل على أن إبراهيم لم يذبح ابنه وقد فدي. وقالت فرقة: وقع الذبح وقام بعد ذلك. قال ابن عطية: «وهذا كذب صراح». وقالت فرقة: لم ير إبراهيم في منامه الإمرار بالشفرة فقط فظن أنه ذبح مجهز فنفذ لذلك فلما وقع الذي رآه وقع النسخ قال: ولا اختلاف فإن إبراهيم - عليه السلام - أمر الشفرة على حلق ابنه فلم تقطع». انتهى. والذي دل عليه القرآن أنه (تله للجبين) فقط، ولم يأت في حديث صحيح أنه أمر الشفرة على حلق ابنه (وتركنا عليه) إلى (المؤمنين). تقدم تفسير نظيره في آخر قصة نوح قبل قصة إبراهيم هنا. وقال هنا (كذلك) دون (إننا) اكتفاء بذكر ذلك قبل وبعد. (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) الظاهر: أن هذه بشارة غير تلك البشارة، وأن الغلام الحليم المبشر به إبراهيم هو إسماعيل، وأنه هو الذبيح لا إسحاق. وهو قول ابن عباس، وابن عمر، ومعاوية بن أبي سفيان، ومحمد بن كعب القرظي، والشعبي، والحسن، ومجاهد، وجماعة من التابعين. واستدلوا بظاهر هذه الآيات، ويقولون - عليه السلام -: «أنا ابن الذبيحين»، وقول الأعرابي له: «يا ابن الذبيحين فتبسم عليه السلام» يعني إسماعيل وأباه عبد الله، وكان عبد المطلب نذر ذبح أحد ولده، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله، وقالوا له: أقد ابنك بمائة من الإبل ففداه بها. وفيما أوحى الله لموسى في حديث طويل: «وأما إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه». وسأل عمر بن عبد العزيز يهودياً أسلم عن ذلك، فقال: إن يهودياً ليعلم ولكنهم يحسدونكم معشر العرب وكان قرنا الكبش منوطين في الكعبة». وسأل الأصمعي أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعي أين عزب<sup>(٢)</sup> عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة. انتهى ووصفه تعالى بالصبر في قوله: ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾ [الأنبياء: ٨٥]

(١) انظر ابن كثير ١٥/٤ والقرطبي ٧١/١٥، ٧٢.

(٢) أعزب عنه حلمه، وعزب عنه يعزب عزوباً: ذهب وأعزبه الله: أذهب ومنه قوله تعالى: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض﴾.

وهو صبره على الذبح وبصدق الوعد في قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم ٥٤] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به. وذكر الطبري أن ابن عباس قال: «الذبيح إسماعيل ويزعم اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود». ومن أقوى ما يستدل به أن الله تعالى بشر إبراهيم بإسحاق، وولد إسحاق يعقوب، فلو كان الذبيح إسحاق لكان ذلك الاخبار غير مطابق للواقع، وهو محال في اخبار الله تعالى. وذهبت جماعة إلى أن الذبيح هو إسحاق منهم العباس بن عبد المطلب، وابن مسعود، وعلي، وعطاء، وعكرمة، وكعب، وعبيد بن عمير، وابن عباس في رواية وكان أمر ذبحه بالشأم. وقال عطاء ومقاتل: «بيت المقدس» وقيل: بالحجاز جاء مع أبيه على البراق. وقال عبيد بن عمير وابن عباس في رواية: «وكان أمر ذبحه بالشأم كان بالمقام». وقال ابن عباس: «والبشارة في قوله: ﴿وبشرناه بإسحاق﴾ [الصافات: ١١٢] هي بشارة نبوته، وقالوا: أخبر تعالى عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولداً، ثم اتبع تلك البشارة بغلام حليم، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به. ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف - عليهما السلام - : «من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق» - ذبح الله - ابن إبراهيم - خليل الله - . ومن جعل الذبيح إسحاق جعل هذه البشارة بشارة نبوته كما ذكرنا عن ابن عباس . وقالوا: «لا يجوز أن يشره الله بولادته ونبوته معاً لأن الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبياً. ومن جعله إسماعيل جعل البشارة بولده إسحاق. وانتصب (نبياً) على الحال. هي حال مقدرة فإن كان إسحاق هو الذبيح وكانت هذه البشارة بولادة إسحاق فقد جعل الزمخشري ذلك محل سؤال (فإن قلت: ) فرق بين هذا وقوله: ﴿فادخلوها خالدين﴾ [الزمر: ٧٣] وذلك أن المدخول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معها، فقدرت مقدرين للخلود فكان مستقيماً وليس كذلك المبشر به فإنه معلوم وقت وجود البشارة، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لأن الحال حلية لا تقوم إلا بالمحل، وهذا المبشر به الذي هو إسحاق حين وجد لم توجد النبوة أيضاً بوجوده، بل تراخت عنه مدة طويلة، فكيف يجعل (نبياً) حالاً مقدرة، والحال صفة للفاعل والمفعول عند وجود الفعل منه أربه . فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة فتقديرها صفتهم، لأن المعنى: مقدرين الخلود وليس كذلك النبوة فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة وقت وجود البشارة بإسحاق لعدم إسحاق؟ (قلت: ) هذا سؤال دقيق السلك، ضيق المسلك. والذي يحل الإشكال أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف، وذلك قوله: وبشرناه بوجود إسحاق نبياً. أي: بأن يوجد مقدرة نبوته، فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة، وبذلك يرجع نظير قوله تعالى ﴿فادخلوها خالدين﴾ [الزمر ٧٣] (من الصالحين) حال ثانية وورودها على سبيل الثناء والتقريض، لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين». انتهى. (وباركنا عليه وعلى إسحاق) أفضنا عليها بركات الدين والدنيا، وبأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه. (ومن ذريتها محسن وظالم) فيه وعيد لليهود ومن كان من ذريتها لم يؤمن بمحمد - ﷺ - (ومن ذريتها محسن وظالم) وفيه دليل على أن البرق قد يلد الفاضل ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة.

﴿ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم، وتركنا عليهما في الآخرين، سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين، إنهم من عبادنا المؤمنين، وإن الياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين، الله ربكم ورب آبائكم الأولين، فكذبوه فإنهم لمحضرون، إلا عباد الله المخلصين، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على آل ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، وإن لوطاً لمن المرسلين، إذ نجيناها وأهلها أجمعين، إلا عجوزاً في الغابرين، ثم دمنا الآخرين، وإنكلم لتمررون عليهم مصبحين، وبالليل أفلا تعقلون﴾ .

الكرب العظيم: تعبد القبط لهم، ثم خوفهم من جيش فرعون، ثم البحر بعد ذلك. والضمير في (ونصرناهم) عائد على (موسى وهارون وقومهما) وقيل: عائد على (موسى وهارون) فقط، تعظيماً لهما بكناية الجماعة. (وهم) يجوز أن يكون فصلاً، وتوكيداً، أو بدلاً. (والكتاب المستبين) التوراة، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ [المائدة: ٤٤]

و(الصرط المستقيم) هو الإسلام وشرع الله . و(الياس) قال ابن مسعود وقتادة: «هو إدريس - عليه السلام - ونقلوا عن ابن مسعود، وابن وثاب، والأعمش، والمنهال بن عمرو، والحكم بن عتيبة الكوفي» أنهم قرؤوا (وإن إدريس لمن المرسلين) وهي محمولة عندي على تفسيره لأن المستفيض عن ابن مسعود أنه قرأ (وإن الياس) أيضاً تفسيره الياس بأنه إدريس لعله لا يصح عنه، لأن إدريس في التاريخ المنقول كان قبل نوح . وفي سورة الأنعام ذكر الياس وأنه من ذرية إبراهيم أو من ذرية نوح على ما يحتمله قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاهما نبياً﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿ومن ذريته داود﴾ [الأنعام: ٨٤] وذكر في جملة هذه الذرية إلياس . وقيل: إلياس من أولاد هارون . قال الطبري: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون، وقرأ الجمهور (وإن إلياس) بهمزة قطع مكسورة، وقرأ عكرمة، والحسن، بخلاف عنها والأعرج، وأبورجاء وابن عامر وابن محيصن بوصل الألف . فاحتمل أن يكون وصل همزة القطع، واحتمل أن يكون اسمه «ياسا» ودخلت عليه أل كما دخلت على السبع . وفي حرف أبي ومصحفه (وإن إيليس) بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها لام مكسورة بعدها ياء ساكنة وسين مفتوحة . وقرأ (وإن إدزاس) لغة في إدريس كإبراهيم في إبراهيم (أتدعون بعلاً) أي: أتعبدون بعلاً، وهو علم لصنم لهم<sup>(١)</sup> . قاله الضحاك، والحسن، وابن زيد . قيل: وكان من ذهب طوله عشرون ذراعاً، وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخذموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياء . وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك . وقال عكرمة وقتادة «البعل: الرب بلغة اليمن» . وسمع ابن عباس رجلاً ينشد ضالة فقال له رجل أنا بعلها فقال ابن عباس «الله أكبر . أتدعون بعلاً» ويقال من بعل هذه الدار؟ أي: ربه . والمعنى على هذا: أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله . وقالت فرقة: إن (بعلاً) اسم امرأة أتهمت بضلالة فاتبعوها . وقرأ (أتدعون بعلاً) بالمد على وزن حمراء، ويؤنس هذه القراءة قول من قال إنه اسم امرأة، وقرأ الكوفيون وزيد بن علي (الله ربكم ورب آبائكم) بالنصب في الثلاثة بدلاً من (أحسن) أو عطف بيان إن قلنا إن إضافة التفضيل محضة . وباقي السبعة بالرفع . أي: هو الله، أو يكون استئنافاً مبتدأ . و(ربكم) خبره . وروي عن حمزة أنه إذا وصل نصب وإذا قطع رفع . (فكذبوه) أي: كذبه قومه إما في قوله (الله ربكم) هذه النسب، أو فكذبوه فيما جاء به من عند الله من الأمر بالتوحيد، وترك الصنم والإيمان بما جاءت به الرسل . و(محضرون) مجموعون للعذاب . (إلا عباد الله المخلصين)، استثناء يدل على أن من قومه مخلصين لم يكذبوه، فهو استثناء متصل من ضمير (فكذبوه) ولا يجوز أن يكون استثناء من (فإنهم لمحضرون) لأنهم كانوا يكونون مندرجين فيمن كذب، ويكونون عباد الله المخلصين . وذلك لا يمكن ولا يناسب أن يكون استثناء منقطعاً إذ يصير المعنى لكن عباد الله المخلصين من غير قومه لا محضرون للعذاب ولا مسيس لهؤلاء المسوسين بالآية التي فيها قصة إلياس هذه . وقرأ زيد بن علي، ونافع، وابن عامر (على آل ياسين) وزعموا أن (آل) مفصولة في المصحف و(ياسين) اسم لإلياس، وقيل: اسم لأبي إلياس لأنه إلياس بن ياسين، وآل ياسين هو ابنه إلياس . وقيل: ياسين هو اسم محمد - ﷺ - ، وقرأ باقي السبعة (على إلياسين) بهمزة مكسورة . أي: إلياسين جمع المنسوبين إلى إلياس معه فلمسلم عليهم وهذا يدل على أن من قومه من كان اتبعه على الذين وكل واحد من نسب إليه كأنه إلياس فلما جمعت خفت ياء النسبة بحذف إحداها كراهة التضعيف فالتقى ساكنان الياء فيه وحرف العلة الذي للجمع فحذفت لاتقائهما، كما قالوا: الأشعرون، والأعجمون، والخببيون والمهلبيون . وحكى أبو عمرو أن منادياً نادى يوم الكلاب هلك البيديون . وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «لو كان جمعاً لعرف بالألف واللام» . وقرأ أبو رجاء، والحسن (على إلياسين) بوصل الألف على أنه جمع يراد به إلياس وقومه المؤمنون وحذفت ياء النسب كما قالوا: الأشعرون . والألف

(١) انظر القرطبي ٧٧/١٥ وابن كثير ٢٠/٤ .

(٢) انظر الكشاف ٦٠/٤ .

واللام دخلت على الجمع واسمه على هذا ياس . وقرأ ابن مسعود ومن ذكر معه أنه قرأ إدريس (سلام على إدرايين) وعن قتادة: (وإن إدريس)، وقرأ على (إدريسين)، وقرأ ابن علي (إيليس) كقراءته (وإن إيليس) (لمن المرسلين) (إلا عجوزاً) هي امرأة لوط وكانت كافرة إما مستترة بالكفر وإما معلنة به . وكان نكاح الوثنيات عندهم جائزاً (مصباحين) أي : داخلين في الإصباح . والخطاب في (وإنكم) لقريش وكانت متاجرهم إلى الشام على مدائن قوم لوط . (أفلا تعقلون) فتعتبرون بما جرى على من كذب الرسل .

﴿وإن يونس لمن المرسلين، إذ أبق إلى الفلك المشحون، فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبحين، للبت في بطنه إلى يوم يبعثون، فنبذناه بالعماء وهو سقيم، وأنبثنا عليه شجرة من يقطين، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، فأمنا فممتنعهم إلى حين، فاستفتهم أربك البناات ولهم البنون، أم خلقنا الملائكة إنانا وهم شاهدون، ألا إنهم من إفكهم ليقولون، ولد الله وإنهم لكانذبون، أصدقى البناات على البناين، مالكم كيف تحكمون، أفلا تذكرون، أم لكم سلطان مبين، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ .

يونس بن متى من بني إسرائيل . وروي : « أنه نبيء وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، بعثه الله إلى قومه ، فدعاهم للإيمان ، فخالفوه ، فوعدهم بالعذاب ، فأعلمهم الله بيومه فحدده يونس لهم . ثم إن قومه لما رأوا تخايل العذاب قبل أن يباشروهم تابوا وآمنوا ، فتاب الله عليهم ، وصرف العذاب عنهم » . وتقدم شرح قصته وأعدنا طرفاً منها ليفيد ما بين الذكرين ، قيل : ولحق يونس غضب فأبق إلى ركوب السفينة فراراً من قومه . وعبر عن الهروب بالإباق<sup>(١)</sup> ، إذ هو عبد الله خرج فاراً من غير إذن من الله<sup>(٢)</sup> . وروي عن ابن مسعود : « أنه لما أبعدت السفينة في البحر ويونس فيها ركدت ، فقال أهلها : إن فيها لمن يحبس الله السفينة بسببه فلنقترع ، فأخذوا لكل سهماً على أن من طفا سهمه فهو ، ومن غرق سهمه فليس إياه ، فطفا سهم يونس . فعلموا ذلك ثلاثاً تقع القرعة عليه ، فأجمعوا على أن يطرحوه ، فجاء إلى ركن منها ليقع منها فإذا بدابة من دواب البحر ترقبه وترصد له ، فانتقل إلى الركن الآخر فوجدها حتى استدار بالركب وهي لا تفارقه ، فعلم أن ذلك من عند الله ، فترامى إليها ، فالتقمته . ففي قصة يونس - عليه السلام - هنا جمل محذوفة مقدرة قبل ذكر فراره إلى الفلك . كما في قصته في سورة الأنبياء في قوله : ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ [الأنبياء : ٨٧] هو ما بعد هذا . وقوله : ﴿فنادى في الظلمات﴾ [الأنبياء : ٨٧] جمل محذوفة أيضاً . ومجموع القصص يتبين ما حذف في كل قصة منها ، (فساهم فكان من المدحضين) من المغلوبيين . وحقيقته من المزلقين عن مقام الظفر في الاسهام . وقرىء (وهو مليم) بفتح الميم ، وقياسه مَلُوم لأنه من لمتة ألومه لوماً ، فهو من ذوات الواو ، ولكنه جيء به على (أليم) كما قالوا : مشيب ومدعي في مشوب ومدعو بناء على شيب ودعى . (من المسبحين) من الذاكرين الله تعالى بالتسبيح والتقديس . والظاهر : أنه يريد ما ذكر في قوله في سورة الأنبياء ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، وقال ابن جبير : «هو قوله : سبحان الله» . وقالت فرقة : تسبيحه صلاة التطوع . فقال ابن عباس وقاتدة ، وأبو العالية : «صلاته في وقت الرخاء تنفعه في وقت الشدة» . وقال الضحاك بن قيس على منره : «أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة إن يونس كان عبداً ذاكراً فلما أصابته الشدة نفعه ذلك . قال الله عز وجل (فلولا أنه كان من المسبحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون)» وقال الحسن : «تسبيحه : صلته في بطن الحوت» . وروي : «أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه يقول لأبنين لك مسجداً حيث لم يبينه أحد قبلي» . وروي : «أن

(١) الإباق : هروب العبيد وذهابهم من غير خوف ولا كد عمل .

والأبق : هو مملوك فر من مالكة قصداً معنئداً . انظر أنيس الفقهاء (١٨٩) وانظر لسان العرب (٩/١) .

(٢) انظر القرطبي ١٥/٨٠ وابن كثير ٤/٢١ .

الحوت سافر مع السفينة رافعاً رأسه ليتنفس ويونس يسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا». والظاهر أن قوله (للبث في بطنه إلى يوم البعث)، وعن قتادة: «لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة». وذكر في مدة لبثه في بطن الحوت أقوالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً. (وهو سقيم)، روي أنه عاد بدنه كبذن الصبي حين يولد. قاله ابن عباس والسدي. وقال ابن عباس، وأبو هريرة، وعمرو بن ميمون: «(اليقطين) القرع خاصة». قيل: وهي التي أنبتها الله عليه، وتجمع خصالاً، يرد الظل. ونعومة الملمس. وعظم الورق. والذباب لا يقربها. قيل: وماء ورقه إذا رش به مكان لم يقربه ذباب. وقال أمية بن أبي الصلت:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ الْفِي ضَيَاعِيَا

وفيا روي: «إنك لتحب القرع؟ قال: أجل هي شجرة أخي يونس». وقيل: هي شجرة الموز تغطي بورقها، واستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها. ومعنى (أنبتنا عليه شجرة) في كلام العرب ما كان على ساق من عود، فيحتمل أن يكون الله أنبتها ذات ساق يستظل بها، وبورقها خرقاً للعادة، فبنت وصح وحسن وجهه، لأن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده. (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) قال الجمهور: رسالته هذه هي الأولى التي أبق بعدها ذكرها آخر القصص، تنبيهاً على رسالته ويدل عليه (فأمّنوا فمتعنهم) وتمتيع تلك الأمة: هو للذي أغضب يونس - عليه السلام - حتى أبق. وقال ابن عباس وقاتدة: «هي رسالة أخرى بعد أن نبذها بالعراء وهي إلى أهل نينوى من ناحية الموصل». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى». وقيل: هو إرسال ثان بعدما جرى إليه إلى الأولين أو إلى غيرهم، وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم، فقال لهم: إن الله باعث إليكم نبياً. وقرأ الجمهور (أو) قال ابن عباس: «بمعنى بل»، وقيل: بمعنى الواو. وبالواو قرأ جعفر بن محمد، وقيل: للإبهام على المخاطب. وقال المبرد: «وكثير من البصريين». المعنى: على نظر البشر وحزهم أن من وراءهم قال هم مائة ألف أو يزيدون. وهذا القول لم يذكر الزمخشري<sup>(٢)</sup> غيره. قال: (أو يزيدون) في مرأى الناظر إذا رآها الرائي، قال: هي مائة ألف أو أكثر. والغرض الوصف بالكثرة والزيادة. ثلاثون ألفاً، قاله ابن عباس. أو سبعون ألفاً، قاله ابن جبير. أو عشرون ألفاً، رواه أبي عن النبي - ﷺ - وإذا صح بطل ما سواه. (فأمّنوا) روي أنهم خرجوا بالأطفال، والأولاد، والبهائم، وفرقوا بينها، وبين الأمهات، وناحوا، وضجوا، وأخلصوا، ورفع الله عنهم. والتمتع هنا: هو بالحياة. والحين: آجالهم السابقة في الأزل. قاله قتادة، والسدي. والضمير في (فاستفتهم) قال الزمخشري: «معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينها المسافة. أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى». انتهى. ويعد ما قاله من العطف. وإذا كانوا قد عدوا الفصل بجملة مثل قولك: كل لحماً واضرب زيداً وخبزاً، من أقبح التركيب فكيف بجمل كثيرة وقصص متباينة. فالقول بالعطف لا يجوز. والاستفتاء هنا سؤال على جهة التوبيخ والتفريع على قوهم البهتان على الله. حيث جعلوا لله الإنانث في قوهم: «الملائكة بنات الله». مع كراهتهم لهن، ووأدهم إياهن، واستنكافهم من ذكرهن، وارتكبوا ثلاثة أنواع من الكفر، التجسيم، لأن الولادة مختصة بالأجسام وتفضيل أنفسهم، حيث نسبوا أرفع الجنسين لهم وغيره لله تعالى. واستهانتهم بمن هو مكرم عند الله حيث أنثوهم وهم الملائكة. بدأ أولاً بتوبيخهم على تفضيل أنفسهم بقوله (ألربك البنات) وعدل عن قوله ألربكم، لما في ترك الإضافة إليهم من تحسینهم وشرف نبيه بالإضافة إليه. وثني بأن نسبة الأنوثة إلى الملائكة يقتضي المشاهدة

(١) انظر الكشاف ٦٢/٤.

(٢) نفسه.



فأنكر عليهم بقوله (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون) أي : خلقناهم وهم لا يشهدون شيئاً من حالهم كما قال في الأخرى : ﴿أشهدوا خلقهم﴾ [الزخرف : ١٩] وكما قال : ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ [الكهف : ٥١] ثم أخبر عنهم ثالثاً بأعظم الكفر، وهو ادعاؤهم أنه تعالى قد ولد فبلغ إفكهم إلى نسبة الولد، ولما كان هذا فاحشاً قال (وإنهم لكاذبون) واحتمل أن تخص هذه الجملة بقولهم (ولد الله) ويكون تأكيداً لقوله (من أفكهم) واحتمل أن يعم هذا القول (فإن قلت) لم قال (وهم شاهدون) فخص علمهم بالمشاهدة (قلت : ) ما هو إلا استهزاء وتجهيل كقوله : ﴿أشهدوا خلقهم﴾ [الزخرف : ١٩] وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بإخبار صادق لا بطريق استدلال ولا نظر، ويجوز أن يكون المعنى : أنهم يقولون ذلك كالكفائل قولاً عن ثلج صدر، وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم، كأنهم قد شاهدوا خلقه . وقرأ (ولد الله) أي الملائكة ولده . والولد : فَعَلَ بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث . تقول : هذه ولدي وهؤلاء ولدي . انتهى . وقرأ الجمهور (أصطفى) بهجزة الاستفهام على طريقة الإنكار والاستبعاد . وقرأ نافع في رواية إسماعيل وابن جاز، وجماعة، وإسماعيل عن أبي جعفر وشيبة بوصل الألف وهو من كلام الكفار حكى الله تعالى شنيع قولهم وهو أنهم ما كفاهم أن قالوا (ولد الله) حتى جعلوا ذلك الولد بنات الله، والله تعالى اختارهم على البنين . وقال الزمخشري : «بدلاً عن قولهم (ولد الله)» وقد قرأ بها حمزة والأعمش . وهذه القراءة وإن كان هذا محلها فهي ضعيفة . والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف<sup>(١)</sup> هذه الجملة من جانبيها، وذلك قوله (وإنهم لكاذبون ما لكم كيف تحكمون) فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها دخيلة بين سبيين وليست دخيلة بين نسيين، بل لها مناسبة ظاهرة مع قولهم (ولد الله) وأما قوله (وإنهم لكاذبون) فهي جملة اعتراض بين مقالتي الكفر جاءت للتشديد والتأكيد في كون مقالتهم تلك هي من إفكهم (ما لكم كيف تحكمون) تفرغ وتوبيخ واستفهام عن البرهان والحجة . وقرأ طلحة بن مصرف (تذكرون) بسكون الذال وضم الكاف (أم لكم سلطان) أي : حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله . (فاتوا بكتابكم) الذي أنزل عليكم بذلك كقوله ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ [الروم : ٣٥] .

﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، سبحانه الله عما يصفون، إلا عباد الله المخلصين، فإنكم وما تعبدون، ما أنتم عليه بفاتنين، إلا من هو صال الجحيم، وما منا إلا له مقام معلوم، وإننا لنحن الصافون، وإننا لنحن المسبحون، وإن كانوا ليقولون، لو أن عندنا ذكراً من الأولين، لكننا عباد الله المخلصين، فكفروا به فسوف يعلمون، ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون، فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون، أفعذابنا يستعجلون، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتى حين، وأبصر فسوف يبصرون، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾ .

الظاهر : أن (الجنة) هم الشياطين . وعن الكفار في ذلك مقالات شنيعة، منها : أنه تعالى صاهر سورات الجن فولد منهم الملائكة وهم فرقة من بني مدلج، وشافه بذلك بعض الكفار أبا بكر الصديق، (ولقد علمت الجنة) أي : الشياطين إنها محضرة أمر الله من ثواب وعقاب . قاله ابن عطية ؛ وقال الزمخشري : «إذا فسرت (الجنة) بالشياطين، فيجوز أن يكون الضمير في (إنهم لمحضرون) لهم . والمعنى : أن الشياطين عالمون أن الله يحضرهم النار ويعذبهم ولو كانوا مناسيين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم . وقيل : الضمير في (وجعلوا) لفرقة من كفار قريش والعرب . و(الجنة) الملائكة سماوا

(١) الكنف والكنتفة : ناحية الشيء وناحية كل شيء كنفاه والجمع أكناف .

بذلك، لاجتنابهم وخفائهم. وقال الزمخشري: «وإنما ذكرهم بهذا الاسم، وضعاً منهم وتصغيراً لهم، وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم. وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار وهو من صفات الأجرام لا يصح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك». انتهى. (ولقد علمت الجنة) أي: الملائكة (إنهم) أي الكفرة المدعين نسبة بين الملائكة وبين الله تعالى (محضرون) النار يعذبون بما يقولون. وأضيف ذلك إلى علم من نسبوا لذلك مبالغة في تكذيب الناسبين، ثم نزه تعالى نفسه عن الوصف الذي لا يليق به (إلا عباد الله) فإنهم يصفونه بصفاته. وإما من (المحضرون) أي: إلا عباد الله فإنهم ناجون مدة العذاب. وتكون جملة التنزيه اعتراضاً على كلا القولين، فالاستثناء منقطع. والظاهر: أن الواو في (وما تعبدون) للعطف. عطفت (ما تعبدون) على الضمير في (إنكم) وأن الضمير في (عليه) عائد على (ما) والمعنى: قل لهم يا محمد: وما تعبدون من الأصنام ما أنتم وهم. وعلب الخطاب كما تقول: أنت وزيد تحرجان عليه. أي: على عبادة معبودكم (بفاتنين) أي: بحاملين بالفتنة عبادة إلا من قدر الله في سابق علمه أنه من أهل النار. والضمير في (عليه) عائد على (ما) على حذف مضاف كما قلنا. أي: على عبادته. وضمن (فاتنين) معنى حاملين بالفتنة. و(من) مفعولة (بفاتنين) فرع له العامل إذ لم يكن (بفاتنين) مفعولاً. وقيل (عليه) بمعنى أي ما أنتم بانذي تعبدون بفاتنين (وبه) متعلق بـ (فاتنين) المعنى: ما أنتم فاتنين بذلك الذي عبدتموه إلا من سبق عليه القدر أنه يدخل النار. وجعل الزمخشري الضمير في (عليه) عائداً على الله. قال: (فإن قلت: كيف يفتنونهم على الله؟) قلت: (يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه وخيبتها عليه. ويجوز أن تكون الواو في (وما تعبدون) بمعنى مع مثلها في قولهم: كل رجل وضيعته. فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته جاز أن يسكت على قوله (فإنكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) ساد مسد الخبر لأن معناه: فإنكم مع ما تعبدون. والمعنى: فإنكم مع آلهتكم. أي: فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونهم. ثم قال (ما أنتم عليه) أي: على ما تعبدون (بفاتنين) بياعثن أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال إلا من هو ضال منكم». انتهى. وكون الواو في (وما تعبدون) واو مع غير متبادر إلى الذهن. وقطع (ما أنتم عليه بفاتنين) عن (إنكم وما تعبدون) ليس بجيد، لأن اتصافه به هو السابق إلى الفهم مع صحة المعنى فلا ينبغي العدول عنه. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة (صالوا الجحيم). بالواو هكذا في كتاب الكامل للهدلي. وفي كتاب ابن خالويه عنها (صال) مكتوباً بغير واو. وفي كتاب ابن عطية، وقرأ الحسن (صالئ) مكتوباً بالواو. وفي كتاب اللوامح وكتاب الزمخشري عن الحسن (صال) مكتوباً بغير واو. فمن أثبت الواو فهو جمع سلامة. سقطت النون للإضافة. حمل أولاً على لفظ من فأفرد، ثم ثانياً على معناها فجمع كقوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة: ٨] حمل في (يقول) على لفظ (من) وفي (وما هم) على المعنى. واجتمع الحمل على اللفظ والمعنى في جملة واحدة وهي صلة للموصول كقوله: ﴿إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة: ١١١] وقول الشاعر:

وَأَيَّقَظَ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ نِيَامًا

ومن لم يثبت الواو احتمال أن يكون جمعاً وحذفت الواو خطأ كما حذفت في حالة الوصل لفظاً لأجل التقاء الساكنين. واحتمل أن يكون (صال) مفرداً حذفت لأمه تخفيفاً، وجرى الإعراب في عينه، كما حذفت من قوله: ﴿وجنى الجنتين دان﴾ [الرحمن: ٢٤] ﴿وله الجوار المنشأت﴾ [الرحمن: ٢٤] برفع النون (والجوار). وقالوا: ما باليت به بالة. أي: بالية من بالي كعافية من عافى فحذفت لام باليت وبالية. وقالوا بالة وبأل بحذف اللام فيهما. وقال الزمخشري: «وقد وجه نحواً من الوجهين السابقين وجعلها أولاً وثالثاً فقال: والثاني: أن يكون أصله صائل على القلب ثم يقال صال في صائل كقولهم شك في شائك». انتهى. (وما منا) أي: أحد (إلا له مقام معلوم) أي: مقام في العبادة والانتهاه إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوزه كما روي: «فمنهم راعع لا يعيم ظهره وساجد لا يرفع رأسه». وهذا قول الملائكة وهو يقوي قول من جعل الجنة

هم الملائكة تبرؤوا عن ما نسب إليهم الكفرة من كونهم بسات الله وأخبروا عن حال عبوديتهم . وعلى أي حالة هم فيها . وفي الحديث : «إن السماء ما فيها موضع إلا وفيه ملك ساجد ، أو واقف ، يصلي» . وعن ابن مسعود : «موضع شبر إلا وعليه جهة ملك ، أو قدماء» . وحذف المبتدأ مع (من) جيد فصيح كما مر في قوله : ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن﴾ [النساء : ١٥٩] أي وإن من أهل الكتاب أحد . وقال العرب : «منا ظعن ومنا أقام» . يريد منا فريق ظعن ومنا فريق أقام . وقال الزمخشري : «وما منا أحد إلا له مقام معلوم حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه» كقوله :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الشَّنَايَا<sup>(١)</sup> بِكَفِّي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرِ

انتهى . وليس هذا من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، لأن أحداً المحذوف مبتدأ (وإلا له مقام معلوم) خبره ، ولأنه لا يتعقد كلام من قوله : وما منا أحد ، فقوله (إلا له مقام معلوم) هو محط الفائدة وإن تخيل أن (إلا له مقام معلوم) في موضع الصفة ، فقد نصوا على أن (إلا) لا تكون صفة إذا حذف موصوفها وأنها فارقت غير إذا كانت صفة في ذلك ليتمكن غيره في الوصف وقلة تمكن إلا فيه وجعل ذلك كقوله :

أنا ابن جلا

أي : ابن رجل جلا .

وبكفي كان

أي رجل كان وهذا عند النحويين من أقيح الضرورات (وإننا لنحن الصافون) أي : أقدامنا في الصلاة ، وأجنحتنا في الهواء ، أو حول العرش داعين للمؤمنين . وقال الزهراوي : «قيل إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية ولا يصطف أحد من الملل غير المسلمين» . (وإننا لنحن المسبحون) أي : المنزهون الله عن ما نسب إليه الكفرة ، أو المنزهون بلفظ التسبيح ، أو المصلون . وينبغي أن يجعل قوله (سبحان الله عما يصفون) من كلام الملائكة فنطرد الجمل وتنساق لقائل واحد فكأنه قيل : ولقد علمت الملائكة أن ناسبي ذلك لمحضرون للعذاب وقالوا سبحان الله فزهوا عن ذلك واستثنوا من أخلص من عباد الله وقالوا للكفرة فإنكم وأهنتكم إلى آخره وكيف نكون مناسبه ونحن عبيد بين يديه لكل منا مقام من الطاعة إلى ما وصفوا به أنفسهم من رتبة العبودية . وقيل (وما منا إلا له مقام معلوم) هو من قول رسول الله - ﷺ - أي : وما من المرسلين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله تعالى : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء : ٧٩] ثم ذكر أعمالهم وأنهم المصطفون في الصلاة المنزهون الله عن ما يقول أهل الضلال والضمير في (ليقولون) لكفار قريش (لو أن عندنا ذكراً) أي : كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة الله ولم نكذب كما كذبوا (فكفروا به) أي : فجاءهم الذكر الذي كانوا يتمنونه - وهو أشرف الأذكار لإعجازه - من بين الكتب (فسوف يعلمون) عاقبة كفرهم وما يجلب بهم من الانتقام . وأكدوا قولهم أن المخففة وباللام ، كونهم كلنا جادين في ذلك . ثم ظهر منهم التكذيب والنفور البليغ كقوله : ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة : ٨٩] (ولقد سبقت كلمتنا) قرأ الجمهور بالإفراد . لما انتظمت في معنى واحد عبر عنها بالإفراد . وقرأ الضحاك بالجمع . والمراد : الموعد بعلوهم على عدوهم في مقامات الحجاج ، وملاحم القتال في الدنيا ، وعلوهم عليهم في الآخرة . وقال الحسن : «ما غلب نبي في الحرب ولا قتل فيها» (فتول عنهم حتى حين) أي : إلى مدة يسيرة ، وهي مدة الكف عن القتال . وعن السدي : «إلى يوم بدر» . ورجحه الطبري . وقال قتادة : «إلى موتهم» . وقال ابن زيد : «إلى يوم القيامة» . (وأبصرهم) أي : انظر إلى عاقبة أمرهم (فسوف

(١) من الرجز تقدم وانظر الخصائص (٣٦٧/٢) والمحتسب (٢٢٧/٢) وشرح المفصل لابن يعيش (٦٢/٣) والتصريح (١١٩/٢) .

يبصرونها، وما يحل بهم من العذاب، والأسر، والقتل، أو سوف يبصرونك، وما يتم لك من الظفر بهم، والنصر عليهم . وأمره بإبصارهم إشارة إلى الحالة المنتظرة الكائنة لا محالة وأنها قريبة كأنها بين ناظره بحيث هو يبصرها . وفي ذلك تسليية وتفيس عنه - عليه السلام - (أبعذابنا يستعجلون) استفهام توبيخ (فإذا نزل) هو . أي : العذاب مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذره فأنكروه بحيث أنذر بهجومه قومه وبعض صناعتهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهتبه، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم حتى أناخ بفنائهم، فشن عليهم الغارة، وقطع دابرهم، وكانت عادة مغازيهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً . وإن وقعت في وقت آخر وما فصحت هذه الآية ولا كانت له الروعة التي يحسن بها ويرونك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل . قاله الزمخشري<sup>(١)</sup> . وقرأ الجمهور مبنياً للفاعل . وابن مسعود مبنياً للمفعول . (وساحتهم) هو القائم مقام الفاعل . ونزل ساحة فلان : يستعمل فيما ورد على الإنسان من خير أو شر . وسوء الصباح : يستعمل في حلول الغارات والرزايات . ومثل قول الصارخ يا صباحاه وحكم (ساء) هنا حكم بئس . وقرأ عبد الله (فبئس) والمخصوص بالذم محذوف . تقديره؛ فساء صباح المنذرين صباحهم . (وتول عنهم حتى حين) كرر الأمر بالتولي، تأنيساً له - عليه الصلاة والسلام - وتسليية، وتأكيذاً لوقوع المعاد . ولم يقيد أمره بالإبصار كما قيده في الأول إما لاكتفائه به في الأول فحذفه اختصاراً وإما لما في ترك التقييد من جولان الذهن فيما يتعلق به الإبصار منه من صنوف المسرات والإبصار منهم من صنوف المساءات، وقيل : أريد بالأول عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآخرة . وختم تعالى هذه السورة بتزييه عن ما يصفه به المشركون . وأضاف الرب إلى نبيه تشریفاً له بإضافته وخطابه ثم إلى العزة وهي العزة المخلوقة الكائنة للأنبياء والمؤمنين وكذلك قال الفقهاء من جهة أنها مربية . وقال محمد بن سحنون وغيره : «من حلف بعزة الله تعالى يريد عزته التي خلقت بين عباده وهي التي في قوله (رب العزة) فليست بيمين» . وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : «أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها، كأنه قيل : ذو العزة، كما تقول : صاحب صدق، لاختصاصه بالصدق» . انتهى فعلى هذا تعقد اليمين بعزة الله، لأنها صفة من صفاته . قال : «ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربهá ومالكها لقوله ﴿وتعزّ من تشاء﴾ [آل عمران ٦٦] وعن علي كرم الله وجهه : «من أحب أن يكتال بالملكيات الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة» . إلى آخر السورة .

(١) انظر الكشاف ٦٩/٤ .

(٢) نفسه .

سُورَةُ صَٰلِحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِيهِ ﴿٢﴾ كَرِهَ اللَّهُ لَنَا مِن قَبْلِهِمْ مِن قَرْنٍ فَنَادَوا وَاوَلَاتِ حَيْثُ  
 مَنَاصِيهِ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ  
 عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي  
 الْأُمَّةِ الْأَخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفَعُوا عَذَابِ  
 ٨ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي  
 الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾  
 وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ الْأَحْزَابِ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

لات: هي لا ألحقت بها التاء كما ألحقت في ثم ورب فقالوا نمت وربت وهي تعمل عمل ليس في مذهب سيبويه،  
 وعمل إن في مذهب الأخفش فإن ارتفع ما بعدها فعل الابتداء عنده. ولها أحكام ذكرت في علم النحو. ويأتي شيء منها هنا  
 عند ذكر القراءات التي فيها. والمناص: المنجي والغوث، يقال: ناصه ينوصه إذا فاته. قال الفراء: «النوص: التأخر، يقال:  
 ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً. أي: فروزاغ وأنشد لامرئ القيس:

أَمْ ذَكَرُ سَلْمَىٰ إِنْ نَأَتْكَ تَنُوصُ

واستناص: طلب المناص. قال حارثة بن بدر<sup>(١)</sup>:

عَمْرُ الْجِرَاءِ إِذَا قَصَرْتُ عِنَانَهُ      يَبِيدِي اسْتِنَاصَ وَرَأَمَ جَرِي الْمُسْجَلِ<sup>(٢)</sup>

(١) حارثة بن بدر بن حصين التميمي الغدادي تابعي من أهل البصرة له أخبار في الفتوح وقصة مع عمر وعلي رضي الله عنهما الإعلام  
 (١٥٨/٢).

(٢) من الكامل. انظر الكشاف (٢/ ٢٧٥) اللسان (حرا - نوص).

وقال الجوهري: «استنصص: تأخر» وقال النحاس: «ناصر ينوص تقدم». الوتد: معروف وكسر التاء أشهر من فتحها. ويقال وتد واتد كما يقال شغل شاغل، قال الأصمعي، وأشد:

لَأَقْتَّ عَلَى الْمَاءِ جُدَيْلًا وَإِتْدَاً      وَلَمْ يَكُنْ يُخْلِفُهَا الْمَوَاعِدَاً<sup>(١)</sup>

وقالوا ود فادغموه، قال الشاعر:

تُخْرِجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْحَدْتُ      وَتُوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرُ<sup>(٢)</sup>

وقالوا فيه دت فادغموا بإبدال الدال تاء وفيه قلب الثاني للأول وهو قليل.

﴿ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب، أجعل الألهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب، وانطلق الملائمة أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق، أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرشقوا في الأسباب، جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب، كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب﴾.

هذه السورة مكية. ومناسبتها لآخر ما قبلها: أنه لما ذكر عن الكفار أنهم كانوا يقولون ﴿لو أن عندنا ذكراً من الأولين﴾ [الصفافات ١٦٨] لأخلصوا العبادة لله وأخبر أنهم أتاهم الذكر فكفروا به. بدأ في هذه السورة بالقسم بالقرآن لأنه الذكر الذي جاءهم، وأخبر عنهم، أنهم كافرون، وأنهم في تعزز ومشاقة للرسول الذي جاء به. ثم ذكر من أهلك مع القرون التي شاققت الرسل ليتعظوا. وروي: «أنه لما مرض أبو طالب جاءت قريش رسول الله ﷺ - وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه وشكوه إلى أبي طالب فقال يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ فقال يا عم: إنما أريد منهم كلمة تدل لهم بها العرب، وتؤذي إليهم الجزية بها العجم، قال: وما الكلمة قال: كلمة واحدة قال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله. قال: فقاموا وقالوا: أجعل الألهة إلهاً واحداً. قال فنزل فيهم القرآن (ص). والقرآن ذي الذكر حتى بلغ (إن هذا إلا اختلاق)<sup>(٣)</sup>، قرأ الجمهور (صاذ) بسكون الدال، وقرأ أبي، والحسن، وابن أبي إسحق، وأبو السمال، وابن أبي عبلة، ونصر بن عاصم (صاذ) بكسر الدال. والظاهر: أنه كسر لالتقاء الساكنين. وهو حرف من حروف المعجم نحو (ق) و(نون)، وقال الحسن: «هو أمر من صاذى أي عارض، ومنه الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الصلبة الخالية من الأجسام». أي: عارض بعملك القرآن. وعنه أيضاً: «صاديت حادثت أي حادث». وهو قريب من القول الأول، وقرأ عيسى، ومحبوب، عن أبي عمرو وفرقة (صاذ) بفتح الدال. وكذا قرأ (قاف) و(نون) بفتح الفاء والنون، فليل: الفتح لالتقاء الساكنين طلباً للتخفيف. وقيل: انتصب على أنه مقسم به، حذف منه حرف القسم نحو قوله الله لأفعلن. وهو اسم للسورة وامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث. وقد صرفها من قرأ (صاذ) بالجر والتثنية على تأويل الكتاب والتنزيل

(١) من الرجز لأبي محمد الفقعسي. انظر اللسان (وتد).

(٢) من المديد لامرئ القيس. انظر ديوانه (١٤٤).

(٣) انظر الطبري ٧٧/٢٣ وسنن الترمذي ١٥٥/٢ والمستدرک کتاب التفسیر تفسیر سورة (ص) ٤٣٢/٢ ومسند الإمام أحمد ٣٦٢/١ والدر

وهو ابن أبي إسحق في رواية. وقرأ الحسن أيضاً (صَادُ) بضم الدال. فإن كان اسماً للسورة فخير مبتدأ محذوف. أي: هذه ص. وهي قراءة ابن السميع، وهرون الأعور. وقرأ (قافُ) و(نونُ) بضم الفاء والنون. وقيل: هو حرف دال على معنى من فعل أو من اسم، فقال الضحاك: «معناه: صدق الله<sup>(١)</sup>»، وقال محمد بن كعب: «مفتاح أسماء الله محمد صادق الوعد صانع المصنوعات». وقيل: معناه: صدق محمد. قال ابن عباس وابن جبير، والسدي: «(ذي الذكر) للأمم والقصص والغيوب والشرائع. المخلد». وقال قتادة: «(ذي التذكرة) للناس والهداية لهم». وقيل: (ذي الذكر) للأمم والقصص والغيوب والشرائع. وجواب القسم قيل: مذكور، فقال الكوفيون والزجاج: «هو قوله (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار)» وقال الفراء: «لا نجد مستقباً في العربية لتأخره جداً عن قوله (والقرآن)»، وقال الأخفش: «هو ﴿إن كل إلا كذب الرسل﴾ [ص: ٦٤]» وقال قوم (كم أهلكنا) وحذف اللام. أي: لكم لما طال الكلام كما حذف في ﴿والشمس﴾ [الشمس: ٩] ثم قال (قد أفلح) حكاة الفراء، وتغلب. وهذه الأقوال يجب اطرحها. وقيل: هو صاد. إذ معناه: صدق محمد وصدق الله. وكون (صاد) جواب القسم قاله الفراء، وتغلب. وهذا مبني على تقدم جواب القسم. واعتقاد أن الصاد يدل على ما ذكره. وقيل: الجواب محذوف، فقدرة الحوفي: لقد جاءكم الحق ونحوه: والزخشي: أنه لمعجز. وابن عطية ما الأمر كما تزعمون. ونحو هذا من التقدير. ونقل أن قتادة والطبري قالا: «هو محذوف قبل بل قال» وهو الصحيح. وقدره ما ذكرنا عنه. وينبغي أن يقدر ما أثبت هنا جواباً للقرآن حين أسسم به وذلك في قوله تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١، ٢، ٣] ويقوي هذا التقدير ذكر النذارة هنا في قوله: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ وقال هناك: ﴿لننذر قوماً﴾ [يس: ٤] فالرسالة تتضمن النذارة والبيارة. و(بل) للانتقال من هذا القسم والمقسم عليه إلى حالة تعزز الكفار ومشاقتهم في قبول رسالتك وامتنال ما جئت به واعتراف بالحق. وقرأ حماد بن الزبرقان، وسورة عن الكسائي، وميمون عن أبي جعفر، والجحدري من طريق العقيلي، (في غرة) بالغين المعجمة والراء. أي في غفلة ومشاققة (قبلهم) أي: قبل هؤلاء ذوي المنعة الشديدة والشقاق. وهذا وعيد لهم. (فنادوا) أي: استغاثوا ونادوا بالتوبة. قاله الحسن. أو رفعوا أصواتهم، يقال فلان أئدى صوتاً. أي: أرفع وذلك بعد معاينة العذاب فلم يك وقت نفع. وقرأ الجمهور (ولات حين) بفتح التاء ونصب النون. فعلى قول سيبويه عملت عمل ليس واسمها محذوف تقديره: ولات حين فوات ولا فرار. وعلى قول الأخفش يكون (حين) اسم لات عملت عمل إن نصبت الاسم ورفعت الخبر، والخبر محذوف. تقديره: ولات أرى حين مناص. وقرأ أبو السهمال (ولات حين) بضم التاء ورفع النون فعلى قول سيبويه (حين مناص) اسم لات والخبر محذوف. وعلى قول الأخفش مبتدأ والخبر محذوف. وقرأ عيسى بن عمر (ولات حين) بكسر التاء وجر النون خبر بعد (لات) وتخريجه مشكلاً<sup>(٢)</sup>. وقد تحمل الزخشي في تخريج الخبر في قوله:

طَلَبُوا صَلْحَنَا وَلَاتَ حِينَ أَوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَاتَ حِينَ بَقَاءِ<sup>(٣)</sup>

قال شبه أوان بـ (إذ) في قوله

(١) انظر جامع البيان ٧٥/٢٣ ومعالم التنزيل ٤٧/٤ وفتح القدير ٤/١٩٤.  
(٢) حكى أبو حيان في شرح التسهيل أن بعضهم خرج هذه القراءة على أن لات بمعنى غير، صفة لمحذوف، وتقدير البيت طلبوا صلحنا وقتاً غير أوان صلح ورد هذا بأن الواو لا تراد في ك «لا» الصفة وبأنه لو كانت لات صفة لوجب تكرارها في نحو: مررت برجل لا قائم ولا قاعد.  
انظر التصريح ٢٧٩/٢ الكتاب ٢٨٠/١ المغني ٢٦٣/١ روح المعاني ٢٣/١٦٤.  
(٣) البيت لأبي زيد الطائي. انظر الكشاف (٧١/٤) القرطبي (٩٧/١٥) روح المعاني (١٦٤/١٢).

## وأنت إذ صحيح

في أنه زمان قطع منه المضاف إليه و عوض ، لأن الأصل ولات أو ان صلح (فإن قلت : ) فما تقول في (حين مناصب) والمضاف إليه قائم؟ (قلت : ) نزل قطع المضاف والمضاف إليه ، وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ، ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن . انتهى . هذا التمثل ، والذي ظهر لي في تخريج هذه القراءة الشاذة والبيت النادر في جر ما بعد لات أن الجر هو على إضمار من كأنه قال : «لات من حين مناص» و«لات من أو ان صلح» كما جروا بها في قولهم على كم جذع بيتك . أي : من جذع في أصح القولين وكما قالوا : لا رجل جزاء الله خيراً . يريدون لا من رجل ويكون موضع «من حين مناص» . رفعاً على أنه اسم لات بمعنى ليس ، كما تقول : ليس من رجل قائماً . والخبر محذوف . وهذا على قول سيبويه ، أو على أنه مبتدأ والخبر محذوف على قول الأخفش . وقال بعضهم ومن العرب من يخفض بلات وأنشد الفراء :

وَلْتَنْتَدِمَنَّ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمٍ<sup>(١)</sup>

وخرج الأخفش «ولات أو ان» على إضمار حين . أي : ولات حين أو ان . حذف حين وأبقى أو ان على جره . وقال أبو إسحاق : «ولات أو اننا» فحذف المضاف إليه ، فوجب أن لا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين . وهذا هو الوجه الذي قرره النجاشري<sup>(٢)</sup> . أخذه من أبي إسحاق الزجاج وأنشده المبرد :

## ولات أو ان

بالرفع . وعن عيسى (ولات حين) بالرفع (مناص) بالفتح . وقال صاحب اللوامح : «فإن صح ذلك فلعله بني (حين) على الضم فيكون في الكلام تقديم وتأخير ، وأجراه مجرى قبل وبعد في الغاية . وبني (مناص) على الفتح مع (لات) على تقدير لات مناص حين لكن لا إنما تعمل في النكرات في اتصاها بهن دون أن يفصل بينهما ظرف أو غيره . وقد يجوز أن يكون لذلك معنى لا أعرفه» . انتهى . وقرأ عيسى أيضاً (ولات) بكسر التاء و(حين) بنصب النون . وتقدم تخريج نصب (حين) و(لات) روى فيها فتح التاء وضمها وكسرها . والوقف عليها بالتاء قول سيبويه ، والفراء ، وابن كيسان ، والزجاج . ووقف الكسائي ، والمبرد بالهاء . وقوم على (لا) وزعموا أن التاء زيدت في (حين) واختاره أبو عبيدة ، وذكر أنه رآه في الإمام مخلوطاً تاؤه بـ (حين) وكيف يصنع بقوله :

وَلَاتَ سَاعَةَ<sup>(٣)</sup> مَنْدَمٍ

وَلَاتَ أَوَانَ<sup>(٤)</sup>

وقال الكلبي : «كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض : مناص . أي : عليكم بالفرار ، فلما أتاهم العذاب ، قالوا مناص . فقال الله (ولات حين مناص)» قال القشيري : «فعلى هذا يكون التقدير : فنادوا مناص ، فحذف للدلالة ما بعده عليه . أي : ليس الوقت وقت ندائكم به» ، وفيه نوع تحكم إذ كل من هلك من القرون يقول مناص عند

(١) عجز بيت وصدرة :

فلتعرفن خلائقاً مشمولة :

الفرطبي ٩٧/١٥ .

(٢) انظر الكشف ٧١/٤ .

(٣) تقدم .

(٤) تقدم .



الاضطرار». انتهى . وقال الجرجاني: أي فنادوا حين لا مناص . أي ساعة لا منجا ولا فوت . فلما قدم لا وأخر حين اقتضى ذلك الواو كما تقتضي الحال إذا جعل مبتدأ وخبراً مثل: جاء زيد راكباً . ثم تقول: جاء زيد وهو راكب ف (حين) ظرف لقوله (فنادوا) . انتهى . وكون أصل هذه الجملة: فنادوا حين لا مناص . وأن (حين) ظرف لقوله (فنادوا) دعوى أعجمية مخالفة لنظم القرآن . والمعنى على نظمه في غاية الوضوح . والجملة في موضع الحال . أي: فنادوا وهم لات حين مناص . أي: لهم ولمأ أخبر تعالى عن الكفار أنهم في عزة وشقاق أردف<sup>(١)</sup> بما صدر عنهم من كلماتهم الفاسدة من نسبتهم إليه السحر والكذب . ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله (وقال الكافرون) أي: وقالوا، تنبيهاً على الصفة التي أوجبت لهم العجب حتى نسبوا من جاء بالهدى والتوحيد إلى السحر والكذب (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) قالوا: كيف يكون إله واحد يرزق الجميع، وينظر في كل أمورهم؟ (وجعل) بمعنى صبر في القول والدعوى والزعم، وذكر عجبهم مما لا يعجب منه . والضمير في (وعجبوا) لهم . أي: استغربوا مجيء رسول من أنفسهم . وقرأ الجمهور (عُجِبَ) وهو بناء مبالغة كرجل طوال وسُرِعَ في طول وسريع . وقرأ علي، والسلمي، وعيسى، وابن مقسم بشد الجيم وقالوا رجل كِرَامَ وطَعَامَ طَيِّبَ وهو أبلغ من فعال المخفف . وقال مقاتل: «عجاب لغة أزد شنوءة» . والذين قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) قال ابن عباس: «صناديد<sup>(٢)</sup> قريش وهم ستة وعشرون» . (وانطلق الملائمهم) الظاهر انطلاقهم عن مجلس أبي طالب حين اجتمعوا هم والرسول عنده وشكوه على ما تقدم في سبب النزول . ويكون ثم محذوف . تقديره: يتحاورون . (أن امشوا) وتكون (أن) مفسرة لذلك المحذوف . (امشوا) أمر بالمشي، وهو نقل الأقدام عن ذلك المجلس . وقال الزمخشري: (وإن) بمعنى أي، لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا، ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول . والأمر بالمشي . أي: بعضهم أمر بعضاً . وقيل: أمر الأشراف أتباعهم وأعوانهم . ويجوز: أن تكون (أن) مصدرية . أي: وانطلقوا بقولهم امشوا . وقيل: الانطلاق هنا الاندفاع في القول والكلام . (وأن) مفسرة على هذا . والأمر بالمشي لا يراد به نقل الخطأ إنما معناه: سيروا على طريقتكم، ودوموا على سيرتكم . وقيل: (امشوا) دعاء بكسب المشية . قيل: وهو ضعيف، لأنه كان يلزم أن تكون الألف مقطوعة لأنه إنما يقال: أمشى الرجل إذا صار صاحب ماشية . وأيضاً فهذا غير متمكن في الآية . وقال الزمخشري: «ويجوز أنهم قالوا (امشوا) أي: أكثروا واجتمعوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها، ومنه المشية للتفاؤل» . انتهى . وأمرها بالصبر على الآلهة . أي: على عبادتها والتمسك بها . والإشارة بقوله (إن هذا) أي: ظهور محمد ﷺ - وعلوه بالنبوة (لشيء يراد) أي: يراد منا الانقياد إليه . أو يريد الله ويحكم بامضائه، فليس فيه إلا الصبر . أو أن هذا الأمر شيء من نوائب الدهر مراد منا فلا انفكاك عنه . أو أن دينكم لشيء يراد . أي: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه . احتمالات أربعة، وقال القفال: «هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف . المعنى: أنه ليس غرضه من هذا القول تقرير للدين، وإنما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد» . (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة)، قال ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، ومقاتل: «ملة النصراني، لأن فيها التثليث ولا توحيد»<sup>(٣)</sup> . وقال مجاهد، وقتادة: «ملة العرب قريش ونجدتها» . وقال الفراء والزجاج: «ملة اليهود والنصرانية . أشركت اليهود بعزير وثلاث النصراني» . وقيل: في الملة الآخرة التي كنا نسمع أنها تكون في آخر الزمان، وذلك أنه قبل المبعث كان الناس يستشعرون خروج نبي وحدوث ملة ودين . وبدل على صحة هذا ما روي من أقوال الأخبار أولي الصوامع . وما روي عن الكهان شق وسطيح وغيرهما . وما كانت بنو إسرائيل تعتقد من أنه يكون منهم . وقيل: (في الملة الآخرة) أي: لم نسمع من أهل الكتاب ولا الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة

(١) أردف . انظر لسان العرب (٣/١٦٢٥) .

(٢) الملك الضخم الشريف . . . لسان العرب (٤/٢٥٠٧) وقد تقدم .

(٣) انظر الوسيط ١٧١ ح وجامع البيان ٢٣/٨٠ وصحيح البخاري كتاب التفسير تفسير سورة (ص) وتفسير ابن كثير ٤/٢٨ .

توحيد الله . ما هذا إلا اختلاق . أي : افتعال وكذب (أنزل عليه الذكر من بيننا) أنكروا أن يخص بالشرف من بين أشرافهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم . وهذا الإنكار هو ناشئ عن حسد عظيم انطوت عليه صدورهم فنطقت به ألسنتهم . (بل هم في شك من ذكرى) أي : من القرآن الذي أنزلت على رسولي يرتابون فيه ، والإخبار بأنهم (في شك) يقتضي كذبهم في قولهم ، (إن هذا إلا اختلاق) (بل لما يذوقوا عذاب) أي : بعد . فإذا ذاقوه عرفوا أن ما جاء به حق وزال عنهم الشك . (أم عندهم خزائن رحمة ربك) أي : ليسوا متصرفين في خزائن الرحمة ، فيعطون ما شاؤوا ويمنعون من شاؤوا ما شاؤوا ، ويصطفون للرسالة من أرادوا . وإنما يملكها ويتصرف فيها العزيز الذي لا يغالب ، الوهاب ما شاء لمن شاء لما استفهم استفهام إنكار في قوله (أم عندهم خزائن رحمة ربك) وكان ذلك دليلاً على انتفاء تصرفهم في خزائن رحمة ربك أتى بالإنكار والتوبيخ بانتفاء ما هو أعم فقال (أم لهم ملك السموات والأرض) أي : ليس لهم شيء من ذلك . (فليرتقوا) أي : أهم شيء من ذلك فليصعدوا (في الأسباب) الموصلة إلى السماء ، والمعارج التي يتوصل بها إلى تدبير العالم ، فيضعون الرسالة فيمن اختاروا . ثم صغرهم وحقرهم فأخبر بما يؤول إليه أمرهم من الهزيمة والخيبة . وقيل (وما) زائدة . ويجوز أن تكون صفة أريد به التعظيم على سبيل الهزء بهم أو التحقير ، لأن (ما) الصفة تستعمل على هذين المعنيين . (وهناك) ظرف مكان يشار به للبعيد . والظاهر : أنه يشار به للمكان الذي تفاوضوا فيه مع رسول الله - ﷺ - بتلك الكلمات السابقة - وهو مكة - فيكون ذلك إخباراً بالغيب عن هزيمتهم بمكة يوم الفتح ، فالعنى : أنهم يصيرون مهزومين بمكة يوم الفتح . وقيل : (هناك) إشارة إلى الارتقاء في الأسباب . أي : هؤلاء القوم إن راموا ذلك جند مهزوم . وقيل : أشير بـ (هناك) إلى جملة الأصنام ، وعضدها ، أي : هم جند مهزوم في هذه السبيل . وقال مجاهد ، وقتادة : «الإشارة إلى يوم بدر وكان غيباً أعلم الله به على لسان رسوله<sup>(١)</sup>» . وقيل : «الإشارة إلى حصر عام الخندق بالمدينة» . وقال الزمخشري ؛ «(وهناك) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن يندبه لأمر ليس من أهله لست هنالك» . انتهى . (وهناك) يحتمل أن يكون في موضع الصفة لـ (جند) أي : كائن هنالك . ويحتمل أن يكون متعلقاً بـ (مهزوم) و(جند) خبر مبتدأ محذوف . أي : هم جند . و(مهزوم) خبره . وقال أبو البقاء : «(جند) مبتدأ . و(ما) زائدة ، و(هناك) نعت و(مهزوم) الخبر» . انتهى . وفيه بعد ، لفصله عن الكلام الذي قبله . ومعنى (من الأحزاب) من جملة الأحزاب الذين تعصبوا في الباطل وكذبوا الرسل . ولما ذكر تعالى أنه أهلك قبل قريش قروناً كثيرة لما كذبوا رسلهم سرد منهم هنا من له تعلق بعرفانه . (وذو الأوتاد) أي : صاحب الأوتاد ، وأصله من ثبات البيت المطنّب<sup>(٢)</sup> بأوتاده ، قال الأفوه الأودي :

وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا عَلَى عَمَدٍ      وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تَرَسُ أَوْتَادًا<sup>(٣)</sup>

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر ، كما قال الأسود :

فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ<sup>(٤)</sup>

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ٩٥٦/٣ والطبري ٨٣/٢٣ والبغوي ٤٩/٤ وفتح الباري ٥٤٥/٨ والدر المنثور ٥٤٥/٥ والوسيط ١٧١ خ .

(٢) المطنّب ، طنبه مده بأطنابه وشده .

لسان العرب (٤/٢٧٠٨)

(٣) البيت من البسيط . انظر ديوانه (١٠) أمالي القالي (٢/٢٢٤) الكشف (٤/٧٥) روح المعاني (٢٣/١٧٠) .

(٤) عجز بيت من الكامل وصدره :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة

الكشاف مع الحاشية (٤/٧٦) القرطبي (١٥/١٠٢) .

قاله الزمخشري وأخذه من كلام غيره. وقال ابن عباس، وقتادة، وعطاء: «كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها». وقال السدي: «كان يقتل الناس بالأوتاد ويسمرهم في الأرض بها»<sup>(١)</sup>. وقال الضحاك: «أراد المباني العظيمة الثابتة». وقيل: عبارة عن كثرة أحببته، وعظم عساكره. وقيل: كان يشجع المعذب بين أربع سوارى، كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروبة فيها وتد من حديد ويتركه حتى يموت. روي معناه عن الحسن، ومجاهد، وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات، وقيل: يشدهم بأربعة أوتاد، ثم يرفع صخرة فتلقى عليه فتشده<sup>(٢)</sup>. وقال ابن مسعود، وابن عباس في رواية عطية: «الأوتاد: الجنود يشدون ملكه كما يقوي الوند الشيء». وقيل: بني مناراً يذبح عليها الناس، قاله ابن جبير. (أولئك الأحزاب) أي: الذين تحزبوا على أنبيائهم كما تحزب قريش على رسول الله - ﷺ -. والظاهر: أن الإشارة بـ (أولئك) إلى أقرب مذكور، وهم قوم نوح ومن عطف عليهم. وفيه تفخيم لشأنهم وإعلاء لهم على من تحزب على رسول الله. أي: هؤلاء العظماء لما كذبوا عوقبوا وكذلك أنتم. (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) فوجب عقابهم. (كذبت) (قوم نوح) آذوا نوحاً فأغرقوا، وقوم هود فاهلكوا بالريح، وفرعون فأغرق، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالحسف، والأليكة بغذاب الظلومة. ومعنى (إن كل) ما كان من قوم نوح فمن بعدهم (فحق عقاب) أي: وجب عقابهم فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بالرسول. قال الزمخشري<sup>(٣)</sup> «(أولئك الأحزاب) قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم هم هم، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب، ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها بأن كل واحد من الأحزاب كذب الرسل، لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعاً. وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً، وبالاستثناء ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشدّ العذاب وأبلغه. ثم قال (فحق عقاب) أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم». انتهى.

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَجِدَّةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ١٥ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ١٦ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ٢٠ وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوًا الْخَصِمِ إِذْ سُورُوا مِنَ الْحَرَابِ ٢١ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَرَّغَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ٢٢ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِيَ نَجْعَةٌ وَجِدَّةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَىٰ نَجَاحِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ٢٥

(١) انظر الطبري ٢٣/٨٣ والرازي ٢٦/١٨٢ وفتح القدير ٤/٢٣٣ والوسيط ١٧١ خ.

(٢) الشلخ: الكسر في كل شيء رطب، وقيل: هو التهشم، يعني به كسر الياض وكل أجوف.

الفُوق: بضم الفاء وفتحها الزمان الذي ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع. وفي الحديث: «العبادة قدر فواق الناقة» وأفادت الناقة إفاقة: اجتمعت الفيقة في ضرعها، فهي مفيق ومفيقة عن أبي عمرو. والفيقة: اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين. ويجمع على أفواق، وأفويق جمع الجمع. وقال أبو عبيدة، والفراء، ومؤرج: «الفُوق بالفتح الإفاقة والاستراحة. القط: قال الفراء الحظ والنصيب. ومنه قيل للصبك القط. وقال أبو عبيدة والكسائي: «القط: الكتاب بالجواز»، وقال الأعشى:

وَلَا الْمَلِكُ النُّعْمَانَ يَوْمَ لَقِيْتُهُ      بِغَيْظِيْتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفُقُ<sup>(١)</sup>

ويروى بأتمته. أي بنعمته. ويأفق: يصلح وهو في الكتاب أكثر استعمالاً. قال أمية بن أبي الصلت:

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةٌ أَرْضُ الْعِرَاقِ وَمَا      يُجْبَى إِلَيْهِمْ بِهَا وَالْقَطُّ وَالْقَلَمُ<sup>(٢)</sup>

ويجمع أيضاً على قِطَطة. وفي القليل قِطْ وأقْطاطه. تسور الحائط والسور وتسنمه والبعير علا أعلاه والسور: حائط المدينة وهو غير مهموز. الشُّطط: مجاوزة الحد، وتخطي الحق. وقال أبو عبيدة: «شططت على فلان وأشططت: جرت في الحكم» التسع: رتبة من العدد معروفة. وكسر التاء أشهر من الفتح، النعجة: الأثني من بقر الوحش ومن الضأن. ويكنى بها عن المرأة. قال الشاعر:

هُمَا نَعَجَتَانِ مِنْ نَعَاجِ نَبَالَةٍ      لِذِي جُوذَرَيْنِ أَوْ كَبْعُضٍ لَدَى هُكْرٍ<sup>(٣)</sup>

وقال ابن عون:

أَنَا أَبُوهُنَّ ثَلَاثُ هُنَّة      رَابِعَةٌ فِي الْبَيْتِ صُغْرَاهُنَّ  
وَنَفَجَتِي خَمْسًا تُوفِيهِنَّ      أَلَا فَتَى سَجَحٍ يُغْذِيهِنَّ<sup>(٤)</sup>

عزه: غلبه يعزه عزا في المثل «من عز برأي من غلب سلب» وقال الشاعر:

قِطَاةٌ عَزَّهَا شَرْكَ فَبَاتَتْ      تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ<sup>(٥)</sup>

الصافن: من الخيل: الذي يرفع إحدى يديه ويقف على طرف سنبيه. وقد يفعل ذلك برجله وهي علامة الفراهة<sup>(٦)</sup>، وأنشد الزجاج:

أَلْفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَانَهُ      مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا<sup>(٧)</sup>

(١) انظر ديوانه (١١٧) مجاز القرآن (١٧٩/٢) اللسان (قطط) والشاهد جمع قط على قطوط وهي عطية. القرطبي (١٥/١٠٤) روح المعاني (١٧٣/٢٣).

(٢) انظر اللسان (قطط) القرطبي (١٥/١٠٤).

(٣) البيت لامرئ القيس انظر ديوانه (٧٣) اللسان حكم.

(٤) انظر البيتين في روح المعاني ٢٣/١٨٠ والقرطبي (١٥/١١٣).

(٥) من الوافر لقيس بن الملوح. انظر ديوانه (٩٠) الكامل (٣٧/٣) القرطبي (١٥/١١٥) الكشاف ٤/٨٣ روح المعاني (٢٣/١٨٠).

(٦) انظر لسان العرب (٥/٣٤٠٥).

(٧) انظر البيت في روح المعاني (٢٣/١٩٠) والقرطبي (١٥/١٢٦) الكشاف (٤/٩١) السبع الطوال (٢٢) اللسان (صفن).

وقال أبو عبيدة: «الصافن: الذي يجمع يديه ويسويهما. وأما الذي يقف على طرف السنبك<sup>(١)</sup> فهو المتخيم». وقال القتيبي: «الصافن الواقف في الخيل» وغيرها وفي الحديث: «من سره أن يقوم الناس له صفوناً فليتبوأ مقعده من النار». أي: يديمون له القيام. حكاه قطرب. وأنشد النابغة:

لَنَا قُبَّةٌ مَضْرُوبَةٌ بِفَنَائِهَا عِتَاقُ الْمَهَارَى وَالْجِيَادِ الصَّوَاغِنِ<sup>(٢)</sup>

وقال الفراء: «على هذا رأيت العرب وأشعارهم تدل على أنه القيام خاصة». جاد الفرس: صار رابضاً يجود جودة - بالضم - فهو جواد للذكر والأنثى من خيل جياذ وأجواد وأجاويد. وقيل: الطوال الأعناق من الجيد وهو العنق إذ هي من صفات فرائتها. وقيل: الجياذ: جمع جود كثوب وثياب. الرخاء: اللينة مشتقة من الرخاوة.

﴿وما ينظر هؤلاء إلا صبيحة واحدة ما لها من فوق، وقالوا ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطيور محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب، وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تحف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليغيبي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولليل ما هم وظن داود أنما فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناًب، فغفرنا له وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

(وما ينظر) أي: ينظر (هؤلاء) إشارة إلى كفار قريش، والإشارة بـ (هؤلاء) ومقوية أن الإشارة بـ (أولئك) هي للذين يلونها من قوم نوح وما عطف عليه. وقال الزمخشري: «ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب، لاستحضارهم بالذكر، أول أنهم كالحضور عند الله». انتهى. وفيه بعد. وهو إخبار منه تعالى صدقه الوجود. والصبيحة: ما ناهم من قتل وأسر وغلبة كما تقول: صاح فيهم الدهر، وقال قتادة: «توعدهم بصبيحة القيامة، والنفخ في الصور»<sup>(٣)</sup>. وقيل: «بصبيحة يملكون بها في الدنيا. فالقول الأول فيه الانتظار من الرسول لشيء معين فيهم. وعلى هذين القولين هم بمدرج عقوبة، وتحت أمر خطر ما ينتظرون فيه إلا الهلكة. وقرأ الجمهور (من فوق) بفتح الفاء. والسلمي وابن وثاب، والأعمش وحمزة، والكسائي، وطلحة بضمها. فقيل هما بمعنى واحد كقصاص الشعر. وقال ابن زيد، والسدي: «بالفتح إفاقة من أفاق واستراح كجواب من أجاب. قال ابن عباس: «(من فوق) من ترداد». وقال مجاهد: «من رجوع». (عجل لنا قطناً)<sup>(٤)</sup> نصيبنا من الجنة لتنتعم به في الدنيا. قاله الحسن، وقاتدة، وابن جبير. وقال قتادة أيضاً ومجاهد: «نصيبنا من العذاب»، وقال أبو العالية والكلبي: «صحبنا بإيماننا». وقال السدي: «المعنى: أرنا منازلنا من الجنة حتى نتابعك»، وعلى كل قول، فإنما قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف والاستهزاء. ومعنى (قبل يوم الحساب) أي: الذين يزعمون أنه واقع في العالم إذ هم كفر لا يؤمنون بالبعث. ولما كانت مقالاتهم تقتضي الاستخفاف أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصاً للأنبياء داود، وسليمان، وأيوب، وغيرهم. وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة. فكذلك

(١) السنبك: طرف الحافر وجانبه من قدم، وجمعه سنايك.

لسان العرب (٣/٢١١١)

(٢) انظر روح المعاني (٢٣/١٩٠) والقرطبي (١٥/١٢٦).

(٣) انظر اللسان (٥/٦٣٨٢).

(٤) انظر الوسيط: ١٧١٠ خ وابن كثير ٤/٢٩.

أنت تصبر، ويؤول أمرك إلى أحسن مآل، وتبلغ ما تريد من إقامة دينك، وإماتة الضلال. وقيل: اصبر على ما يقولون، وعظم أمر مخالفتهم لله في أعينهم، وذكّرهم بقصة داود وما عرض له، وهو قد أوتي النبوة والملك فما الظن بكم مع كفركم وعصيانكم. انتهى، وهو ملتقط من كلام الزمخشري<sup>(١)</sup> مع تغيير بعض ألفاظه لا تناسب منصب النبوة. وقيل: أمر بالصبر فذكر قصص الأنبياء، ليكون برهاناً على صحة نبوته. وقيل (اصبر على ما يقولون) وحافظ على ما كلف ت به من مصابرتهم، وتحمل أذاهم (واذكر) (داود) وكرامته على الله وما عرض له، وما لقي من عتب الله. (ذا الأيد) أي: ذا القوة في الدين والشرع. والصدع بأمر الله، والطاعة لله. وكان مع ذلك قوياً في بدنه. (والأواب) الرجّاع إلى طاعة الله، قاله مجاهد وابن زيد. وقال السدي: «المسيح ووصفه بأنه أواب، يدل على أن (ذا الأيد) معناه: القوة في الدين. ويقال: رجل أيد وأيد وذو أد وأياد كلٌّ بمعنى ما يتقوى. (والإشراق): وقت الإشراق. قال ثعلب: «شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت وصفت. وفي الحديث». أنه - عليه السلام - صلى صلاة الضحى، وقال: يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق»<sup>(٢)</sup>. وفي هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل. وتقدّم كل الكلام في تسييح الجبال في قصة داود في سورة الأنبياء. وأتى بالمضارع باسم الفاعل دلالة على حدوث التسييح شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال. فكان السامع محاضر تلك الجبال سمعها تسيح. ومثله قول الأعشى:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي بَقَاعٍ تَحَرَّقُ<sup>(٣)</sup>

أي: تحرق شيئاً فشيئاً ولو قال «محرقة» لم يدل على هذا المعنى. وقرأ الجمهور (والطير محشورة) بنصهما عطفاً على (الجبال يسبحن) عطف مفعول على مفعول، وحال على حال. كقولك: ضربت هنداً مجردة ودعداً لأبسة. وقرأ ابن أبي عجلة، والجحدري. (والطير محشورة) برفعها مبتدأ وخبراً. وجاء (محشورة) باسم المفعول، لأنه لم يرد أنها تحشر شيئاً إذ حاشرها هو الله تعالى، فحشرها جملة واحدة أدل على القدرة. والظاهر: عود الضمير في (له) على داود. أي: كل واحد من الجبل والطير لأجل داود. أي: لأجل تسييحه سبح، لأنها كانت ترجع تسييحه. ووضع الأواب موضع المسيح. وقيل: الضمير عائد على الله. أي: كل من داود والجبال والطير أواب. أي: مسيح مرجع للتسييح، وقرأ الجمهور (وشدّدنا) مخففاً. أي: قوينا كقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [الفصص: ٣٥] والحسن، وابن أبي عجلة بشد الدال. وهي عبارة شاملة لما وهبه الله تعالى من قوة وجند ونعمة، فالتخصيص ببعض الأشياء لا يظهر. وقال السدي: «بالجنود». قيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مسلم يحرسونه. وهذا بعيد في العادة. وقيل: بهيبة قذفها الله له في قلوب قومه. (والحكمة) هنا: النبوة: أو الزبور، أو الفهم في الدين، أو كل كلام ولقن الحق. أقوال، (وفصل الخطاب) قال علي والشعبي: «إيجاب اليمين على المدعى عليه واليئنة على المدعي». وقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: «القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه». وقال الشعبي: «كلمة أما بعد لأنه أول من تكلم بها وفصل بين كلامين». قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: «لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد. ويجوز أن يراد بالخطاب: القصد الذي ليس له فيه اختصار محل ولا إشباع مل. ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله -

(١) انظر الكشاف ٧٩/٤.

(٢) حديث أم هانئ رضي الله عنها أخرجه البخاري ٤٦٩/١. كتاب الصلاة (٣٥٧) ومسلم ٤٩٨/١ كتاب صلاة المسافرين (٩٢ - ٣٣٦) دون قوله «صلاة الإشراق» وذكره السيوطي في الدر ٢٩٨/٥ وعزاه لابن مردويه عن عبد الله بن الحارث.

(٣) من الطويل انظر ديوانه (١٢٠) دلالات الإعجاز (١٩٥).

(٤) انظر الكشاف ٧٩/٤.

﴿١﴾ - فصل لا نذر ولا هذر. انتهى. ولما كان تعالى قد كمل نفس نبيه داود بالحكمة أردفه ببيان كمال خلقه في النطق والعبادة فقال (وفصل الخطاب) (وهل أتاك نبأ الخصم) لما أثنى تعالى على داود - عليه السلام - بما أثنى: ذكر قصته هذه ليعلم أن مثل قصته لا يقدر في الثناء عليه، والتعظيم لقدره، وإن تضمنت استغفاره ربه. وليس في الاستغفار ما يشعر بارتكاب أمر يستغفر منه وما زال الاستغفار شعار الأنبياء المشهود لهم بالعصمة. وعجيء مثل هذا الاستفهام إنما يكون لغرابة ما يجيء معه من القصص كقوله ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ [طه ٩] فيتهيأ المخاطب بهذا الاستفهام لما يأتي بعده ويصغي لذلك. وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ضربنا عن ذكرها صفحاً وتكلمنا على ألفاظ الآية. والنبأ: الخبر. فالخبر أصله: مصدر فلذلك تصلح للمفرد والمذكر وفروعها وهنا جاء للجمع ولذلك قال (إذ تسوروا) إذ دخلوا، كما قال الشاعر:

وَحْصَمٌ يَعْدُونَ الدُّخُولَ كَأَنَّهُمْ فُرُومٌ غَيَارَى كُلُّ أَزْهَرٍ مُضْعِبٍ

والظاهر: أنهم كانوا جماعة فلذلك أتى بضمير الجمع فإن كان المتحاكمين اثنين فيكون قد جاء معهم غيرهم على جهة المعاوضة أو المؤانسة. ولا خلاف أنهم كانوا ملائكة، كذا قال بعضهم، وقيل: كانوا أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. والأول أشهر. وقيل: الخصم هنا اثنان وتجزو في العبارة فأخبر عنها إخبار ما زاد على اثنين، لأن معنى الجمع في التثنية. وقيل: معنى (خصمان) فريقان فيكون (تسوروا) و(دخلوا) عائداً على الخصم الذي هو جمع الفريقين. ويدل على أن (خصمان) بمعنى فريقان. قراءة من قرأ (بغى بعضهم على بعض) وقال تعالى (هذان خصمان اختصموا في ربهم) بمعنى. فأما (إن هذا أخي) وما روي أنه بعث إليه ملكاً<sup>(١)</sup>، فالمعنى: أن المتحاكم كان بين اثنين ولا يمتنع أن يصحبها غيرهما، وأطلق على الجميع خصم وعلى الفريقين (خصمان) لأن من جاء مع متخاصم لمعاوضة فهو في سورة خصم، ولا يعد أن تطلق عليه التسمية. والعامل في الظرف وهو (إذ) (أتاك) قاله الحوفي. ورد بأن إتيان النبأ رسول الله - ﷺ - لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود. وقال ابن عطية وأبو البقاء: «العامل فيه (نبأ) ورد بما رد به ما قبله أن النبأ الواقع في عهد داود عليه السلام لا يصح إتيانه رسول الله - ﷺ - وإذا أردت بالنبأ القصة في نفسها لم يكن ناصباً. وقيل: العامل فيه محذوف. تقديره: وهل أتاك تخاصم الخصم. قاله الزمخشري. ويجوز أن ينتصب بـ (الخصم) لما فيه من معنى الفعل. و(إذ دخلوا) بدل من (إذ) الأولى. وقيل: ينتصب بـ (تسوروا)، وروي: «أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبنا أن يدخلنا عليه، فوجدناه في يوم عبادته فمنعها، فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان». قال ابن عباس: «جزأ زمانه أربعة أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء. ويوماً للاشتغال بخواص أموره. ويوماً لجميع بني إسرائيل فيعظهم، ويبكيهم، فجاوزه في غير القضاء ففزع منهم، لأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه فخاف أن يؤذوه. وقيل: «كان ذلك ليلاً. ويحتمل أن يكون فزعه من أجل أن أهل ملكته قد استهنا نوه حتى ترك بعضهم الاستئذان فيكون فزعه على فساد السيرة لا من الداخلين<sup>(٢)</sup>». وقال أبو الأحوص «(فزع منهم) لأنها دخلت عليه وكل منها أخذ برأس صاحبه». وقيل (فزع منهم) لما رأى من تسورهم على موضع مرتفع جداً لا يمكن أن يرتقى إليه بعد أشهر مع أعوان وكثرة عدد. وقيل: إنها قالوا لم نتوصل إليك إلا بالتسور لمنع الحجاب، وخفنا تفاقم الأمر بيننا، فقبل داود عذرهم. ولما أدركوا منه الفزع (قالوا لا تخف) أي: لسنا ممن جاء إلا لأجل التحاكم. (خصمان) يحتمل أن يكون هذا موصولاً بقولها (لا تخف) بادراً بإخبار ما جاء إليه. ويحتمل أن يكون سألهم ما أمركم؟ فقالوا: خصمان. أي: نحن خصمان (بغى) أي:

(١) انظر الوسيط ١٧٢ خ وجامع البيان ٢٣/٩٥، ٩٦.

(٢) انظر الوسيط ١٧٢ خ وجامع البيان ٢٣/٩٥، ٩٦.

جار (بعضنا على بعض) كما قال الشاعر

وَلَكِنَّ الْفَتَى حَمَلُ بِنُ بَدْرِ بَغَى وَالْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخَيْمُ

وقرأ أبو يزيد الجراد عن الكسائي (خِصْمَان) بكسر الخاء. وفي أمرهم له ونهيم بعض فظاظة<sup>(١)</sup> على الحكام. حمل على ذلك ما هم فيه من التخاصم والتشاجر، واستدعوا عدله من غير ارتياب في أنه يحكم بالعدل. وقرأ الجمهور (ولا تُشَطِّطُ)<sup>(٢)</sup> مفكوكاً من أشطَّ رابعياً. وأبورجاء وابن أبي عبله، وقتادة، والحسن، وأبو حيوة (تُشَطِّطُ) من شط ثلاثياً، وقرأ قتادة أيضاً (تُشَطِّطُ) مدغماً من أشط. وقرأ زر (تُشَاطِّطُ) بضم التاء وبالالف على وزن تفاعل مفكوكاً، وعن قتادة أيضاً (تَشَطِّطُ) من شطط. (وسواء الصراط) وسط طريق الحق لا ميل فيه من هنا ولا هنا. (إن هذا أخي) هو قول المدعي منها. (وأخي) عطف بيان عند ابن عطية، وبدل أو خبر له (إن) عند الزمخشري. والأخوة هنا: مستعارة إذ هما ملكان لكنها لما ظهرا في صورة إنسانين تكلمتا بالأخوة. ومجازها: أنها أخوة في الدين والإيمان، أو على معنى الصحبة والمرافقة. أو على معنى الشراكة والخلطة لقوله (وإن كثيراً من الخلطاء) وكل واحد من هذه الأخوات تقتضي منع الاعتداء ويندب إلى العدل. وقرأ الجمهور (تَسْعُ وتَسْعُونَ) بكسر التاء فيها. وقرأ الحسن وزيد بن علي بفتحها. وقرأ الجمهور (نَعِجَةٌ) بفتح النون والحسن، وابن هرمز بكسر النون. وهي لغة لبعض بني تميم. قيل: وكنتي بالنعجة عن الزوجة (فقال أكفلنيها) أي: ردها في كفالتي. وقال ابن كيسان: «اجعلها كفلي». أي: نصيبي. وقال ابن عباس: «أعطينها»، وعنه وعن ابن مسعود: «تحول لي عنها». وعن أبي العالية: «ضمها إلي حتى أكفلها». (وعزني في الخطاب) قال الضحاك: إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني. وقال ابن عطية: «كان أوجه مني وأقوى، فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي وقوته أعظم من قوتي». وقال الزمخشري: «جاءني مجحاج لم أقدر أن أقدر عليه ما أردته به» وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل. أو أراد خطيب المرأة وخطبها هو فخطبني خطاباً. أي: غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها دوني. وقيل: غلبني بسلطانه لأنه لما سألته لم يستطع خلافه، قال الحافظ أبو بكر بن العربي: «كان بيلادنا أمير، يقال له سيري بن أبي بكر فكلمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة، فقال لي: أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غضب لها، فقلت: أما إذا كان عدلاً فلا». وقرأ أبو حيوة، وطلحة (وعزني) بتخفيف الزاي. قال أبو الفتح: حذف الزاي الواحدة تخفيفاً، كما قال أبو زيد:

أَحْسَنَ بِهِ فَهَزَّ إِلَيْهِ شُوسٌ<sup>(٣)</sup>

وروي كذلك عن عاصم. وقرأ عبيد الله، وأبو وائل، ومسروق، والضحاك، والحسن، وعبيد بن عمير (وعازني) باللف وتشديد الزاي. أي: وغالبني. والظاهر: إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك، لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسئلة والفرض لها مرة غير تلبس بشيء منها، فمثلوا بقصة رجل له (نعجة) والخليطه (تسع وتسعون) فأراد صاحبه تمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراد انتزاعها منه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده. وبدل على ذلك قوله (وإن كثيراً من الخلطاء) وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدل على المراد. (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) ليس هذا ابتداء من داود -

(١) اللفظ: الحشن الكلام، وقيل اللفظ الغليظ.

لسان العرب (٣٤٣٧/٥)

(٢) انظر (٢٢٦٣/٤) لسان العرب.

(٣) النظر بأحد شقي العين (الشوس).

لسان العرب (٢٣٥٩/٤)



عليه السلام - إثر فراغ لفظ المدعي ولا فتياً بظاهر كلامه قبل ظهور ما يجب فقيل ذلك على تقدير أي : لئن كان ما تقول لقد ظلمك . وقيل : ثم محذوف . أي : فأقر المدعى عليه ، فقال : لقد ظلمك ولكنه لم يحك في القرآن اعتراف المدعى عليه ، لأنه معلوم من الشرائع كلها إذ لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه ، فأما ما قاله الحلبي من أنه رأى في المدعى مخايل الضعف والهزيمة فحمل أمره على أنه مظلوم ، كما تقول فدعاه ذلك إلى أن لا يسأل المدعى عليه فاستعجل بقوله (لقد ظلمك) فقوله ضعيف لا يعول عليه . وروي أن داود - عليه السلام - لما سمع كلام الشاكي قال للآخر : ما تقول؟ فأقر فقال له : لئن لم ترجع إلى الحق لأكسرن الذي فيه عيناك . وقال للثاني (لقد ظلمك) فتبسما عند ذلك وذهبا ولم يرها لحينه . ورأى أنها ذهبا نحو السماء بمرأى منه . وأضاف المصدر إلى المفعول وضمن السؤال معنى الإضافة . أي : بإضافة نعتك على سبيل السؤال والطلب ولذلك عداه بـ (إلى) (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض) هذا من كلام داود . ويدل على أن زمانه كان فيه الظلم والاعتداء كثيراً . (والخلطاء) الشركاء الذين خلطوا أموالهم . الواحد : خليط . قصد داود بهذا الكلام الموعظة الحسنة والترغيب في إثارة عادة الخلطاء الصالحاء الذين حكم لهم بالقلّة ، وأن يكره إليهم الظلم ، وأن يسلي المظلوم عن ما جرى عليه من خليطه وإن له في أكثر الخلطاء أسوة . وقرئ (لِيَبْغَى) بفتح الياء على تقدير حذف النون الخفيفة . وأصله : لِيَبْغِينَ كما قال :

إضْرِبْ عَنْكَ الهمومَ طَارِقَهَا

يريد : اضربن ويكون على تقدير قسم محذوف ذلك القسم وجوابه خير لـ (إن) وعلى قراءة الجمهور يكون (ليبغي) خبيراً لـ (إن) وقرئ (لِيَبْغَى) بحذف الياء كقوله :

عَمَدُ تَقْدِ نَفْسِكَ كُلُّ نَفْسٍ

أي : تفدي . على أحد القولين (وقليل) خبر مقدم . (وما) زائدة تفيد معنى التعظيم والتعجب . (وهم) مبتدأ (وظن) داود) لما كان الظن الغالب يقارب العلم استعير له . ومعناه : وعلم داود وأيقن أنا ابتليناه بمحاكمة الخصمين . وأنكر ابن عطية مجيء الظن بمعنى اليقين . وقال : «لسنا نجد في كلام العرب ، وإنما هو توقيف بين معتقدين غلب أحدهما على الآخر ، وتوقعه العرب على العلم الذي ليس على الحواس ودلالة اليقين التام ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون ظن بمعنى أيقن وطول ابن عطية في ذلك بما يوقف عليه في كتابه» . وقرأ الجمهور (فَتَنَّا) وعمر بن الخطاب ، وأبو رجاء ، والحسن بخلاف عنه شد التاء والنون مبالغة . والضحاك (أفتنناه) كقوله :

لِئِنْ فَتَنَّتْنِي هَيَّ بِالْأَمْسِ أَفْتَنْتَ

وقتادة وأبو عمر وفي رواية يخفف التاء والنون والألف ضمير الخصمين ، (فاستغفر ربه وخر راکعاً وأتاب) (راکعاً) حال . والخرور : الهوى إلى الأرض

فإما أنه عبر بالركوع عن السجود ، وإما أنه ذكر أول أحوال الخرور . أي : راکعاً ليسجد . وقال الحسن : «لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع» . وقال الحسن بن الفضل : «آخر من ركوعه . أي : سجد بعد أن كان راکعاً» . وقال قوم : «يقال : خر لمن ركع وإن لم ينته إلى الأرض» . والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل ، وفي غير وقت جلوسه للحكم ، وأنه فرع منهم ، ظاناً أنهم يفتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاؤوا في حكومة ، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة إنقاذ من الله له أن يفتالوه فلم يقع ما كان ظنه ، فاستغفر من ذلك الظن ، حيث أخلف ، ولم يكن يقع مظنونه ، وخر ساجداً ، أوردج إلى الله تعالى فعفر له ذلك الظن . ولذلك أشار بقوله (فعفرنا له ذلك)

ولم يتقدم سوى قوله (وظن داود أنما فتناه) ويعلم قطعاً أن الأنبياء - عليهم السلام - معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة أن لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم تنق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى . وما حكى القصاص مما فيه غرض عن منصب النبوة طرحتاه ونحن كما قال الشاعر:

وَنُؤْتِرُ حُكْمَ الْعَقْلِ فِي كُلِّ شُبْهَةٍ إِذَا آثَرَ الْأَخْبَارَ جُلَّاسُ قُصَّاصِ

يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ٢٦ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ٢٧ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ٢٨ كَتَبْنَا نُورَ الْإِنْسَانِ لِيَدَّبُرُوا أَيَّتَهُ وَليَسْتَذْكُرُوا أَن لَوْ أَن أَلْبَسَ ٢٩ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ٣٠ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَتِ الْجِيَادِ ٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩ وَإِن لَّمْ يَكُنِ اللَّذَنُ حَسَنَ مَّثَابٍ ٤٠

جعله تعالى داود خليفة في الأرض بدل على مكانته - عليه السلام - عنده واصطفائه، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة . واحتمل لفظ (خليفة) أن يكون معناه تخلف من تقدمك من الأنبياء أن يعلى قدرك بجعلك ملكاً نافذ الحكم . ومنه قيل : خلفاء الله في أرضه . واستدل من هذه الآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله ، ولا يلزم ذلك من الآية ، بل لزومه من جهة الشرع والإجماع . قال ابن عطية : «ولا يقال خليفة الله إلا لرسول، وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله . وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك يجوز كما قال قيس الرقيات :

خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي بَرِيَّتِهِ حَقَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُوبُ (١)

وقالت الصحابة لأبي بكر خليفة رسول الله . وبذلك كان يدعى مدته فلما ولي عمر قالوا خليفة خليفة رسول الله ، وطال الأمر وزاد أنه في المستقبل فدعوه أمير المؤمنين . وقصر هذا الاسم على الخلفاء . انتهى . (فاحكم بين الناس بالحق) أمر بالديمومة وتبنيه لغيره ممن ولي أمور الناس . فمن حيث هو معصوم لا يحكم إلا بالحق أمر أولاً بالحكم . ولما كان الهوى قد يعرض لغير المعصوم أمر باجتنابه وذكر نتيجة اتباعه وهو إضلاله عن سبيل الله . و(فيضلك) جواب للنهي والفاعل في

(يفضلك) ضمير الهوى، أو ضمير المصدر المفهوم من (ولا تتبع) أي: فيضلك اتباع الهوى. ولما ذكر ما ترتب على اتباع الهوى وهو الإضلال عن سبيل الله ذكر عقاب الضال. وقرأ الجمهور (يُضَلُّون) بفتح الياء، لأنهم لما أضلهم اتباع الهوى صاروا ضالين. وقرأ ابن عباس، والحسن بخلاف عنها، وأبو حنيفة بضم الياء. وهذه القراءة أعم، لأنه لا يضل إلا ضال في نفسه. وقراءة الجمهور أوضح. (وبما نسوا) متعلق بما تعلق به (لهم) و(نسوا) تركوا و(يوم) يجوز أن يكون منصوباً بـ (نسوا) أو بما تعلق به (لهم) ويكون النسيان عبارة عن ضلالتهم عن سبيل الله. وانتصب (باطلاً) على أنه نعت لمصدر محذوف. أي: خلقاً باطلاً. أو على الحال. أي: مبطلين. أو ذوي باطل. أو على أنه مفعول من أجله. معنى (باطلاً) عبثاً (ذلك) أي: كون خلقها باطلاً (ظن الذين كفروا) أي: مظنونهم. وهؤلاء وإن كانوا مقرين بأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى، فهم من حيث أنكروا المعاد، والثواب، والعقاب، ظانون أن خلق ذلك ليس بحكمة، وأن خلق ذلك إنما هو عبث، ولذلك قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥] فنبه على المعاد والرجوع إلى جزائه. ثم ذكر ما بين المؤمن - عامل الصالحات - والمفسد من التباين، وأنها ليسا سياسيين وقابل الصلاح بالفساد والتقوى بالفجور. قال ابن عباس: «هي عامة في جميع المسلمين والكافرين». وقيل: في قوم من مشركي قريش قالوا: نحن لنا في الآخرة أعظم مما لنا في الدنيا، فأنزل الله هذه الآية<sup>(١)</sup>. وقيل: في جماعة من المؤمنين والكافرين معينين بارزوا يوم بدر علياً، وحمزة، وعبيدة بن الحرث - رضي الله عنهم - وعتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة. ووصف كلاً بما ناسبه. والاستفهام بـ (أم) في الموضوعين استفهام إنكار. والمعنى: أنه لا يستوي عند الله من أصلح ومن أفسد، ولا من اتقى ومن فجر، وكيف تكون التسوية بين من أطاع ومن عصى إذن كان يبطل الجزاء، والجزاء لا محالة واقع، والتسوية متفية. ولما انتفت التسوية بين ما تصلح به لم تبعه السعادة الأبدية - وهو كتاب الله تعالى - فقال (كتاب أنزلناه) وارتفاعه على إضهار مبتدأ. أي: هذا كتاب. وقرأ الجمهور (مبارك) على الصفة، وقرئ (مباركاً) على الحال اللازمة. أي هذا كتاب. وقرأ الجمهور (ليدبروا آياته) بياء الغيبة وشد الدال وأصله: ليتدبروا. وقرأ عليّ بهذا الأصل. وقرأ أبو جعفر بتاء الخطاب وتخفيف الدال. وجاء كذلك عن عاصم، والكسائي بخلاف عنها. والأصل لتَدَبَّرُوا بتاءين فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها. أهي تاء المضارعة؟ أم التاء التي تليها؟ واللام في (ليدبروا) لام كي. وأسند التدبر في الجميع، وهو التفكير في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء. وأسند التذكر إلى أولي العقول، لأن ذا العقل فيه ما يهديه إلى الحق وهو عقله، فلا يحتاج إلا إلى ما يذكره فيتذكروا المخصوص بالمدح محذوف، التقدير: نعم العبد هو أي: سليمان. وقرئ (نعم) على الأصل كما قال:

نعم الساعون في القوم الشطر<sup>(٢)</sup>

أثنى تعالى عليه، لكثرة رجوعه إليه أول لكثرة تسيبته. (إذ عرض) الناصب لـ (إذ) قيل: أواب. وقيل: أذكر - على الاختلاف في تأويل هذه الآية. قال الجمهور: «عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أبوه له. وقيل: ألف واحد فأجريت بين يديه عشياً، فتشاغل بحسنها، وجريها، ومحبتها، عن ذكر له، فقال (ردوها عليّ فطفق) يضرب أعناقها وعراقبيها بالسيف لما كانت سبب الذهول عن ذلك الذكر، فأبدله الله أسرع منها الريح. وقال قوم منهم الثعلبي: «كانت بالناس مجاعة ولحوم الخيل لهم حلال فعقرها لتؤكل على سبيل القرية، ونحر الهدى عندنا». انتهى. وفي هذه القصة ألفاظ فيها

(١) انظر الوسيط ١٧٣ والبغوي ٥٩/٤.

(٢) الشطر نصف الشيء والجمع: اشطر وشطور.

لسان العرب (٤/٢٢٦١).

غض من منصب النبوة كفيينا عنه . والخير: في قوله (حب الخير) أي: هذا القول يراد به الخيل . والعرب تسمي الخيل الخير، قاله قتادة، والسدي . وقال الضحاك، وابن جبير: الخير هنا: المال وانتصب (حبَّ الخير) قيل: على المفعول به لتضمن (أحببت) معنى آثرت . قاله الفراء، وقيل: منصوب على المصدر التشبيهي، أي: أحببت الخيل كحب الخير . أي: حباً مثل حب الخير . وقيل: عدي بـ (عَن) فضمن معنى فعل يتعدى بها . أي: أنبت حب الخير عن ذكر ربي . أو جعلت حب الخير مغنياً عن ذكر ربي . وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: «أن (أحببت) بمعنى لزمت» من قوله:

#### مثل بعير السوء إذ أحبا

وقالت فرقة (أحببت) سقطت إلى الأرض . مأخوذ من أحب البعير إذا أعى وسقط، قال بعضهم: حب البعير برك . وفلان طأطأ رأسه . وقال أبو زيد: «بعير محب وقد أحب إحباباً إذا أصابه مرض أو كسر فلا يرح مكانه حتى يبرأ أو يموت» . قال ثعلب: «يقال للبعير الحسير<sup>(١)</sup> محب» . فالعنى: قعدت عن ذكر ربي . و(حبَّ الخير) على هذا مفعول من أجله . والظاهر: أن الضمير في (توارت) عائد على (الصفات) أي: دخلت اصطبلاتها فهي الحجاب . وقيل: (حتى توارت) في المسابقة بما يحجبها عن النظر . وقيل: الضمير للشمس، وإن لم يجر لها ذكر، للدلالة (العشي) عليها . وقالت طائفة: عرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة، فأشار إليهم أي في صلاتي، فأزالوها عنه حتى دخلت في الاصطبلات فقال - هو لما فرغ من صلاته - (إني أحببت حب الخير) أي: الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي، كأنه يقول: فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى أدخلت اصطبلاتها (ردوها عليّ فطفق) يمسح أعرافها وسوقها محبة لها . وقال ابن عباس والزهري: «مسحه بالسوق والأعناق: لم يكن بالسيف بل بيديه، تكريماً لها ومحبة» . ورجحه الطبري، وقيل: بل غسلًا بالماء، وقال الثعلبي: «إن هذا المسح كان في (السوق والأعناق) بوسم حبس في سبيل الله» . انتهى . وهذا القول هو الذي يناسب مناصب الأنبياء لا القول المنسوب للجمهور فإن في قصته ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء . و(حتى توارت) غاية . فالفعل يكون قبلها متطاولاً حتى تصيح الغاية فـ (أحببت) معناها أردت المحبة، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: (فإن قلت: ) بم اتصل قوله (ردوها عليّ)? (قلت: ) بمحذوف . تقديره: قال ردوها عليّ . فأضمر وا ضمير ما هو جواب له . كأن قائلًا قال: فإذا قال سليمان لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهراً . ثم ذكر الزمخشري لفظاً فيه غض من النبوة فتركته . وما ذهب إليه من هذا الإضمار لا يحتاج إليه إذا الجملة مندرج تحت حكاية القول . وهو (فقال إني أحببت) فهذه الجملة (ردوها علي) محكيتان بـ (قال) و(طفق) من أفعال المقاربة للشروع في الفعل وحذف غيرها لدلالة المصدر عليه . أي: فطفق يمسح مسحاً . وقرأ الجمهور (مَسْحاً) وزيد بن علي (مِسَاحاً) على وزن قتال . والباء في (بالسوق) زائدة كهي في قوله: ﴿وامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ [النساء: ٤٣] وحكى سيويه: «مسحت برأسه ورأسه بمعنى واحد» . وتقدم الكلام على ذلك في المائدة . وقرأ الجمهور (بالسوق) بغير همز على وزن فُعَل وهو جمع سَاق على وزن فَعَل بفتح العين كأسد وأسد . وابن كثير بالهمز . قال أبو علي: «وهي ضعيفة، لكن وجهها في القياس، أن الضمة لما كانت تلي الواو وقدر أنها عليها فهمزت كما يفعلون بالواو المضمومة ووجه همز السوق من السماع أن أبا حبة النميري كان يهز كل واو ساكنة قبلها ضمة وكان ينشد:

#### حُبُّ الْمُؤَقَّدِينَ إِلَى مُوسَى

انتهى . وليست ضعيفة، لأن الساق فيه الهمزة ووزن فُعَل بسكون العين فجاءت هذه القراءة على هذه اللفظة . وقرأ

(١) التاق: الحسير والعسير بمعنى التي لم ترض انظر اللسان (٢/٨٦٩) .

(٢) انظر الكشاف ٩٣/٤ .

ابن محيصن بهمزة بعدها الواو. ورواها بكار عن قنبل. وقرأ زيد بن علي (بالساق) مفرداً. اكتفى به عن الجمع لأمن اللبس. ومن غريب القول: أن الضمير في (زدها) عائد على الشمس. وقد اختلفوا في عدد هذه الخيل على أقوال متكاذبة سودوا الورق بذكرها. (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً) نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها يوقف عليها في كتبهم. وهي مما لا يحل نقلها. وإما هي من أوضاع اليهود والزنادقة. ولم يبين الله الفتنة ما هي؟ ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان. وأقرب ما قيل فيه: إن المراد بالفتنة: كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: «لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله». ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة وجاءته بشق رجل. قال رسول الله - ﷺ -: «والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون». فالمراد بقوله (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً) هو هذا. والجسد الملقى: هو المولود شق رجل. وقال قوم: مرض سليمان مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه جسداً، كأنه بلا روح، ولما أمر تعالى نبيه - عليه السلام - بالصبر على ما يقول كفار قريش وغيرهم، أمره بأن يذكر من ابتلي فصبر. فذكر قصة داود وقصة سليمان وقصة أيوب، ليتأسى بهم. وذكر ما لهم عنده من الزلفي والمكانة فلم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به، ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكره كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها. (ثم أناب) أي: بعد امتحاننا إياه أدام الإنابة والرجوع. (قال رب اغفر لي) هذا أدب الأنبياء والصالحين من طلب المغفرة من الله، هضماً للنفس وإظهاراً للذلة والخشوع، وطلباً للترقي في المقامات. وفي الحديث: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة». والاستغفار مقدمة بين يدي ما يطلب المستغفر بطلب الأهم في دينه فيرتب عليه أمر دنياه كقول نوح في ما حكى الله عنه ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ [نوح: ١٠، ١١] الآية. والظاهر: أن طلب الملك كان بعد هذه المحنة. وذكر المفسرون: أنه أقام في ملكه عشرين سنة قبل هذا الابتلاء، وأقام بعدها عشرين سنة. فيمكن أنه كان في ملك قبل المحنة ثم سأل بعدها ملكاً مقيداً بالوصف الذي بعده وهو كونه لا ينبغي لأحد من بعده. واختلفوا في هذا القيد. فقال عطاء بن أبي رباح وقتادة: «إلى مدة حياتي لا أسلبه ويصير إلى غيري». قال ابن عطية: «إنما قصد بذلك قصداً جائزاً لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد لا سيما بحسب المكانة والنبوة. وانظر إلى قوله (لا ينبغي) إنما هي لفظة محتملة ليست تقطع في أنه لا يعطي الله نحو ذلك الملك لأحد». انتهى. وقال الزمخشري: «كان سليمان - عليه السلام - ناشئاً في بيت الملك، والنبوة، ووارثاً لها، فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز، ليكون ذلك دليلاً على نبوته، قاهرراً للمبعوث إليهم، ولن يكون معجزة حتى تخرق العادات، فذلك معنى قوله (لا ينبغي لأحد من بعدي)» وقيل: كان ملكاً عظيماً فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه كما قالت الملائكة ﴿أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ [البقرة: ٣٠] وقيل: ملكاً لا أسلبه ولا يقوم فيه غيري مقامي. ويجوز أن يقال: عليم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنه لا يطلع بإحبابه غيره، وأوجبت الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أن لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده. أو أراد أن يقول: ملكاً عظيماً، فقال (لا ينبغي لأحد من بعدي) ولم يقصد بذلك إلا عظمة الملك وسعته، كما تقول: فلان ما ليس لأحد من الفضل والمال. وربما كان للناس أمثال ذلك ولكنك تريد تعظيم ما عنده». انتهى. ولما بالغ في صفة هذا الملك الذي طلبه أتى في صفته تعالى باللفظ الدال على المبالغة فقال (إنك أنت الوهاب) أي: الكثير الهبات لا يتعاطم عنده هبة. ولما طلب الهبة التي اختص بطلبها وهبه وأعطاه ما ذكر تعالى من قوله (فسخرنا له الريح)، وقرأ الجمهور بالافراد. والحسن، وأبو رجاء،

وقتادة، وأبو جعفر (الرياح) بالجمع. وهو أعم، لعظم ملك سليمان، وإن كان المفرد بمعنى الجمع لكونه اسم جنس. (تجري) يحتمل أن تكون جملة حالية، أي: جارية وأن تكون تفسيرية لقوله (فسخرنا له الريح بأمره) أي: لا يمتنع عليه إذا أراد جريها. (رُحَاءً) قال ابن عباس، والحسن، والضحاك: «مطبعة»، وقال مجاهد: «طيبة» (حيث أصاب) أي: حيث قصد وأراد. حكى الزجاج عن العرب «أصاب الصواب فأخطأ الجواب. أي: قصد» وعن رؤبة: أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقال: هذه طلبتنا. ويقال: أصاب الله بك خيراً، وأنشد الثعلبي:

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَا الْجَوَابَ لَدَى الْمِفْصَلِ<sup>(١)</sup>

وقال وهب: «(حيث أصاب) أي: أراد»، قيل: ويجوز أن يكون (أصاب) دخلت فيه همزة التعدية من صاب. أي: حيث وجه جنوده. وجعلهم يصوبون صوب السحاب والمطر. وقيل (أصاب) أراد بلغة حمر، وقال قتادة: «بلغة هجر». (والشياطين) معطوف على الريح (وكل بناء وغواص) بدل. وأنى بينة المبالغة كما قال: «يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل» [سبأ: ١٣] الآية، وقال النابغة:

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ لَهُ  
قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْذُدْهَا عَنِ الْفَنَدِ  
وَجِيَّشِ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ  
يَتَّبِعُونَ تَدْمُرَ بِالصُّفْحِ وَالْغُمْدِ<sup>(٢)</sup>

والمعطوف على العام عام، فالتقدير: وكل غواص. أي: في البحر يستخرجون له الحلية وهو أول من استخرج الدر. (وآخرين) عطف على (كل) فهو داخل في البديل، إذ هو بدل كل من كل بدل التفصيل أي: من الجن وهم المردة سخرهم له حتى قرنهم في الأصفاذ لكفرهم، وقال النابغة في ذلك:

فَمَنْ أَطَاعَكَ فَاَنْفَعُهُ بِطَاعَتِهِ  
وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبُهُ مُعَاقِبَةً  
تَنْهَى الظُّلُومَ وَلَا تَقْعُدُ عَلَى ضَمْدِ<sup>(٣)</sup>

وتقدم تفسير (مقرنين في الأصفاذ) في آخر سورة إبراهيم - عليه السلام - وأوصاف من ملك سليمان في سورة النمل، (هذا عطاؤنا) إشارة لما أعطاه الله تعالى من الملك الضخم، وتسخير الريح، والإنس والجن، والطيور، وأمره بأن يمن على من يشاء ويمسك عن من يشاء. ووقفه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيها بمشيئته، وهو تعالى قد علم أنه لا يتصرف إلا بطاعة الله. قال الحسن وغيره قاله قتادة: إشارة إلى ما فعله الجن. أي: فامنن على من شئت منهم، وأطلقه من وثاقه، وسرحه من خدمته، وأمسك أمره كما تريد. وقال ابن عباس: «إشارة إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليهن من جماعهن». ولعله لا يصح عن ابن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء، ولا ما أوتي من القدرة على ذلك. (وبغير حساب) في موضع الحال من (عطاؤنا) أي: هذا عطاؤنا جماً كثيراً لا تكاد تقدر على حصره. ويجوز أن يكون (بغير حساب) من تمام (فامنن) أو (أمسك) أي: لا حساب عليك في إعطاء من شئت أو حرمانه، وفي إطلاق من شئت من الشياطين أو إثاقه، وختم تعالى قصته بما ذكر في قصة والده وهو قوله (وإن له عندنا الزلفى وحسن مآب)، وقرأ الجمهور (وحسن مآب) بالنصب عطفاً على (ألزلفى)، وقرأ الحسن وابن أبي عبلة بالرفع ويقفان على (الزلفى) وبيتدئان (وحسن مآب) وهو مبتدأ خبره محذوف. تقديره: وحسن مآب له.

(١) البيت من المتقارب لم يهتد لقائله. انظر غريب القرآن (٣٨٠) القرطبي (١٣٤/١٥).

(٢) تقدما وانظر القرطبي (١٣٤/١٥) وروح المعاني (٢٠٣/١٢) وجعله من إنشاء ثعلب.

(٣) تقدما.

وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانَ يَنْصِبْ وَعَذَابٍ ۚ (٤١) أَرْكُضُ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۚ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ (٤٣) وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۚ (٤٤) وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۚ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۚ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ۚ (٤٧) وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ۚ (٤٨)

الضغث<sup>(١)</sup>: حزمة صغيرة من حشيش، أوريحان، أو قصبان. وقيل: القبضة الكبيرة من القصبان. ومنه قولهم: ضغث على إبالة، والإبالة الحزمة من الحطب. والضغث: القبضة عليها من الحطب أيضاً، ومنه قول الشاعر:

وَأَسْفَلَ مِنِّي نَهْدَةٌ قَدْ رَبَطْتُهَا      وَالْقَيْتُ ضِعْفًا مِنْ خَلِيٍّ مُتَطَيَّبٍ<sup>(٢)</sup>

الحث: فعل ما حلف على تركه وترك ما حلف على فعله. الغساق<sup>(٣)</sup>: ما سال. يقال: غسقت العين والجرح. وعن أبي عبيدة: «أنه البارد المتين بلغة الترك». وقال الأزهري: «الغاسق: البارد، ولهذا قيل: ليل غاسق، لأنه أبرد من النهار. الاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها. والقحمة: الشدة.

﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانَ يَنْصِبْ وَعَذَابٍ، أَرْكُضُ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ، وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ، إِذْ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ، وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

لما أمر نبيه بالصبر، وذكر ابتلاء داود وسليمان وأثنى عليهما، ذكر من كان أشدَّ ابتلاء منها، وأنه كان في غاية الصبر بحيث أثنى الله عليه بذلك (وأيوب) عطف بيان أو بدل قال الزمخشري: «و(إذ) بدل اشتغال منه. وقرأ الجمهور (أني) بفتح الهمزة. وعيسى بكسرهما. وجاء بضمير التكلم حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال: إنه مسه، لأنه غائب. وأسند المس إلى الشيطان، قال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: «لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيها وسوس سبباً فيها مسه الله به من النصب والعذاب نسبة إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل. وذكر في سبب بلائه: أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغيثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهته ولم يفده. وقيل: أعجب بكثرة ماله». انتهى ولا يناسب مناصب الأنبياء ما ذكره الزمخشري<sup>(٥)</sup> من

(١) انظر لسان العرب (٤/٢٥٩٠).

(٢) البيت من الطويل لعوف بن الحر. انظر مجاز القرآن (١/٣١٢) وانظر عجزه في الجمهرة (٢/٤٣).

(٣) انظر لسان العرب (٥/٣٢٥٥).

(٤) انظر الكشاف ٤/٣٧.

(٥) انظر الكشاف ٤/٩٧.

أن أيوب كانت منه طاعة للشيطان فيما وسوس به وأن ذلك كان سبباً لما مسه الله به من النصب والعذاب، ولا أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغته، ولا أنه داهن كافراً. ولا أنه أعجب بكثرة ماله، وكذلك ما رويوا أن الشيطان سلطه الله عليه حتى أذهب أهله وماله لا يمكن أن يصح ولا قدرة له على البشر إلا بإلقاء الوسواس الفاسدة لغير المعصوم. والذي نقوله إنه تعالى ابتلى أيوب - عليه السلام - في جسده وأهله وماله على ما روي في الأخبار. وروى أنس عن النبي - ﷺ - : «أن أيوب بقي في محنته ثمانين سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم ولم يصبر عليه إلا امرأته». ولم يبين لنا توالي السبب المقضي لعلته. وأما إسناد المس إلى الشيطان فسبب ذلك أنه كان يعوده ثلاث من المؤمنين فارتد أحدهم، فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لا يتبلى الأنبياء والصالحين فحينئذ قال (مسي الشيطان) نزل - لشفته على المؤمنين - مس الشيطان ذلك المؤمن حتى ارتد منزلة مسه لنفسه، لأن المؤمن الخَيْر يتألم برجوع المؤمن الخير إلى الكفر. ولذلك جاء بعده (اركض برجلك) حتى يغتسل ويذهب عنه البلاء فلا يرتد أحد من المؤمنين بسبب طول بلائه، وتسويل الشيطان أنه تعالى لا يتبلى الأنبياء. وقيل: أشار بقوله (مسي الشيطان) إلى تعريضه لامرأته وطلبه أن تترك بالله، وكأنه بتشكي هذا الأمر كان عليه أشد من مرضه. وقرأ الجمهور (ينصب) بضم النون وسكون الصاد. قيل: جمع نصب كَوْنٌ وَوُئِن. وأبو جعفر، وشيبة، وأبو عارة عن حفص، والجعفي عن أبي بكر، وأبو معاذ عن نافع بضمين. وزيد بن علي، والحسن، والسدي، وابن أبي عمير، ويعقوب، والحدري، وفتحان. وأبو حيو، ويعقوب، في رواية وهبيرة، عن حفص. بفتح النون وسكون الصاد، وقال الزمخشري: «النصب والنصب كالرشد، والرشد. والنصب على أصل المصدر والنصب تنقيح المعنى واحد. وهو التعب والمشقة. والعذاب: الألم. يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب». انتهى. وقال ابن عطية: «وقد ذكر هذه القراءات وذلك كل بمعنى واحد معناه: المشقة. وكثيراً ما يستعمل النصب في مشقة الإعياء. وفرق بعض الناس بين هذه الألفاظ والصواب أنها لغات بمعنى من قولهم أنصبي الأمر إذا شق علي». انتهى، وقال السدي: «ينصب في الجسد وعذاب في المال». وفي الكلام حذف، تقديره: فاستجبنا له، وقلنا اركض برجلك فركض، فنبعت عين، فقلنا له هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاؤك، فاغتسل فبرأ، وهبنا له. ويدل على هذه المحذوفات، معنى الكلام وسياقه، وتقدم الكلام في الركض في سورة الأنبياء. وعن قتادة، والحسن، ومقاتل: «كان ذلك بأرض الجابية من الشام. ومعنى (هذا مغتسل) أي؛ ما يغتسل به (وشراب) أي: ما تشربه. فباغتسالك يبرأ ظاهره، وبشربك يبرأ باطنك، والظاهر: أن المشار إليه كان واحداً. والعين التي نبعت له عينان، شرب من إحداهما. واغتسل من الأخرى. وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل، وباليسرى فنبعت باردة فشرب منها<sup>(١)</sup>. وهذا مخالف لظاهر قوله (مغتسل بارد) فإنه يدل على أنه ماء واحد. وقيل: أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء بجسده. وقال القتيبي: «المغتسل: الماء الذي يغتسل به». وقال مقاتل: «هو الموضع الذي يغتسل فيه». وقال الحسن: «ركض برجله، فنبعت عين ماء فاغتسل منها، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً، ثم ركض برجله فنبعت عين فشرب منها». قيل: والجمهور على أنه ركض ركضتين فنبعت له عينان، شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى. والجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شئت منهم. وقيل: رزقه أولاداً وذرية، قدر ذريته الذين هلكوا. ولم يرد أهله الذين هلكوا بأعيانهم. وظاهر هذه الشبهة أنها في الدنيا. وقيل: ذلك وعد، وتكون تلك الهيئة في الآخرة. وقيل: وهبه من كان حياً منهم، وعافاه من الأسقام، وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى تضاعف عددهم وصار مثلهم. و(رحمة وذكرى) مفعولان لها. أي: إن الهبة كانت لرحمتنا إياه، ولتذكر أرباب العقول. وما يحصل للصابرين من الخير وما يؤول إليه من الأجر. وفي الكلام حذف. تقديره: وكان حلف

(١) انظر الوسيط ٣ خ والطبري ١٠٧/٢٣. والبغوي ٦٥/٤. والقرطبي ٢١١/١٥ والدر المنثور ٣١٦/٥.



ليضربن امرأته مائة ضربة لسبب جرى منها - وكانت محسنة له - فجعلنا له خلاصاً من يمينه بقولنا (وخذ بيدك ضغثاً)، قال ابن عباس: «الضغث: عثكال النخل»، وقال مجاهد: «الأثل: وهو نبت له شوك». وقال الضحاك: «حزمة من الخشيش مختلفة». وقال الأخفش: «الشجر الرطب». واختلفوا في السبب الذي أوجب حلفه. ومحصول أقوالهم هو تمثل الشيطان لها في صورة ناصح أو مداو. وعرض لها شفاء أيوب على يديه على شرط لا يمكن وقوعه من مؤمن، فذكرت ذلك له، فعلم أن الذي عرض لها هو الشيطان وغضب لعرضها ذلك عليه فحلف. وقيل: غير ذلك من الأسباب، وهي متعارضة فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها. وقد وقع مثل هذه الرخصة في الإسلام. «أتى رسول الله - ﷺ - بمخدخ<sup>(١)</sup> قد خبث بأمة فقال خذوا عثكلاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة». وقال بذلك بعض أهل العلم في الإيمان، قال: ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة، إما أطرافها قائمة، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضربة. والجمهور على ترك القول في الحدود وأن البر في الإيمان لا يقع إلا بإتمام عدد الضربات. ووصف الله تعالى نبيه بالصبر وقد قال: ﴿مسنى الضر﴾ [الأنبياء: ٨٢] فدل على أن الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الوصف بالصبر. وقد قال يعقوب: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ [يوسف: ٨٦] على أن أيوب - عليه السلام - طلب الشفاء خيفة على قومه أن يوسوس إليهم الشيطان أنه لو كان نبياً لم يتل وتألماً لقومه على الطاعة. وبلغ أمره في البلاء إلى أنه لم يبق منه إلا القلب واللسان. ويروى أنه قال في مناجاته: «إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يعنني ما ملكت يمين، ولم أكل إلا ومعني يتيم، ولم أبت شعباناً ولا كاسياً ومعني جائع أو عريان». فكشف الله عنه. (واذكر عبدنا إبراهيم) وقرأ ابن عباس، وابن كثير، وأهل مكة (عَبْدَنَا) على الأفراد (إبراهيم) بدل منه أو عطف بيان. والجمهور على الجمع، وما بعده من الثلاثة بدل أو عطف بيان. وقرأ الجمهور (أولي الأيدي) بالياء، قال ابن عباس ومجاهد: «القوة في طاعة الله». وقيل: إحسانهم في الدين وتقدمهم عند الله على عمل صدق فهي كالأيدي وهو قريب مما قبله، وقيل: الأهم التي أسداها الله إليهم من النبوة والمكانة. وقيل: (الأيدي) الجوارح المتصرفة في الخير (والأبصار) الثاقبة فيه. قال الزمخشري: «لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقيل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، أو كان العمل جذماً لا أيدي لهم. وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا (أولي الأيدي والأبصار) يريد: أولي الأعمال والفكر كان الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات، ولا يستبصرون في حكم الزمنى الذين لا يقدرتون على أعمال جوارحهم، والمسلوب العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منها». انتهى. . . وهو تكثير، وقال أبو عبد الله الرازي: اليد: آلة لأكثر الأعمال. والبصر: آلة لأقوى الإدراكات، فحسن التعبير عن العمل باليد، وعن الإدراك بالصبر. والنفس الناطقة لها قوتان، عاملة، وعاملة، ف (أولي الأيدي والأبصار) إشارة إلى هاتين الحالتين. وقرأ عبد الله، والحسن، وعيسى، والأعمش، (الأيد) بغير ياء، فقيل: براد الأيدي. حذف الياء اجتزاء بالكسرة عنها. ولما كانت «أل» تعاقب التنوين حذفت الياء معها كما حذفت مع التنوين، وهذا تحريج لا يسوغ، لأن حذف هذه الياء مع وجود أل ذكره سيبويه في الضرائر، وقيل (الأيدي) القوة في طاعة الله (والأبصار) عبارة عن البصائر التي يبصرون بها الحقائق وينظرون بنور الله تعالى، وقال الزمخشري: «وتفسير (الأيدي) من التأييد قلق غير متمكن، وإنما كان قلقاً عنده، لعطف (الأبصار) عليه. ولا ينبغي أن يعلق لأنه فسر (أولي الأيدي والأبصار) بقوله: يريد أولي الأعمال والفكر، وقرئ (الأيدي) جمع الجمع كأوظف وأوظف. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ونافع، وهشام (بخالصة) بغير تنوين أضيفت إلى

ذكرى. وقرأ باقي السبعة بالتونين و(ذكرى) بدل من (بخالصة)، وقرأ الأعمش وطلحة (بخالصتهم) و(أخلصناهم) جعلناهم لنا خالصين. و(خالصة) يَحْتَمَلُ - وهو الأظهر - أن يكون اسم فاعل عبره عن مزية أو رتبة أو خصلة خالصة لا شوب فيها. ويحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة، فيكون قد حذف منه الفاعل أي: أخلصناهم بأن أخلصوا ذكرى الدار، فيكون (ذكرى) مفعولاً أو بأن أخلصنا لهم ذكرى الدار أو يكون الفاعل (ذكرى) أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار. و(الدار) في كل وجه في موضع نصب بـ (ذكرى) و(ذكرى) مصدر. و(الدار) دار الآخرة، قال قتادة: «المعنى: بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة ودعا الناس إليها وحضهم عليها». وقال مجاهد: «خلص لهم ذكرهم الدار الآخرة، وخوفهم لها، والعمل بحسب ذلك»<sup>(١)</sup>. وقال ابن زيد: «وهبنا لهم أفضل ما في الدار الآخرة، وأخلصناهم به وأعطيناهم إياه» وقال ابن عطية: «ويحتمل أن يريد بـ (الدار) دار الدنيا على معنى ذكر الثناء والتعظيم من الناس، والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازي فتجيء الآية في معنى قوله: ﴿لسان صدق﴾ [الشعراء: ٨٤] وقوله: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ [الصفات: ٧٨] انتهى. وحكى الزمخشري هذا الاحتمال قولاً، فقال: وقيل: ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق». انتهى. والباء في (بخالصة) باء السبب، أي: بسبب هذه الخصلة وبأنهم من أهلها ويعضده قراءة (بخالصتهم) وإينهم عندنا لمن المصطفين) أي: المختارين من بين أبناء جنسهم (الأخيار) جمع خيرٍ وخيرٍ كميّةٍ وميّتٍ وأموات. وتقدم الكلام في (اليسع) في سورة الأنعام (وذا الكفل) في سورة الأنبياء، و(عندنا) ظرف معمول محذوف دل عليه (المصطفين) أي: وإينهم مصطفون عندنا. أو معمول للمصطفين وإن كان بآل، لأنهم يتسمحون في الظرف والمجرور ما لا يتسمحون في غيرها. أو على التبيين. أي: أعني عندنا. ولا يجوز أن يكون (عندنا) في موضع الخبر. ويعني بالعندية: المكانة. و(لمن المصطفين) في موضع خبر ثان لوجود اللام. لا يجوز: أن زيداً قائم لمطلق. و(كل) أي وكلهم من الأخيار.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرِاتُ الظُّرُفِ أَنْزَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّ الْأَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِتَّهَمُوا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَأٍ بِكُمْ أَنْتُمْ فَاذْمُومُوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقِرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾

لما أمره تعالى بالصبر على سفاهة قومه، وذكر جملة من الأنبياء وأحوالهم. ذكر ما يؤول إليه حال المؤمنين والكافرين من

الجزاء، ومقر كل واحد من الفريقين. ولما كان ما يذكره نوعاً من أنواع التنزيل قال (هذا ذكر) كأنه فصل بين ما قبله وما بعده. ألا ترى أنه لما ذكر أهل الجنة وأعقبه بذكر أهل النار قال (هذا وإن للطاعين) وقال ابن عباس: «هذا ذكر من مضى من الأنبياء». وقيل (هذا ذكر) أي شرف تذكرون به أبداً. وقرأ الجمهور (جنات) بالنصب وهو بدل. فإن كان (عدن) علماً فبدل معرفة من نكرة، وإن كان نكرة فبدل نكرة من نكرة. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(جنات عدن) معرفة لقوله: ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن﴾ [مریم: ٦١] وانتصابها على أنها عطف بيان بـ (حُسن مآب) و(مُفْتَحَة) حال. والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل وفي (مُفْتَحَة) ضمير الجنات. و(الأبواب) بدل من الضمير. تقديره: مفتحة هي الأبواب، لقولهم؛ ضرب زيد اليد والرجل. وهو من بدل الاشتغال». انتهى. ولا يتعين أن يكون (جنات عدن) معرفة بالدليل الذي استدل به وهو قوله (جنات عدن) التي لأنه أعتقد أن (التي) صفة لـ (جنات عدن) ولا يتعين ما ذكره، إذ يجوز أن تكون (التي) بدلاً من (جنات عدن) ألا ترى أن الذي والتي وجموعهما تستعمل استعمال الأسماء فتلي العوامل، ولا يلزم أن تكون صفة وأما انتصابها على أنها عطف بيان فلا يجوز، لأن النحويين في ذلك على مذهبين، أحدهما: أن ذلك لا يكون إلا في المعارف فلا يكون عطف البيان إلا تابعاً لمعرفة. وهو مذهب البصريين. والثاني: أنه يجوز أن يكون في النكرات، فيكون عطف البيان تابعاً لنكرة كما تكون المعرفة فيه تابعة لمعرفة. وهذا مذهب الكوفيين، وتبعهم الفارسي. وأما نخالفهما في التنكير والتعريف فلم يذهب إليه أحد سوى هذا المصنف. وقد أجاز ذلك في قوله: ﴿مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٧] فأعربه عطف بيان تابعاً لنكرة وهو (آيات بينات) و(مقام إبراهيم) معرفة. وقد رددنا عليه ذلك في موضعه في آل عمران. وأما قوله: وفي (مفتحة) ضمير الجنات فجمهور النحويين أعربوا (الأبواب) مفعولاً لم يسم فاعله. وجاء أبو علي فقال: إذا كان كذلك لم يكن في ذلك ضمير يعود على (جنات عدن) من الحالية إن أعرب (مفتحة) حالاً، أو من النعت إن أعرب نعتاً لـ (جنات عدن) فقال في (مفتحة) ضمير يعود على الجنات حتى ترتبط الحال بصاحبها أو النعت بمنعوتها و(الأبواب) بدل. وقال: من أعرب (الأبواب) مفعولاً لم يسم فاعله العائد على الجنات محذوف. تقديره: الأبواب منها. وألزم أبو علي البديل في مثل هذا لا بد فيه من الضمير إما ملفوظاً به أو مقدراً. وإذا كان الكلام محتاجاً إلى تقدير واحد كان أولى مما يحتاج إلى تقديرين. وأما الكوفيون فالرابط عندهم هو «أل» لمقامه مقام الضمير، فكأنه قال «مفتحة لهم أبوابها». وأما قوله: وهو من بدل الاشتغال، فإن عنى بقوله: «وهو قوله اليد والرجل» فهو وهم، وإنما هو بدل بعض من كل وإن عنى (الأبواب) فقد يصح لأن أبواب الجنات ليست بعضاً من الجنات. وأما تشبيهه ما قدره من قوله (مفتحة) هي الأبواب بقولهم: ضرب زيد اليد والرجل فوجهه أن الأبواب بدل من ذلك الضمير المستكن كما أن اليد والرجل بدل من الظاهر الذي هو زيد. وقال أبو إسحق وتبعه ابن عطية (مفتحة) نعت لـ (جنات عدن)، وقال الحوفي: «(مفتحة) حال. والعامل فيها محذوف يدل عليه المعنى. تقديره: يدخلونها، وقرأ زيد بن علي، وعبد الله بن رفيع، وأبو حيوة (جنات عدن مفتحة) برفع التاءين مبتدأ وخبراً، وكل منها خبر مبتدأ محذوف. أي: هوجنات عدن هي مفتحة. والاتكاء: من أهل السعادة (يَدْعُونَ فِيهَا) يدل على أن عندهم من يستخدمونه فيما يستدعون، كقوله: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ [الإنسان: ١٩] ولما كانت الفاكهة يتنوع وصفها بالكثرة، وكثرتها باختلاف أنواعها. وكثرة كل نوع منها. ولما كان الشراب نوعاً واحداً وهو الخمر أفرد (وعندهم قاصرات الطرف)، قال قتادة: «معناه: على أزواجهن» (أتراب) أي: أمثال على سنٍّ واحدة. وأصله في بني آدم لكونهم مس أجسادهم التراب في وقت واحد والأقران أثبت في التحاب. والظاهر: أن هذا الوصف هو بينهن. وقيل: بين أزواجهن أسنانهن كأسنانهم. وقال ابن عباس: «يريد الأدميات»، وقال صاحب الغنيان: «حور»، وقرأ ابن كثير، وأبو عمر (وهذا

ما يوعدون) بياء الغيبة، إذ قبله (وعندهم) وباقي السبعة بقاء الخطاب على الالتفات. والمعنى: هذا ما وقع به الوعد ليوم الجزاء. (إن هذا) أي ما ذكر للمتقين مما تقدم (لرزقنا) دائماً. أي: لا نغادر له (هذا وإن للطاغين لشر مآب)، قال الزجاج: «أي الأمر هذا» وقال أبو علي: «هذا للمؤمنين». وقال أبو البقاء: مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدأ. (والطاغون) هنا الكفار. وقال الجبائي: «أصحاب الكبائر كفاراً كانوا أو لم يكونوا»، وقال ابن عباس: «المعنى: الذين طغوا عليّ وكذبوا رسلي لهم (شر مآب) أي مرجع ومصير (فبئس المهاد) أي: هي هذا في موضع رفع مبتدأ خبره (جهنم) (وغساق) أو خبر مبتدأ محذوف. أي: العذاب هذا. (وحميم) خبر مبتدأ، أو في موضع نصب على الاشتغال. أي: ليذوقوا (هذا فليذوقوه حميم) خبر مبتدأ. أي: هو حميم. أو مبتدأ محذوف الخبر أي منه حميم، ومنه غساق. كما قال الشاعر:

حَتَّىٰ إِذَا مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ فِي غَلَسٍ      وَغَوِذَرَ السَّبْقُلُ مَلُوبِيٍّ وَمَحْصُودُ

أي: منه ملوي، ومنه محصود. وهذه الأعراب مقولة منقولة، وقيل (هذا) مبتدأ (ولليذوقوه) الخبر وهذا على مذهب الأخفش في إجازته: زيد فاضربه مستدلاً بقول الشاعر:

وقائلة خَوْلَانٌ فَانكحُ فَتَاتَهُم

والغساق: عن ابن عباس: الزمهير، وعنه أيضاً وعن عطاء، وقتادة، وابن زيد: «ما يجري من صديد أهل النار»، وعن كعب: «عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذي حمة، من حية أو عقرب أو غيرها، يغمس فيها فيتساقط الجلد واللحم عن العظم». وعن السدي: «ما يسيل من دموعهم»، وعن ابن عمر: «القيح يسيل منهم فيسقونه»، وقرأ ابن أبي إسحق، وقتادة، وابن وثاب، وطلحة، وحمزة، والكسائي، وحفص، والفضل، وابن سعدان، وهارون، عن أبي عمرو بتشديد السين فإن كان صفة فيكون مما حذف موصوفها. وإن كان اسماً ففعال قليل في الأسماء جاء منه الكلاء والحيان والفئاد والعقار والخطار. وقرأ باقي السبعة بتخفيف السين. وقرأ الجمهور وآخر على الأفراد، فقليل: مبتدأ خبره. محذوف. تقديره: ولهم عذاب آخر. وقيل: خبره في الجملة لأن قوله (أزواج) مبتدأ (ومن شكله) خبره والجملة خبر (آخر) وقيل: خبره (أزواج) (ومن شكله) في موضع الصفة. وجاز أن يخبر بالجمع عن الواحد من حيث هو درجات ورتب من العذاب، أو سمي كل جزء من ذلك الآخر باسم الكل. وقال الزمخشري: «(وآخر) أي: وعذاب آخر، أو مذوق آخر. (وأزواج) صفة (آخر) لأنه يجوز أن يكون ضرباً، أو صفة للثلاثة وهي (حميم وغساق وآخر من شكله)». انتهى. وهو إعراب أخذه من الفراء. وقرأ الحسن، ومجاهد، والجحدري، وابن جبير، وعيسى، وأبو عمرو (وأخر) على الجمع، وهو مبتدأ. (ومن شكله) في موضع الصفة (وأزواج) خبره. أي: مذوقاً آخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدة والفظاعة (أزواج) أجناس، وقرأ مجاهد (من شكله) بكسر الشين. والجمهور بفتحها، وهما لغتان بمعنى المثل والضرب. وأما إذا كان بمعنى الفتح فبكسر الشين لا غير. وعن ابن مسعود «(وآخر من شكله) هو الزمهير»<sup>(١)</sup>. والظاهر: أن قوله (هذا فوج مقتحم معكم) من قول رؤسائهم بعضهم لبعض. والفوج: الجمع الكثير (مقتحم معكم) أي: النار. وهم الأتباع ثم دعوا عليهم بقولهم (لأمر حبابهم) لأن الرئيس إذا رأى الخسيس قد قرن معه في العذاب ساءه ذلك حيث وقع التساوي في العذاب ولم يكن هو السالم من العذاب. واتباعه في العذاب (ومرجباً) معناه اثت رجباً وسعة لا ضيقاً. وهو منصوب بفعل يجب إضماره، ولأن علوهم بيان للمدعو عليهم. وقيل (هذا فوج) من كلام الملائكة خزنة النار، وأن الدعاء على الفوج. والتعليل بقوله (إنهم صالوا النار) من كلامهم، وقيل (هذا فوج مقتحم معكم) من كلام الملائكة، والدعاء على الفوج والإخبار بأنهم صالوا النار من

(١) شدة البرد، والزمهير هو الذي أعده الله تعالى عذاباً للكفار في الدار الآخرة.

كلام الرؤساء المتبوعين . (قالوا) أي : الفوج (لا مرحباً بكم) رد على الرؤساء ما دعوا به عليهم . ثم ذكروا أن ما وقعوا فيه من العذاب وصلّى النار إنما هو بما ألقيتهم إلينا وزينتموه من الكفر فكأنكم قدمتم لنا العذاب ، أو الصلي . وإذا كان (لا مرحباً بهم) من كلام الخزنة فلم يجيء التركيب قالوا بل هؤلاء لا مرحباً بهم بل جاء بخطاب الأتباع للرؤساء ، لتكون المواجهة لمن كانوا لا يقدرّون على مواجهتهم في الدنيا بقبیح أشقى لصدورهم ، حيث تسبوا في كفرهم وأنكى للرؤساء (فبئس القرار) أي : النار وهذه المرادة . والدعاء كقوله : ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ [الأعراف : ٣٨] ولم يكنف الأتباع برد الدعاء على رؤسائهم ولا بمواجهتهم بقوله (أنتم قدمتموه لنا) حتى سألوها من الله أن يزيد رؤساءهم (ضعفاً من النار) والمعنى : من جعلنا على عمل السوء حتى صار جزءنا النار فزده عذاباً ضعفاً كما جاء في قول الأتباع (ربنا آتهم) أي : بمعاداتهم (ضعفين من العذاب) (ربنا هؤلاء أصلونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار) ولما كان الرؤساء ضلالاً في أنفسهم ، وأصلوا أتباعهم . ناسب أن يدعو عليهم بأن يزيدهم ضعفاً كما جاء : «فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» . فعلى هذا الضمير في قوله (قالوا) للأتباع (ومن قدّم) هم الرؤساء . وقال ابن السائب (قالوا ربنا) إلى آخره قول جميع أهل النار . وقال الضحّاك (من قدم) هو إبليس وقابيل . وقال ابن مسعود : الضعف : حيات وعقارب . (وقالوا) أي : أشرف الكفار (مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار) أي : الأردال الذين لا خير فيهم وليسوا على ديننا كما قال : ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ [هود : ٢٧] وروي أن القائلين من كفار عصر الرسول - ﷺ - هم أبو جهل ، وأمّية بن خلف ، وأصحاب القلب ، والذين لم يروهم : عمار ، وصهيب ، وسلمان . ومن جرى مجراهم<sup>(١)</sup> . قاله مجاهد وغيره . قيل : يسألون أين عمار؟ أين صهيب؟ أين فلان؟ يعدون ضعفاء المسلمين فيقال لهم أولئك في الفردوس . وقرأ النحويان وحزة (اتخذناهم) وصلا ، فقال أبو حاتم والزخشري<sup>(٢)</sup> وابن عطية : صفة لـ (رجال) ، قال الزخشري<sup>(٣)</sup> : «مثل قوله (كنا نعدّهم من الأشرار) وقال ابن الأنباري : «حال . أي : وقد اتخذناهم» . وقرأ أبو جعفر ، والأعرج ، والحسن ، وقتادة ، وباقي السبعة بهمزة الاستفهام لتقرير أنفسهم على هذا على جهة التوبيخ لها ، والأسف . أي : اتخذناهم سخرياً ولم يكونوا كذلك . وقرأ عبد الله وأصحابه ومجاهد ، والضحاك ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، ونافع ، وحزة ، والكسائي (سُخْرِيّاً) بضم السين . ومعناه من السخرة والاستخدام . وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وعيسى ، وابن محيصن ، وباقي السبعة بكسر السين ومعناها المشهور من السخر ، وهو الهزء . قال الشاعر :

إِنِّي أَتَانِي لِسَانَ لَا أُسْرِبُهَا مِنْ عُلُوِّ لَا كَذِبٌ فِيهَا وَلَا سُخْرٌ<sup>(٤)</sup>

وقيل : بكسر السين من التسخير (أم) إن كان (اتخذناهم) استفهاماً إما مصرحاً بهمزته كقراءة من قرأ كذلك ، أو مؤولاً بالاستفهام وحذفت الهمزة للدلالة . فالظاهر : أنها متصلة لتقدم الهمزة . والمعنى : أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخر منهم أم ازدراؤهم وتحقيرهم؟ وإن أبصارنا كانت تعلقو عنهم وتقتحم . ويكون استفهاماً على معنى الإنكار على أنفسهم للاستسخر والزرع جميعاً . وقال الحسن : «كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً ، وزاغت عنهم أبصارهم ، محقرة لهم . وإن (اتخذناهم) ليس استفهاماً ف (أم) منقطعة ويجوز أن تكون منقطعة أيضاً مع تقدم الاستفهام ، يكون كقولك : أزيد عندك أم عندك عمرو . واستفهمت عن زيد ثم أضربت عن ذلك واستفهمت عن عمرو فالتقدير : بل أزاغت عنهم الأبصار . ويجوز

(١) انظر الوسيط ٥ خ وابن كثير ٤/٤٢ .

(٢) انظر الكشاف ٤/١٠٣ .

(٣) انظر الكشاف ٤/١٠٣ .

(٤) البيت لأعشى باهلة عامر بن الحارث انظر الأصمعيات (٨٨) نوادر أبي زيد (٢٨٨) الخزانة (١/١٩١) شرح المفصل (٤/١٥) الكامل لابن عبيش (٤/٩٠) المذكر والمؤنث (١/٣٩١) .

أن يكون قولهم (أم زاعت عنهم الأبصار) له تعلق بقوله (ما لنا لا نرى رجالاً) لأن الاستفهام أولاً دل على انتفاء رؤيتهم إياهم (وذلك دليل على أنهم ليسوا معه) ثم جوزوا أن يكونوا معه ولكن أبصارهم لم ترهم . (إن ذلك) أي : التفاوض الذي حكيناه عنهم (لحق) أي : ثابت واقع لا بد أن يجري بينهم . وقرأ الجمهور (تخاصم) بالرفع مضافاً إلى أهل . قال ابن عطية : «بدل من لحن» ، وقال الزمخشري (١) : «بين ما هو فقال (تخاصم) متوناً (أهل) رُفعاً بالمصدر المنون ولا يميز ذلك الفراء . ويميزه سيوبه والبصريون . وقرأ ابن أبي عبله (تخاصم أهل) بنصب الميم وجر أهل . قال الزمخشري (٢) : «على أنه صفة لذلك ، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس ، وفي كتاب اللوامح» . ولو نصب (تخاصم أهل النار) لجاز على البدل من (ذلك) وقرأ ابن السميعة (تخاصم) فعلاً ماضياً (أهل) فاعلاً . وسمى تعالى تلك المفاوضة التي جرت بين رؤساء الكفار وأتباعهم تخاصماً ، لأن قولهم (لأمر حياهم) وقول الأتباع (بل أنتم لا مرحبا بكم) هو من باب الخصومة . فسمي التفاوض كله تخاصماً ، لاستعماله عليه . (قل) يا محمد (إنما أنا منذر) أي : منذر المشركين بالعذاب ، وأن لا إله إلا الله ، لا ند له ولا شريك ، وهو (الواحد القهار) لكل شيء ، وأنه مالك العالم علوه وسفله (العزیز) الذي لا يغالب (العفار) للذنوب من آمن به واتبع لدينه .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا أَيْدِي مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتُمْ مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فِعِزَّنَاكَ لِأَعْيُنِنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدِ حِينٍ ﴿٨٨﴾

الضمير في قوله (قل هو نبأ) يعود على ما أخبر به - ﷺ - من كونه رسولاً ، منذراً ، داعياً إلى الله ، وأنه تعالى هو المنفرد بالالوهية ، المتصف بتلك الأوصاف من الوجدانية ، والقهر ، وملك العالم ، وعزته ، وغفرانه . وهو خير عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة . وقال ابن عباس : «النبأ العظيم : القرآن» (٣) . وقال الحسن : «يوم القيامة» ، وقيل : قصص آدم والأبناء به من غير سماع من أحد . وقال صاحب التحرير : «سياق الآية وظاهرها أنه يريد بقوله (قل هو نبأ عظيم) ما قصه الله تعالى من مناظرة أهل النار ومقابلة الأتباع مع السادات ، لأنه من أحوال البعث ، وقريش كانت تنكر البعث ،

(١) انظر الكشاف ١٠٣/٤ .

(٢) انظر الكشاف ١٠٣/٤ .

(٣) انظر الوسيط ٦ خ .

والحساب، والعقاب، وهم عن ذلك معرضون. وقوله (ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون) احتجاج على قريش بأن ما جاء به من عند الله لا من قبل نفسه، فإن من في الأرض ماله علم بمن في السماء إلا بإعلام الله تعالى، وعلم المغيبات لا يوصل إليه إلا بإعلام الله تعالى. وعلمه بأحوال أهل النار وابتداء خلق آدم لم يكن عنه علم بذلك لإخباره بذلك هو بإعلام الله. والاستدلال بقصة آدم، لأنه أول البشر خلقاً. وبينه وبين الرسول - عليه السلام - أزمان متقادمة وقرون سالفة. انتهى. وفي آخره بعض اختصار ثم احتج بصحة نبوته بأن ما ينبيء به عن الملا الأعلى واختصاصهم أمر لم يكن له به من علم قط ثم علمه من غير الطريق الذي يسلكه المتعلمون، بل ذلك مستفاد من الوحي. (والملا) متعلق بـ (علم) و(إذ) منصوب به. وقال الزمخشري: بمحذوف لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملا الأعلى وقت اختصاصهم. و(إذ) قال بدل من (إذ يختصمون) على الملا الأعلى وهم الملائكة. وأبعد من قال: إنهم قريش. واختصاص الملائكة. في أمر آدم وذريته في جعلهم في الأرض وقالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة: ٣٠] قال ابن عباس: وقال الحسن: «إن الله خلق خلقاً كنا أكرم منه وأعلم». وقيل: في الكفارات، وغفر الذنوب فإن العبد إذا عمل حسنة اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما يشاء. وفي الحديث: قال له ربه في نومه - عليه السلام - فيم يختصمون؟ فقلت: لا أدري، فقال في الكفارات وفي إسباغ الوضوء في السررات ونقل الخطأ إلى الجماعات. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «كانت مقابلة الله سبحانه بواسطة ملك، وكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط فيصح أن التقاول بين الملائكة وآدم وإبليس وهم الملا الأعلى، والمراد بالاختصاص: التقاول». وقيل: (الملا الأعلى) الملائكة: و(إذ يختصمون)<sup>(٢)</sup> الضمير فيه للعرب الكافرين، فبعضهم يقول: هي بنات الله. وبعضهم آلهة تعبد، وغير ذلك من أقوالهم. (إن يوحى إلي) أي: (إلا إنما أنا نذير) أي: للإنذار حذف اللام ووصل الفعل والمفعول الذي لم يسم فاعله يجوز أن يكون ضميراً يدل عليه المعنى. أي: إن يوحى إلي هو. أي: ما يوحى إلا الإنذار، وأقيم إلى مقامه. ويجوز أن يكون (إنما) هو المفعول الذي لم يسم فاعله. أي: ما يوحى إلى إلا الإنذار. وقرأ أبو جعفر (إلا إنما) بكسر همزة (إنما) على الحكاية. أي: ما يوحى إلى إلا هذه الجملة، كأن قيل له: أنت نذير مبين. فحكى هو المعنى. وهذا كما يقول الإنسان. أنا عالم فيقال له قلت إنك عالم فيحكى المعنى. وقال الزمخشري: «وقرىء (إنما) بالكسر على الحكاية. أي: إلا هذا القول، وهو أن أقول لكم (إنما أنا نذير مبين) فلا أدعي شيئاً آخر». انتهى. في تحريجه تعارض لأنه قال: أي: إلا هذا القول فظاهره الجملة التي هي (إنما أنا نذير مبين) ثم قال: وهو أن أقول لكم إنني نذير فالمقام مقام الفاعل هو؛ أن أقول لكم. وأن وما بعده في موضع نصب. وعلى قوله إلا هذا القول يكون في موضع رفع فيتعارضاً. وتقدم أن (إذ) قال بدل من (إذ يختصمون) هذا إذا كانت الخصومة في شأن من يستخلف في الأرض وعلى غيره من الأقوال يكون منصوباً بـ (اذكر). ولما كانت قريش خالفوا الرسول - عليه السلام - بسبب الحسد والكبر ذكر حال إبليس حيث خالف أمر الله بسبب الحسد والكبر، وما آل إليه من اللعنة والطرود من رحمة الله، ليزدجر عن ذلك من فيه شيء منها، وقال الزمخشري: «(فإن قلت: ) كيف صح أن يقول لهم (إني خالق بشر) وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ (قلت: ) وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالقت خلقاً من صفة كيت وكيت، ولكنه حين حكاها اقتصر على الاسم». انتهى. والبشر: هو آدم - عليه السلام - وذكر هنا أنه خلقه من طين وفي آل عمران ﴿خلقته من تراب﴾ [آل عمران: ٥٩] وفي الحجر ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ وفي الأنبياء ﴿من عَجَل﴾ [الأنبياء: ٣٧] ولا منافاة في تلك المادة البعيدة. وهي التراب، ثم ما يليه، وهو الطين. ثم ما يليه، وهو الحمأ المسنون. ثم المادة تلي الحمأ، وهو الصلصال. وأما (من عَجَل)

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل ٣١/١ والسيوطي في الدر ٣٢٠/٥ وعزاه للطبراني في السنة والشيرازي في الألقاب. وابن مردويه وأبو بكر في الزيادات كما في الإصابة ١٦٦/٤.

(٢) انظر الوسيط ٦ خ.

فمضى تفسيره (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) تقدم الكلام على هذا في الحجر وهنا (استكبر وكان من الكافرين) وفي البقرة ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ [البقرة: ٣٤] وفي الأعراف ﴿لم يكن من الساجدين﴾ [الأعراف: ١١] وفي الحجر ﴿أبى أن يكون من الساجدين﴾ [الحجر: ٣١] وفي الإسراء ﴿قال أسجد لمن خلقت طيناً﴾ [الإسراء: ٦١] وفي الكهف ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ [الكهف: ٥٠] والاستثناء في جميع هذه الآيات يدل على أنه لم يسجد فتارة أكد بالنفي المحض وتارة ذكر إيبته عن السجود وهي الأنفة من ذلك، وتارة نص على أن ذلك الامتناع كان سببه الاستكبار. والظاهر: أن قوله (وكان من الكافرين) أريد به كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافر. أو عطف على (استكبر) فقوي ذلك، لأن الاستكبار عن السجود إنما حصل له وقت الأمر. ويحتمل أن يكون إخباراً منه بسبق كفره في الأزمنة الماضية في علم الله. (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد) وفي الأعراف (ما منعك أن لا تسجد) فدل أن (تسجد) هنا على أن (لا) في (أن لا تسجد) زائدة. والمعنى أيضاً يدل على ذلك لأنه لا يستفهم إلا عن المانع من السجود. وهو استفهام تقرير وتوبيخ (وما) في (لما خلقت) استدلال بها من يميز إطلاق (ما) على آحاد من يعقل. وأول بأن (ما) مصدرية، والمصدر يراد به المخلوق لا حقيقة المصدر، وقرأ الجحدري (لماً) بفتح اللام وتشديد الميم (خلقت بيدي) على الأفراد. والجمهور على التثنية. وقرئ (بيدي) كقراءة (بمصرخي) وقال تعالى (بما عملت أيدينا) بالجمع. وكلها عبارة عن القدرة، والقوة. وعبر باليد إذ كان عند البشر معتاداً أن البطش والقوة باليد. وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن اليد صفة ذات. قال ابن عطية: «وهو قول مرغوب عنه»، وقرأ الجمهور (أستكبرت) بهمزة الاستفهام (وأم) متصلة عادلته الهمة. قال ابن عطية: «وذهب كثير من النحويين إلى أن أم لا تكون معادلة للألف مع اختلاف الفعلين، وإنما تكون معادلة إذا دخلتا على فعل واحد كقولك: أزيد قام أم عمرو. وقولك: أقام زيد أم عمرو فإذا اختلف الفعلان كهذه الآية فليست معادلة. ومعنى الآية: أحدث لك الاستكبار الآن أم كنت قديماً ممن لا يليق أن تكلف مثل هذا لعلو مكانك وهذا على جهة التوبيخ». انتهى. وهذا الذي ذكره عن كثير من النحويين مذهب غير صحيح. قال سيويه: «وتقول أضربت زيداً أم قتلته فالبدء هنا بالفعل أحسن، لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان ولا تسأل عن موضع أحدهما كأنك قلت أي ذلك كان» انتهى. فعادل بـ (أم) الألف مع اختلاف الفعلين (من العالين) ممن علوت وفقت فأجاب بأنه من العالين، حيث قال (أنا خير منه) وقيل: استكبرت الآن أو لم تزل مذ كنت من المستكبرين. ومعنى الهمة التقرير». انتهى. وقرأت فرقة منهم ابن كثير وغيره (أستكبرت) بصله الألف. وهي قراءة أهل مكة. وليست في مشهور ابن كثير فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام حذف لدلالة أم عليها كقوله:

بَسَعَ رَمِيْنُ الْجَمْرِ أَمْ بِشْمَانِ

واحتمل أن يكون إخباراً خاطبه بذلك على سبيل التقرير. (وأم) تكون منقطعة. والمعنى: بل أنت من العالين عند نفسك استخفافاً به (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) تقدم الكلام على ذلك في الأعراف. (قال فأخرج منها) إلى قوله (إلى يوم الوقت المعلوم) تقدم الكلام على مثل ذلك في الحجر إلا أن هنا (لعتني) وهناك ﴿اللجنة﴾ [الحجر: ٣٥] أعم. ألا ترى إلى قوله: ﴿وأولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ [البقرة: ١٥٩] وأما بالإضافة فالعموم في اللعنة أعم واللعنات إنما تحصل من جهة أن من عليه لعنة الله كانت عليه لعنة كل لاعن، هذا من جهة المعنى. وأما باللفظ فيقتضي التخصيص. (قال فبعزتك لأغوينهم) أقسم إبليس هنا بعزة الله. وقال في الأعراف (فبما أغويتني لأقعدن) وفي الحجر (رب بما أغويتني لأزينن) وتقدم الكلام عليهما في موضعها وأن من المفسرين من قال: إن الباء في (بما أغويتني) وفي (فبما أغويتني) ليست بباء القسم. فإن كانت بباء القسم فيكون ذلك في موطنين. فهنا (لأغوينهم) وفي الأعراف (لأقعدن) وفي الحجر (لأزينن) وقرأ الجمهور (فالحقُّ والحقُّ) بنصبها. أما الأول فقسم به حذف منه الحرف كقوله: أمانة الله لأؤومن. والمقسم



عليه (لأملأن) (والحق أقول) اعتراض بين القسم وجوابه. قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «ومعناه: ولا أقول إلا الحق» انتهى. لأن عنده تقدم المفعول يفيد الحصر. (والحق) المقسم به إما اسمه تعالى الذي في قوله: ﴿إن الله هو الحق المبين﴾ [النور: ٢٥] أو الذي هو نقيض الباطل. وقيل (فالحق) منصوب على الإغراء. أي: فالزموا الحق (لأملأن) جواب قسم محذوف، وقال الفراء: «هو على معنى قولك: حقاً لا شك. ووجود الألف واللام وطرحهما سواء. أي: لأملأن جهنم حقاً» انتهى. وهذا المصدر الجائني تركيد المضمون الجملة لا يجوز تقديمه عند جمهور النحاة. وذلك مخصوص بالجملة التي جزأها معرفتان جامدتان جهوداً محضاً. وقال صاحب البسيط: «وقد يجوز أن يكون الخبر نكرة». قال: «والمبتدأ يكون ضميراً نحو: هو زيد معروف، وهو الحق بيننا، وأنا الأمير مفتخراً، ويكون ظاهراً، كقولك: زيد أبوك عطوفاً وأحوك زيد معروفاً». انتهى. وقالت العرب: زيد قائم غير ذي شك، فجاءت الحال بعد جملة والخبر نكرة. وهي حال مؤكدة لمضمون الجملة. وكان الفراء لم يشترط هذا الذي ذكره أصحابنا من كون المبتدأ والخبر معروفين جامدين، لأنه لا فرق بين تأكيد مضمون الجملة الابتدائية وبين تأكيد الجملة الفعلية. وقيل: التقدير: فالحق الحق. أي: افعله. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والأعمش بالرفع فيهما. فالأول مبتدأ خبره محذوف. قيل: تقديره: فالحق أنا. وقيل: فالحق مني. وقيل: تقديره: فالحق قسمي. وحذف كما حذف في: لعمرك لأقومن. وفي:

### يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا

أي: لعمرك قسمي. ويمين الله قسمي. وهذه الجملة هي جملة القسم وجوابه (لأملأن) وأما (والحق أقول) فمبتدأ أيضاً خبره الجملة، وحذف العائد كقراءة ابن عباس ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ [النساء: ٩٥]، وقال ابن عطية: «أما الأول فرفع على الابتداء وخبره في قوله (لأملأن) لأن المعنى أن أملأ». انتهى. وهذا ليس بشيء، لأن (لأملأن) جواب قسم ويجب أن يكون جملة فلا يتقدم بمفرد. وأيضاً ليس مصدرًا مقدرًا بحرف مصدرية والفعل حتى ينحل إليهما، ولكنه لما صح له إسناد ما قدر إلى المبتدأ حكم أنه خبر عنه. وقرأ الحسن، وعيسى، وعبد الرحمن بن أبي حماد، عن أبي بكر بجرهم، ويخرج على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة. تقديره: فوالحق (والحق) معطوف عليه، كما تقول: والله والله لأقومن (وأقول) اعتراض بين القسم وجوابه، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «(والحق أقول) أي: ولا أقول إلا الحق. على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه التوكيد والتسديد. وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع. وهو وجه دقيق حسن». انتهى. وملخصه: أنه أعمل القول في لفظ المقسم به على سبيل الحكاية نصباً أو رفعاً أو جرّاً. وقرأ مجاهد، والأعمش بخلاف عنها، وأبان بن تغلب، وطلحة في رواية، وحمزة، وعاصم عن المفضل وخلف والعبسي برفع (فالحق) ونصب (والحق) وتقدم إعرابهما. والظاهر: أن قوله (أجمعين) تأكيد للمحدث عنه. والمعطوف عليه وهو ضمير (إبليس) ومن عطف عليه. أي: منك ومن تابعيك أجمعين، وأجاز الزمخشري أن يكون (أجمعين) تأكيداً للضمير الذي في (منهم) مقدر: لأملأن جهنم من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم». انتهى. والضمير في (عليه) عائد على القرآن. قاله ابن عباس. وقيل: عائد على الوحي. وقيل: على الدعاء إلى الله. (وما أنا من المتكلفين) أي: المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله، فأنحل النبوة والقول على الله. (إن هو أي القرآن (إلا ذكر) أي من الله (للعالمين) الثقيلين الإنس والجن. (ولتعلمن نبأه) أي: عاقبة خبره لمن آمن به ومن أعرض عنه (بعد حين) قال ابن

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٠٨.

(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٠٨.

عباس، وعكرمة، وابن زيد: «يعني يوم القيامة». وقال قتادة، والفراء، والزجاج: «بعد الموت»<sup>(١)</sup> وكان الحسن يقول: «يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين»<sup>(٢)</sup>. وقيل: المعنى: ليظهروا لكم حقيقة ما أقول بعد حين. أي: في المستأنف إذا أخذتكم سيوف المسلمين. وذلك يوم بدر وأشار إلى ذلك السدي.

---

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ٩٧٢/٣ والقرطبي ١٢١/٢٣ والبغوي ٧٠/٤ وابن كثير ٤٤/٤ والدر المنثور ٣٢٢/٥ والوسيط ٧ خ.  
(٢) انظر ابن كثير ٤٤/٤.

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ  
ترتيبها ٣٩  
اياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ  
الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ  
زُلْفَىٰ إِنْ لَمْ يَحْكَمْ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنْ لَمْ يَهْدِ مِنْهُ لَهَادٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ ﴿٣﴾  
لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾  
خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ الْعِلْمَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ  
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ  
ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِينَ أَرْوِجُ بِخَلْقِكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ  
خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُصَرِّفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ  
اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ  
مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا  
رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ  
عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٩﴾ أَمَنْ هُوَ فَتَنَّتْ ءَانَاءَ الْعِيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا  
يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الْأَلْبَابِ  
﴿١٠﴾ قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى  
الصَّٰلِحُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٢﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ  
﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٥﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ

قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُعِينُونَ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَكُوا مِنْهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرِبَتْهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَنْقِي بَوَاجِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاذْنَبَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاذْأَقَهُمُ اللَّهُ الْحُزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَنَا عَرَبِيٌّ غَيْرٌ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ ﴿٣١﴾

التكوير: (١) اللف واللي. يقال: كار العمامة على رأسه وكورها. خوله النعمة: أي أعطاه ابتداء من غير مجازاة ولا يقال في الجراء خول. قال زهير:

هَذَاكَ إِنْ يُسْتَحْوَلُوا الْمَالَ يُحْوَلُوا<sup>(١)</sup>

ويروى: يستحيلوا المال يخيلوا، وقال أبو النجم:

(١) انظر (٣٩٥٣/٥) لسان العرب.

(٢) هذا صدر بيت لزهير بن أبي سلمى انظر ديوانه (٨٦).

## أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يَبْخُلِ كَوْمَ الذُّرَى مِنْ خَوْلِ الْمُخَوْلِ (١)

هاج الزرع: ثار من منابته. وقيل: يبس، الحطام: الفتات بعد يبسه، الشعيرية: تقبض الجلد. يقال: اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وهو مثل في شدة الخوف. الشكاسة: سوء الخلق وعسره.

﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، لو أراد الله أن يتخذ ولدأً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار، خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار، خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصرفون، إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون، إنه عليم بذات الصدور﴾ هذه السورة مكية. وعن ابن عباس: «إلا-الله نزل أحسن الحديث» (قل يا عبادي الذي أسرفوا)، وعن مقاتل: إلا (يا عبادي الذين أسرفوا) وقوله (يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة)، وعن بعض السلف إلا (يا عبادي الذين أسرفوا) بقوله (يشعرون) ثلاث آيات. وعن بعضهم إلا سبع آيات. من قوله (يا عبادي الذين أسرفوا) ومناسبتها لآخر ما قلبها: أنه ختم السورة المتقدمة بقوله: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ [ص: ٨٧] وبدأ هنا (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)، وقال الفراء والزجاج «(تنزيل) مبتدأ. (ومن الله) الخبر. أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هذا تنزيل. (ومن الله) متعلق بـ (تنزيل) وأقول: إنه خبر والمبتدأ (هو) ليعود على قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) كأنه قيل: وهذا الذكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب. وقال الزجاجي (٢): «أو غير صلة يعني (من الله) كقولك هذا الكتاب من فلان إلى فلان. وهو على هذا خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا تنزيل الكتاب هذا من الله، أو حال من (تنزيل) عمل فيها معنى الإشارة». انتهى. ولا يجوز أن يكون حالاً عمل فيها معنى الإشارة، لأن معاني الأفعال لا تعمل إذا كان ما هي فيه محذوفاً، ولذلك ردوا على أبي العباس قوله في بيت الفرزدق:

وإذ ما مثلهم بشرُ

أن مثلهم منصوب بالخبر المحذوف وهو مقدر. أي: وإن ما في الوجود في حال مماثلتهم بشر. (والكتاب) يظهر أنه القرآن. وكرر في قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب) على جهة التفضيم والتعظيم. وكونه في جملة غير السابقة ملحوظاً فيه إسناده إلى ضمير العظمة وتشريف من أنزل إليه بالخطاب وتخصيصه بالحق. وقرأ ابن أبي عبله، وزيد بن علي، وعيسى (تنزيل) بالنصب. أي: اقرأ والزمر. وقال ابن عطية: «قال المفسرون في (تنزيل الكتاب) هو القرآن. ويظهر لي أنه اسم عام لجميع ما تنزل من عند الله من الكتب، وكأنه أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزّلها من الله. وجعل هذا الإخبار مقدمة وتوطئة لقوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب) و(العزيز) في قدرته (الحكيم) في ابتداعه والكتاب الثاني: هو القرآن لا يحتمل

(١) من الرجز انظر الديوان (١١٢) مجاز القرآن (١٨٨/٢) والطبري (١٢٦/٢) والقرطبي (٢٣٧/١٥) معاهد التنصيص (٧/١) والخزانة

(٤٠١/١) الكشاف (١١٥/٤).

(٢) انظر الكشاف ١١٠/٤.

غير ذلك». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(فإن قلت:) ما المراد بالكتاب؟ (قلت:) الظاهر على الوجه الأول: أنه القرآن. وعلى الثاني: أنه السورة». انتهى. (وبالحق) في موضع الحال. أي: ملتبساً بالحق، وهو الصدق الثابت فيما أودعناه من إثبات التوحيد، والنبوة، والمعاد، والتكاليف. فهذا كله حق وصدق يجب اعتقاده والعمل به. أو يكون (بالحق) بالدليل على أنه من عند الله. وهو عجز الفصحاء عن معارضته. وقال ابن عطية: «أي: متضمناً الحق فيه وفي أحكامه، وفي أخباره. أو بمعنى الاستحقاق وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله». انتهى ملخصاً. ولما امتنَّ تعالى على رسوله بإنزال الكتاب عليه بالحق، وكان الحق إخلاص العبادة لله أمره تعالى بعبادته، فقال (فاعبد الله) وكان هذا الأمر ناشئاً عن إنزال الكتاب. فالفاء فيه للربط كما تقول أحسن إليك زيد فاشكره مخلصاً. أي: محضاً له الدين من الشرك والرياء وسائر ما يفسده. وقرأ الجمهور (الدين) بالنصب. وقرأ ابن أبي عملة بالرفع فاعلاً بـ (مخلصاً) والراجع لذي الحال محذوف على رأي البصريين. أي: الدين منك، أو يكون أُل عوضاً من الضمير. أي: دينك. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «وحق من رفعه أن يقرأ (مخلصاً) بفتح اللام كقوله تعالى: ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ [النساء: ١٤٦] حتى يطابق قوله (ألا لله الدين الخالص) والخالص والمخلص واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي، كقولهم: شعر شاعر. وأما من جعل (مخلصاً) حالاً. من العابد. (وله الدين) مبتدأ وخبر. فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك (الله الدين) أي: الله الدين الخالص». انتهى. وقد قدمنا تحريجه على أنه فاعل بـ (مخلصاً) وقد رنا ما يربط الحال بصاحبها. ومن ذهب إلى أن (له الدين) مستأنف مبتدأ وخبر. الفراء (ألا لله الدين الخالص) أي: من كل شائبة وكدر. فهو الذي يجب أن تخلص له الطاعة لاطلاعه على الغيوب والأسرار، والخلوص نعمته على عباده من غير استرجار منفعة منهم. قال الحسن «(الدين الخالص) الإسلام» وقال قتادة: «شهادة أن لا إله إلا الله». (والذين اتخذوا) مبتدأ والظاهر: أنهم المشركون. واحتمل أن يكون الخبر قال المحذوف المحكي به قوله (ما نعبدهم) أي والمشركون المتخذون من دون الله أولياء. قالوا: ما نعبد تلك الأولياء (إلا ليقربونا إلى الله زلفى) واحتمل أن يكون الخبر (إن الله يحكم بينهم) وذلك القول المحذوف في موضع الحال. أي: اتخذوهم قائلين ما نعبدهم وأجاز الزمخشري أن يكون الخبر (إن الله يحكم) وقالوا المحذوفة بدل من (اتخذوا) صلة (الذين) فلا يكون له موضع من الإعراب، وكأنه من بدل الاشتغال. وفي مصحف عبد الله (قالوا ما نعبدهم) وبه قرأ هو وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير وأجاز الزمخشري أن يكون (والذين اتخذوا) بمعنى المتخذين. وهم الملائكة، وعيسى واللات، والعزى، ونحوهم. والضمير في (اتخذوا) عائد على الموصول محذوف. تقديره: والذين اتخذهم المشركون أولياء. (وأولياء) مفعول ثان. وهذا الذي أجازة خلاف الظاهر. وهذه المقالة شائعة في العرب. فقال ذلك ناس منهم في الملائكة، وناس في الأصنام، والأوثان. قال مجاهد: «وقد قال ذلك قوم من اليهود في عزيز، وقوم من النصارى في المسيح»، وقرئ (ما نُعبدهم) بضم النون اتباعاً لحركة الباء (إن الله يحكم بينهم) اقتصر في الرد على مجرد التهديد. والظاهر: أن الضمير في (بينهم) عائد على المتخذين. والمتخذين والحكم بينهم هو بإدخال الملائكة، وعيسى - عليه السلام - الجنة، ويدخلهم النار مع الحجارة والخشب التي نحتوها وعبدها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حسب جهنم. واختلافهم أن من عبده كالملائكة وعيسى كانوا متبرئين منهم، لاعتين لهم، موحدين لله. وقيل: الضمير في (بينهم) عائد على المشركين والمؤمنين إذ كانوا يلومونهم على عبادة الأصنام، فيقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) والحكم إذ ذاك هو في يوم القيامة بين الفريقين. (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) كاذب في دعواه أن الله شريكاً (كفار) لأنعم الله حيث جعل مكان الشكر الكفر. والمعنى: لا يهدي من ختم عليه بالمواقاة على الكفر، فهو عام. والمعنى: على الخصوص فكم قد هدى من

(١) انظر الكشاف ٤/ ١١٠.

(٢) انظر الكشاف ٤/ ١١٠.

سبق منه الكذب والكفر. قال ابن عطية: «لا يهدي الكاذب الكافر في حال كذبه وكفره». وقال الزمخشري: «المراد بمنع الهداية: منع اللطف، تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من المهالكين». انتهى. وهو على طريق الاعتزال. وقرأ أنس بن مالك، والجحدري، والحسن، والأعرج، وابن يعمر (كذاب كفار)، وقرأ زيد بن علي (كذوب) و(كفور) ولما كان من كذبهم. دعوى بعضهم أن الملائكة بنات الله وعبدوها عقبه بقوله (لو أراد الله أن يتخذ ولدًا) تشریفاً له وتبنيًا، إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بالتوالد المعروف (لاصطفي) أي: اختار من مخلوقاته (ما يشاء) ولدًا على سبيل التبني، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك، لقوله: ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدًا﴾ [مريم: ٩٢] وهو عام في اتخاذ النسل، واتخاذ الاصطفاء. ويدل على أن اتخاذ هو التبني والاصطفاء قوله (مما يخلق) أي: من التي أنشأها واختراعها. ثم نزه تعالى نفسه تنزيهًا مطلقاً فقال (سبحانه) ثم وصف نفسه بالوحدانية والقهر لجميع العالم. وقال الزمخشري: «يعني لو أراد اتخاذ الولد لا تمتنع ولم يصح» لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضهم ويختصهم ويقرّبهم كما يختص الرجل ولده ويقرّبه. وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به، وعرّكم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاده، جهلاً منكم به وبحقيقة المخالفة للحقائق الأجسام والأعراض، كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما شاء من خلقه وهم الملائكة إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم، فجعلتموهم بنات، وكنتم كذابين، كفارين، مبالغين في الافتراء على الله، وملائكته». انتهى. والذي يدل عليه تركيب لوجوابها. أنه كان يترتب اصطفاء الولد مما يخلق على تقدير اتخاذه، لكنه لم يتخذه فلا يصطفيه. وأما ما ذكره الزمخشري من قوله: «يعني لو أراد إلى آخره» وقوله بعد: «كأنه قال لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما شاء من خلقه وهم الملائكة» فليس مفهوماً من قوله (لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفي مما يخلق ما يشاء) ولما نزه تعالى نفسه ووصف ذاته بالوحدة والقهر ذكر ما دل على ذلك من اختراع العالم العلوي والسفلي بالحق، وتكوين الليل والنهار، وتسخير النيران وجريها على نظام واحد، واتساق أمرهما على ما أراد إلى أجل مسمى - وهو يوم القيامة - حيث تحرب بنية هذا العالم، فيزول جريها أو إلى وقت مغيبها كل يوم وليلة، أو وقت قوايسها كل شهر. والتكوين: تطويل منها على الآخر، فكأن الآخر صار عليه جزء منه. قال ابن عباس: «يحمل الليل على النهار». وقال الضحاك: «يدخل الزيادة في أحدهما بالنقصان من الآخر» وقال أبو عبيدة: «يدخل هذا على هذا»<sup>(١)</sup>. وقال الزمخشري: «وفيه أوجه، منها: أن الليل والنهار خلفه» يذهب هذا ويغشى مكانه هذا. وإذا غشي مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف على اللابس اللباس. ومنها: أن كل واحد منها يغيب الآخر إذا طرأ عليه، فشبّه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه من مطامح الأبصار. ومنها: أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً، فشبّه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض. انتهى. (ألا هو العزيز الغفار) (العزيز) الذي لا يغالب (الغفار) لمن تاب. أو الحلیم الذي لا يعجل. سمي الحلیم غفراناً مجازاً. ولما ذكر ما دل على وحدانيته وقهره ذكر الإنسان وهو الذي كلف بأعباء التكليف، فذكر أنه أوجدنا من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام. وذلك أن حواء على ما روي خلقت من آدم، فقد صار خلقاً من نفس واحدة لوساطة حواء. وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء. فعلى هذا كان خلقاً من آدم بغير واسطة. وجاءت على هذا القول على وضعها (ثم) للمهلة في الزمان. وعلى القول الأول يظهر أن خلق حواء كان بعد خلقنا وليس كذلك ف (ثم) جاء لترتيب الأخبار، كأنه قيل: ثم كان من أمره قبل ذلك أن جعل منها زوجها فليس الترتيب في زمان الجعل. وقيل (ثم) معطوف على الصفة التي هي واحدة. أي: من نفس وحدت أي: انفردت. (ثم جعل) قال الزمخشري: (فإن قلت:) ما وجه قوله تعالى (ثم جعل منها زوجها) وما تعطيه من معنى التراخي؟ (قلت:) هما آيتان من

جملة الآيات التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته . تشعب هذا الفائق للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيره إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة . ولم تخلق أنثى غير حواء من رجل فكانت أدخلت في كونها آية وأجلب لعجب السامع عطفها بـ (ثم) على الآية الأولى للدلالة على مباينتها فضلاً ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود . انتهى . وأما (ثم جعل منها زوجها) فقد تقدّم الكلام على هذا الجعل في أول سورة النساء . ووصف الأنعام بالإنزال مجاز إما لأن قضايها توصف بالنزول من السماء، حيث كتب في اللوح كل كائن يكون . وإما لعيشها بالنبات، والنبات ناشيء عن المطر . والمطر نازل من السماء، فكأنه تعالى أنزلها، فيكون مثل قول الشاعر :

أَسْنَمَةُ الْآبَالِ فِي رَبَائِهِ<sup>(١)</sup>.

أي : في سحابه .

وقال آخر :

صَارَ الثَّرِيدُ فِي رُؤُوسِ الْعَيْدَانِ<sup>(٢)</sup>

وقيل : خلقها في الجنة ثم أنزلها . فعلى هذا يكون إنزال أصولها حقيقة . (والأنعام) الإبل، والبقر، والضأن، والمعز (ثانية أزواج) لأن كلاً منها ذكر وأنثى . والزواج . ما كان معه آخر من جنسه فإذا انفرد فهو فرد ووتر وقال تعالى : ﴿فخلق منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة : ٣٩] قال ابن زيد : «(خلقاً من بعد خلق) آخر من ظهر آدم وظهور الآباء» . وقال عكرمة، ومجاهد، والسدي : «رتباً خلقاً من بعد خلق على المضغة والعلقة وغير ذلك، وأخذ الزمخشري فقال : «حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف» . انتهى . وقرأ عيسى وطلحة (يُخَلِّقُكُمْ) بإدغام القاف في الكاف والظلمات الثلاث : (البطن، والرحم، والمشيمة) وقيل : الصلب، والرحم، والبطن . (ذلكم) إشارة إلى المتصف بتلك الأوصاف السابقة من خلق السموات وما بعد ذلك من الأفعال . (فأنى تصرفون) أي : كيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره . (إن تكفروا) قال ابن عباس : «خطاب للكفار الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم وعباده هم المؤمنون» ويؤيده قوله قبله (فأنى تصرفون) وهذا للكفار فجاء (إن تكفروا) خطاباً لهم (فإن الله غني عنكم) وعن عبادتكم إذ لا يرجع إليه تعالى منفعة بكم ولا بعبادتكم إذ هو الغني المطلق . قال ابن عطية : «ويحتمل أن يكون مخاطباً لجميع الناس، لأنه تعالى غني عن جميعهم وهم فقراء إليه» . انتهى . ولفظ (عباده) عام، فقيل : المراد الخصوص . وهم : الملائكة ومؤمنو الإنس والجن . والرضا بمعنى الإرادة فعلى هذا هي صفة ذات . وقيل : المراد العموم، كما دل عليه اللفظ . والرضا مغاير للإرادة عبر به عن الشكر والإثابة . أي : لا يشكره لهم ديناً ولا يشيهم به خيراً، فالرضا على هذا صفة فعل بمعنى القبول والإثابة . قال ابن عطية : «وتأمل الإرادة فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد، والرضا حقيقته إنما هو فيما قد وقع . واعتبر هذا في آيات القرآن تجده وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارهم على جهة التجوز هذا بدل هذا . وقال الزمخشري : ولقد تحمل بعض الغواة ليشبث الله ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر، فقال : هذا من العام الذي أريد به الخاص . وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قولهم : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء : ٦٥] يريد :

(١) من الرجز انظر شواهد الكشاف (١٦) ومثله (كأنما الوايل في نصابه) .

(٢) من الرجز وصدده :



المعصومين لقوله: ﴿عَيْتاً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] تعالى الله عما يقول الظالمون». انتهى. فسمي عبد الله بن عباس ترجمان القرآن وأعلام أهل السنة بعض الغواة وأطلق عليهم اسم الظالمين. وذلك من سفهه وجرأته كما قلت في قصيدي التي ذكرت فيها ما ينقد عليه:

وَوَسَّيْتُمْ أَعْلَامَ الْأَيْمَةِ ضَلَّةً وَلَا سِيِّمًا إِنْ أَوْلَجُوهُ الْمَصَافِيحَا<sup>(١)</sup>

(وإن تشكروا يرضه لكم)، قال ابن عباس: «يضاعف لكم». وكأنه يريد ثواب الشكر. وقيل: يقبله منكم. قال صاحب التحرير: قوة الكلام تدل على أن معنى (تشكروا) تؤمنوا حتى يصير بإزاء الكفر والله تعالى قد سمي الأعمال الصالحة والطاعات شكراً في قوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] انتهى. وتقدم الكلام على هذه الآية في سبأ. وقرأ النحويان وابن كثير (يرضه) بوصل ضمة الهاء بواو وابن عامر وحفص بضمه فقط. وأبو بكر بسكون الهاء، قال أبو حاتم: «وهو غلط لا يجوز». انتهى وليس بغلط، بل ذلك لغة لبني كلاب وبني عقيل. وقوله (ولا تزر) إلى (بذات الصدور) تقدم الكلام عليه.

﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمته منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار، أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب، قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب، قل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين، قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحمهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾.

الظاهر: أن (الإنسان) هنا جنس الكافر. وقيل: معين كعتبة بن ربيعة، ويدخل في الضر: جميع المكاره في جسم، أو أهل، أو مال (دعا ربه) استجار به وناداه ولم يؤمل في كشف الضر سواء (منيباً إليه) أي: راجعاً إليه وحده في إزالة ذلك. (ثم إذا خوله)<sup>(٢)</sup> أناله وأعطاه بعد كشف ذلك الضر عنه. وحقيقة (خوله) أن يكون من قولهم هو خائله: قال: إذا كان متعهداً حسن القيام عليه. أو من خال يخول إذا اختال وافتخر. وتقول العرب:

«إن الغني طويل الذيل مياس». (نسي ما كان يدعو) أي: ترك. والظاهر: أن (ما) بمعنى الذي. أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه. وقيل (ما) بمعنى من. أي: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويتهل في كشف ضره. وقيل: (ما) مصدرية. أي: نسي كونه يدعو. وقيل: تم الكلام عند قوله (نسي) أي: نسي ما كان فيه من الضر. و(ما) نافية، نفي أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً لله مقصوراً من قبل الضرر. وعلى الأقوال السابقة (من قبل) أي: من قبل تحويل النعمة، وهو زمان الضرر. (وجعل لله أنداداً) أي: أمثالاً يضاد بعضها بعضاً ويعارض. قال قتادة: «أي من الرجال يطيعونهم في المعصية»، وقال غيره: أو ثنائاً. وهذا من سخف عقولهم، حين مس الضر دعوا الله ولم يتجثوا في كشفه إلا إليه، وحين كشف ذلك وخول النعمة أشركوا به. فاللام لام العلة. وقيل: لام العاقبة. وقرأ الجمهور (ليُضِل) بضم الباء. أي: ما اكتفى بضلال نفسه حتى جعل غيره يضل. وقرأ ابن كثير وأبو عمر وعيسى بفتحها. ثم أتى بصيغة الأمر فقال (تمتع بكفرك

(١) وقد ذكرنا جزءاً منها في المقدمة فراجعها.

(٢) انظر الوسيط ص ٧.

قليلاً) أي: تلذذ واصنع ما شئت (قليلاً) أي: عمراً قليلاً. والخطاب للكافر جاعل الأنداد لله. (إنك من أصحاب النار) أي: من سكانها المخلدين فيها. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «وقوله (تمتع بكفرك) أي: من باب الخذلان والتخلية، كأنه قيل له: إذ قد آيئت قبل ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقت أن لا تؤمر به بعد ذلك. ويؤمر بتركه، مبالغة في خذلانه، وتخليته وشأنه، لأنه لا مبالغة في الخذلان أشد من أن يبعث على عكس ما أمروا به. ونظيره في المعنى ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم﴾ [آل عمران: ١٩٧]» انتهى. ولما شرح تعالى شيئاً من أحوال الظالمين الضالين المشركين أردفه بشرح أحوال المهتدين الموحدين فقال (أمن هو قانت)، وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والأعمش، وعيسى، وشيبة، والحسن في رواية (أمن) بتخفيف الميم. والظاهر: أن الهمزة لاستفهام التقرير، ومقابله محذوف لفهم المعنى. والتقدير: أهدأ القانت خير أم الكافر المخاطب بقوله (قل تمتع بكفرك) ويدل عليه قوله (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ومن حذف المقائل قول الشاعر:

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهَا سَمِيعٌ فَمَا أُذْرِي أُرْشِدُ طَلَابُهَا<sup>(٢)</sup>

تقديره أم غي. وقال الفراء: الهمزة للنداء، كأنه قيل: «يا من هو قانت»، ويكون قوله (قل) خطاباً له وهذا لقول أجنبي مما قبله وما بعده. وضعف هذا القول أبو علي الفارسي. ولا التفات لتضعيف الأخفش وأبي حاتم هذه القراءة. وقرأ باقي السبعة، والحسن، وقتادة، والأعرج، وأبو جعفر (أمن) بتشديد الميم. وهي (أم) أدغمت ميمها في ميم (من) فاحتملت (أم) أن تكون متصلة ومعاد لها محذوف قبلها تقديره. أهدأ الكافر خير أم من هو قانت. قال معناه: الأخفش. ويحتاج مثل هذا التقدير إلى سماع من العرب وهو أن يحذف المعادل الأول. واحتملت (أم) أن تكون منقطعة تتقدر بـ (بل) والهمزة) والتقدير: بل أم من هو قانت صفته كذا كمن ليس كذلك. وقال النحاس: «أم بمعنى بل ومن بمعنى الذي. والتقدير: بل الذي هو قانت أفضل ممن ذكر قبله». انتهى. ولا فضل لمن قبله حتى يجعل هذا أفضل بل يقدر الخبر من أصحاب الجنة يدل عليه مقابله (إنك من أصحاب النار) والقانت: المطيع. قاله ابن عباس. وتقدم الكلام في القنوت في البقرة. وقرأ الجمهور (ساجداً وقائماً) بالنصب على الحال. والضحاك بزفعها إما على النعت لـ (قانت) وإما على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين (يخدر الآخرة) أي: عذاب الآخرة (ويرجو رحمة ربه) أي: حصولها. وقيل: نعيم الجنة. وهذا المتصف بالقنوت إلى سائر الأوصاف. قال مقاتل: «عمار وصهيب وابن مسعود، وأبوذر». وقال ابن عمر: «عثمان». وقال ابن عباس في رواية الضحاك. «أبو بكر وعمر<sup>(٣)</sup>». وقال يحيى بن سلام: «(رسول الله - ﷺ -) والظاهر: أنه من اتصف بهذه الأوصاف من غير تعيين. وفي الآية دليل على فضل قيام الليل، وأنه أرجح من قيام النهار. ولما ذكر العمل ذكر العلم فقال (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فدل أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين فكما لا يستوي هذان، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. والمراد بالعلم هنا: ما أدى إلى معرفة الله ونجاة العبد من سخطه. وقرأ (يذكر) بإدغام تاء (يتذكر) في الذال (قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) وروي: «أنها نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة وعدهم تعالى فقال (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة<sup>(٤)</sup>)» والظاهر: تعلق (في هذه) بـ (أحسنوا) وإن المحسنين في الدنيا هم في الآخرة حسنة. أي: حسنة عظيمة، وهي الجنة. قاله مقاتل: والصفة محذوفة بدل عليها المعنى، لأن من أحسن في الدنيا لا يوعد أن يكون له في الآخرة مطلق حسنة. وقال السدي: «في

(١) انظر الكشاف ١١٦/٤.

(٢) من الطويل لأبي ذؤيب الهذلي تقدم وانظر ديوان الهذليين (٧١/١).

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ص ٣٨٨ والبغوي ٧٣/٤ والقرطبي ٢٣٩/١٥ والدر المنثور ٣٢٣/٥ والوسيط ٨ خ.

(٤) انظر البغوي ٧٠/٦ وزاد المسير ١٩٨/٧، ١٩٩ والوسيط ٩ خ.

هذه من تمام حسنة. أي: ولو تأخر لكان صفة أي الذين يحسنون لهم حسنة كائنة في الدنيا. فلما تقدم انتصب على الحال. والحسنة التي لهم في الدنيا. هي: العافية والظهور وولاية الله تعالى. ثم حض على الهجرة فقال (وأرض الله واسعة) كقوله: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: ٩٧] أي: لا عذر للمفرطين البتة حتى لو اعتلوا بأوطانهم وأنهم لا يتمكنون فيها من أعمال الطاعات، قيل لهم: إن بلاد الله كثيرة واسعة فتحولوا إلى الأماكن التي تمكنكم فيها الطاعات. وقال عطاء «(وأرض الله) المدينة للهجرة». قيل: فعلى هذا يكون (أحسنوا) هاجروا و(حسنة) راحة من الأعداء. وقال قوم: أرض الله هنا: الجنة. قال ابن عطية: «وهذا القول تحكم لا دليل عليه». انتهى. وقال أبو مسلم: «لا يمتنع ذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى، ثم بين أنه من اتقى له في الآخرة الحسنة، وهي الخلود في الجنة. ثم بين أن أرض الله واسعة لقوله: ﴿وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله: ﴿وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولما كانت رتبة الإحسان منتهى الرتب كما جاء. «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه»، وكان الصبر على ذلك من أشق الأشياء وخصوصاً من فارق وطنه وعشيرته، وصبر على بلاء الغربة. ذكر أن الصابرين يوفون أجورهم بغير حساب. أي: لا يحاسبون في الآخرة كما يحاسب غيرهم، أو يوفون ما لا يحصره حساب من الكثرة. (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) أمره تعالى أن يصدع الكفار بما أمر به من عبادة الله يخلصها من الشوائب (وأمرت) أي أمرت بما أمرت لأكون أول من أسلم. أي: انقاد لله تعالى. ويعني من أهل عصره، أو من قومه، لأنه أول من خالف عباد الأصنام، أو أول من دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، أو أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي قولاً وفعلاً لا كالمملوك الذين يأمرهم بما لا يفعلون، أو أن أفعل ما أستحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب. وقال الزمخشري: «فإن قلت: كيف عطف (أمرت) على (أمرت) وهما واحد؟ قلت: لیسا بواحد، لاختلاف جهتهما، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به لتحرره قصب السبق في الدين شيء. وإذا اختلف وجهها الشيء وصفاته ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين. ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل لا تزداد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه، كما عوض السين في أسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع. والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله «وأمرت أن أكون أول من أسلم». انتهى. ويحتمل في (أن أكون) في ثلاثة المواضع أصله، لأن أكون، فيكون قد حذفت اللام والمأمور به محذوف وهو المصرح به هنا (إني أمرت أن أعبد الله) (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) تقدم الكلام على هذه الجملة مقول القول في سورة يونس. ولما أمره أولاً أن يخبر بأنه أمر بعبادة الله، أمر ثانياً أن يخبر بأنه يعبد الله وحده. وتقديم الجلالة دال على الاهتمام بمن يعبد. وعند الزمخشري يدل على الاختصاص. قال: «ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول فالكلام أولاً واقع في الفعل في نفسه وإيجاده. وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله، ولذلك رتب عليه قوله (فاعبدوا ما شئتم من دونه) والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان والتخلية». انتهى. وقال غيره (فاعبدوا ما شئتم) صيغة أمر على جهة التهديد، لقوله ﴿قل تمتع بكفر﴾ [الزمر: ٨] (قل إن الخاسرين) أي: حقيقة الخسران (الذين خسروا) أي هم الذين خسروا (أنفسهم) حيث صاروا من أهل النار (وأهلهم) الذين كانوا معهم في الدنيا، حيث كانوا معهم في النار. فلم ينتفعوا منهم بشيء وإن كان أهلهم قد آمنوا فخرانهم إياهم كونهم لا يجتمعون بهم، ولا يرجعون إليهم وقال قتادة: «كأن الله قد أعد لهم أهلاً في الجنة فخرهم». وقال معناه ميمون بن مهران. وقال الحسن: «هي الحور العين»، ثم ذكر ذلك الخسران، وبالغ فيه في التنبيه عليه أولاً والإشارة إليه وتأكيده بالفعل وتعريفه بأل ووصفه بأنه المبين. أي: الواضح لمن تأمله أدنى تأمل. ولما ذكر خسرانهم أنفسهم وأهلهم ذكر حالهم في جهنم وأنه (من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل) فيظهر أن النار تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم. وسمي ما تحتهم ظللاً، لمقابلة ما فوقهم كما قال (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت

أرجلهم) وقال: ﴿لهم من جهنم مهاد<sup>(١)</sup> ومن فوقهم غواش﴾ [الأعراف: ٤١] وقيل: هي ظلل للذين هم تحتهم إذ النار طباق. وقيل: وإنما تحتهم يلتهب ويتصاعد منه شيء حتى يكون ظله. فسمي ظله باعتبار ما آل إليه أخيراً. (ذلك) أي ذلك العذاب (يخوف الله به عباده) ليعلموا ما يخلصكم منه. ثم ناداهم وأمرهم، فقال: (يا عباد فاتقون) أي: اتقوا عذابي. ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فونها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد، ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يبيح فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾

قال ابن زيد: «نزلت (والذين اجتنبوا الطاغوت) في زيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان، وأبي ذر». وقال ابن إسحق: الإشارة بها إلى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، والزيبر. وذلك أنه لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاؤوه وقالوا: أسلمت؟ قال نعم، وذكرهم بالله فآمنوا بأجمعهم. فنزلت فيهم<sup>(٢)</sup>. وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة (والطاغوت) تقدم الكلام عليها في البقرة. وقرأ الحسن (الطاغوت) جمعاً (أن يعبدوها) أي: عبادتها. وهو بدل اشتغال. (لهم البشرى) أي: من الله تعالى بالثواب. (بشر عبادي) هم: المجتنبون الطاغوت إلى الله. وضع الظاهر موضع المضمرة، ليدل على أنهم هم وليرتب على الظاهر الوصف. وهو (الذين يستمعون القول) وهو عام في جميع الأقوال (فيتبعون أحسنه) ثناء عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن فإذا سمعوا قولاً تبصروه. قيل: وأحسن القول القرآن وما يرجع إليه. وقيل: (القول) القرآن وأحسنه. ما فيه من صفح وعتق واحتمال ونحو ذلك. وقال قتادة: «أحسن القول: طاعة الله». وعن ابن عباس: «هو الرجل يجلس مع القوم، فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عن ما سواه» (والذين) وصف (العباد) وقيل: الوقف على (عباد) (والذين) مبتدأ خبره (أولئك) وما بعده، (أفمن حق عليه كلمة العذاب) قيل: نزلت في أبي جهل. أي: نفذ عليه الوعيد بالعذاب والظاهر: أنها جملة مستقلة. و(من) موصولة مبتدأ. والخبر محذوف. فقيل: «تقديره: يتأسف عليه. وقيل: يتخلص منه. وقدره الزمخشري<sup>(٣)</sup> أفأنت تخلصه. قال: حذف لدلالة (أفأنت تنقذ) عليه. وقدر الزمخشري<sup>(٤)</sup> بين الهمزة والفاء جملة حتى تقر الهمزة في مكانها. والفاء في مكانها، فقال: التقدير أنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب. وهو قول انفرد به فيما علمناه. والذي تقوله النحاة: إن الفاء للعطف وموضعها التقديم على الهمزة، لكن الهمزة لما كان لها صدر الكلام قدمت للأصل عندهم: فأمن حق عليه وعلى القول أنها جملة مستقلة يكون قوله (أفأنت تنقذ من في النار) استفهام توقيف. وقدم فيه الضمير إشعاراً بأنك لست تقدر أن تنقذه من النار، بل لا يقدر على ذلك أحد إلا الله. وذهبت فرقة منهم الحوفي، والزمخشري إلى أن (من) شرطية، وجواب الشرط (أفأنت) فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء. وأعيدت الهمزة، لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد. ووضع (من) في النار) وهو ظاهر موضع المضمرة إذ كان الأصل تنقذه. وإنما أظهر، تشهيراً لحالهم، وإظهاراً لحسنه منازلهم. قال الحوفي:

(١) المهاد الفراش والجمع أمهدة ومهد ومنه قوله تعالى «فلا أنفسهم يمهدون» أي يوطئون.

لسان العرب (٦/٤٢٨٦)

(٢) انظر الطبري ١٢٣/٢٣ وأسباب النزول للواحدي ص ٣٨٩ والبغوي ٧٥/٤ والدر المنثور ٣٢٤/٥ والوسيط ٩ خ.

(٣) انظر الكشاف (٤/١٢٥).

(٤) انظر الكشاف (٤/١٢٥).

«وجيء بألف الاستفهام لما طال الكلام تأكيداً، ولولا طوله لم يجز الإتيان بها، لأنه لا يصلح في العربية أن يأتي بألف الاستفهام في الاسم وألف أخرى في الجزاء. ومعنى الكلام أفأنت تنقذه». انتهى. وعلى هذا القول يكون قد اجتمع استفهام وشرط على قول الجماعة إن الهزمة قدمت من تأخر فيجاء بالخلاف بين سبويه ويونس هل الجملة الأخيرة هي للمستفهم عنها أو هي جواب الشرط. وعلى تقدير الزمخشري<sup>(١)</sup> لم تدخل الهزمة على اسم الشرط، فلم يجتمع استفهام وشرط، لأن الاستفهام عنده دخل على الجملة المحذوفة عنده. وهو أنت مالك أمرهم و(فمن) معطوف على تلك الجملة المحذوفة عطفت جملة الشرط على جملة الاستفهام، ونزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا بمنزلة دخولهم النار، ونزل اجتهاد الرسول - عليه السلام - في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار. ولما ذكر حال الكفار في النار وأن الخاسرين (لهم ظلل) ذكر حال المؤمنين. وناسب الاستدراك هنا إذ هو واقع بين الكافرين والمؤمنين، فقال (لكن الذين اتقوا) ففي ذلك حرض على التقوى لهم علالي مرتفعة فوقها علالي مبنية أي: بناء المنازل التي سويت على الأرض. والضمير في (من) تحتها) عائد على الجمعين. أي: من تحت الغرف السفلى والغرف العليا لا تفاوت بين أعلاها وأسفلها. وانتصب (وعد الله) على المصدر المؤكد المضمون الجملة قبله، إذ تضمنت معنى الوعد. (ألم تر) خطاب وتوقيف للسامع على ما يعتبر به من أفعال الله الدالة على فناء الدنيا واضمحلالها. (فسلكه ينابيع) أي: أدخله مسالك وعيوناً. والظاهر: أن ماء العيون هو من ماء المطر تحبسه الأرض ويخرج شيئاً فشيئاً. (ثم يخرج به زرعاً) ذكر منته تعالى علينا بما تقوم به معيشتنا. (مختلفاً ألوانه) من أحر وأبيض وأصفر. وشمل لفظ الزرع جميع ما يزرع من مقتات وغيره. أو مختلفاً أصنافه من بر، وشعير، وسمسم، وغير ذلك. (ثم يبيع) يقارب الثمار (فتراه مصفراً) أي: زالت خضرته ونضارته. وقرأ أبو بشر (ثم يجعلها) بالنصب في اللام. قال صاحب الكامل «وهو ضعيف». انتهى. (إن في ذلك) أي: فيما ذكر من إنزال المطر، وإخراج الزرع به، وتنقلاته إلى حالة الحطامية (لذكرى) أي: لتذكروا وتنبهوا على حكمة فاعل ذلك وقدرته. (أفمن شرح الله صدره للإسلام) نزلت في حمزة وعلي. و(من) مبتدأ وخبره محذوف يدل عليه (فويل للقاسية قلوبهم) تقديره كالقاسي المعرض عن الإسلام. وأبو هب وابنه كانا من القاسية قلوبهم. وشرح الصدر: استعارة عن قبوله للإيمان، والخير، والنور، والهداية. وفي الحديث: «كيف انشراح الصدور؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح. قلنا: وما علامة ذلك؟ قال: الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل الموت». (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أي: من أجل ذكره. أي: إذا ذكر الله عندهم قست قلوبهم. وقال مالك بن دينار: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب». (أولئك) أي: القاسية قلوبهم (في ضلال مبين) أي: في حيرة واضحة لا تخفى على من تأملها.

﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن بضل الله فما له من هاد، أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون، كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فأذاقهم الله الحزني في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون، قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون، ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون، إنك ميت وإني ميتون، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾.

عن ابن عباس: «أن قوماً من الصحابة قالوا يا رسول الله حدثنا بأحاديث حسان، وبأخبار الدهر، فنزل الله نزل أحسن الحديث». وعن ابن مسعود: «أن الصحابة ملؤوا مكة فقالوا له حدثنا فنزلت، والابتداء باسم الله وإسناد نزل

لضميره مبنياً عليه، فيه تفخيم للمنزل ورفع منه، كما تقول: الملك أكرم فلاناً. هو أفخم من: أكرم الملك فلاناً. وحكمة ذلك البداء بالأشرف من تذكر ما تسند إليه وهو كثير في القرآن كقوله: ﴿الله يصطفي من الملائكة سبلاً﴾ [الحج: ٧٥] و(كتاباً) بدل من (أحسن الحديث)، وقال الزمخشري: «ويحتمل أن يكون حالاً». انتهى. وكان بناء على أن (أحسن الحديث) معرفة لإضافته إلى معرفة. وأفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة فيه خلاف. فقيل: إضائه محضة. وقيل: غير محضة. و(متشابهاً) مطلق في مشابهة بعضه بعضاً، فمعانيه متشابهة لا تناقض فيها، ولا تعارض، وألفاظه في غاية الفصاحة والبلاغة. والتناسب بحيث أعجزت العظمة والبلغاء. وقرأ الجمهور (مثنائي)<sup>(١)</sup> بفتح الياء. وهشام، وابن عامر، وأبو بشر بسكون الياء. فاحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف. واحتمل أن يكون منصوباً وسكن الياء على قول من يشكّن الياء في كل الأحوال، لانكسار ما قبلها استثنافاً للحركة عليها. و(مثنائي) يظهر أنه جمع مثنى. ومعناه: موضع تشبيه القصص، والأحكام، والعقائد، والوعد، والوعيد. وقيل: يثنى في الصلاة بمعنى التكرير والإعادة. انتهى. ووصف المفرد بالجمع، لأن فيه تفاصيل. وتفصيل الشيء جملة. ألا ترى أنك تقول: القرآن سور وآيات، فكذلك تقول: أحكام ومواظ. مكررات. وأصله: كتاباً متشابهاً فصلاً مثنائي. حذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه. وأجاز الزمخشري أن يكون من باب: برمة أعشار. وثوب أخلاق. وأن يكون تمييزاً عن (متشابهاً) فيكون منقولاً من الفاعل. أي: متشابهاً مثنائي كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شائلاً. وفائدة تشبيته وتكرره. ورسوخه في النفوس إذ هي أنف شيء عن سماع الوعظ والنصيحة. والظاهر: حمل القشعريرة على الحقيقة إذ هو موجود عند الخشية، محسوس يدركه الإنسان من نفسه. وهو حاصل من التأثير القلبي. وقيل: هو تمثيل تصوير لإفراط خشيتهم. والمعنى: أنه حين يسمعونه يتلى ما فيه من آيات الوعيد عرتهم خشية تنقبض منها جلودهم. ثم إذا ذكروا لله ورحمته لانت جلودهم، أي: زال عنها ذلك التقبض الناشئ عن خشية القلوب بزوال الخشية عنها. وضمن (تلين) معنى تطمئن (جلودهم) لينة غير منقبضة (وقلوبهم) راجية غير خاشية. ولذلك عدها بـ (إلى) وكان في ذكر القلوب في هذه الجملة دليل على تأثرها عند السماع فاكتفى بقشعريرة الجلود عن ذكر خشية القلوب، لقيام المسبب مقام السبب، فلما ذكر اللين ذكرهما. وفي ذكر اللين دليل على المحذوف الذي هو: رحمة الله. كما كان في قوله: ﴿إذ اذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الأنفال: ٢] دليل بقوله (وجلت) عن ذكر المحذوف. أي: إذا ذكر وعيد الله وبطشه. وقال العباس بن عبد المطلب: قال النبي - عليه السلام -: «من اقشعر جلده من خشية الله تحات عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها». وقال ابن عمر - وقد رأى ساقطاً من سماع القرآن - فقال: «إنا لنخشى الله وما نسقط هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم»، وقالت أسماء بنت أبي بكر: «كان أصحاب رسول الله - ﷺ - تدمع أعينهم، وتقشعر<sup>(٢)</sup> جلودهم عند سماع القرآن. قيل لها: إن قوماً اليوم إذا سمعوا القرآن خر أحدهم مغشياً عليه، فقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وقال ابن سيرين: «بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً رجله ثم يقرأ عليه القرآن كله فإن رمى بنفسه فهو صادق». والإشارة بـ (ذلك) إلى الكتاب أو إلى ذنك الوصفين من الاقشعرار واللين. أي: أثر هدى الله (أفمن يتقي) أي: يستقبل كما قال الشاعر:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلْتَهُ وَأَتَقْتَنَا بِالْيَدِ<sup>(٣)</sup>

أي: استقبلتنا بيدها لتقي بيدها وجهها أن يرى. والظاهر: حمل (بوجهه) على حقيقته لما كان يلقي في النار مغلولة

(١) القشعريرة الرعدة وقال الفراء: تقشعر من آية العذاب ثم تلين عند نزول آية الرحمة.

لسان العرب (٥/٣٦٣٨)

(٢) ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» المثاني ماثي مرة بعد مرة انظر لسان العرب (١/٥١٣).

(٣) البيت للناطقة الديباني، انظر ديوانه (١٠٧)، اللسان (نصف).

يداه إلى رجله مع عنقه لم يكن له ما يتقي به النار إلا وجهه . قال مجاهد: «يجر على وجهه في النار ويجوز أن يعبر بالوجه عن الجملة». وقيل: المعنى وصف كثرة ما ينالهم من العذاب يتقيه أولاً بجوارحه، فيزيد حتى يتقيه بوجهه الذي هو أشرف جوارحه. وفيه جواب وهو غاية العذاب، قال ابن عطية: «وهذا المعنى عندي آيين بلاغة»، في هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يَلْقَى السُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وَيَنْحَرِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمِغْفَرِ

لأنه إنما أراد عظم جرأته عليها فهو يلقاها بكل عن وبكل شيء عنه حتى بوجهه وينحره». انتهى . (وسوء العذاب) أشده وخبر (مَنْ) محذوف . قدره الزمخشري كَمَنْ مِنْ العذاب . وابن عطية كالنعمين في الجنة . (وقيل للظالمين) أي : قال ذلك خزنة النار<sup>(١)</sup> (ذوقوا ما كنتم) أي : وبال ما كنتم (تكسبون) من الأعمال السيئة . (كذب الذين من قبلهم) تمثيل لقريش بالأمم الماضية، وما آل إليه أمرهم من الهلاك . (فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) من الجهة التي لا يشعرون أن العذاب يأتيهم من قبلها، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، كانوا في أمن وغبطة وسرور، فإذا هم معذبون مخزيون ذليلون في الدنيا من ممسوخ، ومقتول، ومأسور، ومنفي . ثم أخبر أن ما أعد لهم في الآخرة أعظم . وانتصب (قرآناً عربياً) على الحال . وهي حال مؤكدة، والحال في الحقيقة هو (عربياً) (وقرآناً) توطئة له . وقيل: انتصب على المدح ونفي عنه العوج، لأنه مستقيم، بريء من الاختلاف والتناقض . وقال عثمان بن عفان: «غير مضطرب»، وقال ابن عباس: «غير مختلف»، وقال مجاهد: «غير ذي لبس»، وقال السدي: «غير مخلوق»، وقيل: غير ذي لحن . قال الزمخشري: «(فإن قلت) فهلا قيل مستقيماً أو غير معوج؟ (قلت): فيه فائدتان، إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال: ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾ [الكهف: ١] والثاني: أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان . وقيل: المراد بالعوج الشك واللبس . وأنشد:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِيناً غَيْرَ ذِي عَوْجٍ مِّنَ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٍ<sup>(٢)</sup>

انتهى . ولما ذكر تعالى أنه ضرب في القرآن من كل مثل . أي : محتاج إليه ضرب هنا مثلاً لعابد آله كثيرة، ومن يعبد الله وحده . ومثل برجل مملوك اشترك فيه ملاك سينو الأخلاق فهو لا يقدر أن يوفي كل واحد منهم مقصوده إذ لا يتغاضى بعضهم لبعض لمشاحتهم، وطلب كل منهم أن يقضي حاجته على التمام فلا يزال في عناء، وتعب، ولوم، من كل منهم، ورجل آخر مملوك جميعه لرجل واحد، فهو معني بشغله لا يشغله عنه شيء، ومالكه راض عنه أن قد خلص لخدمته، وبذل جهده في قضاء حوائجه، فلا يلقي من سيده إلا إحساناً . وتقدم الكلام في نصب المثل وما بعده، وقال الكسائي: «انتصب (رجلاً) على إسقاط الخافض . أي : مثلاً لرجل . أو في رجل فيه . أي : في رقه مشتركاً وفيه صلة لشركاء . وقرأ عبد الله، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والزهري، والحسن بخلاف عنه، والجحدري، وابن كثير، وأبو عمرو (سالمًا) اسم فاعل من سلم أي : خالصاً من الشركة . وقرأ الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاء، وطلحة، والحسن بخلاف عنه، وباقي السبعة (سَلْمًا) بفتح السين واللام . وقرأ ابن جبیر (سَلْمًا) بكسر السين وسكون اللام . وهما مصدران وصف بهما مبالغة في الخلوص من الشركة . وقرئ (ورجل سالم) برفعهما . وقال الزمخشري: «أي وهناك رجل سالم لرجل». انتهى . فحعل الخبر هناك : ويجوز أن يكون (ورجل) مبتدأ، لأنه موضع تفصيل، إذ قد تقدم ما يبدل عليه فيكون كقول امرئ القيس

إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا أَنْحَرَفَتْ لَهُ بِيَشِقُّ وَيَشِقُّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلِ<sup>(٣)</sup>

(١) انظر الوسيط ١٠ خ .

(٢) من البسيط انظر القرطبي (١٥/١٦٤) الكشاف (٤/١٢٥) روح المعاني (٢٣/٢٦٢).

(٣) من الطويل تقدم .

وقال الزمخشري: «وإنما جعله رجلاً، ليكون أظن لما شقي به أو سعد. فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك. وانتصب (مثلاً) على التمييز المنقول من الفاعل، إذ التقدير: هل يستوي مثلها. واقتصر في التمييز على الواحد، لأنه المقتصر عليه أولاً في قوله (ضرب الله مثلاً) وليبيان الجنس». وقرىء (مثلين) فطابق حال الرجلين. وقال الزمخشري: «ويجوز فيمن قرأ (مثلين) أن يكون الضمير في (يستويان) للمثلين، لأن التقدير: مثل رجل. والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، كما يقول: كفى بهما رجلين انتهى». والظاهر: أنه يعود الضمير في (يستويان) إلى الرجلين. فأما إذا جعلته عائداً إلى المثلين اللذين ذكر أن التقدير: مثل رجل ورجل، فإن التمييز إذ ذاك يكون قد فهم من المميز الذي هو الضمير إذ يصير التقدير: هل يستوي المثلان مثلين. قل (الحمد لله) أي: الثناء والمدح لله لا لغيره. وهو الذي ثبتت وحدانيته، فهو الذي يجب أن يحمد (بل أكثرهم لا يعلمون) فيشركون به غيره. ولفظه (الحمد لله) تشعر بوقوع الهلاك بهم بقوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ٤٥] ولما لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل الباهرة أخبر الجميع بأنهم ميتون وصاترون إليه، وأن اختصاصكم يكون بين يديه يوم القيامة وهو الحكم العدل فيتميز المحق من المبتل. وهو - عليه السلام - وأتباعه المحقون، الفائزون بالظفر، والغلبة. والكافرون هم المبتلون. فالضمير في (إنك) خطاب للرسول وتدخل معه أمته في ذلك. والظاهر: عود الضمير في (وإنهم) على الكفار. وغلب ضمير الخطاب في (إنك) على ضمير الغيبة في (إنهم) ولذلك جاء (تختصمون) بالخطاب ففتح أنت عليهم بأنك قد بلغت وكذبوا، واجتهدت في الدعوة ولجأوا في العناد. وقال أبو العالية: «هم أهل القبلة يختصمون بينهم يوم القيامة في مظالمهم»، وأبعد من ذهب إلى أن هذا الخصام سببه ما كان في قتل عثمان وما جرى بين علي ومعاوية بسبب ذلك رضي الله عنهم. وقيل: يختصم الجميع. فالكفار يخاصم بعضهم بعضاً حتى يقال لهم: ﴿لا تختصموا لدي﴾ [ق: ٢٨] والمؤمنون يتلقون الكافرين بالهجو. وأهل القبلة يكون بينهم الخصام. وقرأ ابن الزبير، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وعيسى، والبياني، وابن أبي غوث، وابن أبي عبله (إنك مائت وإنهم مائتون) وهي تشعر بحدوث الصفة. والجمهور (ميت وميتون) وهي تشعر بالثبوت واللزوم كالحي.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ﴾  
 ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۗ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۗ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا كَانْتُمْ كُفَرًا ۖ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَنِ اللَّهِ فَسُوفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ



فَلَنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِّمِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَّلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَّلَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِإِحْسَرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَاتِي فَاكْذَبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا بِمَقَارِبَتِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِعِبَادِهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَوْجِدُ الْمُنْتَكِبِينَ ﴿٢٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٢٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾

اشمأز: قال أبو زيد: «زعر». قال غيره: تقبض كراهة ونفوراً، قال الشاعر:

إِذَا عَضَّ الشَّقَافُ بِهَا اِشْمَأَزَتْ      تشج قفا المثقف والجيينا<sup>(١)</sup>

المقاليد<sup>(٢)</sup>: الفاتح. قيل: لا واحد لها من لفظها، قاله التبريزي، وقيل: واحدها - مُقْلِيد: وقيل مقلاد ويقال اقليد وأقاليد. والكلمة أصلها فارسية. الزمر: جمع زُمرَة. قال أبو عبيدة والأخفش: جماعات متفرقة بعضها إثر بعض، قال:

حَتَّىٰ اخْزَأَلْتُ زُمْرًا<sup>(٣)</sup> بَعْدَ زُمْرٍ

ويقال تزمز، والحفوف الإحداق بالشيء قال الشاعر:

نَحَفَهُ جَانِبًا ضَيْقٍ وَيَتَّبِعُهُ      مثل الرِّجَاجَةِ لَمْ يَكْحَلْ مِنَ الرَّمْدِ<sup>(٤)</sup>

وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف. وهو الجانب. ومنه قول الشاعر:

(١) البيت من الوافر لعمر بن كلثوم انظر السبع الطوال (٤٠٤) اللسان (ثقف) القرطبي (١٥/١٧٢).

(٢) انظر لسان العرب (٣٧١٦/٥).

(٣) انظر (١٨٦٢/٣) لسان العرب.

(٤) من البسيط للناطقة الديباني (٢٤) المفضليات (٧٢٢).

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حَفَا فِي سَرِيرِهِ إِذَا كَرِهَهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلٌ<sup>(٣)</sup>

﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين، والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون، لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين، ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزيمهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله أن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون، قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون، من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾.

(فمن أظلم ممن كذب على الله) هذا تفسير وبيان للذين يكون بينهم الخصومة. وهذا يدل على أن الاختصاص السابق يكون بين المؤمنين والكافرين. والمعنى: لا أحد في المكذبين (أظلم ممن افترى على الله) فنسب إليه الولد والصاحبة والشريك، وحرم وحلل من غير أمر الله. (وكذب بالصدق) وهو ما جاء به رسول الله - ﷺ - (إذ جاءه) أي: وقت مجيئه فجاهه بالتكذيب من غير فكر ولا ارتياح ولا نظر. بل وقت مجيئه كذب به. ثم توعدهم توعداً فيه احتقارهم على جهة التوقيف وللكافرين مما قام فيه الظاهر مقام المضمّر. أي: مثوى لهم، وفيه تنبيه على علة كذبهم وتكذيبهم وهو الكفر. (والذي جاء بالصدق) معادل لقوله (فمن أظلم) (وصدق به) مقابل لقوله (وكذب بالصدق) (والذي) جنس كأنه قال: والفريق الذي جاء بالصدق. ويدل عليه (أولئك هم المتقون) فجمع كما أن المراد بقوله (فمن أظلم) يراد به جمع ولذلك قال (مثوى للكافرين) وفي قراءة عبد الله (والذي جاؤا بالصدق وصدقوا به) وقيل: أراد والذين. فحذفت منه النون، وهذا ليس بصحيح، إذ لو أريد الذين بلفظ الذي وحذفت منه النون لكان الضمير مجموعاً، كقوله:

وَأَنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفُلْحٍ دِمَاؤُهُمْ<sup>(٢)</sup>

ألا ترى أنه إذا حذفت النون في المثني كان الضمير مثني. كقوله:

أَبْنِي كُتَيْبٍ إِنَّ عَمِّي اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَ الْأَغْلَالَ<sup>(٣)</sup>

وقيل (الذي جاء بالصدق وصدق به) هو رسول الله - ﷺ -<sup>(٤)</sup>، وقيل (الذي جاء بالصدق) جبريل (والذي صدق به) هو محمد - ﷺ - وقال عليّ، وأبو العالية، والكلبي: وجماعة «(الذي جاء بالصدق) هو الرسول والذي صدق به هو أبو

(١) من الطويل لابن هرمة انظر ديوانه (١٦٨) ذيل الأمايلي للقالبي (٤٠).

(٢) صدر بيت وعجزه:

هم القوم كل القوم يا أم مالك

روح المعاني ٣/٢٤.

(٣) من الكامل للأخطل انظر ديوانه (٣٨٧) الكتاب (١٨٦/١) المقتضب (١٤٦/٤)، الخزانة (٦/٦) شرح الفصل لابن يعيش (١٥٤/٣)

التصريح (١٣٢/١) الهمع (٤٩/١) يعيش (١٥٤/٣) روح المعاني (٣/٢٤).

(٤) انظر الوسيط ١٠ خ.

بكر. وقال أبو الأسود، ومجاهد، وجماعة: الذي صدق به وهو علي بن أبي طالب». وقال الزمخشري (١) «والذي جاء بالصدق وصدق به) هو رسول الله - ﷺ - جاء بالصدق وآمن به، وأراد (به) ومن تبعه، كما أراد موسى إياه وقومه في قوله ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ [المؤمنون ٤٩] ولذلك قال (أولئك هم المتقون) إلا أن هذا في الصفة وذلك في الاسم. ويجوز أن يريد: والفوج والفريق (الذي جاء بالصدق وصدق به) وهو الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته الذين صدقوا به». انتهى. وقوله: «وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد موسى إياه وقومه» استعمل الضمير المنفصل في غير موضعه، وإنما هو متصل بإصلاحه: وأراد به ومن تبعه كما أراد موسى وقومه. أي: لعل قومه يهتدون، إذ موسى عليه السلام مهتد. فالترجي هداية قومه لا هدايته، إذ لا يترجى إلا ما كان مفقوداً لا موجوداً. وقوله: «ويجوز الخ» فيه توزيع الصلة والفوج هو الموصول فهو كقوله: جاء الفريق الذي شرف وشرف. والأظهر عدم التوزيع بل الصلة صلة لمن له الصلة الأولى. وقرأ الجمهور (وَصَدَّق) مشدداً. وأبو صالح وعكرمة بن سليمان ومحمد بن جحازة مخففاً. قال أبو صالح: «وعمل به». وقيل: استحق به اسم الصدق. قال ابن عطية: «فعل هذا إسناد الأفعال كلها إلى محمد - ﷺ - وكان أمته في ضمن القول وهو الذي يحسن (أولئك هم المتقون)». انتهى. وقال الزمخشري (٢): «أي صدق به الناس ولم يكذبهم به. يعني أذاه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف. وقيل: معناه: «وصار صادقاً به. أي: بسببه لأن القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجربها على يديه. ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة، وقرئ (وَصَدَّقَ) به) انتهى. يعني مبنياً للمفعول مشدداً. وقال صاحب اللوامح: «جاء بالصدق من عند الله وصدق بقوله. أي: في قوله. أو في مجيئه فاجتمع له الصفتان من الصدق، من صدقه من عند الله. وصدقه بنفسه. وذلك مبالغة في المدح». انتهى (لهم ما يشاؤون) عام في كل ما تشتهيهم أنفسهم، وتعلق به إرادتهم (ليكفر) متعلق (بالمحسنين) أي: الذين أحسنوا ليكفر، أو محذوف. أي: يسر ذلك لهم ليكفر، لأن التكفير لا يكون إلا بعد التيسير للخير. (وأسوأ الذي عملوا) هو كفر أهل الجاهلية ومعاصي أهل الإسلام والتكفير يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه، والجزاء بالأحسن يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه، فقيل ذلك يكون إذا صدقوا الأنبياء فيما أتوا به. وقال مقاتل: «يجزيهم بالمحسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوي». وهذا قول المرجئة. يقولون: لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان. واحتج بهذه الآية. وقام الظاهر مقام المضمير في (المحسنين) أي: ذلك جزاؤهم فنبه بالظاهر على العلة المقتضية لحصول الثواب. والظاهر: أن (أسوأ) أفعل تفضيل. وبه قرأ الجمهور. وإذا كفر أسوأ أعمالهم فتكفير ما هو دونه أخرى. وقيل: أفعل: ليس للتفضيل، وهو كقولك: الأشج أعدل بني مروان. أي: عادل، فكذلك هذا. أي: سيء الذين عملوا. ويدل على هذا التأويل قراءة ابن مقسم، وحامد بن يحيى عن ابن كثير (أسوأ) هنا وفي حم السجدة بألف بين الواو والهزمة جمع (سوء) ولا تفضيل فيه. والظاهر: أن (بأحسن) أفعل تفضيل، فقيل: لينظر إلى أحسن طاعاته فيجزى الباقي في الجزاء على قياسه وإن تخلف عنه بالتقصير. وقيل: بأحسن ثواب أعمالهم. وقيل: بأحسن من عملهم وهو الجنة، وهذا ينبو عنه (بأحسن الذي)، وقال الزمخشري: «أما التفضيل فيؤذن بأن الشيء الذي يفرط منهم من الصغائر، والزلات المكفرات، هو عندهم الأسوأ، الاستغاثهم المعصية. والحسن الذي يعملون: هو عند الله الأحسن، لحسن إخلاصهم فيه، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ. وحسنهم بالأحسن». انتهى. وهو على رأي المعتزلة. ويكون قد استعمل (أسوأ) في التفضيل على معتقدهم (وأحسن) في التفضيل على ما هو عند الله. وذلك توزيع في أفعل التفضيل وهو خلاف الظاهر. قالت قريش: «لئن لم ينته

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٢٨.

(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٢٨.

محمد عن تعيب آلهتنا وتعييننا لنسلطها عليه، فتصبيه بخيل، وتعتريه بسوء، فأنزل الله (أليس الله بكاف عبده)<sup>(١)</sup>. أي: شر من يريده بشر. والهزمة الداخلة على النفي للتقرير. أي: هو كاف عبده. وفي إضافته إليه تشریف عظيم لنبیه. وقرأ الجمهور (عبده). وهو رسول الله ﷺ وقرأ أبو جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وحزرة والكسائي (عباده) بالجمع أي: الأنبياء، والمطيعين من المؤمنين (ويخوفونك بالذين من دونه) وهي: الأصنام. ولما بعث خالداً إلى كسر العزى قال له سادنها: إني أخاف عليك منها فلها قوة لا يقوم لها شيء، فأخذ خاند الفأس، فهشم به وجهها، ثم انصرف. وفي قوله (ويخوفونك) تهكم بهم، لأنهم خوفوه بما لا يقدر على نفع ولا ضرر. ونظير هذا التخويف قول قوم هود له: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ [هود: ٥٤] وقرأ (بكافي عبده) على الإضافة (ويكافي عباده) مضارع كفى. ونصب (عباده) فاحتمل أن يكون مفاعلة من الكفاية، كقولك: يجازي في مجزي. وهو أبلغ من كفي، لبنائه على لفظ المبالغة. وهو الظاهر، لكثرة تردد هذا المعنى في القرآن كقوله: ﴿فسيكفيكم الله﴾ [البقرة: ١٣٧] ويحتمل أن يكون مهموزاً من المكافأة، وهي المجازاة. أي: يجزيهم أجرهم، ولما كان تعالى كافي عبده كان التخويف بغيره عبثاً باطلاً. ولما اشتملت الآية على مهتين وضالين أخبر أن ذلك كله هو فاعله ثم قال (أليس الله بعزیز) أي: غالب منيع (ذي انتقام) وفيه وعيد لقريش، ووعد للمؤمنين، ولما أقروا بالصانع وهو الله أخبرهم أنه تعالى هو المتصرف في نبيه بما أراد، فإن تلك الأصنام - التي يدعونها آله من دونه - لا تكشف ضراً، ولا تمسك رحمة، أي: صحة وسعة في الرزق، ونحو ذلك. و(أرأيتم) هنا: جارية على وضعها تعدت إلى مفعولها الأول وهو (ما يدعون) وجاء المفعول الثاني جملة استفهامية وفيها العائد على (ما) وهو لفظ (هؤن) وأنت، تحقيراً لها، وتعجيزاً، وتضعيفاً. وكان فيها من سمي تسمية الإناث كالعزى ومناة واللات. وأصاف إرادة الله الضر إلى نفسه، والرحمة إليها، لأنهم خوفوه مضرتها، فاستسلف منهم الإقرار بأن خالق العالم هو الله. ثم استخبرهم عن أصنامهم هل تدفع شراً وتجلب خيراً، وقرأ الجمهور (كاشفات) و(ممسكات) على الإضافة وشيبة، والأعرج، وعمرو بن عبيد وعيسى بخلاف عنه، وأبو عمرو، وأبو بكر بتوניהما. ونصب ما بعدهما. ولما تقرر أنه تعالى كافي وأن أصنامهم لا تضر ولا تنفع، أمره تعالى أنه يعلم أنه تعالى هو حسبه، أي: كافية. والجواب في هذا الاستخبار محذوف. والتقدير: فإنهم سيقولون لا تقدر على شيء من ذلك. وقال مقاتل: استخبرهم فسكتوا (قل يا قوم اعملوا) تقدم الكلام على نظيرها.

﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أتت عليهم بوكيل، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون، وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

لما كان عليه السلام يعظم عليه عدم إيمانهم ورجوعهم إلى ما أنزل الله تعالى عليه سلاه تعالى عن ذلك وأخبره أنه أنزل عليه (الكتاب) وهو القرآن مصحوباً (بالحق) وهو دين الإسلام (للناس) أي: لأجلهم إذ فيه تكاليفهم (فمن اهتدى)

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ٩٧٨/٣ والطبري ٦/٢٤ والبغوي ٨٠/٤ وابن كثير ٥٥/٤، وفتح الباري ٥٤٨/٨ فتح القدير ٤/٤٦٧ والوسيط

فثواب هدايته إنما هو له (ومن ضل) فعقاب ضلاله إنما هو عليه (وما أنت عليهم بوكيل) أي: فتجبرهم على الإيمان قال قتادة: «(بوكيل) بحفيظ» وقال الزمخشري: (للناس) لأجل حاجتهم إليه ليشرروا ويندروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على العصية، فلا حاجة إلى ذلك، فأنا الغني. فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ومن اختار الضلالة فقد ضرها. وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى، فإن التكليف مبني على الاختيار دون الإيجاب انتهى. وهو على مذهب المعتزلة. ولما ذكر تعالى أنه أنزل الكتاب على رسوله بالحق للناس نبه على أنه من آياته الكبرى يدل على الوجدانية لا بشرته في ذلك صنم ولا غيره فقال (الله يتوفى الأنفس حين موتها) والأنفس: هي الأرواح. وقيل: النفس غير الروح. قاله ابن عباس فالروح لها تدبير عالم الحياة. والنفس لها تدبير عالم الإحساس. وفرقت فرقة بين نفس التمييز ونفس التخيل. والذي يدل عليه الحديث واللغة أن النفس والروح مترادفان. وأن فراق ذلك من الجسد هو الموت. ومعنى (يتوفى النفس) يميتها (والتي) أي: والأنفس التي (لم تمت في منامها) أي: يتوفاها حين تمام تشبيهاً للنوم بالأموات. ومنه ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام ٦٠] فيبين الميت والنائم قدر مشترك وهو كونها لا يميزان، ولا يتصرفان (فيمسك) من (قضى عليها الموت) الحقيقي ولا يردها في وقتها حية (ويرسل النائمة لجسدها إلى أجل) ضربه لموتها. وقيل (يتوفى الأنفس) يستوفىها ويقبضها، وهي الأنفس التي يكون معها الحياة والحركة. (ويتوفى الأنفس) التي لم تمت في منامها، وهي أنفس التمييز. قالوا فالتى تتوفى في النوم، هي نفس التمييز لا نفس الحياة، لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها، لنفس، والنائم يتنفس. وكون النفس تقبض والروح في الجسد حالة النوم بدليل أنه يتقلب ويتنفس هو قول الأكثرين. ودل على التغاير وكونها شيئاً واحداً هو قول ابن جبير وأحد قولي ابن عباس. والخوض في هذا وطلب إدراك ذلك على جليته عناء ولا يوصل إلى ذلك. (إن في ذلك) أي: في توفى الأنفس مائة ونائمة، وإمساکها وإرسالها إلى أجل (آيات) لعلامات دالة على قدرة الله وعلمه (لقوم) يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون. وقرأ الجمهور (قَضَى) مبنياً للفاعل (الموت) نصباً. وابن وثاب، والأعمش، وطلحة، وعيسى، وحزمة، والكسائي، مبنياً للمفعول (الموت) رفعاً ف (أم) منقطعة تقدر ب (بل) والهزمة وهو تقرير وتوبيخ. وكانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عندنا. والشفاعة إنما هي لمن ارتضاه الله وبأذنه تعالى، وهذا مفقود في أهتهم. وأولو معناه أيتخذونهم شفعاءهم بهذه المثابة من كونهم لا يعقلون ولا يملكون شيئاً. وذلك عام النقص فكيف يشفع هؤلاء وتقدم لنا الكلام في (أول) في سورة البقرة. وقال ابن عطية: متى دخلت ألف الاستفهام على واو العطف أوفائه أحدثت معنى التقرير. انتهى. وإذا كانوا لا يملكون شيئاً فكيف يملكون الشفاعة؟ وقال الزمخشري: «أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قط حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم». انتهى. فأتى بقوله: «قط» بعد قوله: «لا يملكون» وليس بفعل ماض. وقط ظرف يستعمل مع الماضي لا مع غيره. وقد تكرر للزمخشري هذا الاستعمال وليس باستعمال عربي. (قل لله الشفاعة جميعاً) فهو مالكها يأذن فيها لمن يشاء. ثم أتى بعام وهو (له ملك السموات والأرض) فاندرج فيه ملك الشفاعة. ولما كانت الشفاعة من غيره موقوفة على إذنه كانت الشفاعة كلها له. ولما أخبر أنه له ملك السموات والأرض هدهم بقوله (ثم إليه ترجعون) فيعلمون أنهم لا يشفعون ويحجب سعيكم في عبادتهم - وقال الزمخشري: «معناه (له ملك السموات والأرض) اليوم (ثم إليه ترجعون) يوم القيامة، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له، فله ملك الدنيا والآخرة». (وإذا ذكر الله وحده) أي: مفرداً بالذكر، ولم يذكر مع أهتهم. وقيل: إذا قيل: لا إله إلا الله (وإذا ذكر الذين من دونه) وهي الأصنام. والاشتمزاز والاستبشار: متقابلان غاية، لأن الاشمزاز: امتلاء القلب غماً وغيظاً، فيظهر أثره - وهو الانقباض - في الوجه. والاستبشار امتلاؤه سروراً فيظهر أثره - وهو الانبساط - والتهلل في الوجه. وقال الزمخشري: «(فإن قلت: ما العامل في (وإذا ذكر) قلت: العامل في (إذا) الفجائية تقديره: وقت ذكر الذين من دونه فاجاؤوا الاستبشار». وقال الحوفي «(إذا هم يستبشرون) (إذا) مضافة إلى الابتلاء والخبر (وإذا) مكررة للتوكيد، وحذف ما تضاف إليه. والتقدير: إذا كان ذلك هم يستبشرون فيكون (هم) يستبشرون»

العامل في (إذا) المعنى : إذا كان ذلك استبشروا. انتهى . أما قول الزمخشري . فلا أعلمه من قول من ينتمي للنحو وهو أن الطرفين معمولان لعامل واحد . ثم (إذا) الأولى ينتصب على الظرف والثانية على المفعول به . وأما قول الحوفي فيعيد جداً عن الصواب ، إذ جعل (إذا) مضافة إلى الابتداء والخبر ثم قال (وإذا) مكررة للتوكيد وحذف ما تضاف إليه فكيف تكون مضافة إلى الابتداء والخبر الذي (هم يستبشرون) وهذا كله يوجه عدم الاتقان لعلم النحو والتحدث فيه . وقد تقدم لنا في مواضع (إذا) التي للمفاجأة جواباً لـ (إذا) الشرطية . وقد قررنا في علم النحو الذي كتبناه أن (إذا) الشرطية ليست مضافة إلى الجملة التي تليها وإن كان مذهب الأكثرين . وأنها ليست بمعمولة للجواب ، وأقمننا الدليل على ذلك . بل هي معمولة للفعل الذي يليها كسائر أسماء الشرطية الظرفية . و(إذا) الفجائية رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط كالفاء . وهي معمولة لما بعدها إن قلنا إنها ظرف سواء كان زماناً أو مكاناً . ومن قال : إنها حرف فلا يعمل فيها شيء فـ (إذا) الأولى معمولة لذكرهم . والثانية معمولة لـ (يستبشرون) ولما أخبر عن سخافة عقولهم باسمئزازهم من ذكر الله ، واستشارهم بذكر الأصنام ، أمره أن يدعو بأساء الله العظمى من القدرة ، والعلم ، ونسبة الحكم إليه إذ غيره لا قدرة له ولا علم تام ولا حكم . وفي ذلك وصف لحالهم السيء ، ووعد لهم ، وتسليية للرسول - عليه السلام - وتقدم الكلام في (اللهم) في سورة آل عمران . (ولو أن للذين ظلموا) تقدم الكلام على تشبيهه في العقود (وبدا لهم من الله) أي : كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة حسب ضلالتهم وتحيلاتهم فيما يعتقدونه ، فإذا عاينوا العذاب يوم القيامة ، ظهر لهم خلاف ما كانوا يظنون ، وما كان في حسابهم . وقال سفيان الثوري : «ويل لأهل الرياء من هذه الآية» . (وحاق بهم ما كانوا) أي : جزاء ما كانوا (ما) في (ما كسبوا) يحتمل أن تكون بمعنى الذي ، أي : سيئات أعمالهم . وأن تكون مصدرية . أي سيئات كسبهم . والسيئات : أنواع العذاب سميت سيئات كما قال : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى : ٤٠] .

﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا حوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾  
 قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ، أو لم يعلموا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنبياء إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ .

تقدم في غير آية كون الإنسان إذا مسه الضر التجأ إلى الله مع اعتقادهم الأوثان وعبادتها فإذا أصابتهم شدة نبذوها ودعوا رب السموات والأرض . وهذا يدل على تناقض آرائهم ، وشدة اضطرابها ، و(الإنسان) جنس و(ضرٌّ) مطلق ، والنعمة عامة في جميع ما يسر . ومن ذلك إزالة الضر . وقيل (الإنسان) معين ، وهو حذيفة بن المغيرة والظاهر : أن (ما) في (إنما) كافة مهينة لدخول إن على الجملة الفعلية . وذكر الضمير في (أوتيته) وإن كان عائداً على النعمة لأن معناها مذكر وهو الإنعام أو المال على قول من شرح النعمة بالمال . أو المعنى : شيئاً من النعمة . أو لأنها تشتمل على مذكر ومؤنث فغلب المذكر . وقيل : (ما) موصولة والضمير عائذ على (ما) أي : قال إن الذي أوتيته على علم مني . أي : بوجه المكاسب والمتاجر قاله قتادة . وفيه إعجاب بالنفس وتعظيم مفرط ، أو على علم من الله في استحقاق جزائه عند الله . وفي هذا احتراز بالله وعجز ومن على الله . أو على علم مني بأن ساعطاه - لما في من فضل واستحقاق (بل هي فتنة) إضراب عن دعواه أنه إنما أوتي على علم بل تلك النعمة فتنة وابتلاء . ذكر أولاً في (أوتيته) على المعنى إذ كانت (ما) مهينة ثم عاد إلى اللفظ فأنت في قوله (بل هي) أو تكون (هي) عادت على الإتيان . أي : بل إتيانه النعمة فتنة . وكان العطف هنا بالفاء في (فإذا) وبالواو في أول السورة ، لأنها وقعت مسببة عن قوله (وإذا ذكر الله) يشمئزون عند ذكر الله و(يستبشرون) بذكر آلهتهم . فإذا مس أحدهم

ضر دعا من أشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره . ومناسبة السببية أنك تقول زيد مؤمن . فإذا مسه الضر التجأ إلى الله . فالسبب هنا ظاهر . وزيد كافر فإذا مسه الضر التجأ إليه يقيم كفره مقام الإيمان في جعله سبباً للتجاء يحكي عكس ما فيه الكافر . يقصد بذلك الإنكار والتعجب من فعله المتناقض حيث كفر بالله ثم التجأ إليه في الشدائد . وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة ، بل ناسبت ما قبلها فعطف عليه بالواو إذا كانت (فإذا) متصلة بقوله : ﴿وإذا ذكر الله وحده﴾ [الزمر : ٤٥] كما قلنا . فما بينهما من الآي اعتراض يؤكد به ما بين المتصلين فدعاء الرسول ربه بأمر منه وقوله : ﴿أنت تحكم﴾ [الزمر : ٤٦] وتعقيب الوعيد تأكيد لاشمئزازهم ، واستبشارهم ، ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آهنتهم . وقوله : ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ [الزمر : ٤٧] يتناول هم . أو لكل ظالم إن جعل مطلقاً أو إياهم خاصة إن عوا به . انتهى . وهو ملتقط أكثره من كلام الزمخشري . وهو متكلف في ربط هذه الآية بقوله : ﴿وإذا ذكر الله وحده أشمأزت﴾ [الزمر : ٤٥] مع بعدما بينهما من الفواصل . وإذا كان أبو علي الفارسي لا يميز الاعتراض بجملتين فكيف يميزه بهذه الجمل الكثيرة . والذي يظهر في الربط أنه لما قال : ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ [الزمر : ٤٧] الآية كان ذلك إشعاراً بما ينال الظالمين من شدة العذاب ، وأنه يظهر لهم يوم القيامة من العذاب ما لم يكن في حسابهم أتبع ذلك بما يدل على ظلمه وبغيه إذ كان إذا مسه ضر دعا ربه فإذا أحسن إليه لم ينسب ذلك إليه ، ثم إنه بعد وصف تلك النعمة أنها ابتلاء وفتنة كما بداله في الآخرة من عمله الذي كان يظنه صالحاً ما لم يكن في حساب من سوء العذاب المترتب على ذلك العمل ترتب الفتنة على تلك النعمة (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي : إن ذلك استدراج وامتحان . (قد قالها الذين من قبلهم) أي : قال مثل مقالتهم (أوتيته على علم) والظاهر : أن قائل ذلك جماعة من الأمم الكافرة الماضية كقارون في قوله : ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص : ٧٨] وقيل : الذين من قبلهم ، هم : قارون وقومه إذ رضوا بمقالته فنسب القول إليهم جميعاً وقرئ (قد قاله) أي : قال القول أو الكلام . (فما أغني عنهم) يجوز أن تكون (ما) نافية ، وهو الظاهر . وأن تكون استفهامية فيها معنى النفي (ما كانوا يكسبون) أي : من الأموال (والذي ظلموا من هؤلاء) إشارة إلى مشركي قريش (سيصيبهم سيئات ما كسبوا) جاء بسين الاستقبال التي هي أقل تنقيساً في الزمان من سوف . وهو خبر غيب أبرزه الوجود في يوم بدر . وغيره . قتل رؤساءهم وحبس عنهم الرزق فلم يمطروا سبع سنين ، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين ، فقبل لهم : ألم تعلموا أنه لا قابض ولا باسط إلا الله تعالى . (قل يا عبادي الذين أسرفوا) نزلت في وحشي قاتل حمزة ، قاله عطاء . أو في قوم آمنوا ، عياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر معها . ففتنتهم قريش فافتتنوا وظنوا أن لا توبة لهم ، فكتب عمر لهم هذه الآية<sup>(١)</sup> قاله عمر ، والسدي ، وقتادة ، وابن إسحق ، وقيل : في قوم كفار من أهل الجاهلية قالوا : وما ينفعنا الإسلام وقد زيننا وقتلنا النفس وأتينا كل كبيرة . ومناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لما شدد على الكفار وذكر ما أعد لهم من العذاب ، وأنهم لو كان لأحدهم ما في الأرض ومثله معه لا فتدى به من عذاب الله ذكر ما في إحسانه من غفران الذنوب إذا آمن العبد ورجع إلى الله . وكثيراً تأتي آيات الرحمة مع آيات النعمة ليرجو العبد ويخاف . وهذه الآية عامة في كل كافر يتوب ومؤمن عاص يتوب تمحو الذنوب توبته . وقال عبد الله ، وعلي ، وابن عامر : «هذه أرجى آية في كتاب الله» . وتقدم الخلاف في قراءة (لا تقنطوا) في الحجر . (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) عام يراد به ما سوى الشرك فهو مقيد أيضاً بالمؤمن العاصي غير التائب بالمشيئة . وفي قوله (يا عبادي) بإضافتهم إليه وندائهم ، إقبال وتشريف (أسرفوا على أنفسهم) أي : بالمعاصي والمعنى : إن ضرر تلك الذنوب إنما هو عائد عليهم . والنهي عن القنوط يقتضي الأمر بالرجاء . وإضافة الرحمة إلى الله التفات من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب ، لأن في إضافتها إليه سعة للرحمة إذا أضيفت إلى الله الذي هو أعظم الأسماء ، لأنه العلم المحتوي على معاني جميع الأسماء . ثم أعاد الاسم الأعظم وأكد الجملة بأن مبالغة في

(١) انظر الطبري ٢٤/٦٤ والبغوي ٤/٨٣ والبخاري في صحيحه كتاب التفسير تفسير سورة الزم والقرطبي ١٥/٢٦٨ والوسيط ١٤ خ .



الوعد بالغفران. ثم وصف نفسه بما سبق في الجملتين من الرحمة والغفران بصفتي المبالغة وأكد بلفظ هو المقتضى عند بعضهم الحصر. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(إن الله يغفر الذنوب جميعاً) شرط التوبة وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه، لأن القرآن في حكم كلام واحد. ولا يجوز فيه التناقض». انتهى. وهو على طريقة المعتزلة في أن المؤمن العاصي لا يغفر له إلا بشرط التوبة. ولما كانت هذه الآية فيها فسحة عظيمة للمسرف أتبعها بأن الإنابة - وهي الرجوع - مطلوبة مأمور بها ثم توعد من لم يتب بالعذاب حتى لا يبقى المرء كالممل من الطاعة والمتكل على الغفران دون إنابة. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «وإنما ذكر الإنابة على إثر المغفرة، لثلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة. وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه». انتهى. وهو على طريقة الاعتزال. (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) مثل قوله: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ [الزمر: ١٨] هو القرآن. وليس المعنى: أن بعضاً أحسن من بعض، بل كله حسن. (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة) أي: فجأة (وأنتم لا تشعرعون) أي: وأنتم غافلون عن حلوله بكم فيكون ذلك أشد في عذابكم. ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كربة فأكون من المحسنين، بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين، ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين وينجي الله الذين اتقوا بمغازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾. روي: «أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق، أتاه إبليس، فقال له: تمتع من الدنيا ثم تب، فأطاعه وأنفق ماله في الفجور، فأتاه ملك الموت في أذنا ما كان. فقال: (يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) وذهب عمري في طاعة الشيطان، وأسخطت ربي، فندم حين لا ينفعه، فأنزل الله خبره» (أن تقول) مفعول من أجله. فقدرة ابن عطية. أي: أنيبوا من أجل أن تقول». وقال الزمخشري: «كراهة أن تقول» والحوفي: «أندرتناكم مخافة أن تقول»، ونكر نفس، لأنه أريد بها بعض الأنفس. وهي نفس الكافر، أو أريد الكثير. كما قال الأعشى:

وَرُبُّ بَقِيْعٍ لَوْ هَتَفْتُ لِنَحْوِهِ  
أَتَانِي كَرِيْمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبًا<sup>(٣)</sup>

يريد: أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً. أو أريد: نفس متميزة من الأنفس بالفجاج<sup>(٤)</sup> الشديد في الكفر. أو بعذاب عظيم. قال هذه المحتملات الزمخشري. والظاهر الأول. وقرأ الجمهور (يا حسرتا) بإبدال ياء المتكلم ألفاً. وأبو جعفر (يا حسرتي) بياء الإضافة. وعنه (يا حسرتي) بالألف والياء جمعاً بين العوض والمعوض. والياء مفتوحة أو ساكنة. وقال أبو الفضل الرازي في تصنيفه كتاب اللوامح: «ولو ذهب إلى أنه أراد تثنية الحسرة مثل لبيك وسعديك لأن معناهما لب بعد لب وسعد بعد سعد فكذلك هذه الحسرة بعد حسرة، لكثرة حسراتهم يومئذ. أو أراد حسرتين فقط من فوت الجنة لدخول النار لكان مذهباً. ولكان ألف التثنية في تقدير الياء على لغة بلحرت بن كعب». انتهى. وقرأ ابن كثير في الوقف (يا حسرتاه) بهاء السكت. قال سيبويه: «ومعنى نداء الحسرة والويل هذا وقتك فاحصري». والجنب: الجانب. ومستحيل على الله الجارحة لإضافة الجنب إليه مجاز. قال مجاهد والسدي «في أمر الله»، وقال الضحاك: «في ذكره يعني القرآن والعمل

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٣٥.

(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٣٦.

(٣) من الطويل انظر ديوانه (٢٨) الكشاف (٤/ ١٣٦) القرطبي (١٥/ ١٧٦).

(٤) انظر لسان العرب (٥/ ٣٣٥١).

به. وقيل: «في جهة طاعته» والجنب: الجهة. وقال الشاعر:

أَفِي جَنْبٍ تَكْنَى قَطَعْتَنِي مَلَامَةً سُلَيْمِي لَقَدْ كَانَتْ مَلَامَتُهَا ثَنَاءً<sup>(١)</sup>

وقال الراجز:

النَّاسُ جَنْبٌ وَالْأَمِيرُ جَنْبٌ<sup>(٢)</sup>

ويقال أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجنب والجانب ثم قالوا: فَرُطَ في جنبه. يريدون حقه. قال سابق البربري:

أَمَّا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ عَاشِقِي لَهُ كَيْدَ حَرَىٰ عَلَيْكَ تَقَطُّعُ<sup>(٣)</sup>  
وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبتته فيه. ألا ترى إلى قوله:

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمُرُوَّةَ وَالنَّدَىٰ فِي قُبَّةٍ ضَرَبْتُ عَلَىٰ ابْنِ الْحَشْرَجِ<sup>(٤)</sup>

ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا. يريدون لأجلك. وكذلك فعلت هذا من جهتك و(ما) في (ما فرطت) مصدرية. أي: على تفريطي في طاعة الله (وإن كنت لمن الساخرين)، قال قتادة: «لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها». وقال الزمخشري: «ومحل (وإن كنت) النصب على الحال، كأنه قال: فرطت وأنا ساخر. أي: فرطت في حال سخرיתי». انتهى. ويظهر أنه استئناف إخبار عن نفسه بما كان عليه في الدنيا لا حال. (أو تقول لو أن الله هداني) أي: خلق في الهداية بالإلحاء، وهو خارج عن الحكمة، أو بالإلطف ولم يكن من أهلها فيلطف به. أو بالوحي فقد كان ولكنه أعرض ولم يتبعه حتى يهتدي. وإنما يقول هذا، تحيراً في أمره، وتعللاً بما لا يجدي عليه كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحوه ﴿لوهذا الله هدىناكم﴾ [إبراهيم: ٢١] انتهى. وهو على طريقة الاعتزال وانتصب (فأكون) على جواب التمني الدال عليه (لو) أو على (كرة) إذ هو مصدر، فيكون مثل قوله:

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرُ ذِكْرِي وَحَسْرَةٍ وَتَسْأَلُ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمْمُوا<sup>(٥)</sup>

وقول الآخر:

لَلْبُسِّ عِبَاءَةٌ وَتَقَرُّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ<sup>(٦)</sup>

والفرق بينهما: أن الفاء إذا كانت في جواب التمني كانت «أن» واجبة الإضمار وكان الكون مرتباً على حصول التمني لا متمنى وإذا كانت للعطف على (كرة) جاز إظهار أن وإضمارها، وكان الكون متمنى. (بلى) هو حرف جواب لمنفي أو

(١) البيت لكعب بن زهير انظر ديوانه (١٢٨) اللسان (ثنى).

(٢) عجز وصدوره:

قسم مجهوراً لذلك القلب

القرطبي ١٧٦/١٥، اللسان: جنب.

(٣) نسب لجميل بن معمر وقيل لكثير انظر ديوان جميل (٧٣) الكشف (١٣٧/٤) القرطبي (١٧٦/١٥) روح المعاني (١٧/٢٤).

(٤) البيت لزبيد الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور انظر الكشف (١٣٧/٤) روح المعاني (١٧/٢٤).

(٥) البيت من الطويل انظر معاني الفراء (٤٢٣/٢) الطبري (١٤/٢٤) القرطبي (١٧٧/١٥) روح المعاني (١٨/٢٤).

(٦) تقدم.

لداخل عليه همزة التقرير. ولما كان قوله (لو أن الله هادي) وجوابه متضمناً نفي الهداية، كأنه قال: ما هادي الله فقيل له (بلى قد جاءتك آياتي) مرشدة لك (فكذبت)، وقال الزمخشري: «رد من الله عليه، ومعناه، بلى قد هديت بالوحي». انتهى. جرياً على قواعد المعتزلة، وقال ابن عطية: «وحق (بلى) أن تجيء بعد نفي عليه تقرير، وقوله (بلى) جواب لنفي مقدر كأن النفس قالت: فعمري في الدنيا لم يتسع للنظر أو قالت: فإني لم يتبين لي الأمر في الدنيا. ونحو هذا». انتهى. وليس حق (بلى) ما ذكر بل حقه أن تكون جواب نفي ثم حمل التقرير على النفي. ولذلك لم يحمله عليه بعض العرب وأجابه بـ (نعم) ووقع ذلك أيضاً في كلام سيبويه نفسه أن أجاب التقرير بـ (نعم) اتباعاً لبعض العرب. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: (فإن قلت: ) هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله (لو أن الله هادي) ولم يفصل بينها بآية؟ قلت: ) لأنه لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث، فيفرق بينهن. وإما أن تؤخر القرينة الوسطى فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن. وأما الثاني فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم معنى الرجعة، فكان الصواب ما جاء عليه. وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها. ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب». انتهى. وهو كلام حسن. وقرأ الجمهور (قد جاءتك) بفتح الكاف وفتح تاء ما بعدها خطأ للكافر ذي النفس، وقرأ ابن يعمر، والجحدري، وأبو حيوة، والزعفراني، وابن مقسم، ومسعود بن صالح، والشافعي عن ابن كثير، ومحمد بن عيسى، في اختياره وعن نصير، والعسبي، بكسر الكاف والتاء خطاب للنفس. وهي قراءة أبي بكر الصديق وابنته عائشة رضي الله عنهما، وروتهما أم سلمة عن النبي - ﷺ - وقرأ الحسن، والأعرج، والأعمش (جأتك) بالهمز من غير مد بوزن بعتك، وهو مقلوب من جاءتك قدمت لام الكلمة وأخرت العين فسقطت الألف كما سقطت في رمت وعرت. ولما ذكر مقالة الكافر ذكر ما يعرض له يوم القيامة من الإنذار بسوء منقلبه. وفي ضمنه وعيد لمصاريه - عليه السلام - والرؤية هنا: من رؤية البصر، وكذبهم: نسبتهم إليه تعالى البنات، والصاحبة، والولد، وشرعهم ما لم يأذن به الله. والظاهر: أنه عام في المكذبين على الله. وخصه بعضهم بمشركي العرب وبأهل الكتابين. وقال الحسن: «هم القدرية، يقولون: إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل»<sup>(٢)</sup> وقال القاضي: «يجب حمل الآية على الكل من المجرة والمشبهة وكل من وصف الله بما لا يليق به نفيًا وإثباتًا، فأضاف إليه ما يجب أن لا يضاف إليه فالكل كذبوا على الله. فتخصيص الآية بالمجربة، والمشبهة، واليهود، والنصارى، لا يجوز». وقال الزمخشري: «(كذبوا على الله) وصفوه بما لا يجوز عليه، وهو متعال عنه، فأضافوا إليه الولد والشريك وقولوا: ﴿شفعناؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] ﴿وقالوا لول شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ [الزخرف: ٢٠] وقالوا: ﴿والله أمرنا بها﴾ [الأعراف: ٢٨] قوم يسفهونه بفعل القبائح. ويجوز أن يخلق خلقاً لا لغرض وقوله لا لغرض ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق، ويمجسونه بكونه مرثياً مدركاً بالحاسة، ويشتون له يداً، وقدماً، وجنباً، مستترين بالبلكفة، ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماً». انتهى. وكلام من قبله على طريقة المعتزلة. والظاهر: أن الرؤية من رؤية البصر وأن (وجوههم مسودة) جملة في موضع الحال. وفيها رد على الزمخشري إذ زعم أن حذف الواو من الجملة الاسمية في موضع المفعول الثاني وهو بعيد، لأن تعلق البصر برؤية الأجسام وألوانها أظهر من تعلق القلب. وقرئ (وجوههم مسودة) بتبنيها ف (وجوههم) بدل بعض من كل. وقرأ أبي (أجوههم) بإبدال الواو همزة. والظاهر: أن الإسوداد حقيقة، كما مر في قوله: ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون في العبارة تجوز وعبر بالسواد عن ارتداد وجوههم، وغالب همهم، وظاهر كاتبهم. ولما ذكر تعالى حال الكاذبين على الله ذكر حال المتقين. أي: الكذب على الله وغيره. مما يؤول بصاحبه إلى اسوداد وجهه. وفي ذلك الترغيب في هذا الوصف الجليل الذي هو التقوى، قال السدي:

(١) انظر الكشاف ٤/١٣٨.

(٢) انظر زاد المسير ٧/١٩٣ والوسط ١٥ خ.

«بمفازتهم) بفلاحهم يقال فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده». وتفسير المفازة قوله (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) كأنه قيل: وما مفازتهم؟ قيل: لا يمسهم السوء. أي: ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي: بمنجاة منه لأن النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فر ابن عباس - رضي الله عنه - المفازة بالأعمال الحسنة ويجوز بسبب فلاحهم، لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة. ويجوز أن يسمى العمل الصالح بنفسه مفازة، لأنه سببها (فإن قلت: (لا يمسهم) ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ (قلت: (أما على التفسير الأول فلا محل له، لأنه كلام مستأنف، وأما على الثاني فمحله النصب على الحال). انتهى. وقرأ الجمهور (بمفازتهم) على الإفراد. والسلمي، والحسن، والأعرج، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر على الجمع. من حيث النجاة أنواع والأسباب مختلفة. قال أبو علي: «المصادر تجمع إذا اختلف أجناسها كقوله: ﴿وتظنون بالله الظنون﴾ [الأحزاب: ١٠]» وقال الفراء: «كلا القراءتين صواب. تقول: قد تبين أمر الناس وأمور الناس». ولما ذكر تعالى الوعد والوعيد عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد فذكر أنه خالق كل شيء فدل على أعمال العباد لاندراجها في عموم كل شيء وأنه على كل الأشياء قائم لحفظها وتديرها. (له مقاليد السموات والأرض) قال ابن عباس: «مفاتيح». وهذه استعارة، كما تقول: بيد فلان مفتاح هذا الأمر. وعن رسول الله - ﷺ - «أن المقاليد لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير». وتأويله على هذا أن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد. وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها من المتقين أصاب. (والذين كفروا بآيات الله) وكلماته: توحيده وتمجيده (أولئك هم الخاسرون)، وقال الزمخشري: (فإن قلت: (بم اتصل قوله (والذين كفروا)؟ (قلت: (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأن خالق الأشياء كلها - وهو مهيمن عليها - لا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين منها، وما يستحقون عليها من الجزاء، وأن له مقاليد السموات والأرض، قال أبو عبد الله الرازي: «وهذا عندي ضعيف من وجهين، الأول: أن وقوع الفاصل الكثير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد. والثاني: أن قوله تعالى (وينجي الله الذين اتقوا) جملة فعلية وقوله (والذين كفروا) جملة اسمية. وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز. والأقرب عندي أن يقال: إنه لما وصف بصفات الإلهية والجلالة، وهو كونه خالق الأشياء كلها، وكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض، وقال (الذين كفروا) بهذه الآيات الظاهرة الباهرة (هم الخاسرون)». انتهى. وليس بفاصل كثير، وقوله: «وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز». كلام من لم يتأمل لسان العرب، ولا نظر في أبواب الاشتغال، وأما قوله «والأقرب عندي فهو مأخوذ من قول الزمخشري وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فآله خالقه، وفتح بابه، والذين كفروا ووجدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون.

﴿قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون، ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾.

روي أنه قال المشركون للرسول عليه السلام استلم بمض ألهتنا ونؤمن بإهلك<sup>(١)</sup> (وغير) منصوب ب (أعبد). قال

(١) انظر البغوي ٤/٨٦ وابن كثير ٤/٦١ والوسيط ١٦ خ.

الأخفش (تأمروني) ملغاة. وعنه أيضاً (أفغير) نصب بـ (تأمروني) لا بـ (أعبد) لأن الصلة لا تعمل فيها قبلها إذا الموصول منه حذف فرفع كما في قوله :

### أَلَا أَيُّهَا ذَا الزَّاجِرِ أَخْضِرْ الْوَعَى <sup>(١)</sup>

والصلة مع الموصول في موضع النصب بدلاً منه أي : أفغير الله تأمروني عبادته . والمعنى : أتأمروني بعبادة غير الله . وقال الزمخشري : أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله (تأمروني أعبد) لأنه في معنى تعبدون وتقولون لي اعبد . و(أفغير الله) تقولون لي أعبد فكذلك (أفغير الله) تقولون لي أن أعبد . و(أفغير الله تأمروني) أن (أعبد) والدليل على صحة هذا الوجه قراءات من قرأ (أعبد) بالنصب يعني بنصب الدال بإضمار أن، وقرأ الجمهور (تأمروني) بإدغام النون في نون الوقاية وسكون الياء . وفتحها ابن كثير . وقرأ ابن عامر (تأمروني) بنونين على الأصل . ونافع (تأمروني) بنون واحدة مكسورة وفتح الياء . قال ابن عطية : «وهذا على حذف النون الواحدة وهي الموطئة لياء المتكلم، ولا يجوز حذف النون الأولى وهو لحن، لأنها علامة رفع الفعل» . انتهى . وفي المسألة خلاف . منهم من يقول : المحذوفة نون الرفع، ومنهم من يقول : نون الوقاية وليس بلحن، لأن التركيب متفق عليه . والخلاف جرى في أيها حذف؟ ونختار أنها نون الرفع . ولما كان الأمر بعبادة غير الله لا يصدر إلا من غبي جاهل ناداهم بالوصف المقتضي ذلك فقال (أيها الجاهلون) ولما كان الإشراف مستحيلاً على من عصمه الله وجب تأويل قوله (لئن أشركت) أيها السامع ومضى الخطاب على هذا التأويل . ويدل على هذا التأويل أنه ليس براجع الخطاب للرسول إفراد الخطاب في (لئن أشركت) إذ لو كان هو المخاطب لكان التركيب «لئن أشركت» فيشمل ضمير هو ضمير الذين من قبله ويغلب الخطاب . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) المومى إليهم جماعة فكيف قال (لئن أشركت) على التوحيد؟ (قلت :) معناه : لئن أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله، وأوحى إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت، كما تقول كسانا حلة . أي : كل واحد منا (فإن قلت :) كيف يصح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا يحبط أعمالهم؟ (قلت :) هو على سبيل الفرض، والمحالات يصح فرضها . ثم ذكر كلاماً يوقف عليه في كتابه . ويستدل بهذه الآية على حبوط عمل المرتد من صلاة وغيرها (وأوحى) مبني للمفعول . ويظهر أن الوحي هو هذه الجملة من قوله (لئن أشركت) إلى (من الخاسرين) وهذا لا يجوز على مذهب البصريين، لأن الجملة لا تكون فاعلة فلا تقوم مقام الفاعل . وقال مقاتل : «أوحى إليك بالتوحيد والتوحيد محذوف، ثم قال (لئن أشركت ليحبطن عملك) والخطاب للنبي - عليه السلام - خاصة» . انتهى . فيكون الذي أقيم مقام الفاعل هو الجار والمجرور وهو (إليك) وبالتوحيد فضلة يجوز حذفها لدلالة ما قبلها عليها . وقرأ الجمهور (لِيَحْبَطَنَّ) مبنياً للفاعل (عملك) رفع به . وقرئ (لِيَحْبِطَنَّ) بالياء من أحبط عمله بالنصب . أي : ليحبطن الله عملك . أو الإشراف عملك . وقرئ بالنون . أي : (لِنَحْبِطَنَّ عملك) بالنصب . والجلالة منصوبة بقوله (فاعبد) على حد قولهم : زيدا فاضرب وله تقرير في النحو وكيف دخلت هذه الفاء . وقال الفراء : «إن شئت نصبة بفعل مضمر قبله، كأنه يقدر : اعبد الله فاعبده، وقال الزمخشري : «(بل الله فاعبد) ردّ لما أمره به من استلام بعض آلهتهم، كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله . فحذف الشرط وجعل تقدم المفعول عوضاً منه» . انتهى . ولا يكون تقدم المفعول عوضاً من الشرط لجواز أن يجيء : زيد فعمراً ضرب . فلو كان عوضاً لم يجز الجمع بينهما (وكن من الشاكرين) لأنعمه التي أعظمها الهداية لدين الله . وقرأ عيسى (بل الله) بالرفع، والجمهور بالنصب . (وما قدروا الله حق قدره) أي : ما عرفوه حق معرفته، وما قدروه في أنفسهم حق تقديره إذ أشركوا معه غيره، وساواوا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة . وقرأ الأعمش (حق قدره) بفتح الدال . وقرأ الحسن، وعيسى، وأبو نوفل،

وأبوحوية (وما قَدَرُوا) بتشديد الدال (حق قدره) بفتح الدال. أي: ما عظموه حقيقة تعظيمه. والضمير في (قدروا) قال ابن عباس: «في كفار قريش»، كانت هذه الآية كلها محاورة لهم ورداً عليهم. وقيل: نزلت في قوم من اليهود تكلموا في صفات الله وجلاله، فأخذوا، وجسموا، وجاؤوا بكل تخليط. وهذه الجملة المذكورة في الأنعام، وفي الحج، وهنا. ولما أخبر أنهم ما عرفوه حق معرفته، نبههم على عظمته وجلاله شأنه على طريق التصوير والتخييل، فقال (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقال الزمخشري: (١) «والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعة، تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله. لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو جهة مجاز. انتهى. ويعني: «أو جهة مجاز» معين. والاختيار التصوير والتخييل هو من المجاز، وقال غيره: الأصل في الكلام حمله على حقيقته، فإن قام دليل منفصل على تعذر حمله عليها تعين صرفه إلى المجاز، فلفظ القبضة واليمين حقيقة في الجارحة، والدليل العقلي قائم على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى، فوجب الحمل على المجاز، وذلك أنه يقال: فلان في قبضة فلان إذا كان تحت تديبه وتسخيره. ومنه ﴿أو ما ملكت أيمنهم﴾ [المؤمنون: ٦] فالمراد كونه مملوكاً لهم. وهذه الدار في يد فلان وقبض فلان كذا وصار في قبضته، يريدون خلوص ملكه. وهذا كله مجاز مستفيض مستعمل». وقال ابن عطية: «اليمين هنا، والقبضة، عبارة عن القدرة. وما اختلج في الصدر من غير ذلك باطل». وما ذهب إليه القاضي يعني ابن الطيب من أنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف، ويحسب ما يختلج في النفوس التي لم يحصها العلم قال عز وجل (سبحانه وتعالى عما يشركون) أي: منزه عن جميع الشبه التي لا تليق به انتهى. وقال القفال: «هذا كقول القائل: وما قدرني حق قدري وأنا الذي فعلت كذا وكذا. أي: لما عرفت أن حالي وصفتي هذا الذي ذكرت وجب أن لا تحطىء عن قدرتي ومنزلي. ونظيره ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] أي: كيف تكفرون بمن هذه صفته، وحال ملكه، فكذا هنا (وما قدروا الله حق قدره) أي: زعموا أن له شركاء، وأنه لا يقدر على إحياء الموتى مع أن الأرض والسموات في قبضة قدرته». انتهى. (والأرض) أي: والأرضون السبع. ولذلك أكد بقوله (جميعاً) وعطف عليه (والسموات) وهو جمع. والموضع موضع تفخيم فهو مقتض المبالغة. والقبضة: المرة الواحدة من القبض، وبالضم المقدار المقبوض بالكف. ويقال في المقدار. قبضته بالفتح، تسمية له بالقدر فاحتمل هنا هذا المعنى واحتمل أن يراد المصدر على حذف مضاف. أي: ذوات قبضة. أي: يقبضهن قبضة واحدة. فالأرضون مع سعتها وبسطتها، لا يبلغن إلا قبضة كف. وانتصب (جميعاً) على الحال. قال الحوفي: «والعامل في الحال ما دل عليه (قبضته)» انتهى. ولا يجوز أن يعمل فيه (قبضته) سواء كان مصدرًا أم أريد به المقدار». وقال الزمخشري: «ومع القصد إلى الجمع يعني في الأرض وأنه أريد بها الجمع قال وتأكيده بالجمع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء ذلك الخبر، ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ولكن عن الأراضي كلهن». انتهى ولم يذكر العامل في الحال. (ويوم القيامة) معمول لـ (قبضته)، وقرأ الحسن (قبضته) بالنصب، قال ابن خالويه: «بتقدير: في قبضته هذا قول الكوفيين. وأما أهل البصرة فلا يجيزون ذلك كما لا يقال زيد داراً». انتهى. وقال الزمخشري (٢): «جعلها ظرفاً مشبهاً للوقت بالبهيم». وقرأ عيسى، والجحدري (مطويات) بالنصب على الحال. وعطف (والسموات) على (الأرض) فهي داخلة في حيز والأرض فالجميع قبضته. وقد استبدل بهذه القراءة الأخفض على جواز: زيد قائماً في الدار. إذ أعرب (والسموات) مبتدأ و(بيمينه) الخبر، وتقدمت الحال والمجرور. ولا حجة فيه، إذ يكون (والسموات) معطوفاً على (والأرض) كما قلنا. و(بيمينه) متعلق بـ (مطويات) و(مطويات) من الطي الذي هو ضد النشر كما قال تعالى: ﴿يوم نظوي الساء كطي السجل للكتاب﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجل أن يطويه

(١) انظر الكشاف ٤/١٤٣.

(٢) انظر الكشاف ٤/١٤٤.

بيمينه . وقيل : (قبضته) ملكه بلا مدافع ولا منازع . و(بيمينه) وبقدرته . قال الزمخشري<sup>(١)</sup> : «وقيل (مطويات بيمينه) مفنيات بقسمه ، لأنه أقسم أن يفنيها . ثم أخذ ينحي على من تأول هذا التأويل بما يوقف عليه في كتابه . وإنما قدر عظمتها بما سبق إردافه أيضاً بما يناسب من ذلك إذ كان فيما تقدم ذكر حال الأرض والسموات يوم القيامة ، فقال (ونفخ في الصور) وهل النفخ في الصور ثلاث مرات أو نفختان قول الجمهور . فنفخة الفزع . هي : نفخة الصعق والصعق هنا : الموت . أي : فهاث (من في السموات ومن في الأرض) ، قال ابن عطية : «(الصور) هنا القرن ولا يتصور هنا غير هذا ، ومن يقول (الصور) جمع صورة ، وإنما يتوجه قوله في نفخة البعث ، وروي أن بين النفختين أربعين» . انتهى . ولم يعين ، وقراءة قتادة ، وزيد بن علي ، هنا (في الصُّور) بفتح الواو جمع صُورَة يعكر على قول ابن عطية ، لأنه لا يتصور هنا إلا أن يكون القرن ، بل يكون هذا النفخ في الصور مجازاً عن مشاركة الموت وخروج الروح . وقرىء (فصُعِق) بضم الصاد . والظاهر : أن الاستثناء عناه : (إلا من شاء الله فلم يصعق . أي : لم يموت . والمستثنون : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، وأرضوان خازن الجنة ، والحور ، ومالك ، والزبانية . أو المستثنى : الله أقوال . آخرها للحسن وما قبله للضحك . وقيل : الاستثناء يرجع إلى من مات قبل الصعقة الأولى . أي : يموت من في السموات والأرض إلا من سبق موته ، لأنهم كانوا قد ماتوا . وهذا نظير ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [الدخان ٥٦] (ثم نفخ فيه أخرى) واحتمل (أخرى) على أن تكون في موضع نصب ، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور كما أقيم في الأول ، وأن يكون في موضع رفع مقاماً مقام الفاعل ، كما صرح به في قوله : ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ [الحاقة : ١٣] (فإذا هم قيام ينظرون) أي : أحياء قد أعيدت لهم الأبدان والأرواح (ينظرون) أي : ينتظرون ما يؤمرون . أو ينتظرون ماذا يفعل بهم . أو يقبلون أبصارهم في الجهات نظر المبهور إذا فاجأه خطب عظيم . والظاهر : قيامهم الذي هو ضد القعود ، لأجل استيلاء الذهن عليهم ، وقرأ زيد بن علي (قياماً) بالنصب على الحال . وخبر المبتدأ الظرف الذي هو (إذا) الفجائية . وهي حال لا بد منها ، إذ هي محط الفائدة إلا أن يقدر الخبر محذوفاً . أي ؛ فإذا هم مبعوثون . أي : موجودون قياماً . وإن نصبت (قياماً) على الحال ، فالعامل فيها ذلك الخبر المحذوف إن قلنا الخبر محذوف ، وأن لا عامل . فالعامل هو العامل في الظرف فإن كان (إذا) ظرف مكان على ما يقتضيه كلام سيبويه ، فتقديره : فبالخضرة هم قياماً . وإن كان ظرف زمان كما ذهب إليه الرياشي فتقديره ففي ذلك الزمان الذي نفخ فيه هم . أي : وجودهم . واحتج إلى تقدير هذا المضاف ، لأن ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجنة . وإن كانت (إذا) حرفاً كما زعم الكوفيون فلا بد من تقدير الخبر إلا أن أعتقد أن (ينظرون) هو الخبر ، ويكون (ينظرون) عاملاً في الحال .

وقرأ الجمهور (وأشْرَقَتْ) مبنياً للفاعل . أي : أضاءت . وابن عباس ، وعبيد بن عمير ، وأبو الجوزاء مبنياً للمفعول من شَرقت بالضوء تشرق إذا امتلأت به . واعتصت وأشرقها الله . كما تقول : ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً . قاله الزمخشري وقال ابن عطية : «وهذا إنما يترتب على فعل يتعدى ، فهذا على أن يقال : أشرق البيت . وأشرقه السراج . فيكون الفعل مجاوزاً وغير مجاوز كـ (رَجِعَ) ورجعته ووقف ووقفته (والأرض) في هذه الآية الأرض المبدلة من الأرض المعروفة . ومعنى (أشرفت) أضاءت وعظم نورها» . انتهى . وقال صاحب اللوامح : «وجب أن يكون الإشراق على هذه القراءة منقولاً من «شرفت الشمس» إذا طلعت . فيصير متعدياً بالفعل بمعنى : أذهب ظلمة الأرض ، ولا يجوز أن يكون من «أشرفت» إذا أضاءت فإن ذلك لازم وهذا قد تعدى إلى الأرض ، لما لم يذكر الفاعل وأقيمت الأرض مقامه . وهذا على معنى ما ذهب إليه بعض المتأخرين من غير أن يتقدم في ذلك ، لأن من الأفعال ما يكون متعدياً لازماً معاً على مثال واحد» . انتهى . وفي الحديث الصحيح : «يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لأحد» . (بنور رها) قيل : يخلق الله

نوراً يوم القيامة فيلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به . وقال ابن عباس : «النور هنا ليس من نور الشمس والقمر بل هو نور يخلقه الله فيضيء الأرض» . وروي : «أن الأرض يومئذ من فضة» . والمعنى : أشرقت بنور خلقه الله تعالى . أضافه إليه إضافة الملك إلى الملك ، وقال الزمخشري : «استعار الله النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل . وهذا من ذلك والمعنى : وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، وبسط من القسط في الحسنات ، ووزن الحسنات والسيئات ، وينادى عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل . وإضافة اسمه إلى الأرض ، لأنه يزينها حين ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ، ولا أعمر لها منه . ويقولون للملك العادل : أشرقت الأفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما يقولون أظلمت البلاد بجور فلان» . وقال رسول الله - ﷺ - : «الظلم ظلمات يوم القيامة» . وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم . (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) أي : صحائف الأعمال . ووحيد ، لأنه اسم جنس ، وكل أحد له كتاب على حدة . وأبعد من قال (الكتاب) هنا : اللوح المحفوظ . وروي ذلك عن ابن عباس ولعله لا يصح . وقد ضعف بأن الآية سقت مقام التهديد في سياق الخبر . (وجيء بالنبيين) ليشهدوا على أمهم<sup>(١)</sup> (والشهداء) قيل : جمع شاهد ، وهم : الذين يشهدون على الناس بأعمالهم . وقيل : هم الرسل من الأنبياء<sup>(٢)</sup> . وقيل : أمة محمد - ﷺ - يشهدون للرسل وقال عطاء ومقاتل وابن زيد الحفظة وقال ابن زيد أيضاً النبيون والملائكة وأمة محمد عليه السلام والجوارح» . وقال قتادة : «الشهداء) جمع شهيد . وليس فيه توعد وهو مقصود الآية . (وقضى بينهم) أي : بين العالم ، ولذلك قسموا بعد إلى قسمين أهل النار وأهل الجنة (بالحق) أي : بالعدل ، (وفويت كل نفس) أي : جوزيت مكملاً (وهو أعلم بما يفعلون) فلا يحتاج إلى كاتب ولا شاهد . وفي ذلك وعيد وزيادة تهديد .

﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فنبس مئوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبؤاً من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ .

ولما ذكر أشياء من أحوال يوم القيامة على سبيل الإجمال بين بعد كيفية أحوال الفريقين وما أفضى إليه كل واحد منهما فقال (وسيق) والسوق : يقتضي الحث على المسير بعنف ، وهو الغالب فيه . وجواب (إذا) (فتحت أبوابها) ودل ذلك على أنه لا يفتح إلا إذا جاءت كسائر أبواب السجون فإنها لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجون فيها فيفتح ، ثم يغلق عليهم . وتقدم ذكر قراءة التخفيف والتشديد في (فتحت) (وأبوابها) سبعة كما ذكر في سورة الحجر (وقال لهم خزنتها) على سبيل التقرير والتوبيخ (ألم يأتكم رسل منكم) أي : من جنسكم تفهمون ما ينبئونكم به ، وسهل عليكم مراجعتهم . وقرأ ابن هرمز (تأتكم) بناء التأنيث والجمهور بالياء (يتلون عليكم آيات ربكم) أي : الكتب المنزلة للتبشير والندارة (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) وهو يوم القيامة وما يلقي فيه المسمى من العذاب (قالوا بلى) أي : قد جاءتنا ، وتلوا ، وأنذروا . وهذا اعتراف بقيام الحجة عليهم (ولكن حقت كلمة العذاب) أي : قوله تعالى : ﴿لأملأن جهنم﴾ [ص : ٨٥] (على الكافرين) وضع الظاهر موضع المضمرة . أي : علينا ، صرحوا بالوصف الموجب لهم العقاب . ولما فرغت محاورتهم مع

(١) انظر الطبري ٢٤/٢٢ ، ٢٣ والبغوي ٨٨/٤ وابن كثير ٦٤/٤ والوسيط ١٦ خ .

(٢) انظر الطبري ٢٤/٢٢ ، ٢٣ والبغوي ٨٨/٤ وابن كثير ٦٤/٤ والوسيط ١٦ خ .



الملائكة أمروا بدخول النار. (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً) عبر عن الإسراع بهم إلى الجنة مكرمين بالسوق. والمسوق دواهم، لأنهم لا يذهبون إليها إلا راكبين. ولقابلة قسيمهم ساغ لفظ السوق، إذ لو لم يتقدم لفظ (وسيق) لعبر بـ (أسرع) و(إذا) شرطية. وجوابها قال الكوفيون (وفتحت) والواو زائدة. وقال غيره: محذوف. قال الزمخشري: «وإنما حذف، لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدل على أنه شيء لا يحيط به الوصف. وحق موقعه ما بعد (خالدين)». انتهى.

وقدره المبرد بعد (خالدين) سعدوا. وقيل: الجواب. (وقال لهم خزنتها) على زيادة الواو. قيل: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها. ومن جعل الجواب محذوفاً، أو جعله (وقال لهم) على زيادة الواو. وجعل قوله (وفتحت) جملة حالية. أي: وقد فتحت أبوابها لقوله: ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ [ص: ٥٠] وناسب كونها حالاً أن أبواب الأفراح تكون مفتحة لانتظار من تحييء إليها بخلاف أبواب السجون، (وقال لهم خزنتها سلام عليكم) يحتمل أن يكون تحية منهم عند ملاقاتهم، وأن يكون خبراً بمعنى السلامة والأمن. (طبتهم) أي: أعمالاً، ومعتمداً، ومستقراً، وجزاءً. (فادخلوها خالدين) أي: مقدرين الخلود. (وقالوا أي: الداخولون الجنة) الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض (أي ملكناها) نتصرف فيها كما نشاء، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه. وقيل: ورثوها من أهل النار، وهي أرض الجنة. ويبعد قول من قال: هي أرض الدنيا، قاله قتادة وابن زيد والسدي (نتبأ منها حيث نشاء) أي: نتخذ أمكنة ومسكن، والظاهر: أن قوله (فنعم أجر العاملين) أي: بطاعة الله، هذا الأجر من كلام الداخلين، وقال مقاتل: «هو من كلام الله تعالى» (وترى الملائكة حافين) الخطاب للرسول (حافين) قال الأخفش: «واحد هم حاف». وقال الفراء: «لا يفرد» وقيل: لأن الواحد لا يكون حافاً إذ الحفوف: الإحداق بالشيء (من حول العرش)، قال الأخفش: (من) زائدة أي: حافين حول العرش. وقيل: هي لابتداء الغاية. والظاهر: عود الضمير من (بينهم) على الملائكة إذ ثوابهم وإن كانوا معصومين يكون على حسب تفاضل مراتبهم. فذلك هو القضاء بينهم بالحق. وقيل: ضمير (الحمد لله رب العالمين) الظاهر: أن قائل ذلك هم من ذوات بينهم، المخاطبة من الداخلين الجنة، ومن خزنتها، ومن الملائكة الحافين حول العرش، إذ هم في نعيم سرمدى منجاة من عذاب الله. وقال الزمخشري: «المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق وقالوا الحمد لله رب العالمين على إفضاله وقضائه بيننا بالحق، وأنزل كل منا منزلته التي هي حقه. وقال ابن عطية: (وقيل الحمد لله رب العالمين) خاتمة المجالس المجتمعات في العلم.

سُورَةُ الْعَنْقَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ  
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝  
 كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا  
 بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ  
 كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ  
 وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ  
 وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ  
 وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ  
 رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْأَلُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ  
 أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَا وَأُحْيَيْتَنَا أَتَيْنَا فَاغْرَقْنَا  
 بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ  
 تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمُ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا  
 يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۝ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ رَفِيعِ  
 الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُمْ بَبْرُوزُونَ  
 لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ  
 لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي  
 بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي  
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ  
 فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ  
 فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾  
 إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا  
 اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٦﴾  
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ  
 الْفَسَادَ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٨﴾  
 وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ  
 بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ  
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٩﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا  
 مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِي  
 ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣١﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ  
 وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدْرِينٍ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ  
 عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ هَادٍ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا  
 جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ  
 مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ  
 الَّذِينَ لَعَلَىٰ أَتْلَعُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا  
 وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾  
 وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ نَسِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَأَجْرًا إِنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَقْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجَّرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عِنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا ننتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ

يَجْحَدُونَ ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾  
هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

أزف الشيء: قرب، قال الشاعر:

أَزَفَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنْ رِكَابَنَا لَمَّا نَزَلَ بِرِحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ

التياب: الخسران<sup>(١)</sup>. السلسلة: معروفة. السحب: الجر. سجرت<sup>(٢)</sup> التنور: ملأه ناراً.

﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز \* غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب \* ذى الطول لا إله إلا هو إله المصير \* ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغفرك تقلبهم في البلاد \* كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب \* وكذلك حققت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار \*﴾

سبع الحواميم مكيات، قالوا: بإجماع. وقيل: في بعض آيات هذه السور مدني. قال ابن عطية: «وهو ضعيف». وفي الحديث: «إن الحواميم ديباج القرآن». وفيه: «من أراد أن يرتع في رياض مونة من الجنة فليقرأ الحواميم<sup>(٣)</sup>». وفيه: «مثل الحواميم في القرآن مثل الخبرات في الثياب». وهذه الحواميم مقصورة على المواعظ، والزجر، وطرق الآخرة، وهي قصار لا تلحق فيها سامة. ومناسبة أول هذه السورة لآخر الزمر: أنه تعالى لما ذكر ما يؤول إليه حال الكافرين وحال المؤمنين، ذكر هنا أنه تعالى غافر الذنب، وقابل التوب، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان وإلى الإقلاع عما هو فيه. وأن باب التوبة مفتوح. وذكر شدة عقابه وصيرورة العالم كلهم فيه، ليرتدع عما هو فيه، وأن رجوعه إلى ربه فيجازيه بما يعمل من خير أو شر. وقرئ بفتح الحاء. اختيار أبي القاسم بن جبارة الهذلي صاحب كتاب الكامل في القرآن. وأبو السمال بكسرها على أصل التقاء الساكنين. وابن أبي إسحق وعيسى بفتحها. وخرج على أنها حركة التقاء الساكنين. وكانت فتحة، طلباً للخفة. كأين وحركة إعراب على انتصاها بفعل مقدر، تقديره، اقرأ حم. وفي الحديث: «أن أعرابياً سأل رسول الله - ﷺ - عن حم ما هو؟ فقال أسماء وفواتح سور». وقال شريح بن أبي أوفى العبسي:

يُذَكِّرُنِي حَامِيمٍ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ<sup>(١)</sup>

وقال الكميت:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً تَأْوَلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْرَبُ<sup>(٢)</sup>

(١) البيت من الكامل لزهير انظر ديوانه (٨٩) التصريح (٣٦/١) الأشموني (٣١/١) الخصائص (٣٦١/٢) الخزانة (١٧٧/٧) ابن يعيش (١١٠ - ٥/٨).

(٢) انظر (٤١٥/١).

(٣) السجر: إيقادك في التنور تسجره بالوقود سجراً.

لسان العرب (١٩٤٢/٣)

(٤) انظر لسان العرب (١٠٠٨/٢).

(٤) نسبه ابن منظور لشريح انظر اللسان (حم) انظر المقتضب (٣٧٣/١) القرطبي (١٨٨/١٥) روح المعاني (٤١/٢٤).

(٥) انظر زاد المسير (٢٠٤/٧) القرطبي (١٨٩/١٥).

أعربا حاميم ومنعت الصرف للعلمية، أو العلمية وشبه العجمة، لأن فاعيل ليس من أوزان أبنية العرب وإنما وجد ذلك في العجم، نحو: قابيل وهابيل. وتقدم فيما روي في الحديث جمع حم على الحواميم كما جمع طس على الطواسين، وحكى صاحب زاد المسير عن شيخه ابن منصور اللغوي أنه قال: من الخطأ أن تقول: قرأت الحواميم، وليس من كلام العرب والصواب أن يقول قرأت آل حم. وفي حديث ابن مسعود: «إذا وقعت في آل حميم وقعت في روضات دمثات». انتهى. فإن صح من لفظ الرسول أنه قال الحواميم كان حجة على من منع ذلك، وإن كان نقل بالمعنى أمكن أن يكون من تحريف الأعاجم. ألا ترى لفظ ابن مسعود: «إذا وقعت في آل حميم» وقول الكميت

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ

وتقدم الكلام على هذه الحروف المقطعة في أول البقرة. وقد زادوا في حاميم أقوالاً هنا، وهي مروية عن السلف غنينا عن ذكرها لاضطرابها، وعدم الدليل على صحة شيء منها. فإن كانت (حم) اسماً للسورة كانت في موضع رفع على الابتداء وإلا فـ (تنزيل) مبتدأ. (ومن الله) الخبر. أو خبر ابتداء. أي: هذا تنزيل. (ومن الله) متعلق بـ (تنزيل) و(العزيز العليم) صفتان الدلتان على المبالغة في القدرة والغلبة والعلم. وهما من صفات الذات. وقال الزجاج: «غافر (وقابل) صفتان و(شديد) بدل». انتهى. وإنما جعل (غافر) و(قابل) صفتين وإن كانا اسمي فاعل، لأنه فهم من ذلك أنه لا يراد بهما التجدد ولا التقييد بزمان، بل أريد بهما الاستمرار والثبوت. وإضافتهما محضة فيعرف وصح أن يوصف بهما المعرفة. وإنما أعرب (شديد العقاب) بدلاً لأنه من باب الصفة المشبهة ولا يتعرف بالإضافة إلى المعرفة. وقد نص سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة إذا أضيف إلى معرفة جاز أن ينوي بإضافته التمحض فيتعرف وينعت به المعرفة إلا ما كان من باب الصفة المشبهة، فإنه لا يتعرف. وحكى صاحب المقنع عن الكوفيين: «أنهم أجازوا في حسن الوجه وما أشبهه أن يكون صفة للمعرفة». قال: «وذلك خطأ عند البصريين لأن حسن الوجه نكرة، وإذا أردت تعريفه أدخلت فيه آل». وقال أبو الحجاج الأعمش: «لا يبعد أن يقصد بحسن الوجه التعريف، لأن الإضافة لا تمنع منه». انتهى. وهذا جنوح إلى مذهب الكوفيين: وقد جعل بعضهم (غافر الذنب) وما بعده أبدالاً اعتباراً بأنها لا تتعرف بالإضافة، كأنه لاحظ في (غافر) و(قابل) زمان الاستقبال. وقيل: غافر وقابل لا يراد بهما المضي فهما يتعرفان بالإضافة ويكونان صفتين. أي: إن قضاء بالغفران وقبول التوب هو في الدنيا. قال الزمخشري: «جعل الزجاج (شديد العقاب) وحده بدلاً بين الصفات فيه نيو ظاهراً. والوجه أن يقال: لما صودف بين هذه المعارف هذه النكرة الواحدة فقد أذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها أنها من الرجز فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلين كانت من الكامل. ولا نيو في ذلك، لأن الجري على القواعد التي قد استقرت وصحت هو الأصول وقوله: «فقد أذنت بأن كلها أبدال». تركيب غير عربي، لأنه جعل: فقد أذنت جواب لما. وليس من كلامهم «لما قام زيد فقد قام عمرو». وقوله بأن كلها إبدال فيه تكرار الأبدال. أما بدل البداء عند من أثبتة فقد تكررت فيه الأبدال. وأما بدل كل من كل وبدل بعض من كل وبدل اشتغال فلا نص عن أحد من النحويين أعرفه في جواز التكرار فيها أو منعه إلا أن في كلام بعض أصحابنا ما يدل على أن البدل لا يكرر وذلك في قول الشاعر:

فَالْيَ ابْنِ أُمَّ إِيَّاسٍ ارْحَلَ نَاقَتِي      عَمَرُوا فَتَبَلُّغُ نَاقَتِي أَوْ تَزْحَفُ  
مَلِكٌ إِذَا نَزَلَ السُّؤْفُودُ بِبَابِهِ      عَرَفُوا مَوَارِدَ مُزْنِهِ لَا تُنَزَفُ (١)

(١) البيتان من البسيط لبشر بن أبي خازم انظر ديوانه (١٥٥) الكتاب (٩/٢) التصريح (٣٢/٢) الهمع (١٢٧/٢) اللسان (زحف).

قال فملك بدل من عمرو بدل نكرة من معرفة . قال : فإن قلت : لم لا يكون بدلاً من ابن أم أناس؟ (قلت : ) لأنه قد أبدل منه عمرو فلا يجوز أن يبدل منه مرة أخرى لأنه قد طرح» . انتهى . فدل هذا على أن البدل لا يتكرر ويتحد المبدل منه . ودل على أن البدل من البدل جائز . وقوله : « جاءت تفاعيلها » هو جمع تفعال أو تفعول أو تفعيل . وليس شيء من هذه الأوزان يكون مغدولاً في آخر العروض بل أجزاءها منحصرة ليس منها شيء من هذه الأوزان فصوابه أن يقول جاءت أجزاءها كلها على مستعلن . وقال سيبويه أيضاً : « ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذفت الألف واللام من (شديد العقاب) ليزواج ما قبله وما بعده لفظاً فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج حتى قالوا ما يعرف سحادلته من عنادلته ، فثنا ما هو وتر لأجل ما هو شفع على أن الخليل قال في قولهم لا يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك ، ويحسن بالرجل خير منك أن يفعل . على نية الألف واللام كما كان الجاء الغفير على نية طرح الألف واللام . ومما يسهل ذلك أمن اللبس وجهالة الموصوف» . انتهى . ولا ضرورة إلى اعتقاد حذف الألف واللام من (شديد العقاب) وترك ما هو أصل في النحو وتشبيه بنادر مغير عن القوانين من تثنية الوتر للشفع ويزنه كتاب الله عن ذلك كله . وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> : « ويجوز أن يقال قد تعمد تكثيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار . ويجوز أن يقال هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال» انتهى . وأجاز مكي في (غافر) (وقابل) البدل حملاً على أنها نكرتان لاستقبالهما ، والوصف حملاً على أنها معرفتان لمضيهما . وقال أبو عبد الله الرازي : « لا نزاع في جعل (غافر) (وقابل) صفة وإنما كانا كذلك ، لأنها يفيدان معنى الدوام والاستمرار . وكذلك (شديد العقاب) تفيد ذلك ، لأن صفاته منزهة عن الحدوث والتجدد ، فمعناه : كونه بحيث شديد عقابه . وهذا المعنى حاصل أبداً لا يوصف بأنه حصل بعد أن لم يكن» . انتهى . وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ولا نظر فيه . ويلزمه أن يكون (حكيم عليم) من قوله : ﴿ من لدن حكيم عليم ﴾ [النمل : ٦] و(مليك مقتدر) من قوله : ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ [القمر : ٥٥] معارف لتنزيه صفاته عن الحدوث والتجدد ، لأنها صفات لم تحصل بعد أن لم تكن ويكون تعريف صفات بأل وتكثيرها سواء . وهذا لا يذهب إليه مبتدئ في علم النحو فضلاً عن صنف فيه وقدم على تفسير كتاب الله . وتلخص من هذا الكلام المطول أن (غافر الذنب) وما عطف عليه و(شديد العقاب) أوصاف ، لأن المعطوف على الوصف وصف والجميع معارف على ما تقرر أو أبدال لأن المعطوف على البدل بدل لتكثير الجميع . أو (غافر) (وقابل) وصفان و(شديد) بدل لمعرفة ذنبك وتكثير (شديد) وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : « (فإن قلت : ) ما بال الواو في قوله (وقابل التوب)؟ (قلت : ) فيها نكتة جلييلة وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين ، بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات . وأن يجعلها حمأة للذنوب كأن لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول» . انتهى . وما أكثر تلميح هذا الرجل وشقشقته ، والذي أفاد أن الواو للجمع وهذا معروف من ظاهر علم النحو . وقال صاحب الغنيان : « وإنما عطف لاجتماعهما وتلازمهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر ، وقطع (شديد العقاب) عنها فلم يعطف لانفرادها» . انتهى . وهي نزعة اعترالية . ومذهب أهل السنة : جواز غفران الله للعاصي وإن لم يتب إلا الشرك . و(التوب) يحتمل أن يكون كالذنب اسم جنس . ويحتمل أن يكون جمع توبة كبشر وبشرة وساع وساعة . والظاهر من قوله (وقابل التوب) أن توبة العاصي بغير الكفر كتوبة العاصي بالكفر مقطوع بقبولها . وذكروا في القطع بقبول توبة العاصي قولين لأهل السنة . ولما ذكر تعالى شدة عقابه أردفه بما يطعم في رحمته وهو قوله (ذي الطول) فجاء ذلك وعيداً اكتنفته وعدان . قال ابن عباس : (الطول) السعة والغنى<sup>(٣)</sup> . وقال قتادة : « النعم» ، وقال ابن زيد : « القدرة» وقوله «طوله تضعيف

(١) انظر الكشاف ٤/١٤٩

(٢) انظر الكشاف ٤/١٤٩

(٣) انظر الطبري ٢٤/٢٧ - ٢٨ وتفسير مجاهد ٢/٦٣ والبغوي ٤/١٠ - ٩٤ .

حسنت أوليائه وعفوه عن سيئاتهم». ولما ذكر جملة من صفاته العلا الذاتية والفعلية ذكر أنه المنفرد بالالوهية المرجوع إليه في الحشر. ثم ذكر حال من جادل في الكتاب وأتبع ذلك بذكر الطائعين من ملائكته، وصالحى عبادته، فقال (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) وجداهم فيها: قوهم مرة سحر، ومرة شعر، ومرة أساطير الأولين، ومرة ﴿إنما يعلمه بشر﴾ [النحل ١٠٣] فهو جدال بالباطل وقد دل على ذلك بقوله (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق)، وقال السدي: (ما يجادل) أي ما يماري». وقال ابن سلام: «ما يجحد» وقال أبو العالية: «نزلت في الحرث بن قيس أحد المستهزئين». وأما ما يقع بين أهل العلم من النظر فيها، واستيضاح معانيها، واستنباط الأحكام والعقائد منها، ومقارعة أهل البدع بها، فذلك فيه الثواب الجزيل. ثم نهى السامع أن يغتر بتقلب هؤلاء الكفار في البلاد وتصرفاتهم فيها بما أمليت لهم من المساكن، والمزارع، والممالك، والتجارات، والمكاسب، وكانت قريش تتجر في الشام واليمن فإن ذلك وبال عليهم، وسبب في إهلاكهم كما هلك من كان قبلهم من مكذبي الرسل. وقرأ الجمهور (فلا يغزرك) بالفك، وهي لغة أهل الحجاز. وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير (فلا يغزرك) بالإدغام. مفتوح الراء. وهي لغة تميم. ولما كان جدال الكفار ناشئاً عن تكذيب ما جاء به الرسول - عليه السلام - من آيات الله ذكر من كذب قبلهم من الأمم السالفة وما صار إليه حالهم من حلول نعمات الله بهم ليرتدع بهم كفار من بعث الرسول - عليه السلام - إليهم فبدأ بقوم نوح إذ كان - عليه السلام - أول رسول في الأرض وعطف على قومه (الأحزاب) وهم الذين تحزبوا على الرسل ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله ومنهم عاد، وثمود، وفرعون وأتباعه. وقدم الهمم بالأخذ على الجدال بالباطل، لأن الرسل لما عصمهم الله منهم أن يقتلهم رجعوا إلى الجدال بالباطل. وقرأ الجمهور (برسولهم) وقرأ عبد الله (برسولها) عاد الضمير إلى لفظ (أمة) ليأخذوه ليتمكنوا منه بحبس أو تعذيب أو قتل. وقال ابن عباس: ليأخذوه ليملكوه. وأنشد قطرب:

فَإِذَا تَأْخُذُونِي تَقْتُلُونِي فَكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلُودِي<sup>(١)</sup>

ويقال للقتيل والأسير أحياناً، وقال قتادة (ليأخذوه) ليقتلوه<sup>(٢)</sup> عبر عن المسبب بالسبب (وجادلوا بالباطل) أي: بما هو مضمحل ذاهب لا ثبات له. وقيل (الباطل) الكفر. وقيل: الشيطان. وقيل: بقولهم ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ [يس ١٥] (ليدحضوا) ليزلقوا (به الحق) أي: الثابت الصدق. (فأخذتهم) فأهلكتهم (فكيف كان عقاب) إياهم استفهام تعجب من استئصالهم، واستعظام لما حل بهم، وليس استفهاماً عن كيفية عقابهم، وكانوا يبرون على مساكنهم ويرون آثار نعمة الله فيهم. واجترأ بالكسر عن ياء الإضافة لأنها فاصلة والأصل عقابي. (وكذلك حققت) أي: مثل ذلك الوجوب من عقابهم وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار من تقدم منهم ومن تأخر. (وأنهم) بدل من (كلمة ربك) فهي في موضع رفع. ويجوز أن يكون التقدير: لأنهم وحذف لام العلة. والمعنى: كما وجب إهلاك أولئك الأمم وجب إهلاك هؤلاء لأن الموجب لإهلاكهم وصف جامع لهم وهو كونهم من أصحاب النار. وفي مصحف عبد الله (وكذلك سبقت) وهو تفسير معنى لا قراءة. وقرأ ابن هرمز وشيبة، وابن القعقاع، ونافع، وابن عامر (كلمات) على الجمع وأبورجاء، وقاتدة، وباقي السبعة على الأفراد.

﴿الذين يمحلون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن

(١) انظر البيت في القرطبي (١٥/١٩١).

(٢) انظر الطبري ٢٨/٢٤ والبغوي ٩١/٤ والوسيط ١٨ خ.



صلح من آباؤهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم، إن الذين كفروا يتادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، قالوا ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل، ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير، هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب ﴿١﴾. لما ذكر جدال الكفار في آيات الله وعصيانهم، ذكر طاعة هؤلاء المصطفين من خلقه، وهم: حملة العرش (ومن حوله) وهم: الحافون به من الملائكة. وذكروا من وصف تلك الجملة وعظم خلقهم، ووصف العرش ومن أي شيء خلق. والحجب السبعينيات التي اختلقت أجناسها. قالوا: «احتجب الله عن العرش وعن حماليه». والله أعلم به. على أن قدرته تعالى محتملة لكل ما ذكره مما لا يقتضي تحسباً لكنه يحتاج إلى نقل صحيح. وقرأ الجمهور (العرش) بفتح العين، وابن عباس وفرقة بضمها، كأنه جمع عرش كسَقَف وسُقْف أو يكون لغة في العرش. (يسبحون بحمد ربهم) أي: ينزهونه عن جميع النقص (بحمد ربهم) بالثناء عليه بأنه المنعم على الإطلاق. والتسبيح: إشارة إلى الإجلال. والتحميد: إشارة إلى الإكرام، فهو قريب من قوله: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ [الرحمن: ٧٨] ونظيره ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق﴾ [الزمر: ٧٥] وقولهم: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ [البقرة: ٣٠] (ويؤمنون) أي: ويصدقون بوجوده تعالى، وبما وصف به نفسه من صفاته العلا. وتسبيحهم إياه يتضمن الإيمان، قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(فإن قلت: ما فائدة قوله (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون؟) قلت: فائدته: إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمالهم الخير بقوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان. وفائدة أخرى: وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين، معانين، ولما وصفوا بالإيمان، لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب. ولما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم، علم أن إيمانهم، وإيمان من في الأرض، وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا، وأنه منزّه عن صفات الأجرام، وقد روعي التناسب في قوله (ويؤمنون به) (ويستغفرون للذين آمنوا) كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم، وصفتهم. وفيه تنبيه على أن الإشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدمى شيء إلى النصحية، وأبعثه على إحاض الشفقة. وإن تفاوتت الأجناس، وتباعدت الأماكن. فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان، ولا بين سماء وأرض قط. ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي. والتناسب الحقيقي، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض. قال تعالى (ويستغفرون لمن في الأرض)». انتهى. وهو كلام حسن إلا أن قوله: «إن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير» فيه نظر. وقوله «(ويستغفرون للذين آمنوا) تخصيص لعموم». قوله (ويستغفرون لمن في الأرض)، وقال مطرف بن الشخير: «وجدنا أنصح العباد للعباد الملائكة، وأغش العباد للعباد الشياطين، وتلا هذه الآية». انتهى. وينبغي أن يقال أنصح العباد للعباد الأنبياء والملائكة. (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) أي: يقولون: ربنا واحتمل هذا المحذوف بياناً لـ (يستغفرون) فيكون في محل رفع، وأن يكون حالاً فيكون في موضع نصب. وكثيراً ما جاء النداء بلفظ (ربنا) و(رب) وفيه استعطاف العبد لمولاه الذي ربه، وقام بمصالحه من لدن نشأته إلى وقت ندائه، فهو جدير بأن لا يناديه إلا بلفظ الرب. وانتصب (رحمة وعلماً) على التمييز. والأصل: وسعت رحمتك كل شيء وعلمتك كل شيء. وأسند الوسع إلى صاحبها مبالغة. كأن ذاته هي الرحمة والعلم وقد وسع كل شيء. وقدم الرحمة، لأنهم بها يستمطرون إحسانه، ويتوسلون بها إلى

حصول مطلوبهم من سؤال المغفرة. ولما حكى تعالى عنهم كيفية ثنائهم عليه، وأخبر باستغفارهم، وهو قومه (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) وطلب المغفرة نتيجة الرحمة (للذين تابوا) يتضمن إنك علمت توبتهم فيها راجعان إلى قوله (رحمة وعلم) (واتبعوا سبيلك) وهي سبيل الحق التي نهجتها لعبادك (إنك أنت العزيز) الذي لا تغالب (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها التي تليق بها. ولما كان طلب الغفران يتضمن إسقاط العذاب أردفوه بالتضرع بوقايتهم العذاب على سبيل المبالغة والتأكيد، فقالوا (وقهم عذاب الجحيم) وطلب المغفرة ووقاية العذاب للتائب الصالح وقد وعد بذلك الوعد الصادق بمنزلة الشفاعة في زيادة الثواب والكرامة. ولما سألوا إزالة العقاب سألوا اتصال الثواب. وكرر الدعاء بـ (ربنا) فقالوا (ربنا وأدخلهم جنات عدن)، وقرأ الجمهور (جنات) جمعاً. وزيد بن علي، والأعمش (جنة عدن) بالإنفراد. وكذا في مصحف عبد الله. وتقدم الكلام في إعراب (التي) في قوله: ﴿جنات عدن التي عد الرحمن عباده بالغيب﴾ [مريم: ٦١] في سورة مريم. وقرأ ابن أبي عملة (صلح) بضم اللام. يقال: صلح فهو صليح وصلح فهو صالح. وقرأ عيسى (وذريتهم) بالإنفراد والجمهور بالجمع. وعن ابن جبير في تفسير ذلك أن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته، فيقول: أين أبي؟ أين أمي؟ أين ابني؟ أين زوجتي؟ فيلحقون به، لصلاحه، ولتبيهه عليهم، وطلبه إياهم. وهذه دعوة الملائكة. انتهى. وإذا كان الإنسان في خير ومعه عشيرته وأهله، كان أبهج عنده، وأسر لقلبه والظاهر عطف (ومن) على الضمير في (وأدخلهم) إذ هم المحدث عنهم والمسؤول لهم. وقال الفراء والزجاج: «نصبه من مكانين إن شئت على الضمير في (وأدخلهم) وإن شئت على الضمير في (وعدهم) (وقهم السيئات) أي: امنعهم من الوقوع فيها، حتى لا يترتب عليها جزاؤها أو وقهم جزاء السيئات التي اجترحوها. فحذف المضاف. ولا تكرار في هذا وقوله (وقهم عذاب الجحيم) لعدم توافق المدعو لهم، إن الدعاء الأول للذين تابوا. والثاني: أنه هم ولمن صلح من المذكورين. أو لاختلاف الدعاءين إذا أريد بالسيئات أنفسها فذلك وقاية عذاب الجحيم، وهذا وقاية الوقوع في السيئات. والتنوين في (يومئذ) تنوين العوض. والمحذوف جملة عوض منها التنوين ولم تقدم جملة يكون التنوين عوضاً منها. كقوله: ﴿فلولا إذ بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ﴾ [الواقعة: ٨٤] أي: حين إذ بلغت الحلقوم، فلا بد من تقدير جملة يكون التنوين عوضاً منها، كقوله يدل عليها معنى الكلام. وهي (ومن تق السيئات) أي: جزاءها يوم إذ يؤاخذ بها فقد رحمته. ولم يتعرض أحد من المفسرين الذين وقفنا على كلامهم في الآية للجملة التي عوض منها التنوين في (يومئذ) (وذلك) إشارة إلى الغفران، ودخول الجنة. ووقاية العذاب: هو الفوز بالظفر العظيم الذي عظم خطره وجل صنعه. ولما ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ذكر شيئاً من أحوال الكافرين وما يجري لهم في الآخرة من اعترافهم بذنوبهم واستحقاقهم العذاب، وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا. ونداؤهم، قال السدي: «في النار»، وقال قتادة: «يوم القيامة. والمنادون لهم: الزبانية<sup>(١)</sup> على جهة التوبيخ والتقريع. واللام في (لمقت) لام الابتداء ولام القسم. (ومقت) مصدر مضاف إلى الفاعل. التقدير: لمقت الله إياكم. أو لمقت الله أنفسكم. وحذف المفعول لدلالة ما بعده عليه في قوله (أكبر من مقتكم أنفسكم) والظاهر: أن مقت الله إياهم هو في الدنيا. ويضعف أن يكون في الآخرة كما قال بعضهم لبقاء (إذ تدعون) مفلتاً من الكلام لكونه ليس له عامل تقدم، ولا مفسر لعامل فإذا كان المقت السابق في الدنيا أمكن أن يضم له عامل تقديره مقتكم إذ تدعون. وقال الزمخشري: (وإذ تدعون) منصوب بالمقت الأول. والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: إن الله مقت أنفسكم الأمانة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله، وتختارون عليه الكفر، أشد مما تمقنونهم اليوم وأنتم في النار، إذ أوقفتمكم فيها باتباعكم هواهن». انتهى. وفيه دسيسة الاعتزال. وأخطأ في قوله (وإذ

(١) الزبانية عند العرب الشرط وكله من الدفع: وسمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها وواحد الزبانية زبني.

تدعون) منصوب بالملت الأول، لأن الملت مصدر ومعموله من صلته . ولا يجوز أن يخبر عنه إلا بعد استيفائه<sup>(١)</sup> صلته . وقد أخبر عنه بقوله (أكبر من مقتكم أنفسكم) وهذا من ظواهر علم النحو التي لا تكاد تخفى على المبتدئين فضلاً عما ائدعي العجم أنه في العربية شيخ العرب والعجم، ولما كان الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر لا يجوز قدرنا العامل فيه مضمراً . أي : مقتكم إذ تدعون . وشبيهه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق : ٩] قدر العامل : يرجعه يوم تبلى السرائر . للفصل بـ (القادر) بين المصدر (يوم) واختلاف زمني المقتين ، الأول : في الدنيا، والآخرة . هو قول مجاهد، وقتادة وابن زيد، والأكثرين . وتقدم لنا أن منهم من قال : في الآخرة وهو قول الحسن . قال الزمخشري : «وعن الحسن : لما رأوا أعمالهم الحبيثة مقتوا أنفسهم ، فنودوا (لمقت الله) وقيل : معناه : لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضهم لبعض ، كقوله تعالى : ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ [العنكبوت : ٢٥] و(إذ تدعون) تعليل . انتهى . وكان قوله و(إذ تدعون) تعليل من كلام الزمخشري . وقال قوم (إذ تدعون) معمول لـ (اذكر) مخدوفة . ويتجه ذلك على أن يكون (مقت الله) إياهم في الآخرة على قول الحسن . قيل لهم ذلك ، توبيخاً وتقريعاً وتنبهاً على ما فاتهم من الإيمان والثواب . ويحتمل أن يكون قوله (من مقتكم أنفسكم) أن كل واحد يمقت نفسه ، أو أن بعضكم يمقت بعضاً ، كما قيل : إن الأتباع يمقتون الرؤساء لما ورطوهم فيه من الكفر، والرؤساء يمقتون الأتباع . وقيل يمقتون أنفسهم حين قال لهم الشيطان ﴿فَلَا تُلْمُوا نَفْسَكُمْ﴾ [إبراهيم : ٢٢] - والمقت أشد البغض وهو مستحيل في حق الله تعالى فمعناه الإنكار والزجر (قالوا ربنا أمتنا اثنتين) وجه اتصال هذه بما قبلها : أنهم كانوا ينكرون البعث، وعظم مقتهم أنفسهم هذا الإنكار، فلما مقتوا أنفسهم، ورأوا حزناً طويلاً، رجعوا إلى الإقرار بالبعث، فأقروا أنه تعالى أماتهم اثنتين، وإحياءهم اثنتين، تعظيماً لقدرته، وتوسلاً إلى رضاه، ثم أطمعوا أنفسهم بالاعتراف بالذنوب أن يردوا إلى الدنيا . أي : إن رجعنا إلى الدنيا ودعينا للإيمان بادرنا إليه . وقال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وأبو مالك موتهم كونهم ماء في الأصلاب، ثم إحياءهم في الدنيا، ثم موتهم فيها، ثم إحياءهم يوم القيامة . وقال السدي : «إحياءهم في الدنيا، ثم إمامتهم فيها، ثم إحياءهم في القبر لسؤال الملكين، ثم إمامتهم فيه، ثم إحياءهم في الحشر» . وقال ابن زيد : «إحياءهم نسماً عند أخذ العهد عليهم من صلب آدم، ثم إمامتهم بعد، ثم إحياءهم في الدنيا، ثم إمامتهم، ثم إحياءهم» . فعلى هذا والذي قبله تكون ثلاثة إحياءات . وهو خلاف القرآن، وقال محمد بن كعب : «الكافر في الدنيا حي الجسد، ميت القلب، فاعتبرت الحالتان، ثم إمامتهم حقيقة، ثم إحياءهم في البعث . وتقدم الكلام في أول البقرة على الإمتين والإحياءين في قوله : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً﴾ [البقرة : ٢٨] الآية وكررنا ذلك هنا لبعده ما بين الموضعين . قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتاً إمامة قلت : كما صح أن يقول : سبحان من صغر جسم البعوضة، وكبر جسم الفيل . وقولك للحفار ضيق فم الركية ووسع أسفلها . وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة ولا من سعة إلى ضيق . وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما وكذلك الضيق والسعة فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منها على السواء، فقد صرف المصنوع إلى الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كنفله منه» . انتهى . يعني : أن خلقهم أمواتاً كأنه نقل من الحياة وهو الجائز الآخر رظاهر (فاعترفنا بذنوبنا) أنه متسبب عن قوهم، (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وثم محذوف . أي : فعرفنا قدرتك على الإمامة والإحياء وزال إنكارنا للبعث (فاعترفنا بذنوبنا) السابقة من إنكار البعث وغيره . (فهل إلى خروج) أي : سريع ، أو بطيء من النار (من سبيل) وهذا سؤال من يسئ من الخروج، ولكنه تعلل وتحير . (ذلكم) الظاهر : أن الخطاب للكفار في الآخرة

(١) انظر شرح المفصل ٦٧/٦ الكافية ١٥/٢ المغني ١٧٧/٢ روح المعاني ٥١/٢٤ .

والإشارة إلى العذاب الذي هم فيه، أو إلى مقتهم أنفسهم، أو إلى المنع من الخروج، والزجر، والإهانة. احتمالات مقولة. وقيل: الخطاب لمحاضري رسول الله - ﷺ - والضمير في (بأنه) ضمير الشأن (إذا دعى الله وحده) أي: إذا أفرد بالإلهية، ونفيت عن سواه (كفرتم وإن يشرك به) أي: ذكرت اللات والعزى وأمثالها من الأصنام، صدقتم بألوهيتها، وسكنت نفوسكم إليها. (فالحكم) بعدابكم (الله) لا لتلك الأصنام التي أشركتموها مع الله (العلي) عن الشرك (الكبير) العظيم الكبرياء. وقال محمد بن كعب: «لأهل النار خمس دعوات، يكلمهم الله في الأربعاء، فإذا كانت الخامسة سكتوا (قالوا ربنا أمتنا اثنتين) الآية وفي إبراهيم (ربنا أخرجنا) الآية. وفي السجدة ﴿ربنا أبصرنا﴾ [السجدة: ١٢] الآية وفي فاطر (ربنا أخرجنا) الآية وفي المؤمنون ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] الآية فراجعهم (احسبوا فيها ولا تكلمون) قال: فكان آخر كلامهم ذلك». ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل الأحجار المنحوتة، والخشب المعبودة. شركاء الله، فقال (هو الذي يريكم آياته) أيها الناس. ويشمل آيات قدرته من الريح، والسحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها من الآثار العلوية. وآيات كتابه المشتمل على الأولين، والآخرين، وآيات الإعجاز على أيدي رسله، وهذه الآيات راجعة إلى نور العقل الداعي إلى توحيد الله ثم قال (وينزل لكم من السماء رزقاً) وهو المطر الذي هو سبب قوام بنية البدن فتلك الآيات للأديان كهذا الرزق للأبدان. (وما يتذكر) أي: يتعظ ويعتبر وجعله تذكراً، لأنه مركز في العقول دلائل التوحيد. ثم قد يعرض الاشتغال بعبادة غير الله فيمنع من تحلي نور العقل فإذا تاب إلى الله تذكر ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون، لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب، وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير، أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه أقوى شديد العقاب﴾. الأمر بقوله (فادعوا الله) للمنيبين المؤمنين أصحاب رسول الله - ﷺ - أي: اعبدوه (مخلصين له الدين) من الشرك على كل حال حتى في حال غيظ أعدائكم المتهاينين عليكم، وعلى استئصالكم. و(رفيع) خبر مبتدأ محذوف. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «ثلاثة أخبار مترتبة على قوله (الذي يريكم) أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفاً وتكثيراً». انتهى. أما ترتبها على قوله (هو الذي يريكم) فبعيد كطول الفصل. وأما كونها أخبار المبتدأ محذوف، فمبني على جواز تعدد الأخبار إذا لم تكن في معنى خبر واحد. والمنع اختيار أصحابنا. وقرئ (رفيع) بالنصب على المدح. واحتمل أن يكون (رفيع) للمبالغة على فعيل من رافع فيكون (الدرجات) مفعول. أي: رافع درجات المؤمنين ومنازلهم في الجنة. وبه فسر ابن سلام. أو عبر به (الدرجات) عن السموات أرفعها سماء فوق سماء والعرش فوقهن. وبه فسر ابن جبير. واحتمل أن يكون (رفيع) فعلاً من رفع الشيء. علا، فهو رفيع فيكون من باب الصفة المشبهة، و(الدرجات) المصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش. أضيفت إليه دلالة على عزه وسلطانه. أي: درجات ملائكته كما وصفه بقوله: ﴿ذي المعارج﴾ [المعارج: ٣] أو يكون ذلك عبارة عن رفعة شأنه، وعلو سلطانه كما أن قوله (ذو العرش) عبارة عن ملكه. وبنحوه فسر ابن زيد، قال: «عظيم الصفات». و(الروح) النبوة، قاله قتادة، والسدي. كما قال: ﴿روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢] وعن قتادة أيضاً: «الوحي». وقال ابن عباس: «القرآن». وقال

الضحك: «جبريل يرسله لمن يشاء». وقيل: «الرحمة». وقيل: أرواح العباد. وهذا القولان ضعيفان والأولى الوحي. استعير له الروح حياة الأديان المرضية به كما قال: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون إلقاء الروح عامل لكل ما ينعم الله به على عباده المهتدين في تفهيم الإيمان والمعقولات الشريفة». انتهى. وقال الزجاج: «(الروح) كل ما به حياة الناس وكل مهتد حي وكل ضال ميت». انتهى. وقال ابن عباس: «(من أمره) من قضائه». وقال مقاتل: «بأمره». وحكى الشعبي من قوله: ويظهر أن (من) لا ابتداء الغاية، وقرأ الجمهور (لِيُنذِرَ) مبنياً للفاعل (يَوْمَ) بالنصب. والظاهر: أن الفاعل يعود على الله، لأنه هو المحدث عنه. واحتمل (يوم) أن يكون مفعولاً على السعة. وأن يكون ظرفاً. والمنذره محذوف. وقرأ أبي وجاعة كذلك إلا أنهم رفعوا (يَوْمَ) على الفاعلية مجازاً. وقيل: الفاعل في القراءة الأولى ضمير الروح. وقيل: ضمير (من). وقرأ البيهقي فيما ذكر صاحب اللوامح (لِيُنذِرَ) مبنياً للمفعول (يَوْمَ) التلاق) برفع الميم، وقرأ الحسن، والبيهقي فيما ذكر ابن خالويه (لِيُنذِرَ) بالتاء فقالوا: الفاعل ضمير الروح، لأنها تؤنث. أو فيه ضمير الخطاب الموصول. وقرئ (التلاق) و(التناد) بياء وبغير ياء. وسمى (يوم التلاق) لالتقاء الخلائق فيه. قاله ابن عباس. وقال قتادة، ومقاتل: «يلتقي فيه الخالق والمخلوق». وقال ميمون بن مهران: «يلتقي فيه الظالم والمظلوم». وحكى الثعلبي: «يلتقي المرء بعلمه». وقال السدي: «يلتقي أهل السماء أهل الأرض». وقيل: «يلتقي العابدون ومعبودهم». (يوم هم بارزون) أي: ظاهرون من قبورهم لا يسترهم شيء من جسل، أو أكمة، أو بناء، لأن الأرض إذ ذاك قاع صفصف، ولا من ثياب لأنهم يحشرون حفاة عراة. (ويوم) بدل من (يوم التلاق) وكلاهما ظرف مستقبل والظرف المستقبل عند سبويه لا يجوز إضافته إلى الجملة الاسمية. لا يجوز: أحيثك يوم زيد ذاهب. إجراء له مجرى إذا فكما لا يجوز أن تقول: أحيثك إذا زيد ذاهب. فكذلك لا يجوز هذا. وذهب أبو الحسن إلى جواز ذلك فيخرج قوله (يوم هم بارزون) على هذا المذهب. وقد أجاز ذلك بعض أصحابنا على قلة. والدلائل المذكورة في علم النحو. وقال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون انتصابه على الظرف. والعامل فيه قوله (لا يخفى) وهي حركة إعراب لا حركة بناء، لأن الظرف لا يبنى إلا إذا أضيف إلى غير متمكن كيومئذ. وقال الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمُشِيبَ عَلَى الصَّبَا<sup>(١)</sup>

وكقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] وأما في هذه الآية فالجملة اسم متمكن كما تقول: جئت يوم زيد أمير. فلا يجوز البناء. انتهى. يعني أن ينتصب على الظرف. قوله (يوم هم بارزون) وأما قوله: لا يبنى إلا إذا أضيف إلى غير متمكن. فالبناء ليس متحتماً بل يجوز فيه البناء والإعراب. وأما تمثيله بـ (يوم ينفع) فمذهب البصريين أنه لا يجوز فيه إلا الإعراب. ومذهب الكوفيين جواز البناء والإعراب فيه. وأما إذا أضيف إلى جملة اسمية كما مثل من قوله: جئت يوم زيد أمير، فالنقل عن البصريين تحتم الإعراب كما ذكر والنقل عن الكوفيين جواز الإعراب والبناء. وذهب إليه بعض أصحابنا. وهو الصحيح. لكثرة شواهد البناء على ذلك. ووقع في بعض تصانيف أصحابنا أنه يتحتم فيه البناء، وهذا قول لم يذهب إليه أحد، فهو وهم. (لا يخفى على الله منهم شيء) أي: من سرائرهم وبواطنهم، قال ابن عباس: «إذا هلك من في السموات ومن في الأرض فلم يبق إلا الله قال (لمن الملك اليوم) فلا يجيبه أحد فبرد على نفسه (الله الواحد القهار)<sup>(٢)</sup> وقال ابن مسعود: «يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به

(١) تقدم.

(٢) انظر الطبري ٣٢/٢٤ والبغوي ٩٤/٤ وزاد المسير ٢١٢/٧ والقرطبي ٥٧٤٤/٤، وفتح القدير ٤٨٥/٤ والوسيط ٢٠ خ.

أن ينادي مناد (لمن الملك اليوم) فيجيبوا كلهم (لله الواحد القهار)، روي أنه تعالى يقرر هذا التقرير ويسكت العالم هيبة وجزعاً فيجيب نفسه بقوله (لله الواحد القهار) فيجيب الناس. وإنما خص التقرير باليوم وإن كان الملك له تعالى في ذلك اليوم وفي غيره، لظهور ذلك للكفرة، والجهلة، ووضوحه يوم القيامة. وإذا تأمل من له مسكة عقل تسخير أهل السموات والأرض، ونفوذ القضاء فيهم، وتيقن أن لا ملك إلا الله، ومن نتائج ملكه في ذلك اليوم جزء كل نفس بما كسبت، وانتفاء الظلم، وسرعة الحساب إن حسابهم في وقت واحد لا يشغله حساب عن حساب، قال ابن عطية: «وهذه الآية نص في أن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبد» انتهى. وهو على طريقة الأشعرية. وروي: «أن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقبل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار». (ويوم الآزفة) هو يوم القيامة يأمر تعالى نبيه أن ينذر العالم، ويحذرهم منه، ومن أهواله. قاله مجاهد، وابن زيد. و(الأزفة) صفة لمحذوف. تقديره: يوم الساعة الأزفة، أو (الطامة الأزفة). ونحو هذا. ولما اعتقب كل إنذار نوعاً من الشدة والخوف وغيرهما حسن التكرار في الأزفة القريبة كما تقدم وهي مشارفتهم دخول النار، فإنه إذ ذاك تزيغ القلوب عن مقارها من شدة الخوف. وقال أبو مسلم: يوم الأزفة يوم المنية وحضور الأجل. يدل عليه أنه يعدل وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ويوم بروزهم، فوجب أن يكون هذا اليوم غيره. وهذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب. وأيضاً فالصفات المذكورة بعد قوله (يوم الأزفة) لاثقة بيوم حضور المنية، لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب لعظم خوفه يكاد قلبه يبلغ حنجرته من شدة الخوف، ولا يكون له حميم ولا شفيع يرفع عنه ما به من أنواع الخوف (إذ القلوب لدى الحناجر) قيل: يجوز أن يكون ذلك يوم القيامة حقيقة ويقون أحياء مع ذلك بخلاف حالة الدنيا، فإن من انتقل قلبه إلى حنجرته مات. ويجوز أن يكون ذلك كناية عن ما يبلغون إليه من شدة الجزع. كما تقول: كادت نفسي أن تخرج. وانتصب (كاظمين) على الحال. قال الزمخشري: «هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى. إذ المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن تكون حالاً عن القلوب وأن القلوب كاظمة على غم وكره فيها مع بلوغها الحناجر. وإنما جمع الكاظم جمع السلامة، لأنه وصفها بالكاظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤] وقال: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [الشعراء: ٤] وبعضه قراءة من قرأ (كاظمون) ويجوز أن يكون حالاً عن قوله أي: (وأندرهم) مقدرين. وقال ابن عطية: (كاظمين) حال مما أبدل منه قوله تعالى: ﴿تشخص فيه الأبصار مهطعين﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣] أراد تشخص فيه أبصارهم». وقال الحوفي: «(القلوب) رفع بالابتداء. و(لدى الحناجر) الخبر متعلق بمعنى الاستقرار». وقال أبو البقاء: «(كاظمين) حال من (القلوب) لأن المراد أصحابها». انتهى. (ما للظالمين من حميم) أي: محب مشفق (ولا شفيع يطاع) في موضع الصفة لـ (شفيع) فاحتمل أن يكون في موضع خفض على اللفظ. وفي موضع رفع على الموضع. واحتمل: أن ينسحب النفي على الوصف فقط فيكون من (شفيع) ولكنه لا يطاع. أي: لا تقبل شفاعته. واحتمل أن ينسحب النفي على الموصوف وصفته. أي: لا شفيع فيطاع. وهذا هو المقصود في الآية أن الشفيع عند الله إنما يكون من أوليائه تعالى، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضاه الله. وأيضاً فيكون في زيادة التفضل والثواب. ولا يمكن شيء من هذا في حق الكافر. وعن الحسن: «والله لا يكون لهم شفيع ألبتة» (يعلم خائنة الأعين) كقوله:

وإن سقيت كرام الناس فاسقيناً

أي: الناس الكرام. وجوزوا أن تكون (خائنة) مصدراً كالعافية والعاقبة. أي: يعلم خيانة الأعين.

ولما كانت الأفعال التي يقصد بها التكنم بدنية فأخفاها (خائنة الأعين) من كسر جفن، وغمز، ونظر، يفهم معنى،

ويريد صاحب معنى آخر، وقلب، وهو ما تحتوي عليه الضمائر قسم ما ينكتبم به إلى هذين القسمين وذكر أن علمه متعلق بهما التعلق التام. وقال الزمخشري: «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله (وما تخفي الصدور) لا يساعد عليه». انتهى. يعني أنه لا يناسب أن يكون مقابل المعنى إلا المعنى. وتقدم أن الظاهر أن يكون التقدير الأعين الخائنة. والظاهر: أن قوله (يعلم خائنة الأعين) الآية متصل بما قبله. لما أمر بإنكاره (يوم الأزفة) وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم، وأن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك، ولا من يشفع له، ذكر اطلاعه تعالى على جميع ما يصدر من العبد وأنه مجازي بما عمل ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم أن الله مطلع على أعماله. وقال ابن عطية: «يعلم خائنة الأعين» متصل بقوله (سريع الحساب) لأن سرعة حسابه للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون». وقالت فرقة: «يعلم متصل بقوله (لا يخفى على الله منهم شيء) وهذا قول حسن. يقويه تناسب المعنيين. ويضعفه بعد الآية من الآية، وكثرة الحائل». انتهى. وقال الزمخشري: «فإن قلت: بم اتصل قوله يعلم خائنة الأعين؟ قلت: (هو خبر من أخبار (هو) في قوله (هو الذي يريكم البرق) مثل ﴿يلقي الروح﴾ [الرعد: ١٢] لكن من يلقي الروح قد علل بقوله (لينذر يوم التلاق) ثم أسقط وتذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله (ولا شفيع يطاع) فبعد لذلك عن إخوانه». انتهى. وفي بعض الكتب المنزلة: «أنا مرصاد الهمم أنا العالم بحال الفكر وكسر العيون». وقال مجاهد «(خائنة الأعين) مسارقة النظر إلى ما لا يجوز». ومثل المفسرون (خائنة الأعين) بالنظر الثاني إلى حرمة غير الناظر. وما تخفي الصدور بالنظر الأول الذي لا يمكن رفعه. (والله يقضي بالحق) هذا يوجب عظيم الخوف، لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال لا يقضي إلا بالحق في ما دق وجل، خافه الخلق غاية. (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) هذا قدح في أصنامهم، وتهكم بهم، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي ولا يقضي. وقرأ الجمهور (يدعون) بياء الغيبة، لتناسب الضمائر الغائبة قبل. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع بخلاف عنه، وهشام (تدعون) بباء الخطاب. أي: قل لهم يا محمد. (إن الله هو السميع البصير) تقرير لقوله (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) وعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر. (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أحال قريشاً على الاعتبار بالسير. وجاز أن يكون (فينظروا) مجزوماً عطفاً على (يسيروا) وأن يكون منصوباً على جواب النفي كما قال:

أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخَيَّرَكَ الرَّسُومَ

وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة. وحمل الزمخشري (هم) على أن يكون فضلاً. ولا يتعين، إذ يجوز أن يكون (هم) توكيداً لضمير (كانوا)، وقرأ الجمهور (منهم) بضمير الغيبة. وابن عامر (منكم) بضمير الخطاب على سبيل الالتفات (وآثاراً في الأرض) معطوف على (قوة) أي: مبانيم، وحصونهم، وعددهم كانت في غاية الشدة (وتنتحتون من الجبال بيوتاً) وقال الزمخشري: «أو أرادوا أكثر آثاراً لقوله:

مَتَقَلَّدًا سَيِّفًا وَرُمْحًا

انتهى. أي: ومعقلاً رمحاً. ولا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة المعنى بدونه. (من واق) أي: وما كان لهم من عذاب الله من ساتر يمنعهم منه. (ذلك) أي: الأخذ وتقدم تفسير نظير ذلك.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال، وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبذل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد، وقال موسى إني عدت إلى ربي وربكم من كل متكبر لا

يؤمن بيوم الحساب، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرونا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

ابتدأ تعالَى قصة موسى عليه السلام مع فرعون تسلية للرسول - عليه الصلاة والسلام - ووعيداً لقريش أن يحل بهم ما حل بفرعون وقومه من نعمات الله ووعد للمؤمنين بالظفر والنصر وحسن العاقبة وآيات موسى عليه السلام كثيرة. والذي تحدى به من المعجز العصا، واليد. وقرأ عيسى (سُلْطَان) بضم اللام. والسلطان المين: الحجة والبرهان الواضح. والظاهر: أن قارون هو الذي ذكره تعالَى في قوله: ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ [القصص: ٧٦] وهو من بني إسرائيل. وقيل: هو غيره. ونص على هامان وقارون، لمكانتهما في الكفر، ولأنهما أشهر أتباع فرعون (فقالوا ساحر كذاب) أي: هذا ساحر لما ظهر على يديه من قلب العصا حية، وظهور النور الساطع على يده (كذاب) لكونه ادعى أنه رسول من رب العالمين، (فلما جاءهم بالحق من عندنا) أي: بالمعجزات، والنبوة، والدعاء إلى الإيمان بالله (قالوا): أي: أولئك الثلاثة (اقتلوا) قال ابن عباس: «أي: أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً. انتهى. يريد أن هذا غير القتل الأول وإنما أمروا بقتل أبناء المؤمنين، لثلاث تقوى بهم موسى - عليه السلام - وباستحياء النساء للاستخدام والاسترقاق، ولم يقع ما أمروا به. ولا تم لهم، ولا أعانهم الله عليه. (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) أي: في حيرة وتخبط لم يقع منه شيء، ولا أنجح سعيهم، وكانوا باسروا القتل أولاً فنفذ قضاء الله في إظهار من خافوا إهلاكهم على يديه. وقيل: كان فرعون قد كف عن قتل الأبناء فلما بعث موسى وأحس أنه قد وقع ما كان يحذره أعاد القتل عليهم غيظاً وحنقاً وظناً منه أنه يصددهم بذلك عن مظاهره موسى وما علم أن كيدهم ضائع في الكررتين معاً، (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه) قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «وبعضه من كلام الحسن - كان إذا هم بقتله كفّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه هو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة ومثله لا يقاومه إلا ساحر مثله. ويقولون: إن قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرتة بالحجة. والظاهر: أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات وما هو سحر ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتلاً سفاكاً للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه، ويهدم ملكه، ولكنه يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله (وليدع ربه) شاهد صدق على فرط خوفه منه، ومن دعوته ربه. كان قوله (ذروني أقتل موسى) تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفرع. وقال ابن عطية: «الظاهر من أمر فرعون أنه لما بهرت آيات موسى أنهد ركنه، واضطربت معتقدات أصحابه، ولم يفقد منهم من يجاذبه الخلاف في أمره وذلك بين من غير ما موضع في قصتها وفي ذلك على هذا دليلاً، أحدهما: قوله (ذروني) فليست هذه من ألفاظ الجابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم. والدليل الثاني: في مقالة المؤمن وما صدع به وأن مكاشفته لفرعون خيراً من مسابرتة وحكمه بنبو موسى أظهر من تقريبه في أمره. وأما فرعون فإنه نحا إلى المخرقة والاضطراب والتعاطي. ومن ذلك قوله (ذروني أقتل موسى وليدع ربه) أي: إني لا أبالي من رب موسى ثم رجع إلى قومه يريهم النصحة والحيانة لهم فقال (إني أتحاف أن يبذل دينكم) والدين: السلطان. ومنه قول زهير:



لَيْسُنْ حَلَلْتُ بِجَوْ فِي بَنِي أُسْدٍ فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ تَيْنَنَا فَدَكُ<sup>(١)</sup>

انتهى . وتبديل دينهم : هو تغييره وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام كما قال ﴿ويذكر وأهتهك﴾ [الأعراف ١٢٧] (أو أن يظهر في الأرض الفساد) وذلك بالتهاجر الذي يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب، وهلك الناس قتلاً، وضياًعاً، فأخاف فساد دينكم، وديناكم معاً. وبدأ فرعون بخوفه تغيير دينهم على تغيير دنياهم، لأن حبههم لأديانهم فوق حبههم لأموالهم. وقيل (ذروني) يدل على أنهم كانوا يمنعونهم من قتله إما لكون بعضهم كان مصداقاً له فيتحيل في منعه قتله، وإما لما روي عن الحسن مما ذكر الزمخشري، وإما لشغل قلب فرعون بموسى حتى لا يتفرغ لهم ويأمنوا من شره كما يفعلون مع الملك إذا خرج عليه خارجي شغلوه به حتى يأمنوا من شره. وقرأ الكوفيون (أو أن بترديد الخوف) بين تبديل الدين أو ظهور الفساد. وقرأ باقي السبعة (وأن) بانتصاب الخوف عليها معاً. وقرأ أنس بن مالك، وابن المسيب، ومجاهد، وقتادة، وأبو رجاء، والحسن، والجحدري، ونافع، وأبو عمرو، وحفص (يُظْهَرُ) من أظهر مبنياً للفاعل (الفساد) نصباً. وقرأ باقي السبعة والأعرج، والأعمش، وابن وثاب، وعيسى (يُظْهَرُ) من ظَهَر مبنياً للفاعل (الفساد) رفعاً، وقرأ مجاهد (يُظْهَرُ) بشد الظاء والهاء الفساد رفعاً. وقرأ زيد بن علي (يُظْهَرُ) بضم الباء وفتح الهاء مبنياً للمفعول (الفساد) رفعاً، ولما سمع موسى بمقالة فرعون استعاذ بالله من شر كل متكبر منكر للمعاد. وقال (وربكم) بعثاً على الاقتداء به، فيعوذون بالله، ويعتصمون به (من كل متكبر) يشمل فرعون، وغيره من الجبابرة. وكان ذلك على طريق التعريض، وكان أبلغ. والتكبر: تعاطم الإنسان في نفسه مع حقارته لأنه يفعل ولا يؤمن بيوم الحساب. أي: بالجزاء. وكان ذلك أكد في جراته إذ حصل له التعاطم في نفسه وعدم المبالاة بما ارتكب. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي (عدت) بالإدغام وباقي السبعة بالإظهار (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه) قيل: كان قبطياً ابن عم فرعون، وكان يجري مجرى ولي العهد ومجربى صاحب الشرطة، وقيل: كان قبطياً ليس من قرابته. وقيل: قيل فيه (من آل فرعون) لأنه كان في الظاهر على دينه ودين أتباعه. وقيل: كان إسرائيلياً وليس من آل فرعون. وجعل (آل فرعون) متعلقاً بقوله (يكتنم إيمانه) لا في موضع الصفة لـ (رجل) كما يدل عليه الظاهر. وهذا فيه بعد، إذ لم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتجاسر عند فرعون بمثل ما تكلم به هذا الرجل. وقد رد قول من علق (من آل فرعون) لـ (يكتنم) فإنه لا يقال: كتنت من فلان كذا. إنما يقال: كتنت فلاناً كذا. قال تعالى: ﴿ولا يكتنمون الله حديثاً﴾ [النساء: ٤٢] وقال الشاعر:

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِالْجُمُومَيْنِ سَاهِرًا      وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًا وَظَاهِرًا  
أَحَادِيثَ نَفْسٍ تَشْتَكِي مَا يُرِيهَا      وَوَرْدَ هُمُومٍ لَنْ يَجِدْنَ مَصَادِرًا<sup>(٢)</sup>

أي: كتنتك أحاديث نفس وهمين. قيل: واسمه سمعان. وقيل: حبيب. وقيل: حزقيل. وقرأ الجمهور (رجل) بضم الجيم. وقرأ عيسى، وعبد الوارث، وعبيد بن عقيل، وحمزة بن القاسم عن أبي عمرو بسكون وهي لغة تميم ونجد، (أنتقلون رجلاً أن يقول) أي: لأن يقول (ربي الله) وهذا إنكار منه عظيم، وتبكيك لهم، كأنه قال: أترتكبون الفعل الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم عليه في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها. وهي قوله (ربي الله) مع أنه قد جاءكم بالبيانات من ربكم) أي: من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده، وهذا استدراج إلى الاعتراف. وقال الزمخشري: «ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً. أي: وقت أن يقول. والمعنى: أنتقلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من

(١) البيت من البسيط انظر ديوانه (٨٢) وانظر روح المعاني (٦٢/٢٤) (وجو) واد في ديار بني أسد.

(٢) البيت من الطويل للنابعة انظر ديوانه (١٦٧) وانظر روح المعاني (٦٣/٢٤).

غير روية ولا فكر في أمره». انتهى . وهذا الذي أجازته من تقدير المضاف المحذوف الذي هو وقت لا يجوز . تقول: جئت صياح الديك . أي: وقت صياح الديك . ولا أجيء أن يصبح الديك . نص على ذلك النحاة . فشرط ذلك أن يكون المصدر مصرحاً به لا مقدرأً . (وأن يقول) ليس مصدرأً مصرحاً به (بالبينات) بالدلائل على التوحيد، وهي : التي ذكرها في طه والشعراء حالة محاورته له في سؤاله عن ربه تعالى . ولما صرح بالإنتكار عليهم غالطهم بعد أن قسم أمره إلى كذب وصدق، وأدى ذلك في صورة احتمال ونصيحة . وبدأ في التقسيم بقوله (وإن يك كاذباً فعليه كذبه) مداراة منه، وسالكاً طريق الإنصاف في القول، وخوفاً إذا أنكر عليهم قتله أنه ممن يعاضده، ويناصره، فأوهمهم بهذا التقسيم والبداءة بحالة الكذب حتى يسلم من شره، ويكون ذلك أدنى لتسليمهم . ومعنى (فعليه كذبه) أي : لا يتخطاه ضرره (وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم) وهو يعتقد أنه نبي صادق قطعاً لكنه أتى بلفظ (بعض) لإلزام الحجة بأسرها في الأمر، وليس فيه نفي أن يصيبهم كل ما يعدهم . وقالت فرقة يصيبكم بعض العذاب الذي يذكر وذلك كان في هلاكهم ويكون المعنى : يصيبكم القسم الواحد مما يعد به، وذلك هو بعض مما يعد، لأنه - عليه السلام - وعدهم إن آمنوا بالنعمة وإن كفروا بالنقمة . وقالت فرقة (بعض الذي يعدكم) عذاب الدنيا، لأنه بعض عذاب الآخرة ويصيرون بعد ذلك إلى النار . وقال أبو عبيدة وغيره : «بعض بمعنى كل، وأنشدوا قول عمرو بن شسيم القطامي :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَّانِي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعَجِلِ الزَّلُّ<sup>(١)</sup>

وقال الزمخشري : «وذلك أنه حين فرض صادقاً، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أرفده (يصيبكم بعض الذي يعدكم) ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فريهم أنه ليس بكلام من أعطاه وافيأً، فضلاً أن يتعصب له (فإن قلت:) «وعن أبي عبيدة: أنه قسم البعض بالكل . وأنشد بيت لبيد، وهو:

تَرَاكَ أَمْكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا وَيُرِيكَ مِنْ بَعْضِ النَّفُوسِ حَمَامَهَا<sup>(٢)</sup>

(قلت:) إن صحت الرواية عنه فقد حق في قول المازني في مسألة العافي كان أحضى من أن يفقه ما أقول له». انتهى . ويعني أن أبا عبيدة خطئه الناس في اعتقاده أن بعضاً يكون بمعنى كل، وأنشدوا أيضاً في كون بعض بمعنى كل قول الشاعر:

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا الْأَحْدَاثُ دَبَّرَهَا دُونَ الشُّيُوخِ تَرَى فِي بَعْضِهَا خَلَلًا<sup>(٣)</sup>

أي: إذا رأى الأحداث . ولذلك قال دبَّرها ولم يقل دبَّروها . راعى المضاف المحذوف . (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) فيه إشارة إلى علو شأن موسى - عليه السلام - وأن من اصطفاه الله للنبوة لا يمكن أن يقع منه إسراف ولا كذب . وفيه تعريض بفرعون إذ هو غاية الإسراف على نفسه بقتل أبناء المؤمنين، وفي غاية الكذب إذ ادعى الإلهية والربوبية ومن هذا شأنه لا يهديه الله . وفي الحديث: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يس . ومؤمن آل فرعون . وعلي بن أبي طالب». وفي الحديث: «أنه عليه السلام طاف بالبيت فحين فرغ أخذ بمجامع رذائه . فقالوا له أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا؟ فقال: أنا ذاك: فقام أبو بكر - رضي الله عنه - فآلتمه من ورائه وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم رافعاً صوته بذلك وعيناه تسفحان بالدموع حتى أرسلوه». وعن جعفر الصادق: «أن مؤمن آل فرعون قال ذلك سراً وأبو بكر قاله ظاهراً»، وقال السدي: «مسرف بالقتل» وقال قتادة: «مسرف بالكفر»، وقال صاحب

(١) انظر ديوانه (٢٣) مجالس ثعلب (٣٦٩) شرح شواهد الكشاف (١١٦) روح المعاني (٦٤/٢٤).

(٢) البيت من الكامل انظر ديوانه (١٧٥) الخصائص (٧٤/١) المحتسب (١١١/١) مجالس ثعلب (٥٠) شرح القصائد.

(٣) من البسيط لم أمتد لقائله انظر الإنصاف (٧٦٧) روح المعاني (٦٤/٢٤).

التحرير والتحرير: «هذا نوع من أنواع علم البيان يسميه علماءنا استدراج المخاطب، وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى والقوم على تكذيبه أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له وأنه من أتباعه فجاءهم من طريق النصيح والملاطفة فقال (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) ولم يذكر اسمه بل قال (رجلاً) يوهم أنه لا يعرفه ولا يتعصب له (أن يقول ربي الله) ولم يقل: رجلاً مؤمناً بالله، أو هو نبي الله، إذ لو قال شيئاً من ذلك لعلموا أنه متعصب، ولم يقبلوا قوله ثم أتبعه بما بعد ذلك فقدم قوله (وإن يك كاذباً) موافقة لرأيهم فيه، ثم تلاه بقوله (وإن يك صادقاً) ولو قال هو صادق وكل ما بعدكم لعلموا أنه متعصب، وأنه يزعم أنه نبي وأنه يصدق، فإن الأنبياء لا تحل بشيء مما يقولونه. ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق وهو قوله (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) انتهى. ثم قال: (يا قوم) نداء متلطف في موغظتهم، (لكم الملك اليوم ظاهرين) أي: عالين (في الأرض) في أرض مصر قد غلبتم بني إسرائيل فيها، وقهرتموهم، واستعبدتموهم. وناداهم بالملك الذي هو أعظم مراتب الدنيا وأجلها، وهو من جهة شهواتهم. وانتصب (ظاهرين) على الحال. والعامل فيها هو العامل في الجار والمجرور، وذو الحال هو ضمير لكم ثم حذرهم أن يفسدوا على أنفسهم بأنه إن جاءهم بأسس الله لم يجدوا ناصرًا لهم ولا دافعاً. وأدرج نفسه في قوله (ينصرون) و(جاءنا) لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم أن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه. وأقوال هذا المؤمن تدل على زوال هيبة فرعون من قلبه ولذلك استكان فرعون، وقال (ما أرىكم إلا ما أرى): ما أشير عليكم إلا بقتله، ولا أستصوب إلا ذلك. وهذا قول من لا تحكم له. وأتى ب (ما) وإلا للحصر والتأكيد. (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) لا ما تقولونه من ترك قتله وقد كذب، بل كان خائفاً وجللاً، وقد علم أن ما جاء به موسى - عليه السلام - حق، ولكنه كان يتجلد ويرى ظاهره خلاف ما أبطن. وأورد الزمخشري، وابن عطية، وأبو القاسم الهذلي، هنا: أن معاذ بن جبل قرأ (الرشاد) بشد الشين. قال أبو الفتح: «وهو اسم فاعل في بنية مبالغة من الفعل الثلاثي (رشد) فهو كعباد من عبد. وقال الزمخشري: أو من رشيد كعلام من علم، وقال النحاس: هو لحن وتوهمه من الفعل الرباعي. ورد عليه أنه لا يتعين أن يكون من الرباعي بل هو من الثلاثي. على أن بعضهم قد ذهب إلى أنه من الرباعي فبنى فَعَالَ من أَفْعَلَ كدَرَاك من أذْرَكَ وسَار من أَسَارَ وجَبَّار من أَجْبَرَ وقَصَّار من أَقَصَّرَ ولكنه ليس بقياس، فلا يحمل عليه ما وجدت عنه مندوحة. وفَعَالَ من الثلاثي مقيس فحمل عليه. وقال أبو حاتم: «كان معاذ بن جبل يفسرها بسبيل الله». قال ابن عطية: «ويبعد عندي على معاذ رضي الله عنه»، وهل كان فرعون إلا يدعي أنه إله. وتعلق بناء اللفظ على هذا التأويل». انتهى. وإيراد الخلاف في هذا الحرف الذي هو من قول فرعون خطأ، وتركيب قول معاذ عليه خطأ. والصواب أن الخلاف فيه هو قول المؤمن (اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) قال أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح: له من شواذ القراءات ما نصه: معاذ بن جبل (سبيل الرشاد) الحرف الثاني بالتشديد، وكذلك الحسن وهو سبيل الله تعالى الذي أوضح الشرائع. كذلك فسره معاذ بن جبل وهو منقول من مرشد، كدراك من مدرك، وجبار من مجبر، وقصار من مقصر عن الأمر. ولها نظائر معدودة فأما قصار فهو من قصر الثوب قصارة. وقال ابن خالويه بعد أن ذكر الخلاف في (التناد) وفي صدر عن السبيل ما نصه سبيل الرشاد بتشديد الشين معاذ بن جبل، قال ابن خالويه: يعني بالرشاد الله تعالى». انتهى. فهذا لم يذكر الخلاف إلا في قول المؤمن (أهدكم سبيل الرشاد) فذكر الخلاف فيه في قول فرعون خطأ، ولم يفسر معاذ بن جبل (الرشاد) أنه الله تعالى إلا في قول المؤمن لا في قول فرعون. قال ابن عطية ذلك التأويل من قول فرعون وهم.

«وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين

آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار، وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلني أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب، وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزي إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴿١﴾.

الجمهور على أن هذا المؤمن: هو الرجل القائل (أقتلون رجلاً) قص الله آقاويله إلى آخر الآيات. لما رأى ما لحق فرعون من الخور، والخوف، أتى بنوع آخر من التهديد، وخوفهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من استئصال الهلاك حين كذبوا رسلهم، وقويت نفسه حتى سرد عليهم ما سرد ولم يهب فرعون. وقالت فرقة: بل كلام المؤمن قد تم وإنما أراد تعالى بالذي آمن بموسى - عليه السلام - واحتجوا بقوة كلامه وأنه جنح معهم بالإيمان، وذكر عذاب الآخرة، وغير ذلك. ولم يكن كلام الأول إلا علانية لهم. وأفرد اليوم إما لأن المعنى مثل أيام الأحزاب. أو أراد به الجمع. أي: مثل أيام الأحزاب لأنه معلوم أن كل حزب كان له يوم (والأحزاب) الذي تحزبوا على أنبياء الله. و(مثل دأب) قال ابن عطية: «بدل»، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «عطف بيان»، وقال الزجاج: «مثل يوم حزب ودأب عادتهم وديندهم في الكفر والمعاصي». (وما الله يريد ظلماً للعباد) أي: إن إهلاكه إياهم كان عدلاً منه. وفيه مبالغة في نفي الظلم حيث علقه بالإرادة فإذا نفاه عن الإرادة كان نفيه عن الوقوع أولى وأحرى. ولما خوفهم أن يحل بهم في الدنيا ما حل بالأحزاب خوفهم أمر الآخرة فقال تعطفاً لهم بندايمهم (يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد) وهو يوم الحشر. والتنادي: مصدر تنادى القوم، أي: نادى بعضهم بعضاً. قال الشاعر:

تَنَادَوْا فَفَأَلْسُوا أُرْدَتِ الْخَيْلِ فَارِسًا      فَكَلْتُ أَعْبُدُ اللَّهَ ذَلِكُمْ الرُّدِي<sup>(٢)</sup>

وسمي يوم التنادي، إما لنداء بعضهم لبعض بالويل<sup>(٣)</sup> والثبور<sup>(٤)</sup>، وإما لتنادي أهل الجنة وأهل النار على ما ذكر في سورة الأعراف، وإما لأن الخلق ينادون إلى المحشر. وإما لنداء المؤمن ﴿هاؤم أقرؤوا كتابيه﴾ [الحاقة: ١٩] والكافر ﴿يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقرأت فرقة (التناد) بسكون الدال في الوصل أجراه مجرى الوقف وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو صالح، والكلبي، والزعفراني، وابن مقسم (التناد) بتشديد الدال من: نداء البعير إذا هرب. كما قال: ﴿يفر المرء من أخيه﴾ [عبس: ٣٤] الآية. وقال ابن عباس، وغيره: في (التناد) خفيفة الدال هو التنادي. أي: يكون بين الناس عند النفخ في الصور. ونفخة الفزع في الدنيا، وأنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي ناهم وينادي بعضهم بعضاً. وروي هذا التأويل عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - وقال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون التذكر بكل نداء في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة». انتهى. قال أمية بن أبي الصلت:

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا      فَهَمَّ سُكَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِي<sup>(٥)</sup>

(١) انظر الكشف ٤/١٦٤.

(٢) البيت من الطويل لدرديد بن الصمة انظر الأصمعيات (١٠٨).

(٣) الويل: كلمة تقال لكل من وقع في عذاب أو هلكة.

لسان العرب (٦/٤٩٤٩)

(٤) الثبور: الهلاك والحسران والويل.

لسان العرب (١/٦٩٦)

(٥) انظر البيت في القرطبي (٥/٢٠٢).

وفي الحديث: «إن للناس جولة يوم القيامة يندون يظنون أنهم يجدون مهرباً ثم تلا (يوم تولون مديرتين) قال مجاهد: «معناه فارين». و«قال السدي (ما لكم من الله من عاصم) في فراركم حتى تعذبوا في النار». وقال قتادة: «ما لكم في الانطلاق إليها من عاصم». أي: مانع يمنعكم منها أو ناصر، ولما يش المؤمن من قبولها، قال: (ومن يضل الله فما له من هاد) ثم أخذ يوبخهم على تكذيب الرسل بأن يوسف قد جاءهم بالبينات. والظاهر: أنه يوسف بن يعقوب، وفرعون هو فرعون موسى. وروى أشهب عن مالك: أنه بلغه أن فرعون عمّر أربعمئة سنة وأربعين سنة. وقيل: بل الجائي إليهم هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب، وأن فرعون هو فرعون غير فرعون موسى. و(البينات) بالمعجزات، فلم يزالوا شاكبين في رسالته كافرين حتى إذا توفي (قلتم لن يعث الله من بعده رسولاً) وليس هذا تصديقاً لرسالته وكيف وما زالوا في شك منه؟ وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق. ففيه نفي الرسول، ونفي بعثته. وقرئ (ألن يبعث) بإدخال همزة الاستفهام على حرف النفي. كأن بعضهم يقرر بعضاً على نفي البعثة (كذلك) أي: مثل إضلال الله إياكم. أي: حين لم تقبلوا من يوسف (يضل الله من هو مسرف مرتاب) يعنيهم إذ هم المسرفون المرتابون في رسالات الأنبياء. وجوزوا في (الذين يجادلون) أن تكون صفة لـ (من) وبدلاً منه. أي: معناه جمع. ومبتدأ على حذف مضاف. أي: جدال الذين يجادلون حتى يكون الضمير في (كبر) عائداً على ذلك أولاً. أو على حذف مضاف والفاعل بـ (كبر) ضمير يعود على الجدال المفهوم من قوله (يجادلون) أو ضمير يعود على (من) على لفظها على أن يكون (الذين) صفة أو بدلاً. أعيد أولاً على لفظ (من) في قوله (هو مسرف كذاب) ثم جمع (الذين) على معنى (من) ثم أفرد في قوله (كبر) على لفظ (من)، وقال الزجاج: «ويحتمل أن يكون (الذين يجادلون) مبتدأ. و(بغير سلطان اتاهم) خبراً، وفاعل (كبر) قوله (كذلك) أي: كبر مقتاً مثل ذلك الجدل. و(يطبع الله) كلام مستأنف. ومن قال (كبر مقتاً عند الله) جداهم فقد حذف الفاعل. والفاعل لا يصح حذفه». انتهى. وهذا الذي أجازاه لا يجوز أن يكون مثله في كلام فصيح فكيف في كلام الله؟ لأن فيه تفكيك الكلام بعضه من بعض. وارتكاب مذهب الصحيح خلافه. أما تفكيك الكلام فالظاهر: أن (بغير سلطان) متعلق بـ (يجادلون) ولا يتعقل جعله خبراً لـ (الذين) لأنه جار ومجرور، فيصير التقدير: الذين يجادلون في آيات الله. كائناً أو مستقروا بغير سلطان. أي: في غير سلطان، لأن الباء إذ ذاك ظرفية خبر عن الجنة. و(كذلك) في قوله (يطبع) أنه مستأنف. فيه تفكيك الكلام، لأن ما جاء في القرآن من (كذلك يطبع) أو (نطبع) إنما جاء مربوطاً ببعضه ببعض، فكذلك هنا. وأما ارتكاب مذهب الصحيح خلافه، فجعل الكاف اسماً فاعلاً بـ (كبر) وذلك لا يجوز على مذهب البصريين إلا الأخصش<sup>(١)</sup>. ولم يثبت في كلام العرب أعني نثرها: جاءني كزيد. تريد: مثل زيد فلم تثبت اسميتها فتكون فاعلة. وأما قوله: «ومن قال إلى آخره» فإن قائل ذلك وهو الجوفي والظن به أنه فسر المعنى ولم يرد الإعراب. وأما تفسير الإعراب أن الفاعل بـ (كبر) ضمير يعود على الجدال المفهوم من (يجادلون) كما قالوا: من كذب كان شراً له. أي: كان هو. أي: الكذب. المفهوم من كذب. والأولى في إعراب هذا الكلام أن يكون (الذين) مبتدأ وخبره (كبر) والفاعل ضمير المصدر المفهوم من (يجادلون) وهذه الصفة موجودة في فرعون وقومه. ويكون الواعظ لهم قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب، لحسن محاورته لهم، واستجلاب قلوبهم، وإبراز ذلك في صورة تذكيرهم، ولا يفجأهم بالخطاب. وفي قوله (كبر مقتاً) ضرب من التعجب والاستعظام لجداهم، والشهادة على خروجه عن حد إشكاله من الكبائر. (كذلك) أي: مثل ذلك الطبع على قلوب المجادلين (يطبع الله) أي يحتم بالضلالة ويحجب عن الهدى. وقرأ أبو عمرو بن ذكوان، والأعرج بخلاف عنه (قلب) بالتونين. وصف القلب بالتكبر والجبروت، لكونه مركزهما ومنبعهما، كما يقولون: رأت العين. وكما قال ﴿فإنه آثم قلبه﴾ [البقرة ٢٨٣] والائتم: الجملة.

وأجاز الزمخشري أن يكون على حذف المضاف . أي : على كل ذي قلب متكبر . بجعل الصفة لصاحب القلب . انتهى . ولا ضرورة تدعو إلى اعتقاد الحذف ، وقرأ باقي السبعة (قَلْبٍ متكبر) بالإضافة . والمضاف فيه العام عام . فلزم عموم متكبر جبار . وقال مقاتل : «التكبر : المعاند في تعظيم أمر الله . والجبار : المسلط على خلق الله . وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً» أقوال فرعون (ذروني أقتل موسى) (ما أريكم إلا ما أرى) (يا هامان ابن لي صرحاً) حيدة عن محاجة موسى ، ورجوع إلى أشياء لا تصح ، وذلك كله لما خامره من الجزع ، والخوف ، وعدم المقاومة ، والتعرف أن هلاكه وهلاك قومه على يد موسى ، وأن قدرته عجزت عن التأثير في موسى . هذا على كثرة سفكه الدماء . وتقدم الكلام في الصرح في سورة القصص فأغنى عن إعادته ، قال السدي : «الأسباب : الطرق» ، وقال قتادة : «الأبواب» . وقيل عنى لعله يجد مع قربه من السماء سبباً يتعلق به ، وما أدرك إلى شيء فهو سبب . وأهم أولاً الأسباب ثم أبدل منها ما أوضحها . والإيضاح بعد الإبهام يفيد تفخيم الشيء ، إذ في الإبهام تشويق للمراد وتعجب من المقصود ، ثم بالتوضيح يحصل المقصود ويتعين ، وقرأ الجمهور (فَأَطَّلِعُ) رفعاً عطفاً على (أبْلُغُ) فكلاهما مترجى . وقرأ الأعرج ، وأبو حيوة ، وزيد بن علي ، والزعفراني ، وابن مقسم ، وحفص (فَأَطَّلِعُ) بنصب العين . وقال أبو القاسم بن جبار ، وابن عطية : «على جواب التمني» . وقال الزمخشري : «على جواب الترجي تشبيهاً للترجي بالتمني» . انتهى . وقد فرق النحاة بين التمني والترجي فذكروا أن التمني يكون في الممكن والممتنع . والترجي يكون في الممكن . وبلوغ أسباب السموات غير ممكن ، لكن فرعون أبرز ما لا يمكن في صورة الممكن ، تمهيداً على سامعيه . وأما النصب بعد الفاء في جواب الترجي فشيء أجازة الكوفيون ، ومنعه البصريون . واحتج الكوفيون بهذه القراءة وبقراءة عاصم (فتنفعه الذكرى) في سورة عبس إذ هو جواب الترجي في قوله (لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى) وقد تأولنا ذلك على أن يكون عطفاً على التوهم لأن خبر (لعل) كثيراً جاء مقروناً بأن في النظم كثيراً ، وفي النثر قليلاً . فمن نصب توهم أن الفعل المرفوع الواقع خبراً كان منصوباً بأن ، والعطف على التوهم كثير ، وإن كان لا يتقاس . لكن إن وقع شيء وأمكن تحريكه عليه خرج . وأما هنا (فَأَطَّلِعُ) فقد جعله بعضهم جواباً للأمر وهو قوله (ابن لي صرحاً) كما قال الشاعر :

يَا نَاقَ سِيرِي عَنَقاً فَسِيحاً  
إِلَى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحاً<sup>(١)</sup>

ولما قال (فَأَطَّلِعُ إلى إله موسى) كان ذلك إقراراً بإله موسى فاستدرك هذا الإقرار بقوله (وإني لأظنه كاذباً) أي : في ادعاء الإلهية كما قال في القصص ﴿لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ [القصص ٣٨] (وكذلك) أي : مثل ذلك التزيين في إبهام فرعون أنه يطلع إلى إله موسى (زين لفرعون سوء عمله) ، وقرأ الجمهور (زَيْنَ لفرعون) مبنياً للمفعول وقرئ (زَيْنَ) مبنياً للفاعل . وقرأ الجمهور (وَصِدَّ) مبنياً للفاعل أي : وصد فرعون . والكوفيون بضم الصاد مناسباً لزين مبنياً للمفعول . وابن وثاب بكسر الصاد . أصله صَدِدٌ نقلت الحركة إلى الصاد بعد توهم حذفها . وابن أبي إسحق ، وعبد الرحمن بن أبي بكر بفتح الصاد وضم الدال متونة عطفاً على (سوء عمله) والتباب : الخسران . خسر ملكه في الدنيا فيها بالغرق ، وفي الآخرة بخلود النار . وتكرر وعظ المؤمن إثر كلام فرعون بندائه قومه مرتين متبعاً كل نداء بما فيه زجر واتعاط لوجود من يقبل . وأمر هنا باتباعه لأن يهديهم سبيل الرشاد . وقرأ معاذ بن جبل بشد الشين . وتقدم الكلام على ذلك والرد على من جعل هذه القراءة في كلام فرعون وأجل أولاً في قوله (سبيل الرشاد) وهو سبيل الإيمان بالله ، واتباع شرعه . ثم فسر فافتتح بدم الدنيا ، وبصغر شأنها ، وأنها متاع زائل هي ومن تمتع بها ، وأن الآخرة هي دار القرار التي لا انفككك منها إما إلى جنة وإما إلى نار وكذلك قال (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) وقرأ أبو رجاء ، وشيبة ، والأعمش ، والأخوان ،

(١) من الرجز لأبي النجم العجلي انظر الكتاب (٥٣/٣) المقتضب (١٣/٢) الصناعة (٢٧٢/١) التصريح (٢٣٩/٢) شرح المفصل لابن يعيش (٢٦/٧) الأشموني (٣٠٢/٣) .

والصاحبان، وحفص (يُدخَلون) مبنياً للفاعل. وباقي السبعة، والأعرج، والحسن، وأبو جعفر، وعيسى مبنياً للمفعول ﴿يا قوم ما يَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ، تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخَزَنَةٌ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ، قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى. قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ، إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾.

بدأ المؤمنون بذكر المتسبب عن دعوتهم وأبدى التفاضل بينها. ولما ذكر المسيبين ذكر سببها وهو دعاؤهم إلى الكفر والشرك، ودعاؤه إياهم إلى الإيمان والتوحيد. وأتى بصيغة (العزیز) وهو الذي لا نظير له، والغالب الذي العالم كلهم في قبضته يتصرف فيهم كما يشاء. (الغفار) لذنوب من رجع إليه وآمن به. وأوصل سبب دعائهم بمسببه وهو الكفر والنار وأخر سبب مسببه ليكون افتتاح كلامه واختتامه بما يدعو إلى الخير: وبدأ أولاً بجملة اسمية وهو الاستفهام المتضمن التعجب من حالتهم، وختم أيضاً بجملة اسمية ليكون أبلغ في توكيد الإخبار، وجاء في حقهم (وتدعونني) بالجملة الفعلية التي لا تقتضي توكيداً إذ دعوتهم باطلة لا ثبوت لها فتؤكد. و(ما ليس لي به علم) هي: الأوثان. أي لم يتعلق به علمي إذ ليس لها مدخل في الألوهية ولا لفرعون. قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(فإن قلت:) لم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ (قلت:) لأن الثاني داخل في كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة». انتهى. وتقدم الكلام على (لا جرم) قال الزمخشري<sup>(٢)</sup> هنا: «وروي عن العرب لا جرم أنه يفعل» بضم الجيم وسكون الراء. يريد لا بد وفعل وقعل وأخوان كُرُشِدٌ ورُشِدٌ وعُدْمٌ وعُدْمٌ (أثماً) أي إن الذي (تدعونني إليه) أي إلى عبادته (ليس له دعوة) أي: قدر وحق يجب أن يدعى إليه، أو ليس له دعوة إلى نفسه، لأن الجهاد لا يدعو. والمعبود بالحق يدعو العباد إلى طاعته ثم يدعو العباد إليها إظهار الدعوة ربهم، وقال الزجاج: «المعنى: ليس له استجابة دعوة توجب الألوهية» (في الدنيا ولا في الآخرة) أو دعوة مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها، ولا منفعة كدعوة. أو سميت الاستجابة باسم الدعوة كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قوله: «كما تدين تدان»، وقال الكلبي: «ليست له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة»، وكان فرعون أولاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ثم دعاهم إلى عبادة البقر، وكانت تعبد ما دامت شابة فإذا هزلت أمر بذبحها، ودعا بأخرى لتعبد فلما طال عليه الزمان قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] ولما ذكر انتفاء دعوة ما عبد من دون الله، وذكر أن مرد الجميع إلى الله. أي: إلى جزائه (وأن المسرفين) وهم المشركون في قول: قتادة. والسفاكون للدماء بغير حلها. في قول ابن مسعود ومجاهد. وقيل: من غلب شره خيره هو المسرف. وقال عكرمة: «هم الجبارون المتكبرون»، وختم المؤمن كلامه بخاتمة لطيفة توجب التخويف والتهديد، وهي قوله (فستذكرون ما أقول لكم) أي: إذا حل بكم عقاب الله (وأفوض أمري إلى) قضاء (الله) وقدره لا إليكم، ولا إلى أصنامكم. وكانوا قد توعدوه ثم ذكر ما يوجب التفويض وهو كونه تعالى (بصيراً) بأحوال العباد وبمقادير حاجاتهم. قال

(١) انظر الكشاف ٤/١٦٨.

(٢) انظر الكشاف ٤/١٦٩.

مقاتل: «لما قال هذه الكلمات، قصدوا قتله فهرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدرُوا عليه». وقيل: لما أظهر إيمانه بعث فرعون في طلبه ألف رجل، فمنهم من أدركه فذب السباع عنه، وأكلتهم السباع ومنهم من مات في الجبال عطشاً، ومنهم من رجع إلى فرعون خائباً فاتمه وقتله وصلبه. وقيل: نجاة موسى في البحر وفر في جملة من فرعه. (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أي: شدائد مكرهم التي تسوؤه وما هوأ به من أنواع العذاب لمن خالفهم. (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) قال ابن عباس: «هو ما حاق بالآل الذين بعثهم فرعون في طلب المؤمن من أكل السباع، والموت بالعطش، والقتل، والصلب». كما تقدم. وقيل: (سوء العذاب) هو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، (النار) بدل من (سوء العذاب) أو خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما سوء العذاب؟ قيل (النار) أو مبتدأ خبره (يعرضون) ويقوي هذا الوجه قراءة من نصب. أي: تدخلون النار يعرضون عليها وقال الزمخشري ويجوز أن ينصب على الاختصاص والظاهر أن عرضتهم على النار مخصوص بهذين الوقتين. ويجوز أن يراد بذكر الطرفين الدوام في الدنيا. والظاهر: أن العرض خلاف الإحراق»، وقال الزمخشري: «عرضهم عليها إحراقهم بها يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به». انتهى. والظاهر: أن العرض هو في الدنيا. وروي ذلك عن الهذيل بن شرحبيل، وعن ابن مسعود، والسدي «أن أرواحهم في جوف طيور سود تروح بهم وتغدو إلى النار». وقال رجل للأوزاعي: رأيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم تروح بالعشي سوداً مثلها، فقال الأوزاعي «تلك التي في حواصلها أرواح آل فرعون. يحرق رباشها وتسود بالعرض على النار». وقال محمد بن كعب وغيره: «أراد أنهم يعرضون في الآخرة على تقدير ما بين الغدو والعشي إذ لا غدو ولا عشي في الآخرة وإنما ذلك على التقدير بأيام الدنيا»، وعن ابن مسعود: «تعرض أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار على النار بالغداة والعشي يقال هذا داركم»<sup>(١)</sup>. وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عمر<sup>(٢)</sup> أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة». وأستدل مجاهد، ومحمد بن كعب، وعكرمة، ومقاتل بقوله (النار يعرضون عليها غدواً وعشيّاً) أي: عند موتهم على عذاب القبر في الدنيا. والظاهر: تمام الجملة عند قوله (وعشيّاً) وأن يوم القيامة معمول لمحذوف على إضمار القول. أي: ويوم القيامة يقال لهم ادخلوا. وقيل: (ويوم) معطوف على (وعشيّاً) فالعامل فيه (يعرضون) و(أدخلوا) على إضمار الفعل، وقيل: العامل في (يوم) (أدخلوا)، وقرأ الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وابن وثاب، وطلحة، ونافع، وهمة، والكسائي وحفص (أدخلوا) أمراً للجنة من أدخل. وعلي، والحسن، وقتادة، وابن كثير، والعربان، وأبو بكر أمراً من (دخل) (آل فرعون أشد العذاب) قيل: وهو الهاوية، قال الأوزاعي: «بلغنا أنهم ألفا ألف وستائة ألف» (وإذ يتحاجون في النار) الظاهر: أن الضمير عائد على فرعون، وقال ابن عطية: «والضمير في قوله (يتحاجون) لجمع كفار الأمم. وهذا ابتداء قصص لا يختص بآل فرعون والعامل في (إذ) فعل مضمّر تقديره واذكروا». وقال الطبري: «(وإذ) هذه عطف على قوله (إذ القلوب لدى الحناجر) وهذا بعيد». انتهى. والمحااجة: التحاوير بالحجة الخصومة. و(الضعفاء) أي: في القدر والمنزلة في الدنيا. و﴿الذين استكبروا﴾ [غافر: ١٨] أي: عن الإيمان واتباع الرسل. (إنا كنا لكم تبعاً) أي: ذوي تبع ف (تبع) مصدر، أو اسم جمع لتابع. كأيام وأيم. وخادم وخدم. وغائب وغيب. (فهل أنتم مغنون عنا) أي: حاملون عنا فأجابوهم (إنا كل فيهما) وإن حكم الله قد نفذ فينا وفيكم إنا مستمرون في النار. وقرأ ابن السميعة، وعيسى بن عمر (إن كلاً) بنص كل. وقال الزمخشري وابن عطية: «على التوكيد

(١) انظر الطبري ٤٦/٢٤ وتفسير عبد الرزاق (١٩٢/٣) والبخاري (٩٩/٤) وابن كثير ٨٢/٤ والدر المنثور ٣٥٢/٥ والوسيط ٢٢ خ.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٣/٣ ومسلم ٢١٩٩/٤ كتاب الجنة (٦٥ - ٢٨٦٦).



لاسم (إن) وهو معرفة والتنوين عوض من المضاف إليه . يريد إنا كلنا فيها . انتهى . وخبر (إن) هو (فيها) ومن رفع (كلأ) فعلى الابتداء . وخبره (فيها) والجملة خبر (إن) ، وقال ابن مالك في تصنيفه تسهيل الفوائد وقد تكلم على كل : «ولا يستغنى بنية إضافته خلافاً للفرأ والزخشي» . انتهى . وهذا المذهب منقول عن الكوفيين وقد رد ابن مالك على هذا المذهب بما قرره في شرحه التسهيل . وقال الزخشي : «(فإن قلت : ) هل يجوز أن يكون (كلأ) حالاً قد عمل فيها (فيها) (قلت : ) لا ، لأن الظرف لا يعمل والحال متقدمة ، كما يعمل في الظرف متقدماً . تقول : كل يوم لك ثوب ولا تقول قائماً في الدار زيد» . انتهى . وهذا الذي منعه أجازته الأخفش إذا توسطت الحال نحو : زيد قائماً في الدار . وزيد قائماً عندك . والتمثيل الذي ذكره ليس مطابقاً في الآية ، لأن الآية تقدم فيها المسند إليه الحكم وهو اسم إن وتوسطت الحال إذا قلنا إنها حال وتأخر العامل فيها . وأما تمثيله بقوله : «ولا تقول قائماً في الدار زيد تأخر فيه المسند والمسند إليه» . وقد ذكر بعضهم أن المنع في ذلك إجماع من النحاة . وقال ابن مالك : «والقول المرضي عندي أن (كلأ) في القراءة المذكورة منصوب على أن الضمير المرفوع المنوي في (فيها) و(فيها) هو العامل وقد تقدمت الحال عليه مع عدم تصرفه كما قدمت في قراءة من قرأ ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧] وفي قول النابغة الذبياني :

رَهْطُ ابْنِ كَوْزٍ مُحَقِّبِي أَذْرَاعَهُمْ      فِيهِمْ وَرَهْطُ رَبِيعَةَ بْنِ جِدَارٍ<sup>(١)</sup>

وقال بعض الطائنين :

دَعَا فَأَجَبْنَا وَهُوَ بَادِي ذَلِّهِ      لَدَيْكُمْ فَكَانَ النَّصْرُ غَيْرَ قَرِيبٍ<sup>(٢)</sup>

انتهى . وهذا التخريج هو على مذهب الأخفش كما ذكرناه . والذي أختاره في تخريج هذه القراءة أن (كلأ) بدل من اسم إن لأن كلأ يتصرف فيها بالابتداء ونواسخه وغير ذلك ، فكأنه قال : إن (كلا) بدل من اسم (إن) لأن (كلا فيها) وإذا كانوا قد تأولوا : حولاً أكتعنا . ويوماً أجمعا . على البدل مع أنها لا يليان العوامل فإن يدعي في (كل) البدل أولى . وأيضاً فتتكير (كل) ونصبه حالاً في غاية الشذوذ . والمشهور أن (كلا) معرفة إذا قطعت عن الإضافة . حكى : مررت بكل قائماً . وبعض جالساً . في الفصيح الكثير في كلامهم . وقد شذ نصب كل على الحال في قولهم : مررت بهم كلا ، أي جميعاً ، (فإن قلت : ) كيف يجعله بدلاً وهو بدل كل من كل من ضمير المتكلم وهو لا يجوز على مذهب البصريين . قلت : ) مذهب الأخفش والكوفيين جواز - وهو الصحيح - على أن هذا ليس مما وقع فيه الخلاف بل إذا كان البدل يفيد الإحاطة جاز أن يبدل من ضمير المتكلم ، وضمير المخاطب لا نعلم خلافاً في ذلك كقوله تعالى : ﴿تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ [المائدة : ١١٤] وكقولك : مررت بكم صغيركم وكبيركم . معناه : مررت بكم كلكم وتكون لنا عيداً كلنا . فإذا جاز ذلك فيها هو بمعنى الإحاطة فجوازه فيما دل على الإحاطة وهو كل أولى ، ولا التفات لمنع المبرد البدل فيه ، لأنه بدل من ضمير المتكلم لأنه لم يتحقق مناط الخلاف . ولما أجاب الضعفاء المستكبرون قالوا جميعاً لخزنة جهنم . وأبرز ما أضيف إليه الخزنة ولم يأت ضميراً فكان يكون التركيب لخزنتها ، لما في ذكر جهنم من التهويل ، وفيها أطفى الكفار وأعتاهم ، ولعل الكفار توهموا أن ملائكة جهنم الموكلين بعذاب تلك الطغاة هم أقرب منزلة عند الله من غيرهم من الملائكة الموكلين ببقية دركات النار فترجوا أن يجيئهم ويدعوا لهم بالتخفيف . فراجعتهم الخزنة على سبيل التوبيخ لهم والتقرير (أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) « فأجابوا بأنهم أتتهم (قالوا) أي : الخزنة (فادعوا) أتتم . على معنى الهزء بهم ، أو فادعوا أتتم فإننا لا نجترىء على

(١) من الكامل انظر ديوانه (٥٥) الأشموني (١٨١/٢) .

(٢) من الطويل انظر الأشموني (١٨٢/٢) .

ذلك . والظاهر : أن قوله (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) من كلام الحزنة . أي : دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي . وقيل : هو من كلام الله تعالى إخباراً منه لمحمد - ﷺ - وجاءت هذه الأخبار معبراً عنها بلفظ الماضي الواقع ، لتيقن وقوعها . ثم ذكر تعالى أنه ينصر رسله ، ويظفرهم بأعدائهم ، كما فعل بموسى - عليه السلام - حيث أهلك عدوّه فرعون وقومه . وفيه تبشير للرسول - عليه السلام - بنصره على قومه (في الحياة الدنيا) العاقبة الحسنة لهم (ويوم يقوم الأشهاد) وهو يوم القيامة ، قال ابن عباس : «ينصرهم بالغلبة وفي الآخرة بالعذاب»<sup>(١)</sup> . وقال السدي : «بالانتقام من أعدائهم» ، وقال أبو العالية : «بإفلاح حجتهم» . وقال السدي أيضاً : «ما قتل قوم قط نبياً أو قوماً من دعاة الحق إلا بعث الله من ينتقم لهم فصاروا منصورين فيها وإن قتلوا» . انتهى . ألا ترى إلى قتلة الحسين - رضي الله عنه - كيف سلط الله عليهم المختار بن عبيد يتبعهم واحداً واحداً حتى قتلهم . وبختصر تتبع اليهود حين قتلوا يحيى بن زكريا - عليها السلام - وقيل : والنصر خاص بمن أظهره الله تعالى على أمته كنوح وموسى ومحمد - عليهم السلام - لأننا نجد من الأنبياء من قتله كيمين ومن لم ينصر عليهم وقال السدي الخبر عام وذلك أن نصره الرسل والأنبياء واقعة ولا بد إما في حياة الرسول المنصور كنوح وموسى - عليهما السلام - وإما بعد موته ألا ترى إلى ما صنع الله تعالى ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى عليه السلام من تسليط بختصر حتى انتصر ليحيى - عليه السلام - وقرأ الجمهور (يَقُومُ) بالياء . وابن هرمز ، وإساعيل ، والمنقري عن أبي عمرو ، بناء التانيث ، (والأشهاد) جمع شهيد . كشريف وأشرف . أو جمع شاهد كصاحب وأصحاب . كما قال تعالى : ﴿كفكف إذا جننا من كل أمة بشهيد﴾ [النساء : ٤١] ، وقال : ﴿لنكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة : ١٤٣] والظاهر : أنه من الشهادة . وقيل : من المشاهدة بمعنى الحضور (يوم لا ينفع) بدل من (يوم يقوم) ، وقرئ (تتفع) بالتاء والياء . وتقدم ذكر الخلاف في ذلك في آخر الروم ويحتمل أنهم يعتذرون ولا تقبل معذرتهم . أو أنهم لا معذرة لهم فتقبل . (ولهم اللعنة) والإبعاد من الله ، (ولهم سوء الدار) سوء عاقبة الدار ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب ، فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ، إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ، خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ، إن الساعة لأتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ، وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ، الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ، كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون ، الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين ، هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ .

ولما ذكر ما حل بآل فرعون واستطرد من ذلك إلى ذكر شيء من أحوال الكفار في الآخرة ، عاد إلى ذكر ما منح رسوله موسى - عليه السلام - فقال (ولقد آتينا موسى الهدى) تأنيساً لمحمد - عليه السلام - وتذكيراً لما كانت العرب تعرفه من قصة موسى - عليه السلام - (والهدى) يجوز أن يكون الدلائل التي أوردتها على فرعون وقومه . وأن يكون النبوة ، وأن يكون التوراة . (وأورثنا بني إسرائيل الكتاب) الظاهر : أنه التوراة توارثوها خلف عن سلف . ويجوز أن يكون (الكتاب) أريد به ما أنزل على بني إسرائيل من كتب أنبيائهم كالتوراة ، والزبور ، والإنجيل (هدى) ودلالة على الشيء المطلوب (وذكرى) لما كان منسياً فذكر به تعالى في كتبه . وانتصب (هدى وذكرى) على أنها مفعولان له . أو على أنها مصدران في موضع الحال . ثم أمر

تعالى نبيه بالصبر، فقال (فاصبر إن وعد الله حق) من قوله (إنا لننصر رسلنا) فلا بد من نصرك على أعدائك. وقال الكلبي: «نسخ هذا بآية السيف» (واستغفر لذنبك)، قال ابن عطية: «يحتمل أن يكون قبل إعلام الله تعالى إياه أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لأن آية هذه السورة مكية، وآية سورة الفتح مدنية متأخرة. ويحتمل أن يكون الخطاب له في هذه الآية والمراد أنه إذا أمر هو بهذا فغيره أخرى بامثالها»، وقال أبو عبد الله الرازي: «محمول على التوبة من ترك الأفضل والأولى». وقيل: المقصود منه محض تعبد كما في قوله تعالى: ﴿ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك﴾ [آل عمران: ١٩٤] فإن إتياء ذلك الشيء واجب ثم إنه أمرنا بطلبه، وقيل (لذنبك) لذنب أمتك في حقه. قيل: فأضاف المصدر للمفعول. ثم أمره بتزويجه تعالى في هذين الوقتين اللذين الناس مشتغلون فيها بمصالحهم المهمة. ويجوز أن يكون المراد سائر الأوقات وعبر بالظرفين عن ذلك. وقال ابن عباس: «أراد بذلك الصلوات الخمس»<sup>(١)</sup>، وقال قتادة: «صلاة الغداة وصلاة العصر»، وقال الحسن: «ركعتان قبل أن تفرض الصلاة»، وعنه أيضاً: «صلاة العصر وصلاة الصبح»، والظاهر: أن المجادلين (في آيات الله)، وهي دلائله التي نصبها على توحيده، وكتبه المنزلة، وما أظهر على يد أنبيائه من الخوارق هم كفار قريش والعرب (بغير سلطان) أي: حجة وبرهان (في صدورهم إلا كبر) أي: تكبر وتعاضم، وهو إرادة التقدم والرياسة، وذلك هو الحامل على جدالهم بالباطل، ودفعمهم ما يجب لك من تقدمك عليهم لما منحك من النبوة، وكلفك من أعباء الرسالة. (ما هم ببالغيه) أي: ببالغيه موجب الكبر ومقتضيه من رياستهم وتقدمهم. وفي ذلك إشارة إلى أنهم لا يرأسون ولا يحصل لهم ما يؤملونه. وقال الزجاج: المعنى: «على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر عليك وما هم ببالغيه مقتضى ذلك الكبر، لأن الله أذلهم»، وقال ابن عطية: «تقديره مباليغي إرادتهم فيه»، وقال مقاتل: «هي في اليهود»، قال مقاتل: «عظمت اليهود الدجال، وقالوا: إن صاحبنا بيعث في آخر الزمان وله سلطان فقال تعالى (إن الذين يجادلون في آيات الله) لأن الدجال من آياته». (بغير سلطان) أي: حجة (فاستعد بالله) من فتنة الدجال. والمراد بـ (خلق الناس) الدجال. وإلى هذا ذهب أبو العالية، وهذا القول أصح. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «وقيل: المجادلون: هم اليهود، وكانوا يقولون يخرج صاحبنا المسيح بن داود يريدون الدجال ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأهار، وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك فسمى الله تمنيتهم ذلك كبراً، ونفى أن يبلغوا متمناهم». انتهى. وكان رئيس اليهود في زمانه في مصر موسى بن ميمون الأندلسي القرطبي قد كتب رسالته إلى يهود اليمن أن صاحبهم يظهر في سنة كذا وخمسةائة. وكذب عدو الله جاءت تلك السنة وسنون بعدها كثيرة ولم يظهر شيء مما قاله - لعنه الله - وكان هذا اليهودي قد أظهر الإسلام حتى استسلم اليهود بعض ملوك المغرب ورجل من الأندلس فيذكر أنه صلى بالناس التراويح وهم على ظهر السفينة في رمضان إذ كان يحفظ القرآن فلما قدم مصر وكان ذلك في دولة العبيديين وهم لا يتقيدون بشريعة رجع إلى اليهودية وأخبر أنه كان مكرهاً على الإسلام فقبل منه ذلك، وصنف لهم تصانيف ومنها كتاب «دلالة الحائرين». وإنما استفاد ما استفاد من مخالطة علماء الأندلس وتودده لهم والرياسة إلى الآن بمصر لليهود في كل من كان من ذريته. (فاستعد بالله) أي: التجيء إليه من كيد من يحسدك. (إنه هو السميع) لما تقول ويقولون. (البصير) بما تعمل ويعملون. فهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرهم ثم نبه تعالى أنه لا ينبغي أن يجادل في آيات الله ولا يتكبر الإنسان بقوله (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) أي: إن مخلوقاته أكبر وأجل من خلق البشر فما لأحد يجادل ويتكبر على خالقه. وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: «مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها فحجوا بخلق السموات والأرض، لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره وخلق الناس

(١) انظر الطبري ٥٠/٢٤ والبغوي ١٠١/٤ والوسيط ٢٤ خ.

(٢) انظر الكشاف ١٧٤/٤.

(٣) انظر الكشاف ١٧٣/٤.

بالقياس إليه شيء قليل مهين فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانتها أقدر وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله». انتهى. وقال ابن عطية: «ويحتمل أن يكون الكلام في معنى البعث والإعادة فأعلم تعالى أن الذي خلق السموات والأرض قوي قادر على خلق الناس تارة أخرى فالخلق مصدر أضيف إلى المفعول». وقال النقاش: «المعنى: مما يخلق الناس إذ هم في الحقيقة لا يملكون شيئاً، فالخلق مضاف للفاعل (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي: لا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم. ونفي العلم عن الأكثر وتخصيصه به، يدل على أن القليل يعلم. ولذلك ضرب مثلاً للجاهل بالأعمى وللعالم بالبصير، وانتفاء الاستواء بينهما هو من الجهة الدالة على العمى وعلى البصر وإلا فهما مستويان في غير ما شيء. ولما بعد قسم الذين آمنوا بطول صلة الموصول كرر (لا) تأكيداً. وقدم (والذين آمنوا) المجاورة قوله (والبصير) وهما طريقتان، أحدهما: أن يجاور المناسب هكذا. والآخر: أن يتقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر، كقوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠، ٢١] وقد يتأخر المتهائلان، كقوله تعالى: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ [هود: ٢٤] وكل ذلك تفتن في البلاغة وأساليب الكلام. ولما كان قد تقدم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فكان ذلك صفة ذم ناسب أن يبدأ في ذكر التساوي بصفة الذم فبدأ بالأعمى. وقرأ قتادة، وطلحة، وأبو عبد الرحمن، وعيسى، والكوفيون (تذكرون) بقاء الخطاب. والجمهور، والأعرج، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة بالياء على الغيبة. ثم أخبر بما يدل على البعث من إتيان الساعة وأنه لا ريب في وقوعها وهو يوم القيامة، حيث الحساب، وافتراق الجمع إلى الجنة طائعتهم وإلى النار كافرهم ومن أراد الله تعذيبه من العصاة بغير الكفر. والظاهر حمل الدعاء والاستجابة على ظاهرهما إلا أن الاستجابة مقيدة بمشيئة الله، قال السندي: «أسألوني أعظمكم»، وقال الضحاك: «أطيعوني أتكم» وقالت فرقة منهم مجاهد: «ادعوني اعبدوني وأستجب لكم أتيتكم على العبادة». وكثيراً جاء الدعاء في القرآن بمعنى العبادة ويقوي هذا التأويل قوله (إن الذين يستكبرون عن عبادتي) وما روى النعمان بن بشير: أن رسول الله - ﷺ - قال: «الدعاء هو العبادة وقرأ هذه الآية». وقال ابن عباس: «وحدوني أغفر لكم»<sup>(١)</sup>. وقيل للثوري: «ادع الله تعالى فقال إن ترك الذنوب هو الدعاء». وقال الحسن وقد سئل عن هذه الآية: «اعملوا وأبشروا فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله»، وقال أنس: قال النبي - ﷺ - «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع<sup>(٢)</sup> نعله» (إن الذين يستكبرون عن عبادتي) أي: عن دعائي. وقرأ جمهور السبعة، والحسن، وشيبة (سيدخلون) مبنياً للفاعل. وزيد بن علي، وابن كثير، وأبو جعفر مبنياً للمفعول. واختلف عن عاصم وأبي عمرو (داخرين) ذليين. (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً) تقدم الكلام على مثل هذه الجملة في سورة يونس (ولذو فضل) أبلغ من لفضل أو لمتفضل. كما قال ﴿لذو علم لما علمناه﴾ [يوسف: ٦٨] ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ [الطلاق: ٧] ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ [الحديد: ٢٩] لما يؤدي إليه من كونه صاحبه ومنتكناً منه بخلاف أن يؤت بالصفة فإنه قد يدل على غير الله بالاتصاف به في وقت ما لا دائماً. وذكر عموم فضله وسوغه على الناس ثم قال (ولكن أكثر الناس) فأتى به ظاهراً ولم يأت التركيب: ولكن أكثرهم، قال الزمخشري: «في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله (إن الإنسان لكفور) ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾<sup>(٣)</sup>

(١) انظر الطبري ٥١/٢٤ والبغوي ١٠٣/٤ والوسيط ٢٤ خ.

(٢) شسع النعل قبالتها الذي يشد إلى زمامها والزمم السير الذي يعقد فيه الشسع والجمع شسوع.

(٣) الكنود: الجحود وقيل هو الذي يأكل وحده ويمنع رفته ويضرب عبده.

[العاديات : ٦] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [العاديات : ٦] انتهى . (ذلكم) أي المخصوص بتلك الصفات المتميز بها من استجابته لدعائكم ، ومن جعل الليل والنهار كما ذكر ، ومن تفضله عليكم (الله ربكم) الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية ، والربوبية ، وإنشاء الأشياء ، والوحدانية فكيف تصرفون عن عبادة من هذه أوصافه إلى عبادة الأوثان؟ وقرأ زيد بن علي (خالق) بنصب القاف . وطلحة في رواية (يؤفكون) بياء الغيبة . والجمهور بضم القاف وتاء الخطاب . قال الزمخشري : «خالق» نصباً على الاختصاص (كذلك) أي : مثل ذلك الصرف صرف الله قلوب الجاحدين بآيات الله من الأمم على طريق الهدى . ولما ذكر تعالى ما امتن به من الليل والنهار ذكر أيضاً ما امتن به من جعل الأرض مستقراً والسماء بناء أي : قبة . ومنه أبنية العرب لمضاربهـم ، لأن السماء في منظر العين كقبة مضرورة على وجه الأرض . وقرأ الجمهور (صوركـم) بضم الصاد . والأعمش ، وأبورزين بكسرها ، فراراً من الضمة قبل الواو استقلاً . وجمع فُعلة بضم الفاء على فَعَلَ بكسرها شاذ . وقالوا قُوَّةً وقُوًى بكسر القاف على الشذوذ أيضاً . قيل : لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان . وقيل : لم يخلقهم منكوسين كالبهائم كقوله : ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] وقرأت فرقة (صوركـم) بضم الصاد وإسكان الواو على نحو بُسْرَةٍ وبُسْرٍ (ورزقكم من الطيبات) امتن عليهم بما يقوم بأود صورهم . و(الطيبات) المستلذات طعماً ولباساً ومكاسب . وقال ابن عباس : «من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها الحمد لله رب العالمين» . وقال نحوه سعيد ابن جبير ثم قرأ الآية .

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلِئَلْبُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْعَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

أمر الله تعالى نبيه - عليه السلام - أن يخبرهم بأنه نهى أن يعبد أصنامهم لما جاءته البينات من ربه . فهذا نهى بالسمع وإن كان نهياً بدلائل العقل ، فتظافت أدلة السمع وأدلة العقل على النهي عن عبادة الأوثان . فمن أدلة السمع قوله تعالى : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات : ٩٥ ، ٩٦] إلى غير ذلك . وذكره أنه نهى بالسمع لا يدل على أنه كان منهياً بأدلة العقل . ولما نهى عن عبادة الأوثان أخبر أنه أمر بالاستسلام لله تعالى . ثم بين أمر الوحدانية والألوهية التي أصنامهم عارية عن شيء منها بالاعتبار في تدريج ابن آدم بأن ذكر مبدأه الأول وهو من تراب ثم أشار إلى التناسل بخلقه من نطفة . والطفل : اسم جنس أو يكون المعنى (ثم يخرجكم) أي كل واحد منكم (طفلاً) وتقدم الكلام على بلوغ الأشد . و(من قبل) قال مجاهد : «من قبل أن يكون شيئاً» . قيل : ويجوز أن يكون من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً .

وقيل : عبارة برده في التدرج المذكور ولا يختص بما قبل الشيخ بل منهم من يموت قبل أن يخرج طفلاً، وآخر قبل الأشد، وآخر قبل الشيخ . (ولتبغوا) متعلق بمحذوف . أي : يبيحكم لتبغوا . أي : ليبلغ كل واحد منكم (أجلاً مسمى) لا يتعداه . قال مجاهد : «يعني موت الجميع» . وقيل : هو يوم القيامة (ولعلمكم تعقلون) ما في ذلك من العبرة والحجج إذا نظرت في ذلك، وتدبرتم . ولما ذكر رب الإيجاد ذكر أنه المتصف بالإحياء والإماتة وأنه متى تعلقت إرادته بإيجاد شيء أوجده من غير تأخر . وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة . ثم قال بعد ظهور هذه الآيات ألا تعجب إلى المجادل في آيات الله كيف يصرف عن الجدال فيها وبصير إلى الإيمان بها والظاهر أنها في الكفار المجادلين في رسالة الرسول - عليه السلام - والكتاب الذي جاء به بدليل قوله (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا) ثم هددهم بقوله (فسوف تعلمون) وهذا قول الجمهور . وقال محمد بن سيرين وغيره : «هي إشارة إلى أهل الأهواء من الأمة ورووا في نحو هذا حديثاً وقالوا : هي في أهل القدر ومن جرى مجراهم» . ويلزم قائل هذه المقالة أن يجعل قوله (الذين كذبوا) كلاماً مستأنفاً في الكفار ويكون (الذين كذبوا) مبتدأ وخبره (فسوف يعلمون) وأما على الظاهر و(الذين) بدل من (الذين) أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوباً على الذم . و(إذ) ظرف لما مضى، فلا يعمل فيه المستقبل، كما لا يقول : سأقوم أمس فقيل إذا يقع موقع إذ وإن موقعها على سبيل المجاز فيكون (إذ) هنا بمعنى إذا، وحسن ذلك تيقن وقوع الأمر وأخرج في صيغة الماضي وإن كان المعنى على الاستقبال . قال النخعي : «لو أن غلاً من أغلال جهنم وضع على جبل لأرحضه حتى يبلغ إلى الماء الأسود» . وقرأ (والسلاسل) عطفاً على (الأغلال) (يُسْحَبُونَ) مبنياً للمفعول . وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن علي، وابن وثاب، والمسيء في اختياره (والسلاسل) بالنصب على المفعول (يُسْحَبُونَ) مبنياً للفاعل . وهو عطف جملة فعلية على جملة اسمية، وقرأت فرقة منهم ابن عباس : (والسلاسل) بجر اللام، قال ابن عطية : «على تقدير : إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ إذ ترتيبه فيه قلب . وهو على حد قول العرب : أدخلت القلنسوة في رأسي «وفي مصحف أبي (وفي السلاسل يسحبون)»، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> : «ووجهه أنه لو قيل : إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله (إذا الأغلال في أعناقهم) لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين معتقتين حل قوله (والسلاسل) على العبارة الأخرى . ونظيره قول الشاعر :

مَشَائِمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً      وَلَا نَاعِبًا إِلَّا بَيِّنٌ غُرَابَهَا<sup>(٢)</sup>

كأنه قيل : بمصلحين . وقرئ (وبالسلاسل) انتهى . وهذا يسمى العطف على التوهم، ولكن توهم إدخال حرف الجر على مصلحين أقرب من تغيير تركيب الجملة بأسرها . والقراءة من تغيير تركيب الجملة السابقة بأسرها . ونظير ذلك قول الشاعر :

أَجِدُّكَ لَنْ تُرَى بِتُعَلِّبَاتٍ      وَلَا بَيِّدَاءٍ نَاجِيَةٍ زُمُولاً  
وَلَا مُتَدَارِكٍ وَاللَّيْلُ طِفْلٌ      بَبَعْضِ نَوَاشِغِ الْوَادِي حُمُولاً<sup>(٣)</sup>

التقدير : لست براء ولا متدارك . وهذا الذي قاله ابن عطية والزمخشري<sup>(٤)</sup> سبقها إليه الفراء قال : «من جر (السلاسل) حمله على المعنى، لأن المعنى : أعناقهم في الأغلال والسلاسل» . وقال الزجاج : «من قرأ بخفض (والسلاسل)

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٧٨ .

(٢) البيت من الطويل عزاه سيويه للأحوص الرياحي مرة وإلى الفرزدق مرة انظر الكتاب (١/ ١٦٥ - ٣٠٦) (٣/ ٢٩) الخصائص (٢/ ٣٥٤)

المفصل لابن يعيش (٧/ ٥٧)، المغني (٢/ ٢٩٧) الأشموني (٢/ ٢٣٥) .

(٣) البيتان من الوافر للمرار بن سعيد انظر معاني الفراء (١/ ٧١) مجالس ثعلب (١/ ١٣) اللسان (نسخ) .

(٤) انظر الكشاف ٤/ ١٧٨ .

فالمعنى عنده: وفي السلاسل يسحبون». وقال ابن الأنباري: «والخفض على هذا المعنى غير جائز، لو قلت: زيد في الدار لم يحسن أن تضمر في، فتقول: زيد الدار ثم ذكر تأويل الفراء وخرج القراءة، ثم قال: كما تقول: خصم عبد الله زيداً العاقلين. بصبب العاقلين ورفع، لأن أحدهما إذا خصمه صاحبه فقد خصمه الآخر». انتهى. وهذه المسألة لا تجوز عند البصريين، وهي منقول جوازها عن محمد بن سعدان الكوفي. قال: «لأن كل واحد منها فاعل مفعول. وقرئء (وبالسلاسل يسحبون) ولعل هذه القراءة حملت الزجاج على أن تأول الخفض على إضمار حرف الجر، وهو تأويل شذوذ. وقال ابن عباس في قراءة من نصب (والسلاسل) وفتح ياء (يسحبون) إذا كانوا يجرونها فهو أشد عليهم يكلفون ذلك وهم لا يطيقون. وقال مجاهد: «(يسحبون) يطرحون فيها، فيكونون وقوداً لها». وقال السدي: «(يسحبون) يجرقون. ثم أخبر تعالى أنهم يوقفون يوم القيامة من جهة التوبيخ والتقريع فيقال لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا؟ فيقولون (ضلوا عنا) أي: تلفوا منا. وغابوا واضمحلوا. ثم تضطرب أقوالهم ويفزعون إلى الكذب فيقولون (بل لم تكن) نعبد شيئاً، وهذا من أشد الاختلاط في الذهن والنظر. ولما تبين لهم أنهم لم يكونوا شيئاً، وما كانوا يعبدون بعبادتهم شيئاً، كما تقول: حسبت أن فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء إذا اخترته فلم تر عنده جزاء، وقولهم (ضلوا عنا) مع قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] يحتمل أن يكون ذلك عند تقريرهم فلم يكونوا معهم إذ ذاك، أو لما لم ينفعوهم (قالوا ضلوا عنا) وإن كانوا معهم (كذلك). أي: مثل هذه الصفة وهذا الترتيب (يضل الله الكافرين) وقال الزمخشري: أي مثل ضلال أهتهم عنهم يضلهم عن أهتهم حتى لو طلبوا الألهة أو طلبتهم الألهة لم يتصادفوا (ذلكم) الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح (بغير الحق) وهو الشرك وعبادة الأوثان، وقال ابن عطية: «ذلك العذاب الذي أنتم فيه مما كنتم تفرحون بالمعاصي والكفر». انتهى. و(تمرحون) قال ابن عباس: «الفخر والخيلاء». وقال مجاهد: «الأشر والبطر». انتهى. فقال لهم ذلك توبيخاً. أي: إيماناً لكم بهذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعاصي وكثرة المال والاتباع والصحة، وقال الضحاك: «الفرح: السرور. والمرح: العدوان». وفي الحديث: «إن الله يبغض البذخين الفرحين، ويجب كل قلب حزين». و(تفرحون) و(تمرحون) من باب تجنيس التحريف المذكور في علم البديع. وهو: أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين. (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) الظاهر أنه قيل لهم ادخلوا بعد المحاوراة السابقة وهم قد كانوا في النار، ولكن هذا أمر يقيد بالخلود وهو الثواء الذي لا ينقطع، فليس أمراً بمطلق الدخول، أو بعد الدخول فيها أمروا أن يدخلوا سبعة أبواب التي لكل باب منها جزء مقسوم من الكفار، فكان ذلك أمراً بالدخول يفيد التجزئة لكل باب، وقال ابن عطية: «وقوله تعالى (ادخلوا) معناه: يقال لهم قبل هذه المحاوراة في أول الأمر. ادخلوا، لأن هذه المخاطبة إنما هي بعد دخولهم وفي الوقت الذي فيه الأغلال في أعناقهم، و(أبواب جهنم) هي السبعة المؤدية إلى طبقاتها وأدراكها السبعة». انتهى. و(خالدين) حال مقدرة، ودلت على الثواء الدائم فجاء التركيب (فبئس مثوى المتكبرين) فبئس مدخل المتكبرين، لأن نفس الدخول لا يدوم فلم يبالغ في ذمّه بخلاف الثواء الدائم.

فَأَصِيرُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَكَيْمَا تَرَيْتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَصِیْ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرًا مُّذَمِّينَ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثُ الْكَفَرَانَا إِنَّمَا كُنَّا مِن قَبْلُ مَشْرِكِينَ ﴿٨٣﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۗ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

أمر تعالى نبيه بالصبر، تأنيساً له، وإلا فهو عليه السلام في غاية الصبر. وأخبر بأن ما وعده من النصر والظفر وإعلاء كلمته وإظهار دينه (حق)، قيل: وجواب (فإما نرينك) محذوف لدلالة المعنى عليه. أي: فيقر عينك. ولا يصح أن يكون (فإلينا يرجعون) جواباً للمعطوف عليه والمعطوف، لأن تركيب (فأما نرينك بعض) الموعود في حياتك (فإلينا يرجعون) ليس بظاهر. وهو يصح أن يكون جواب (أو تتوفينك) أي (فإلينا يرجعون) فننتقم منهم، ونعذبهم لكونهم لم يتبعوك. ونظير هذه الآية قوله (فإما تتوفينك) أي (فإلينا يرجعون) فننتقم منهم، ونعذبهم لكونهم لم يتبعوك. ونظير هذه الآية قوله: ﴿فإما نذهب بك فإنما منهم متممون. أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢] إلا أنه هنا صرح بجواب الشرطين. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(فإلينا يرجعون) متعلق بقوله (تتوفينك) وجزء (نرينك) محذوف تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعد هم من العذاب، وهو القتل يوم بدر فذاك. أو أن تتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام، وقد تقدم للزمخشري<sup>(٢)</sup> نحو هذا البحث في سورة يونس في قوله (وإما نرينك بعض الذي نعذبهم أو تتوفينك فإلينا مرجعهم) ورددنا عليه فيطالع هناك. وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup> أيضاً: «(فإما نرينك) أصله فإن نرك (ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك ألحقت النون بالفعل. ألا تراك لا تقول إن تكرمني أكرمك ولكن إما تكرمني أكرمك». انتهى وما ذهب إليه من تلازم (ما) المزيدة ونون التوكيد بعد إن الشرطية هو مذهب المبرد والزجاج. وذهب سيبويه إلى أنك إن شئت أتيت بـ (ما) دون النون وإن شئت أتيت بالنون دون ما قال سيبويه في هذه المسألة. «وإن شئت لم تقحم النون كما أنك إذا جئت لم تحيء بما يعني لم تقحم النون مع مجيئك بما ولم تحيء بما مع مجيئك بالنون». وقرأ الجمهور (يُرْجَعُونَ) بياء الغيبة مبنياً للمفعول. وأبو عبد الرحمن ويعقوب بفتح الياء. وطلحة بن مطرف، ويعقوب في رواية الوليد بن حسان بفتح تاء الخطاب. ثم رد تعالى على العرب في إنكارهم بعثة الرسل وفي عدد اختلاف روي: «أنه ثمانية آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم» وروي: «بعث الله أربعة آلاف نبي (منهم من قصصنا عليك) أي: من أخبرناك به أما في القرآن فثمانية عشر، (ومنهم من لم نقصص عليك) وعن علي وابن عباس: أن الله بعث نبياً أسود في الحبش، فهو من لم يقصص عليه، (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) أي: ليس ذلك راجعاً إليهم لما اقترحوا على الرسل، قال: ليس ذلك إليّ لا تأتي آية إلا إن شاء الله فإذا جاء أمر الله رد ووعيد يابئ اقتراحهم الآيات (وأمر الله) القيامة (والمبطلون) المعاندون مقترحون الآيات وقد أتهم الآيات فأنكروها وسموها سحراً. أو (فإذا جاء أمر الله) أي: أراد إرسال رسول وبعثة نبي (قضى) ذلك

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٧٨.

(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٧٩.

(٣) انظر الكشاف ٤/ ١٧٩.



وأنفذه (بالحق وخسر) كل مبطل وحصل على فساد آخرته . أو (فإذا جاء أمر الله) وهو القتل بيدر . ثم ذكر تعالى آيات اعتبار وتعداد نعم فقال (الله الذي جعل لكم الأنعام) وهي ثمانية الأزواج ، ويضعف قول من أدرج فيها (الخيل والبغال والحمير) وغير ذلك مما ينتفع به من البهائم . وقول من خصها بالإبل وهو الزجاج . (لتركبوا منها) وهي الإبل إذ لم يعهد ركوب غيرها (ومنها تأكلون) عام في ثمانية الأزواج . و(من) الأولى للتبويض . وقال ابن عطية : «(من) الثانية لبيان الجنس ، لأن الجمل منها يؤكل» . انتهى . ولا يظهر كونها لبيان الجنس . ويجوز أن تكون فيه للتبويض ولا ابتداء الغاية . ولما كان الركوب منها هو أعظم منفعة إذ فيه منفعة الأكل والركوب ، وذكر أيضاً أن في الجميع منافع من شرب لبن ، واتخاذ دثار ، وغير ذلك . أكد منفعة الركوب بقوله (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم) من بلوغ الأسفار الطويلة ، وحمل الأثقال إلى البلاد الشاسعة ، وقضاء فريضة الحج ، والغزو ، وما أشبه ذلك من المنافع الدينية والدنيوية . ولما كان الركوب وبلوغ الحاجة المرتبة عليه قد يتوصل به إلى الانتقال لأمر واجب ، أو مندوب ، كالحج ، وطلب العلم ، دخل حرف التعليل على الركوب ، وعلى المترتب عليه من بلوغ الحاجات ، فجعل ذلك علة لجعل الأنعام لنا . ولما كان الأكل وإصابة المنافع من جنس المباحات لم يجعل ذلك علة في الجمل ، بل ذكر أن منها نأكل ولنا فيها منافع من شرب لبن ، واتخاذ دثار وغير ذلك . كما أدخل لام التعليل في (لتركبوا) ولم يدخلها على الزينة في قوله : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ [النحل : ٨] ولما ذكر تعالى ما امتن به من منة الركوب للإبل في البر ذكر ما امتن به من نعمة الركوب في البحر فقال (وعليها وعلى الفلك تحملون) ولما كان الفلك يصح أن يقال فيه حمل في الفلك كقوله : ﴿قلنا حمل فيها﴾ [هود : ٤٠] ويصح أن يقال فيه : حمل على الفلك اعتبر لفظ (على) لمناسبة قوله (وعليها) وإن كان معنى في صحيحاً (ويريكم آياته) أي : حججه وأدلته على وجدانيته . (فأي آيات الله تنكرون) أي إنها كثيرة فأياها ينكر . أي : لا يمكن إنكار شيء منها في العقول . (فأي آيات الله المنصوب بـ (تنكرون) ، قال الزمخشري : «(فأي آيات) جاءت على اللغة المستفيضة . وقولك : فأية آيات الله قليل ، لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحماره غريب . وهي في (أي) أغرب لإيهامه» . انتهى . ومن قلة تأنيث أي قوله :

بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بِأَيِّ سُنَّةٍ تَسْرَى حُبَّهُمْ عَارَاً عَلَيَّ وَتَحْسِبُ<sup>(١)</sup>

وقوله : «وهي في أي أغرب» إن عني أي على الإطلاق فليس بصحيح ، لأن المستفيض في النداء أن يؤنث نداء المؤنث لقوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة) ولا يعلم من يذكرها فيه فيقول : يا أيها المرأة إلا صاحب كتاب البديع في النحو . وإن عني غير المناداة فكلامه صحيح فقل تأنيثها في الاستفهام وموصولة (وما) في قوله (فما أغنى) نافية شرطية . واستفهامية في معنى النفي . و(ما) في (ما كانوا) مصدرية . أو بمعنى الذي . وهي في موضع رفع . والضمير في (جاءتهم) عائد على (الذين من قبلهم) وجاء قوله (من العلم) على جهة التهكم بهم . أي : في الحقيقة لا علم لهم ، وإنما هم خيالات واستبعدادات لما جاءت به الرسل (وكانوا) يدفعون ما جاءت به الرسل بنحو قولهم ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ [الكهف : ٣٦] واعتقدوا أن عندهم علماً يستغنون به عن علم الأنبياء كما تزعم الفلاسفة والدهريون كانوا إذا سمعوا بوحى الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم . ولما سمع سقراط لعنه الله بموسى صلوات الله على نبينا وعليه قيل له : لو هاجرت إليه؟ فقالت : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا . وعلى هذين القولين تكون الضمائر متناسقة عائدة على مدلول واحد . وقيل : الضمير في (فرحوا) وفي (بما عندهم) عائد على الرسل . أي : فرحت الرسل بما أوتوا من العلم ، وشكروا الله عليه لما رأوا جهل من أرسلوا إليهم واستهزاءهم بالحق ، وعلموا سوء عاقبتهم . وقيل : الضمير في (فرحوا) عائد على الأمم وفي (بما عندهم) عائد على الرسل . أي : فرح الكفار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء . وقال

الزخخشري : «ومنها، أي : من الوجوه التي في الآية في قوله (فرحوا بما عندهم من العلم) مبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والسرور في تحكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلم». انتهى . ولا يعبر بالجملة الظاهر كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام . نحو قولهم : شر أهر<sup>(١)</sup> ذاناب . على خلاف فيه . ولما آل أمره إلى الإيتاء المحصور جاز . وأما في الآية فينبغي أن لا يحتمل على القليل ، لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة فلا يوثق بشيء منها . وقال الزخخشري : «ويجوز أن يراد (فرحوا بما عندهم من العلم) علمهم بأمر الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى : ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم : ٧] ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ [النجم : ٣٠] (فلما جاءتهم الرسل بعلوم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها ، واستهزؤوا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به». انتهى . وهو توجيه حسن لكن فيه إكثار وشقشقة (بأننا) أي : عذابنا الشديد . حكى حال من آمن بعد تلبس العذاب به وأن ذلك لم يك نافعاً . وفي ذلك حض على المبادرة إلى الإيمان وتخويف من التآني . فأما قوم يونس فإنهم رأوا العذاب لم يلتبس بهم وتقدمت قصتهم . و(إيمانهم) مرفوع بـ (يك) اسماً لها ، أو فاعل (ينفعهم) وفي (يك) ضمير الشأن على الخلاف الذي في : كان يقوم زيد . ودخل حرف النفي على الكون لا على النفي ، لأنه يؤدي إلى نفي الصحة . أي : لم يصح ولم يستقم لقوله : ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ [مريم : ٣٥] وترادف هذه الفاءات أما في (فما أغنى) فلأنه كان نتيجة قوله (كانوا أكثر منهم) (ولما جاءتهم رسلكم) جار مجرى البيان والتفسير لقوله (فما أغنى عنهم) و(فلما رأوا بأسنا) تابع لقوله (فلما جاءتهم) كأنه قال : فكفروا به فلما رأوا بأسنا آمنوا ولم يك ينفعهم إيمانهم تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله . وانتصب (سنة) على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة . أي : إن ما فعل بهم هي سنة الله التي قد مضت وسبقت في عبادته من إرسال الرسل ، والإعزاز بهم ، وتعذيب من كذبهم ، واستهانتهم ، واستئصالهم بالهلاك . وعدم الانتفاع بالإيمان حالة تلبس العذاب بهم . و(هنالك) ظرف مكان استعير للزمان . أي : وخسر في ذلك الوقت الكافرون . وقيل (سنة) منصوب على التحذير . أي : احذورا سنة الله يا أهل مكة في إعداد الرسل .

(١) وفي المثل شر أهر ذاناب وقد يطلق المرير على صوت غير الكلب وكذلك الذئب إذا كشر عن أنيابه وقد أهره ما أحسن به وحسن الابتداء بالنكرة في المثل ، لأنه في معنى ما أهر ذاناب الأشر .

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْنَا فُصَّلَاتٍ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا  
 وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيهِ آذَانًا وَقُرْ  
 وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عِمَلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ  
 وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ  
 كَافِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ قُلْ أَيُّكُمْ لَسَكَفُرُونَ  
 بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أندَادًا ۗ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ  
 فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا  
 طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا  
 السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۗ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ  
 صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ  
 رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَائِكَةً فِإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ  
 أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا  
 عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ  
 لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا  
 يَكْسِبُونَ ۝ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ۝ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝  
 حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ

شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ وَمَا  
 كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا  
 مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣﴾ فَإِنْ بَصُرُوا  
 فَأَلْتَارُ مَتَوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾ وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْءَاءَ فَرِيضَاتٍ لِيُبَيِّنَ  
 آيَاتِهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا  
 خَاسِرِينَ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا  
 كَانُوا يَأْتِينَنَا بِمُحَدِّثُونَ ﴿٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِنَعْمَلَهُمَا نَحْتِ  
 أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا يُرْسِلُونَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا اتَّزَلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَأَةُ  
 الْأَخْفَاءُ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١١﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿١٢﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَِرٍ رَحِيمٍ ﴿١٣﴾  
 وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ  
 وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿١٥﴾ وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا  
 الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ  
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَلْيَلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا  
 لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ  
 عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا  
 أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ  
 فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
 بَصِيرٌ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكَلْبٌ عَبْرَةٌ ﴿٢٢﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ  
 خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢٣﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو  
 عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصَلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَبِي وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن  
مَكَانٍ بَعِيدٍ ٤٤ ۚ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ  
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ٤٥ ۚ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَلَعَلَّهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ  
لِّلْعَبِيدِ ٤٦ ۞ إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا  
بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَيْءٍ ٤٧ ۚ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ  
مِن قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِن نَّجِيصٍ ٤٨ ۚ لَا يَسْمَعُ الْإِنسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ  
٤٩ ۚ وَلَٰئِن أَدْقَنُوهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضِرَاءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَٰئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ  
رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٠ ۚ وَإِذَا  
أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّ بِجَانِبِهِ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ٥١ ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ  
مِن عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَن أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ٥٢ ۚ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ  
وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٣ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ فِي  
مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مَُّحِيطٌ ٥٤

الصرصر<sup>(١)</sup>: الريح الباردة المحرقة كما تحرق النار. قاله الفراء والزجاج. وبأبي أقوال المفسرين فيه النحس:  
المشؤوم. نقيض السعد. قال الشاعر:

سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيُّ جِينٍ أَتَيْتَهُ  
أَسَاعَةَ نَحْسٍ تُتَّقَىٰ أَمْ بِأَسْعَدٍ

وأنشد الفراء:

أُبَلِّغُ جُدَامًا وَلَحْمًا أَنْ إِخْوَتَهُمْ  
طَبًا وَيَهْرَاءَ قَوْمٍ نَضَرُهُمْ نَحْسُ<sup>(٢)</sup>

التقيض: تهيئة الشيء وتيسيره. «وهذان ثوبان قيضان» إذا كانا متكافئين في الثمن. وقايضي بهذا الثوب. أي:  
خذه وأعطني به بدله. والمقايضة: المعاوضة، الأكام: واحدها كم. قال الزنجشري<sup>(٣)</sup>: بكسر الكاف. وقال المبرد: هو ما  
يغطي الثمرة لجف الطلعة، ومن قال في الجمع أكمه فالواحد كمام. الآفاق: النواحي. واحدها أفق. قال الشاعر:

(١) انظر لسان العرب (٢٤٢١/٤).

(٢) البيت في اللسان (نحس) والقرطبي (٢٢٧/١٥).

(٣) انظر الكشاف ١٨٥/٤.

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ أَفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كُفَّهُ الْأُفْقَا<sup>(١)</sup>

﴿حم﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم كافرون، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون، قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أيتنا طائعين، فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿.

هذه السورة مكية بلا خلاف . ومناسبتها لما قبلها : أنه قال في آخر ما قبلها ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ [عافر ٨٢] إلى آخرها فضمن وعيداً، وتهديداً، وتقريعاً لقريش . فاتبع ذلك التقريع، والتوبيخ، والتهديد بتوبيخ آخر، فذكر أنه نزل كتاباً مفصلاً آياته، بشيراً لمن اتبعه، ونذيراً لمن أعرض عنه، وإن أكثر قريش أعرضوا عنه . ثم ذكر قدرة الإله على إيجاد العالم العلوي والسفلي . ثم قال (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة) فكان هذا كله مناسباً لآخر سورة المؤمن من عدم انتفاع مكذبي الرسل حين التمس بهم العذاب، وكذلك قريش حل بصناديدها من القتل، والأسر، والنهب، والسبي، واستئصال أعداء رسول الله - ﷺ - ما حل بعاد وثمود من استئصالهم . روي : « أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله - ﷺ - ليعظم عليه أمر مخالفته لقومه، وليقبح عليه فيما بينه وبينه، وليبعد ما جاء به، فلما تكلم عقبة قرأ رسول الله - ﷺ - (حم) ومرفى صدرها حتى انتهى إلى قوله (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأرعد الشيخ، ووقف شعره، فأمسك على فم رسول الله - ﷺ - بيده وناشده بالرحم أن يسك . وقال حين فارقه : والله لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي» . (تنزيل) رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أي : هذا تنزيل عند الفراء . أو مبتدأ خبره (كتاب فصلت) عند الزجاج والحوفي . وخبر (حم) إذا كانت اسماً للسورة . و(كتاب) على قول الزجاج بدل من (تنزيل) قيل : أو خبر بعد خبر . (فصلت آياته) قال السدي : « بينت آياته» . أي : فسرت معانيه، ففصل بين حرامه وحلاله، وزجره وأمره، ووعدته ووعدته<sup>(٢)</sup> . وقيل : فصلت في التنزيل . أي : لم تنزل جملة واحدة . قال الحسن : « بالوعد والوعيد» . وقال سفيان : « بالثواب والعقاب» . وقال ابن زيد : « بين محمد - ﷺ - ومن خلفه» وقيل : فصلت بالمواقف، وأنواع أو آخر الآي، ولم يكن يرجع إلى قافية ولا نحوها كالشعر والسجع . وقال أبو عبد الله الرازي : «ميزت آياته، وجعل تفاصيل معان مختلفة . فبعضها في وصف ذات الله تعالى، وشرح صفات التنزيه، والتقديس، وشرح كمال علمه، وقدرته، ورحمته، وحكمته . وعجائب أحوال خلقه السموات، والكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات، والحويان، والإنسان . وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلب، ونحو الجوارح . وبعضها في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار . وبعضها في المواعظ والنصائح، وبعضها في تهذيب الأخلاق، ورياضة النفس . وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين . وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن» . انتهى . وقرىء (فصلت) بفتح الفاء والصاد

(١) البيت لزهر انظر ديوانه (٥٥) .

(٢) انظر الوسيط ٢٥ خ .

مخفية. أي: فرقت بين الحق والباطل. أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها، من قوله: فصلت العبر. أي: انفصلت. وفصل من البلد أي: انفصل منه. وانتصب (قرآناً) على أنه حال بنفسه، وهي مؤكدة، لأنها لا تنتقل. أو توطئة للحال بعده. وهي (عربياً) أو على المصدر أي: يقرؤه قرآناً عربياً. أو على الاختصاص والمدح. ومن جعله حالاً، فقيل: ذو الحال (آياته) وقيل (كتاب) لأنه وصف بقوله (فصلت آياته) أو على إضمار فعل تقديره: فصلناه قرآناً. أو مفعول ثانٍ لـ (فصلت) أقوال ستة. آخرها للأخفش و(لقوم) متعلق بـ (فصلت) أي: يعلمون الأشياء، ويعقلون الدلائل، فكانه فصل هؤلاء إذ هم ينتفعون به، فخصوا بالذكر تشريفاً. ومن لم ينتفع بالتفصيل فكانه لم يفصل له. ويبعد أن يتعلق بـ (تنزيل) لكونه وصف في أحد متعلقيه إن كان من (الرحمن) في موضع الصفة، أو أبدل منه (كتاب) أو كان خبر لـ (تنزيل) فيكون في ذلك البديل من الموصول والإخبار عنه قبل أخذه متعلقه وهو لا يجوز. وقيل (لقوم) في موضع الصفة لقوله (عربياً) أي: كائناً (لقوم يعلمون) ألفاظه ويتحققون أنه لم يخرج عن نمط كلامهم. وكأنه رد على من زعم أن في القرآن ما ليس من كلام العرب. وانتصب (بشيراً ونذيراً) على النعت لـ (قرآناً عربياً) وقيل: حال من (آياته) وقرأ زيد بن علي (بشيراً ونذيراً) برفهها على الصفة لـ (كتاب) أو على خبر مبتدأ محذوف. وبشارته بالجنة لمن آمن، ونذارته بالنار لمن كفر. (فأعرض أكثرهم) أي: أكثر أولئك القوم. أي: كانوا من أهل العلم، ولكن لم ينظروا النظر التام، بل أعرضوا (فهم لا يسمعون) لإعراضهم عن ما احتوى عليه من الحجج والبراهين. أو لما لم ينتفع به ولم يقبله جعل كأنه لم يسمعه. ثم أخبر تعالى عنهم بالمقالة الدالة على امتناع قلوبهم والناس من رجوعهم إليه ومن سماعهم لما يتلوه وهو قوله تعالى حكاية عنهم (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر) تقدم الكلام على شبه ذلك في الأنعام، وقرأ طلحة (وقر) بكسر الواو. وهذه تمثيلات لامتناع قبول الحق، كأن قلوبهم في غلاف كما قالوا: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ [البقرة: ٨٨] وكأز أساعهم عند ذكر كلام الله بها صمم والحجاب: الستر المانع من الإجابة. وهو خلاف في الدين لأنه يعبد الله وهم يعبدون الأصنام. قال معناه الفراء، وغيره. ويروى: «أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال يا محمد: بيننا وبينك حجاب». استهزاء منه. وقيل: تمثيل بعدم الإجابة. وقيل: عبارة عن العداوة. و(من) في (مما تدعونا إليه) لابتداء الغاية وكذا في (ومن بيننا) فالعنى: أن الحجاب ابتداء منا وابتداء منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها. ولو لم يأت بـ (من) لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين. والمقصود المبالغة بالتباين المفرط فلذلك جيء بـ (من)، وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(إن) قلت: (هلا قيل: «على قلوبنا أكنة». كما قيل (وفي آذاننا وقر) ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: (هوا على نمط واحد، لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة. والدليل عليه قوله تعالى (إننا جعلنا على قلوبهم) ولو قيل: إننا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى. وترى المطابع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني وتقول إن (في) أبلغ في هذا الموضوع من (على) لأنهم قصدوا إفراط عدم القبول لحصول قلوبهم في أكنة احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف، فلا يمكن أن يصل إليها شيء، كما تقول: المال في الكيس بخلاف قولك على المال كيس فإنه لا يدل على الحصر، وعدم الحصول دلالة الوعاء. وأما في قوله (إننا جعلنا) فهو من إخبار الله تعالى لا يحتاج إلى مبالغة بخلاف قولهم. وقول الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «وترى المطابع» يعني من العرب وشعرائهم، ولذلك تكلم الناس في شعر حبيب ولم يستحسن بعضهم كثرة صنعة البديع فيه. قالوا: وأحسنه ما جاء من غير تكلف. (فاعمل إننا عاملون) قال الكلبي: «في هلاكنا إننا عاملون في هلاكك». وقال

(١) انظر الكشاف ٤/١٨٦.

(٢) انظر الكشاف ٤/١٨٩.

مقاتل: «اعمل لإلهك الذي أرسلك فإننا عاملون لألهتنا التي نعبدها»<sup>(١)</sup>. وقال الفراء: «اعمل على مقتضى دينك ونحن نعمل على مقتضى ديننا». وذكر الماوردي: «اعمل لأخرتك فإننا نعمل لدنيانا». ولما كان القلب محل المعرفة والسمع والبصر معينان على تحصيل المعارف ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها مما يليق به الرسول شيء. واحتمل قولهم (فاعمل إننا عاملون) أي: تكون متاركة محضة، وأن يكون استخفافاً. (قل إنما يوحى إلي)، وقرأ الجمهور (قُلْ) على الأمر وابن وثاب، والأعمش (قَالَ) فعلاً ماضياً. وهذا صدق بالتوحيد والرسالة. وقرأ النخعي، والأعمش (يوجي) بكسر الحاء والجمهور بفتحها. وأخبر أنه بشر مثلهم لا ملك لكنه أوحى إليه دونهم. وقال الحسن: «علمه تعالى التواضع وأنه ما أوحى إليه توحيد الله ورفض آلهتكم». (فاستقيموا إليه) أي: له بالتوحيد الذي هو رأس الدين والعمل (واستغفروه) وأسألوه المغفرة إذ هي رأس العمل الذي بحصوله تزول التبعات. وضمن (استقيموا) معنى التوجه، فلذلك تعدى بـ (إلى) أي: وجهوا استقامتكم إليه. ولما كان العقل ناطقاً بأن السعادة مربوطة بأمرين، التعظيم لله. والشفقة على خلقه، ذكر أن الويل والثبور والحزن للمشركين الذين لم يعظموا الله في توحيده ونفى الشرك، ولم يشفقوا على خلقه بإيصال الخير إليهم، وأضافوا إلى ذلك إنكار البعث. والظاهر: أن (الزكاة) على ظاهرها من زكاة الأموال. قاله ابن السائب، قال: «كانوا يججون ويعتمرون ولا يزكون»، وقال الحسن وقتادة وقيل: «كانت قریش تطعم الحاج وتحرم من آمن منهم». وقال ابن الحسن، وقتادة أيضاً: «المعنى لا يؤمنون بالزكاة ولا يقرون<sup>(٢)</sup> بها». وقال مجاهد، والربيع: «لا يزكون أعمالهم»، وقال ابن عباس، والجمهور: «الزكاة هنا لا إله إلا الله التوحيد كما قال موسى - عليه السلام - لفرعون ﴿هل لك إلى أن تزكي﴾ [النازعات: ١٨] ويرجح هذا التأويل أن الآية من أول المكي، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة. قاله ابن عطية<sup>(٣)</sup>، قال: «وإنما هذه زكاة القلب والبدن، أي: تطهير من الشرك والمعاصي. وقاله مجاهد والربيع»، وقال الضحاك ومقاتل: «الزكاة هنا: النفقة في الطاعة». انتهى. وإذا كانت الزكاة: المراد بها إخراج المال فإنما قرن بالكفر، لكونها شاققة بإخراج المال الذي هو محبوب الطباع وشقيق الأرواح حثاً عليها، قال بعض الأدباء:

وَقَالُوا شَقِيقَ الرُّوحِ مَالِكَ فَاحْتَفِظْ      بِهِ فَأَجَبْتُ الْمَالَ خَيْرٌ مِنَ الرُّوحِ  
أَرَى جَفْظَهُ يُفْضِي بِتَحْسِينِ حَالَتِي      وَتَضْيِيعُهُ يُفْضِي لِتَسْأَلِ مَقْبُوحِ<sup>(٣)</sup>

(إن الذين آمنوا) قال السدي: «نزلت في المرضى والزمنى. إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون». والممنون: المنقوص. قاله ابن عباس - رضي الله عنه - قال ذو الأصبغ العدواني:

إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَأْسِي بِذِي غَلَقٍ      عَلَى الصُّدَيْقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونِ<sup>(٤)</sup>  
وقال مجاهد: «غير محسوب»، وقيل: غير مقطوع، قال الشاعر:

فَضَّلَ الْجَوَادُ عَلَى الْخَيْلِ الْبِطَاءِ فَلَا      يُعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا نَزَقًا<sup>(٥)</sup>

وقيل: لا يمنُّ به، لأن أعطيات الله تشریف. والمَنَّ: إنما يدخل أعطيات البشر. وقيل: لا يمن به، لأنه إنما يمن

(١) انظر الوسيط ٢٦ خ.

(٢) انظر الطبري ٦٠/٢٤ والبخاري ١٠٧/٤ والوسيط ٢٦ خ.

(٣) انظر البيهقي في روح المعاني (٩٨/٢٤).

(٤) من البسيط انظر ديوان الحماسة (٢٢٤/١) المفضليات (٤٢٢) القرطبي (٢٢٣/١٥) روح المعاني (٩٩).

(٥) من البسيط لزهير انظر ديوانه (٩) اللسان (بطا).



التفضيل، فأما الآخر فحق أدأؤه. نقله الزمخشري. وفيه دسياسة الاعتزال. (قل أنكم لتكفرون) استفهام توبيخ وتشنيع عليهم. يكفر من أوجد العالم سفليه وعلوية. ووصف صورة خلق ذلك، ومدته. والحكمة في الخلق في مدة هو قادر على أن يوجد ذلك دفعة واحدة، فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتباً. وتقدم الكلام في أول ما ابتدء فيه الخلق، وما خلق مرتباً. ومعنى (في يومين) في مقدار يومين (وتجعلون له أنداداً) أي: أشباهاً وأمثالاً من الملائكة، والجن، والأصنام يعبدونها دونه. وقال السدي: «أكفاء من الرجال يطيعونهم. (وتجعلون) معطوف على (لتكفرون) فهو داخل في حيز الاستفهام المقتضى الإنكار والتوبيخ (ذلك) أي: موجد الأرض ومخترعها (رب العالمين) من الأنداد التي جعلتم له وغيرهم. (وجعل فيها رواسي) إخبار مستأنف، وليس من الصلة في شيء، بل هو معطوف على قوله (لتكفرون) (وبارك فيها) أكثر فيها خيرها (وقدر فيها أقواتها) أي: أرزاق ساكنيها ومعاشيهم. وأضافها إلى الأرض من حيث هي فيها وعننا برزت. قاله السدي. وقال قتادة: «(أقواتها) من الجبال، والأنهار، والأشجار، والصخور، والمعادن، والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها، وقال مجاهد: (أقواتها) من المطر والمياه. وقال عكرمة، والضحاك، ومجاهد أيضاً: «خصائصها التي قسمها في البلاد مما خص به كل إقليم فيحتاج بعضها إلى بعض في الثقوت من الملابس، والمطاعم، والنبات» (في أربعة أيام) أي: في تمام أربعة أيام باليومين المتقدمين. وقال الزمخشري: «(في أربعة أيام) فذلك مدة خلق الله وما فيها كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. وقال الزجاج: «(في تمة أربعة أيام يريد بالتمة اليومين». انتهى. وهذا كما تقول: بنيت جدار بيتي في يوم وأكملت جميعه في يومين. أي: بالأول. وقال أبو عبد الله الرازي: «ويفقه من كلام الزمخشري (في أربعة أيام) فائدة زائدة على قوله (في يومين) لأن قوله (في يومين) لا يقتضي الاستغراق لذلك العمل. أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ثم قال (في أربعة أيام سواء) دل على أن هذه الأيام مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ونقصان». انتهى. ولا فرق بين (يومين) (وأربعة أيام) بالنسبة إلى الاستغراق. فإن كانت (أربعة) تقتضي الاستغراق وكذلك اليومين يقتضيانه. ومتى كان الظرف معدوداً كان العمل في جميعه إما على سبيل التعميم نحو: سرت يومين. وقد يكون في بعض كل يوم منها نحو: تهجدت ليلتين. فاحتمل الاستغراق واحتمل في بعض كل واحد من الليلتين. وإذا كان كذلك احتمل أن يكون وقع الخلق للأرض في بعض كل واحد من اليومين، واحتمل أن يكون اليومين مستغرقين لخلقها فكذلك (في أربعة أيام) يحتمل الاستغراق، وأن يكون خلق الأرض، والجبال، والبركة، وتقدير الأقوات وقع في بعض كل يوم من الأربعة فما قاله أبو عبد الله الرازي لم تظهر به فائدة زائدة. وقرأ الجمهور (سواءً) بالنصب على الحال. وأبو جعفر بالرفع. أي: هو سواء. «وزيد بن علي، والحسن. وابن أبي إسحق، وعمرو بن عبيد، وعيسى، ويعقوب بالخفض. نعتاً لـ (أربعة) أيام». قال قتادة، والسدي: «معناه: سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة منه فإنه يجده كما قال تعالى. وقال ابن زيد، وجماعة: «معناه: مستومهياً أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر فعبر بالسائلين عن الطالبين، لأنهم من شأنهم ولا بد طلب ما ينتفعون به إذ هم بحال حاجة. وقال الزمخشري: «(فإن قلت:) بم تعلق قوله (للسائلين)؟ (قلت:) بمحذوف. كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر أو قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين». انتهى. وهو راجع لقول المفسرين المتقدمين، ولما شرح تخليق الأرض وما فيها أتبعه بتخليق السماء فقال (ثم استوى إلى السماء) أي: قصد إليها وتوجه دون إرادة تأثير في غيرها. والمعنى: إلى خلق السماء. والظاهر: أن المادة التي خلقت منها السماء كانت دخاناً. وفي أول الكتاب الذي يزعم اليهود أنه التوراة: «إن عرشه تعالى كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، فأحدث الله في ذلك سخونة، فارتفع زيد ودخان، أما الزيد فبقي على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض. وأما الدخان فارتفع وعاد فخلق الله منه السموات». وفيه أيضاً: «أنه خلق السماء من أجزاء مظلمة». انتهى. وروي: «أنها كانت جسماً رخواً كالمدخان أو البخار». قال ابن عطية: «هنا لفظ

متروك يدل عليه الظاهر، وتقديره: فأوجدها وأتقنها وأكمل أمورها وحينئذ قال لها وللأرض والسماء. ورجح قول من ذهب إلى أنها نضقتا نطقاً حقيقياً. وجعل الله لها حياة وإدراكاً يقتضي نطقها بعد أن ذكر أن المفسرين منهم من ذهب إلى أن ذلك مجاز وأنه ظهر منها عن اختيار الطاعة والتذلل والخضوع ما هو بمنزلة القول، قال: «والقول الأول أحسن، لأنه لا شيء يدفعه وأن العبرة فيه أتم، والقدرة فيه أظهر». انتهى، وقال الزمخشري: «ويعني أمر السماء والأرض بالإتيان وامتنائها أنه أراد تكوينها فلم يمتنع عليه ووجدنا كما أرادها وجاءتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لها (إتينا) شئتاً ذلك أو أبيتها، فقالتا أتينا، على الطوع لا على الكره. والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ونحوه قول القائل. «قال الجدار لنوتد لم تشقني قال الوند سل من يدقني فلم يتركني وراء الحجر الذي ورائي. (فإن قلت: لم ذكر السماء مع الأرض وانتظمها في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟) (قلت: قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: إتينا على ما ينبغي أن تأتيها عليه من الشكل والوصف اتت يا أرض مدحوة، قراراً ومهاداً لأهلك. واتت يا سماء مقببة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما يقول: أتى عمله مرضياً مقبولاً. ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة صاحبها الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير من كون الأرض قراراً للسماء وكون السماء سقفاً للأرض. وينصره قراءة من قرأ (أتينا وأتينا) من المواتاة، وهي الموافقة. أي: لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها، قالتا وافقتنا وساعدنا. ويحتمل وافقا أمرى ومشيئتي ولا تمتنعا. (فإن قلت: ما معنى طوعاً أو كرهاً؟) (قلت: هو مثل اللزوم تأثير قدرته فيها، وأن امتناعها من تأثير قدرته محال، كما يقول الجبار لمن يجب بلوه: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً، وانتصاهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين. (فإن قلت: هلا قيل طائعتين على اللفظ أو طائعتان على المعنى لأنها سموات وأرضون؟) (قلت: لما جعلت محاطبات ومجيبات ووصفت بالطوع والكره، قيل: طائعتين في موضع طائعات نحو قوله: ﴿ساجدين﴾ [يوسف: ٤]. انتهى. وقرأ الجمهور (إتينا) من الإتيان. أي: إتينا أمرى وإرادتي. وقرأ ابن عباس وابن جبير، ومجاهد (أتينا) على وزن فعلا (قالتا أتينا) على وزن فعلنا من أتى يؤتى كذا قال ابن عطية، قال: «وذلك بمعنى أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما. والإشارة بهذا كله إلى تسخيرها، وما قدره الله من أعمالها». انتهى. وتقدم في كلام الزمخشري أنه جعل هذه القراءة من المواتاة وهي الموافقة، فيكون وزن أتيا فاعلاً. و(أتينا) فاعلنا وتقدمه إلى ذلك أبو الفضل الرازي، قال: «(أتينا) بالمد على فاعلنا من المواتاة، ومعناه سارعنا. على حذف المفعول منه، ولا يجوز أن يكون من الإيتاء الذي هو إلاء عطاء لبعده حذف مفعوله». انتهى. وقرأ الأعمش (أو كُرْهاً) بضم الكاف. والأصح أنه لغة في الإكراه على الشيء الموقوع التخيير بينه وبين الطواعية. والأكثر أن الكُرْه - بالضم - معناه: المشقة. قال ابن عطية: «وقوله (قالتا) أراد الفرقتين المذكورتين. جعل السموات سماء الأرضين أرضاً، وهذا نحو قول الشاعر:

السَّمُ يَحْزَنُكَ أَنْ جِبَالَ قَوْمِي      وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَتَا أَنْقِطَاعًا<sup>(١)</sup>

وعبر عنها بتباينتا». انتهى. هذا وليس كما ذكر، لأنه إنما تقدم ذكر الأرض مفردة والسماء مفرد، لحسن التعبير عنها بالتثنية. والبيت هو من وضع الجمع موضع التثنية، كأنه قال: ألم يحزنك أن جبل قومي وقومك. ولذلك ثنى في قوله: تباينتا. وأنت على معنى الجبل لأنه لا يريد به الجبل حقيقة إنما عنى به الذمة والمودة التي كانت بين قومها. والظاهر من هذه الآية: أنه خلق الأرض وجعل فيها الرواسي وبارك فيها، ثم أوجد السماء من الدخان فسواها سبع سموات، فيكون خلق

(١) البيت للقطامي انظر ديوانه (٣٧).

الأرض متقدماً على خلق السماء . ودحو الأرض غير خلقها وقد تأخر عن خلق السماء . وقد أورد على هذا أن جعل الرواسي فيها، والبركة، وتقدير الأقوات لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض موجودة . وقوله (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها، ولا يمكن ذلك إلا بعد صيرورتها منبسطة : ثم قال بعد (ثم استوى إلى السماء) فافتضى خلق السماء بعد خلق الأرض ودحوها . وأورد أيضاً أن قوله تعالى للسماء وللأرض (اثتيا طوعاً أو كرهاً) كناية عن إيجادهما، فلو سبق إيجاد الأرض على إيجاد السماء لاقتضى إيجاد الموجود بأمره للأرض بالإيجاد وهو محال . وقد انتهى هذا الإيراد . ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أنه قال : «خلق الله السماء قبل الأرض وتأول قوله (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) قبل أن يخلق الأرض فأضمر فيه كان كما قال تعالى : ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ [يوسف : ٧٧] معناه : إن يكن سرق» . انتهى . وقال أبو عبد الله الرازي : «فقدر، ثم كان قد استوى . جمع بين ضدتين ، لأن (ثم) تقتضي التأخر، وكان تقتضي التقدم، فالجمع بينهما يفيد التناقض . ونظيره : ضربت زيدا اليوم ثم ضربت عمراً أمس . فكما أن هذا باطل فكذلك ما ذكر يعني من تأويل (ثم) كان قد استوى قال : والمختار عندي أن يقال : خلق السماء مقدم على خلق الأرض وتأويل الآية . أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد يدل عليه قوله : ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران : ٥٩] وهذا محال . لا يقال للشيء الذي وجد (كن) بل الخلق عبارة عن التقدير وهو في حقه تعالى حكمه أن يسوجد وقضاؤه بذلك بمعنى خلق الأرض في يومين وقضاؤه بأن سيحدث كذا . أي : مدة كذا لا يقتضي حدوثه ذلك في الحال، فلا يلزم تقديم إحداث الأرض على إحداث السماء» . انتهى . والذي نقوله : إن الكفار وبخوا وقرعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعها من غير ترتيب زمني وإن (ثم) لترتيب الإخبار لا لترتيب الزمان والمهلة، كأنه قال : فالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها، ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء فلا تعرض في الآية لترتيب أي ذلك وقع الترتيب الزمني له . ولما كان خلق السماء أبداع في القدرة من خلق الأرض، ألفت الإخبار فيه بـ (ثم) فصار كقوله : ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ [البلد : ١١] بعد قوله : ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ [البلد : ١١] ومن ترتيب الأخبار ﴿ثم أتينا موسى الكتاب﴾ [الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤] بعد قوله : ﴿قل تعالوا أتل﴾ [الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤] ويكون قوله تعالى (فقال لها وللأرض) بعد إخباره بما أخبر به تصويراً لخلقها على وفق إرادته تعالى كقولك : رأيت الذي أثبتت عليه فقلت إنك عالم صالح . فهذا تصوير لما أثبتت به، وتفسير له، فكذلك أخبر بأنه خلق كيت وكيت فجد ذلك إيجاداً لم يتخلف عن إرادته . ويدل على أنه المقصود الإخبار بوقوع هذه الأشياء من غير ترتيب زمني قوله في الرعد ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ [الرعد : ٢] الآية . ثم قال بعد ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً﴾ [الرعد : ٣] الآية . وظاهر الآية التي نحن فيها : جعل الرواسي وتقدير الأقوات قبل الاستواء إلى السماء وخلقها . ولكن المقصود في الآيتين الإخبار بصدور ذلك منه تعالى من غير تعرض لترتيب زمني وما جاء من ذلك مقصوراً على يومين أو أربعة أو ستة إنما المعنى في مقدار ذلك عندكم لا أنه كان وقت إيجاد ذلك زمان . (فقضاهن سبع سموات) أي : صنعهن وأوجدهن، كقول ابن أبي ذؤيب :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السُّوَابِغُ تُبِعُ<sup>(١)</sup>

وعلى هذا انتصب (سَبَّعَ) على الحال . وقال الحوفي : «مفعول ثان، كأنه ضمن (قضاهن) معنى صيرهن» فعدها إلى مفعولين» . وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : «ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً (سبع سموات) على التمييز» . ويعني بقوله : «مبهماً

(١) تقدم .

(٢) انظر الكشف ٤/ ١٨٩ .

ليس عائداً على السماء لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى بخلاف الحال أو المفعول الثاني فإنه عائذ على السماء على المعنى. (وأوحى في كل سماء أمرها) قال مجاهد، وقتادة: «وأوحى إلى سكانها وعمرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاء تعالى من الأمور التي هي قوامها وصلاحتها». وقاله السدي وقتادة. ومن الأمور التي هي غيرها مثل ما فيها من جبال البرد ونحوها. وأضاف الأمر إليها من حيث هو فيها. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «أمرها ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة، والنيرات، وغير ذلك (وحفظاً) أي: وحفظناها حفظاً من المسترقة بالثواب. ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى، كأنه قال: وخلقنا المصاييح زينة وحفظاً». انتهى. ولا حاجة إلى هذا التقدير الثاني وتكلفه مع ظهور الأول وسهولته (ذلك) إشارة إلى جميع ما ذكر. أي: أوجده بقدرته وعزه وعلمه. ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون، فأنا عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون، فأرسلنا عليهم رجلاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾. (فإن أعرضوا) التفات خرج من ضمير الخطاب في قوله: ﴿قل أئنكم لتفكرون﴾ [فصلت: ٩] إلى ضمير الغيبة إعراضاً عن خطابهم إذ كانوا قد ذكروا بما يقتضي إقبالهم وإيمانهم من الحجج الدالة على الوحدانية، والقدرة الباهرة (فقل أنذرتكم) أي: أعلمتكم (صاعقة)<sup>(٢)</sup> أي: حلول صاعقة. قال قتادة: «عذاباً مثل عذاب عاد وثمود». وقال الزمخشري: «عذاباً شديداً الوقع كأنه صاعقة»، وقرأ الجمهور (صاعقةً مثل صاعقة) وابن الزبير، والسلمي، والنخعي، وابن محيصن بغير ألف فيها وسكون العين. وتقدم تفسيرها في أوائل البقرة والصعقة: المرة. يقال: صعقت الصاعقة فصعق، وهو من باب فعَلتْ بفتح العين ففعل بكسرها نحو خَدَعْتُهُ فخدع. (وإذ) معمولة لـ (صاعقة) لأن معناها العذاب. (من بين أيديهم ومن خلفهم) قال ابن عباس: أي: قبلهم وبعدهم. أي: قبل هود وصالح وبعدهما. وقيل: من أرسل إلى آبائهم ومن أرسل إليهم، فيكون (من بين أيديهم) معناه: من قبلهم (ومن خلفهم) معناه: الرسل الذين بحضرتهم. فالضمير في (من خلفهم) عائذ على الرسل، قاله الضحاك. وتبعه الفراء. وسيأتي عن الطبري نحو من هذا القول. وقال ابن عطية: (من بين أيديهم) أي: تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أعمار عاد وثمود. وبهذا الاتصال قامت الحججة (ومن خلفهم) أي: جاءهم رسول بعد تقدم وجودهم في الزمن وجاء من مجموع العبارة إقامة الحججة عليهم في أن الرسالة والندارة عمتهم خبر أو مباشرة». انتهى. وهو شرح كلام ابن عباس. وقال الزمخشري: «(من بين أيديهم ومن خلفهم) أي: أتوهم من كل جانب، واجتهدوا بهم، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض، كما حكى الله عن الشيطان ﴿لأتيتهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم﴾ [الأعراف: ١٧] أي: لأتيتهم من كل جهة. ولأعملن فيهم كل حيلة. وعن الحسن: «أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة، لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاؤوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم». انتهى. وقال الطبري: «الضمير في قوله (ومن خلفهم) عائذ على الرسل. وفي (من بين أيديهم) عائذ على الأمم. وفيه خروج عن الظاهر عن تفريق الضائر وتعمية المعنى، إذ يصير التقدير: جاءتهم الرسل من بين أيديهم وجاءتهم من خلف الرسل. أي: من خلف أنفسهم. وهذا معنى لا يتعقل إلا إن كان الضمير يعود في

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٨٩.

(٢) الصاعقة: العذاب وقيل قطعة من نار تسقط بأثر الرعد لا تأتي على شيء إلا أحرقت.

(خلفهم) على الرسل لفظاً، وهو يعود على رسل أخرى معنى . فكأنه قال : جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلف رسل آخرين، فيكون كفولهم : عندي درهم ونصفه . أي : ونصف درهم آخر، وهذا فيه بعد . وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود، لعلم قريش بحالهما، ولوقوعهم على بلادهم في اليمن وفي الحجر . وقال الأفوه الأودي :

أُضْحُوا كَقَيْلِ بْنِ عَنْزٍ فِي عَشِيرَتِهِ إِذْ أَهْلِكْتَ بِالَّذِي سَدَى لَهَا عَادُ  
أَوْ بَعْدَهُ كَقَدَارٍ حِينَ تَابَعُهُ عَلَى الْغَوَايَةِ أَقْوَامٌ فَقَدْ بَادُوا

(أن لا تعبدوا) يصح أن تكون (أن) تفسيرية، لأن مجيء الرسل إليهم يتضمن معنى القول . أي : جاءتهم مخاطبة . وأن تكون مخففة من الثقيلة . أي : بأنه لا تعبدوا . والناصفة للمضارع ووصلت بالنهي كما توصل بإلا وفي نحو: أن تطهرا . وكتبت إليه بأن قم . و(لا) في هذه الأوجه للنهي . ويجوز على بعد أن تكون (لا) نافية و(أن) ناصبة للفعل . وقاله الحوفي ولم يذكر غيره . ومفعول (شاء) محذوف . وقدره الزمخشري : «لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة» . انتهى . وتتبع ما جاء في القرآن وكلام العرب من هذا التركيب فوجده لا يكون محذوفاً إلا من جنس الجواب نحو قوله تعالى : ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ [الأنعام : ٣٥] أي : لو شاء جمعهم على الهدى لجمعهم عليه وكذلك ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ [الواقعة : ٦٥] ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ [الواقعة : ٧٠] ﴿ولو شاء ربك لآمن﴾ [يونس : ٩٩] ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ [الأنعام : ١١٢] ﴿ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ [النحل : ٣٥] قال الشاعر :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدٍ<sup>(١)</sup>

وقال الراجز :

وَاللَّذِ لَوْ شَاءَ لَكُنْتُ صَخْرًا أَوْ جَبَلًا أَشَمَّ مُشْمَخِرًا<sup>(٢)</sup>

فعلى هذا الذي تقرر لا يكون تقدير المحذوف ما قاله الزمخشري . وإنما التقدير : لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم . وهذا أبلغ في الامتناع من إرسال البشر، إذ علقوا ذلك بأقوال الملائكة، وهو لم يشأ ذلك فكيف يشاء ذلك في البشر (فإنما بما أرسلتم به كافرون) خطاب لهود، وصالح، ومن دعا من الأنبياء إلى الإيمان . وغلب الخطاب على الغيبة . نحو قولك : أنت وزيد تقومان و(ما) مصدرية . أي : يارسالكم و(به) توكيد لذلك . ويجوز أن يكون (ما) بمعنى الذي . والضمير في (به) عائد عليه وإذا كفروا بما تضمنه الإرسال كان كفراً بالإرسال . وليس قوله (بما أرسلتم) إقراراً بالإرسال، بل هو على سبيل التهكم . أي : بما أرسلتم على زعمكم كما قال فرعون ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء : ٢٧] ولما بين تعالى كفر عاد وثمود على الإجمال فصل بعد ذلك فذكر خاصية كل واحدة من الطائفتين، فقال : (فأما عاد فاستكبروا) أي : تعاضموا عن امتثال أمر الله وعن ما جاءهم به الرسل (بغير الحق) أي : بغير ما يستحقون . ولما ذكر لهم هذا الذنب العظيم وهو الاستكبار وكان فعلاً قلبياً ذكر ما ظهر عليهم من الفعل اللساني المعبر عن ما في القلب (وقالوا من أشد منا قوة) أي : لا أحد أشد منا، وذلك لما أعطاهم الله من عظم الخلق، وشدة البطش . فرد الله تعالى عليهم بأن الذي أعطاهم ذلك هو أشد منهم قوة . ومع علمهم بآيات الله كانوا يجحدونها ولا يعترفون بها كما يجحد المودع الوديعه من طالبها مع معرفته بها . ولفظة (كان) في كثير من الاستعمال تشعر بالمدامه . وعبر بالقوة عن القدرة، فكما يقال : الله أقدر منهم، يقال : الله أقوى منهم . فالقدرتان . بينها قدر مشترك وإن تباينت القدرتان بما لكل منهما من الخاصة

(١) من الطويل لطرفة انظر ديوانه (٣٦) السبع الطوال (٢٠٩).

(٢) من الرجز لم أهدت لقائله وانظر المجمع (٨٢/١) الإصناف (٦٧٦) الخزانة (٥٠٥/٥).

كما يوصف الله تعالى بالعلم ويوصف الإنسان بالعلم . ثم ذكر تعالى ما أصاب به عاداً فقال (فأرسلنا عليهم رجحاً صرصراً) في الحديث : «أنه تعالى أمر خزنة الريح ففتحو عليهم قدر حلقة الخاتم ولو فتحو قدر منخر الثور هلكت الدنيا» . وروي : «أنها كانت تحمل العبر بأوفادها فترميهم في البحر» . والصرصر : قال مجاهد : «شديدة السموم» ، وقال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي : «من الصر . أي : باردة<sup>(١)</sup>» . وقال السدي أيضاً ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والطبري ، وجماعة : «من صرصر إذا صوت» . وقال ابن السكيت : «صرصر يجوز أن يكون من الصرة وهي الصيحة ومنه ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ [الذاريات : ٢٩] وصرصر نهر بالعراق» . وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو ، والنخعي ، وعيسى ، والأعرج (نحسان) بسكون الحاء فاحتمل أن يكون مصدراً وصف به وتارة يضاف إليه . واحتمل أن يكون مخففاً من فعل ، وقال الطبري : «نحس ونحس مقت» ، وقال الزمخشري : «مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر» . انتهى . وتتبع ما ذكره التصريفيون مما جاء صفة من فعل اللازم فلم يذكر وافية فعلاً بسكون العين قالوا يأتي على فعل كفرح وهو فرح ، وعلى أفعل حور فهو أَحْوَر وعلى فَعْلَان شبع فهو شَبَعَان . وقد يجيء على فاعل سلم فهو سَلَم وبَي فهو بَالٍ . وقرأ قتادة ، وأبو رجاء ، والجحدري وشيبة ، وأبو جعفر ، والأعمش ، وباقي السبعة . بكسر الحاء ، وهو القياس . وفعله (نحس) على فَعْل بكسر العين . و(نحسات) صفة لـ (أيام) جمع بألف وتاء ، لأنه جمع صفة لما لا يعقل . قال مجاهد ، وقتادة ، والسدي : مشائيم من النحس المعروف . وقال الضحاك : «شديدة البرد وحتى كان البرد عذاباً لهم» . وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد :

كَأَنَّ سُلَافَةً عَرَصَتْ بِنَحْسٍ يُخِيلُ شَقِيقُهَا الْمَاءَ الزُّلَالًا<sup>(٢)</sup>

وقيل : سميت بذلك ، لأنها ذات غبار ، ومنه قول الراجز :

قَدْ اغْتَدِي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِلصَّيْدِ فِي يَوْمٍ قَلِيلِ النَّحْسِ<sup>(٣)</sup>

يريد : قليل الغبار ، وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : «متتابعات كانت آخر شوال من أربعاء إلى أربعاء» . وقال السدي : «أولها غداة يوم الأحد» ، وقال الربيع بن أنس : «يوم الجمعة» ، وقال يحيى بن سلام : «يوم الأحد» (لتذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) وهو الهلاك . وقرئ (لتذيقهم) بالفاء ، وقال الزمخشري : «على الإذاعة للريح أو للأيام النحسات» . وأضاف العذاب إلى الخزي إضافة الموصوف إلى صفته ، لم يأت بلفظة أخرى التي تقتضي المشاركة والتفصيل خبراً عن قوله (ولعذاب الآخرة) وهو إسناد مجازي . أو وصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به ، ألا ترى تفاوت ما بين قولك : هو شاعر وقوله : له شعر شاعر . وقابل استكبارهم بعذاب الخزي وهو الذل والهوان . وبدأ بقصة عاد ، لأنها أقدم زماناً ، ثم ذكر ثمود ، فقال (وأما ثمود) ، وقرأ الجمهور بالرفع ممنوع من الصرف . وابن وثاب ، والأعمش ، وبكر بن حبيب مصروفاً ، وهي قراءة ابن وثاب ، والأعمش في (ثمود) بالتنوين في جميع القراءات إلا قوله : ﴿وأتينا ثمود الناقة﴾ [الإسراء : ٥٩] لأنه في المصحف بغير ألف . وقرئ (ثمود) بالنصب ممنوعاً من الصرف . والحسن ، وابن أبي إسحق ، والأعمش (ثموداً) منونة منصوبة . وروى المفضل عن عاصم الوجهين . انتهى (فهديناهم) قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : «بيناهم» ، قال ابن عطية : «وليس (الهدى) هنا بمعنى الإرشاد» . وقال الفراء وتبعه الزمخشري : «فهديناهم) فدللناهم على طريق الضلالة والرشد كقوله تعالى : ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد : ١٠] (فاستحبوا العمى على

(١) انظر الطبري ٦٦/٢٤ والبغوي ١١١/٤ وابن كثير ٩٥/٤ والوسيط ٢٧ خ .

(٢) من الوافر لابن أحرر انظر اللسان (نحس) .

(٣) من الرجز لم أهدت لقائله انظر اللسان (نحس) نوادر أبي زيد (٢٤٥) القرطبي (٢٣٧/١٥) روح المعاني (١١٣/١٢) .

الهدى) فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد (فإن قلت : ) أليس معنى هديته حصلت فيه الهدى الدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: رعدته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ (قلت : ) للدلالة على أنه مكنهم، وأزاح عنهم، ولم يبق لهم عذر ولا علة، فكأنه حصل البغية فهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها». انتهى. وهو على طريقة الاعتزال. وقال سفيان: «دعوناهم»، وقال ابن زيد: «أعلمناهم الهدى من الضلال»، وقال ابن عطية «(فاستحبوا) عبارة عن تكسبهم في العمى وإلا فهو بالاختراع لله، ويدل ذلك على أنها إشارة إلى تكسبهم قوله (بما كانوا يكسبون)». انتهى. والهون: الهوان. وصف العذاب بالمصدر أو أبدل منه. وقرأ ابن مقسم (عذاب الهوان) بفتح الهاء وألف بعد الواو، وقال الزمخشري: «ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبينا - ﷺ - وكفى به شاهد إلا هذه لكفى بها حجة». انتهى. على عادته في سب أهل السنة. ثم ذكر قريشاً بنجاة من آمن واتقى. قيل: وكان من نجا من المؤمنين ممن استجاب هود، وصالح. مائة وعشرة أنفس. ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتى إذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين، وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين، وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يمجحون، وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾.

لما بين تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا، أرفده بكيفية عقوبة الكفار أولئك وغيرهم وانتصب (يوم) بـ (ذكر)، وقرأ الجمهور (يُحْشَرُ) مبنياً للمفعول (وأعداء) رفعاً. وزيد بن علي، ونافع، والأعرج، وأهل المدينة بالنون (أعداء) نصباً، وكسر الشين الأعرج. وتقدم معنى (يوزعون) في النمل. (وحتى) غاية لـ (يحشر) (وأعداء الله) هم: الكفار من الأولين والآخرين وما بعد (إذا) زائدة للتأكيد. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «ومعنى التأكيد فيها أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله ﴿ثم إذا ما وقع أمتم به﴾ [يونس ٥١] أي: لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به». انتهى. ولا أدري أن معنى زيادة ما بعد (إذا) لتوكيد فيها. ولو كان التركيب بغير ما كان بلا شك حصول الشرط من غير تأخر لأن أداة الشرط ظرف للشهادة واقعة فيه لا محالة. وفي الكلام حذف التقدير: حتى إذا ما جاؤوها، أي: النار وسئلوا عما أجزموا فأنكروا (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) بما اكتسبوا من الجرائم وكانوا حسبوا أن لا شاهد عليهم، ففي الحديث: «إن أول ما ينطق من الإنسان فحذه اليسرى، ثم تنطق الجوارح فيقول تبا لك وعنك كنت أدافع». ولما كانت الحواس خمسة، السمع. والبصر. والشم، والذوق، واللمس. وكان الذوق مندرجاً في اللمس إذ بماسة جلدة اللسان والحنك للمذوق يحصل إدراك المذوق، وكان حسن الشم ليس فيه تكليف ولا أمر ولا نهي وهو ضعيف اقتصر من الحواس على السمع، والبصر، واللمس، إذ هذه هي التي جاء فيها التكليف. ولم يذكر حاسة الشم لأنه لا تكليف فيه. فهذه - والله أعلم - حكمة الاقتصار على هذه الثلاثة. والظاهر: أن الجلود هي المعروفة. وقيل: هي الجوارح كني بها عنها. وقيل: كني بها عن الفروج. قيل: وعليه أكثر المفسرين منهم ابن

عباس كما كني عن النكاح بالسر (بما كانوا يعملون) من الجرائم. ثم سألو جلودهم عن سبب شهادتها عليهم، فلم تذكر سبباً غير أن الله تعالى أنطقها. ولما صدر منها ما صدر من العقلاء وهي الشهادة خاطبوا بقولهم (لم شهدتم) مخاطبة العقلاء. وقرأ زيد بن علي (لم شهدتن) بضمير المؤنثات. وكل شيء لا يراد به العموم بل المعنى كل ناطق بما ذلك له عادة أو كان ذلك فيه خرق عادة. وقال الزمخشري: «أراد ب (كل شيء) كل شيء من الحيوان كما أراد به في قوله: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٩] من المقدورات. والمعنى: إن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم، وإنشائكم، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه وإنما قالوا لهم (لم شهدتم علينا) لتعاضدهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على السنة جوارحهم. وقال الزمخشري أيضاً: (فإن قلت: كيف تشهد عليهم أبصارهم وكيف تنطق؟ قلت: ) الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلاماً». انتهى. وهذا الرجل مولع بمذهبه الاعتزالي يدخله في كل ما يقدر أنه يدخل وإنما أشار بقوله: «كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلاماً إلى أن الله تعالى لم يكلم موسى حقيقة وإنما الشجرة هي التي سمع منها الكلام بأن يخلق الله فيها كلاماً ما خاطبته به عن الله تعالى. والظاهر أن قوله (وما كنتم تستترون) من كلام الجوارح. قيل: ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى تويحاً لهم. أو من كلام ملك يأمره تعالى. (وأن يشهد) يحتمل أن يكون معناه خيفة أو لأجل أن يشهد إن كنتم غير عالمين بأنها تشهد (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم) فانهمكنتم وجاهدتم وإلى هذا نحا مجاهد. والستري يأتي في هذا المعنى، كما قال الشاعر:

وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاجِحَاتِ وَمَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

ويحتمل أن يكون معناه: عن أن يشهد. أي: وما كنتم تمتنعون، ولا يمكنكم الاختفاء عن أعضائكم، والاستتار عنها بكفركم ومعاصيكم، ولا تظنون أنها تصل بكم إلى هذا الحد من الشهادة عليكم. وإلى هذا نحا السدي. أو ما كنتم تتوقعون بالاختفاء والستر أن يشهد عليكم، لأن الجوارح لزيمة لكم. وعبر قتادة عن تستترون بتظنون. أي: وما كنتم تظنون أن يشهد. وهذا تفسير من حيث المعنى لا من حيث مرادفة اللفظ (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً) وهو الخفيات من أعمالكم. وهذا الظن كفر وجهل بالله وسوء معتقد يؤدي إلى تكذيب الرسل والشك في علم الإله. (وذلكم) إشارة إلى ظنهم أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالهم وهو مبتدأ خبره (أرداكم) (وظنكم) بدل من (ذلكم) أي: وظنكم بربكم ذلكم أهلككم، وقال الزمخشري: «و(ظنكم) و(أرداكم) خبران». وقال ابن عطية: «(أرداكم) يصلح أن يكون خبراً بعد خبر» انتهى. ولا يصح أن يكون (ظنكم) (بربكم) خبراً لأن قوله (وذلكم) إشارة إلى ظنهم السابق، فيصير التقدير: وظنكم بأن ربكم لا يعلم ظنكم بربكم. فاستفيد من الخبر ما استفيد من المبتدأ، وهو لا يجوز<sup>(١)</sup>. وصار نظير ما منعه النحاة من قولك: سيد الجارية مالكةا، وقال ابن عطية: «وجوز الكوفيون أن يكون معنى (أرداكم) في موضع الحال. والبصريون لا يميزون وقوع الماضي حالاً إلا إذا اقترن ب (قد) وقد يجوز تقديرها عندهم إن لم يظهر». انتهى. وقد أجاز الأخفش من البصريين وقوع الماضي حالاً بغير تقدير قد، وهو الصحيح إذ كثر ذلك في لسان العرب كثرة توجب القياس ويبعد فيها التأويل. وقد ذكرنا كثرة الشواهد على ذلك في كتابنا المسمى بالتذليل والتكميل في شرح التسهيل (فإن يصبروا) خطاب للنبي - عليه السلام - قيل: وفي الكلام حذف. تقديره: أولاً يصبروا، كقوله: ﴿اصبروا أولاً وتصبروا سواء عليكم﴾ [الطور: ١٦] وذلك في يوم القيامة. وقيل: التقدير فإن يصبروا على ترك دينك واتباع أهوائهم. (فالنار مثوى لهم) أي: مكان إقامة. وقرأ الجمهور (وإن يَسْتَعْتَبُوا) مبنياً للفاعل (فما هم من المعتبين) اسم مفعول، قال الضحاك: «إن يعتدروا فما هم من المعتدورين». وقيل: وإن طلبوا العتبي - وهي الرضا - فما هم ممن يعطاها ويستوجبها. وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد،

(١) انظر حاشية الدسوقي ٢٨٣/٣ الصبان ١٩٤/١ شرح الفصل ٨٧/١ الكافية ٩٦/١.



وموسى الأسواري ، (وإن يُسْتَعْتَبُوا) مبنياً للمفعول (فما هم من المعْتَبِينَ) اسم فاعل . أي : طلب منهم أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ، ولا يكون ذلك لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال كما قال - ﷺ - : « ليس بعد الموت مستعب » وقال أبو ذؤيب :

أَمِنَ الْمُنُونُ وَرَيْبَهَا تَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْرَعُ<sup>(١)</sup>

ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى ﴿ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام : ٢٨] ولما ذكر تعالى الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفرة أردفه بذكر السبب الذي أوقعهم في الكفر ، فقال : (وقيضنا لهم قرناء) أي : سببنا لهم من حيث لم يحتسبوا . وقيل : سلطنا ووكلتنا عليهم . وقيل : قدرنا لهم وقرناء : جمع قرين . أي : قرناء سوء من غواة الجن والإنس (فزينوا لهم) أي : حسنوا وقدروا في أنفسهم (ما بين أيديهم) قال ابن عباس : « من أمر الآخرة أنه لا جنة ولا نار ولا بعث » . (وما خلفهم) قال ابن عباس : « من أمر الدنيا من الضلالة والكفر ولذات الدنيا » . وقال الكلبي : « (ما بين أيديهم) أعمالهم التي يشاهدونها (وما خلفهم) ما هم عاملوه في المستقبل » . وقال ابن عطية : « (ما بين أيديهم) من معتقدات السوء في الرسل والنبوات ، ومدح عبادة الأصنام ، واتباع فعل الآباء (وما خلفهم) ما يأتي بعدهم من أمر القيامة ، والمعاد » . انتهى ملخصاً . وهو شرح قول الحسن قال : « (ما بين أيديهم) من أمر الدنيا (وما خلفهم) من أمر الآخرة » . وقال الزمخشري : « (فإن قلت : ) كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم ؟ (قلت : ) معناه : أنه خذلهم ، ومنعهم التوفيق ، لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين . والدليل عليه ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا﴾ [الزخرف : ٣٦] انتهى . وهو على طريقة الاعتزال (وحق عليهم القول) أي : كلمة العذاب ، وهو القضاء المحتم بأنهم معذبون (في أمم) أي : في جملة أمم وعلى هذا قول الشاعر :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْفُو كَأَفِي آخِرِينَ قَدْ أُفْكُوا<sup>(٢)</sup>

أي : فأنت في جملة آخرين . أو فأنت في عدد آخرين لست في ذلك بأوحد . وقيل « (في) بمعنى مع . ولا حاجة للتضمنين مع صحة معنى (في) وموضع (في أمم) نصب على الحال . أي : كائنين في جملة أمم . وذو الحال الضمير (في عليهم) (إنهم كانوا خاسرين) الضمير لهم وللأمم . وهذا تعليل لاستحقاقهم العذاب . (وقال الذين كفروا لا تسمعوا) أي : لا تصغوا (لهذا القرآن والغوفية) إذا تلاه محمد - ﷺ - قال أبو العالية : « وقعوا فيه وعيبه » وقال غيره : « كان الرسول - عليه السلام - إذا قرأ في المسجد أصغى إليه الناس من مؤمن وكافر فحشي الكفار استمالة القلوب بذلك فقالوا متى قرأ محمد - ﷺ - فلنلغظ نحن بالمكاء والصفير ، والصياح ، وإنشاد الشعر ، والأرجاز ، حتى يخفى صوته وهذا الفعل هو اللغو » . وقرأ الجمهور والفراء بفتح الغين مضارع (لغى) بكسرها . وبكر بن حبيب السهمي كذا في كتاب ابن عطية . وفي كتاب اللوامح . وأما في كتاب ابن خالويه فعبد الله بن بكر السهمي ، وقاتدة ، وأبو حيوه ، والزعفراني ، وابن أبي إسحق ، وعيسى بخلاف عنهما . بضم الغين مضارع (لَغَى) بفتحها . وهما لغتان . أي : ادخلوا فيه اللغو وهو اختلاف القول بما لا فائدة فيه . وقال الأخفش : يقال لَغَا يَلْغَى بفتح الغين . وقياسه الضم ، لكنه فتح ، لأجل حرف الحلق فالقراءة الأولى من يَلْغَى والثانية من يلغو . وقال صاحب اللوامح : « ويجوز أن يكون الفتح من لَغَى بالشيء يلغى به إذا رمى به ، فيكون (فيه) بمعنى به . أي : ارموا به وابذوه (لعلكم تغلبون) أي : تطمسون أمره وتميتون ذكره » . (فلنذيقن الذين كفروا) وعيد شديد لقريش والعذاب الشديد : في الدنيا كوقعة بدر وغيرها ، والأسوأ يوم القيامة . أقسم تعالى على الجملتين وشمل الذين كفروا القائلين والمخاطبين في قوله (وقال الذين كفروا لا تسمعوا) (ذلك) أي : جزاؤهم في الآخر . ف (النار) بدل أو خبر مبتدأ محذوف .

(١) من الكامل تقدم .

(٢) من المشرح لعروة ابن أذينة انظر ديوانه (٣٤٣) المحتسب (١٦١/٢) الكشاف (١٩٧/٤) اللسان (افك) .

وجوز أن يكون (ذلك) خبر مبتدأ محذوف. أي: الأمر ذلك و(جزاء) مبتدأ و(النار) خبره. (لهم فيها دار الخلد) أي: فكيف قيل فيها؟ والمعنى: أنها دار الخلد كما قال تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) والرسول نفسه هو الأسوة. وقال الشاعر:

وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ يُنْصَفُوا حَكْمٌ عَدْلٌ<sup>(١)</sup>

والمعنى: أن الله هو الحكم العدل. ومجاز ذلك أنه قد يجعل الشيء ظرفاً لنفسه باعتبار متعلقه على سبيل المبالغة، كأن ذلك المتعلق صار الشيء مستقراً له، وهو أبلغ من نسبة ذلك المتعلق إليه على سبيل الإخبارية عنه (جزاء بما كانوا بآياتنا يمجدون) قال الزمخشري: إن جزءهم بما كانوا يلغون فيها، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو. ولما رأى الكفار عظم ما حل بهم من عذاب النار سألوا من الله تعالى أن يريهم من كان سبب إغوائهم وإضلالهم. والظاهر: أن (اللذنين) يراد بهما الجنس. أي: كل مغوم هذين النوعين. وعن علي، وقتادة: أنها إبليس وقابيل. إبليس سن الكفر. وقابيل سن القتل بغير حق. قيل: وهل يصح هذا القول عن علي. وقابيل مؤمن عاص وإنما طلبوا المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وقد أصلح هذا القول بأن قال طلب قابيل كل عاص من أهل الكباثر وطلب إبليس كل كافر، ولفظ الآية ينبو عن هذا القول وعن إصلاحه. وتقدم الخلاف في قراءة (أرنا) في قوله: ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال الزمخشري: «حكوا عن الخليل أنك إذا قلت: أرنى ثوبك. بالكسر. فالمعنى بصرنيه، وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء، معناه: أعطني ثوبك. ونظيره اشتها الإيتاء في معنى الإعطاء وأصله إلا حضاراً». انتهى (نجعلها تحت أقدامنا) يريدون: في أسفل طبقة من النار، وهي أشد عذاباً، وهي درك المنافقين. وتشديد النون في اللذين واللتين وهاتين حالة كونها بالياء لا تجيزه البصريون. والقراءة بذلك في السبعة حجة عليهم.

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وإما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموت إن على كل شيء قدير﴾.

قال ابن عباس: «نزلت في الصديق. قال المشركون: ربنا الله والملائكة بناته، وهؤلاء شفاعونا عنده، واليهود: ربنا الله والعزير ابنه، ومحمد ليس بنبي فلم يستقيما. والصديق قال: ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد عبده ورسوله، فاستقام». ولما أظنبت تعالى في وعيد الكفار أردفه بوعيد المؤمنين، وليس المراد التلطف بالقول فقط، بل لا بد من الاعتقاد المطابق للقول اللساني. وبدأ أولاً بالذي هو أمكن في الإسلام وهو العلم بربوبية الله، ثم أتبعه بالعمل الصالح وهو

(١) من الطويل وصدده:

أفأفت بنو مروان ظلماً دمانا

الخصائص ٢/٤٧٥ المحتسب (٢/٤٢) معاهد التنقيص (١/٢٥٤) الحماسة البصرية (٢/٣٦٧) اللسان (حكم).

الاستقامة. وعن سفيان بن عبد الله الثقفي: «قلت: للنبي - ﷺ -: أخبرني بأسر أعتصم به؟ قالت: قل ربي الله ثم استقم. قلت ما أخوف ما تخاف عليّ فأخذ رسول الله - ﷺ - بلسان نفسه وقال: هذا». وعن الصديق: «ثم استقاموا على التوحيد لم يضطرب إيمانهم». وعن عمر: «استقاموا لله بطاعته لم يروغوا وروغان الثعالب». وعن عثمان: «أخلصوا العمل» وعن علي: «أدوا الفرائض». وقال أبو العالية، والسدي: «استقاموا على الإخلاص والعمل إلى الموت». وقال الثوري: «عملوا على وفاق ما قالوا». وقال الفضل: «زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية»، وقال الربيع: «أعرضوا عن ما سوى الله تعالى». وقيل: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعن الحسن، وقتادة، وجماعة: «استقاموا بالطاعات واجتناب المعاصي»، قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «(و)ثم لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه، لأن الاستقامة لها الشأن كله ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن الصديق - رضي الله عنه - أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا لم يذبوا. قال: حملتم الأمر على أشده قالوا فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان». انتهى. (تنزل عليهم الملائكة) قال مجاهد والسدي: «عند الموت». وقال مقاتل: «عند البعث». وقيل: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث. (وأن) ناصبة للمضارع. أي: بانتفاء خوفكم وحزنكم. قال معناه: الحوفي، وأبو البقاء - وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «بمعنى أي. أو المخففة من الثقيلة، وأصله بأنه لا تخافوا. والهاء ضمير الشأن». انتهى. وعلى هذين التقديرين: يكون الفعل مجزوماً بلا الناهية. وهذه آية عامة في كل هم مستأنف، وتسليية تامة عن كل فائت ماض. ولذلك قال مجاهد: «لا تخافوا ما تقدمون عليه ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم»، وقال عطاء بن أبي رباح: «لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم». وفي قراءة عبد الله (لا تخافوا) بإسقاط (أن) أي: تنزل عليهم الملائكة قائلين لا تخافوا ولا تحزنوا. ولما كان الخوف مما يتوقع من المكروه أعظم من الحزن على الفائت قدمه، ثم لما وقع الأمن لهم بشروا بما يؤولون إليه من دخول الجنة، فحصل لهم الأمن التام والسرور العظيم بما سيمعلون من الخير. (نحن أولياؤكم) الظاهر: أنه من كلام الملائكة. أي: يقولون لهم. وفي قراءة عبد الله يكون من جملة المقول قبل. أي: نحن كنا أولياؤكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة، لما كان أولياء الكفار قرنائهم من الشياطين كان أولياء المؤمنين الملائكة، وقال السدي: «نحن حفظكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة». وقيل: نحن أولياؤكم من كلام الله تعالى، أولياؤكم بالكفاية والهداية (ولكم فيها) الضمير عائد على الآخرة. قاله ابن عطية. وقال الحوفي: «على الجنة» (ما تشتهي أنفسكم) من الملائكة (ولكم فيها ما تدعون)، قال مقاتل: «ما تتمنون». وقيل: ما تريدون، وقال ابن عيسى: «ما تدعي أنه لك فهو لك بحكم ربك»، قال ابن عطية: «ما تطلبون». (نزلاً من غفور رحيم) النزل: الرزق المقدم للنزيل - وهو الضيف - قال معناه ابن عطاء. فيكون (نزلاً) حالاً. أي: تعطفون ذلك في حال كونه نزولاً. لا نزلاً. وجعله بعضهم مصدر الأنزل. وقيل: «نزل جمع نازل كشارف وشرف فينتصب على الحال، أي: نازلين، وذو الحال الضمير المرفوع في (تدعون)، وقال احسن: معنى (نزلاً) منا» وقيل: ثواباً. وقرأ أبو حيوة (نزلاً) بإسكان الزاي. ولما تقدم قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ذكر من دعا إلى ذلك، فقال (ومن أحسن قولاً) أي: لا أحد أحسن قولاً ممن يدعو إلى توحيد الله، ويعمل العمل الصالح، ويصرح أنه من المستسلمين لأمر الله، المتقادين له. والظاهر العموم في كل داع إلى الله - وإلى العموم ذهب الحسن، ومقاتل، وجماعة. وقيل: بالخصوص فقال ابن عباس: - هو رسول الله - ﷺ - دعا إلى الإسلام، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نحلة»، وعنه أيضاً: «هم أصحاب رسول الله - ﷺ -». وقالت عائشة، وقيس بن أبي حازم، وعكرمة، ومجاهد: «نزلت في المؤذنين». وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٩٨.

(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٩٩.

داخلون في الآية، وإلا فالسورة بكماها مكية بلا خلاف، ولم يكن الأذان بمكة إنما شرع بالمدينة. والدعاء إلى الله يكون بالدعاء إلى الإسلام، وبجهاد الكفار، وكف الظلمة. وقال زيد بن علي: «دعا إلى الله بالسيف»، وهذا والله أعلم هو الذي حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بني أمية. وكان زيد هذا عالماً بكتاب الله وقد وقفت على جملة من تفسيره كتاب الله وإلقائه إياه على بعض النقلة عنه. وهو في حبس هشام بن عبد الملك، وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر. يقال: إنه كان إذا تناظر هو وأخوه محمد الباقر اجتمع الناس بالمحابر يكتبون ما يصدر عنهما من العلم - رحمهما الله - ورضي عنهما - وقال أبو العالية: «(وعمل صالحاً) صلى بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: «صلى وصام» وقال الكلبي: «أدى الفرائض»، وقال مجاهد: «هي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاثة، أن يكون موحداً، معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه. ومآلهم إلى طبقة العالمين العاملين من أهل العدل، والتوحيد. الدعاة إلى دين الإسلام». انتهى. ويعني بذلك المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. ويوجد ذلك في اشعارهم كما قال ابن أبي الحديد المعتزلي صاحب كتاب «الفلك الدائر في الرد على كتاب المثل السائر». قال: من كلامه أنشدنا عنه الإمام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي - رحمه الله تعالى - :

لَسُوْلًا ثَلَاثٌ لَمْ أَحْفَ صَرَْعَتِي      لَيْسَتْ كَمَا قَالَ فَتَى الْعَبْدِ  
 أَنْ أَنْصَرَ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ فِي      كُلِّ مَقَامٍ بَإِذْلًا جُهْدِي  
 وَأَنْ أَنْجِي اللَّهَ مُسْتَمْتِعًا      بِخَلْوَةٍ أَحْلَى مِنَ الشُّهْدِ  
 وَأَنْ أَصُولَ الدَّهْرِ كِبْرًا عَلَيَّ      كُلِّ لَيْثِمٍ أَضْعَرَ الْخَدَّ  
 لِذَلِكَ لَا أَهْوَى فِتْنَةً وَلَا      خَمْرًا وَلَا ذَامِيَعَةَ نَهْدِ

(وقال إني من المسلمين) ليس المعنى: أنه تكلم بهذا بل جعل الإسلام معتقده، كما تقول: هذا قول الشافعي أي: مذهبه. وقرأ ابن أبي عملة وإبراهيم بن نوح عن قتيبة الميال (وقال إني) بنون مشددة واحدة والجمهور (إني) بها وبنون الواقية. وقال أبو بكر بن العربي: «لم يشترط إلا إن شاء الله، ففيه رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله». ولما ذكر تعالى أنه لا أحد أحسن ممن دعا إلى الله ذكر ما يترتب على ذلك من حسن الأخلاق، وأن الداعي إلى الله قد يجافيه المدعو فيبغى أن يرفق به، ويتلطف في إيصال الخير فيه. قيل: ونزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان عدواً لرسول الله - ﷺ - فصار ولياً مصافياً وقال ابن عباس: «الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك»، وقال الكلبي: «الدعوتان إليهما»، وقال الضحك: «الحلم والفحش». وعن علي: «حب الرسول وآله وبغضهم». وقيل: الصبر والنفور. وقيل: المداراة والغلظة. وقيل: العفو والاعتقاد. وهذه أمثلة للحسنة والسيئة لا على طريق الحصر. ولما تفاوتت الحسنة والسيئة أمر أن يدفع السيئة بالأحسن، وذلك مبالغة. ولم يقل: ادفع بالحسنة السيئة لأن من هان عليه الدفع بالأحسن هان عليه الدفع بالحسن. أي: وإذا فعلت ذلك (فإذا الذي بينك وبينه عداوة) صار لك كالولي الصديق الخالص الصداقة (ولا) في قوله (ولا السيئة) زائدة للتوكيد كهي في قوله «ولا الظل ولا الحرور» [فاطر ٢١] [لأن استوى] لا يكتفي بمفرد فإن إحدى الحسنة والسيئة جنس لم تكن زيادتها كزيادتها في الوجه الذي قبل هذا إذ يصير المعنى: ولا تستوي الحسنات إذ هي متفاوتات في أنفسها ولا السيئات لتفاوتها أيضاً. قال ابن عطية: «دخلت كأن للتشبيه لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حمياً وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم. وعن ابن عباس (بالتي هي أحسن) الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة. وقال مجاهد وعطاء: السلام عند اللقاء». انتهى. أي: هو مبدأ الدفع بالأحسن، لأنه محصور فيه. وعن مجاهد أيضاً: «أعرض عن أذاهم». وقال أبو فراس الحمداني:

يَجْنِي عَلَيَّ وَأَجْنُو صَافِحاً أَبْدأً لَا شَيْءَ أَحْسَنَ مِنْ جَانٍ عَلَيَّ جَانٍ

(وما يُلقَّأها) الضمير عائد على الفعللة والسجية التي هي الدفع بالأحسن . وقرأ طلحة بن مصرف وابن كثير في رواية (وما يُلقَّأها) من الملاقة . وقرأ الجمهور من التلقي : وكان هذه الخصلة الشريفة غائبة فما يصادفها ويلقيها الله إلا لمن كان صابراً على الطاعات ، صارفاً عن الشهوات ، ذا حظ عظيم من خصال الخير . قاله ابن عباس . فيكون مدحاً . أو (ذو حظ عظيم) من ثواب الآخرة . قاله قتادة ، فيكون وعداً . وقيل : إلا ذو عقل . وقيل : ذو خلق حسن . وكرر (وما يلقيها) تأكيداً لهذه الفعللة الجميلة الخلية وقبل الضمير في يلقيها عائد على الجنة وحكى مكى (وما يلقيها) أي : شهادة أن لا إله إلا الله . وفيه بعد . ولما أمر تعالى بدفع السيئة بالأحسن كان قد يعرض للمسلم في بعض الأوقات مقابلة من أساء بالسيئة فأمره إن عرض له ذلك أن يستعذ بالله ، فإن ذلك من نزغ الشيطان . وتقدم تفسير نظير هذه الآية في أواخر الأعراف . ولما بين تعالى أن أحسن الأعمال والأقوال هو نظير هذه الآية الدعوة إلى الله أردفه بذكر الدلائل العلوية والسفلية ، وعلى قدرته الباهرة ، وحكمته البالغة ، وحجته القاطعة ، فبدأ بذكر الفلكيات بالليل والنهار . وقدم ذكر الليل قيل : تنبيهاً على أن الظلمة عدم والنور وجود وناسب ذكر الشمس بعد النهار ، لأنها سبب لتنويره ، ويظهر العالم فيه ، ولأنها أبلغ في التنوير من القمر ، ولأن القمر فيما يقولون مستفاد نوره من نور الشمس . ثم نهى تعالى عن السجود لها وأمر بالسجود للخالق تعالى . وكان ناس يعبدون الشمس كما جاء في قصة بلقيس وقومها والضمير في (خلقهن) عائد على الليل والنهار والشمس والقمر<sup>(١)</sup> . قال الزمخشري : «لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأثني . أي الإناث ، يقال : الأقالم بريتها وبريتها» . انتهى . يريد «مالا يعقل» من الذكر وكان ينبغي أن يفرق بين جمع القلة من ذلك فإن الأفصح أن يكون كضمير الواحدة ، تقول : الأجداع انكسرت . على الأفصح والجدوع انكسرن . على الأفصح . والذي تقدم في الآية ليس بجمع قلة أعني بلفظ واحد ولكنه ذكر أربعة متعاطفة فتزلت منزلة الجمع المعبر عنها بلفظ واحد . وقال الزمخشري : «ولما قال (ومن آياته) كن في معنى الآيات فقيل (خلقهن)» . انتهى . يعني : أن التقدير : والليل والنهار والشمس والقمر آيات من آياته فعاد الضمير على آيات الجمع المقدر في المجرور . وقيل : يعود على الآيات المتقدم ذكرها . وقيل : على الشمس والقمر ، والاثنان جمع وجمع ما لا يعقل يؤث . ومن حيث يقال : شمس وأقمار لاختلافهما بالأيام والليالي ساع أن يعود الضمير مجموعاً (إن كنتم إياه تعبدون) أي : إن كنتم موحدين غير مشركين . والسجدة عند الشافعي عند قوله (تعبدون) وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها . وعند أبي حنيفة عند قوله (لا يسأمون) لأنها تمام المعنى . وفي التحرير : «كان علي وابن مسعود يسجدان عند (تعبدون) وقال ابن وهب والشافعي عنه (يسأمون) وبه قال أبو حنيفة وسجد عندها ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو وائل ، وبكر بن عبد الله ، وكذلك روي عن مسروق ، والسلمي ، والنخعي ، وأبي صالح ، وابن سيرين» انتهى ملخصاً . (فإن استكبروا) أي : تعاضموا على اجتناب ما نهيت من السجود لهذين المحدثين المرئيين وامتنال ما أمرت به من السجود للخالق لمن فإن الملائكة الذين هم عند الله بالمكانة والرتبة الشريفة ينزهونه عن ما لا يليق بكربياته (وهم لا يسأمون<sup>(٢)</sup>) أي : لا يملون ذلك ، وهم خير منكم ، مع أنه تعالى غني عن عبادتكم وعبادتهم ، ولما ذكر شيئاً من الدلائل العلوية ذكر شيئاً من الدلائل السفلية فقال (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) أي : غرباء دارسة كما قال :

ونؤي كجذم الحوض أبلم خاشع

استعير الخشوع لها وهو التذلل لما ظهر بها من القحط ، وعدم النبات ، وسوء العيش عنها ، بخلاف أن تكون معشبة ، وأشجاراً مزهرة ومثمرة ، فذلك هو حياتها . وقال السدي : «خاشعة ميتة يابسة» . وتقدم الكلام على قوله (فإذا أنزلنا عليها

(١) انظر شرح المفصل لابن يعيش (١٠٥/٥ - ١٠٦) الصبان (١٩/١) روح المعاني (٢٤/١٢٥) .

(٢) سئم الشيء وسئمه منه ، والسامة : الليل والضجر . لسان العرب ٣/١٩٠٧ .

الماء اهتزت وربت) تفسيراً وقراءة في أوائل سورة الحج . (إن الذي أحيأها لمحيي الموق) يرد الأرواح إلى الأجساد (إنه على كل شيء قدير) لا يعجزه شيء تعلقت به إرادته .

﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خيراً أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير، إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم، ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد، ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ .

لما بين تعالى أن الدعاء إلى دين الله أعظم القربات، وأنه يحصل ذلك بذكر دلائل التوحيد، والعدل، والبعث، عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات، ويجادل، فقال (إن الذين يلحدون في آياتنا) وتقدم الكلام على الإلحاد في قوله ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائهم﴾ [الأعراف ١٨٠] وذكر تعالى أنهم لا يخفون عليه، وفي ذلك تهديد لهم . وقال قتادة هنا: «الإلحاد التكذيب» . ومجاهد: «المكاء والصفير واللغو»، وقال ابن عباس: «وضع الكلام غير موضعه»، وقال أبو مالك: «يميلون عن آياتنا»، وقال السدي: «يعاندون رسلنا فيما جاؤوا فيه من البينات والآيات» . ثم استفهم تقريراً (فمن يلقى في النار بإلحاده في آياتنا خيراً أم من يأتي آمناً) ولا اشتراك بين الإلقاء في النار والإتيان آمناً، لكنه كما قلنا استفهام تقرير كما يقرر المناظر خصمه على وجهين، أحدهما: فاسد . يرجو أن يقع في الفاسد فيتضح جهله ونبه بقوله (يلقى في النار) على مستقر الأمر وهو الجنة ويقوله (آمناً) على خوف الكافر وطول وجله . وهذه الآية قال ابن بحر: عامة في كل كافر ومؤمن . وقال مقاتل: «نزلت في أبي جهل، وعثمان بن عفان»، وقيل: فيه، وفي عمار بن ياسر»، وقيل فيه، وفي عمر»، وقيل: في أبي جهل، وهزرة ابن عبد المطلب» . وقال الكلبي: «وأبو جهل والرسول - ﷺ -» . ولما تقدم ذكر الإلحاد ناسب أن يتصل به من التقرير من اتصف به . ولم يكن التركيب أم من يأتي آمناً يوم القيامة كمن يلقى في النار كما قدم ما يشبهه في قوله ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ [الرعد: ١٩] وكما جاء في سورة القتال ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾ [محمد ١٤] (اعملوا ما شئتم) وعيد وتهديد بصيغة الأمر، ولذا جاء (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم بأعمالكم . (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) هم: قريش ومن تابعهم من الكفار غيرهم . (والذكر) القرآن . هو بإجماع . وخبر إن اختلفا فيه أمذكور هو أو محذوف . فقيل: مذكور وهو قوله: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت: ٤٤] وهو قول أبي عمرو بن العلاء في حكاية جرت بينه وبين بلال بن أبي بردة سئل بلال في مجلسه عن هذا فقال: لم أجد لها نفاذاً فقال له أبو عمرو وإنه منك لقريب (أولئك ينادون)، وقال الحوفي: «ويرد على هذا القول كثرة الفصل وأنه ذكر هناك من تكون الإشارة إليهم وهو قوله: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون﴾ [فصلت: ٤٤] وقيل: محذوف . وخبر إن يحذف لفهم المعنى . وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن ذلك فقال عمرو معناه في التفسير (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) - كفروا به - (وإنه لكتاب) فقال عيسى أجدت يا أبا عثمان . وقال قوم: تقديره . معاندون أو هالكون . وقال الكسائي: «قد سد مسده ما تقدم من الكلام قبل إن وهو قوله (أفمن يلقى في النار) انتهى» . كأنه يريد دل عليه ما قبله فيمكن أن يقدر: يخلدون في النار . وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: (فإن قلت: ) بم اتصل قوله (إن الذين كفروا بالذكر)؟ (قلت: )

هو بدل من قوله (إن الذين يلحدون في آياتنا) انتهى . ولم يتعرض بصريح الكلام في خبر (إن) أمذكور هو أو محذوف . لكن قد ينتزع من كلامه هذا أنه تكلم فيه بطريق الإشارة إليه لأنه ادعى أن قوله (إن الذين كفروا بالذكر) بدل من قوله (إن الذين يلحدون) فالمحكوم به على المبدل منه هو المحكوم به على البدل، فيكون التقدير: إن الذين يلحدون في آياتنا. إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لا يخفون علينا. وقال ابن عطية: «والذي يحسن في هذا هو إضمار الخبر بعد (حكيم، حميد) وهو أشد إظهاراً، لأن قوله (وإنه لكتاب عزيز) داخل في صفة الذكر المكذب به فلم يتم ذكر المخبر عنه إلا بعد استيفاء وصفه» . انتهى . وهو كلام حسن . والذي أذهب إليه أن الخبر مذكور لكنه حذف منه عائد يعود على اسم (إن) وذلك في قوله (لا يأتيه الباطل) أي: الباطل منهم . أي: الكافرون به وحاله هذه لا يأتيه باطلهم . أي: متى راموا فيه أن يكون ليس حقاً ثابتاً من عند الله وإبطالاً لم يصلوا إليه، أو تكون (أل) عوضاً من الضمير على قول الكوفيين . أي: لا يأتيه باطلهم . أو يكون الخبر قوله (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أي: أوحى إليك في شأن هؤلاء المكذبين لك ولما جئت به مثل ما أوحى إلي من قبلك من الرسل، وهو أهم عقبتهم سيئة في الدنيا بالهلاك، وفي الآخرة بالعذاب الدائم . وغاية ما في هذين التوجيهين حذف الضمير العائد على اسم (إن) وهو موجود نحو قوله: «السمن منوان بدرهم» . أي: منوان منه . و«البركر بدرهم» . أي: كر منه . وعن بعض نحاة الكوفة الخبر في قوله (وإنه لكتاب عزيز) وهذا لا يتعقل (وإنه لكتاب عزيز) جملة حالية . كما تقول: جاء زيد وإن يده على رأسه . أي: كفروا به وهذه حاله . وعزته كونه عديم النظر لما احتوى عليه من الإعجاز الذي لا يوجد في غيره من الكتب أو غالب ناسخ لسائر الكتب والشرائع . وقال ابن عباس: «عزيز كريم على الله تعالى» . وقال مقاتل: «ممتنع من الشيطان»، وقال السدي: «غير مخلوق» . وقيل: وصف بالعزة، لأنه لصحة معانيه ممتنع الطعن فيه، والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله (لا يأتيه الباطل) من جعل خبر (إن) محذوفاً أو قوله (أولئك ينادون) كانت هذه الجملة في موضع الصفة على ما اخترناه من أحد الوجهين تكون الجملة في موضع خبر (إن) والمعنى: أن الباطل لا يتطرق إليه (من بين يديه ولا من خلفه) تمثيل . أي: لا يجد الطعن سبيلاً إليه من جهة من الجهات فيتعلق به، وأما ما ظهر من بعض الحمقى من الطعن فيه على زعمهم، ومن تأويل بعضهم له كالباطنية فقد رد عليهم ذلك علماء الإسلام وأظهروا حماقتهم . وقال قتادة: «(الباطل) الشيطان . واللفظ لا يخص الشيطان» . وقال ابن جبير، والضحاك: «(من بين يديه) أي: كتاب من قبله فيبطله، ولا من بعده<sup>(١)</sup>» . فيكون على هذا الباطل في معنى المبطل، نحو: أورس النبات فهو وارس . أي: مورس . أو يكون الباطل بمعنى المبطل مصدرأ، فيكون كالعافية، وقيل (من بين يديه) أي: قبل أن يتم نزوله (ولا من خلفه) من بعد نزوله، وقيل: عكس هذا . وقيل: (من بين يديه) قبل أن ينزل لأن الأنبياء بشرت به فلم يقدر الشيطان أن يدحض ذلك (ولا من خلفه) بعد أن أنزل . وقال الطبري (من بين يديه) لا يقدر ذو باطل أن يكيد بتغيير، ولا تبديل (ولا من خلفه) لا يستطيع ذو باطل أن يلحد فيه (تنزيل) أي هو تنزيل (من حكيم) أي: حاكم، أو محكم لمعانيه (حميد) محمود على ما أسدى لعباده من تنزيل هذا الكتاب وغيره من النعم . (ما يقال لك) (يقتل) مبني للمفعول فاحتمل أن يكون القائل الله تعالى كما تقدم تأويلها فيه . أي: ما يوحى إليك الله إلا مثل ما أوحى إلى الرسل في شأن الكفار كما تأولناه على أحد الوجهين، أو في الشرائع . وجوزوا على أن القائل هو الله أن يكون (إن ربك) تفسير لقوله (ما قد قيل) فالمقول (إن ربك) لذنو مغفرة للطائعين (وذو عقاب أليم) للعاصين . وهذا التأويل فيه بعد، لأنه حصر ما أوحى الله إليه وإلى الرسل في قوله (إن ربك لذنو منفرة وذو عقاب أليم) وهو تعالى قد أوحى إليهم أشياء كثيرة، فإذا أخذناه على الشرائع أو على عاقبة المكذبين، كان الحصر صحيحاً، وكان قوله تعالى (إن ربك) استثناء إخبار عنه تعالى لا تفسير له (ما قد قيل) ويحتمل أن يكون

(١) انظر البغوي ١١٦/٤ والقرطبي ٥٨١١/٧ والوسيط ٣٠ خ وزاد المسير ٢٦٢/٧ .

القائل: الكفار. أي: ما يقول لك كفار قومك إلا ما قد قال كفار الرسل لهم من الكلام المؤذي، والطعن فيما أنزل الله عليهم من الكتب. ثم أخبر تعالى أنه (ذو مغفرة) (وذو عقاب أليم) وفيه الترجئة بالغفران، والزجر بالعقاب، وهو وعظ وتهديد. وقال قتادة: «عزى الله نبيه وسلاهُ بقوله (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) ومثله ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾<sup>(١)</sup> [الذاريات: ٥٢].

ولما ذكر تعالى الملحددين في آياته وأنهم لا يخفون عليه والكافرين بالقرآن ما دل على تعنتهم، وما ظهر من تكذيبهم، وقولهم هل أنزل بلغة العجم فقال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً) أي: لا يفصح، ولا تبين معانيه لهم، لكونه بلغة العجم، أو بلغة غير العرب لم يتركوا الاعتراض، ولقالوا (لولا فصلت آياته) أي: بينت لنا وأوضحت حتى نفهمها. وقرأ الجمهور (أعجمي) بهمزة الاستفهام بعدها مده هي همزة (أعجمي) وقياسها في التخفيف التسهيل بين بين. وقرأ الإخوان، والأعمش، وحفص بهمزتين. أي: وقالوا - منكرين - : أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي. وتأوله ابن جبير أن معنى قوله (أعجمي) ونحن عرب مالنا وللعجمة. وقال ابن عطية: «لأنهم ينكرون ذلك فيقولون: لولا بين أعجمي وعربي مختلط هذا لا يحسن». انتهى. ولا يصح هذا التقسيم، لأنه بالنسبة للقرآن. وهم إنما قالوا ما دل عليه قوله تعالى (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً) من اقتراحهم أن يكون أعجمياً ولم يقترحوا أن يكون القرآن أعجمياً وعربياً. وقرأ الحسن، وأبو الأسود، والجحدري، وسلام، والضحاك، وابن عباس، وابن عامر بخلاف عنها (أعجمي وعربي) دون استفهام وسكون العين، فقليل معناه: أنهم قالوا: أعجمة وإعراب إن هذا لثاذا. وقال ابن جبير: «معناه: لولا فصل فصلين فكان بعضه أعجمياً يفهمه العجم وبعضه عربياً يفهمه العرب». وقال صاحب اللوامح: «لأنهم لما قالوا (لولا فصلت آياته) أعادوا القول ثانياً فقالوا (أعجمي) وأضمر المبتدأ، أي: هو أعجمي، والقرآن أو الكلام أو نحوها. والذي أتى به أو الرسول عربي كأنهم كانوا ينكرون ذلك. وقرأ عمرو بن ميمون (أعجمي) بهمزة استفهام وفتح العين، والمعنى: أن القرآن لو جاء على طريقة كائنة ما كانوا تعنتوا، لأنهم لا يطلبون الحق، وقال صاحب اللوامح: «والعجمي: المنسوب إلى العجم. والياء للنسب على الحقيقة وأما إذا سكنت العين فهو الذي لا يفصح، والياء فيه بلفظ النسب دون معناه، فهو بمنزلة ياء كرسى وبختي، والله أعلم». انتهى وليست كياء كرسى بنيت الكلمة عليها وياء أعجمي لم تبين الكلمة عليها. تقول العرب رجل أعجم ورجل أعجمي فالياء للنسبة الدالة على المبالغة في الصفة، نحو: أحمرى ودواري مبالغة في أحمر ودوار. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «(فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب؟) قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجمياً كتب إلى قوم من العرب، يقول: أكتب أعجمي والمكتوب إليه عربي، وذلك لأن نسخ الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد وجماعة فوجب أن مجرد لما سبق له من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر، ألا تراك تقول، وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة اللباس طويل واللباس قصير، ولو قلت واللباس قصيرة جئت بما هو لكينة وفضول قول، لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللباس وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما». انتهى. وهو حسن إلا أن فيه تكثيراً على عادته في حب الشقشقة<sup>(٣)</sup> والتفهيق<sup>(٤)</sup>. (قل هو) أي: القرآن (للذين

(١) انظر الطبري ٧٩/٢٤ والبغوي ١١٦/٤ وابن كثير ٢٠٢/٤ وزاد المسير ٢٦٣/٧، والوسيط ٣٠ خ.

(٢) انظر الكشاف ٢٠٢/٤.

(٣) الشقشقة: قال أبو منصور شبه الذي يتفهيق في كلامه ويسرده سرداً لا يبالي ما قال من صدق أو كذب بالشیطان وإسقاطه ربه والعرب تقول للخطيب الجهر الصوت الماهر بالكلام هو أهرت الشقشقة وهريت الشدق.

لسان العرب (٤/٢٣٠٣)

لسان العرب (٥/٣٤٨٠)

(٤) التفهيق: الفهيق الواسع من كل شيء وقال ابن الأعرابي: كل شيء توسع فقد تفهيق.



آمنوا هدى وشفاء) هُدى: أي: إرشاد إلى الحق (وشفاء) أي: لما في الصدور من الظن والشك. والظاهر: أن (والذين لا يؤمنون) مبتدأ (وفي آذانهم وقر) هو موضع الخبر. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «هو (في آذانهم وقر) على حذف المبتدأ لما أخبر أنه هدى وشفاء للمؤمنين أخبر أنه وقر وصمم في آذانهم. أي: الكافرين. ولا يضطر إلى إضمار هو فالكلام تام دونه. أخبر أن في آذانهم صمماً عن سماعهم. ثم أخبر أنه عليهم عمى يمنهم من إضمار حكمته، والنظر في معانيه، والتقرير لآياته. وجاء بلفظ (عليهم) الدالة على استيلاء العمى عليهم، وجاء في حق المؤمنين باللام الدالة على الاختصاص. وكون (الذين) في موضع جر عطفاً على قوله (للذين آمنوا) والتقدير: وللذين لا يؤمنون وقر في آذانهم. إعراب متكلف. وهو من العطف على عاملين، وفيه مذاهب كثيرة في النحو، والمشهور منع ذلك. وقرأ الجمهور (عمى) بفتح الميم منوناً مصدر عَمِيَ، وقرأ ابن عمرو، وابن عباس، وابن الزبير، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وابن هرمز (عم) بكسر الميم وتنوينه، وقال يعقوب القاري وأبو حاتم: «لا تدري نونوا أم فتحوا الياء على أنه فعل ماضٍ، وبغير تنوين رواها عمرو بن دينار، وسليمان بن قتيبة عن ابن عباس. والظاهر: أن الضمير في (وهو عليهم) عائد على القرآن. وقيل: يعود على الوقر (أولئك) إشارة إلى (الذين لا يؤمنون) ومن جعله خبر لـ (إن الذين كفروا) كانت الإشارة إليهم (ينادون من مكان بعيد) قيل: هو حقيقة، قال الضحاك: «ينادون بكفرهم، وقبح أعمالهم، بأفبح أسمائهم من بعد، حتى يسمع ذلك أهل الموقف، فتعظم السمعة عليهم ويحل المصاب». وقال علي، ومجاهد: «استعارة لقلّة فهمهم. شبههم بالرجل ينادى من بعد، فيسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله، ولا معانيه». وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي لا يفهم: أنت تنادي من بعيد. أي: كأنه ينادي من موضع بعيد فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وحكى النقاش: «كأنما ينادون من السماء». (ولقد آتينا موسى الكتاب) تسلياً للرسول في كون قومه اضطربوا فيما جاء به من الذكر، فذكر أن موسى - عليه السلام - أوتي الكتاب. وهو التوراة (فاختلف فيه) وتقدم شرح هذه الآية في أواخر سورة هود - عليه السلام - والكلام على نظير (وما ربك بظلام للعبيد) في قوله في سورة الحج (وأن الله ليس بظلام للعبيد).

﴿إليه يردّ علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد، وضل عنهم ما كانوا يَدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص، لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ، وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض، قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد، سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد، ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾. لما ذكر تعالى من (عمل صالحاً) الآية. كان في ذلك دلالة على الجزاء يوم القيامة. وكان سائلاً قال: ومتى ذلك؟ فقيل: لا يعلمها إلا الله. ومن سئل عنها فليس عنده علم بتعين وقتها، وإنما يريد ذلك إلى الله. ثم ذكر سعة علمه وتعلقه بما لا يعلمه إلا هو تعالى. وقرأ أبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وقتادة، والحسن بخلاف عنه، ونافع، وابن عامر - في غير رواية. أي: جلية والمفضل، وحفص، وابن مقسم، (من ثمرات) على الجمع. وقرأ باقي السبعة، والحسن في رواية طلحة والأعمش بالافراد. ولما كان ما يخرج من أكمام<sup>(٢)</sup> الشجرة وما تحمل الإنان وتضعه، هو إيجاد أشياء بعد العدم، ناسب أن يذكر مع علم الساعة إذ في ذلك دليل على البعث إذ هو إعادة بعد إعدام.

(١) انظر الكشف ٢٠٣/٤.

(٢) أكمام: في حديث الاستسقاء: على الأكمام والظراب ومنابت الشجر، الأكمام جمع أكمة وهي الرابية.

وناسب ذكر أحوال المشركين في ذلك اليوم وسؤالهم سؤال التوبيخ فقال (ويوم يناديهم أين شركائي) أي : الذين نسبتهم إليّ وزعمتم أنهم شركاء لي . وفي ذلك تمكّم بهم وتقريع . والضمير في (يناديهم) عام في كل من عبد غير الله . فيندرج فيه عباد الأوثان . (قالوا أذنالك) أي : أعلمناك، قال الشاعر :

أَدْنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ رَبِّ نارٍ وَيَمَلُّ مِنْهُ الشَّوَاءُ

وقال ابن عباس : «أسمعناك» . كأنه استبعد الإعلام لله لأن أهل القيامة يعلمون أن الله يعلم الأشياء علماً واجباً، فالإعلام في حقه محال . والظاهر : أن الضمير في (قالوا) عائد على المنادين ، لأنهم المحدث معهم (ما منا) أحد اليوم وقد أبصرنا ، وسمعنا ، يشهد أن لك شريكاً ، بل نحن موحدون لك . وما منا أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم ، وضلت عنهم آفتهم ، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ . وقيل : الضمير في (قالوا) عائد على الشركاء . أي : قالت الشركاء (ما منا من شهيد) بما أضافوا إلينا من الشرك . و(أذنالك) معلق : لأنه بمعنى الإعلام . والجمله من قوله (ما منا من شهيد) في موضع المفعول . وفي تعليق باب أعلم رأينا خلافه . والصحيح أنه مسموع من كلام العرب . والظاهر : أن قولهم (أذنالك) إنشاء كقولك : أسمت لأضرين زيداً . وإن كان إخباراً سابقاً ، فتكون إعادة السؤال توبيخاً لهم . (وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل) أي : نسوا ما كانوا يقولون في الدنيا ، ويدعون من الآلهة . أو (وضل عنهم) أي : تَلَفَّتْ أصنامهم وتلاشت ، فلم يجدوا منها نصراً ولا شفاعة . (وظنوا) أي : أيقنوا . قال السدي «(ما لهم من محيص) أي : من حيدة ورواغ من العذاب . والظاهر : أن (ظنوا) معلقة . والجمله المنفية في موضع مفعولي (ظنوا) . وقيل : تم الكلام عند قوله (وظنوا) أي : وترجح عندهم أن قولهم (ما منا من شهيد) منجاة لهم ، أو أمر يموهون به . والجمله بعد ذلك مستأنفة ، أي : يكون لهم منجاة أو موضع روغان . (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير) هذه الآيات نزلت في كفار . قيل : في الوليد بن المغيرة . وقيل : في عتبة بن ربيعة ، وكثير من المسلمين يتصفون بوصف أولها من دعاء الخير . أي : من طلب السعة ، والنعمة و(دعاء) مصدر مضاف للمفعول . وقرأ عبد الله (من دعاء بالخير) بياء داخله على الخير . وفاعل المصدر محذوف تقديره (من دعاء للخير) وهو (إن مسه الشر) أي : الفقر والضيق . (فيؤوس) أي : فهو يؤوس قنوط . وأتى بهما صيغتي مبالغة . واليأس : من صفة القلب وهو أن يقطع رجاءه من الخير . والقنوط : أن يظهر عليه آثار اليأس فيتضاءل وينكسر . وبدأ بصيغة القلب ، لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار . (ولئن أذقناه رحمة منا) سمي النعمة رحمة إذ هي من آثار رحمة الله . (من بعد ضراء مسته ليقولن هذا إلي) أي : بسعي واجتهادي ولا يراها أنها من الله أو هذا لي لا يزول عني . (وما أظن الساعة قائمة) أي : ظننا أننا لا نبعث وأن ما جاءت به الرسل من ذلك ليس بواقع ، كما قال تعالى حكاية عنهم ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ [الجنائية : ] (ولئن رجعت إلى ربي) ولئن كان كما أخبرت الرسل (إن لي عنده) أي : عند الله (للحسنى) أي : الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة ، كما أنعم علي في الدنيا . وأكدوا ذلك باليمين وبتقديم (لي عنده) على اسم (إن) وتدخل لام التأكيد عليه أيضاً ، وبصيغة الحسنى يؤنث الأحسن الذي هو أعمل التفضيل ، ولم يقولوا للحسنة . أي : الحالة الحسنة . وقال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - : «للكافر أمينان ، أما في الدنيا : فهذه (إن لي عنده للحسنى) وأما في الآخرة . ف(يا ليتني كنت تراباً) (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) من الأفعال السيئة ، وذلك كناية عن جزائهم بأعمالهم السيئة . (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) في مقابلة (إن لي عنده للحسنى) وكفى بغليظ العذاب عن شدته . (وإذا أنعمنا) تقدم الكلام على نظير هذه الجملة في سبحان إلا أن في أواخر تلك (كان يؤوساً) وآخر هذه (فدو دعاء عريض) أي : فهو ذو دعاء بإزالة الشر عنه ، وكشف ضره . والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة . يقال : أطال فلان في الظلم وأعرض في الدعاء إذا أكثر . أي : فدو تضرع واستغاثة . وذكر تعالى في هذه الآية نوعاً من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة ، وإذا مسه الشرا بهل إلى الله وتضرع . (قل أرأيتم إن كان) أي القرآن (من عند الله) أبرزه في صورة الاحتمال وهو

من عند الله بلا شك، ولكنه تنزل معهم في الخطاب. والضمير (في رأيتم) لكفار قريش. وتقدم أن معنى (أرأيتم) أخبروني عن حالكم إن كان هذا القرآن من عند الله (وكفرتم به) وشاقتكم في اتباعه - (من أضل) منكم إذ أنتم المشاقون فيه، والمعرضون عنه، والمستهزون بآيات الله. وتقدم أن (أرأيتم) هذه تتعدى إلى مفعول مذكور أو محذوف وإلى ثاني الغالب فيه أن يكون جملة استفهامية. فالمفعول الأول محذوف. تقديره: أرأيتم أنفسكم. والثاني: هو جملة الاستفهام إذ معناه: من أضل منكم أيها الكفار إذ مآلكم إلى الهلاك في الدنيا والآخرة. ثم توعدهم بما هو كائن لا محالة، فقال (سنريهم آياتنا في الآفاق)، قال أبو المنهال، والسدي، وجماعة: «هو وعيد للكفار بما يفتحه الله على رسوله من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخيبر» (وفي أنفسهم) أراد به فتح مكة، وتضمن ذلك الإخبار بالغيب ووقع كما أخبر. وقال الضحاك وقتادة: «(في الآفاق) ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً (وفي أنفسهم) يوم بدر». وقال عطاء، وابن زيد: «(في آفاق السماء، وأراد الآيات في الشمس، والقمر، والرياح، وغير ذلك. (وفي أنفسهم) عبرة الإنسان بجسمه، وحواسه، وغريب خلقته، وتدرجيه في البطن. ونحو ذلك». ونهوا بهذين القولين عن لفظ (سنريهم) لأن هلاك الأمم المكذبة قديماً، وآيات الشمس والقمر وغير ذلك، قد كان ذلك كله مريباً لهم. فالقول الأول أرجح. وأخذ الزمخشري هذا القول وذيله فقال: «يعني ما يسر الله عز وجل لرسول الله ﷺ - وللخلفاء من بعده، وأنصار دينه في آفاق الدنيا، وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية العرب خصوصاً، من الفتح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلق الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبارة، والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن اليهود، خارقة للعادة، ونشر دعوة الإسلام في الأقطار المعمورة، وبسط دولته في أقاصيها. والاستقراء يطلعك في التواريخ، والكتب المدونة في مشاهد أهلها وأيامهم على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علماً من أعلام الله، وآية من آياته، تقوى معها النفس، ويزداد بها الإيمان، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر خبيث مغالط نفسه». انتهى. ما كتبه مقتصراً عليه. (حتى يتبين لهم أنه) أي: القرآن، وما تضمنه من الشرع هو (الحق) إذ وقع وفق ما أخبر به من الغيب (بربك) الباء زائدة. التقدير: أولم يكفك أو يكفهم ربك. (وأنه على كل شيء شهيد) بدل من (ربك) أما حالة كونه مجرور بالباء فيكون بدلاً عن اللفظ، وأما حالة مراعاة الموضع فيكون بدلاً عن الموضع. وقيل: إنه على إضمار الحرف. أي: أولم يكف ربك بشهادته، فحذف الحرف وموضع أن على الخلاف. أهو في موضع نصب أو في موضع جر. ويعد قول من جعل (بربك) في موضع نصب وفاعل (كفى) أن وما بعدها. والتقدير عنده: أولم يكف ربك شهادته. وقرئ (إن) بكسر الهمزة على إضمار القول. (والأ) استفتاح تنبه السامع على ما يقال، وقرأ السلمي، والحسن (في مؤية) بضم الميم. وإحاطته تعالى بالأشياء: علمه بها جملة وتفصيلاً، فهو يجازيهم على كفرهم، ومريتهم في لقاء ربهم.



بَعْدَ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحْمُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٢﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا  
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ  
﴿١٣﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ  
لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٥﴾ أَمْ لَهُمْ  
شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ  
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ  
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ  
الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا  
الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا  
فَإِن يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا لِلصُّدُورِ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الَّذِي  
يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا ﴿٢٠﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثَ فِي  
الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا  
وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ  
عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ  
﴿٢٦﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٧﴾

ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار  
شكور ركد الشيء ثبت في مكانه وقد قال الشاعر:

وَقَدْ رَكَدَتْ وَسَطَ السَّمَاءِ نُجُومُهَا رُكُوداً يُوَارِي الرُّرْبَ الْمُتَفَرِّقَ <sup>(١)</sup>

﴿حَمَّسْتُ كَذَلِكَ يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ  
الْعَظِيمُ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

(١) البيت من الخفيف للحارث بن حلزة انظر الخصائص (١/٢٤١) السبع الطوال (٤٣٣) شواهد الشافية (٢٤٤).

الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ، وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ، ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمة والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ، أن اتخذوا من دونه أولياء فأنه هو الولي وهو يحيي الموت وهو على كل شيء قدير ، وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴿

هذه السورة مكية في قول الحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، وجابر . وقال ابن عباس : مكية إلا أربع آيات ، من قوله (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) إلى آخر الأربع آيات فإنها نزلت بالمدينة . وقال مقاتل : فيها مدني . قوله : (ذلك الذي يبشر الله عباده) إلى (الصدور) ، ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها : أنه قال : ﴿قل أرايتم إن كان من عند الله﴾ [فصلت : ٥٢] الآية . وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به . قال هنا (كذلك) أي : مثل الإجماع السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء (يوحي إليك) أي : إن وحيه تعالى إليك متصل غير منقطع ، يتعهدك وقتاً بعد وقت . وذكر المفسرون في (جمعسق) أقوالاً مضطربة لا يصح منها شيء كعادتهم في هذه الفواتح ضربنا عن ذكرها صفحاً ، وقرأ الجمهور (يُوحى) مبنياً للفاعل . وأبو حيوة ، والأعشى عن أبي بكر ، وأبان (تُوحى) بنون العظمة . ومجاهد ، وابن كثير ، وعباس ، ومحبوب ، كلاهما عن أبي عمرو (يُوحى) مبنياً للمفعول . (والله) مرفوع بمضمر تقديره أوحى . أو بالابتداء . التقدير «الله العزيز الحكيم الموحى» . وعلى قراءة (نوحى) بالنون يكون (الله العزيز الحكيم) مبتدأ وخبراً (ويوحى) إما في معنى أوجب . حتى ينظم قوله (وإلى الذين من قبلك) أو يقرأ على موضوعه ويضمر عامل يتعلق به (إلى الذين) تقديره : وأوحى الذين من قبلك . وتقدم الكلام على (تكاد السموات يتفطرن) في سورة مريم قراءة وتفسيراً . وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> : «وروى يونس عن أبي عمرو قراءة عربية (تتفطرن) بتاءين مع النون . ونظيرها حرف نادر . روى في نوادر ابن الأعرابي الإبل تتشمن» انتهى . والظاهر : أن هذا وهم من الزمخشري في النقل ، لأن ابن خالويه ذكر في شواذ القراءات له ما نصب : «تفطرن بالتاء والنون يونس عن أبي عمرو» . وقال ابن خالويه : «هذا حرف نادر ، لأن العرب لا تجمع بين علامتي التأنيث . لا يقال : النساء تقمن ولكن يقمن» (والوالدات يرضعن) [البقرة : ٢٣٣] ، قد كان أبو عمر الزاهد روى في نوادر ابن الأعرابي : الإبل تتشمن . فأنكرناه فقد قواه ، لأن هذا كلام ابن خالويه فإن كانت نسخ الزمخشري متفقة على قوله بتاءين مع النون فهو وهم ، وإن كان في بعضها بناء مع النون كان موافقاً لقول ابن خالويه . وكان بتاءين تحريفاً من النسخ ، وكذلك كتبهم (تتفطرن) (وتتشمن) بتاءين . والظاهر : عود الضمير في (فوقهن) على (السموات) ، قال ابن عطية : «من أعلاهن» ، وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup> : «ينفطرن من علو شأن الله تعالى وعظمته ، ويدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم . وقيل : من دعائهم له ولداً كقولهم (تكاد السموات ينفطرن منه) (فإن قلت : لم قال (من فوقهن) ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدناها على الجلال والعظمة فوق السموات وهي العرش ، والكرسي ، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح ، والتفديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال (ينفطرن من فوقهن) أي : يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية» . وقال جماعة منهم الحوفي ، قال (من فوقهن) والهاء والنون ، كناية عن الأرضين» . انتهى (من فوقهن) متعلق بـ (تتفطرن) ويدل على هذا القول ذكر الأرض قبل . وقال علي بن سليمان الأخفش : «الضمير للكفار ، والمعنى من فوق الفرق والجماعات

(١) انظر (١٧١٦/٣) لسان العرب .

(٢) انظر الكشاف ٢٠٩/٤ .

الملحدة . أي : من أجل أقوالها . انتهى . فهذه الآية كالذي في سورة مريم . واستبعد مكي هذا القول قال : « لا يجوز في الذكور من بني آدم يعني ضمير المؤنث » . والاستشعار ما ذكره مكي قال علي بن سليمان : « من فوق الفرق والجماعات » . وظاهر (الملائكة) العموم . وقال مقاتل : « جملة العرش » . والتسبيح : قيل قوهم : سبحان الله ، وقيل : يهللون . والظاهر في (يستغفرون) طلب الغفران . و(لأهل الأرض) عام مخصوص بقوله (ويستغفرون للذين آمنوا) قاله السدي . وقيل : عام . ومعنى الاستغفار : طلب الهداية المؤدية إلى المغفرة ، كأنهم يقولون : اللهم اهد أهل الأرض فاغفر لهم . ويدل عليه وصفه بالغفران والرحمة والاستفتاح . وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> : « ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار لهم : طلب الحلم والغفران في قوله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إلى أن قال : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ [الإسراء : ٤٤] وقوله ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ [الرعد ٦] والمراد الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاماً . انتهى . وتكلم أبو عبد الله الرازي في قوله (تكاد السموات) كلاماً خارجاً عن مناحي مفهومات العرب ، منتزعاً عن كلام الفلاسفة ومن جرى مجراهم . يوقف على ذلك في كتابه . (والذين اتخذوا من دونه أولياء) أي : أصناماً وأوثاناً (الله حفيظ عليهم) أي : على أعمالهم ومجازهم عليها (وما أنت عليهم بوكيل) أي : بمفوض إليك أمرهم ، ولا قائم . وما في هذا من الموادعة منسوخ بآية السيف . (وكذلك) أي : ومثل هذا الإيجاء والقضاء إنك لست بوكيل عليهم (أوحينا إليك قرآناً عربياً) والظاهر : أن (قرآناً) مفعول (أوحينا) ، وقال الزمخشري : « الكاف مفعول به . أي : أوحيناه إليك . وهو قرآن عربي لا ليس فيه عليك إذ نزل بلسانك » . انتهى . فاستعمل الكاف اسماً في الكلام ، وهو مذهب الأخفش . (لتنذر أم القرى) مكة . أي : أهل أم القرى . (وكذلك) المفعول الأول محذوف . والثاني هو (يوم الجمع) أي : اجتماع الخلائق . والمُنذر به : هو ما يقع في يوم الجمع من الجزاء ، وانقسام الجمع إلى الفريقين ، أو اجتماع الأرواح بالأجساد . أو أهل الأرض بأهل السماء . أو الناس بأعمالهم . أقوال أربعة (لينذر) بياء الغيبة . أي : لينذر القرآن (لا ريب فيه) أي : لا شك في وقوعه . وقال الزمخشري « (لا ريب فيه) اعتراض لا محالة » . انتهى . ولا يظهر أنه اعتراض . أعني صنعياً ، لأنه لم يقع بين طالب ومطلوب ، وقرأ الجمهور (فريق) بالرفع فيهما . أي : هم فريق ، أو منهم فريق . وقرأ زيد بن عليّ بنصبهما . أي : افترقوا فريقاً كذا ، وفريقاً في كذا . ويدل على الافتراق الاجتماع المفهوم من (يوم الجمع) (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) يعني من إيمان ، أو كفر . قال معناه الضحاك . وهو قول أهل السنة . وذلك تسلية للرسول كما كان يقاسيه من كفر قومه ، وتوقيف على أن ذلك راجع إلى مشيئته ، ولكن من سبقت له السعادة أدخله في رحمته . وقال الزمخشري : « (لجعلهم أمة واحدة) أي : مؤمنين كلهم على القسر والإكراه كقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة : ١٣] وقوله : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ [يونس : ٩٩] والدليل على أن المعنى هو الإيجاء إلى الإيمان قوله : ﴿ أفأنت تكفر بالذين آمنوا وبعثنا فيهم رسلاً منهم فآبىءوا بالإسلام ﴾ [يونس : ٩٩] وذكر ما ظنه استدلالاً على ذلك وهو على طريق الاعتزال . وقال أنس بن مالك « (في رحمته) في دين الإسلام » (أم اتخذوا من دونه أولياء) (أم) بمعنى بل للانتقال من كلام إلى كلام . والهمزة للإنكار عليهم اتخاذ أولياء من دون الله . وقيل : (أم) بمعنى الهمزة فقط . وتقدم الكلام على مثل هذا حيث جاءت (أم) المنقطعة . والمعنى : اتخذوا أولياء دون الله وليسوا بأولياء حقيقة (فإن الله هو الولي) والذي يجب أن يتولى وحده ، لا ما لا يضر ولا ينفع من أوليائهم . ولما أخبر أنه هو الولي عطف عليه هذا الفعل الغريب الذي لا يقدر عليه غيره وهو إحياء الموتى . ولما ذكر هذا الوصف ذكر قدرته على كل شيء تتعلق إرادته به . وقال الزمخشري : « (في قوله (فإن الله هو الولي) والفاء في قوله (فإن الله هو الولي) جواب شرط مقدر ، كأنه قيل

(١) انظر الكشاف ٢٠٩/٤ .

(٢) انظر الكشاف ٢٠٩/٤ .

بعد إنكار كل ولي سواه وإن أرادوا ولياً بحق فالله هو الولي بالحق لا ولي سواه». انتهى . ولا حاجة إلى تقدير شرط محذوف، والكلام يتم بدونه . (وما اختلفتم فيه من شيء) هذا حكاية لقول الرسول . أي : ما اختلفتم فيه أيها الناس من تكذيب، أو تصديق، وإيمان وكفر، وغير ذلك . فالحكم فيه والمجازاة عليه ليس ذلك إلا إلى الله لا إليّ ولفظة (من شيء) تدل على العموم . وقيل (من شيء) من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله - ﷺ - ولا تؤثر على حكومته حكومة غيره، كقوله : ﴿وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء : ٥٩] وقيل (من شيء) من تأويل آية، واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى آبي المحكم من كتاب الله، والظاهر من سنة رسول الله - ﷺ - وقيل : ما وقع منكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا - الله أعلم - كمعرفة الروح . وقال الزمخشري : «أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلقتم أنتم وهم فيه من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاتبه المبطلين (ذلكم) الحاكم بينكم هو (ربي عليه توكلت) في رد كيد أعداء الدين و(إليه) أرجع في كفاية شرهم» . انتهى، وقرأ الجمهور (فاطرٌ) بالرفع . أي : هو فاطر . أو خير بعد خبر كقوله (ذلكم) وقرأ زيد بن عليّ (فاطرٌ) بالجر صفة لقوله (إلى الله) والجملة بعدها اعتراض بين الصفة والموصوف . (جعل لكم من أنفسكم) أي : من جنس أنفسكم . أي : آدميات (أزواجاً) إناثاً أو جعل الخلق لأبينا آدم من ضلعه حواء زوجاً له خلقاً لنا (ومن الأنعام أزواجاً) أي : أنواعاً كثيرة ذكوراً وإناثاً . أو (أزواجاً) إناثاً، (يذروكم فيه) قال ابن عباس : «أي : يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها»، وقال ابن زيد (يرزقكم فيه) وهو قريب من القول قبله . وقال مجاهد : «يخلقكم في بطون الإناث»، وقال ابن زيد أيضاً : «يدراكم فيما خلق من السموات والأرض»، وقال الزجاج : «يكثركم به أي فيه أي يكثركم في خلقكم أزواجاً»، وقال عليّ بن سليمان : «ينقلكم من حال إلى حال»، وقال ابن عطية : «الضمير في (فيه) للجعل . أي : يخلقكم ويكثركم في الجعل، كما تقول : كلمت زيدا كلاماً أكرمه فيه . قال : ولفظة (ذراً) تزيد على لفظه (خلق) معنى آخر ليس في خلق، وهو توالي الطبقات على مر الزمان . وقال الزمخشري : «(يذروكم) يكثركم . يقال : ذرأ الله الخلق بثهم وكثرهم . والذرو والذرواء أخوات في هذا التدبير . وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، والضمير في (يذروكم) يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغير مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين» . انتهى . وقوله : «وهي من الأحكام ذات العلتين» . اصطلاح غريب، ويعني : أن الخطاب يغلب على الغيبة إذا اجتماعاً فتقول : أنت وزيد تقومان . والعاقل يغلب على غير العاقل إذا اجتماعاً فتقول : الحيوان وغيرهم يسبحون خالقهم، قال الزمخشري : «(فإن قلت :) ما معنى (يذروكم) في هذا التدبير، وهلا قيل يذروكم به؟ (قلت :) جعل هذا التدبير كالتبضع والمعدن للبت والتكثير ألا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ [البقرة : ١٧٩] انتهى . (ليس كمثل شيء) تقول العرب : مثلك لا يفعل كذا . يريدون به المخاطب، كأنهم إذا نفوا الوصف عن مثل الشخص، كان نفياً عن الشخص . وهو من باب المبالغة . ومثل الآية قول أوس بن حجر :

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ خَلَقَ يُؤَاوِيهِ فِي الْفَضَائِلِ<sup>(١)</sup>

وقال آخر :

وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُدُوعِ النَّخِيلِ تَغْشَاهُمْ مُسْبِلٌ مِنْهُمْ<sup>(٢)</sup>

(١) ليس في ديوانه انظر روح المعاني (١٨/٢٥).

(٢) البيت عزاه الطبري لاوس انظر ديوانه (٣٠) والطبري (٩/٢٥) وروح المعاني (١٨/٢٥).



وقال آخر:

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما إن كمثلهم في الناس من أحد<sup>(٣)</sup>

فجرت الآية في ذلك على نهج كلام العرب من إطلاق المثل على نفس الشيء. وما ذهب إليه الطبري وغيره من أن مثلاً زائدة للتوكيد كالكاف في قوله:

فأَصْبَحْتُ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

وقول:

وصالياتٍ كَكَمَا يُؤْتَفَيْنُ

ليس بجيد، لأن مثلاً اسم والأسماء لا تزداد بخلاف الكاف، فإنها حرف فصلح للزيادة. ونظير نسبة المثل إلى من لا مثل له قولك: فلان يده مبسوطة. يريد أنه جواد ولا نظيره في الحقيقة إلى اليد حتى تقول ذلك. لمن لا يدله، كقوله: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾ [المائدة: ٦٤] فكما جعلت ذلك كناية عن الجود فيمن لا يدله، فكذلك جعلت المثل كناية عن الذات في من لا مثل له. ويحتمل أيضاً أن يراد بالمثل الصفة. وذلك سائغ يطلق المثل بمعنى المثل وهو الصفة، فيكون المعنى: ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره. وهذا محمل سهل، والوجه الأول أغوص. قال ابن قتيبة: «العرب تقيم المثل مقام النفس، فيقول: مثلي لا يقال له هذا. أي: أنا لا يقال لي هذا». انتهى. فقد صار ذلك كناية عن الذات فلا فرق بين قولك، ليس كالله شيء. أو ليس كمثل الله شيء. وقد أجمع المفسرون على أن الكاف والمثل يراد بهما موضوعهما الحقيقي من أن كلاً منهما يراد به التشبيه. وذلك محال، لأن فيه إثبات مثل لله تعالى وهو محال ﴿وهو السميع﴾ [الزمر: ٦٣] لأقوال الخلق (البصير) لأعمالهم. وتقدم تفسير (له مقاليد السموات والأرض) في سورة الزمر. وقرء (ويقدر) أي يضيق (إنه بكل شيء عليم) أي: يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء. وقال الزمخشري<sup>(٤)</sup>: «فإذا علم أن الغني خير للبعد أغناه لا أفقره». انتهى. وفيه دسيسة الاعتزال ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا ككلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير، والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد، الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب، يستعجل بها الذين لا يؤمنون والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد، الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز، من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ لما عدد تعالى نعمه عليهم الخاصة أتبعه بذكر نعمه العامة. وهو ما شرع لهم من العقائد المتفق عليها من توحيد الله، وطاعته، والإيمان برسله، وكتبته، وباليوم الآخر، والجزاء فيه. ولما كان أول الرسل نوح - عليه السلام - وآخرهم محمد - ﷺ - قال (ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك) ثم أتبع ذلك (ما وصى به إبراهيم) إذ كان أبا العرب. ففي ذلك هزلهم، وبعث على اتباع طريقته،

(٣) البيت لم نهند لقائله انظر الطبري (٩/٢٥) روح المعاني (١٨/٢٥).

(٤) انظر الكشاف ٤/٢١٣.

وموسى وعيسى - صلوات الله عليهم - لأنهم هما اللذان كان أتباعهما موجودين زمان بعثة رسول الله - ﷺ - والشرائع متفمة فيها ذكرنا من العقائد وفي كثير من الأحكام كتحريم الزنا، والقتل بغير حق، والشرائع مشتملة على عقائد وأحكام. ويقال: إن نوحاً أول من أتى بتحريم البنات والأمهات وذوات المحارم. وقال ابن عباس: «اختار» ويحتمل أن تكون (أن) مفسرة لأن قبلها ما هو بمعنى القول، فلا موضع لها من الإعراب. وأن تكون أن المصدرية فتكون في موضع نصب على البدل من (ما) وما عطف عليها. أو في موضع رفع، أي: ذلك. أو هو إقامة الدين وهو توحيد الله وما يتبعه مما لا بد من اعتقاده. ثم نهي عن التفرقة فيه لأن التفرق سبب للهلاك، والاجتماع والألفة سبب للنجاة. (كبر على المشركين) أي: عظم وشق (ما) تدعوهم إليه) من توحيد الله، وترك عبادة الأصنام، وإقامة الدين. (الله يجتبي) <sup>(١)</sup> يجتلب ويجمع (إليه من يشاء) هدايته وهذا تسلية للرسول. وقيل (يجتبي) فيجعله رسولاً إلى عباده (ويهدي إليه من ينيب) يرجع إلى طاعته عن كفره. وقال الزمخشري: (من يشاء) من ينفع فيهم توفيقه، ويجري عليهم لطفه. انتهى. وفيه دسيسة الاعتزال. وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: «لم يكن مع آدم - عليه السلام - إلا بنوه، ولم تفرض له الفرائض، ولا شرعت له المحارم، وإنما كان منبهاً على بعض الأمور، مقتصراً على ضرورات المعاش، واستمر الهدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات، ووظف عليه الواجبات وأوضح له الأدب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسول، ويتناصر بالأنبياء واحداً بعد واحد، وشرعة إثر شرعة، حتى ختمه الله بخير الملل على لسان أكرم الرسل. فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والحج، والتقرب بصالح الأعمال، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكبر، والزنا، والإذابة للخلق، كيفما تصرفت والاعتداء على الحيوان، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات. فهذا كله مشروع ديناً واحداً، أوملة متحدة، لم يختلف على السنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم. وذلك قوله (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) أي: اجعلوه قائماً. يريد: دائماً مستمراً، محفوظاً مستقراً، من غير خلاف فيه ولا اضطراب». انتهى. وقال مجاهد: «لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار بالله وطاعته، فهو إقامة الدين» وقال أبو العالية: «إقامة الدين: الإخلاص لله وعبادته (ولا تتفرقوا فيه) قال أبو العالية: لا تتعادوا فيه». وقال مقاتل: «معناه: لا تختلفوا فإن كل نبي مصدق». وقيل: لا تتفرقوا فيه فتؤمنوا ببعض الرسل وتكفروا ببعض. (وما تفرقوا) قال ابن عباس: «يعني قرشياً» (والعلم) محمد عليه الصلاة والسلام - وكانوا يتمنون أن يبعث إليهم نبي كما قال: «﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير﴾ [فاطر: ٤٢] يريدون نبياً». وقيل: الضمير يعود على أمم الأنبياء (جاءهم العلم) فطال عليهم الأمد فأمن قوم، وكفر قوم، وقال ابن عباس أيضاً: «عائذ على أهل الكتاب والمشركين. دليله ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ [البينة: ٤] قال: المشركون لم خص بالنبوة واليهود والنصارى حسدوه». (ولولا كلمة) أي: عدة التأخر إلى يوم القيامة فيحتذ يقع الجزء (لفضي بينهم) لجوزوا بأعمالهم في الدنيا، لكنه قضى أن ذلك لا يكون إلا في الآخرة. وقال الزجاج: «الكلمة قوله: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ [القرم: ٤٦] (وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم) هم بقية أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله - ﷺ - (من بعدهم) أي: من بعد أسلافهم. أو هم المشركون، أوتوا الكتاب من بعد ما أوتت أهل الكتاب التوراة والإنجيل. وقرأ زيد بن علي (وَوُتُّوا) منبياً للمفعول مشدد الراء (لفي شك منه) أي: من كتابهم، أو من القرآن، أو مما جاء به محمد - ﷺ -، أو من

(١) جى الخراج والماء والحوض بيباه وبجيبه: جمعه وجبى يجيبى مما جاء نادراً: مثل أبى يابى، وذلك أنهم شبهوا الألف في آخره بالهمزة في قرأ يقرأ وهذا هذا.

الدين الذي وصى به نوحاً. ولما تقدم شيثان، الأمر بإقامة الدين. وتفرق الذين جاءهم العلم واختلافهم، وكونهم في شك احتمال قوله (فلذلك) أن يكون إشارة إلى إقامة الدين. أي (فادع) لدين الله وإقامته لا تحتاج إلى تقدير اللام بمعنى لأجل، لأن دعا يتعدى باللام قال الشاعر:

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِي مَسُورًا      قَلْبِي قَلْبِي يَدَيَّ مَسُورًا

واحتمل أن تكون اللام لليلة. أي: فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً (فادع) إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية (واستقم) أي: دُم على الاستقامة. وتقدم الكلام على (فاستقم كما أمرت) وكيفية هذا التشبيه في أواخر هود [هود: ١١٢] (ولا تتبع أهواءهم) المختلفة الباطلة. وأمره بأن يصرح أنه آمن بكل كتاب أنزله الله لأن الذين تفرقوا آمنوا ببعض. (وأمرت لأعدل بينكم) قيل: إن المعنى: وأمرت بما أمرت به لأعدل بينكم في إيصال ما أمرت به إليكم لا أخص شخصاً بشيء دون شخص. فالشريعة واحدة، والأحكام مشترك فيها. وقيل: لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاضتم فتحاكمتم (لا حجة بيننا وبينكم) أي: قد وضحت الحجج، وقامت البراهين، وأنتم محجوجون. فلا حاجة إلى إظهار حجة بعد ذلك. (الله يجمع بيننا وبينكم) أي: يوم القيامة فيفصل بيننا. وما يظهر في هذه الآية من المواعدة منسوخ بآية السيف. (والذين يحاجون في الله) أي: يخاضعون في دينه. قال ابن عباس ومجاهد: «نزلت في طائفة من بني إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاقتهم، بل قالوا كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فديننا أفضل. فنزلت الآية في ذلك. وقيل: نزلت في قريش، كانوا يجادلون في هذا المعنى ويطمعون في رد المؤمنين إلى الجاهلية. (واستجيب) مبني للمفعول. فقيل المعنى: من بعد ما استجاب الناس لله. أي: لدينه ودخلوا فيه. وقيل: من بعد ما استجاب الله له. أي: لرسوله ودينه بأن نصره يوم بدر وظهر دينه. (حجتهم داحضة) أي: باطلة لا ثبوت لها، ولما ذكر من يحاج في دين الإسلام صرح بأنه تعالى هو (الذي أنزل الكتاب) (والكتاب) جنس يراد به الكتب الإلهية (والميزان) قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: «هو المعدل». وعن ابن مجاهد: «هو هنا الميزان الذي بأيدي الناس وهذا مندرج في العدل». (وما يدريك) أيها المخاطب (لعل الساعة قريب) ذكر على معنى البعث، أو على حذف مضاف. أي: لعل مجيء الساعة. (ولعل الساعة) في موضع معمول (وما يدريك) وتقدم الكلام على مثل هذا في آخر الأنبياء ﴿وإن أدرى لعله فتنة لكم﴾ [الأنبياء: ١١١] وتوافقت هذه الجملة مع قوله (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) (الساعة) يوم الحساب. ووضع الموازين القسط، فكانه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه، ويزن أعمالكم. (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) بطلب وقوعها عاجلة، لأنهم ليسوا موقنين بوقوعها، ليبين عجز من يؤمن بها عندهم. أي: هي مما لا يقع عندهم. (ألا إن الذين يمارون) ويلحون (في) أمر (الساعة لفي ضلال بعيد) عن الحق، لأن البعث غير مستبعد من قدرة الله. ودل عليه الكتاب المعجز فوجب الإيمان به. (الله لطيف بعباده) أي: برعباده المؤمنين ومن سبق له الخلود في الدنيا، وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف وإنما هو إملاء ولا لطف إلا ما آل إلى الرحمة والوفاء على الإسلام، وقال مقاتل: «(لطيف) بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً». وقال الزمخشري<sup>(١)</sup>: «يوصل بره إلى جميعهم (يرزق من يشاء) أي: من يشاء يرزقه شيئاً خاصاً، ويحرم من يشاء من ذلك الشيء الخاص، وكل منهم مرزوق وإن اختلف الرزق، (وهو القوي) أي: البالغ القوة وهي القدرة (العزيم) الغالب الذي لا يغلب. ولما ذكر تعالى الرزق ذكر حديث الكسب. ولما كان الحرث في الأرض أصلاً من أصول المكاسب استعير لكل مكسب أريد به النماء والفائدة. أي: من كان يريد عمل الآخرة وسعى لها سعيها (نزد له في حرثه) أي: في جزاء حرثه من تضعيف الحسنات (ومن كان يريد

حُرث الدنيا نُوْتُهُ منها) أي : العمل لها لا لِأخرته (نُوْتُهُ منها) أي : نعطه شيئاً منها (وما له في الآخرة من نصيب) لأنه لم يعمل شيئاً لِأخرة . والجملة الأولى وعد منجز . والثانية مقيدة بمشيئته تعالى فلا يناله إلا رزقه الذي فرغ منه وكل ما يريدُه هو . واقتصر في عامل الآخرة على ذكر حظه في الآخرة ، كأنه غير معتبر ، فلا يناسب ذكره مع ما أعد الله له في الآخرة لمن يشاء ما يشاء . وجعل فعل الشرط ماضياً والجواب مجزوم لقوله تعالى : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفَّ إليهم أعمالهم فيها﴾ [هود : ١٥] ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم فإنه فصيح مختار إلا ما ذكره صاحب كتاب الإعراب - وهو أبو الحكم بن عذرة - عن بعض النحويين : أنه لا يجيء في الكلام الفصيح وإنما يجيء مع كان لأنها أصل الأفعال ، ولا يجيء مع غيرها من الأفعال . ونص كلام سيبويه والجماعة أنه لا يختص ذلك بكان بل سائر الأفعال في ذلك مثلها . وأنشد سيبويه للفرزدق :

دَسَّتْ رُسُولًا بِأَنَّ الْقَوْمَ إِنْ قَدَرُوا      عَلَيْكَ يَشْفُوا صُدُورًا ذَاتَ تَوَغِيرٍ<sup>(٢)</sup>

وقال آخر :

تَعَالَ فَإِنَّ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونُنِي      نَكُنْ بِمِثْلِ مَنْ يَأْذُبُ يَضْطَحِبَانِ<sup>(٣)</sup>

وقرأ الجمهور (نزد) و(نُوْتُهُ) بالنون فيهما . وابن مقسم ، والزعفراني ، ومحبوب ، والمنقري كلاهما عن أبي عمرو بالبلاء فيها . وقرأ سلام (نُوْتُهُ) منها برفع الهاء وهي لغة الحجاز .

﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ، ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ، ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ، أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشاء الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحى الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ، ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليد الحميد ، ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ .

(أم لهم شركاء) استفهام تقرير وتوبيخ . لما ذكر تعالى أنه شرع للناس ما وصى به نوحاً الآية أخذ ينكر ما شرع غيره تعالى . والشركاء هنا : يحتمل أن يراد به شركاؤهم في الكفر كالشياطين والمغوين من الناس . والضمير في (شرعوا) عائد على الشركاء . والضمير في (لهم) عائد على الكفار المعاصرين للرسول . ويحتمل أن يراد به الأصنام ، والأوثان ، وكل من جعلوه شريكاً لله . وأضيف الشركاء إليهم ، لأنهم اتخذوها شركاء لله ، فتارة تضاف إليهم هذه الملابس ، وتارة إلى الله . والضمير

(٢) البيت من البسيط للفرزدق انظر ديوانه (٢١٣/١) المجمع (٦٠/٢) اللسان (ضغ) روح المعاني (٢٨/٢٥) .

(٣) من الطويل للفرزدق انظر ديوانه (٣٢٩/٢) الكتاب (٣١٦/٢) ابن يعيش (١٣٢/٢) الأشموني (١٥٣/١) المجمع (٨٧/١) روح المعاني

في (شروعاً) يحتمل أن يعود على الشركاء . و(لهم) عائد على الكفار لما كانت سبباً لضلالهم ، وافتانهم ، جعلت شارعةً لدين الكفر كما قال إبراهيم - عليه السلام - ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ [إبراهيم : ٣٦] واحتمل أن يعود على الكفار . و(لهم) عائد على الشركاء . أي : شرع الكفار لأصنامهم ومعبوداتهم . أي : رسموا لهم غواية وأحكاماً في المعتقدات ، كقولهم إنهم آلهة وإن عبادتهم تقربهم إلى الله ومن الأحكام البحرية والوصيلة والحامي وغير ذلك . (ولولا كلمة الفصل) أي : العدة بأن الفصل يكون في الآخرة . أو لولا القضاء بذلك (لغضى) بين المؤمن والكافر أو بين المشركين وشركائهم ، وقرأ الجمهور (وإن الظالمين) بكسر الهمزة على الاستئناف والإخبار بما ينالهم في الدنيا من القتل ، والأسر ، والنهب . وفي الآخرة النار ، وقرأ الأعرج ، ومسلم بن جندب (وأن) بفتح الهمزة عطفاً على كلمة الفصل فهو في موضع رفع . أي : ولولا كلمة الفصل وكون الظالمين لهم عذاب في الآخرة لغضى بينهم في الدنيا . وفصل بين المتعاطفين بجواب (لولا) كما فصل في قوله : ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ [طه : ١٢٩] (ترى الظالمين) أي : تبصر الكافرين لمقابلته بالمؤمنين (مشفقين) خائفين الخوف الشديد (مما كسبوا) من السيئات (وهو) أي العذاب ، أو يعود على ما كسبوا على حذف مضاف . أي وبال ما كسبوا من السيئات أو جزاؤه حال بهم (وهم واقع) فإشفاقهم هو في هذه الحال فليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة . ولما كانت الروضات أحسن ما في الجنات وأنزهها وفي أعلاها ذكر أن المؤمنين فيها . واللغة الكثيرة تسكين الواو في (رَوْضَات) ولغة هذيل بن مدركة فتح الواو وإجراء للمعتل مجرى الصحيح ، نحو جَفَنَات . ولم يقرأ أحد ممن علمناه بلغتهم . و(عند) ظرف . قال الحوفي : معمول لـ (يشاؤون) وقال الزمخشري : «منصوب بالظرف لا يشاؤون» . انتهى . وهو الصواب ويعني بالظرف الجار والمجرور وهو (لهم) في الحقيقة غير معمول للعامل في (لهم) والمعنى : ما يشاءون من النعيم والثواب مستقر لهم (عند ربهم) والعندية : عندية المكانة والتشريف لا عندية المكان . وقرأ الجمهور (يُبَشِّرُ) بتشديد الشين من بَشَّرَ . وعبد الله بن يعمر ، وابن أبي إسحق ، والجحدري ، والأعمش ، وطلحة في رواية ، والكسائي ، وحمزة ، (يُبَشِّرُ) ثلاثياً . ومجاهد ، وحيد بن قيس بضم الياء وتخفيف الشين ، من أبشر . وهو معدى بالهمزة من بَشَّرَ اللازم المكسور الشين . وأما بَشَّرَ بفتحها فممتد . وبَشَّرَ بالتشديد للتكثير لا للتعدية ، لأن المتعدي إلى واحد وهو مخفف لا يعدى بالتضعيف إليه ، فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية . (ذلك) إشارة إلى ما أعد لهم من الكرامة . وهو مبتدأ أخبره الموصول ، والعائد عليه محذوف . أي : يبشر الله به عباده» وقال الزمخشري : أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده . انتهى . ولا يظهر هذا الوجه إذ لم يتقدم في هذه السورة لفظ البشري ، ولا ما يدل عليها من تبشير أو شبهه . ومن النجويين من جعل (الذي) مصدرية حكاه ابن مالك عن يونس ، وتأول عليه هذه الآية . أي : ذلك تبشير الله عباده . وليس بشيء ، لأنه إثبات للاشتراك بين مختلفي الحد بغير دليل . وقد ثبتت اسمية (الذي) فلا يعدل عن ذلك بشيء لا يقوم به دليل ، ولا شبهة (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) روي : «أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض أترون محمداً يسأل أجراً على ما يتعاطاه» فنزلت<sup>(١)</sup> . وروي : «أن الأنصار أتوا رسول الله - ﷺ - بمال جمعه ، وقالوا : يا رسول الله : هدايا الله بك ، وأنت ابن أختنا ، وتعروك حقوق . وما لك سعة ، فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت الآية فردّه» . وقيل : «الخطاب متوجه إلى قريش حين جمعوا له مالاً وأرادوا أن يرشوه عليهم على أن يمسك عن سب آهتهم ، فلم يفعل ونزلت» . فالمعنى : لا أسألكم مالاً ، ولا رياسة ، ولكن أسألكم أن ترعوا حق قرابتي ، وتصدقوني فيما جتكم به ، وتمسكوا عن أديتي ، وأذية من تعبني . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو مالك ، والشعبي ، وغيرهم . قال الشعبي : «أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها فكتب أن رسول الله - ﷺ - كان أوسط الناس في قريش ، ليس بطن من بطونهم إلا وقد

ولده، فقال الله تعالى قل لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تؤدوني في قرابتي منكم، فارعوا ما بيني وبينكم وصدقوني». وقال عكرمة: «وكانت قريش تصل أرحامها»، وقال الحسن: «المعنى: إلا أن تؤدّوا إلى الله بالتقرب إليه». وقال عبد الله بن القاسم: «إلا أن يتوّد بعضكم إلى بعض وتصلوا قراباتكم». روي: «أن شباباً من الأنصار فآخروا المهاجرين وصلوا بالقول فنزلت على معنى أن لا تؤدوني في قرابتي وتحفظوني فيهم»، وقال بهذا المعنى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً. وهو قول ابن جبير، والسدي، وعمرو بن شعيب. وعلى هذا التأويل قال ابن عباس: «قيل يا رسول الله من قرابتك الذين أمرنا بمودّتهم؟ فقال علي وفاطمة وابناهما». وقيل: هم ولد عبد المطلب. والظاهر: أن قوله (إلا المودّة استثناء منقطع، لأن المودّة ليست أجراً. وقال الزمخشري: «يجوز أن يكون استثناء متصلاً، أي: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا أن تؤدّوا أهل قرابتي، ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة، لأن قرابته قرابتهم فكانت صلّتهم لازمة لهم في المروءة. وقال: (فإن قلت: هلا قيل إلا مودّة القرى أو إلا المودّة للقرى؟ قلت: ) جعلوا مكاناً للمودّة، ومقرراً لها، كقولك: لي في آل فلان مودّة، ولي فيهم هوى وحب شديد. تريد: أحبهم وهم مكان حبي ومحل وليست في صلة للمودّة كاللام إذا قلت: إلا المودّة للقرى إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الطرف به، في قولك: المال في الكيس، وتقديره: إلا المودّة ثابتة في القرى وتمكنة فيها». انتهى. وهو حسن. وفيه تكثير، وقرأ زيد بن علي (إلا مودّة) والجمهور (إلا المودّة) (ومن يقترف حسنة) أي: يكتسب. والظاهر: عموم الحسنة عموم البدل فيندرج فيها المودّة في القرى وغيرها. وعن ابن عباس، والسدي: إنها المودّة في آل رسول الله - ﷺ -». وقرأ الجمهور (نزد) بالنون. وزيد بن علي، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وأحمد بن جبير، عن الكسائي، (يزد) بالياء. أي: يزد الله. والجمهور (حُسناً) بالتنون. وعبد الوارث عن أبي عمرو (حُسنى) بغير تنوين على وزن رُجعى. وزيادة حسنها: مضاعفة أجرها (إن الله غفور) ساتر عيوب عباده (شكور) مجاز على الدقيقة لا يضيع عنده عمل العامل. وقال السدي (غفور) لذنوب آل محمد - عليه السلام - (شكور) لحسانتهم. (أم يقولون افتري على الله كذباً) أضرب عن الكلام المتقدم من غير إبطال. واستفهم استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة. أي: مثله لا ينسب إليه الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة (فإن يشاء الله يختم على قلبك) قال مجاهد: «يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: ﴿إنك مفتر﴾ [النحل: ١٠١] وقال قتادة وجماعة: «يختم على قلبك) ينسك القرآن. والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها وذلك كأنه يقول: وكيف يصح أن تكون مفتريات وأنت من الله بمرأى ومسمع وهو قادر، ولو شاء أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق، ولا يستمر افتراؤك، فمقصد اللفظ هذا المعنى، وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً». انتهى. هكذا أورد هذا التأويل عن قتادة ابن عطية. وفي ألفاظه فظافة لا تليق أن تنسب للأنبياء. وقال الزمخشري عن قتادة: «ينسك القرآن وينقطع عنك الوحي يعني لو افتري على الله الكذب لفعل به ذلك». انتهى. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> أيضاً: فإن يشأ الله يجعلك من المختم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاداً الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختم على قلوبهم. ومثال هذا أن يخون بعض الأمانة فيقول: لعل الله خذلني. لعل الله أعمى قلبي. وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله، والتنبيه على أنه ركب من تخويته أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يحمو الباطل، ويثبت الحق بوحيه، أو بقضائه، لقوله: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ [الأنبياء: ١٨] يعني: لو كان مفترياً كما يزعمون لكشف الله افتراءه، ومحقه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه». انتهى. وقيل: المعنى: لو افتريت على الله لطبع على قلبك حتى لا تقدر على حفظ القرآن.

وقيل : لحتم على قلبك بالصدق واليقين وقد فعل ذلك . وذكر القرشيري إن المعنى : يختم على قلوب الكفار ، وعلى ألسنتهم ، ويعاجلهم بالعذاب . انتهى . فيكون التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب ومن الجمع إلى الأفراد . أي : يختم على قلبك أيها القائل إنه افترى على الله كذباً (ومحو الله الباطل) استئناف إخبار . أي : يحويه إما في الدنيا وإما في الآخرة حيث نازله . وكتب (ومح) بغير واو كما كتبوا ﴿سندع﴾ [العلق : ١٨] بغير واو اعتباراً بعدم ظهورها ، لأنه لا يوقف عليها وقف اختيار . ولما سقطت من اللفظ سقطت من الخط . وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون عدة لرسول الله - ﷺ - بأنه يحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم إن الله ﴿عليم﴾ [التوبة : ٥٤] بما في صدرك وصدورهم فيجري الأمر على حسب ذلك . انتهى . قيل : ويحق الإسلام بكلماته أي : بما أنزل من القرآن . وتقدم الكلام في شرائط التوبة . يقال : قبلت منه الشيء ، بمعنى : أخذته منه لقوله : ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم﴾ [التوبة : ٥٤] أي : تؤخذ . أي : جعلته مبدأ قبولي ومنشأ ، وقبلته عنه عزلته عنه وابنته فمعى (عن عباده) أي : يزيل الرجوع عن المعاصي . (ويعفو عن السيئات) قال الزمخشري<sup>(١)</sup> : عن السيئات إذا تيب عنها ، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر . انتهى . وهو على طريقة الاعتزال أن الكبائر لا يعفى عنها إلا بالتوبة (ويعلم ما تفعلون) فيثيب ويعاقب . وقرأ الجمهور (ما يفعلون) بياء الغيبة . وعبد الله ، وعلقمة ، والأخوان ، وحفص بنات الخطاب . والظاهر أن (الذين) فاعل (ويستجيب) أي : ويجب الذين آمنوا لربهم ، كما قال : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال : ٢٤] فيكون (يستجيب) بمعنى يجب . أو يبقى على بابه من الطلب . أي : يستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة . وقال سعيد بن جبير : «هذا في فعلهم إذا دعاهم» . وعن إبراهيم بن أدهم : «أنه قيل : ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه . ثم قرأ ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس : ٢٥] (ويستجيب الذين آمنوا) قال الزجاج : «(الذين) مفعول . واستجاب وأجاب بمعنى واحد . فالمعنى : ويجب الله الذين آمنوا أي : للذين كما قال : فَأَمَّ يَسْتَجِبُهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ . أي : لم يجبه ، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل ، وابن عباس (ويزيدهم من فضله) أي : على الثواب تفضلاً . وفي الحديث : «قبول الشفاعات في المؤمنين والرضوان» ، وقال خباب بن الأرت : «نظرنا إلى أموال بني قريظة ، والنضير ، وبني قينقاع ، وفتمينانها فنزلت» . (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) وقال عمرو بن حريث : «طلب قوم من أهل الصفة من الرسول - عليه السلام - أن يغنيهم الله ، ويبسط لهم الأموال والأرزاق فنزلت» . اعلم أن الرزق لو جاء على اقتراح البشر لكان بغيهم وإفسادهم ، ولكنه تعالى أعلم بالصلحة ، فرب إنسان لا يصلح ولا يكتفى شره إلا بالفقر ، وآخر بالغنى . وفي هذا المعنى والتقسيم حديث رواه أنس ، وقال : «اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني» . و(لبغوا) إما من البذخ والكبر . أي : لتكبروا في الأرض ، ففعلوا ما يتبع الكبر مع الغنى . ألا ترى إلى حال قارون . وفي الحديث : «أخوف ما يخاف على أمي زهرة الدنيا» . وقال الشاعر :

وَقَدْ جَعَلُوا السَّوْسِيَّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا      وَيَبْنِي رُومَانَ نَجْعاً وَسَوْحَطاً<sup>(١)</sup>

يعني أنهم أحبوا فجدبوا أنفسهم بالبغي والفتن (ولكن ينزل بقدر ما يشاء) يقال : قَدَّرَ بالسكون وبالفتح أي : يقدر لهم ما هو أصلح لهم . وقرأ الجمهور (قَبَطُوا) بفتح النون . والأعمش ، وابن وثاب بكسرهما (وينشر رحته) يظهرها من آثار

(١) انظر الكشف ٢٢/٤ .

(٢) انظر الكشف ٢٢٢/٤ .

(٣) انظر روح المعاني (٢٨/٢٥) القرطبي (١٨/١٥) .

الغيث من المنافع، والخصب. والظاهر: أن رحمته نشرها أعم مما في الغيث. وقال السدي: «رحمته الغيث، وعدد النعمة بعينها بلفظين». وقيل: الرحمة هنا: ظهور الشمس، لأنه إذا دام المطر ستم فتحيء الشمس بعده عظمة الموقع. ذكره المهدوي (وهو الولي) الذي يتولى عباده (الحميد) المحمود على ما أسدي من نعمائه (وما بث) الظاهر أنه مجرور عطفاً على (السماوات والأرض) ويجوز أن يكون مرفوعاً عطفاً على (خلق) على حذف مضاف. أي: وخلق ما بث. و(فيهما) يجوز أن يكون مما نسب فيه دابة إلى المجموع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو فلان صنعوا كذا. وإنما صنعه واحد منهم. ومنه (يخرج منها) وإنما يخرج من الملح. أو يكون من الملائكة بعض يمشي مع الطيران فيوصف بالدبيب كما يوصف به الأناسي. أو يكون قد خلق في السماوات حيواناً يمشي مع مشي الأناسي على الأرض. أو يريد الحيوان الذي يكون في السحاب وقد يقع أحياناً كالضفادع والسحاب داخل في اسم السماء. وقال مجاهد: «(وما بث فيها من دابة هم الناس والملائكة)». وقال أبو علي: «هو على حذف مضاف. أي: وما بث في أحدهما». وقرأ الجمهور (فيهما) بالفاء، وكذا هي في معظم المصاحف. واحتمل (ما) أن تكون شرطية، وهو الأظهر. وأن تكون موصولة، والفاء تدخل في خبر الموصول إذا أجرى مجرى الشرط بشرائط ذكرت في النحو، وهي موجودة. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر في رواية، وشيبة (بما) بغير فاء (ما) موصولة ولا يجوز أن تكون شرطية وحذفت الفاء لأن ذلك مما يخصه سيبويه بالشعر. وأجاز ذلك الأخفش وبعض نحاة بغداد وذلك على إرادة الفاء وترتب ما أصاب من المصائب على كسب الأيدي موجود مع الفاء ودونها هنا. والمصيبة: الرزايا والمصائب في الدنيا وهي مجازاة على ذنوب المرء وتمحيص لخطاياها وأنه تعالى يعفو عن كثير ولا يجازي عليه بمصيبة. وفي الحديث: «لا يصيب ابن آدم خدش عود، أو عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب. وما يعفو عنه أكثر» وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال: «إن أحبه إليّ أحبه إلى الله وهذا مما كسبت يداي». ورؤي على كف شريح قرحة فقيل بم هذا؟ فقال بما كسبت يداي. وقال الزمخشري: «الآية مخصوصة بالمجرمين، ولا يتمتع أن يستوفي الله عقاب المجرم ويعفو عن بعض، فأما من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين، فهو كما إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره، فللعوض الموفى والمصلحة وعن على هذه أرجى آية للمؤمنين. وقال الحسن (من مصيبة) أي: حد من حدود الله، وتلك مصائب تنزل بشخص الإنسان ونفسه، وإنما هي بكسب أيديكم (ويعفو) الله (عن كثير) فيستره على العباد حتى لا يجد عليه (وما أنتم بمعجزين) أي: أنتم في قبضة القدرة. وقيل: ليست المصائب من الأسقام، والقحط، والفرق، وغير ذلك بعقوبات على الذنوب لقوله (اليوم تجزي كل نفس بما كسبت) ولاشتراك الصالح والاطالح فيها بل أكثر ما يتبلى به الصالحون المتقون. وفي الحديث: «خص بالبلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة». ولأن الدنيا دار التكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار الجزاء، وليس الأمر كذلك. وهذا القول يؤخره نصوص القرآن كقوله تعالى: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ [العنكبوت: ٤٠]. الآية.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٣٢ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظَلِّلَن رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ٣٤ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِصْحٍ ٣٥ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرٌ أَلِئِنَّهُمْ وَالْفَوَاحِشَ إِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٣٧ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

(١) ذكره السيوطي في الدر ٦/١٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.



وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْبَغِيهِمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُفْسِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْدَبُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يَعْضُضُونَ عَلَيْهِمَا خَشَعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ

لما ذكر تعالى من دلائل وحدانيته أنواعاً ذكر بعدها العالم الأكبر وهو السموات والأرض ثم العالم الأصغر وهو الحيوان، ثم أتبعه بذكر المعاد أتبعه بذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف يغوص فيه الثقيل والسفن تشخص بالأجسام الثقيلة الكثيفة ومع ذلك جعل تعالى للماء قوة يحملها بها ويمنع من الغوص ثم جعل الرياح سبباً لسيورها فإذا أراد أن ترسو أسكن الرياح فلا تبرح عن مكانها. (الجواري) جمع جارية. وأصله السفن الجواري. حذف الموصوف وقامت صفة مقامه. وحسن ذلك قوله (في البحر) فدل ذلك على أنها صفة للسفن. وإلا فهي صفة غير مختصة فكان القياس أن لا يحذف الموصوف ويقوم مقامه. ويمكن أن يقال: إنها صفة غالبية كالأبطح فجاز أن تلي العوامل بغير ذكر الموصوف. وقرئ (الجواري) بالياء، ودونها، وسمع من العرب الإعراب في الرء. و(في البحر) متعلق بـ (الجواري) و(كالأعلام) في موضع الحال. و(الأعلام) الجبال. ومنه قول الخنساء - أخت صخر ومعاوية -:

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارًا<sup>(١)</sup>

ومنه:

إِذَا قَطَعْنَ عَلْمًا بَدَأَ عَلْمٌ

وقرأ جمهور السبعة (الريح) إفراداً، ونافع جمعاً، وقرأ الجمهور (فيظللن) بفتح اللام. وقرأ قتادة بكسرها. والقياس الفتح، لأن الماضي بكسر العين فالكسر في المضارع شاذ. وقال الزمخشري<sup>(٢)</sup>: «من ظل يظل ويظل نحو ضل يضل ويضل» انتهى. وليس كما ذكر، لأن يضل يفتح العين من ضللت بكسرها في الماضي ويضل بكسرها من ضللت بفتحها في الماضي، وكلاهما مقيس. (لكل صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه، (أو يوبقهن) يهلكن. أي: الجواري، وهو عطف على (يسكن) والضمير في (كسبوا) عائد على ركاب السفن. أي: بذنوبهم، وقرأ الأعمش (ويعض) بالواو. وعن أهل المدينة بنصب الواو. والجمهور (ويعض) مجزوماً عطفاً على (يوبقهن) فأما قراءة الأعمش فإنه أخبر تعالى أنه يعفو عن كثير. أي: لا يؤاخذ بجميع ما اكتسب الإنسان. وأما النصب فإيضاح أن بعد الواو والنصب بعد الفاء في قراءة من قرأ (يحاسبكم به الله فيعفر) وبعد الواو في قول الشاعر:

(١) البيت من البسيط للخنساء انظر ديوانها (٤٩) اللسان علم روح المعاني (٤٢/٢٥).

(٢) انظر الكشاف ٤/٢٢٧.

فَإِنْ يَمْلِكِ أَبُو قَابُوسَ يَمْلِكُ رَبِيعُ النَّاسِ وَالشُّهُرُ الْحَرَامُ  
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذُنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظُّهْرَ لَيْسَ لَهُ سَنَامٌ<sup>(١)</sup>

روي بنصب (ونأخذ) ورفع وجزمه . وفي هذه القراءة يكون العطف على مصدر متوهم . أي : يقع إيباق وعفوع عن كثير . وأما الجزم فإنه داخل في حكم جواب الشرط ، إذ هو معطوف عليه وهو راجع في المعنى إلى قراءة النصب لكن هذا عطف فعل على فعل . وفي النصب عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم . وقال القشيري : «وقرىء (ويَعْفُ) بالجزم . وفيها إشكال لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى السفن رواكد ، أو يهلكها بذنوب أهلها . فلا يحسن عطف (ويعف) على هذا ، لأن المعنى يعبر : إن يشأ يعف . وليس المعنى ذلك ، بل المعنى الإخبار عن الغيوب عن شرط المشيئة فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم (ويَعْفُو) بالرفع . وهي جيدة في المعنى» . انتهى . وما قاله ليس بجيد ، إذ لم يفهم مدلول التركيب . والمعنى : أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم . وقال الزمخشري : «(فإن قلت : ) علام عطف (يوقهين)؟ (قلت : ) على (يسكن) لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بصفتها» . انتهى . ولا يتعين أن يكون التقدير : أو يعصفها فيغرقن لأن إهلاك السفن لا يتعين أن يكون بعصف الريح ، بل قد يهلكها تعالى بسبب غير الريح كنزول سطحها بكثرة الثقل ، أو انكسار اللوح يكون سبباً لإهلاكها ، أو يعرض عدو يهلك أهلها . وقرأ الأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ونافع ، وابن عامر ، وزيد بن علي (ويَعْلَمُ) بالرفع على القطع . وقرأ الجمهور (ويَعْلَمُ) بالنصب . قال أبو علي وحسن : «النصب إذا كان قبله شرط وجزاء وكل واحد منهما غير واجب» . وقال الزجاج : «على إضمار أن لأن قبلها جزاء . تقول : ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك علي وأنا أكرمك وإن أشئت وأكرمك ، جزمًا . قال الزمخشري : فيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه ، قال : واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله إن تأتني آتاك وأعطيك ضعيف . وهو نحو من قوله :

وَأَحَقُّ بِالْحِجَازِ فَاسْتَرِحَا

فهذا لا يجوز ، وليس بحد الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل فلما ضارع الذي لا يوجب كالاتفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه . قال الزمخشري : «ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه . ولو كانت من هذا الباب لما أدخل سيبويه منها كتابه . وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة» . انتهى . وخرج الزمخشري النصب على أنه معطوف على تعليل محذوف ، قال : تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون يكره في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَنَجْعَلَ آيَةَ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة : ٢٥٩] وقوله : ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية : ٢٢]» انتهى . ويبعد تقديره لينتقم منهم لأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم فلا يحسن لينتقم منهم . وأما الآيتان فيمكن أن تكون اللام متعلقة بفعل محذوف . أي : ولنجعل آية للناس . ولتجزى كل نفس بما كسبت . فعلنا ذلك . وكثيراً ما يقدر هذا الفعل محذوفاً قبل لام العلة إذا لم يكن فعل ظاهر يتعلق به . وذكر الزمخشري أن قوله تعالى (ويعلم) قرىء بالجزم (فإن قلت : ) فكيف يصح المعنى على جزم (ويعلم)؟ (قلت : ) كأنه قال : أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور ، هلاك قوم ، ونجاة قوم . وتحذير آخرين . لأن قوله (ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص) يتضمن تحذيرهم من عقاب

الله . (وما لهم من محيص) في موضع نصب لأن يعلم معلقة، كقولك : علمت ما زيد قائم». وقال ابن عطية : «في قراءة النصب وهذه الواو ونحوها التي تسميها الكوفيون واو الصرف لأن حقيقة واو الصرف التي يريدونها عطف فعل على اسم مقدر، فيقدر أن ليكون من الفعل بتأويل المصدر فيحسن عطفه على الاسم». انتهى . وليس قوله : «تعليلاً لقولهم واو الصرف» إنما هو تقرير للمذهب البصريين . وأما الكوفيون فإن واو الصرف ناصبة بنفسها إلا بإضمار أن بعدها . وقال أبو عبيد : «على الصرف كالذي في آل عمران (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ومعنى الصرف : أنه كان على جهة نصرف إلى غيرها فتغير الإعراب لأجل الصرف . والعطف لا يعين الاقتران في الوجود كالعطف في الاسم نحو : جاء زيد وعمرو ولو نصب وعمرو اقتضى الاقتران وكذلك واو الصرف ليفيد معنى الاقتران ويعين معنى الاجتماع ، ولذلك أجمع على النصب في قوله (ويعلم الصابرين) أي : ويعلم المجاهدين والصابرين معاً . عن علي رضي الله عنه : «اجتمع لأبي بكر - رضي الله عنه - مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير فلامه المسلمون وخطأه الكافرون» . فنزلت (فما أوتيتهم من شيء) والظاهر أنه خطاب للناس . وقيل : للمشركين و(ما) شرطية مفعول ثان لـ (أوتيتهم) و(من شيء) بيان لـ (ما) والمعنى (من شيء) من ريشا الدنيا وماها والسعة فيها . والفاء جواب الشرط . أي : فهو متاع . أي يستمتع في الحياة (وما عند الله) أي : من ثوابه وما أعد لأوليائه (خير وأبقى) مما أوتيتهم ، لأنه لا انقطاع له ، وتقدم الكلام في الكبائر في قوله : ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ [النساء : ٣١] في النساء ، وقرأ الجمهور (كبائر) جمعاً هنا . وفي النجم وحمة ، والكسائي بالإفراد (والذين يجتنبون) عطف على (الذين آمنوا) وكذلك ما بعده . ووقع لأبي البقاء وهم في التلاوة اعتقد أنها الذين يجتنبون بغير واو فبنى عليه الإعراب فقال . (الذين يجتنبون) في موضع جر بدلاً من (الذين آمنوا) ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار أعني . وفي موضع رفع على تقديرهم» . انتهى . والعامل في (إذا) (يعفرون) وهي جملة من مبتدأ وخبر معطوفة على (يجتنبون) ويجوز أن يكون (هم) توكيداً للفاعل في (غضبوا) ، وقال أبو البقاء : «هم مبتدأ و(يعفرون) الخبر ، والجملة جواب (إذا)» . انتهى . وهذا لا يجوز ، لأن الجملة لو كانت جواب (إذا) لكانت بالفاء ، تقول : إذا جاء زيد فعمر ومنطلق ولا يجوز حذف الفاء إلا إن ورد في شعر . وقيل (هم) مرفوع بفعل محذوف يفسره (يعفرون) ولما حذف انفصل الضمير . وهذا القول فيه نظر ، وهو أن جواب (إذا) يفسر كما يفسر فعل الشرط بعدها نحو ﴿إذا السماء انشقت﴾ [الانشقاق : ١] ولا يبعد جواز ذلك على مذهب سيبويه إذ جاء ذلك في أداة الشرط الجازمة نحو إن ينطلق زيد ينطلق فزيد عنده فاعل بفعل محذوف يفسره الجواب . أي : ينطلق زيد . منع ذلك الكسائي والفراء . وقال الزمخشري : «(هم يعفرون) أي هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب لا يقول الغضب أحلامهم كما يقول حلوم الناس والمحيء لهم وإيقاعه مبتدأ وإسناد (يعفرون) إليه لهذه الفائدة» انتهى . وفيه حض على كسر الغضب . وفي الحديث : «أوصني . قال : لا تغضب قال زدني قال لا تغضب قال زدني . قال لا تغضب» (والذين استجابوا لربهم) قيل : نزلت في الأنصار دعاهم الله للإيمان به وطاعته فاستجابوا ، له ، وكانوا قبل الإسلام وقبل أن يقدم رسول الله - ﷺ - المدينة إذا ناهم أمر تشاوروا فأثنى الله عليهم لا ينفردون بأمر حتى يجتمعوا عليه . وعن الحسن (١) : «ما تشاور قوم إلا هودوا لأرشد أمرهم» . انتهى . وفي الشورى اجتماع الكلمة والتحاب والتعاقد على الخير . وقد شاور الرسول - عليه السلام - فيما يتعلق بمصالح الحروب والصحابة بعده في ذلك كمشاورة عمر للهزم . وفي الأحكام كقتال أهل الردة ، وميراث الحربي ، وعدد مدمني الخمر ، وغير ذلك . والشورى : مصدر كالتفتيا بمعنى التشاور على حذف مضاف . أي : وأمرهم ذو شورى بينهم . و(هم ينتصرون) صلة لـ (الذين) و(إذا) معمولة لـ (ينتصرون) ولا يجوز أن يكون (هم ينتصرون) جواباً لـ (إذا) والجملة الشرطية وجوابها صلة لما ذكرناه من لزوم الفاء . ويجوز هنا أن يكون (هم) فاعلاً بفعل محذوف على ذلك القول الذي قيل في (هم يعفرون) ، وقال الحوفي : «وإن شئت

جعلت (هم) توكيداً للهاء والميم يعني في (أصحابهم) وهو ضمير رفع . وفي هذا نظر، وفيه الفصل بين المؤكد والتوكيد بالفاعل . وهو فعل الظاهر أنه لا يمتنع والانتصار: أن يقتصر على ما حده الله له ولا يعتدي . وقال النخعي : «كانوا يكرهون أن يذلولوا أنفسهم فتجترىء عليهم الفساق ومن انتصر غير متعد فهو مطيع محمود»، وقال مقاتل، وهشام بن عروة : «الآية في المجروح ينتصف من الجراح بالقصاص». وقال ابن عباس : «تعدى المشركون على رسول الله - ﷺ - وعلى أصحابه وأخرجوهم من مكة فاذن الله لهم بالخروج في الأرض ونصرهم على من بغى عليهم . وقال الكيا الطبري : «ظاهرة أن الانتصار في هذا الموضع أفضل ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله ولرسوله وإقامة الصلاة فهذا على ما ذكره النخعي . وهذا فيمن تعدى وأصرروا المأمور فيه بالعمو إذا كان الجاني نادماً مقلعاً»، وقد قال عقيب هذه الآية (ولمن انتصر بعد ظلمه) الآية فيقتضي إباحة الانتصار، وقد عقبه بقوله (ولمن صبر وغفر) وهذا محمول على القرآن عند غير المصر، فأما المصر على البغي فالأفضل الانتصار منه بدليل الآية قبلها . وقال ابن بحر : «المعنى : تناصروا عليه فأزالوه عنهم». وقال أبو بكر بن العربي : «نحواً من قول الكيا». قال الجمهور : «إذا بغى مؤمن على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصر منه بنفسه بل يرفع ذلك إلى الإمام أو نائبه، وقالت فرقة : له ذلك . (وجزاء سيئة سيئة مثلها) هذا بيان للانتصار . أي : لا يتعدى فيها يجازي به من بغى عليه . قال ابن أبي نجيج، والسدي : إذا شتم فله أن يرد مثل ما شتم به دون أن يتعدى . وسمي القصاص سيئة على سبيل المقابلة . أو لأنها تسوء من اقتصص منه كما ساءت الحيض . وظاهر قوله (مثلها) المائلة مطلقاً في كل الأحوال لا فيما خصه الدليل . والفهاء أدخلوا التخصيص في صور كثيرة بناء على القياس . قال مجاهد، والسدي : «إذا قال له أخزأك الله فليقل أخزأك الله وإذا قذفه قذفاً يوجب الحد بل الحد الذي أمره الله به». (فمن عفا وأصلح) أي : بينه وبين خصمه بالعمو (فأجزه على الله) عدة مبهمة لا يقاس عظمها إذ هي على الله . (إنه لا يحب الظالمين) أي : الخائنين وإذا كان لا يجبه وقد ندب إلى العفو عنه فالعمو الذي يجبه الله أولى أن يعفى عنه . أو لا يحب الظالمين من تجاوز واعتدى من المجني عليهم إذا انتصروا خصوصاً في حالة الحرب والنهب الحمية فربما يظلم وهو لا يشعر . وفي الحديث : «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له أجر على الله فليقم، قال : فيقوم خلق فيقال لهم ما أجركم على الله؟ فيقولون : نحن عفونا عن ظلمنا، فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله»، واللام في (ولمن انتظر) لام توكيد . قال الحوفي : «وفيها معنى القسم»، وقال ابن عطية ؛ «لام التقاء القسم يعينان أنها اللام التي يتلقى بها القسم فالتقسيم قبلها محذوف . (ومنْ) شرطية وحمل (انتظر بعد ظلمه) على لفظ (من) و(فأولئك) على معنى (منْ) والفاء جواب الشرط و(ظلمه) مصدر مضاف إلى المفعول». قال الزمخشري<sup>(١)</sup> : «ويفسره قراءة من قرأ بعد ما ظلم (ما عليهم من سبيل) قيل : أي من طريق إلى الحرج . وقيل : من سبيل للمعاقب ولا المعاتب، والعاتب . وهذه مبالغة في إباحة الانتصار (إنما السبيل) أي : سبيل الإثم والحرج (على الذين يظلمون) أي : يتذللون بالظلم (ويبغون في الأرض) أي : يتكبرون فيها، ويعلون ويفسدون . وقيل : (ويظلمون الناس) أي : يضعون الأشياء غير مواضعها من القتل، وأخذ المال، والأذى باليد واللسان، والبغي بغير الحق : فهو نوع من أنواع الظلم . خصه بالذكر، تنبيهاً على شدته، وسوء حال صاحبه». انتهى . (ولمن صبر) أي : على الظلم والأذى (وغفر) ولم ينتصر، واللام في (ولمنْ) يجوز أن تكون اللام الموطئة القسم المحذوف . و(منْ) شرطية وجواب القسم قوله (إن ذلك) وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه . ويجوز أن تكون اللام لام الابتداء و(منْ) موصولة مبتدأ والجملة المؤكدة بـ (إن) في موضع الخبر وقال الحوفي «(منْ) رفع بالابتداء وأضمر الخبر وجواب الشرط (إن) وما تعلق به على حذف الفاء، كما قال الشاعر :

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا<sup>(٢)</sup>

أي : فالله يشكرها انتهى . وهذا ليس بجيد ، لأن حذف الفاء مخصوص بالشعر عند سيبويه والإشارة بـ ( ذلك ) إلى ما يفهم من مصدر ( صبر ) و( غفر ) والعائد على الموصول المبتدأ من الخبر محذوف . أي : إن ذلك منه لدلالة المعنى عليه ( لمن عزم الأمور ) إن كان ذلك إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله ( ولن صبر و غفر ) لم يكن في عزم الأمور حذف . وإن كان ذلك إشارة إلى المبتدأ كان هو الرابط ، ولا يحتاج إلى تقدير منه . وكان في عزم الأمور . أي : إنه لمن ذوي عزم الأمور ، وسب رجل آخر في مجلس الحسن ، فكان المسبوب يكظم ويعرق ويمسح العرق ، ثم قام فتلا الآية ، فقال الحسن : « عقلها والله وفهمها لم هذه ضيعها الجاهلون » . والجملة من قوله ( وإنما السبيل ) اعتراض بين قوله ( ولن انتصر ) وقوله ( ولن صبر ) ( ومن يضل الله فإله من ولي من بعده ) أي : من ناصر يتولاه من بعده أي من بعد إضلاله ، وهذا تحقير لأمر الكفرة . ( وترى الظالمين ) الخطاب للرسول . والمعنى : وترى حالهم وما هم فيه من الخيرة ( لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل ) هل سبيل إلى الردّ للعالمين وذلك من فطبع ما اطلعوا عليه وسوء ما يحل بهم . ( وتراهم يعرضون عليها ) أي : على النار دل عليها ذكر العذاب ( خاشعين ) متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل ، وقرأ طلحة ( من الذل ) بكسر الذال . والجمهور بالضم . والخشوع : الاستكانة . وهو محمود . وإنما أخرجه إلى الذم اقتارانه بالعذاب . وقيل ( من الذل ) متعلق بـ ( ينظرون من طرف خفي ) قال ابن عباس : « ذليل » انتهى . قيل : ووصف بالخفاء ، لأن نظرهم ضعيف ولحظهم نهاية قال الشاعر :

فَغَضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ مُنْمِرٍ

وقيل : يحشرون عمياً . ولما كان نظرهم بعيون قلوبهم جعله طرفاً خفياً . أي : لا يبدو نظرهم ، وهذا التأويل فيه تكلف . وقال السدي ، وفتادة : « المعنى : يسارقون النظر لما كانوا فيه من الهمّ وسوء الحال لا يستطيعون النظر بجميع العين وإنما ينظرون من بعضها » . فيجوز على هذا التأويل أن يكون الطرف مصدر ، أي : من نظر خفي . وقال الزمخشري : « من طرف خفي » أي : يتبدى نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارعة كما ترى المصور ينظر إلى السيف وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ولا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملاً عينه منها كما يفعل في نظره إلى التحاب .

وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَسْبِلِ ﴿٤٦﴾ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكَيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ۖ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۗ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ ۖ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ

لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

الظاهر: أن (وقال) ماض لفظاً ومعنى. أي: وقال الذين آمنوا في الحياة الدنيا. ويكون (يوم القيامة) معمولاً لـ (خسروا) ويحتمل أن يكون معنى (وقال) ويقول (ويوم القيامة) معمول لـ (يقولوا). أي: ويقولوا في ذلك اليوم لما عاينوا ما حل بالكفار (وأهلهم) الظاهر: أنهم الذين كانوا أهلهم في الدنيا. فإن كانوا معهم في النار فقد خسروهم. أي: لا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة لكونهم كانوا مؤمنين كآسية امرأة فرعون فهم لا ينتفعون بهم أيضاً. وقيل: (أهلهم) ما كان أعدلهم من الحور لو كانوا آمنوا. والظاهر أن قوله (ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) من كلام المؤمنين، وقيل: استئناف إخبار من الله تعالى (من قبل أن يأتي يوم) قيل: هو يوم ورود الموت. والظاهر أنه يوم القيامة. و(من الله) متعلق بمحذوف يدل عليه ما مر. أي: لا يرد ذلك اليوم من ما حكم الله به فيه. وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> «(من الله) من صلة لـ (لا مرد) انتهى». وليس الجيد إذ لو كان من صلته لكان معمولاً له، فكان يكون مرعباً منوناً<sup>(٢)</sup>. وقيل (من الله) يتعلق بقوله (يأتي) أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده (مالكم من ملجأ) تلجؤون إليه فتخلصون من العذاب (ومالكم) من إنكار شيء من أعمالكم التي توردكم النار. والنكير: مصدر أنكرو على غير قياس. قيل: ويحتمل أن يكون اسم فاعل للمبالغة. وفيه بعد، لأن نكر معناه لم يميز (فإن عرضوا) الآية تسلية للرسول، وتأنيس له، وإزالة الهمّة بهم (والإنسان) يراد به الجنس. ولذلك جاء (وإن تصبهم سيئة) وجاء جواب الشرط ﴿فإن الإنسان﴾ ولم يأت فإنه، ولا فإنهم ليدل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إن الإنسان لظلم كفار﴾ [إبراهيم: ٣٤] ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات: ٦] ولما ذكر أنه يكفر النعم أتبع ذلك بأن له ملك العالم العلوي والسفلي وأنه يفعل ما يريد، ونبه على عظيم قدرته، وأن الكائنات ناشئة عن إرادته، فذكر أنه يهب لبعض إنثاءً ولبعض ذكوراً ولبعض الصنفين ويعقم بعضاً فلا يولد له. وقال إسحق بن بشر: «نزلت هذه الآية في الأنبياء ثم عمت. فلوط أبو بنات لم يولد له ذكور، وإبراهيم ضده، ومحمد - ﷺ - عليها ولد له الصنفان. ويحیی عقيم». انتهى. وذكر أيضاً مع لوط شعيب. ومع يحيى عيسى. وقدم تعالى هبة البنات، تأنيساً لهن، وتشريفاً لهن، ليهتم بصونهن والإحسان إليهن. وفي الحديث: «من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار»، وقال واثلة بن الأسقع: «من يمن المرأة تكبيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله تعالى بدأ بالإنثاء»، وقال الزمخشري<sup>(٣)</sup>: «(فإن قلت) لم قدم الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهن؟ ثم رجع فقدّمهم ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟ (قلت): لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى، وكفران الإنسان، نسيانه الرحمة السابقة عنده. ثم ذكره بذكر ملكه ومشيئته، وذكر قسمة الأولاد فقدم الإناث، لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاء الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم أوجب التقديم. والبلاء الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء وأخر الذكور فلما أخرهم، لذلك تدارك تأخيرهم، وهم أحق بالتقديم بتعريفهم، لأن التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: وهب لمن يشاء الفريقين الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم أعطي بعد ذلك كلا الجنسين حظه من التقديم والتأخير، وعرفان تقديمهن لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتضى آخر فقالت (ذكرانا وإنثاء) كما قال: ﴿إنا خلقناكم من

(١) انظر الكشاف ٤/٢٣١.

(٢) انظر شرح الكافية ١/٢٥٧ الكتاب ١/٣٥٠ التصريح ١/٢٤٠ المغني ٢/١٢٦ روح المعاني ٢٥/٥٢.

(٣) انظر الكشاف ٤/٢٣٢.

ذكر وأثنى ﴿ [الحجرات: ١٣] ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأُنثى﴾ [القيامة: ٣٩] انتهى وقيل: بدأ بالأُنثى ثم نثى بالذكر، لتقلبه من الغم إلى الفرح. وقيل: ليعلم أنه لا اعتراض على الله فيرضى فإذا وهب له الذكر علم أنه زيادة وفضل من الله وإحسان إليه، وقيل: قدمها تنبيهاً على أنه إذا كان المعجز والحاجة لهم كانت عناية الله أكثر، وقال مجاهد: «هو أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية»، وقال محمد بن الحنفية: أن تلد توأمًا غلاماً وجارية»، وقال أبو بكر بن العربي (أو يزوجهم ذكراً وإناثاً)، قال علماءنا يعني آدم، كانت حواء تلد له في كل بطن توأمين، ذكراً وأُنثى. تزوج ذكر هذا البطن أنثى البطن الآخر». انتهى. ولما ذكر الهبة في الإناث والهبة في الذكور اكتفى عن ذكرها في قوله (أو يزوجهم ذكراً وإناثاً). ولما كان العقم ليس بمحمود قال (ويجعل من يشاء عقيماً)<sup>(١)</sup> وهو قسيم لمن يولد له. ولما كانت الخنثى مما يحزن بوجوده لم يذكره تعالى قالوا: وكانت الخلقة مستمرة ذكراً وأُنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى فستل فارض العرب ومعرها عامر بن الظرب عن ميراثه فلم يدر ما يقوله وأرجأهم، فلما جن عليه الليل جعل يتقلب وتذهب به الأفكار وأنكرت خادمه حاله فسألته، فقال: بهرت لأمر لا أدري ما أقول فيه. فقالت له: ما هو؟ فقال: شخص له ذكر وفرج كيف يكون حاله في الميراث قالت له الأمة ورثه من حيث يبول ففعلها وأصبح فعرضها عليهم فرضوا بها. وجاء الإسلام على ذلك وقضى بذلك علي - كرم الله وجهه - (إنه عليهم) بمصالح العباد (قديين) على تكوين ما يشاء. كان من الكفار خوص في معنى تكليم الله موسى، فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التجسيم. فنزلت. وقيل: كانت قريش تقول: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما يكلمه موسى ونظر إليه فقال لهم الرسول - عليه السلام - لم ينظر موسى إلى الله فنزلت (وما كان لبشر أن يكلمه الله) بياناً لصورة تكليم الله عباده. أي: ما ينبغي ولا يمكن لبشر إلا يوحي إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام<sup>(٢)</sup>. قال مجاهد: «أو النفث في القلب»<sup>(٣)</sup>. وقال النقاش: «أو وحي في المنام». وقال النخعي: «كان في الأنبياء من يحظ له في الأرض أو بأن يسمعه كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا حيزاً كموسى عليه السلام. وهذا معنى (من وراء حجاب) أي: من خفاء عن المتكلم لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه، وليس كالحجاب في المشاهد أو بأن يرسل إليه ملكاً يشافهه بوحى الله تعالى» قاله ابن عطية. وقال الزمخشري: «وما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على ثلاثة أوجه، إما على طريق الوحي وهو الإلهام. والقذف في القلب. والمنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم - عليه السلام - في ذبح ولده» وعن مجاهد: «أوحى الله الزبور إلى داود - عليه السلام - في صدره». قال عبيد ابن الأبرص:

وَأَوْحَى إِلَيَّ اللَّهُ أَنْ قَدْ تَسَاءَمَرُوا بِإِسْنِ أَبِي أَوْفَى فَقَمْتُ عَلَى رَجُلٍ<sup>(٤)</sup>

أي: ألهمني وقذف في قلبي. وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلفه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي. وقوله (من وراء حجاب) مثل. أي: كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء حجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه. وذلك كما كلم الله موسى ويكلم الملائكة. وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى» انتهى. وهو على طريق المعتزلة في استحالة رؤية الله تعالى، ونفى الكلام الحقيقي عن الله، وكل هذه الأقسام الثلاثة يصدق عليها أنها وحي. وخص الأول باسم الوحي هنا، لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام. يقع دفعة واحدة فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى. وقيل (وحيًا) كما أوحى إلى الرسل بواسطة

(١) وحكى ابن الأعرابي: امرأة عقيم بغيرها: لا تلد.

(٢) انظر الوسيط ٤٠ خ.

(٣) انظر الوسيط ٤٠ خ.

(٤) البيت في روح المعاني (٥٤/٢٥).

الملائكة (أو يرسل رسولاً) أي : نبياً كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم . حكاه الزمخشري وترك تفسير (أو من وراء حجاب) ومعناه : في هذا القول كما كلم محمداً وموسى - ﷺ - وقرأ الجمهور (حجاب) مفرداً وابن أبي عمير (حُجَب) جمعاً . والجمهور (أو يرسل رسولاً فيوحي) وقرأ الجمهور بنصب الفعلين عطف (أو يرسل) على المضمرة الذي يتعلق به من وراء حجاب تقديره أو يكلمه من وراء حجاب . وهذا المضمرة معطوف على (وحيّاً) والمعنى : إلا بوحي ، أو سماع من وراء حجاب . أو إرسال رسول فيوحي ذلك الرسول إلى النبي الذي أرسل عنه بإذن الله ما يشاء . ولا يجوز أن يعطف (أو يرسل) على (أن يكلمه الله) لفساد المعنى . وقال الزمخشري<sup>(١)</sup> : «وحيّاً وأن يرسل مصدران واقعان موقع الحال ، لأن (أن يرسل) في معنى إرسالاً (من وراء حجاب) ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله : ﴿وعلى جنوبهم﴾ [آل عمران : ١٩١] والتقدير : وما صح أن يكلم أحد إلا موحيّاً ، أو مسمعاً من وراء حجاب . أو مرسلأ . انتهى . أما وقوع المصدر موقع الحال فلا ينقاس ، وإنما قاله العرب . وكذلك لا يجوز : جاء زيد بكاءً تريد باكيّاً . وقاس منه المبرد ما كان منه نوعاً للفعل ، نحو : جاء زيد مشياً أو سرعة . ومنع سبويه أن يقع أن والفعل المقدر بالمصدر موقع الحال ، فلا يجوز نحو : جاء زيد أن يضحك . في معنى ضحكاً الواقع موقع ضاحكاً ، فجعله (وحيّاً) مصدرأ في موضع الحال مما لا ينقاس . (وأن يرسل) في معنى إرسالاً الواقع موقع مرسلأ ، ممنوع بنص سبويه ، وقرأ نافع ، وأهل المدينة (أو يرسل رسولاً فيوحي) بالرفع فيهما فخرج على إضمار «هو يرسل» . أو على ما يتعلق به (من وراء) إذ تقديره : أو يسمع من وراء حجاب . (وحيّاً) مصدر في موضع الحال عطف عليه ذلك المقدر المعطوف عليه (أو يرسل) والتقدير : إلا موحيّاً ، أو مسمعاً من وراء حجاب . أو مرسلأ . وإسناد التكلم إلى الله بكونه أرسل رسولاً مجاز . كما تقول : نادي الملك في الناس بكذا وإنما نادى الريح الدائر في الأسواق . نزل ما كان بواسطة منزلة ما كان بغير واسطة ، قال ابن عطية : «وفي هذه الآية دليل على أن الرسالة من أنواع التكلم وأن الخالف الرسل كانت إذا حلف أن لا يكلم إنساناً فأرسل إليه وهو لم ينو المشافهة وقت يمينه» . انتهى . (إنه عليّ) أي : علي عن صفات المخلوقين (حكيم) تجري أفعاله على ما تقتضيه الحكمة يكلم بواسطة وبغير واسطة . (وكذلك أوحينا) أي : مثل ذلك الإيحاء الفصل أوحينا (إليك) إذ كان - عليه الصلاة والسلام - اجتمعت له الطرق الثلاثة ، النفث في الروح ، والمنام ، وتكليم الله له ، حقيقة ليلة الإسراء . وإرسال رسول إليه . وهو جبريل . وقيل (كما أوحينا) إلى الأنبياء قلبك (أوحينا إليك روحاً من أمرنا) قال ابن عباس : «النبوة» ، وقال السدي ، «الوحي» وقال قتادة : «رحمة» ، وقال الكلبي : «كتاباً» ، وقال الربيع : «جبريل» ، وقيل : القرآن . وسمى ما أوحى إليه روحاً ، لأن به الحياة من الجهل . وقال مالك بن دينار : «يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم فإن القرآن ربيع القلوب كما أن العشب ربيع الأرض» . (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) توقيف على عظم المنة وهو - ﷺ - أعلم الناس بها . وعطف (ولا الإيمان) على (ما الكتاب) وإنما معناه : الإيمان الذي يدركه السمع ، لأنه لنا أشياء من الإيمان لا تعلم إلا بالوحي . أما توحيد الله وبراهته عن النقائص ، ومعرفة صفاته العلاء ، فجميع الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - عالمون ذلك ، معصومون أن يقع منهم زلل في شيء من ذلك ، سابق لهم علم ذلك قبل أن يوحى إليهم وقد أطلق الإيمان على الصلاة في قوله : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة : ١٤٣] إذ هي بعض ما يتناولها الإيمان . ومن طالع سير الأنبياء من نشأهم إلى مبعثهم تحقق عنده أنهم معصومون من كل نقیصة ، موحدون لله منذ نشؤوا ، قال الله تعالى في حق يحيى عليه السلام ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ [مريم : ١٢] ، قال معمر : «كان ابن سنتين أو ثلاث» ، وعن أبي العالية «(ما كنت تدري) قيل الوحي أن تقرأ القرن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان» ، وقال القاضي «(ولا الإيمان) الفرائض والأحكام» ، قال : «وكان قبل مؤمناً بتوحيد الله ، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدركها قبل ، فزاد بالتكليف إيماناً» ، وقال القشيري : «يجوز إطلاق الإيمان على تفاصيل الشرع» ، وقال الحسين بن الفضل : «هو على حذف مضاف .



أي: ولا أهل الإيمان من الذي يؤمن أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقال علي بن عيسى: «إذ كنت في المهدي». وقيل (ما الكتاب) لولا إنعامنا عليك (ولا الإيمان) لولا هدايتنا لك. وقيل: أي كنت من قوم أميين، لا يعرفون الإيمان ولا الكتاب فتكون أخذت ما جتتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم (ما الكتاب) جملة استفهامية. مبتدأ وخبر. وهي في موضع نصب بـ (تدري) وهي معلقة، (ولكن جعلناه نوراً) يمتثل أن يعود إلى قوله (روحاً) وإلى (كتاب) وإلى (الإيمان) وهو أقرب مذكور. وقال ابن عطية: «عائد على (الكتاب)». انتهى. وقيل: يعود إلى الكتاب والإيمان معاً، لأن مقصدهما واحد. فهو نظير: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢] وقرأ الجمهور (لَتَهْدِي) مضارع هدى مبنياً للفاعل. وحوشب مبنياً للمفعول إجابة سؤاله - عليه الصلاة والسلام - (اهدنا الصراط المستقيم)، وقرأ ابن السميعة (لَتَهْدِي) بضم التاء وكسر الدال. وعن الجحدري مثلها. ومثل قراءة حوشب، (صراط مستقيم) قال علي: «هو القرآن» وقيل: الإسلام. (ألا إلى الله تصير الأمور) أخبر بالمضارع، والمراد به الديمومة، كقوله: زيد يعطي ويمنع. أي: من شأنه ذلك، ولا يراد به حقيقة المستقبل، أي: ترد جميع أمور الخلق إليه تعالى يوم القيامة فيقضي بينهم بالعدل. وخص ذلك بيوم القيامة، لأنه لا يمكن لأحد أن يدعي فيه لنفسه شيئاً. قاله الفراء.

تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن وأوله:

سورة الزخرف



فهرس الجزء السابع

من البحر المحيط



الآيات : ٤٦- ٥٥ ..... ١٥٠

الآيات : ٥٦- ٦٩ ..... ١٥٢

### تفسير سورة الروم

الآيات : ١- ١٦ ..... ١٥٦

الآيات : ١٧- ٢٥ ..... ١٦١

الآيات : ٢٦- ٣٢ ..... ١٦٤

الآيات : ٣٣- ٣٩ ..... ١٦٨

الآيات : ٤٠- ٤٥ ..... ١٧٠

الآيات : ٤٦- ٥٣ ..... ١٧٢

الآيات : ٥٤- ٦٠ ..... ١٧٥

### تفسير سورة لقمان

الآيات : ١- ١١ ..... ١٧٨

الآيات : ١٢- ١٩ ..... ١٨١

الآيات : ٢٠- ٢٨ ..... ١٨٤

الآيات : ٢٩- ٣٤ ..... ١٨٨

### تفسير سورة السجدة

الآيات : ١- ١٢ ..... ١٩١

الآيات : ١٣- ٢٢ ..... ١٩٦

الآيات : ٢٣- ٣٠ ..... ١٩٩

### تفسير سورة الأحزاب

الآيات : ١- ٥٨ ..... ٢٠١

الآيات : ٥٩- ٧٣ ..... ٢٣٩

### تفسير سورة سبأ

الآيات : ١- ٩ ..... ٢٤٧

### تفسير سورة الشعراء

الآيات : ١- ١٠٤ ..... ٣

الآيات : ١٠٥- ٢٢٧ ..... ٢٦

### تفسير سورة النمل

الآيات : ١- ٤٤ ..... ٤٨

الآيات : ٤٥- ٩٣ ..... ٧٦

### تفسير سورة القصص

الآيات : ١- ٦ ..... ٩٩

الآيات : ٧- ٩ ..... ١٠٠

الآيات : ١٠- ١٤ ..... ١٠١

الآيات : ١٥- ٢١ ..... ١٠٤

الآيات : ٢٢- ٢٩ ..... ١٠٧

الآيات : ٣٠- ٣٥ ..... ١١١

الآيات : ٣٦- ٤٣ ..... ١١٤

الآيات : ٤٤- ٥٠ ..... ١١٦

الآيات : ٥١- ٥٧ ..... ١١٩

الآيات : ٥٨- ٦١ ..... ١٢١

الآيات : ٦٢- ٧٣ ..... ١٢٢

الآيات : ٧٤- ٨٢ ..... ١٢٥

الآيات : ٨٣- ٨٨ ..... ١٣١

### تفسير سورة العنكبوت

الآيات : ١- ١٣ ..... ١٣٤

الآيات : ١٤- ٢٣ ..... ١٤٠

الآيات : ٢٤- ٣٥ ..... ١٤٣

الآيات : ٣٦- ٤٥ ..... ١٤٧

٣٧٨	..... الآيات : ٢٦ - ٤٠	٢٥١	..... الآيات : ١٠ - ١٤
٣٨٣	..... الآيات : ٤١ - ٤٨	٢٥٨	..... الآيات : ١٥ - ٢١
٣٨٦	..... الآيات : ٤٩ - ٦٦	٢٦٣	..... الآيات : ٢٢ - ٣٣
٣٩٠	..... الآيات : ٦٧ - ٨٨	٢٧١	..... الآيات : ٣٤ - ٤٣
	<b>تفسير سورة الزمر</b>	٢٧٥	..... الآيات : ٤٤ - ٥٤
٣٩٥	..... الآيات : ١ - ٣١		<b>تفسير سورة فاطر</b>
٤٠٨	..... الآيات : ٣٢ - ٧٥	٢٨٢	..... الآيات : ١ - ٣٥
	<b>تفسير سورة غافر</b>	٣٠٠	..... الآيات : ٣٦ - ٤١
٤٢٦	..... الآيات : ١ - ٦٥	٣٠٤	..... الآيات : ٤٢ - ٤٥
٤٥٣	..... الآيات : ٦٦ - ٧٦	٣٠٧	..... تفسير سورة يس
٤٥٥	..... الآيات : ٧٧ - ٨٥		<b>تفسير سورة الصافات</b>
٤٥٩	..... تفسير سورة فصلت	٣٣٤	..... الآيات : ١ - ٩٨
	<b>تفسير سورة الشورى</b>	٣٥٢	..... الآيات : ٩٩ - ١٨٢
٤٨٤	..... الآيات : ١ - ٣١		<b>تفسير سورة ص</b>
٤٩٦	..... الآيات : ٣٢ - ٤٥	٣٦٥	..... الآيات : ١ - ١٤
٥٠١	..... الآيات : ٤٥ - ٥٣	٣٧١	..... الآيات : ١٥ - ٢٥



